

اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام (اليونسكو)

تاريخ إفريقيا العام

المجلد الأول

المنهجية وعصر ما قبل التاريخ
في إفريقيا

المشرف على المجلد: ج. كي - زيربو



جين أفريك / اليونسكو



Bibliotheca Alexandrina



0850849

تاريخ أفريقيا العام

المجلد الأول

أفريقيا وعشيرة ما قبل التاريخ في أفريقيا

إشراف: ج. أكلي - زيريه

المجلد الثاني

أفريقيا القديمة

إشراف: ج. مختار

المجلد الثالث

أفريقيا من القرن السابع إلى القرن الخامس عشر

إشراف: م. القاسبي

المجلد الرابع

أفريقيا من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر

إشراف: د. ت. نياقي

المجلد الخامس

أفريقيا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر

إشراف: ب. أ. أوجوت

المجلد السادس

القرن التاسع عشر في أفريقيا جنوب الصحراء

إشراف: ج. ف. آدي أجايي

المجلد السابع

أفريقيا من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين

إشراف: أ. آدو بواهي

المجلد الثامن

أفريقيا من القرن العشرين إلى القرن الحادي والعشرين

إشراف: ع. مزر وعبي

تاريخ إفريقيا العام

اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام (اليونسكو)

تاريخ إفريقيا العام

المجلد الأول

المنهجية وعصر ما قبل التاريخ
في إفريقيا

المشرف على المجلد: ج. كي - زايرو

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
468	رقم
625	رقم
٧٥٥٧	رقم التسجيل

Library of the Alexandria
University
Alexandria, Egypt
1975

جين أفريك / اليونسكو

© اليونسكو ١٩٨٠
الترقيم الدولي الموحد للكتب

ISBN Jeune Afrique 2-85258-314-3
ISBN UNESCO 92-3-201707-5

المحتويات

٩	مقدمة، بقلم ا. م. امبو
	عرض المشروع
١٥	بقلم ب. ا. أوجوت
١٨	التاريخ
	مقدمة عامة
١٩	ج. كى - زيربو
	الفصل الأول
	تطور التدوين التاريخي في أفريقيا
٤١	ج. د. فاج
	الفصل الثاني
	مكانة التاريخ في المجتمع الأفريقي
٥٩	بويوهاما وج. كى - زيربو
	الفصل الثالث
	الاتجاهات الحديثة في البحوث التاريخية الأفريقية وإسهامها في التاريخ بصورة عامة
٧١	ب. د. كورتين
	الفصل الرابع
	المصادر والتقنيات الخاصة بالتاريخ الأفريقي - لمحة عامة
٨٩	ت. أوبنجا
	الفصل الخامس
	المصادر المكتوبة السابقة للقرن الخامس عشر
١٠٣	هـ. جعيط

الفصل السادس	
المصادر المكتوبة بدءاً من القرن الخامس عشر	
١. هريك	١٢٧
الفصل السابع	
المأثور المنقول ومنهجيته	
ج. فانسينا	١٥٥
الفصل الثامن	
المأثور الحي	
أ. هياتي با	١٧٧
الفصل التاسع	
علم الآثار الأفريقي وتقنياته بما في ذلك أساليب تحديد تاريخ الآثار	
ز. اسكندر	٢١٣
الفصل العاشر	
أولاً — اللغات والتاريخ الأفريقي	
ب. ديانى	٢٤١
ثانياً — النظريات المتعلقة بـ «العروق» وتاريخ أفريقيا	
ج. كى — زيربو	٢٧١
الفصل الحادي عشر	
الهجرات والاختلافات السلوكية واللغوية	
د. أولدروج	٢٨١
الفصل الثاني عشر	
أولاً — تصنيف لغات أفريقيا	
ج. هـ. كرينبك	٣٠١
ثانياً — خريطة لغوية لأفريقيا	
د. دالبي	٣١٩
الفصل الثالث عشر	
الجغرافيا التاريخية: المظاهر الطبيعية	
س. دابارا	٣٢٧
الفصل الرابع عشر	
الجغرافيا التاريخية: الجوانب الاقتصادية	
١. مابوكونجي	٣٤٥
الفصل الخامس عشر	
مناهج تداعيل العلوم المعتمدة في هذا الكتاب	
ج. كى — زيربو	٣٦١

	الفصل السادس عشر
	الاطار الزمني للمراحل المطرية والجمودية بأفريقيا
٣٧٣	أولا - ر. سعيد
٣٨٧	ثانيا - هـ. فور
	الفصل السابع عشر
	ظهور الإنسان: المشاكل العامة
٤١٣	أولا - وى كوبنس
٤٣٥	ثانيا - ل. بالوت
	الفصل الثامن عشر
	البشرىات الأحفورية الإفريقية
٤٥١	ر. لاىكى
	الفصل التاسع عشر
	أفريقيا الشرقية قبل التاريخ
٤٦٧	ج. أ. غ. سوتن
	الفصل العشرون
	أفريقيا الجنوبية قبل التاريخ
٥٠١	ج. د. كلارك
	الفصل الحادي والعشرون
	ما قبل تاريخ أفريقيا الوسطى
٥٣٣	أولا - ر. دي بايل دي هرمنس
	ثانيا - ف. فان نوتن
٥٥٣	بالاشتراك مع: ب. دى مارى، ج. ميرسن، ك. ونغامويا. و. روش
	الفصل الثاني والعشرون
	أفريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ
٥٧٣	ل. بالوت
	الفصل الثالث والعشرون
	الصحراء في ما قبل التاريخ
٥٩١	هـ. ج. هوغو
	الفصل الرابع والعشرون
	أفريقيا الغربية في ما قبل التاريخ
٦١٥	ث. شو
	الفصل الخامس والعشرون
	وادي النيل قبل التاريخ
٦٤١	ف. دى بونو

الفصل السادس والعشرون	
الفن الأفريقي، في ما قبل التاريخ	
ج. كى - زيربو	٦٦٥
الفصل السابع والعشرون	
بداية التقنيات الفلاحية وتطورها وانتشارها	
ر. بورتيروج. بارو	٦٩٧
الفصل الثامن والعشرون	
اختراع المعادن وانتشارها وتطور النظم الاجتماعية الى القرن الخامس قبل الميلاد	
ج. فركوتر	٧١٧
الخاتمة	
من الطبعة الخام الى انشائية متحررة	
ج. كى - زيربو	٧٤٧
أعضاء اللجنة العلمية الدولية للكتابة تاريخ أفريقيا العام	٧٥٩
بيانات عن مؤلفي المجلد الأول	٧٦١
ببليوغرافيا عامة	٧٦٥
المختصرات المستخدمة في الببليوغرافيا	
كشاف	٨٢٩

ملاحظات: ساهبت السيدة كاترين بيرلس في تنظيم الفصول الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين والحادي والعشرين والرابع والعشرين
أدخلت السيدة هيلين روش بعض اضافات على الفصل التاسع عشر

المجلد الأول من الطبعة العربية من تاريخ أفريقيا العام

الترجمة: من المقدمة الى الفصل الرابع عشر: السيد م. السويسي، كلية الآداب بجامعة تونس.
من الفصل الخامس عشر الى الخاتمة: السيد ر. الحمزاوي، تونس
المراجعة: من المقدمة إلى الفصل الرابع عشر: السيد ع. الهنيسي: المدير العام للأثار، دمشق
من الفصل الخامس عشر الى الخاتمة: السيد ح. بنعيسى، الجزائر

نظرت لجنة القراءة العربية، المتفرعة من اللجنة العلمية الدولية، في جميع فصول المجلد ونقحتها.
وتتألف لجنة القراءة هذه من السادة: م. الفاسي (المغرب)؛ د. ا. طالب (سنغافورة)؛ د. ه. جعيط (تونس).

مقدمة

السيد أحمد مختار أمبو
المدير العام
لليونيسكو

لقد ظلت الأساطير والآراء المسبقة بمختلف صورها تخفي عن العالم لزمن طويل التاريخ الحقيقي لأفريقيا، فقد اعتبرت المجتمعات الأفريقية مجتمعات لا يمكن أن يكون لها تاريخ، وعلى الرغم من البحوث الهامة التي اضطلع بها منذ العقود الأولى من هذا القرن رواد مثل ليفرو بينيوس، وموريس ديلافوس، وأرتورو لابر يولا، فإن عددا كبيرا من الأشخاص غير الأفريقيين المتشبهين بمسلمات معينة قد ظلوا ينحازون إلى القول بأن هذه المجتمعات لا يمكن أن تكون موضوعا للدراسة العلمية، مستندين في قولهم هذا بصفة خاصة إلى نقص المصادر والوثائق المكتوبة.

وإذا كان من الممكن أن تعتبر الألياذة والأوديسا بحق مصادر أساسية لتاريخ اليونان القديمة، فإن ذلك كان يقابله انكار كل قيمة للتراث الأفريقي المنقول، الذي يعتبر بمثابة ذاكرة تنتظم في نسيجها الكثير من الأحداث التي تميزت بها حياة شعوب أفريقيا. وقد اقتصر الاهتمام عند كتابة تاريخ جزء كبير من أفريقيا على مصادر خارجة عن أفريقيا، فانتفى ذلك إلى رؤى لا تكشف عن المسار المرجح لشعوب أفريقيا عبر تاريخها، بل تعبر عن رأي البعض في الطريق الذي لا بد وأن يكون هذا المسار قد سلكه. ونظرا لأن «العصر الوسيط» الأوروبي هو الذي كان يتخذ في الغالب منطلقا للدراسة ونقطة للحالة، فإن أساليب الانتاج والعلاقات الاجتماعية والنظم والمؤسسات السياسية في أفريقيا لم تكن تدرس إلا من منطلق المقارنة مع ماضي أوروبا.

وقد كان ذلك في الواقع رفضا للاعتراف بأن الأفريقي مبدع لثقافات أصيلة ازدهرت واستمرت تسلك عبر القرون مسالك خاصة بها، لا يستطيع المؤرخ أن يدركها إلا إذا تخلى عن بعض آرائه المسبقة، والا إذا جدد منهجه.

كذلك يبدو أن القارة الأفريقية لم تعتبر قط كيانا تاريخيا له ذاتيته المتميزة. وإنما انصب التأکید

بصفة خاصة على كل ما من شأنه أن يعزز الرأي القائل بوجود انفصام منذ الأزل بين «أفريقيا بيضاء» و «أفريقيا سوداء» تجهل كل منها الأخرى. وكثيرا ما صورت الصحراء الكبرى على أنها فضاء منيع يحول دون امتزاج الاثنيات والشعوب وتبادل السلع والمعتقدات والتقاليد والعادات والأفكار بين المجتمعات التي تقوم على الجوانب المختلفة من تلك الصحراء. وبذلك رسمت الدراسات حدودا مصطنعة صارمة بين حضارتي مصر القديمة والنوبة وبين حضارات الشعوب القاطنة جنوبي الصحراء.

حقيقة ان تاريخ أفريقيا شمالي الصحراء كان أكثر ارتباطا بتاريخ حوض البحر المتوسط من تاريخ أفريقيا جنوبي الصحراء، ولكن من المعترف به الآن على نطاق واسع أن حضارات القارة الأفريقية — عبر لغاتها وثقافتها المتنوعة — تشكل بدرجات مختلفة الروافد التاريخية لمجموعة من الشعوب والمجتمعات التي تربط بينها روابط عريقة.

وهناك ظاهرة أخرى أضرت كثيرا بالدراسة الموضوعية للماضي الأفريقي. وأنا أعني هنا ما اقترنت به تجارة الرقيق والاستعمار من ظهور أفكار عنصرية جامدة عن الأنجناس تولد عنها الازدراء وعدم الفهم، وكانت من شدة الرسوخ بحيث امتد تشوئها الى مفاهيم كتابة التاريخ ذاتها. فنذ أن بدأ استخدام عبارات مشحونة بأفكار معينة، مثل «البيض» و «السود» تمييز نوعين عامين من البشر هما المستعمرون منظورا اليهم كنوع ممتاز من ناحية وأهالي المستعمرات من ناحية أخرى، صار لزاما على الأفريقيين أن يقاوموا عبودية مزدوجة، اقتصادية وسيكولوجية. أما وقد صار الأفريقي موسوما بلون بشرته، وتحول الى سلعة بين السلع، وسخر للأعمال التي لا تتطلب الا القوة العضلية، فقد أصبح يمثل في أذهان قاهريه ماهية جنسية خيالية، هي ماهية الزنجي المنحطة التي توهمها. وأدى هذا التصنيف الزائف الى الهبوط بتاريخ الشعوب الأفريقية في عقول الكثيرين الى مستوى التاريخ الاثنى، الذي لا يمكن فيه تجنب التزييف في تقدير الوقائع التاريخية والثقافية.

وقد تطور الوضع كثيرا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد أن أخذت البلاد الأفريقية، وقد نالت استقلالها، تشارك مشاركة فعالة في حياة المجتمع الدولي وفي العلاقات المتبادلة التي هي أساس حياة هذا المجتمع، فزايده حرص المؤرخين على دراسة أفريقيا بزياد من الدقة والموضوعية والتفتح الذهني، وأخذوا يستعينون بالمصادر الأفريقية ذاتها، وان لم يمثل ذلك بطبيعة الحال من التحفظات التي رسخت بحكم العادة. أما الأفريقيون أنفسهم فقد بدأوا يشعرون اذ يمارسون حقهم في المبادرة التاريخية بحاجة عميقة الى أن يعيدوا الى مجتمعاتهم صفتها التاريخية على أسس راسخة.

ومن هنا كانت أهمية «التاريخ العام لأفريقيا»، الذي تبدأ اليونيسكو اصداره في ثمانية مجلدات.

ولقد راعى الأخصائيون الذين جاءوا من بلاد عديدة وساهوا في المؤلف أن يرسوا أولا أسسه النظرية والمنهجية. ومن ثم حرصوا على أن يعيدوا النظر في التبسيطات المخلة التي تنجنت عن تصور خطى ضيق للتاريخ العالمي، وعلى أن يبرزوا من جديد حقيقة الأحداث التي وقعت كلما كان ذلك ضروريا وبممكننا. وجدوا في استخلاص المعطيات التاريخية التي تيسر تقصي تطور مختلف الشعوب الأفريقية بما لها من خصوصية اجتماعية ثقافية.

وفي هذه المهمة التي تتميز بالجسامة والتعقيد والعسر نظرا لتنوع المصادر وتشتت الوثائق، سارت اليونسكو على مراحل. فكانت المرحلة الأولى (١٩٦٥ - ١٩٦٩) هي مرحلة الأعمال الخاصة بتوثيق الكتاب وتحفظه، حيث تم القيام بأنشطة ميدانية في الموقع: ما بين حملات جمع التراث المنقول، وإنشاء لمراكز التوثيق الإقليمية المخصصة لهذا التراث، وجمع للمخطوطات غير المنشورة بالعربية و «العجمية» (اللغات الأفريقية المكتوبة بالحروف العربية) وحصر للمخطوطات، واعداد لدليل لمصادر تاريخ أفريقيا بالاستناد الى محفوظات ومكتبات البلدان الأوربية، وهو الدليل الذي نشر في تسعة مجلدات. ومن ناحية أخرى، نظمت للأخصائيين لقاءات تولى فيها الأفريقيون وغيرهم من القارات الأخرى مناقشة القضايا المنهجية وحددوا الخطوط العريضة للمشروع بعد فحص دقيق للمصادر المتاحة.

ثم كانت مرحلة ثانية خصصت لوضع الكتاب في صورته وتقسيمه وتفصيله، وامتدت من ١٩٦٩ الى ١٩٧١. وفي هذه الفترة اضطلع اجتماعان دوليان لخبراء عقدا في باريس (١٩٦٩) وأديس أبابا (١٩٧٠) بدراسة وتحديد المشكلات التي تتعلق بصياغة الكتاب ونشره، وهي: ظهوره في ثمانية مجلدات، وطبعه طبعة رئيسية بالانجليزية والفرنسية والعربية، وكذلك ترجمته الى لغات أفريقية مثل السواحيلية والهوسا والبيول واليوروبا واللينجالا. ومن المتوقع كذلك اعداد ترجمات الألمانية والروسية والبرتغالية والاسبانية والسويدية، فضلا عن اصدار طبعات مختصرة ميسرة للجمهور الأفريقي والدولي على نطاق أوسع.

وخصصت المرحلة الثالثة للصياغة والطبع. وقد بدأت بتشكيل لجنة علمية دولية من ٣٩ عضوا، ثلثاهم من الأفريقيين والثلث الآخر من غير الأفريقيين، عليها أن تنهض بالمسؤولية الفكرية عن الكتاب.

ولما كان المنهج المتبع يتسم بالجمع بين عدة تخصصات، فقد تميز بتعدد المناحي النظرية وتعدد المصادر. وينبغي أن يذكر في مقدمة ذلك علم الآثار الذي يفتح كثيرا من المغاليق في تاريخ الثقافات والحضارات الأفريقية، والذي بفضل أصبح من المتفق عليه اليوم أن أفريقيا كانت على أرجح الاحتمالات مهد البشرية، وأنها شهدت احدى أوائل الثورات التكنولوجية في التاريخ وهي ثورة العصر الحجري الحديث، وأنها بفضل وجود مصر فيها كانت موطننا لازدهار حضارة من أكثر الحضارات القديمة تألقا في العالم. ثم ينبغي بعد ذلك ذكر التراث المنقول، فقد استبين به في الماضي، لكنه يبدو اليوم مصدرا ثميناً من مصادر تاريخ أفريقيا، يتيح تتبع مسيرة شعوبها المختلفة في المكان والزمان، ومن ثم تفهم الرؤيا الأفريقية للعالم من داخلها، وأدراك السمات الأصلية للقيم التي تركز عليها ثقافات القارة ومؤسساتها.

واننا لنشعر بالامتنان للجنة العلمية الدولية المسؤولة عن هذا التاريخ العام لأفريقيا ولقررها وللمشرفين على مختلف المجلدات والفصول ولؤلفيها لأنهم ألقوا ضوءا أصيلا على ماضي أفريقيا في مجموعها، وتجنبوا كل نزعة قطعية في دراسة المسائل الجوهرية، مثل تجارة الرقيق التي كانت «استنزافا لا ينقضي» نتجت عنه عملية من أقسى عمليات الترحيل في تاريخ الشعوب وأدى الى تفرغ القارة من جزء من قواها الحيوية، في حين أنه لعب دورا حاسما في الازدهار الاقتصادي

والتجاري لأوروبا ومثل الاستعمار بكل ما ترتب عليه من نتائج في نواحي الاقتصاد والسكان والنواحي النفسية والثقافية؛ ومثل دراسة العلاقات بين أفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى والعالم العربي؛ وعملية إزالة الاستعمار والبناء الوطني التي مازالت تحرك العقول والعواطف في اناس لا يزالون أحياء ولا يزال بعضهم يمارس نشاطه كاملا. وقد عولجت جميع هذه المسائل بروح الحرص على التزام الأمانة والدقة، وهما ليسا أهون ما في هذا الكتاب من مزاي؛ إذ أن له كذلك مزية كبرى، هي أنه يطلعنا على آخر تطورات معارفنا عن أفريقيا ويعرض الثقافات الأفريقية من وجهات نظر شتى، و يقدم رؤيا جديدة للتاريخ، فيبرز لنا بذلك مناطق النور والظل دون أن يخفي اختلاف الآراء بين العلماء.

ان هذا الكتاب الجديد إذ يبين قصور مناهج البحث التي ظلت تستخدم زمنا طويلا في دراسة أفريقيا، فإنه يدعو الى تجديد وتعميق تناولنا للإشكالية المزدوجة المتعلقة بكتابة التاريخ وبالذاتية الشفافية، وما يجمع بينهما من روابط متبادلة. وهو مثل أي مؤلف تاريخي قم يفتح الطريق لبحوث جديدة متعددة.

وقد حدا ذلك باللجنة العلمية الدولية بدورها الى أن تحصر — بالتعاون الوثيق مع اليونسكو — على اجراء دراسات تمكيلية للتعلم في عدد من المسائل التي تتيح رؤية أكثر وضوحا لبعض الجوانب في ماضي أفريقيا. ومن شأن هذه البحوث التي تطبع في سلسلة «اليونسكو» دراسات ووثائق — التاريخ العام لأفريقيا» أن تكون تكملة مفيدة لهذا الكتاب. وسوف يتابع هذا الجهد كذلك عن طريق اعداد دراسات عن التاريخ الوطني أو شبه الاقليمي.

ان هذا التاريخ العام يلقي الضوء في نفس الوقت على وحدة تاريخ أفريقيا وعلى علاقاتها بالقارات الأخرى — وخاصة الأمر يكتن ومنطقة الكاريبي. فلقد دأب بعض المؤرخين لفترة طويلة على عزل مظاهر التعبير الابداعي لدى أحفاد الأفريقيين في الأمر يكتن وتصنيفها تحت عبارة جامعة غريبة باسم الخصائص الأفريقية. أو «الأفريقيات». وغنى عن الذكر أن مؤلفي الكتاب الذي نحن بصدده لا يعتقدون هذه النظرة. فلقد رأوا الرأي الصائب في مقاومة الرقيق الذين رحلوا الى أمريكا، وفي ظاهرة «التهجين» السياسي والثقافي، وفي اشتراك أحفاد الأفريقيين دوما وعلى نطاق ضخم في كفاح حركة الاستقلال الأمريكي الأولى وفي حركات التحرير الوطنية، وأدركوا هذه الأمور على حقيقتها باعتبارها محاولات قوية لتأكيد الذاتية أسهمت في صياغة المفهوم الشامل للانسانية. وانه لمن الواضح اليوم أن التراث الأفريقي قد أثر بدرجات متفاوتة في أساليب الشعور والتفكير والتخيل والعمل لدى عدد من البلاد في نصف الكرة الغربي، كل حسب موقعه. فن جنوب الولايات المتحدة حتى شمال البرازيل مروراً بمنطقة الكاريبي، وعلى ساحل المحيط الهادي، تبدو الآثار الثقافية المنقولة عن أفريقيا واضحة في كل مكان. بل انها في بعض الحالات هي الأسس الجوهرية للذاتية الثقافية لدى عدد من أهم القطاعات بين السكان.

كما يبرز هذا المؤلف على نحو واضح ما لأفريقيا من علاقات مجنوب آسيا عبر المحيط الهندي، وما قدمته من مساهمات أفريقية لغيرها من الحضارات عن طريق العلاقات المتبادلة.

واني لم ألق اقتناع بأن ما تبذله شعوب أفريقيا من جهود لنيل استقلالها وتوطيده ولتأمين تطورها وترسيخ خصائصها الثقافية حربي بأن يتأصل في وعي تاريخي مجد يؤثر تأثيرا عميقا في حياة أصحابه ويتناقلونه جيلا بعد جيل.

وان ما تلقيته من تعليم، وما حصلته من خبرة كمعلم ورئيس، منذ بدايات الاستقلال ومنذ أول لجنة أنشئت لاصلاح برامج تعليم التاريخ والجغرافيا في بعض بلاد أفريقيا الغربية والوسطى، قد أتاح لي أن أقدر كم هو ضروري لتعليم النشء والاعلام الجمهور أن يوجد كتاب للتاريخ أعدته علماء يعرفون من الدائل مشكلات أفريقيا وأمالها، ويملكون القدرة على النظر الى القارة ككل.

ولجميع هذه الأسباب، ستعمل اليونسكو على أن ينشر هذا التاريخ العام لأفريقيا على نطاق واسع وبلغات عديدة، وعلى أن يكون أساسا لاعداد كتب للأطفال وكتب مدرسية و برامج اذاعية أو تلفزيونية، وهذا يمكن للنشء والتلاميذ والطلاب والكبار في أفريقيا وفي غيرها أن يكونوا صورة أفضل عن ماضي القارة الأفريقية وعن العوامل التي تفسر هذا الماضي، وأن يتوصلوا الى فهم أصدق لتراثها الثقافي ولاسهامها في التقدم العام للانسانية. فهذا الكتاب جدير اذن بأن يشجع التعاون الدولي ويوطد تضامن الشعوب فيما تطمح اليه من عدالة وتقدم وسلام؛ أو هذا على الأقل هو ما أرجوه بكل اخلاص.

و يبقى لي أن أعرب عن امتناني العميق لأعضاء اللجنة العلمية الدولية ومقررها والمشرفين على مختلف المجلدات وإلى المؤلفين وجميع الذين ساهموا في تحقيق هذا المشروع الضخم. فان ما قاموا به من عمل وما قدموه من مساهمة هو خير دليل على ما يمكن أن ينجزه في الاطار الدولي الذي تتيحه اليونسكو رجال جاءوا من آفاق متباينة تحفزهم نية صادقة واحدة وعزيمة واحدة الى خدمة الحقيقة الخالصة، فتمكنوا من إنهاء مشروع تكاد أهميته العلمية والثقافية أن تكون بلا حدود. كما أقدم شكري كذلك الى المنظمات والحكومات التي مكنت اليونسكو بفضل هباتها السخية من أن تصدر هذا الكتاب بلغات مختلفة وأن تكفل له ما يستحقه من انتشار عالمي النطاق في خدمة المجتمع الدولي بأكمله.

عرض المشروع

بقلم الأستاذ بثويل أ. أوجوت
رئيس اللجنة العلمية الدولية
لتحرير تاريخ أفريقيا العام

طلب المؤتمر العام لليونسكو، في دورته السادسة عشرة، من المدير العام الشروع في تحرير تاريخ عام لأفريقيا. وقد عهد بهذا العمل الضخم إلى لجنة علمية دولية أنشأها المجلس التنفيذي في ١٩٧٠.

ووفقا للنظام الأساسي للجنة، الذي اعتمدته المجلس التنفيذي لليونسكو في ١٩٧١، تتكون هذه اللجنة من ٣٩ عضوا (الثلثان من الأفريقيين والثلث الباقي من غير الأفريقيين) يشتركون في اجتماعاتها بصفتهم الشخصية و يعينهم المدير العام لليونسكو لمدة صلاحية اللجنة. وكانت المهمة الأولى للجنة تحديد الخصائص الرئيسية للمصنف. وقد حددتها في دورتها الثانية على النحو التالي:

● ان هذا التاريخ، ولئن كان يستهدف بلوغ أرفع مستوى علمي ممكن، لا يتوخى شمول كل شيء وإنما هو مصنف يجمع بين عناصر شتى دون تعصب لرأي معين، وسيتكون في أحيان كثيرة من عرض للمشكلات مع توضيح الوضع الراهن للمعارف والتيارات الكبرى للبحث، ولا يتقاعس عن التنويه عند الاقتضاء، بتباين المذاهب والآراء. وهو بذلك يهد السبيل لوضع مؤلفات لاحقة.

● تعتبر أفريقيا كلا واحدا. والغرض هو اظهار العلاقات التاريخية بين مختلف أجزاء القارة، التي غالبا ما كانت تخضع لتقسيمات فرعية كثيرة في المؤلفات التي ظهرت حتى الآن. وتحظى صلات أفريقيا التاريخية مع القارات الأخرى بالعناية التي تستحقها، وتحلل تلك الصلات من زاوية المبادلات والمؤثرات متعددة الأطراف على نحو يبرز بصورة ملائمة اسهام أفريقيا في تطور البشرية.

- تاريخ أفريقيا العام، هو قبل كل شيء، تاريخ أفكار وحضارات ومجتمعات ومؤسسات. وهو يقوم أساساً على مصادر متعددة بالغة التنوع يدخل فيها التراث المنقول والتعبير الفني.
- ينظر إلى هذا التاريخ أساساً من الداخل. ففضلاً عن كونه مصنفًا علميًا، فهو أيضاً، إلى حد بعيد انعكاس أمين لكيفية رؤية المؤلفين الأفريقيين لحضارتهم. وعلى الرغم من أعداد هذا التاريخ في نطاق دولي واستعانت به جميع البيانات العلمية المتوفرة حالياً، فإنه سيمثل أيضاً أحد العناصر الأساسية في التعرف على التراث الثقافي الأفريقي وسيبرز العوامل التي تسهم في وحدة هذه القارة. ويشكل هذا الاتجاه محور رؤية الأشياء من الداخل الجانب الجديد في هذا المصنف، ويمكنه أن يضفي عليه فضلاً عن مزاياه العلمية، قيمة كبيرة بالنسبة للأحداث الراهنة. واذ يظهر هذا التاريخ الوجه الحقيقي لأفريقيا، في عصر تيمم عليه ضروب المنافسة الاقتصادية والتقنية، فإنه يمكن أن يطرح للبحث تصوراً خاصاً للقيم الانسانية.
- وقررت اللجنة أن يصدر هذا المصنف، الذي يتناول ما يربو على ثلاثة ملايين سنة من تاريخ أفريقيا، في ثمانية مجلدات يقع كل منها في حوالي ٨٠٠ صفحة من النصوص، ويتضمن عدداً من اللوحات والصور الفوتوغرافية والخرائط والرسوم الخطية.
- ويعين مشرف رئيسي لكل مجلد يساعده، عند الاقتضاء واحد أو اثنان من المشرفين المعاونين. وتنتخب اللجنة المشرفين على المجلدات من بين أعضائها أو من غير أعضائها بأغلبية الثلثين.
- و يشارك بالمشرفين أعداد المجلدات وفقاً للقرارات التي تتخذها اللجنة وتخطط التي تضعها. ويكون المشرفون مسؤولين من الناحية العلمية أمام اللجنة أو أمام مكتبها بين دورات انعقادها، عن مضمون المجلدات وعن الصياغة النهائية للنصوص وعن الصور، وبوجه عام عن جميع الجوانب العلمية والعناية للتاريخ. ويكون المكتب هو المرجع الأخير في إقرار المخطوط النهائي. ويقوم بتسليمه للمدير العام لليونسكو عندما يرى أنه أصبح معداً للنشر. وتظل السلطة أذن منوطة باللجنة، أو بالمكتب بين دورات انعقاد اللجنة.
- ويحتوي كل مجلد على قرابة ثلاثين فصلاً. ويجري كل فصل مؤلف رئيسي يساعده عند الاقتضاء معاون أو اثنان.
- وتختار اللجنة المؤلفين بعد الاطلاع على بيانات المؤهلات والخبرة الخاصة بهم، ويفضل المؤلفون الأفريقيون بشرط أن يكونوا حائزين على المؤهلات المطلوبة. وتحرص اللجنة بوجه خاص على أن يراعى قدر المستطاع في اختيار المؤلفين أن تكون جميع مناطق القارة وكذلك جميع المناطق التي كانت لها علاقات تاريخية أو ثقافية مع أفريقيا ممثلة تمثيلاً عادلاً.
- وبعد أن يعتمد المشرف على المجلد نصوص مختلف الفصول ترسل إلى جميع أعضاء اللجنة لكي يقدموا تعليقاتهم عليها..
- وفضلاً عن ذلك، يعرض النص المرسل من المشرف على المجلد على لجنة قراءة لدراسته، وتعين هذه اللجنة من بين أعضاء اللجنة العلمية الدولية، تبعاً لاختصاصات الأعضاء، وتكلف هذه اللجنة بإجراء تحليل متعمق لمضمون الفصول وشكلها.
- و يتولى المكتب إقرار المخطوط بصورة نهائية.

وقد تبين أن هذه الاجراءات التي قد تبدو طويلة ومعقدة هي اجراءات لازمة لأنها تضمن أكبر قدر من الدقة العلمية للتاريخ العام لأفريقيا. فقد حدث فعلاً أن رفض المكتب بعض المخطوطات أو طلب إجراء تعديلات هامة لها بل وعهد باعادة تحرير الفصل الى مؤلف آخر. وأحياناً يستشار اخصائيون في فترة معينة من فترات التاريخ أو في مسألة معينة من أجل وضع المجلد في صيغته النهائية.

و يصدر المؤلف بادىء الأمر في طبعته رئيسية بالانجليزية والفرنسية والعربية وفي طبعة عادية بنفس اللغات.

وتصدر نسخة مختصرة من المؤلف بالانجليزية والفرنسية تتخذ أساساً للترجمة الى اللغات الأفريقية. وقد اختارت اللجنة العلمية الدولية اللغة السواحلية ولغة الهوسا كأول لغتين أفريقيتين يترجم إليهما المؤلف.

ومن المزمع أيضاً العمل، بقدر المستطاع، على أن ينشر تاريخ أفريقيا العام في عدة لغات واسعة الانتشار على الصعيد الدولي (ومنها الأسبانية والألمانية والإيطالية والبرتغالية والروسية والصينية واليابانية، الخ...).

فالأمير يتعلق إذن، كما نرى، بمشروع ضخم يشكل مخاطرة كبرى بالنسبة لمؤرخي أفريقيا والأوساط العلمية بوجه عام وكذلك بالنسبة لليونسكو التي تشملها برعايتها. ذلك أنه ليس من المتعذر أن نتصور مدى تعقيد مهمة مثل تحرير مصنف عن تاريخ أفريقيا يغطي في المكان قارة بأكملها وفي الزمان الأربعة ملايين عام الأخيرة و يلتزم بأرفع المعايير العلمية و يستعين كما ينبغي، بأخصائيين ينتمون الى شتى البلاد والشفافات والمذاهب الفكرية والتقاليد التاريخية. انه لمشروع قاري ودولي وجامع لفروع العلم على اوسع نطاق.

واود في النهاية أن أنوه بأهمية هذا المصنف بالنسبة لأفريقيا والعالم أجمع. ففي الوقت الذي تكافح فيه شعوب أفريقيا من أجل اتحادها وتعمل سوياً من أجل صنع مصانئها، يمكن للمعرفة الصحيحة بماضي أفريقيا وللوعي بالروابط التي توحد ما بين الأفريقيين من ناحية، وبين أفريقيا وسائر القارات من ناحية أخرى، أن تيسر الى حد بعيد التفاهم بين شعوب الأرض بل وأن تنشر على الأخص المعرفة بتراث ثقافي هو ملك للبشرية جمعاء.

بثويل . أ. أوجوت

٨ أغسطس / آب ١٩٧٩

رئيس اللجنة العلمية الدولية

لتحري تاريخ أفريقيا العام

التاريخ

لقد تقرر تدوين التواريخ الخاصة بعصر ما قبل التاريخ على النحو التالي:
— إما بالإشارة إلى الحاضر باعتبار سنة الأساس + 1950 وتكون جميع التواريخ
للبيبة بالنسبة إلى + 1950.
— أو بالإشارة إلى بداية التاريخ الميلادي وتوضع علامة + أو — أمام التاريخ
المحددة بالنسبة للتاريخ الميلادي.

أمثلة: (1) 2300 قبل الحاضر = — 350

(2) 2900 قبل الميلاد = — 2900

1800 ميلادية = + 1800

(3) القرن الخامس قبل الميلاد = القرن الخامس قبل العصر الحالي

القرن الثالث ميلادي = القرن الثالث من العصر الحالي

المنهجية، وعصر ما قبل التاريخ في أفريقيا بقلم ج. كي زيربو

مقدمة عامة

لافريقيا ه تاريخها، فلقد انقضى الزمن الذي كانت فيه أجزاء كاملة من خرائط الكرة الأرضية أو من أدلة السواحل، تمثل هذه القارة، على أنها هامشية مستعبدة، وكانت معرفة العلماء تتلخص بهذه الصيغة الاستطراذية التي تم عن غياب افريقيا: «هنا توجد أسود». وبعد الأسود، اكتشفت المناجم ذات المردود الكبير، وهذه المناسبة نفسها اكتشفت «القبائل الوطنية» التي كانت تملك هذه المناجم، إلا أنها ألحقت في حساب الأمم المستعمرة بالمناجم. وبعد «القبائل الوطنية» بدت شعوب نفذ صبرها من التين، فشرع نبضها يدق على إيقاع عموم لنضالات التحرير.

«ملاحظة للمشرف على المجلد: يصعب حتى الآن توضيح أصل كلمة أفريقيا. وقد فرضت هذه الكلمة نفسها منذ عهد الرومان في شكل «أفريقيا» الذي أعقب اللفظ اليوناني أو المصري الأصل «لبيبا» بلد الليبوا أو اللوبين المذكورين في سفر التكوين. وبعد أن كانت كلمة «أفريقيا» تدل على شاطئ شمال أفريقيا أصبحت تطبق منذ أواخر القرن الأول قبل الميلاد على القارة في جملتها. ولكن ما هو الأصل الأول لهذا الاسم؟

— يمكننا أن ندلي بالتفسيرات التالية: بدءاً بأيسرها قابلية للتصديق:

— قد يكون أصل كلمة أفريقيا اسم شعب من البربر كان يعيش جنوبي قرطاج وهو: «الأفريق» ومن ثم «أفريقيا» أو «أفريقا» للدلالة على بلاد الأفريق.

— وثمة أصل لذي آخر لكلمة افريقيا مصدره لفظان فينيقيان يعني أحدهما سنبلة، وهي رمزاً لخصوبة هذه المنطقة، والآخر «فار يكا» ويعني بلاد الفاكهة.

— وقد تكون كلمة أفريقيا مشتقة من الكلمة اللاتينية «أفريكا» (شمش) أو من الكلمة اليونانية «أفريكيا» (خال من البرد).

— وقد يكون أحد الأصول الأخرى المصدر الفينيقي «فرق» الذي يعبر عن فكرة الانفراق أي التشتت، ومن الجدير بالذكر أن هذا المصدر ذاته يوجد في عدد من اللغات الأفريقية (انجبارا).

— في اللغتين السنسكريتية والهندية يدل المصدر «أبارا» أو «أفريقا» على ما يقع، جغرافياً، «بعد» أي الغرب، فأفريقيا هي القارة الغربية.

— ومن رواية تاريخية نقلها ليون الأفريقي أن قائداً منياً يدعى «أفريقوس» غزا شمال أفريقيا في القرن العشرين قبل الميلاد وشيد مدينة تسمى «أفريقية». ولكن الأرجح هو أن المصطلح العربي أفريقيا هو المرادف بالحروف العربية لكلمة أفريقيا.

— وذهب بعضهم إلى حد القول بأن «أفريقيا» كان من أحقاد إبراهيم ومن رفاق هرقل!

ان تاريخ افريقيا كتاريخ البشرية جمعاء هو تاريخ انبعاث الوعي، ومن الواجب أن تعاد كتابة تاريخ افريقيا، اذ هو حتى الآن كثيرا ما كان مقتعاً، ومتموها، ومشوها، وبالضرورة أي بسبب الجهل أو المصلحة الخاصة.

وهذه القارة التي أنهكتها قرون من الضيم، قد شهدت أجيالا من المسافرين ومن النخاسين، ومن الرواد المستكشفين ومن المبشرين الدينبيين، ومن الحكام الطغاة، ومن العلماء من كل الفئات، يمثلون صورتها في شناعة البؤس والوحشية واللامسؤولية والهمجية. وأسقطت هذه الصورة، وتكاملت الى ما لا نهاية له مع الزمن مبررة بذلك واقع الحال والمستقبل.

وليس ما يهمنا هنا أن نشيد تاريخا مقابلا يرمي مصنعي التاريخ الاستعماري بتقديفة معاكسة، بل أن نغير المنظور، وأن نحجي الصور المنسية «أو الضائعة». ومن الواجب أن نعود الى العلم كي نجث في هؤلاء وأولئك وجدانا صادقا، ومن الواجب إعادة بناء المخطط الحقيقي، فلقد آن الآوان أن نغير محور الكلام.

ولئن كانت هذه هي أغراض هذا المشروع وأسبابه، فالكيفية، أعني المنهجية، تبقى كالعادة أشد سسرا. وهذا فعلا أحد أغراض هذا المجلد الأول من تاريخ افريقيا العام والمحرر باشراف منظمة الأمم المتحدة للربية والعلوم والثقافة (اليونسكو).

الأسباب

يتعلق الأمر بمشروع علمي. و يتمثل الظلال والظلام الذي اكتنف ماضي هذه القارة تحديا مشيرا لحب الاطلاع البشري. ولا يعلم من تاريخ افريقيا الا القليل، فكم من أجيال عرجاء وكم من توار يخ مفقودة وكم من بنيات تبدو منقطة شأن الاشكال الانطباعية، أو هي عاتمة وراء ضباب كثيف. وكم من شفافات فلمية تبدو لغوا اذا ألقي ما سبقها من أجزاء الشريط! وهذا الشريط المفكك الجزئي، وهو صورة عن جهلنا، قد جعلنا منه بشكل مثير للأسف أو الغضب، تحريفا للصورة الواقعية لتاريخ افريقيا كما جرى بالفعل. فهل يبقى من المستغرب اذن أن يخصص للتاريخ الافريقي مكان ملحق بين جميع توار يخ البشرية أو الحضارات.

على أنه منذ بضع عشرة سنة عمل آلاف من الباحثين، وللكثير منهم فضل كبير بل استثنائي في إزاحة الغبار عن جوانب كاملة من وجه افريقيا القديم، وتظهر كل سنة عشرات من المطبوعات الجديدة ذات النظرة الايجابية أكثر فأكثر، وثمة اكتشافات افريقية، مذهلة أحيانا، تعيد النظر في مدلول بعض الأطوار في مجمل تاريخ البشرية.

ولكن وفرة المصادر هذه ليست في مأمن من المخاطر، كخطر البلبلة الناشئة عن كثرة البحوث غير المنسقة وغير المرتبة، والجدال الأجوف بين مدارس تفضل الباحثين بالنسبة الى موضوع البحث الخ...

لذا كان من المهم احترامنا لكرامة العلم أن يتم جلاء الحقيقة بصورة منزهة تلو على الشبهات وبرعاية منظمة اليونسكو، ومن قبل جماعات من العلماء الافريقيين وغير الافريقيين، وتحت اشراف لجنة علمية دولية ومديرين أفارقة.

وهذه تجربة لا تقدر للتعاون الدولي نظرا لوفرة وكفاءة الباحثين الذين جتدوا لهذا الكشف الجديد العظيم لافر يقيا.

ولعل التاريخ هو علم بشري أكثر من أي اختصاص آخر، إذ هو يجرج بكامل الحرارة من مصهر الشعوب المدوّي الصاخب، يصنع الانسان التاريخ حقا في معامل الحياة، هو يبينه عقليا في المختبرات والمكتبات وحقول التنقيب الأثري، والتاريخ عدا ذلك قد لجعل للانسان وللشعب لكي ينير وجدانه و يثبته.

وليس تاريخ أفر يقيا عند الافريقيين، مرآة نرجسية لعشق النفس، ولا هو ذريعة دقيقة لتبديد أعباء اليوم، فهذا الاتجاه الموهوس قد يعوق ما للمشروع من أغراض علمية. وبالعكس أليس جعل الانسان لماضيّه أي جزء كبير من ذاته، استلابا للشخصية؟ إن الآلام التي تصيب افريقيا في يومنا هذا، وكذلك الفرص التي تتراءى فيها، هي حاصلة قوى لا تحصى قذفت بها التاريخ. وكما أن تشخيص تطور مرض ما هو المرحلة الأولى من مشروع منطقي لتحديد المرض ولمعالجته، كذلك فإن العمل الأول للتحليل الشامل للقارة الافريقية، هو العمل التاريخي.

وإذا نحن لم نختر اللاشعور أو الاستلاب فإنه لن يكون بوسعنا أن نعيش بدون ذاكرة أو بذاكرة الغير.

والتاريخ ذاكرة الشعوب، وعودة الانسان الى نفسه قد تؤدي الى تطهير النفس وتحريرها، كما يتم عند الفوص في الذات بواسطة التحليل النفسي، فتظهر أسباب كبت شخصيتنا، ونحل في الآن نفسه العقد التي تقيد وعينا في الجذور القائمة مما تحت الشعور. ولكن لكيلا يستبدل وهم بأخر، ينبغي أن تكون الحقيقة التاريخية قالب الضمير الحر والأصيل، وأن تكون متحمّة بشدة ومستندة الى حجج.

الكيفية

وينتج عن ذلك مسألة عويصة، هي مسألة الكيفية، أي مشكلة المنهجية، وفي هذا المجال كما في غيره ينبغي الحذر معا من تمييز افريقيا متميزا أو ربطها ربطا وثيقا بالنظم الأجنبية. فيزعج بعضهم أنه من الواجب أن نسعى للعثور على وثائق تشابه تلك الموجودة في أوروبا، وأن نحصل على عين المجموعة من الحجاج المكتوبة أو المخطوطة، كي نتحدث عن تاريخ حقيقي لافريقيا، وعندهم إذن أن مشاكل المؤرخ هي في كل مكان سواء في خط الاستواء أو في القطب. ويجب أن نؤكد هنا مرة أخرى وبكل وضوح، أنه ليس القصد أن نخدم العقل إذا لم يكن لدينا ما نمده به. فلم يكن العقل ليعتبر استوائيا بتلعه أنه قام بعمله في خط الاستواء، وللعقل سيادة مطلقة فهو لا يعترف بسلطان الجغرافيا، إن نظمه ومساغيه الأساسية ولا سيما تطبيق مبدأ العلية، كل ذلك يبقى كما هو، ألي كان. وليس العقل أعمى، لذلك كان عليه أن يميز ما يختلف في الواقع، كي يكون لتكنه منه دائما، عين الدقة والصواب.

فبادئ النقد الداخلي والخارجي تطبق بمنهج ذهني مختلف عن منهجنا ازاء التشديد الحماسي

«سند جاتا فاسا» (١) وكذلك الأمر بالنسبة الى أوامر «دي فليس» أو المناشير الموجهة الى عمال نابليون. أي أن الأساليب والطرق المادية تبقى مختلفة، على أن هذا المنهج لا يستمر صالحا بعينه في كل أجزاء افريقيا، وتقوم تاريخ وادي النيل وواجهة البحر الأبيض المتوسط، يبقى أقل طرافة، بالنسبة الى أوروبا، من افريقيا الواقعة جنوب الصحراء.

وفي الحقيقة أن الصعوبات النوعية في تاريخ افريقيا تتوضح أولا في ملاحظة حقائق الجغرافيا الطبيعية لهذه القارة. إن افريقيا قارة منعزلة إن صح التعبير، فهي تدير ظهرها لبقية العالم القديم الذي لا تربط به إلا بحبل سرى هزيل هو مضيق السويس، وبالعكس هي تغمس، بدون تحفظ، كتلتها المترصة في مياه الجنوب وعلى جنبها مرتفعات ساحلية تقتحمها الأنهار عن طريق مضائق صباء، تشكل هي ذاتها عراقيل في وجه التدخل الغريب في البلاد. والممر الوحيد المهم الذي يقع بين الصحراء وجبال الحبشة تعترضه مروج بحر الغزال الفسيحة. وتهب الرياح والتيارات البحرية العنيفة ممتدة من الرأس الأبيض الى الرأس الأخضر، بينما في قلب القارة ثلاث صحار تحمل العزلة الخارجية بممارسة التقسيم الداخلي.

وفي الجنوب صحراء كالا هاري، وفي الوسط الصحراء الخضراء المكونة من الغابة الاستوائية، ذلك الملجأ الرهيب الذي ينبغي على الإنسان أن يصارع كي يفرض سيطرته عليه، وفي الشمال الصحراء، رأس الفياضي، تلك المصفاة الإقليمية العظيمة، وذلك المحيط الأشقر من الكثبان ومن مساحات الأرض الرخوة، وهو ما يحيطه من جبال الأطلس، يفضل مصر منطقة البحر الأبيض المتوسط عن مصر باقي القارة.

وإذا لم تكن هذه القوى البيئية جدارا عازلا ولا سببا طيلة ما قبل التاريخ، فإنها أثرت تأثيرا قويا في المصير الافريقي في جميع الميادين، وإنها منحت الشرفات الطبيعية قيمة فريدة، فلعبت دور الجسور في استكشاف المجال الافريقي، ذلك الاستكشاف الذي قامت به الشعوب منذ آلاف الآلاف من السنين، ولنكتف بذكر الانهدام الطولاني العملاق بوادي (الرفت) الممتد من حجر افريقيا بالذات الى العراق عبر الرصيف الحبشي، وفي اتجاه العرض فإن الأودية في صنعاء والابو بنغي والزايير قد مثلت أيضا ممرات ممتازة. وليس من قبيل المصادفة أيضا أن قامت أولى الممالك في افريقيا السوداء، في هذه الجهات من البلاد المفتوحة، هذه السواحل (٢) التي استفادت في الوقت نفسه من قابلية النفوذ الى الداخل ومن بعض الانفتاح على الخارج، ومن الاتصالات مع المناطق الافريقية المجاورة ذات الموارد المختلفة المتكاملة.

وهذه المناطق المفتوحة وذات النظام التطوري السريع هي برهان «خلف» على أن العزلة كانت أحد العوامل الأساسية في سير افريقيا على مسارب بعض التقدم (٣).

(١) «مذبح سند جاتا» بلغة ملنكي، سند جاتا هومشئ امبراطورية مالي في القرن الثالث عشر وكان بطلا من الأبطال الأكثر شعبية في التاريخ الافريقي.

(٢) الكلمة مأخوذة من العربية - وتعني الساحل كما هو واضح ولكن تعني هنا سواحل الصحراء المعتبرة بمثابة محيط من الرمال.

(٣) ليس من الممكن إهمال العامل المناخي، ولقد أكد الاستاذ فورتين شاون أن بعض الجيوب التي تتألف مع المناخ المتوسطي (أمطار الشتاء)، لا تستطيع أن تتألف مع وادي النيجر، وذلك لأنه في جنوب البحيرة الموازية للارتفاع في الشمال، وكسب سد الجبهة ما وراء الاستوائية، فإن التأقلم يصبح مستحيلا، انظر ج. أ. هـ. ١٢ - ١ - ١٩٧١ ص ٤٥٤ - ٤٥٥.

يقول ف. برودل: «إن الحضارات تعتمد على الأرض و يضيف «إن الحضارة وليدة العدد». وعلى هذا فإن اتساع رقعة هذه القارة مع سكانها المنتشرين المنتقلين بسهولة في طبيعة كريمة (ثمنا، معادن، الخ..) وقاسية (الأمراض المستوطنة والأوبئة) (٤) قد منعت من ادراك الحد الأدنى من التجمع البشري الذي كاد أن يكون دائما من الشروط الأولية للتحويلات الكيفية الجسيمة في الحقل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، أضف الى ذلك أن ما قامت به النخاسة من ابتزازات بشرية قاسية منذ عصور عريقة في القدم، ولا سيما منذ تجارة العبيد في القرن الخامس عشر الى القرن العشرين، قد كان من شأنه أن يحرم افريقيا من الحيوية البشرية، ومن الاستقرار اللازمين لعملية ابداع معتبر حتى في المستوى التكنولوجي، فلم تكن الطبيعة ولا الناس، ولا الجغرافية ولا التاريخ رافقة بأفريقيا.

ولابد من العودة الى هذه الظروف الاساسية للحركة التطورية كي نضع المشاكل في حدود موضوعية وليس في شكل أهوام مذهلة مثل الانحطاط العرقي والقبلية الوراثية والقصور الذاتي التاريخي الذي وصف به الأفارقة. وهذه الآراء الذاتية اللامنتطقية ليس من شأنها في أحسن الأحوال، إلا أن تسبب جهلا اراديا.

المصادر الصعبة

لا بد أن نعترف فيما يخص هذه القارة، أن الحصول على المصادر مهمة صعبة: فركائز المعرفة التاريخية تتمثل في ثلاثة مصادر رئيسية: الوثائق المكتوبة وعلم الآثار والتواتر الشفاهي. و يدعم هذه المصادر الثلاثة علم اللغات وعلم الأجناس البشرية، اللذان يكتان من تمييز وتعميق تأويل المعطيات، تلك المعطيات التي قد تكون أحيانا خاما أو شديدة العمق إن لم تمارس هذه الممارسة الأشد تعمقا. على أنه قد يكون من الخطأ أن ترتب هذه المصادر المختلفة مسبقا ترتيبا تسلسليا قطعيا.

المصادر المكتوبة

ان لم تكن المصادر المكتوبة قليلة جدا فهي على الأقل موزعة توزيعا فاسدا في الزمان والمكان. و«أحلك» العصور في التاريخ الافريقي هي التي لا تتمتع بانارة واضحة مدققة نابعة من شواهد كتابية، كالفرون السابقة للميلاد واللاحقة له، بينما كانت افريقيا الشمالية في هذا الوقت متقدمة. ولكن حتى ولو وجد هذا الشاهد، فإن تفسيره كثيرا ما تكتنفه الالتباسات والصعوبات. فانبثاقا من قراءة جديدة لرحلة ابن بطوطة مثلا وبعد إعادة قراءة الأسماء المختلفة للمواقع التي استعملها هذا الرحالة كما استعملها العمري، نرى ان بعض المؤرخين آل بهم الأمر الى مناقشة كون نياني - سور - سنكراني هي عاصمة المالي القديم (٥).

وعلى المستوى الكمي، فإن أكداكس عظيمة من المواد الكتابية ذات الطابع الوثائقي أو القصصي لم يتم بعد استغلالها، كما تدل على ذلك الفهارس الحديثة الجزئية الخاصة بالمخطوطات التي لم تنشر

(٤) انظر في هذا الموضوع - جون فورد - أكسفورد - ١٩٧١.

(٥) انظر ج. أ. هنتوبك ١٩٧٣ ص ١٩٥ - ٢٠٨. بخاطر المؤلف بحجة السكوت: «لوعبر ابن بطوطة النيجر أو نهر السنغال لذلك».

والمعلقة بتاريخ إفريقيا السوداء، هذه الفهارس التي يتم إجلاء العبار عنها في خزانات المغرب (٦) والجزائر وأوروبا، وكذلك في خزانات الأعيان والعلماء السودانيين عبر مدن منقطع النيجر (٧)، واستنادا على عناوينها، يمكن الوقوف على مصادر جديدة تعد بالكثير. وقد أنشأت منظمة اليونسكو بطنيسكو مركز أحمد بابا للبحث عن أمثال هذه الوثائق. وفي مستودعات الوثائق بباران والعراق وأرمينيا والهند والصين علاوة على أمريكا، نبد عديدة من تاريخ هذه القارة، تنتظر من الباحث الفكر الثاقب الخلاق، وفي دار الوثائق بالوزارة الأولى باسطنبول، حيث رتبت دفاتر أوامر الديوان السلطاني العثماني، توجد رسائل لم تنشر مؤرخة في ماي (أيار) ١٥٧٧ مرسلة من السلطان مراد الثالث إلى ماي أدريس علاوة، وإلى باي تونس، تلقي ضوءا جديدا جدا على دبلوماسية (الكارم برنو) في ذلك العهد وعلى الحالة في الفزان (٨).

واستطاعت معاهد الدراسات الإفريقية ومراكز البحوث التاريخية في البلدان الإفريقية التي دخلتها الثقافة الإسلامية، القيام بعمل حثيث لجمع الوثائق، ومن جهة أخرى قد نشرت أدلة جديدة كالتالي قام بنشرها المجلس الدولي للوثائق تحت إشراف منظمة اليونسكو، الغرض منها توجيه الباحثين إلى الوثائق المكسدة والمودعة في كل أطراف العالم الغربي.

ويبقى المجهود المتمكن في مجال النشر العلمي وإعادة النشر وفي الترجمة والتوزيع، مع هذه التحولات المتزايدة الحديثة، قادرا على اجتياز نقطة جديدة حرجية في كيفية رؤية الماضي الإفريقي.. وكذلك سيكون للعدد المتراكم من الوثائق أهميته في تحديد الرؤية الجديدة التي ستعتمد على هذه الوثائق. وإننا لنعدو بشدة إلى إعادة قراءة العديد من النصوص التي تم استغلالها في القرن التاسع عشر في عهد الاستعمار، وإلى تطهيرها من كل حكم مسبق مضى عهده واضفاء طابع المسيرة الداخلية عليها. ونذكر مثلا أنه لا ينبغي التهاون بالمصادر المكتوبة بالكتابة الصحراوية الجنوبية، (فاي، باموم، عجمي).

علم الآثار

كثيرا ما تكون الشواهد الصامتة التي أظهرها علم الآثار أفصح من الشهود الرسميين المتمثلين في بعض مصنفي التواريخ، وعلم الآثار قد أحرز كثيرا من الجدارة من قبل التاريخ الإفريقي من جراء مكتشفاته الرائعة ولا سيما (ما يرجع إلى عدة آلاف من آلاف السنين من ماضي إفريقيا) حيث لم يتوفر وجود أخبار شفاهية أو كتابية. فالأشياء الشواهد وحدها، المدفونة مع من تشهد لهم، تحفظ من وراء الكفن الثقيل الذي غلفت به أموات الأرض، ماضيا لا وجه له ولا صوت، وبعض هذه الأشياء الشواهد تدل دلالة متميزة على معالم ومعايير الحضارة، مثل أدوات الحديد وصناعاتها والخزفيات وطرق إنتاجها وموادها ومصنوعات البلور والكتابات والأقلام التي ضبطتها، وتقنيات البحارة والصيد البحري، والنسج والمنتجات الغذائية، وكذلك بنيات شكل الأرض وهياكل الري والأوضاع النباتية التابعة لتطور الإقليم.. وفي لغة اللق الاثرية، بطبيعتها، شيء من الموضوعية التي لا

(٦) انظر يونسكو: مجموعة عبارة من نصوص عربية مستمدة من وثائق مغربية بقلم الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني، س: ش: ن: س: . ٢٩٤.

(٧) انظر دراسات مالية. أ. س. هـ. م. عدد ٣ سبتمبر ١٩٧٢.

(٨) ب. ج. مرتان ١٩٦٩ ص ٩٥ - ٢٧.

تُرد، فدراسة نماذج الحرفيات مثلاً ومصنوعات العظم والمعدن في الصحراء النيجرية التشادية، تقبم الدليل على الارتباط بين شعوب قبل الاسلام (ساو) في حوض التشاد، وبين المجالات الثقافية المستمدة حتى النيل والصحراء الليبية. ان تماثيل صغيرة من صلصال مشوي، ذات حائل متقاطعة، وزينات بدنية على التماثيل تحمل أشكال الأوعية والأساور والرماح والعظام ورؤوس السهام أو شوكاتها وسكاكين الرماية، كل ذلك يجيبي ما بينها من قرابة الأواصر الحية في الزمن الماضي من وراء المنظور المعاصر، وقد أناغ عليها الجمهور والعزلة بكلكهما (٩). ان تحديد المواطن الاثرية الافريقية وتصنيفها وحمايتها تفرض نفسها كأولوية متأكدة جداً قبل أن ينهبها المفسدون أو الجهال غير المسؤولين، والسياح المجردون من نية العلم فيبدونها ويجردونها من كل قيمة تاريخية جدية. ولكن استغلال هذه المواقع الاثرية بواسطة مشاريع ذات أولوية للتنقيب على مستوى فسيح، لن ينمو الا في اطار برامج مشتركة افريقية يعاضدها تعاون دولي قوي.

النقل الشفاهي

الى جانب المصدرين الأولين للتاريخ الافريقي، أي الوثائق المكتوبة وعلم الآثار يبدو النقل الشفاهي، الحافظ والحامل لرأس مال الابداعات الاجتماعية الثقافية الذي جمعه الشعوب التي لم تستخدم الكتابة بعد: فهو حقاً متحف حي. والخبر التاريخي هو مجرد خيط عنكبوتي له من الهشاشة ما لا يمكنه من اجتياز السرايب المظلمة في متاهات الزمان. يحمله القدامى ممن ابيضت رؤوسهم وتقطع صوته وغيبت احبائهم ذكارتهم، ممن لا تسمع لديهم في آداب السلوك (للشيخوخة الاستحقاق): فهم أجداد بالقوة.. وهم بمثابة جزيرات أخيرة متبقية من منظر كان قديماً قائماً، يدعمه في عناصره جماع نظام دقيق، انحرف اليوم وتطرق وصرعته أمواج «المعاصرة» الحادة. وأصبح من المتحجرات المؤجلة.

وكلما اختفى أحدهم، تقطع سلك من الخيط وهو جزء من المنظر الذي يصير تحت الارض. ذلك أن النقل الشفاهي هو المصدر التاريخي الأكثر لفة وهو أعذب المصادر، وما يغذيه، أكثر من غيره، رواء الصدق. يقول مثل افريقي «فم الشيخ أبخر لكنه يتفوه بالأمر الطيبة المنجية»، والكتابة مهما كانت مفيدة تشجمد وتثيبس، وهي تضفي وتشرح وتخزل وتنحجر. والحرف يقتل. الخبر يكمو هيكل الماضي لحماً وألواناً ويرويه دماً — وهو يعرض في مدى الأبعاد الثلاثة ما انطبق كثيراً على سطح ذي بعدين من صفحية ورقة. ان فرج أم (سندجاتا) اذ اضطربت لبرء ابنها المفاجئ، مازال يرن في صوت سحرة مالي الجمهوري الحار. أجل، انه من اللازم اقتحام الكثير من العقبات لتصفية مادة النقل الشفاهي وغزلة حبوب الوقائع من تبن الكلمات الفخوخ، مما يشبه النوافذ الكاذبة التي تقام قصد التناظر، وتجاوز زيف العبارات وبريقها، والتي لبست الغلاف الظرفي للرسالة الآتية من بعيد.

لقد قيل إن الخبر المتواتر لا يؤثق به اذ هو وظيفي، كذلك فإن أي رسالة بشرية بحسب تعريفها ليس وظائفية، بما في ذلك وثائق المخطوطات، وهي بمجمودها ذاته وتحت حيادها الموضوعي الظاهر كم تحفي من أكاذيب لما أغفلته ومع ذلك فهي تكسو الخطأ بصبغة الاحترام. مما لا شك فيه أن الخبر وبخاصة الحماسي منه، هو إعادة خلق شبه اسطوري للماضي، هو نوع

من التمثيل النفساني يكشف للمجموعة جذورها ومجموعة القيم التي تدعم شخصيتها، هوزاد سحري لقصد العودة على نهر الزمان نحو مملكة الأجداد، ولذا لا يطابق القول الحماسي مطابقة مدققة الخبر التاريخي، بل هو يمتطييه مسقطاً آياه اسقاطات فات وقتها من قبل، ومن بعد بالنسبة الى الزمان الواقعي، مصادما معه اصطدامات شبيهة بتلاشي التضاريس في الآثار. ولكن هل تتخلص الكتابات نفسها من هذه التداخلات اللغوية؟ وفي هذا كما في غيره يجب البحث عن الكلمة المتحجرة الموجهة. و ينبغي اذا أمكن أن نجهز أنفسنا بكاشف المعدن الخالص، لخراج الشوائب والخبث.

نعم، يمثل وهن التسلسل التاريخي موطن الضعف الحقيقي في الخطاب الملحمي، واللقطات الزمانية المبعثرة تكون تركيبا معقدا لا تأتينا منه صورة الماضي واضحة مستقرة كما تأتينا من المرة الصالحة، ولكنها الخيال الخاطف الراقص على الماء المضطرب، ومعدل عمر الممالك أو الأجيال من الأمور التي يشتد فيها الخلاف، حيث لا يوثق كثيرا بالاستكتمالات المستمدة في الفترات الحديثة، ولو من جراء التحولات العمرانية والسياسية. فأحيانا يستقطب ملك فذ، كالمنغاطيس، الوقائع السابقة التي حدثت لسابقه وتابعيه وقد اختفت صورتهم تماما، ومن بين هؤلاء سلالة ملوك روندا، ومثل الملك دامتزن ملك سيقو (أوائل القرن التاسع عشر) إذ ينسب إليه السحرة كل فتح عظيم في هذه المملكة.

وعدا ذلك فإن النص الادبي الشفاهي اذا ما اخرج من سياقه يكون كالسمكة خارج الماء فيموت ويتحلل. واذا ما عزل الخبر يكون كتلك الاقنعة الافريقية المقتلعة من الرسوم الدينية التي يقوم بها المؤمنون، فتعرض كي يطلع عليها العالمين. فيفقد مضمونه ومعناه وحياته. على أن الخبر بطبيعته — إذ تحمله دائما شهود جدد كلّفوا بنقله — فهو يلائم انتظار مستمعين جدد، ملاءمة تتعلق خاصة بنقل الرسالة، الا أنه لا يبقى المحتوى على حاله. ألسنا نرى أيضا منتفعي أو مرتزقة الخبر يعرضون عند الطلب نسخا من النصوص المكتوبة، يلقي بها من جديد في سياق الخبر المنقول!

وأخيرا كثيرا ما يكون محتوى الرسالة نفسه مستغلقا بل مستبظنا، والكلمة عند الافريقي ثقيلة، وهي قوة ذات حدين في امكانها الفعل والنقض، وفي امكانها أن تحمل الشور، ولذا لا يتلفظ بها بوضوح ومباشرة، بل تحيط بها الأمثال والتلميحات والمعاني الخفية والأمثال الواضحة والمغلقة بالنسبة الى العامة، لكنها تيرة عند من أوتي حساسية استشعار الحكمة. وفي افريقيا الكلمة الثقيلة لا تبذل، وكلها ارتفعت منزلة الانسان وسلطانه كلما قلل من الحديث بين العموم. فاذا ما قيل لشخص: «أكلت الضفدع ورميت برأسه» فيعلم حالا أنه اتهم بالتخلص من بعض مسؤولياته (١٠)، وهذا الاستغلال المتمثل في «نصف القول» يدل على قيمة الخبر الشفاهي الفائقة وعلى حدودها، إذ يكاد يكون من المتعذر نقل قيمته كاملة من لغة الى أخرى، ولا سيما اذا كانت اللغة المنقول لها غريبة عن الأولى بنية ومجتعا. ولا يتحمل الخبر الترجمة الا قليلا جدا، فاذا ما اقتلع من وسطه فقد تسفه وأصلته، ذلك أن اللغة هي «بيت الوجود» والعديد من الأخطاء المنسوبة الى الخبر، إنما هي ناشئة عن مترجم عاجز أو غير مسؤول.

ومهما يكن من أمر، فلقد قام على شرعية الخبر الشفاهي الدليل اليوم بصورة وثيقة و يؤكد تأكيداً واسعاً ما يقابل به مع مصادر أثرية أو كتابية، كما هو شأن موقع «كسي - صالح»، وأنقاض بحيرة «كيسال»، أو أحداث القرن السادس عشر التي نقلتها «الشونا»، والتي أثبت د. ب. إبراهيم مطابقتها لكتابات الرحالة البرتغاليين في ذلك الزمن.

والخلاصة أن سرد الخبر، سواء كان ملحمياً أو نثرياً أو تعليمياً أو أخلاقياً، قد يكون تاريخياً أيضاً من أوجه نظر ثلاثة، أولاً هو يكشف عن مجموعة من العادات والقيم التي تحرك شعباً وتتحكم في أعماله المقبلة بتمثله نماذج الأمم. وهكذا فإن الملحمة تعكس التاريخ ولكنها أيضاً تخلقه. فإذا ما توجه الإنسان إلى دامنزن قائلاً: «يا مولى المياه ومولى البشر» فهو يقرر بذلك طابع دامنزن المطلق، على أن الأخصوصات عنها ترينا إياه مستشاراً بلا انقطاع، من جنوده وكهنته ونسائه (١١). ومعنى الشرف والسمة يتضح في الجواب الشهير في «نشد القوس» ممجداً سنديانا (سنديانا فاما) «ساياكوسا ملويا» (١٢). وتكشف هذه القيمة عن نفسها أيضاً في فصل مائة «بكري ديان» على «بولس الكرنازي»، فلقد انزعزل البطل بكري ديان في قريته (دقورنق) وتوكل الناس إليه أن يرجع على رأس جيوش (سيقو). فسلم في النهاية حين مساو وتره الحساس، وتر الكبرياء والمجد: «عليك أن تتناسى ما وقع تبادلته من الكلام القديم، عليك الآن أن تنظر إلى اسمك، فحن نأتي هذه الدنيا لنكتب اسماً، وإذا ما أنت ولدت وترعرت وميت بدون اسم، فأنك تكون قد جئت عبثاً وانصرفت عبثاً» فيصبح قائلاً: «يا كهنة (سيقو)، إذ أنتم أنتم فلن يكون ثمة مستحيل. وسأفعل ما تطلبون في سبيل سمعتي، ولن أفعل ذلك في سبيل (دامنزن) ولن أفعله لأي كان في (سيقو)، سأفعله فقط من أجل سمعتي، وحتى بعد مماتي سيضاف فعل إلى اسمي».

وذكر أيضاً هذه التكنة الحضارية الحقوقية، قال سلامكا: «انكم محظوظون إذ حرم علي أن أقتل الرسل».

وعلى ذلك فإن إعادة تركيب الماضي بعيدة أن تكون خيالية تماماً، ففي الماضي شرائع من الذكريات ومسالك من التاريخ كثيراً ما تكون أشد التصاقاً بالملأوف من تزويقات الخيال الملحمي الملونة: «وهكذا نشأت منظمة الرعاة الجماعين هذه في مدن (بجرا). وإن اصطفت وصرت راعياً فقد صرت (بولس) عمومياً وكان البوالسة العموميون يرعون قطعان الملك، وكانوا رجالاً من جنسيات مختلفة، وكان رئيس الرعاة فيهم يسمى «بنكي» أو هكذا: «في ذلك العهد لم يكن الناس ينتعملون الأجدية بل سمارات من جلد البقر المدبوغ، في أنفها حبل حول إبهام الرجل وفي العروق حبل». وأخيراً إن القصة الملحمية تلونها تلميحات إلى الصنائع والأشياء ليست أساسية في سير الحديث، إلا أنها تشير إلى بيئة الحياة «أرسل (دامنزن) ستين من ملاحه جديعة سومونو، ثلاثين في مقدم الجديعة وثلاثين في مؤخرتها، وكانت الجديعة مزينة بأفخر الزينات» «هيئت السلام ونصبت على السور وتسلفها صيادو (سيقو) مهاجرين وتسللوا إلى المدينة... ورمى خيالة (سيقو)

(١١) نظري. كسطوط، ج ٣ - ٤.

(١٢) الموت أفضل من العار

بسنهام ملتبه. واشتعلت النيران في بيوت القرية»، «وتأهبت ساران، المرأة المولعة بدامزن، لتبلل بارود بندقيات محاربي كوري».

ومارس المؤرخ تشخيصا مدققا يصل أحيانا الى التحليل النفسي، لهوس الجمهور أو ناقلي الأخبار، محاولا ادراك زبدة الواقع التاريخي.

وتعدد الروايات المنقولة من قبل فرق متناوئة، كما تم عند كهنة موالي سيد شريف (هوروت، دياتيني) لايشكل عامل نقص بل هو ضمان اضافي للنقد التاريخي. أما توافق الروايات، كما في صورة كهنة ببارا وبولس المنتمين الى شقين متعادين، فانه يبرز بروزا خاصا صدق هذا الشاهد، وكما يبدو من حالة «الكوروا» الذين تربط بينهم تقاليد باطنية متحررة اندماجية تتناقلها الأجيال، وتتعايش مع تقليد الجمعية السرية الباطني الفوضوي. إن الخبر التاريخي بما له من توليدات متعددة يتضمن عناصر للنقد الذاتي، وذلك أنه ليس ملكا خاصا بل ملك مشاعا تسأل عنه زمرات مختلفة من المجتمع، والمهم أن يعتني بالسند الداخلي لهذه الوثائق وذلك بمعرفة دقيقة للأسلوب الأدبي المستعمل، بموضوعه وأسلوبه ورموزه وقوالبه وعبارات الحشوفيه والاستطرادات الاصطلاحية، واللغة في تطورها والجمهور وما ينتظره من الكاتب التقليدي. وينبغي خاصة الاعتناء بالطبقة الشعبية التي ينتمي اليها هؤلاء وقواعد عيشها وتكوينها ومثلها ومدارسها. ومن المعلوم مثلا أنه في مالي وغينيا وجدت مدارس حقيقية للمعارف الأولية منذ قرون، كذلك الأمر في كينيا ونيافسولونيا والنخ.

وهذا التقليد الصامد المقتن الوضعي هو عادة أقوى بنية، وأشد دعما من موسيقى البلاط التي تتجسم فيه، وترتله على فقرات تعليمية وفنية. وبعض الآلات المستعملة، كالسوسوبلا (بالافون سوما أوروكتني) مازالت هي عينها كمعلمة تستحق أن يبحث فيها بحثا أثريا.

الآن الأواصر بين نماذج آلات الموسيقى ونماذج الموسيقى والأناشيد والرقصات، تمثل عالما دقيق التنظيم، يتميز به بسهولة البدع والملحقات المضافة مؤخرا.

وهكذا فكل فن أدبي شفاهي آتته الخاصة في كل منطقة ثقافية، الآلة الخشبية (بالا) والبولون (قانون — عود) للمحمة مندق، وبنديري الموسي. (طبل ضخم مدور ذو وجه واحد، مقطوع من ثمرة الدباء يضرب عليه بالأشكال العارية) للتحميس، في جو كثيرا ما يكون صامتا، واسامي الحرب (زابويو) للملوك، والميات (قيثارة) لشعراء الفنق الموسيقيين في ملحباتهم الاستوائية، هذه الآلات تحمل الكلمة التاريخية فتقدها وتقدها، فهي تتحد مع الفنان في الواقع، ومكانتها تزداد أهمية في أداء الرسالة، بفضل لغات ذات جرس تصير بها الموسيقى مركزة بصورة مباشرة، وتصير الآلة صوت الفنان دون أن يضطر هذا الى التفوه بكلمة واحدة. ويصير هذا الايقاع النغمي الثلاثي، من الكثافة والاستمرار موسيقى ذات دلالة داخل هذا الضرب من «الدلالة — الترميز» التي تحدث عنها مارسيل جوس. والحق أن الموسيقى صارت جزءا من التقاليد، اذ لا يمكن أن تنقل بعض الأقاصيص الا في الشكل الغنائي، والانشودة الشعبية نفسها التي تم عن نبض «الارادة العامة» في شكل هجائي يحد أحيانا التحكم القائم فيه، والذي يبقى حيوا حتى خلال الحملات الانتخابية في القرن العشرين، هو نوع نفيس يعدل ما ترويه «الوثائق» الرسمية ويكملها.

وما قيل هنا عن الموسيقى ينطبق تماما على وسائل أخرى للتعبير، كالفنون التشكيلية التي تقدم لنا ناعجا أحيانا، كما في ممالك أبوماي وبنين (حفر بارز) أو في بلاد كوبا (تماثيل) وفيها التعبير المباشر للأشخاص والأحداث أو للثقافات التاريخية.

وباختصار ان الخبر الشفاهي ليس مجرد مصدر يلجأ اليه في آخر المرحلة حين يضطرننا البأس من غيره، بل هو مصدر له حظ كامل ومنهجية تم الآن إرساؤها، ثم هويوفر لتاريخ القارة الافريقية أصالة قوية.

علم اللغات

ليس علم اللغات علما مساعدا للتاريخ الافريقي، بل هو اختصاص يسير بالتاريخ مباشرة إلى صميم موضوعه، ونقف على ذلك بوضوح في مثال النوبة التي غابت وراء صمت مزدوج، صمت أطلال (ميروي) الكشف، وصمت الحفظ البيروتي الذي لم يكشف سره الا بقيت اللغة مجهولة (١٣).

لا شك أن هناك أمور كثيرة يجب القيام بها في هذا المجال، بدء من إثبات اللغات اثباتا علميا، فلا ينبغي أن يضحى بالعمل الوصفي لفائدة العمل النظري والتأليفي بدعوى التصنيفية والتوليد. ان التحليل القاسي المدقق للغة ما بما لها من مميزات في الأحرف الصوتية وأحرف المد والجرس، وما لها من حرية التوليفات في الرسوم التخطيطية المركبة للتعبير، وما لها من مدلول عاشه المتلفظون به في مجتمع محدد (١٤)، هذا التحليل يكتن من بناء استكالات للماضي، هي عملية عسيرة لعدم وجود عمق تاريخي لمعرفة هذه اللغات، اذ ليس في الامكان قياسها على غيرها الا ابتداء من الطبقة المعاصرة بواسطة طريقة التزامن، وهذا الأساس لا بد منه لكل تأليف تطوري توليدي. ان الأمر صعب، وليس غريبا ان وجدت صراعات علمية هنا وهناك، خاصة في مادة البانتوية. «فلكولم قسري» يقرر نظرية التكوين الذاتي، بينما يدافع «جوزيف غرينغ» ببراعة عن نظرية تقول إنه يجب أن توضع اللغات البانتوية في اطار قاري أكثر اتساعا. ويبرر هذا الاطار، بأواصر ليست من باب التشابه العرضي الناشئ عن التأثيرات الخارجية، بل بأواصر قرابة وراثية ذاتية، يكشف عنها الشبه في الضمائر، وفي المفردات الأساسية وفي الخواص النحوية، كنظام الأصناف الاسمية، فيما بين مشات من اللغات من (الولوف) الى (البانكا) (جمهورية السودان). وليس كل هذا الجدل عند المؤرخ، محض تمارين مدرسية. فنحن نرى مثلا أن مصفقا يعتمد على توزيع مجموعات الألفاظ المتشابهة التي تدل على معنى الحروف في افريقيا الوسطى على حافة الغابة، يلاحظ أن هذه المجموعات المتجانسة لا تحترق الحافة النباتية بل تنشر موازية لها، مما يوحي أن هذه الأغنام تنتشر حسب المنطقتين الجغرافيتين الملاصقتين للسهل والغابة، بينما ترتب الصورة اللسانية في الشرق على امتداد شرائط طولانية من افريقيا الشرقية الى افريقيا الجنوبية، مما يدعو الى فرض وجود طريق يتدخل عموديا على الأول، ويوضح، بقياس التقابل، الدور المعطل للغاية في نقل التقنيات (١٥).

ولكن هذا الدور يختلف باختلاف التقنيات، وباختصار ان الدراسات اللسانية تبرهن أن طرقا

(١٣) نظمت اليونسكو سنة ١٩٧٤ ملتقى علميا للكشف عن هذه اللغة الافريقية.

(١٤) انظر مورييس هويس ١٩٧١ ص ٤٥.

(١٥) انظر كرسوف اهرت ١٩٦٣ ص ٢١٣ - ٢٢١.

النزوح ومساورها، وأن انتشار الثقافات المادية والروحية، مرتبط بانتشار الألفاظ المتقاربة. وهنا يدل على أهمية التحليل اللساني التطوري وأهمية التسلسل الصوتي عند المؤرخ الذي يريد أن يقف على حركية التطور واتجاهه.

وهكذا أوضح ج. غرينبرغ ما أتى به «الكتنوي» للهوسا من المصطلحات الثقافية ومن الفن الحربي، مما يظهر تأثير الامبراطورية البرنوانية في تطور ممالك الهوسا، وبخاصة ألقاب الممالك البرنوانية القريبة من الألفاظ كامورى، مثل كيقاما، ماجيرا الخ... التي انتشرت انتشارا ملحوظا حتى في قلب الكمرون والنيجيريا، وثمة دراسة نظامية لأسماء الأماكن وأسماء الأشخاص من شأنها أن تقدم دلالات محددة، شريطة أن يعاد النظر في هذه الأسماء عن طريق نظرية عملية. وذلك أن كثيرا من الأسماء قد تم تحريفه بسبب النطق به أو كتابته بكتابة أجنبية من قبل غير الأفريقيين، أو من قبل أفريقيين استخدموا ترجمة وكتابا أجنبيا، ويبقى اصطياح اللفظ الصحيح حتى ولو استقر بالكتابة منذ قرون عملا من الأعمال الأشد تشعبا بالنسبة للنقد التاريخي الإفريقي.

مثال: ان لفظ (قاوفا) الذي استعمله ليون الافريقي للدلالة على مملكة السودان، كثيرا ما قرون بلفظ (قاو)، ولكن تحليل اسم المكان هذا بالاعتماد على لغة التيدا والكانوري يمكننا من تعيين موقع مملكة (القاوفا) بين الواداي (تشاد) والدارفور (السودان) والفريت (افريقيا الوسطى) (١٦).

وأما الرجوع الى اليمن لتعيين بلد الأصل للعديد من الأسر المالكة السودانية، فلقد أعيد النظر فيه بصورة جدية من قبل ه. ر. بلمر. ولا ينبغي لنا أن نفسر لفظ يمين حسب ما يذكره مؤرخو المسلمين من معنى ديني يتجه نحو منطقة «العربية السعيدة»، بل الاحالة الى البلد القديم يمين (منه يمين؟) (١٧). ويبدو النظر في المعجم السواحلي المحشوبألفاظ من أصل عربي، وفي معجم بلدان الساحل الشرقي الملبغاشي (انتييمورو انتالوترا، انوزي) المغمورين بالتيارات العربية، سيكشف عن معلومات جديدة أن يستمد منها المؤرخ.

وعلى كل حال (علم اللغات) أو اللسانية التي كان لها فضل على التاريخ الإفريقي، يجب أن تنتزع منذ البداية الاحتقار العنصري الذي اصطبغت به اللسانية الإفريقية التي حررها أ. شليقل وأوغست شليشر، وعندهما: «ان لغات الاسرة الهندية الاوربية في قة التطور، ولغات السود في أسفل درجة من السلم، على أنه فيما يظن أن هذه اللغات قد يكون لها أهمية في عرض وضع قريب من الوضع الأصلي للغة، حيث كانت اللغات بدون نحو والكلام مكون من سلسلة كلمات ذات المقطع الواحد، ويقتصر المعجم على كشف أولي للألفاظ» (١٨).

علم الانسان وعلم اللغات

وتبقى الملاحظة نفسها مقبولة في مجال علم الانسان وعلم الأجناس. والواقع أن الكلام

(١٦) انظر بيار كلارك ١٩٧٢ ص ٥٢٩ - ٥٤٨.

(١٧) انظر أبو الدريغ عماد ص ١٣٠ - ١٥٥.

(١٨) انظر ج. هويس ١٩٧١، ص ٢٧.

الاجناسي (١٩) كان بطبيعية الحال، كلما ذا دلالة واضحة التمييز والعنصرية وذا نتائج سياسية واضحة، وبينهما ممارسة «علمية» غامضة بالطبع.

وأهم فرضياته المسبقة كانت التطور الخطي، وعلى رأس القافلة البشرية أوروبا رائدة الحضارة، وفي المؤخرة، «الأقوام» البدائية في الاقيانوس وبلاد الأمازون وافريقيا. فكيف يمكن أن يكون الانسان هنديا، أسود، بابو أو عربيا؟ «فالغبر» هو متأخر متوحش بربري على درجات، وهو مختلف دائما. ولذلك كان موضوع اهتمام الباحث أو مجال نهم المعالج. فالأنتولوجيا تلقت تفريضا عاما لتصبح وزارة للفضول الأوربي، إزاء «مواطنينا». إن النظر الإنتروبولوجي يتمتع بمجالات البؤس والعراء، والفلكلور كثيرا ما كان ساديا شهوانيا، وفي أحسن الظروف يتظاهر ببعض العواطف للأبوية. وكانت المذكرات والتقارير الناشئة عن هذه النظرة، الا ما شذ منها، تبرر الوضع الراهن وكانت تعمل على «انفاء التخلف في النمو» (٢٠). فالنظرية التطورية التي جاء بها داروين، رغم مزاياها الرفيعة الأخرى، والانتشارية في اتجاه واحد التي طالما نظرت الى افريقيا كموطن خامل للاكتشافات الأخرى، وأخيرا وظائفية مالفينسكي و رادكليف براون التي كانت تحجب كل بعد تاريخي للمجتمعات البدائية، كل هذه المدارس كانت بالطبع تتعاطف مع الوضع الاستعماري الذي كانت تنمويه كما لو كانت في تربة خصبة (٢١).

ونظرتها، التي فقدت قيمتها في النهاية في تفهم المجتمعات النائية الخارجية، تحردت من الجدارة أيضا، إذ أن المجتمعات التي اهتمت بها بصورة خاصة كانت بالفعل أكثر المجتمعات شذوذا، أعني نماذج من البشرية استقرت في البدائية، بنينا كانت هي لا تمثل سوى جراثيم لا يستهان بدورها التاريخي، بل هو أحيانا دور هام، الا أنه في أغلب الأحيان، هامشي بالنسبة الى المجموعات الاجتماعية السياسية الأشد قوة والأكثر عراقة في تيار التاريخ.

وهكذا فليقد رمز الى جميع افريقيا بصور قد كان الأفارقة أنفسهم يستغربونها، تماما كما لو شخصت أوروبا في بداية القرن العشرين باستعمال الخوان والمسكن أو بالمستوى التقني في مجموعات برطانيا الداخلية أو في الكنتال أو سردينيا.

على أن الطريقة الانتولوجية انما تعتمد على الاستقصاء الفردي الموسوم بميسم التجربة الذاتية الشامة، لأنه مكثف، ولكنها ثامة في مستوى الانسان فقط وتؤول الى نتائج «موضوعية» هزيلة جدا اذا ما زعم استكمالها من الخارج.

وأخيرا فإن موضوع الانتولوجية نفسه من جراء جدلية حتمية، وتأثير الاستعمار، قد تضاعف

(١٩) خصص لفظ جنس الى الشعوب المعروفة بالتعداد الكتابات فتضمن منذ البداية رأيا مسبقا تعصرا، يقول كليمان مارو في القرن ١٦ «وثني أو جنسي» الانتوغرافيا جمع وصفي للوثائق - الانتولوجيا هي عين التأليف النظري.
(٢٠) انظر ل.ج. كوينس، ١٩٧١ ص ٤٥ «المنهجية الاستعمارية والانتولوجيا ترتفع الى عين التشكيكية، ويوجد بين هاتين المرتبتين من الظواهر عمل مشترك يتحكم في نمو النسي».
(٢١) انظر ل.ج. ربي، ١٩٧٧، ص ٤٢٩ «انه يشبه الدارو ينسبة الشكافية التي توحى الى الفكر في القرن ١٩ الانتروبولوجية تبرر الاستعمار فلا يكون هذا ثمرة طرف سياسي بل نتاج بنية بيولوجية، أي صورة خاصة من المزاوجة الطبيعية. وانتروبولوجيا القرن التاسع عشر ترجع ضمير أوروبا الامبريالية».

شيئاً فشيئاً. والشعوب البدائية التي كانت تعيش من جني الثمار والصيد، إذا لم يكن من «أكل البشر»، تحولت شيئاً فشيئاً إلى الطبقة الكادحة المتشقة من المراكز المحيطية، في نظام عالمي للانتاج، أقطابه يقيمون في نصف الكرة الأرضية الشمالية.

وكان العمل الاستعماري يلتهم و يستهلك موضوعه ذاته، فلذا قرر أولئك الذين وضعوا الأفارقة في قائمة الأشياء، ان يشرعوا في محاولة مبادهة، لصنع التاريخ، زاعمين أنه في بعض الأوجه، ليس البدائيون كما حسبوا.

وبعيداً عن حكم سابق، وفي الوقت نفسه، فإن الباحثين الذين عملوا على كشف خيط التاريخ والوقوف على بنيات أصيلة في المجتمعات الافريقية الدولية أو غيرها، هؤلاء الرواد أمثال فرينيبوس ودولافوس وبالروافانس بر يتشارد، قد واصل مساعيهم وأخذها عنهم وأعادها ودققها بماثون آخرون معاصرون. ورأى هؤلاء أنه إذا ما طبقت الأدوات العقلية عليها للعلوم والانسان، وإذا ما تمت ملاءمتها للمادة الافريقية، يكون بالامكان أن ندرك نتائج موضوعية. وهكذا نبذت النظريات الفاسدة المستندة اما إلى الفرق الوراثي والمادي لمواطنين، واما إلى وضعهم البدائي في طريق الحضارة. ويكفي أن نتعرف أنه إذا كان الكائن الافريقي هو هو الكائن الانسان الناطق، فان «وجودهم في العالم» مختلف. وعندها يمكن شحذ أدوات جديدة للوقوف على تظواهرهم الفريد.

وفي نفس الوقت فإن النظرة الماركسية، على أن لا تكون عقائدية، ونظرة لبني ستراوس البنيوية، تأتيان أيضاً بوجهات نظر مقبولة، ولكنها متباينة فيما يخص تطور الشعوب المعروفة بانعدام الكتابة فيها. فالطريقة الماركسية والتي تقوم على أساس تاريخي، تعتبر التاريخ ضميراً جامعاً في العمل، وهي تؤكد كثيراً على القوى المنتجة وعلاقة الانتاج، كما تؤكد على البراكسيس (السلوك) والنظم، بينما ترمي الطريقة البنيوية إلى ممارسة الآلية اللاشعورية ولكن المنطقية، وممارسة المجموعات المنسقة التي تؤثر عمل العقول والمجتمعات وتؤطرها. ونأمل أن تكون الانثروبولوجيا المرتوبة من منابع جديدة، شيئاً مغايراً لعنقاء تظهر فجأة، لضرورة الحالة، من رماذ بعض الانثولوجيات (٢٢).

على الانثروبولوجيا اذن أن تنفذ مسلكها الخاص، وأن تؤكد كل التأكيد على المثل وعلى التطبيقات، والا تتداخل عندها العلاقات الاجتماعية التي يمكن أن تتكشف بالتجربة، بالبنيات التي توترها، وبذلك تُغني الواحد بالآخر، المثل والبنيات والآراء، مستخدمة بكثرة التقنيات الذكية والجماعية الخاصة بالبحث، منطقة الكلام جاعلة إياه موضوعياً. وهم التفاعلات بين العوامل الانثروبولوجيا على الخصوص، وكذلك التأليف التاريخي. وتشاهد مثلاً تقابلات بين المسالك التجارية التي يوجد عليها امتياز ملكي من جهة، وبين الأشكال السياسية المتمركزة من جهة أخرى: (غانة والمالي القديين، وفي امبراطورية اشنطي في القرن الثامن عشر وفي مملكة لندا بالزايير النخ) بينما في الشجربة العكسية الحاسمة خلافاً للنقوندو (والزولو)، وهي شعوب لها عين اللغات

(٢٢) تكون السوسولوجيا علماً اجتماعياً داخلياً في نظر العالم المعاصر، بينما تكون الانثروبولوجيا نظرة مقارنة (بين المجتمعات)، ولكن ليس في ذلك احياء للأصناف. الفرق القابلة للجدال بينهما من تاريخ جنسي وآثار—جنسية ونبات—جنسي ورياضيات—جنسية.

وعين العوائد (النياكوسا والكوسا) ولكنها تعيش بمعزل عن هذه التيارات، لم تبلغ مرحلة الملكية (٢٣). وقد نحاول أن نستنتج من ذلك شبه «قانون» انتروبولوجي أو سوسولوجي سياسي. ثم إن بنيات القرابة قد ينجم عنها عدد من الآثار الهامة في تحديد التطور التاريخي. فإذا التقت مجموعتان من اللغات المتبانية، فإن لغة القرآن بينها تقرر اللغة التي يكون لها التفوق، إذ أن لغة الأم لا يمكن أن تغلب إلا إذا اتخذت النسوة زوجات لا أماء وجواري. وهكذا فإن المجموعات «نقوني» تحتفظ بلغتها الأصلية، بينما فقد البعض الآخر من اتخذوا أزواجاً «سوتو»، لغتهم لفائدة السوتو. كذلك شأن رعاية الفلانيين القادمين من مسينا ومن فوطا جالون الذين تزوجوا منديقات وأنشأوا مقاطعة «واسولو» فلم يبق لهم من الفلانيين سوى الاسم، وسوى بعض الملامح الطبيعية، فلقد أضاعوا لغتهم الأصلية لفائدة المالنكي أو (بمبرا).

إن أهم مصادر التاريخ الإفريقي التي أشرنا إليها آنفاً ليس بالامكان تصنيفها مسبقاً حسب سلم قيم يمكن أن يفضل باستمرار واحدة أو أخرى من بينها، ومن الواجب أن ننظر في كل حالة على حدة، فليس الأمر، أمر شواهد من أجناس متبانية تبأينا تاماً، إذ أن كل ذلك يستجيب لتريف الاشارات التي أتت من الماضي، حاملة الرسالات، فهي إذن ليست محايدة بل هي تحسم نوايا صريحة أو ضمنية.

وهكذا نخضع جميع هذه المصادر للنقد المنهجي بحسب الصور، فقد يحتل كل منها المحل الأفضل، وقد يؤدي كل منها إلى الأنواع الأخرى. فالخبر الشفاهي مثلاً، كثيراً ما ساق إلى موقع أثري، بل في وسعه أن يوازن بين بعض الوثائق المكتوبة.

فالمؤرخ الكبير ابن خلدون مثلاً في كتابه «تاريخ البربر» يقول عن سندجاتا: «وخلفه ابنه منسا والي، ومنسا في لغتهم الكتابية تعني سلطان، والي يقابل علياً» بينما يفسر التقليديون اليوم «منسا والي» بمعنى «الملك ذو البشرة البيضاء».

المبادئ الأربعة الكبرى

وإذا ما أردنا أن نحدد حداً جديداً للجهة الرائدة في تدوين التاريخ الإفريقي، لابد أن يتحكم في البحث أربعة مبادئ كبيرة.

أولاً: اشتراك الاختصاصات وهو من الأهمية بدرجة تجعلنا نعتبره في ذاته مصدراً متميزاً. فالسوسولوجيا السياسية إذا طبقت على الرواية الشفاهية في مملكة سيقو فهي تثير النظرة اثرأ عظماء، ولولاها لاقتصرت على خطوط هزيلة من شجرة نسب عليها بعض المآثر المتحجرة. ويلوح التشعب والتداخل بين بنيات قوليت على الهيمنة القديمة (الاغوج المالي) وعلى واقعهم الملموس الحي. وفي بلدان الدلتا النيجرية تمكنت الروايات الشفاهية من اكمال عوامل النهضة التي طالما اقتصرت على تأثيرات تجارة النخاسة وزيت النخل. فثمة علامة وطنية سابقة، من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، حتى لاغوس وحتى بلد أجبو يشهد بها الخبر الشفاهي المؤيد، والذي أغنته بكيفية عجيبة تلميحات (يشيكوبريرا) في الاسمرلدو (٢٤).

(٢٣) انظر طوسون، ١٩٦٩، ص ٧٢ - ٧٣.

(٢٤) انظر ج. الاقوال، ١٩٧٣.

عنصر من الانتروبولوجيا الثقافية (النص التعليمي للرعاة الفلانيين) (٢٥) هو الذي يمكن بعض الاختصاصيين به ما قبل التاريخ من التفسير الصحيح، للغاز (رسوم) التاسيلي وما فيها من حيوانات بدون أرجل في اللوحة المدعوة، الثور ذو الأفعون، وحرف « U ». السحري لأوان درباوان الخ..

وبعد فاصل يزيد عن ١٠٠٠ سنة نرى طقوس اليوم تساعد على معرفة الأخوات الخمس الخرافية من أصل سبعة أبناء للجد الكبير كيكالا، وتطبيقها على الراقصات الخمس البديعة في لوحات جبارين.

إن انتشار البنسوتو — الذي تشهد به مصادر متطابقة من اللسنية والخبر الشفاهي وعلم الآثار والانتروبولوجيا، وأولى المصادر المكتوبة بالعربية والبرتغالية والانكليزية والافريقية، يصبح واقعا ملموسا يمكن أن يرتب ضمن تأليف، تتدفق حروفه عند تلاقي هذه المستويات المختلفة، وتتلاقى حجج اللسنية أيضا مع حجج التكنولوجيا لتؤكد انتشار الصنوج الملكية والنواقيس المتزوجة للزينة في المناطق الممتدة من إفريقيا الغربية إلى الزاير السفلى والشحابة وزامبيا. ولكن ثمة براهين أثرية قد تأتي بالطبع بحجج كبيرة القيمة. وتشتد الحاجة إلى تكتل المصادر إذا كان الأمر يتعلق بضبط الصعوبات المتعلقة بتاريخ الأحداث، إذ لا يتوفر لنا دائما تحديد التاريخ بطريقة الفهم ١٤. على أنه ينبغي أن تفسر هذه الارشادات وأن تقابل مع معطيات أخرى كالمعادن والفخار (مواد ونماذج)، وليس لدينا دائما شبه ما يوجد في شمال التشاد (٢٦) من أكوام عظيمة من كسور الفخار، تمكننا من انشاء نموذج لسلم زمني على ستة مستويات. وثمة دلالة رائعة تأتي عن تضافر كل المصادر المتوفرة، تمكننا من وضع علم أشكال متطور لأساليب الرسم والفخار. وذلك بمقابلة بعضها ببعض، كي نتضح سلسلة زمنية تمتد عبر ثمانية آلاف من السنين. كل ذلك تدعمه أسبار لدراسة الطبقات وتؤيده تأريخات الفهم ١٤، ودراسة النبات والحيوان والمسكن والرواية الشفاهية (٢٧).

إن خارقة الكسوفات المؤرخة والمريثة بحسب المناطق، قد تمكن من الوقوف على توافقات عجيبة إذا ما كانت هذه الأحداث مرتبطة بملك سلالة واحدة من سلالات الملوك، ولكن التاريخ عادة لا يدرك إلا بتعبئة الكثير من المصادر خاصة، وأن معدل طول سلطة أو جيل قد تدخل عليه تغيرات، وأن طبيعة العلاقة بين الملوك وأعقابهم ليست دائما واضحة، وإذ أن مدلول لفظ ابن ليس دائما ببيولوجيا بل اجتماعي، وقد يعطي الملك الواحد أحيانا ثلاثة أو أربعة أسماء أو «القاب»، وكما هو الأمر عند الهنبا تندمج قائمة المرشحين إلى السلطة مع قائمة الرؤساء.

ودون أن ننقص من قيمة تسلسل الأحداث، الذي هو العمود الفقري للمادة التاريخية ودون أن نستخل عن الجهود المبذولة في سبيل ارسائه على قواعد متينة، نتساءل مع ذلك ما إذا كان من الضروري أن نقع أسرى مرض الدقة مهما كانت التكاليف، إذ سيؤول الأمر إلى خطر الوقوع في الدقة المخطئة؟ لماذا نحرص على كتابة عام ١٠٨٦ كتاريخ لسقوط كمبي صالح، بينما نستطيع أن

(٢٥) انظر مباتي وجرمان ديتزلان، ١٩٦١.

(٢٦) انظر أيف كوينس، ١٩٦٠ ص ١٢٩ وما بعدها.

(٢٧) أ. باود، ١٩٦١ ص ٥١ وما بعدها.

نقول «في نهاية القرن الحادي عشر»؟ اذ ليس لكل التواريخ عين القيمة، وما يتطلب حدا من التدقيق، يختلف من حادث الى آخر ويجب أن لا نجعل من كل حدث صنما.

وعدا ذلك فانه من الضروري ان يرجع تيار السياق التاريخي كله في اطار الزمن الافريقي. وليس لهذا حساسية مرهفة ازاء تركيب معطى الحادث ليصبح تركيبا مفصليا ضمن سلسلة من الأحداث ينشئ أحدها الآخر بموجب السببية والعلية. نعم، ان للافارقة راي في الزمن مركّز على مبدأ العلية، الا أن هذا المبدأ يطبق حسب نظم طريقة تسري فيها عدوى الخرافة في السلوك المنطقي وتثنيه، ولا يخلق فيه الطور الاقتصادي الابتدائي الحاجة الى الزمن المرقم، وهي المادة الأولية للربح، وحيث إيقاع الأعمال والأيام تصبح توقيتا كافيا للنشاط البشري، وتكون فيها التقاوم التي ليست مجردة ولا عالمية تابعة للظواهر الطبيعية (هلال، شمس، جفاف) ولحركات الحيوانات والناس، وتحدد كل ساعة بأعمال محسوسة، في برندي مثلا: في امكانا (وقت الحلب: تكون الساعة السابعة) وفي متوروكا (وقت خروج القطعان: هو الساعة الثامنة) وفي كواساز (انتشار الشمس: في الساعة التاسعة) وفي كوماساز (إذا امتدت الشمس على المضاب: فيعني ذلك الساعة العاشرة) الخ.. وفي هذا البلد الريفي يحدد الوقت بحياة الرعي والفلاحة، وفي غيره من البلدان تسمى الأطفال بيوم ميلاهها وبالحادث الذي سبقه أو تلاه، ومسلمو افريقيا الشمالية قد يسمون أولادهم بأسماء الأشهر التي ولدوا فيها: رمضان، شعبان، مولود.

وهذا التطور الزمني، تاريخي من عدة جوانب، وفي المجتمعات الافريقية الخاضعة لسلطة الشيخ، فكرة الاسبقية في الزمن لها معنى أرجح مما في غيرها، فعليا وحدها تعتمد الحقوق الاجتماعية، كالمخاطبة في الناس والمساهمة في رقصة مخصصة، وتناول بعض الأطعمة، والزواج واحترام الغير الخ. وإذا لم يكن للوليد الأول حق مقصور عليه في خلافة الملك، يكون عدد المرشحين (أعمام، أخوة، أبناء) عددا مرتفعا دائما وللسن دور في المزاخة المفتوحة، مما يجعل للتوقيت والتاريخ أهمية متزايدة، وليس من الضروري أن نعرف أنه ولد في سنة كذا بل المهم أن يثبت الشخص أنه ولد قبل فلان. ولا تتوحد المراجع الدقيقة في المجتمعات الأكثر اتساعا وعمومية.

وليس مفهوم الزمن الاجتماعي جامدا، إذ انه في سياق الفلسفة الافريقية في حركية كل العالم، يكون الأمر دائما أن ينمي الفرد شكله الحيوي، وهو اجتماعي الى أعلى درجة، وهذا ما يتضمن فكرة الرقي في المجموعة وبواسطة كما يقول بكري ديان: «حتى بعد موتي سيضاف الى اسمي».

وفي بعض اللغات فان اللفظ الواحد (بونيا مثلا بالنجيرا) يدل على عدة معان تدل على العطاء المادي والشرف والنو.

وحسب الفصول كثيرا ما يعتمد على الملاحظة الفلكية بالنسبة الى سلسلة من المكونات كالدب الأعظم، فعند الكومو (الزايير الأعلى) تشبه الثريا بسلة من السواطين، مما ينبئ بزمن شحذ هذه الأدوات لاستصلاح الحقول. وعند الحاجة صار مفهوم الزمن هذا ألصق بالر ياضيات: فحزات من أخشاب خاصة تحفظ كوثائق في كهوف بلدة دوغان، ووضع حبة من التبر كل عام في آنية من

قصدي في معبد العروش في مملكة بنو مانسو، أو حصاة في جرة في بيت الملوك في بلد مندنج، دون أن نذكر بالطبع الآثار الجبلية في مصر الفرعونية وفي الممالك الإسلامية (كالموحدين مثلا). وإذا ما ذكرنا صعوبة تحويل متتالية من عصور الملوك إلى متتالية من التواريخ، وحتمية الوقوف في نقطة ثابتة تتخذ معلما، لاحظنا أن هذه النقطة في أغلب الأحيان هي معلم خارجي مؤرخ، مثال ذلك هجوم اشنطي على بنو مانسو.

إن استعمال الكتابة والدخول في البيانات المعمعة عالميا، والتي كانت لديها، تقاوم تقف عند نهاية محددة، كما أن الدخول في عالم المردود وتجميع المال، كل ذلك قد غير شكل مفهوم الزمن التقليدي إلا أن هذا المفهوم كان يوافق في عصره، موافقة جيدة، حاجيات المجتمعات المعنية بالأمر. ومن اللازم الحتمي أيضا أن ينظر إلى هذا التاريخ من الداخل، انطلاقا من قطب أفرقي، لا أن يقاس باستمرار مقياس القيم الأجنبية، إذ أن الوعي الذاتي وحق التمييز مبدأ مسبقا وجوبيا لتكوين شخصية جماعية مستقلة.

ولا شك أن اختيار البحث الذاتي ونظريته، لا يعني أن يقطع قطع اصطناعيا ما بين أفرقيها وبين القارات الأخرى من العالم القديم والجديد من ارتباطات تاريخية، إلا أن هذه الارتباطات سيتم تحليلها على أنها تعويضات تبادلية، وتأثيرات متعددة الجوانب، ستتجلى فيها المساهمات الإيجابية لأفرقيها في تطور البشرية. والنظرة التاريخية الأفرقية لن تكون نظرة انتقام أو نظرة الرضى عن النفس. بل هي ممارسة حيوية للذاكرة الجماعية تسمح حقل الماضي للتعرف فيه على جذورها الذاتية.

وبعد العديد من النظرات الخارجية وحتى الاشرطة المعاصرة التي كانت لأفرقيها صورة نموذجية، تتفق مع المنافع الخارجية، فإن الوقت قد حان لكي تنتشر النظرة الداخلية المتمثلة بالذاتية والأصالة والوعي «تعود إلى الوطن» كما يقول جاك برك، كدلالة على الرجوع إلى المصادر. وإذا ما نظرنا إلى قيمة الفعل والاسم في أفرقيها حيث يكاد اسم الشخص أن يصير ملكه، كما أن الأشخاص المحترمين (الأب، الزوج، الملك) كان يشار إليهم بمجل أوبلقاب. بهذا ندرك لماذا كانت سلسلة المسببات كلها وسلسلة التصورات ومجموعة الصيغ المتحجرة والأشكال الذهنية المستعملة بشاريخ أفرقيها، تتبع الاستلاب الأكثر نفاذا. فمن اللازم هنا أن نثور ثورة كوبرنيكية حقيقية، تستبدئ بالمعنى، فهي وإن لا تنكر متطلبات العلم العالمي، تسترجع صبغة هذه القارة التاريخية في قوالب جديدة (٢٨).

كما سجل ج. مكزري منذ سنة ١٨٨٧ بالنسبة إلى الطسوافا (بوسونا). كم من شعوب لم يذكر أحد اسمها بل لم تتفوه به هذه الشعوب نفسها ولا غيرها من الشعوب الأفرقية. لقد مرت هذه الشعوب بمحنة الاستعمار، وخرجت منه إلى الاستلاب. والطريق الأقوم للخروج منه نهائيا، أن تكتب أكثر فأكثر كتب التاريخ الأفرقية باللغة الأفرقية، وهذا يتطلب منا إصلاحات أخرى في

(٢٨) انظر في هذا المعنى البرهان القوي الذي أدلى به أ. أ. كينجوين، ١٩٦٧. انطلاقا من المقارنة بين نظام الإبي (الأسرة الموسعة) الذي قد يكون مصدر سلطة الدولة على الأسرة وبين النظام الديوي الرأسي إلى ملامة النخاسة بواسطة ملكية قوية على الأفراد، وهو يفسر الخلاف بين النظامين، انظر أيضا ب. فرنانق ١٩٧٤ ص ١٠٦: «الحدث الحام خيال، واللغة التي تدل عليه هي نظرية الحديث».

هيكلك الكتاب. فكم من كتاب في تاريخ افريقيا لم يدنا بأكثر من بضعة عشرة من صفحاته في تاريخ فترة ما قبل الاستعمار، بتلة أننا لا نعرف الماضي كما ينبغي، فنقفز مباشرة من «العصور الحالية» الى سائح مكتشف عظيم، أو الى حاكم ترعاه العناية من اله نجم فجأة، فعنده يتبدئ التاريخ الحق، اذ قرر أن يكون ماضي افريقيا كله ضربا من قبل التاريخ المخجل. نعم ليس الشأن أن ينكر ما كان للتأثيرات الخارجية من عمل اسراع أو تفجير، فادخال الاسلحة النارية مثلا في القرن السادس عشر الى السودان الأوسط، جعل للمشاة المكونين من العبيد الأولوين هيمنة على الخيالة الاقطاعيين. كان لهذا التحول أثره في بنية السلطة في السودان الأوسط، فحل الملك الكسيلا أو الكينغا من اصل العنبيد، محل الوزير الشريف سيروما، الا أن التفسير الآلية المعتمدة على التأثيرات الخارجية (يدخل في ذلك مساند الرؤوس) والمقابلات التوماتيكية، بين التأثيرات الخارجية وحركات التاريخ الافريقي، لابد أن تنبذ وأن يقام بتحليل دقيق جدا لابرز التناقضات والحركات الوطنية (٢٩).

ثم ان هذا التاريخ لن يكون الا تاريخ الشعوب الافريقية في مجموعها، باعتباره كلا يشمل الكتلة الشارية، والجزر المجاورة لها، كمدغشقر حسب تحديد وثيقة «منظمة الوحدة الافريقية». يضم تاريخ افريقيا بالطبع قطاع البحر الأبيض المتوسط في وحدة أقرتها كثرة الروابط منذ آلاف السنين (أحيانا دامية) ولكن في غالب الأحيان أغنت بعضها البعض، فجعلت من افريقيا على ضفتي مفصل الصحراء مصري باب واحد ووجهي ميدالية واحدة.

وهو تاريخ للشعوب، اذ نرى في افريقيا أن استبداد بعض الأسر المالكة نفسه قد خففت منه دائما المسافة وانعدام الوسائل التقنية التي تزيد ثقل التركيز خطرا، كما خففت منه استمرار الديمقراطية القروية، فن جميع المستويات، من القاعدة الى القمة، يلتئم المجلس من النقاش من أجل النقاش وهو يمثل عقل الجسد السياسي، هو تاريخ شعوب، اذ فيها عدا العشرية المعاصرة، لم يتقو لب هذا التاريخ ضمن الحدود التي أقرها الاستعمار وذلك لان المجال الجغرافي للشعوب الافريقية تجاوز من كل جانب، الحدود الموروثة عن التقسيم الاستعماري.

لنأخذ مثلا من بين ألف مثل، السنوف المنتشرين على جزء من مالي ومن ساحل العاج ومن فولتا العليا. وفي الاطار القاري العام يجب التأكيد على العوامل المشتركة الناجمة عن أصول مشتركة ومن مبادلات جهوية خلال آلاف السنين موضوعها الرجال والبضائع والصناعات والافكار، وبعبارة واحدة، الحيزات المادية والفكرية.

فبرغم العقبات الطبيعية ورغم ضعف مستوى الصناعات، كان من قبل التاريخ ثمة تضامن تاريخي قاري، بين وادي النيل والسودان حتى الغابة الغينية، وبين وادي النيل نفسه وافريقيا الشرقية، ومع الأحداث انتشر اللولو بين السودان وافريقيا الوسطى، وتفرق البنو بين واجهة المحيط الاطلسي والساحل الشرقي بواسطة التجارة عبر القارة من خلال السحابة.

(٢٩) انظر د. س. م. لاي، يفسر المؤلف اخطا ايدو بالاعتماد على التورثات الداخلية بين الأصناف الاجتماعية التي كان لها منطع في السلطة: العبيد، عمال الالاف (الملك) في المقاطعات، المقاطعات في الحكم الثلاثي من الحصيان المملكين (من الوسط، ومن الجين، ومن اليسار).

ينبغي أن لا تحلل ظواهر الهجرة على مدى كبير في الزمان والمكان كتيار جارف لكتل متدفقة يجلبها الخلاء أو يتكون الخلاء عقب مرورها. وحتى «الساقا» المتهاطلة في شاكما والمفكان فلا يمكن تفسيرها بهذه الصبغة فقط، وصعود جوع نحو الشمال (قوطلا العليا) انطلاقا من داقوما ومبروسي (غانة)، إنما تم بمجموعات من الحياة تملكوها المناطق مرحلة مرحلة، إلا أنه لم يكن في وسعهم أن يقوموا بعملهم هذا إلا بالالتحام مع أهالي المناطق عن طريق الزواج من نسائهم. والامتيازات القضائية التي كانوا يمنحونها أنفسهم بعثت بسرعة على نشرة عادة تشرط وجوههم (وهو ضرب من التعريف بالهوية) يتسم على العديد من الوجوه، استطاعت لغتهم ونظمهم الأولية أن تمحي تلك التي للشعوب الأخرى، بينما بقيت عادات، تتصل مثلا بالطقوس الزراعية أو التي كانت ترتب حقوق الإقامة، بقي ذلك بأشرف، رؤساء الأرض المحليين، وانتظمت علاقات «القرابة بالمداغة» مع بعض الشعوب التي صادفتها في طريقهم. والفتاح العظيم «موسي» أبرى كان من قبل أيضا «هجيناً» وصورة التطور بالامتصاص هذه لا بد أن يحل محلها في الغالب السنايوا الرومنتي البسيط للزحف الكاسح والحرب، كما صرطويلا وبصورة خاطئة استيلاء بني هلال على شمال إفريقيا. ان تطرفات الانتروبولوجيا الطبيعية ذات الآراء المسبقة العنصرية، قد أثق بها اليوم ظهر الحائط المؤرخون الجديون، ولكن «الحامين» وغيرهم من «الأجناس السمر» الذين افترض وجودهم لأسباب ما، تخافهم السرابات وأوهام عقلية أصبحت علمية.

يقول هرنو (٣٠) في نص مهم: «لا يمكن أن يكون مثل هذا وحدة دراسية بيولوجية فلا يؤلف الفلانيون مجموعة بيولوجية بل ثقافية، وأقرب أقرباء الفلانيون في جنوب الكرون مثلا، من الناحية البيولوجية، هم الهيا في نزنانيا. وأما القرابة البيولوجية بين المغاربة والورسالي بالصومال، فهي وراثية من جهة كما هي ناشئة عن البيئة الحيوية المشابهة التي تتحكم فيهم بيئة السهوب القاحلة».

ولا تخلو المعطيات البيولوجية بالذات والتي أدخل عليها الانتقاء أو التغيير الوراثة من الاضطراب المستمر منذ آلاف السنين، لذلك لا تشكل مرجعا ثابتا للتصنيف، كذلك الأمر فيما يخص المجموعة الدموية، وتكاثر (العنصر الوراثة) الذي يحدد خطابا دمويا مشوها إذا ما أشرك مع عنصر وراثي طبيعي ضاعف المقاومة ضد حمى الملاريا. وهذا هو الدور الرئيسي الذي تقوم به المواءمة مع الوسط الطبيعي. مثلا أن القامة الطويلة والوركين الأعرضين تتطابق مع المناطق ذات الجفاف القوي والحرارة الشديدة. وعلى هذا الأساس فإن شكل الجمجمة الأكثر ضيقا وارتفاعا (ذات الشكل المستطيل) هو مواءمة تمكن من امتصاص الحرارة بكيفية أقل. ان لفظ القبيلة (٣١) إذن سوف يهجر ما أمكن ذلك فيما عدا بعض الجهات في إفريقيا الشمالية، سوف يهجر عند كتابة هذا التاريخ بسبب ما أحيط به من مدلولات الاحترار وما يثيره من أفكار مغلطة، وكثيرا ما أكد على أن القبيلة

(٣٠) ج. هرنو، ١٩٧٧، الصفحة ٥٣ وما بعدها.

(٣١) أن لفظ (قبيلة) باللغة العربية يدل على مجموعة من الأشخاص تربطهم أواصر النسب إلى جد مشترك و يعيشون على أرض محددة. وعند الشعوب السامية (العرب - البربر - النج) يترك للانساب أهمية بالغة. والقبيلة وتعني بالفرنسية (TRIBE)، قد لعبت في تاريخ كثير من بلاد شمالي إفريقيا وما زالت تلعب أحيانا دورا هاما لا يمكن إغفاله. ولكي نحفظ هذه الكلمة مدلولها التاريخي والاجتماعي الثقافي، فإنا نستعملها كما هي في صورتها الأصلية.

هي أساسا وحدة ثقافية وأحيانا سياسية، ولكن بعضهم يستمر على رؤيته لها كرسيد بيولوجي متميز، وبرز ما في الحروب القبلية من قساوة، تلك الحروب التي كانت تنتهي غالبا ببيع عشرات من الضحايا أو أدنى، بينما هم يتعاملون عن كل التبادلات الإيجابية التي ربطت بين الشعوب الأفريقية، في المستوى البيولوجي والصناعي والثقافي والديني والاجتماعي والسياسي الخ، مما يضي على الآثار الأفريقية صبغة عائلية لا شك فيها.

وينبغي أيضا أن يتجنب هذا التاريخ أن يكون تاريخ أحداث فقط، فيكون اذاك عرضة لأن يبرز ابرازا مفرطا، التأثيرات والعوامل الخارجية، نعم، ان اقرار الأحداث الموجهة عمل أساسي لابد منه حتى لاظهار الملامح الاصلية للتطور الافريقي. ولكن ما هو أهم أن يتجه الى الحضارات والمؤسسات والبيئات التقنية والزراعية والمعدنية، وإلى الفنون والصناعات التقليدية، إلى الدورات التجارية وتطورات السلطة وتعديلاتها، إلى المعتقدات والرأي الفلسفي أو الديني، وإلى مشكلة التقنية والمعاصرة عند الأقوام وما قبل الأقوام. و يتطلب هذا الاختيار المهاجي تطلبا أقوى. فكرة تعدد الاختصاصات.

وفي النهاية، لماذا هذا الرجوع الى المصادر الافريقية؟ فلن كان البحث عن هذا الماضي بالنسبة الى الأجانب، مجرد ارضاء حاجة حب الاطلاع لديهم أو لممارسة رياضة فكرية منشطة لعقل مثلهف، لاستجواب أبي الهول، فانه ينبغي أن يتجاوز هذا المشروع هذه النظرات الفردية. فنأريخ افريقيا ضروري لادراك التاريخ العالمي الذي سيبقى عدد من لوحاته الغازا قائمة، ما لم يغيره الأفق التاريخي للقارة الافريقية.

وعلى المستوى المنهجي فان صياغة التاريخ الافريقي حسب الانماط الواردة في هذا المجلد، من شأنها أن تدعم خطة اتباع التاريخ التام المكتشف في كل مستوياته وكل أبعاده، بواسطة مجموعة أدوات البحث الموجودة الممكنة.

وهكذا سيصير التاريخ ذلك النهج السمووني الانسجام حيث تعطى فيه الكلمة بصورة متوافقة لجميع أنواع الاختصاص، و يتحول اقتران الأصوات الفريد النوع حسب مواضيع البحث وحسب أوقاته كي توافق متطلبات الخطاب.

ولكن إعادة تشييد البناء بعد فثائه، ذلك البناء الذي كان في الماضي من حجارة حية، بهم أيضا وبالذات الأفارقة الذين يجدون فيه مصلحة محسوسة، والذين يلجون هذا الميدان بعد أن حرّموا منه طيلة قرون أو عشرات السنين من الحرمان، شأنهم شأن المنفي الذي يكتشف، في وقت واحد، الحظوظ الجديدة والقدية لشهد الوطن الذي يخن اليه، لأنه سبق أن أقام فيه.

ان من عاش بدون تاريخ عاش على شكل حطام أو لنقل عاش كمن يحمل جذور غيره، أو هو كمن تخلى عن أن يكون هو ذاته، جذرا لغيره ممن يأتي بعده،؟ وهو وسط خضم التطور البشري يرتضي بدور مجهول الاسم، دور غلق البحر أو أحادية الخلية. فعلى رجل الدولة الافريقي أن يهتم بالتاريخ كجزء أساسي من التراث القومي، هو وصي عليه، خاصة وانه لن يكون بوسع أن يتعرف على سائر البلدان الافريقية من خلال منظور الوحدة الافريقية الا بالتاريخ.

على أن هذا التاريخ ضروري للشعوب نفسها وهو حق أساسي لها، وعلى الدول الافريقية أن تكون جماعات تعمل على انقاذ أخصى ما يمكن من الآثار التاريخية قبل أن يفوت الأوان، ولا بد من

إنشاء متاحف ومن سن قوانين لحماية المواقع التاريخية والأشياء. ويجب أن تمنح المنح لتكوين علماء في الآثار، ويجب أن تحور المناهج والشهادات طبقا لمنظور افريقي. فالتاريخ مهمل يمكننا أن لا نرى فيه خيالنا فحسب، وأن نتعرف على نفوسنا منه، بل ان نرتوي ونجدد القوى لتحقيق التقدم ضمن قافلة الرقي البشرية. وإذا كانت تلك غاية تاريخ افريقيا هذا، فالبحث المضني الممل وما يتخلله من تجارب قاسية، سوف يكشف بلا شك عن طريق بحث مشرغني عن إحياءات متعددة الأشكال.

وتحت رماد الماضي الهامد، تتحرك دائما في موضع ما، شرارات تحمل نور البحث.

الفصل الأول

تطوير التدوين التاريخي في أفريقيا ج. د. فاج

ان أولى محاولات تأريخ افريقيا هي قديمة قدم بداية التاريخ المكتوب. فؤرخو عالم البحر الأبيض المتوسط القديم ومؤرخو الحضارة الاسلامية في العصر الوسيط، اتخذوا كلهم اطارا معتمدا هو مجموع العالم المعروف، وكان يشمل جزءا هاما من افريقيا. وكانت افريقيا الكائنة شمال الصحراء جزءا لا يتجزأ من هاتين الحضارتين، وكان ماضيها واحدا من مواضيع اهتمام مؤرخيهم بنفس قوة اهتمامهم بأوروبا الجنوبية والشرق الأدنى، بل ان تاريخ افريقيا الشمالية بقي قسما أساسيا من الدراسات التاريخية حتى امتداد الامبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر.

والمرحلة نابليون بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨ صارت افريقيا الشمالية من جديد حقل دراسات لا يستهان به تولاه المؤرخون. ومع انتشار السلطة الاستعمارية الأوروبية على افريقيا الشمالية الذي أعقب الاستيلاء على الجزائر من قبل الفرنسيين سنة ١٨٣٠، واحتلال مصر من قبل البريطانيين سنة ١٨٨١، سادت أعمال تأريخ شمال افريقيا وجهة نظر أوروبية استعمارية، على أنه منذ سنة ١٩٤٠ ظهرت حركة التجديد في الاسلام، وانتشر التعليم على النمط الاوربي في مستعمرات شمالي افريقيا، ونشأت حركات قومية شمالي افريقيا. كل ذلك أدى لظهور مدارس محلية للتأريخ، كانت تحرر لا بالعربية فحسب، بل وبالفرنسية والانكليزية فحققت لافريقيا الشمالية التوازن في الدراسات التاريخية.

فهذا الفصل سيتم اذن بصورة أولية بتدوين التاريخ في افريقيا الغربية والوسطى والشرقية والجنوبية. ورغم كون المؤرخين الكلاسيكيين والمؤرخين الاسلاميين في العصر الوسيط، لم يعتبروا افريقيا الاستوائية عديمة الاهتمام، فان آفاقهم كانت محدودة، اذ كانت الاتصالات التي من

الممكن أن تكون لهم معها قليلة، عبر الصحراء نحو الحبيشة أو بلاد السودان أو على طول سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي، حتى الحدود التي كانت تسمح بها البحارة الموسمية.

إن أخبار المؤرخين القدماء، لا سيما يخص إفريقيا الغربية، كانت ضئيلة متفرقة. فهيرودوت ومنيتون وبلين القديم وأسترابون وآخرون غيرهم، لم يسردوا باختصار إلا عن رحلات قليلة أوزحف عبر الصحراء، أو أسفار بحرية على سواحل المحيط الأطلسي، على أنه أثبتت حول صدق بعض هذه الأحاديث جدالات حادة بين الاختصاصيين. وأما الارشادات المعهودة عن البحر الأحمر والمحيط الهندي فلها أساس أكثر جدية، إذ من المحقق أن تجار البحر الأبيض المتوسط وعلى الأخص تجار الاسكندرية، قد نشروا التجارة على هذه الشواطئ. «فرحلة بحر اترية» (حوالي سنة ١٠٠٠+) وآثار كلود بطليموس (حوالي ١٥٠+) (ولكن يبدو أن النص الذي وصلنا منها يتعلق أكثر بتاريخ يقارب عام ٤٠٠+). وأعمال كوزماس هنديكو بلطس (٦٤٧+)، هي المصادر الرئيسية للتاريخ القديم في إفريقيا الشرقية.

ولقد كان المؤلفون العرب أكثر اطلاعا، في عصرهم كان استخدام الجمل من قبل شعوب الصحراء قد سهل انشاء تجارة منظمة مع إفريقيا الغربية، وامتداد تجار شمالي إفريقيا في أهم مدن السودان الغربي، ومن جهة أخرى فقد تطورت التجارة مع الجزء الغربي من المحيط الهندي، حتى أن عددا عظيما من تجار جزيرة العرب ومن الشرق الأدنى، انتشروا على طول السواحل الشرقية من إفريقيا.

فالآثار التي قدمها أمشال المسعودي (المتوفي حوالي ٩٥٠+) والبكري (١٠٢٩-١٠٩٤) والادريسي (١١٥٤) وياقوت (حوالي ١٢٠٠) وأبي الفداء (١٢٧٣-١٣٣١) والعسيري (١٣٠١-١٣٤٩) وابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٦٩) والحسن بن محمد الوزان المعروف في أوروبا باسم ليون الإفريقي حوالي (١٤٩٤-١٥٥٢) لها أعظم الأهمية لإعادة بناء تاريخ إفريقيا، ولا سيما تاريخ السودان الأوسط، خلال فترة تتراوح تقريبا بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر الميلادي.

على أنه مهما كانت هذه الأعمال مفيدة للمؤرخين المعاصرين، فإنه يشك أن نعتبر أحدا منهم أو من الدارسين السابقين، من المؤرخين الرئيسيين لإفريقيا. فمعظم ما يقدمه كل منهم وصف لمجرات إفريقيا حسب معلومات أمكنهم جمعها في العصر الذي كتبوا فيه. ولا وجود لدراسة نظامية للتغيرات التي طرأت عبر العصور وهذا هو الهدف الحقيقي للمؤرخ. وحتى الوصف الوارد لديهم، لم يكن متزامنا فعلا، فإن صبح أن بعضا من المعلومات كان معاصرا للكاتب، فإن أجزاء أخرى، وإن اعتبرت حقيقية في عصر الكاتب، فإنها قد استمدت من تقارير سابقة. و يعاب أيضا على هذه الكتابات أنها عامة، لا تحوي أي وسيلة تساعد على تقوم الحزن ومعرفة ما إذا كان الكاتب قد تلقاها من ملاحظته الشخصية أم من ملاحظة مباشرة لمعاصره، أو هل هو يروي فقط، ما شاع في عصره، أو يروي رأي مؤلفين سابقين. و يقدم ليون الإفريقي مثلا مفيدا في هذا الشأن، فهو نفسه مثل ابن بطوطة ارتحل في إفريقيا، ولكن، خلافا لابن بطوطة، ليس من يقين البتة، أن ما يورده من خبر مستمد من ملاحظاته الشخصية.

وقد يكون من المفيد هنا أن نشير إلى أن لفظ «تاريخ» ليس مما لا يداخله الالتباس. ومدلوله المتداول اليوم يمكن تعريفه على أنه عرض منهجي لحدثات فترة محددة، ولكنه أيضا من الممكن أن يعرف حسب التعريف القديم «من أنه: وصف منهجي للظواهر الطبيعية» وهذا المعنى، أساسا، استخدم في العنوان المحدد بالانكليزية في كتاب ليون الأفريقي (ليون الأفريقي: التاريخ الجغرافي لأفريقيا - وبالفرنسية: وصف إفريقيا) وبقى هذا المعنى صحيحا حتى اليوم في العبارة القديمة. التاريخ الطبيعي (وقد كان فعلا عنوان كتاب بلين).

لكن من بين مؤرخي إفريقيا الأوائل هناك مؤرخ هام جدا، مؤرخ عظيم بأتم معنى الكلمة، هو ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) فلو كان معروفا أكثر عند العلماء الغربيين، لاضطروا أن ينزعوا عن هيرودوت لقب «أب التاريخ». وابن خلدون من شمالي إفريقيا، ولد في تونس. وقد خصص قسما من كتابه عن إفريقيا (١) وعلاقته بسائر شعوب البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى. وحسب فهمه لهذه العلاقات، استقرى ابن خلدون مفهوما للتاريخ، جعل منه ظاهرة دورية يستوي فيها أعراب السهوب والبدو على الأراضي الزراعية من الشعوب المستقرة، ويركزون فيها ممالك فسيحة، وبعد ثلاثة أجيال تقريبا تفقد حيويتها وتضيق نفسها معرضة لغزوات جديدة من قبل أهل البادية، وهذا بالفعل النموذج صالِح لقسم كبير من تاريخ إفريقيا الشمالية. واستعمل مؤرخ عظيم هو مارك بلك (٢)، آراء ابن خلدون ليدلي بتفسير وضاء لتاريخ أوروبا في بداية القرون الوسطى. وابن خلدون يتميز عن معاصريه، ليس لكونه ارتأى فلسفة للتاريخ، بل لأنه أيضا أو بالأخص لكونه خلافا لهم، لم يكن يرتبط بذات الوزن وذات القيمة. بنيد الأخبار التي كان بإمكانه الحصول عليها عن الماضي، وكان يعتبر أنه من الواجب الاقتراب من الحقيقة خطوة خطوة عن طريق النقد والقياس.

وابن خلدون في الواقع مؤرخ عصري شديد المعاصرة، ونحن مدينون له بما يكاد يكون تاريخ إفريقيا الاستوائية بالمعنى العصري، فبوصفه من شمالي إفريقيا وكذلك — ورغم جدة فلسفته وطريقته — لكونه كان يعمل في إطار التقاليد القديمة المتوسطة والإسلامية، أنه لم يتخل عن الاهتمام بما كان يجري وراء الصحراء، فشمسة باب من أبواب مؤلفه (٣) هو في الواقع تاريخ امبراطورية مالي التي وصلت في عهده الأوج أو كادت. وهذا الباب كان يعتمد جزئيا على الرواية الشفهية التي كانت تجري في عصره، ولهذا السبب فإنه يبقى حتى اليوم، من المصادر الرئيسية لتاريخ هذه الدولة الإفريقية الكبرى.

ولم يكن في إمكان أي دولة عظيمة قوية مثل مالي، أو حتى الدول الأقل أهمية كممالك الهوسا الأولى أو المدن المستقلة على الساحل الشرقي الإفريقي، أن تحتفظ بهويتها وكماها، بدون رواية معترف بها تتعلق بنشوتها وتطورها، ولما اجتاز الإسلام الصحراء وانتشر على طول الشاطئ الشرقي

(١) أهم العروض عن إفريقيا توجد في مؤلفه الأعظم، المقدمة (ترجمة فرنسية لفسان مونتال) وفي جزء من تاريخه الذي ترجمه دي سلاي بعنوان «تاريخ البربر».

(٢) انظر مارك بلك ١٩٣٩، ص ٩١.

(٣) في ترجمة م. ج. دي سلاي المعنون «تاريخ البربر» (١٩٢٥ - ١٩٥٦) يقع هذا الباب في الجزء ٢، ص ١٠٥ - ١١٦.

أتينا معه بالكتابة العربية، أضاف سود الأفارقة الى الوثائق الشفاهية استعمال النصوص المكتوبة التي كانت بين أيديهم للحفاظ على تاريخهم.

ومن بين النماذج الأولى من هذه المؤلفات التاريخية التي نعرفها اليوم، فإن أنجحها قد يكون كتاب «تاريخ السودان» (وكتاب تاريخ الفتاش» (٤) وقد كتب في معظمها، في تنبكتو خلال القرن السابع عشر.

وفي كليهما يعرض المؤلفان أحداث عصرهما والفترة السابقة له، مباشرة، مع عديد من الارشادات الجزئية غير غافلين عن تحليلها وتفسيرها، ولقد قدما هذه العروض النقدية، بأشارة تتعلق بالروايات الشفوية المتعلقة بعهد أقدم، فكانت النتيجة لا تقتصر على تاريخ امبراطورية صغايا وعلى فتحها واستيلاء المغاربة عليها فحسب، بل كانت محاولة لتعيين ما كان مهما في تاريخ المنطقة السابق، ولا سيما في تاريخ الامبراطوريات القديمة بغانة ومالي.

لهذا يتعين تمييز توارخ تمبكتو على سائر المؤلفات التاريخية القديمة المكتوبة بالعربية من قبل أنفارقة، كالتى تعرف باسم «تاريخ كانو» و «تاريخ كلوا» (٥) فهي تروي لنا تسجيلات كتابية مباشرة لروايات بقيت ولا شك، متداولة شفاهيا حتى ذلك العصر. وإن يبدو أن ترجمة تاريخ كلوا قد استغله المؤرخ البرتغالي دوبروس في القرن السادس عشر. وليس ما يدل أن تاريخ كانو كان موجودا قبل بداية القرن التاسع عشر تقريبا.

ومن الجدير بالذكر أن التوارخ العربية من هذا النوع، لم تقتصر حتما على أجزاء افريقيا التي تم ادخالها في الاسلام. ففي وسط غانا الحالي مثلاً، قد انتج «كتاب الغنجة» في القرن الثامن عشر، ثم ان أبحاث العلماء الجديدة مثل أبحاث «افورولكس» قد كشفت عن مئات من المخطوطات العربية، أصلها من هذه المنطقة أو من الجهات المجاورة (٦)، ولا ننسى أيضا أن قسما من افريقيا الاستوائية التي صارت اثيوبيا، كان له لغته الخاصة السامية، لغة الفيز في البداية ثم الأمهرية، وفيها حفظت تقاليد أدبية وتطورت طيلة ما يقرب من أئى سنة. وما لا شك فيه أن هذه التقاليد أنشأت مصنفات تاريخية منذ القرن الرابع عشر مثل تاريخ حروب أمدا سيون (٧). ولم تظهر المصنفات التاريخية في اللغات الافريقية الأخرى، كالهوسا والسواحلي، وهي الكتابات المختلفة عن الكتابات العربية المستوردة، ولكنها تستعمل حروفه، الا في القرن التاسع عشر.

وشرع الأوربيون في الاتصال بالجهات الساحلية من افريقيا الاستوائية في القرن الخامس عشر، فنتج عن ذلك بسرعة، انتاج أدبي يوفر مواد ثمينة جدا للمؤرخين المعاصرين. ووقع الاهتمام

(٤) ترجم تاريخ السودان الى الفرنسية وعلق عليه أ. هوداس (١٩٠٠) وتاريخ الفتاش لمؤلفه هوداس م. ودولاس (١٩١٣).

(٥) توجد ترجمة انكليزية لتاريخ كانولدى هـ. ر. بلمر: مذكرات سودانية (١٩٢٨) مجلد ٣، ص ٩٢ - ١٣٢، ومن تاريخ كولمانج ب، س. وفرين فرنيل «الساحل الشرقي الافريقي» (١٩٦٢) ص ٣٤ - ٦٩.

(٦) عن كتاب النخبة وجموعه المحفوظات العربية بغانة المعاصرة، نظر نهمين لفزي يون «المسلمون والرؤساء في غرب افريقيا» ١٩٦٨، خاصة الصفحات ١٥ - ٢٢، وافرولكس «قشاة التعليم الاسلامي في غانة» مجلة تاريخ الاجتماع، نيجيريا، ٤ (١٩٦٣) ص. ٤٠٩ - ٤١٧، ولطوماس هدككن «التقاليد الادبية الاسلامية في غانة» ولدى أ. م. لويس (مؤلف كتاب) الاسلام في افريقيا

الاستوائية (١٩٦٦) ص ٤٤٢ - ٤٦٠.

(٧) توجد عدة ترجمات لهذا الكتاب ولا سيما واحدة بالفرنسية قام بها ج. قروشن في المجلة الاستوائية ١٨٨٩.

خاصة بأربع جهات من إفريقيا الاستوائية: السواحل الغينية في إفريقيا الغربية، وجهة الزاير الأدنى والانقولا، ووادي الزمبار والمرتفعات المجاورة له، وأخيرا إثيوبيا. وتوغل التدخل في أراضي هذه الجهات الثلاث الأخيرة، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولكن كما كان الأمر بالنسبة إلى المصنفين السابقين التابعين أو العرب، لم تكن النتيجة دائما ومباشرة، القيام بتأليف كتب عن تاريخ إفريقيا.

إن ساحل غينيا هو أول ما اكتشفه الأوروبيون من إفريقيا الاستوائية، وألفت في شأنه عدة كتب منذ عام ١٤٦٠ تقريبا (كادامستو) حتى بداية القرن الثامن عشر (بريو و بسمان)، وكان للكثير من هذه المواد قيمة تاريخية كبرى، إذ توفر شهادات عيان مؤرخة، فيمكن بها أن تعين عددا كبيرا من العلاقات ذات الصبغة التاريخية.

كما اشتملت هذه الكتب على كميات من المواد التاريخية (أي ما لم يكن معاصرا لها) وبخاصة عند دبر (١٦٨٨) الذي لم يسلك مسلك غيره من المؤلفين في الملاحظة المباشرة، بل اقتصر على جمع روايات غيره. إلا أن الغرض الأساسي لدى هؤلاء المؤلفين جميعا، كان يتمثل في وصف الحالة المعاصرة، في كتابة التاريخ. بيد أننا اليوم فقط، وقد تم إحياء قسم كبير من تاريخ إفريقيا الغربية أصبح بإمكاننا أن نقدر أقوال هؤلاء المؤلفين حتى قدرها (٨).

وأما في سائر الجهات التي أعارها الأوروبيون اهتماما في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فقد كانت الحالة على خلاف ذلك قليلا، ولعل هذا ناشىء عن كونها كانت مجال نشاط المبشرين الأولين، بينما كان المحرك الأساسي للاربيين في غينيا هو التجارة. فظالما كان الافارقة يوفرون للاربيين من البضائع ما يبتغون اقتناؤه، كما كان الأمر بصورة عامة في غينيا، لكن ما كان بوسع التجار أن يشعروا بدافع نحو ما يغير المجتمع الإفريقي بل اقتصروا على ملاحظته، على نقض المبشرين الذين كانوا يحسون إلى حد ما بوجوب القيام بتاريخ إفريقيا. ففي إثيوبيا كانت الأسس موجودة من قبل، وكان بالإمكان استغلال التواريخ وسائر كتابات البلاد، وشرع رائدان جليلان من المبشرين في كتابة تاريخ إثيوبيا، هما بدرو بايز (ت ١٦٢٢) ومانول الالميدي (١٥٦٩ — ١٦٤٦) كما ألف تاريخ كامل بقلم أحد المستشرقين الأوروبيين الأولين جوب لودلف (١٦٢٤ — ١٧٠٤) (٩).

وفي وادي الكونغو السفلي والانقولا، كما في وادي الزمبار وحواليه، كانت المصالح التجارية بدون شك أقوى من مصالح التبشير. ولم يكن المجتمع التقليدي الإفريقي بمجملة، مستعدا دون ضغط قوي، لأن يوفّر للاربيين ما كانوا ييغون، فنتج عن ذلك أن أرغم بكيفية ما أسوة على التغيير، فلم يكن بمقدور المحاولات الوصفية نفسها إلا أن تصبح الجانب التاريخي. وثمة عناصر مهمة للتاريخ

(٨) رحلات كادامستو، ج. ركون (١٩٣٧)، جون بريبو (١٧٣٢) وويليام بسمان (نشرة ملحق ١٩٦٧).

(٩) في كتاب س. بكاري: الامور الاثيوبية في الكتابات الغربية غير المنشورة (روما ١٩٠٥ — ١٩١٧) يحل كتاب بايز في المجلدين الثاني والثالث وكتاب الميدا في المجلدين ٥ و٧. وتوجد ترجمة جزئية انكليزية لالميدا في س. ف. بكنفهام. وج وب هنتفرد: بعض ذكريات اثيوبيا (١٥٣١ — ١٦٤٦) (١٩٥٤) ونشرت تاريخ اثيوبيا لودلف في فرنكفورت سنة ١٦٨١.

توجد فعلا في كتب مؤلفين من أمثال، بفاقا ولوبيز (١٥٩١) وكافاتزي (١٦٨٧)، ونشر كادوريقا سنة ١٦٨١ تاريخ الحروب الانغولية (١٠).

ومنذ القرن الثامن عشر يبدو أن إفريقيا الاستوائية نالت من المؤرخين الأوربيين ما تستحق من الاهتمام، وكان بالإمكان مثلا أن يستغل الكتاب السابقون الذين يغلب على أسلوبهم الوصف كمصادر تاريخية، أمثال ليون الافريقي وديبر، بحيث تمكنت كتب التاريخ والجغرافيا العامة في تلك المدة، كالشاريخ العالمي المنشور بأكثرتا بين ١٧٣٦ و ١٧٦٥، الذي أمكن أن يخصص لإفريقيا عددا من الصفحات لا يستهان به (١١).

ووجدت أيضا محاولات أحادية الموضوع «كتاريخ انقولا» بقلم سلفا كرين (حوالي ١٧٩٢) و«لمحة تاريخية عن غينيا» بقلم بنزيت (١٧٧٢) و«كتابا تاريخ الداهامي: مذكرات ملك ششا أهادي بقلم نريس (١٧٨٩) وتاريخ الداهامي بقلم دلز (١٧٩٣)، إلا أنه ينبغي الإشارة هنا إلى أن كتاب سلفا كرين لم ينشر إلا خلال القرن الحاضر (١٢).

وأما الكتب الثلاثة المذكورة أعلاه، فإنها نشرت في ذلك العصر فذلك لأن في القرن الثامن عشر، بدأ الجدل يتحدث حول نخاسة العبيد التي كانت العنصر الرئيسي في العلاقات بين أوروبا وإفريقيا الاستوائية منذ مائة وخمسين سنة على الأقل. فدلزل ونريس اللذان كانا يستغلان خبرتهما في تجارة العبيد في الداهامي كما فعل بنزيت، قد كانا يقومان بعمل مؤرخين، إلا أن كتبهما كانت تهدف إلى توفير الحجج لمؤيدي أو معارضي إلغاء تجارة الرقيق.

ولو كان الأمر بخلاف ذلك، لما وجدت هاته الكتب من يشتريها، إذ في ذلك العصر بدأ الاتجاه الرئيسي للشقافة الأوروبية يعتبر أكثر فأكثر المجتمعات غير الأوروبية متخلفة، مصحرا أن ليس لها تاريخ يستحق أن يدرس. ونجحت عن هذه العقلية تيارات التفكير المنبثقة عن النهضة الأوروبية إلى عصر التنوير وحتى الثورة العلمية والصناعية الزاهرة. فبالاعتماد على ما اعتبر تراثا موحدا، اغرقيا رومانيا، ظن المثقفون الأوروبيون أن أغراض مجتمعاتهم ومعارفهم وقوتهم وثروتهم، كان لها من السيطرة ما أوجب تقدم الحضارة الأوروبية على ما سواها، فكان تاريخهم مفتاح كل معرفة وتاريخ، في سائر المجتمعات التي لم يكن لها قيمة. واتخذ هذا الموقف على الأخص ازاء إفريقيا، فذلك أن الأوروبيين، صاروا لا يعرفون إفريقيا والافارقة إلا من زاوية تجارة الرقيق، بينما كانت هذه التجارة عنها هي التي تسببت في فوضى اجتماعية تتفاقم أكثر فأكثر في العبيد من أقسام القارة.

وحدد هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) هذا الموقف صراحة في كتابه «فلسفة التاريخ» الذي يحتوي على تأكيدات من هذا النوع: «ليست إفريقيا قارة تاريخية، إذ لا تبدي تغييرا ولا تطورا». والشعوب السود (ليس في وسعهم أن يتطوروا ولا أن يتأدبوا، نراهم نحن اليوم على هذه الحال، وهم كانوا دائما كذلك). ومن الجدير أن نلاحظ أنه منذ سنة ١٧٩٣ رأى المسؤولون عن نشر كتاب دلز أنه من اللازم أن يسر نشر تاريخ للداهامي. فيقف موقف هيجل نفسه ويصرح: «لندرك حقا

(١٠) أ. دي اليفيرا دي كادريفا: التاريخ العام للحروب الانكليزية شرح م. دلفادو وأ. داكنا (لشبونة ١٩٤٠ - ١٩٤٢).

(١١) تشتمل نشرة «التاريخ العالمي» على ٢٣ مجلدا يخصص ١٦ منها للتاريخ المعاصر ومن بين هذه اثنان لإفريقيا.

(١٢) لشبونة ١٩٣٧.

الطبيعية البشرية، لا بد من أن نشق طريقا عبر تاريخ أكثر الأتوم نخوشنا [...] ولا سبيل إلى الحكم على قيمة الثقافة في تقويم السعادة البشرية، إلا بمقارنات من هذا النوع» (١٣). وتأثير هيجل المباشر على تحرير تاريخ إفريقيا كان ضعيفا، ومع ذلك فإن الرأي الذي كان يظهره، استفاد أصحاب الرأي التاريخي المستقيم في القرن التاسع عشر. وهذا الرأي الذي أكل عليه الدهر وشرب، والذي يفتقد إلى مستند، مازال له حتى اليوم أنصار. أفلم يصرح أستاذ تاريخ معاصر في جامعة أكسفورد: «قد يصير في المستقبل تاريخ يدرس لإفريقيا، أما اليوم فليس لها تاريخ، وهناك فقط تاريخ الأوربيين في إفريقيا. وما عدا ذلك ظلمات. وليست الظلمات موضوعا للتاريخ. افهموني جيدا، إنني لا أنكر أن أناسا قد أوجدوا حتى في البلدان الحالية والعصور القادمة، كما لا أنكر أنه كان لهم حياة سياسية وثقافة مفيدة لعلماء الاجتماع والانثروبولوجيا، ولكني أعتقد أن التاريخ أساسا هو ضرب من الحركة، بل من الحركة المقصودة. وهو ليس مجرد أشباح أشكال وعادات متحولة ومعارك وغزوات، وأسر مالكة واغتصابات وبنيات اجتماعية وتفكك اجتماعي...»

لقد كان يعتبر أن «التاريخ بل دراسة التاريخ، ترمي إلى هدف. فنحن ندرسه [...] لنكتشف كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه» و يضيف قائلا: أن العالم الحاضر تسيطر عليه أفكار أوروبا الغربية وتقنياتها وقيمتها سيطرة تجعل تاريخ أوروبا وحده هو الذي يعتد به، على الأقل خلال القرون الخمسة الأخيرة، وبقدرا لتاريخ العالم من أهمية. فلا يمكننا إذن أن نسمح لأنفسنا «أن ننسلي بحركات لا جدوى من ورائها لقياتل بربرية في مناطق جميلة في العالم، لكن لم يكن لها أي أثر على ما عداها» (١٤) ومن عجائب الصدف أنه في حياة هيجل، شرع الأوربيون في اكتشاف إفريقيا اكتشافا حقيقيا عصريا علميا، وشرعوا هكذا في وضع أسس للتقويم المنطقي لتاريخ المجتمعات الإفريقية وما حققته من أعمال، وكان هذا الاكتشاف مرتبطا من جهة برد الفعل ضد الرق وتجارة العبيد، وبالمزاخمة على الأسواق الإفريقية من جهة أخرى.

وكان بعض من الأوربيين الأولين يحدوهم حُب صادق للاطلاع على ما في إمكانهم أن يفقوا عليه من ماضي الشعوب الإفريقية، يجمعون المواد التي يعثرون عليها من وثائق مكتوبة إن وجدت، أو من روايات شفاهية وشواهد من آثار الماضي يكتشفونها. وكان إنتاج هؤلاء المكتشفين عظيما واشتمل بعض أجزائه على التاريخ بأدق معانيه، وفي جملته كون مادة كبيرة القيمة للمؤرخين الذين أتوا بعدهم. ومن بين قائمة قصيرة للعناوين، يمكن أن نذكر: رحلات لاكتشاف منابع النيل بقلم جيمس بروس (١٧٩٠)، والفصول التاريخية في روايات ز يارة كوماسي، عاصمة الأشنتي بقلم ت. أ. بوديش (مهمة من ساحل كواس إلى اشنتي) (١٨١٩) وبقلم جوزيف دو بوي (مذكرات إقامة في اشنتي ١٨٢٤) وكتاب هنترش بارث (١٨٥٧ — ١٨٥٨)، (ووثائق التاريخ والجغرافيا والتجارة في إفريقيا الشرقية) بقلم م. قلان (١٨٥٦) والصحراء والسودان بقلم قُسطاف نُشْتِقال (١٨٧٩ — ١٨٨٩).

(١٣) ارشيبالد دازل: تاريخ إفريقيا الداهامي ١٧٩٣، ص ٥.

(١٤) هذه الاستشادات مقتبسة من ملاحظات عرض أول محاولة لسلسة من الدروس ألقاها الأستاذ أوج طريفور هوبر حول «ظهور أوروبا المسيحية» ٢٨ — ١١ — ١٩٦٣، ص ٨٧١.

ان طريق نشأتنا استمر متعبا في طور جديد تماما من تاريخ افريقيا، طور شرع فيه الأوروبيون في غزو القارة والمهيمنة على سكانها. وكان يبدو أن هذا السلوك يتطلب تبريرا أخلاقيا، واذك دعمت الآراء الهيجلية بتطبيق مبادئ داروين.

وكان لهذا التطور نتيجة عرضية تمثلت بظهور علم جديد، هو الانثروبولوجيا وهو طريقة غير تاريخية لدراسة الثقافات ومجتمعات الشعوب «البداية» وتقييمها، أولئك الذي لم يكن لهم «تاريخ يستحق الدرس» أولئك الذين «أدنى من الأوروبيين، وكان من السهل التمييز بينهم وبين هؤلاء بلون بشرتهم.

ومن المفيد أن نذكر هنا مثل رشارد برتن (١٨٢١ - ١٨٩٠) فهو من أكبر الرحالة الأوروبيين في افريقيا في القرن التاسع عشر، وقد كان فكريا منيرا مثقفا متوقدا دائما ومستشرقاً جليلاً. وكان سنة ١٨٦٣ من مؤسسي الجمعية الانثروبولوجية اللندنية (التي صارت فيما بعد المعهد الانثروبولوجي الملكي)، ومع ذلك فإن مسلكه الذي اتسم به كان أكثر نقداً من مسلك نشأتنا، أصبح نهاية الاستكشاف العلمي لافريقيا بدون فكرة مسبقة، ذلك الاستكشاف الذي بدأ مع جيمس بروس. فتجد مثلاً في كتابه مهمة الى سيلبي، مسلك الداهمائي (١٨٦٤) «خروجاً ملحوظاً عن الموضوع في موقع الزنجي في الطبيعة» (وفي الامكان أن يسجل أنه لم يقل «موقع الزنجي في التاريخ»)، ونستطيع أن نقرأ جملاً مثل هذه: «ان الزنجي المحض يحل في الاسرة البشرية تحت العرقين العظيمين العربي والآري» (على أن معظم معاصريه كانوا يربطون هذين الأخيرين ترتيباً معاكساً).

و «الزنجي في الجملة، لن يتحسن ولن يتجاوز نقطة معينة لا تستحق الاحترام، وهو يبقى من الناحية الذهنية صبياً...» (١٥) وعبثاً كان بعض المثقفين الافارقة يقومون بالرد، أمثال جيمس افر يقانس هرتن، عند جدله مع أعيان أعضاء الجمعية الانثروبولوجية اللندنية.

وزاد الطين بلة بالنسبة الى تاريخ افريقيا، أن ثمة مفهوماً لمهنة المؤرخ قد ظهر في ذلك العهد، ولا سيما في ألمانيا حيث صار التاريخ، لا فرعاً من الأدب أو الفلسفة، بل علماً يعتمد على التحليل الدقيق للمصادر الاصلية. فبالنسبة الى تاريخ أوروبا بالطبع، كانت هذه المصادر في معظمها كتابية، وكانت افريقيا تلوح في هذا المجال ضعيفة ضعفاً ملحوظاً. ولقد عرض هذا المفهوم بدقة، للاستاذ ب نيوطن سنة ١٩٢٣ في محاضرة أمام الجمعية الافريقية الملكية في لندن وموضوعها «أفريقيا والبحث التاريخي»، فصرح ان «افريقيا لم يكن لها تاريخ قبل قدوم الأوروبيين»، ويبدأ التاريخ حين يشرع الانسان في الكتابة. ان ماضي افريقيا قبل بداية الامبريالية الأوروبية لا يمكن احياؤه اذن الا «بالاستناد الى شواهد البواقي المادية من لغات وعادات بدائية» وهي أمور لا تهم المؤرخين بل تهم علماء الآثار واللغويات وعلماء الانثروبولوجيا (١٦).

على أن نيوطن نفسه كان هامشياً نوعاً ما بالنسبة الى مهنة المؤرخ كما تصورها هذا العصر. وطيلة قسم كبير من القرن التاسع عشر، كان بعض المؤرخين البريطانيين الاجلاء أمثال جيمس اسطيفن (١٧٨٩ - ١٨٥٩) وهرمن مريغال (١٨٠٦ - ١٨٧٤) وج. أ. فرود (١٨١٨ - ١٨٩٤)

(١٥) نفس المرجع أعلاه، طبعة ١٨٩٣، مجلد ٢، ص ١٣١ و ١٣٥.

(١٦) افريقيا والبحث التاريخي مجلة الجمعية الافريقية، ٢٢ (١٩٢٢ - ١٩٢٣).

و.ج. ر. سيللي (١٨٣٤ — ١٨٩٥) (١٧) قد اهتموا أكثر بنشاطات الاوربيين (او على الاقل بنشاطات مواطنهم) في بقية أنحاء العالم. وخلف «سيللي» كاستاذ تاريخ معاصر بكبريدج، لورد اكنن (١٨٣٤ — ١٩٠٢) الذي درس في المانيا، فشرع حالا بالتحايز «تاريخ كمبريدج المعاصر» فنشر أجزاءه الأربعة عشر فيما بين ١٩٠٢ و ١٩١٠. وركز هذا المؤلف على أوروبا بحيث تجاهل كلية تقريرا، حتى نشاطات الاوربيين في العالم. ثم أصبح التاريخ الاستعماري عموما، بيد رجال أمثال السير شارل لوكاس أو فريال هانوتو في فرنسا (١٨) اللذين اشتغلا أول أمرهما بالشؤون الاستعمارية كما فعل اسطفين وماريغال وفروود.

بيد أن التاريخ الاستعماري أو الامبريالي ولو كان هامشيا بالنسبة للمهنة، أصبح مقبولا مع الأثام، «فتاريخ كمبريدج الجديد المعاصر» شرع في نشره منذ ١٩٥٧ بأشراف السير جورج كلارك، فخصص بعض الفصول لافريقيا وآسيا وأمريكا في كل مجلداته الاثني عشر، ولكن من جهة أخرى أثريت مجموعة تاريخ كمبريدج في تلك الفترة، بسلسلة تاريخ كمبريدج للامبراطورية البريطانية (١٩٢٩ — ١٩٥٩) وكان نيوطن واحدا من مديريها المؤسسين. ولكنه يكفي أن نلقي نظرة سريعة على هذا المؤلف، كي نشاهد أن التاريخ الاستعماري حتى بالنسبة لافريقيا، يختلف جدا عن تاريخ افريقيا.

ومن ضمن مجلدات هذا التاريخ الثمانية، خصصت أربعة لكندا وأستراليا ونيوزيلندا الجديدة والهند البريطانية. و يبقى ثلاثة مجلدات عامة موجهة توجيها قويا نحو السياسة الامبريالية، (فن ضمن ٦٨ فصلا توجد أربعة فصول فحسب تتعلق مباشرة بالعلاقات بين انكلترا و افريقيا) ومجلد واحد خصص لافريقيا الجنوبية، أي الزاوية الوحيدة من افريقيا جنوبي الصحراء التي استقر فيها المستعمرون الاوربيون، استقرارا قويا. ويكاد هذا المجلد بأكمله — وهو أضخم المجلدات حجما، أن يكون مخصصا لشؤون هؤلاء المستعمرين الاوربيين المتشعبة، منذ وصول الاولين منهم سنة ١٦٥٢. وأما الشعوب الافريقية التي تشكل معظم السكان فلقد حشرت في فصل تمهيدي (ليس هوتا تاريخي أساسا) حرره عالم اجتماعي انتروبولوجي، وفي فصلين كتبها مؤرخان من جنوبي افريقيا، هما الأشد تبصرا في جيلهما وهما، س. و. دو كليفيت و. م. مكيلان، ومع ذلك فهما ينظران الى الأفارقة، بالضرورة من خلال رد فعلهم ازاء الحضور الاوربي. وهكذا فإن تاريخ افريقيا، كان يبدو باختصار في مجموعات معلّمة ضخمة، ومن ذلك كتاب «شعوب وحضارات» تاريخ عام في ٢٠ مجلد، نشر بباريس ١٩٢٧ — ١٩٥٢؛ و.ج. فلوونز نشر التاريخ العام ١٠ مجلدات باريس ١٩٢٥ — ١٩٣٨، وبروبيلان ولتافشخت — ١٠ مجلدات برلين ١٩٢٩ — ١٩٣٣، وتاريخ العالم مختصر

(١٧) كان اسطفين موظفا في المكتب الاستعماري من ١٨٢٥ الى ١٨٤٧ وأستاذ تاريخ معاصر بكبريدج من ١٨٤٩ الى ١٨٥٩، أما ماريغال فكان أستاذ الاقتصاد السياسي باسفورد قبل أن يحلّف اسطفين كاتبا أعلى دائما، في المكتب الاستعماري (١٨٤٧ — ١٨٥٩)، وقضى فروع معظم حياته باسفورد حيث كان أستاذ التاريخ المعاصر من ١٨٩٢ الى ١٨٩٤ وأرسل في السبعينات للكاتب الاستعماري لافريقيا الجنوبية، وكان سيللي أستاذ تاريخ معاصر بكبريدج من ١٨٦٩ الى ١٨٩٥.

(١٨) كان لوكاس موظفا بالمكتب الاستعماري البريطاني من ١٨٧٧ الى ١٩١١، وارتقى حتى درجة مساعد الكاتب الأعلى، ثم حصل على منصب في السوال كوليدج باسفورد. وكان هنوتو (١٨٥٣ — ١٩٤٤) مسلک مزدوج، فكان سياسيا ورجل دولة لعب دورا مهما في الشؤون الاستعمارية والخاصة منذ سنة ١٨٩٠، ومؤرخا انتخب بالأكاديمية الفرنسية.

ولتأقشخت في ١٠ مجلدات برن ١٩٥٢؛ «فاسمرانجا اسطوريا = تاريخ عالمي، ١٠ مجلدات، موسكو ١٩٥٥، ونشر الايطالي س. كنتي روسني برومة سنة ١٩٢٨ كتابا ضخما عن تاريخ اثيوبيا. لقد كان المؤرخون الاستعمار يون المحترفون اذن ككل المؤرخين المحترفين عامة، مقيدون بمفهوم للشعوب الافريقية في جنوب الصحراء، مفاده أن لا تاريخ لهم جدير أن يدرس أو يستحق الدرس. وكما رأينا أن نيوطن كان يعتبر هذا التاريخ مجالا لاختصاص علماء الآثار واللغويين والانشروبولوجيين، وإن صح أن علماء الآثار كالمؤرخين يهتمون بموجب مهنتهم بماضي الانسان والمجتمعات، فهم مع ذلك لم يجتهدوا اجتادا يفوق كثيرا اجتهد المؤرخين، ليستخدموا مهنتهم في البحث عن تاريخ المجتمع البشري في افريقيا جنوبي الصحراء، وفي توضيحه. ولذلك سببان رئيسيان:

أولاً: ان أحد الانجهاات الرئيسية لعلم الآثار الذي كان يتمخض إذالك، كان يعلن أنه، كالتاريخ توجهه أساسا المصادر الكتابية، فكان يقتصر على مسائل من نوع مسألة البحث عن موقع مدينة طروادة القديمة، أو على رصد أحداث لم تعرفها بعد المصادر الأدبية المتعلقة بالمجتمعات القديمة في اليونان وروما ومصر، وكانت معالمها الرئيسية مصادر تأملات طيلة قرون، فكان، وما زال غالباً، مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بفرع المهنة التاريخية المعروف باسم التاريخ القديم. وكثيراً ما ينصرف الى البحث عن الكتابات القديمة وحل رموزها، أكثر من انصرافه الى الشعور على ذخائر أخرى. ونادر جداً - كما في اكسوم وزمباواي وحول موقعها أن اعترف أن في افريقيا على جنوب الصحراء معالم لها من الأهمية ما من شأنه أن يلفت نظر هذه المدرسة الاثرية. ثانياً: ان ثمة نشاطاً أساسياً آخر للبحث الأثري كان يتركز حول أصول الإنسان، من خلال منظور جيولوجي أكثر منه تاريخي إزاء ماضي الإنسان. نعم إن قسماً كبيراً من هذا البحث تجمع في النهاية في افريقيا الشرقية والجنوبية، على اثر أعمال علماء أمثال ل. س. ب ليكي وريوند دارت. إلا أن هؤلاء كانوا يبحثون عن ماض متوغل في القدم، مما يصعب معه التأكيد من أن المجتمع كان موجوداً، وكان عادة هوة مفتوحة على الفرضيات، بين المستحاثات التي كانوا يكشفون عنها، وبين السكان المعاصرين الذين كان في وسع المؤرخين أن يدرسوا ماضيهم.

فبينما كان علماء الآثار والمؤرخون في جملتهم حتى الخمسينات يعتبرون أن افريقيا على جنوب الصحراء لم تكن لتليق بهم، فإن عظم الاختلاف في نماذجها الطبيعية ومجتمعاتها ولغاتها لفت حتماً انتباه الانثروبولوجيين واللغويين كلما شرعت اختصاصاتهم في التقدم، وكان بالإمكان لزمن طويل أن يبقى أحد النوعين أو الآخر، علماء في بيت مغلق ولكن رجالاً أمثال برتن و. س. و. كوال (تعدد اللغات الافريقية ١٨٥٤) قد برهنوا مبكراً على قيمة العمل الميداني، وكان الانثروبولوجيون خاصة، هم رواد ذلك في افريقيا. ولكن الانثروبولوجيين أو اللغويين، خلافاً للمؤرخين والاثريين لم يحسوا بضرورة الكشف عما جرى في الماضي، ووجدوا في افريقيا كثرة من الأحداث تنتظر فقط من يصفها ويرتبها ويحللها مما كان يمثل عبئاً ثقيلاً، وكثيراً ما كانوا لا يهتمون بالماضي بقدر ما كانوا يحاولون أن يشيّدوا من جديد تاريخاً كانوا يظنون أنه قد يوجد عند أصل الأحداث المجموعة، وأنه قد يفسرها.

ولكنهم لم يكونوا يفسطون الى أي حد كانت هذه التشييدات تخمينية خيالية، ومن الأمثال الدراسية مثل العالم الانتروبولوجي س. ج. سليقمان الذي كان يكتب بفظاظة في كتابه (عروق افر يقيا) الذي أصدره سنة ١٩٣٠: «ان حضارات افر يقيا هي حضارات الشاميين وتاريخها هو تاريخ هذه الشعوب، وعلاقتها المشتركة مع العرقين الافريقيين الآخرين، الزنوج والبسمان...» (١٩).

و يستنتج أن «هذين العرقين الافريقيين الآخرين» في مرتبة متخلفة، وأن كل النجاحات التي قد تكون قد أنجزتها هي من اثر «الشاميين» الذين أثروا فيها تأثيرا قويا أو ضعيفا. وفي موضع آخر من هذا الكتاب يتحدث سليقمان عن قدوم رعاة «شاميين» موجة بعد موجة «أشد سلاحا وأذكى في آن واحد» من «الزارعين الزنوج المتأخرين» الذين كانوا يؤثرون فيهم (٢٠). ولكنه في الواقع لا يوجد أي برهان تاريخي مهما كان يؤيد التصريحات القائلة «ان الحضارات الافريقية حضارات أبناء الشام» أو أن الترقيات التاريخية التي أنجزتها افر يقيا على جنوب الصحراء تعزى اليهم وحدهم، وأحق بصورة أساسية. ومن المؤكد أن الكتاب نفسه لم يأت بأي برهان تاريخي، وإن الكثير من الفرضيات التي يستند اليها لا أساس لها كما ثبت ذلك فيما بعد. فقد بين ج. هـ. غرينبيرغ نهائيا أن لا مدلول لألفاظ «شامي أو شاميتي» ماعدا في أحسن الحالات كونها مصطلحات لتصنيف لغوي (٢١).

لا شك أن ليس هناك ارتباط لازم بين لغة التخاطب عند شعب ما وبين أصل هذا الشعب العرقي وثقافته، فمن ذلك أن غرينبيرغ يذكر فيما يذكر هذا المثال البديع: «ان الزارعين الهوسا المتكلمين بلغة «شامية» هم تحت سلطة الرعاة الفلانيين المتكلمين بلغة نيجر — كنغو» (أي لغة زنجية) (٢٢) ويدحض أيضا القاعدة الشامية في قسم كبير مما أعاد تشييده سليقمان من تاريخ السود الثقافي، في أجزاء أخرى من افر يقيا، خاصة لدى السكان من ناطقي بنتو.

ولئن اخترنا هنا سليقمان خاصة، فذلك لأنه كان من الشخصيات المرموقة في مهنته ببريطانية العظمى (ومن الأولين الذين قاموا بأعمال جديده ميدانية في افر يقيا) ولأن كتابه صار الى حد ما مصدرا اتساعيا وأعيد طبعه مرات عديدة، وفي سنة ١٩٦٦ عرضه اعلاميا على كونه «اتباعي في نوعه»، ولكن اعتناقه لخلافه تفوق الشعوب ذات البشرة الواضحة على الشعوب ذات البشرة المظلمة، كان ليس الاجزاء من الآراء العامة المسبقة لدى الاوربيين في نهاية القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين. وكان الاوربيون يظنون أن ادعاءهم التفوق على الافارقة السود، أيده الغزو الاستعماري. وفي العديد من الجهات بافر يقيا ولا سيما في المنطقة السودانية وجهة البحيرات الكبرى، نرى الناس موقنين أنهم يتابعون نقل الحضارة التي بدأ بارسانها غزاة آخرون من اللون

(١٩) الكتاب المذكور، ١٩٣٠، ص ٩٦، وط ١٩٦٦، ص ٦١.

(٢٠) الكتاب المذكور، ١٩٣٠، ص ١٥٨، وط ١٩٦٦، ص ١٠١.

(٢١) ج. هـ. غرينبيرغ ١٩٥٣ و ١٩٦٣ والواقع أن غرينبيرغ كمعظم اللغويين المعاصرين يتجنب استعمال لفظ شاميتي ويضم اللغات التي كانت تسمى شاميتية مع اللغات السامية وغيرها في مجموعة تسمى الافرو — اسوية أو أرابيرية، وهم لا يعرفون مجموعة شاميتية متميزة.

(٢٢) غرينبيرغ ١٩٦٣، ص ٣٠.

الأبيض، يسمون في جلّتهم «شاميين» (٢٣) ونجد نفس المعنى في عدد عديد من الكتب في هذه الفترة من ١٨٩٠ الى ١٩٤٠ تقريباً. تلك المصنفات التي تشتمل على أكثر العناصر الجدية للتاريخ، كما لا يوجد في كتب سليقمان. وقد حرر هذه المؤلفات في الغالب رجال ونساء ممن ساهموا في الغزو أو الاستعمار، ولم يكونوا انثروبولوجيين ولا لغويين ولا مؤرخين محترفين، ولكنهم اهتموا صادقين بالمجتمعات الغربية التي اكتشفوها، وودوا التعرف على المزيد من الارشادات عنها واعلام غيرهم بها، فكانوا هواة بأحسن معاني الكلمة: فالسير هنري جونستن وموريس دولافوس مثلاً، قد ساهما فعلاً بكيفية عجيبة في اللغوية الافريقية كما ساهما في عدد آخر من المجالات، ولكن الأول سمي دراسته العظيمة الجامعة «تاريخ استعمار افريقيا من العروق المستتلة» (١٨٩٩) نفع وزيد فيه (١٩١٣). وفي الفروع التاريخية من دراسته العظيمة التي قام بها الثاني حول السودان الغربي، «السنغال الاعلى والنيجر» (١٩١٢)، يلوح الغرض العام حين يتعرض الى الهجرة اليهودية السورية لانشاء غانة القديمة، وقلورا شاو في كتابها (تبعية استوائية ١٩٠٦) كانت دهشة من مساهمة المسلمين في تاريخ افريقيا. أما مرجري برهام، صديقة لورد لوقارد وكاتبة تاريخ حياته، فانها تتعرض بألفاظ ملائمة الى «هذه الحركة الجلييلة في التاريخ، من أولى غزوات العرب لافريقيا الى غزوات قلدي ولوقارد» (٢٤).

وأخيراً تماماً مؤرخ جيد هو، إيف ارفو في كتابه «تاريخ سكان السودان الأوسط ١٩٦٣ وتاريخ برنو ١٩٤٩»، في تفسير معنى التفاعلات بين رجل الصحراء والسود المستقرين، تلك التفاعلات التي يصفها بدقة، بينما يستمر السير رشمند بلمر (مذكرات سودانية ١٩٢٨ وصحراء برنو والسودان ١٩٣٦) وهو عالم آثار موهوب، على البحث عن دوافع عمل الشعوب النيجرية بعيداً في طرابلس أو اليمن.

على أن العلماء السوسيوبولوجيين الانثروبولوجيين البريطانيين، تمكنوا بعد سليقمان تقريباً، من الانفلات من قبضة الفكرة الخيالية الشامية وساد تكوينهم منذ ذلك تأثير. ب. مالينفسكي وأ. ر. رد كليف براون، وكانا مناوئين بحزم لكل ضرب من التاريخ المستند الى الفرضيات. وكانت الطريقة الوظيفية المدققة المتبعة في دراسة المجتمعات الافريقية من قبل علماء الانثروبولوجيا البريطانيين بين ١٩٣٠ — ١٩٥٠، تتجه نحو تثبيت الاهتمام التاريخي فيهم حتى ولو بفضل عملهم الميداني، فلقد كانوا في وضع استثنائي ملائم للحصول على المعطيات التاريخية. ولكنه بقي تقليد أقدم من الإثنوغرافيا على القشارة الاوربية (وأيضاً في أمريكا الشمالية ولأن قليلاً من علماء الانثروبولوجيا الاميركان عملوا في افريقيا قبل سنة ١٩٥٠) تقليد يضم من بين خواصه أنه كان يعبر الثقافة المادية من الانتباه أكثر ما يعبره للبنية الاجتماعية. فكانت نتيجة ذلك كمية كبيرة من الاعمال ذات الأهمية التاريخية ككتاب «ملك جندا»

(٢٣) من الطريف أن نلاحظ أن الطبعة الحالية المصححة، أي الرابعة، من «عروق افريقيا» (١٩٦٦) يوجد فيها ص ٦١، جملة مهمة لا توجد في الطبعة الاحدية سنة ١٩٣٠، يحدد فيها الشاميون بكونهم «أوربيين»، أي أنهم ينتمون الى طين العرق العظيم من البشرية العرق الابيض.

(٢٤) مرجري برهام: لوقارد، سنون السلطة (١٩٦٠) ص ٢٣٤.

لطور ارستام (١٩٤٤)، «وتجارة غينيا» للسرسند ستروم (١٩٦٥). على أنه مما يستحق خاصة مؤلفان (Völkerkunde Von Afrika) لهرمن بومن (١٩٤٠)، و «عمل إفريقيا» لميلدرش وسترن (١٩٥٢) الكتاب الأول هو دراسة موسوعية للشعوب والحضارات الإفريقية التي اهتمت اهتماما كافيا بما عرف من تاريخها، ولا يقاس به أي مؤلف آخر في مجلد واحد. أما الكتاب الثاني: «إفريقيا شعوبها وتاريخ ثقافتهم» (١٩٥٩) بقلم الانثروبولوجي الامريكاني ج. ب. مردوك فانه ضعيف المقارنة اذا أعوزت مؤلفه، في هذا المجال، تجربة زياره مباشرة لإفريقيا، كان من شأنها أن تمكنه من تقييم مواده، وكذلك لأنه تقدم أحيانا بصور تخيلية لها من التطرف في نوعها، ما لصور سليقتان ولأنها أقل خبثا (٢٥). وأما وسترمان فقد كان خاصة لغويا، وكثابة عن تصنيف لغات إفريقيا، هو في كثير من النقاط رائد لكتاب قرينبرغ. كما وفر لكتاب بومن قسما لغويا، إلا أن كتابه (عمل — Geschichte Afrikas) قد أفسدته من سوء الحظ النظرية الحامية وهو أيضا مجموعة ثمينه من الروايات الشفاهية الإفريقية كما كانت موجودة في عصره.

ومن الممكن أن نضيف الى هذه الكتب كتاب ه. أ. و يشوف «ثقافة زمبواي ومنوموتابا» (١٩٤٣)، على الأقل، لتقدم استاذة ليوفرو بينيوس. كان هذا عالم أجناس انثروبولوجي متخصصا في الثقافات، ولكنه أيضا عالم آثار ومؤرخ. وفي مدة نشاطه الموافقة تقريرا للاربعين سنة الاولى من القرن العشرين، كان بلا شك أخصب مؤرخي إفريقيا نتاجا، فقام بعدد وافر من الأشغال الميدانية في كل أقسام القارة الإفريقية تقريرا وعرض نتائج في سلسلة منتظمة من المنشورات، ولكن قليلا من الناس من يطلعها اليوم. لقد كان يجر بالالمانية وهي لغة تضاءلت قيمتها منذ ذلك الوقت بالنسبة الى إفريقيا والاختصاصيين في الدراسات الإفريقية. وقد ترجم عدد قليل من آثاره، وكثيرا ما يصعب نقل مدلولها إذ تراكم فيها النظريات الخرافية المتعلقة بالاطلنتيد وبتأثير أترسكي على الثقافة الإفريقية الخ. ..

في نظر المؤرخين وعلماء الآثار والانثروبولوجيين العصر بين الذين نشأوا نشأة صارمة، يلوح فرو بينيوس عصاميا أصيلا، ولكن قيمة أعماله تتناقص ليس فقط بسبب تفسيراته المغامرة بعض الشيء، بل أيضا بطريقة عمله السريعة السطحية وأحيانا الهدامة، إلا أنه حصل على نتائج، سبق البعض منها سبقا واضحا نتائج باحثين أشد علما أتوا بعده، والبعض الآخر قد يكون من الصعب أو المتعذر الحصول عليها في الظروف الراهنة. و يظهر أنه كان له بالطبع موهبة بل ثقة المخبرين لاكتشاف المعطيات التاريخية. وقد يكون المؤرخون العصر يون ملهمين اذا بحثوا عن هذه المعطيات في

(٢٥) انظر العرض الذي قدمته في مقال «الانثروبولوجيا وعلم النبات والتاريخ» في مجلة التاريخ الإفريقي مج ٢، ج ٢، (١٩٦١) ٢٩٩ — ٣٠٩.

مؤلفاته وقوموها بحسب المعارف الحالية، متحررين من التفسيرات الاعتبارية التي كان يضيفها اليها (٢٦).

ومظاهر الطرافة التي تتميز بها عبقرية عصامية كعبرية فرو بينيوس التي كانت تستمد وحيا من ذاتها، كان لها من النتيجة أن دعمت المؤرخين المحترفين في ما كان لهم من رأي، من أن تاريخ إفريقيا لم يكن حقلا مقبولا لمهنتهم، وعملت على غض الطرف عن كثير من الاعمال الجدية التي تم القيام بها في الفترة الاستعمارية. ومن العوامل التي كان لها دور، زيادة اهتمام الاوربيين بإفريقيا مما أعطى الافارقة أنفسهم صنوفا مختلفة من الثقافات المكتوبة، فكانتهم من التعبير عن اهتمامهم الذاتي بتاريخهم الخاص: وكان هذا هو الشأن خاصة في إفريقيا الغربية، حيث كان الاحتكاك بالاوربيين أطول مدى وأبقى، وحيث وجد اقبال على العلم الاوربي منذ بداية القرن التاسع عشر، وبخاصة في الجهات التي صارت فيما بعد مستعمرات بريطانية. كما أن علماء طبكوتو الذين اعتنقوا الاسلام شرعوا في كتابة تواريخهم باللسان العربي، أو بلغة أعجمي، كذلك في نهاية القرن التاسع عشر أحس الافارقة الذين تعلموا الأبجدية اللاتينية بالحاجة الى تسجيل معلوماتهم عن تاريخ شعوبهم بالكتابة خشية أن يتم استلاب الشعوب من قبل الاوربيين وتاريخهم.

ومن أشهر الآثار من هذا النوع، تلك التي كتبها أفارقة كان لهم نشاط كما كان لمصنفي التواريخ قبلهم — في دين الثقافة المستوردة، واشتقت منه أسماؤهم، نذكر منها «تاريخ شاطئ الذهب وأسنيت» لصاحبه كارل كريستيان ريندورف (١٨٩٥) و«تاريخ اليوروبا» لصامويل جونسن (تم سنة ١٨٩٧ إلا أنه نشر سنة ١٩٢١) فكلهما كتاب تاريخ جدي للغاية. وحتى اليوم ما من أحد في وسعه أن يقوم بعمل في تاريخ اليوروبا بدون أن يرجع الى جونسن. ولكنه لا مناص بدون شك من أن تتبع محاولات في التاريخ من هذا المستوى، بأعمال رواد القومية الأولين ابتداء من ج. أ. ب. هرتن (١٨٣٥ — ١٨٨٣) وأ. و. بليدن (١٨٣٢ — ١٩١٢) الى ج. م. سرباج (١٨٦٤ — ١٩١٠) وج. أ. كازلي هيفرد (١٨٦٦ — ١٩٣٠) وج. ب. دنكه (١٨٩٥ — ١٩٦٥) الذين تناولوا العديد من المسائل التاريخية. ولكن غالبا لأغراض دعائية. ولعل ج. و. دوكرفت جونسن، (بين القومية في إفريقيا الغربية) (١٩٢٨)، (الجغرافيا التاريخية لساحل الذهب) (١٩١٩) وأ. ج. ب. براون (قارئ ساحل الذهب وأسيانيت) (١٩٢٩) ينتميان الى كلا النوعين: ولكن فيما بعد يلوح أحيانا في بعض الأعمال اتجاه الى تمجيد الماضي الإفريقي لمقاومة وهم التفوق الشك في الأوربي، مثلا لدى ج. و. لوكا «ديانة يوروبا» (١٩٤٩) وج. س. كرافت جونسن (مجد إفريقيا) (١٩٥٤)، وقد أظهر بعض المصنفين الاوربيين عين الوجهة، مثلا ايفال ر. ميربوتز في

(٢٦). من المستحيل في فصل من هذا الطول أن نعطي كثرة إنتاج فرو بينيوس حقه، وكان آخر كتاب تألّف له «العمل الثقافي الإفريقي» (فيينا ١٩٣٣)، ومؤلفه الأكثر أهمية كما يبدو مجموعته في ١٢ مجلدا: الملتطيس... (فيينا ١٩٢١ — ١٩٢٨)، ولكنه ينبغي أن نذكر أيضا كتبها وصفتها رحلاته: مثلا اليوروبا ومنشي: وإفريقيا تقول (برلين شرلوطينغ ١٩١٢ — ١٩١٣). انظر المصادر الكاملة في فريد كرتشمير: ليوفرو بينيوس (١٩٣٨)، وبعض الفصول الانكليزية الحديثة (مثلا د. ك. م. اينتا فرو بينيوس في تاريخ إفريقيا الغربية) «المجلة التاريخ الإفريقي» ٤٠، (١٩٧٢)، والمصنفات المذكورة في هذا الفصل كل ذلك يوحى بتجدد الاهتمام بأثار فرو بينيوس.

كشها عن الاكان، فهي تسعى الى منحهم أجدادا وأجدادا من البحر الابيض المتوسط، شبيهين بما كان يرمي اليه لوكا بالنسبة الى اليوروبا (٢٧).

على أنه في اطار أضيق، تهادى بعض الافارقة في تسجيل التقاليد التاريخية المحلية بكيفية جدية موثوق بها. ويبدو أنه كان لأهمية الاتصالات بالمبشرين المسيحيين وعمقها دور كبير. فاوغندا مثلا قد أنجبت مدرسة مهمة من المؤرخين المحليين منذ عصر أ. كفو (الذي نشر كتابه الأول سنة ١٩٠٦) بينما استقر أ. ر. س. س. لاو، ٢٢ مؤرخا، في بلد يوربا، نشروا تأليفهم قبل ١٩٤٠ غالبا (٢٨)، كمصنعي أوغندا، باللغات المحلية. واشتهر أحد مصنفات هذا النوع وهو كتاب «تاريخ مختصر لبنان» ألفه ج. أ. اكارفا الذي أعيد طبعه عدة مرات، منذ نشرته الأولى سنة ١٩٣٤.

ومن جهة أخرى، فإن بعض المستعمرين ذوي العقل الذكي النابه، كانوا يسمعون الى الوقوف على تاريخ من كانوا أنشأوا لتسييرهم والى تسجيله، فكان في نظرهم للتاريخ الافريقي أيضا قيمة عملية، فكان في وسع الاوربيين أن يكونوا اداريين أفضل مما هم عليه لو كان لهم بعض المعرفة بماضي الشعوب التي استعمروها، ثم انه كان من المفيد أن يلقن شيء من التاريخ الافريقي في المدارس التي أنشأوها شيئا فشيئا هم ومواطنوهم المبشرون، على الأقل كتمهيد لدراسة موسعة للتاريخ الانكليزي أو الفرنسي، المخصص لتكوين الافارقة من اجتياز الشهادات المدرسية والبيكالوريات، ولانتدابهم كمساعدين شبه اوربيين ذوي قيمة ثمينة.

وقد ذكرنا آنفا فلورا شاو وهنري جونسون وموريس دولافوس، وأيضا إيف ارفاي وريشند بلسم. وقد ألف غيرهم مصنفات تاريخية عن افريقيا خالية تقريبا من قبليات ثقافية، ولو أنهم أحيانا (هم أو ناشروهم) اختاروا عناوين غريبة، مثلا «خرافات الاصيل من بانقندا السوداء» (١٩١٢) لروث فشر، و«بلاد الزنج» لـ س. هـ ستينغند (١٩١٣)، «أسرة مالكة متضائلة: اشنتي» (١٩٢١) للسير فرنسيس فلر، وهي على حسب تقاليد بوديش ودبوي، و«قوافل الصحراء القديمة» أ. و. بوفيل (١٩٣٣)، والعديد من المصنفات ذات الصبغة العلمية لشارل مونتاي (مثلا: امبراطوريات مالي ١٩٢٩) أو لويس طوكيه (مثل: تاريخ الجبرا ١٩٤٢). ولعل الفرنسيين قد نجحوا أكثر من الانكليز في كتابة تاريخ افريقي صرف، فكان من أقوى مؤلفات هؤلاء المتجهت بعزم نحو محور أوربي، كتاب «تاريخ ساحل الذهب والشنتي» (١٩١٥) لـ و. كلاردج أو «تاريخ القسميا» (١٩٤٠) لسير جون قراي — ولكن ماعدا بعض الفصول الحديثة من نفس المؤلف، عن افريقيا الشرقية، ومن الجدير بالذكر أيضا أن عددا من المديرين الفرنسيين عند عودتهم الى فرنسا (مثلا دولافوس، جورج هردي، هنري لافوري) (٢٩) شرعوا في كتابة توار يخ مختصرة عامة، إما للقارة بأكملها، أو لمجموعة افريقيا جنوبي الصحراء. وسبب ذلك أن الادارة الاستعمارية الفرنسية، كانت ترمي الى الحصول على هياكل أكثر تدقيقا من الادارة الانكليزية لتكوين والبحث، ولذا ذكر من ذلك (سنة ١٩١٧) انشاء لجنة دراسات تاريخية وعلمية في افريقيا الغربية الفرنسية ومجلتها، وقد

(٢٧) «دولة الاكان القدسة» (١٩٥١) «التقاليد الأصلية للاكان» (١٩٥٢) الاكان في غانة معتقداتهم القديمة (١٩٥٨).

(٢٨) انظر ر. س. س. لو. أقدم كتابة تاريخية عن اليوروبا (١٩٤٠).

(٢٩) موريس دولافوس: سود افريقيا (باريس ١٩٢٩)، جورج هردي: نظرة عامة من تاريخ افريقيا (باريس ١٩٣٧)، هنري لافوري: تاريخ سوكا افريقيا (باريس ١٩٤٦).

آل إلى المعهد الفرنسي بإفريقيا السوداء الذي كان مركزه دأكار (١٩٣٨) مع نشرته وسلسلة مذكراته ومن هناك إلى آثار ضخمة كاللوحات الجغرافية لغربي أفريقيا في القرون الوسطى (١٩٥١) بقلم ريمون موني. ومع ذلك فإن مؤرخي الفترة الاستعمارية بقوا هواة خارج التيار الرئيسي لمهنة المؤرخ. وكان ذلك يصبح بالنسبة إلى فرنسا كما يصح بالنسبة إلى بريطانيا العظمى، أنه لئن أحرز رجالاً أمثال دولافوس ولايوري على مناصب جامعية عند عودتهم إلى فرنسا، فإن هذه المناصب كانت لتدريس اللغات الأفريقية أو الإدارة الاستعمارية، لا كمؤرخين دراسيين.

ومن ١٩٤٧ عملت الجمعية الأفريقية للثقافة، وبلغتها: «الحضور الأفريقي» على إرساء تاريخ إفريقي مجرد من الصبغة الاستعمارية، وفي الوقت نفسه شرع جيل من المثقفين الأفارقة الذين تمكنوا من التقنيات الأوروبية لسبر الماضي، في تحديد نظرية خاصة بأداء الماضي الأفريقي، والبحث فيه عن مصادر الإصالة الثقافية التي أنكرها الاستعمار، فدقق هؤلاء المثقفون تقنيات المنهجية التاريخية وفسحوا مجالها، مطهرين إياها من عدد من الحرافات والقبليات الذاتية. ولابد في هذا الصدد من ذكر الملتقى الذي عقدته اليونسكو بالقاهرة ١٩٧٤. فسمح لباحثين أفارقة وغير أفارقة أن يقابلوا آراءهم بحرية عن مشكل عمران مصر القديمة وسكانها.

وظهر في عام ١٩٤٨ «تاريخ ساحل الذهب» لو. أ. ف. ورد وفي السنة نفسها أنشئ بجامعة لندن منصب «محاضر» في التاريخ الأفريقي بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، وأسند هذا المنصب إلى الدكتور رولاند أليفه، ومنذ ذلك العهد شرعت بريطانيا العظمى في برنامج نشر الجامعات في الأراضي التابعة لها: إنشاء معاهد جامعية في ساحل الذهب ونيجييريا، رفعت كلية فوردن بالخرطوم ومكريري كيبالا إلى المستوى الجامعي. وتم عين العمل في المستعمرات الفرنسية والبلجيكية. فأنشئت سنة ١٩٥٠ المدرسة العليا للأدب بداركار، ثم صارت بعد مضي سبع سنوات جامعة فرنسية ذات حظ كامل. وبدأت لوفانيوم أولى جامعات الكونغو (فما بعد الزاير) في عملها سنة ١٩٥٤.

ومن وجهة نظر التدوين التاريخي الأفريقي، فإن تعدد الجامعات الجديدة منذ ١٩٤٨ كان له معناه أكثر مما كان لوجود المعاهد القليلة التي أنشئت من قبل، فكانت تعيش بضعف نظراً إلى قلة إمكانياتها، ومن تلك كولييج ليبيريا وكونفويا وكولييج فوره باي بالسيراليون وقد تم إنشاءهما سنتي ١٨٦٤ و ١٨٧٦.

ثم إن الجامعات التسع التي كانت سنة ١٩٤٠ في إفريقيا الجنوبية، كانت تفتت في ساعدها سياسة التمييز العنصري لنظام بريتوريا: فكان البحث التاريخي والتعليم في هذا الميدان يدوران حول مركز أوروبا وما كان تاريخ إفريقيا سوى تاريخ المستوطنين البيض.

وكل الجامعات الحديثة، بالعكس، قد أحدثت أقساماً للتاريخ بما دعا، لأول مرة، المؤرخين المحترفين بعدد وافر إلى العمل في إفريقيا. ولم يكن من بد في البداية من كون أغلب هؤلاء المؤرخين من جامعات غير أفريقية. ولكن الأفارقة أتت بسرعة، وأول مدير إفريقي لقسم التاريخ كان الاستاذ ك. و. ديك الذي عين في إبادان سنة ١٩٥٦. وتكون عدد من الطلبة الأفارقة، وأحسن المدرسون الأفارقة عندما صاروا مؤرخين محترفين بالحاجة إلى الزيادة في نصيب التاريخ الإفريقي في

مناهجهم، وإذا ما كان هذا التاريخ مازال لم يعرف الا قليلا، أحسوا بحاجة اكتشافه بواسطة بحوثهم.

فمنذ ١٩٤٨ صار التدوين التاريخي بإفريقيا يقترب تدريجيا مما هو عليه في أي جزء آخر من الدنيا، نعم أن له مشاكله الخاصة كالفضالة النسبية للمصادر المكتوبة بالنسبة الى الفترات القديمة، مما أوجب تنمية المصادر الأخرى كالروايات الشفهية واللغوية وعلم الآثار. على أن التدوين التاريخي الإفريقي، وإن هوساهم مساهمات جليلة فيما يخص استغلال هذه المصادر وتفسيرها. فهو لا يتميز أساسا عنه في سائر بلدان الدنيا (أميركا اللاتينية وآسيا وأوروبا)، التي تواجه مشاكل مشابهة لمشاكله.

على أن مردود المواد ليس بالأمر الاساسي عند المؤرخ، بل ان العمل المهم يتمثل في استعمال الشواهد استعمالا نقديا ومقارنيا، لخلق وصف ذكي دال على الماضي. والمهم أيضا أنه منذ خمس وعشرين سنة أکبت جماعات من الجامعيين الافارقة على مهنة المؤرخ. ودراسة التاريخ الإفريقي اليوم نشاط مركز لاختصاصيين من أعلى مستوى. وسيضمن نشرها فيما بعد بفضل التبادلات بين الافارقة، والروابط بين جامعات إفريقيا وجامعات بقية الدنيا. ولكنه ينبغي أن نؤكد أن هذا التطور الايجابي لم يكن ممكنا لولا تحرير إفريقيا من نير الاستعمار. فتثورة مدغشقر المسلحة سنة ١٩٤٧، واستقلال المغرب سنة ١٩٥٥، وحرب الشعب الجزائري البطولية وكفاحات التحرير في المستعمرات الافريقية كلها، قد ساهمت مساهمة قوية في هذا العمل اذ هي كانت تخلق للشعوب الافريقية امكانية الرجوع الى الالتصاق بتاريخها الذاتي وتنظيم مراقبته. وقد أدركت اليونسكو مبكرا هذه الحاجة، فأثارت أو شجعت لقاءات الاختصاصيين، ووضعت وهي على حق، كشرط مسبق ضروب الجمع المنسق للروايات الشفهية. وتلبية لرغبة المثقفين والدول الافريقية، أوعزت اليونسكو منذ ١٩٦٦ بفكرة تحرير تاريخ عام لإفريقيا. ويجري التنفيذ الفعلي لهذا المشروع العظيم منذ سنة ١٩٦٩ تحت إشرافها.

الفصل الثاني

مكانة التاريخ في المجتمع الأفريقي

بوبو هاما و. ج. كي. زيربو

الإنسان حيوان تاريخي ولا يشذ الإنسان الأفريقي عن هذا التعريف. فلقد كَوّن الأفريقي تاريخه كما هو الشأن في كل مكان، وكَوّن لنفسه فكرة عن هذا التاريخ. وفي مستوى الوقائع، أن الأعمال وبراهين الطاقة المبدعة، هي هنا، تحت أبصارنا تحمل شكل أعمال تطبيقية زراعية وأساليب في الطبخ، ومعالجات بالأدوية، وحقوق عرفية، ونظم سياسية، ومنهجيات فنية، ومناسك دينية، وآداب سلوك مدققة. لقد انشأ الأفارقة منذ ظهور بني البشر الأولين وطيلة آلاف السنين، مجتمعا مستقلا تشهد حيويته، على عبقرية منشئيه التاريخية. وهذا التاريخ الذي ولده العمل التطبيقي تصوره فيما بعد مبدئيا كمشروع بشري. ثم هو انعكس واستبطن من قبل الافراد والمجموعات، وصار بذلك اطارا للفكرة ومرجعا ومحلا شعوريا وفكريا، ومبررا للعيش، واطارا للحياة أي «النمذجة».

ولكن الضمير التاريخي انعكاس لكل مجتمع، بل لكل طور ذي دلالة من تطورات كل مجتمع، فلا غرابة اذا حل تصور الأفارقة لتاريخهم وللتاريخ بصفة عامة علامة نموه الخاص. ويكفي انغزال المجتمعات وحده ليكون النظر التاريخي تكييفا دقيقا. فلك موسى (قولتا العليا) مثلا كان يلقب بموغونابا، أي ملك العالم، مما يوضح اثر الضغوط التقنية والمادية على الفكرة التي تكوّن عن الوقائع الاجتماعية السياسية، فيلاحظ مثلا أن الزمن الأفريقي زمن خرافي اجتماعي، ولكن الافارقة أيضا يشعرون أنهم صانعو تاريخهم الذاتي، ثم اننا سنرى أن هذا الزمن الأفريقي زمن تاريخي حقا.

الزمن الخرافي والزمن الاجتماعي

يخس القارئ لأول وهلة وعند مطالعة العديد من المؤلفات الانتولوجية، أن الافارقة كانوا مغمورين غارقين في الزمن الخرافي، وهو محيط فسيح لا شاطئ له ولا معالم، بينما كان سائر الاقوام يقطعون شارع التاريخ، وهو محور واحد له تقوم عليه مؤشرات الرقي. نعم ان الخرافة أي تصوير الماضي تصويرا عجيبا طالما ساد فكر الافارقة في تصورهم لدور حياة الشعوب.

وصل ذلك الى حد، أن اختيار الأحداث الواقعية ومدلولها كانا تابعين لأنموذج «خرافي» كان يقدر حتى أتمه الحركات لدى الملك أو الرعية. وكانت الخرافة تتحكم هكذا في التاريخ بأصناف من العوائد المستمعية الى ما وراء الزمن، وتتحمل أيضا مسؤولية تبرير التاريخ. وفي هذا السياق ظهرت ميزتان واضحتان للتفكير التاريخي: عدم تقيده بالزمن، وما له اساسا من بعد اجتماعي.

في هذه الحالة، ان الزمن ليس هو الديمومة التي تنظم المصير الفردي بل هو النظام التنفسي للمجموعة. وليس هو نهر يجري في اتجاه واحد من منبع معلوم الى مصب معلوم. وفي البلدان النامية صناعا حتى النصارى يجولون فرقا واضحا بين «نهاية الأزمان» وبين الأزل. وقد يكون ذلك لأن الانجيل يقابل مقابلة واضحة بين هذه الدنيا الانتقالية وبين العالم الآتي، ولكن لأن الزمن البشري، بهذا الطريق ولأسباب أخرى، زمن علماني فعلا، والزمن التقليدي الافريقي يشمل ويضم الأزل من قبل ومن بعد، فالأجيال الماضية ليست مفقودة بالنسبة للزمن الحاضر، بل تبقى بشكل ما دائما معاصرة ولها من الأثر ما كان لها منه في حياتها بل أكثر منه، وهكذا تعمل السببية بدون شك من السابق الى اللاحق ومن الماضي الى الحاضر ومن الحاضر الى المستقبل ليس بواسطة الأحداث وبما للحوادث الماضية من وزن فقط، بل بمجملتها مباشرة قد تكون على كل الاتجاهات، فلما أرسل امبراطور ماني كينكو موسى (١٣١٢ — ١٣٣٢) رسولا الى ملك ياطنقا يدعوه الى الدخول في الاسلام، أجابه الأمير موسى أنه لا بد له من أن يستشير أجداده قبل أخذ هذا القرار فيلاحظ هكذا كيف يرتبط الماضي مباشرة بالحال عن طريق العقيدة، وكيف ينتصب الأجداد قيمين مباشرين ممتازين على أمور تحدث بعد قرون. وفي بلاطات العديد من الملوك نرى موظفين مكلفين بنفسير الرؤى، كان لديهم نفوذ كبير في العمل السياسي المزمع القيام به، فكان هؤلاء المعبرون للأحلام بمثابة وزراء المستقبل. ويذكر في ذلك أن ملك روندا «مازي مياكا يوهي» الثالث (في نهاية القرن السابع عشر) رأى في المنام رجالا وضاحي اللون قادمين من الشرق، فحمل الأقواس والسهام ولكنه قبل أن يرميهم بالسهام ز ينها بموزناضح، فجاء هذا السلوك تعبيراً عن صفة المهاجم والمستقبل في آن واحد، أي عن السلوك المرتبك غير الواضح، مما غرس في الضمير الجماعي الروندي صورة متميزة قد لا تكون غريبة عن ظاهرة عدم الصمود في القتال عند هذا الشعب، الذي مارس رغم ذلك الحروب ضد جحافل الألمان في القرن التاسع عشر، وقد شُبهت بالوجه البيض التي رآها الملك في حلمه قبل ذلك بقرنين. وفي مثل هذا الزمن «المعلق» قد يكون للحاضر عمل فيما يعتبر ماضيا، ولكنه يبقى معاصرا. ودم ضحايا اليوم تدخل السرور على أجداد الأمس، وحتى اليوم، فان بعض الأفارقة يحرضون أقرباءهم كي لا يغفلوا عن تقديم القرابين باسم من مات من آبائهم، اذ من لا يتقبل شيئا من القرابين يبقى ضمن الطبقة الفقيرة في العالم الموازي، عالم الأموات، ويضطر الى العيش بما يده به

المحظوظون الذين قدمت «ضحايا» جليلة باسمهم. وبصفة أعمق، إن بعض المذاهب الكونية تسجل في حساب زمن خرافي، إنجازات تقدمية تحققت في زمن تاريخي، لم يعرف بنفس الشكل من كل شخص، فردته ذاكرة المجموعة اللاحقة. ومن ذلك قصة جيكيو التي تخبر عن مولد صناعة الحديد: إن موقاي (الإله) قسم الحيوانات بين الرجال والنساء، إلا أن النساء كن قاسيات جدا، ففترت حيواناتهن وصارت وحشية، فتوسط الرجال لدى موقاي في سبيل نساكنهم وقالوا: «نريد أن نكرمك بذبيح حمل إلا أننا لا نود أن نذبحه بموسى من خشب لكي لا نقع فيما وقع فيه نساؤنا من الأخطار» فشكرهم موقاي على حكمتهم، وعلمهم طريقة صهر الحديد ليحصلوا على أسلحة أشد فاعلية.

وكان هذا المفهوم الخرافي والجماعي من القوة ما جعل الزمن من علامات سلطة الزعماء، فكان الملك شوك المستودع الغاني لسلطان أبيدي، إذ تجمع فيه الزمن الخرافي (و يتجسم فيه البطل الفاتح) والزمن الاجتماعي ويعتبر منبع الحيوية للمجموعة. ولدى البيغوارو في الزاير الشرقي، كما لدى البونسيورو (أوغندا) ولدى الموسي (فولتا العليا) فإن الرئيس هو دعامة الزمن الاجتماعي: «إذا الموامي حاضر فالشعب يحيا، وإن غاب الموامي يموت الشعب. فوئ الملك قاسم للزمن، يوقف كل نشاط والنظام الاجتماعي، وكل عبارة للحياة من الضحك حتى الزراعة والإجماع الجنسي لدى الحيوانات أو الناس، وفترة ما بين ملكين، هي بمثابة قوسين في الزمن، وانتصاب ملك جديد يخلق وحده، من جديد، الزمن الاجتماعي، وينفخ فيه روحه ويعمره من جديد، وكل شيء شامل الحضور في هذا الزمن الخارج عن الزمن في الفكرة الوثنية، حيث يمثل الجزء الكلي وقد يكون دالا عليه، مثل ذلك الشعر والأظافر التي يتحفظ الإنسان من اسقاطها بين يدي العدو خشية أن يكون له أن يضع يده على الشخص ذاته.

نعم إنه ينبغي أن نرتفع إلى مستوى المفهوم العام للعالم كي ندرك نظرة الزمن عند الأفارقة ومدلوله العميق. فنشاهد عند ذلك في التفكير التقليدي، إن الزمن الواقع تحت حواسنا ما هو إلا مظهر من مظاهر زمن آخر عاشته أبعاد أخرى من الإنسان، وعندما يأتي المساء ويمتد الرجل على حصيره أو فراشه قصد النوم، فذاك هو الوقت الذي يختاره شخصه الثاني ليذهب كي يستعيد الطريق الذي سلكه الإنسان طيلة اليوم، ويحل بالاماكن التي حل بها، وإن يعيد الحركات والأعمال التي قام بها في حالة الشعور مدة الحياة اليومية، وخلال هذه التحولات يصطدم الشخص الثاني بقوى الخير وبقوى الشر وبملائكة الخير، كما يصطدم بالسحرة آكلي الأشخاص النسخة الثانية أو «سرو» (في لغة سنغاي وزرما). وإنما تحمل شخصية الفرد في خياله أو نسخته الثانية، يقول السنغاي إن خيال الرجل ثقيل أو خفيف ليعبر عن كون شخصيته قوية أو هزيلة، والغرض من التأميم تقوية الخيال وحمايته، والمطمح الأعلى أن يصل الإنسان إلى أن ينطبق على خياله وأن ينصهر فيه حتى لا يتكون منها سوى هوية واحدة تبلغ من الحكمة والقوة درجة فوق البشرية.

وحيث لا يكون الزمان (والمكان) من العقبات، لا يبلغ هذه الحالة سوى العريف الأكبر، المعلم (كرتي كونينو، زيماء) وكذلك كان حال سي جد العائلة المالكة، كان والد السي مفزعا، أبو الرعود، وإذا ما تغفن سنة عمد إلى أكل الحصى؟ وإذا ما كان له التهاب في الملتحمة أذاك يوقد النار بآهارة، وهو يسبح الأرض بخطاه الفسيحة وهو في كل مكان ولا يحل مكان.



● تمثال صغير من البرونز يمثل سلطنة سلالة السغاي (تيرا، النيجر)، (كليشيه أ. ساليو).

ان الزمن الاجتماعي والتاريخ الذي عاشته المجموعة هكذا، يجمع السلطان الذي يرمز اليه غالبا ويمثل في شيء يسلمه الجدد أو رئيس القبيلة أو الملك الى من يليه، وقد يكون هذا الشيء كرة من ذهب مخفوفة في طبل الحرب مجتمعة مع عناصر اقتلعت من جسم الأسد والفيل والفهد، وقد يحتفظ بهذا الرمز في علبه أو كنار كالحرق (طيبو) التي كانت للملك موسى. وعند السنغاي — زما هو قضيب من حديد حاد من أحد الطرفين، وعند السركو من امبراطورية قوا القديمة كان ذلك صنما في شكل سمك عظيم في خيشومه حلقة، وعند الحدادين هو موقد حدادة يحمر أحيانا ليلا ليعبر عن غضبه، وكان نقل هذه الأشياء يمثل الاسناد القانوني للسلطة. وأعجب مثل هو مثل السونينكي ذرية سني علي. اذ لهم سلاسل من ذهب وفضة أو نحاس تمثل كل حلقة منها جدا من الأجداد، وتمثل المجموعة السلسلة العائلية المالكة حتى سني العظيم. وأثناء حفلات سحرية تلفظ هذه السلاسل بمحضر جمهور معجب، وعند الممات ينقل الأب الأكبر السونينكي مرة أخيرة قاذفا السلسلة، ويلعبها من طرفها الثاني الشخص الذي اختاره خلفا له، ويموت أثر تسليمه السلسلة الى من يكون عليه أن يكون استمرار له، وهذه الوصية العملية توضح بجلاء قوة المفهوم الإفريقي للزمن الخرافي والزمن الاجتماعي، وقد ظن أن هذه النظرة للحركة التاريخية نظرة لا حركية عقيمة، اذ وضعت المثل الأعلى في الماضي عند أصل الزمن وبيدوا أنها تفرض على جحافل الأجيال أن يكون مثلها في تكرار عجبر لحركات الجدد ولما أثره. أفليست الخرافة المحركة لتاريخ ساكن؟

سنرى أنه لا يمكن أن نكتفي فحسب بنظرة التفكير التاريخي عند الأفارقة وحدها.

على أنه لا بد أن نمتدرف أن النظرة الخرافية توجد في أصل التاريخ عند عامة الشعوب، وكل تاريخ في البدء تاريخ مقدس، وهذه النظرة نفسها تتبع التطور التاريخي، فتلج من حين الى آخر في أشكال عجيبة أو غريبة. ومن ذلك الرمز القومي الذي جعل أحد رؤساء الدول المعاصرين المشهورين يتوجه بالحديث الى بلاده، كما لو توجه الى انسان حي، بينما تتجسم خرافة العرق في النظام النازي في طقوس نابغة من أعماق التاريخ، فتعبد ملايين العباد في سبيل المذابح التي نعرفها.

هل يشعر الأفارقة أنهم هم صانعو تاريخهم؟

نعم ان للانسان الإفريقي منذ عدة قرون أسبابا متعددة لكي لا يكون بؤرة لوعي مسؤول. فكثيرا ما روضته أوامر الضغط الخارجية المزيلة للشخصية، وحتى بعيدا عن شاطئ العبيد وعن المركز الذي يسيطر عليه الحاكم الأبيض، لم يخل من أن يوسم في زاوية من زوايا روحه بمجسم العبودية المبيد.

وكذلك في الفترة السابقة للاستعمار، فلقد كان يبدو على عديد من المجتمعات الإفريقية البسيطة شبه المغلقة، أن أفرادها ما كانوا يعون أنهم يصنعون التاريخ، الا على سلم محدود جدا، وفي مستوى محدود غالبا وضمن نطاق الأسرة العظمى، وفي اطار رقابة تقليدية عسيرة ثقيلة تقوم على زعامة الشيخ، على أنه حتى في هذا المستوى بل خاصة في هذا المستوى، كان الشعور بالتنظيم الذاتي للمجموعة وبالحكم الذاتي حادا قويا، فالفلاح اللوني والكباري في قريته، عندما يكون «رب

بيت» (١) كان يشعر أنه يتحكم تحكما فسيحا في مصيره الذاتي. وأقوى دليل، هو أنه في هذه الجهات ذات «الفوضى» السياسية حيث كانت السلطة أحسن الأمور المقسمة بين الناس، قد لاقى الفاتحون من بين المستعمرين أشد الصعوبات في تمركزهم وفرض سلطتهم. وكان الاعتصام بالحريّة هنا الحجة على تذوق المبادرة ورفض الغتراب. وبالعكس في المجتمعات ذات البنيات القوية كان المفهوم الافريقي للرئيس يمنحه مكانة بارزة في تاريخ الشعوب التي يتجسم فيه مشروعها الجماعي. فلا غرابة إذن أن تسرد الرواية كل التاريخ الأصلي للمالينكي في صورة «مدح سنجاتا»، والأمرفس بالنسبة الى سني علي عند السنغاي في منعطف النيجر، فلا يعبر هذا البتة عن اشتراط ايديولوجي يقتل الفكر النقدي، وكذلك في المجتمعات التي يكون فيها اتقوال اداة الأخبار الوحيدة، كان للسلطات التي تراقب شبكة قوية من الكهنة امتياز خاص تقريرا لنشر «الحقيقة» الرسمية. ولكن الكهنة ليسوا جمعا موحدا «مؤمما».

ثم أن أحدث تاريخ لافريقا قبل الاستعمار، يبرهن أن مكانة الزعماء الافارقة في تصورات أذهان الناس ليست من المغالي فيه. فن ذلك حالة «شاكاف» الذي صنع حقا «قوم» الزولو في خضم المعارك. إن كل ما تمكنت الشواهد المكتوبة أو المروية شفاهايا من لمسه من عمل شاكا، كان ولاشك حادثا، عدة مرات في التطور التاريخي الافريقي. ويرجع تشكيل الفرق الموكلة، كما قيل لنا، الى سنجاتا، وعمل اسي توتو كعمل انوكي في انشاء «القومية» الاشنتي، يلوحان في مستوى الفكرة التي كانت للاشنتي فيها حتى اليوم، خصوصا وإن فكرة الزعيم المحرك للتاريخ تكاد لا تقتصر أبدا على صورة مسطبة تعزو كل النمو البشري الى شخص واحد.

وفي غالب الأحيان ينحصر الأمر في مجموعة دينامية عرفت بذلك، ولم يغفل عن مصاحبة الزعماء. حتى من كانوا من مستوى وضع (الكهنة والناطقين باسمهم والخدمة) فيلجئون التاريخ كأبطال.

ويصح الأمر نفسه فيما يخص النساء اللاتي يحملن في الضمير التاريخي الافريقي، خلافا لما صرح به وكرر تكرارا كبيرا، مكانة بدون شك أهم من مكانته في خارج افريقيا. وهذا يدرك بسهولة في المجتمعات ذات النظام الخطي الامومي. ففي وانزربا التي تقع قرب تيرا (باليجير) حيث السيادة على نظام الامومة، عين الفرنسيون في عهد الاستعمار رجلا ليحكم في هذه المجموعة حتى يكون لسكان هذه القرية عين النظام الذي كانت عليه سائر القرى السنغاي، الا أن السونيكنكي (٢) من جهتهم قد احتفظوا بكاهننتهم التي لم تفتأ حتى اليوم تتحمل مسؤولية السلطة الفكرية. وفي غيرها من البلدان قد بدت النساء للناس على أنهن قن بدور من المرتبة العليا في التطور التاريخي للشعوب. فبنات الملوك وأخواتهم وزوجاتهم وأمهاتهم — كتلك المرأة العجيبة لكودجي التي كانت على التتوالي كل ذلك، واستحققت لقب «أم شعب لوندا» — كن في الحل اللائق للتأثير على الاحداث.

(١) ان عبارة جبارا «سوتيغي» تعادل سلبا أدنى مرتبة من دوقوتيقي (رئيس قرية) ودياماتي تقي (رئيس مقاطعة) وكلي تقي (قائد عام)، تدل تدليلا قويا على هذه السلطة.

(٢) في هذه القبيلة فان السلطة تنتقل (عن طريق الحليب) وعلى الرغم من اعتبار رابطة الدم تقوى هذا الانتقال، ولكن عند السيركوفان السلطة تنتقل فقط عن طريق رابطة الحليب.

وأمينة الشهيرة في بلاد الهوسا التي فتحت في القرن الخامس عشر عددا من الأراضي لصالح زاريا، والمدن التي مازالت تحمل اسمها ما هي الا نموذج آخر من بن آلاف النماذج من الفكر، التي عرفت النساء كيف تجعلها في المجتمعات الإفريقية تعبر عن نفوذها التاريخي. ومازالت هذه الفكرة حية حتى اليوم في إفريقيا، اثر ما قامت به المرأة من دور في حرب الجزائر وفي الأحزاب السياسية خلال الكفاح القومي في سبيل استقلال جنوبي الصحراء.

نعم ان المرأة الإفريقية تستعمل أيضا للمتعة والزينة كما توجي به لنا أولئك اللائي يعرضونها علينا مرتديات أقنعة مستوردة، وتحطن بملك داهاوي عند اشرافه على حفلة تقليدية، لكن يشارك في عين هذه المشهد فارسات الأمازون، وهي القوة الضاربة في الجيوش الملكية ضد أو يوضد المهاجمين الاستعماريين في معركة كانا (١٨٩٢). فالنساء الإفريقيات، لما ساهمن به في خدمة الأرض وفي الصناعة والتجارة، وبنفذهن الأدبي على ابنائهن أمراء كانوا أو فلاحين، وبجويتهن الثقافية، اعتبرن دائما كممثلات جليلات في تاريخ الشعوب. وقد كانت معارك في سبيل النساء أو بوجهن وما فتئت قائمة دائما، إذ أن النسوة أنفسهن كثيرا ما لعبن الدور المنوط بالحياة أو الحليقة بواسطة الاغراء، ومثل ذلك مثل أخت سندجاتا أو النساء اللائي أرسلهن ملك سيقو دامنزن الى أعدائه. وبالرغم من التمييز الظاهر في الاجتماعات العامة، كل يعلم أن المرأة في إفريقيا دائمة الوجود في التطور، فالمرأة هي الحياة، وهي أيضا الوعد بانتشار الحياة، وبها أيضا يتم التحالف بين الفرق المختلفة، هي قليلة الكلام بين الجمهور ولكنها تحمل وتعد الأحداث في سر البيوت، ويخلص الرأي العام هذا المعنى في المثل «في استطاعة النسوة أن يفسدن كل شيء، وفي استطاعتهم أن يصلحن كل شيء».

وبالجملة ان الامر في إفريقيا يبدو كما لو أن استمرار البنيات العنصرية للقاعدة الشعبية خلال الحركة التاريخية، قد منح العمل كله طابعا شعبيا ملحوظا. وضعف امكانيات المجتمعات جعل التاريخ من شأن كل الناس (رغم ضعف تقنية وسائل الابلاغ. ولو أن الطم طم تكفل الابلاغ من قرية الى أخرى)، على أن قلة سعة المجال التاريخي كانت على قدر التخوف الذهني لدى كل واحد، فنشأ عن ذلك حس «ديموقراطي» لا ينكر، نشط تصور التاريخ عند الافارقة في معظم الحالات. لقد كان كل واحد يحس أن له دورا وسلطة وان في مكانه، في النهاية أن ينفلت من السيطرة ولو بالانشقاق، إذ أدى الحال للجوء الى المدى الممكن. وأحس بذلك شاكا نفسه في نهاية عهده. وهنا الشعور الذي يحس به الانسان، من أنه يكون التاريخ، حتى على مستوى العالم الصغير القروي والاحساس أيضا بانه هباء في التيار التاريخي الذي أنشأه في القمة الملك الشبيه بالخالق، كل ذلك له أهمية كبيرة الى المؤرخ، فهو في ذاته حدث تاريخي يعمل بدوره على خلق التاريخ.

الزمن الإفريقي زمن تاريخي

هل في الامكان أن يعتبر الزمن الإفريقي كزمن تاريخي، لقد أنكر بعضهم ذلك وزعم أن الإفريقي انما يتصور العالم كتكرار محجر لما كان. فإ الزمان اذا التابع للماضي لا يتكرر أمام كل قادم. يقول: «هكذا فعل أجدادنا» ليبرر أعماله وحركاته، ولكن لو كان الأمر كذلك لوجد ابن بظوظة في محل امبراطورية مالي مجموعات مما قبل التاريخ تسكن ماوي منحوتة في الصخور وترتدي

جلود الحيوانات. ان الطابع الاجتماعي نفسه في المفهوم الافريقي للتاريخ يجعل له بعدا تاريخيا لا ينسكرك، اذ ان التاريخ هو الحياة النامية للمجموعة. وفي هذا الشأن يمكن أن يقال ان الزمن في نظر الافريقي زمن حركي، وليس في المفهوم التقليدي، أو في النظرة الاسلامية التي أثرت في افريقيا، ما يشير إلى أن الانسان سجين حركة قارة في مكانها، أو تكرار دوري. نعم «انه ما دام لا وجود» لفكرة الزمن الرياضي والطبيعي المحسوب بجمع وحدات متجانسة تقاس بأدوات صنعت لهذا الغرض، يبقى الزمن عنصرا معاشا اجتماعيا، ولكنه في هذا السياق ليس عنصرا محايدا لمباليا. ففي المفهوم العام للعالم لدى الافارقة، أن الزمن هو المحل الذي يستطيع الانسان فيه دائما مصارعة الضمور من أجل تطویر طاقته الحيوية. وهذا هو البعد الرئيسي «للوثنية التجسيمية» (٣) الافريقية، حيث الزمن حقل مغلق وسوق تحتك فيها القوى المصاحبة للعالم وتبادل، والمثل الأعلى عند الافراد كما هو عند المجموعات انما هو في مكافحة كل ما ينقص ذاتيتها ولا يحسن صحتها، فيزيد في القوة البدنية وفي مساحة الحقوق التي للشخص، وفي ضخامة قطعة وعدد أولاده ونسائه وقراه. وهذا التصور حركي ولا شك، فقبيلتا شركو وسونينكي (النيجر) متباينتان، الأولى تمثل الماضي وتسمى الى بسط سلطانها على الليل وتهاجم المجتمع، والثانية بالعكس هي مالكة النهار وهي تمثل الحال وتدافع عن المجتمع. وهذه الرمزية في حد ذاتها فصيحة بينة. ولكن دونك قطعة شعرية ذات دلالة، من الابتال السحري عند السنغاي.

ليس هذا من في
هو من فم أ
الذي وهب ب
وهو اعطاه ج
الذي منحه د
وهو اعطاه هـ
الذي وهب و
الذي منحنى اياه

فما هولي ليكن في في أفضل مما كان في فم القدماء.

وهكذا يوجد لدى الافريقي ارادة دائمة للانتماء الى الماضي الذي يمثل لديه نوعا من التبرير. ولكن هذا الابتال لا يعني السكون ولا يتضارب مع القانون العام المتعلق بتجمع القوى وبالرفق، لذلك جاءت العبارة: «فما هولي ليكن في في أفضل مما كان في فم القدماء».

يعبر عن السلطان في افريقيا السوداء بلفظ معناه القوة (٤). وهذا الترادف يشير الى الأهمية التي تعطيها الشعوب الافريقية للقوة، ان لم نقل للشدة في جريان التاريخ، ولكنها ليست هي القوة المادية الفظة، بل هي الطاقة الحيوية التي يتجمع فيها عدد من القوى، تمتد من الكائن الطبيعي الى الحظ والى الكمال الاخلاقي، فالقيمة الاخلاقية تعتبر شرطا حتميا لممارسة السلطان ممارسة صالحة،

(٣) الوثنية التجسيمية أو بالاحرى الديانة التقليدية في افريقيا، تتميز بعبادة الله، وبغوى الارواح الوسيطة.

(٤) فنكا (في لغة بيمرا)، ينكا (في لغة موي)، يان (في لغة سامو).

ويشهد على هذه الفكرة ما يوجد في الحكمة الشعبية، اذ تروي القصص عروضا للرؤساء الغاشمين الذين يحميهم بهم العقاب في النهاية، ومن ثم تستخلص العبرة الأخلاقية من القصة. ولا يقتصر «تاريخ السودان» ولا «تاريخ الفتاش» في الإشادة بفضائل «الحاج عسكية محمد» ولو أنها كانت في الواقع بطمعان في نفع مادي من وراء ذلك، إلا أنها جعلت علاقة منتظمة بين خضال هذا الملك الجيدة وبين «حظه» وهكذا كان يفكر محمد بلو حين دعا «يعقوبا باوتشي» أن يعتبر من تاريخ امبراطورية سنغاي: وتمكن محمد عسكية بفضل عدله من المحافظة على ميراث «سني علي» بل قام بتسليمته، وعندما خرج أبناء عسكية عن عدل الاسلام، تبددت امبراطوريتهم وتقسمت الى العديد من الدولات التي لا تملك أي قوة.

وفي نظرو ولد عثمان دان فوديو، يصح المبدأ نفسه فيما يخص حكوماتهم. «ألقى نظرة الى الماضي والى كل من قاد قبلنا في الماضي... قبلنا وجدت أسرا حاكمة منذ آلاف السنين في بلاد هوسا، وهناك أحرزت شعوب عدة سلطات كبيرة، إلا أنها خسرت اذ كانت بعيدة عن أصولها المتمثلة في العدل وفي العرق والتقاليد، فأفسدها الظلم. ولكي ندوم نحن ينبغي أن تكون قوتنا قوة الحق وقوة الاسلام. وفي نظرنا ان قتل يونقا (ه) وتحطيم عمل نفاتا (ه) وأبرشي (ه) وبوازنقزا (ه) يمكن أن يؤثر في الأجيال الحاضرة حتى خارج تأثير الاسلام. ولكن الأجيال التي ستأتي بعدنا لن تلاحظ كل ذلك، سوف تحكم علينا بحسب قيمة النظام الذي نكون قد أبقيناه لها، وبحسب قوة الاسلام الدائمة التي نكون قد ركزناها، وبالحق والعدل الذي نكون قد فرضناهما في الدولة».

وهذه النظرة الرفيعة لوظيفة الاخلاق في التاريخ، لا تنبعث من معتقدات الزعيم سوكوتو الاسلامية فقط، ففي الأوساط الوثنية أيضا، توجد الفكرة القائلة إن نظام القوى الكونية قد يتخلل بموجب أعمال متنافية للأخلاق، وإن هذا الحثل لابد أن يضر بفاعله. وهذه النظرة للعالم، حيث تكون القيم والمتطلبات الاخلاقية جزءا لا يتجزأ من نظام العالم نفسه، قد تبدو خرافية. إلا أنها كانت تؤثر تأثيرا موضوعيا في سلوك الرجال وبخاصة في سلوك عدد من الزعماء السياسيين الافارقة. وبذلك يمكن أن يقال إن التاريخ إن كان غالبا تبريرا للماضي، فهو أيضا حث على المستقبل. وفي النظم السابقة للنظام الحكومي، كانت السلطة الأدبية التي تضمن سير الشؤون العامة أو تعد لها أحيانا، بيد جمعيات مخصصة، وأحيانا سرية كجمعية «الوئي» في شعب «سينونو» أو البورو في غينيا العليا. وكانت هذه الجمعيات غالبا تكون سلطات موازية، مكلفة بأن تلعب دور المرجع المسؤول خارج النظام المقرر. ولكنها في النهاية، كانت أحيانا تحل سرا محل السلطة النظامية، فكانت تبدو للناس كمراكز سرية للحكم، فتسلم من الشعب ماله من سيطرة على تاريخه الذاتي. وفي هذا الخط من المجتمعات، فإن التنظيم حسب فئات الأعمار يبقى بنية لها أهمية أساسية في مسيرة تاريخ الشعب. وهذه البنية المقررة حسب دورة معلومة، تمكن من الصعود مع تاريخ الشعوب حتى القرن الثامن عشر، ولكنها أيضا كانت تلعب دورا خاصا في حياة المجتمعات الرفيعة حيث لا تجديد تقني يعتد به — فهي اذن جامدة، ولم تكن نزاعات الأجيال غائبة. فكان من المهم اذن أن

نأخذ على عاتقنا — ان صح القول — ترتيب مد الأجيال وتشييد هيكل العلاقات بين هذه الأجيال، لتجنب ما قد تؤول اليه من مواجهات عنيفة نتيجة تحول سريع، فليتنبد الجبل الملتزم بالعمل عضواً من أعضائه يبق في صفوف جيل الشبان اللاحق له مباشرة، ولكن دور هذا العضو ليس في اتحاد حساسة الشبان وقلة صبرهم بل في توجيه اندفاعهم الغير المتروى، حتى لا يصبح وبالا على المجموعة كلها، وحتى لا يساء اعداد المعنيين بتحمل مسؤولياتهم العامة (٦).

ان الوصي بالزمن الماضي كان حاداً جداً لدى الافارقة، وهذا الزمن الذي ينزل بكل ثقله على الحاضر لا يحطم مع ذلك حركيته، كما يشهد بذلك عديد الأمثال. ومفهوم الزمن كالذي يكتشف في المجتمعات الافريقية ليس حقاً ضرباً من «الطبيعة» الافريقية أو من المصاحبات لعصرها. بل هو علامة على مرحلة من التطور الاقتصادي والاجتماعي، وبرهان ذلك ما يلاحظ من فروق واضحة حتى اليوم بين الزمن — المال الذي يقول به أهل المدن من الأفارقة، والزمن الذي يدرسه معاصروهم واخوانهم من المروج. فالهم هو وجود فكرة التطور ابتداء من أصول يبحث عنها. وحتى تحت قشور القصص والأمثال وأدران الخرافات، فان الأمر يتعلق ببذل الجهد لتعقيل التطور الاجتماعي، ولقد بذلت أحيانا الجهود الإيجابية للشروع في حساب الزمن التاريخي. ومن الامكان أن يرتبط هذا بالفضاء، كتقوّل الزمن اللازم لخطو خطوة للدلالة على المدة الدنيا. وقد يرتبط بالحياة البيولوجية كزمن الشيق والزفر، ولكنه غالباً يتقيد بعوامل خارجة عن الانسان الفرد كالظواهر الكونية والإقليمية والاجتماعية، خاصة اذا كانت مستقرة. في منطقة المروج السودانية. يعد عادة العمر عند أهل الديانات التقليدية بعدد فصول الأمطار. فلكي نقول عن انسان إنه مسن، يصرح عادة اما بعدد فصول الأمطار (التي عاشها) أو يستعاض عن ذلك بكيفية مقتضبة بقوله: «قد شرب ماء كثيراً».

وقد وضعت أحيانا أنظمة أكثر تقديرا للحساب (٧)، ولكن المرحلة الحاسمة كانت في هذا الميدان عند استعمال الكتابة، على أن وجود طبقة مثقفة لا يعني البتة توفر وعي الشعب بكامله بتاريخ جماعي، ولكنها تمكن على الأقل من نصب معالم وسط التيار التاريخي تنظم به سيره. ثم ان اعتناق الديانات التوحيدية المرتبطة بتاريخ معلوم، ساهم في مضاعفة تصور الماضي الجماعي، بأنماط كانت تظهر في المرويات، مثلاً في شكل ربط الأسر المالكة ربطاً اعتباطياً بأصول الاسلام التي ساعدت قيمها ومثلها، الرسل السود، على قلب مجرى الأحداث في بلادهم الاصلية.

ولكن انقلاب الزمن تم على الخصوص، عندما دخل العالم مجال المردود الاقتصادي والتراكم

(٦) مثلاً عند اللدانيين من موشو (قرب ابيجان) فان التنظيم حسب الأجيال (وعدها ٥ كل يحكم ٩ سنوات) مازال ساري المفعول حتى في الأشغال ذات الطابع «العصري»: انشاءات، افراح، بمناسبة الحصول على شهادة أو ارتقاء الى درجة أعلى.
(٧) ان ابيشور ولكس عند نقده لكتاب د. ب هينج: «تاريخ الرواية الشفاهية» البحث عن شيميرا. يبين هكذا أن الاكان (قنشي، اشنشي...) كان لديهم نظام تقويم معقد أسبوعي ٧ أيام وشهري ستة أسابيع وستة تسعة أشهر وبعده دورياً لموافقة الدورة الشمسية بطريقة لم توضع تماماً حتى الآن، «فكان اذن من الممكن ضمن تقويم اكان أن يرجع الى اليوم الثامن عشر من الشهر الرابع من السنة الثالثة من ملك الاشنتيان اسي بنصو» وهي طريقة للتاريخ ما فتئت تستعمل في البلدان الأوروبية حتى القرن الثامن عشر وحتى التاسع عشر. انظر أولكلنس ١٩٧٥، صفحة ٢٢٩ و ٥٥.

المالي، عندها فقط تغير مدلول الزمن الفردي والجماعي، عن طريق تقمص الثقافات الاشكال
الذهنية السائدة في البلدان التي أثرت في الأفارقة اقتصاديا وثقافيا. فاكشف الافارقة أنه غالبا ما
ينشئ المال التاريخ، والانسان الافريقي القريب الملتصق بتاريخه، كان يشعر انه هو الذي يصنعه
في مجتمعات مصغرة، وهكذا يواجه هذا الانسان في آن واحد خطر اغتراب عظيم، وفرصة المشاركة
في الرقي الشامل.

الفصل الثالث

الاتجاهات الحديثة في البحوث التاريخية الافريقية وإسهامها في التاريخ بصورة عامة ف. د. كورتن

ان الغرض من هذا المجلد وما يليه من المجلدات، التعريف بماضي افريقيا كما يراه الافارقة. وهو منظور عدل، وقد يكون هو الطريق الأوحـد للوصول الى مجهود دوبي، وهذا ما يفضلـه مؤرخو افريقيا في افريقيا وخارجها. في نظر الافارقة، معرفة ماضي مجتمعاتهم الخاصة تمثل وعيا بالذات لا بد منه لاقرار هويتهم في عالم مائج متنوع. وهكذا فان احياء افريقيا لاح في العشريـات الأخيرة، لا على أنه مشروع اعتباطي غالي الثمن و ينبغي إرجاؤه الى أن تتوفر عناصر تؤشد تأكدا، بل على أنه عنصر أساسي للنمو الافريقي، ولذا كان هم المؤرخين الأوئل في افريقيا وخارجها، أن يتجاوزوا رواسب التاريخ الاستعماري، وأن يربطوا الوثائق من جديد مع التجربة التاريخية للشعوب الافريقية.

وتستعرض أبواب أخرى ومجلدات أخرى هذا التلاقي الجديد، وتدرس التاريخ كتقليد حي دائم الانتشار، ووظيفة المعارف التاريخية في انشاء نظم حديثة للتربية قصد العمل بها في افريقيا المستقلة. وسنعرض في هذا الفصل بالذات مدلول تاريخ افريقيا في الخارج أولا، في نظر مجموعة المؤرخين الدولية، ثم بالنسبة الى مجموع الجمهور المثقف الفسيح.

ان الاهمال الفظيع لتاريخ افريقيا حتى الخمسينات، ما هو في حقل الدراسات التاريخية الا علامة من علامات ظاهرة أوسع. وليست افريقيا وحدها التي ورثت من العصر الاستعماري ميراثا ثقافيا من الواجب تعديده. ففي القرن التاسع عشر غزا الاوربيون معظم آسيا وأخضعوها لنيرهم، أما في أمريكا الإستوائية فلقد كان التخلّف وهيمنة أوربيي ما وراء البحار على الأهالي الافريقيين الاميركيين والهوند، قد أنتجا ظروف الاستعمار في أراض أشارت اتفاقيات القانون الدولي فيها الى

وجود مجموعة من الدول المستقلة. وفي القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حُزف طابع النظام الاستعماري الذي طبع المعلومات التاريخية، منظورات مفهوم أوربي مركزي لتاريخ العالم الذي تم إقراره في عصر الهيمنة الأوربية، وانتشر هذا المفهوم بفضل النظم التربوية التي وضعها الأوربيون في العالم الاستعماري، وحتى في المواطن التي لم تنتصب قط فيها الهيمنة الأوربية، كانت الكلمة لمعلوماتهم نظرا لعصريتها حتى في مظاهر التدوين التاريخي المتمركز حول أوربا. وانقرضت اليوم هذه النظرة الأوربية المتمركزة للعالم من أهم المؤلفات التاريخية الحديثة، إلا أنها مازالت سائدة عند عدة من المؤرخين، وعند الجمهور الأعظم الغير الغربي منه والغربي (١). ويرجع هذا الثبات لكون التاريخ «كان يلقي» عادة في المدرسة، وأنه لم تنتج الفرصة لتعديل المعطيات المكتسبة، وحتى المؤرخون المتخصصون في البحث، كانت تعترضهم عقبات كي يكونوا على علم بما تم اكتشافه في ميادين خارجة عن نطاق نشاطاتهم. وحسب البحوث الأخيرة، فإن الكتب المدرسية كانت متاخرة بقدر عشر سنوات الى عشرين سنة، بينما كانت مصنفات التاريخ العام تحتفظ غالبا بقبليات من معارف أخنى عليها الدهر. فلا يتركز أي تفسير حديث، أو أي عنصر جديد بلا كفاح.

ورغم المدد الفاصلة بين الاكتشاف وبين تعريفه للجمهور، فإن دراسات التاريخ تمر في جلتها بشويرة مزدوجة، بدأت هذه الثورة اثر الحرب العالمية الثانية وهي لم تنته بعد، فالشأن من جهة أن يحول التاريخ ابتداء من الأخبار، حتى ينتهي الى علم اجتماعي يتم بتطور المجتمعات البشرية، ومن جهة أخرى ان تعرض الآراء الوطنية المسبقة بنظرة أكثر اتساعا.

وأثبتت المساهمات نحو هذه الاتجاهات الجديدة من كل الجهات، من أوربا نفسها ومن مؤرخي المدرسة الحديثة في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ومن أوربي ما وراء البحار، ومن أميركا الشمالية ومن القارة الاوقيانوسية، وشملت جهودهم في افساح اطار التاريخ، في آن واحد، شعوبا وأقاليم مازالت مجهولة حتى ذلك الوقت، كما شملت مظاهر من التجربة الانسانية، طالما دفنت تحت مفاهيم تقليدية ضيقة للتاريخ السياسي والعسكري. ونشأة التاريخ الإفريقي في هذا السياق هي ذاتها مساهمة ثمينة، على أن ذلك كان في الامكان أن يؤدي الى اضافة تاريخ جديد انعزالي الى توارخ أخرى، وقد تكون لهذا قيمة في حد ذاته، من شأنها أن تعين على تنمية إفريقيا، دون أن توفر لتاريخ العالم أبغ المساهمات.

ومما لا شك فيه أن التزامت الوطني كان الصفة التي طبعت التقليد القديم التاريخي، أعرق الطبع، وفي النصف الأول من القرن العشرين شرع المؤرخ الضليع في التخلي عن الاتجاه القديم الذي يعتبر التاريخ ملكا شبيها بالخاص.

وحسب هذه النظرة، فإن تاريخ مجتمع معين لا قيمة له الا في ذاته، وأما في الخارج فيفقد كل دلالة. وفي أحسن الحالات ان ما يبديه الأجانب من اهتمام ينتمي الى التطفل، وفي أسوأ الحال هو تجسّس تقليدي. وهذا التأكيد على الاستحواذ على التاريخ، كان واضحا خاصة في التقليد الاوربي

(١) ان لفظ «الغرب» استعمل في هذا الفصل للدلالة على مناطق في العالم مثقفة ثقافة أوربية أو مشتقة منها، ويشمل أيضا أميركا بأجزائها واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية وأستراليا وزيلاندا الجديدة.

في بداية القرن العشرين، وكانت السلطات المسؤولة عن التربية، تميل الى اعتبار التاريخ كتاريخ قومي لا كتاريخ عام لأوروبا ولا كمنظرة معتدلة لتاريخ العالم. التاريخ خرافة معترف بها استغللت لخلق العزة القومية ولبعث فكرة التضحية في سبيل الوطن. لقد كتب لورد ماك أولي (ان) التاريخ في آن واحد قصة واداة للتربية السياسية والأخلاقية (٢) وكان من المتوقع منه ان يلقن الوطنية لا أن يوحى بنظرات صائبة في تنمية البشرية. وبقيت هذه النظرة سائدة في معظم النظم التربوية.

وقد أدلى بعض المؤرخين باعتراضهم، اما باسم العلم أو باسم الشمول الدولي، ولكن أكثرهم اعتبروا الآراء المسبقة القومية طبيعية مهما كانت غير مرغوب فيها. ففي فرنسا من الممكن أن يحصل الطالب على التمييز في التاريخ مع كونه لا يعرف عن أوروبا من وراء الحدود الفرنسية سوى معلومات هزيلة، وذلك بقطع النظر عن آسيا وإفريقيا وأمريكا. وفي العديد من الجامعات الانكليزية من الممكن دائما أن يحرز على الاجازة في الآداب على أساس دراسة التاريخ الانكليزي وحده. واستعمال لفظ «انكليزي» عوض لفظ «بريطاني» استعمال مقصود. فالتلميذ «الانكليزي» قد تكون له كل الحظوظ ليعرف عن تاريخ روما أكثر مما يعرف عن تاريخ بلاد الغال واسكتلندا أو أيرلندا قبل القرن الثامن عشر. ومع اعتبار الفروق الايديولوجية، فإن المشكلة يكاد يكون عينه في أوروبا الشرقية. و يبدو أن البلدان الأوربية الأقل أهمية كمجموعة البينيلوكس واسكندنافيا، هي وحدها التي تعتبر أوروبا ككلا لا يتجزأ.

ثم إن طريقة أميركا الشمالية المعتمدة — كنظائرها الأوربية — في تاريخ الحضارة مازالت مركزة على الاجتناس. و يتمثل سؤالها في «كيف صرنا على ما نحن عليه؟» لا في «كيف صارت البشرية على ما نراه اليوم؟».

وكما رفض مؤرخو كل قارة الاتجاهات المركزة على أوروبا في تاريخهم القومي الخاص، الا ويرجع اليهم واجب الاجلاء الحقيقي نحو تاريخ العالم، حيث يكون لأفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية دور مقبول في المستوى الدولي، وهذا الواجب تحمله خاصة، المؤرخون الذين اهتمت أعمالهم بالثقافات المختلفة، والمؤرخون الافارقة الذين شرعوا في الكتابة عن آسيا أو أميركا اللاتينية، والاوربيين أو الأميركيين الشماليين الذي أخذوا في تفسير تاريخ إفريقيا أو آسيا لصالح مواطنيهم محولين التحيز من الآراء المسبقة المركزة على أوروبا.

وفي اطار هذا المجهود العام، أصبح لدور مؤرخي إفريقيا — في القارة وخارجها — أهمية خاصة وذلك على الأقل لكون تاريخ إفريقيا قد أهمل إهمالا أكبر من إهمال تاريخ سائر المناطق الغير الأوروبية، ولكون الخرافات العنصرية شوهتها أكثر من غيرها، ومن المعلوم أن العنصرية داء من العسير جدا اقتلاعها لكونه متنوع الشكل. وقد جعلت له نظريات في أشكال مختلفة منذ القرن السادس عشر فتجسم في التاريخ بكيفية حادة، وأحيانا في شكل إبادة جماعية في بعض العهود كعهد النخاسة العبيد السود، والحرب العالمية الثانية، ومازالت العنصرية قائمة في صورة تحذيق في

(٢) طوماس باننن ماكولي: مذكرة ٢ فيري (شباط) ١٨٣٥ في موضوع «تربية لمرقة الهند» أذيع نشر اذاعة فسيحة، وأخيرا في «امبرالية» بقلم ب. د. كرتين (نيويورك، ١٩٧١) ص ١٨٢.

افريقيا الجنوبية وغيرها وذلك رغم أعمال اليونسكو (٣) ومنظمات أخرى، قصد البرهنة على ما في ذلك من طبعية غير معقولة، ولكن علاج الآراء المسبقة بطول، إذ أن العنصرية منتشرة ماثلة في الكتب المدرسية، وفي العروض السمعية البصرية المتحيزة، وفي تراث «المعطيات» النفسانية الواعية أو الغير الواعية التي تحملها أحيانا التربية الدينية، وفي الأغلب في الجهالة والظلامية. وفي هذه المعركة يمثل التعليم العلمي لتاريخ الشعوب السلاح الاستراتيجي الحاسم، فذ كانت العنصرية الغربية التي وردت ادعاء التعليم في القرن التاسع عشر، ترتب سلم القيم معتمدة على الفروق الجسمانية، وبما أن أوضح هذه الفروق هولون البشرية، كان الأفارقة يجدون أنفسهم بكيفية أوتوماتيكية في أسفل السلم، إذ كانوا يدون مخالفين للأوروبيين الذين خصصوا أنفسهم بأعلى السلم. وما فتئ العنصريون يصرخون أن تاريخ افريقيا لا أهمية له ولا قيمة: وحيث أن الأفارقة لم يكونوا لينشؤوا «حضارة» جذيرة بهذا الاسم، فإن ما من أمر عندهم يبعث على الإعجاب الا قد تم نسخه وتقليده عن الغير. وهكذا صار الأفارقة مفعولا للتاريخ لا فاعلا له، واعتبروا قادرين على تلقي التأثيرات الأجنبية دون أن يأتوا مقابل ذلك بأية مساهمة لبقية العالم.

فند زمن بعيد، منذ بداية القرن العشرين كان للعنصرية الشبه العلمية أكبر الأثر، وضعف هذا الأثر، بعد ١٩٢٠ لدى الاختصاصيين في العلوم الاجتماعية والطبيعية، وبعد ١٩٤٥ زال هذا الأثر بالقوة في الأوساط العلمية المحترمة. ولكن أثر هذه العنصرية كان يستمر، ففي مستوى معلومات إنسان الشارع كانت العنصرية تغذيها الزيادة في التوترات العرقية في الأوساط المعرضة وقد وافق ظهورها في المدن الغربية ظهور مهاجرين من أصل افريقي أو آسيوي زاد عددهم، فبقيت آثار ردود الفعل الشعبية واضحة. وكان يدعم ذلك ذكر الدروس التي حفظها الناس من المدارس، وبالنسبة لتلامذة عام ١٩١٠، أي الفترة التي كانت فيها العنصرية التي توصف بأطلا بالعلمية، هي التي تمثل المذهب البيولوجي الرسمي، فإن ساعة التقاعد لن تدق الا بعد سنة ١٩٦٠. وأخطر من ذلك ما بقي حيا من استنتاجات اعتمدت على ادعاءات عرقية لم يبق لها معنى بعد. فالمسألة القائلة: «ليس لتاريخ افريقيا أهمية، لأن الأفارقة من جنس أدنى» لم يبق لها ما يدعمها. إلا أن بعض المثقفين الغربيين كانوا يتذكرون من بعيد أن «ليس لافريقيا ماض» ثم انهم نسوا علة ذلك. وهذه الصفة أو بأخرى، فإن ارث العنصرية ما فتئ يدعم تعصبا وطنيا ثقافيا يميل الى اعتبار الحضارة الغربية هي «الحضارة الوحيدة الحقيقية». وفي نهاية الستينات عرضت الإذاعة البريطانية بعنوان «حضارة» سلسلة طويلة من النشرات، مخصصة للتراث الثقافي بأوروبا الغربية فحسب. نعم. من حين الى آخر، قد اعتبرت بعض المجتمعات كمجتمعات «حضارية». ولكن في منتصف القرن صارت درجة محو الأمية تعين الخط الفاصل بين الحضارة. وبين ما بقي. وكانت المجتمعات الافريقية في معظمها قبل العصر الاستعماري مجتمعات أمية، فرمي بها في صنف «البدائيين». على أن غالب افريقيا في الواقع كان مثقفا، بمعنى أن طبقة من الكتاب كانوا يعرفون القراءة والكتابة لا بمعنى محو الأمية الجماعي الذي لم يكن في كل مكان الا ظاهرة من ظاهرات العصر بعد الصناعي.

فكان لاثيوبيا خطها القديم («جيز»). وكل افريقيا الاسلامية، شمال افريقيا والصحراء والشرقي الشمالي من المنطقة السودانية، من السنغال الى البحر الأحمر، والمدن الساحلية من الشاطئ الشرقي حتى مضيق موزمبيق كانت تستعمل الكتابة العربية، وحتى قبيل العهد الاستعماري، فان العربية كانت قد دخلت هنا وهناك عبر الغابة المدارية بواسطة تجار (جوولا)، بينما كانت اللغات البرتغالية والانكليزية والفرنسية تستعمل عادة كلغات للتجارة على طول السواحل الغربية. ومع ذلك فان التعصب القومي الثقافي وقد عززته الجهالة، أدى بالسلطات الغربية الى جعل حدود الصحراء وهي التي تفصل بين الأمية ومحو الأمية، وكان في هذا دعم للنظرية المشؤومة الرامية الى فصل تاريخ افريقيا الشمالية عن تاريخ باقي القارة.

على أن إبعاد «اللامتحضرين» من مملكة التاريخ، لم يكن الا وجهاً من عناصر التقاليد التاريخية الغربية، وكانت الجموع الغربية نفسها تتعجب من هذا الابعاد، ليس تبعاً لتقليبات طبقية واضحة ولا شك، بل لما للتاريخ من طابع تعليمي، كلما مكن مدح مشاهير الرجال من تقديم مثل يقتدي به. ولكن ليس من باب الصدقة أن تكون هذه المثل مأخوذة عن الأغنياء وأصحاب السلطة، فصار التاريخ سرداً لوقائع وأعمال طبقة قليلة من الاعيان. وكانت انماط السلوك التي تشمل عامة مجتمع يقلل من قيمتها أو تحجب تماماً. وتاريخ الأفكار لم يكن تاريخ آراء الناس بل كان تاريخ «النوابا العظمى». والتاريخ الاقتصادي لم يكن تاريخ الاقتصاد أو السلوكات الاقتصادية، بل تاريخ بعض السياسات الاقتصادية الحكومية المهمة وبعض المؤسسات الخاصة، وبعض الأعمال الطريفة في الحياة الاقتصادية. وإذا ما كان المؤرخون الأوروبيون لا يؤمنون بأي اهتمام لقطاع فسيح من مجتمعهم ذاته، فكيف يكون في الامكان أن يهتموا بجميعة أخرى وبثقافات أخرى؟

حتى الآن، فإن الانتماء بين الشوريين اللذين ظهروا في الدراسات التاريخية الحديثة اتبعا نهجين متوازيين أتم التساوي، وذلك لأن التاريخ المركر على أوروبا، وتاريخ الأحياء كانا يتغذيان من نفس المعين. ولكن شيئا فشيئا تم الارتباط الضمني بين ما كانوا يعملون على إفساح حقل الدراسة في المجتمع الغربي، ومن كانوا يسعون الى دفع البحوث التاريخية خارج العالم الغربي دفعا أقوى. ففي البداية تقدم الجمعان محققين بما بينهما من فروق، وكان الهم الرئيسي لمؤرخي إفريقيا، أن يدحضوا الزعم القائل أن ليس لإفريقيا ماضٍ أو ماضٍ ذوقية، وفي الصورة الأولى كان الهدف أن تجاهب الصعوبة مجابهة. وكان بإمكان أخصائيي إفريقيا أن يردوا على ما كانوا يزعمون، بأن ليس لإفريقيا ماضٍ، منكرين بوجود ممالك وإمبراطوريات فسيحة يشابه تاريخها السياسي تاريخ أوروبا في بدايتها، وكان اشتراء الجمهور الغربي من نظرية النخبة (كما هو الشأن لدى الجمهور الإفريقي المشفق ثقافة غربية) من شأنه أن يثل وسيلة لإقامة الدليل في النهاية على أهمية التاريخ الإفريقي، وما تلك إلا بداية متواضعة كانت تكفي لإبراز مظاهر الماضي الإفريقي التي كانت تشابه ماضي الغرب دون أن تصادق على ما ينجم عن سوء التفاهم من تباينات الثقافة. وقليلًا من المؤرخين أيقنوا حتى ذلك الوقت، أن الإمبراطوريات ما هي إلا مؤسسات مضنية فضيحة ليست هي حتما علامة على الرقي السياسي، وقليل منهم كان مستعدا أن يعترف مثلاً، أن من أعظم منجزات إفريقيا، إنشاءها

لمجتمع بدون دولة يعتمد على التعاون أكثر مما يعتمد على الضغط. وإن الدولة الأفريقية نظمت نفسها لكي تحقق استقلالات ذاتية عملية حقيقية.

وهذا الاتجاه الرسمي إلى قبول بعض الخصائص للتدوين التاريخي الدراسي، كخطوة لتجريد التاريخ الأفريقي من النظريات الاستعمارية توجد عموماً في دراسة الفترة الاستعمارية، حيث يوجد من قبل تاريخ «استعماري» رسمي يسعى إلى التأكيد على النشاطات الأوروبية وإلى تجاهل النصيب الأفريقي.

وفي أسوأ الحالات، كان هذا التاريخ يصور الإفارقة في صورة وحوش جنباء أو مختلين. وينتج عن ذلك أن كائنات رفيعة أتت من أوروبا فحققت ما لم يكن للإفارقة أن يحققوه، وحتى في أعلى درجات الموضوعية فإن «التاريخ الاستعماري» لم يكن يمنح الإفارقة سوى أدوار ثانوية على مسرح التاريخ.

وود أن نغير الأدوار، فإن أول مجهود لاصلاح هذا التأويل يقتصر على تغيير القيم. فبعد أن كانوا أبطالا في خدمة الحضارة في سيرها، روادا ولاة مستعمرات وضباط جيش، أصبحوا مستغلين أفضالاً. وصار الأفريقي ضحية بريئة، إلا أنه ليس له من حيلة إلا أن يكون سلبياً، وما زالت حفة من الأوربيين هي التي جعلت أفريقيا وتاريخها كما هما عليه. (لا شك أن الأوربيين كان لهم أحياناً الأدوار الأولى في الفترة الاستعمارية، ولكن المراجعات المستندة إلى البحوث الحديثة في المستوى المحلي، تمكن من التقليل من الأثر الأوربي كما كان يلوح في «التاريخ الاستعماري» المنشور قبل سنة ١٩٦٠).

وثمة خطوة ثانية نحو تحرير تاريخ الفترة الاستعمارية من النزعة الاستعمارية سارت بموازاة موجة الحركات القومية المناهضة بالاستقلال، وها قد ظهر أن للإفارقة دوراً في التاريخ وصار ينبغي إبرازه للعريان. وأزاح الحواجز اختصاصيو العلم السياسي الذين كتبوا في عهد الحركات التحريرية (٤). وبعد ذلك بقليل، خاصة في الستينات، شرع العلماء في الرجوع إلى الماضي، باحثين عن جذور المقاومة وحركات الاحتجاج في بداية العصر الاستعماري، وأكثر من ذلك، بحثوا عن القسفات الأولى لمقاومة النير الأوربي (٥). إن هذه المؤلفات عن حركات المقاومة والاحتجاج مصحح مهم، ولكن تاريخ أفريقيا لم يتصور بعد تصوراً موضوعياً. وفي النهاية، إن تحرير التاريخ الأفريقي في العصر الاستعماري من النزعة الاستعمارية، سوف ينشأ عن صهر الثورة ضد المركز في الأوروبية، مع الحركة المضادة للأعيان. وأخذت الثورة السلوكية تؤثر في تدوين التاريخ الأفريقي، إلا أن هذا التأثير مازال جديداً محدوداً، وبقي الكثير مما يجب نشره، على أن بعض المؤرخين شرعوا في البحث عن طريقة مشتركة متعددة الاختصاصات تمكنهم من تعاطي دراسة تاريخ الفلاحية أو

(٤) انظر مثلاً طوماس هودكين: القومية في أفريقيا الاستعمارية لندن ١٩٥٦، ودايفد إبرن: ساحل الذهب في تحول (برستون ١٩٥٦) وجامس س. كولمان: نيجيريا، أرضية القومية (بركلاي ١٩٥٨)، وشارل أندري جوليان: أفريقيا الشمالية تسير (باريس ١٩٥٢).

(٥) انظر مثلاً جورج شبرسون وطوماس برايس ١٩٥٨: الأفريقي المستقل وجون شليمبي وجذور ثورة الأهالي في نياسالاند سنة ١٩١٥، واستقرارها ودمولها (الدينغ ١٩٥٨)، ي. و. نغز: الثورة في جنوبي روديسيا، دراسة مقاومة أفريقية (لندن ١٩٦٧)، جون البيف: طغانكا تحت حكم الألمان ١٩٠٥ - ١٩١٢ (كمبريدج ١٩٦٩)، روبرت رينغ وعلي أ. مزروعي: الاحتجاج والسلطة في أفريقيا السوداء، أيف برسن: ساموي: ثورة ديولا - ٣ مجلدات (داكار ١٩٦٨).

تاريخ التعدين، كي يستغلوا سائر العلوم الاجتماعية، وأخذ بعضهم يهتمون بمناطق صغيرة متعزلة راجين من دراسات العوالم الصغيرة هذه، أن توضح شبكة تطور البنيات الاقتصادية والاجتماعية الأكثر أهمية والأشد تشعباً (٦). وشقّ البحث طريقه في مجال المشاكل الخاصة في التاريخ الاقتصادي والديني، ولكن التحرر الحقيقي للتاريخ الافريقي من الفكرة الاستعمارية ما فتئ في بدايته.

وتقدم التاريخ التحليلي — وهو أيضاً (التاريخ الميداني) المستند الى البحوث والأسئلة الميدانية، وليس الى تصفح الوثائق فقط — وهو خطوة مهمة في هذا الاتجاه، والاستغناء عن الوثائق يلوح أيضاً أساسياً بالنسبة الى الفترة الاستعمارية، كما هو بالنسبة الى الفترة التي قبلها حيث كانت الوثائق قليلة نسبياً. وخلافاً لما جرى ولما يجري في أوروبا والولايات المتحدة، فإن مشكل «التاريخ الاستعماري دائماً» في الوثائق التي تضخم من قبل الأجانب. فكل من ترك مخطوطاً ضمنه حتى آراءه المسسقة ومشاعره ازاء نفسه وازاء من كانوا يحكمونه وازاء ما كان لهم من دور. وذلك شأن تاريخ السياسة الداخلية في أوروبا والولايات المتحدة، حيث الآراء المسبقة ليس الا فائدة الحكومات. وفي العالم الاستعماري قد يكون للمؤرخ عواقب وخيمة، اذ ما اغفل امكانية اسماع صوت آخر يتضمن الشهادة الشفاهية لمعاصري الفترة الاستعمارية.

ومن الممكن أن يكون مؤرخو افريقيا قد تأخروا بعض التأخر عن سائر زملائهم في بعض الطرق الحديثة، ولكنهم باستعمالهم للروايات الشفاهية فيما قبل عصر الاستعمار أكثر منه في عصر الاستعمار، قد قاموا بعمل رائد. وينقسم هذا العمل الى فترتين، فهي ما بين عامي ١٨٩٠ و ١٩١٤ شرع جيل من الاداريين المثقفين العاملين في مصالح السلطات الاستعمارية، في تأكيد الاحتفاظ بالروايات الشفاهية ذات الأهمية التاريخية. والفترة الثانية ترجع الى نحو الخمس عشرة سنة وانتهت في العشرين ١٩٥٠ — ١٩٦٠ الى الرأي الذي صرح به ج. ب. مردوك سنة ١٩٥٩. فحسب رأيه «لا سبيل الى الوثوق بالروايات الالهية الشفاهية» (٧) وتفتحت العشرة ١٩٦٠ — ١٩٧٠ على نشرة جان فانسينا «الرواية الشفاهية دراسة في المنهجية التاريخية»، فأشارت هذه النشرة الى المراقبات اللازمة والتدق اللازم لاستعمال الروايات الشفاهية استعمالاً علمياً. والأعمال التاريخية الحديثة المستندة الى الرواية الشفاهية المستخدمة الى جانب مصادر أخرى للوثائق، يمكن أن تعتبر نجاحاً ملحوظاً (٨). وأكدت ندوة ذاكار المنعقدة سنة ١٩٦١ بأشرف «المعهد الدولي الافريقي» حول موضوع (المؤرخ في افريقيا المدارية) وندوة دار السلام سنة ١٩٦٥ حول موضوع (منظورات جديدة عن التاريخ الافريقي)، أكد على النظرات الجديدة الضرورية، مشيرين خاصة الى دور

(٦) انظر بولي هيل: مزارع كوكوا في جنوبي غانا (كمبريدج ١٩٦٣).

(٧) مردوك: افريقيا بشعربا وتاريخ ثقافتها، نيويورك ١٩٥٩، ص ٤٣.

(٨) انظر ملا جان فانسينا: مملكة طيوي ١٨٨٢ الى ١٨٩٥ (اكسفورد ١٩٧٣)؛ رينولد. كنت أقدم الممالك مدغشقر ١٥٠٠ — ١٧٠٠ (نيويورك ١٩٧٠)؛ دافيد وليام كوهين: الرواية التاريخية يوسافا، وكنتو (اكسفورد ١٩٧٢)؛ دراسة أ. ج. ألفرا، الملخصة جزئياً في باب (دول دلتا التجزيع وجزيراتها ١٦٠٩ — ١٨٠٠ في تاريخ افريقيا الغربية لـ. د. ج. ف. أ. أجاي وميخائيل كراودر جزائراً، ليندث ١٩٧١، ج ١ ٢٦١ — ٣٠٣. روبرتس، طنزانيا قبل ١٩٠٠ (نيروبي ١٩٦٨) نيان د. ت: مندلجانا على الملحة المندفقة، الحضور الافريقي.

الرواية الشفاهية الذي لا مثيل له كمصدر للتاريخ الافريقي، كما أشار الى ما في وسع المؤرخ أن يستمد منه اللسنية ومن علم الآثار المؤكد بالرواية الشفاهية.

واثر مؤرخو افر يقيا على سائر العلوم الاجتماعية بواسطة أعمالهم حول الفترة قبل الاستعمارية. و يبلج هذا الأثر في مستويات عدة. وفوق كل شيء نحن مدينون له بكونه فرض الاعتراف بأن افر يقياً «التقليدية» لم تبق ساكنة، وأنجه علماء الاقتصاد وإحصائيو العلوم السياسية وعلماء الاجتماع الى دراسة التحولات المسيرة، راجعين الى ظروف «قبل» و «بعد». «قبل» مطبقاً على «المجتمع التقليدي» باعتباره غير متغير، و «بعد» مطبقاً على نظام هذا التحول متضمناً تحويلاً حركياً للصورة السابقة. وكان المؤرخون مترصدين للتطور، مراقبين للتغيرات التي لا تقتأ تجري في المجتمعات البشرية. وأقامت بحوثهم في العشريّات الأخيرة الدليل على أن المنظمات والعوائد وظروف العيش والديانات والاقتصاد، في افر يقيا قبل الاستعمار، تغيرت بنفس السرعة التي تغيرت بها في مجتمعات أخرى بين الثورتين الزراعية والصناعية، وهذه السرعة أقل منها في النظام بعد الصناعي التقليدي الذي مازال يصانع افر يقيا اليوم. على أن جود الماضي (التقليدي) لا ينفك له في أي مكان.

على أن استعمال قاعدة ما واستخدام منطق «تقليد» سبباً لعلماء الانثرو بولوجيا أشد المشاكل خطراً. فنذ العشريّات عمل علماء الانثرو بولوجيا الناطقون بالانكليزية، انطلاقاً من غط اجتماعي، مكن من التأكيد على الدور الذي كان لكل عنصر تأسيسي في الحفاظ على نشاطات الكل. واعترفوا أن المجتمعات الافريقية التي نظروا فيها، قد تغيرت تغيراً كبيراً منذ بداية النظام الاستعماري، واعتبروا ذلك فاسخاً لدلائلهم، ففي نظرهم كان من اللائق أن ترتب الأمور متمركزة في فترة واحدة منتقاة بالصدفة من الماضي السابق مباشرة للغزو الاوربي. وكانوا يزعمون أنه بالامكان ان تكتشف طبيعة هذا المجتمع التقليدي بجمع معطيات المشاهدات الحالية، وبقطع النظر عن كل ما كان يشابه التأثير الأجنبي، وكانت النتيجة «الحاضر الانثرو بولوجي».

وهذا العمل القمهيدي الوظائف في مدين كثيرا لبرونسلاف مالبينوسكي الذي ساد الانثرو بولوجيا البريطانية خلال العشريّتين الثانية والثالثة من هذا القرن، وساهم هذا العمل كثيرا في فهم «مسيرة» المجتمعات البدائية. وقد أحرز «علماء الوظائف» تقدماً هاماً باستكشاف المواقع استكشافاً مدقاً مطولاً وبالمشاهدة المشتركة، وليس باستنطاق الخبرين فقط. ولكن كل عملة لها قفصها، لقد شرع علماء الانثرو بولوجيا في البحث عن مجتمعات بدائية وعن جزر منزلة ثقافياً فقبلوا الآراء الغربية عن الحضارة الافريقية رأساً على عقب. فنشأ عن ذلك فجوات خطيرة في الميدان الوثائقي الخاص بالمجتمعات الافريقية الأكثر أهمية وتشعباً، فز يدت اضافة جديدة لحرقاة «افريقيا البدائية». وساعد مجهودهم الرامي الى تجريد الحاضر الانثرو بولوجي من الحاضر الواقعي، على تقوية الاعتقاد بأن التغير في افر يقيا، انما كان وجوباً يأتي من الخارج، وذلك لكون فرضياتهم بدت تنكر كل تطور للمجتمعات الافريقية قبل دخول الاوربيين.

ومجهودهم الرامي الى تمجيد المجتمع الشاهد لدراسة سيره الاساسي، قد أدى بهم غالباً الى الغفلة عن كون المجتمع الذي يعالجه قصد تحليله على أنه مجتمع ساكن، ليس هو كذلك في الواقع. وأكثر من ذلك كله، ان مجهودهم سيمنهم من التساؤل عن أسباب هذا التطور ووسائله. ولو

تساءلوا عن ذلك لظهور المجتمع الذي يرصدونه في مظهر آخر تماما. ولاشك ان الوظائفية قد تتابع رغم كل شيء سيرها دون مزاحمة النظام التاريخي. فهي تأثرت بدراسات التأقلم الثقافي في الاربعينات والخمسينات، بينما اتجه كلود ليفي ستراوس واتباعه اتجاهها مخالفا تماما في العشرينات المالية للحرب. على أنه فيما يخص الانثروبولوجيا السياسية وبعض مظاهر الانثروبولوجيا الاجتماعية، فلقد اوضحت من جديد، أعمال المؤرخين قبل العصر الاستعماري حركية التطور، وساهمت في منح الانثروبولوجيا قفزة جديدة.

وقد تغيرت دراسة الديانات والمنظمات الدينية الافريقية بتأثير البحوث التاريخية الحديثة. وكان أوائل المنسبين عن الديانة الافريقية في معظمهم، اما علماء الانثروبولوجيا الباحثين عن مجموعة ساكنة من المعتقدات والعادات، واما مبشرين قبلوا فكرة الحاضر الانثروبولوجي في دراستهم للديانات التي كانوا يؤمنون احتلال محلها. فهم اعترفوا بحركية الاسلام التي لا تنكر، وقد كان انتشاره في الفترة الاستعمارية أسرع من انتشار النصرانية، على أن أهم الدراسات عن الاسلام أشرفت عليها الحكومة الفرنسية في افريقيا الشمالية وافريقيا الغربية، بقصد احباط كل حركة انفصالية متوقعة. وكان موضوع هذه الدراسات يهتم بالمنظمات الدينية ورؤسائها أكثر مما يهتم بالتطور داخل الديانة. وفي خلال العشرينات الأخيرة أسهمت عدة عوامل وليس المؤرخون فحسب، في احياء الدراسات الخاصة بالتطور في اطار الديانة. واهتم إحصائيو البعثات التبشيرية بانتشار الديانات الافريقية الجديدة المعتمدة على قواعد بعضها مسيحي، كما اهتموا بالكنائس المستقلة التي انتشقت عن البعثات الاوربية. وأكب علماء الانثروبولوجيا المولعون بالتأقلم الثقافي على أعمال مشابهة، وكان للمؤرخين مساهمة ايجابية بما كان لهم قبل كل شيء من فضول إزاء الديانة في حركات التمرد الاستعمارية وحركات الاحتجاج.

وأما فيما يخص الفترة قبل العصر الاستعماري، فقد وقفوا أيضا على ما كان لحركة الإصلاح الديني في جميع العالم الإسلامي من أهمية عظمى وواضحة. ونتج عن ذلك وعي اقوى بتطور الديانات الغير المسيحية والغير الاسلامية، ولو أن الاخصائيين في مختلف العلوم الاجتماعية، لم يكادوا يشرعون في دراسة خواص هذا التطور بما يستحق من دراسة نظامية.

وفي هذا الموضوع، من الجدير أن نشير الى ما نالت الديانات «الاحيائية» من اهتمام حديث، وكذلك جمعياتها السرية غالبا ذات الوظيفة التاريخية المهمة.

وبينا ليلوح للاخصائيين في مختلف العلوم الاجتماعية أنه في الامكان أن تدرس الديانة الافريقية في جلتها دراسة مفيدة، وذلك بتبادل فسيح في الآراء والطرق، فان الدراسات في الاقتصاد الافريقي ما زالت مقسمة تقسما قاسيا. وقد أظهر الاخصائيون في الاقتصاد، كما أظهر مؤرخو الديانة، في السنوات الأخيرة، أن أنماط الاقتصاد المختلفة ما فتئت تتطور، وإن هذا التطور نابع من محركات داخلية، كما أثرت فيه مؤثرات من وراء البحار، على أن الاقتصاديين وخاصة إحصائيي الانتشار، منقطعون دوما الى دراساتهم غير مكترئين بالثقافة الاقتصادية التي يحاولون التحكم فيها. ولا يكتفي أنهم يميلون الى تجاهل آلية التطور الجاري، بل ان الكثير منهم لا يعيرون كبير اهتمام للأنماط الانسانية الساكنة، التي وضعها علماء الانثروبولوجيا الاقتصاديون.

ولكي تبرر نظرية النمو مثلا، كان من المناسب ان يقرر أن افريقيا الى حد بعيد مكونة من

اقتصادات «عيش» تنتج كل واحدة عائلية في اطارها معظم الخيرات التي تستهلكها وتحقق خدماتها الذاتية. وأكد هذه النظرة خاصة هلامينت حوالي ١٩٦٥، كما أكد في آن واحد نظرية التطور الاقتصادي، المتركة على تجميع الموارد ووسائل الانتاج التي لم يتم استخدامها استخداما كافيا (٩). والواقع أنه لا وجود لمجموعة في افريقيا قبل الاستعمار تفي تماما بمجاياتها الخاصة حتى لا تتعاطى بعض التجارة، وكانت عدة من المجتمعات الافريقية تملك شبكات متشعبة للانتاج وللصادرات المخصصة لجيرانها، وعلى حدود الصحراء كان عدد من القبائل الرعاة تقتني نصف استهلاكها السنوي من الحروريات أو أكث بمقايضة منتجات ماشيتهم بالحبوب، وكان البعض الآخر ينتج بانتظام ما زاد عن حاجته في الزراعة، و يبيعه قصد اقتناء بعض المأكولات المستوردة - الملح والماشية وزبدة قلام وجوز كولا والتبؤ. والخطأ الذي يخطئ في جدول الاقتصاد الافريقي الساكن، هو بدون شك الخرافة الدائمة لافريقيا «البدائية»، و يقوي هذا الخطأ اتجاه علماء الانثروبولوجيا في اختيار أبسط المجموعات، واتجاههم القديم إلى تجريد تصوراتهم من الزمن.

وقد أوضح أهمية التجارة في افريقيا قبل الاستعمار هؤلاء الاقتصاديون وعلماء الانثروبولوجيا الذين درسوا الاقتصاد الافريقي دراسة ميدانية. وقد لاحظ بعضهم أن الاقتصادات الافريقية كانت تتطور بسرعة قبل دخول الأوروبيين في جماعات كثيفة، على أن فريقا جاد عن خط التفكير التقليدي، فأبرز الفروق بين الثقافات الاقتصادية أكثر مما أبرز التشابهات. وقد نعت أعضاء هذا الفريق «بالجوهريّة» إذ أكدوا على دراسة طبيعة الانتاج والاستهلاك الجوهريّة، وسعوا الى ربط كيفية ارضاء الإنسان حاجياته المادية بالاطار الفسح لمجتمع خاص لا لنظرة رسمية. فحاولوا أن يبرهنوا على أن النظرية الاقتصادية لا تنطبق على ميدان بحثهم (١٠)، مما جعل الهوة فسيحة بين اقتصادي التوسع العاملين بوحى نظريات الاقتصاد الضخم لا يعلقون أهمية للوقائع الاقتصادية في الحاضر، وبين الجوهريين الذين لا يعبأون بالنظريات المعاكسة لهم. ولم يسد إختصاصيون تاريخ الاقتصاد هذه الهوة بعد، كما أنهم لم يؤثروا في الآراء الاقتصادية المتعلقة بافريقيا تأثيرا شبيها بما كان للمسؤولين من أثر على الانثروبولوجيا أو على دراسة الأديان، فتقدم التاريخ الافريقي خطوات شاسعة في السنوات الأخيرة خاصة، مستخدما طرقا جديدة ممتدا الى مناطق لم تكن تكتشف بعد، الا أنه لم يستفد كما يلزم من طرق جديدة فتحت في مجالات أخرى، ولم يقابل بسرعة، مثل الاختصاصات الأخرى، تحدي الثورة السلوكية. ولم يستعد من امكانات التاريخ الكمي العجيبة في المادة السياسية أو ما في ميدان الاقتصاد الكمي.

وخلال جولات معمقة أكثر فأكثر لا في ماضي افريقيا، كان اشعاع التاريخ الافريقي الحديث من عمل مجموعة من المؤرخين المحترفين ممن أصبح هذا التاريخ عندهم الموضوع الأساسي في تعليمهم وفي كتاباتهم. وإذا كانت معرفة تاريخ افريقيا في العالم الغربي لم تتقدم ولو بالنسبة الى تدوين التاريخ بأسيا أو أميركا اللاتينية، فذلك لأنها كانت من عمل مؤرخين هواة، لهم نشاطات مهنية

(٩) هلامينت : اقتصاد الجهلات التنامية، لندن ١٩٦٤.

(١٠) للخلاصة المفيدة لهذا الموقف انظر جورج دالتن (١٩٦٨) الاقتصادات البدائية والعتيقة والعصرية، بحث كارل بولاني (نيويورك ١٩٦٨).

أخرى، ولكن لبس لهم منزلة ثابتة في العالم الجامعي، فصارت تعوزهم امكانية التأثير على الأساطير التاريخية في أي بلد غربي. وقبل الحرب العالمية الثانية، قامت بعض البحوث عن إفريقيا في معاهد اسكتلندياfrica أو أوروبا الوسطى والشرقية، ولكن هذه البحوث بقيت هامشية بالنسبة الى البرنامج العام للتعليم العالي، فلم تساعد على تكوين المؤرخين. ويستثنى من ذلك الدراسات المصرية القديمة وبعض المظاهر من ماضي إفريقيا الشمالية في العصر الروماني، وفيما عدا ذلك لم يكن قبل ١٩٥٠ الا قليل من المحترفين من بين مؤرخي إفريقيا، فكان يوجد عدد من الاداريين الاستعماريين ومن المبشرين الدينيين، كما كان يوجد عدد من أهل الكنيسة أو من رجال الدين الأفارقة المتكلمين بأحدى اللغات الدولية، أمثال كارل كريستيان رايندوف في ساحل الذهب وصامويل جونسون عند البيروبا والشيخ موسى كماره في السنغال، وكتابه «زهور البساتين في تاريخ السوداين» لم ينشر بعد بأكمله، ولم يكذ غيره من المؤرخين يشرع في الرجوع اليه (١١).

وقد انكب بعض علماء الانثروبولوجيا أيضا على مواضيع تاريخية، ولكن في إفريقيا حتى ١٩٥٠ لم تعرض أي جامعة برنامجا لائتفا للتخصص في التاريخ الأفريقي في مستوى الاجازة، وسنة ١٩٥٠ ما من مؤرخ محترف قصر عمله على تحرير التاريخ الأفريقي وعلى تدريسه، وبعد ذلك بعشرين سنة، أحرز نحو خمسمائة مؤرخ على الدكتوراه أو على ما يعادلها اختاروا تاريخ إفريقيا ضمن نشاطهم الرئيسي.

وسرعة هذا التحول عجيبة، وإذا ما نظر إليها بعد مرور الزمن، فإنها تجد لها تفسيراً حسناً، ففي إفريقيا وأوروبا وأميركا الشمالية — وعلى كل قارة لأغراض مختلفة — كان الظرف السياسي والشتافي والجامعي ملائماً خاصة لبروز مجموعة من المؤرخين المحترفين الموجهين نحو إفريقيا. ففي إفريقيا، منذ نهاية الاربعينات، كانت الحاجة اليهم ملحة ولا سيما أن حركة هامة لتحقيق الاستقلال، تشدد شيئاً فشيئاً كانت متوقعة، على الأقل فيما يخص معظم إفريقيا الشمالية والغربية. وبعد ١٩٥٠ خلق انشاء جامعات جديدة الحاجة الى تاريخ إفريقيا متجدد معتبر من وجهة النظر الافريقية — في مستوى الجامعة في البداية — ثم هو انحدر الى المدارس بعد المرور بمعاهد التكوين التربوي. ومن رواد هذا المجهود العارم الرامي الى تجديد التربية، ينبغي أن نذكر أنوكاديك، فهو رأس جيل جديد من المؤرخين الأفارقة تجاوزوا مراحل التكوين التربوي الاعتيادي، وتم له ذلك بجامعة لندن. وانخرط في هذه الحركة مؤرخون منفيون عن أوطانهم مثل: د. فاج من جامعة غانة (ساحل الذهب سابقاً)؛ ج. د. هو ريف في فوره باي بالسيرايلون وكرستوفر وريلي وميريل اهرليش بما كيري كليج.

وفي إفريقيا المستعملة للفرنسية ظهرت تدريجياً حركة موازية، فاستمرت الجامعات بالاراضي الفرنسية القديمة، طويلاً بعد الاستقلال، تتبع النظام الجامعي الفرنسي، معتمدة أيضاً بالتقليد التاريخية الفرنسية، على أن بعض الرواد المحجوا بهدوء نحو تاريخ إفريقيا، وتمت في هذا الاطار

(١١) جونسون: تاريخ البيروبا (لاقوس ١٩٢١)، كارل كريستيان رايندوف تاريخ ساحل الذهب (بال، د. ت. ١٨٨٩)، الشيخ موسى كماره: حياة الحاج عمر، نشرة افان، ٣٢ (مسلة ب) ٣٧٠ - ٤١١، ٧٧٠ - ٨١٨ (١٩٧٠)، ترجمه وشره معار صمصم.

مساهمات جسيمة: في السنغال من قبل أحد مختار أمبو وفي فولطا العليا من عمل جوزيف كهي زربو، وفي الكامرون من الأب إنجلبرت مونغ ومنذ بداية الخمسينات أكب على البحث المؤرخون الذي أتوا من الخارج، واستقروا في أفريقيا المستعملة للفرنسية، والذين سيكون لهم دور فعال في الجامعات فهذا جان فانسينا الذي سيكون له دور في تدريس التاريخ الافريقي بجامعة لوفانيم، قد كان مايزال يعمل في منشآت البحث للحكومة البلجيكية بالكنغو ورواندا. وفي الايفان بداكار كان ريموند موني الذي أصبح مدرسا للتاريخ الافريقي في الصربون يشتغل بالبحث عن افريقيا الغربية. وأما إيف برسن الذي مازال حاكما استعماريًا، فقد شرع في بحوث ستكون سنة ١٩٦٨ موضوع كتابه «ساموري» وستمكنه من غرس التاريخ الافريقي في جامعات أبيدجان وداكار. وكان «الحضور الافريقي» بواسطة مجلته ومؤتمري الكتاب والفنانين السود بهاريس وروما سنة ١٩٥٦ و١٩٥٩ يدفع دفعا قويا لهذا الاتجاه.

وكانت هذه النشاطات تسير في افريقيا نفسها نحو الدراسات التاريخية الافريقية، وفي هذا التلاق بين تاريخ افريقيا وتاريخ العالم، كانت الساعة الرئيسية هي تلك التي تقدمت فيها دراسة التاريخ الافريقي على سائر القارات، وكان هذا التقدم مزامنا لتقدم تاريخ افريقيا في الجامعات الافريقية، فنذ ١٩٥٠ شرع رولان ليفيه في تدريس التاريخ الافريقي بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن. وفي الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية الروسية دشّن د. أ. الدروج وزملاؤه من المعهد الاتوغرافي بلينغراد برنامجا نظاميا للبحوث، من شأنه أن يتم في وقت ما، نشر كل الوثائق المعروفة عن افريقيا جنوبي الصحراء منذ القرن الحادي عشر، وأكثره باللغة الشرقية مع ترجمة وتعليقات روسية (١٢)، وفي هذه العشرة نفسها أنشئ أول كرسي للتاريخ الافريقي بالصربون، كما أنشئ كرسي ثاني، كرسي الحاكم السابق للمستعمرات هوبرت ديشان وكرسي ريمون موني، وأشرف هنري برنشفيك من جهته على ادارة البحوث عن التاريخ الافريقي بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا، بينما كان روبرت كرونوفان ينشر النشرة الأولى من خلاصته لتاريخ افريقيا، وقد رجعت عدة مرات وأكملت مرارا منذ ذلك الوقت.

وخارج أوروبا وافريقيا كان التقدم أقل سرعة، وفي أوروبا نفسها لم يقبل التاريخ الافريقي في الدائرة الجامعية الا في البلدان المستعمرة. وفي أميركا، حيث جزء كبير من الأهالي من أصل افريقي، كان من المتوقع أن يظهر بعض الاهتمام بذلك. ولكن مهما كانت أهمية الآثار الثقافية الافريقية، فلا البرازيل ولا الكرييب أبديا كبيرا الاهتمام بها، وفي هايتي أبدى المثقفون شيئا من الميل الى الشكافة الفولكلورية المحلية المرتكزة على الافريقية الراجعة الى أولى اثار الدكتور برايس (١٩٢٠). وفي كوبا شعر بأثر الثقافة الافريقية الكوبية بعض الشخصيات من عالم الآداب، ومن بينهم نيكولا فيلان. على أنه في كوبا وفي البرازيل لم يسبب الميل الى الثقافة الافريقية الاميركية شيئا من الاهتمام بافريقيا ولا بتاريخها. وفي الهند الغربية البريطانية، حظيت حركة ازالة

(١٢) كوبيل، ل. وف متغيف (بالروسية): مصادر عربية لتاريخ افريقيا جنوبي الصحراء والوثوقايتها جلد ١: من القرن السابع الى القرن العاشر (موسكو ١٩٦٠) المجلد الثاني من القرن العاشر الى القرن الثاني عشر (موسكو ١٩٦٥).

الاستعمار بما فيها تحرير التاريخ المحلي بالاولوية البارزة، فلم يكن للافريقانية السياسية حتى بعد عام ١٩٦٠ صدى تاريخي في نفوس مثقفي الانتيبي.

وكان الاهتمام أقل حدة في الولايات المتحدة قبل (١٩٦٠)، والقليل من الدراسات التي وجد منها كان مركزا على شمال افريقيا. وأدى سبر حديث لاطروحات الدكتوراة المتعلقة بالتاريخ الافريقي المقدمة منذ ١٩٦٠ الى ضبط عددها بـ ٧٤ والحق أن هذا المجموع عجيب، ولكنه يتدفع. فعظم الرسائل تتعلق بافريقيا الشمالية وهي من قبل مؤرخين إخصائيين في التاريخ أو الآثار التقليدية أو في افريقيا الشمالية والشرق الاوسط أو — عامة — في الاستعمار الاوربي فيها وراء البحار. وكانت الصدفة وحدها أو تكاد هي التي جعلت موضوع الرسالة يتعلق بافريقيا. وأما موضوع التاريخ الاستعماري فقلما صار إخصائيا حقيقيا بافريقيا، ونجد من الرواد في جامعة يال هنري. ر. رودن. فقد نشر منذ الثلاثينات محاولات عن تاريخ الاستعمار الالاماني في افريقيا، وما فتئ إهتمامه بافريقيا يزداد بعد ١٩٥٠. وكَوْن الأفرقة الأميركيون جما أكثر أهمية. فأكب و. أ. ب. دوبا منذ بداية عمله على دراسة افريقيا، ولوائه لم يتمكن من الاشتغال بها إلا زمن حالته عن التقاعد وهجرته الى غانة. وقبله بكثير سنة ١٩١٦ أسس كارتز. ج. وودسن «صحيفة تاريخ السود» وكانت النشرة في الواقع نشرة افريقية أمريكية أكثر ما كانت افريقية. ولكن التاريخ الافريقي كان رسميا في منظورها، وكان يوجد فيها من حين الى آخر فصول عن ماضي افريقيا. ولكن الداعية الحق لتاريخ افريقيا هو ويليام ليوهنسبري من جامعة هورد، فقام بجملة منعزلة لتسجيل تاريخ افريقيا ضمن منهاج التدريس بالجامعات الاميركية، وحيث كان التمييز العنصري ما فتئ قائما، خاصة في المدارس ذات الأغلبية القوية من السود في الولايات الجنوبية. وهكذا فان ظروف نشر التاريخ الافريقي خارج افريقيا وجدت قبل ١٩٦٠ على درجات مختلفة. وحوالي هذا التاريخ جعل الكفاح في سبيل استقلال افريقيا الشمالية وافريقيا الاستوائية اشعاعا جديدا لافريقيا، فأثار الاهتمام الشعبي الذي انجبه نحو الماضي لا الى الحاضر أو المستقبل. على أن تقدم التاريخ الافريقي في عدة بقاع قد خيب الأمل. فرغم ما أثيرت فشيئا افريقية من أهمية سياسية فان جامعات افريقيا الشمالية وطلبتها لم يتقدموا الا شيئا فشيئا نحو تصور قاري لدراسة ماضيهم ذاته. فكان المغرب يرتبط مع عالم البحر الأبيض المتوسط ومع العالم الاسلامي ومع العالم الشقي في المناطق بالفرنسية الذي كانت باريس مركزه. وكانت هذه العوالم الثلاثة كافية لتعبئة كل اهتمام الجمهور المثقف. وكثيرا ما أكد لسان الحال الرسمي المصري، أن مصر كانت افريقية بقدر ما كانت عربية اسلامية، ولكن دراسات التاريخ بمصر كانت دائما تنتمي الى فكرة تخيرية في الحين نفسه الذي لفت فيه سد أسوان وأعمال الجماعات الاثرية الدولية في نوبيا النظر الى النيل الأعلى.

ان موضوع «الفكرة التخيرية» تلك، كان — بل أكثر من ذلك — فكرة الدراسات التاريخية في افريقيا الجنوبية. فلم تضعف الرقابة السياسية التي كان يقوم بها اوروبوما وراء البحار في جمهورية افريقيا الجنوبية. وفي الجامعات لم يكن يشعر بالتاريخ الافريقي، وأما «التاريخ» فكان تاريخ أوروبا وتاريخ الاقلية الاوربية في افريقيا الجنوبية. ومع كتاب «تاريخ اكسفورد لافريقيا الجنوبية» (١٩٦٩ — ١٩٧١) انفسح المجال حتى حوى الاغلبية الافريقية، الا أن أحد مؤلفيه،

المؤرخ ليونارد طومسون لم يزل يدرس في إفريقيا الجنوبية، والمؤلفة الثانية، مونيكاسولسن، وإن كانت مولعة بالتاريخ، فقد كانت عالمة بالانثروبولوجية، وفي زمراى، حوالي ١٩٦٠، كان الاتجاه يرمي إلى اقحام لمحة عن التاريخ الإفريقي ضمن الدراسات التاريخية، ولكن التصريح الوحيد الطرف، المعلن لاستقلال الأقلية البيضاء إزاء بريطانيا العظمى قد عكس الاتجاه، ومن الغريب أن زيمواى قد انتجت من الطلبة في تاريخ إفريقيا نسبة أعلى من نسبة إفريقيا الجنوبية، ولكن معظمهم اضطروا إلى مواصلة ممارسة مهنتهم في المنفى.

وكانت إفريقيا الاستوائية أول بؤرة لدراسة التاريخ الإفريقي على القارة الإفريقية وفيها سجلت التقدمات المهمة في العشرية الأولى من الاستقلال، فكان التاريخ الإفريقي مادة من مناهج التدريس بالجامعات الاستوائية ولكن الشيء الهام كان أن يبحث عن توازن لائق بين التاريخ المحلي والجهوي والإفريقي والعالمي، أي وبكلمة أدق أن ينزع الاستعمار عن مجموع برنامج التاريخ لا أن يضاف إليه مؤلفة إفريقية، وتمت أكبر التغيرات في إفريقيا الناطقة بالانكليزية، وبها صارت النظم القاسية التي وضعها الأوروبيون أشد طواعية منها في البلدان الناطقة بالفرنسية. فحلت مواد أخرى محل تدريس تاريخ بريطانيا العظمى وإمبراطوريتها، وأخذ تاريخ الإمبراطورية البريطانية يضمحل تماما، بينما انصهر تاريخ بريطانيا العظمى مع تاريخ أوروبا. وفيما يخص تدريس تاريخ أوروبا بإفريقيا، كان التيار الجديد يرمي إلى جعل مختلف التواريخ القومية تابعة لدراسات مواضيع عظمى تتجاوز الحدود، كمواضيع تخطيط المدن أو الثورة الصناعية. وفي الآن نفسه أخذ المؤرخون الإفريقيون ينعون بتاريخ مناطق أخرى — منطقة العالم الإسلامي شمالا مع التأكيد خاصة على أثره في جنوبي الصحراء ومنطقة أميركا اللاتينية أو منطقة آسيا الجنوبية الشرقية، إذ كان في الامكان أن تعتبر موافقتين لبعض مظاهر التجربة الإفريقية، ومنطقة آسيا الشرقية حيث كانت التنمية الاقتصادية باليابان تمثل مثالا قد يكون لإفريقيا أن تعتبر به. وتمثل هكذا أثر التاريخ الإفريقي في تحديد الاتجاه العام نحو تصور للعالم وللماضي متمركزا حقا على إفريقيا دون أن يعني بإفريقيا والأفارقة فحسب، كما كانت السيرة الأوروبية القديمة تقصر همها على الأوروبيين، بل في إطار نظرة عالمية يكون منطلقها إفريقيا لا أوروبا.

ولم يدرك هذا الهدف حتى في أشد الجامعات الناطقة بالانكليزية تقدما، وأنه لا مناص من قضاء مدة لشكويين جيل جديد من المؤرخين الأفارقة المجددين، سوف يقتحمون مسالك جديدة يكونون هم أنفسهم قد اختاروها. وبقيت الجامعات الناطقة بالفرنسية متأخرة بنحو عشر سنوات. فجاءت إبيجان وداكار ومباشي (الوارثة لجامعة لوفان في حق التاريخ) هي أقدم الجامعات الناطقة بالفرنسية، ولم يصبح معظم أساتذة التاريخ فيها أفارقة إلا في بداية السبعينات، بينما تم هذا التطور في أقدم الجامعات الناطقة بالانكليزية في بداية الستينات. والآن وقد احتل المؤرخون الأفارقة مناصبهم في الجامعات الناطقة بالفرنسية، فانه من المتوقع أن يتم تعديل مشابه في تصورات التاريخ العلمي. إلا أن إصلاح برامج التاريخ في المدارس الثانوية في البلدان الناطقة بالفرنسية تم سنة ١٩٦٣، وتبعه مباشرة إصلاح برامج الدراسات التاريخية الجامعية في إطار مناهج المجلس الإفريقي والملاغشي للتعليم.

وكان اثر التاريخ الافريقي على البحث التاريخي وعلى تدريس التاريخ في أوروبا الغربية، مرتبطا بالعلاقات القديمة الاستعمارية، ولذا كانت فرنسا وإنكلترا أهم المراكز الأوروبية لدراسة التاريخ الافريقي.

على أنه في غيرهما من المراكز سجل بعض التقدم في دراسة التاريخ الافريقي، ولا سيما في تشيكوسلوفاكيا وبولونيا كما في الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية الروسية، حيث يدرس تاريخ افريقيا تدريسا نظاميا في جامعة باتريس لومومبا بموسكو، وتتمثل رسالتها الخاصة في تكوين الطلبة الافارقة. وفي بلدان أخرى يتابع إخصائيون منعزلون بمجوتهم في مختلف المراكز الجامعية، على أن ذلك انما يتم بانتظام في معاهد البحث المتبعة للتقليد الألماني في التنظيم الجامعي. فالباحثون المتخصصون في افريقيا، منعزلون بعض الانعزال، وقد يعزل ذلك كون الدراسات التاريخية في العديد من الجامعات الأوروبية، ما عدا إنكلترا وفرنسا، لا تخصص أي نصيب لافريقيا.

والتقاليد العامة في الدراسات التاريخية مستوحاة من فكرة تحيزية في هذه البلدان، ولكن تكوين الحكام الاستعماريين كان له وزن خاص فيها. وبدأت عملية ارجاع هؤلاء الحكام الى بلدانهم منذ ١٩٥٥ تقريرا، وشرع عدد منهم في شغل وظيفة جديدة تتمثل في تاريخ البلدان التي كانوا موظفين فيها.

وهكذا كان الأمر في فرنسا كما يشهد عليه أمثال الاستاذين ديشان وبروسن، فبالنسبة الى هذا البلد كما بالنسبة الى إنكلترا فان انشاء جامعات جديدة افريقية ونموها — منذ الخمسينات — قد فتحا في افريقيا مواطن للشغل، واختار مؤرخون شبان مواضيع افريقية للتدرب على البحث، أو هم عنوا بالتاريخ الافريقي عندما ذهبوا الى افريقيا قصد التدريس فيها. ثم في الستينات والسبعينات ارجع هؤلاء المؤرخون تدريجيا الى بلدانهم وحل محلهم الأفارقة، فأدجوا في سلك التدريس في وطنهم الأب أحيانا، بعدما قضوا ثمانية أو عشرة أعوام في افريقيا. ولم يدرس كل من رجع منهم التاريخ الافريقي ولكن عدد من قام بذلك منهم، عدد له معناه، فعدد المؤرخين العائدين من الجامعات الافريقية الى الجامعات البريطانية بين ١٩٦٥ و ١٩٧٥ قد يتراوح بين ٦٠ و ٧٠ أي أنه يمثل من ٨ الى ١٠ ٪ من جملة المؤرخين المدرسين في الجامعات البريطانية في تلك الفترة. وفي سنة ١٩٧٤ كان ثمة ثلاثة كراس «للتاريخ المعاصر» (والمقصود بذلك عادة تاريخ بريطانيا العظمى المعاصر)، يشغلها مؤرخون، أهم مواضيع مجوتهم كانت مخصصة لافريقيا. وأنه لمن السابق لأوانه أن نحدد أثر هذه العودة من افريقيا على التقاليد التاريخية البريطانية عامة، ولكنه قد يكون مقبولا في فرنسا، ولو أن الاعداد المشابهة أضعف، وأن المدرسين العائدين من افريقيا يمثلون نسبة مئوية أصغر من الملاك الجامعي. فاننا نلاحظ ظاهرة شبيهة بالسابقة (هناك جيل جديد من المؤرخين أخذ يعني بافريقيا). ففي باريس وفي مختلف الجامعات كما في مركز الدراسات الافريقية وهو مشترك بين الجامعات، يوجد عدد من الاخصائيين في التاريخ وفي علم الاجتماع وعلم الآثار كانوا يعملوا مدة تقطول أو تقصر في الجامعات الافريقية، وبقوا مرتبطين بها ارتباطا وثيقا، والامر عينه في اكس وبوردو وليون. وعملت الجامعات الفرنسية والبريطانية بصورة متوازية على تكوين مؤرخين أفارقة يحلون محل

العائدين الى بلدانهم (١٣) فالمعاهد من نوع «مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية» بلندن، والفروع المنتشرة المتفرعة عن الصوريون وعن المدارس العليا بباريس، كانت ترمي الى القيام بدور خاص، ففي المدرسة الأولى (SOAS) مثلاً ٥٨% ممن حصلوا على الدكتوراه في ١٩٦٣ الى ١٩٧٣ بدؤوا بالتدريس في افريقيا، وأقل من ٢٠% من المجموع بريطانيون و ٣٠% فحسب حصلوا على منصبهم الأول في جامعة بر يطانية (١٤). وهذا مما نقص قليلاً من اثر هذه المدرسة المباشر على التربة البر يطانية، ففيها اجتمع أهم مجموع من المؤرخين لافريقيا في أي جامعة من الدنيا، ولكن اثرها الغير المباشر كان عظيماً، وعلاوة على هذه المدرسة فإن جامعات برمنغهام سوسكس وادمبرغ قد خصصت ضمن برامجها مهمة خاصة للتاريخ الافريقي، وعلى الأقل ثمان من الجامعات الأخرى يوجد فيها أخصائي للتاريخ الافريقي يدرس هذه المادة بانتظام لطلبة الحلقة الأولى.

ولعل هذا المستوى الخاص من التطور في بريطانيا العظمى كان متوقعا، نظرا للاهتمامات الاستعمارية والاستعمارية الجديدة الخاصة بهذا البلد ازاء البنيات الجامعية الافريقية. وبالعكس فإن النمو العظيم للبحث عن تاريخ افريقيا في الستينات من قبل اميركا الشمالية، لم يكن متوقعا، خصوصا وان مؤرخي الولايات المتحدة لم يشتهروا بمعالجة موضوع الأفارقة الاميركان في مجتمعاتهم ذاته معالجة عادلة. والأقلية الكبيرة من سلالة الأفارقة في الولايات المتحدة منذ الأصل، لم تزا اهتماما ملحوظا بافريقيا حتى لدى معظم الأفارقة الاميركان. على أن الازدهار المفاجئ لدراسة التاريخ الافريقي يلاحظ في كندا، كما يلاحظ في الولايات المتحدة، ولأن كندا لم تحكم في أي جزء من افريقيا كما حكمت بريطانيا العظمى، ولا هي ضمت من بين رعاياها أقلية مهمة من الافارقة الاميركان، كما هو الشأن في الولايات المتحدة.

وقبل ١٩٦٠ لم يكد تاريخ افريقيا يدرس في أمريكا الشمالية، وحوالي ١٩٥٩ بعيد انشائها لم تضم «جمعية الدراسات الافريقية» سوى ٢١ عضوا في الولايات المتحدة أو كندا، يمكن أن يدعى صفة المؤرخ، ومن بينهم أقل من النصف كانوا يشغلون مناصب جامعية تتطلب منهم أن ينحسروا لتاريخ افريقيا أحسن أوقاتهم.. ثم أن أول مؤتمر دولي لافريقيين عقد في أكراس سنة ١٩٦٢ ضم نحو ثمانمائة مشترك، التي أمامهم الرئيس كوامي نكروما خطاب الافتتاح، فوصف مسؤوليات الاختصاص التاريخي ازاء افريقيا الجديدة، ثم كان السيل المهم، فسنه ١٩٧٠ كان عدد الاميركان الشماليين الاخصائيين في التاريخ وفي علم الآثار الإفريقية قد بلغ ٣٥٠، وكان بعضهم مؤرخين كانوا قد بدؤوا باختصاص آخر ثم غيروا طريقتهم، ولكن معظمهم كانوا طلبة أحيانا لم يكادوا يفارقون الدورة الثانية.

ومن ١٩٦٠ الى ١٩٧٢ خرجت المدارس الاميركية أكثر من ٣٠٠ دكتور في فلسفة التاريخ الافريقي. وكان من بينهم شبان أتوا من افريقيا وبنوون العودة اليها، وكان البعض قد جاء من

(١٣) اني لأشكر الاستاذ ج. ف. أجايي من جامعة لاقوس، والاساذين ج. د. فاج ورولان أوليفيه، على الارشادات التي أمدوني بها عن اثر التاريخ الافريقي في التاريخ عامة في أوروبا، على أن كل خطأ في الواقع أو في التقرير الذي قد يشتمل عليه هذا النص، انما هو محمول على وجدي.

(١٤) رولاند أوليفيه «الدراسات الافريقية التي أجريت في لندن ١٩٦٣ - ١٩٧٣» دراسة لم تنشر قدمت الى المؤتمر الدولي الثالث لأخصائي الدراسات الافريقية، أديس أبابا، ديسمبر ١٩٧٣.

أوروبا ولكن الأغلبية الساحقة كانوا أميركان شماليين، وفيما بين الأفارقة الأميركيين والأوربيين الأميركيين كانت النسبة هي عنها في جلة السكان — نحو ١٠% في الولايات المتحدة، وأقل بكثير في كندا.

وهكذا قد أدى الى نشر تاريخ افريقي في أميركا الشمالية إتجاهان متناقضان في اطار الدراسات التاريخية، فمن آراء المجموعة الأفريقية الامريكية نشأ إيمان ثابت بأن افريقيا ملك للشعوب الأفريقية ولأنبائهم المستقرين في سائر القارات، شأنها شأن أوروبا حيث كانت التواريخ القومية ملكا لكل أمة أوروبية. أي أن الفرق بدا واضحا بين أهداف «تاريخ افريقيا للأفريقيين» و«تاريخ افريقيا في اطار التاريخ العالمي»، على أن الفرق لا يعني المتناوذة «فالتاريخان» ليسا متنافرين، ولأن كلا منهما اختار التأكيد على جوانب مختلفة من الماضي.

فالإتجاه المتمركز التكنولوجي في التاريخ قد زرع جديا في أميركا الشمالية أكثر من خارجها. ففي العديد من المدارس حل محل «تاريخ العالم» القديم، وما هو في الواقع التاريخ الحضارة الغربية الذي فسح المجال خلال الستينات ولاتجاهات جديدة أشد أصالة تضع التاريخ في منظور عالمي، حيث وضعت افريقيا على قدم المساواة مع مناطق ثقافية عظمية أخرى مثل آسيا الجنوبية أو الشرقية. وشرعت عدة أقسام للتاريخ في الجامعات الأمريكية الشمالية في تجاوز التقسيم القديم للتاريخ الى أمريكي وأوروبي، الى تقسيم التاريخ الى ثلاثة فروع الثالث منها — تاريخ العالم الثالث — يعادل الفرعين الأولين.

ولما ينتبه هذا التطور، ولكن بصورة موازية لنشر التاريخ الافريقي في بريطانيا العظمى وفرنسا، ولإعادة التوجيه لبرنامج تدريس التاريخ في الجامعات الافريقية، توقف التطور في مرحلة على طريق، سوف يمكن التاريخ الافريقي من كامل التأثير على التاريخ عامة. وعلى مدى طويل يرتبط النجاح بتضافر الجهود من قبل إخصائيين أفارقة يحرون تاريخ مجتمعاتهم الخاصة، وكذلك جهود مؤرخين غير أفارقة يقولون التاريخ الافريقي لمجتمعات أخرى، كما يؤدي إفساح مجال العلوم الاجتماعية الدولية الى أن ينتبه الإخصائيون في سائر الاختصاصات للمعطيات الافريقية قبل المجازفة بكل تعميم حول حياة المجتمعات البشرية.

الفصل الرابع

المصادر والتقنيات الخاصة بالتاريخ الافريقي لمحة عامة ت. أوبنجا

ان القواعد العامة للنقد التاريخي التي جعلت من التاريخ تقنية الوثيقة، والفكر التاريخي الذي يتطلب دراسة المجتمع البشري في مسيرته خلال العصور، لمن المكتسبات الأساسية التي في امكان كل المؤرخين في كل البلدان أن يستخدموها. وأغفال هذه المصادر قد جعل شعوب افريقيا خلال زمن طويل، خارج حقل المؤرخين الغربيين، وقد كانت أوروبا وحدها عندهم هي كل التاريخ، وفي الواقع ان ما كان خافيا لا يظهر بوضوح، هو اعتقاد مستمر بأنه لا وجود لتاريخ في افريقيا، لفقدان النصوص وفقدان الآثار العلمية. فصار من البين اذن أن أول عمل تاريخي، يتبدئ بتحقيق المصادر، ويقتصر هذا العمل بمشكل نظري أساسي هو التعرف على الطرق التقنية في العمل التاريخي.

حدثت بالباحثين حاجة جديدة عميقة الى المعرفة والادراك مرتبطة ببداية عصر ما قبل الاستعمار، فأنشؤوا التاريخ الافريقي، ولأن بناء منهجية خاصة مازال مستمرا. واكتشفت قطاعات فسيحة من الوثائق، فكانت البحث من التساؤل تساؤلات جديدة. ومهما عرفت غمضات التاريخ الافريقي ازداد هذا التاريخ تنوعا وتم بناؤه بناء مغايرا لم يكن متوقعا، فذخيرة عشرة عاما تقريبا قلبت آلات العمل رأسا على عقب، واعترف اليوم أنه توجد مصادر تستخدم خاصة التاريخ الافريقي: علم الجيولوجيا والانتولوجية القديمة وما قبل التاريخ وعلم الآثار والنبات العتيق والبالينولوجيا وقياسات النشاط الاشعاعي للنظائر، في امكانها أن توفر معطيات زمنية مطلقة عن عمر أزمان البشرية، وثمة جغرافيا طبيعية ومشاكل بشرية، مشاهدات انتولوجية اجتماعية وتحليلها، رواية شفاهية، السننية تاريخية أو مقارنة، وثائق كتابية أوربية، عربية، هندية، صينية، وثائق اقتصادية أو ديموغرافية ملائمة للعلاج الالكتروني.

وبقيت مطاوعة المصادر التاريخية الافريقية عجيبة، فمن اللازم دائما أن يبحث بانتظام عن توافرات ذهنية تربط بين قطاعات كانت في الماضي متميزة، أما استخدام المصادر استخدما متقاطعا فقد بدأ من باب التجديد الكيفي، ولا يمكن تحقيق بعض العمق الزمني الا باستعمال عدة أصناف من المصادر في آن واحد، فالحالة المنفردة تبقى، ان صح القول، هامشية بالنسبة الى حركة المجموع، وبمثل التكامل الكلي للطرق وتقاطع المصادر، مساهمة فعالة من افريقيا للعلم، بل وحتى للوعي التدويني للتاريخ المعاصر.

وعلى فضول المؤرخ أن يسير على مسارات عدة في آن واحد. ولا ينحصر عمله في تحقيق المصادر، بل الشأن أن نمتلك الماضي البشري بواسطة ثقافة متينة متعددة الأبعاد، فالتاريخ نظرة الانسان الحاضر الى مجموع الأزمنة.

وفي هذا المجلد وصف معظم هذه المصادر والتقنيات المخصصة لتاريخ افريقيا وصفا فسيحا مستندا من الرياضيات ومن الفيزياء الذرية والجيولوجيا والعلوم الطبيعية والعلوم الانسانية والاجتماعية. وهنا سنؤكد على مظاهر ومشاكل لم يجر تحليلها في عمل آخر.

ولا شك أن الحديث المنهجي الحاسم الذي تم في السنوات الأخيرة هو تدخل العلوم الفيزيائية المعاصرة في دراسة الماضي البشري، بواسطة قياسات النشاط الاشعاعي للنظائر، والذي أكد بيان التسلسل الزمني في الماضي حتى في العصور الأولى من ظهور انسان سابيان (بواسطة الفحم ١٤)، أو في الأزمنة التي تزيد عن المليون من السنوات (بواسطة البوتاسيوم — الارغون).

وتختصر طرائق تحديد العمر المطلقة اليوم، اختصارا عظيما النقاشات في مجال الاثنولوجية القديمة البشرية وما قبل التاريخ (١). ففي افريقيا يؤرخ أقدم وجود للانسان الهومييني بقدر ٥٠٠,٣٠٠ سنة بطريقة البوتاسيوم — ارغون، وهذا العمر هو عمر قطعة من فك أسفل، به ضرس سالم من انسان هومييني عثر عليه الاستاذ بريان بترسن سنة ١٩٧٠ بلوطاغم في الكينيا. ثم إن أسنان الانسان الهومييني التي وجدها في الطبقات التي تنسب الى فيلا برانش بوادي أموجنوب اثيوبيا، جماعات من الفرنسيين (كاميل — ارميوغ — ايف كوبنس) والاميركان (ف. كلارك هول)، ترجع من ٢ الى ٤ ملايين سنة. ومستوى زيمغظروب (المستوى ١) من المعدن الشهير بالالدواوي في تنزانيا يؤرخ بقدر ١٧٥٠٠٠ سنة، وذلك بطريقة البوتاسيوم — الارغون أيضا.

وبفضل طريقة نظائر البوتاسيوم — ارغون، فان التكوين البشري بالشرق الافريقي، وهو أقدم الوجود فيما نعلم اليوم، هو حقا التكوين البشري، المطلق، بقدر ما صارت العرقية الوحيدة أكثر فأكثر اليوم، النظرية المقول بها في الاثنولوجيا القديمة العامة. وهكذا تمدنا التهجرات الافريقية المعروفة اليوم بعناصر حاسمة للجواب على هذا السؤال الأساسي لأصول البشرية الذي عرض بكيفيات عديدة على طول تاريخ البشرية: «اين ولد الانسان؟ ومنذ كم؟»

وتغيرت الآن تماما الأفكار القديمة المتحجرة التي كانت تضع افريقيا على غفور امبراطورية كليون وعلى تخومها. فالأحداث التي أبرزتها مصادر مختلفة وطرق متنوعة، هنا الاثنولوجية القديمة البشرية

والفيزياء النووية، تظهر بالعكس وبوضوح، ما للتاريخ الإفريقي من عمق، وقد انطبقت بالفعل أصولها بأصول البشرية الصناعية لنفسها.

وتتبرأرشادات مستمدة من مصادر أخرى، من علوم الأرض مثلاً، تاريخ إفريقيا، بقطع النظر عن كل وثيقة مكتوبة. فحياة سكان الحوض البحري للتشاد مثلاً، وتاريخها قد يكون من العسير فهمها لولا تدخل الجغرافيا الفيزيائية. ويجدر أن نشير إلى قيمة هذه الطريقة المنهجية.

فالحياة والبشر داخل حوض بحيرة التشاد، لم يوزعاً توزيعاً عشوائياً. ويبدو هذا الحوض جدول القياسات الارتفاعية (عن سطح البحر) التي: سهل مركزي تجمعي بين ارتفاع ١٨٥٠م و ٣٠٠٠م؛ ومن حول حلقة متقطعة بعض التقطع من الهضاب القديمة المتآكلة وقد أخفت أحياناً عوامل تحولها إلى شبه سهول تخفي نشاطاً بركانياً حديثاً؛ وبين هذه الهضاب ذات ١٠٠٠م من الارتفاع الوسطي ومناطق التجميع السفلي؛ منحدرات عامة قوية، نتجت عن عوامل تحات شديدة في مناخ قوي الرطوبة. وبالفعل إن منطقة الأراضي الحثائية السهلة القابلة للمطر تبدي أقوى كثافة ديموغرافية، أي من ٦ إلى ١٥ نسمة في الكيلومتر المربع. وفي المناخ الساحلي تشاهد كثافة طيبة أيضاً على أراضي النقل التي أخصبها رشوحات التشاد أو فيضاناته. وعلى الهضاب المرتفعة في الشرق والجنوب في دارفور وأداماوا حيث تنزل روافد البحيرة، تنحط الكثافة السكانية إلى حد نسمة واحدة في الكلم ٢. وهي تزيد تخطأ في الشمال وقد آلت إلى صحراء. وهكذا يرتبط وجه البشرية في هذا الحوض بقوة بشكل من مشاكل الجغرافيا الطبيعية وعلم شكل الأرض الذي يحدد بذلك التطور البشري.

وتأخرت الحضارة إذن أمام الصحراء وانحصرت ضمن حدود زراعة الذرة والدرع بدون ري تقريباً، إلى خط عرض تشاد الجديد (تحري الزراعات السقوية للخضر والتبغ والقمح على ضفاف لوقون والشاري) و يعيش المزارعون والرعاة والصيادون في المنطقة الجنوبية حيث تحبى مياه الأنهار والبحيرات والأراضي، فتخضر المراعي وتجلب دورياً عدداً من الصيادين. وبالعكس إن التحات في المناطق الصحراوية الشمالية يجعل التربة غير ثابتة كما يجعل النبات ضعيفاً يتميز بالأدغال الشوكية القتنة.

ولكن هذه البنيات الجيومرفية قد بعثت أيضاً نشاطاً بشرياً آخر، فكثيراً ما طردت غزوات الغاصبين المزارعين الأهالي من الهضاب الصحية والسهول الخصبة دافعة بهم إلى المناطق (المنحدرة أو القسم) الغير الصالحة لتربية المواشي. وهكذا دفع الفليبيون اليوم والدوروا إلى الأراضي الأقل خصباً في الأداماوا والكيريوي شمالي الكامرون، وعلى الركامات الغرانيثية في سلاسل جبال المنذرا. وخدمة الأراضي المنكشفة عن الفيضانات أو المنحدرة هي ولا شك خدمة شاقة وبجادة لهؤلاء الشعوب ولكنها تلائم ملاءمة أفضل أدواتهم البسيطة، ثم إن وجود مساحات مستنقعة دورية أو بصورة دائمة على مناطق النقل، يتبعه كثرة من البعوض (بعوضة الملاريا ذات السوق) وهناك من جهة أخرى أعشاش ذباب النعاس على جانبي اللوقون والشاري في الوحدات الواطئة المحيطة للماء بسالكس وميئزاً أسبراتا، التي تمتد على الرواسب الحالية. فتصير هذه المناطق مهجورة لما ينتج عن ذلك من مرض الملاريا ومرض النعاس.

وبالجملية كسي يدرك المؤرخ أدراكاً محسوساً الحياة البشرية في حوض التشاد الذي عرف في الماضي عدة تموجات في العصر الرابع الجيولوجي بسبب تحولات المناخ، يكون حتماً عليه أن يرجع

الى جملة متنوعة من المصادر والتقنيات الخاصة المستمدة من علوم الأرض وعلوم الحياة: فالتوزيع الحالي للسكان، وحركات الهجرة الماضية، والنشاط الزراعي والرعوي النخ، كل ذلك يتبع بدقة حالة المحيط.

وما مثل حوض التشاد الا صورة من بين عديد الصور الأخرى. وحيث تحرر الفضول العلمي من بعض التصورات المقيدة، لم تكن النتائج أقل اضاءة وأقل توضيحا. فيوجد فرق ساطع بين دماء من اختبروا من الناس (٣٠٠ شخصا سنة ١٩٧١ و ٣٥٩ سنة ١٩٧٢) النيانقاطوم أو البومبي بوادي الاوموقرب التركرا في الشمال الغربي من كينيا. ولم تلاحظ هذه الظروف من الناحية الوبائية بين الأجناس بل بين القرى (التي تحوي من ٢٠ الى ٣٠٠ نسمة). وهذه القرى يسكنها اناس يعيشون بتربية الماشية وبالزراعة وبطف الثمار والصيد البري والصيد البحري أو النهري، وهي تخضع لنظام قبلي دقيق يشعبه توزيع الى مناطق تربية، ولكن في هذا المجتمع لا وجود لرئيس على الأكبر سنا. فالفروق الناشئة عن التنظيم الاجتماعي الترابي عند النيانقاطوم ترى معكوسة على علم المصول، وخر بطة تفاعلات المصول على المولدات المضادة تصور حرفيا احصاء السكان المختبرين (٢).

وهذا المثال من الاشتراك الحركي بين عالم الطفيليات وعالم الانثروبولوجيا، فيه عبرة للمؤرخ الذي قد يخرج منه بغم كبير. وليس من الخارج عن اهتمامه أن يتعرف وجود مثل هذه المادة الوثائقية التي قد تظهر نجاعتها في تحليل السلوكات الجنسية، وفي دراسة التزايد الديموغرافي عند النيانقاطوم.

و يبقى مشكل الاستكشاف، ومشكل المعرفة الأساسي هو هو: فعلى المؤرخ في افر بيقا أن يكون يقطا تمام البقطة لكل أنواع طرق التحليل، كي يركب خطابه الذاتي بالاعتماد على موسم خصب من المعارف.

و يبقى «تفتح الفكر» هذا، مطلوبا بصورة خاصة، بالنسبة الى العصور القديمة، حيث لا وجود للوثائق الكتابية ولا للروايات الشفاهية المباشرة. فنحن نعلم مثلا أن القمح والشعير والذرة في آسيا وأوروبا وافر يقيا والذرة في أميركا، كادت تكون قاعدة الزراعة بالنسبة الى الانسان في العصر الحجري الحديث. ولكن كيف يمكن ضبط النظم الزراعية الأولى التي ظهرت منذ هذا الزمن البعيد؟ وكيف يكون في الامكان أن يميز بين عمران مكون من مستقرين... عمران أساسه الفلاحون؟ كيف تم تأهيل النباتات على مختلف القارات ومتى تم ذلك؟ فلن تعيننا الرواية الشفاهية كبير الاعانة في هذا المجال ولا الميثولوجيا أيضا، بل ان علم الآثار وطرق الدراسة للنباتات القديمة وحدها هي التي تمدنا بالجواب المقبول عن هذه الأسئلة المهمة المتعلقة بالتراث الثمين للعصر الحجري الحديث أعني الزراعة.

ان بنية غبار الطلع تواجه الزمان بمقاومة كبيرة في التربة الصالحة غير الحامضة، فيوفر لنا علم الباليولوجيا القديمة تحليلا مجهريا لهذه البقايا النباتية، ويمكن الحصول على غبار الطلع المتحجر بالتحليل التدريجي لعينة من التراب بواسطة الحوامض في حالة الحرارة (الحامض الفلورهدريك أو

(٢) أعمال فرانسوا رودان، عالم الحشرات، وسيرجي طرناي عالم انتولوجيا، وكلاما أعضاء البعثة الفرنسية في الأوموبادارة السيد ايف كوينس (١٩٧١ - ١٩٧٢).

الكلورهدريك) فتلغى مادة الغضار والكلس دون أن تؤثر في غبار الطلع، ثم تلقى المواد العضوية والبوتاس. ويعالج الباقي بواسطة الحركة الجابذة ويصبغ ثم يعلق بالهلام. ولم يبق إذن للدارس سوى أن يعرف كل حبة ويحدد عدد الحبات، لتركيب جدول مثوي يمكن من تمثيل غبار الطلع في الراسب المدروس، وبذلك يثبت وجود الزراعة في موقع ما. وتطور المشهد المذكور والمناخ المستوحى من خلال تغيرات النباتات، وكذلك العمل المتوقع للانسان والحيوانات على الغشاء النباتي.

لقد كشفت تحاليل من هذا النوع عن نشاط للتأهيل الزراعي بافر يقيا تقع في عدة مراكز متوزعة على مناطق فسيحة. فالذرة (قد تم تأهيلها على السهوب الممتدة من بحيرة التشاد الى الحد الفاصل بين السودان واثيوبيا) والذرة الصغيرة والارز الافريقي والوندزو وجلبان المرعى ونخيل الزيت (المُهل على ضفة الغابات) و«ذرة الاصبع» والقناوية والأنيام الافريقي الخ. كانت تلك إذن النباتات الرئيسية المزروعة.

وأما النباتات الأميركية فحديثة الدخول نسبيا كما تشهد ذلك هذه المرة عدة مصادر مكتوبة. فالمنسيوك مثلا هو اليوم الغذاء الأساسي لعدة شعوب بافر يقيا الوسطى، لم يدخل مملكة الكنفومن الساحل الاطلسي الا بعد القرن السادس عشر، وذلك أن رسالة بيقافتا لوبز (١٥٩١) لم تذكر من بين النباتات المزروعة على هضبة بمنزاكنغو عاصمة المملكة سوى اللكواي الاولوزين كوروكنا وبذرته مستوردة من ضفاف النيل، في الجهة التي ينصب فيها النهر في البحيرة الثانية (٣) «والمساماكنغومن الحبوب وهي نوع من الذرة، والقطاني، مسنغوأوسامامبوتو» وهي أخسها وبها تعلف الخنازير (٤)، والارز لوزو و«ليس له كبير قيمة أيضا» (٥)، وأخيرا شجر الموز، ديكندو ونخيل الزيت المسمى «با».

وقليلا ما نعرف أن هناك نباتات افريقية انتشرت هي أيضا انطلاقا من هذه القارة، فرور الأنواع الافريقية الى الهند مثلا، وإلى غيرها من الجهات الآسيوية أمراثبت ولكنه متأخر، فنوعا الذرة (الذرة الصغيرة وذرة الاصبع) تشهد الاكتشافات الأثرية بوجودها في الهند حوالي سنة ١٠٠٠ ق. م وأما الدرغ (الذرة البيضاء) فلقد عرفت هناك فيما بعد، إذ لا وجود للفظ سنسكر يتي يدل عليه.

وقد تفيد المؤرخ كل هذه الارشادات التي يوفرها علم الآثار وعلم النباتات القديمة عند فقد أي وثيقة مكتوبة وأي رواية شفاهية، وتضوح له سلسلة المراجع التي مر بها أجدادنا في العصر الحجري الحديث، من اقتصاد جنني الثمار الى اقتصاد الانتاج، وتبدو هذه الأحداث للعيان كتيارات ارتبطت بين الحضارات في العصر الحجري الحديث، لا ضربا من الانتشارية. وتوحي بقايا الكلب والخنزير والضأن والماعز، بأنه شرع في تأهيل الحيوانات، في مراكز الشرق الأدنى، من العصر الحجري الحديث، حوالي الفترة نفسها التي استتبنت الأرض أي بين ٩.٠٠٠-٨.٠٠٠ ق. م، ومنذ ذلك الوقت تسلسل تاريخ نظري لتأهيل مختلف المجموعات من الحيوانات. ثم

(٣) ف. بيقافتا — لوبز، ص ٤٠.

(٤) ف. بيقافتا — لوبز، عين المرجع.

(٥) ف. بيقافتا — لوبز، عين المرجع.

ابتداء من آكلي الجيف كالكلب، ثم الحيوانات الرحالة كالرنة والمعزة والحروف، وفي النهاية ما من الحيوانات يتطلب الحياة القارة: كالمواشي الضخمة والحنازير. وأما الحيوانات الصالحة للحمل والنقل وتشمل الحصان والحمار واللاما، فقد يكون تأهيلها راجعا الى فترة متأخرة جدا، الا أن هذا التسلسل التاريخي العام لا يهم دائما افريقيا.

فالحصان الذي لعب مع الثور والحمار دور «المحرك للتاريخ على مر العصور»، لم يظهر في افريقيا، وبالضبط في مصر، كما تشهد بذلك المصادر المخطوطة أو المصورة، الا حوالي نهاية زحف الهكسوس في حدود ١٦٠٠ ق. م. وانتقل الى الليبيين كحيوان حربي منذ القرن الثالث عشر ق. م. وفيما بعد انتقل الى النوبيين في بداية الألف الأولى، وفيما عدا المناطق التي وصلتها الحضارة الرومانية، فان بقية افريقيا لم تستخدم الحصان استخداما كبيرا الا ابتداء من الفتح الوسيطة العربية. وحسب رواية الكاتب ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٧) فان من شعارات ملك مالي، حصانين مسرجين ملجمين بجانبها كبشان.

وأما الجميل ذو السنام الواحد، فلم يكن هو الآخر متأخر الدخول في الحضارة الافريقية، فهو يبدو بصورة واضحة في رسم صخري في الصحراء التشادية، من القرن الثالث ق. م. وأدخله رجال قبيلة سنة ٥٢٥ ق. م الى مصر حيث سيكون له دور مهم في الاتصالات بين النيل والبحر الأحمر، وأما دخوله الصحراء الغربية فلقد جاء في فترة متأخرة. فالجمال وهو حيوان صحراوي أساسا حيث يحمل غالبا على الثور والحمار، قد انتشر في المغرب على ما يظهر، عن طريق الجيوش الرومانية ذات الاصل السوري. وتحمر بفضل البرابرة الناثرون على السلم الروماني وعلى عملية تسجيل الأراضي، وقد مكثهم من الاستقرار خارج الثغور على السبب والصحاري، وبذلك دفع السود المستقرون نحو الجنوب أو هم أدخلوا تحت ربة العبودية.

ونتيجة لما عرضناه سابقا، نصل الى الاعتقاد من أنه غنم منهجي حاسم: يمكن من الحصول على جهاز وثائقي ثري متنوع، انطلاقا من المصادر والتقنيات المستمدة من العلوم الصحيحة والعلوم الطبيعية. ويضطر المؤرخ الى القيام بمجهودات في البحث تصل به الى الجراة. واعتنقت بعد ذلك الوقت كل الطرق المفتوحة. ونقص حظ: (العلوم المساعدة) بهذه المناهج الجديدة، الا اذا فهم الآن بـ «العلوم المساعدة للتاريخ» تقنيات أساسية للتاريخ مستمدة من أي أفق علمي كان وهي تقنيات لم يتم بعد اكتشافها كلها. وتقنيات البحث صارت جزءا لا يتجزأ من العمل التاريخي وورجحت ماديا كفة التاريخ الى جهة العلم.

وغنم التاريخ هكذا من حصيلة علوم الارض وعلوم الحياة. ولكن جهازه البحثي والنقدي صار غنيا على الخصوص بما ساهمت به علوم البشرية والاجتماعية الأخرى من علم المصريات والاسينية والرواية الشفاهية والعلوم الاقتصادية والسياسية.

ان علم المصريات حتى الآن مازال مصدرا لم يستغل استغلالا كافيا في تاريخ افريقيا فن الواجب اذالك أن يؤكد عليها.

وتتضمن الدراسات المصرية علم الآثار التاريخي وكشف رموز النصوص، وفي كلا الحالتين يكون من اللازم مسبقا معرفة اللغة المصرية، وهذه اللغة التي عاشت نحو ٥٠٠٠ سنة (اذا أخذنا اعتبار القبطية) تبدو ماديا في شكل خطوط ثلاثة متميزة:

— الخط الهيروغليفي وتتنوع علاماته على صنفين كبيرين: رموز أو علامات — كلمات (مثلا صورة سلة من الخيزران لكثابة لفظ «سلة») وأهم مركباته الصوتية (ب) وصور الأصوات أو العلامات الأصوات (مثلا صورة السلة التي يحتفظ بقيمتها الصوتية نب فتستعمل لكثابة ألفاظ أخرى لما عين القيمة الصوتية نب، «سيد»، نب «كل»). وتصنف صور الأصوات هكذا: الثلاثية وهي رموز تجمع بين ثلاثة حروف صائتة؛ الثنائية وتجمع صوتين؛ الأحادية وليس فيها سوى حرف صائت أو صامت. هذه هي الأبجدية المصرية الصوتية.

— الكتابة الكهنوتية (الهيراطيقية): أما النسخة في الهيروغليفات وتظهر حوالي الاسرة الثالثة (٢٧٧٨ — ١٤٨٣ ق. م) وهو خط موجه من اليمين الى الشمال دائما، يكتب بقلم على أوراق البردي وعلى قطع الخبز والكلس.

ودامت هذه الكتابة مدة طويلة كالهيروغليفات (أحدث نص هيروغليفي مؤرخ سنة + ٣٩٤)، — الكتابة الشعبية (الدموطيقية): وهي تبسيط للكتابة الكهنوتية، ظهرت حوالي الاسرة الخامسة والعشرين (٧٥١ الى ٦٥٦) وانقرضت في القرن الخامس. وفي مستوى الحروف الضيق هناك اشتراك في الأصل معترف به بين الكتابة الشعبية المصرية والكتابة الميروثينية النوبية (التي تحمل لغة لم يكتشف سرها بعد).

وحتى هذا المستوى فحسب من النظام الخطي المصري، تعترضنا أسئلة منهجية مفيدة. وذلك أنه من خلال هذا الانفاق الخطي ذي الوجه الخاص، يلمس المؤرخ وقد انقلب مكتشفا للرموز ضمير الناس في القديم وعزيمتهم بقدر ما يترجم العمل الكتابي المادي دائما قيمة بشرية عميقة. فكشف الرموز هو حوار بفضل ما يقام به من مجهود دائم من الدقة والموضوعية. ثم ان تنوع النظام الخطي المصري وتشعباته وتبسيطاته المتوالية هي ذاتها جزء من التاريخ: تاريخ كشوف الرموز الذي هو من المصادر الأساسية لكل طبعة تاريخية — ومع النظام الخطي المصري حلت افر يقيا علا مها من الدراسات العامة عن الكتابة كنظام من العلامات ومن التبليغ المشترك بين بني البشر (٦).

ومشكل نشر الكتابة المصرية في افر يقيا السوداء، يزد جهاز المؤرخ المنهاجي توسعا وتفتح هكذا آفاق جديدة تماما في وجه البحث التاريخي الافريقي. والأحداث القليلة التالية ملائمة تماما للموضوع، فكان الجيكندي نظاما من الرموز المستعملة قديما لدى الكيكو يو في الكينيا، وبين صور هذا النظام الخطي وبين الرموز المصرية شبه ملحوظ. كما اعترف العالم البريطاني ب. اموري طلبو وأشار منذ ١٩١٢ الى الشبه البنوي بين الرموز النسيدي في بلاد الافليك (نيجيريا الجنوبية الشرقية) وبين الرموز المصرية. وتبدو قرابة كتابية واضحة بين العديد من الهيروغليفات المصرية وبين رموز كتابة منده في جنوبي سيراليون. وكذلك شأن بالنسبة الى معظم الرموز في كتابة لوما شمالي ليبيريا. ويوجد ارتباط سببي لاشك فيه بين الهيروغليفات المصرية وبين العديد من رموز الكتابة في جوار منروفيا (ليبيريا). وكتابة البون بالكامرون التي عرفت هي الأخرى نظامين خطيين لا تقل شها ملحوظا من الشكل الخارجي، مع هيروغليفات وادي النيل. وتاما كما في مصر فإن هيروغليفات دوقون وبيرا وبوزو قابلة للتفكيك والتحليل. ولكن أشد الأمور دلالة ان رموز الغرب

الافريقي هذه تصير بها الأشياء والكائنات المكتوبة بواسطة واعية لنفسها، وهذا تصور نموذجي لقدرة الكتابة التسمية التي نجدها حرفيا في مصر في خط بعض النصوص المتعلقة بالمصر بعد الموت. وبقيت هكذا الامكانية كبيرة لانشاء وتطوير علم للتقش وعلم قراءة الكتابات القديمة لم يعرفا اطلاقا حتى الآن وغرضهما دراسة مدققة لمجموعات ككتابات السود الأفارقة وما بينها من علاقات مشتركة. وفي ذلك يجد بالطبع المؤرخ ما يرضيه، اذ من خلال تاريخ الكتابة واكتشافات قراءتها يوجد تاريخ البشر المسؤولين عن الخطوط المدروسة. والنظر في الانظمة الخطية في حد ذاته مصدر ثمين للتاريخ. إلا أن المؤرخ دائما لا يفقد الاحساس بالزمن، فلا ينبغي أن نتوقع من رواء هذه الكتابات وهي غالبا حديثة، أن تكشف لنا كشوفا قديمة، على أن أهميتها تبرز ما للواقع المصري من عمق زمني عجيب. وقد انقرضت هذه الكتابة المصرية على ما يظهر بعد ٣٩٤ م. ب. م. على أن يبدو لنا منها باستمرار انبثاقات جديدة من القرن السابع عشر الى القرن التاسع عشر. فالقطعية بين العصور الحالية وبين ماضي افريقيا الحديث ما هي إذن الا وهم انتجه جهلنا، والواقع أن نفقا يجمع بين هذين القطبين.

ان معرفة الكتابة المصرية واكتشاف قراءة النصوص يمكنان من الوصول الى اللغة الفرعونية. وإن المؤرخ ليصبح دائما بالرجوع قدر الامكان الى النصوص الأصلية اذ أن الترجمات، حتى أحسنها، قلما تكون سالمة من العيوب. فن عرف اللغة المصرية من المؤرخين في وسعه أن يقرأ مباشرة، أي من قبله، عديد النصوص المختلفة من مصر القديمة: ومثالها نصب مأمية وكتابات متقوشة على العالم، ورسوم ادارية، وأناشيد دينية، وآثار فلسفية وكتب في الطب والرياضيات، وهررات أدبية (روايات، قصص، أساطير).

وتوضح سلسلة من النصوص أن الحاجز الذي أزعج تصوره بين مصر الفرعونية وسائر الجهات الافريقية المجاورة، في العصور الحالية لا يوافق مادية الأحداث في شيء.

ونذكر في هذا الشأن الرسالة التي بعث بها نيفر - كا - رع (نبي الثاني) الفرعون من الأسرة السادسة، حوالي ٢٣٧٠ ق. م، الى هر خوف رئيس البعثة الاقتصادية الى المناطق الجنوبية النائية، «الى بلدان نهاية الدنيا» كما جاء في النص، أي في الراجع الى جهة البحيرات العظمى الافريقية، ورجعت البعثة وهي الرابعة من نوعها بقزم. ومجدنا نص آخر مصري من القرن العشرين ق. م (من البداية الأولى للاسرة الثانية عشرة) بارشادات نفيسة مفيدة جدا عن حياة التجارة في ذلك العهد، والملاحاة في البحر الأحمر والعلاقات الاقتصادية بين الساحل الشرقي الافريقي ووادي النيل. وهذا النص هو «قصة الغريق».

ونظمت المملكة حتشيبسوت - وقد جلست على العرش المصري طيلة ٢١ عاما (١٥٠٤ - ١٤٨٣) - عدة بعثات تجارية، ولا سيما في السنة التاسعة من ملكها، الى بلاد البونت (الساحل الصومالي) وظهرت هذه البعثة في نقوش دير البحري البدعية في صعيد مصر. وفي ذلك وجهة جديدة للبحث ليس في الامكان الا يهتم بها مؤرخ افريقيا. و يلوح ما في اقحام المصرية القديمة بالمنهج التدريسي في الجامعات الافريقية، من أهمية يرتجى منها الكثير لفائدة الدراسة الحية للتراث الثقافي الافريقي، بما له من عمق في الزمان وفي المكان.

أما عن الانتماء الالسنّي للمصرية القديمة، فهذه تدقيقات مستمدة من التقرير النهائي للملتقى الدولي الخطير حول «عمران مصر القديمة واكتشاف قراءة اللغة الميروتية» (القاهرة ٢٨ جاني (كانون الثاني) — ٣ فيفري (شباط) ١٩٧٤) فلا يمكن الفصل بين اللغة المصرية وبين السياق الإفريقي، ولا تني السامية بالجواب عن مشكل مولدها، فصار إذن من المعقول أن يبحث عن آباء وأعمام في إفريقيا (التقرير النهائي ص ٢٩ فقرة ٥).

وبعبارة أوضح أن اللغة الفرعونية ليست لغة سامية، فمن الواجب حينئذ أن تخرج اللغة المصرية في مجال «الشامية السامية» أو «الأفرو — آسية» التي وضعها فيها بعض الكتاب ولوائهم في الغالب ليسوا إخصائيين في السامية ولا في المصرية. فيمثل المشكل الأساسي المطروح للتقريب بين المصرية القديمة ولغة السود الإفريقية الحالية، باستخدام تقنيات ألسنية ملائمة، قصد ارجاع صيغ سابقة مشتركة، قدر المستطاع، انطلاقاً من التقابلات والمقارنات الشكلية والمجمعية والصوتية. وينتظر الالسنّي عمل عملاق، وعلى المؤرخ هو الآخر أن يتقرب تغيراً جذرياً في المنظور إذا ما كشف عن بنية ثقافية عظمية مشتركة بين مصر الفرعونية وسائر إفريقيا السوداء. وهذا الاشتراك هو بالمعنى الرياضي بديهية حدسية تتقرب البرهان الشكلي عليها، وهنا، أكثر مما في محل آخر، يكون المؤرخ والالسنّي مضطرين إلى العمل يداً واحدة، وذلك أن الألسنية مصدر تاريخي، وهي كذلك خاصة في إفريقيا، حيث تنشعب اللغات العديدة.

والمقصود خاصة الألسنية المقارنة أو التاريخية، والطريقة المستعملة هي المقارنة والاستقراء، إذ أن هدف المقارنة إعادة البناء أي البحث عن نقطة التجمع لكل اللغات المقارنة. ونسمي هذه النقطة التجميعية «اللغة المشتركة قبل اللهجية».

ولكنه من الواجب أن يكون الباحث شديد الحذر. «فالبنو المشترك» مثلاً المبني انطلاقاً من دراسة معمقة لمتخلف لغات البنو المثبتة اليوم، ليست لغة قديمة ولا لغة واقعية أعيدت عناصرها. فعبارة «البنو المشترك» أو «البنو الأول» لا تعني سوى نظام التطابق بين لغات البنو المعروفة، فيرجع به إلى عهد كانت فيه هذه اللغات تقربياً هي ذاتها. وكذلك الأمر بالنسبة إلى «الهندية الأوروبية» مثلاً، ففي المستوى الدقيق من الواقع أن الأثرية الألسنية هي، في النهاية محض وهم لأن العصر المستغرق في التقديم، قبل التاريخي، الذي كانت فيه اللغة المشتركة المستعادة مستعملة في التخاطب، لم يبق منه أي أثر تاريخي أو حتى ألسني.

ولا تكن صلاحية الألسنية التاريخية كثيراً في كونها توجد «لغة مشتركة قبل اللهجية» بل لكونها تلمس، إن صح القول، المساحة الألسنية الكاملة للغات مختلفة في الظاهر، غريبة الواحدة عن الأخرى، فقلما تنحصر لغة في منطقة محددة أتم التحديد، بل هي تفيض في غالب الأحيان عن مساحتها الخاصة، رابطة بينها وبين سائر اللغات المتفاوتة البعد عنها علاقات، أحياناً لا يشعر بها في البداية. ومن وراء ذلك بالطبع مشكل مهم هو مشكل تنقل السكان. فالوحدة الألسنية لا تنطبق حتماً على وحدة العرق، بل هي ترشدنا إرشاداً لاتقاً إلى وحدة أساسية، هي الوحدة الفريدة في الواقع، أعني الوحدة الثقافية الأساسية للشعوب الموحدة ألسنياً، المختلفة أحياناً اختلافاً كبيراً من حيث الأصل ومن حيث النظم السياسية المتغيرة.

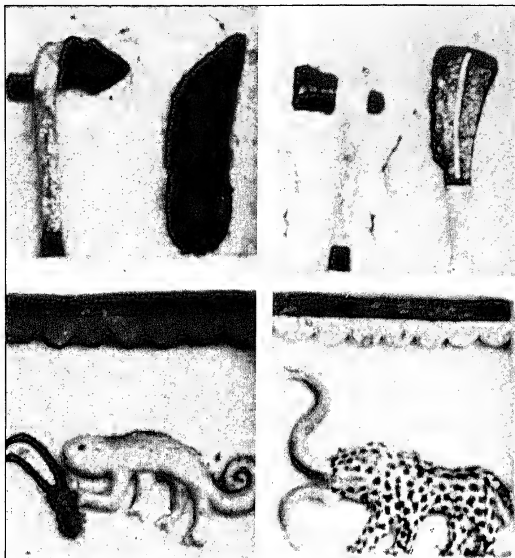
فعائلة «النيجر — الكونغو» مثلاً إذا ما تم قط اثباتها تمكن من الاستنتاج أن روابط اجتماعية

ثقافية عريقة جدا وجدت بين شعوب الغرب الاطلسي، شعوب منده وقور وكوا. والشعوب الكائنة بين البنيوي والكنغفو (زاير) وشعوب الآداماوا الشرقي وشعوب البننتو في افريقيا الوسطى والشرقية والجنوبية.

الاسنية التاريخية اذن مصدر ثمين للتاريخ الافريقي كالتاريخ الشفاهية التي طالما استخف بها. والحال أنه أحيانا تكون الرواية الشفاهية هي المصدر الوحيد المتوفر مباشرة بين أيدينا. وذلك هو مثلا شأن موشي الكنفو. اذ أن تاريخ مختلف أماراتهم لم يكن بالمستطاع استعادته في المكان وفي الزمان (وهذا الزمان نسبيا قصير) الا بالاعتماد على الرواية الشفاهية. وقد تأتي هذه الرواية أيضا بالجواب الحاسم لمسألة عجزت في حلها الوثيقة المكتوبة. فؤرخو الأحداث (دولابورت ١٧٥٣، وبروبا ١٧٧٦) أجمعوا على أن ملوك لونغو (افريقيا الوسطى الغربية) دفنوا في مقبرتين متميزتين: في لوبو في لواندجيلي. فلماذا تم هذا التمييز ومنى وقع؟ ان الوثائق المكتوبة المعروفة حتى الآن بقيت ساكنة بالنسبة الى هذا السؤال. وفي هذا الشأن ان الرواية الشفاهية عند الفيلي الحاليين هي وحدها التي تمكن من تفسير هذه الازدواجية. وذلك أن خصومة شديدة جدا بين بلاط ملونغو وسكان لواندجيلي بعشت الملك وامراء ذلك العصر على تبديل مكان دفنهم. فهجرت مقبرة لوندجيلي اذن لفائدة مقبرة لوبو تبعا لخصومة بين الأسرة المالكة وسكان مقاطعة غنية من المملكة. و يوجد في افريقيا عدد عديد من الأمثلة حيث توجه الرواية الشفاهية — ان صح التعبير — التنقيب الأثري كما تلقى أضواء على الخبر المؤرخ المكتوب.

فشنقييات (نقاداوست) في مملكة غانة (بالسودان الغربي) أشرف عليها في نهاية ١٩٦٠ الأستاذة ج دوفيرود. وسن روبرت، وكانوا اذالك في جامعة داكار فاستغلوا في آن واحد وبكيفية متقاطعة الروايات المحلية والتواريخ العربية الوسيطية والتقنيات الأثرية الخاصة. وهكذا تم استرجاع فترة من تاريخ افريقيا لم تكن تعرف كما يجب (القرنان السابع والثالث عشر) الى ذاكرة البشر بفضل علم الآثار نفسه طبعاً، ولكن كذلك بفضل الرواية المحلية والوثائق المكتوبة. ويمكن تعدد هذه الأمثلة، وهي توضح ان في افريقيا أكثر مما في سواها، تمثل الرواية الشفاهية جزءاً لا يمتنع عن القاعدة الوثائقية للمؤرخ. وهكذا تتسع هذه القاعدة. ولم يعد في الامكان أن يمارس التواريخ الافريقي كما في الماضي بالغاء الرواية الشفاهية من البحث التاريخي وهي مفصل من مفاصل الزمن.

ولم يؤكد بعد على هذه النقطة الأساسية بالذات أي كيف تقدم الرواية الشفاهية الزمن، من جهة، وكيف تعرض الرواية الشفاهية الأحداث خلال الزمان، من جهة أخرى؟ كيف اذن يقدم التاريخ الشاعر القصاص؟ ذلك سؤال حاسم. فالقصاص الافريقي يكاد لا يعمل على لحمه زمنية، وهو لا يعرض مجرى الأحداث البشرية بتسارعاتها أو بنبقات انقطاعها، وما يقوله وما يستعيد جدير بأن يسمع مسقطاً على المستقبل. وليس خلافاً لذلك. وذلك أن القصاص لا يهيم الانسان الا ضمن الوجود كحامل للقيم، وكعامل في الطبيعة، بدون فكرة زمنية، ولذا لا يميل القصاص الافريقي الى تأليف مختلف فترات التاريخ التي يذكرها، وهو يعالج كل فترة في ذاتها، كأن لها معنى خاصاً، ولا علاقة مدققة لها مع سائر الفترات، وفترات الأحداث المروية مقطعة. انه حقاً التاريخ المطلق،



● نقش بارز (تصویر نوین).

وهذا التاريخ المطلق الذي يعرض، إجمالاً بدون أزمنة، مراحل التطور هو، التاريخ البنيوي، لا أكثر ولا أقل.

ويجهل القصص الافرقي عملياً كمعارف ممكنة في خطابه ما يطفو زمنياً أو يظهر أحياناً ويدعى عند غيره «دورا» (فكرة الدائرة) أو «طورا» (فكرة الزمان والمكان) أو «فترة» (فكرة التوقف أو الوقت الذي يبرزه حدث مهم) أو «جيل» (فكرة الدوام وانسياب الزمان) أو «سلسلة» (فكرة متتالية والتتابع) أو «حصنة» (فكرة البرهة والظرف والزمن الحاضر) الخ... نعم ان القصص الافرقي لا يجهل الزمن الكوني (الفصول، السنين الخ) ولا الماضي البشري اذ هو يعي فعلاً ما مضى وانقضى. ولكنه من الصعب عليه ان يصور انشؤنا من الزمن بل يبدى دفعة واحدة بالجزئيات التي بها يتلئز الزمان.

وفي حقل العلوم البشرية والاجتماعية أيضاً فان مساهمة علماء الاجتماع وعلماء السياسة تمكن من إعادة تعريف المعارف التاريخية والثقافية وذلك ان مفاهيم «المملكة» و«الأمة» و«الدولة» و«الامبراطورية» و«الديموقراطية» و«الاقطاعية» و«الحزب السياسي» الخ. المستعملة في غير افريقيا استعمالات لا شك لا تنطبق دوماً وحتماً على الواقع الافرقي.

فماذا نعني حقاً «بمملكة الكنغو» مثلاً؟ والقوم أنفسهم يسمون الأشياء هكذا نسي اكنغواي حرفياً «البلد (نسي) التابع لأهالي كنفو» فلنا إذن مجموعة جنسية (أهالي كنفو) بمنطقة (نسي) ووعى هذه المجموعة بانها تسكن هذه المنطقة التي تصير هكذا بلد (نسي) المجموعة الجنسية المشار إليها. والنهايات أو الحدود شديدة التمزج وهي تابعة لتشتت العصبيات وتحت مجموعات الجنس المشتمل. وللفظ «مملكة» يدل هنا على منطقة ترابية لا يسكنها سوى رجال ونساء ينتمون كلهم الى جنسية واحدة. والتجانس الجنسي والالسنى والثقافي، تجانس دقيق و«الملك» (مفومو) هو في الواقع الأكبر (مفومو) والخال (مفومو) لكل الأسر (نزو) وكل العصبيات المرتبطة بالأم (مكندا) وهم يتميزون عن الحدود المنشئين المشتركين (ينكلومينغو).

وإذا ما نظر الواقع من قريب ان «مملكة كنفو» ترجع في النهاية الى امارة فسيحة، أي الى نظام حكم يتضمن الامارات الصغيرة المحلية و«الملك» هو أكبر الأكابر والحال الأقدم بين الأحياء، ولذا هو «تتينو» (الرئيس الأعظم) «فلكة كنفو» لا تعني إذن دولة يحكمها ملك بالمفهوم الغربي، على أن هذا المفهوم (مملكة لويس الرابع عشر مثلاً) هو معنى هجين متأخر، غير لائق، وهو بالجملة صورة خاصة من المرور من الدولة الى الدولة القومية بواسطة الحكم الفردي المطلق.

وبالعكس ان مملكة دنكو «بنان الحالية» تقترب أكثر من نط الحكم الفردي المطلق، في صورة المسخ المتكرر من حكم هنري الرابع الى حكم لويس السادس عشر في الإطار الفرنسي. وذلك انه توجد أرض أساسية مستمرة تتمتع كما يؤكد الاستاذ م. غلبلة بسلطة قضائية مركزية: الملك ووزرائه ونوابهم المفوضون. فالملك جوهر السلطة نفسه، بيده كل خواص السلطان والقيادة، له على رعاياه حق الحياة والموت، ورعاياه هم الاناثو «رجال الشعب» ويختار من بينهم الملك، مولى الخبزات كلها (دوكنو) ويصطفى (القليسي) أي الفلاحين الذين يعدهم لأراضيه أو يهديهم للأمرأ والقواد. وتمارس السلطة المركزية في القرى والجهات، بواسطة قواد باسم الملك. فمملكة دنكوم «تلوح حينئذ كمنظمة دولية شديدة التركيز يتدرج فيها نظام الامركزية في الادارة المتمثل في.

«القيادة». فلها سلطة مركزية تراقب الشعب (دنكسومو) من خلال محفظات القيادات. وعلى عمر التاريخ وحسب صدف الغزوات، تضاف البلدان المغزوة الى النواة الجنسية القديمة والى الأرض الدائمة. ففي وقت ما تم الغزو وتم عمل التأقلم الثقافي والمضم بين شعوب وأقارب وجيران مثل (فن، ماهي، الداء، ساني، جودا الخ) وصارت «المملكة» بذلك دولة متعددة الأجناس لها بنيتها ومركزة بفضل تنظيم اداري وحري قوي وكذلك بفضل اقتصاد موجه حركي. وقبيل التدخل الاستعماري كانت مملكة دنكسوم حقا دولة شعب، حيث كان الحوار والمخاطب وموافقة السكان (عن طريق المحافظات) مبدأ من مبادئ الحكم.

على أن كلمة «مملكة» ليس لها عين المدلول في كل مكان من افريقيا. فعلى المؤرخ اذن أن يكون متحفظا عند استعماله هذا اللفظ. وقد يلاحظ أيضا أن المحافظة تقابل نظام حكم في الكونغو، بينما هي نمط من الامركزية الادارية في المملكة القديمة بالدنكسوم (أبوماي).

وأما لفظ «اقطاعية» وضمن نطاق الملاحظة المتمثلة في أوروبا الغربية (وهو لم يكن له دائما خاصية نموذجية) فيمكن أن يعني به مفهوم الاقطاعيين في القرون الوسطى أصحاب الزعة القانونية، ان الاقطاعية هي ما يرتبط بالقطاع (وقد ظهر حوالي القرنين العاشر أو الحادي عشر) ومجموعة العلاقات (وفاء ولاء وأتاوة) التي تربط بين الولي والسيد صاحب الملك. وبعيد عن هذا المدلول، الفلاحون الذين ليسوا من الطبقة العليا من المجتمع.

وأما الماركسيون فيجعلون للفظ «الاقطاعية» مدلولاً أفسح. هي نمط من الانتاج يتميز بالاستغلال الاقتصادي للطبقات السفلى (عبيد الأرض) من قبل الطبقات المسيرة (الاقطاعيين). فعبيد الأرض مقيدون بها تابعون للسيد الذي لم يعد في مكانه أن يقتل القن بل في وسعه أن يبيعه (له) ملكية محددة على العامل). فنظام القن حل محل نظام العبودية، ولكن عددا من مظاهر العبودية ما زالت قائمة. وليس للقن أو الفلاحين أن يشتركوا في ادارة الأمور العامة وليس لهم أي مسؤولية في أي وظيفة ادارية. والنظام الاقطاعي من وجهة نظر تطور المجتمعات الاوربية. مرحلة وسطى من مراحل تكوين الاقتصاد الرأسمالي. ولكن الكثير من الماركسيين ما زالوا يخلطون بين مفهوم «الاقطاعية» السياسي وبين مفهوم «السيادة» الاجتماعي الاقتصادي. وقد علم ماركس المؤرخين منذ ١٨٤٧ كيفية التمييز بين المفهومين.

ومهما يكن المدلول المحفوظ به، فهل النظم الوسيطة الاوربية توجد مجذا في افريقيا السوداء في ما قبل الاستعمار؟ والدراسات الاجتماعية المقارنة وحدها (وهي لم توجد بعد) قادرة أن تجيب على هذا السؤال جوابا لا تقا بما يقتضيه من الفروق الدقيقة.

وقد أشير سابقا الى صفة «الاقطاعية» في نظام البار بيا (ادماهي) وذلك خاصة كفضية للعمل. وقلة تقدم البحوث في هذا الموضوع أي في مسألة «الاقطاعية» في افريقيا السوداء من شأنها أن تقود المؤرخ الى المزيد من الحذر، وفيما يبدو أن «الاتجاهات الاقطاعية» التي تقدمها المجتمعات السوداء الافريقية لم تكن لتحديد تبعا لحقوق عينية يكشفها اسناد أرض «مقطعة»، بل هي تحدد شكلا من التنظيم السياسي يعتمد على نظام من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية الخاصة. فمن الممكن هكذا أن تكون تحاليل علماء الاجتماع وعلماء السياسة مصدرا قابلا للاستغلال من

قبل المؤرخ و «خزانة وثائق» المؤرخ بافريقيا تتغير تغيرا كبيرا بحسب المواد والفترات التاريخية وبحسب فضول المؤرخ نفسه أيضا.

وفي افريقيا المجموعات الوثائقية تتجمع من كل أنواع العلوم، الصحيحة والطبيعية والبشرية والاجتماعية، و «العرض» التاريخي يتجدد تماما بقدر ما تمثلت المنهجية في استخدام عدة مصادر وتقنيات خاصة في آن واحد وبكيفية متقاطعة. فأخبار الرواية الشفاهية والمخطوطات العربية النادرة والحفريات الأثرية وطريقة الفحم المتخلف أو فحم ١٤، كل ذلك ادخل من جديد وبصفة نهائية شعب صاو «الحرافي» (تشاد، كامرون، نيجيريا) في تاريخ افريقيا الأصيل...

وقد احتلت هضبة مداقا في جمهورية التشاد مدة طويلة جدا أي طيلة ما يقرب من ٢٥٠٠ عام، من القرن الخامس ق. م. الى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. ولولا استغلال جملة المصادر المتنبوعة استغلالا متقاطعا لكان من المعتذر أن نصل الى ما وصلنا اليه من استنتاجات موفقة غير متوقعة.

ونبذت الآن التصورات الدراسية للنقد التاريخي «كالعلوم المساعدة» و «اختيار المصادر» و «المواد التاريخية الشريفة» الخ. نبذا من البحث التاريخي الافريقي الذي مثل هكذا مرحلة مهمة في التدوين المعاصر للتاريخ.

وصارت ممارسة التاريخ في افريقيا حوارا مستمرا بين مختلف الاختصاصات، وتلوح آفاق جديدة بفضل مجهود نظري لم يسبق له مثيل.

واستخرجت فكرة «المصادر المتقاطعة» من خفايا المنهجية العامة، طريقة جديدة لكتابة التاريخ. ويمكن حينئذ اعداد تاريخ افريقيا وتفصيله أن يلعبا دورا مثاليا رائدا، في اشراك اختصاصات أخرى لفائدة البحث التاريخي.

الفصل الخامس

المصادر المكتوبة السابقة للقرن السادس عشر هـ. جعيط

ان فكرة المصدر الكتابي فسيحة الى حد تصبح فيه مبهمه. فاذا ما قصد بالكتابي كل ما يوصل الصوت والحس، فان ذلك يشمل الشاهد الكتابي والرسوم المحفورة في الحجر وفي الصخر أو في قطع النقود... وبالاختصار كل رسالة تحفظ اللغة والفكرة، بقطع النظر عن حاملها (١)، وقد يعدو بنا تمديدنا هذا الى أن نقحم في ميداننا العملة والخطاطة وسائر العلوم «المساعدة» التي صارت في حقيقة القول مستقلة عن دائرة النص المكتوب، لذا سنقصر بحثنا على ما هو مخطوط أو مطبوع في علامات تواضعية على حامل ما — بردي أو ورق أو عظم أو ورق، وان هذا الحقل فسيح للبحث والنظر: أولا لأنه يشمل جزءا من الزمن يتبدى باستنباط الكتابة وينتهي بعتبة الأزمنة المعاصرة (القرن الخامس عشر). ثم لأنه ينطبق على قارة بأكملها، حيث تجاوزت وتعاقت حضارات متنوعة. وأخيرا لأن هذه المصادر تجد التعبير عنها في لغات مختلفة، وتتطور ضمن تقاليد متغايرة وعلى أنماط متنوعة.

وسننظر فيما تعرضه هذه المصادر من مشاكل عامة (ضبط الفترة والتقسيم الى مناطق ودراسة الأنماط) قبل أن نقيم منها استقراء نقديا.

المشاكل العامة

لا وجود حتى الآن لدراسة عامة للمصادر الكتابية للتاريخ الافريقي، ولأجل التخصيص في الزمن أو في المنطقة، بقيت الدراسات القليلة التي أنجزت معقدة بميادين مفصلة من البحث العلمي. فصر الفرعونية مثلا ميدان لدارس الحضارة المصرية القديمة، ومصر البطلمية والرومانية ميدان

(١) أ. دين، ١٩٦١ ص ٤٤٩.

للباحث الكلاسيكي، ومصر الاسلامية للباحث في الاسلاميات: هي فترات ثلاث واختصاصات ثلاث تدور حول مدارات أفصح (العالم الكلاسيكي والاسلام). والأمرفنفسه بالنسبة الى المغرب، ولوأن الباحث في البونيقيات هو في نفس الوقت مستشرق وباحث كلاسيكي، كما أن باحث البربريات هامشي لا يحصر في فئة ما.

وامتد فيما بعد، التاريخ الكتابي، والبحث العصري أيضا، الى افريقيا السوداء في مجال متنوع يتضمن لغات عدة واختصاصات مختلفة، وفيه مصادر كلاسيكية ومصادر عربية ومصادر افريقية صرفة. ولئن وجدنا نفس المصادر الثلاثية الموجودة في شمالي الصحراء، فإننا لا نرى فيها الامتداد نفسه أو المعنى المائل. وثمة منطقة واسعة لم تكن قبل القرن الخامس عشر تحوي أي مصدر كتابي، وفيما تبقى من مناطق تحوي مصدرا عربيا ذا قيمة ثانوية في المغرب مثلا، هو ذو أهمية أساسية فيما يخص حوض النيجر، ولكن اذا ما أكب مؤرخ افريقيا السوداء على وثيقة كتابية عربية فلا ينكب عليها انكباب مؤرخ المغرب عليها، ولا انكباب مؤرخ الاسلام بصورة عامة.

وتتم هذه التقسيمات وهذه التداخلات عن بنية التاريخ الافريقي الموضوعية، وكذلك على اتجاه العلم التاريخي المعاصر منذ القرن التاسع عشر. فالواقع أن مصر فعلا قد ضمت الى العالم الهلنستي وإلى الامبراطورية الرومانية وإلى بيزنطة، وعند اعتناقها الاسلام، أصبحت مركز إشعاع له. والواقع أيضا أن الكتاب الكلاسيكيين رأوا تاريخ افريقيا كما لوأنه صورة من تاريخ روما، وإن ثمة افريقيات قد ارتبطت ارتباطا عميقا في مصر الرومانية، ولكن ما هو حقيقي أيضا أن المؤرخ العصري لافريقيا الرومانية استمر تابعا للاتجاه الروماني قبل أن ينتسب للافريقيات، وأن القسم الاسلامي قد انتفى من حقله الاستيمولوجي.

وهكذا فإن ادراك التاريخ الافريقي ككل والقاء نظرة من خلال هذا المنظور على المصادر الكتابية، مازال مشروعا دقيقا عسيرا جدا.

مشكل ضبط الفترة

ونحن حين نقوم بدراسة المصادر الكتابية نتساءل كيف يمكن تبرير الانقطاع الموجود في بداية القرن الخامس عشر؟ أيم ذلك بالبنية الداخلية للكلمة الوثائقية التي بين أيدينا وهي رغم الخلافات الثقافية والزمنية، تحفظ بعض الوحدة، أم بمحركة التاريخ العام نفسها وهي مجعها بين العصور الحالية والقرون الوسطى في مدة طويلة واحدة تفصل بينها وبين الزمن المعاصر. والواقع أن الحججتين تشدد إحداها الأخرى وتشكاملان: فالمصادر العتيقة والوسطية تتميز بكتاباتها الأدبية، فهي شواهد واعية في معظمها، سموها حوليات ويوميات ورحلات أو جغرافيات، بينما صارت منذ القرن الخامس عشر المصادر الوثائقية والشواهد اللاواعية متكاثرة، ومن جهة أخرى لئن كانت النصوص (الكلاسيكية) العربية، في هذه الفترة، أكثر انتشارا فإن المصادر العربية قد نضب معينها منذ القرن الخامس عشر، بينما ظهرت الوثيقة الأوروبية (الإيطالية أو البرتغالية الخ...) في حقل الشواهد، كما ظهرت الوثيقة الأهلية في افريقيا السوداء. ولكن هذا التغيير في طبيعة المصادر وفي أصلها يعبر أيضا عن تحول في المصير التاريخي الحقيقي لافريقيا، فالقرن

الخامس عشر هو قرن الانتشار الاوربي (٢): زحف البرتغاليون سنة ١٤٣٤ على سواحل افريقيا السوداء وقد اقاموا قبل ذلك بعشرين سنة في سبتة ١٤١٥ (٣) وأما الشريط الافريقي الاسلامي على البحر الأبيض المتوسط (المغرب — مصر) فظهر فيه فصل بين عصرين تاريخيين منذ القرن الرابع عشر، وقد أحس هذا العالم بآثار توسع الغرب البطليء كما أحس بلا شك بعمل قوى الانحلال الداخلية. ولكن القرن الخامس عشر كان حاسماً، اذ به انقطعت التجارة الاسلامية في الشرق الأقصى فانهى بذلك ما كان لهذه التجارة من دور بين القارة. ومنذ ذلك انزلت الاسلام الافريقي المتوسطي على هاوية انحطاط، ما فتئ يتفاقم ونجد النهاية الفاصلة في القرن الخامس عشر ما يبررها تبريراً واسعاً على أن تبقى مرنة، ولكن تبريرها قد يزداد، اذا ما تجاوزت الزمن بقرن (الى بداية القرن السادس عشر).

هذا وسوف نقسم الفترة، موضوع دراستنا، الى ثلاثة أقسام رئيسية نظراً لخصائص مزدوجة، حتمية التنوع وحتمية الوحدة.

— العصور العتيقة حتى الاسلام: الامبراطورية القديمة حتى ٦٢٢ م؛

— العصر الاسلامي الأول: من ٦٢٢ م الى منتصف القرن الحادي عشر (١٠٥٠ م)؛

— العصر الاسلامي الثاني: من القرن الحادي عشر الميلادي الى القرن الخامس عشر الميلادي.

ومن المؤكد أن مفهوم «العصور العتيقة» هنا لا يشابه نظيره في تاريخ الغرب، من حيث أنه لا ينطبق الا جزئياً على «العصور العتيقة الكلاسيكية»، فلا ينتهي بزحف أقوام «البربر» بل بانتشار الواقع الاسلامي. ولكن الاسلام، بما كان لأثره من عمق وسعة، يمثل القطيعة مع ماض في الامكان أن ينسمت «بالعتيق» أو بما قبل التاريخ، أو ببداية التاريخ حسب المناطق. ثم انه في الواقع أيضاً فان معظم مصادرها القديمة منذ العصر الهلنستي مكتوبة باليونانية واللاتينية.

ولئن كان من اللازم حسب بنية وثائقنا وحسب الحركة التاريخية الشاملة، أن نعتبر القرن السابع، عصر ظهور الاسلام والمصادر العربية، كبداية لعصر جديد، فان العهد الاسلامي يقضي أن يقسم الى قسمين فرعيتين: الأول من الفتح الى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، والثاني من القرن الحادي عشر الميلادي الى القرن الخامس عشر الميلادي. وبالنسبة الى تاريخ افريقيا شمالي الصحراء، فان الطور الأول يوافق طور تنظيم هذه المنطقة على النمط الاسلامي وارتباطها بالامبراطورية العالمية (الخلافة الأموية والعباسية والفاطمية)، وأما الطور الثاني، فيشاهد بالعكس ظهور مبادئ التنظيم الوطني، بينما يطرأ على المستوى الحضاري تحول عميق، ففي المغرب، يمثل منتصف القرن الحادي عشر الميلادي عهد تشكل مملكة المرابطين واسترجاع الحكم الذاتي من قبل بني زيري وما نتج عنه من زحف الهلاليين، وفي مصر تقع القطيعة بعد ذلك بقرن مع الايوبيين، على أن هذا العصر شهد تحول المراكز الحية للتجارة العظمى من الخليج العربي الى البحر الأحمر، وقامت تدريجياً تشكيلات للتبادل على المقياس العالمي، كان لها وقع عظيم.

(٢) يقتصر موني تاريخ ١٤٣٤ وهو تاريخ الانتشار البرتغالي البحري على افريقيا السوداء: شكل مصادر تاريخ افريقيا السوداء حتى الاستعمار الاوربي ضمن المؤتمر الدولي الثاني عشر للعلوم التاريخية، فينا، ٢٩/٨، ١٩٦٥/٩، ٢٠، تقارير تاريخ القارات ص ١٧٨، انظر أيضاً موني، ١٩٦١، ص ١٨.

(٣) العروي، ١٩٧٠ ص ٢١٨.

وتوثقت في جنوبي الصحراء أيضا، ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي، علاقات مستقرة مع الاسلام، ولا سيما في الحقلين التجاري والديني. وجهازنا الوثائقي نفسه قد تغير شكله، فمن حيث الكم، صار غزيرا ومتنوعا ومن حيث الكيف وكلها انحدرنا مع الزمن، في افريقيا المتوسطة، عثرنا على مصادر لم نشعر بها (وثائق السجلات، فتاوى قضائية)، كما وجدنا في افريقيا السوداء ارشادات مدققة.

المناطق العرقية الثقافية وأنماط المصادر

ليس تصنيف المصادر حسب العصور التاريخية فحسب كافيا، بل يجب أن تأخذ بعين الاعتبار انفصال افريقيا الى مناطق عرقية ثقافية تعمل فيها عدة قوى وذلك لابراز فردية هذه المناطق. ومن ثم ايضا صرح نموذجية المصادر التي بين أيدينا فيما وراء العصور التاريخية والفروق المكانية.

المناطق العرقية الثقافية

إذا ما نظرنا في النقطة الأولى فقد نندفع منذ البداية نحو الفصل العنصري بين افريقيا شمال الصحراء - أي افريقيا البيضاء العربية المسلمة، والتي أثرت في أعماقها حضارات البحر الأبيض المتوسط ونزعت عنها افريقيا وبن افريقيا جنوب الصحراء، السوداء الافريقية الى أقصى حدود الافريقية، وما لها من نوعية عرقية تاريخية متميزة. ودون أن ننكر ما لهذه التنوعات من وزن، فإن النظر التاريخي الأشد تعمقا يكشف في الواقع عن خطوط فصل أشد تشعبا وأشد تميزا.

فالسودان السنغالي والنيجيري مثلا، عاش في اتحاد وثيق مع المغرب العربي البربري، فكان من جهة المصادر أقرب اليه منه الى العالم البنتو، وكذلك الأمر بالنسبة الى السودان النيلي ازاء مصر، بالنسبة الى القرن الشرقي الافريقي ازاء جزيرة العرب الجنوبية، وقد يستوي الإنسان أن يقابل بين افريقيا المتوسطة الصحراوية والسهب التي تشمل المغرب ومصر والسودان واثيوبيا والقرن الافريقي والساحل الشرقي حتى زنجيبار وبين افريقيا أخرى وثنية، عميقة، استوائية أو فوق الاستوائية - حوض الكونغو، والساحل الغيني ومنطقة الزمبابو، ومنطقة ما بين البحيرات، وأخيرا منطقة افريقيا الجنوبية، وهذا النوع الثاني من التمييز ما يبرره الى حد بعيد من جراء عامل الانفتاح على العالم الخارجي أي بسبب أهمية التسرب الاسلامي.

وتؤكد المصادر المكتوبة هذا الحدث الحضاري، بما تجعل من افتراق بين افريقيا لها نصيب كبير من هذه المصادر - بتدرج من الشمال الى الجنوب، وافريقيا أخرى تعوزها هذه المصادر على الأقل في الفترة المدروسة، إلا أن هذا الاعتبار المزدوج للانفتاح على الخارج وحالة المصادر المكتوبة، قد يؤدي الى أحكام تقويمية، وقد تسدل حجابا قائما على نصف افريقيا تقريبا (افريقيا الوسطى والجنوبية) وقد لفت عدد من المؤرخين النظر الى خطورة «الرجوع الى المصادر العربية» إذ تبعث على الظن بما أكدت به على المنطقة السودانية، أن هذه المنطقة كانت المركز الوحيد للحضارة وللدولة المنظمة (٤) وسيكون لنا عود الى ذلك، إلا أننا نعرف منذ الآن أن هناك رابطا بين حالة حضارة ما

وحالة مصادرها، وإن هذا الرابط ليس من شأنه أن يوحي تماما بحركة التاريخ الحقيقية. فالمؤرخ الموضوعي لا يسمح لنفسه بالحكم على القيم انطلاقا من جهازه الوثائقي، ولكنه كذلك غير قادر أن يغفل عما يؤفره له هذا الجهاز، بدعوى أنه قد يكون في استغلاله افراط.

وإذا ما كان بمقدور تاريخ عام يشمل كامل المدة التاريخية و يعتمد على المادة الوثائقية المتوفرة بأكملها، أن يعبر حوض الزاير من الأهمية ما يعبره لحوض النيجر أو لمصر، فالدراسة المحددة بالمصادر المكتوبة حتى القرن الخامس عشر لا يمكنها ذلك.

وبناء على كل الملاحظات التي قدمناها، يمكننا أن نعرض الهيكلية الجهوية الآتية:

أ — مصر، ليبيا الشرقية، السودان النيلي.

ب — المغرب بادخال الشريط الشمالي من الصحراء، مناطق أقصى الغرب طرابلس وفزان.

ج — السودان الغربي، بالمعنى الواسع أي حتى بحيرة التشاد من الشرق شاملا جنوبي الصحراء.

د — اثيوبيا وارتر يا والقرن الشرقي والساحل الشرقي.

هـ — بقية افريقيا أي خليج غينيا، و افريقيا الوسطى والجنوب الافريقي.

وإن من مزية هذا التقسيم ألا يعارض بين الافريقيتين، وأنه يجعل للقارة بنية موافقة لمواءمات جغرافية تاريخية موجهة نحو منظور افريقي، كما يغتبر ما للمصادر المكتوبة التي بين أيدينا من طابع خاص. فافريقيا الوسطى أو الجنوبية مهما كانت ثروتها الحضارية، تظهران في مظهر الفقر في المصادر المكتوبة بالنسبة الى أصغر جزء من الوحدات الأخرى (فزان وارتر يا مثلا).

ومن جهة أخرى ما من شك في أنه علاوة على التضامن العام الذي يربط بين مصادر افريقيا المعروفة، يوجد تضامن نوعي أدق بين ما لدينا من معلومات عن كل المناطق المحددة، وثمة كشف مفصل لابد أن يمر عبر النصوص حسب العصور وحسب المناطق، ولكننا نعترف مسبقا أن من وراء المناطق وبكيفية أقل، من وراء الفترات التاريخية، تبدو هذه المصادر ببعض اللغات فحسب، وترجع الى بعض الأنماط المحددة، وأنها ليست دائما مستمدة من المنطقة التي تعالجها ولا هي معاصرة للأحداث التي تصفها.

نمذجة المصادر المكتوبة

أ — إن اللغات التي كتبت بها وثائقنا متعددة إلا أنها ليس لها عين الأهمية. فاللغات الأكثر استعمالا والتي حلت أكبر كمية من الأخبار هي: المصرية القديمة والبربرية واللغات الاثيوبية والقبطية والسواحلي والهوسا والفولفد. وأكثر اللغات انتاجا هي لغات من أصل غير افريقي: مثل اليونانية واللاتينية والعربية، ولأنه تم تقبل العربية كلغة قومية من قبل عدد من الشعوب الافريقية. وإذا صنفنا الوثائق مرتبين اياها ترتيبا حسب كمية وكيفية الأخبار، حصلنا على القائمة التقريبية الآتية: العربية، اليونانية، اللاتينية، المصرية القديمة (الكهنوتية والشعبية) القبطية، العربية، الآرامية، الاثيوبية، الايطالية، السواحلية، الفارسية، الصينية، الخ..

وبحسب التاريخ أن أولى مصادرننا المكتوبة برديات كهنوتية مصرية ترجع الى الامبراطورية الحديثة، ولكن نحريرها الأول قد يرجع الى بداية الامبراطورية الوسطى (بداية الألف الثاني قبل

(الميلاد) وخاصة البردي المعروف بعنوان «تعليم للملك ميريكاري» (٥) ولدنيا برديات الامبراطورية الحديثة والمحاذايات كلها بالمصرية الكهنوتية. والمصادر اليونانية التي تعود الى القرن السابع قبل الميلاد المستمرة بلا انقطاع الى فترة متأخرة، تنطبق تقريبا مع انتشار الاسلام (القرن السابع ب. م) والمصادر العبرية (التوراة) والآرامية (يهود فيله) التي تعود الى الأسرة السادسة والعشرين، والنصوص الشعبية من العصر البطلمي. والأدب اللاتيني القبطي (باللغة المصرية لكن باستعمال الأبجدية اليونانية مضافا اليها بعض الحروف)

ودشنت هذه ابتداء من القرن الثالث للميلاد، والعربية والصينية (٦) والفارسية فيما يظن، الايطالية ثم الاثيوبية التي يرجع أقدم نص مكتوب فيها الى القرن الثالث عشر الميلادي (٧).
ب — وإذا ما صنفت هذه المصادر حسب نوعها فانها تنوع الى مصادر قصصية ولى مصادر وثائقية، وقد سجل بعضها بأمانة كي تبقى شاهدا، وأما غيرها فينتهي الى الحركة العادية للحياة البشرية. وفيما يخص افريقيا ماعدا مصر ولكن بادخال المغرب، فان المصادر القصصية تمثل تقريبا كل الجهاز الوثائقي المكتوب حتى القرن الثاني عشر الميلادي، فهي تضم اذا الجاهلية وفجر الاسلام. ومنذ القرن الثاني عشر الميلادي ظهرت التسجيلات الوثائقية، ولو كانت قليلة، وبالمغرب (سجلات موحدة، فتاوى أو استشارات قضائية من العصر الحفصي) وتكثفت هذه الوثائق في عهد الايوبيين والمماليك (ق ١٢، ١٣م) بينما كانت مخطوطات الديارات الاثيوبية تذييل بوثائق رسمية، ولكن هذا الخط من النصوص بقي عمليا مفقودا من سائر افريقيا في كل الفترة المشار اليها (٨). وعلى كل فإن المصادر القصصية كانت هي الغالبة، وظهرت منذ القرن الثاني عشر الميلادي المصادر الوثائقية أو هي تكاثر نسبي في افريقيا المتوسطة، وكانت هذه مفقودة بافرقيا السوداء. ولكن بصفة عامة فإن جهازنا الوثائقي قد تضخم تضخما لا بأس به بعد القرن الحادي عشر الميلادي حتى بلغ القمة في القرنين الثاني عشر والرابع عشر. ودونك خاصيات فترتنا:
يمكن تعدد أنماط المصادر كما يلي:

المصادر القصصية:

- توار يخ وحوليات،
- مصنفات جغرافية ورحلات ومؤلفات علماء الطبيعة.
- مصنفات فقهية ودينية سواء كانت كتب الفقه أو الكتب المقدسة أو المذاهب.
- مصنفات أدبية حقا.

(٥) غولبنشاف: البرديات الكهنوتية رقم ١١١٥ و ١١١٦ أو ١١١٦ ب من المتسك الامبريالي بسان برتسبورغ ١٩١٣، وقد ترجم الرقم ١١١٦. قاردار في «مجلة الآثار المصرية» لندن ١٩١٤ ج ٣٢ وما بعدها. انظر في الموضوع: أ. بر يوتون ليج. فنديني ١٩٦٢، ص ٢٢٦.

(٦) يوجد نص صيني من النصف الثاني من القرن الحادي عشر ولكن أهم المصادر الصينية التي لم تخصص بعد بالبحث تعنى بالقرن الخامس عشر وساحل الشرق الافريقي ويمكن أن نشير الى الأعمال الآتية: ج. دو يغندك ١٩٤٩، ف. هرت ١٩٠٩ — ١٩١٠: فيلزي ١٩٦٢، أبر ١٩٦٣ ب. و بتلاي ١٩٦٤.

(٧) سرجيو هابل سلاسي، ١٩٦٧، ص ١٣.

(٨) بين أيديسا محارم، وهي رسائل أعطاها ملك برنود ترجع الى نهاية القرن الحادي عشر: رسالة أم جلجي ورسالة أسرة مسبرما. انظر في الموضوع موني ١٩٦١، بلمار ١٩٢٨ ج ٣، ص ٣.

مصادر وثائقية:

- وثائق خاصة: رسائل عائلية ومكاتبات تجارية الخ.
- وثائق رسمية نابغة عن الدولة أو ممثليها: مكاتبات رسمية، قرارات، رسائل تحريم نصوص شرعية ووثائق تتعلق بالضرائب.
- وثائق فقهية دينية.

ونلاحظ أن المصادر القصصية ظهرت في القرن الثامن قبل الميلاد مع هوميروس وهي تشمل عددا وفيرا من أمهات الفكر والمعرفة البشريين. ونجد فيها عددا من أساء الاعلام ولو أن معظم شواهدنا لا يعالج أفر يقيا بصفة خاصة ولكنها تجعل لأفر يقيا مكانة تزداد أهميتها أو تقل في اطار نظرية الى آفاق أفسح. ومن بين هذه الأساء: هيرودوت وبوليبيس وبلين القديم وبليموس وبروكوب والخوارزمي والمسعودي والجاحظ وابن خلدون. والتسجيل الوثائقي هو الأقدم في العالم، بينما برديات رافينا المحفوظة في أوروبا وهي أقدم وجود للوثائق تؤرخ ببداية القرن السادس بعد الميلاد، على أن برديات الامبراطورية الحديثة المصرية سابقة لها بعشرين قرنا. أجل ان هذا النمط من الشواهد لم يتجاوز في فجر الاسلام حدود مصر، ولم ينتشر انتشارا كبيرا حتى نهاية الفترة التي ندرسها. ويعود ذلك بدون شك، الى كون الحضارة الاسلامية الوسيطة تجاهلت عمليا مبدأ الحفاظ على وثائق الدولة، ففي القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهي أغنى الفترات بالوثائق المكتوبة، فإن المؤلفات الموسوعية هي التي أمدتنا بهذه الوثائق. وينبغي أن ننظر الفترة الحديثة العثمانية والاوروبية، لنشاهد تأسيس مستودعات حقيقية للوثائق.

الاحصاء حسب الفترات

الجاهلية: (من البداية الى سنة ٦٢٢م)

ان ما يميز هذه الفترة عن الموالية لها هو أولوية المصادر الأثرية، وبصفة عامة المصادر الغير الأدبية، على أن الوثائق المكتوبة رغم وضعها الثانوي فهي تمدنا أحيانا بتدقيقات تفصيلية، وهي تتكاثر وتزداد دقة كلما انحدرنا مع الزمن، وفيما يخص التوزيع المنطقي نلاحظ أن أفر يقيا الغربية والوسطى لا وجود لها تماما فيها.

مصر، النوبة، أفر يقيا الشرقية

أ) ان المصادر المكتوبة الخاصة بمصر حتى الألف الأولى قبل الميلاد هي مصرية تماما وهي برديات كهنوتية وأسطراكا لا يتجاوز أصلها أبعد من الامبراطورية الحديثة. ولكنها كما ذكرنا، قد تروي أخبارا أقدم (٩)، والبردي والمخاذايات هي عبارة عن المواد المكتوبة: الأول هونبات والثاني كسرة كلسية. وتميز الرسوم الكهنوتية عن الميروغليفية لشكلها النسخي الذي كان يعدها خاصة الى أن ترسم لا أن تحفر. فالبرديات والاسطراكا المتعددة بالنسبة الى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين من الامبراطورية الحديثة أو فترة الرمامسة (١٣١٤ — ١٠٨٥) عنيت بالحياة الادارية عنايتها بالحياة الخاصة، ففيها تقارير ادارية وعدلية، ووثائق محاسبية، ورسائل خاصة كما فيها

(٩) در يونتون وفنديني ١٩٦٢ ص ٧ — ٩، جان يويوط، مصر القديمة ضمن التاريخ العالمي مجموعة التراث.

القصص والروايات. والبرديات الفقهية القضائية (١٠) والبرديات الأدبية (١١) خصت بدراسات متقنة ونشر يات منذ القرن التاسع عشر. وإذا لم تأت اكتشافات جديدة بما يخالف ذلك، فإن معرفتنا للنوبة وبلاد البونت ليست مدينة بشيء الى المصادر المكتوبة، بل هي تعتمد على المادة الأثرية والخطية (ولا سيما النقوش الاثرية). (ب) ان فترة الألف الأولى قبل الميلاد ولا سيما بداية القرن السادس قد نومت ما أتت به المصادر وجدهته، وانضمت الوثائق القصصية الى التسجيلات الوثائقية وأحيانا عوضتها، فهذا «سفر الملوك» وهو جزء من التوراة يمدنا بارشادات قيمة عن انتصاب الاسرة الثانية والعشرين (حوالي ٩٥٠) و يبقى كبير الفائدة بالنسبة الى الفترة الموالية أي حتى سيادة الفرس (٥٢٥)، وحرر «سفر الملوك» أولا قبل تخريب القدس أي قبل ٥٨٦ (١٢) وتناول زمن النبي، الا أنه يرى تقاليد ترجع الى بداية الألف الأولى. وتلقى المصادر الأجنبية ولا سيما اليونانية أضواء على الفترة الدنيا، منذ أسرة السائيت الأولى (القرن الثامن): ميناندر وأرستوديموس وفيلوكوروس وهيرودوت. ومن وجهة النظر الوثائقية فان البرديات تكتب الآن اما باليونانية واما بالشعبية، وهي كتابة منقولة أقرب الى النسخي من الكهنوتية. وفي القرن الخامس فان المصدر الرئيسي مستمد من برديات يهود فيله، بينما حررت في القرنين الرابع والثالث تسلسل التاريخ الدعويطي أي الشعبي.

(ج) والفترة الفاصلة بين حكم البطالسة في مصر (نهاية القرن الرابع) والفتح العربي ٦٣٩ تمتد على ألف عام تتميز بالأهمية الكمية للمصادر اليونانية و بروز المنطقة الاثيوبية الاثرية في حقل معرفتنا. فيحدثنا عنها بوليب واسطرابون وديودور وبلين القديم بدقة نسبية لا تخلو من جهل أو بساطة. وبعدها عالم الطبيعيات الروماني في «تاريخه الطبيعي» بجملته من المعلومات عن العالم الاثيوبي وبخاصة عن منتجات التجارة ودورات التبادلات. نعم ان هذا المؤلف عمل استقرائي تتفاوت قيمته، ولكنه ثري بتفاصيل متنوعة. وفي منتصف الألف الذي يلي ظهور المسيحية تصبح معلوماتنا أكثر دقة. وكما نعلم أصبحت مصر في القرن الثاني المركز الرئيسي للثقافة الهلنستية فكان من الطبيعي أن تنتج مؤرخين وجغرافيين وفلاسفة وآباء للكنيسة. وقد ضمت سياسيا للامبراطورية الرومانية ثم البيزنطية فعنى بها عدد من الكتابات اللاتينية أو اليونانية الخارجية، سواء منها القصصية أو الوثائقية (قانون تيودوز مثلا أو أحداث جوستينيان) ومن الملاحظ أيضا أن تيار البرديات لم ينضب، و يبرز من هذه المجموعة الوثائقية الداخلية والخارجية مؤلفات ذات أهمية

(١٠) من الوثائق القضائية نذكر بردي أبوط برديات أمهرت ومير، وكذلك بردي طور ينووعليها تركز معرفتنا الملك رمسيس التاسع والعاشر والحادي عشر. وقد نشرت هذه البرديات، انظر برديات غتارة بالحروف الكهنوتية من مجموعات المتحف البريطاني لندن ١٨٦٠، ليوري: بردي أمهرت لندن ١٨٩٩، بيت: بردي مير لندن ١٩٢٠، بيت: القبر الكبيرة: الاسرة المصرية المشهورون مجلدان. اكسفورد ١٩٣٠.

(١١) ان مجموعة المتحف البريطاني فرية بالبرديات الأدبية، نجد فيها قصة الحق والكذب وقصة هوروس وسات. وقد استقرى بوسر الاخصائي في هذه المادة استقراء مستوى الآثار الأدبية المصرية فيبلغ ٥٨ عنوانا: مجلة الدراسات المصرية، ٦١، ١٩٥١ ص ٢٧ - ٤٨ ونشر بوسر أيضا بعض الحاربات: جدول الاسطراكا الكهنوتية الأدبية بدير المدينة القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٣٦.

(١٢) أ. لودس: رسل اسرائيل وبداية اليهودية، باريس ١٩٥٠ ص ٧ در يونغوتديني: الكتاب المذكور قبله، دورس ١٩٧١ ج ١ ص ٦١ - ٦٦.

خاصة. الجغرافيا لبطليموس (حوالي ١٤٠٤) (١٣) رحلة بحار تيريا (١٤) وهي من عمل كاتب مجهول ويعتقد أنها أنشئت حوالي عام ٢٣٠م وقد زعم أنها ترجع إلى القرن الأول، الطبوغرافيا المسيحية (١٥) لكسماس انديقولستاس (حوالي ٥٣٥م) وتمثل هذه الكتب قاعدة معرفتنا فيما يخص إثيوبيا والقرن الشرقي لأفريقيا. ولكن هذا العرض الحاطف يبرز في الجملة اختلافين للتوازن، عدم توازن معرفتنا لمصر ازاء معرفتنا للنوبة وللعالم الأريترى.

المغرب القديم

إن التاريخ المكتوب للمغرب القديم نشأ عن مجابهة قرطاج لرومة، أي أنه ليس لدينا أي معلومات هامة سابقة للقرن الثاني قبل الميلاد، فهناك بدون شك إشارات مبثثة عند هيرودوت وفي آثار مؤرخين يونانيين آخرين، والفترة البونيقية حقاً مدينة لعلم الآثار وللخطاطة، ومن جهة أخرى فإن تاريخ قرطاج قبل هنيبل كما هو الشأن أيضاً بالنسبة إلى تاريخ مجابهة لرومة ثم بقائها المؤقت، يكاد لا يدين بشئ إلى المصادر البونيقية المكتوبة، وقد أثبت الآن أن رحلة حانون التي يمتد وصفها إلى السواحل الشمالية الغربية لأفريقيا مزورة، وأن إنشاءها باليونانية، لا يتجاوز القرن الأول. وبقيت الأعمال الفلاحية المنسوبة إلى ماقون، فلم يحفظ لنا منها إلا مقتبسات اقتبسها المؤلفون اللاتينيون، إلا أنه من بين المصادر الوطنية ينبغي أن نذكر ملاحظات يوبا الثاني وقد استغلها بلين القديم في كتابه «التاريخ الطبيعي».

وهكذا فإن أكثر بل جميع المصادر المكتوبة عن تاريخ المغرب العتيق — الأطوار القرطاجية والرومانية والفغذالية والبيزنطية، يتمثل في مؤلفات المؤرخين والجغرافيين الكلاسيكيين، أي الذين حرروا كتاباتهم باليونانية أو اللاتينية: وهؤلاء المؤلفون في جلهم، غرباء عن أفريقيا، ولكن كلما كانت أفريقيا تنغمس في الرومانية كل ثمة كتاب مواطنون يظهرون، وخاصة منهم آباء الكنيسة. (أ) في الفترة بين ٢٠٠ قبل الميلاد و١٠٠ بعده، أي الفترة التي تقابل بلوغ قرطاج أوج مجدها، ثم سقوطها وتنظيم المقاطعة الرومانية في أفريقيا إبان الجمهورية والإمارة، لدينا من المصادر عدد من الكتابات اليونانية واللاتينية المعروفة مثل: بوليبي (٢٠٠ إلى ١٢٠ ق.م) وهو مصدراً رئيسي، واسطرابون، وديودور الصقلي وسيلوست (٨٧ إلى ٣٥ ق.م) وتيت ليف وإبيان وبلين وتاسيت وبلوتارك (القرن الأول الميلادي) وبطليموس (القرن الثاني الميلادي) يقطع النظر عن الكثير من الكتاب الصغار (١٦).

(١٣) من علماء الجغرافيا الكلاسيكيين وغير الكلاسيكيين الذين تعرضوا لأفريقيا، انظر المؤلف الأساسي ليوسف كامل: الملعمة التاريخية لآفريقيا بصرى ومصر القاهرة وإبدة ١٩٢٦ إلى ١٩٥٩، ١٦ مجلداً ومن المأمول أن يعاد نشرها العمل مع جهاز نقدي جديد مهم.

(١٤) نشره مكر: جغرافيون يونانيون صغار باريس ١٨٥٣ ج ١، أعاد نشره هيلمرفسك بقفوبج سنة ١٩٢٧، ونشر هذا العمل الماهم عدة طبعات منذ القرن السادس عشر ١٥٣٣م ثم ١٥٧٧م.

(١٥) كسماس رحالة زار إثيوبيا وجزيرة سوطرا. ويوجد مؤلفه ضمن «آثار آباء الكنيسة اليونانية» لبني مجلد ٨٨، وهي مجموعة لا بد من الاطلاع عليها فيما يخص القرون الحالية، بجوار آثار آباء الكنيسة اللاتينية لبني نفسه: ونشر مصنف كسماس نشرة حسنة جداً في ثلاثة مجلدات منشورات دار سيرف بباريس ١٩٦٨ — ١٩٧٠، كما نشر لأهمية معلوماتنا عن نصير إثيوبيا إلى كتاب «تاريخ الكنيسة» البرونينوس و «آثار آباء الكنيسة اليونانية» ليبقى الذي يترجمه لاتينية.

(١٦) نذكر ارسطو (السياسة) وقصر (الحرب الأهلية وحرب أفريقيا) أوتروب وجستان وأوروز. وفيما يخص تاريخ هنيبل وحده فهناك أكثر من ٣٠ مصدراً مكتوباً.

جدول تاريخي لأهم المصادر القصصية

المصادر المكتوبة			
التاريخ	الأخبار والحجرات	الجغرافيا الرحلات	مصفات نقدية
٢٠٦٥			نصوص أدبية
١٥٨٠			
٨٠٠			هيريوس (٨ ق)
٥٠٠	هيريوس (٤٨٥ - ٤٢٥)		سفر الملوك (قبل ٥٨٦)
٢٠٠	أخبار شمسية (٣ ق)		
١٠٠	بوليبس (١٢٠ - ١١٢)	إسطنبول، رحلة حانون	
	ديودور	الزعموة	
٠	سلوست (٨٧ - ٣٥)		
١٠٠٠	طاسيت، بلنبارك	بلن القديم	
٢٠٠٠		بظلموس	القدس سيريان (٢٠٠ - ٢٥٨)
٣٠٠٠		رحلة بمرانزيا	
٤٠٠٠			القدس اغسان (٣٥٤ - ٤٣٦)
٥٠٠٠	بروكوب (٤١٢ - ٥٦٢)	كساس انديكولستس (٥٣٥)	
٦٢٢٠			
٨٠٠٠	ابن عبد الحكم (٨٠٣ - ٨٧٦ م)	الفزاري، الفزاري، الفزاري (قبل ٨٣٣ م)	الموطأ، المدونة أحكام السوق
٩٠٠٠	الكندي	السعودي (٩١٤ م)	غافني نيمان (شيمي)
١٠٠٠٠	الريفي (١٠٢٨ م)	ابن حوقل (٨٩٧ م)	ابوالعريبي (سني)
			ابن الصغير (شاربي)
		البكري (١٠٦٨ م)	اللاتكي
١١٠٠٠	الاستيعبار	الادر يسي	ابوزور كوجا
١٢٠٠٠	ميجول المؤلف	ياقوت (١٢٢٩ م)	القرومي
١٣٠٠٠	ابن الأثير (١٢٣٤ م)	ابن سديد (قبل ١٢٨٦ م)	مناقب حنصية
١٣٠٠٠	ابن العذاري	العبدري (١٢٨١ م)	عظوميات الديارات
١٣٠٠٠	التوريي	العصري (١٣٣٦ م)	الاثيورية
١٣٠٠٠	ابن أبي زرع،	ابن بطوطة	
١٣٠٠٠	الذهبي	التجالي	
١٣٠٠٠	ابن خلدون	الأطلس الميرقي	
١٤٠٠٠	ابن توري بردي	الكرسك	
		المقر بزي	
١٤٥٠	زواره		

المصادر الوثائقية		
أوراق رسمية	وثائق خاصة	الأحداث التاريخية
		٢٠٦٥ الإمبراطورية الوسطى ١٥٨٠ الإمبراطورية الحديثة
برديات كهفونية	برديات يهودية في قبلة	٨٠٠ اختطاط قوطاج، العصر المصري التأخر ٥٠٠
		٢٦٠ البطالسة ١٠٠ القنص الروماني (١٤٦م) لأفريقيا
		١٠٠ + ترمين أفريقيا ٢٠٠ + أوج المدرسة الاسكتلندية
		٣٠٠ + الكسوم - تنصير ٤٠٠ + البوبيا (٢٣٣)
أخبار حديثة		٥٠٠ + استرجاع بيرطلة لأفريقيا (٥٣٢)
		٦٢٢ الهجرة
برديات أفريقية وقبطية برديات عربية بأفرويت		٨٠٠ + القنص العربي إحالة الاموية (٦٦١ - ٧١٩) أفريقيا الأفريقية (٨٠٠ - ٩١٠) ثورة الزنج (٨٩٨) ٩٠٠ + انتصاب الفاطميين في مصر (٩٦٩)
مراسلة فاطمية في أفريقيا برديات عربية بالقديم واشمونين صكوك فاطمية في مصر		١٠٥٠
رسائل، مراسلة هم ام جلبي	الجنيزة	الخلايل في أفريقيا، فتح الرايعين لقاعة ١٠٧٦
رسائل موحدة		١١٠٠ + ١١٥٠ + الموحدون بالمغرب، الايويون بمصر
وثائق إيطالية	الجنيزة وثائق إيطالية	١٢٠٠ + المخصفين في أفريقيا، المرينون بالمغرب، المماليك بمصر
رسوم وقف	فتاوى	١٣٠٠ + إمبراطورية عالي كنكونوسي (١٣١٢ - ١٣٣٥)
التقشيري		١٤٠٠ + سقوط مالي، بوز سنغاي احتلال سبعة من قبل البرتغاليين (١٤١٥) اكتشاف البرتغاليين لرأس بوطور (١٤٣٤)
المقر يزي		١٤٥٠ +

وكان من المفيد جدا أن يجمع ما بعثر من الكتابات الخاصة في إفريقيا الشمالية، ولكن هذا لم يتم إلا بالنسبة إلى المغرب الأقصى (١٧)، فصار لزاما على الباحث أن يتصفح نظام المجموعات الكلاسيكية الكبرى، تلك المجموعات التي عرض فيها التبحر العلمي الأوروبي في القرن التاسع عشر كل ما كان لديه من وسائل النقد ومن العمل الجبار: الخزانة الطينية، الخزانة الكلاسيكية لوب (نص وترجمة إنكليزية)، مجموعة ج. بودي (نص وترجمة فرنسية) مجموعة جامعات فرنسا، المخطوطات الكلاسيكية في خزانة أوكسنيوتزيس. يحسن أن يضاف إلى هذه المصادر القصصية مصادر أكثر مباشرة متمثلة في نصوص القانون الروماني، ولو أن هذه النصوص كانت في أصلها من النقوش الكتابية (١٨).

ولم تكن كتابات الحوليات ومؤرخي اليوميات والجغرافيين اليونانيين واللاتينيين ذات قيمة واحدة بالنسبة إلى الفترة الفرعية المدروسة كلها. فالبعض يرمي إلى اقتباس المعلومات من الكتاب السابقين، بينما يقدم غيرهم معلومات طريفة قيمة، وأحيانا شواهد مباشرة، فهذا بوليبي مثلا قد عاش في ظل أسرة سيبيون ولعله حضر حصار قرطاج سنة ١٤٦ ق. م. وهذا كتاب سلوست حرب يوغرتا الذي يعتبر «وثيقة ممتازة عن الممالك البربرية» وكتاب قيصر «الحرب الأهلية» هو كتاب صانع للتاريخ.

وتسيطر على هذه الفترة صورة بوليبي وآثاره. فقد قيل (١٩) إن بوليبي وليد العصر الهلنستي وثقافته. ولد حوالي سنة ٢٠٠ ق. م أي في الوقت الذي التقت فيه رومة، عند انفجار امبراطوريتها، بعالم البحر الأبيض المتوسط وخاصة منه الهلنستي. ثم سجن وعرف النفي بروما وذاق ضروب المرأة، وهو «المعلم القاسي» المؤرخ والفيلسوف. ولقد راقت الحياة برعاية آل سيبيون بل إنه مدين لها بمعرفة الكثير عن تاريخ رومة وقرطاج، ثم عاد إلى موطنه اليونان بعد سجن دام ستة عشر عاما، ولكنه ما لبث أن هاجر سائحا في الدنيا، وخلال اقامته في إفريقيا يقال إن سيبيون إميليان عرض عليه اسطولا يمكنه من استكشاف الساحل الأطلسي الأفريقي، فنحن اذن أمام رجل مقدم مجرب لا يفتقر له فضول. ولم يكن بوليبي فحسب المصدر الرئيسي لكل ما يتصل بالصراع البونيقي الروماني، بل هو بصفة أعم مشاهد من الطراز الأول لما يجري في زمنه في إفريقيا ومصر، ولو كانت الأجزاء الأربعون من كتابه «اللدراعية» باقية بين أيدينا، لكانت معلوماتنا أكثر بكثير مما نعلم الآن، وقد يكون لنا فيها معلومات أدق منها في أي مكان آخر عن إفريقيا السوداء نفسها. إن ما تبقى لدينا من أجزاءها الستة تتميز تميزا كبيرا عن سائر مصادرنا بمجودة المعلومات والنظرة الثاقبة.

ب) وبعد القرن الأول وطيلة القرون الأربعة التي تعمقت فيها جذور التنظيم الامبريالي إلى أقصى حد في إفريقيا، ثم أهميتها باعتبارها أزمئة مطولة، صارت المصادر الأدبية ضئيلة ووجد فراغ يكاد يكون تاما في القرن الثاني الميلادي، وتميز القرنان الثالث والرابع بهيمنة الكتابات المسيحية ولا سيما كتابات سيبريان وأغستان. وهي مصنفات عامة تتجاوز الأطار الأفريقي واضعة أهم

(١٧) روجي: المغرب عند المؤلفين القدامى ١٩٢٤.

(١٨) ب. أ. جيرارد: نصوص من القانون الروماني، الطبعة السادسة ١٩٣٧.

(١٩) «التاريخ القديم، كيمر يدج» المجلد الثامن: «روما والبحر المتوسط».

المشاكل الدينية دون أن تساهم في القول التاريخي المباشر، بل هي لها وقع مباشر على الأحداث بما اكتسفت به من كتابات جدلية ظرفية.

فعرفتنا للحركة الدونانية انما تعتمد على تهجمات أكبر مناوئها القديس أغستأن (٣٥٤-٤٣٠)، ولذلك صار من اللازم أن نحترز بشأنها احترازا جديا.

وبالنسبة الى المصادر المكتوبة أيضا، فإن آثار الآباء في الفترة الامبريالية تبدو كأداة رئيسية ولكنها جزئية لمعرفتنا. وفي هذا الشأن أيضا يمكن للباحث أن يرجع الى المجموعات الكبيرة.

— مجموعة برلين باليونانية (النص وحده)

— مجموعة فينا باللاتينية (النص وحده)

ولهذه المعالم من التبحر العلمي الالمانى ما يقابلها في التبحر الفرنسي، وهي مجموعتا ميني:

— آثار الآباء اليونانية (نص وترجمة لاتينية).

— آثار الآباء اللاتينية (نص لا تيني فحسب).

وكان التدخل الفندالي وإعادة الفتح البيزنطي والحضور البيزنطي طيلة أكثر من قرن، شديدة الاشارة للاستلهاقات، فتكاثرت الكتابات الموضوعية «الصغيرة» وظهرت المصادر الوثائقية (مراسلات ونصوص تشرىعية)، ومن حسن حظنا أن كان لنا مشاهد خصب بارع هو بروكوب (القرن السادس) فكان الى حد بعيد مصدرنا المعتمد، بكتابه «الحرب الفندالية».

ويمكن العودة الى «المجموعة البيزنطية» في بون والاستعانة «بالقطع التاريخية اليونانية فيما يخص النصوص اليونانية، وتوجد النصوص اللاتينية المتعددة اما في «آثار الآباء اللاتينية» (وآثار القديس فلتنانس لها بعض الأهمية بالنسبة الى معرفة الفترة الفندالية) واما «العلمة الجرمانية التاريخية، لمؤلفين قدامى» (٢٠) وهي من معالم التبحر الالمانى، فهي تجمع «التواريخ اليومية الصغيرة» من الفترة البيزنطية: كسيودور وبرسبرتيرو ولا سيا فكتور دي فينا وكوريبوس، ويستحق هذان الأخيران أكبر العناية، الأول فيما يخص الفترة الفندالية والثاني بالنسبة الى الفترة البيزنطية إذ هما يلجان باطن افريقيا ويليقيان بعض الأنوار على افريقيا هذه «العميقة» التي طالما أغفلت (٢١). ويوضح شارديهل في كتابه الدراسي عن افريقيا البيزنطية انه في الامكان استغلال المادة الأثرية ومادة النصوص في آن واحد لتمثيل الواقع التاريخي تمثيلا أتم ما يمكن. لقد استخدم من المصادر المكتوبة لوحة فسيحة قدر ما يمكن: فأولا بروكوب وكذلك كوريبوس، ولكن أيضا أقاطياس وقاسيودور وجورج القبرصي (٢٢)، ورسائل البابا قريوقار الكبير وثائق قضائية كالأحداث وقانون جوستينال، النافعة ايمانا نفع لاستكشاف الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

ويدون الاحتمال ضعيف بإمكان اثره القائمة الميتة لوثائقنا المكتوبة بواسطة اكتشافات

(٢٠) في «عملة بمن» مجلد ١/٩، ٢ (١٨٩٢) ١١ (١٨٩٤) ١٣ و (١٨٩٨) يوجد نص فكتور دي فينا في المجلد ٣ — ١ (١٨٧٩) نشره ص. هولم، ويوجد نص كوريبوس في المجلد ٣ — ٢ (١٨٧٩) نشره ج. بارثش.

(٢١) عن افريقيا الفندالية والبيزنطية لدينا مصنفان عصر يان أساسيان يوضحان تفاصيل المصادر الممكن استغلالها: كرسيتان كونوتوا ١٩٥٥ وش. ديل ١٩٥٩، وفيما يخص الفترة القديمة: التاريخ القديم لافريقيا الشمالية لاستيفن كزال ولأنه تقدم فهو زال صالحا للمطالعة.

(٢٢) وصف العالم الروماني نشر جلز.

جديدة، على أنه، بالعكس، من الممكن أن تستغل استغلالاً أحسن وأن تعمق وأن يتم عليها تحقيق دقيق وأن تقابل بالمادة الأثرية والنقشية التي لم تنفذ بعد، وخاصة أن تستخدم بنزاهة وموضوعية (٢٣).

إفريقيا الصحراوية والغربية

ليس لدينا في حقيقة الأمر أي وثيقة يوثق بها عن إفريقيا السوداء الغربية. فإذا ما وافقنا موني (٢٤) على أن القدامى — قراطاجيين ويونانيين ورومانين — لم يتجاوزوا رأس جوبي وخط عرض الجزر الخالدات — وهذا هو الأرجح، فإن الارشادات التي توفرها لنا كتاباتهم إنما تخص الجنوب الأقصى المغربي. نعم هي على حدود العالم الأسود ولكنها لم تدخله.

ورحلة حانون مزيفة، إن لم تكن بأكملها في معظمها (٢٥) وهي مؤلف خليط تتلاقى فيه اقتباسات من هيرودوت ومن بوليب و بوسيدونيوس وسيلاكس المزعوم الذي قد يؤرخ بالقرن الأول، وتآليف هذه المصادر هي أشد جدية، ففي هيرودوت صدى للتجارة الصامتة التي كان القوطاجيون يجرؤونها مع الجنوب المغربي. ويمدنا تابع سيلاكس المزعوم (القرن الرابع ق. م) بدوره بأخبار ثمينة عن علاقات القوطاجيين بالليبيين البربر، إلا أن بوليب يلوح مرة أخرى، المصدر الأقرب إلى الواقع، إذ أن بقايا نصه التي اقتبسها بلين القديم توفر لنا أولى المسميات المكانية في العصور الحالية التي يمكن تحقيق مواقعها، إلا أن في ذلك أيضاً تقف ارشاداته عند حد رأس جوبي، وفيما يخص أرخبيل الخالدات ينبغي أن تكمل تقريراته بمذكرات الجوبا الثاني التي جمعها بلين واسطرابون وديودور الصقلي. ولم يبق سائر المؤرخين الجغرافيين في القرن الأول ق. م. وب. م. إلا بتصنيف المؤلفين السابقين، إذا استثنينا بعض التفاصيل الجزئية. وأخيراً في القرن الثاني، كرر بطليموس ما جاء عند كل سابقه، واعتمد خاصة على بوسيدونيوس وماران الصوري، فقيد في «جغرافيته» أوسع المعلومات عن محيط إفريقيا في العصور القديمة (٢٦)، وقد استغلت الخريطة التي أبقاها لنا الجغرافي الاسكندري عن «ليبيا الداخلية» عن ما جمعه الجيش الروماني من معلومات خلال حملاته العقابية من رواء الحدود حتى فزان، مثل حملة بلبوس سنة ١٩ ق. م وحملة فلكوس سنة ٧٠ ب. م ومسترنوس سنة ٧٦ ب. م. وقد توغل إلى أقصى حد في الصحراء الليبية (٢٧)، و بقيت من العصور الحالية أسماء شعوب ومناطق مثل موريطانيا وليبيا والقوارمنت والحيثول والنوميديون والهسبريد وحتى النيجر الذي تقدم عبره بطليموس، واسترده ليون الأفريقي من جديد ثم الاوربيون العصريون. هذا ما أثبت به نصوصنا التي أمدتنا علاوة على ذلك، بالتشخيص الذي تصورته به

(٢٣) عن الترحيل بغيات الناشئة عن قراءات متحيزة للنصوص، ان النقد الذي قدمه عبد الله العروي سنة ١٩٧٠ على التذوق التاريخي الغربي وجبه بقدراً ما هو عجيب الاطلاع.

(٢٤) (ر. موني ١٩٧٠ ص ٨٧ — ١١١).

(٢٥) عين المصدر ص ٩٨، طوكسي ١٨٨٢ ص ١٥ — ٣٧، ج جرمان ١٩٥٧ ص ٢٠٥ — ٢٤٨.

(٢٦) يوسف كامل: معلمة المصدر المذكور ج ٢ فصل ١٦ ص ١١٦ وما يليها، ر. موني (غرب إفريقيا عند بطليموس)، ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثاني للعلماء الافريقانيين للغرب: بساو ١٩٤٧.

(٢٧) مارين الصوري (أحد مصادر بطليموس)، ذكر ذلك، انظر يوسف كامل ج ١، ١٩٢٦، ص ٧٣.

العصور القديمة عن أفريقيا، أكثر مما أمدتنا بمعطيات حقيقية. على أن الاشارات التي تبدو من ذلك، إنما تهتم الصحراء الليبية وسواحل الصحراء الغربية، أما أفريقيا السوداء، فبقي مجهولة غامضة على حدود المعرفة.

العصر الأول الاسلامي (حوالي ٦٢٢م - ١٥٥٠م)

كان الفتح العربي وتشكل الخلافة سببا لتوحيد المجالات السياسية الثقافية التي كانت قبل متفرقة (الامبراطورية الساسانية والامبراطورية البيزنطية) وإفساح الأفق الجغرافي للانسان، وتحوير تيارات التبادل، والولوج الى أعماق شعوب لم تعرف من قبل. فلا غرابة إذن أن يكون لنا لأول مرة معلومات أدق فأدق عن العالم الأسود، الشرقي والغربي. ولكن بينما كانت مصر والمغرب الأقصى متدجين في صلب الامبراطورية ثم الأمة الاسلامية، كان العالم الاسود مجرد جزء من منطقة النفوذ الاسلامي، ولذا كان الخبر عنه جزئيا، متقطعا أحيانا وخرافيا ولكنه مع ذلك خبر ثمين.

وإذا استثنينا المصادر الوثائقية التي استمرت تقاليدها في مصر (برديات قبطية ويونانية في أفروديت، وبرديات عربية في الفيوم وفي اشمونين (٢٨) وأخيرا في القرن العاشر الميلادي بعض النسخ من الوثائق الفاطمية، وهي خاصة بهذا البلد، فإن معظم المصادر القصصية بالمعنى الأوسع أو الغير المباشر كانت متداولة في أفريقيا كلها. والأمرواض بالنسبة الى الكتابات الجغرافية التي ترى في عدة نصوص قانونية. ولذا يبدو من الملائم أن نقوم بإحصاء حسب الأغراض، مسجلين مع ذلك التابع الزمني، غير غاضين الطرف عن البنية الجهوية.

الأخبار التاريخية

أ) ليس لدينا أي خبر تاريخي قبل القرن التاسع، ولكن الخبر الشفاهي قد تم اعداده، ومركزه بلا منازع مصر، فيما عدا الساحل الشرقي الافريقي المرتبط تجاريا مباشرة مع العراق الجنوبي، ومن جهة أخرى نظرا لصفته اللامركزية بالنسبة الى مصر، فإن المغرب الأقصى ومن باب أولى السودان، حظيا بمكانة ضعيفة في التواريخ الكبرى (٢٩) (الطبري والدينوري والبلاذري في أنساب الاشراف) التي كانت مركزة على المشرق. ويشذ عن ذلك تاريخ يكاد يكون مجهول حتى زمن قريب: تاريخ خليفة بن خياط (٣٠) ولم يكن هذا الكتاب مجرد أقدم كتاب عربي في الحوليات (توفي خليفة سنة ٢٤٠ هـ ولكنه احتفظ بمواد قديمة أغفلها الطبري) وأشاراته حول فتح المغرب خاصة، لها أهمية كبرى. فبينما تركت روايات المغازي المدنية فتح مصر والمغرب جانبا، فإننا نرى منها الأحداث البارزة فقط وبصفة مقتضبة في كتاب فتوح البلدان (البلاذري). وثمة قاص

(٢٨) أعمال قرومان هي المعتمدة: برديات عربية في الحزاة المصرية ٥ مجلدات ١٩٣٤ - ١٩٥٩ «فتاخرات من البرديات العربية» بولغ ١٩٥٥، وقد درس هـ. بل البرديات اليونانية والقبطية عن الرسوم الفاطمية: الشياح: مجموعات الوثائق الفاطمية القاهرة ١٩٥٨.

(٢٩) على أنه من المهم أن نشير الى أن أحد المؤرخين الأولين للتاريخ العربي، وهو عمر بن شاذي، أثبت لنا أقدم شاهد عربي متعلق بالسود، وروى هذا النص للطبري، التاريخ جلد ٧ ص ٦٠٩ - ٦١٤. وهذا الشاهد هو وثيقة السودان في المدينة سنة ١٤٥ هـ ٧٦٢. مما يدل على حضور افريقي قوي في ذلك العصر، ولم يشر الى هذا النص ولم تتم ملاحظته حتى الآن.

(٣٠) نشره في النجف ١٩٦٥ العمري مع مقدمة لـ أ. س. العلي ص ٣٤٤.

مصري كرس نفسه من أجلها في مؤلفه الذي كان أهم وثيقة عن القرن التاسع، ان كتاب «فتوح مصر والمغرب» (٣١) لابن عبد الحكم شبيه بالحوليات أو بكتب المغازي، وهو في الواقع مجموع تقاليد قانونية تتصل بالتاريخ (٣٢).

ب) وبعد سكوت قرن (٨٥٠ - ٩٥٠) (٣٣) ظهر مؤلف سياسي لا يبدو أنه استغل من جميع أبعاده: هو كتاب «ولاة مصر وقضاتها للكندي» (ت: ٩٦١) وهو كتاب تراجم لا توارى يومية ولكنه قد يشابهها ويحتوي لا على معطيات مدققة مباشرة عن مصر فحسب، بل هو بموجب ما كان لهذا البلد من صلات أولى مع المغرب يلوح مضمدا من أثبت المصادر لمعرفة المغرب في القرن الثامن الميلادي (٣٤).

والقرن العاشر الميلادي هو قرن الإسماعلية في الاسلام، الاسلام الافريقي أولا وبالذات وعليه فمن الممكن أن نتصفح في ذلك كتابات الشيعة مثل «سيرة الحاجب جعفر» ولا سيما «افتتاح الدعوة» للقاضي النعمان، وهو مؤلف أساسي لا يذكر الكثير من التواريخ، ولكنه غني بالأخبار عن بداية الحركة الفاطمية (٣٥).

ج) وفي النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، ظهر الكتاب الشهير «تاريخ الرقيق» (ت: ١٠٢٨) وهو مصدر أساسي، وتعتبر النسخة الأصلية من هذا الكتاب مفقودة، ولكن أهم ما فيه نقله المؤرخون من بعده مثل ابن عذاري. قد عثر أخيرا العالم المغربي المنوني على جزء منه مخصص للعصر القديم الافريقي ونشره الكعبي في تونس عام ١٩٦٨. دون أن ننق بصحة نسبته الى الرقيق (٣٦).

في كل هذه التواريخ نرى المكان المخصص لافريقيا السوداء يضيق بل انه يتطلب أن يقوم المؤرخ بنقد دقيق لها، وبمقارنة مستمرة مع معطياتها، فيما بينها، ومع المعطيات التي تعود لأصول مختلفة أيضا. وليس بمشكور مؤرخ المغرب ومصر بصورة خاصة، أن يقف عند هذا الحد، بل ان حصولها على معرفة معمقة عن الشرق، هو ضرورة مطلقة. و يقتضي ان تكتمل ملازمته لهذه المصادر بملازمة معمقة للتواريخ الشرقية الكلاسيكية.

(٣١) نشره طري سنة ١٩٢٢ وترجمه جزئيا قاتو، وأعيد طبعه في القاهرة. نشره عامر سنة ١٩٦١ وعن التحفظات عند استعماله: (برنشتينك ابن عبد الحكم وفتوح افريقيا الشمالية: حوليات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر، ١٩٤٢، ٤٧ دراسة نقدية لأذعة لا تنقص في نظرها مساهمة هذا النص الأساسي بالنسبة الى مصر، والمفيد بالنسبة الى افريقيا والمهم بالنسبة الى العالم الأسود (اتصالات عميقة المحملة مع فزان التي يتكرها برنشتينك في مقال آخر، الاتفاق الشهير للدعوة مع التوبين).

(٣٢) لا شيء يستمد من جامع مؤرخ عبد الله بن صالح الذي اكتشفه ليبي بروفنسال ونوه به. انظر أرابيكا ١٩٥٤ ص ٣٥ - ٤٢ كمصدر جديد لفتح المغرب، ويساير ليبي بروفنسال ما في «جدول»، المصدر المذكور ص ٣٤ وتحليله للمصادر العربية المتأثر الشامل لا يعني كثيرا بالنقد الدقيق.

(٣٣) باستثناء بعض التواريخ بمجلة المؤلف وهي مهمة: «كلامامة والسياسة» القاهرة ١٩٠٤ المنسوب لابن قتيبة والأخبار المجموعة مدر يد ١٨٦٧.

(٣٤) نشره ر. جاست سنة ١٩١٢ وأعيد طبعه في بيروت سنة ١٩٥٩.

(٣٥) نشره في تونس م. الدشراوي ونشر أيضا في بيروت.

(٣٦) يرفض محمد الطالبي رفضا باتا نسبته الى الرقيق (انظر كرايس تونس مجلد ١٩، ١٩١٧، ص ١٩ وما بعدها، دون أن يأتي بالحجة القنعة، فالشكل باقي في شأنه.

مصادر جغرافية

المصادر الجغرافية هامة ووافرة منذ القرن التاسع الميلادي، فسواء كانت تنتمي الى نوع رسم الخرائط، كصورة الأرض التي أوضحها الخوارزمي، أو الى الجغرافية الادارية، أو الى نوع المسالك والممالك، أو الى مجرد فن الرحلة المروية كقصّة قليلا أو كثيرا، فإن الكتابات الجغرافية العربية تدلّ على رغبة لادراك المعمورة بأكملها، فلا غرابة اذا أن تكون افريقيا السوداء ممثلة فيها، وأن تكون هذه المصادر هي الأساسية لمعرفة هذا الجزء من افريقيا. وحسب المجموعة المستقرّة من قبل كويل وماتيفيف (٣٧) التي تنتهي عند القرن الثاني عشر الميلادي، تبين أن من بين ٤٠ مؤلفا ذكرها يوجد ٢١ جغرافيا، نصوصهم هي أكثر النصوص مادة. ولكنه لا يمكن استثمار هذه المصادر استثمارا حقيقيا مالم تقرن بعمل نقدي مسبق، فعلى مؤرخ افريقيا السوداء أن يحل الآثار الجغرافية العربية محلها في إطاره الثقافي الخاص. فالى أي حد مثلا يوافق وصف ما الواقع الحقيقي، وإلى أي حد لا يكون سوى خيال لأغراض ردها الأدب بمختلف مركباته؟ (٣٨) وما هو نصيب التراث الاغريقي والتراث الفارسي والتقاليد العربية الخاصة، وما هو حفظ التصفح كما هو نصيب المشاهدة الحسية. ولكن لابد، ومن جهة أخرى، أن يجري على هذه النصوص النقد من الداخل، أي بدءا من معرفة عميقة للتاريخ الافريقي، مع التحفظ من الاطلاع على هذا التاريخ من المصادر الجغرافية فقط، وتبقى غير مقبولة وجهة النظر الايديولوجية الضيقة لدى من يرفضون النظر الى العمق في هذه المصادر بسبب كرههم للإسلام — (٣٩) وهو اتجاه في غير محله يفسر افريقيا بكتابة منكمشة على نفسها — (٤٠).

جملة من الجغرافيين أفردوا نصيبا لافريقيا، من منتصف القرن التاسع الى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي — بل كلهم تقرّيبا فعلوا ذلك — ولكن هناك قلة فحسب ساهمت بخير طريق جديد مثل ابن خردادبه واليعقوبي (ت ٨٩٧) والمسعودي (٩٦٥) وابن حوقل (٩٧٧) والبيروني (٤١). فاليعقوبي سافر الى مصر والمغرب فأبقى لنا منها لوحة خصبة، في «تاريخه» كما في «بلدنامه» (٤٢) قد أمدنا بأرشادات عدة عن العالم الأسود: عن أثيوبيا والسودان والنوبة والبة والنزنج. وفي السودان ذكر الزغاوي من كاتم، ووصف مسكنهم، ثم هو يصف مملكة غانة العظيمة

(٣٧) كويل وماتيفيف ١٩٦٠ و ١٩٦٥، انظر أيضا ج. كوك.

(٣٨) أ. ميكال ١٩٦٧ و ١٩٧٧.

(٣٩) انظر في هذا الشأن موقف ج. فرونيوس النقدي الحرج وموقف ج. روش: مساهمة لتاريخ السفاري، داکار ١٩٥٣، الذي يشير خاصة بالتحريف الايديولوجي الوارد في التواريخ السودانية.

(٤٠) صحيح أن هذه النصوص تنطبق خاصة على الحزام السوداني، وإن الاتصاع على قراءة المصادر العربية وحدها دون الاستعانة بعلم الآثار، يمكن بالتالي أن يزيّف الصورة. غير أنه ليس صحيحا أن نقول أن المؤلفين العرب كانت تعزّهم الموضوعية. أما أن نأخذ عليهم افتقار كتاباتهم الى التكامل والنظام فعناء اغفال وجه نظر المؤرخ المحض لأخذ بوجه نظر مؤرخ الأدب. وفي هذا الصدد، أصدرن. ليفيتسون أحكاما غير قاطعة. كذلك من المفيد الرجوع الى الدراسة التي قدمها أ. هريك الى المؤتمر الدولي الثاني عشر للعلوم التاريخية في فيينا أعمال المؤتمر الصفحات ٣١١ وما يليها، انظر أيضا ت. ليفيتشكي «نظرات جديدة على التاريخ الافريقي»، محاضر مؤتمر دار السلام ١٩٧١، و «المصادر العربية الخارجية» لتاريخ افريقيا جنوبي الصحراء وكلمو- وارسو- كراكو ١٩٦٩.

(٤١) انظر - جملة كوريبه التي تصدر عن اليونسكو - عدد الشهر السادس ١٩٧٤.

(٤٢) نشره ضمن «الرائحة الجغرافية العربية» ج ٧، دوقوي، كمعظم الجغرافيين العرب ترجمة ج. فيت بعنوان «كتاب البلدان» مفيدة ولكنها غير مدققة.

و يعالج بصدها مشكل الذهب كما يتعرض لمشكل العبيد عن حديثه عن فزان. «ومسالك» (٤٣) ابن حوقل أكثر تفصيلا، فلقد زار المؤلف النوبة، واحتمالا السودان الغربي، وتكن قيمة وصفه فيما يوفره من فكرة عن العلاقات التجارية بين المغرب والسودان، وبمدنا معظم الجغرافيين الآخرين في القرن العاشر الميلادي بملومات عن إفريقيا السوداء: ابن الفقيه عن غانة وكوكي، والرحالة بزري بن شهر يار عن الساحل الشرقي والزننج، والمهلي الذي حافظ في مؤلفه على مقاطع من كتاب الاسواني. وفي النهاية ان «مروج الذهب» للمسعودي (٩٦٥ م) غنية بالمعلومات عن الزنوج والساحل الشرقي. ولقت هذه النصوص من بعيد نظر الاخصائيين الافريقيين والمستشرقين، أمثال دولافوس وتشرولي (٤٤) وكرامرس (٤٥) وموني (٤٦).

المصادر القضائية والدينية

ان مؤلفات القانون ومراحل السير في الطبقات، من مدونة «سحنون» حتى مؤلفات الخواص هي منجم للمعلومات عن المغرب، وبعضها صالح فيما يخص المنطقة الصحراوية الموصلة الى إفريقيا السوداء، وحوليات الأئمة الرسميين بتاهرت لابن الصغير (بداية القرن العاشر الميلادي) (٤٧) تمكنا من القول بوجود روابط تجارية منذ نهاية القرن الثامن الميلادي بين الامارة الاباضية وبين ثاو، كما تمكنا بعد اكملها بما جمع في المؤلفات الموالية مثل «السير» للوساني، من افراح ذلك الى كل الحدود الصحراوية ولكن هذه المؤلفات في المناقب لا تعرض أخبارها الا لملحها، ومن الواجب أن تطالع في اطار اشكالية موضوعه مسبقا وأن تقارن دائما بأبحاث أخرى من المصادر. وهي لا تسمح في نظرا ببناءات واستنتاجات جريئة من نوع ما يتقدم به لويكي.

العصر الاسلامي الثاني (١٠٥٠م - ١٤٥٠م)

تمتاز هذه الفترة الطويلة بترائها وبنوعية ما تمدنا به من خبر وبتنوعه. على أن المصادر الوثائقية رغم ثنائيتها بالنسبة للكتابات الأدبية ذات أهمية مثل: وثائق الجنيزة، ورسائل مرابطية وموحدية، عقود الوقف، فتاوى، وثائق إيطالية، أوراق رسمية مودعة في كبريات المجموعات. وينتج المؤرخون أعمالا من طراز أول، تكتسب قيمتها من مشاهدة الأحداث المعاصرة، وكذلك بما تنقله عن المصادر القديمة المفقودة، ثم انه فيما يخص إفريقيا السوداء تبلغ معرفتنا الأوج عند ظهور وثائق إفريقية جديدة متمثلة في المخطوطات الاثيوبية.

(٤٣) «كتاب المسالك والممالك» ب. ج. أ. ٢، كوبل وما نيف، ٢، ص ٣٣ وما بعدها.

(٤٤) وثائق عربية لتاريخ النوبة ١٩٣١.

(٤٥) جغرافيا: دائرة المعارف الإسلامية، اتر يا موصوفة في مصدر عربي من القرن العاشر، أعمال المؤتمر التاسع عشر للمستشرقين، رومة ١٩٣٨.

(٤٦) الباب الأول من «لوته» احصاء منهجي للمصادر الجغرافية.

(٤٧) نشرت في أعمال المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين (الجزء الثالث) ١٩٠٨ ودرسها لويكي ١٩٧١، مجلد ١٣ ص ١١٩ وما بعدها.

المصادر الوثائقية

لها قيمة خاصة بالنسبة الى مصر والمغرب

(أ) لدينا الآن وثائق الجنييزة الخاصة بالقاهرة، والتي تمتد على الفترة المدروسة كلها، على أن معظمها من العهد الفاطمي، وقليلاً منها ينتمي الى مصر المماليك، وهذه الوثائق خليط من الأوراق العائلية ومن المراسلات التجارية فتعكس اهتمامات المجموعة اليهودية بمصر وغيرها من البلدان، كسببت هذه الوثائق باللغة العربية وبمعرفة عبرية بدون تأريخ، فزعم اتخاذ عديد من الاحتياطات الفنية عند استخدامها، ولكنها على حالها تلك تمثل ذخيرة من المعلومات لا تنضب (٤٨).

ويمكن أن يجمع في عين الصنف — صنف الوثائق الخاصة — رسوم رسم الوقف الكثيرة في عصر المماليك المحفوظة بمحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة (٤٩) وكذلك بدون شك فتاوى العهد الحفصي.

(ب) وبالعكس فإن الوثائق الاوربية الخاصة بمصر والمغرب والتي تعود الى القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر للميلاد، والموجودة في البندقية وجنوة وبيزا وبرشلونة، تقع في منزلة بين الحقل الخاص وبين الحقل العام. وهي محفوظة في مستودعات الوثائق العامة والخاصة، وهي تتألف من معاهدات وعقود ورسائل تهتم عادة بالعلاقات التجارية، وقد نشر اماري وماس لترى (٥٠) البعض منها فحسب. وهي توفر في مجموعها مادة وثائقية من شأنها أن توسع مجال البحث في حقل التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

(ج) وليس بين أيدينا وثائق دولة بالمعنى الكامل فيما يخص هذه الفترة، بل هي أوراق رسمية مرابطة وموحدة حفظت ونشرت، فألقت أضواء جديدة على المذهبية التي أفرزتها هاتان الحركتان العظيمةتان وعلى منظماتها (٥١). ويقول العروبي في هذا الصدد: «بدأنا نشاهد الموحدية من الداخل» ولم يعد من المتعذر أن يكتب تاريخ ديني سياسي لهذه الأسرة» (٥٢) وفيما بعد نجد في مصر موسوعات تاريخية شرعية انتحلت عدداً من الوثائق الرسمية، وما تمدنا به من وصف مفصل للبنيات المالية والتنظيمية في مصر أمثاتها عامة من المطالعة المسبقة للوثائق العامة. ففي هذا النوع الوثائق والاخباري في آن واحد يمكن أن نضم «قوانين الدواوين» لماتى (العصر الأيوبي) و«المنهاج» للمسخرومي، وصبح الأعشمي للقلقشندي (القرن الرابع عشر الميلادي)، وعديد من مؤلفات

(٤٨) إن أعمال كويتين معتمدة: مقال «جنييزة» في دائرة المعارف الاسلامية ١، ٢: جنييزة القاهرة كمصدر للتاريخ الاجتماعي بالبحر الأبيض المتوسط، مجلة الجمعية الشرقية الاميركية ١٩٦٠، ص: د. وقد شرع كويتين في نشر دراسة مهمة جداً عن مصادر الجنييزة، جمعية البحار الأبيض المتوسط: المجموعات اليهودية بالعالم العربي كما تصورها وثائق الجنييزة القاهرة مجلة ١ أسس اقتصادية بركلاي لوس انجلس ١٩٦٧، ص ١. شاكند: محاولة للمصادر والمراجع لوثائق الجنييزة باريس، لاهاي ١٩٦٤، هـ. رايي ١٩٧٢ ص ٤١، يوجد كثير من هذه الوثائق في المتحف البريطاني وفي كمبريدج.

(٤٩) رايي ١٩٧٢ ص ٦-٨ و ٢٠٠.

(٥٠) اماري شهادة عربية بالجملة الوثائقية الفلورنسية، فلورنسا ١٨٦٣، ماس لترى: معاهدات صلح وتجارة ووثائق خلفه عن علاقات النصارى بغرب إفريقيا الشمالية في العصر الوسيط باريس ١٨٦٦ ملحق ١٨٧٢.

(٥١) رسائل رسمية مرابطة نشرها ج. مؤسس وأ. مكي، سبع وثلاثون رسالة رسمية موحدة نشرها وترجمها ليفي بروفنسال، الرباط ١٩٤١، (الليديق: وثائق غير منشورة عن التاريخ الموحد ونشر وترجمة فرنسية بقلم ليفي بروفنسال باريس ١٩٢٨.

(٥٢) العروبي ١٩٧٠، ص ١٦٢.

المقريري ومنها «خطه» العظيمة القدر (القرن الخامس عشر الميلادي) (٥٣). والمقريري مصدر ثمين ليس بالنسبة إلى تاريخ مصر الإسلامية كله وحسب، بل كذلك فيا يخص النوبة والسودان واليوبيا (٥٤).

المصادر القصصية

أ) الأخبان: بعد قرن من الصمت — القرن الثاني عشر الميلادي، حيث لا نجد أكثر من كتاب «الاستبصار» المجهول المؤلف ومصنفات صغيرة — أمدا القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين بعدد من الأخبار الثرية من كل الوجوه، من الكامل لابن الأثير إلى كتاب العبرلابن خلدون مروراً بابن عذاري والنويري، وابن أبي ذرع والذهبي. كان هؤلاء المؤلفون شهداء لزمانهم كما قاموا أيضاً بمجهود قصد التأليف فيما يخص القرون الحالية. فالنويري هام بالنسبة للممالك، كما هو هام بالنسبة لفتوح المغرب (٥٥). وابن عذاري هام بالنسبة لتاريخ الموحدي، كما هو كذلك بالنسبة لكل الماضي الإفريقي، ابن خلدون، أخيراً، هو الحجة القصوى في مادة تاريخ إفريقيا.

ب) الجغرافيا: كانت مصنفات الجغرافيا خصبة طيلة هذه القرون الأربعة وقيمته تتفاوت في حد ذاتها كما تتفاوت حسب المنطقة الموصوفة. ومن بين مجموعة المؤلفين يمتاز جغرافيان بسعة مشاهدتهما وجودتهما: البكري: (١٠٦٨م) في القرن الحادي عشر، والمعمري (١٣٤٢م) في القرن الرابع عشر. وإذا كان عمل شهير كعمل الادريسي محل نقاش ومناقشة بالفعل، في الامكان أن نحصل على أخبار طريفة من خلال مؤلفات جغرافية أقل شهرة، كمؤلفات ابن سعيد المفيدة جداً فيما يخص السودان (٥٦). وتشمل «المسالك والممالك» (٥٧) للبكري ذروة معرفتنا الجغرافية عن المغرب والسودان والبكري نفسه لم يرق بأسفاراً إلى هذه الجهات، ولكنه استغل استغلالاً ذكياً ملاحظات الوفاق — وقد ضاعت اليوم — كما استخدم أخبار التجار والرحالة.

و ينقل الادريسي (١١٥٤م) في كتابه «كتاب روجر» — وهو بصدد الطبع بإيطاليا — الكثير عن سابقه، ووصفه مضطرب فيما يخص اثيوبيا، ولكنه أكثر دقة بالنسبة إلى إفريقيا الغربية، على أننا نجد فيه، هنا وهناك ملاحظات طريفة أحياناً وثمينة.

«جغرافيا» ابن سعيد الغرناطي (قبل ١٢٨١م) تنقل عن الادريسي في وصفه لاثيوبيا ولكننا نعرف فيه على معلومات جديدة. ولكن الأكثر أهمية في وصفه للسودان وقد استخدم فيه كثيراً

(٥٣) رابى ١٩٧٢، ص ١٠ — ٢٠.

(٥٤) مؤلف كتاب الألام يدنا بقافة الممالك الإسلامية باليوبيا مستمدة من العمري نشرته اقتباس في لايدن سنة ١٧٩٠ بعنوان «تاريخ الممالك الإسلامية بالحشة».

(٥٥) ومازال هذا الجزء مخطوطاً بالمكتبة الوطنية بالقاهرة. ونشر إلى أن ابن شداد الذي كتب تاريخاً للقيروان قد ضاع اليوم، يعتبر مصدراً من المصادر الرئيسية لابن الأثير والنويري. ونشر حديثاً «كتاب العين» المجهول المؤلف، نشره دمشق م. السعيد فيمدا بأرشادات مفيدة عن المغرب.

(٥٦) عن بقافة الجغرافيين المستفراة انظر كويل وما تفيد مضافاً إلى ذلك الباب الأول من موني ١٩٦١، وتقيد لو يكي ١٩٧١ ومقدمة أ. ميكال لرسالة دكتوراه ١٩٦٧.

(٥٧) نشره وترجمه دوسلان بعنوان «وصف إفريقيا الشمالية» باريس ١٩١١.

اِدْرَنَا غَزَا نَا غُلُوْسُ فَيَسْرُنَا كَوْنَمِشِي نَكِي نَا جِ بَادُرْ كَسَا نَا
 دَشِي عِي دُرْ نَا عَنِي بَا نَمَا دِي دُو بَرَا نَادَ هَسْكِ نَسَا
 اَوَا نَا غَزَا كِيَا وُنَا دَانِي نَس
 كُدُو بَرَا نَزْدِي زُو مَس دَهْسَكْ شَرْدُكْ دُولِي يَدُرْ قَس
 كُدُو بَشِي دُرْ يَا غَنِي يَا لَس دِي غَزَا وَا دَا كُدَ كِيَا وُنَس
 اَوَا نَا غَزَا كِيَا وُنَا هَسْكَ نَس
 نَسَا غَزَا جُومْ دَنَارْ شَرْدُكْ يِيَا وُدْ بِي سَم لَسْ غَزَا شَرْدُكْ
 كُدُو بَشِي دُرْ هَرْتَا شَرْدُكْ دِي غَزَا جُومْ دَنَارْ شَرْدُكْ
 اَوَا نَا غَزَا تَارْ رَحْمَتِي مَس
 نَسَا غَزَا عِي وَ دَا كَسْرْ نَشَبَكْ دَلَمِشِي بِيَا تِي سَكْرَا بَا اِسْكَ
 نِكْرْ مَرْتَبَاتِي زُمِيَا كَقِدْ اَكْلَا غَزَا غَزَا عِي بَا اِسْكَ
 اِنَا نَسَا اِنْعَزَا دِي يُو مَس
 اِدْرَنَا غَزَا هَسْكِ دِي غَزَا شَرْدُكْ دَعْمَرَا كْ لُولُو مَرْ جَارْدُكْ
 كَوْنَمِشِي مَكْرَا حَمْدِيَا يَسْرْدُكْ بَلِي وَلِي يَا كُو دِي غَزَا تَدَا
 اَوَا مَرْمِشِي نِي مَسَالِي نَس كُو

كتابات رجاله من القرن الثاني عشر الميلادي هو ابن فاطمة. وأهم مؤلف في القرن الرابع عشر الميلادي عن افريقيا السوداء هو تأليف العمري، «مسالك الأبحار» (٥٨) وهو شهادة ملاحظ قدير، يعتبر مصدرنا الرئيسي لدراسة مملكة مالي في تنظيمها الداخلي كما في علاقاتها مع مصر والبلاد الاسلامية. وهو أيضا أغنى عرض عربي للممالك الاسلامية في الحبشة في القرن الرابع عشر، وعلاوة على أهمية وصفه يضع كتاب العمري قضية ظهور الدولة في العالم الأسود، وقضية دخوله في الاسلام، كما كان البكري قبله بثلاثة قرون، قد عرض قضية تجارة الذهب الكبرى، وبينما أشار هذا الأخير الى مئاة الروابط بين المغرب والسودان، يشير الأول الى تحول هذه الروابط نحو مصر. ويجب أن يكمل مؤلف العمري بمؤلف مراقب مشاهد مباشر للواقع السوداني والمصري، وهو ابن بطوطة.

على أن الجغرافيين الأقل أهمية، ومصنفي الرحلات متعددون، وعلى كل فن الواجب أن يتم الاطلاع عليهم. ونذكر منهم الزهري (القرن ١٢م) وياقوت الدمشقي (القرن ١٤م) والجغرافيا المنعوتة «المظفرية» وابن جبير وياقوت والبغدادى والعبدري والتجاني والبلوي والحيمري.

ج) مصادر ذات روح دينية وأدبية: ان المصادر الدينية ترد من آفاق متنوعة، ونذكر منها كتب الطبقات والسير السنية، وسير الخوارج والطرفية وحتى النصرانية (من المجموعة القبطية) ونذكر أيضا مخطوطات الكنائس الاثيوبية وقد نقلت في هوامشها وثائق رسمية، وتبدو هذه الكتابات مفيدة ليس لمعرفة الاحساس الديني والعالم الديني فحسب، بل وكذلك لمعرفة تطور العالم الاجتماعي. فكتاب «الرياض» للمالكي مثلا أو كتاب المدارك لعياض، ثريان بما يتخللها من ملاحظات اجتماعية. ومصادر الخوارج كما هو معلوم أساسية بالنسبة الى كامل المنطقة الصحراوية في المغرب، أي منطقة الاتصال بالأسود، ومن أهم ممثليها الوسياني والدأرجيني وأبو زكريا وكتاب متأخر كالشماخي. وأخيرا فإن جلة المخطوطات باللغة العربية أو القبطية التي أنتجت الكنيسة المحلية في مصر الوسيطية تنير العلاقات بين الكنائس والعلاقات بين طبقات القساوسة والدولة (٥٩). وأما المصادر الأدبية بأنتم معنى الكلمة، فكثيرة في هذه الفترة، وهي تكاد لا تعني بسوى المغرب ومصر. على أن لرسائل القاضي الفاضل مكانة خاصة في هذا النوع، كذلك الأمر خاصة بالنسبة لموسوعة الصفيدي العظمى: الوافي بالوفيات.

وهكذا في هذا العصر الثاني الاسلامي يبدو أن وثائقنا غزيرة، متنوعة وذات نوعية جيدة، وبصورة عامة، خلافا لما كان عليه الأمر في العصر السابق، ففي افريقيا الاسلامية تنير كتاباتنا سير المنظمات وحركة التاريخ العميقة. وهي لا تكتفي بعد بمجرد الرسم لآطوار السياسي. وفي افريقيا السوداء فان القرن الرابع عشر الميلادي يشكل ذروة معرفتنا، حتى تمكنا الوثائق الاوربية والأهلية من التعقق في هذه المعرفة، ومن افساح الميدان لمناطق بقيت الى الآن في حلقة ظلام لا يتقشع.

(٥٨) ترجمه جزئيا قردفروا ديمويي بعنوان «افريقيا ما عدا مصر» باريس ١٩٢٧.

(٥٩) مؤلفات شرقية لآباء الكنيسة. مجموعة أساسية، ومن المؤلفات التي تمنا نذكر مؤلفات سيفار الاسكندري (القرن الأول م) وابن مفرج (القرن الحادي عشر) فيما يخص اثيوبيا، كتاب سير الآباء البطارقة، انظر أيضا ميشال السوري نشره وترجمه شابو ٣ مجلدات ١٨٩٩ — ١٩١١.

النتيجة

يبقى من الخطأ أن يظن أن حالة المصادر المكتوبة في القارة الافريقية قبل القرن الخامس عشر كانت قليلة قلة تبعث على اليأس، ولكن الواقع ان ما توفر منها لافريقيا مجمله أقل مما كان لاوروبا أو آسيا. وإذا ما كان قسم كبير من القارة تعوزه تمام المصادر المكتوبة، فإن معرفتنا للتاريخ بالنسبة لباقي القارة ممكنة، وهي تعتمد — بالنسبة الى مصر — على مجموعة وثائقية شديدة الغنى. أي ان استغلال هذه النصوص استغلالاً دقيقاً حكماً، اذا انعدمت اكتشافات جديدة غير محتملة، من شأنه أن يزيد امدادنا بالكثير، فمن الضروري اذن أن يشرع في عمل كامل لنقد النصوص، واعادة نشرها والمقارنة بينها وترجمتها، وهذا عمل قد شرع فيه بعض الرواد وينبغي أن يستمر.

ومن جهة أخرى، اذا ما حررت مصادرنا في اطار ثقافات «عالمية» بورتها خارج افريقيا — ثقافات «كلاسيكية»، «ثقافات اسلامية» — فإن لها مزية انها في معظمها مشتركة، وفي الامكان أن تقرأ حسب نظرة افريقية مع التحفظ الحتمي ازاء كل فكرة مسبقة مذهبية، و يصبح ذلك خاصة بالنسبة الى المصادر العربية وهي القاعدة الأساسية لمعرفة، وكونها خارجية نسبياً، أو بصفة مطلقة بالنسبة الى موضوعها، فإن هذا لا ينقص شيئاً من قيمتها الإيجابية توحيه المسافة والبعد. وإذا ما وجب الاعتراف بالفروق الاجتماعية الثقافية، فإن هذه المصادر تبرز قيمة بعض التضامن في الاتصال الافريقي، لم يكن علماء الاسلاميات والافريقانيون حتى ذلك ليشعروا به، ولتكون لهم حساسية به.

الفصل السادس

المصادر المكتوبة بدءا من القرن الخامس عشر أ. هربك

على توازي التغييرات العميقة التي حدثت في العالم وبخاصة في أفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، نلاحظ تغييرات في طبيعة المواد المكتوبة الصالحة كمصادر لتاريخ أفريقيا ومآثاها وحجمها، وبالمقارنة مع الفترة السابقة يمكن تمييز عدد من الاتجاهات الجديدة في انتاج هذه المواد، بعضها ينتمي الى القارة جمعا، والبعض ينتمي فقط الى بعض أجزاء أفريقيا في جنوبي الصحراء.

يبدو الآن بالارتباط مع التزايد المستمر للمصادر الروائية من كل نوع (روايات الرحالة، أوصاف، توار يخ يومية الخ) أن ثمة عددا كبيرا من المواد الأولية الجديدة كالمراسلات والتقارير الرسمية، والتقارير الصادرة عن التجار والمبشرين، عقود وسائر الوثائق المحفوظة، لم يرجع إليها قبلا الا من حين الى آخر. وتكاثرت هذه المواد المتزايدة من شأنه أن يعين المؤرخ اعانة ناجعة، ولكن في الوقت نفسه يكون من العسير أكثر فأكثر، أن يحصل الانسان على نظرة عامة.

ثم اننا نلاحظ نقصا واضحا في حجم المصادر الروائية العربية فيما يخص أفريقيا جنوبي الصحراء، على أن هذه الفترة بالعكس، هي التي شهدت ازدهار التأليف التاريخي المكتوب بالعربية من قبل الأهالي. وبدءا من هذه الفترة فحسب، أصبح بمقدورنا أن نستمع الى أصوات أفارقة أصليين تتحدث عن تاريخها الخاص. والنماذج الأولى وأشهرها من هذا التدوين التاريخي المحلي أتت من المنطقة السودانية ومن الساحل الشرقي الافريقي، وأما في سائر أقسام أفريقيا المدارية فإن هذا التطور لم يطرأ الا متأخرا.

وخلال القرنين الأخيرين شرع الأفارقة أيضا في التحرير بلغاتهم الخاصة، مستخدمين الأبجدية



• نسخة طبق الاصل من غطوط بامون (تصوير ايفان).

العربية (مثلاً بالنسبة إلى السواحل والحواسي والفلفلد والكانبو والديسولا والمغاشية) ثم الأبجدية الثلاثينية، وتوجد أيضاً مواد تاريخية (وغيرها) في الكتابات الأصلية الإفريقية المحضة أمثال أبجديات باموم وفاي.

والنزعة الثالثة، وهي تابعة للسابقة، تتمثل في ظهور أدب كتابي بالانكليزية (و بقدر أقل باللغات الأوروبية الأخرى) حرره أفارقة، عبيد محزونون أو أحفادهم في أميركا، وهم مدركون لماضيهم الإفريقي.

وفي النهاية إن المصادر العربية الخارجية تترك محلها تدريجياً لروايات في لغات أوروبية مختلفة، ويتكاثر عدد الآثار من هذا النوع تدريجياً، فصارت الكتب التي تشير إلى المراجع الكتابية وحدها تعد بالعشرات، في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ومن المؤكد أنه رغم هذه التغيرات فثمة استمرار في التدوين التاريخي ثم في بعض المناطق من إفريقيا، ولا سيما في مصر والمغرب وإثيوبيا. وفي هذه البلدان واصل المؤرخون ومؤلفوا التراجم تقليدا ورثوه من الفترة السابقة، وإذا ما لوحظ في مصر — وبكيفية أقل في إثيوبيا — بعض الهبوط الكيفي وحتى الكمي بالنسبة إلى هذه المؤلفات فالمغرب ولا سيما المغرب الأقصى، قد استمر في إنتاج أدباء أكفاء كانت مساهماتهم في تأريخ بلادهم عظيمة.

و يلوح تطور الوضع أيضاً في المناطق الجغرافية التي تغطيها المصادر المكتوبة، فبينما كانت حدود الساحل السوداني وشرط ضيق من الساحل الشرقي الإفريقي، هي نهاية المعرفة الجغرافية وبالتالي التاريخية، قبل القرن السادس عشر، فإن العصور الجديدة سوف تضم شيئاً فشيئاً مناطق جديدة كانت تجهل حتى ذلك الوقت مصادر من هذا النوع. وبالطبع فإن عدد هذه المصادر وقيمتها يختلفان اختلافاً كبيراً من جهة إلى أخرى ومن قرن إلى آخر، وصارت تصنيف هذه الوثائق حسب اللغة والطابع والهدف والأصل أشد تشعباً وعسراً.

وبصورة عامة سينمو الانتشار من الساحل إلى داخل البلد، ولكن هذه الحركة كانت بطيئة شيئاً ما ولم تتسارع بكيفية محسوسة إلا منذ نهاية القرن الثامن عشر. وقد وصف البرتغاليون الساحل الإفريقي ومما اتصل به مباشرة من البلاد منذ القرن الخامس عشر. وخلال القرون التالية أخذت المصادر المكتوبة، في عدة لغات تدلي بمعلومات أكثر عدداً وأشد دقة عن سكان الجهات الساحلية. وتوغل الأوروبيون داخل البلاد في عدد قليل من الجهات فقط (في السنغال وقبياً وفي دلتا النيجر والبنين وفي مملكة الكونغو وعلى طول الزمبار حتى إمبراطورية مونوتابا) فأضافوا هذه الجهات إلى مجال المصادر المكتوبة.

وفي الفترة نفسها صارت بعض الأجزاء من إفريقيا معروفة — ولم تكن تكتشف قبل — ومن ذلك الساحل الجنوبي الغربي ومدغشقر.

وكانت المصادر الكتابية العربية تغطي منطقة أفسح، وأصبحت المدرسة التاريخية السودانية كلها حصلت على معلومات عن جهات مجهولة في السابق، تمتد إلى بلدان أخرى وبخاصة نحو الجنوب، حتى أصبح من الممكن أن تعتبر في القرن التاسع عشر — كل المنطقة الكائنة بين الصحراء والغابة وفي بعض النقاط حتى الساحل، مشمولة بالمصادر المكتوبة المحلية، ولكن مناطق فسيحة من داخل القارة انتظرت حتى القرن التاسع عشر كي يظهر في شأنها أول التواريخ المرتقبة.

وعلى الجهات الساحلية، نلاحظ فروقا كبيرة في طبيعبة الحيز التاريخي، وبصورة عامة تتوفر في الساحل الاطلسي الوثائق المكتوبة أكثر مما تتوفر في الساحل الشرقي، وما يتوفر من المواد فيها يخص الكنفو القديم وصنغان والساحل بين رأس بلماس ودلتا النيجر أكثر بكثير مما يوجد منها في شأن ليبيريا والكامرون والقاوبون أو ناميبيا مثلا وتتغير الحال أيضا بحسب الأزمنة، فالساحل الشرقي والبنين أو اثيوبيا تمدنا بمعلومات مكتوبة في القرنين السادس عشر والسابع عشر أكثر منها في الثامن عشر، وهي متوفرة في الصحراء خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر أكثر منها في النصف الثاني.

ونظرا لعدم الانتظار في توزيع المواد بحسب المكان والزمان والطابع، وكذلك بحسب أصلها ولغتها، فإنه لمن المفضل أن ينظر فيها تبعا لمعايير متنوعة عوض التقيد بطريقة واحدة، وهكذا سنقدمها أحيانا حسب الجهات الجغرافية وأحيانا حسب أصلها وطابعها الخاص.

إفريقيا الشمالية وإثيوبيا

أ — إن المواد الصالحة لإفريقيا الشمالية العربية اللسان تعرضت هي وجهات أخرى من القارة، لتغيرات عميقة بالنسبة إلى الفترة السابقة. ولم تؤثر هذه التغيرات كثيرا في اليوميات التاريخية المحلية التي استمرت كما في الماضي تسجل الأحداث الرئيسية حسب الطريقة التقليدية. ولم توجد من بين مؤرخي اليوميات أو أصحاب المنتخبات في هذه الفترة شخصية فده تشابه شخصية كبار المؤرخين في القرون الوسطى، ولم يرق من جاء بعد ابن خلدون باتباع ما كان قد نصح به من طريقة نقدية للمؤرخ. ولم يظهر التدوين التاريخي العربي المعصري إلا في القرن العشرين.

وأما التغيرات فهي تمس خاصة ضربين من المصادر: وثائق الخزائن المتجمعة من أصول مختلفة، وكتابات الأوربيين. إذ لم تظهر المواد الأولية بالعربية والتركية بكثرة إلا انطلاقا من بداية القرن السادس عشر. وخزائن الوثائق العثمانية تضاهي أغنى الخزائن الأوربية من حيث حجمها ومن حيث قسيتها، ولكنها في تلك الفترة لم يستخدمها مؤرخو هذا الجزء من إفريقيا إلا قليلا، ولم يستغلوها بكثرة. وإلى هذه الفترة أيضا ترجع الوثائق الثانوية للبلدان التي كانت تحت الخلافة العثمانية (مصر، طرابلس، تونس، الجزائر) (١)، وأما المغرب الأقصى فهو نسيج وحده، فقد حافظ دائما على استقلاله، واستحوى خزائنه مواد تاريخية ثرية (٢). وأهم الوثائق محفوظة حكومية وإدارية وقضائية، والمواد التي تعالج التجارة والصناعة والحياة الاجتماعية والثقافية أقل عددا على الأقل قبل القرن التاسع عشر. وهذا يرجع جزئيا لانعدام الوثائق الخاصة التي تمدنا بكثرة بالمعلومات القيمة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في أوروبا. وبالنسبة إلى بعض البلدان وبعض الفترات أصبح من الممكن سد الثغرة: فإمكن وجوده من المواد الخاصة بالمغرب الأقصى في عدد من البلدان الأوربية، قد تم تجميعه ونشره في المؤلف الفخيم الذي صنعه هنري دي كستري (٣). على أن

(١) ج. دي، ١٩٣٠، ر. منطران ١٩٦٥، ر. لوطرون ١٩٥٤.

(٢) أ. مكلسي ١٩٥٣، ج. عياش ١٩٦١.

(٣) المصادر غير المنشورة تاريخ المغرب الأقصى ٢٤ مجلدا. باريس ١٩٠٥ — ١٩٥١.

الحصول على مجموعات ماثلة أو على الأقل على سجلات وثائق تابعة لبلدان إفريقيا الشمالية الأخرى يشكل جزءاً من مهمات عاجلة جداً لا بد من إنجازها في المستقبل القريب. وإذا ما تصفحنا المصادر الروائية، نلاحظ انتقاصاً مستمراً كما وكيفاً في الكتابات التاريخية عن إفريقيا الشمالية، باستثناء المغرب الأقصى وحده، حيث واصلت مدارس المؤرخين اليوميين التقليديين في توفير تواريخ مفصلة للامرتين الشريفتين حتى عهدنا هذا (٤). ويمكننا أن نذكر مثلاً المعمول للمختار السوسي المتوفي مؤخراً، والذي كتب في ٢٠ مجلداً، وتاريخ تطوان لداود، وهو بصدد النشر.

ومن بين سلسلة المؤرخين المتصلة لا بد أن نذكر بعض أسماء أشهر المشاهير فلقد وجدت أسرة السعديين مؤرخاً جليلاً هو الافرائي (توفي حوالي ١٧٣٨) (٥) فشمع السنوات ١٥١١ - ١٦٧٠ وحظيت الفترة التالية (١٦٣١ - ١٨١٢) بوصف مفصل من قبل أكبر مؤرخ مغربي منذ القرون الوسطى، الزباني (ت. ١٨٣٣) (٦)، بينما حرر الناصري السلاوي (ت. ١٨٩٧) تاريخاً عاملاً لبلاده، عالٍ بزيادة من التفصيل القرن التاسع عشر وجمع بين الطريقة التقليدية والطريقة العصرية مستخدماً أيضاً وثائق الخزائن. كما ألف كتاباً في الجغرافية يدنا بالكثير من المواد على الحياة الاجتماعية والاقتصادية (٧). أضف إلى هذه المؤلفات التاريخية المحضة روايات الرحالة، وكانوا في الغالب من الحجاج الذين لم يصفوا المغرب الأقصى فحسب، بل أيضاً سائر البلدان العربية حتى جزيرة العرب، وأحسن الكتابات من هذا النوع بلا شك كتب العياشي المتوفي (سنة ١٦٧٩) وأحمد الدرعي من تلمكروت على حدود الصحراء (ت. ١٧٣٨) (٨)، ومن النصوص المفيدة نذكر أيضاً تقرير التامكروتي، سفير المغرب إلى البلاط العثماني بتاريخ ١٥٨٩ - ١٥٩١ (٩) ورحلة ابن عثمان سفير المغرب إلى بلاط مدريد.

أما البلدان التي بين المغرب الأقصى ومصر، فلم تكن التواريخ المحلية فيها بعين الغزارة ولا ماثلة في القيمة. ففي الجزائر نجد تواريخ مبهولة المؤلف بالعربية والتركية عن أرو وخير الدين بربروس (١٠)، وتاريخ حربي حتى سنة ١٧٧٥ بقلم محمد التلمساني (١١).

ويمكن أن نتبع خطى التاريخ التونسي بفضل سلسلة من الحوليات ابتداء من الزركشي (حتى سنة ١٥٢٥) (١٢) حتى مقديش الصفاقسي (ت. ١٨١٨) (١٣). وكتب محمد غلبون (١٧٣٩) (١٤) تاريخ مدينة طرابلس، وتستحق يوميات الاباضية وتراجهم، كمؤلفات الشماخي

(٤) أ. لبني بروفنسال، ١٩٢٢، المختار السوسي المصنوع: ٢٠ مجلداً منشور داود تاريخ تطوان.

(٥) نشره وترجمه أ. هوداس، باريس ١٨٨٩.

(٦) نشره وترجمه أ. هوداس، باريس ١٨٨٦.

(٧) نشرها بالقاهرة سنة ١٨٩٤ في ٤ مجلدات. عدة ترجمات جزئية إلى الفرنسية والإسبانية.

(٨) ترجمتها كليهما، بربروس، باريس ١٨٤٦.

(٩) ترجمه ه. دي كستري، باريس ١٩٢٩.

(١٠) نشره توبالدين، الجزائر ١٩٣٤.

(١١) ترجمها أ. روسو، الجزائر ١٨٤١.

(١٢) ترجمه أ. باتيا، قسنطينة بدون تاريخ.

(١٣) نشره بتونس ١٩٠٣.

(١٤) نشره الطوريسي، بولونيا ١٩٣٦، توجد أيضاً يوميات تركية عن طرابلس.

(ت ١٥٢٤) عناية خاصة، إذ هي تحتوي على معلومات ثمينة عن الصحراء والسودان (١٥). والتراجم أو معاجم التراجم العامة أو الخاصة اقتضرت غالباً على شخصيات لامة (أدباء، قضاة، أمراء، متصوفين، كتاب الخ)، وكثيراً ما ضمت إلى مواد التراجم أجبارة تاريخية وأثارت عديد الجوانب من التاريخ الثقافي الاجتماعي. وكانت آثار هذه الصنف غزيرة في كل البلدان العربية وخاصة في المغرب الأقصى، وبعض القصائد الشعرية نفسها في اللهجات المحلية، من الممكن أن تكون أحياناً مصادر تاريخية، مثلاً أهاجي الشاعر المصري السجزي (ت ١٧١٩) التي لم يصف فيها أهم أحداث عهده (١٦).

وفيما يخص تاريخ مصر العثمانية يجب الرجوع إلى يوميات لم تنشر في معظمها ولم تستغل. فلم تنتج البلاد في هذه الفترة سوى مؤرخين عظميين أحدهما في بداية الهيمنة العثمانية والثاني عند نهايتها: سجل ابن ياس (ت ١٥٢٤) يوماً تاريخاً زمنه موفراً كثرة من التفاصيل قلما توجد عن غيره من الكتاب (١٧)، والجبرتي (ت ١٨٢٢) هو مؤرخ الأيام الأخيرة من السيطرة التركية والاحتلال النابليوني وصعود نجم محمد علي، فيضم فترة حاسمة من التاريخ المصري (١٨)، ولأنه تم نشر الكثير من اليوميات ومن المصنفات التاريخية من كل البلدان العربية، فإزال عدد كبير منها مخطوطاً موزعاً في عدد كبير من الخزائن في بلدانها الأصلية أو خارجها، يتربح من ينشره ويستغله. وازدادت أهمية روايات الرحالة الأوروبيين في ذلك العصر، ورغم كون أصحابها هم رأي مسبق منائى للإسلام الا قليلاً من الادلاء بتقارير موضوعية حقاً، فاننا نجد فيها كمية من التأملات والملاحظات لا توجد فيما عداها وذلك أن الكتاب المحليين كانوا يعتبرون الكثير من مظاهر الحياة عادياً غير جدير بالاهتمام. وجهور الأوروبيين من رحالة وسفراء وقناصل وتجار وحتى الأسرى (ومنهم ميقال سرفانتس) — الذين أبغوا لنا ذكرياتهم وأوصافاً تفتاوت تفصيلاً لبلدان المغرب التي زاروها: هذا الجمهور من الأوروبيين، لا نهاية له وبخاصة بالنسبة إلى مصر التي كانت تجلب زواراً عديدين لما كان لها من أهمية تجارية ولقرها من الأرض المقدسة (١٩). وكتاب «وصف مصر» الضخم في ٢٤ مجلداً (باريس ١٨٢١ — ١٨٢٤) الذي حققه أفراد البعثة العلمية المصاحبة لغزوة نابليون بونابرت له أهمية خاصة، فهو مصدر لا ينضب من المعلومات من كل الأنواع عن مصر قبيل العصر الحديث.

ومصادر تاريخ إفريقيا الشمالية في القرن التاسع عشر لها من الغزارة ما لها بالنسبة إلى أي بلد أوروبي، وتراجعت التواريخ المحلية وروايات السياح إلى مستوى ثانوي أمام مصادر أكثر موضوعية، مثل خزائن الوثائق وأحصائيات وصحف وسائر الشهود المباشرين، وغيرهم مما يمكن المؤرخين من استعمال الطرق الدراسية الدقيقة المستعملة في تأريخ أوروبا.

وثمة منطقتان لغتها هي العربية، وهما موريتانيا والسودان الشرقي، يجب أن تعالج معالجة

(١٥) ت. لوكي ١٩٦١.

(١٦) استغلا الجبرتي.

(١٧) ج. فيات: يوميات مواطن بالقاهرة.

(١٨) عدة طبعات، ترجمة لا يعتمد عليها لشقيق منصور، القاهرة ١٨٨٦ — ١٨٩٦.

(١٩) ج. م. كرى القاهرة ١٩٣٢.

متميزة، إذ لها وضع خاص على حدود العالم العربي، ويغلب على مصادر هذين البلدين التراجيح والانساب والشعر أكثر من الحوليات التاريخية الحقيقية، استمر ذلك على الأثر حتى نهاية القرن الثامن عشر. ففيما يخص موريتانيا نشر اسماعيل حامد عدداً من التراجيح وكتب الانساب (٢٠)، وأضيف إليها عدد من القصائد الشعرية ومن أدوات الأدب الشعبي، جمعها روني باسي، وحديثاً هـ. ت. نوريس (٢١)، وعمل العالم الموريتاني المختار ولد حمدون عملاً نشيطاً ناجحاً قصد دراسة مواد جديدة، وأول أثر تاريخي حقاً يرجع إلى بداية القرن الحالي الوسيط كان بقلم أحد الشنقيطي وهو موسوعة تاريخية ثقافية موريتانية عن الماضي والحاضر (٢٢). وتوجد عدة يوميات محلية مخطوطة متفاوتة القيمة في شكل أخبار قصيرة من نواحيه وولاته وشنقيط (٢٣). وللمصادر العربية الواردة من موريتانيا قيمة وأهمية خاصتان إذ هي في الكثير من الأحيان تشمل موريتانيا بالذات وتتجاوزها أيضاً إلى كل البلدان المجاورة للسودان الغربي. ونظراً لما كان في الماضي من علاقات وثيقة بين موريتانيا والمغرب الأقصى، فإن خزانات هذا البلد الأخير ومحفوظاته ستوفر مواد تاريخية ثمينة عن موريتانيا. ولدينا علاوة على المصادر العربية، روايات الأوربيين، وهي تبتدئ في القرن الخامس عشر بالنسبة للمناطق الساحلية وفي المناطق النهرية في نهاية القرن السابع عشر، وبداية القرن التالي نجد حتى المراسلات الدبلوماسية والتجارية مكتوبة باللغة العربية واللغات الأوربية.

ويبدو أن تدوين التاريخ المحلي في السودان الشرقي بدأ في السنوات الأخيرة من سلطنة فنج فحسب، أي في بداية القرن التاسع عشر حيث سجلت الرواية الشفاهية كتابة في نص سمي تاريخ الفنج ويوجد منه عدة روايات (٢٤).

وتكون الانساب في مختلف المجموعات العربية (٢٥) مصدراً ثميناً وكذلك المعجم الكبير لتراجيح العلماء السودانيين، الطبقات الذي ألفه ولد ضيف الله وهو منجم من المعلومات عن الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية في مملكة الفنج (٢٦). وأقدم زائر أجنبي معروف هو الرحالة اليهودي داوود روبيني (سنة ١٥٢٣)، وحتى القرن التاسع عشر لم يكن يوجد سوى عدد صغير من الآثار القليلة، إلا أننا نجد من بينها روايات ملاحظين متبصرين أمثال جيمس بروس (سنة ١٧٧٥) و. و. براون (١٧٩٢ - ١٧٩٨) والتونسي (١٨٠٣) وهذان الأخيران هما أول من زار درفور (٢٧).

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر زار السياح بلاد السودان أكثر من أي جزء آخر من إفريقيا المدارية، فكانت رواياتهم عديدة ومتفاوتة القيمة كمصادر تاريخية، وحتى سنوات ١٨٣٠ لم يكن يوجد أي مصدر مكتوب عن مناطق وادي النيل العالي (جنوبي ١٢ درجة من

(٢٠) يوميات موريتانيا السنغالية، باريس ١٩١١.

(٢١) ر. باسي ١٩٠٩ - ١٩٤٠، نوريس، ١٩٦٨.

(٢٢) أحمد الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدياب شنقيط، القاهرة ١٩١٠ وعدة طبعات جديدة ترجمة فرنسية جزئية، سان لويز ١٩٥٣.

(٢٣) ب. مرتي باريس ١٩٢٧، تريس في ب. ي. ف. ان ١٩٦٢، منتال في بيفان ١٩٦٥ ج ٣ - ٤.

(٢٤) درس هذا النص مكسي شبيكة في كتابه «تاريخ ملك السودان» الخرطوم ١٩٤٧.

(٢٥) جمعها هـ. أ. مالك ميخايل في «تاريخ العرب في السودان»، ٢، كمبريدج ١٩٢٢ مع وثائق تاريخية أخرى.

(٢٦) أحسن نشرة مشروحة هي نشرة يوسف فضل الحسن، الخرطوم ١٩٧١.

(٢٧) جيمس بروس ١٧٩٠ و. ج. براون ١٨٠٦ عمر التونسي ١٨٤٥.

العرض)، بينما تغطي القسم الشمالي وثائق الخزان المصرية (خزائن القاهرة)، وبصورة أقل الوثائق الاوربية. وخزائن وثائق المهديّة التي تشمل نحو ٨٠٠٠٠ وثيقة عربية، وهي محفوظة الآن في معظمها بالخرطوم تمثل مصدرا ذا قيمة استثنائية فيما يخص العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر.

اثيوبيا

ولا تقل الحالة شها بما سبق في اثيوبيا فيما يخص المصادر المكتوبة، فللمؤرخ كما في بلدان شمال افريقيا وثائق داخلية وخارجية متنوعة أشد التنوع. وفيما يخص بعض الفترات الحاسمة يكون في وسعه أيضا ان يستعمل مواد من مصادر متناقضة: فالزحف الاسلامي مثلا الذي قام به أحد قران في النصف الأول من القرن السادس عشر تغطيه من وجهة النظر الاثيوبية «اليومية الملكية» (بلقة القاز) للامبراطور لبني دنجل. ومن الجانب الاسلامي اليومية المفصلة التي حررها سنة ١٥٤٣ كاتب أحد قران عرب فقيه بقطع النظر عن روايات شهود العيان البرتغاليين (٢٨).

وشرع في تحرير اليوميات الملكية منذ القرن الثالث عشر، و يوجد بالنسبة الى كل مملكة تقريرا في عصر الانحطاط، يومية أو عدة يوميات مفصلة تروي الأحداث الرئيسية في تلك المدة (٢٩). واستمرت هذه التقاليد طيلة القرن التاسع عشر وجزء كبير من القرن العشرين، كما توضح ذلك اليومية الامهرية للامبراطور منليك الثاني (٣٠). وقد يوفر العديد من الآثار الأدبية الاثيوبية من أصناف أخرى مواد تاريخية مفيدة، مثلا تاريخ القديسين والجدالات الدينية والشعر والحرفات وتواريخ الاديرة، وتاريخ الكالا للراهب بهري (١٥٩٣) وهو شاهد عيان لزحف القالا الكالا على اثيوبيا يمثل وثيقة فريدة (٣١).

وبعد ذلك يقرر جمع هيوب لودلف، منشئ الدراسات الاثيوبية في أوروبا، ونقلنا عن أخبار اثيوبي مثقف، أحد التواريخ العامة الأولى لهذا البلد (٣٢).

وحيث كانت اثيوبيا البلد الوحيد الذي بقي على المسيحية في افريقيا، فإنها بالطبع جلبت اهتمام أوروبا إليها أكثر من اهتمامها بالأقسام الأخرى من افريقيا وذلك منذ القرن الخامس عشر فلا غرابة إذن ان ارتفع عدد الأجانب الذين زاروا البلد ووصفوه، من سياح ومبشرين وديبلوماسيين وجنود ونجار ومغامرين.

ولم يكن يوجد من الأجانب، البرتغاليون والفرنسيون والايطاليون فحسب، بل أيضا من ينتمون

(٢٨) حرب فقيه ١٨٩٧ — ١٩٠١ م. كستنيزو ١٥٤٨، ترجمة انكليزية ١٩٠٢.

(٢٩) انظر. بنكهرست ١٩٦٦، بلندل (هـ. و.) ١٩٢٣.

(٣٠) كتبها جبري سيلاسي، ترجمت الى الفرنسية، باريس ١٩٣٠ — ١٩٣١.

(٣١) انظر بكنسغام ج. وب. هنتفرد ١٩٥٤، علاوة على تاريخ بحري يحتوي هذا الكتاب على قطع من «تاريخ اثيوبيا العليا» لأليدا (١٦٦٠).

(٣٢) هيوب لودلفوس ١٦٨١ ترجمة انكليزية ١٦٨٢ — ١٦٨٤.

الى العديد من البلدان الأخرى، روسيون وتشيكويون وسويديون وأرمن وجرجانيون (٣٣)، ومن حين الى آخر تكتل الوثائق التركية أو العربية سائر المصادر (٣٤) بشتى الكيفيات.

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، صارت وثائق الخزان من كل الدول الاوربية العظمى، ووثائق أديس أبابا وحتى الخرطوم، هي التي توفر أهم المواد التاريخية. وقد أقيم الدليل في التحليل اللامع الذي قدمه سفا ن روبنسون (٣٥) لمعاهدة ويشال (١٨٨٩) على ما في الدراسة اليقظة للوثائق الامهرية الأصلية من أهمية للحصول على التفسير التاريخي الصحيح.

افريقيا الجنوبية

ازاء سائر أقطار القارة (ماعدا البلدان العربية اللسان و اثيوبيا التي نظرنا فيها قبله) فان افريقيا الجنوبية تمدنا فيما يخص الفترة التي ندرسها هنا، بعدد أكبر من المواد المكتوبة المهمة، اما وثائق واما أخبار. على أن انعدام المصادر الافريقية الاصل المحضة قبل القرن التاسع عشر هو نقص لا شك فيه، ولو أن العديد من الأخبار الاوربية قد احتفظ بأجزاء من الروايات الشفاهية بين السكان المحليين.

وأقدم الأخبار التاريخية ما ذكره تجار هولنديون أو برتغاليون غرقوا على الساحل الجنوبي الشرقي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر (٣٦).

وبقيام المستعمرة الهولندية في الكاب (١٦٥٢) ازداد انتاج المواد التاريخية غنى وتنوعا، من بينها وثائق رسمية حفظت الآن في خزائن افريقيا الجنوبية نفسها وكذلك في لندن وفي لاهاي، وطبع البعض منها أو نشر بوسائل أخرى ولكن معظمها لم يطبع (٣٧)، ووثائق رواية من جهة أخرى، تمثلها كتب حررها البيض، من سياح وتجار وموظفين ومبشرين ومستعمرين — الذين شاهدوا المجتمعات الافريقية مباشرة. ولكن كثيرا ما كان افقي البيض الجغرافي محدودا اذ هم لم يشعروا فعلا في التوغل داخل البلاد الا أثناء النصف الثاني من القرن الثامن عشر. فمن الطبيعي اذن أن تذكر الأخبار الأولى جماعة النحوي في الكاب (وقد انقرضوا اليوم). وأول وصف مفصل لهذا الشعب، بعد بعض المحاولات في القرن السابع عشر (٣٨)، هو ما كتبه بيتر كلب (٣٩) (١٧٠٥ — ١٧١٢).

(٣٣) انظر الموسوعة الملمعة للبيكارى: كتابات غربية عن الامم الافريقية، لم تنشر من القرن ١٦ الى القرن ٢٠، ١٥ مجلدات، رومة ١٩٠٣ — ١٩١٠. واكتشف الكثير من المواد الأخرى بعد بيكارى وهي تنتظر النشر والاستغلال.

(٣٤) مثلا الرحالة التركي الشهير اوليا شلي (ت ١٦٧٩) وكتابه (كتاب رحلات) يشمل في المجلد العاشر وصف لمصر واثيوبيا والسودان. وابق السفير الهنري الكوكبياني (سنة ١٦٤٧) ملخصا حيا لمهمته لدى الامبراطور فاسيلاداس، ولا يوجد أي تاريخ اثيوبي فيما يخص مدة ملكه. نشره ف. أ. بيسر في مجلدين، برلين ١٨٩٤ و ١٨٩٨.

(٣٥) سفا ن روبنسون: فترة الحماية في معاهدة ويشال ج. أ. ه. ك، ١٩٦٤ عدد ٢ ومناقشة مع س. جيليو ج. أ. ه. ٢ و ٦، ١٩٦٦ عدد ٢ و ٧، ١٩٦٦ عدد ٣.

(٣٦) انظر ج. م. طيل ١٨٨٨ — ١٩١٣ وس ر. بويز.

(٣٧) توجد مقتطفات من مجلات رسمية ووثائق أخرى تتعلق بالسكان المتكلمين لغات سان ونغوي و بانغو في د. موي ١٩٦٠.

انظر أيضا ج. م. طيل ١٨٩٧ — ١٩٠٥.

(٣٨) شاربس (١٦٦٨)، و يلهم تن راين (١٦٨٦) وج. ج. جريثروك (١٦٩٥)، الكاب ١٩٣٣.

(٣٩) بيتر كلب ١٧١٩.

وزار العديد من الاوربيين بلاد الكاب في عهد الهولنديين، ولكنهم قلما أبدوا ازاء الافريقيين غير الاهتمام العابر، وقلما غامروا متوغلين داخل البلاد. وجمع عدد من تقاريرهم كودي مسبركن والفاضل نابو. وعملت جمعية فان ريبك في الكاب على نشر عدة مواد لم تعرف معرفة كافية، وذلك منذ سنوات ١٩٢٠ (٤٠). وقد نجد صورة أكثر تفصيلا عن المجتمعات الافريقية في خزائن المبشرين (٤١) أو بناء على تقييدات بعض الملاحظين المحربين منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، أمثال سبرمان ولوفيان وألبرتي وجون باراو وليشتنشتاين (٤٢). ويجدر أن نخل جون فيليب محل الشرف فقد أهدى عمله وحياته للدفاع عن حقوق الأفارقة، فيكشف بذلك عن جوانب لا توجد عادة في التقارير الأكثر انسجاما (٤٣).

وعند انتشار التجارة والتبشير والاستعمار في القرن التاسع عشر، صار في متناولنا عدد أكبر وأغنى من المواد عن مجموعات عنصرية أشد بعدا. فنميبيا وإن قد تمت زيارتها زيارات متقطعة حوالي نهاية القرن التاسع عشر (٤٤) إلا أنه لم يشرع في تقديم أوصاف مفصلة لحياة السكان والناما والمريرو، إلا منذ عام ١٨٣٠، إذ منذ ذلك الوقت فحسب، اهتم المبشرون (٤٥) ورواد الاستكشاف أمثال ج. الاسكندروف. كلتون وج. تندال اهتماما نشيطا بهذا البلد (٤٦).

والأمر شبيه بذلك فيما يخص الجهات الواقعة شمالي نهر اورانج، فعمضت تقارير التجار الاولين والصيدادين بعدد أكثر من المؤلفات المكتوبة التي صنفها الرواد والمبشرون، وقد تطور استعدادهم للملاحظة، بفضل تجربة أكثر اتساعا، ومعرفة أحسن للغات الافريقية. ومن بينهم روبرت معرفات، وأ. كارزليس وت. اربوس وأشهرهم بالطبع دافيد ليفنستون (٤٧)، وجمع ج. هـ. تيل (٤٨) الوثائق المختلفة عن بداية تاريخ ليسوتو (وثائق خزائن مراسلات، عقود وأوراق رسمية الخ).

وتسجل ظاهرة ايجابية في هذه الفترة وهي ظهور وثائق تعبر عن رأي الأفارقة كالرسائل التي كتبها مصباح (موشيش) وغيره من الزعماء الأفارقة.

وخلافا للساحل فإن داخل بلاد الناطال وبلاد الزولو لم يشرع الأجانب في معرفتها إلا في

(٤٠) كودي مسبركن ١٩١٦ - ١٩٣٢، الفاضل نابو ١٩٣١.

(٤١) انظر مثلا د. ك. ملر ١٩٢٣.

(٤٢) أ. سبرمان ١٨٨٥، ج. لوفيان ١٧٩٠، ل. البرتي ١٨١١، جون باراو ١٨٠١ - ١٨٠٣، هـ. ليشتنشتاين ١٨١١.

(٤٣) ج. فيليبس ١٨٢٨.

(٤٤) اد. واطس، ١٩٢٦.

(٤٥) المصنف الدراسي لمؤلفه هـ. فيدير (افريقيا الجنوبية الغربية في الزمن القديم) اكسفورد ١٩٣٨، حرر بالاستناد أساسا الى تقارير المبشرين الالمان.

(٤٦) سرجامسن الكسندر ١٨٣٦، وف. كالتون ١٨٥٣، يومية جيوزاف تيندال ١٨٣٩ - ١٨٥٥ الكاب ١٨٥٩.

(٤٧) روبرت موفات ١٩٤٢ - ١٩٤٥.

أ. كارزليس: جماعة السبوتو باريس ١٨٥٩، ط. انكليزية لندن ١٨٦١، ت. اربوس: خبر رحلة استكشافية باريس ١٨٤٢، ط. انكليزية: الكاب ١٨٤٦ د. ليفنستون ١٩٥٧.

(٤٨) ج. م. تيل: ذكرى بات باسوتولند، ٣ مجلدات الكاب ١٨٨٣ (لم ينشر المجلدان ٤ و ٥ ويوجد خطوطها بخزائن محفوظات الكاب).

العشريات الأولى من القرن التاسع عشر. فأول الملاحظين أمثال ن. اسحاق أو. ه. ب فن (٤٩) لم يكونوا من الاختصاصيين، فكان يعوزهم الدقة كما تعوزهم الموضوعية إذا ما تعلق الأمر بغيرهم من البيض، وأما الزولو فبلى العكس، قد كان لهم من الحظ ما جعل تسجيل الروايات الشفاهية يشرع فيه مبكراً منذ سنوات ١٨٨٠. ولم يتم نشرها إلا مؤخرًا من قبل أ. ت. بريانت، على أنه لا ينبغي أن يستخدم كتابه إلا مع الحيلة والحذر (٥٠).

وهنا كما في سائر أجزاء إفريقيا، فإن كمية المواد المكتوبة من قبل الأوروبيين تضخمت تضخماً كبيراً خلال القرن التاسع عشر، وليس من اللازم أن ينظر بعمق في أنواعها كافة وفي جلة مؤلفيها. ولكن المهم هو ما قدم من ملاحظات عن ردود فعل الأفارقة الأولين، الذين اغرطوا في سلك التعليم، أو ردود فعل الرؤساء التقليديين وملاحظات قدمت وحفظت ضمن مراسلات وصحف وشكايات وبيوتات شخصية وعقود أو، فيما بعد، ضمن أولى المحاولات لكتابة تاريخ شعهم. فعلاوة على المراسلة الفصحى بين رؤساء أفارقة (مشيش وودنقتان وستاويومز يليكازي ولوبنيسكويلا وبيطوبي ورؤساء الكريكا الخ) وبين السلطات الاستعمارية، توجد وثائق أخرى أمثال قوانين الاسلاف (فادرليك ويط) مجموعة ريسهوبوث منذ سنة ١٨٧٤، أو يومية هنريك وبيوي (٥١) وكلاهما بلغة إفريقيان.

وتوجد عدة عرائض وشكايات من الأفارقة محفوظة بخزانة محفوظات إفريقيا الجنوبية أو في لندن، كما توجد دراسات ونسخ وتسجيل وإحصائيات ضبطت بناء على معلومات إفريقية شفاهية. وبفضل ما ظهر من جرائد باللغات المحلية، صار في وسعنا أن نتتبع آراء المثلثين القدامى لمجتمع يسير في طريق التطور. ففي الصحيفة الأسبوعية اسيدميجمي (الصادرة بين ١٨٧٠ و ١٨٨٠) نشر أول نقد للسياسات الأوروبية وآثارها السلبية على الحياة الإفريقية، كتبه أول الوطنيين أمثال طيو سوكا (ت سنة ١٨٧١). أوج. شمزاش (ت ١٨٦٠) مع مجموع التقاليد التاريخية عند الكسونا بقلم و. وكوبا (ت ١٨٨٨). ومنذ سنة ١٨٨٤ وجد لسان حال آخر للرأي الإفريقي: ابن زيانسوندو (صوت الشعوب السوداء)، وكان رئيس تحريرها لمدة طويلة ت. جباو (ت ١٩٢١). وقبيل الحرب العالمية الأولى كانت إحدى عشرة صحيفة تصدر باللغات الإفريقية، ولكنها لم تكن كلها تدافع عن قضية الأفارقة. وكان نيوكي (ت ١٩٢٤) من أعظم شخصيات هذه الفترة. فبعد أن ساهم نشيطاً في حرب الزولوسنة ١٨٧٩، نشر (في الولايات المتحدة) ذكرياته وعدداً من الفصول عن الحياة في إفريقيا الجنوبية (٥٢). ولم تظهر أولى التواريخ التي كتبها الأفارقة إلا في

(٤٩) ن. اسحاق ١٨٣٦ عن. ف. فن. ١٩٥٠.

(٥٠) أ. ت. بريانت ١٩٢٩، انظر أيضاً مصنفه «تاريخ الزولو» وقد نشر أولاً في شكل سلسلة من المقالات سنة ١٩١١-١٩١٣ ثم في صورة كتاب بالكاتب ١٩٦٤، انظر أيضاً جون برد: حوايات الناطل ١٤٩٥-١٨٤٥، مجلدان يتراكم يتسويغ ١٨٨٨.

(٥١) القوانين محفوظة في ريبورث وندهورك، نشرت «يومية وبيتوي» بالكاتب سنة ١٩٢٩.

(٥٢) انظر. ه. طرنر ١٩٥٥.

القرن العشرين (٥٣) مدشنة عصرا جديدا للتدوين التاريخي الإفريقي الجنوبي. نعم إن تاريخ هذا الجزء من القارة قد اعتدوا طوليا من وجهة نظرة المجموعة البيضاء التي كانت تميل إلى معاملة تاريخ الشعوب الإفريقية على أنه أمر ثانوي لا قيمة له، والصراع الجاري اليوم في كل مبادي النشاط البشري يتطلب أيضا سلوكا جديدا إزاء المصادر، ويجدر أن ينظر إلى كل المواد المكتوبة والشاهدة عليها للكفاح المرن المتصير الذي قاموا به في سبيل حقوقهم، نظرة اعتبار خاص (٥٤).
والبحث المركز على هذه الشهادات وهذه المواد هو وحده الذي سوف يمكن من كتابة تاريخ حق لأفريقيا الجنوبية.

المصادر الروائية الخارجية

إذا ما كانت الفترة بين القرنين التاسع والخامس عشر تدعى «عصر المصادر العربية» وذلك بسبب سيطرة المواد المكتوبة في هذه اللغة، فإن الفترة المدروسة هنا تنطبع بنقصان فجائي في هذا الميدان. وحيث أن أسباب هذا التغير ترتبط بالتطور العام السياسي والثقافي للعالم الإسلامي، فإنا سننظر فيها في مجلها في مجلد تابع. ولا يعني ذلك أنه لا وجود لأي مصدر عربي، بل إن عدد المصادر وقيمتها قليلة، إلا في حالات استثنائية، ولا سبيل لمقارنته بالفترة السابقة ولا بالمصادر من أصل آخر.

وأثار ليون (أوجان ليون) الإفريقي (في الأصل الحسن الوزان الزياتي) ولو أنها كتبت بالاطالقية، فإنها تنتمي للتقاليد الجغرافية العربية، ثم إنه انما شرع في رحلاته عبر السودان الغربي والأوسط في بداية القرن السادس عشر بصفته عربيا مسلما. ولا تخلو هذه الآثار من عيوب جغرافية وتاريخية، ولكنها هي التي أمدت أوروبا خلال ما يقرب من ثلاثة قرون بالمعلومات الحق الوحيدة التي كانت فيها عن داخل أفريقيا (٥٥).

ومصنفات أحمد بن ماجد عن الملاحة (في بداية القرن السادس عشر)، وهو الربان الذي قاد فاسكودي جاما من مالدي إلى الهند، لها أهمية كبيرة جدا. ومن عديله كتب عن نظرية الملاحة وتطبيقها، يبقى أهمها هو ذلك الذي يتحدث عن الساحل الشرقي لأفريقيا، إذ هو يحتوي علاوة على مادة طوبوغرافية غزيرة وعلى خطط الطرقات البحرية، على آراء قطعية عن البرتغاليين في المحيط الهندي (٥٦).

وفي يومية قلعة عدن التي حررها أبو محرم (ت ١٥٤٠) (٥٧) نجد عدة تفاصيل طريفة عن

(٥٣) أنظر س. ت. بلاتش ١٩١٦ - ١٩٣٠، مولتا ١٩٢٠، سوقا ج. هـ. بنتو الجنوب شرقي جوهانسبرغ ١٩٣٠ كذلك أما كسوزا: الحياة والعادات، جوهانسبرغ ١٩٣٠ ت. ب. سوقا لوفدال ١٩٢٩.

(٥٤) أنظر مثلاً د. ت. جابفو ١٩٢٠ وج. ماهايا ١٩٢٢.

(٥٥) الطبعة الأولى في رومة ١٥٥٠، وأحسن ترجمة معاصرة هي: جان ليون الإفريقي وصف إفريقيا ل. أ. إيلارد علق عليه إيلارد و.ث. مونوود. لوط وزموني، مجلدان باريس ١٩٥٦.

(٥٦) شومفسكي: ثلاثة كتب جوهلة للقيادة البحرية لأحمد بن ماجد بقلم أ. بن م. موسكو ١٩٣٧.

(٥٧) أ. لوفتجرن: نص عربي من قلعة عدن في القرون الوسطى ٣ مجلدات لينز ١٩٣٦ - ١٩٥٠.

أفريقيقا الشرقية وعن الزنج. وتدرس عن المنطقة، يومية أحدث من الأولى هي يومية سليل بن رزيق (ت ١٨٧٣)، عنوانها «تاريخ الأئمة وسيد عمان» وقد أقحم فيها مؤلفاً سابقاً حرره سنة ١٧٢٠ سرحان بن سرحان العماني (٥٨).

ولا يمدنا القرن الثامن عشر بأي مصدر عربي متأخر ذي قيمة عن تاريخ جنوبي الصحراء. ولم تلاحظ بعض النهضة في هذا الميدان إلا في بداية القرن التالي. فيزور التونسي (ت ١٨٥٧) المذكور آنفاً بلاد السودان و يروي قصة أقامته بها في يوميات هي الأولى من نوعها عن هذه المملكة، علاوة على تقريره الجدي عن الدرغور (٥٩). وقبل ذلك ببضع عشرات من السنين نقل المغربي عبد السلام الشيباني بعض المعلومات عن تمبكتو وعن منطقة مسينا قبل تسلم السلطة من قبل الدين (٦٠).

وتاريخ امبراطورية سنغاي وسقوطها والتطور اللاحق لوادي النيجر كل ذلك سجل من المؤرخين السودانيين بل أيضاً من قبل المؤرخين المغاربة المذكورين آنفاً. وقد اكتشف أخيراً في الخزائن المغربية عدد من المصادر المجهولة قبلاً، عن العلاقات بين المغرب والسودان، وهي الآن تنتظر من ينشرها ويستغلها من مؤرخي أفريقيا. ولا بد أنه يوجد عدد آخر من المواد الثمينة بالعربية أو التركية مشتتة في سائر بلدان أفريقيا الشمالية وفي تركيا لا نعلم عنها حتى الآن إلا القليل. وفي ذلك ما يفتح للمؤرخ آفاقاً مفيدة ويكون من أكثر الأعمال الحاحاً للمستقبل المباشر، أن يتم ضبط مواطن هذه المصادر والتعليق عليها وترجمتها.

والمواد في سائر اللغات الشرقية أقل منها في العربية، ولا يعني ذلك طبعاً أنه ليس في الامكان أن نعتز على مواد مجهولة تتفاوت قيمتها مثلاً في الفارسية أو في بعض لغات الهند. و يبقى حتى الآن المصدر الأساسي متمثلاً في الرحالة التركي أوليا شليبي الذي زار مصر وبعض مناطق السودان وإثيوبيا، ولكن معرفته لمناطق أخرى من أفريقيا كانت معرفة غير مباشرة (٦١). وكذلك الأمر بالنسبة إلى مواطنه أمير البحر سيدي علي الذي نسخ عن العربية وترجم أجزاء من مصنف ابن ماجد عن المحيط الهندي، في كتابه «المحيط» مضيفاً إليه بعض الجزئيات لا غير (٦٢). وفي بداية القرن التاسع عشر زار أديب أذربيجاني هوزين العابدين الشرواني بلاد الصومال وإثيوبيا والسودان الشرقي والمغرب ووصف أسفاره في كتاب عنوانه «بستان السياحة» (٦٣)، ويبدو أنه كان ثمة اهتمام كبير بأفريقيا وخاصة إثيوبيا من قبل بلدان ما وراء القوقاز ولا سيما الأهلالي الأرمن. ففي نهاية القرن السابع عشر شرع قسيسان أرمنيان استغاثا كاتورتومبوك وأقايته بقادساربان في رحلة عبر أفريقيا انطلاقاً من إثيوبيا ومروراً بالنوبة والدارفور وبحيرة تشاد وبلاد التكرور حتى المغرب

(٥٨) ترجمة ج. ب. بدر، لندن ١٨٧١.

(٥٩) رحلة إلى كواي، ترجمة الدكتور برون باريس ١٨٥١.

(٦٠) نشر ج. ج. جيكسن: خبر عن تمبكتو وهوسا، من الأراضي الداخلية الأفريقية، لندن ١٨٢٠ (أعيد طبعه ١٩٦٧).

(٦١) أوليا شليبي: سياحت نام، اسطنبول ١٩٣٨.

(٦٢) م. بتر ١٨٩٧.

(٦٣) أنظر م. خاننوف في «كشكول آسيوي» سان بترسبرغ ١٨٥٩، والأجزاء الخاصة بأفريقيا الشرقية بصدد الأعداد لترجمتها من قبل ف. ب. سمرنوف في ليننغراد.

الاقصى. وأبقى ثانيهما وصفا لرحلتها (٦٤). وفي عام ١٨٢١ اخترق واركا الارمني الاسترخاني الصحراء انطلاقا من الشمال، وزار طمبكتو وبلغ ساحل الذهب حيث حرر بالانكليزية وصفا مختصرا مليئا بالمعلومات المفيدة عن رحلته (٦٥). وتوجد مواد أخرى بالارمنية والجيورجانية عن افريقيا بخزانات هذه الجمهوريات السوفياتية ومحفوظات وثائقها (٦٦).

في اللغات الاوربية

ان ضخامة الأدب الاوربي عن افريقيا المدارية منذ بداية القرن السادس عشر تجعل من المتعذر حتى تعداد أهم الآثار أو المؤلفين. فيمكن لفائدة هذا الفصل، أن يؤخذ هذا الأدب كمصدر لتاريخ افريقيا وأن يدرس طابعه العام. وهذا أفضل من الرجوع الى قائمة لا نهاية لها من الاسماء والعناوين. ويبقى ما طرأ على الحدود الجغرافية من تغيرات معلوما: ففي بداية القرن السادس عشر كان الساحل بأكمله من السنغال الى رأس كادرفوي معروفا من قبل البرتغاليين، ولكنهم، في نهاية القرن نفسه، لم يتوغلوا حقاً داخل البلاد إلا في الكنفو القديم وانقولا وعلى امتداد نهر الزمبار.

ولم يضيف القرنان التاليان شيئاً الى معلومات الاوربيين، فكانت ثمة محاولات من حين الى آخر لاخترق الصحراء، واستتبت اتصالات أوثق على طول السنغال وقبيا، وسافر رحالة من الزمبار الى كلوا متوقفا على بحيرة ملوي. والأخبار عن أهالي السواحل، ولا سيما أهالي افريقيا الغربية قد أصبحت مفصلة متنوعة. ولم يشرع في الرحلات الاستكشافية المنظمة عبر افريقيا الا في نهاية القرن الثامن عشر، وانتهت بتقسيم القارة بين الدول الاستعمارية.

وأما من جهة التمثيل القومي فيمكن أن يقال أن القرن السادس عشر هو أساسا قرن البرتغاليين، والقرن السابع عشر للهولنديين والفرنسيين والانكليز. والقرن الثامن عشر، انكليزي وفرنسي على الخصوص، والقرن التاسع عشر انكليزي الماني فرنسي، وبالطبع فإن سائر البلدان الاوربية كان ممثلا خلال هذه القرون المختلفة، مثلاً الايطاليون في الكنفو في القرن الثامن عشر وفي السودان الشرقي في القرن التاسع عشر، والدافركيون على ساحل العبيد وعلى ساحل الذهب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومن بين مؤلفي الرحلات والأوصاف (لكن بصفة خاصة في القرن الأخير)، نجد من ينتمون الى اسبانيا وروسيا وبلجيكا والمجر والسويد والنرويج وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا وسويسرة والولايات المتحدة والبرازيل، ونجد فيهم أحيانا حتى اليوناني والروماني والمالطي. ومن حسن الحظ أن ترجم معظم الكتب في لغات قليل من يعرضها الى لغة أو عدة لغات من أكثر اللغات انتشارا.

(٦٤) ج. خالانتيانك، ارمينانسكيف بامياتنيك ١٧ (مذكرة أرمنية من القرن السابع عشر عن جغرافية اثيوبيا وافريقيا الشمالية بصفة عامة) ضمن زملدنيا مجلد ١ - ٢ موسكو ١٨٩٩.

(٦٥) انظر فيليب د. كرين (مدير النشر): ذكرى افريقيا، مديسن ١٩٦٧ (ص ١٧٠ - ١٨٩). ولكس «واركي استرخان» انظر أيضا أولدروج (استرخان) في طمبكتوسنة ١٨٢١ افريقيا ٨ لينفرد (١٩٧١).

(٦٦) يصدد النشر من قبل معهد الدراسات الشرقية بالجمهورية الروسية الاشتراكية السوفياتية بآرمينيا، إريوان، مجموعة من الوثائق المتعلقة بالعلاقات الاثيوبية الارمنية من المصور الحالية الى القرن التاسع عشر.

وكي نقوم المواد الاوربية ينبغي أن لا نعتبر جنسية المؤلف فحسب بل، وعلى الخصوص، تغير موقف الاوربيين ازاء الافارقة ومجتمعاتهم بصفة عامة. فقد يكون في الامكان أن نسط الامر بقولنا ان الكتاب البرتغاليين كانوا أميل الى النظر الى الشعوب التي يصفونها من زاوية الآراء المسبقة المسيحية، أكثر مما كان عليه الانكليز مثلاً، أو ان الهولنديين كانوا أقدر على الملاحظات الموضوعية من كتاب سائر البلدان. وبالطبع ان هناك فرقا بين صاحب اليوميات البرتغالي في القرن السادس عشر وقد اتصلت طريقته بالقيم الوسيطة، وبين العالم الفيزيائي الهولندي في نهاية القرن السابع عشر، وهو حصيلة ثقافة مرتكزة أكثر على العقل. وما لدينا من مواد متعددة متنوعة لا يسمح لنا بالتعميم السريع، ولا يمكن أن نصل الى حكم قطعي الا بعد تحليل كل أثر على حدة حسب مزاياءه، معتبرين بالطبع، تاريخه وموضوعه. كما ينبغي أن نتجنب الاعتقاد أننا لاحظنا تحسناً مستمرا في موضوعية الأخبار مع تقدم الزمن، واننا كلما اقتربنا من العصر الحاضر. أصبحت ملاحظات الواقع الاثري ملاحظات علمية، وهذا يؤول الى الاعتقاد مسبقاً أن خبر رحلة من القرن التاسع عشر، له بطبيعة الحال قيمة أكثر من خبر كتب منذ ثلاثمائة سنة. فبرتن وستانلي باعتبارهما ملاحظين، كانا أسيرى فكرة قدمت على أنها علمية موثوقة، وهي فكرة تفوق الجنس الابيض، كما كان المؤلفون البرتغاليون أسرى للتفوق المزعوم الذي كان لعقيدتهم المسيحية، وبصفة عامة ان عصر نخاسة السود لم يكن يلائم المعلومات الموضوعية عن الأفارقة.

ولكن ضرورات النخاسة العملية كانت تتطلب دراسة فطنة لنشاطهم الاقتصادي ونظم حكمهم، بحيث انه توفرت لنا، حتى منذ ذلك العهد سلسلة من المصادر النفيسة جدا. لقد حرر الكتابات عن افريقيا والأفارقة مبشرون وتجار وموظفون وضباط جيش البراء والبحر، وقناصل ومستكشفون ورحالة ومستعمرون وأحياناً مغامرون وأسرى الحرب. ولكل منهم مصلحة خاصة بحيث اختلفت أهدافهم وطرقهم اختلافا عظيماً، «فالرحلات» كانت انموذجاً لغرض أدبي معين اذ كانت تهتم بعالم مجهول غريب طريف، وكانت ترمي الى ارضاء ما يتطلبه قراؤها بصفة عامة. واستمر هذا التدفق للغرائب والمغامرة تحليل آراء تتفاوت أوهامها وخرافاتها عن الشعوب الاثري بيقية، أو أوصاف مجاملة لعديد الأخطار التي لاقاها السائح البطل، وبقي الأمر مستمرا حتى القرن التاسع عشر (٦٧). وحاول المبشرون القدامى أو من كان منهم أقرب منا أن يفهموا الديانات الاثري بيقية، ولكنهم في معظمهم كان يعوزهم التكوين وحسن الاستعداد اللازمان لادراكها حقاً، فقتيدوا خاصة ببعض «أخطائنا» و«وحشيتنا» على أنهم بالعكس كانوا في حاجة الى معرفة اللغات المحلية، وهذا كان يمكن أن يكونوا في وضع أحسن من غيرهم لادراك الاطوار الاجتماعي، بيد أنهم أبدوا أحياناً اهتماماً بالتاريخ، وأخذوا في جمع الروايات الشفاهية المحلية.

وفي القرن التاسع عشر كان جل الادب القصصي يصدر عن المستكشفين، فكانوا يهتمون بحل المشاكل الجغرافية العظمى، حسب هواية العصر، بحث غنمت من مساهمتهم الجغرافيا الطبيعية أكثر من معرفة المجتمع الاثري، وكان معظمهم يعني بالطرق الصالحة للملاحة أكثر غناية بطرق

الشفافة (٦٨) وكان العديد منهم من الطبيعيين، فأعوزتهم حاسة التاريخ أو هم كانوا يعتقدون خرافة انعدام التاريخ الافريقي، وبالطبع ان لهذه القاعدة شواذ أشهرها شذوذ هينريش بارت. وظهرت بالعكس، منذ القرن الثامن عشر، بعض التواريخ الخاصة بشعوب أو بدول افريقية، كتاريخ الداهامي لارشييا لدزل (لندن ١٧٩٣) الذي يبدو بعد تمحيصه في صورة كتيب مضاد لمنع النخاسة.

بعد أن عرضنا بعض عيوب المصادر القصصية الأولية، لننظر الآن في جوانبها الإيجابية، فهي توفر لنا قبل كل شيء الاطار الزمني الذي نحن في حاجة أكيدة اليه فيما يخص تاريخ افريقيا، حيث ضبط الزمن المؤرخ به هو نقطة الضعف في التراث المنقول. فالتاريخ الوحيد الذي ينص عليه رحالة أو مؤلف من نوع آخر، كتاريخ علاقاته بشخصية افريقية، قد يكون المنطلق لتاريخ كامل لشعب أو حتى لعدد من الشعوب. ولا يعني ذلك أن كل التواريخ صحيحة حتى لو كانت مسجلة بالكتابة، ففي بعض الأحوال قد أخطأ المؤلفون الأوروبيون أخطاء تتفاوت خطورة عند نقلهم أخبارا مبنية على «يقال»، أو عند محاولتهم أن يحسبوا فترة زمنية بناء على مصادر لا يمكن مراقبتها. على أن الأوروبيين بصفة عامة كان لديهم قياس للزمان متقدما تقنيا.

ان الأدب القصصي كبير الأهمية كمصدر للتاريخ الاقتصادي: فسالك التجارة وأهم الأسواق، والبضائع والأسعار، والفلاحة والصناعة، والمواد الطبيعية، كل ذلك كان في الإمكان أن يشاهد وأن يوصف بدون تحيز. وقد تم ذلك فعلا. فكان الأوروبيون محتاجين في هذا الشأن، لصالحهم الخاص، الى تقييدات أقرب ما تكون الى الموضوعية. نعم ان الموارد الطبيعية أو الامكانيات الاقتصادية في بعض الجهات قد صورت بألوان براقة مضخمة للمبالغة في فضائل المكتشف، ولكن المؤرخ قد تعود على هذا الضرب من المبالغة وهو يحسب له حسابه.

ان أهم ما نجح فيه الأوروبيون هو ملاحظة المظاهر الخارجية في المجتمعات الافريقية وهو ما يسمى «بالعرف والعادات»، فتشتمل الوثائق على أوصاف مدققة رائعة للغاية، لحفلات مختلفة وللملابس والتصرفات والخطط والأساليب الحربية وطرق تنفيذها وتقنيات الانتاج الخ. ولو أن هذه الأوصاف تتبع أحيانا بنوع «وحشي» «بدائي» «أخرق» «تافه» أو ما شابهها من الفاظ الاستعجان التي لا معنى لها سوى أنها حكم تابع لعادات الملاحظ الثقافية. وأما الأمر الأخطر فهو الانعدام التام لتفهم البنية الداخلية للمجتمعات الافريقية، والشبكة المتشعبة للعلاقات الاجتماعية، وتفرع الالتزامات المشتركة، والعلل العميقة لبعض التصرفات. وباختصار ان هؤلاء المؤلفين لم يكن في مقدورهم أن يكتشفوا العلل العميقة لأنواع النشاط الافريقي.

ومع ذلك فإن تدوين التاريخ الافريقي قد يكون شبه مستحيل بدون المواد التي توفرها لنا المصادر الروائية الأوروبية، وقد يكون لها عيوبها، وقد تغفل عن عدد من التفاصيل، أو قد تعالجها باحتقار وبسخرية أو قد تفسرها تفسيرا خاطئا، ولكن لا بد من مجازفات عادية يتضمنها كل عمل للتدوين التاريخي. فلا موجب إذن لرفض هذا المجموع الضخم الكبير الأهمية من الأخبار. بل أنه

من الضروري أن يعاد طبع أكثر ما يمكن من الروايات من هذا النوع، وإن نشر بشروح وتعليقات لاثقة حتى تتمكن من قوتها ومن إعادة تفسيرها على ضوء التدوين الجديد للتاريخ الأفريقي.

المصادر الروائية الداخلية

في الفترة المدروسة هذه، نشاهد ظاهرة جديدة لها عظيم النتائج وهي ظهور أدب تاريخي مكتوب من قبل أفارقة جنوبي الصحراء، وانتشار هذا الأدب.

لم تكن وسيلة التعبير حتى ذلك الوقت لغة إفريقية محلية، بل كانت في البدء اللغة العربية، ودورها في العالم الإسلامي بمثابة دور اللاتينية في أوروبا في القرون الوسطى، أي سبيل الاتصال بين شعوب مثقفة. ثم ظهرت فيما بعد بعض اللغات الأوربية.

و يبدو أن عادة التدوين التاريخي قد بدأت في آن واحد في المنطقة السودانية وعلى الساحل الشرقي الإفريقي، أي بالضبط في الجهتين الكبيرتين التي غطتها حتى ذلك الوقت المصادر العربية الخارجية، والتي أثر فيها الإسلام تأثيراً طويلاً المدى. وأقدم التواريخ الموجودة ترجع إلى بداية القرن السادس عشر، ولكنها تذكر بصيغة الماضي أحداث فترات أقدم. فالأول «تاريخ الفتاش» من تحرير ثلاثة أجيال من أسرة القيطي من جنه، وهو يغطي تاريخ السنغاي والبلدان المجاورة حتى الفتح المغربي سنة ١٥٩١. «تاريخ السودان» هو أضخم وأغنى بالتفاصيل، ولقد قام بتحريره المؤرخ التيبكتي السعدي، وهو يشمل جزئياً عين الفترة، ولكنه يستمر حتى سنة ١٦٥٥. وكلا المؤلفين من عمل أدباء طرفاء يتسع اهتمامهم إلى ميدان فسيح ولم دراية عميقة بالأحداث المعاصرة. والأهم هو أننا لأول مرة نستطيع أن نرى صوت أفارقة أصليين، ولأن المؤلفين يتحيزون إلى الإسلام، وينظرون إلى الأمور من وجهة النظر هذه. وفي القرن الثامن عشر يبدأ تاريخ مجهول المؤلف ولكنه مفصل جداً للشوات المغاربة في تمبكتو من ١٥٩١ إلى ١٧٥١. وفيه أيضاً مواد مفيدة عن البلدان والشعوب المجاورة (٦٩).

ولدينا ضرب آخر من المصادر في معجم التراجم لأدباء السودان الغربي حرره العالم الشهير أحمد بابا التيبكتي (ت سنة ١٦٢٧) (٧٠)، وإلى عين الجهة من إمبراطورية سنغاي ينتسب «تاريخ ساي» وهو يومية عربية لابن إدور كتبها على ما قيل سنة ١٤٩٠، فإن ثبتت صحته سيكون هذا الكتاب أقدم وثيقة موجودة مكتوبة عن إفريقيا الغربية، ولكنه يبدو أنه من الأرجح أن يكون نسخة مؤرخة من رواية شفاهية (٧١).

ومن تمبكتو ومن جنه انتشرت عادة تحرير اليوميات إلى جهات أخرى، ولا سيما نحو الجنوب والغرب في المنطقة الكائنة بين الساحل والغابة المدارية، وأحياناً بتوغل أكثر نحو الجنوب. وشرع

(٦٩) «تاريخ الفتاش» ترجمه وعلق عليه أ. هوداس و م. دولاووس، باريس ١٩١٣ (أعيد طبعه سنة ١٩٦٤)، تاريخ السودان «ترجمه وعلق عليه» أ. هوداس باريس ١٩١٠ (أعيد طبعه سنة ١٩٦٤)، «تذكرة النسيان» ترجمه وعلق عليه أ. هوداس باريس ١٨٩٩ (أعيد طبعه سنة ١٩٦٤).

(٧٠) نشر بفاس سنة ١٨٩٩ وبالقاهرة سنة ١٩١٢.

(٧١) انظر فنان متال بفان ٢٨، ١٩٦٦، ص ٦٧٥.

الأدباء المسلمون منذ منتصف القرن الثامن عشر أو قبله، في كتابة التواريخ المحلية وانساب القبائل والتراجم المختصرة والرسائل الدينية. وأبرز مثال لذلك «كتاب الفنجة» المكتوب بعد سنة ١٧٥٢. وهوتاريخ مملكة الفنجة ويستند جزئيا الى الروايات الشفاهية (٧٢). وهناك عدد كبير من اليوميات الأقل أهمية، ومن المؤمل أن يعثر على مصادر مشابهة في أجزاء أخرى من هذه الجهة، تحت نفوذ مجموعات ديولا أو الهوسا أو كليهما. ومعظم هذه الآثار مكتوبة بالعربية. كما حرر عدد من اليوميات بلغات العجمي أي لغات جنوب الصحراء المكتوبة بالحروف العربية (٧٣).

والحالة عنها في الجهات الناطقة بالفلقدية، ولا سيما في الفوطاطورو والفوطاد جالون، في غينيا وفي الخزانات بداكار أو بباريس، يوجد عدد من اليوميات المحلية محرر بالعربية أو الفلقدية (أو كليهما) ومعظمها مؤرخ بالقرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ولم تنشر مواد الفوطاد جالون الا مؤخرًا واستغلت في مؤلفات علمية. ولنذكر في هذا الشأن مجموعة جلبرت فيايرد في أيفان (المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء) بداكار. على أن الوضع في فوطاطورو أحسن، وقد جعلت «يوميات فوطا السنغالية» لسيري عباس صوح، من القرن الثامن عشر، في متناول الباحث منذ خمسين سنة (٧٤) وأثر آخر قديم وهو معجم تراجم لمحمد البريطاني بعنوان «فتح الشكوك» (حوالي ١٨٠٥) هو الآن، بصدد الإعداد من قبل جون هويك قصد نشره. وهناك تاريخ معاصر لفوطاطورو كتب سنة ١٩٢١ بقلم الشيخ كمر موسى الكانكالي، عنوانه «زهور البساتين» وهو لم ينشر بعد (٧٥).

والسنيجيريا الشمالية يمكن اعتباره أيضا بلدا لم تظهر فيه التواريخ وسائر المصادر العربية الا في وقت متأخر نسبيا. فترك لنا الإمام ابن فرتوة (نهاية القرن السادس عشر) وصفا مفصلا لمتعة الحياة ما يادر يس وعصره وحروبه (٧٦). وقرينا منا نجد مختلف القوائم لقواد برنو ويوميات لهذا البلد. ويمثل المحارم مصدرا مهما جدا (٧٧). وهي رسوم امتيازات يمنحها الرؤساء لأسر الأعيان من رجال الدين، وهي تمكن من معرفة الظروف الاقتصادية والاشتراكية.

وفي بلاد الهوسا لا يوجد شيء يذكر من المواد التاريخية السابقة للجهاد، ولو أن مستوى التعليم ولا سيما لدى (رؤساء الدين الفلانيين) كان مرتفعا جاد نسبيا (٧٨) ولكن بعض القصاصد بلغة الهوسا أو الكنوري (برنو) تتضمن شروحا للأحداث المعاصرة (٧٩).

(٧٢) انظر في هذا الشأن وعن مواد أخرى الفيرولكس ١٩٦٣، ث. هودكين ١٩٦٦، ٤٤٢ - ٤٥٩.

(٧٣) أ. ا. شو ١٩٦٨، طيرودبالو ١٩٦٨.

(٧٤) أ. سوترجه م. دولافوس وه كاها، باريس ١٩١٣.

(٧٥) محفوظ بخزانة أيفان (المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء) انظر ف. ميثال ١٩٦٥ ص ٥٤٠.

(٧٦) نشره ه. ر. بلير، ١٩٣٠، ترجم ضمن «مذكرات سودانية» لاقوس ١٩٢٨ وفي «تاريخ القرنين الاولين الى ادر يس روما» لاقوس ١٩٢٩.

(٧٧) جمعه ه. ريلمر في «مذكرات سودانية» المجلد ٣، لاقوس، ١٩٢٨ وفي كتابه «البربو»، الصحراء، والسودان. لندن ١٩٣٦.

انظر أيضا ي. اورفوا «أخبار برنو» جورن جمعية الافريقيين ٢ - ١٩٤١.

(٧٨) م. هسكت ١٩٥٧، ٥٥، ٥٧٨، أ. د. ه. بيفاروم. هسكت ١٩٦٢، ١٠٤ - ١٤٨.

(٧٩) انظر ج. ر. برتنس ١٩٢٦.

وشاهدت بداية القرن التاسع عشر ظهور نهضة حقيقية للأدب العربي في السودان الأوسط والغربي، وعلاوة على المؤلفات باللغة العربية، فكان ثمة عدد متزايد من الكتب تحور في اللغات المحلية كالهوسا والفلفودية والكنوري والمندرا والكوتوكو، إلخ.. بحروف عربية. وأحسب الكتاب كانوا رؤساء (الجهاد الفلاني) في نيجيريا الشمالية، ولأن معظم انتاجهم الأدبي يعالج قضايا دينية وإن عددا قليلا منها فحسب يمكن اعتباره توارخ حقا (٨٠). وكل هذا الانتاج الأدبي سواء بالعربية أو بأحدى اللغات المحلية، يعين في الحصول على فكرة أشد تنسيقا عن الحياة الاجتماعية والفكرية في هذه الجهة. ومع أن يوميات مدن الهوسا (كانو، كستينا، أبوجا، إلخ) لا تراجع إلا إلى نهاية القرن التاسع عشر، فهي إلى حد ما تستند إلى وثائق أقدم أو إلى روايات شفاهية (٨١). وطراً تطور مائل جهة الشرق في الباقيمي والكوتوكو والمندرا والوداي. وقد نشرت فيما بعد بعض اليوميات أو قوائم الملوك، ولكن الكثير منها مازال مخطوطا، ومن المؤمل أن يعثر على غيرها ضمن المجموعات الخاصة (٨٢).

وتوجد يومية مسجعة في اللغة الفلفودية تصف حياة المصلح العظيم التكروري الحاج عمر (٨٣) ونشاطه — وهو نفسه مؤلف الكتاب الديني «رماع حزب الرحم» وفيه عدد من التلميحات التاريخية إلى ظروف العيش في السودان الغربي (٨٤).

ويمكن للساحل الشرقي الأفريقي أن يقارن بالسودان فيما يخص عدد يومياته. فلعدد من المدن يومياتها المكتوبة بالعربية أو السواحلية بحروف عربية تعرض فيها قوائم الملوك وأخبار الحياة السياسية ومن بينها واحدة.. لا غير قديمة حقا، يومية كلوا، وقد تم تحريرها حوالي سنة ٥٣٠. ولنا منها روايتان مختلفتان، روى أحدهما دي باروس ونسخت الأخرى في نيجيريا سنة ١٨٧٧ (٨٥). وأما معظم اليوميات الأخرى فلم تحرر إلا مؤخرا، وبعضها يرجع إلى ما وراء النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ويتركز عدد منها على الأحداث قبيل مجيء البرتغاليين. فهي إذن إلى حد ما تسجيل لروايات شفاهية، وينبغي أن تعالج وتقوم على هذا الأساس (٨٦) ومازال عدد كبير من

(٨٠) محمد بلو «اتفاق اليسور» نشره س. أ. ج. ويتنغ، لندن ١٩٥١، ترجمة الكليزية مع شرح قسم الهوسا بقلم أ. ج. ارنت: «ظهور السوكوتو الفلانيين» كانو ١٩٢٢، عبد الله دان فويو: «ترين اليرقات، ترجمة وتعليق بقلم: ه. هسكت، لندن ١٩٦٣، حاجي سعيد: تاريخ سوكوتو ترجمة س. أ. ج. ويتنغ، كانو بدون تاريخ وهناك أيضا ترجمة فرنسية. أ. هوداس ضمن «ذخيرة السياني» باريس ١٨٩٩.

(٨١) يومية كانو: ترجمة ه. د. بلير ضمن «مذكرات سودانية» عن كستينا انظر المصدر المذكور ص ٧٤، ٧٥، عن أبوجا انظر معلم حسن وشعيب: يومية أبوجا، نقلا عن الهوسا بقلم ب. ل. هيث إبادان ١٩٥٢.

(٨٢) انظر بلير ١٩٢٨ ومعدة مصنفات ل. ج. ب. لوبوف وم. رودنس ضمن «دراسات كامرونية» ١٩٣٨، ١٩٥١، ١٩٥٥، وبيغان (مجلة المعهد الفرنسي لافريقيا السودا) ١٩٥٢، ١٩٥٦، م. أ. طويانا عن الوداي ضمن «كراريس الدراسات الافريقية» ٢، ١٩٦٠.

(٨٣) م. أ. ريام: حياة الحاج عمر قصيدة بلغة البولار، ترجمها ه. كاهن باريس ١٩٣٥.

(٨٤) كتاب رماع حزب الرحم، القاهرة ١٩٢٧، ويعد ج. د. و. بليس طبعة جديدة وترجمة له.

(٨٥) حلها ج. د. س. فرعان جرينفيل: التاريخ الوسيط لساحل طنجانيقا، أوكسفورد ١٩٦٢.

(٨٦) عن اليوميات العربية والسواحلية عامة انظر فرعان جرينفيل ١٩٦٢، أ. ج. د. برينس ١٩٥٨، ج. ط. ألسن، ١٩٥٩، ٢٢٤ — ٢٢٧.

المخطوطات ضمن المجموعات الفردية الخاصة، فاكشف منذ سنة ١٩٣٥ أكثر من ٣٠.٠٠٠ صفحة مخطوطة سواحلية (وأيضاً عربية). ومن المؤمل بعد التنقيب المدقق على كل الساحل ان توجد مواد من شأنها أن تثير عددا من الجوانب التي مازالت مجهولة من تاريخ الشرقي الافريقي (٨٧). على أن المؤرخين في وسعهم أن يستثمروا اليوميات بل وغيرها من الأصناف الأدبية، كالشعر السواحلي مثلاً، ولا سيما قصيدة «الانكشافي» (وقد نظمت خلال العشرة الثانية من القرن التاسع عشر) وهي تصف صعود باتي (٨٨) والمخطاطه.

ولم يظهر الانتاج الأدبي الافريقي باللغات الاوربية الا قرنين بعد الانتاج بالعربية، وكانت النماذج الأولى - كما هو متوقع - صادرة عن سكان الساحل الغربي، حيث كانت الاتصالات مع العالم الخارجي أكثر منها عند غيرهم.

ولأنه يجدر أن نحفظ أسماء جاكوبس كبتان (١٧١٧ - ١٧٤٧) وأ. و. يليام أمو (المولود حوالي ١٧٠٣، ت حوالي ١٧٥٣) وفيليب كواك (١٧٤١ - ١٨١٣)، وثلاثتهم من أصل فنتشي، كالرواد الأولين للأدب الافريقي باللغات الاوربية، فإن مساهمتهم في تدوين التاريخ الافريقي ضئيلة جداً. وبالعكس ان مؤلفات العبيد المعتقين في النصف الثاني من القرن الثامن، لا نظير لها من حيث القيمة كمصادر تاريخية، ومنها مؤلفات انياتوس صنشو (١٧٢٩ - ١٧٨٠) وأطوية كوقوانو (حوالي ١٧٤٥ - ١٨٠٠) وألودوه أكو يانو قسسطافوس فاسا (حوالي ١٧٤٥ - ١٧٨٠). وعني ثلاثتهم أساساً بمنع نخاسة السود، فكانت كتبهم جدالية، ولكنها في آن واحد تمدنا بالكثير من مواد التراجم الذاتية عن وضع الأفارقة في افريقيا كما في أوربا (٨٩). وإلى هذا العهد ترجع وثيقة وحيدة فريدة، يومية انتيرا ديوك، من أهم تجار كالابار، وكتبت بلغة «بدجن الانكليزية» المحلية وغطت مدة طويلة، وهذه اليومية مع قصرها تلقي أضواء ساطعة على الحياة اليومية في ميناء من أهم موانئ تجارة العبيد السود (٩٠).

وعن مدغشقر لدينا نوع من اليومية سجلها الملك العظيم المرينا، رداما الأول (١٨١٠ - ١٨٢٨) بحروف عربية. وحوالي ١٨٥٠ حرر اثنان من أعيان المرينا وهما راومبانا ورهانيرا كأخباراً بحروف لاتينية تعين على استعادة بناء الصورة الكاملة للحياة اليومية عند المرينا في القرن التاسع عشر (٩١).

وخلال القرن التاسع عشر ساهم عدد من الأفارقة أو الافروأمريكيين في رحلات الاستكشاف، ونشروا تأملاتهم عن الحياة الافريقية تتخللها أحياناً جدالات ذات صبغة عامة.

(٨٧) أهم اكتشاف من هذا النوع في السنوات الأخيرة «كتاب الزنج» الذي يعالج تاريخ بلد الصومال الجنوبي وكينيا الشمالية، انظر شرطي ١٩٥٧.

(٨٨) انظر هريس، ١٩٦٢.

(٨٩) انياتوس صنشو ١٧٨١، اطوبه ١٧٨٧، القصة الممتدة لحياة الدودو اكو يانو أو قسستافوس. فاسا الافريقي، لندن (١٧٩٨).

(٩٠) داريل فورد ١٩٥٦. اتلف المخطوط الاصل أثناء الرمي بالقتال في ايقوسا أثناء الحرب الأخيرة، ولكن ثمة نصوص تتعلق بالفترة ١٧٨٥ - ١٧٨٧ كانت محفوظة بشكل نسخ.

(٩١) هـ. برتشي ١٩٣٣، مخطوطة راومبانا ورهانيرا بكاء، نشرية الأكاديمية للمغاشية ١٩، ١٩٣٧ ص ٤٩ - ٧٦.

فساهم صموئيل كروثر من يوروبا — قد واصل دراساته في سيراليون وفي بريطانيا — في استكشافات النيجرسنة ١٨٤٤ و ١٨٥٣. وترك لنا أوصافاً عن هذه الرحالات (٩٢).

وانتقل طوماس ب. فريمان، المولود بانكلترا من أصل هجين، انتقالات كثيرة في أفريقيا الغربية، ووصف شعوب ساحلها وداخل ترابها وصف تعاطف ملهم (٩٣). وسافر أميركيان من أصل أفريقي هما، روبرت كمبل ومرتان ر. دولاني إلى نيجيريا في السنوات ١٩٥٠ للبحث عن منطقة من شأنها أن تليق بمستعمرة محتملة من الأفرو-أميركيين (٩٤)، ووصف مواطن من ليبيريا هوبنسيامين أندرسن، بكثير من التفاصيل ملاحظات مدققة لاحظها أثناء رحلته في وادي النيجر الأعلى (٩٥). ومن الواجب أن يصنف زعيمان أفريقيان عظيمان هما، ادوارد و. بليدن وجامس إفريقيان سرطن، في صنف على حدة. فبعض كتب بليدن وبعض مقالاته تمثل في حد ذاتها مصدراً تاريخياً، ويكتسي البعض الآخر صبغة التفسير التاريخي. ولكنها كلها لازمة للبحث عن ظهور الوعي الإفريقي (٩٦) وكذلك الشأن بالنسبة إلى آثار هرطن، مع وجود فرق وهو أنه كان أميل إلى الملاحظات الدقيقة للمجتمعات التي اتصل بها اتصالاً وثيقاً جداً (٩٧).

وتكوّن هاتان الشخصيتان مرحلة انتقال مع مجموعة الأفارقة الذين شرعوا في كتابة تاريخ بلدهم أو شعوبهم. وثمة محاولة أولى تمت، ولكن مع التأكيد على الانتوغرافيا، قام بها الراهب بولات وهو مولد سان لويز ضمن كتابه «نظرات سنغالية مجملية» (٩٨) فيلاحظ لديه اهتمام أكبر بتدوين التاريخ، يستند أساساً على الروايات الشفهية، وذلك في أجزاء القارة الخاضعة للهيمنة البريطانية، ولكن في نهاية القرن التاسع عشر فقط. ونشر ج. س. ريندوف سنة ١٨٩٥ ببال كتابه «تاريخ ساحل الذهب والا سنسي» و يعتبر هذا المؤلف أول مؤرخ عصري من أصل إفريقي. وبدأت به و بصموئيل جونسون — و يعاصر كتابه «تاريخ اليوروبا» كتاب ريندوف، إلا أنه لم ينشر إلا سنة ١٩٢١ — بدأت بها سلسلة غير منقطعة من مؤرخين أفارقة، هاويز في البداية (ومعظمهم مبشرون) ثم محترفين. ووصلت آراؤهم ومؤلفاتهم في الفصل المخصص لتطور التدوين التاريخي الإفريقي.

وكل هذه المصادر الروائية المكتوبة بالعربية أو بعدة لغات إفريقية وأوربية، هي مجموعة من المواد التاريخية فسيحة ثرية. وهي بالطبع لا تعطي كل أوجه السير التاريخي، ولها طابع جهوي فلا تمدنا أحياناً إلا بصورة جزئية. وما كتب منها من قبل كتاب مسلمين، كثيراً ما تبدي تحيزاً واضحاً يظهر في الكيفية التي يعالجون بها المجتمعات غير المسلمة. وأما غيرهم من مؤلفي المصادر الروائية في اللغات الأوروبية، فكانوا في آن واحد جدليين مكافحين ضد نخاسة السود، أو في سبيل المساواة. وبذلك قد كانوا ينجحون إلى التحيز. ولكن تلك عيوب طبيعية في كل المصادر السردية. وحتى لو أننا

(٩٢) انظر يوميات الأفضل ج. ج. شون وم. كروثر، لندن ١٨٤٢، صموئيل كروثر ١٨٥٥.

(٩٣) طوماس ب. فريمان ١٨٤٤.

(٩٤) روبرت كمبل ١٨٦١، مرتان ر. دولاني ١٨٦١.

(٩٥) بنيمين اندرسن ١٨٧٠.

(٩٦) عن بليدن، انظر هليس ر. لنش ١٩٦٧.

(٩٧) ج. أ. ب. هسطن ١٨٦٨، رسائل عن الظروف السياسية في ساحل الذهب، لندن ١٨٧٠.

(٩٨) باريس، ١٨٣٣.

كننا شاعرين بذلك، فإن هذه الوثائق تتقدم لنا بجزية حاسمة: هي أصوات أفارقة يصورون لنا المنقلب الثاني من التاريخ، ذلك الذي غمرته أمواج الآراء الأجنبية.

مصادر خزائن الوثائق الخاصة، والتقارير السرية وغيرها من الشهادات

نعني بمصادر خاصة: أساسا، الوثائق المكتوبة الناتجة عن حاجة التسجيل لمختلف أنواع النشاط البشري التي لم تكن في البداية موجهة للجمهور الكبير بل لجمع صغير من الأشخاص الذين يهمهم الأمر فقط، فهي تشتمل خاصة على المراسلة الرسمية أو الخاصة، والتقارير السرية، وعروض مختلف المعاملات والسجلات التجارية والاحصائيات والوثائق الخاصة باختلاف أنواعها، والمعاهدات والاتفاقيات، ويوميات السفن الخ. وهذه المواد هي حقا المادة الخام للمؤرخ الباحث، إذ هي تمده، خلافا للمصادر الروائية المنشأة لغرض معين، بشهادة موضوعية خالية مبدئيا من كل قصد خفي، موجهة لجمهور فسيح أو للأجيال القادمة. وتوجد هذه المواد أساسا في خزائن الوثائق والخزائن العامة أو الخاصة.

إن الرأي القديم القائل بأن ليس لتاريخ إفريقيا ما يكفي من المصادر الخاصة، قد تراجع. فعلاوة على ما يوجد من المجموعات الغنية جدا في الوثائق في الدول المستعمرة السابقة، ومن المواد المهمة جدا في إفريقيا نفسها مما أنتج في فترات ما قبل الاستعمار والحقبة الاستعمارية، من قبل منشآت خاصة أو تابعة للدول الأوروبية، فإن البحوث الحديثة قد جددت مواقع كمية من المواد الخاصة، أو كشفت عنها: المواد الصادرة عن أفارقة والمكتوبة بالعربية أو بلغات أوروبية. فبينما كان يعتبر في السابق أن الوثائق من هذا النوع شاذة، وإنها لم تكن لتوجد إلا في أماكن متميزة، فلقد اتضح الآن أنه يوجد عدد من المصادر المكتوبة من أصل إفريقي في الكثير من أقسام القارة، كما في خزائن الوثائق في أوروبا وآسيا.

فلننظر أولا في المواد المكتوبة بالعربية، ففي الفترة السابقة عن القرن التاسع عشر، لم يكشف بعد نماذج مجزة من المراسلة المحلية أو الدولية، ولا سيما الصادرة عن إفريقيا الغربية.

فهناك رسائل من السلطان العثماني إلى ماي ادريس ببرنو (سنة ١٥٧٨) اكتشفت في المحفوظات التركية، ورسائل ترجع لنهاية القرن السادس عشر أيضا من سلطان المغرب إلى أسكيا من السنغاي والي كنتا من الكبي. وكانت العربية مستعملة كلغة دبلوماسية، ليس في البلاطات المسلمة بالسودان وحسب بل أيضا من قبل الأمراء الغير المسلمين. وأشهر هذه النماذج هم «الأسنهنان» الذين استكتبوا كتابا مسلمين بالعربية، لمراسلتهم مع جيرانهم في الشمال ومع الأوروبيين على الساحل. ووجد عدد من هذه الرسائل في الخزانة الملكية بكونها كن. واستعملت العربية لمسك دفاتر القرارات الإدارية والقضائية والحسابية الخ. وفي الطرف الآخر من إفريقيا، لدينا مثل المعاهدة بين النحاس الفرنسي مورييس وسلطان كلوا سنة ١٧٧٦.

وشهد القرن التاسع عشر انتشارا عظيما للمراسلة العربية على كل القارة. فقد تطلب إنشاء دول متمركزة في السودان، نشاط إداري ودبلوماسي ازداد أهمية أكثر فأكثر، واكتشفت مادة خصبة من

هذا النوع خصوصاً في سلطنة سوكونو والامارات التابعة لها، من كواندو الى آدماءا. وفي دولة معينة أو دولة لبتاكو وفي امبراطورية برنو. وحافظ كل المسلمين رؤساء الدول كباراً وصغاراً على مراسلة نشيطة فيما بينهم ومع السلطات الاستعمارية المتقدمة. ففي الكثير من خزائن الوثائق ببلدان أفريقيا الغربية (وأحياناً في أوروبا) نجد آلافاً من الوثائق العربية الصادرة عن شخصيات، أمثال الحاج عمر، وأحمد ساكو، ومابا ولات ديور، ومحمد دولامين، وسموري، والبكائي ورايج، وكثير من سائر الرؤساء الأقل أهمية. وأقامت الادارة الاستعمارية أيضاً مراسلة عربية معهم بسيراليون وغينيا ونيجيريا وعلى ساحل الذهب.

و يوجد تبادل رسائل بين الباشا العثماني بطرابلس ومشايخ برنو، وبين سلطان دارفور ومصر، وبين تمبكتو والمغرب الأقصى. وكان الوضع مماثلاً في أفريقيا الشرقية. على أنه يبدو أن محفوظات زنجبار ليس غنية بالوثائق التي كانت ترتجى منطقياً من مدينة كان لها ما لها من علاقات تجارية وسياسية، وبالطبع لا بد أنه يوجد في خزائن خاصة عدد من الوثائق المتفاوتة القيمة. وسوف يكون جمع هذه الوثائق وفهرستها عملاً عسيراً، ولكنه لا بد منه في المستقبل القريب.

ولعين الصنف، تتضمن النصوص المكتوبة بحروف فاي وهي كتابة استنبطها حوالي سنة ١٨٣٣ مومولودولا بركيلى، وانتشرت بسرعة بين شعب فاي، بحيث كان الكل تقريباً يعرفون هذه الكتابة في نهاية القرن، ويستخدمونها بكيفية اعتيادية في المراسلة الخاصة والرسمية ومسك دفاتر الحساب، ولتسجيل القوانين العرفية والأمثال والقصص والروايات. وكثير من الشعوب المجاورة مثلاً المندى والطوسا (لوما) والكركزي والباسا استخدموا كتابة الفاي في لغاتهم، واستخدموها لعين الأغراض (٩٩).

وفي بداية القرن الخامس عشر، استنبط السلطان نجويا من ماموم (كامرون) كتابة خاص للغة الماموم، حورها أربع مرات خلال حياته، ولكن خلافاً لكتابة الفاي التي عمم استعمالها على معظم الأهالي، فإن كتابة الماموم لم تكشف إلا لجمع صغير في بلاط السلطان، ومع ذلك فإن نجويا قد ألف مجلداً ضخماً في التاريخ، وفي عادات شعبه حرره بهذه الكتابة، وهو مجلد جد في كتابته طيلة سنين عديدة، وهو يمثل كنزاً حقيقياً من المعلومات الثمينة عن الماضي (١٠٠). وينبغي أن يضاف إليه نصوص بالنسبيدي (١٠١) من وادي نهر الصليب (الجنوب الشرقي من نيجيريا) تتمثل في نقوش على معابد وعبارات للتعارف بين أعضاء بعض الجمعيات السرية.

وأما المواد المحررة باللغات الاوربية، فتمتد من القرن السادس عشر الى عصرنا هذا، وقد كتبت في نحو اثنتي عشرة لغة وهي غزيرة جداً مشتتة في العالم كله ومحفوظة في ثبات من البقايا المختلفة في خزائن وثائق أو خزائن أو مجموعات خاصة. ونتج عن ذلك أن استغلالها من قبل المؤرخ كان صعباً نوعاً ما، خاصة إذا لم يوجد دليل أو فهرست. ولذا شرع المجلس الدولي للوثائق بإشراف اليونسكو

(٩٩) انظر د. أ. دلي ١٩٦٧، ١ - ٥١.

(١٠٠) تاريخ الماموم وعاداتهم، حرر بإدارة السلطان نجويا، ترجمة ب. هنري مرتان باريس ١٩٥٢ وحفظ الأصل بقصر السلطان بنغيام.

(١٠١) انظر دايرل ١٩١٠ - ١٩١١ ومالك كريكور ١٩٠٩.

وبدعمهما الأدبي والمالي في اعداد سلسلة من الأدلة لمصادر التاريخ في افريقيا. وكان الغرض الرئيسي من ذلك ارضاء حاجيات الباحثين العاملين في تاريخ افريقيا وجعل الوصول الى كافة المصادر الموجودة سهل المثال. واذ تركز البحث التاريخي طويلا على عدد قليل من خزائن الوثائق مما يتصل بذكريات الفترة الاستعمارية. فقد كان من المفيد أن يلفت النظر أيضا الى وجود مجموعة مهمة مشتملة تشتمل كبرى، من المواد التي لم تستغل بعد. واذا ما خصصت الأدلة أولا وبالذات لخزائن الوثائق العمومية والخاصة، فهي أيضا تأخذ بعين الاعتبار المواد ذات الأهمية التاريخية المحفوظة في الخزائن والمتاحف. وستشتمل هذه السلسلة على أحد عشر مجلدا، تمدنا بمعلومات عن المصادر الوثائقية المحفوظة في بلدان أوروبا الغربية والولايات المتحدة الدراسة لافريقيا على جنوبي الصحراء وقد تم حتى الآن نشر المجلدات الآتية: المجلد ١ الجمهورية الأثينية الاتحادية، ١٩٧٠، المجلد ٢ اسبانيا ١٩٧١، المجلد ٣ فرنسا ١٩٧١، المجلد ٥ ايطاليا ١٩٧٣، المجلد ٦ ايطاليا ١٩٧٤، المجلد ٨ اسكندنافيا ١٩٧١. وينتظر اصدار المجلدين ٤ (فرنسا ٢) و٧ (فاتيكان) عما قريب وستصدر المجلدات التي تغطي بلجيكا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة كل على حدة، ولكنها ستستيع نفس طريقة العرض (١٠٢)، وكما قال جوزيف كي زربو في مقدمته للسلسلة: «في المعركة في سبيل استكشاف الماضي الافريقي من جديد، فان دليل مصادر التاريخ لافريقيا يمثل سلاحا جديدا، تخطيطا وعمليا» (١٠٣).

وعلاوة على هذا المشروع المهم، توجد من قبل أدلة أخرى للمصادر خاصة، أدلة حسب المناطق أو تبعاً لشروط خاصة. ومن أكملها الأدلة الثلاثة لتاريخ افريقيا الغربية، وقد نشرت في السنوات ١٩٦٠. وهي تغطي خزائن الوثائق بالبرتغال وايطاليا وبلجيكا وهولندا (١٠٤). وأما نشرات وثائق الخزائن، مطولة أو في شكل سجلات، فهي أشد طموحا وإلى حد ما أكبر جدوى، وحتى الآن فان المواد الوثائقية البرتغالية وحدها هي التي عرضت في هذا الشكل، فلدينا اليوم، علاوة على أعمال بايضا منصور (نهاية القرن التاسع عشر) (١٠٥) مجموعتان عظيمتان من وثائق المبشرين، مصدرها خزائن الوثائق البرتغالية (وخزائن غيرها)، احدهما من عمل أ. داسلفا ريقو (١٠٦)، والأخرى من عمل أ. برازيو (١٠٧). ومنذ بضع سنوات شرع في مجموعة معلومة أعدتها الجهود المتضافرة لخزائن البرتغال وروديسيا، تستر فيها الوثائق البرتغالية الخاصة بالجنوب الشرقي بنصها الأصلي مع ترجمة انكليزية (١٠٨). وتوجد أيضا مطبوعات مختصرة في الزمن وفي مضمونها أو موضوعها، و يتمثل هذا النوع من جهة

(١٠٢) مجلدات الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى سوف تمدنا بقوائم من الوثائق تتعلق بكامل القارة.

(١٠٣) دليل مصادر التاريخ لافريقيا مجلد ١، زوق، سويسرة ١٩٧٠ مقدمة ص ٧.

(١٠٤) ب. كرسن ١٩٦٢، ريدر. أ. ف. س ١٩٦٥، قرأى و. د. شميرس ١٩٦٥.

(١٠٥) بايضا منصور ١٨٧٧.

(١٠٦) أ. داسلفا ريقو ١٩٤٩ - ١٩٥٨.

(١٠٧) أ. برازيو ١٩٥٢.

(١٠٨) الوثائق التاريخية لافريقيا الشرقية والوسطى لشبونة، سلسبوري منذ ١٩٦٥ شتمل ٢٠ مجلدا تقريبا.

[illegible]

في «الأوراق البرلمانية الانكليزية» وفي عدة كتب زرقاء أو كتب بيضاء مؤرخة على الخصوص في الفترة الاستعمارية، ومن جهة أخرى هناك منتخبات حديثة لها صبغة علمية أكبر (١٠٩)، من ذلك أعمال كوفلي ول. جادان عن وثائق الفاتكان حول تاريخ الكنعان القديم (١١٠) أو مختارات س. و. نيوبوري عن السياسة البريطانية في افريقيا الغربية. ودراسة ج. أ. ميتكالف الوثائقية عن العلاقات بين بريطانيا العظمى وغانا (١١١). وإلى هذا النوع أيضا تنتمي المجموعة الفسيحة من المواد الوثائقية عن السياسة الايطالية ازاء اثيوبيا والبلاد المجاورة، والتي هي بصدد النشر من قبل «جيليسو» (١١٢) وعدد كبير من المنشورات الأخرى من هذا النوع، انطلاقا من خزائن وثائق أوربية، قد يسهل الوصول الى الوثائق الخاصة لهذا الوجه أو ذلك من التاريخ الاستعماري. ونقطة الضعف في هذه المقتطفات فعلا وبدون شك، هي في الطابع الانتقائي، وذلك ان كل مؤلف يتبع في اختيار مواده قواعده الخاصة الذاتية، بينما يحتاج الباحث الذي يدرس مسألة من المسائل، الى كل الارشادات وإلى مراجع كاملة.

ويوجد اليوم في كل الدول الافريقية المستقلة، خزائن وثائق حكومية تحفظ المواد الموروثة عن الادارة الاستعمارية السابقة. وان نشرت في بعض البلدان أدلة أو فهراس، فمعظم وثائق افريقيا مازالت بصدد التصنيف والوصف (١١٢) فصار اذن من الحتمي الضروري اليوم، ان تنشر سلسلة من الأدلة عن كل الوثائق العامة والخاصة لافريقيا، كالتى هي بصدد النشر بالنسبة الى الوثائق الاوربية.

وخزائن الوثائق الحكومية في افريقيا اذا ما قورنت بوثائق الدول المستعمرة القديمة فان لها حسناتها كما لها مساوئ، وبقطع النظر عن بعض الشواذ فان الوثائق المفصلة لم يبدأ بحفظها في افريقيا الا في السنوات ١٨٨٠. وفيها كثير من النقص وكثير من المواد المفقودة. فينبغي أن تسد هذه الشغرات بواسطة مصادر أخرى، أهمها وثائق المبشرين ورجال الأعمال والوثائق الخاصة، بقطع النظر طبعاً عن خزائن الوثائق بالعواصم الاوربية.

وبالعكس، فان مزايا الوثائق الافريقية على وثائق الدول المستعمرة السابقة عديدة، أولاً: الوثائق الافريقية تحفظ مواد ووثائق لها صلة أشد مباشرة بالحالة المحلية، بينما تشمل «الوثائق الاستعمارية» خاصة، على وثائق عن سياسة المستعم، والخزائن الافريقية تحفظ غالباً وثائق من فترة ما قبل الاستعمار، كتقارير رواد الاستكشاف الاولين والأخبار التي جمعها مختلف التجار والموظفين في جهات داخلية نائية، ولم تعتبر هذه التقارير جديرة بأن ترسل الى أوروبا، ولكنها ذات أهمية كبرى بالنسبة الى التاريخ المحلي، وتشمل هذه الخزائن على عدد من الوثائق الصادرة عن أفارقة يفوق عددها الموجود في خزائن أوروبا. وبصفة عامة لئن وجد في افريقيا كثرة من الوثائق هي

(١٠٩) أدلة المواد لتاريخ افريقيا الغربية في خزائن الوثائق الاوربية نشرتها جامعة لندن بمطبعة اللون منذ ١٩٦٢ انظر تعليق ١٠٤.

(١١٠) ج. كوفلي ول. جادان ١٩٥٤.

(١١١) نيوبوري ١٩٦٥، ميتكالف ١٩٦٤.

(١١٢) جيليسو كارلو: ايطاليا في افريقيا. السلسلة التاريخية مجلد ١.

(١١٣) للدراسة الوضع قبل الاستقلال انظر فيليب د. كوتن ١٩٦٠، ١٢٩ - ١٤٧.

تكرار لما وجد في أوروبا، فإن الباحث الذي استخدم فقط المصادر الموجودة في الدول المستعمرة القديمة، قد يكون مبالاً إلى كتابة تاريخ المصالح الأوروبية في أفريقيا، أكثر من كتابة تاريخ الأقايق، وبالعكس، فإن استخدام الخرائط الموضوعية في أفريقيا وحدها قد لا يعطي صورة كاملة، إذ قد ينقصها عدد من الوثائق أو من التقارير أو هي قد تكون مبتورة.

وأخيراً يجب أن نذكر بعض الوثائق الأخرى المنتمية إلى هذا الصنف. أولاً الخرائط وسائر المواد الخرائطية، فلأن عدد الخرائط المطبوعة عن أفريقيا ازداد سنة بعد سنة منذ القرن السادس عشر، فإن كثيراً منها مازال محفوظاً في شكل مخطوطات في عدة خزائن للوثائق، وعدة خزانات في أوروبا، بعضها مزركش وملون أجل تلوين.

فمن هذه الخرائط نتمكن غالباً من العثور على أسماء المدن التي اندثرت اليوم، أو التي تعرف باسم آخر، بينما تذكر الأسماء القديمة في مصادر أخرى شفاهية أو مكتوبة. مثلاً أن بعض شعوب البنسو الشرقيين كان لهم عادات الهجرة إنطلاقاً من جهة تدعى شنفوايا، ولا تعرف اليوم مدينة بهذا الاسم، ولكننا نجد مرسوماً على بعض الخرائط القديمة، كخرطة فان لنشوتن (١٥٩٦) أو خريطة وليام بلاو (١٦٦٢) وغيرهما، حيث تظهر شنفوايا بكتابات مختلفة على أنها مدينة، ثم على أنها جهة قريبة من الساحل. وتفيدنا هذه الخرائط القديمة أيضاً بإرشادات عن توزيع المجموعات العرقية، وعن حدود الدول والمقاطعات، وتسمى الانهار بأسماء متباعدة، وكذلك الجبال وسائر العناصر الطبوغرافية، وبالجملة توفر لنا مواد خاصة بأسماء البقاع مفيدة جداً وهي بدورها تفيدنا أخبار «تاريخية» نفيسة. وعرض و. ج. ل. رندلس طريقة عملية لاستغلال المواد الخرائطية لأغراض تاريخية بالنسبة إلى أفريقيا الجنوبية الشرقية في القرن السادس عشر (١١٤) وقد اعترف بصلاحيّة هذه المادة، وبين يدي المؤرخ الكبير الذي وضعه يوسف كمال «المعلمة الخرائطية الإفريقية والمصرية» وبه أيضاً عدد من النصوص السردية في روايتها الأصلية وضمن ترجمات، ولكنه يقف عند القرن السادس عشر (١١٥). فمن الواجب إذن أن نوافق على طلب جوزيف كزي زربو الرامي إلى نشر مجموعة من كل الخرائط القديمة لأفريقيا ضمن أطلس مع نصوص للشرح (١١٦). وثمة خطوة في هذا الاتجاه تمت عندما نشرت أخيراً نحو مائة خريطة في لايبزغ ولكن الشروح ناقصة واستمدت الخرائط كلها من مواد مطبوعة (١١٧).

كما يوجد في المصادر المكتوبة مواد أخرى هي المعطيات اللسانية، وإذا خصص فصل متميز من هذا المجلد للنظر في اللسانية كعلم تاريخي مشارك، فإنا نترك جانباً مسائل المناهجية وننظر نظراً على الإشارات إلى طبيعته المصادر التي يمكن أن يعترف بها على هذه المعطيات اللسانية، ومنذ عهد الاتصالات الأولى في أفريقيا، كان من حسن الذوق أن يضاف إلى أخبار الرحالة الأوروبيين وإلى تقاريرهم المتنوعة قوائم الألفاظ باللغات المحلية، وترجع المعاجم الأولى إلى القرن

(١١٤) و. ج. ل. رندلس ١٩٥٨.

(١١٥) القاهرة ١٩٢٦ - ١٩١٩.

(١١٦) انظر التعليق ص ٣٢.

(١١٧) خرائط أفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن الثامن عشر.

الخامس عشر. وحتى القرن التاسع عشر قلما نجد كتابا عن افريقيا لم يذيل بملحق من هذا النوع مشفع أحيانا بملخص نحوي. وبالرغم من كون الرسم لم يكن دائما منظما، فليس من الصعب ان يوقف على هوية الألفاظ واللغات. وأهم نشرة من هذا الصنف، المجموعة الكبيرة اللغوية الجامعة لسنة ١٦٠ لغة ونشرها كولي (١١٨). وقيمة هذا العمل لا تقتصر على اللسنية كما أظهر ذلك كرتن وفانسينا وهير (١١٩). وكانت مملكة الكونغو القديمة، محظوظة في هذا المجال: فنشرت كتب تتحدث عن الكونغو منذ القرن السابع عشر مثل كتاب نحو بقلم بروشيوطو (١٦٥٩) ومعجم بقلم دي كيل (١٦٥٢) (١٢٠) وعلاوة على هذه المصنفات المطبوعة، يوجد غيرها في مختلف الخزائن والوثائق (الفاتكان، المتحف البريطاني بيزنسون الخ) وقيمتها بالنسبة الى المؤرخ أكبر من قيمة قوائم الألفاظ المجردة اذ هي أكمل، وهي تمكن من الدراسة في أزمنة مختلفة، لمجموعة المصطلحات الاجتماعية والثقافية (١٢١).

ان المصادر السردية أو الوثائقية المكتوبة باللغات الافريقية والشرقية أو الاوربية، تمثل مجموعا ضخما من المواد لتأريخ افريقيا، فهنا كانت الوثائق غزيرة من كل نوع، كالكتب والتقارير المعروفة، فما هي حسب كل احتمال الأجزاء من المواد الموجودة، وسواء في افريقيا أو خارجها، لا بد أنه توجد بقاع عديدة لم تستكشف بعد من وجهة نظر المصادر الممكنة لتأريخ افريقيا. وهذه المناطق التي لم تستكشف هي الآن «لطلحات بيضاء» على خريطة معارفنا لمصادر تاريخ افريقيا. وبقدر ما تزول بسرعة تكون الصورة التي سنعطياها عن الماضي الافريقي أثرى وأغنى.

(١١٨) س. و. كوكال ١٩٦٣.

(١١٩) ب. د. كرتين وج. فانسينا ١٩٦٤، ب. ي. ه. هير ١٩٦٥.

(١٢٠) كتاب نحو بروشيوطو، رومة ١٦٥٩، ج. فان ونغ وس. بندرس: أقدم معجم بنتو معجم ب. جورج جيلنيس لوفان ١٩٢٨.

(١٢١) استعانة د. أ. أولديروج بكتاب تحوير وسيوطو لهذا الغرض، وذلك في مقاله القيم « Sistema rodstva Bakongo v XVII. » Afrikanaskiy etnograficheskij sbornik III. Moscou, 1959; المنشور في:

الفصل السابع

المأثور المنقول ومنهجيته

جان فانسينا

ان الحضارات الافريقية في الصحراء الكبرى وجنوبها كانت الى جانب كبر حضارات كلمة، ولو أن الكتابة كانت معروفة في أفريقيا الغربية منذ القرن السادس عشر، غير أن معرفة الكتابة كانت وقفا على قلة قليلة من الناس، وكثيرا ما بقي دور الكتابات هامشيا بالنسبة الى مشاغل المجتمع. وقد يكون من الخطأ أن تقصر حضارة الكلمة على نبي «انعدام الكتابة» فقط وان يحتفظ بها يديه فطر يا المثقفون من احتقار للأمين، ذلك الاحتقار الذي يلمس في الكثير من العبارات كما في المثل الصيني: «ان أبهى الحبر أحسن من أقوى كلمة» و يكون ذلك إنكارا تاما لطابع هذه الحضارات الشفاهية. ويحكم على ذلك ما كان يقوله طالب منتم لسلوك باطني: «ان قوة الكلمة رهية فهي تقيدنا الواحد بالآخر، وفي افشاء السرها كنا» (وذلك باهلاك المجتمع اذ هي تفقد السر المشترك).

الحضارة الشفاهية

فعلى من أراد استخدام المأثور المنقول، أن يتعمق قبل كل شيء في موقف الحضارات الشفاهية ازاء الخطاب، وهو موقف يخالف تماما موقف الحضارات التي سجلت فيها الكتابة كل الرسائل المهمة. فالمجتمع الشفاهي يعلم الكلام الدارج ولكنه يعلم الخطاب الأساسي، تلك الرسالة التي أورثنا أجدادنا اباها، أي المأثور المنقول. نعم المأثور يحدد بكونه شاهدا سلمه شفاهيا جيل الى جيل. ويكاد يكون «اللفظ» في كل مكان قوة سرية، اذا أن الكلمات تخلق الأشياء، وعلى الأقل ان ذلك هو الموقف السائد في معظم الحضارات الافريقية. ولا شك ان الدوكون قد عبروا عن هذه الاسمية أوضح تعبير، ولكننا نلاحظ دائما في المناسك، ان الاسم هو الشيء وان «القول» هو «الفعل».

وتتضمن صفة الشفاهية موقفا إزاء الواقع وليس إزاء نقصان شيء ما وحسب. فبالنسبة إلى مؤرخ العصور الحاضرة وقد غرق في أكوام البلاغات المكتوبة، فصار مرغما على تطوير تقنية تمكنه من القراءة بسرعة ولوائه لا يبلغ الإدراك الكامل إلا بفضل تكرار المعطيات عنها في العديد من البلاغات، وهكذا فإن المأثورات قد تدخل عليه الحيرة. فهي تقتضي بالعكس، العودة المستمرة إلى المصدر. وولفت الزايري فوكياو النظر فعلا، إلى أنه من السذاجة أن نقرأ نصا شفاهيا مرة أو مرتين وأن نظن أننا فهمناه، بل ينبغي أن نستمع إليه و ينبغي أن نحفظه وأن نستبطنه استبطان القصيدة، وإن نسأله كي يكشف عن معانيه المتعددة، وهذا على الأقل إذا ما كان الخطاب هاما. فعلى المؤرخ إذن أن يتعلم كيف يخفف من السرعة، وكيف يتأمل، ليتوغل خلال تمثيل جماعي أجنبي، إذ أن مجموع المأثورات يشكل ذاكرة جماعية مجتمع يوضح نفسه لنفسه. وقد عبر عدد من العلماء الأفارقة أمثال أهمياتي با أو بوبوهاما عن التفكير تعبيرا بلغيا. وعلى المؤرخ أن يبدأ بالاطلاع على طرق التفكير في المجتمع الشفاهي قبل أن يفسر مأثوراته.

طبيعة المأثور المنقول

يحد المأثور المنقول بكونه شهادة ينقلها شفاهيا جيل إلى جيل من الأجيال التالية. وصفاته الخاصة هي اللفظية والنقل الذي يختلف عن المصادر المكتوبة. ومن الصعب جدا أن نعرف اللفظية، فالوثيقة المكتوبة هي شيء محسوس، هي مخطوط، وأما الوثيقة الشفاهية فقد تحدد بعدة طرق، إذ أن الشاهد قد يوقف شهادته وقد يصلحها وقد يستأنفها الخ. لذا لا بد من بعض الاعتبارية لتحديد الشهادة كمجموعة من كل التصريحات التي صرح بها شخص فيما يخص سلسلة واحدة من الأحداث الماضية، ما لم يحصل الشاهد على معلومات جديدة فيما بين التصريحات. وذلك أنه في هذه الصورة قد يتغير النقل، وقد نجد أنفسنا أمام رواية جديدة، ومن الناس من يعلم روايات تتعلق بسلسلة أحداث مختلفة بأكملها، ولا سيما الاختصاصيون أمثال القصاصين.

ونحن نعلم حالة شخص يروي روايتين مختلفتين في موضوع تطور تاريخي واحد و يقص الرواة الرونديون رواية أولى تذكر أن أول توتوسي، سقط من السماء والتقى بالهوتو على الأرض، وفي آن واحد، رواية ثانية تنص على أن توتوسي، هوتو كانا أخوين، فهذه روايتان متميزتان، ويرويهما شخص واحد، في موضوع واحد، ولهذا أدخلت عبارة «سلسلة واحدة من الأحداث» في تحديد الشهادة.

وأخيرا الكل يعلم قضية الراوي المحلي الذي يقص قصة ملفقة مؤلفة من مختلف الروايات التي يعرفها.

والمأثور رسالة تنقل من جيل إلى الجيل الذي يليه، ليست كل المعطيات الشفاهية مأثورة. فنفرق بين الشهادات الشفاهية والتي تصدر عن شاهد عيان، إذ لها قيمة كبيرة فهي مصدر «مباشر» غير منقول يقل فيه خطر تحريف محتواه، وكل مأثور منقول مقبولا لا بد أن يرجع إلى شاهد عيان، ومن الواجب أيضا، ترك الشائعات التي هي نقل لحبب إلا أن طابعها الخاص هو أنها تعالج «الأصداء» الجارية. ولذا فهي تدعى في يومنا هذا «أذاعة الرصيف»، وبداخلها من التحريف

ما يجعلها لا تصلح إلا للتعبير عن رد الفعل الشعبي إزاء حدث معين. وهي عنها قد تولد تراثاً إذا ما رددتها الأجيال المتتالية، وأخيراً يبقى المأثور الحق الذي ينقل وثيقة إلى الأجيال المقبلة. ويقع منشأ المأثور إما في شهادة العيان أو في الإشاعة أو في خلق جديد انطلاقاً من مختلف النصوص الشفاهية الموجودة، بعد عجنها وتنقيحها قصد خلق خبر جديد. ولكن المأثور المعتمد عن شهادة العيان هو وحده الصالح، وقد أدرك مؤرخو الإسلام ذلك إدراكاً جيداً، فكانوا طريقة مشعبة للتحقق من الحديث الشريف، هذه الأحاديث التي تعلمها عن النبي مجموعة من أصحابه. ويزداد عدد الأحاديث مع الزمن مما يوجب الغاء ما لم يكن في الإمكان إثبات صحة أسناده الواسلة بين العالم الذي سجله كتابة وبين أحد أصحاب النبي. وطور علم التدوين التاريخي الإسلامي بالنسبة إلى كل تواتر معايير الاحتمال والتصديق بشكل يطابق قوانين النقد التاريخي المعاصر. فهل كان في إمكان الشاهد الوسيط أن يعلم المأثور؟ وهل كان في وسعه فهمه؟ وهل كان له فائدة في تحريفه؟ وهل أمكنه نقله؟ ومتى وكيف وأين؟.

ومن الملاحظ أن حد المأثور المعطى هنا لا يتضمن قيوداً سوى اللفظية والنقل الشفاهي. فهو لا يتضمن فحسب البلاغات التي تريد قصداً أن تقص أحداث الماضي، كاليوميات الشفاهية في مملكة ما، أو شجرات الانساب في مجتمع مجزأ، بل هو يشمل كل النصوص الشفاهية المنقولة عملياً ضمن أدب شفاهي بأكمله. وفي الأدب إشارات ثمينة، بقدر ما تكون شهادات غير مقصودة تتعلق بالماضي، وبقدر ما تكون أيضاً مصدراً عظيماً لتاريخ الأفكار والقيم والفن الشفاهي. وأخيراً إن جميع المأثورات هي في آن واحد أثر أدبي ينبغي أن ينظر فيه من هذه الزاوية، كما أنه من اللازم أن تدرس الأوساط الاجتماعية التي أنشأته وسلمته إلى غيرها، والنظرة إلى العالم التي يعبر عنها عن حضارة معينة. لهذا ستعالج الأقسام التالية على الترتيب، النقد الأدبي والنظر في الوسط الاجتماعي، وفي الوسط الحضاري قبل أن تتعرض للمشكل الزمني ولتقوم المأثور تقوياً عاماً.

المأثور، أثر أدبي

إن معظم الأعمال الأدبية هي من المأثورات. وكل المأثورات الواعية هي خطاب شفاهية، وكما هو الأمر في كل خطاب، فإن الشكل والقوانين الأدبية تؤثر في محتوى الخبر، وهذا الموجب الأول لكي يوضع المأثور في الإطار العام للنظر في البنيات الأدبية، وكما ينبغي من هذه الوجهة. وأول مشكل هو مشكل الخبر نفسه، فهناك أربعة أشكال أساسية حاصلة من التآلف العملي بين مبدئين. فأحياناً تحفظ الألفاظ عن ظاهرها قلب وأحياناً يبقى الاختيار للفنان، وفي بعض الأحيان يخضع نحو اللسان البعادي لسلسلة من القواعد الشكلية الخاصة، وأحياناً أخرى لا وجود لهذا الجهاز الاتفاقي.

الأسكال الأساسية للموثرات الشفاهية

المحتوى		
جامد	حر (اختيار الكلمات)	
مقعد	قصيدة	الشكل } حر
سرد	ملحمة	

ولفظ «قصيدة» ماهو الا علامة تدل على جميع المعطيات المحفوظة عن ظهر قلب، المخصصة ببنية متميزة، ويشمل الأغاني.

ولفظ «عبارة» تسمية تشمل غالبا الأمثال والأحاجي والأدعية وقوائم الميراث، أي كل ما يحفظ عن ظهر قلب ولكنه ليس خاضعا لقواعد تركيب خاصة، غير قواعد النحو العادي.

وفي كلا الحالتين فالموثرات لا تشمل الخبر بعفوه، بل تتضمن أيضا الكلمات التي صلحت لحمله. ففي الامكان اذن نظريا أن يعاد بناء النموذج أصلي، بالفعل كما يمكن ذلك في المصادر المكتوبة. اذ يمكن بناء قياسات تاريخية، على الكلمات وليس على المعنى العام للخبر فقط. وقد تتعذر بالنسبة الى العبارات وبصفة أقل، بالنسبة الى القصائد، إعادة بناء النموذج، اذ ان الاستكالات تكون متعددة جدا، مثلا اذا ما تعرفنا أن شعار «قبيلة» نشأ عن سلسلة اقتباسات من شعارات أخرى دون أن نتسكن من فرز ما كان يتركب منه النص الأصلي المتميز. وفي الحقيقة يبقى واضحا لماذا يكون الاستكمال سهلا في العبارات، اذ لا قاعدة تحدد هذا العمل.

وبالمقابل فان المصادر الجامدة مبدئيا هي أكثر أهمية، اذ هي أدق من ناحية النقل. وعمليا فإن عدد هذه المصادر التي تقوم بنقل المعطيات التاريخية بأمانة عدد قليل. وبالطبع نجد هنا ألفاظا قديمة لا تفسر أحيانا. وقد نبر على مدلوها في صورة لغات البنتو، ذلك لأن الفرص كبيرة، تلك التي توفرها لغة مجاورة تحتفظ بلفظ، جذره عين جذر اللفظ القديم المدروس. وفيما عدا ذلك نضطر الى الأخذ بشرح الرواية الذي يكون نقل شرحا تقليديا... أو يكون استنبطه، ومن المقلق أكثر من ذلك أن يختلط هذا النوع من النصوص بتلميحات شعرية وبتشابه غامضة وبنكت تتحمل معاني متعددة. فلا يمكن أن يفهم النص المستقل بدون شرح، بل أكثر من ذلك، في غالب الأحيان، فان صاحبه وحده هو الذي يكون ملما بكل دقائقه. ثم أنه لا ينقل كل شيء من الشرح المفسر للنص بكيفية تفاوتات صلاحية، وقد ينقل في آن واحد مع القصيدة نفسها.

وهذه الخاصية منتشرة جدا، ولا سببا بالنسبة للقصائد أو الأغاني المدحية الافريقية الجنوبية (تسوانا، سوتو) والافريقية الشرقية (منطقة ما بين البحيرات) والافريقية الوسطية (لوبا كنفو) أو الافريقية الغربية (اليجو).

ولفظ «ملحمة» تسمية، مدلوها أنه داخل اطار مفروض من القواعد الشكلية كالقوافي، والأنماط التابعة للمقام ولطول المقاطع الخ، يحتفظ الفنان لنفسه باختيار ألفاظه. ولا ينبغي أن يختلط هذا بالقطع الأدبية ذات الاسلوب الحماسي الطويلة المدى، كأخبار سندجاتا ومريندو

(الزايين) وغيرهما كثير. ففي الغرض المقصود هنا يشمل الأثر، علاوة على الخبر، الاطار الشكلي لاغير، على أنه أحياناً توجد في أبيات متميزة على سبيل الحشو أو لتذكير الفنان بالاطار والقالب الشكلي. ومن المحتمل أن بعض هذه الأبيات تعود الى عهد انشاء الملحمة، فهل توجد ملاحم من هذا النوع في افرى يقيماً؟ اننا نرى الجواب بالايجاب ونظن أن بعض الأغراض الشعرية بروندا على الخصوص، تدخل في هذا الصنف، وكذلك منشدو الأمثال الفصح (كامرون - غليون)، ثم اننا نلاحظ أنه نظراً لكون اختيار الالفاظ باقياً حراً، فليس في الامكان أن يعاد بناء النموذج حقيقياً هذه الملاحم. ولكننا نضيف في الحال، أن متطلبات الشكل تكمن في احتمال أن يرجع قالب «الملحمة» الى أصل وحيد. وتدل على ذلك في الغالب دراسة الروايات المختلفة.

بقيت «الروايات» وهي تشمل غالب الوقت أخباراً تاريخية واعية. ان الحرية المتروكة هنا للفنان تمكنه من عدد من التاليفات، ومن التنقيحات المتعددة، ومن إعادة تنظيم المشاهد ومن التمديد في الأوصاف وتحليل المواضيع الخ. ويكون اذن من الصعب أن يعاد بناء النموذج. فحرية الفنان كاملة، لكن من وجهة النظر الأدبية فقط: وقد يفرض عليه الوسط الاجتماعي أحياناً أمانة قاسية ازاء المصادر. وزعم العوائق المذكورة فانه في الامكان أن يكشف عن الاصل المجهن للتراث، يجمع كل رواياته بما فيها مملاً لا يعتبر تاريخياً وبالجملة الى روايات صادرة عن الشعوب المجاورة. وقد ننزل هكذا دون أن نشعر من الأمر التاريخي الى العجيب، ولكننا نتوصل أيضاً الى حذف سلسلة من الروايات الشفاهية التي لا يرجع فيها الى شاهد عيان. وهذا نقد أساسي لا بد من تطبيقه.

وكل أدب شفاهي له تقسيمه الخاص الى أغراض أدبية، فالمؤرخ يعني بالتعرف ليس فقط على ما تمثل هذه الأغراض بالنسبة للحضارة المدروسة، بل على الأقل سيجعم عينة ممثلة لكل منها، اذ من المتوقع في الأغراض أن توجد معطيات تاريخية، وما يهتم به بصفة خاصة من المأثورات يكون أقرب لفهم في الاطار العام. ويأتي التصنيف الداخلي بإرشادات نفسية. وسوف يكشف هل ان مروجي هذه النصوص يقيمون حداً، مثلاً بين الأخبار التاريخية وغيرها.

وأخيراً ان الأغراض الأدبية خاضعة لمواضع أدبية ينبغي الاطلاع عليها كي يفهم معنى النص الحق، وليس الأمر هنا القواعد الشكلية، بل اختيار الالفاظ والعبارات والسوابق الغير المألوفة ومختلف الاجازات الشعرية. وينبغي أن يلفت النظر بخاصة الى الالفاظ أو العبارات ذات الاصداغ المتعددة، ثم ان الالفاظ «المفاتيح» المرتبطة أوثق الارتباط بالبنية الاجتماعية وبتصور العالم وهي عملياً لا تقبل الترجمة، يجب تأويلها من خلال شبكة السياق الادبي الذي تظهر فيه.

وليس في الامكان أن نجعم كل شيء، فالمؤرخ يضطر الى قبول المتطلبات العملية وسيقتدي بها — مع كامل الوعي بذلك — اذا ما حصل على عينة تعبر عن الأغراض الأدبية.

وفيما يخص المرويات فان قائمة بأصناف المرويات التابعة للجنس المدروس أو لغيره، هي وحدها الكفيلة بالكشف عن التشابه أو العبارات المحببة. بل أيضاً عن المشاهد الحجرية مثلاً في العلاقات التي يمكن أن توصف «بالخازفات الهجرية» (واندرساغن). وثمة رواية من لوبا على ضفاف بحيرة طنقانيكا تصف كيف تخلص بعض الامراء من آخر باستدعائه الى الجلوس على حصير قد حفر من تحته بثراً غرست فيها أوتاد مدببة، فجلس الضيف ولقي حتفه. و يوجد عين السيناريو في

مناطق البحيرات العظام حتى المحيط، بل أيضا حتى لدى الفلانيين من لبثاكو (فولطا العليا) كما لدى الهوسا (نيجيريا) والموسي في ياطنغا (فولطا العليا). وقيمة هذه الصور الرواسم واضحة. ومن سوء الحظ أنه ليس لدينا أي مرجع في موضوعها، ولأن هـ. بومان يبدن بارشادات عن سلسلة من الرواسم المتعلقة «بالاصول» (١) و يبدو لنا من الضروري اعداد فهراس عملية للبحث عن هذه الصورالمتحجرة. فقهارس الأغراض الشعبية صعبة الاستعمال، غامضة لأنها تعتمد على أوصاف صغيرة اختيرت اعتباطا، بينما يمثل المشهد في المرويات الافريقية وحدة طبيعية في مصنف ما.

فاذا وجدنا روسيا من هذا النوع، فليس من الحق أن يرمي بكل الأثر أو حتى بالجزء الذي وجدت فيه هذه اللقطة على أنه غير صالح، بل يجب أن يفسر لماذا استعمل هذا الروسم، والمثال المذكور يوضح فقط أن رئيسا ما تخلص من رئيسا آخر، ولكنه يضيف شرحا أصطناعيا يروق للمستمعين. وسيلاحظ في الغالب أن هذا النوع من الرواسم يدعم تفاسير وشروحا على معطيات قد تكون صالحة.

والنقد الأدبي بمعناه الصحيح لا يتم بالمعاني اللفظية والمعاني التي يقصدها الأثر فحسب، بل كذلك بالضغوط المفروضة على عبارة الخبر بسبب المتطلبات الشكلية والاسلوبية. وهو سيقوم اثر التحريف الجمالي، ان كان موجودا، وهذا ما يحصل غالبا. وفي الواقع حتى رسائل الماضي يجب أن لا تكون شديدة الازعاج. وهنا تكتسي ملاحظة التمثيلات الاجتماعية الخاصة بالمأثور أهمية أساسية. ونحن نقول «تمثيلات» لا «نسخا» إذ في معظم الحالات يلعب العنصر الجمالي دورا. فاذا ما تفوقت العلامات الجمالية، على أمانة النسخ ينتج عن ذلك تحريف جمالي عميق يعكس ذوق الجمهور وفن الأديب التقليدي. وحتى في غير ذلك من الحالات فاننا نجد غالبا اصلاحات للنصوص تصل الى إكساء المأثورات ذات المحتوى التاريخي المدقق، كسوة القوانين الفنية الجاري بها العمل.

في المرويات مثلا يرتب العقدة الأساسية سلسلة من المشاهد توصل الى القمة، بينما يمثل غيرها اعدادات موازية، ومع ذلك فان غيرها أيضا ما هو الا معابر ينتقل الخبر فيها من درجة الى أخرى. وبصفة عامة يمكن أن نقبل أنه كلما اقترب نص من النموذج المتوقع الرائق للجمهور كلما ازداد انحرافا. ومن بين سلسلة من الرويات، فان الرواية الصحيحة تتميز بكونها تسير على عكس الانموذج، كما أن الرواية التي تنافض الوظيفة الاجتماعية للمأثور من المحتمل أن تكون أصح من غيرها. ولا ننسى هنا أنه ليس كل فناني الكلام جديين. فمنهم من هوسيء وسيكون نصيب روايته دائما الخيبة. ولكن موقف الجمهور وهو في هذا كتركيب تمثيلية ليس حدثا فنيا فقط بل هو قبل كل شيء حدث اجتماعي، وهذا ما يفرض علينا أن نعتبر المأثور في وسطه الاجتماعي.

الاطار الاجتماعي للمأثور

ان كل ما يراه المجتمع مهما لحسن سير منظّماته ولنظمه الأوضاع الاجتماعية والوظائف المنوطة بها تفهها حسنا، ولحقوق كل شخص وواجباته، كل ذلك ينقل باتقان. في المجتمع الشفاهي يتم ذلك بالرواية، بينما في المجتمع الكاتب لا يترك للرواية سوى الذكريات الأقل أهمية. وهذا ما أوقع طوبلا المؤرخين في الخطأ، اذ ظنوا أن الروايات ضرب من حكايات بيرو ومن أناشيد تنوم الأطفال أو الألعاب الصبائية.

لكل مؤسسة اجتماعية ولكل مجموعة اجتماعية أيضا هوية خاصة يتبعها ماض مسجل في التمثيلات الجماعية لتقليد يفسرها و يبررها. ولهذا يكون لكل مأثور «سطحه الاجتماعي» حسب تعبير ه. مونيز. فلولو سطحه الاجتماعي لا تقطع المأثور عن الانتقال، وأصبح غير ذي وظيفة، فيفقد مبرر وجوده وتهمله المؤسسة التي تشده.

وقد يميل إلى اتباع بعض ممن ظنوا أنه في الامكان أن يتكهن بلامح الجمهور من خلال المأثور التاريخي لمجتمع معطى، انطلاقا من تصنيف الجماعات إلى أنماط، أمثال «دول» «مجموعات فوضوية» الخ. فذّن صبح أنه يمكن تصنيف سلسلة المجتمعات الأفريقية تصنيفا تقريبا إلى أنماط من هذا النوع، فليس من الصعب أن يبرهن أن هذه النموذجية في وسعها أن تتابع إلى الما نهاية، اذ يختلف كل مجتمع عن غيره، عدا أن المعايير المستعملة هي اعتبارية محددة. فلا وجود لدولتين متطابقتين أو حتى متشابهتين بالتفصيل. وتوجد فروق عظيمة بين الخطوط العظمى لتنظيم مجتمعات مساي (كينيا - تنزانيا) وإمبو (كينيا) وورو (كينيا) وكالا (كينيا - إثيوبيا) ولو أنه في وسعنا أن نصنفها جميعا كمجتمعات «ذات فئات أعمار» وهي كائنة في جزء واحد من أفريقيا. وان أردنا أن نتخذ كمثال مجتمعا منعوتا «بالفوضوي البسيط» يشتمل على جماهير صغيرة ترتبط بقرابات متعددة، فقد يكون مجتمع الكورو (ساح العاج) مثلا حسنا لذلك. وتوقع هنا «ملاح» للمأثور لا تحتفظ الا بتوارخ الانساب والأجيال، ونجد فعلا تلك التوارخ. ولكننا نجد أيضا تارخا باطنيا ينقله مجتمع سري. ولئن أخذنا مثال الكونكا الطونكا بزامبيا، فاننا نجد من جديد تارخ النسب، ولكن في الوقت نفسه نجد تارخ مراكز المناسك التي يحركها «الممطرون». فما من مجتمع من هذا الصنف لا توجد فيه مؤسسة رئيسية «غير متوقفة»، والمثال النهائي للدول، هو مثال مملكة باتيكي (طيبو)، حيث لا ترجع التقاليد الملكية إلى أكثر من جيلين، بينما يفترض أن تكون للمالك تقاليد قديمة جدا. ثم اننا ونحن نجتمع المأثورات من الرموز السحرية للاسياد. نطلع بعيدا في الزمن أكثر ما نطلع إذا نحن تبعنا الرموز المتعلقة بالرمز الملكي.

والتمعيمات السريعة ليست في محلها. وانما تعين لاحقا «ملاح» مجموع المأثورات المعطاة. ومن الواضح أن ما تقوم به المأثورات من وظائف تعمل على تحريفها، ولو أنه ليس في الامكان أن يوضع سجل كامل للوظائف، اذ أن مأثورا ما في امكانه أن يقوم بعدة وظائف، وأن يلعب دورا مدققا أو غامضا بالنسبة لما يقوم به من وظائف. ولكن السبب الرئيسي هو أن لفظ وظيفة فيه لبس، فيستعمل في غالب الأحيان للتعبير عن كل ما شأنه أن يقوي المؤسسة التي يتبعها أو أن يحافظ عليها. ونظرا لكون الرابط غير محسوس، فقد يوفر الخيال قائمة الاختيار بينها. على أنه في الامكان أن يميز بعض المأثور وذلك «كالمواثيق الاسطورية» تلك التوارخ الخاصة بعائلات الملوك

والانساب وقوائم الملوك التي يمكن اعتبارها حقاً، كدساتير غير مكتوبة. ويمكن إفساح هذا الصنف بأن يضم إليها كل المأثورات المتعلقة بالأغراض القضائية العامة، كالذي يعمم الحقوق العامة على نطاقات. وهو عادة مأثور رسمي، بمعنى أنه يدعي الصلاحية المطلقة للمجتمع. وأما المأثورات الخاصة المقترنة بمجهور أو بمؤسسات تنضوي تحت غيرها، فقد تحفظ حفظاً أقل، إذ هي أقل قيمة، ولكنها غالباً أصدق من سواها. على أنه يجدر أن يشار إلى أن المأثور الخاص هو رسمي بالنسبة إلى الجمهور الذي ينقله، فثار يخ أسرة من الأسر تاريخ خاص بالنسبة لتاريخ الدولة كلها، وما من شأنه أن يتضمن أموراً عن الدولة لا يقبل المراقبة من الدولة بقدر ما يقبله المأثور العام الرسمي. ولكن المأثور الخاص يكون رسمياً داخل الأسرة، وفي كل ما يخص الأسرة ينبغي أن يمارس هكذا. فمن المفهوم إذن أنه ليس مفيداً أن يستعمل المأثور العائلي أو المحلي لتوضيح نقط من التاريخ السياسي العام. وشهادته من شأنها أن تحرف أقل من غيرها فتتمكن من مراقبة التصريحات التي ينص عليها المأثور الرسمي مراقبة ناجعة. وبالعكس فلأن الأمر بهم «تحت مجموعات» فإن عمق نقله والعناية به كثيراً ما يكونان غير مرضيين، كما تدل على ذلك روايات متعددة.

ومن الوظائف الأخرى المتداولة نذكر باختصار الوظائف الدينية والطقسية (كيفية القيام بالشعائر) والوظائف القضائية الخاصة (السوابق)، والوظائف الجمالية والتعليمية والتاريخية، ووظيفة شرح نص سري، وما يسميه علماء الأنثرو بولوجيا بالوظيفة الأسطورية.

فاذا ما وضعنا الوظائف في جهة والغرض الأدبي في جهة أخرى، أمكننا أن نكون للمؤرخ نموذجية صالحة تجعله قادراً على القيام بتقوم عام للتحريفات المحتملة التي تحملها مصادره، مع إعطائه إرشادات عن نقلها. وإذا ما اقتصرنا على النماذج التي أنتجها هذا التصنيف، فبوسعنا أن نغير الأسماء والالقباب والشعارات أو الرموز والعبارات التقليدية والعبارات التعليمية (الأمثال) وقوائم أسماء المكان وأسماء الأشخاص والانساب الخ. وفي كل ذلك فإن الأمر يتعلق «بعبارات» ينظر إليها من خلال الشكل الأساسي. فالقصائد التاريخية والمدائح والأشعار الدينية أو أشعار المناسبات الإبهالية أو الشخصية (الغنائية أو غيرها) والأغاني من كل الأنماط (لتنويم الأطفال، وأغاني الشغل، والصيدادين والقذافين، الخ...) كل ذلك «قصائد» من وجهة النظر هذه. و«الملحمة» كشكل أساسي تتمثل في بعض القصائد التي تقابل ما يسمى عادة بهذا الاسم. وأخيراً تشمل «القصة السردية» الأخبار العامة التاريخية أولاً، والأحداث المحلية والعائلية والملحمة والباحثة عن أسباب الأمراض والجمالية والذكرات الشخصية. ويضاف إلى ذلك هنا السوابق القانونية التي قلما تنقل بواسطة الرواية الشفاهية، وشرح النصوص والذكرات والأحداث العرفية، وهي أساساً أجوبة مختصرة عن أسئلة كهذه: كيف توصلنا إلى زراعة القطن في؟ من أين أتى قناع الرقص؟ الخ...

من القائمة السابقة نشاهد في الحال ما يمكن أن يكون العمل المحرف لمؤسسة من المؤسسات على كل هذه النماذج. على أنه يجب أيضاً أن يبين أن هذا العمل تم بالفعل أو أن احتمال التحريف فيه قوي جداً. وقد نصل أحياناً إلى أن نظهر مأثوراتنا صالحة حقاً لكونها لا تخضع للتحريف المتوقع — مثلاً، هذا شعب يدعي «أصغر» من آخر، أو أن يومية ملكية تفرهزمة، أو تلك العبارة التي من شأنها أن تفسر الجغرافيا الطبيعية والبشرية لبلد ما لم تعد تنطبق على الواقع الحاضر. ففي كل هذه

الحالات يبين التحليل صلاحية الأثر لكونه قائم عملية التسوية.

زعم كودي وواط في كتابها الخاص بظاهرة الكتابة، أن المجتمع الشفاهي يقوم دائما وتلقائيا بعملية انضباط ذاتي تمحو من الذاكرة الجماعية — ومن ثم عبارة سهوبينيوي — كل تناقض بين المأثور وبين سطحه الاجتماعي، وتدل الأمثلة السابقة على أن هذا الانضباط ما هو الا جزئي، ولذا لا يمكن أن نرفض رفضا اجماليا قيمة المأثورات التاريخية بدعوى أنها تخدم بعض الوظائف، ويتبع ذلك أيضا أنه من الواجب أن يُجرى نقد اجتماعي دقيق لكل أثر من المأثورات.

و يزعم هذان المصنفان في عين الكتاب أن ثقافة المجتمع الشفاهي متجانسة، أي أن محتوى المعلومات في مخ كل مراهق هي ذاتها تقريبا. وليس ذلك صحيحا تمام الصحة، فالاختصاصيون الصناع والسياسيون ورجال الدين يعلمون عدة أشياء لا يعلمها معاصروهم من بين جنسهم، ولكل جنس مفكره، فلدى الكوبا (زاير) مثلا، وجدنا ثلاثة أشخاص انطلقوا من نظام واحد من الرموز، فبلغوا ثلاث فلسفات متباينة، ونظن أن الأمر هو ذاته عند الدوكون. وفيما يخص التراث فاننا نلاحظ في عدد كبير من الجماعات وجود تراث باطني سري من نصيب جماعة صغيرة، في نفس الوقت عدا تراثا باطنيا عموميا. فأسرة أشنتي المالكة مثلا كانت تعرف خيرا سريا عن أصلها، بينما لم يكن في متناول الجمهور العظيم الا الرواية العامة. وفي رواندا كان الاختصاصيون بإيرو وحدهم يعلمون شعائر الملك، ومع ذلك كان من اللازم أن يلتصقوا جميعا لتكون معرفتهم كاملة، إذ لم يكن بين يدي كل جماعة بإيرو الا جزء منها. وفي معظم الحفلات التذكارية التاريخية في نيجيريا كما في معظم تقاليد الملوك في أفريقيا، توجد أعمال وتقاليد سرية. فهل يعني ذلك أن المأثور السري هو حتما أصح من المأثور الظاهر؟ إن الأمر تابع للسياق، فقد يحرف المأثور السري نفسه لأسباب قاهرة خصوصا وإن الهبة التي يدها السرجاعة أساسية في المجتمع. ولنلاحظ هنا أننا بالتجربة لا نعرف الا القليل من المأثور الباطني، إذ أن النظام القديم الذي تمتد فيه جذوره لم ينقرض تماما. وما نعرفه منه منشؤه المجتمعات التي انقلبت حتى أعماقها. ولا شك أن الكثير من هذا المأثور سيضمحل دون أن يشمك المؤرخ من جمعه. ولكننا انطلاقا من التنف التي بين أيدينا نستطيع مع ذلك أن نؤكد أن بعض المأثور الأوكبوني من بلاد ياروبا قد حُرف الى حد أنه لم يعد يُؤلف خبرا صالحا عن أصول الأوكبوني، بينما يبدو البايرو مثلا أكثر صلاحية، وليس منشأ ذلك طابعه الباطني بل هدف هذه المأثورات، فالأول يبرر سلطانا قويا في يد جماعة صغيرة من الناس، والثاني ما هو الا حفظ شعائر عملية داخل الذاكرة.

ولكل مأثور سطحه الاجتماعي. فللحصول على المأثور التابع له والنظر في قيمة نقله، ينبغي للمؤرخ أن يعرف الى أقصى حد ممكن هذا المجتمع. فعليه أن يفحص مؤسساته كلها للوقوف على المأثور، تماما كما يفحص كل الأغراض الأدبية كي يكشف فيها المعطيات التاريخية. ففي يد الجمهور المسير للمجتمع المأثور الرسمي، وغالبا ما يتم نقله بواسطة إخصائين يستعملون طرقا مقربة للذاكرة (غالبا الغناء) ليتذكروا نصوصا، عليهم حفظها. ويراقهم أحيانا زملاء لهم عند تلاوتها في مجلس خاص، وعند التباري بين العموم أثناء احتفال عظيم. ولكن الاختصاصيين ليسوا دائما متقدين

بالسلطة، وكذلك الشأن بالنسبة لعلماء الأنساب وطبائى الرؤساء أو الملوك وحراس القبور (٢) وكهنة المعتقدات القومية. و يوجد أيضا إخصائون من مستويات أخرى. فعند الكسونا (افريقيا الجنوبية) وجد نسوة إخصائيات في فن التمثيل للاخبار المسلية تنسوي — وبجوارهن نسوة أخريات يحسن هذا التمثيل أيضا ولكنهن لم يجعلن منه اختصاصا. وهذا الأمر متداول في الحفلات الشعبية، وأحيانا يكون بعض القائلين بالأعمال الدينية من الإخصائين في المآثور المنقول: فحراس مهندوروشونا (روديسيا) مثلا يعرفون تاريخ الارواح التي انتدبوا لحراسها. وأخيرا فان بعضهم من رواة الشعر كالسحرة يجمعون المآثورات من كل المستويات ويثولون النصوص الاصطلاحية أما مستمعين مناسبين في ظرف معين: عرس، موت، حفل عند الرئيس الخ. وقلما توجد صورة لا اختصاص فيها حتى في مستوى تاريخ الأراضي او الاسرة، فهناك دائما أفراد من مستوى عال اجتماعيا (مثلا الأيشتكا نثاني في البدرندي في مسائل الأرض)، او ممن له مواهب أحسن يترك لهم السهر على حفظ المآثور وعمل نقله. وفي النهاية هناك صنف أخير من الناس أحسن علما (ولا تجرؤ على استعمال لفظ إخصائين) هو صنف الذين يسكنون بجوار المواقع التاريخية الهامة. فهنا الحياة وسط المنظر نفسه الذي شاهد معركة مثلا تكون وسيلة لادخار التراث في الذاكرة.

فتفحص السطوح الاجتماعية، يمكن من الكشف عن المآثور الموجود ومن وضعه في سياقه، ومن إيجاد الإخصائين الذين ينقلونه، ومن النظر في نقله. كما يمكن من العثور على اشارات نفيسة عن تردد التمثيلات نفسها وشكلها. ان التردد معيار صدق النقل، فعند الدوكون (ما لي) لا تنقل مناسك السيجي إلا مرة كل ستين سنة تقريبا. وهذا مما يساعد على النسيان، وقلما شاهد انسان مرتين السيجي وفهم هويته، المرة الأولى حتى يتمكن من مسابقة الثانية، ولا يتمكن من ذلك إلا أشخاص عاشوا ٧٥ سنة على الأقل، ومن المفروض أن محتوى السيجي وما يليق من تعليم، يتغير تغيرا أشد من أي شكل من أشكال المآثور، ومثال ذلك شكل حفل سنوي في نيجيريا الجنوبية.

ومن جهة أخرى فان تكريرا كبيرا لتقليدية لا يعنى بالضرورة ان صدق النقل كان كبيرا أيضا. فهذا يتبع المجتمع. فإذا كان المجتمع يتصف بصدق دقيق جدا، فان التكرار يساعد عليه، وذلك الشأن في العبارات السحرية كذلك التي يتفوه بها لدفع السحر مثلا. فبعض العبارات مبهون (زايين) لطرد المطر تحمل في اطار جغرافي عتيق جدا، بحيث لا وجود الآن لاي عنصر يذكر فيها في بلاد مبهون الحالي. وبالعكس اذا كان المجتمع لا يعبرأي أهمية لصدق النقل، فتكرار التمثيل الكبير يفسد النقل بكيفية أسرع من التكرار الصغير. وهذه حال الأغاني الدارجة وبخاصة الروايات الشعبية الأكثر وضوحا، على أنه يمكن، بل يجب أن يراقب كل ذلك بدراسة الروايات المجموعة، و يكون مداها قياسا مباشرا لصدق النقل.

و يسدو أن التغيرات تقع دائما في اتجاه يقوى الارتباط بين المؤسسة والأثر الذي يتبعها. وهكذا فان كودي وواط لم يكونا عظمئين تماما، فإذا ما وجدت روايات واذا ما اصطفت على محور معين، فلسوف نستنتج ما كان منها أقل تنسيقا مع الهدف، ومع وظائف المؤسسة الأكثر صلاحية. ثم إنه قد

(٢) عل أنه في بعض البلدان يثل هؤلاء جزءا لا يتجزأ من الفئة المسيرة، مثلا فيا بعض البند — نابا (رئيس الطبول) عند الموسي.

يدل على أن أثرا ما غير صالح، سواء في حال ما اذا فقدت الروايات، وما اذا صار الأثر محجرا من نوع «أتينا كلنا من (س)» وان (س) موافق تماما لحاجيات المجتمع أو في حال تباين الروايات تبائنا، كما في الأخبار الشعبية، بحيث نكاد لا نتعرف على ما يتكون منه الأثر وما يميزه على غيره. فيصير من الواضح اذاك أن معظم الروايات هي من صنع يتفاوت جودة، عن أخبار شعبية أخرى. ولكنه في كلتا هاتين الحالتين القصويين يجب التمكن من البرهنة على أن فقدان الروايات يقابل حقا معلمات قوية للمجتمع، كما أن تكاثر الروايات يقابل حقا أغراضا جمالية أو تسليات تحمل عمل كل اعتبار آخر. ويقتضي أن تتمكن من البرهنة، على أن مصادرات الحضارة غير الواعية هي التي عملت على تجانس الأثر الى حد تحجيره في رسوم لا تنوع فيه. وهذا هو فعلا تأثير الحضارة الذي يجب النظر فيه الآن بعد قيامنا بالنقد الاجتماعي.

الاطار الذهني للأثر

نعني بالاطار الذهني التمثيلات الجماعية اللاواعية لحضارة ما والتي تؤثر في كل عباراتها وتكون في آن واحد نظرتها للعالم. ويختلف هذا الاطار الذهني من مجتمع الى آخر، وعلى مستوى سطحي فالتا نجد بسهولة جزءا من هذا المجموع، ونحن نتفحص محتوى المأثورات بأكملها، بواسطة النقد الأدبي الدراسي، ومقارنة هذا المجموع بسائر مظاهر الحضارة ولاسيما الرمزية منها. فالأثر، وبخاصة عندما يكون بصورة قصيدة أو قصة، يرتفع الى المثالية، وهو يخلق صوراً مثالية. ويميل كل تاريخ الى أن يصير غوذاً وبالتالي أسطورة. مناء أكان محتواه «حقاً» أم لا. وهكذا نجد أنماطاً من السلوكات المثالية وقيماً، وليس من الصعب كثيراً أن نكتشف أن في التراث الملكي يصير الأفراد محجورين كما في أشرطة الستران؛ فهذا الملك «الساحر» وذاك السلطان «العدل» وذاك «بطل الحرب»؛ وفي هذا ما يحرف المعطيات اذ قد تنسب سلسلة من الحروب مثلاً الى ملك محارب بينما تمت معاركها في الواقع على يد غيره، ثم ان كافة الملوك يشتركون في سمات تعكس فكرة الملكية المثالية، وليس من الصعب أيضاً أن نجد تحجيروا لشخصيات مختلفة، ولا سيما الزعماء، في مجتمعات أخرى. وذاك مثل «البطل الشقافي» الذي يحول الفوضى الى نظام اجتماعي والذي نلقاه في كل مكان. وتحجير الفوضى يتمثل حينئذ في وصف عالم القلب بالضبط رأساً على عقب. فعند الايجالا (نيجيريا) ان بعض المنشئين صيادون والبعض الآخر من سلالة الملوك. فيمثل البعض الأول انموذج الوضع المكتمل، ويمثل الثاني الوضع الوراثي، وقد يفسر (التأمل وجود الوضعين وهو يوحي كما لاحظنا أن التحجير الأول يحجب المجموع الجديدة عن السلطة وان التحجير ين يعكسان وضعين تاريخيين متباينين حقا.

ولكن الشرح المرضي حقا يجب أن يعيد الى استنباط كل نظام القيم والأشئلة المرتبطة بأوضاع وأدوار هي قواعد كل عمل اجتماعي وكل نظام عام. وكان من اللازم أن تنتظر السنوات الأخيرة كي يجد ماك كافي لدى أهل الكنتو (زاير/الجمهورية الشعبية الكونغولية) نظاماً متحجراً بسيطاً يعتمد أربعة أنظمة مثالية: الساحر والكاهن والرئيس والني، وهي أوضاع تكاملية، والتعرف على أن قيمة عامة هي إيجابية أو سلبية أمر يسر، وتذوق الكرم ورفض الحسد على أنه علامة سحر ووظيفة القدر، كل تلك قيم تشاهد مباشرة في تقاليد خليج البنين، كما في البلدان الواقعة بين البحيرات

أيضا. ولكن القيم تكشف واحدة واحدة كنظام منسجم يشمل كل التمثيلات الجماعية: إذ أن القيم والمثاليات لا تصف الا مثلا للسلوك الأفضل، أو أحيانا السلوك الواقعي الصلف، ومن شأنها أن تهدي السلوك الواقعي، وما يترجم من كل فرد من الأدوار... والأدوار مرتبطة بالأوضاع وهي ترتبط بالمؤسسات والكل يكون المجتمع. وهكذا فنظريا يجب أن «يفكك» المجتمع للوقوف على أنماط عمله وعلى مثله وقيمه. و يقوم المؤرخ بذلك غالبا دون أن يشعر وبكيفية سطحية، وهو يتجنب ما اتضح من الافخاخ ولكنه يعود بسهولة دون أن يعلم، الى المقدمات التي يفرضها النظام بأكمله. ولا يوفق في «قلع» مصادره من وسطها. ونحن نعلم ذلك جيدا إذ قضينا ثمانية عشر عاما في الكشف عن علاقات من هذا النوع، في تحوير الماثورات التي أصلها قبيلة كوبا بالزايير.

ومن التمثيلات الجماعية التي تؤثر أكبر تأثير على الماثورات نذكر خاصة سلسلة من المقولات الأساسية تستند على تجربة الحواس وهي مقولات الزمان والمكان والحقيقة التاريخية والسببية. ويوجد غيرها كمثل تقسيم الطيف الى ألوان، وهي أقل قيمة، وكل شعب يقسم المدة الى وحدات، اما استنادا الى النشاط البشري المرتبط بعلم البيئة، أو الى النشاط الاجتماعي المستقراً (الزمان البنوي) وكلا الشكليين من الزمان استعمل في كل مكان، كالفصل بين اليوم والليل، وتقسم اليوم الى أجزاء تقابل الشغل أو الوجبات الغذائية، وجعل النشاط مرتبط بارتفاع الشمس كما أخذت أصوات بعض الحيوانات لتقسيم ساعات الليل الخ.

ويحدد عادة الشهر (القمري) بالبيئة وما يتبعها من نشاط، وكذلك الفصول والسنة. وفيما بعد ذلك يصير من اللازم أن يتم العد بواسطة الوحدات البنوية للزمان، وفيما أقل من ذلك يحدد الاسبوع بالتواتر الاجتماعي، بسيردورية الأسواق وهي تقرر كذلك بدورية دينية في الكثير من الحالات.

وفيما وراء السنة يكون العد بتلقين ديني، أو ببطاقات العمر أو بدة الملك أو بالجيل. وفي التاريخ العائلي قد تتبع الولادات وقد يستعمل يقوم بيولوجي، وبصفة مهمة قد يتم الرجوع الى أحداث استثنائية كالمجاعات الكبرى والجوائح الحيوانية أو الأوبئة المشهودة، أو ذوات الذنب أو لاجتياحات الجراد، وبالمطبع ان هذا التقويم المبني على الكوارث ليس منتظما في مسيرته، ولأول وهلة قد تبدو قليلة الفائدة بالنسبة الى التأريخ، بينما يلوح أن الأحداث المستقرة تعد بإمكانية تحويل التأريخ النسبي الى تأريخ مطلق، اذا ما علم تكرار الأجيال وأصناف العمر ومدد الملك الخ...

والمسحق الأقصى للزمان الذي وجدته من جديد الذاكرة الاجتماعية يتبع مباشرة المؤسسة المرتبطة بالماثور، فكل منها عهقه الزماني الخاص، ولا يرجع تاريخ العائلة الى بعيد، إذ أن الاسرة لا تعد سوى ثلاثة أجيال، وانه في الغالب لا فائدة كبرى في تذكر الأحداث السابقة، فالمؤسسات التي تشمل أكثر عدد من الناس، لديها الحظ الأوفر لكي تدفعنا الى الغوص في الزمان الى أبعد مدى. ويحقق ذلك فيما يخص القبيلة، والنسب الأخصى وصنف العمر من نوع «ماساي» والملكية. وفي السهوب السودانية فإن تقاليد الممالك والامبراطوريات بتكرور وغانة وماني، التي عاجلها المؤلفون العرب والسودانيون تصل حتى الى القرن الحادي عشر. على أن المؤسسات كلها تكون محددة أحيانا، بنفس مفهوم عمق الزمان، كما هو الأمر عند البتيكي (الجمهورية الشعبية الكونغولية). حيث يرجع الكل الى جيل الأب أو جيل الجد. ويدخل الكل في باب الزوج والفرد، فالفرد يقع في زمان «الآباء» والزواج في عهد «الأجداد» بما في ذلك التاريخ الملكي.

ويبين هذا المثال أن فكرة شكل الزمان مهمة جدا. ففي منطقة ما بين البحيرات تعرضنا فكرة الزمان الدورية. ولكن حيث أن الأدوار تتعاقب فإن هذا المفهوم يؤدي إلى الحلزونية، وفي منظور آخر للمجتمعات عينا نميز فترات، وعلى الخصوص فترة الفوضى والفترة التاريخية. وفي بلدان أخرى كما عند البتيكي، فإن الزمان ليس خطيا، وهو يتأرجح بين أجيال متعاقبة، ولا ينبغي ما لذلك من النتائج في عرض المأثورات.

وأما أن يكون تصور المكان ذا أهمية، فإنه في هذا السياق أقل وضوحا. ولكننا غالبا نميل إلى جعل أصل شعب من الشعوب في مكان أو في اتجاه التقويم: اتجاه «مقدس» أو «علماني»، حسب ما يظن من أن الإنسان يسير من المقدس إلى العلماني أو العكس. وكل شعب يفرض نظاما من اتجاهات جغرافيته. وكثيرا ما كانت الأنهار محورا لاتجاهات الاساسية. فيسجل معظم الشعوب اتجاه قراهم وحقوقهم أحيانا (كوكويا في جمهورية الكونغو) في هذا النظام من المحاور كما يعمل الكثير منهم أيضا على توجيه قبورهم. وتكون النتائج أحيانا غير متوقعة، والقضاء المرتب حسب محور واحد، داخل في جملة التضاريس، يتغير بحسب الوضع النسبي لعناصر هذه التضاريس. فهنا يكون «الحضيض» في الغرب وهناك يكون في الشمال، وهنا يكون «نحو القمة» جهة الشرق وهناك جهة الغرب، فيلاحظ أن الهجرات قد يكون منشؤها اتجاهات غيرة كما هو الشأن لدى الكوبا (زايري) والكاكورو (تنزانيا). ويدخل هذا الخبر في علم الكونيات أكثر منه في التاريخ، ولكن قد يؤدي الأمر إلى أن تشاهد تغيرات في نقط الأصل، نتيجة مفاجآت مما يبرز أماننا، فالمجتمعات التي تستعمل سير الشمس لتحديد محور القضاء هي وحدها التي قد توفر إرشادات صحيحة في مادة حركات الهجرة العامة، ولكن من سوء الحظ هذه الشعوب قلّة فيما عدا ربما إفريقيا الغربية، حيث معظم الشعوب يرجعون إلى الشرق لتعيين أصلهم.

وفكرة السبب ضمنية في كل مأثور منقول، وقد تعرض في شكل سبب مباشر متميز بالنسبة لكل ظاهرة. ففي هذه الصورة لكل أمر أصل يقع مباشرة في بداية الأزمنة، وتدرك السببية أحسن ادراك بالنظر في الأسباب المنسوبة إلى الداء. فهي مرتبطة بقوة مباشرة بالسحر والأجساد الخ. والرباط مباشر، ويبدو من هذا النقط من السببية أنه يشعر بالتغير أساسا في بعض الميادين المحددة كالحرب وتتابع الملوك الخ، حيث تتدخل المتحجرات. ولنذكر أخيرا أن هذه اللمحة عن فكرة «السبب» هي ملخصة جدا ويجب أن تستكمل بفكرات سببية أكثر تعقيدا ولكنها موازي لها، وهي لا تهم سوى مؤسسات اجتماعية ثانوية.

وأما الحقيقة التاريخية فتبقى مرتبطة جدا بصدق الكلمة المنقولة، وهكذا فقد تكون نتيجة اجماع المسيرين (إيدوما، نيجيريا) أو التأكد من أن المأثور موافق لما قاله الجيل السابق. وتتألف مقولات المعرفة فيما بينها وتربط مع عبارات ترمز للقيم وتتألف، لانتاج نص يصفه علماء الانثروبولوجيا «بالأسطورة». والمأثورات الأكثر ارتباطا بالبيئة الأسطورية، هي تلك التي تعبر عن بدء الخليقة حيث الجوهر هو علة وجود الشعب. وهكذا فإن كتلة متشعبة من أخبار الكوبا التي تعالج الأصول والهجرات على متن الزوارق الجذعية، وجد لها أخيرا تفسير بفضل ما اكتشف من تصور باطن للهجرة: وعند الكوبا تم الهجرة في زوارق جذعية من المصب (المقدس) إلى (اللاذيني)، وكذلك تفسير عدد من أسماء الهجرات، ومن مشاهد الخلق التي تقدم بألفاظ علم الكونيات. ولم

يكن الأمر هنا واضحا، بينما كان الترابط جليا في كثير من الأجناس الأخرى. وهكذا فإن عددا من علماء الانتولوجيا، ممن ساروا على منوال بيدلمان من سوء الحظ، ومن العلماء النيوين أو الاجتماعيين الوظيفيين قد آل بهم الأمر، الى انكار أي قيمة لكل الماثورات السردية اذ ربما يكون كله عبارة عن بنيات معرفية للعالم توتر كل فكرة مسبقة، كالمقولات الختمية. والرأي نفعه يطبق على ما أمامك من نص كما على نص بيدلمان... ومن الواضح أن هؤلاء الانثرو بولوجيون تجاوزوا الحدود. ثم إن عددا من تفاسيرهم تبدو افتراضية. ولكن على المؤرخ أن يتذكر أنه ملزم في كل صورة خاصة، ان يدقق بما لديه من موجبات لرفض ماثور أو للشك فيه. وليس في امكانه أن يرفض ماثورا، الا اذا كان احتمال الابداع فيه مدلول رمزي، حصرا، وانه احتمال قوي حقا يمكن إقامة الدليل عليه. ذلك أن الماثور يعكس عموما «أسطورة» بالمعنى الانثرو بولوجي لهذا اللفظ وللمعطيات التاريخية. وفي هذه الظروف، فان كتب التاريخ هي نصوص من علم الاساطير، اذ أن كل نموذج متحجر ناتج عن نظام من القيم والأغراض، هو خبر اسطوري، ولكنه في آن واحد شبكة تاريخية يجب فك رموزها.

التاريخ اليومي

لا تاريخ بلا يوميات والا فاننا لا نميز بين السابق واللاحق. ويمدنا الماثور المنقول دائما بيوميات نسبية تتمثل في قوائم أو في أجيال. وبصفة عامة تمكن هذه اليوميات من وضع كامل مجموع الماثور للجهة المدروسة في اطار الانساب أو قائمة الملوك أو أصناف الأعمال التي تشمل الساحة الجغرافية الواسعة، ولكنها لا تمكن من الربط بين المتواليات النسبية وبين أحداث خارج المنطقة. وتتم أكبر الحركات التاريخية وحتى بعض التطورات المحلية دون أن يشعر بها، أو تبقى مشكوكا فيها، ذلك أن الوحدة المتوفرة للتاريخ اليومي، ضيقة جدا من الناحية الجغرافية. فنسب الاسرة لا يصلح الا لها وللقرية أو القرى التي تسكنها، فيوميات الامومثلا مؤسسة على طبقات الأعمار مما لا يشمل لكل منطقة ضيقة يلقن فيها الشبان في آن واحد. ومن اللازم إذن أن يربط في ما بين اليوميات النسبية وان أمكن أن نحول الى يوميات مطلقة، وينبغي قبل ذلك أن يحل مشكل آخر وهو أن يتم التحقق من كون المعطيات المستعملة توافق واقعا لم يحرف من الناحية الزمانية.

هذا ويتضح أكثر فأكثر أن اليوميات المنقولة خاضعة لبعض عوامل التحريف المتصاحبة العاملة على اتجاهات متعاكسة، فبعضها يقلص المدة الحقيقية للماضي وبعضها يمددها. ثم انه يوجد اتجاه الى جعل الأجيال والوراثات وسلسلة أصناف الأعمال منتظمة حتى تصير موافقة للنظم المثالية الحالية للمجتمع. والا توفر المعطيات لنا سوابق من النزاعات من كل نوع. وعملية الانضباط واقعية حقا، وفي بعض الصور المستتازة كما في رواندا تناط عهدة التصرف في الماثور بجمع متشعب من الاختصاصين، أكدت أقوالهم التنقيبات الأثرية.

لقد أثبت الانتولوجيون أن المجتمعات المنعوتة بالمتقطعة ترمي الى الغاء الأجداد الذين «لا فائدة فيهم»، أي الذين لم يكن لهم أعقاب ومازال فريق منهم يعيش اليوم كفرق متميز. وهذا ما يفسر السبب الذي من أجله يؤول العمق النسبي في كل جماعة من مجتمع معين الى أن يبقى ثابتا. ولا يستعمل الا الأجداد «الصالحون» لتفسير الحاضر. وينشأ عن ذلك أحيانا تصادم قوي في العمق

النسبي. ثم أن الأحداث الديموغرافية قد تقصر فرعا من الأعقاب على عدد قليل جدا بالنسبة الى سائر الفروع المتفرعة عن إخوة أو أخوات مؤسس الفرع الأول، بحيث لا يتمكن هذا من البقاء في الموازنة من مجموع كبيرة مجاورة، فيمتصه أحدهم، واذك يعاد تعديل النسب و يعوض مؤسس النوع الصغير بمؤسس الجمع الأكبر. ويحتزل النسب، و يعبر غالبا عن وحدة العرق بوضع جد وحيد في بداية النسب، فهو الرجل الأول والبطل المؤسس الخ. وسيكون أب أو أم الجد «الصالح» الأول وهكذا يتم مواراة الفجوة بين الخلق وبين التاريخ الواعي. ومن سوء الحظ فان عمل هذه الطرق قد أدى في غالب الأحيان الى وضع يتعذر فيه الرجوع بأمان الى أكثر من بضع أجيال سابقة. وقد ظن أن عددا من المجتمعات الافريقية أفلتت من هذا العمل ولا سيما الدول. فلا موجب لكون قائمة تعاقب الملوك محطنة أو لكون نسبهم مشكوكا فيه، ماعدا أنها أحيانا زيفت عندما غاوضت أسرة منه أسرة أخرى متبينة نسب الأولى لتبرير نفسها. ولكن عدد الملوك وعدد الأجيال كان في الظاهر صحيحا. وعمل التصادم والتدبير وإعادة التنظيم قد يلحق المعطيات التابعة للأسر المالكة كما يلحق غيرها. ففي قوائم الملوك مثلا قد يمحذف أسماء الغاصبين أي الذين اعتبروا غاصبين في الحال أو في أي وقت لاحق لحكمهم. وقد يغفل عن الملوك الذين لم يروا بكل الطقوس الرسمية التدرجية التي قد تكون طويلة جدا، وقد يعدد ملكا واحدا ملك تخطى عن العرش ثم استعاد السلطة. وفي كل ذلك ما يقصر السيرة التاريخية.

ولارجاع الامور الى نصابها حيث تكون الورثة على خط الابوة وحسب أولوية الولادة كما هو الأمر في المنطقة بين البحيرات، يوجد عدد عجيب من التعاقبات النظامية أبأ عن جد، تتجاوز بكثير المعدل وحتى الأرقام القياسية التي شوهدت في غيرها من المناطق بالعالم. و ينتج عمل التنظيم هذا نسبا غوزجيا خطيا، يستمر منذ البداية حتى القرن التاسع عشر تقريبا حيث يصير متداخلا متشعبا. والنتيجة أننا نطيل في امتداد الأسرة، ونحن نزيد في عدد الأجيال، حيث يقدم الورثة من الحواشي في مقام الأب والابن، وقد يحدث التقيد أو التقصير ما يوجد من اشتباه بين الترادف، وبين الاسم في الحكم أو اللقب وبين الاسم الشخصي، وخواص أخرى من هذا القبيل. وكما كان الشأن في العهد الاستعماري ولا سيما في جهات الادارة غير المباشرة، فان الضغط في تمدد الاسر كان قويا، إذ أن الاوربيين يولون احتراما كبيرا للقديم، شأنهم شأن عدد من المجتمعات الافريقية أيضا، فاستخدموا كل ايهام وكل الوسائل التي من شأنها أن تمدد الاسر الحاكمة، واستعملت كل الأسماء الممكنة، وضوعفت عند الإقتضاء دورات أسماء الملوك أو زيد فيها، وشذبت الحواشي كي يستطيل الجذع.

وأخيرا وضمن نطاق الممالك أيضا، فإننا كثيرا ما نجد الهوة واسعة بين البطل المؤسس الذي ينتمي الى عالم الكونيات وبين أول ملك تاريخي «صالح». والنتيجة أنه يجب القيام بحث مدقق لمعرفة هل ان السبل الموصوفة قامت بعلمها أولا في الحالات الخاصة. وفي هذا الشأن وجود مواطن خلل في الخلافة وفي الانساب هي أحسن ضمان للاصالة إذ هي تظهر مقاومة للتسوية الانضباطية. ولم تكن مجتمعات طبقات الاعمار موضوع بحث منظم هكذا، وبعض الحالات تظهر ان عمليات التعديل تتدخل لاصلاح الدورات أو الحد من الخلط بين الترادفات. ولكن ضروب تعاقب

فئات الأعمار لم تدرس بعد، ولا يمكن التعميم إلا بالقول بأن الشكل المعروض شبيه بمشاكل الأجيال، إذ يتم العد بواسطة الأجيال.

وينتج عن دراسة إحصائية مدققة أتت بالمعطيات السابقة، أن معدل الجيل الحاكم يقع عادة فيما بين ٢٦ و ٣٢ سنة. وكانت العينة غالباً على الخط الأبوي. ولكن الأسر الحاكمة على الخط الأمي لا تتجمع مثلاً في الجزء الأسفل من التوزيع الإحصائي، وتكون المعطيات صحيحة أيضاً في هذه الصورة. ومعدل مدة الملك يتغير تغيراً كبيراً مع نظام الخلافة حتى أنه لا يمكن أن نتقدم بمعطيات عامة صالحة. وحتى في صور الخلافة المتطابقة توجد انحرافات عظيمة بين مختلف الأسر الحاكمة.

وإذا ما تجهزنا بالمعطيات التي عرضناها آنفاً، يكون في الإمكان أن نحول اليومية النسبية للأجيال ببساطة مطلقة، على الأقل إذا لم يكن التفاوت في الأجيال كبيراً بحيث يصير ممارستها تافهة. فيحسب أولاً المعدل بين أول علامة زمنية مطلقة يوفرها تاريخ مكتوب، وبين الحاضر، ويطبق هذا المعدل على الماضي إذا وقع بين ٢٦ و ٣٢ سنة، ولكن المعدلات الوسيطة ليست غير ذلك، ويقوى احتمالها مع عدد الأجيال المعتبرة، ولا يمدنا الحساب بتاريخ معقول إلا فيما يخص رؤوس المتتاليات، وفي أحسن الحالات مرة في القرن. وثمة خطأ ينشأ عن كل تدقيق أكثر تركيزاً، وعلى كل يقتضي أن تسبق هذه التواريخ المطلقة المشتقة هكذا بعلامة تدل على ذلك. فتأريخ ١٦٣٥ (المسبوق بهذه العلامة) بالنسبة إلى قيام مملكة كوبا يشير إلى أن هذه القيمة حسبت انطلاقاً من أجيال ومن قوائم الملوك.

وذلك أن هذا العمل ينطبق على قرار مدة الملك المعدلة. وقد شاهدنا لماذا يكون هذا المعدل أقل صلاحية منه بالنسبة إلى الأجيال وأحد الأسباب في ذلك، هو أننا إذ طبقنا المعدل على الماضي نفترض أنه لم يقع أي تغيير في سن الخلافة، على أنها ربما تغيرت على مر الزمان، وفعلنا أنها تغيرت حقاً منذ عهد مؤسس الأسرة إذ أن التأسيس تجديد، وقد تكون التعاقبات على العرش قد اقتضت بعض الوقت كي تستقر في مخططها، وينبغي أيضاً أن تعتبر التغيرات التي تكون قد طرأت على معدل الحياة، وإذا كان مجال الخطأ أكبر، فيكون من المفيد أن يكون لدينا توارخ مطلقة مثبتة بالكتابات أو بوسائل أخرى ترجع بعيداً إلى الماضي.

وفي مادة اليوميات النسبية يمكن السعي أيضاً للتنسيق بين متتاليات مختلفة متجاورة وذلك عن طريق التزامن، فمركبة بين ملكين ذكر اسمها تمدنا بزمان، وهذا مما يمكن من التأليف بين يوميات نسبية متضمنة كما يمكن من صهرها في يومية واحدة. وقام الدليل بالتجربة على أن التزامنات بين أكثر من ثلاثة وحدات منعزلة ليست صالحة، ويبرهن على أن أ - وب - تعايشا في فترة واحدة أو أن أ و ج تعايشا لأنها كليهما التقيا مع ب، إذن أ = ب = ج ولا يمكن تجاوز ذلك، وكون التقاءات أ - و ج - مع ب، قد تمد على طول مدة الحياة النشطة ل (ب) يبرر لماذا أ = ج يمثل الحد النهائي. وأقامت الدراسات التجريبية على يوميات الشرق الأوسط الدليل على هذه النقطة، ولا مانع إذا استعملنا التزامنات بتحفظ من أن نبي حقولاً موحدة كبيرة بما فيه الكفاية، ذات يوميات نسبية مشتركة.

وبالنظر في معطيات الأجيال يمكن الحصول على تاريخ مطلق، فإذا ذكر المأثور كسوف للشمس، وإذا كان لدينا عدة توارخ للكسوفات يجب إقامة الدليل على الكسوف الأكثر

احتمالا. ويمكن القيام بعين العمل بالنسبة الى أحداث فلكية أخرى، أو الى أحداث مناخية خارقة للعادة تسببت عنها بعض الكوارث. وهنا يكون اليقين أقل منه في صورة كسوفات الشمس، إذ يوجد مثلا في افريقيا الشرقية عدد من المجماعات أكثر من عدد كسوفات الشمس، وفيما عدا هذه الظاهرة الطبيعية فإن سائر المعطيات من هذا النوع صالحة على الخصوص للقرنين الأخيرين مع أن قليلا من الشعوب احتفظ بذكرى كسوفات ترجع الى مدة أقدم بكثير.

تقوم المأثور المنقول

بعدما أخضعت المصادر الى نقد معمق من الناحية الأدبية والاجتماعية، يكون في الامكان أن تلحق بها درجة من الاحتمال، ولا يمكن أن يكون هذا الحكم كميا ومع ذلك فهو لا يقل واقعية، وفي الامكان أن يزداد بقوة، في الحظوظ التي توفر صحة أثر، اذا أمكنت مواجهة المعطيات التي تحتوي عليها بالمعطيات المستمدة من آثار أخرى مستقلة أو من مصادر أخرى. فاذا ما اتفق مصدران مستقلان تحول الاحتمال الى ما يقرب من اليقين. ويصبح الأمران نبرهن على استقلال المصادر. ومن سوء الحظ لقد وثق كثيرا بنقاوة النقل وانعزال الخبر انعزالا عسكرا من عرق الى آخر. وفي الواقع فإن قوافل التجار كالامبغلا بانغولا، وبلا شك كالدبولا والهوسا، قد تأتي بتنتف من التاريخ تقحم في التاريخ المحلي، اذ هي تجد لها فيه علا لثقافا، وثمة روابط تكونت بين ممثلي جموع مختلفة في بداية العهد الاستعماري فتبادلو أخبارا تهم تقاليدهم. ويلاحظ ذلك بوضوح في الجهات ذات الادارة الغير السباشرة حيث، حض الامتياز العملي المالك على انشاء تاريخها. أضف الى ذلك أن هذه الوثائق تأثرت بالانطاط الأولى التي كتبها الافارقة، ككتاب جونسن عن ملكة أوبو (نيجيريا) أو كتاب كاكوا (أوغندا) بالنسبة الى بوكندا. ونشأ عن ذلك عدوى عامة بين كل التواريخ المكتوبة بعد. أو أنها في بلاد ياروجبا، وفي منطقة ما بين البحيرات الناطقة بالانكليزية، مع محاولات للترزامن حتى ترغم القائمة المسلكية الى بلوغ ما للنماذج من طول. وهذا المثلان يوضحان مدى ما يجب من الحذر قبل أن نصريح بأن المأثورات مستقلة حقا. فيجب التنقيب في خزائن الوثائق والنظر في العلاقات القائمة قبل الاستعمار وتقدير كل شيء باهتمام قبل أن نصريح بالحكم.

وقد تمدنا المواجهة مع المعطيات المكتوبة أو الاثرية باثبات الاستقلال المنشود، بيد أنه ينبغي هنا أيضا أن يقام الدليل على هذا الاستقلال. فاذا ما خصص الأهالي موطن مشهورا لأول المحتلين للبلاد بالاستناد الى المأثور، وذلك بموجب ما يشاهد من آثار الاحتلال البشري المخالفة للأثار التي يسبقها السكان الذين يعيشون هناك حاليا، فلا يمكن بكيفية آلية أن يعزى هذا المواطن للمحتلين الاولين للبلد. وليست المصادر مستقلة إذ ينسب المواطن الى هؤلاء السكان بعمل منطق مسبق، وهذا مثل من تعظيم الصور، وتقرض هذه الملاحظة تخمينات مفيدة ولا سيما فيما يخص الآثار المدعوة (تسلم) ببلاد دوكون (مالي) وكذلك بالنسبة لمناطق سير يكو (كينيا)، اذا ما اقتصرنا على هذين المشايين المشهورين، على أن أمثلة مواقع كمبي صالح (موريتانيا) وبحيرة كيسال (زاير) الشهيرة توضح ان علم الآثار قد يوفر الدليل الساطع على صحة المأثور المنقول.

وكثيرا ما يعسر التوفيق بين المصدر الشفاهي والمصدر المكتوب، وإثبات ذلك إذ يتحدث المصدران عن أمور مختلفة. فالأجنبي الذي يكتب يقتصر عادة على الأحداث الاقتصادية والسياسية

التي لم تدرك بعد ادراكا حسنا في بعض الأحيان. والمصدر الشفاهي الموجه الى الداخل لا يذكر، اذا ما ذكر الاجانب. ولذلك تتكرر المواطن التي لا يلتقي فيها المصدران ولو أنها عالجنا فترة واحدة. وتوجد حالات التوافق، ولا سيما التوافق الزمني، في الأماكن التي أقام فيها الأجانب منذ عهد بعيد، حتى صاروا يهتمون بالسياسة المحلية ويدركونها. ووادي السنغال مثال ذلك منذ القرن السابع عشر.

وفيما اذا اختلف مصدران شفاهيان، فالاولوية للأشد احتمالا. ولا معنى للبحث عن حل وسط، كما هو السلوك المتداول بكثرة، وإذا ما كان التخالف واضحا بين مصدر شفاهي ومصدر أثري يكون الحل بجانب الأثري، ان كان من المعطيات المباشرة، أي شيئا محسوسا لا نتيجة استقرار، وفي الحالة الأخيرة يكون احتمال المصدر الشفاهي أقوى. والتناقض بين المصدر المكتوب والمصدر الشفاهي يفصل بالضبط كما لو كان الأمر خاصا بمصدرين شفاهيين. ولنذكر ان المعطيات الكمية المكتوبة غالبا ما تكون هي الأحسن، وأن معطيات الحفز الشفاهية كثيرا ما تتفوق على المصادر المكتوبة.

ولكن المؤرخ يسعى في النهاية الى اثبات الأمر الأكثر احتمالا. وأخيرا، اذا ما كان لدينا مصدر واحد شفاهي، بينما أنه من المحتمل أن تكون لحقته تحريفات، فمن الواجب تأويله بعد أخذ التحريفات بعين الاعتبار، ومن الواجب استغلاله. وإذا ما تعذرت إقامة الدليل «عامة» أو «منطوقيا» على عمل التحريف، فلا يكون في الامكان تأويل المصدر، تما ما كما لو قامت التحريفات بعملها الكامل. وهذا عيب علماء الانتولوجيا الذين ينكرون كل قيمة تاريخية للمأثور. وكثيرا ما يشعر المؤرخ بعدم الرضى بمعطياته المنقولة، وقد يسجل أنه لا يثق حقا بصحتها، ولكن يتحتم عليه أن يستخدمها ما لم تكتشف مصادر أخرى.

الجمع والنشر

ينشج عن كل ما عرض أنه يتحتم أن يتم ميدانيا جمع كل العناصر التي تخول تطبيق النقد التاريخي على المأثور، وهذا يقتضي معرفة حسنة بالحضارة والمجتمع واللغة أو اللغات المعنية بالأمر، وفي امكان المؤرخ أن يحصل عليها أو أن يضم اليه إخصائيين، ولكن حتى في هذه الحالة يكون عليه أن يتعمق في كل المعطيات التي يعرضها عليه عالم الانتولوجيا واللسني والمترجم، الذين يساعدونه في عمله، وعليه أيضا أن يتخذ سلوكا منظما ازاء المصادر التي يجب جمع كل رواياتها. وهذا كله يفترض مسبقا إقامة ميدانية طويلة، يزداد طولها كلما كان المؤرخ قليل الاستئناس بالحضارة المعنية. ويجب أن نؤكد أن ثمة معرفة فطرية تحصل لمن يدرس تاريخ مجتمعه الخاص، لا تكون كافية، بل لا بد من تأمل اجتماعي ولابد من إعادة اكتشاف حضارة الباحث الخاصة، وحتى التجربة اللسانية تبين أن المؤرخ المنتسب الى البلد المعني، لا يفهم بسهولة بعض الوثائق كالمذائح، أو هو يلقى صعوبة لأن اللهجة المتحدث بها غير لهجته. على أنه ينصح بمراقبة ما نقله اللساني في لهجته الأم ولو مراقبة جزئية للوقوف من أن النقل يشمل كل العلاقات اللازمة لفهم النص بادخال الجرس الصوتي مثلا.

يتطلب جمع المأثورات اذن وقتا طويلا، وكثيرا من الصبر ومن التأمل، فبعد الفترة الأولى للمحاولة يجب أن ينظم الباحث تصميما لعمله مع الانتباه الى ما لكل حالة من خصائص. وعلى كل، فلا بد من زيادة المواقع المقترنة بالسيرة التاريخية المدروسة وقد يضطر الباحث أحيانا الى استعمال عينة من المصادر الشعبية، ولكنه لا يمكن استعمال عينة عشوائية. ويجب أن تدرس في منطقة ضيقة، القواعد التي تعين نشأة روايات مختلفة وان يستخرج منها المبادئ التي يجب الاحتفاظ بها لتكوين العينة، ولا يمكن أن تضمن النتيجة عنها بالجمع المكثف العشوائي، ولو أن العمل يسير بسرعة. فعلى الباحث أن يعتني بدراسة النقل. ونحن نجد مخبرين يأخذون معلوماتهم أكثر فأكثر عن مؤلفات نشرت عن تاريخ المنطقة: كتب مدرسية، صحف أو نشرات علمية، ولعلم أخذوها عن محاضرات اذاعية أو تلفزيونية، ولا مناص من تأكيد هذا المشكل كلما تكاثرت البحوث.

ويلاحظ الآن وجود عدوى أقوى، فقد أخذ المأثور، بعض المخطوطات من عهد قديم جدا أحيانا، وخاصة تقارير بداية الادارة الاستعمارية، على أنها حقيقة «الأجداد» ومن الواجب أن تراقب خزائن الوثائق كما يراقب وجود كتب علمية وكتب مدرسية واذاعات الخ. إذ أنه اذا درس الأمر ميدانيا، يكون في الامكان غالبا أن تصبح هذه المداخلات بالبحث عن روايات أخرى، وبالتوضيح للمخبرين، ان الكتاب أو الاذاعة ليسا حقا على حق في هذه المادة، ولكن اذا ما ترك الميدان فقد فات الأوان.

وينبغي أن تكون للبحث بنية حسب وعي تاريخي واضح. وليس بالامكان جمع «كل المأثورات» واذا ما حاولنا القيام بذلك، فلا نجني سوى كومة مضطربة من المعطيات. ويجب أن نعلم قبل كل شيء ماهية المشاكل التاريخية التي نريد درساها، وأن نبحت عن مصادرها تبعا لذلك. ولعرض المواضيع، يجب بالطبع أن نتمتع في الحضارة المعنية. ويمكن اذن كما هو الشأن غالبا، أن نقرر متابعة درس التاريخ السياسي. ولكن في الامكان أيضا أن نختار مسائل من التاريخ الاجتماعي أو الاقتصادي أو الديني أو الشقافي أو الفني الخ... وفي كل حالة تكون الطريقة المستعملة في جمع المعطيات متباينة. وأكبر عيب في البحث حاليا، هو انعدام الوعي التاريخي، وانقيادنا بقوة الى ما نجد أمامنا.

وفقدان الصبر عقبة أخرى، يريد المرء أن يقطع بسرعة ميدانا كبيرا، وتكون المصادر المجموعة في هذه الظروف عسيرة التقويم وتبقى متباينة جزئية. وتنعدم الروايات، ولا يكون لدينا كثير من الارشادات عن تغير المصدر وتمثيله ونقله، فالعمل عقيم، وشر الآثار هو ما يخلقه العمل في نفوس الباحثين الآخرين من انطباع يظن بمقتضاه أن هذه «المنطقة» تم درساها. وفي ذلك ما يوقف احتمال بحوث أحسن في المستقبل. ولكن لنذكر أن المأثور المنقول يضع، ولو أنه من حسن الحظ انما يضيع بسرعة أقل مما يظن عامة، وليست ضرورة العمل بهر لعدم اتقانه.

ولمقابل أن يقول — وقد قيل ذلك بالفعل — إن ما نعرضه هنا خيالي مثالي مستحيل. ومع هذا فانها الطريقة الوحيدة التي تمكننا من العمل كأحسن ما يمكن مما لدينا من وسائل في فترة من الزمان معينة. وليس هناك طريق أقصر. وإن رأى بعضهم أن هذا المجموع من العمل لا يوفر لنا الا حصيلة هزيلة للتاريخ في بعض الأحيان، فهو يغفل عن أننا أثرنا في الوقت نفسه المعلومات العامة في اللغة والأدب والتفكير الجماعي والبنيات الاجتماعية للحضارة المدروسة.

ولا يكون العمل كاملا بلا نشر، اذ هو لا يكون في متناول مجموعة العلماء. فيجب أن نفكر على الأقل في تصنيف المصادر مع مقدمة وتعليقات وفهارس لتكُون رصيدا من الوثائق مفتوحا للجميع. وكثيرا ما يقرن هذا العمل بنشر مؤلف مستند جزئيا أو كليا على هذا الرصيد. وما من ناشر ينشر المجموع بأكمله، مع الروايات وتأويل المعطيات. ولا يليق بالتأليف أن يكون مغمورا وسط كتلة من الوثائق الختام. ولكن كل مؤلف سيفسر كيف جمع الماثور، وسيعطي فهرسا مختصرا للمصادر والشواهد من شأنه أن يمكن القارئ من الحصول على رأي عن قيمة الجمع وعن مساهمة المؤلف على حدة في المؤلف، بعين السبب. والمؤلف الذي يصرح: «بذكر الأثر...» يكون قد قام بتعميم خطير. ويبقى أن نتحدث عن نوع من المطبوعات الاختصاصية، وهو نشر النصوص. هنا يطبق نفس الأسلوب المتبع في نشر المخطوطات. ويؤدي هذا عمليا، وفي أكثر الأحيان، الى تعاون بين اختصاصيين مختلفين. لا يجمع الواحد منهم أكثر من صفة واحدة، مؤرخ، لغوي أو عالم أجناس. والواقع أن أفضل مطبوعات النصوص، المتوفرة اليوم، هي كلها تقريبا عبارة عن مؤلف ضخم بزيادة واحدة، يشترك فيها عدد من المساعدين، أحدهم لغوي. ونشر النصوص عبء جحود وصعب. وهذا ما يفسر سبب قلة ما يحقق منها، بيد أن عددها يزداد بفضل المازرة التي يقوم بها اختصاصيون في الآداب اللغوية الافريقية.

النتيجة

يتابع حاليا جمع التراث المنقول في كل بلدان افريقيا. وتهم مادة المعطيات المجموعة خاصة القرن التاسع عشر، وهي لا تمثل سوى مصدر من المصادر لاعادة البناء التاريخي، وتمثل الوثائق المكتوبة المصدر الآخر الرئيسي لهذه الفترة. وتعرض سنويا خمسة أو ستة مصنفات دراسات تكاد تكون مبنية كلها على الماثورات. وهي تعالج خاصة التاريخ السياسي والممالك، بصورة نموذجية، بينما نجد من الوجهة الجغرافية تجمعا أقوى في افريقيا الشرقية والوسطى والاستوائية، حيث الماثور هو الوثيقة الوحيدة غالبا. وقلما ترجع اليوميات الى ما بعد عام ١٧٠٠ وتصبح مشكوكا فيها فيما قبل هذا التاريخ. ولكن معرفة ظاهرة الماثور بكيفية أعمق تساعد على تقويم ما جمع منها من قبل تقريبا أحسن، فمن ذلك أن استغلال الماثور الذي رواه كفازي في القرن السابع عشر، لم يعد ممكنا الا بعد دراسة ميدانية أجريت سنة ١٩٧٠. وعلاوة عن الماثورات الحديثة يوجد رصيد فسيح من المعطيات الأدبية، كالقصص الملحمية والمعطيات الكونية التي يمكن أن تكون أخبارا تاريخية تتعلق أحيانا بفترة بعيدة جدا. وملحمة سندجاتا مثال من ذلك. فالماثور لا يمكن أن يؤرخ من ذاته، فالذاكرة المحرفة فيما يخص بعض المواقع التاريخية فيما بين البحيرات، احتفظت بذكرى تولد بالقرن الأول من التاريخ الميلادي أو حتى بما قبل هذا التاريخ. ولكن الماثور المنقول يصمت عن التاريخ، ولم يحل هذا المشكل سوى علم الآثار. ويلوح أيضا أن ماثورات كفازي تحتوي على راسب تاريخي على قيمة عالية بالنسبة الى ماضي شعرب انغولا. فيوجد فيه مراجع مكثفة عن أسرمالكة تعاقبت، والى أشكال حكم توالته، وبالاختصار هو يعرض باقتضاب عن جهة كوانفو العليا تغيرات اجتماعية سياسية قد ترجع الى عدة قرون، أو حتى ألف عام قبل ١٥٠٠. ولكن هذا المنظور لا يوجد عليه علامات زمانية.

ولنشر الى عقبه أخيرة وذلك ان جمع المأثورات مازال سطوحيا على الأغلب وتأويله ما زال متقيدا بالنص الحرفي «ملتصقا» بالحضارة التي نشأ عنها. وتساهم هذه الظاهرة في الإبقاء على صورة لافريقيا يكون فيها التاريخ حديثا عن أصول وهجرات، والمعلوم أن لا شيء من ذلك حق، ولكن لا بد أن نلاحظ أن هذه الصورة هي التي يعكسها المأثور الرامي الى اثبات «هوية». على أن التأويل الغير المتعمق والجمع الذي يعوزه النظام تلحقها معظم الانتقادات الموجهة ضد استعمال المأثور المنقول، ولا سيما من بين علماء الانثولوجيا.

وبرهنت التجربة المحسوسة على أن أنفس قيمة للمأثور تتمثل في تفسيره للتغيرات التاريخية داخل حضارة ما. وذلك حتى الى حد أنه، كما يشاهد ذلك في كل مكان، ورغم غزارة المصادر المكتوبة للفترة الاستعمارية، يجب اللجوء دائما اما لشاهد عيان واما للمأثور لتكليفها قصد توضيح التطور السكاني. ولكننا نلاحظ أيضا أن المأثورات كثيرا ما تقود الى الخطأ بسهولة في مادة الترتيب الزمني وفي المعطيات الكمية. ثم ان كل تغيير لا واع، كالتحول المرتبط بمذهبية دينية مثلا، ينفلت بسبب بطئه، عن ذاكرة المجتمع. فلا يوجد سوى نطف من التغيرات في النصوص التي لا تتعرض بوضوح للتاريخ، ومع ذلك يكون من الواجب أن يؤق بتفسير مركب. ومعنى ذلك أن المأثور المنقول ليس دواء لكل داء، ولكنه يتضح في الواقع أنه مصدر من أعلى طراز بالنسبة الى القرون الأخيرة. وفيما قبل ذلك ينحط دوره فيصير علما مساعدا لعلم الآثار. ولم يقد الدليل بعد كما ينبغي على دوره بالنسبة الى المصادر الأصلية الاثوغرافية، ولو أن هذه النماذج الثلاثة من المصادر المجمعة من شأنها مبدئيا أن تساهم بقوة في معارفنا عن افريقيا، كما هو شأن علم الآثار.

وقد برهنت المأثورات على قيمتها التي لا عوض لها. وليس الشأن أن تأتي بما يقنع أنه قد يكون مصدرا، فكل مؤرخ يعلم ذلك. والمسألة الآن هي أن نحسن طرقنا العملية كي تمدنا المصادر بكل ما تشتمل عليه بالقوة، وذلك هو العمل المطلوب منا.

الفصل الثامن

المأثور الحي

أ. هباتي با

«أن الكتابة شيء، والمعرفة شيء آخر،
والكتابة صورة المعرفة وليست المعرفة ذاتها،
والمعرفة نور كائن في الإنسان، هو تراث كل
ما أمكن الأجداد معرفته وما أبلغونا إياه في صورة نبته،
كما أن شجر البواب موجود بالقوة في بذرته». تيرنوبوكار (١).

إن من يتحدث عن المأثور في التاريخ الإنساني يعني المأثور المنقول، ولا يمكن لأي محاولة أن تلج
التاريخ الإنساني وروح الشعوب الإفريقية بكيفية مقبولة، إن لم تركز على هذا التراث من
المعارف، من كل الرتب، والذي نقل بصبر بواسطة السماع من شيخ إلى تلميذ عبر الأجيال. ولم
يضع بعد هذا التراث، وهو جاثم في ذاكرة الجيل الأخير من حفظة العظام الذين يمكن أن يقال فيهم
إنهم ذاكرة إفريقيا الحية.

وفي الأقوام المعاصرة، حيث تسمو الكتابة على القول، وحيث يكون الكتاب الحامل الرئيسي
للتراث الثقافي، لطالما ظن أن الشعوب الحالية من الكتابة كانت شعوبا بدون ثقافة. وهذا الرأي
الذي لا مبرر له بدأ من حسن الحظ يفتت منذ الحربين الأخيرتين بفضل الأعمال المعتبرة التي قام
بها بعض كبار الاثنولوجيين من كل القوميات. واليوم بفضل عمل منظمة اليونسكو للتجديدي
الشجاع، ارتفع الحجاب ارتفاعا عن كنوز المعرفة التي نقلها المأثور الشفاهي والتي تنتمي إلى التراث
الثقافي للبشرية جمعاء.

وتمثل المشكلة كله لدى بعض الباحثين في معرفة هل يمكن أن ننمق النقل الشفاهي عين الثقة
التي ننمحقا للنقل الكتابي ليكون شاهدا على أمور الماضي. وفي رأينا أن المشكلة بهذه الصفة أسوأ
وضعه، فالشاهد الكتابي والشفاهي، ما هو في النهاية سوى شاهد بشري وقيمته هي قيمة الإنسان.

(١) تيرنوبوكار سالف، توفي سنة ١٩٤٠ وقضى كل حياته في بندياكارا (مالي) شيخ الفرقة الإسلامية النيجانية قد كان أيضا
تقليديا في المواد الإفريقية أنظر: هباتي با وم. كردار، ١٩٥٧.

أولم تكن الشفاهية أم الكتابي خلال العصور كما هو الأمر في الفرد نفسه؟ إن أول خزائن الوثائق أو الخزانات في العالم كانت أدمغة الرجال.

ثم إن الكتاب أو العالم، قبل أن يرسم على الورق ما يتصوره من أفكار، يشرع في حوار سري مع نفسه، وقبل أن يحرق الإنسان القصة فإنه يتذكر الأحداث كما رويت له أو، إن هو عاشها، كما يروها لنفسه.

ومبدئيا لا شيء يدل على أن الكتابي يحكي الواقع بأمانة أكثر من الشاهد الشفاهي المنقول من جيل إلى جيل، وتدل يوميات الحروب العصرية كما يقال على أن كل حزب أو كل قوم «يرى الزوال على عتبة باب» من خلال مؤشر أهوائه وعقليته الذاتية أو مصالحه، أو غرض تبرز لوجهة نظره. على أن الوثائق المكتوبة نفسها لم تكن محمية من التديليسات والتغييرات، ارادية كانت أولا ارادية من فعل النساخ المتعاقبين، الأمر الذي نشأت عنه، على الخصوص، الجدالات المتعلقة «بالكتابات المقدسة».

وموضوع الخلاف في النهاية، من وراء الشاهد ذاته، هو حقا قيمة الإنسان الشاهد ذاته، وقيمة سلسلة الرواية التي يرتبط بها، وصدق الذاكرة الفردية والجماعية، وما يعطي للحقيقية من قيمة في مجتمع معين. وبالاختصار الرابطة بين الإنسان والكلمة...

وظيفة الذاكرة هي أقوى لدى المجتمعات الشفاهية، وفيها تكون العلاقة بين الإنسان والكلمة أشد، فحيث لا كتابة، يتقيد الإنسان باللفظ وبه يلتزم، فهو كلمته وكلمته تشهد عما هو، وترابط المجتمع نفسه يتركز على قيمة الكلمة وعلى مدى احترامها.

والعكس، كلما ازداد زحف الكتابي نشاهد أنه يحل محل الكلمة فيصير الحجة الوحيدة والمرجع الأوحد، فيصير الامضاء الالتزام الوحيد المعترف به، بينما ينحل تدريجيا ما كان يجمع بين الإنسان والكلمة من رابط مقدس لفائدة الشهادات الجامعية المتفق عليها.

وعلاوة على الكلمة الاخلاقية الاساسية فقد كانت في التراث الافريقي — على الأقل ما أعرفه منه المتعلق بمنطقة السهوب جنوبي الصحراء — تكتسي طابعا مقدسا يرتبط بأصلها الالهي والقوى الباطنية المودعة فيها، فهي عامل سحري من أعلى طراز وحامل عظيم «هي قوى اثيرية» لم تكن لتأرس بدون حذر.

كانت إذن عدة عوامل دينية وسحرية أو اجتماعية تنضاف لحماية صدق النقل الشفاهي وبدا لنا من اللازم أن نقدم فيما يلي دراسة موجزة عن ذلك، كي نضع بكيفية أحسن، الماثور الافريقي المنقول في إطاره وكيفية نثريه، إن صح القول، من الداخل. فإذا ما قبل لعالم افريقي تقليدي حقيقي. «ما الماثور المنقول؟» فإنه سيحتار بدون شك، وربما أجاب بعد صمت طويل: «هو المعرفة التامة» ولا يزد شيئا.

فإذا تحت لفظ «ماثور منقول؟» وما هي الأمور الواقعية التي يجعلها، وما هي المعارف التي ينقلها والعلوم التي يلقها؟ ومن هم نقلته؟ وخلافا لما يظن بعضهم، فإن الماثور المنقول الافريقي لا يقتصر على القصص والخرافات، أو حتى على الأخبار الاسطورية أو التاريخية، وليس القصاصون هم الحفظة الأوحدون والنقلة الفريدون المؤهلون.

فالمأثور المنقول هو مدرسة الحياة الكبرى، يغطي كل وجهها وإياها يعني. وقد يعتبر سديا لمن لا يسبر سره، وقد يحير فيه الفكر الديكارتى، وقد تعود أن يفصل كل شيء الى مقولات مضبوطة معينة. ففيه لا يفترق الروحي عن المادي.

وعبروه من الباطن الى الظاهر، يعرف المأثور المنقول كيف يكون في تناول بني البشر، وكيف يكلمهم بما يفهمون، وكيف ينتشر حسب ملكاتهم وهو في آن واحد دين ومعرفة وعلم بالطبيعة وتدريب على مهنة وتاريخ وسلوى واستراحة، وكل جزئية تفصيلية قد تساعد دائما على الرجوع الى الوحدة الأساسية.

يرتكز المأثور المنقول على المبادأة والتجربة، فهو يلزم الانسان كليا، وهكذا يصح القول بأنه ساعد على خلق افئذ خاص من الانسان وعلى تكوين الروح الافريقية.

و«الشفافة» الافريقية اذ ترتبط بالسلوك اليومي للانسان وللمجموعة، ليست هي مادة مجردة يمكن عزلها عن الحياة، وهي تتضمن نظرة خاصة للعالم، وبالاحرى حضورا خاصا في العالم، وقد تصور ككل ترتبط فيه كل الأشياء وتعمل فيها الواحد في الآخر.

و يرتكز المأثور المنقول على تصور معين للانسان ولكائنه في العالم ووظيفته فيه. ويجب علينا اذن كسي نحسن وضعه في اطواره الجملي وقبل أن ندرسه على مختلف ظواهره، ان نعود الى سر ذاته في خلق الانسان، وفي الانشاء الاساسي للكلمة، كما تعلمه وكما تنبعث منه.

منشأ الكلمة الإلهي

نظرا لأنني لا أستطيع أن أتحدث حديثا صالحا عن تراث لم أعشه أولم ادرسه شخصيا، ولا سيما المأثورات التابعة لبلاد الغاية. سأتناول أمثلي الأساسية من مأثورات السهوب جنوبي الصحراء (أي ما كان يسمى سابقا البافور، وما تكونت منه مناطق السهوب من افريقيا الغربية الفرنسية قديما).

ان مأثور بامبارا بكومو (٢) يعلم أن الكلمة، كوما، هو قوة أساسية تنبعث من الخالق ذاته مانكالا بارئ الأشياء كلها. وهو إله الخلق. فيقول منشد الآله كومو: «ما قاله مانكالا كان».

واسطورة خلق العالم والانسان التي يلقنها المعلم المدرب بكومو (وهو حداد دائما) للشبان المختونين، تكشف لنا أنه لما حنّ مانكالا الى مخاطب، خلق الرجل الاول: ما.

وقديما كان سفر التكوين يلقن المختونين في الحادية والعشرين من عمرهم أثناء الخلوة المفروضة عليهم طيلة ثلاثة وستين يوما، ثم كانوا يقضون احدى وعشرين سنة لدراسته والتعمق فيه.

فعلى حدود الغاب المقدس، حيث موطن كومو، يرتل المختون الأول هذا القول:

مانكالا ! مانكالا !

من هو مانكالا ؟

أين مانكالا ؟

فيجب عليه المنشد:

«مانكالا هو القوة اللانهائية

ليس لأحد أن يضعه في الزمان ولا في المكان

فهو دوميالي (لا يعرفه أحد)

دوميالي (لم يخلق ولا نهاية له)».

ثم، بعد التدريب، تبدأ قصة الخلق الأساسي:

«ما كان أحد، سوى كائن

وكان هذا الكائن خلأ حيا

يضم بالقوة الوجودات المحتملة

وكان الزمن اللانهائي مأوى هذا الكائن الأحد

وتسمى الكائن الأحد باسم مانكالا

وهكذا خلق «فان»

بيضة عجيبة ذات أقسام تسعة،

فأولج فيه الحالات الأساسية التسع للوجود».

«وعند فقس هذه البيضة الأساسية أنجبت عشرين كائنا خرافيا، منها تكون العالم

بأكمله، وكذلك كامل القوى الموجودة للمعرفة الممكنة.

«ولكن وأسفاه لم يبد أحد من المخلوقات العشرين الأولى قابلية ليكون المخاطب

(كومانيون) الذي رغب فيه مانكالا لنفسه.

«عندها أخذ جزءا من كل المخلوقات العشرين الموجودة، وخلط الأجزاء ثم نفخ في

الخليط شرارة من روحه الناري، وخلق كائن جديدا، الانسان، وأعطاه جزءا من اسمه

ذاته: ماء، فكان هذا الكائن الجديد يحمل، من اسمه ومن الشرارة الالهية التي داخلته،

جزءا من مانكالا ذاته».

فأ، الإنسان، محطة لكل ما وجد، وقابل ممتاز للقوة العليا، وجمع كل القوى الموجودة ما،

الانسان يرث جزءا من طاقة الخلق الالهية، أي هبة الفكر والكلمة.

وعلم مانكالا مخاطبه، ماء السن التي تكونت كل عناصر الكون بمقتضاها، واستمرت موجودة.

وجعله حارسا لعالمه، وكلفه بالعمل على الحفاظ على التألف العام، ولذا أن يكون الإنسان إنسانا

عبد ثقيل.

و بدافع من خالقه نقل «ما» فيها بعد لاقابه مجموع المعارف الكاملة، وكانت بداية السلسلة

الكبرى للرواية التقليدية التي ترى فرقة الكومو (كما في مالي أو نانا أو كوري الخ) انها هي المتابعة

لها.

وعندما خلق مانكالا مخاطبه، ماء، كلمه وأمده في الوقت نفسه بلمحة الجواب، ودار حوار بين

مانكالا، خالق كل الاشياء، وما، نتاج تألف الاشياء كلها.

ولقد كانت الكلمات وهي تنزل من مانكالا الى الإنسان، إلهية اذ لم تكن قد اتصلت

بالمادية، وبعد ملاسة الجسمانية أضاعت شيئا من إلهيتها ولكنها صارت حاملة للقداسة، تقدس

الجسم اذن بالكلمة الالهية، فاشع بدوره هزات مقدسة ستقيم الصلة مع مانكالا.

ان المأثور الافر يقي اذن يتصور الكلمة كهبة من الله، فهي في آن واحد إلهية في الاتجاه التنزلي ومقدسة في الوجهة التصاعدية.

الكلمة في الإنسان كقدرة خلاقة

وجاء في التعليم أن مانكالا وضع في ما الامكانيات الثلاث من القدرة والمشيئة والمعرفة الموجودة في العناصر العشريين التي منها ركب. ولكن كل هذه القوى التي ورثها تكن فيه كالقوى الصمامة، وتكون في حالة سكون قبل مجيء الكلمة لتحركها، وبفضل حيوية الكلمة الإلهية تشرع هذه القوى في الإهتزاز فتصير في مرحلة أولى فكرة وفي ثانية صوتا وفي ثالثة كلمة، فالكلمة إذن تعتبر تجسيدا أو إظهارا لهزات القوى.

ولنتشرع مع ذلك في هذا المستوى إلى أن لفظي «كلمة» و «استماع» يغطيان أمورا واقعية أفسح مما ننسب اليها عادة. فيقال «ان كلمة مانكالا ترى وتسمع وتشم وتذاق وتلمس» فهو احساس كامل ومعرفة تندرج فيها الذات كلها.

وإذ أن الكلمة اظهرت لهزات القوى، وكل ظهور لأي قوة في أي شكل من الأشكال سيعتبر اعتبار كلمتها، ولذا الكل يتكلم في العالم، والكل كلمة أخذت لها جسما وشكلا.

وبالفلسفة ان لفظ «كلمة» (هالا) مشتق من مادة الفعل (هال) ومعناها «أعطي القوة» ومن ذاك المعنى المجازي «التجسم»، ويروي المأثور الفلاني أن كوينو، الكائن الاعلى، منح القوة كيكالاً أي الانسان الأول بتوجيه الكلام اليه. فيقول السيلاتيقي (أي شيوخ التدريب الفلانيين): «قد أعطى كيكالاً الاله القوة للانسان حين كلمه».

وان كانت الكلمة قوة، فذلك لكونها تخلق رابطة ذهاب واياب (يا ورطا بالفلانانية) مولدة للحركة والتناسق، أي للحياة والعمل، وترمز رجلا الحائك الصاعدتان النازلتان الى هذا الذهاب والاياب، وذلك كما سنشاهد فيما بعد عند ذكر الصناعات التقليدية. (فرمزة المنوال تركز تماما على الكلمة الخلاقة أثناء عملها).

وكلمة الانسان، على صورة كلمة مانكالا التي هي صداها، تحرك القوى الباطنة وتنشطها وتثيرها كمثل الانسان الذي ينتصب واقفا، أو يلتفت اذ ما سمع نداء باسمه.

وقد تخلق الكلمة السلم كما قد تحطمه. فهي بمثابة النار، فكلمة واحدة في غير محلها قد تثير حربا كجذئية القش الملتهبة التي قد تتسبب في حرب عميم. وفي المثل المالي هذا القول «ما الذي يهيج الشيء؟» (أي يريته ويعده) ذاك هو الكلمة، «وما الذي يفسد الشيء؟ إنها الكلمة، وما الذي يقر الشيء في وضعه؟ هي الكلمة».

ومنع المأثور للكلمة، (كوما) وليس فحسب القدرة الخائفة، ولكن أيضا وظيفة مزدوجة للمحافظة وللهدم. ولذا هي أكثر من كل شيء، العامل الأعظم النشط في السحر الافر يقي.

الكلمة عامل منشط للسحر

ينبغي ألا يغيب عن ذهننا أن التراث الافر يقي، بصفة عامة، يفترض رؤية دينية للعالم. ويتصور

العالم المرئي ويحس به كعلامة وكتجسيم أو كقشرة بالنسبة لعالم خفي حي متكون من قوى في تحرك دائم. وفي صميم هذه الوحدة الكونية الفسيحة، يبقى الكل مرتبطا بالواحد بالآخر، ومتضامنا، وسيكون سلوك الانسان نحو نفسه كما هو نحو العالم المحيط به (العالم المعدني والنباتي والحيواني والمجتمع البشري) موضوع تنظيم مدقق للطقوس — وقد يكون مختلفا في شكله بحسب العروق أو الجهات.

وكان من المفروض أن يستتبع خرق القوانين المقدسة اضطرابا في توازن القوى تعبر عنه مختلف التشويشات. ولذا كان العمل السحري، أي ممارسة القوى، ترمي عادة الى اصلاح الموازنة المختلفة وإلى ارجاع التآلف، وقد وضع الانسان كما شاهدنا من قبل، حارسا عليه من قبل الخالق.

وفي أوروبا يتحتم لفظ «السحر» دائما المعنى الرديء، بينما هو في افريقيا يدل فحسب على ممارسة القوى، وهو أمر محايد في حد ذاته، وقد يبدو نافعا أو مضرا بحسب الوجهة التي يوجه بها. وقد قيل: «لا السحر ولا الحظ قبيحان في حد ذاتهما، بل ان استعمالهما هو الذي يجعلهما حسنين أو قبيحين».

فالسحر الحسن، سحر المر يدين أو «الشيوخ العارفين»، يهدف الى تطهير البشر والحيوانات والأشياء، لكي يعاد الى القوى ترتيبها، وفي هذا المجال تكون قوة الكلمة حاسمة.

فكما جاءت كلمة مانكالا الالهية لتحيي القوى الكونية الساكنة القارة في ما، كذلك كلمة الانسان تأتي لإحياء القوى الساكنة في الأشياء ونحريكها وإثارتها. ولكن الكلمة كي يكون لها أثرها الكامل تتطلب أن ترتل ترتيبا متوازنا، اذ لابد للحركة من توقيع وإيقاع. ذاك الذهاب والاياب الذي هو جوهر الايقاع.

وفي الأناشيد الطقسية كما في عبارات التعزم، الكلمة هي تجسيم لايقاع الحركة، وإذا ما اعتبرت كأنها من شأنها أن تؤثر في العقول فذاك لأن تألفها يخلق الحركات، تلك الحركات التي تولد القوى، تلك القوى العاملة في العقول التي هي ذاتها قدرات على العمل.

ان الكلمة عندما تستمد القدرة الخلاقة العاملة من الأمر المقدس، حسب التقليد الافريقي، تدخل مباشرة، مع الحفاظ على التآلف أو مع قطعه، داخل الانسان وداخل العالم الذي يحيط به.

لذا يعتبر معظم المجتمعات الشفاهية التقليدية أن الكذب جذام أخلاقي، ومن ينكث كلمته في افر يقبض على التشليلية يقتل شخصه المدني والديني والباطني، و يقطع نفسه عن المجتمع، و يكون موته أفضل من بقائه بالنسبة لذاته وبالنسبة لدهو به أيضا.

وأنشد النشد من أهل كوموديني، من كوليكورو وبالي، ضمن قصيدة له دينية:

«ان الكلمة حق بصفة الالهية

فن اللاتئق أن تكون معها محقا

ان اللسان الذي يفسد الكلمة

ليسسم دم الذي قد كذب»

و يرمز الدم هنا الى القوة الحيوية الباطنة والتي أدخل الكذب تألفها. يقول المثل: «ان من أفسد كلمته أفسد نفسه»، فإذا ما فكر المرء بشئ وصرح بغيره، يكون قد انفصل عن ذاته، وهكذا تنقطع الوحدة المقدسة، وهي انعكاس للوحدة الكونية، ويخلق التنافر داخل الذات وفيها حولها.

وهكذا نزداد ادراكا للآثار السحري الديني والاجتماعي الذي يحل فيه احترام الكلمة داخل المجتمعات ذات الآثار الشفاهي، ولا سيما عند نقل الكلمات الموروثة عن الأجداد، وعن من هو أكبر منا سنا. وما تثبتت به أفر يقيا التقليدية أكثر من كل شيء، هو كل ما ورثته من الأجداد. وفي القول (أخذته عن أستاذي) (أخذته عن أبي) «رضعته من ثدي أمي» ما يعبر عن التقيد الديني بالتراث المنقول.

العلماء التقليديون

إن أعظم الخبازين لهذا المأثور الشفاهي، هم من ندعوهم بـ «التقليديين» فهم ذاكرة أفر يقيا الحية وأحسن شهودها. فن هم هؤلاء الشيخ؟ فهم يدعون في البابا دوما أو سوما أي «العارفين» أو دونيكبا أي «صانعي المعارف»، وفي اللغة الفلانبة هم يدعون سيلاتيقي أو جندو أو تشيورنكي هذه الألفاظ، تشمل على مفهوم (العارف).

وقد يكونون شيخوا متدربين (أو مدرسين) في فرع تقليدي خاص (التدرييب على الحدادة أو النسيج أو الصيد البري أو الصيد البحري الخ.). وأوقد يكون لهم المام بالمعرفة الكاملة للمأثور في كل مظهره. فن الدوما اذن من هو مطلع على علم الحدادة أو علم الرعي أو الحياكة مثل ما تم من اطلاع عليها من قبل المدارس العظمى التدرجية في السهوب، مثال ذلك ما في مالي، والكومو والتاما والدو والدياراوارا والنياوروني الخ. ولكن لا نخدع أنفسنا في ذلك فالمأثور الأفر يقي لا يقسم الحياة قطعا وقلبا يكون العارف «انحصائيا» بل هو في الغالب «ذو معرفة عامة». فالشيخ ذاته مثلا قد يكون له معرفة في علم النباتات (معرفة منافع كل نبات ومضاره) كما في «علم الأراضي» (الخصائص الزراعية أو الطبية التابعة لكل أنواع الأراضي) أو في «علم المياه» والفلك وعلم الكونيات وعلم النفس الخ، و يتعلق الأمر بعلم الحياة مع المعارف التي يكون في إمكانها دائما أن تستخدم إستخداما تطبيقيا.

وإذا ما ذكرت علوم «التدرييب» أو العلوم «الباطنية» وفي هذه الألفاظ ما قد يجرح القارئ العقلاني فالمقصود دائما، بالنسبة الى أفر يقيا التقليدية، هو علم تطبيقي في أساسه، يمكن من الاتصال اتصالا ملائما بالقوى التي تتعلق بالعالم المرنى والتي تستخدم في صالح الحياة. والعالم التقليدي، الحافظ لأسرار الخلق الكوني وعلوم الحياة المجهز عادة بذاكرة عجيبة، كثيرا ما يكون أيضا حافظا لوثائق الأحداث الماضية المنقولة من قبل التراث أو الأحداث المعاصرة. والتاريخ الذي يريد لنفسه أن يكون أساسا أفر يقيا، لابد أن يرتكز على الشهادة التي لا بدل لها ونابعة من الأفارقة الأكفاء. وكما يقول المثل: «لايزين رأس المرء وهو غائب».

وكان الدوما العظام، ممن كانت معرفتهم كاملة، مشهورين بمجلين يستحضرون من بعيد للاستفادة من معرفتهم وحكمتهم.

وكان من لقنيي أمور الفلانيين، أردو ديبو، من دوما فلانيا (سيلاتيقي) وقد توفي الآن. أما علي عيسى وهو سيلاتيقي آخر فما زال على قيد الحياة.

ودانفوسيني الذي كان يتردد على منزل أبي زمن طفولتي قد كان دوما يكاد يكون عاما؛ فعلاوة على كونه شيخا عظيما مدربا بالكومو، فقد كان له علم بسائر المعارف (التاريخية والتعليمية أو التي تتعلق بعلوم الطبيعة) في عصره. وكان الجميع يعرفه في البلدان الممتدة بين سيكاسو وباما كواي بين الملكات القديمة في كيني دو كوي وبيلي دو كوي.

ولطيف أخوه الأصغر، وكان مطلعاً على ما كان لأخيه من علم، قد كان أيضا دوما عظيما. وكان له ميزة التأدب بالربية كما قد قام بالخدمة العسكرية (ضمن القوات الفرنسية) بالتشاد، مما سمح له بجمع الكثير من المعلومات في سهوب التشاد، فبدت شبيهة بما كان قد تلقته في مالي. وإيوا، من طبقة القصاصين، من أعظم التقليديين بمندي وهو يعيش حاليا في مالي، مثله مثل بنزومانا الموسيقي العظيم الأعمى.

ولنوضح منذ الآن أنه ليس من الختمي أن يكون القصص تقليديا «عارفا» ولكنه قد يصير كذلك إذا كانت ملكاته تساعد على ذلك. على أنه لن يمكنه ادراك العرافة بالكومو وقد طرد منها القصاصون (٣) (كروا).

وبصفة عامة فإن التقليديين قد أبعادوا أن لم يطاردوا من قبل السلطة الاستعمارية التي كانت تسعى، بالطبع، إلى قلع التقاليد المحلية لتزرع آراءها الخاصة. إذ، كما يقال: «لا يزرع في الحقل المغروس ولا في الأراضي المستريحة». ولذا التجأ المدربون غالبا إلى الأدغال وهجروا العواصم المسماة «طوباودوكو» (٤) «مدن البيض» (أعني المستعمرون).

على أنه مازال في مختلف بلدان السهوب الإفريقية المكونة لبافور القديم - وبدون شك في غيره من البلدان - «عارفون» واصلوا نقل المستوى المقدس لمن قبلوا أن يحفظوه و يسمعوه، وأظهروا جدارة في تقبل تعليمهم بصبرهم وكنماهم، وهي القواعد الأساسية المفروضة من قبل الآلهة... وفي ظرف عشر سنوات أو خمس عشرة سنة يحتمل انقراض كل أواخر الدوما العظام وكل الشيوخ الأخيرين وراثي مختلف فروع التراث. فإن لم تسرع بجمع شهاداتهم وتعليمهم، سيفرق في النسيان معهم كل التراث الثقافي والروحي للشعب، تاركا شبابا بدون جذور.

صدق النقل

إن التقليديين الدوما كبارا وصغارا، أكثر من سواهم، مقيدون باحترام الحقيقة. والكذب في نظرهم، ليس عيبا أخلاقيا فحسب بل هو تحريم شعائري إذا ما خرقوه حرم عليهم القيام بوظيفتهم. ولم يكن الكاذب ليكون ملقنا أو «صاحب السكين» أو دوما أيضا، فإذا ما ثبت الأمر الخارق للعادة المتمثل في كذب تقليدي دوما، لم يعد أحد يرجع إليه في أي مجال من المجالات، وتضمحل وظيفته في الآن نفسه.

وبصفة عامة إن التقاليد الإفريقية تخشى الكذب، وقد قيل: «حذار من لغة تنقطع عن ذاتك، ولئن يقطع العالم عنك، فخير من أن تنقطع أنت عن ذاتك» على أن التحريم الشعائري المتمثل في

(٣) عن «السحرة» انظر ما بعده.

(٤) انظر به طوبا بوزوجو.

الكذب يمس خاصة «القائمين بالقداسات» (أي المضحجين أو أصحاب السكين) (٥) من كل الدرجات، ابتداء من أب الأسرة وهو القائم بالقداس العائلي إلى الحداد والحاك أو الصانع التقليدي، حيث إن ممارسة الصناعة نشاط مقدس، كما سئرى. ويقع التحريم على كل من أنيطت بهم مسؤولية سحرية دينية، و يقومون بأعمال شعائرية، فهم بمثابة الوسيط بين عامة الناس والقوى الخافضة، وفي القمة القائم بالقداس للبلد (مثلا الهوكون عند الدوكون) وعرضاء الملك.

وهذا التحريم الشعائري موجود فيما أعلم، في كل التقاليد في السهوب الافريقية. وتحرم الكذب يرجع إلى كون القائم بالقداس إذا ما كذب فهو يفسد الأعمال الشعائرية، ولم تعد تتوفر فيه الشروط المطلوبة ممن يقوم بالعمل المقدس، والشرط الأساسي هو أن يكون المرء متألماً في ذاته قبل أن يمارس قوى الحياة. ولنتذكر أن كل النظم السحرية الدينية الافريقية ترمي إلى الحفاظ على توازن القوى أو إلى إعادة هذا التوازن الذي به يتعلق تألف العالم المحيط، المادي والروحي..

والدوماً، أكثر ممن سواهم، مقيدون بهذا الالتزام، إذ يصفهم شيوخا عرفيين هم حاملوا الكلمة العظام، الكلمة التي هي أهم عامل نشيط في حياة البشر وفي العقول، وهم ورثة الكلمات المقدسة التعزيمية التي نقلها سلسلة الأجداد التي ترجع إلى أولى الهزات المقدسة المنبثقة من ما، الانسان الأول.

وإن كان التقليدي الدوما هو حامل الكلمة، فسائر الناس هم خازنو المحادثة. وسأذكر مثل صاحب سكين دوكون، من بلاد بنياري (دائرة بندياكارا) وقد عرفته في شباني فاضطر يوماً إلى أن يكذب لانتقاد حياة امرأة مطاردة فأخفاها في بيته، وبعد هذا الحادث نحل تلقائياً عن وظيفته، إذ هو رأى أنه لم تعد تتوفر فيه الشروط الشعائرية لتحملها كما ينبغي.

وفي الأمور الدينية والمقدسة لا يخشى الشيخ التقليديون العظام معارضة الجمهور، فإن هم أخطأوا ويعترفون بخطئهم على رؤوس الملائ ولا يلتمسون أعذاراً مدبرة، ولا يلجأون إلى تلمة أو مهرب.

والاعتراف بأغلاطهم المحتملة واجب عليهم، إذ فيه تطهير من الدنس. وإذا كان التقليدي أو العارف محترماً هكذا في أفر يقياً، فذلك لكونه يحترم نفسه قبل كل شيء، فهو منظم داخلية لا لا ينبغي له أبداً أن يكذب، وهو إنسان «مستقيم تماماً» مالك للقوى التي تسكنه. ومن حوله ترتب الأمور وتحدد الاضطرابات.

وبقطع النظر عن تحريم الكذب فيعمل العارف على ضبط الكلمة ولإلصاقها بلا روية، إذ أن كل كلمة، كما رأينا آنفاً، تعتبر اظهارة لقوى الباطنة، وبالعكس فإن القوة الباطنة تنشأ عن استبطان الكلمة.

ونذكر بهذه النظرة أحسن ادراك ما تمنحه التربية الافريقية التقليدية لعملية التحكم في النفس، من قيمة. فقلة الكلام دليل على حسن التربية وعلامة الشرف، فالصبي الصغير سزعان ما

(٥) لا تتضمن هنا كل الحفلات الشعائرية الضخمة بمجوان، وقد تمثل «الضحية» في هدية ذرة أول لبن أوتناج طبيعي آخر.

يتعلم كيف يتحكم في التعبير عن مشاعره أو ألمه، وكيف يكبح ما فيه من قوى، على صورة ما الاساسي الذي يحس في نفسه، القوى الكونية، بصورة خاضعة منظمة.

فيقال عن العارف المحترم أو عن الانسان المالك لنفسه: «هو» «ما» أو ندو بالفلائي) أو إنسان كامل.

و ينبغي ألا يلتبس الأمر أمامنا بين التقليديين «دوما» الذين يعرفون كيف يعلمون الناس وهم يلعبون ويخاطبون المستمع بما يفهم، وبين الشعراء المتجولين والقصاص والمنشطين العموميين الذين هم عامة من فريق «الديلي» (القصاصي) أو وولوسو «سجناء الكوخ» (٦) ان انتظام الحق لا يوجد لدى هؤلاء، وتتعرف لهم التقاليد بحق طمسه أو تجميله ولو بصفة تقريبية، ما داموا يسلون جمهورهم أو يشرون اهتمامه، كما سنرى فيما بعد. و يقال «يسمح للقصاص أن يكون ذا لسانين».

وبالعكس انه لن يخامر ذهن أي افريقي مكون تكوينا تقليديا أن يشك في صدق أقوال التقليدي «الدوما» ولا سيما اذا كان الأمر بهم نقل المعارف عن سلسلة الأجداد.

فيتوجه «الدوما»، قبل أن يتكلم، الى أرواح أجداده محترما أيها طالبا منها أن تساعد كمي لايزل لسانه وكلي لا يتوره سهوينسيه بعض الأمور.

وكان «دانفوسيني»، «الدوما» الأعظم من «بامبارا» وقد عرفته في طفولتي في بوكوني وكان منشد الكومو، كان يقول قبل الشروع في الحديث أو التعليم:

«أيا روح أستاذي طمأ بلن ساما كي!
يا أرواح الحدادين الشيخ وكبار الحائكين،
الأجداد الأوائل الملقنين القادمين من الشرق،
أيا جييجي، أيها الكباش الكبير الذي كان أول من نفخ في بوق الكومو،
يامن قدمت على الجلبيا (النيجر)!

تعالوا جميعا واستمعوا لي.
سأشبع، تبعاً لأقوالكم،
وسأقص على مستمعي
كيف وقعت الأمور
وكيف مرت منكم الينا في الزمن الحاضر.
لكي يبقى هذا القول محفوظاً بعناية بالغة
وكي ينتقل بأمانة
الى رجال الغد
وهم أولادنا
وأولاد أولادنا.
فامسكوا (يا أجدادنا) بعنان لسانني!

(٦) وولوسو (حرفياً: المولودون في البيت) أو «سجناء الكوخ» كانوا خداماً أو أسرى عندما ارتبطوا منذ أجيال بأسرة واحدة. وكانت التقاليد تعترف لهم بحرية كاملة في الحركة والقول، كما تعترف لهم بحقوق مادية جسيمة على مكاسب أسيادهم.



● (١) موسيقى من شعب الشكولون،
يعزف على آلة الاردين، (كنايس،
مالي، أ. و. ٢٩٢).
● (٢) مغن من الـ «مقيت» (مجموعة
التوثيق الفرنسي).



واهدوا خروج كلماتي،
كبي تنبع وتحترم
ترتيبها الطبيعي»

ثم كان يضيف:

«أنا دانفوسيني»، من فريق «ساماكي» (الفيل الذكر)، سأقص كما تعلمت أنا بين
يدي شاهدي «ماكورو ومافين» (٧)،
كلالهما يعلم مثلي اللحمة (٨) فسيكونان لي حاميين ودعامتين.

وإذا ما أخطأ المنشد أو إذا ما أظهر نقصا، قال شاهده: «يا هذا، تحرك كيف تفتح فاك» فيقول:
«انه لساني الجامع الذي خاتني».

وثمة تقليدي «دوما» لم يولد حدادا ولكنه يعرف العلوم المتعلقة بالحدادة، مثلا يقول، قبل
الشروع في الخطاب: «إني مدين بهذا لفلان وهو نقله عن فلان الخ...» ويحيي جد الحدادين،
وكلمة ولاه يجلس القرضاء واضعا مرفقه الايمن على الأرض رافعا ساعده.
وقد يذكر «الدوما» أيضا شيخه قائلا: «أحيي كل الوسطاء حتى نونفاري» (٩) دون أن
يلتزم بذكر الأسماء كلها.

ولابد من عودة دائما الى السلسلة التي يمثل «الدوما» نفسه حلقة منها. ففي كل فروع المعرفة
التقليدية يكون لسلسلة الرواية أهمية كبرى، وبدون رواية منظمة لا يوجد «السكر» بل توجد
فقط ثرثرة أو قصة. ولا اثر اذن للكلمة، ومن المفروض أن تحمل الكلمة التي نقلتها السلسلة، منذ
النقل الأصلي، قوة تجعلها فعالة جوهرية.

وهذه الفكرة «احترام السلسلة» أو «احترام النقل» هي التي تجعل الافريقي غير المتأقلم ثقافيا
يميل الى رواية الخبر في الصورة نفسها التي سمعها بها، تعينه في ذلك ذاكرة الاميين المدهشة.
وإذا ما عورض فهو يكتفي بالاجابة قائلا: «علمنية فلان» ذاكرًا دائما مصدره.

وعلاوة على ما للتقليديين الدوما من قيمة أخلاقية خاصة وعلى تعلقهم «بلسلسلة الرواية» ان
هناك ضمانا اضافيا لصدق رواية توفره المراقبة الدائمة من قبل نظرائهم أو من قبل القديما المحيطين
بهم، وهم يسهرون بعناية تصوى على صدق ما ينقلونه، و يصبحون روايته عند أقل خطأ، كما
شاهدنا في مثال دانفوسيني.

وأثناء خروجاته الشعائرية الى الأدغال، قد يضيف المنشد للكوموتأملاته الخاصة أو موحياته
للكلمات التقليدية التي ورثها عن «السلسلة» والتي يتغنى بها لرفاقه. وتأتي كلماته كحلقات

(٧) ماكورو ومافين هما زميلاه.

(٨) لكل خبر تقليدي لحن أو قاعدة قارة لا يمكن أبدا أن تتغير ولكنه في الامكان أن تطرز حولها استطرادات أو تحسينات حسب
الوحي أو حسب اهتمام المستمعين.

(٩) سلف الحدادين.

سءىءة لشءرى كلماء سابقية؁ ولكنة يلفء النظر إليها قائلال : «هءا من ز ياءءى وهءا من قولى؁ لست معصوما؁ وقء أءطئ؁ واذا ما أءطأء فءءكروا أنى مءلكم أنغذى بقبضة من الءرة وبمجرة ن الماء وبفءاء من الهواء. ولس الإنسان معصوما». وىفظ كلماءة الءىءىءة من ءبعه من المءرىن ومن الاءباء الءءء بءء ءكون كل أناءىء الكومو مروةة مءفوظة فى الءكراء.

وءقاس ءرءة الءطور لءى الءاب للكومولا بكمىء الكلماء المءفوظة بل بءطابق ءىاءه مع كلماءه. فاذا ما كان لرجل عشر كلماء أو ءمس عشرة فءسب؁ واذا ما كان بىاءها؁ اءن بكون ابعا صالحا للكومو ضمن الءمعية. وكى بكون منشاء للكومو؁ أى شىءا مءءربا؁ بنبغى أن بعلم كامل الكلماء المروةة وأن بىاءها.

والءعلام الءقلءىء؁ ءاصة اذا ءعلق بمعارف مرءبئة بالءءرب؁ هو مرءبء بالءربءة ومءقم فى لءىاء. ولذا فإن الباءء الاورى أو الافر بى اذا ما رام أن بءءرب من الأءاء الءبىة الافر بىة؁ بضى على نفسه أن ببق على ءءوء الموضع أن رفض أن بعمش الءربء الءاب له؁ وأن بءقبل واءءه؁ وهءا ما بءترض على الأقل أن بعرف اللغة. فن الأمور ما لا بمكن «ءفسره» بل ما ببب أن برب وأن بعمشه الباءء.

وأءكرأنه فى سنة ١٩٢٨؁ اء ءنء فى مأمورة بطونءان؁ قءم عالم شاب بالاءءولوجىا الى البلد ءراء بءء على ءىء الضءىة بمناسبة الءئان؁ فوءه الضابط الفرنسى الى رؤىس المقاطعة الاهلى لالبا منه أن بعمل كل ما بمكن كى بىصل العالم الاءءولوجى على ما برضىه ومؤءءا على أن «بقال ه شىء».

وعم رؤىس المقاطعة بءوره الأعمان وعرض عليهم الأمر مكررا كلام الضابط فقال كبىر الءماعة؁ وهو صاءب السكىن بالمكان؁ أى أنه المسؤل على ءفلاء الءئان وما بءبعها من لءرب :

«برىء أن نقول له كل شىء ؟

— قال رؤىس المقاطعة : نعم.

— قال : «ولكن هل أءى كى بءئن ؟

— قال : لا؁ بل أءى لىستءب».

فأءار كبىر الءماعة رأسه قائلال :

«كف نقول له كل شىء؁ ان لم بكن أءى بقصء الءئان ؟

أنء ءعلم؁ أبها الرؤىس؁ ان الأمر مسءءىل. فعلىه أن بعمش ءىاء المءئوبن كى نءمكن من ءعلبهم كل شىء.

— قال : اء نحن مرغمون على ارضاء القوة الءاكمة؁ علىك أنء أن ءءء الءل كى نءرء من هءا المأزق».

— قال : ءسنا سنصرفه ءون أن بشعر؁ وذلك اعءماءا على عبارة «الوضع على الءب».

واستنبطت بالفعل هذه الطريقة «الوضع على التبن» المتمثلة في امداد شخص برواية مختلفة اذا تعذر اعلامه بالحقيقة، استنبطت انطلاقا من الوقت الذي أرسلت فيه السلطة الاستعمارية أعوانها أو ممثليها للقيام ببحوث اثولوجية، دون أن يعيشوا الظروف المطلوبة. وكما اتنولوجيا فيما بعد صار ضحية لأوعية لذلك... ودون أن نصل الى ذلك، فكلم منهم تخيل أنه فهم أمرا بأكمله، بينما هو لم يعيشه. فكان من المتعذر أن يعرفه حقا.

وعلاوة على التعليم الباطني الذي كان يلقي داخل المدارس التدرجية الكبرى — كالكمومو وغيرها مما ذكر آنفا — فان التعليم التقليدي يبدأ في كل أسرة حيث يكون الأب أو الأم أو الأفراد الأكبر سنا في آن واحد معلمين ومربين، ويكونون أول خلية تقليدية. فهم الذين يلقون الدروس الأولى في الحياة ليس حسب التجربة ولكن أيضا بواسطة القصص والروايات والحرفات والأمثال والحكم الخ... والأمثال هي رسائل أو رثاها الاجداد والأحفاد وعددها لا نهاية له.

وقد حرر بعض المدرسين العنابي للأطفال كي يحمل على مر السنين بعض المعارف الباطنة «المرموزة»، ولنذكر مثلا لعبة الهينكولو بالي المعتمدة على نظام عددي يتعلق بالسقيا بأرقامها ٢٦٦ أو العلامات المقابلة لصفات الله.

ثم ان التعليم ليس نظاميا بل مقترنا بظروف الحياة، وقد تبدو هذه الحالة فوضوية ولكنها في الواقع عملية حية جدا. فالدرس المستمد بمناسبة حادثة أو تجربة ينشئ في أعماق ذاكرة الطفل. وأثناء جولة في الأدغال فان العثور على قرية تل سيعطي المعلم الشيخ فرصة لتلقي معلومات متنوعة بحسب نوعية مستمعيه. فاما أن يتحدث عن الحيوان ذاته أو عن القوانين العاملة في حياته، أو عن «صنف الكائن» الذي ينتمي اليه، أو أنه يلقي درس أخلاق على الأطفال مبينا لهم كيف تعتمد حياة المجموعة على التضامن وتكران الذات. أو أنه يفسح المجال الى معلومات أرق، اذا كان يشعر أن مستمعيه في وسعهم ادراكها. وهكذا فإن كل حدث في الحياة وكل حادث صغير يمكن دائما أن يكون مناسبة لشرح متعددة ولرواية اسطورة أو قصة أو خرافة. وقد تسمح كل ظاهرة يلاحظها الانسان بإمكان الرجوع الى القوى التي انبثقت منها وبالتذكير بأسرار وحدة الحياة التي يحرکها كلها السي، القوة المقدسة الأساسية، التي هي نفسها مظهر الإله الخالق.

ففي افريقيا كل شيء «تاريخ» وتاريخ الحياة العظيم يشمل تاريخ الأراضي والمياه (الجغرافيا) وتاريخ النباتات (علم النبات والاقرباذين) وتاريخ أبناء قبل الأرض (المعادن والفلزات) وتاريخ الكواكب (فلك وتنجيم) وتاريخ المياه الخ...

وفي تقاليد السهوب ولا سيما تقاليد بامبارا والفلايين، ان مجموع مظاهر الحياة على الأرض يقسم الى ثلاثة أصناف، أو أن «أصناف الكائنات» تقسم بدورها الى ثلاثة فروع:

— في أسفل السلم الكائنات الغير الحية، المسماة «صما» التي تعتبر لغتها لغة باطنية اذ هي لا تدرك أو لا تسمع من عامة الناس. ويشمل هذا الصنف من الكائنات كلها يقع على سطح الأرض (رمل، ماء الخ...) أو يكن في أعماقها (معادن، فلزات الخ...).

ومن بين الكائنات الغير الحية الصماء توجد الغير الحية الجامدة والسائلة والغازية (حرفيا الدخانية).

— وفي الدرجة الوسطى تقوم الكائنات «الحية الساكنة»، وهي كائنات حية لا تنتقل، وذلك صنف النباتات التي قد تمتد أو تنتشر في الفضاء ولكن ساقها لا تتحرك.
ومن بين الكائنات الحية الساكنة توجد النباتات الزاحفة والمتسلقة والرأسية وهاته الأخيرة هي أرفع الأصناف.

— وفي النهاية «الكائنات الحية المتحركة» وتشمل كل الحيوانات حتى الانسان.
وتشتمل الكائنات الحية المتحركة الحيوانات الارضية (منها ذات العظم ومنها ما بدونه) والحيوانات المائية والحيوانات الطائرة.

فيمكن اذن أن يرتبط كل كائن موجود بأحد هذه الأصناف (١٠) ومن بين كل «التوار يخ» فان أعظمها وأكبرها دلالة تاريخ الانسان نفسه ملخص كل «التوار يخ» اذ، حسب الاسطورة، هو مؤلف من جزء من كل ما وجد قبله. فكل ممالك الحياة توجد فيه (معدني، نباتي، حيواني) مقرونة بالقوى العديدة وبالمملكات العليا. ويرتكز ما يهمه من التعاليم على أساطير علم الكونيات معينة مكانته ووظيفته في العالم كاشفة عن ماهية علاقته بعالم الأحياء والأموات. وتفسر رمزية جسمه كما يفسر تشعب حياته النفسية، «ان شخصيات الشخص متعددة في الشخص» هكذا تقول مأثورات بامبارا والفلاتينين.

و يعلم السلوك الذي يجب أن يكون له ازاء الطبيعة وكيفية احترامه لتوازنه وعدم اطلاق القوى التي تنشطه والتي مظهرها المرئي، و يكشف له التدرج عن علاقته مع عالم القوى و يقوده شيئا فشيئا الى تمالك النفس، و يبقى الهدف النهائي أن يصير «ما» «وانسانا كاملا» ومخاطبا لمانكالا حارس العالم الحي.

الصنائع التقليدية

ان الصنائع التقليدية حوامل كبرى للمأثور المنقول
ففي المجتمع الافريقي التقليدي كثيرا ما يكتسي النشاط البشري طابعا مقدسا أو باطنيا، ولا سيما منها ما يتمثل في التأثير على المادة وفي تحويلها باعتبار كل شيء ككائن حي.
وكل وظيفة صناعية كانت، ترتبط بمعرفة خفية نقلها جيل عن جيل، وأصلها الوحي الأول.
فكان عمل الصنائع مقدسا اذ كان «يحكي» عمل مانكالا ويتم خلقه. فتقول مأثورات بامبارا إن الخلق ليس تاما وان مانكالا عند خلقه لأرضنا أبق فيها أمور ناقصة كي يأتي ما، مخاطبه، ليتممها أو يغيرها حتى يقود الطبيعة نحو الكمال، وكان من المفروض أن «يردد» النشاط الصناعي في عمله سر الخلق. وهو «يركز في البؤرة» قوة باطنة لا يمكن الاقتراب منها بدون احترام الظروف الشعائرية الخاصة.

و يصاحب الصنائع التقليدية شغلهم بأناشيد شعائرية أو بكلمات موقعة جوهرية. وتعتبر حركاتهم نفسها كلغة، وذلك ان حركات كل حرفة تعيد في رمزية خاصة بها، سر الخلق الاساسي المرتبط بقدرة الكلمة، كما أشرنا الى ذلك آنفا. فيقال:

(١٠) انظر أ. ميباني با، ١٩٧٢، ص ٢٣ وما يليها.

«يصنع الحداد الكلمة
والنساج يحوكها
والاسكافي يملسها ويطربها».

ولنتخذ مثل النساج وصناعته مقترنة بمرزومة الكلمة الخلاقة المنتشرة في الزمان وفي المكان.
فنساج الفريق (مابو، لدى الفلانيين) مستودع لأسرار القطع الثلاث والثلاثين التي تتركب
منها القاعدة الأساسية للمنوال، والجميع يعلم معناها. فالهيكل مثلا يكون من ثماني خشبات
رئيسية: أربع رأسية لا ترمز الى العناصر الاربعه فحسب (الثراب والماء والهواء والنار) بل أيضا الى
الجهات الأساسية الاربع، و ٤ خشبات مستعرضة ترمز الى الجهات الاربع الملحقة، ويمثل النساج
في وسطها الإنسان الاصلي ماء، في قلب الجهات الثمان في الفضاء. وبحضوره تحصل على تسعة عناصر
تذكرنا بمجالات الوجود الأساسية التسع، وبأصناف الكائنات التسعة، وبفتحات الجسم التسع
(أبواب قوى الحياة) وبأصناف البشر التسعة عند الفلانيين الخ.. الخ..
فقبل الشروع في العمل يمس النساج كل قطعة من المنوال متفوها بكلمات أو إبتهالات توافق
قوى الحياة التي تجسمها.

وحركات الأرجل ذهابا وإيابا صعودا ونزولا لتحريك الدواسة، تذكر بالايقاع الاصلي للكلمة
الخلاقة المرتبطة بشائية كل شيء وبقانون الدورات، فكان رجليه تتكلمان قائلتين:

«فونيونكو فونيونكو ثنائية ثنائية
إذا ما ارتفعت واحدة تنزل الأخرى
يموت الملك ويتوج الأمير
ويموت الجد ويولد الحفيد
خصومات طلاق تمتزج بأصداء حفلة الزواج....»
ويقول المكوك من جهته:

«أنا سفينة القدر
أمرين صخور خيوط اللحمه
التي تمثل الحياة
من الجانب الايمن الى الجانب الأيسر
ناشرا أمعاني (الخيوط)
لأساهم في البناء
ثم من الجانب الايسر الى الجانب الايمن
ناشرا أمعاني
والحياة ذهاب وإياب مستمر
تضحية مستمرة بالذات»

وقطعة النسيج المتجمعة المطوية على عصي مركزة على بطن النساج تمثل الماضي بينا يرمز

مطوى الخيوط المنسوجة الى سر الغد والمصير المجهول. وسيقول النساج دائما: «أيها الغد لا تحتفظ لي بمفاجأة كريمة».

ويمثل شغل النساج في الجملة ثماني حركات من الذهاب والاياب (بالرجلين واليدين والمكوك والتقاطع الايقاعي لخيوط اللحمة) تقابل خشبات الهيكل الثمان وسوق العنكبوت الاسطوانية الثمان تلك التي علمت علمها حد النساج.

وحركات النساج وهو يشغل المنوال هي الخلق أثناء عمله، وكلماته المصاحبة لحركاته هي انشودة الحياة نفسها.

واما الحداد التقليدي، فهو مستودع سر الاستحالات، فهو «سيد النار» من أعلى طراز أصله اسطوري، وفي مأثوري البامبر، يدعى «ابن الأرض الأول» وترجع معلوماته الى ما الانسان الأول. وقد علمه الخالق مانكالا فيما علمه، أسرار «الحدادة»، ولذا سمي كورا الحدادة فان أي باسم فان، البيضة الاصلية التي خرج منها العالم كله وكانت المصهر المقدس الأول.

وترتبط عناصر المصهر برمز ية جنسية هي عبارة عن عمل كوني للخلق أو انعكاسه.

فالزقان المستديران اللذان يحركهما مساعد الحداد يشبهان بخصيتي الذكر، وما يمثلان به من الهواء هي مادة الحياة المرسل، من خلال نوع من الجعاب يثلها القضيب، الى موقد المصهر المتمثل في الرحم حيث تعمل النار الحولة.

فلا يدخل الحداد التقليدي المصهر الا بعد الاستحمام الشعائري كي يتطهر، يبال له الحمام بطبيخ بعض الاوراق والقشور والجذور من الاشجار تختار بحسب اليوم. فالنباتات (كالمعادن والحيوانات) تقسم الى سبعة أصناف تقابل أيام الاسبوع وتقرن بقانون «التقابل القياسي» (١١) ثم يرتدي الحداد زيا خاصا اذ لا يمكنه أن يدخل المصهر وعليه ثياب غير لائقة. وكل صباح، يظهر الحداد المصهر ببخورات خاصة مستمدة من نباتات يعرفها.

واذا ما تمت هذه العمليات، وإذا ما اغتسل الحداد من كل ما لاصقه في الخارج يكون في حالة طقوسية ويصير طاهرا شبيها بالحداد الأصلي، وإذا فحسب يكون في مكانه الاقتداء مانكالا، أن «يخلق» بتغيير العادة وصنعها (واسم الحداد بالفلاينية هو بيلوأي، حرفيا، المحول المغير) ويذكر الحداد قبل الشروع في العمل العناصر الاصلية للخلق الاربعة (التراب والماء والهواء والنار) وهي جميعا، يتحتم تمثيلها في المصهر، ففيه دائما حوض ماء والنار في الموقد والهواء يبعث به الزقان ويجوار المصهر كدس صغير من التراب.

ويتفوه الحداد أثناء شغله بكلمات خاصة عند لمسه كل آلة، فعند لمسه للسندان، رمز القابلية النسائية، يقول: «لست مانكالا، بل أنا مثل مانكالا. فهو الخالق، لا أنا» ثم يأخذ الماء أبيضه ويدها السندان قائلا: «هذا مهرك».

ويأخذ مطرقته الضخمة، رمز القضيب، ويضرب بها ضربات على السندان «ليحسسه» ويتم هكذا الإصال، ويصير في مكانه أن يشرع في العمل.

(١١) عن قانون التقابل القياسي انظر: هباتي با: مظاهر من الحضارة الافريقية الحضور الافريقي، باريس، ١٩٧٢، ص ١٢٠ وما بعدها.

وعلى المساعد ألا يسأل أي سؤال، وما عليه إلا أن ينتظر وأن يتفخ. وهذا هو الطور «الصامت» في التدرّيب. وكلما تقدم في المعرفة يكون نفخه حسب ايقاعات تزداد تشبهاً، ولكل ايقاع مدلوله، ثم أثناء الطور الشفاهي من التدرّيب، ينقل المعلم كل معلوماته إلى تلميذه شيئاً فشيئاً، وعبره ويسدّد خطاه إلى أن يحصل على الأستاذية، فيمكن الحداد الجديد بعد «حفلة تحرر» أن يفارق أستاذه وأن يجعل لنفسه مصهراً خاصاً.

وعموماً إن الحداد يرسل بأبنائه للتدرّيب عند حداد آخر. وكلما يقول المثل: «ليس أزواج المعلم وأبنائه خيرة تلاميذه».

وهكذا فإن الصانع التقليدي، عندما ينسج على منوال مانكالا «مكرراً» بحركاته الخلق الأولى، لا يقوم «بعميل» بالمفهوم الاقتصادي المحض بل بوظيفة مقدسة تدخل فيها قوى الحياة الأساسية وتجعل الصانع ملتزماً بكل ذاته. في سرمصنعه أو مصهره هو يساهم في السر المتجدد للخلق الأزلي. وينبغي أن تغطي معارف الحداد قطاعاً فسيحاً من الحياة. هو باطني شهير ومهارته في أسرار النار والحديد تؤهله وحده لعملية الختان، وكلما شاهدنا فإن «مالك السكين» في تدرّيب الكومو هو الحداد دائماً. فليس هو مجرد عالم بكل ما له صلة بالمعادن، بل إنه يعرف تمام المعرفة تصنيف النباتات وخصائصها.

وحداد القرن العالي في آن واحد مستخرج للمعدن وصاهر وهو الأقوى معرفة. فيضيف إلى معارف الحداد الصاهر معرفة تامة بأنباء قلب الأرض (علم المعادن) ومعرفة أسرار الأذغال والنباتات. وهو يعرف العمران النباتي الذي يغطي الأرض إذا ما حوت معدناً معلوماً، ويعرف كيف يتحسس مناجم الذهب بمجرد النظر في النباتات والحجارة.

وهو يعلم تعزيمات الأرض وتعزيمات النباتات. وإذا اعتبر الطبيعة حية تنشطها قوى، فكل عمل لا بد أن تصحبه «آداب للسلوك شعائرية» من شأنها أن تحفظ توازنه المقدس وأن تحمي، فكل الأمور مرتبطة بعضها ببعض، ولكل صدى في الكل، وكل عمل يزعزع قوى الحياة وتتبعه سلسلة من النتائج التي يتحمل الإنسان ردود فعلها.

وكانت علاقة الإنسان التقليدي اذن بالعالم علاقة حية من المشاركة لا مجرد علاقة استعمال. ومن المفهوم في هذه النظرة الشاملة للعالم إن مكانة الجاهل ضئيلة.

في بلاد بابولي القديمة مثلاً، كان الذهب الذي تعج به الأرض يعتبر معدناً إلهياً، ولم يكن مادة استغلال متطرفة. فكان يستخدم بخاصة لصنع أدوات الملك أو أدوات الثقافة، وكان يقوم أيضاً بدور العملة للتبادل في صورة هدية. وكان في إمكان الكل أن يستخرجوه ولكنه لم يكن في وسع أحد أن يحتفظ لنفسه بثير يتجاوز حجماً معيناً.

وكل تبرّ تجاوز الوزن العادي يسلم إلى الآلهة ويفخم «الذهب الملكي» ذلك المستودع المقدس الذي لم يكن في وسع الملوك أنفسهم أن يغرّفوا منه. وتناقلت هكذا بعض الكنوز الملكية دون أن تتغير حتى الاحتلال الأوروبي، فالأرض لله وليس لأحد أن يملكها، بل له منها فقط حق الانتفاع. ولنعُد إلى الصانع التقليدي، فهو المثال النموذجي لتجسيم معارفه ليس في حركاته وأفعاله فقط بل في حياته كاملة، إذ من واجبه أن يتجنب مجموعة من المحرمات، وأن يقوم بعدة واجبات مقترنة بوظيفته، وذلك قانون حقيقي للسلوك إزاء الطبيعة وإزاء بني جنسه.

فيوجد ما يسمى «طريق الحدادين» في (البامبرا، نوموسيرا أو نومويا) و«طريق الفلاحين» و«طريق النساجين» الخ وفي مستوى الجنسية طريق الفلانيين (لوفل فلغلد) وهي قوانين حقيقية أخلاقية واجتماعية وقضائية خاصة بكل مجموعة، نقلت بأمانة واحترمت عن طريق المأثور المنقول. ويمكن القول إن الصناعة أو الوظيفة التقليدية تحسم ذات الانسان وذلك هو كل الفرق بين التربية العصرية والمأثور المنقول.

فكل ما يدرس في المدرسة الغربية مهما كان مقيدا فاننا لا نعيشه دائما بينما تتجسم المعرفة المتوارثة بواسطة الرواية الشفاهية في الكائن بأكمله: وتجسم الآلات وأدوات الصناعة الكلمات المقدسة، فيضطر المتعلم عند اتصاله بالصناعة، وعند كل حركة أن يعيش الكلمة.

ولهذا فان التراث المنقول في مجموعه، لا يتلخص في نقل الأخبار أو بعض المعارف، بل هو يولد ويكُون اغوجا خاصا للانسان ويمكن أن يقال، توجد حضارة الحائكين وحضارة الرعاة الخ... اني اقتصرت هنا على التعمق في مثال الحائكين والحدادين، اذ هي اغوجية خاصة، ولكن كل نشاط تقليدي يكون عموما مدرسة عظيمة للتدريب، أو هي سحرية دينية، ومسلك نحو الوحدة التي هي «حسب المدرسين» إنعكاس لها أو عبارة من عباراتها الخاصة.

وللحفاظ داخل النسب بالمعلومات السرية والقوى السحرية المتوارثة، فان على كل مجموعة غالبا أن تراقب المحرمات الجنسية القاسية ازاء الاشخاص الخارجة عن المجموعة، وان تتعاطى التزاوج داخلها، وليست علة ذلك اذن فكرة النبد والتحذر من التعاطي مع الغير، بل هي ارادة الاحتفاظ في المجموعة بالأسرار الشعائرية. ونرى هكذا كيف وصلت هذه المجموع المتخصصة تخصصا ضيقا، والمتصلة بالوظائف المقدسة شيئا فشيئا إلى فكرة «الطبعة» كما هي موجودة اليوم في افرقيا السهوب. يقول المثل: «إن الحرب والشرى هما اللذان صنعا الاسير، ولكن الله هو الذي كون الصانع (نياما كالا)».

ان فكرة التفوق أو الدونية بالنسبة الى الطبقات، لا تتركز على أي واقع اجتماعي تقليدي، وقد ظهرت على مر الازمنة في بعض الجهات فحسب، ومن الراجح أن يكون ذلك تابعا لظهور بعض الامبراطوريات، حيث قامت الوظيفة الحربية المتخصصة للاشراف، بمنح هؤلاء ضربا من التفوق. وفي الازمنة العتيقة بدون شك، فان فكرة النبالة لم تكن هي عينها، وكان للسلطة الروحية الأولية تفوق على السلطة الزمنية. وفي تلك الازمنة كان السيلاتيقي (الشيوخ العارفون الفلانيون) وليس الأردو (الرؤساء والملوك) هم الذين يسيرون المجموعات الفلانية.

وخلافا لما كتب أو ظن بعضهم، فان الحداد في افرقيا يحشى أكثر ما يحترق هو «أول ابن للارض»، مالك للنار ويمارس للقوى السرية. فيحشى على الأخص ماله من سلطة.

وعلى كل فان التقاليد أوجبت على الاشراف أن يحققوا القيام بشؤون الفئات «الطبقية» أو فئات النياما كالا (في البامبرا) (نيانيو وجمعه نيانيي بالفلانية) فكان لهذه الفئات ميزة امكانية طلب الخبزات (أو المال) لا كأجر عن عمل، بل كحق لا سبيل للاشراف أن يرفضوه.

وفي تقاليد مندي وجماله في مالي، وان كان يمتد قليلا أو كثيرا على كامل تراب بافور القديم (أي

قديما افر يقبىا الغربية الفرنسية ما عدا مناطق الغابة وشرقي النيجر) فان الفئات الطبقية تشتمل على:

- الحدادين (نومو في لغة مبارا، بايلو بالفلائية)
 - الحائكين (مابو، بالفلائية كما في الجبارا)
 - عمال الخشب (من حطابين ونجاري الاثاث، ساكي بلغة بامبارا ولابو بالفلائية)
 - عمال الجلد (كرانكي باليامبارا، سكي بالفلائية)
 - المنشطين العموميين أي القصاصين (ديالي باليامبارا، ويسمون بالفلائية بالاسم العام نيايبي، نياماكالا) ويعرفون بالفرنسية باسم فريو (Griots).
- ومع أنه لا وجود للتفوقية بالمعنى الكامل، فإن الفئات الأربع للنيا ما كالا الصناعات، لهم الاولوية على القصاصين، اذ هي تقابل تدريبات ومعرفة. في القمة يوجد الحداد، ثم يليه الحائك اذ صناعتها أكثر تدربا. وللحدادين والحائكين أن يتزوجوا على السواء من نساء الفريقين اذا كن من الفخارين التقليديين ولهن عين التدريب النسائي.
- وفي تصنيف ماندي يكون الصناعات نياما كالا مصنفين دائما ثلاثة ثلاثة: فهناك ثلاثة حدادين (نومو في اليامبارا و بايلو في الفلائية).

احدهم حداد منجم (أو ذو فرن عال) يستخرج المعدن ويصهر الفلز. وكبار العارفين منهم يمكنهم العمل أيضا في المصهر.

والثاني حداد الحديد الأسود، وهو يعمل في المصهر ولا يستخرج المعدن.

والثالث حداد المعادن الكريمة، او الصائغ، وهو عامة من أهل البلاط وبهذه الصفة يستقر في سقيفة الرؤساء أو النبلاء.

وهناك ثلاثة نساكين: مابو

- نساك الصوف، وهو اعرافهم، والصور المرسومة على البطانيات دائما رمزية، وترتبط بأسرار الأعداد وعلم الكونيات، ولكل رسم اسم.
- نساك الكركا، وينسج بطانيات كبيرة والناموسيات أو الكلات من القطن، يمكن أن يبلغ طولها ستة أمتار، وعليها لا نهاية من الصبغ التصويرية. ويشاهد منها ما يشتمل على ١٦٥ عنصرا فنيا (ولكل عنصرا رسم ومدلول، والاسم نفسه رمز يدل على الكثير من المعاني).
- النساك العادي، و يصنع أشرطة بسيطة بيضاء ولا يتلقى تدريبا كبيرا وقد يستعمل الاشراف النسيج العادي، ومن ذلك بعض البامبارا حيث يصنعون قطعاً بيضاء دون أن يكونوا من فريق النساكين، ولكنهم ليسوا عارفين وليس في وسعهم أن ينسجوا الكركا ولا الصوف ولا الناموسيات.
- و يوجد ثلاثة أنواع من عمال الخشب (ساكي في بامبارا ولا توفى الفلائية).
- صانع المهاريس والمدقات والدميات المقدسة. فالمهراس الذي تدق فيه الادوية المقدسة آلة شعائرية ولا يصنع من أي نوع من الأخشاب. وهو كالمصهر، يرمز الى القوتين الأساسيتين: فالمهراس كالسندان يمثل القطب المؤنث بينما يمثل المدق، كالمطرقة، القطب المذكر.
- وتصنع الدميات المقدسة بطلب من عارف — دوما «يشحنها» بطاقة مقدسة بقصد استعمال



- (١) عازف على آلة الد «فاليها»
الخشبية ذات الاوتار الفولاذية.
(مجموعة متحف الانسان).
● (٢) فنان (شاعر وقصاص وعازف)
مشجول من شعب الـ «هوتو» يمثل دور
المواسي (السيد) الذي تدهورت به
الحال, (مجموعة ب. مائيه).



معين. وعلاوة على شعائرية «الشحن» يجب أن يتم اختيار الخشب وتفصيله في ظروف خاصة يعلم الحطاب سرها.

وصانع الخشب يقطع هو نفسه ما يحتاج اليه من خشب، فهو أيضا حطاب و يقرن تدريبه بمعرفة أسرار الادغال والنباتات. وحيث ان الاشجار تعتبر حية مكونة من أرواح أخرى حية، فلا تقلع ولا تقطع بدون تحفظات طقوسية خاصة يعلمها الحطاب.

— صانع الأدوات أو أثاث المنزل من خشب.

— صانع الزوارق الجلدية، ويجب عليه أن يكون عارفا أيضا بأسرار الماء.

وفي مالي ان السومونو وقد صاروا صيادي أسماك دون أن يكونوا من جنس البوزو، شرعوا في صنع الزوارق الجلدية بدورهم. وهم اللذين يشاهدون بصدد العمل بين كوليكورو وموبيتي على ضفاف النيجر.

وهناك ثلاثة أصناف من عمال الجلد (كرانكي بالبابيرية وساكي بالفلاندية):

— صانعو الأحذية.

— البرادعيون.

— السراجون.

وعمل الجلد يقابل أيضا تدريبا، فالكرانكي اشتهروا كثيرا بكونهم سحرة. والصيداؤون وصيادوا الأسماك والفلاحون لا يعتبرون طبقات بل أجناسا، ونشاط من أقدم أنواع النشاط في المجتمع البشري، و«الجنى» (فلاحة) و«الصيد» (و يشمل صيدين: في البر وعلى الماء) يمثلان مدرستين كبيرتين للتدريب، اذ لا تواجه قوى أرض الام المقدسة مواجهة كما يتفق، ولا كذلك قوى الأدغال حيث تعيش الحيوانات.

فالصياد كحداد القرن العالي يعرف عموما كل «تعازيم الادغال» و ينبغي له أن يملك بتعمق علم العالم الحيواني.

والمستطبيون (بواسطة الأعشاب و «بهوبة الكلمة») قد ينتمون الى أي طبقة أو أي جنس، وهم غالبا من الدوما.

ولكل شعب غالبا ميراث من المواهب الخاصة نقل بالتدريـب جيلا بعد جيل. فالدوكون في مالي اشتهروا بمعرفة سر الجذام الذي يعالجه بسرعة كبيرة دون أن يبقى أي أثر، وكذلك سر معالجة السل. وهم علاوة على ذلك مجتبرون بارعون، يعلمون كيف يرجعون العظام المكسورة الى محلها حتى في حال الكسور الخطيرة جدا.

المنشطون العموميون أو «القصاصون» (الديلي في البامبرا)

اذا كانت العلوم الباطنية الخفية نصيب «أصحاب السكين» ومنشدي الالهة، فالموسيقى والشعر الغنائي والقصص التي تنشط التسليات الشعبية والتاريخ أحيانا، ترجع كلها الى «القصاصين» وهم نوع من المنشدين المتجولين أو الشعراء الموسيقيين الذين يجوبون البلاد أو يخدمون أسرة من الأسر.

وكثيرا ما ظن خطأ أنهم «التقليديون» الوحيدون الممكنون. فمن هم؟
انهم يقسمون الى ثلاثة أصناف:

— «القصاصون» الموسيقيون الذين يقعون على الآلات كلها (وحيدة الوتر والقيثارة والكُر والدف الخ)، هم أحيانا مغنون راثعون يحفظون الموسيقى القديمة وينقلونها وهم في آن واحد ملحنون.
— «القصاصون السفراء» والملاحقون بالبلاطات وهم يتكفلون بالوساطة بين كبار العائلات اذا كانت بينها خصوصيات. وهم دائما مرتبطون بأسرة مالكة أو شريفة وأحيانا بشخص واحد.
— القصاصون النسابون، المؤرخون أو الشعراء (أو ثلاثهم معا) وهم بصورة عامة أيضا قصاصون ورحالون غير مرتبطين حتما بأسرة من الأسر.

وتستعملهم التقاليد نظاما خاصا ضمن المجتمع. وتخلقا للهورون (الاشراف) كان لهم الحق في الجسارة وفي حرية كبيرة في القول في وسعهم أن يبدوا غير متحرجين بل وتحين وقد يمزحون في أمور كبيرة جدية أو كبيرة التقديس دون أن يؤاخذوا على ذلك. وليسوا مقيدين بحفظ السر أو باحترام الحق احتراماً مطلقاً. فقد يكذبون بكل جرأة وليس لأحد أن يقسو عليهم «هكذا قال الديبلي فليس هذا هو الحقيقة الحق، ولكننا نقبله على هذا الشكل» فهذا المثل يبين الى أي حد تقبل التقاليد دون اغترار تزييفات الديبلي وتقول عنهم «ان لهم فاهمقا».

وفي تراث البافور كله يجبر على الشريف أو الرئيس أن يتعاطي الموسيقى في الاجتماعات العامة، كما هو يلتزم بالتلطف في العبارة أو الكلمة يقول المثل: «لا يلبق الهذربم الهورون» لذا يؤول الأمر طبعاً بالقصاصين المرتبطين بالاسرالى أن يقوموا بدور الوساطة أو حتى السفارة اذا نجحت مشاكل كبيرة أو صغيرة، وهم «السان» مولا هم.

واذا كان بينهم وبين أسرة أو شخص ولاء، فهم يكلفون عادة بقضاء الحوائج العادية وخاصة بالقيام بالمساعي الرامية الى عقد زواج، فالشاب الشريف مثلاً لا يخاطب مباشرة امرأة ليبوح لها بحبه، بل يكلف بذلك «قصاصه» الذي يتصل بالبنت أو «بقصاصتها» ليصرح لها بمشاعر مولا ويلطري لها مزياه.

ويعتمد المجتمع الافريقى أساساً على الحوار بين الأفراد، والخطاب بين المجموعات أو الأجناس، فيكون الديبلي أي «القصاصون» العمال الناشطين الطبيعيين لهذه المحاورات واذا سمح لهم أن يكون هم «السانان فيهم» فقد ينكثون كلمتهم إذ اقتضى الأمر دون أن يؤخذوا على ذلك، وهذا ما لا يمكن للشريف، إذ لا يسمح له بالرجوع فجأة في كلمته أو في القرار الذي أخذه، بل ان «القصاصين» قد ينسبون لأنفسهم ذنباً لم يقتروه لارجاع المياه الى مجاريها أو لالتماس مخرج للشرفاء. وللحكماء الشيوخ في المجموعة وحدها أن يجلسوا جلسات سرية وأن يتحملوا العبء الثقيل المتمثل في «النظر الى الأمور من الكوة اللاتقة» ولكنه من خصائص «القصاصين» أن ينفذوا ما أقره الحكماء وسطروه. ولقد درّب «القصاصون» على تلقي الأخبار وعلى نشرها، فهم الحملة الكبار للأخبار ولكنهم في الوقت ذاته هم مثيروا القيل والقال.

واسمهم بالابامبرا، دبلي، يعني «الدم» فهم بمثابة الدم يحلون في جسم المجتمع، يبرئونه من علة أو يرضونه، كما يلفظون به الخصومات بكلامهم وبأناشيدهم أو يشعلون أوارها.
على أننا نصرح منذ الآن، أن تلك هي الخاصيات العامة، ولكن ليس كل القصاصين حتماً

وقحين سيثي الخلق، بل بالعكس، أنه يوجد من بينهم من يسمون «القصاصين الملوك» ديبلي قاما. لا ينتقصون شيئا عن الشرفاء من حيث الشجاعة وحسن الخلق والفضائل والحكمة، وهم لا يتجاوزون أبدا ما يمنحهم العرف من حقوق.

وكان القصاصون عاملا نشيطا عظيما للإتصال البشري ولتبادل الثقافة، فكثيرا ما كان لهم ذكاء كبير، وقد قاموا بدور عظيم في المجتمع التقليدي ببافور بفضل نفوذهم على الاشراف والرؤساء. وفي كل المناسبات، حتى اليوم، هم يحمسون أنفة الشريف العصبية ويثيرونها بأناشيدهم، أحيانا للحصول على الجوائز، وأخرى لتشجيع الشريف في ظرف عصب.

وفي السهرة قبل الحتان مثلا، يشجعون الطفل أو الشاب حتى يعرف بصره كيف يدوجديرا بأجداه. فيقول المني عند الفلانيين: «ان أبالك (١٢) فلانا في ساحة الوعى ابتلع عصيدة الحديد الحامية» (الخرطيش) دون أن يحرك جفنا، فأرجوك غدا أن لا تبدي خوفا من سكني الحداد المرفه. وفي حفلة العصا أو سور لدى فلانبي برورو بالنيجر، يعاضد القصاصون الشاب بأناشيدهم حتى يبرهن على شجاعته وصبره عند تلقيه ضربات العصا القاسية على صدره، دون أن يرتجف له جفن ولا تفارقه الإبتسامة.

وساهم القصاصون في كل معارف التاريخ بجانب مواليم محمسين لهم بذكر أنسابهم وإيادي آبائهم وأجدادهم. وذلك لما في ذكر الاسم من قوة عند الأفريقي، فترديد عمود نسبه يحیی الأفريقي ويمدح.

وكان نفوذ الديلي عبر التاريخ طيبا أو رديئا بحسب ما كانت كلماتهم تثير من نحوه الرؤساء وتدفعهم الى تجاوز الحدود أو بحسب ما كانت تذكرهم باحترام واجباتهم التقليدية — كما كان الشأن غالبا.

وكما نرى فإن تاريخ الامبراطوريات العظيمة في افريقيا البافور لا ينفصل عن دور الديلي الذي يستحق وحده دراسة معمقة.

وانما يكمن السر في قوة الديلي ونفوذهم في الهورون (الشرفاء) في معرفتهم للانساب ولتاريخ أسرهم. حتى أن بعضهم قد جعل من هذه المعرفة له اختصاصا، وهذا الصنف من القصاصين كثيرا ما لا ينتمى الى أسرة بعينها، فهم يجوبون البلاد باحثين عن أخبار تاريخية دائما في اتساع. وذلك يضمن لهم الامتلاك لوسيلة تكاد تكون سحرية لا يقاد التحمس لدى الاشراف عند انشادهم لهم انسابهم وشعاراتهم وتاريخهم فيتلقون منهم بصفة آلية جزيل العطايا، فقد يتخلى الشريف عن كل ما يحمل معه وكل ما بهيته ليكافئ قصاصا عرف كيف يضرب على وتره الحساس. وأتى ذهب القصاصون فهم آمنون أمنا كبيرا للحصول على قوتهم.

ولا يظن أحد مع ذلك أن الأمر متعلق «بأجر عمل»، ففكرة الأجر عن العمل منافية للتصور التقليدي لحق النيامكالا على الطبقات الشريفة (١٣)، فهذا كانت ثورة الأشراف وحتى

(١٢) أبوك في اللغة الأفريقية قد يعني أيضا عمك أو جدك الأعلى هونب كامل من جهة الأب.

(١٣) شريف ترجمة تقر ببنية جدا هورون، والواقع أن الهورون، هو كل من لا ينتمي الى طبقة النيامكالا ولا الى طبقة الجون (الأسرى) التي نشأت اثر سبي حروب قديمة. ويجب على الهورون أن يحتقوا الدفاع عن المجموعة وأن يبذلوا حياتهم في سبيلها وأن يضمنوا شؤون سائر الطبقات.

لدى افقرهم فانه يجب على هؤلاء تقليديا أن يبذلوا العطايا للديلي كما لكل نياما كالا أو وولوزو (١٤) «أسير الكوخ» ولو كان السائل أغنى بكثير من المعطي. وبصفة عامة أن طبقة الديلي هي الأكثر سؤالا، ولكن الديلي مهما كان ربحه فهو دائما فقير إذ هوينفق بدون احتراز معتمدا على الاشراف ليتمكن من العيش.

فينشد القصابون السائلون: «الا ان يد الشريف لا تبقى مغلوطة الى عنقه ببخل، بل هي دائما مستعدة للغوص في جيبه ليتبرع على السائل» وان اتفق أن توقفت الهدية فحذار من أذى «الرجل ذي الفم المحرم» «فلسانه» قد يفسدان الكثير من الامور ويحطان من الصيت.

ومن الوجهة الاقتصادية فان طبقة الديلي، كسائر طبقات النياما كالا و وولوزو كلها يتحملها تماما المجتمع وخاصة طبقات الاشراف، وان ما تم من تغيير تدريجي للأوضاع الاقتصادية وللأخلاق نقص من هذا الوضع إذ حصل أشراف قدامى أو قصابون قدامى على وظائف ذات رواتب، ولكن هذا التقليد بقي حيا وما يزال الناس ينفقون أموالهم بمناسبة أعياد التعميد أو حفلات الزواج ليدرأوا الهدايا على القصابين الذين يقدمون لتنشط هذه الحفلات بغنائهم. وقد حاولت بعض الحكومات العصرية القضاء على هذه العادة ولكنها فيما أعلم لم تنجح بعد.

ومبدئيا فعل الديلي وهو من النياما كالا، أن يتزوج من طبقات النياما كالا. لقد شاهدنا كيف تمكن القصابون النسابون المتخصصون في معرفة تاريخ العائلات وقد وهبوا غالبا ذاكرة عجيبة، من أن يصبخوا بطبيعة الحال بمثابة المثقفين للمجتمع الافريقي وأحيانا مؤرخين عظاما ولكن لا ننسى أنهم ليسوا وحدهم المختصين بهذه المعارف، فيمكن في الأكثر أن نسمي القصابين المؤرخين «علماء تقليديين» ولكن مع الاحتراز ان هذا انما هو فرع تاريخي عض من التراث الذي له عدة فروع أخرى.

ولأن يولد الشخص، قصابا (ديلي) فلا يلزم عنه حتما أن يكون الديلي مؤرخا، بل ذلك يجهوه لأن يكونه، كما يترتب عليه أن يكون عالما في مادة التقاليد، «عارفا» وبصفة عامة ان طبقة الديلي أبعد الطبقات عن مجالات التدريب التي تفتقر وجوب الصمت والستر وامتلاك الكلمة.

على أن امكانية صيرورتهم «عارفين» ليست محرمة عليهم ولا على غيرهم. وكما أن التقليدي الدوما (العارف التقليدي) قد يكون في الوقت نفسه عالما جليلا بالانساب ومؤرخا، فان القصابة ككل فرد من أي صنف اجتماعي، في وسعه أن يصير تقليديا دوما اذا مكنته مواهبه من ذلك، واذا عاش التدريبات التابعة لذلك (ما عدا تدريب الكومو المحرم عليه).

لقد ذكرنا أثناء هذه الدراسة مثالا من قصابين «عارفين» يعيشان حاليا بماي: إيو وبنزومان وهذا الأخير موسيقي كبير ومؤرخ وتقليدي دوما.

ان «القصاص» التقليدي الدوما في نفس الوقت، يمثل مصدرا للإرشادات مؤثقا به تماما. إذ تمنحه صفة «العارفة» التي يتصف بها قيمة أخلاقية عالية، وجدارة لامتناه عن الكذب وبصبح إنسانا آخر. إنه هذا «القصاص الملك» الذي تحدثت عنه أنفا، والذي يستفتي لحكمته ولعارفه، وهو وان كان يعرف كيف يسلي لا يبالغ في التمتع بحقوقه العرفية.

فاذا ما روى «القصاص» قصة يقال له عموما: «أهي قصة ديبي أم قصة دوما؟» فاذا كان

الاحتمال الأول قيل: «هذا قول دييلي» وهذا يتوقع السامع بعض التجميل للحقيقة قصد إبراز ما كان لأسرة أو أخرى من دور، ولا يفعل التقليدي الدوما ذلك، إذ همه قبل كل شيء النقل الحقيقي.

فهذا تمييز لا بد منه إذا كنا أمام قصاص مؤرخ، ومن المناسب أن نعرف هل هو اعتيادي أو دوما، على أنه يجب أن نعترف أن أساس الأحداث قلما يغير، ولكنه منطلق القفز الى الوحي الشعري، أو المدح الذي يأتي على الأقل «لتزيينه» ان لم يكن ليحرفه.

ويجب أن نزيل سوء فهم ما زالت رواسته تبدو في بعض المعاجم الفرنسية. فقد عني بالقصاص (دييلي) أن يكون «ساحرا» وهذا لا يطابق أي واقع. فقد يتفق أن يكون قصاص كرتي تيجي «مليقا الاذى بالسحر» كما قد يتفق ان يكون دوما «عارفا تقليديا» وذلك لا لكونه ولد قصاصا، بل لأنه درب وتحصل على المهارة، الصالحة أو الطالحة، في مدرسة شيخ في الفن.

ويأتي سوء الفهم من إيهام لفظ «كرو» (قصاص) الذي يعني بالفرنسية أحيانا مجموع النيامكالا — والديلي جزء منها — وفي الأغلب طبقة الديلي وحدها.

ويصرح الماثور أن النيامكالا كلهم سباء، ويعني ذلك الرجل المضطلع بالمعارف الخفية التي لا يعلمها الا المدربون، أي من بعض الجهات «العالم الباطن».

على أنه يخرج عن هذا المعنى طبقة فريق الديلي وهم لا يتبعون أي مسلك خاص للتدريبات فالنيامكالا الصناعاتهم السباء، ومن بين هؤلاء الكرانكي عامل الجلد، يتمتع بشهرة كونه «سباكا» أي ساحر بالمعنى السيء للفظ، واني قد أظن أن لفظي سباء وسباجا اشتباها على المترجمين الأوربيين الاولين (لقربها في النطق) وان إيهام لفظ «كرو» (القصاص) أكمل بقية الخلط.

فإذا جاء في الاثر أن «كل النيامكالا» هم من السباء «علماء الباطن» فقد فهموا، من ذلك ان النيامكالا هم من «السحرة» ونتج عن ذلك الاستعمال المزدوج للفظ كرو الجماعي أو الخاص: «كل القصاصين سحرة» ومنه جاء سوء الفهم.

ومهما يكن من الأمر، فإن قيمة الديلي لا تكمن في خصائصه المحتملة السحرية، بل في براعته في ممارسة الكلمة وهي شكل آخر من السحر.

وقيل أن نفارق «القصاصين» لنشر الى بعض الحالات الاستثنائية التي تجعلهم يلتبسون علينا. فقد نجد بعض النساكين وقد تركوا ممارسة الصناعة التفكيرية، فصاروا عازي قيثارة. ويسمهم الفلانيون بمبادو (حرفيا «يحملون على الظهر») إذ يتحمل عبأهم دائما الرجل أو المجموعة: وهؤلاء المبادو هم قصاصون دائما، وقد يكونون شعراء ونساكين ومؤرخين.

وقد يستعصى بعض الخطابين أدواتهم بالقيثارة، فيصرون موسيقيين ونساكين طبيين. فوكارايلو وادريس نكادا وقد كانا في علمي من بين كبار النساكين في فولتا العليا، كانا خطابين وصارا موسيقيين، ولكن ذلك من باب الاستثناء.

وقد يصير أيضا بعض الاشراف، وقد سقطوا، منشطين مسلين عموميين على أنهم ليسوا

موسيقين (١٥) و يطلق عليهم اسم تياورتا (بالجمرا كما في الفلانية) وهم أكثر وقاحة وفجورا من أوقح القصاصين، ولا يحمل أحد أقوالهم على حمل الجد. ويسألون القصاصون الهدايا، فيفر هؤلاء كلما رأوا واحدا منهم.

ولئن كانت الموسيقى، عامة، هي الاختصاص الأعظم للديبل، إلا أنه توجد مع ذلك موسيقى شعائرية يعزفها «العارفون» يصلحون بها الحفلات أو الرقصات الطقسية. وأدوات هذه الموسيقى المقدسة هي أدوات ثقافية حقة تمكن من الاتصال بالقوى الخفية. وسواء أكانت ذات أوتار أو هوائية أو إيقاعية فإنها تبقى متصلة بالعناصر: التراب والهواء والماء.

والموسيقى الصالحة «لتعزيم» أرواح النار هي من اختصاص جماعة «أكلي النار» الذين يطلق عليهم اسم كرسي — كولونين أو دونكاصور.

كيف يصير المرء تقليديا؟

كما أشرنا فإن جميع الناس في أفريقيا البافور كان بإمكانهم أن يصيروا تقليديين دوما أي «عارفين» في مادة أو عدة مواد تقليدية. وكانت المعرفة في تناول الكل (مع وجود التدريب في كل مكان بشكل أو بآخر) وكان الحصول عليها تابعا لمواهب كل منهم.

وكان للمعرفة من القيمة ما جعلها تفوق كل شيء وتكسب الشرف. فالعارف، في أي مادة من المواد، كان له أن يجلس في مجلس القدماء المكلفين بإدارة المجموعة، مهما كان صفته الاجتماعي، هورون (شريف) نيامكالا أو ولوزو (أسير الكوخ). والمثل يقول: «إن المعرفة لا تعرف العرق و الباب الأبوي (أي الفريق)، وهي تكسب صاحبها الشرف.

ولم تكن التربية الأفريقية نظامية تشابه التدريس الأوروبي. وكانت تكتسب على طول الحياة، وكانت الحياة ذاتها هي التربية. فحتى سن الاثني والاربعين في البافور، كان من المفروض أن يكون الإنسان في مدرسة الحياة «ولا حق له في الكلمة» في الاجتماعات، إلا بصفة استثنائية. فهو من المفروض أن لا يزال «مستمعا» معمقا المعارف التي كان تلقاها انطلاقا من تدريبه في الحادية والعشرين من عمره.

وابتداء من سن ٤٢ من المفروض أنه هضم التعاليم التي تلقاها منذ الصغر وتعمق فيها، وصار له حق الكلمة في المجالس وصار بدوره معلما يعيد إلى المجتمع ما كان قد أخذ منه، ولكن ذلك لا يمنعه إذا كان له غرض في ذلك، أن يتابع تعلمه من لدى من هم أكبر منه سنا ملتصقا نصائحهم. وكان يحيد الشيخ من هو أسن منه أو من هو أعلم منه يسأله رأيا أو تكللة لحبر. ويقال: «إن الأذن كل يوم تسمع ما لم تكن سمعته من قبل» وهكذا كان في الامكان أن تدوم التربية كل الحياة.

فبعدما تعلم الشاب النيامكالا الصانع صناعته وبعدها تناول التدريب التابع لها، يكون مستعدا لأن يطير بجساحيه وكثيرا ما كان ينتقل من قرية إلى قرية طالبا المزيد من معارفه لدى

(١٥) لنذكر أن الهورون (الاشراف) البيل أو الجبرا لا يعزفون أبدا أي نوع من الموسيقى على الأكل بين العموم ولقد حافظ التياورتا عامة على هذه العادة.

شيوخ جدد. فيقول الناس: «من لم يسافر لم ير شيئا» لذا كان يذهب من معمل إلى معمل متجولا إلى أبعد ما يمكن في البلاد. فأهل الجبل كانوا ينزلون إلى السهل، وأهل السهل يصعدون إلى الجبل، وأهل بلي دو كوالى مندي الخ. الخ.

وللتعريف بنفسه، كان الحداد الشاب يتأبط زقه في سفره، والحطاب شاقوره، أو بليطته، وكان النسيج يحمل منواله على ظهره، وعلى كتفه مكوكه أو بكرته، والحدائي كان يمسك حقيق ألوانه الصغيرة.

ولما كان الشاب يصل إلى قرية كبيرة حيث تكون الحرف متجمعة حسب الأحياء كان يوجه إلى الحلي الذي يضم المحترفين الذين ينتمي إلى حرفتهم.

وكان أثناء سفراته ويحونه، يحصل على مقدار من المعلومات يكبر أو يصغر بحسب براعته وطبيعته ذاكرته، وبصفة خاصة بحسب طبعه. فإن كان مهذبا سهل الجانب، سرىعا في مديد المساعدة، كان الشيخ يكشفون له أسرار كانوا يخفونها عن غيره اذ كما قيل: «إن سر الشيخ لا يقتنى بالمال، ولكن بالسلوك الحسن».

وأما الشباب المهورون فيقفضي طفولته في قصر أبيه وفي القرية حيث يحضر كل الاجتماعات ويسمع ما يحكيه كل أحد، ويحفظ كل ما يمكنه أن يحفظه. وفي جلسات المساء في «جمعية السن» كان كل طفل يروي ما سمع من القصص التاريخية والتدريسية — ولكن في هذه الحالة دون أن يدرك كل مغزاها.

ومنذ السابعة من عمره يلحق آليا بجمعية التدريب في قريته، ويشرف في تلقي التعاليم منها. وهذه التعاليم كما رأينا أنفا تخص كل أوجه الحياة.

وإذا ما روى شيخ قصة تدريبية في جمعية، فهو يشرح رمزيتها بحسب نوعية مستمعيه وملكة فهمهم، فقد يجعل منها مجرد قصة عجيبة للأطفال تتضمن معنى أخلاقيا تربويا، أو درسا معمقا عن أسرار الطبيعة البشرية وعلاقتها بالعالم الخفية. وكل يحفظ أو يدرك بحسب مؤهلاته.

وكذلك الأمر بالنسبة للأخبار التاريخية التي تنشط الاجتماعات، حيث تذكر الأحداث وحرركات القدامى أو أبطال البلد بأقصى تفاصيلها. ويسمع الغريب المار بالقرية أخبار البلدان النائية. وهكذا يكون الطفل منغمسا في محيط ثقافي خاص يتشبع منه حسب خصال ذاكرته. ويصبح التاريخ والقصص والروايات والأمثال والمغازي معالم في حياته.

وبصفة عامة فإن المهورون الشاب لا يتغرب، إذ هو مهيا للدفاع عن بلده. فيساهم في أشغال أبيه، وقد يكون فلاحا أو خياطا أو ممارسا لنشاط من سائر الأنواع المخصصة لطبقة المهورون، وإن كان فلانيا تبغ غيم آبائه، وتعلم منذ زمن مبكر كيف يحرس وحده قطعانه في قلب الأدغال ليلا ونهارا، ويتلقى التربية الفلانية المقرنة برمز به البقرات.

وبصفة عامة لا يصير الرجل تقليديا دوما وهو باق في قريته. فالداوي إذا اراد التعرق في معارفه، يجب عليه أن يسافر ليتعرف على مختلف أنواع النباتات، وأن يتلقى المعلومات من سائر العارفين في هذه المادة.

والإنسان الذي يسافر يكتشف ويعش تدريبات أخرى، ويسجل الفروق أو التشابهات،

و يفسح مجال ادراكه. ومهما يكن فهو يساهم في الاجتماعات و يستمع الى أخبار تاريخية و يتوقف عند ناقل ضليع في التدريب أو في الانساب، و يفتح على تاريخ البلدان التي يمر بها وعل عوائدها. ويمكن أن يقال ان من صار تقليديا دوما قد كان كل حياته بجائا سائلا وأنه لا يفتأ دائما كذلك. وكان الافريقي في السهوب يسافر بكثرة، ونتج عن ذلك تبادل للمعارف وانتقالها. وهكذا قلما كانت الذاكرة التاريخية الجماعية في افريقيا مقتصرة على مكان واحد، بل هي مرتبطة بالسلالات والعروق التي هاجرت عبر القارة.

وكانت قوافل عدة تشق البلاد على شبكة من الطرقات الخاصة المحمية تقليديا من قبل الالهة والملوك، حيث يأمن المسافرين من الغزو والتعدي. ولولا ذلك الأمن لكان عرضة الى غارة من الغارات، أو دون أن يعلم، الى ارتكاب خرق حرمة محلية، ودفع الغالي من جراء ذلك. وعند ما يحل المسافرون ببلد مجهول، يتجهون عند أخذ أعيانه كي «ينحوه رأسهم» فيصير هكذا هو الضامن لهم، إذ «من مس الضيف مس المضيف ذاته».

وأما عالم الأنساب الكبير فهو حتماً ودائماً رحالة كبير. فان أمكن للقصاص أن يكتفي بمعرفة نسب الأسرة التي تعلق بها، فعالم الأنساب الحق — سواء كان قصاصاً أولاً — يجب عليه حتماً أن يخترق البلدان ليوسع معلوماته، وليستخر عن أهم الفروع لعرق معين، ثم يجب عليه أن يرحل الى الخارج ليسترد عن تاريخ الفروع المهاجرة.

وهكذا فان مولوم كاو، كان أكبر عالم بالأنساب الفلانية عرفته، كان متمكناً من أنساب كل الفلانيين بالسنگال. وإذ منعه كبر سنه من التنقل أرسل ابنه مادو مولوم، ليتابع بحثه لدى عائلات الفلانيين المهاجرة عبر السودان (مالي) مع الحاج عمر. في المدة التي عرفت فيها مولوم كاو، كان قد جمع وحفظ تاريخ الماضي لنحو الأربعين جيلاً.

وكان من عادته أن يحضر في كل حفلات التسمية أو المآتم في الاسر الكبيرة ليسجل ظروف الولادات والوفيات التي كان يضيفها الى القوائم المستودعة في ذاكرته العجيبة. في امكانه أن يقول لكل شخصية فلانية « انت ابن فلان وابوه فلان بن فلان وابوه فلان بن فلان الخ » وقد توفوا في المحل الفلاني و يذكّر أسباب وفاتهم وأين دفنوا أو يقول: «أسمي فلان في يوم كذا وساعة كذا، على يد الولي فلان...» بالطبع أن كل هذه المعلومات كانت وما زالت تتنقل شفاهياً، وتسجل في ذاكرة عالم الأنساب وحده. وليس في الامكان أن نتصور ما يمكن أن تحتزنه ذاكرة الأمي. فخير يسمعه مرة واحدة ينقش كما لو أنك نقشته في قالب يظهر من جديد من أول كلمة إلى آخر كلمة، إذا ما طلبت منه الذاكرة ذلك.

وتوفي مولود كاو، عن سن ١٠٥ سنة حوالي عام ١٩٦٨ فيما أظن، وأما ابنه مادو كاو، فعمره اليوم ٥٠ سنة، وهو يعيش في مالي حيث يواصل عمل أبيه، بعين الطرق الشفاهية المحضة إذ هو أيضاً أمي.

ووهاب كاو، معاصر لمادو وكاو، وهو ما زال على قيد الحياة وقد قام من جهته ببحث عن العروق الفلندية اللسان (فلانيين ونكروا) في التشاد والكامرون وفي جمهورية افريقيا الوسطى وحتى الزاير، ليسترد عن الانساب والتاريخ فيما يخص العائلات المهاجرة الى هذه البلدان. وليس أن كاو من الديلي (القصاصين) بل هم من عرق فلندي اللسان مشبه بطبقة نيامكالا

له عين الامتيازات. وهم متمسكون منشدون أكثر منهم موسيقيون (ما عدا النسوة اللاتي يغنين مصاحبات غناءهن بالآلات بسيطة جدا) وقد يكونون حاكين ومسلين، و يضمون من بينهم عددا من علماء الانساب.

وعند المركا (عرق مندي) يسمى النسابون «كسيري» باسم عرقهم المرتبط بالمركا. ومن قال «نسابا» قال أيضا «مورخا» إذ ان النساب الحسن يعلم التاريخ والاحداث وحركات كل من الشخصيات المذكورة، وعلى الأقل من اشتهر منهم. وهذا العلم هو أساس تاريخ افريقيا نفسه، إذ أنه اذا ما اهتمنا اهتماما كبيرا بالتاريخ، فما ذلك من أجل معرفة الأزمنة بل من أجل الانساب، كي تتمكن من رسم انتشار أسرة أو فريق أو عرق عبر الزمان والمكان رسا جديدا. ولذا كان كل شخص في افريقيا عالما بعض العلم بالانساب؛ قادرا أن يعود الى بعيد في نسبه الخاص. ولولا ذلك يكون كان قد حرم «بطاقة تعريف»، في مالي قديما، لم يكن لأي شخص أن لا يعلم على الأقل عشرة أو اثني عشر جيلا من أجداده. ومن بين التكرور القدامى الاتين الى المسينا مع الحاج عمر، لم يكن واحد يجمله نسبه في فوتا السنغال (البلد الاصلي) أو يجمل كيف يتصل بالعائلات الباقية هناك. وهم الذين اتاهم بمادو مولوم إين مولوم كاوليسترشدهم في مالي لمواصلة بحث أبيه.

لقد كان النسب في آن واحد شعورا بالهوية ووسيلة بحث المجد العائلي ومرجعا اذا ما ثار جدال. فخصومة من أجل أرض مثلا قد تفصل بفضل النسب الذي يبين من من الأجداد أحياءها ثم زرعها، ولن أعطاها وفي أي الظروف الخ...

ويوجد ضمن السكان حتى اليوم، عدد كبير من العارفين في الانساب والتاريخ ليسوا لا من طبقة القصاصين ولا من فريق الكاولو. ويكون هذا بالنسبة لتاريخ افريقيا، مصدرا عظيما من الأخبار مفيدا على الأقل، لمدة أخرى معينة.

وكل شيخ هو نساب لفريقه الخاص. وفي الواقع فان القصاصين والكاولو إليه يرجعون وإياه يسترشدون لإكمال معلوماتهم.

وبصفة عامة، كل شيخ في افريقيا هو دوما «عارف» في مادة أو أخرى تاريخية أو تقليدية. وليس للقصاصين وللكاولو وحدهم خاصية معرفة الانساب، بل لهم وحدهم خاصية «الإشاد» يتقدمون بها لدى الاشراف، ليحصلوا على ثواب.

تأثير الإسلام

ان خصائص الذاكرة الافريقية وطرق نقلها الشفاهي لم يغيرها دخول الاسلام الذي عم جانبا وافرا من بلدان السهوب، أي بافور القديم. فحيثما انتشر الاسلام لم يطمس التراث الافريقي على تفكيره الخاص، بل أنه تلاعب هومع النقل الافريقي، كلما كان هذا النقل غير مخالف لمبادئه الأساسية. وذاك كان الشأن في غالب الاحيان. وكان التوافق بينها وثيقا الى حد أنه صار أحيانا من الصعب أن يميز الانسان بين أحد التراثين وبين الآخر.

فلما أدخلت أسرة كنتة الكبيرة العربية البربرية البلاد في دين الاسلام قبل القرن الحادي عشر بكثير، ومنذ أن تعلم الأهالي اللغة العربية، شرعوا في استخدام تراث الجدود لنقل الاسلام وشرحه. فشوهت هكذا مدارس عظمى اسلامية شفاهية محضة، تعلم الاسلام باللغات المحلية، ما عدا القرآن والنصوص المستعملة في أداء الصلاة.

وأذكر من بين العديد منها، مدرسة جلكوجي الشفاهية (المدعوة كاي) ومدرسة براني، ومدرسة أمادو فدية في الفارماكي (دائرة نيافنكي في مالي) ومدرسة محمد عبد الله سعادو، في دلي (دائرة نارة في مالي) ومدرسة الشيخ عثمان دان فوايو، في نيجيريا والنيجر، حيث يلقت كل التعليم بالفلانسية. وقرىبا منا نذكر زاوية تيرنوبوكار سالف في بندياكارا ومدرسة الشيخ صالح الوالي الكبير الدوكوني، الذي مازال على قيد الحياة.

ولتصور قابلية الذاكرة الافريقية، فلنذكر أن معظم الأطفال عند خروجهم من المدارس القرآنية، كان في وسعهم أن يتلوا القرآن كاملا عن ظهر قلب، يرتلونه بالعربية ترتيبا مناسباً، دون أن يفهموا معناه.

وفي كل المدارس لم تهجر المبادئ الاساسية للتراث الافريقي، بل بالعكس انها استعملت وشرحت على ضوء الوعي القرآني. واشتهر بتطبيق عميق لهذه الطريقة التعليمية تيرنوبوكار، وقد كان في آن واحد تقليديا في المادة الافريقية وفي الاسلاميات.

فبقطع النظر عن الرؤية المقدسة المشتركة للعالم، وعن التصور المشترك للانسان وللأسرة، فإننا نجد في كلا التراثين عين الاهتمام دائما بذكر المصادر (بالعربية اسناد)، وبعدم تغيير أقوال الشيخ. وعين الاحترام لسلسلة الاستاذ التعليمية، وعين النظام للطرق التدرجية (الطرق الصوفية بالجمع، طريقة بالمفرد وتنتهي سلسلتها الى الرسول نفسه) مما يمكن من تعميق معطيات العقيدة بالتجربة الشخصية.

وانضاف الى أصناف «العارفين» التقليديين المشهورة أصناف الفقهاء (المثقفين بالعربية أوفي الفقه الاسلامي) وكبار مشايخ الصوفية، بينا احتفظ ببنيات المجتمع (طبقات وصناعات تقليدية) حتى الاوساط الأكثر تمسكنا في الاسلام فقد بقيت حاملة لتعليماتها الخاصة. وصارت معرفة المواد الاسلامية مصدرا جديدا للشرف. فألقا علي المتوفي سنة ١٩٥٨ وأصله من الكاولو، كان أكبر مرجع اسلامي بدائرة بندياكارا ككل أفراد عائلته من قبله، وكابنه من بعده (١٦).

تاريخ جنبي

لكي أصور تصويرا عمليا كيف تعيش الاخبار التاريخية أو غيرها وكيف تبقى بأمانة مدققة في الذاكرة الجماعية لمجتمع ذي تراث منقول، سأقص كيف أتبع لي أن أجمع العناصر التي مكنتني من

(١٦) بصفة عامة حيث ان الاسلام أتى من الشمال ومن الشرق فقد أثر على المحصور في بلاد السهوب بينا أتت النصرانية من البحر فأثرت تأثيرا أكبر في مناطق الغابات من الساحل ولا يمكنني أن أتحدث عن التقاء التقاليد بالنصرانية إذ ليس لي علم بالموضوع.

تحرير تاريخ «الامبراطورية الفلانية بالمسينا في القرن الثامن عشر» (١٧) بالاعتماد فحسب على المآثور المتقول.

وحيث أنني أنتسب لأسرة التجاني، الذي كان يرأس مقاطعة، وجدت نفسي منذ الصغر في أحسن الظروف لأسمع وأحفظ. فبيت أبي ببندياكارا، كان دائما عامرا بالناس، وكانت تقام فيه اجتماعات كبيرة، ليلا ونهارا حيث كان كل واحد يروي فيها المواد المختلفة من المآثور. وإذا كانت أسرتي داخلية في أعماق أحداث العصر، فكثيرا ما كانت الرويات تهم التاريخ، فيروي أحدهم جزءا معروفا من معركة أو من حدث مشهور. وكنت دائما أحضر هذه الاجتماعات، فلم أفلت منها كلمة، وكانت ذاكرتي بمثابة الشمع الصقيل، تسجل كل شيء.

فهناك، منذ صغري، عرف كوكل القصص الكبير وكان نسبة ومؤرخا لفلندي اللسان، وكنت اتبعه في كل مكان، وتعلمت منه الكثير من القصص والأخبار التي كنت فخورا بروايتها فيما بعد لأقرا في الصغار في «جمعية السن» حتى أنهم لقبوني «أمكوكل» أي «كوكل الصغرى».

وقد حدث لي ظروف خارجة عن ارادتي، باتباع أسرتي، الى أن أزور الكثير من البلدان، حيث كان في وسعي أن أتصل بكبار التقليديين. فحين أرغم أبي مثلا على الإقامة الجبرية في بوكوفي، حيث تبعا كوكل، تعرفت على الدوما الكبير البحري دانفوسيني، ثم على أخيه الصغير لطيف.

وفيا بعد، في باماكو كما في كاتي، أعيدت سلطة أبي أو كادت وكان التقليديون يردون من كل البلدان ليجتمعوا عنده، علما منهم أنهم سيلتقون «بعارفين» آخرين، يمكنهم بجوارهم أن يراقبوا معارفهم الخاصة أو أن يتوسعوا فيها، إذ أن المرء يجد دائما من هو أعلم منه.

وهناك، شرعت في معرفة الكثير من الأمور الخاصة بتاريخ الامبراطورية الفلانية بالمسينا وذلك في رواية مسينينكا (أي من كان أصلهم من المسينا من أتباع أسرة الشيخ أمادو) كما في الرواية التكرورية، لمناوثيم، وحتى عروق أخرى (بامبرا، مراكا، سراكلي سنغاي الخ) ممن ساهموا في الأحداث أو حضروها.

وقد انطلقت هكذا من قاعدة شخصية، مهينة أحسن تهيئة فشرعت بعد ذلك في جمع الأخبار بكيفية منتظمة. وتمثلت طريقتي أولا في تسجيل كل الأخبار، غير مكترث بصحتها أو بما قد يداخلها من المبالغة. ثم اني عارضت أخبار المسييكي بأخبار التكرور وغيرها من الأجناس المعنية. ففي كل منطقة يمكن أن نجد أجناسا تمكننا رواياتها من مراقبة تصريحات أهم المعنيين بها.

وكان عملا طويل النفس. وتطلب مني جني هذه الارشادات خمس عشرة سنة وتنقلات قادتي من فوطاجالون (السنغال) الى كاتو (نيجيريا) كي أستعيد كل رحلات الشيخ أمادو، والشيخ عمر، وكل الطريق التي قطعها.

فسجلت بهذه الطريقة ما لا يقل عن أخبار ألف غير، ولم أحتفظ في النهاية الا بما توافق من هذه التصريحات أي ما كان مطابقا في الآن نفسه لروايات مسييكي والتكرورا وغيرهما من الأجناس التي يهمها الأمر، فأوردت ذكر المصادر في كتابي.

وأمكنني أن لاحظ في الجملة، أن مجري الالف قد راعوا حقيقة الأحداث. فلحمة الخبر كانت

هي هي في كل مصدر وإنما تسببت الفروق المتعلقة ببعض الجزئيات الصغيرة، أما عن قيمة ذاكرة المخبر أو عن دلافة لسانه الخاصة. فبحسب انتهاء الناقل الى عرق أو آخر، قد يكون ميالا الى الخط من بعض الهزائم أو الى السعسي في تبريرها. ولكنه لم يكن ليغير المعطيات الأساسية. وقد يستسلم القصاص بتأثير الموسيقى المصاحبة له الى الحماس يهزه، ولكن العناصر تبقى هي نفسها كذل الأماكن والمعارك والانتصارات والهزائم والتلاقيات وما تبودل من أقوال، وما تقوه به أهم الشخصيات الخ....

وبرهنت لي هذه التجربة أن المأثور المنقول له القيمة الكاملة من الوجهة العلمية. فليس في الامكان فقط، كما فعلت، ان يقارن بين روايات من مختلف الأجناس لمراقبتها، بل ان المجتمع عينه يقوم بمراقبة ذاتية مستمرة. ولن يسمح راولنفسه أن يغير الأحداث، اذ يكون بجواره دائما أصحاب أو من هم أسن منه، يشيرون في الحال الى كل خطأ و يلقون في وجهه سبة الكذب الخطيرة. وذكر لي الأستاذ منتي، أنني رويت في تاريخ الامبراطورية الفلانية بالمسينا، أخبارا جمعا أبوه قبل ذلك بخمسين سنة، فلم يتغير منها حرف واحد. وفي ذلك ما يعطي فكرة عن أمانة الاحتفاظ بالمعطيات في المأثور المنقول.

خاصيات الذاكرة الإفريقية

لقد لوحظ أن من بين كل شعوب الدنيا، ان الذين لا يكتبون هم الذين لهم أقوى ذاكرة. وقد ذكرتُ مثال النسباين الذين في وسعهم أن يحتفظوا بعدد من العناصر، ويمكن أن نذكر كذلك مثال التجار الاميين (وأعرف منهم الكثير) ممن يمارسون أعمالا تقدر أحيانا بعشرات الملايين مقرضين المال للعديد من الأشخاص أثناء تنقلاتهم ويحفظون في أدمغتهم أدق الحسابات عن حركات البضائع والمال، دون أي مذكرة مكتوبة ودون أقل غلط. وتسجل المعطاة التي يجب الاحتفاظ بها في ذاكرة التقليدي دفعة واحدة كما لو كانت على شمع بكر، وتبقى في متناولها بأكملها (١٨).

واحدى خاصيات الذاكرة الافريقية، هي أنها تسترجع الحدث أو الخبر المسجل بأكمله كالشريط الذي ينتشر من بدايته الى نهايته، وترجع ذلك بصيغة الحاضر، وليس الأمر تذكرًا، بل هو نحو يل حدث متصرم الى الحاضر حدث ساهم فيه الكل. الراوي ومستمعوه.

وهنا يمكن كل فن القصص. ولا يكون القصص قصاصا اذ لم يقدر على رواية الخبر كما وقع فعلا، بحيث يصير المستمعون كالقصاص نفسه شهداء أحياء نشيطين من جديد. وكل افريقي نسبيا قصاص. فاذا وصل غريب الى قرية فهو يسلم فيقول: «أنا غريبكم» فيقال له: «مدنا بأخبار»

(١٨) يمكن أن تقرب هذه الظاهرة من كون الملكات الحاسة عند الانسان هي أقوى كلما كان مضطرا الى استخدامها بقوة، وتتضاءل في الحياة المعاصرة. فالصيد التقليدي الافريقي مثلا في وسعه أن يسمع بعض الأصوات على بعد عدة كيلومترات وأن يعرف هويتها. ونظرة حاد للغاية، وبعضهم «يحمس» بالماء، شأن كشافي التبايع بدون عصا، وللطوارق في الصحراء حاسة التوجه تشبه المعزة الخ... بينما يغمر الانسان المعاصر من كل جانب بالاصوات والأخبار فتتضاءل ملكاته شيئا فشيئا - ومن المثير طيبا أن ساكن المدن تنقص حاسة سمعه شيئا فشيئا.

فيقص اذن حكاياته، منذ انطلاقة من موطنه وما شاهد وما سمع وجرى الخ. وذلك بحيث يشهد مستمعوه رحلته و يعيشونها معه. ولذا تستعمل دائما صيغة الرواية في الحاضر. وبصورة عامة فان الذاكرة الافريقية تسجل المشهد كله: المهاد والاشخاص وكلامهم وحتى زهم في أدق جزئياته. ففي أخبار الحرب عند التكرور يعرف أي بوبو مطررز كان يلبسه البطل الأعظم عمر لصمصا دوندو في معركة من المعارك ومن كان سائسه وماذا جرى له، وما كان اسم حصانه وما جرى له الخ... وكل هذه الجزئيات تحيي القصة وتجعل المشهد حيا. لذا لا يستطيع التقليدي أن «يلخص» او هو لا يقدر على ذلك الا بصعوبة، فاذا ما طلب منها أن يلخص مشهدا، فذاك يعني عنده أنه يبتره، وليس له تقليديا الحق في ذلك، فلكل جزئية قيمة في حقيقة اللوحة.

فاما أن يقص الحدث بأكمله واما أن لا يقصه، وإذا ما طلب منه ذلك يقول: «ان لم يكن لديك الوقت الكافي لتسمعي فأسأفه عليك يوما آخر». وكذلك فهو لا يخشى أبدا التكرار ولا يمل أحد من الاستماع اليه وهو يروي قصته، بعين الأنفاظ، كما قد يكون حكاها عدة مرات، وكل مرة ينتشر الشرط بأكمله من جديد، والحدث هو هناك، وقد استعيد و يصير الماضي حالا والحياة لا تلخص. وعند الاقتضاء قد تقتضب القصة للأطفال بتداخل بعض الفصول، ولكنها في هذه الصورة لا تبقى حقيقية. وإذا ما كان الأمر موجها للكهول، فاما أن يروي الحدث بكامله واما أن لا يروي. وهذه الخاصية للذاكرة الافريقية التقليدية المقترنة بسباق الاثر المروي، هي في حد ذاتها ضمان للصحة والصدق.

وأما ذاكرة التقليديين، ولا سيما التقليديين الدوما أو «العارفين» التي تجمع بين مجالات فسيحة من المعرفة التقليدية، فهي تمثل خزانة حقا لم «تصنف» فيها الوثائق ولكنها مجردة تماما. وبالنسبة للعقل العصري، فان هذا فوضى، ولكن بالنسبة للتقليديين اذا ما كانت هناك فوضى فهي على شاكله ذرات الماء المستزجة في البحر لتكون «كلا حيا»، وفي هذا البحر هي تنتقل بسهولة تنقل السمكة في الماء.

والجذادات اللامادية للمأثور المنقول هي المغازي والأمثال والقصص والخرافات والاساطير الخ... وهي تمثل مجمل ما سيشرح، أو مدخلا لخبر تربوي قديم أو مرتجل. فنيا يخص القصص مثلا ولا سيما القصص الشدرية، هناك لحمة لا تتغير أبدا، لكن القصص في وسعه أن يضيف اليها تحسينات وشروحا أو تعاليم ملائمة لفهم المستمعين. وكذلك الشأن بالنسبة الى الأساطير، وهي خلاصات للمعارف في شكل تأليني يمكن المدرس دائما أن يشرحها أو يعمقها لتلاميذه. ويجب أن نكون يقظين محتوي الأساطير وأن لا نبوبها بسرعة فقد تغطي حقائق من مراتب مختلفة جدا بل أحيانا قد تترك في عدة مستويات في آن واحد.

وإذا ما عاد بعضها الى معارف باطنية و «ستر» المعرفة مع نقلها عبر العصور، فان البعض الآخر قد يكون له صلة بأحداث واقعية. ولندكر مثل الطيانابا، الحية الاسطورية الفلائية، وتروي خرافتها ومغامراتها وهجرتها خلال السهوب الافريقية منذ المحيط الأطلسي. وحدا حب الاطلاع بالهندس بليم الذي كلف حوالي ١٩٢١ ببناء سد مستندنف ان يتبع اثر الاشارات الجغرافية الموجودة في

الاسطورة التي علمها اياه حمادي جنكودو «العريف الكبير الفلاني». ووقع له عجب كبير حين اكتشف هكذا، اثر المجري القديم لنهر النيجر.

الخلاصة

ان العصر الحاضر بالنسبة لافريقيا عصر التشعب والتحرك، تتراكم فيه عوالم وعقليات وأزمئة متباعدة، يتداخل بعضها في بعض، متأثرة أحيانا بعضها ببعض لا يفهم أحدها الآخر دائما. فيتجاوز فيه القرن العشرون مع القرون الوسطى، ويساير الغرب المشرق، والدبكاتية تلك الطريقة الخاصة «للتعلم» العالم تحاذي «الاحيائية» وذلك الوجه الخاص لعيشه وتجربته بكل ذاته.

ان الموجهين الشباب المعاصرين يسرون الادارة بعقليات وأنظمة قانونية أو مذاهب مروثة مباشرة، من أنماط أجنبية، شعوبا وحقائق تنتمي الى قوانين أخرى وعقليات أخرى. مثلا في معظم أراضي افريقيا الغربية الفرنسية كان القانون القضائي المقرر عقب الاستقلال من قبل أهل القانون الشباب عندنا، وهم حديثو العهد بالجامعات الفرنسية، نسخة مجردة لقانون نابليون. وتبع ذلك أن الأهالي، وقد كانت تتحكم فيهم حتى ذلك الوقت عادات مقدسة ورثوها عن الأجداد وضمنت تشكل المجتمع، صاروا لا يفهمون لماذا يحكم عليهم باسم «عادة» ليست عاداتهم لا يعرفونها ولا تلائم واقع البلاد العميق. ان أساسا ما سأسميه «افريقيا القلدة» هي انها كثيرا تسيرها أقلية مثقفة لم تعد تفهمها، حسب مبادئ لا توافقها.

فبالنسبة للطبقة المثقفة الجديدة في افريقيا، وقد كونتهم النظم الجامعية الاوربية، وفي كثير من الأحيان فان التقاليد عندهم ماتت، أو انها مجرد «خرافات شيوخ»، على أنه يجدر أن نقول إن جزءا هاما من الشباب المثقف يشعر أكثر فأكثر، منذ بعض الوقت، بالحاجة الملحة لتولية وجوههم نحو المأثور المنقول عن الأجداد، وإبراز قيمه الأساسية لاكتشاف جذوره الخاصة وسر هويته العميقة. وبالعكس ففي «افريقيا الأصل» التي تعيش غالبا بعيدا عن المدن الكبيرة التي — وكأنها جزر من أوروبا — مازال التراث حيا ويمكن العثور حتى الآن — كما أشرت الى ذلك أنفا — على عدد كبير من ممثليه أو من حفظته، ولكن الى متى سيدوم ذلك؟

ومشكل المشاكل في افريقيا التقليدية هو بالفعل مشكل الانقطاع في النقل. وأول قطع تم في المستعمرات الفرنسية القديمة، مع حرب ١٩١٤، اذ جند معظم الشباب للقتال في فرنسا ولم يعد منهم الكثير. فقد فارق الشباب البلاد في فترة كان من الواجب أن يخضعوا فيها الى التدرجات الكبرى، وأن يعمقوا معارفهم بأشرف من هم أكبر منهم سنا.

وساعد أيضا على هذا العمل الایفاد الاجباري لبناء الأعيان الى «مدارس البيض» بقصد قطع الصلة بينهم وبين التراث. وكان الهم الأعظم للسلطة الاستعمارية — وهذا متروك — ان تقتلع بقدر ما يمكن التراث الاهلي لتغرس في مكانه تصوراتها الذاتية. وكانت المدارس العلمانية أو الدينية هي الآلات الأساسية لهذا العمل التمهيدي.

وما تلقاه شبابنا من تربية عصرية منذ نهاية الحرب الأخيرة، أكمل هذا العمل وخلق ظاهرة حقيقية من الانسلاخ الثقافي.

ففسر التدرج من العواصم والتجأ الى الأُدغال حيث صار «الشيخ» يجدون من حولهم الأقل فالأقل من «الأذان المطبوعة» التي ينقلون اليها تعليمهم، من جراء الجاذبية الكبيرة، من قبل المدن والحاجات الجديدة، فهذا التعلم لا يمكن أن يمنح الا بحسب العبارة الشائعة، «من فم عطر الى أذن مطبوعة نظيفة» (أي حسنة التقبل).

ونجد أنفسنا الآن في كل ما يخص المأثور المنقول أمام آخر جيل من كبار المستودعين، لذلك لا بد أن يقوى مجهود الجمع في السنوات العشر أو الخمس عشرة المقبلة، والا سيضيع آخر المعالم العظيمة الحية من الثقافة الافريقية، ومعها ستضيع الكنوز التي لا تعوض من تعليم خاص، مادي ونفسي في وروحاني في الآن نفسه، معتمد على الشعور بوحدة الحياة، تعليم يفرق مصدره في ظلمات الزمان.

وعلى الباحث أن يتسلح بالصبر للقيام بعمل الجمع هذا، كما ينبغي عليه ذكر واجب أن يكون له «قلب يمامة وجلد تمساح ومعدة نعامة». قلب يمامة لكيلا يفتناظ أو ينفعل ولوقيل له ما يكره من الامور، وإذا ما رفض سؤاله فلا فائدة في اللاحاق، بل عليه أن يستقر على فرع آخر. فالخصومة هنا لها آثار في مكان آخر، بينما اذا ما انصرف بهدوء فقد يتأسف عليه وكثيرا ما يطلب من جديد. وجلد تمساح كي يتمكن من الرقاد في أي مكان وعلى أي فراش بدون كلفة. وأخيرا المعدة نعامة كي يتمكن من أكل كل شيء دون أن يحصل له سوء أو يتقزز.

ولكن الشرط الأهم هو أن يعلم كيف يتخلى عن الحكم على كل شيء حسب معايير الذاتية، ومن يشأ أن يكتشف عالما جديدا لا بد أن يعلم كيف ينسى عالمة الخاص، والا فاهو الا ناقل عالمة معه ولا يكون في موقف «المستمع».

وافريقيا الشيخ العارفين، تحذر الباحث الشاب، على لسان تيرنو بوكار، حكيم بندياكاوا بقولها:

«ان أردت أن تعرف من أنا
وان أردت أن أعلمك ما أعلم
توقف مؤقتا عن أن تكون ما أنت
وتناس ما أنت به عليهم».

الفصل التاسع

علم الآثار الافريقي وتقنياته بما في ذلك أساليب تحديد تاريخ الآثار

زكي اسكندر

إذا ما اكتشف عالم الآثار حادثاً عارضاً فهو يبدأ عامة ببحثه في المستوى الاثري الخفض، فيسجل الطبقة التي وجدت فيها العينة، ويحل رموز النص المحتمل المصاحب له، و يصف شكلها و يقدر أبعادها الخ... ثم تدرس هذه المعطيات في مستوى علم الطبقات وفقه اللغة والنمذجية، وتنتج عن ذلك معلومات أثرية مهمة فيما يخص القدم والاصول الخ... على أنه في غالب الأحيان يتعذر عليه أن يحصل على معطيات تبوح بالجواب على سؤالاته، أو تساعد على اثبات الاستنتاجات المرجوة. ولذا لزم الالتجاء الى اختصاصات أخرى كي يكمل بحثه العلمي، ومن المفروض أن يمده هذا البحث بالمعلومات المطلوبة عن مادة الشيء وأصله وتقنية صنعه وعمره وما أعد له في الاستعمال. ويجدر مع ذلك أن نشير الى أن هذه البحوث لا تتجاوز زاوية جديدة يزعم عالم الآثار أن يدرس من وجهتها مشكلاً من المشاكل الخاصة، و ينبغي أن تكون المعطيات العلمية كلاً مع الاعتبارات الاسلوبية واللغوية والتابعة للطبقات (١).

وقد تأتي التقنيات العلمية أيضاً بمساعدة علم الآثار في دراسة الطبقات الجيولوجية التحتية، باستثناء الحفريات، وفي حفظ المعالم والانقراض المكتشفة.

وللتقنيات العلمية المستخدمة في علم الآثار ميزة عالمية. فهي تنطبق على افريقيا تماماً كما تنطبق على أوروبا وآسيا أو أميركا مع اللجوء أحيانا الى طريق نوعية متميزة. وهذا موضوع واسع جداً، ولذا سنعالج النقاط التالية في مجلته دون أن ندخل في كثرة من التفاصيل الخيرية.

- التقنيات التحليلية المستعملة في القياسات الاثرية.
- اهداف البحث والتحليل في القياسات الاثرية.
- تقنيات تعيين التواريخ.
- التقنيات المستعملة في البحث الاثري.
- تقنيات الاحتفاظ.

التقنيات التحليلية في القياسات الأثرية

ان تقنيات التحليل قد انتشرت حتى أصبح من العسير أحيانا أن نختار التقنية اللائقة بالنسبة الى عينة معطاة للحصول على الارشادات المطلوبة. وستراعي الفقرات الموالية جميع أوجه المشكل.

إختيار طريقة التحليل

ان العينات الاثرية ثمينة من وجهين، وذلك أن عدد العينات المتوفرة عادة قليل جدا بحيث تكاد لا تكفي لحاجيات تحليل كامل، وقد يتعذر تمويضا اذا ما استعملت بأكملها، ومن جهة أخرى ينبغي الاحتفاظ بالعينة على الأقل لتكون مرجعا أو لصالح العروض المقبلة. لذا سيقام بالتحاليل القياسية الاثرية بكل عناية حتى نحصل منها على أهم الارشادات. ويمكن تلخيص المعايير التي تفرض الاختيار لتقنية أو أخرى فيما يلي (٢).

أهمية مجموعة العينات المتوفرة

اذا كانت مجموعة العينات المتوفرة كبيرة، يحسن القيام بتحليل كيميائي في وسط مائي لتعيين النسبة لأهم مركباتها، وقد يستعمل التحليل الذري لاثبات نسبة المعادن القلوية، كالصوديوم والبوتاسيوم والليثيوم. وإذا كانت العناصر أو المركبات لا موزونة (آثار) يكون من الأفضل استعمال التحاليل بطريقة التفلور أو المتعلقة بجوهر أشعة اكس ولو أن نتائجها تشتمل على خطأ بين (١٠ و ٢٠ ٪).

وإذا ما كانت كمية العينات ضئيلة، وإذا كان من اللازم أن تحلل عدة عناصر، يكون من اللائق أن يلجأ الى الاستعواء الطبقي أو الى حيود أشعة اكس. وإذا تعذر على الاثري ان يوفر عينة مهما كانت صغيرة، فتعالج المادة المزمع تحليلها بواسطة التحليل الطبقي أو التفلور في صورة ما اذا مكّن حجمها وشكلها من استخدام هذا التحليل.

نوعية المواد المحللة

ان تنوع الانقراض الاثرية كبيرا جدا، فبعضها كالغذائيات والمراهم والراتنجيات والزيوت والشموع الخ... مواد عضوية في جملها أو في القليل منها وغيرها — كالفلزات والادهان والحرف والزجاج والجبس الخ.... ليس عضوية.

(٢) هال أ. ت (الرجع السابق).

أما المواد العضوية فتعرض عامة على معالجة النار، والتصبن والتحلل والأشعة تحت الحمراء والتحليل الحراري والكروماتوغرافية. كما تعرض على التحليل العياري في وسط مائي، وإلى التحليل الطيفي وإلى التفلور والحيود لأشعة اكس، وكذلك التنشيط بواسطة الكهرباء المحايدة، حسب النموذج الإرشاد المطلوب.

انموذج الارشاد المطلوب

كبي نربح الوقت ونختصر التكاليف يجري التحليل طبقا لبرنامج مثبت يضعه عالم الآثار للحصول على الجواب على اسئلة معينة. فالبرونز والنحاس القديمان متشابهان في المظهر، وإنما يميزهما القصد، فيعالج بصورة عامة جزء من العينة بواسطة محلول الحامض النتري المركز، ويحل في الماء المقطر ما ينتج منه من راسب الحامض الميتاستانيك المائل الى البياض، وهذه التجربة البسيطة في تناول كل عالم أثري. وكذلك كانت معادن الرصاص تستعمل قديما في مصر لاعطاء الحرف مظهر الزجاج، فيكني الرصاص اذن لتعين، تاريخ صنع الشيء المزجج بالتقريب.

عرض النتائج

ان الاثرين المدعويين لدراسة نتائج البحوث العلمية ولاستعمالها في شروهم وفي استنتاجاتهم ليسوا، هم انفسهم من أهل العلم الا في قليل من الأحوال. فيجد اذن ان تعرض عليهم النتائج في شكل يسهل عليهم فهمه، فتقدير عنصر من عينة وزنها ١٠٠ غرام بواسطة كسور الغرام يليق ان يعرض بعض لكل النتائج طبقا لفكرة سهلة الادراك من الجميع، فكرة النسبة المئوية. ويكون لهذا التعويض مزية تسهيل مقارنة النتائج بين عدة مختبرات.

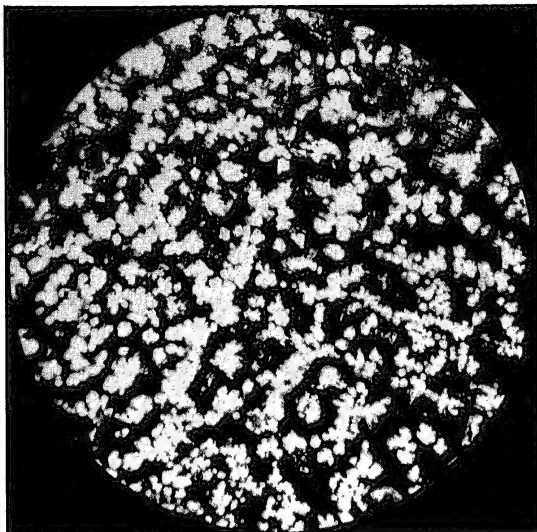
طريق الفحص والتحليل

سنشير فيما يلي، في اطار هذه الاعتبارات، الى أهم الطرق المستعملة للتحليل في القياسات الاثرية.

الفحص المجهرى

ان الفحص بواسطة عدسة مكبرة بسيطة (تضخيم ١٠ أو ٢٠) كثيرا ما يكون مفيدا للحصول على انطباع أول من حادث عارض أو من عينة قديمة. ومن المفضل استعمال مكبرة مزدوجة العينية ذات تضخيم مقداره ٧ مرات أو ١٠ أو ٢٠ مرة وذات مجال فسيح بين العدسة والمستوى البؤري. ويستطيع هذا الجهاز سبر تجاوى عميقة لا يمكن للمكبرة الاعتيادية أن تدخله. ويتم الحصول على معطيات أدق بواسطة مجهر مركب يشتمل على عدسة ذات تضخيم ١٠٠ أو ٢٠٠ أو ٤٠٠ أو ١٢٥٠ متغمس في الزيت. ويمكن استعمال الفحص المجهرى للغايات التالية: — تعيين الهوية: في معظم الحالات يكون من الممكن أن تعين هوية عينة معطاة (في حالتها الخاصة أو في حالة تركيبها من عناصر متباينة، وذلك بدرس تركيب الجسم بالمجهر أو بدرس الخواص البلورية لمركباته.

— التحليل الكيفي: ان التقنيات المعاصرة تمكن من الترسيب والحل ومن مشاهدة التطور الغازي



● (١) صورة شمسية مكبيرة
(ميكروفوتوغرافية) لقطاع في مرصاة
نحاسية من سفينة الملك خوفو (مركب
الشمس) في الجزيرة.

● (٢) صورة أمامية بالاشعة لصدر
مومياء الملكة نيجيميت من الاسرة
الفرعونية الحادية والعشرين. (متحف
القاهرة).



وغير ذلك من الأساليب الممكن تطبيقها على قطعة صغيرة من العينة (٣). مثلاً إذا ما بللت قطعة العينة الموضوعة على صفيحة من زجاج قد ينتج عن ذلك تحليلها أولاً، فإذا ما أضيفت إلى المحلول المحتمل قطرة من نترات الفضة، وإذا ما ظهر راسب مائل إلى البياض غير محلول في الحامض النتري يمكن أن نستنتج وجود كهرب موجب من الكلورور.

التحليل الكمي: وتكتسب الطرق المجهرية كل أهميتها في التحاليل الكمية مركبات متباينة مشبعة من الصعب أن تعالج بالطرق الكيميائية الاعتيادية (٤) فهي تمكن من تعيين عدد مختلف المركبات وحجمها. وإذا ما علمت كثافة كل منها، أمكن تحويل نسبة مئوية في الحجم إلى نسبة مئوية في الوزن (٥).

التصوير الاشعاعي

يبقى التصوير الاشعاعي كبير الفائدة في فحص الآثار الفنية، فيمكن من اكتشاف وجود اجسام خارجية داخل مومياة مغطاة بعصاباتها، او وجود نقوش مزينة تحت طبقات البلاصات الخ... وهذه الارشادات تساعد على تعيين التقنية التي يجب استعمالها لتجريد المومياة من العصابات، وهي مفيدة للحفاظ على الاحداث العارضة المدفونة وتستخدم أثناء الدراسات العلمية والاثريّة. وفي متحف القاهرة كشف التصوير الاشعاعي للمومياة الملكية عن كون البعض منها حتى التي ازيلت عصاباتها، يحتوي على مصوغات أخفته عن عيون الباحثين طبقات سمكة من الراتنج (٦) (الشكل ١).

تحديد الوزن النوعي

في العصور الخالية كان الذهب يحتوي عامة على الفضة أو النحاس، والأشياء الذهبية لها من النفاسة مالا يسمح في غالب الأحيان لأي قطعة مهما كانت ضئيلة أن تستهلك في التحلي. ولذا فكر كالاي أن يلجأ في ذلك إلى تحديد وزنها النوعي، ولا يداخل هذا الأسلوب أي خطر للفساد وهو يمكن من الكشف عن معدل الذهب الخالص المستعمل في الاحداث العارضة الذهبية (٧). والطريقة سهلة جداً تعتمد مبدأ أرخيدس. فإذا كان وزن الشيء في الهواء الطلق (و) غراماً وفي الماء (س) غراماً كان وزنه

$$\frac{و}{و-س}$$

وإذا كان وزن الذهب النوعي (١٩٠٣) يساوي تقريباً ضعف الوزن النوعي للفضة (١٠٠٥)

(٣) ج. و. ايلينج، ١٩٥٤، ص ٤١١.

(٤) أ.م. شامو، س. و. ماسن، ١٩٣٨، ص ٤٣١.

(٥) أ.م. كلتوف، أ. ب. صندل، أ. ج. ميان وس. بركنستين، ١٩٦٩.

(٦) ج. و. هيلرث، ج. أ. هريس وس. برنس. بوليه (شمق) ١٩٧١، ص ١٨.

(٧) أ. ر. كالاي، ١٩٤٩، ص ٧٣ - ٨٢.

أو للنحاس (٨٩) صار من اليسير الكشف عن وجود عناصر ضعيفة من النحاس والفضة. وإذا ما فرض غياب البلاتين ومعرفة مركب المزيج (فضة أو نحاس) واستحالة التخلص أثناء عملية المزج، فالتوقع أن مجال الخطأ في حساب معدل الذهب الخالص لا يتجاوز ١٪.

التحليل الكيماوي المعيارى في وسط مائي

هذه التقنية لازمة في علم الآثار لدراسة المادة التي يتكون منها حادث عارض كما هي لازمة لاختيار احسن طريقة للحفاظ. فهي تستعمل للتحليل الكيفي والكمي للملاحظات والجصوص وبقايا الحوادث العارضة المعدنية المتآكلة وبقايا الطعام وادوات التجميل وبقايا البلاص وغيرها من المواد المشابهة لها الخ...

ولا محل لوصف التقنيات المستعملة للتحاليل المشابهة في هذا الفصل، وهي مألوفا عند كل الكيماويين البارعين في الآثار، وتوجد معروضة مفصلة في كتب الكيمياء التحليلية، ككتب كلثوف ومن معه من مؤلفيها (٨) بالنسبة الى المواد العضوية. واعمال اسكندر (٩) وسطروس (١٠) بالنسبة للمواد العضوية والغير العضوية وثمة أدوات من حديد اكتشفت في نياتي (غينيا)، مؤرخة فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، عرضت على التحليل الكيماوي فكشف انه يوجد فيها النحاس والفسفور والتيتان والتغنستين والولبدان، وهي من المحتمل ان تكون ادرانا موجودة في المعادن المستعملة (١١).

القياسات الطيفية

استعملت هذه التقنية في تحليل البقايا القديمة كالبرونز بات والحرف والملاط والاصباغ الخ.. هناك عدة عوامل في هذه التقنية متميزة بالنسبة لساثر الطرق الخاصة لتحاليل هذه البقايا. ان لها حساسية مرضية، ثم انها تمكن من تقدير نسب عالية (حتى ٢٠٪) من معظم العناصر. ثم انه في الامكان ان تكشف كل العناصر الموجودة في العينة بتسجيل الحزوز الطيفية على صفيحة تصويرية خلال بث واحد. وينتج عن ذلك وثيقة يمكن الرجوع اليها فيما بعد. وهناك اممؤذج آخر من القياسات الطيفية يتمثل في «اللازمليبروب مقياس طيفي» (١٢). ان التحليل الطيفي لكل البرونز بات النيجرية الطيفية في إيفي، قد اظهر أن هذه الأدوات ليست من البرونز بل هي من الليط (١٣).

(٨) م. كلثوف: أ. ب. صندل، أ. ج. ميهان، س. بركنستين، ١٩٦٩.

(٩) ن. فرج، وأ. اسكندر ١٩٧١، ص ١١١ - ١١٥.

ز. اسكندر، ص ٥٩ - ٧١: «دبرفون في الطبيعة» جلد ٣، نشر بشاتي، القاهرة، جمعيات الآثار القبطية ١٩٦١؛

ز. اسكندر وأ. و. شابين، ١٩٦٤، ص ١٩٦ - ٢٠٨.

أ. زكي وز. اسكندر ١٩٤٢، ص ٢٩٥ - ٣١٣.

(١٠) ف. ه. سطرورس واودنال، ١٩٧٢، ص ١ - ١٦.

(١١) أ. موزو وأ. نوزيك، ١٩٧٤، ص ١ - ٩٦.

(١٢) أ. ت. هال، ١٩٦٠، ص ١٣٥ - ١٤١.

(١٣) ف. ويلت، ١٩٦٤، ص ٨١ - ٨٣.

التحليل بواسطة الامتصاص الذري

تليق هذه الطريقة تماما بعينات من المادة الغير العضوية (فلزات، اسمنتات، خلائط زجاج، خزفيات، املاح الخ....) ولها في القياسات الاثرية المزايا الآتية: يمكن بلوغ درجة مرتفعة من الدقة (نحو ١% من الخطأ) باستعمال عينات بوزن ٥ إلى ١٠ مليغرامات فيمكن ان تعين على النموذج واحد عناصر كبرى وصغرى او مجرد آثار، وفي النهاية فان هذه التقنية متداولة الاستعمال. وبواسطتها تكون المقارنات يسيرة بين نتائج مختلف المختبرات، ويكون من اليسير ايضا ان تراقب الاسباب المحتملة للخطا التجريبية (١٤).

تفلور أشعة أكس

ان تنشيط عينة بواسطة أشعة أكس هي طريقة للحل مفيدة جدا، ومبدؤها: ان قذف ذرة بواسطة أشعة مرتفعة التردد يمكن من قلع كهربي من مدارها الداخلي و يسد الفراغ المكون بواسطة كهربي من مدارها الخارجي. والتغير في الطاقة بين المستويين الأعلى والسفلى منشأة أشعة ثانية او تفلورات مميزة للعناصر المكونة للعينة (١٥) وحيث ان قوة خرق اشعة اكس محدودة، فان هذه التقنية ليست صالحة الا لسطح الاشياء، فلا تطبق إذن الا لتحليل البقايا الغير العضوية، كالزجاج والخزف الصيني والخزف المزجج والابسيديان ومعظم الاحجار. ولكن الاشياء المعدنية القديمة قد تضررت من اتلاف الزمان، ويسعى المعدن الحث الذي تشتمل عليه الى الظهور على السطح. ولذا فان تحليل لسطح هذه الأشياء قد يمينا بنتائج مخالفة جدا للتي يكشفها لنا تحليل الشيء في كليته (١٦).

التحليل بتنشيط الكهبريات المحايدة

تشتمل هذه التقنية في الاستشعاع بواسطة الكهبريات المحايدة، البطيئة (او الحرارية) لمجموعة من العينات، ومن منتجات كيمائية معيارية موضوعة في مفاعل نووي ذري. ويكون لبعض النظائر المشعة الناتجة وجود يمكنها من بث أشعة غاما، وحيث ان كل نظير مشع يبعث أشعة غاما طول موجتها خاص مميز لكل منها، فان تحليل هذا الطول للموجة يمكن من التعرف على هوية العناصر المكونة للعينة، ومن تعيين تمرکز هذه العناصر، كبيرة كانت أم مجرد بقايا. وقوة خرق الكهبريات المحايدة وخرق اشعة غاما اكبر من قوة خرق اشعة اكس، فهي تمكن اذن بالنسبة لعينة معطاة، من الاغارة على عمق اهم، وينتج ان ظهور النحاس على السطح يمكن تجاهله في الفلزات (١٧).

واثناء هذه التحاليل، واذا كانت العينة المدروسة ستمود الى التحف، يصبح من اللازم ان

(١٤) أ. وزر، ١٩٧٠، ص ١٧٩ - ١٨٥.

(١٥) أ. م. كلثوف، ا. ب. سندل، ا. ج. ميان، وس. برکستاین، ١٩٦٩.

(١٦) أ. ت. هال، ١٩٧٠، ص ١٣٥ - ١٤١.

(١٧) أ. ت. هال، ١٩٧٠، ص ١٣٥ - ١٤١.

نسعى الى تخفيض الاشعاعية المتبقية الى مستوى غير ضار في فترة من الزمن معقولة. مثلاً نظير الفضة المشع له بقية عيش قدرها ٢٢٥ يوماً، فاشعاع قوي لشيء فضي يحجر ارجاعه الى المتحف الاصلي قبل مئات السنين (١٨).

وفي هذه الحالة يقتضي ان تتخذ الفضة من عينة معطاة بواسطة الفرق بقرص صغير من الصوان الحرش. ويتعرض هذا الصوان لتشعيع داخل المفاعل، ويبحث التحليل عن الفضة والذهب والنحاس والاثمد والزرنيخ المعهودة. وطبقت هذه التقنية في اطار الاثار الأفرقية لدراسة لآلء الزواج المنشطة مرتين بواسطة الكهرياء المحايدة فقيم بالقذف الاول في مدة قصيرة ثم بحث في الحين عن النظائر المشعة ذات الدورة القصيرة في اللآلء، وكان القذف الثاني قويا متواصلا ودام ثمان في ساعات وحفظت اللآلء بضع أيام عرضت للبحث عن النظائر المشعة ذات الدورة المتوسطة، ثم خزنت اللآلء من جديد واجريت عليها تجارب قصد الحصول على نظائر مشعة طويلة الدورة (١٩) ونشر سايرمينيرس دراسة عن تطبيقات عديدة لهذه التقنية في علم الآثار (٢٠).

أهداف التحليل في القياسات الأثرية

اهم اهداف البحث العلمي والتحليل في القياسات الاثرية هي التالية:

التعرف المدقق على هوية الأشياء

لا بد ان يجري التعرف على البقايا الاثرية بكل دقة، ولا بد ان يكون في وسع الاثري ان يصفها بدقة في المنشورات الاثرية وفي أدلة المتاحف.

والتعرف بالضبط على هوية مادة الاحداث العارضة لا يقل أهمية، اذ ان مرمى المشاهدات التابعة للمواد المدروسة يتبع عامة طبيعتها الحق. ومن سوء الحظ الأخطاء لا تغيب عن الوثائق الاثرية السابقة، فخلقت الكثير من البلبلة، واشتبه النحاس احيانا بالبرونز على الرغم من ان اكتشاف البرونز واستعماله يتضمنان ظهور ثورة ثقافية معينة. واشتبه البرونز بدوره بالليبط، وفي ذلك ما يجعل التقدير في قدم الشيء مخطئا، فأولى المنتجات من الليبط تعود تقريبا الى منتصف القرن الاول قبل الميلاد، بينما عرف البرونز واستخدم حوالي عشرين قرنا قبل ذلك (٢١).

واذا كان معظم الأخطاء في معرفة هوية الأشياء تعود الى تقديرات بصرية مختلة، يكون من الجدير ان نشير الى أننا اذا اردنا تجنب كل خطر في التقدير المخطئ، يجب أن نجري عملية التعرف للبقايا الاثرية بواسطة التحاليل الكيماوية او التحاليل على حيود اشعة اكس.

(١٨) نفس المرجع.

(١٩) س. س. دافيزون، ١٩٧٣، ص ٧٣ - ٧٤.

(٢٠) أ. ف. سايروب. ميبيرس، ١٩٧١، ص ١١٥ - ١٥٠.

(٢١) أ. ر. كالاي، ١٩٤٨، صفحة ١ - ٨.

نقل الفاظ قديمة مجهولة

وقد يتفق أن يمكن التعرف المدقق الى ترجمة أسماء مجهولة، في سفارة بمصر اكتشف في مقبرة الملك حورع حا (الاسرة الاولى، حوالي ٣١٠٠ ق.م) وعاءان من الخوف وعلى كل منها كتابة هيروغليفية تقابل كلمة «سيريت» المجهولة المعنى. وأدى التحليل الكيميائي الى ان هذين الوعاءين كانا يحويان الجبن، فاستنتج ان لفظ سيريت يعني الجبن (٢٢).

مثال ثان: وجدت على بعض التماثيل الصغيرة كتابة هيروغليفية تكون لفظ «بخين» وتعرف في بعض الحالات ان الحجارة كانت من النضيد، وان الكلمات كانت في نصوص تتعلق بوادي الحمامات (٢٣)، فاستنتج ان «بخين» من الراجع أن يكون حجر النضيد بوادي الحمامات.

الكشف عن أصل الانقراض الأثرية

ان وجود عدد من العينات من مادة اصلها اجنبي، في موقع اثري معين يبدو كإشارة واضحة الى استيراد هذه المادة عن الطرق الصناعية او التجارية. واذا ما أمكن ضبط المصادر فسرعان ما يتم تصوير السبل التي اتبعتها؛ فنحن نعلم مثلا ان الإسيديان لا توجد في مصر، ومع ذلك فهي كانت مستعملة في عصر ما قبل الاسرات (قبل ٣١٠٠ ق.م) ففحصت إيسيديان بعض القطع التي تعود الى هذا العصر وقورنت مع مثيلها مما كانت تنتجه البلدان المجاورة. فكانت خصائصها قريبة جدا من خصائص إيسيديان الحبشة. وهكذا من الواضح انها استوردت عن هذه المنطقة، وان ثمة علاقات تجارية كانت موجودة من عهد بعيد بين البلدين (٢٤).

والتعرف على بقايا الخرف بواسطة التنشيط بالكهرباء المحايدة، أو بفلورة اشعة اكس، يمكن من دراسة المسالك التجارية المحلية والدولية (٢٥). وان شوائب في شكل بقايا في معدن النحاس او في الاحداث العارضة من هذا المعدن قد تساعد على ربط الحادث بالمعدن الذي استعمل في صناعته (٢٦).

و يساعدنا اكتشاف النيكل في حادث من الحديد القديم من التعرف هل ان هذا الحديد من رجم من الرجوم ام هو قد صنع تصنيعا، اذ ان حديد الرجوم يشمل دائما من ٤ الى ٢٠% من النيكل. واستعمل المؤلف اشعاعا طيفيا ليفحص خنجر توت عنخ آمون الشهير، فوجد ان حديد الشفرة يشتمل على نسبة مؤية من النيكل كبيرة، فكان الحديد المستعمل اذن مستمدا من رجم.

البحث عن الإستعمال السابق للأشياء المفحوصة

قد يكون من الصعب أحيانا أن نعرف لم أعدت هذه الاداة أو تلك، وقد يلوح التحليل

(٢٢) أ. زكي وز. اسكندر، ١٩٤٢، ص ٢٩٥ — ٣١٣.

(٢٣) أ. لوکا، ١٩١٦، ١٩١٩ — ٤٢٠.

(٢٤) أ. لوکا، ١٩٦٢، ص ٤١٦ وص ٤١٩ — ٤٢٠.

(٢٥) أ. بيرلانوف، البارو، ١٩٦٩، ص ٢١ — ٥٢.

(٢٦) ب. ر. قليس، وج. ملسند، ا. هنركسن ور. رامات، ١٩٧١، ص ١٣١ — ١٤٣.

الكيمائي مساعدًا قويا في هذا المجال. فاكشف مثلا سنة ١٩٥٦ في الفيوم بمصر في قبر نفرتيتاح (تقريبا سنة ١٨٠٠ ق م) جرة كبيرة من الالباتر فيها نحو ٢٥ كغ من مادة غريبة، فأوضح التحليل الكيمائي انه مركب يشتمل خاصة على اجزاء مساوية تقريبا، ٤٨٢٥٪ من القالان (كبريتيت الرصاص الطبيعي) ٥١٦٪ من الراتينج. وحيث ان هذا التركيب لم يوقف على مثله من قبل، فقد كثرت التخمينات فيما يخص وجودها في القبر ولكن تفحص الاشارات الطبية الموجودة في بردي ايبيرس، ممكن من الوقوف تحت رقم ٤٠٢ على «دواء جديد من شأنه أن يحو اللطخات البيضاء الظاهرة في العينين، كحل أسود (قالان)، وخطوة (راتينج) أنعم سحقها ليذرا في العينين». ان هذا النص المتضمن التركيب الكيمائي للمادة المكتشفة في الجرة، كشف أن نفرتيتاح كانت تتألم من بياض باحد عينيها، وقد يكون بكلها. ولذا قدمت لها كمية كافية من هذا الدواء لمعالجتها والعمل على شفائها (٢٧).

البحث عن الطرق القديمة للصناعة

ان البحث المثلوغرافي للادوات المعدنية يمكن من الوقوف من جديد على أشغال القدماء وصناعاتهم الكيماوية. وتعطينا الامثال التالية نظرة عن ذلك:

صناعة الازرق المصري

عرضت نماذج من هذا الصبغ الازرق على الفحوص الكيماوية والمجهريه وعلى تشتت اشعة اكس، بل تم الوصول الى ما يسمى «فريت» أي إعادة الصنع تجريبيا لخليط (٢٨) ازرق مشابه. فكتشف كل هذه الدراسات انه يحصل على هذا الصبغ الازرق في العهود الحثالية بتسخين الى درجة ٨٤٠ درجة مئوية خليط من مسحوق الرمل أو المرو ومن الكلس والمالاكيت وصبة من الملح الاعتيادي أو من ملح الصودا (٢٩).

فحص الادوات المعدنية بالمجهر

ان الفحص المثلوغرافي للادوات المعدنية يمكن من توضيح هل هي صببت صبا او طرقت او دخلت في صنعها التفتيتان، وظهر الفحص لمرساة من نحاس تابعة لسفينة كيبوس وقد اكتشفت سنة ١٩٥٤ وراء الهرم الكبير بالجيزة، سنيئات ضمن المعدن (الشكل ٢)، فقد صنع المعدن اذن بالتطريق (٣٠).

فحص بقايا التحنيط

أظهر فحص بقايا التحنيط المكتشفة في سقارة والاقصر والمطرية (مصر) أنها كانت تشتمل على نسبة صغيرة من صوابين الحوامض الدهنية الجامدة، وهذا نتيجة تصبين الشحوم الجسمانية بتأثير الصودا

(٢٧) ن. فرج وأ. اسكندر، ١٩٧١، ص ١١١ - ١١٥.

(٢٨) تعبير قديم يشير الى خليط من الرمل والصودا يستخدم في صناعة الزجاج والحزف.

(٢٩) ل. لوکا، ١٩٦٢، ص ٤١٩ - ٤٢٠.

(٣٠) أ. اسكندر، ١٩٦٠، ص ٢٩ - ٦١، القسم الاول.



- (١) كتلة ترزجج، وقد ظهر منها
السطح الاعلى المستوى، وإلحاف
الجانبية، وجزء من البوئقة لا يزال
لاصقاً بالحافة الجانبية اليمنى.
- (٢) قاعدة لآحد الأعمدة المنحوتة من
الحجر الرملي في معبد بوهن (النوبة).
ويلاحظ ما طرأ عليها من تآكل في
الطبقة السطحية.



أثناء تهيئة المومياء، فاستنتج من ذلك ان هذه المواد كانت تسد مؤقتا تجاويف الجسم قبل تخفيفه في كتلة من الناطرون (٣١) على فراش التحنيط (٣٢).

بوتقات التزجيج (أو إذابة دقيق المعادن)

ان البحوث التي اجريت بوادي النطرون على انقراض معمل زجاج، تظهر ان الزجاج صنع في مصر في العصر الروماني، ويمكن تمييز مرحلتين، فخلال الأولى كان يحصل على التزجيج في بوتقة خاصة، تسمى بوتقة التزجيج (٣٣)، وذلك بمخلط من الرمل الخالص (المرو) ومن ثاني فحمات الكلسيوم، والناطرون أو الرماد النباتي، وكلها الى درجة من الحرارة تحت ١١٠٠ درجة مئوية، وكان صلصال البوتقة غنيا بالرمل وبالتين المدقوق قطعاً صغيرة. وكان هذا الصلصال في الفرن يمكن من انضاج فخار نقي جداً — وتلك خصلة كان الزجاج يتطلبها في العصور الحالية — اذ كانت تمكنه من تحرير قالب التزجيج (الشكل ٣) بكسر البوتقة، التي كانت اذن لا تستعمل الا مرة واحدة. وفي المرحلة الثانية يحصل الزجاجون على زجاج من نوع حسن مختلف الالوان، وكانت التزجيحات الاولى تدق حتى تعطي مسحوقاً متجانساً، ويخزأ الى صبات صغيرة، ويضاف الى كل منها بعض المقادير من الاكاسيد الملونة ومن المكشفات او المزيلات للاصباغ، ويجري الطبخ حتى يتم الصهر قصد الحصول على نوع الزجاج المطلوب (٣٤).

إختيارات الأصالة

طيلة سنين عديدة كان اثبات تابعا لمعايير تاريخية جمالية فقط، ومؤخرا سمح التقدم العظيم في ميدان البحث العلمي، بالحكم مع ثقة أكبر على صدق واصالة اداة معطاة. واثبت التقنيات هي:

الفحص بواسطة الأشعة ما فوق البنفسجية

هذا الاسلوب صالح على الخصوص في تقوم ادوات العاج والرخام. وينشر مختلف انواع الرخام اشعاعات مختلفة تحت الأشعة ما فوق البنفسجية اذ يسقط سطح قطع الرخام القديمة لونا متميزا بعيدا جداعن لون الكلسيات من عين النوع ولكنها أجد. وكذلك الأمر بالنسبة لقطع العاج اذ حتى التفتيحات او الاصلاحات التي اصلحت بها هذه الادوات من العاج او الرخام، وحتى الرسوم وقد صارت غير ملاحظة في الضوء الطبيعي، فهي تصبح ملحوظة تحت الأشعة ما فوق البنفسجية. وكذلك فان اشعة اكس والأشعة ما تحت الحمراء مفيدة جدا لكشف الغش (٣٥).

(٣١) الناطرون: فحمات الصود يوم التبلون.

(٣٢) ز. اسكندر، وا. شاهين ١٩٦٤، ص ١٩٧ — ٢٠٨.

(٣٣) التزجيج الاولي او اذابة دقيق المعدن قصد ازالة العناصر المتبقية (تعليق الترجمة).

(٣٤) س. أ. صالح، ا. و. جورج، وف. م. حلمي، ١٩٧٢، ص ١٤٣ — ١٧٠.

(٣٥) ا. ر. كالا، ١٩٤٨، ص ١ — ٨.

فحص التآكل السطحي

إن المعادن القديمة عامة تتآكل شيئاً فشيئاً، ومع الزمن يولد هذا التآكل قشرة متجانسة. وفي صورة الأدوات المعدنية المشوشة فإن طلاء سطحي يمر على وجهها يعتبر من شأنه أن يمنحها طابعاً قديماً. وعمامة هو «يلتصق» التصاقاً رديئاً وتزيله المحلات كالماء والكحول والاسيتون أو البيريدين، ثم إن هذه الإضافات الاصطناعية لا تشتمل في غالب الأحيان إلا على طبقة واحدة ويمكن تمييزها بسهولة عن القشرة الطبيعية التي تنشطر عموماً على أدوات النحاس والبرونز إلى شريط أول باطن أحمر من أكسيد النحاس، وإلى شريط ثانٍ خارجي أخضر وهو من فحمات النحاس أو كبريتاته أو كلوراته. ومن المعسر إن يستعمل هذا المحلل بحيث يغتربه كيماوي متحف أثري نبه.

تحليل مادة الشيء

إن تحليل حبة الحرف الصيني المصري العتيق، لتوضح كثيراً من مزايا هذه التقنية. فبينما كانت حبة الصيني القديم الأصيل في مصر مركبة من الكوارتز المزجج فإن التقليدات العصرية لها تتكون عامة من الصلصال والطفل الأبيض أو من الحرف الصيني فتعرفها إذن سريع ثابت. مثال آخر: كانت تقنيات العدانة في العصور الحالية تموزها طرق الفحص الملائمة، فكانت المعادن القديمة تشتمل على بعض الشوائب — زرنينخ — نيكل — منغنيز الخ... فيمكن إذن أن تتخذ عينة منفصلة من الحادث المصطنع المشكوك فيه، وإن تعرض على فلورة أشعة أكس أو على تنشيط الكهروبات المحايطة، وإذا لم توجد هذه الشوائب في صورة بقايا فذلك ما يرجح الكشف عن الغش.

تعرف الاصباغ والملونات في التصوير الملون

إن التقنيات الكيماوية المجهرية تمكن من التعرف ببعض الدقة على الاصباغ المستعملة في لوحة من اللوحات. فإذا ما كان الصبغ من بين الملونات الحديثة مؤخراً، فيكون سن اللوحة موضوع نقاش، مثلاً إن فحص يونغ لصورة جانبية منسوبة إلى رسام من القرن الخامس عشر الميلادي، قد أظهر أن الصبغ الأزرق المستعمل فيه مستمد من اللازوردي الاصطناعي الذي لم يكتشف ولم يستخدم كصبغ إلا منذ القرن التاسع عشر، وأما الصبغ الأبيض فستمد من أكسيد التيتانيوم وكان عالم التصوير يجمله قبل ١٩٢٠ م. وهكذا كانت هذه الصورة مزيفة (٣٦).

فحص الزنجرة والصفالة السطحية

إن معظم الحجارة على مر الزمن تكتسي زنجرة سطحية: هي طلاء الصحراء. وهذه الظاهرة ناشئة عن البروز التدريجي لأملاح الحديد والمنغنيز التي تتأكسد على السطح مكونة ضرباً من القشرة أو البشرة تتحد مع الحجارة فتختلط مع السطح. ومن الصعب إزالتها بالغسل بواسطة محلول أو بالحك. وفي ذلك ما ييسر التمييز بين سطح قديم حقاً وسطح آخر نقش مؤخراً ولوانه كسبي بقشرة اصطناعية.

وعلاوة على هذه القشرة الطبيعية، فإن آثار النقش والصقل القديمة تمدنا بوسيلة أخرى للحكم على الإصالة. فهذه البقايا مازالت تلوح من تحت القشرة السطحية للحجارة أو المعدن في شكل خطوط غير منتظمة التقاطع. فلم يكن للشعوب في العصور الحالية محكات للنقش ولا مبادر دقيقة ولا قماش خاص للصقل، وتميز هذه الخطوط بسهولة عن الخطوط المتوازية المنتظمة التي هي علامات الصقل الحديث.

تجربة اللمعان الحراري للخزف

إن الخزف كالارض التي دفن فيها يحتوي على نسبة مئوية ضئيلة جدا من العناصر المشعة. فنشر هذه العناصر اشعة تتجمع كهارجها على مرآلاف السنين في مادة الخزف. فاذا ما خضع الخزف الى ما فوق ٥٠٠ درجة من الحرارة، ينبعث من الكهارب المتجمعة لمعان حراري يختلف بحسب عمر الخزف. وهكذا يساعد اللمعان الحراري محافظي المتاحف على الحكم بروية على اصالة خزف معين. وقد تؤخذ العينة اللازمة بواسطة حفر منعزل فيسخن المسحوق الناشئ عن ذلك، في الظلمة، الى ما يزيد على ٥٠٠ درجة مئوية. فاذا ما لوحظ لمعان حراري، فذاك دليل على قدم الخزف، واذا كان العكس فهو مزيف (٣٧).

تقنيات تعيين التواريخ

تسمح عدة تقنيات علمية بتعيين تواريخ الاشياء القديمة وهذه أهمها:

تعيين التاريخ التقريبي بالتحليل القياسي الأثري

إن تحليل عينات من مجموعة واحدة (املاط، زجاج، صيني، معادن، اصباغ) الا انها ترجع الى عصور مختلفة، يمدنا بنتائج يمكن استخدامها كاشارة، فتوحي تقريبا بعمر عينات أخرى مازال مجهولا. ولنا في الأمثلة التالية ما يؤيد ذلك.

تعيين التاريخ بواسطة جواهر الزجاج في افريقيا الغربية

إن جواهر أكوري المتلونة التي تبدو زرقاء اذا سقط عليها ضوء منعكس، وخضراء اذا كان الضوء مباشرا، قد عرضت على التحليل بواسطة فلورة اشعة اكس. ولقد امكن هذا التحليل من تصنيفها الى مجموعتين أ و ب، فعينات المجموعة (أ) افقر في الرصاص (٠.٠٥٪) وفي الزنك (٠.٠٥٪) من عينات المجموعة (ب) حيث تكون النسبة المئوية من الرصاص تقارب ٢٧٪ ونسبة الزنك ٢٪ والفرق النسبي في المنغنيز أصغر (مجموعة أ: ٠.٣٪، مجموعة ب: ١.٠٥٪) ومن العناصر الأخرى المكتشفة الحديد والكوبالت والزنك والروبيديوم والترونتيوم والتصدير والا ثمد والباريوم، ولم يسجل اي فرق ملحوظ، وتوجد جواهر المجموعة (أ) في افريقيا الغربية بمواطن جزرية

قديمة نسبيا (٤٣٠ الى ١٢٩٠ م.) بينما لا توجد جواهر المجموعة ب الا في أطاراجد. فإذا ما اكتشفت هذه الجواهر في قبر او في طبقة معينة فهي توجي بعمرها، بدقة يتفاوت مقدارها (٣٨) بالزيادة أو النقصان.

تعيين تواريخ الرسوم الصخرية بتحليل املاطها: شبه الزلزالية

يمكن تقدير سن الرسوم باحصاء عدد الحوامض الامينية التي تشتمل عليها املاطها شبه الزلزالية بنواسطة التحليل بالماء. ولقد سمحت هذه الطريقة بتعيين عمر ١٣٣ لوحة من الرسوم الصخرية في افريقيا الجنوبية الغربية مغ مجال للخطأ يقرب ٢٠% «فالسيدة البيضاء» بيرندبرغ ترجع فيما يبدو الى ما بين ١٢٠٠ و ١٨٠٠ سنة، ولوحات ليميو يتوقع بين ١٠٠ و ٨٠٠ سنة، وعينات دراكنينغ تمتد فيما بين ٦٠ و ٨٠٠ سنة. وينحط عدد الاحماض الامينية المتماثلة مع عمر الصورة من ١٠ (في المحشرات من ٥ الى ١٠ سنوات من العمر) الى سنة واحدة (وفي المواد القديمة من ١٢ الى ١٨ قرنا) (٣٩).

تحديد التواريخ بتحليل الاملاط

ان تحليل مختلف الاملاط في مصر يظهر ان ملاط الجير لم يظهر فيها قبل بطليموس الاول (٣٢٣ — ٢٨٥ ق. م.) (٤٠) فكل مبنى من (احجار او اجر) كَوْن بواسطة هذا الملاط انا يرجع الى ما بعد ٣٢٣ ق. م.

تعيين التواريخ بالفحم المشع

المبدأ:

اذا لاقت الاشعة الكونية ذرات الهواء في الطبقات العليا من الجو حطمتها الى اجزاء صغيرة من بينها الكهيريبيد المحايد، وتقذف الكهيريبيد المكونة للذرة التي يكون جوها أكثر غنى، الازوت ذا كتلة ١٤، فتحوها الى فحم وزنه الذري ١٤. وهذا الفحم ١٤ الجديد التكوين مشع، فيمتزج باكسيجان الهواء ليسكون (CO₂) ١٤ ويمتزج مع ثاني اكسيد الفحم الاعتيادي الذي يشتمل على ذرات فحم كتلتها ١٢ (٩٩%) و ١٣ (١%) فيدخل هذا الفحم ١٤ في النباتات مع عناصر الفحم الاعتيادية CO₂ 12 و CO₂ 13 وتكون أنسجتها حسب عملية التركيب الضوئي، وحيث ان الحيوانات تتغذى بالنباتات فان العالم الحيواني والنباتي بأكملها يكونان مشعان اشعاعا خفيفا لوجود نسبة ضئيلة من الفحم ١٤ (تقريبا ذرة واحدة من فحم ١٤ لكل مليون مليون من ذرات الفحم الاعتيادي) ويدخل ثاني اكسيد الفحم أيضا في تركيب المحيطات في شكل فحماات فيكون من المحتمل أيضا أن

(٣٨) دافيسون س. س، جيالك ر د، كلارك ج. د، ١٩٧١، ص ٦٤٥ — ٦٤٩.

(٣٩) دننجر أ. ١٩٧١، ص ٨٠ — ٨٤.

(٤٠) لوكا أ. ١٩٦٢، ص ٤١٦ و ٤١٩ — ٤٢٠.

يكون ماء البحر مشعا اشعاعا خفيفا، وكذلك الشأن بالنسبة الى كل المحار يات والرواسب التي يشتمل عليها (٤١).

وعند الموت فان المادة العضوية القديمة من المحتمل أن تكون قد اشتملت على عين الاشعاعية التي تشتمل عليها المادة العضوية الحية حاليا. ولكن بعد الموت يكون العزل، اي انه ينقطع كل نقل او كل مبادلة مع الفحم الاشعاعي، فيأخذ الفحم ١٤ في الانحطاط اوقل، حسب عبارة الاستاذ تبي، «أنت ساعة الفحم الاشعاعي أن تشرع في العمل» (٤٢) فإذا ما قيست الاشعاعية ونظر بينها في عينة قديمة وفي عينة شاهدة ومعاصرة، يكون في الامكان بمراعاة طول عمر الفحم ١٤ (٤٣) ان يحسب عمر العينة القديمة، محل المادلة المتعلقة بالخطاط الاشعاعية.

المواد الملائمة لتحديد التواريخ بواسطة الاشعاع

تطبيق هذه التقنية على المواد العضوية (خشب، فحم، عظم، جلد، انسجة، نباتات، اغذية، فخار الخ...) ولكن قبل كل شيء تطبيق على النباتات السنوية كالقصب، والحبوب والشب او الكستان. فإذا ما جمعت العينات ينبغي الا تجري عليها اي معالجة كيميائية، بل يجب ان تعزل في قوارير من زجاج او اوكياس من نايلون كي يتجنب اتصالها المحتمل بمواد عضوية اخرى. ويتم العمل على خمس مراحل وهي، تطهير العينة، واحراقها، وتطهير غازات ثاني اكسيد الفحم الناتجة، ثم عد الجزيئات المنتشرة.

النتائج والاحتمالات

قد مكنت دراسة مقارنة على عينات شواهد وعلى تحديدات للتواريخ بواسطة الفحم الاشعاعي (٤٤) من التحقق من دقة هذه الطريقة. وحيث ان اقدم طريقة تاريخية واشهرها طريقة التأريخ المصرية، فقد تقرر على المستوى الدولي ان يقاس الفحم المشع في سلسلة طويلة من العينات المصرية، مدققة التأريخ، والتي تنتمي الى فترة تمتد من الاسرة الأولى الى الاسرة الثلاثين (تقريباً من ٣١٠٠ الى ٣٤١/٣٧٨ ق. م) واخذت عدة مختبرات تواريخها باعتبار أن دورات النشاط الاشعاعي للفحم تقابل لـ ٥٥٦٨ سنة او بصفة ادق ٥٧٣٠ ± ٤٠ سنة، فظهرت النتائج ان التاريخ المعتمد على دورة تساوي ٥٧٣٠ سنة يقابل تسجيل الأحداث التاريخية حتى عهد سنوسرت (حوالي ١٨٠٠) ولكن تاريخ العينات السابقة أثار عدة جدالات، على أن تطبيق طريقة ستوفيي سواس للاصلاح على العينات السابقة لـ ١٨٠٠ سنة وقد يمكن من الحصول على نتائج توافق التأريخ الاثري بتقريب ٥٠ او ١٠٠ سنة (٤٥) وعلى سبيل المثال قام مختبر البحث في المتحف البريطاني

(٤١) م. ج. ايتكن، ١٩٦٦، ١٨١ و ١٨٢ ص.

(٤٢) د. ف. بيتي، ١٩٧٠، ص ١ - ١٠.

(٤٣) طول العمر او دورة الفحم ١٤ (اي مدة تبديد نصف الجسم المشع) يقدر بقدر ٥٦٨٨ سنة او بكتيبة ادق ٥٦٣٠ ± ٤٠ سنة.

(٤٤) ر. بيرجر، ١٩٧٠، ص ٢٣ - ٤٣٦ أ. و. س. ادوريس، ١٩٧٠، ص ١١ - ٤١٩ د. ن. ميخائيل وأ. ك. رالف، ١٩٧٠ ص ١٠٩ - ١٢٠ أ. ك. رالف و. ه. ن. ميخائيل وم. ج. هن، ١٩٧٣، ص ١ - ٢٠.

(٤٥) ر. بيرجر، ١٩٧٠، ص ٢٣ - ٣٦ ه. ن. ميخائيل وأ. ك. رالف، ١٩٧٠، ص ١٠٩ - ١٢٠ أ. ك. رالف و. ه. ن. ميخائيل وم. ج. هن، ١٩٧٣، ص ١ - ٢٠ م. ستوفيي و. ه. أ. سواس، ١٩٦٦، ص ٥٣٤ - ٥٤٠.

بتحديد تاريخ قصبات مصطبة القاع، من الاسرة الأولى، بسقارة. فكان التاريخ الناتج عن طريقة الفحم ١٤ هو 2450 ± 65 بعد الاصلاح، وهو ما يطابق التسجيل التاريخ ٢٩٠٠ ق.م (٤٦). ويظن الآن ان انقراض الحقل المغنطيسي الارضي (٤٧) وتغيرات قوة الريح الشمسية التي تمثل الاشعة الكونية، هي الأسباب الرئيسية للانحرافات التي نلاحظها (٤٨). ومن جهة أخرى فان مدة دورة الفحم المشع ليست مثبتة اثباتاً قوياً. ونحن بصدد البحث عن اسباب أخرى، و يعمل العديد من المختبرات في هذا الاتجاه. وإذا ما علمنا الجواب فسيكون في الامكان ان نصل الى تعيين تواريخ بقايا العصر العتيق فيما قبل ١٨٠٠ ق.م. وحتى ذلك اليوم يجب ان تخضع التقديرات الاصطلاحية للبقايا العضوية بواسطة الفحم المشع الى التصويب المشار اليه.

تحديد التواريخ بواسطة البوتاسيوم - أرجون

ان تحديد التواريخ بواسطة الفحم ١٤ حتى ٧٠٠٠٠ سنة تقريبا يحدث فراغاً في تاريخ التطور البيولوجي والجيولوجي حتى ما يقرب من ١٠ ملايين من السنين، الا انه صار من الممكن ان نطبق بعض الطرق الجيولوجية الاشعاعية، امثال نسبة تحول الاورانيوم ٢٣٥ الى رصاص ٢٠٧ اي ٧١٠ ملايين من السنين، او تحول الروبيديوم ٨٧ الى سترنسيوم ٨٧، اي ١٣٩٠٠ مليون من السنين. ويمكن سد هذا الفراغ الى حد ما بتحديد التواريخ بواسطة البوتاسيوم - أرجون (٤٩). والواقع ان هذه الطريقة مستعملة في الغالب لتواريخ العصور الجيولوجية القديمة، فتستخدم عناصر مهمة من مادة لحمتها دقيقة نسبياً (الا أنها لا تقل عن ١٠٠ ميكرون) لا تشتمل الا على القليل من الارغون الجوي. وفي الامكان ان تستعمل لعصور جديدة نسبياً، مما يسمح بمراقبة النتائج الحاصلة بواسطة الفحم ١٤ (٥٠).

المبدأ الأساسي

ان البوتاسيوم كما تجده في الطبيعة يشتمل على ٩٣.٢٪ من البوتاسيوم ٣٩ و ٦.٨٪ من البوتاسيوم ٤١ و ١.١٨٪ من البوتاسيوم ٤٠. وكانت نسبة البوتاسيوم ٤٠ وقت تكوين الارض تقارب ٠.٢٪ ولكن، في قسم كبير منه، تجزأ لكي يحدث مشتقين اثنين الكلسيوم ٤٠ والارغون ٤٠. ودورة البوتاسيوم ٤٠ الكبيرة جداً (١٣.٣٠ مليونا من السنين تمكنه من البقاء بنسبة ضئيلة جداً، تقرب من ٠.١١٨٪.

ومن بين ١٠٠ ذرة من بوتاسيوم ٤٠ تتبدد، تتحول ٨٩ الى كلسيوم ٤٠ بزوال الأشعة بيتا وتصير ارغون ٤٠ اثر امساحها لجزيئات بيتا. والارغون جسم غازي محبوس في حبة المعدن (٥١).

(٤٦) و. س. أدورس، ١٩٧٠، ص ١١ - ١٨.

(٤٧) ف. بوشا، ١٩٧٠، ص ٤٧ - ٥٥.

(٤٨) س. ز. لوين، ١٩٦٨، ص ٤١ - ٥٠.

(٤٩) م. ج. اينكوت، ١٩٦١.

(٥٠) وبتنروود، ج. ليت، ١٩٦٣، ص ٧٢ - ٨٤.

(٥١) نفيس المربع والمصفحات، أ. ا. هملتن، ١٩٦٥، ص ٤٦ - ٦٩.

و يتم تحديد التواريخ بواسطة البوتاسيوم-أرغون للأسباب الآتية:
 أ — إن البوتاسيوم الموجود في القشرة الأرضية يمثل ٢,٨٪ من وزنها أي أنه من العناصر الغزيرة جداً، ثم إنه يكاد يكون موجوداً في كل الأجسام المركبة.
 ب — إن طول عمر البوتاسيوم يمكن من تكوين الأرغون ٤٠ في بعض المعادن أثناء الفترات المهمة من الوجهة الجيولوجية. وبحساب تركيز الأرغون ٤٠ وكمية البوتاسيوم الموجود في المعدن، يكون في الامكان تعيين عمر هذا المعدن بواسطة معادلة تابعة لتبديد الإشعاعية (٥٢).

مشاكل يجب حلها عند تعيين التواريخ بواسطة البوتاسيوم — أرغون

استعملت حديثاً طريقة لتعيين التواريخ بالفحم المشع لحساب الثابتة من المرتبة الأولى في الوضع، قصد موازنة الحامض الاسبرتي في العظام القديمة. فإذا ما تمت معايرة تفاعل الموازنة في موقع ما، يصير من الممكن أن يستعمل هذا التفاعل لتعيين تواريخ لعظام أخرى من عين المنجم. وتوافق الأعمار المحسوبة هكذا الأعمار التي تم الحصول عليها بواسطة الفحم المشع. وتبرهن هذه النتائج على أن تفاعل الموازنة هالة زمنية مهمة لتعيين تواريخ العظام القديمة جداً أو الصغيرة جداً، والتي لا يمكن معالجتها بالفحم المشع.

وكمثال على تطبيق هذه التقنية في تعيين تواريخ المحجرات البشرية ثمة تجربة تمت على عظم بشري وهي قطعة من إنسان روديسيا من الهضبة المكسرة «بروكن هل» في زامبيا، وعندما حلت اعطيت موقتها عمراً ١١.٠٠٠ سنة (٥٣). وتعيين التواريخ بالبوتاسيوم — أرغون لعصور البليوسين والبلستوسين من شأنه أن يسمح باقرار تأريخ مطلق، يقدر اصول الإنسان وعمر المتحجرات التي يتفق وجودها في عدة نقط من الأرض، وأصل «التكتيت» وعدداً آخر من المشاكل الجيولوجية.

إن تعيين التواريخ بالبوتاسيوم — أرغون أعان في الالدفاي على تعيين عمر الطبقات البازلتية وطبقات الفليس التي كانت تغطيها، بأمل تدقيق العمر الحق لبقايا الزنجنتروب المكتشفة في قعر الطبقة الأولى من الفليس، في «الطبقة ١» واستنتج كرتيس وإيفرنندن أن بازلتيات الالدفاي هذه تؤرخ على الأقل باربعة ملايين من السنين على أنها ليست صالحة لتعيين التاريخ بكيفية مدققة من جراء تغييرات كيميائية تلوح في الجزء الضيق من كل البازلتيات المؤرخة بالالدفاي باستثناء ما يمكن ربطه بالصناعة السابقة «للحصى المشدبة». وهذا رأي كنتز ولبيلوت عن مختلف النتائج الحاصلة «وحيث لا وجود لتناقضات أخرى بين تعيينات التواريخ الخاصة بالبازلتيات وبالفليس الذي يغطيها، فليس من غير الممكن أن يكون عمر الزنجنتروب نحو المليونين من السنين (٥٤).

التعيين الأثري المغنطيسي للتواريخ

كفي نعطي فكرة مبسطة عن هذه التقنية يجب أن نطرق النقط الآتية:

(٥٢) و. جنتز و. ه. ج. لبلت، ١٩٦٣، ٧٢ — ٨٤.

(٥٣) ج. ل. بودا و. أ. شرودر، وزبروتس و. بروجو، ١٩٧٤، ص ١٢١.

(٥٤) انظر تعليق أ.

المغناطيسية القديمة

ان المقصود دراسة المغناطيسية المتبقية في الانقراض الاثري وتستند هذه الدراسة الى كون الحقل المغناطيسي الارضي يتغير دائما اتجاهها وقوة، وتفيد المشاهدات الممتدة خلال خسين السنة الأخيرة، ان الحقل المغناطيسي ينتقل نحو الغرب بقدر ٠.٢ درجة طول سنويا (٥٥).

واجريت بحوث على المغناطيسية القديمة تعتمد على المغناطيسية المتبقية في الطين المشوي الاثري وفي الصخور، فظهرت انه بالنسبة الى قوتها الحالية الرموز اليها بواحد، فان قوة الارض المغناطيسية بلغت حوالي ٤٠٠ الى ١٠٠ ق. م قيمة قصوى قدرها ٥١٦ ومرت بقيمة دنيا حوالي سنة ٤٠٠ ق. م قدرها ٠.٦ (٥٦) وتسمى هذه الآثار والتغيرات في الاتجاه والشدة (تغيرات قرنية). ولها طبيعة جهرية، وتشمل القاعدة لتعيين التواريخ المغناطيسية، اذ ان تغيرات الحقل المغناطيسي الارضي تبقى اثرا في الحُزف على شكل مغناطيس حراري متبق.

تطبيق المغناطيس الحراري المتبقي لتعيين التواريخ الأثرية

لتعيين تاريخ طين مشوي بقي في محلة منذ شتبه، بواسطة المغناطيس، يجدر أولا اثبات احتمال الحقل المغناطيسي الارضي بقياسات تجري في الجهة التي اختيرت، لتطبيق الطريقة على بنيات اثرية عمرها معروف. وترسم النتائج على منحني يمثل التغيرات الطويلة المدى في هذه الجهة طيلة فترة ممتدة. وإذا ما عرف اتجاه الحقل المغناطيسي المسجل في طين مشوي مجهول العمر في هذه الجهة نفسها، يصير من اليسر تعيين تاريخه بالمقارنة مع منحني التغيرات الطويلة المدى.

واليق العينات المدة للتاريخ المغناطيسي، عينات الطين المشوي المستمدة من أفران او مواقع بقتيت في محلها حتى يومنا هذا، ولعدم وجود آلة قياس المغناطيس القابلة للحمل والتي من شأنها ان تسهل على العين حساب اتجاه الحقل المغناطيسي الارضي، تحمل العينات الى مختبر تكون فيه هذه الآلة. ومن الاساسي ان يمثل على العينة اتجاهها الاصلي كي يكون هذا الاتجاه مرجعا بالنسبة الى اتجاه المغناطيس المتبقي.

وفي التطبيق، تتمثل العملية في طلي العينة بمحس باريس، مع التحفظ من كون السطح العلوي للقلب افقيا ويشير الى اتجاه الشمال الجغرافي قبل قلع العينة. وهكذا يمكن في آن واحد من تعيين زاوية الحدود المغناطيسية (ح) وزاوية الميل القديمة (م) (٥٧) وكى نحترز من الشوائب يجدر بنا ان نشرود على الأقل بنحوست من العينات المستمدة من بقاع مختلفة البنية الاثرية، مع مراعاة شيء من التناظر (٥٨).

وسجلت نتائج مغناطيسية اثرية فيما يتعلق بالانحراف والميل في انكلترا وفرنسا واليابان

(٥٥) م. ن. ايتكن، ١٩٦١، ص ٠. م. كوك، ١٩٦٣، ص ٥٩ - ٧١.

(٥٦) ف. بوشا، ١٩٧٠، ص ٤٧ - ٥٥، ف. بوشا، ١٩٧١، ص ٥٧ - ١١٧.

(٥٧) م. ج. ايتكن، ١٩٧٠، ص ٧٧ - ٨٨.

(٥٨) ن. م. كوك، ١٩٦٣، ص ٥٩ - ٧١.

وايسلاندا وروسيا. ولم يبق، فيما اعلم، بمحاولة لتطبيق هذه الطريقة على إفريقيا. فالمرجوان يقام بذلك عما قريب خصوصا وانها تقدمت كثيرا في السنوات الأخيرة.

تعيين التواريخ بالإضاءة الحرارية

الاضاءة الحرارية هي بث للضوء ينتج عند تسخين مادة معطاة تسخيناً قوياً، وهي تختلف تماماً عن التأجيج (الحاصل نتيجة الوصول بالجسم الجامد الى الحمرة) وتنتج عن تحرير الطاقة المتجمعة في شكل كهيربات محايطة محبوسة في المادة المسخنة.

اصلها

كل خزف أو صيني يشمل نسباً ضعيفة من المركبات المشعة (بعض الأجزاء من مليون من الاورانيوم والطور يوم وبعض الاجزاء من المائة من البوتاسيوم) ثم ان الارض المجاورة لموضع اكتشاف الخزفيات قد تشتمل على الاوساخ، وقد تكون الاشعة الكونية تخللها اشعة قدفت بها المادة المبلورة كالمرور في الخزف. وينتج عن تأينها كهيربات قد تحبس في البنية البلورية، و«افخاخ الكهيربات» هذه في وضع غير مستقر، فتزول اذا ما سخنت عينة الخزف محررة مازاد من الطاقة في شكل ضوئيات، وقوة الضوء أي الاضاءة الحرارية تتبع طردا عمر الخزف، وهي تتبع أيضاً الطبيعة الخاصة لمولدات الاضاءة الحرارية الموجودة في الخزف وفي الجوار المباشر للموضع الذي اكتشف فيه (٥٩)، ويمكن قياس عناصر الاورانيوم والبوتاسيوم بالاشعة التي قبلتها كل سنة. ويعين العمر مبدئياً بواسطة المعادلة التالية (٦٠):

$$\frac{\text{شدة الأشعة المتجمعة}}{\text{شدة الاشعة السنوية}} = \text{العمر}$$

دقة النتيجة والاحتمالات

ان النتائج في عصرنا صحيحة الى $\pm 10\%$ فهي اذن من مرتبة ادنى بعض الشيء مما يوفره تعيين التواريخ بالفحم المشع، يعزى السبب في ذلك الى عدد من الترددات المتعلقة بالظروف التي دفن فيها الشيء المدروس، والى درجة رطوبة الأرض المجاورة التي تتبعها شدة النظائر المشعة في قطعة الخزف. ومن المؤمل ان تذلل البحوث المقبلة هذه الصعوبات، الا ان عدة اسباب عملية تجعلنا نعتقد ان تحسين النتائج لن يتجاوز أكثر من $\pm 5\%$ (٦١).

وعلى كل ورغم قلة الضبط هذه، فان هذه التقنية تتقدم على تقنية تعيين التواريخ بالفحم المشع، لان الخزف موجود في المواطن الاثرية أكثر من المواد العضوية، ثم ان الحدث الذي يجدر

(٥٩) م. ج. ايشكن، الجمعية الملكية، لندن، جلد ٢، ٣٦٩، عدد ١١٩٣، ١٩٧٠، ص ٧٧ — ١٨٨؛ ت. هل، ١٩٧٠، ص ١٣٥ — ١٤١.

(٦٠) م. ج. أيتكن، ١٩٧٠، ص ٧٧ — ٨٨.
(٦١) نفس المرجع.

تعيين تاريخه هوشي الحزف، بنينا يرمي تعيين التاريخ بالفحم المشع لعينة من الخشب أو الفحم الى تقدير زمن قطع الشجرة، لا تاريخ استعمالها فيما بعد.

وفي مصر، سيكون لهذه التقنية مجالات فسيحة لاستغلالها، وحتى الآن فإن نباتات العصر الحجري الحديث، وعصر ما قبل الاسرات كان تعيين تواريخها في أكثر الأحيان حسب النموذج الحزف الذي تتميز به طبقا لنظام تاريخ اللقطات المتعاقبة الذي ابتكره فلندرس - بتري (٦٢)، فبفضل الاضاءة الحرارية سيكون في الامكان ان يعين العمر الحق لهذه النباتات.

التقنيات المستعملة في التنقيب الأثري

ان الغرض الاساسي من استعمال التقنيات العلمية في استكشاف الارض هو البحث عن ارشاد عن المواقع الاثرية المدفونة لتحضير الحفريات او توعيتها. والامر هو ان نربح أكثر ما يمكن من الوقت ومن الجهد ومن التكاليف.

والبحث الاثري المعتمد على الطرق العلمية يستخدم التقنيات التالية:

التصوير الجوي

ويستعمل على الخصوص للتعرف على بنية معطاة حسب رسمها الهندسي، وله استعمالان رئيسيان: وهو يمكن من النظر من على أي من مشهد أوضح للنقط التي تلوح فيها البقايا أو التباشير البارزة كأنها تجتمع كي تكون رسما أكثر إيجاء (٦٣) وتسمح دراسة الصور الجوية بتحديد المناطق التي يكون من اللائق ان تستكشف للحصول على فكرة عامة من البنية الاثرية. واستعملت هذه الطريقة في مصر، بالأخص لدراسة معابد الكرنك في مساحة ١٥٠ هكتار تقريبا.

وثمة استعمال آخر يمكن من الكشف عن وجود بقايا أثرية تغطيها الاراضي المزروعة بواسطة العلامات النباتية، ان هذه الآثار بصمات حقيقية تنتج عن تغيير الرطوبة في التربة، فالنبات على جدار من حجارة مغمورة يتميز قليلا بواسطة خط أكثر وضوحا ويكون أغنى، ويبدو أشد دكنة عندما يكون فوق حفير مردوم، ويمكن الشكل الهندسي لهذه الآثار من التعرف على الانقراض المدفونة ومن الشروع في استكشافها (٦٤).

تحليل التربة

نستطيع بصورة عامة تعيين الانقراض القديمة للمدن المسكونة والمقابر، بتحليل التربة، فاذا كان فوسفاط الكالسيوم هو المكون الرئيسي للهيكل العظمي ولخلف ما يتبقى مما يتركه الانسان، فستكون نسبتها المثوية بالطبع مرتفعة على الأراضي التي سكنها الانسان في الماضي او في التي كانت له

(٦٢) و. م. ف. بتري، ١٩١١.

(٦٣) ر. أ. لينينغتن، ١٩٧٠، ص ٨٩ - ١٠٨.

(٦٤) م. ج. إيتكن، ١٩٦١.

مقابر، لذا تحدد هذه القطاعات الاثرية بواسطة التحليل لعينات من الاتربة مأخوذة على مسافات منتظمة قصد استنتاج نسبة الفوسفاط.

تحليل غبار الطلع

ان تلقيح النباتات الزهرية يتم عامة بفعل الطيور والحشرات أو الريح. والأزهار التي لفتحها الريح تنتج كميات كبيرة من حبات غبار الطلع يسقط معظمها على الأرض دون ان يساهم في عملية التلقيح. وتحلل هذه الحبات بصفة عامة، ولكنها ان وقعت على تربة ملائمة، كالوحل أو الترب، فقد تتحجر، ويكون اذن من اليسر ان تفحص بالمجهر. وقد يكون للتعرف على مختلف نماذج غبار الطلع الموجودة في عينة ولتعدادها اهمية في علم الآثار من جراء ما يوفر من وسائل الاسترشاد، عن المحيط الذي كانت فيه بقايا بشرية واحداث عارضة، ويمكن معرفة هذا المحيط بدورها من توضيح نمط العيش الذي كان يسود في تلك الفترة.

على ان تحليل غبار الطلع لا يصلح كتقنية لتعيين التواريخ، الا اذا امكن ربط عينات غبار الطلع بتاريخ، يعتمد على طريقة مباشرة لتعيين التاريخ كطريقة الفحم المشع. ولزيادة التفاصيل عن هذه التقنية انظر فاكري وافرسان (٦٥) ودمبلاي (٦٦).

دراسة المقاومة الكهربائية

هي أول تقنية لفيزياء الأرض تم تطبيقها على الآثار وهي تتمثل في ارسال توتر كهربائي في الأرض، وقياس مقاومة التيار الكهربائي، وهذه المقاومة تتبع طبيعة التربة وكمية الماء التي احتفظت بها مسامها ونسبة املاحها المحولة. فللصخور الصلدة المتراصة كالكرانيت والدوريت مقاومة مرتفعة جدا بالنسبة الى مقاومة الاتربة الصلصالية. وتطبق دراسة المقاومة الكهربائية خاصة على البحث عن بنيات حجرية مغمورة تحت ارض ذات أحوال، او بنيات حفرت في الصخر وردمت (٦٧).

و يشمل الجهاز المستعمل عادة لذلك في ادخال اربعة مسابر معدنية في الأرض، وامرار تيار كهربائي بين المسارين الخارجيين، وقياس المقاومة بين الاثنين الباقين، وقيمة المقاومة الناتجة هي معدل تقريبي بالنسبة للمادة الكائنة تحت المسارين الداخليين، على عمق يساوي تقريبا مرة ونصف المرة من البعد بينهما، مادامت هذه المادة في الجملة متجانسة (٦٨).

وفي العادة، تتمثل معظم تطبيقات دراسة المقاومة في رسم خطوط قياس مع الاحتفاظ بنظام الوصل وببنفس المسافات بغية تحديد التغيرات التي تطرأ على قيم المقاومة. وكثيرا تضم هذه الخطوط لكي تكون معا شبكة مستطيلة من القيم، ويتبين موضع البنى المدفونة من الأجزاء، التي تنتج قيا غير عادية.

(٦٥) ل. فاجري وج افرسان، ١٩٥٠.

(٦٦) ج. و. ديمبلاي، ١٩٦٣، ص ١٣٩ - ١٤٩.

(٦٧) م. ج. ايتكن، ١٩٦١.

(٦٨) لينتغن، ١٩٧٠، ص ٨٩ - ١٠٨.

وقد حل محل هذا الأسلوب جزئياً أسلوب التنقيب المغنطيسي، وذلك بسبب ما يشوبه من عيوب يذكر منها بطء الفحص، ولأن النتائج تتأثر في المدى البعيد بالظواهر المناخية، بالإضافة إلى أن تفسير النتائج إلى الصعوبة في كل الحالات إلا أبسطها (٦٩).

الفحص المغنطيسي

وهو التقنية الأكثر انتشاراً في البحث عن الآثار، وتتضمن قياس شدة الحقل المغنطيسي الأرضي، في نقاط كائنة فوق السطح الحالي للموقع المراد سبره. وقد تدل التغيرات في هذه القياسات على وجود بيئات أثرية، فتتمكن هذه التقنية من الكشف عن بقايا حديد مردومة، وعن منشآت من الطين المشوي، وعن الأفران مثلاً، أو عن آبار حفرت في الصخر وتم ردمها، أو عن بنايات من الحجارة مغمورة في تربة صلصالية.

وتسبب الأدوات الحديدية المدفونة تغيرات مهمة جداً، وفيما عدا الحديد فإن التغيرات ضئيلة. ولا تكون تقنية الدراسة المغنطيسية صالحة إذن، إن لم تكن آلة الاستكشاف حساسة بالنسبة للتغيرات الصغيرة جداً، ثم أنه ينبغي أن تكون سريعة سهلة المراس (٧٠). وقد نجح مختبر البحوث الأثرية في جامعة أكسفورد، في ضبط مقياس للمغنطيس يستخدم البروتونات، تتوفر فيه كل هذه الشروط (٧١)، وهو يتركب من قسمين: قارورة الاستكشاف والآلة المسجلة. وتحمل قارورة الاستكشاف على ثلاث أرجل من خشب، وينقلها عامل المختبر من نقطة إلى أخرى على المساحة المراد درسها، ويراقب عامل ثانٍ إشارات المسجلة ويرسم بواسطة القياسات مستوى يؤول تعبيره إلى الإشارة إلى موقع العناصر الأثرية، والحطوط العريضة لها داخل الأرض (٧٢).

وهناك أصناف أخرى من مقاييس المغنطيس قد دقق صنعها ولا سيما «المقياس الفرقي ذو البروتونات» (٧٣) والمقياس ذو الجيزيوم، والمقياس بالضخ للرنين الإلكتروني (٧٤) ولكل مزاياه، ولكن انفعاله في غالب الحالات هو المقياس الفرقي ذو البروتونات.

وللطريقة المغنطيسية كثير من المزايا بالنسبة إلى المقاومة، فهي أبسط وأسرع، وتفسير نتائجها أيسر (٧٥).

سبر الأهرام المصرية بواسطة الأشعة الكونية

إن الأشعة الكونية هي تيار من جزيئات ذات شحنة كهربائية تسمى (ميزون مو) أو (موون) تبلغ هذه الأشعة الأرض بشدة متساوية من كل نقاط السماء. فيدخل كل متر مربع، نحو ١٠ ٠٠٠

(٦٩) لينغتن، ١٩٧٠، ص ٨٩-١٠٨.

(٧٠) م. ج. ايكن، ١٩٦٣، ص ٥٥٥-٥٦٨.

(٧١) م. ج. ايكن، ١٩٦١.

(٧٢) نفس المرجع.

(٧٣) أ. ت. هل، ١٩٦٥، ص ١١٢.

(٧٤) باسكول، ١٩٧٠، ص ١٠٩-١١٩.

(٧٥) ر. أ. لينغتن، ١٩٧٠، ص ٨٩-١٠٨.

مليون في الثانية، مهما كان اتجاهها. وللأشعة الكونية قوة نفوذ كبيرة جدا، اكبر بكثير من قوة أشعة اكس، وتكاد تكون سرعتها مساوية لسرعة الضوء.

ويستند سبر الاهرام بواسطة هذه الأشعة الى كون الميون تفقد من طاقتها عند اختراق المادة. ان ضياع الطاقة (او امتصاص الميون) يتناسب مع كثافة المادة التي تخترقها ومع سمكها، ولشدة او كمية الأشعة الكونية التي تنفذ تقدر بجهاز معروف باسم «غرفة الشرارات» يوضع في حجرة تحت الارض داخل الهرم. والميون التي اخترقت الفراغ (او غرفة او عمرا مجهولا) تخفض سرعتها تخفيضا اقل، اذا ما مرت خلال صخرة صماء، فتكون الأشعة الكونية التي اخترقت الفراغ أشد وتظهر ذلك غرفة الشرارات. وبواسطة غرفتين للشرارات موجهتين اتجاهها افقيا على بعد ٣٠ سنتيمترا تقريبا الواحدة عن الاخرى في الاتجاه الرأسي، يمكن ان تستكشف كل حجرة خفية بل ان يتعرف على موقعها بتقريب بعض الامتار، فتوجه الحفريات في ذلك الاتجاه كي يتم الوصول الى الفراغ او الحجر التي اشارت اليها الأشعة.

وبدأ السبر بالهرم الثاني، هرم الملك خفرع، من الاسرة الرابعة (٢٦٠٠ سنة ق. م) وحللت الارشادات بواسطة الحاسب ونشرت النتائج يوم ٢٠ أبريل — (نيسان) ١٩٦٩ فكشف عن امرين مهمين: ان حجرة الميت الملك لا تقع بالتدقيق وسط قاعدة الهرم، بل تقع بقعة امتار نحو الشمال. ووافق هذا الاكتشاف النتائج التي تم الحصول عليها بواسطة الدراسة المغناطيسية، وهو يدل اذن على صلاحية هذه التقنية لسبر الاهرام. ثم ان التلث الاعلى من الهرم لا يشمل على غرف او معابر مجهولة.

واعيدت التجربة بواسطة جهاز آخر ركب لاستكشاف الهرم كله. ودل التحليل للنتائج ان الهرم لا يشمل على أي تجويف مجهول وبذلك تاكدت التكهانات الاثرية.

تقنيات الحفاظ

ليس الغرض من هذا العرض ان نصف الطرق التقنية المستعملة للحفاظ على الاحداث العارضة المؤلفة من مختلف العناصر كالحزف والصيني والزجاج والخشب والجلد والبردي والأنسجة والفلازات الخ. وان هذا التنوع يخرج عن نطاق هذا الفصل، وقد عولج الموضوع في عدة كتب تقنية (٧٦) وفي عدة دوريات، من بينها دراسات في الحفاظ وهي صحيفة المعهد الدولي للحفاظ على الأعمال التاريخية والفنية في لندن.

على أن أهم المشاكل التابعة للحفاظ في أفريقيا هي التي تتعلق بهشاشة الأشياء الكبرى، والطب العظيم للعالم الحجرية.

هشاشة مختلف المواد الكبيرة

بسبب الحرارة والجفاف الشديدين، في كثير من البلدان الافريقية، صارت الاحداث العارضة المصنوعة من مواد عضوية (رق، بردي، جلد، خشب، عاج، الخ...) عرضة للكسر السريع، مما

دعى الى معالجتها بكل عناية حتى لا تهدد بالانقراض، و يقتضي اولا حفظها في محل مغلق رطب وان تلف في انسجة ندية، او ان تعالج بالخار في وعاء خاص حتى تتمكن من استرجاع بعض او كل مرونتها. فيصير في الامكان اذن ان تنشر او تبسط دون أن يخشى عليها من الكسر. وإذا ما رجعت لها مرونتها يجب ان تحفظ هذه الأحداث او ان تعرض في متاحف مجهزة بالهواء المكيف، او في مستودعات طقسها 17 ± 2 درجة مئوية ورطوبتها النسبية من ٦٠ الى ٦٥٪ حتى لا تصير من جديد سهلة الكسر باتصالها بظروف مناخية اشد قساوة.

الفساد الملحوظ للمعالم الحجرية

ويجدر ان ينظر عن قرب في هذا الشكل الهام:

أهم اسباب العطب

ان اهم هذه العوامل هي عطب المباني الحجرية بافرقيا:

— تجوّل الاملاح: عن طريق الماء او الرطوبة تنتقل الاملاح القابلة للتحلل من التربة المالحة الى حجر المعالم الاثرية وذلك بتأثير عامل ظاهرة التسرب، وتمر هذه الاملاح في المناخ الجاف من داخل الحجارة الى سطحها الخارجي في صورة محلولات مائية، وقد تتبلور على السطح نفسه وتتسبب في تفكيكه، او تتبلور تحت السطح وتعمل على فرقهته. وتتضخم هذه العمليات في قاعدة الجدران او الاعمدة حيث تتصل الحجارة بالتربة المالحة كما يشاهد ذلك على بعض الأعمدة في معبد بوهان بالسودان (الشكل ٤).

— العوامل الجوية: تتحمل الحجارة في افرقيا قساوة التغيرات المتطرفة في الطقس وفي الرطوبة، فتؤول بها الى فصل العناصر السطحية في معظم الاحجار .

وفي عدة مناطق، ولا سيما في الجهات الساحلية، يتضافر عاملا العطب، فيتسبب عنها افساد كبير للمعالم، كما يلاحظ ذلك بسهولة في ليبيا في المعابد الرومانية في لبة (لبتيس باكنا) وفي صبراتة.

معالجة السطوح — عدم نجاعتها

وقعت عدة تجارب مؤخرا لتقوية سطوح الأحجار بمعالجتها بمولد حافظة عضوية أو برملبات (سيليكا) لاعضوية. وبدت كل هذه العلاجات ليس فحسب غير نافعة، بل مضرّة حيث تزيد في سرعة العطب وفي كسر الاحجار ونبه على خيبة هذه المساعي في الملتقى الدولي للحفاظ على المعالم الحجرية. واعترف ان مشكل تقوية الحجارة لم يحل بعد، وانه يجدر الاشتغال به بكل سرعة.

الجهود الدولية لحل المشكل

ان الصعوبات الملازمة لهذا المشكل ونظورتها قد دعت سنة ١٩٦٧ منظمي الايكوم والايكوموس والمركز الدولي للحفاظ لتكوين هيئة مؤلفة من عشرة اخصائيين في المحافظة على الحجر لدرس القضية، فتمت بعض الدراسات وقدمت عدة تقارير واستمر نشاط هذه اللجنة الى سنة

١٩٧٥ لتستقر سلسلة من التجارب المعيارية التي تمكن من تقدير درجة عطب الحجارة وما يحتمل من نجاعة في علاجات الوقاية.

أمل جديد

لقد أعد الأستاذ لوين اسلوبا جديدا لحماية سطوح الرخام والكلس (٧٧) يتمثل في معالجة الاجزاء الفاسدة بمحلول قوي التركيز من هيدرو اكسيد الباريوم (نحو ٢٠٪) يشتمل على كمية من الاوربا (نحو ١٠٪) و الغليسول (نحو ١٥٪) فمن الناحية الكيماوية تتركز الطريقة على التعويض في الحجارة المعطوبة عن ايونات الكلسيوم بايونات الباريوم. وبعد المعالجة تبين ان الحجارة تبدي صلابة واضحة ومقاومة افضل لعوامل العطب، اذ يلتصق بالحجارة فحمات الباريوم الجديد التكوين دون ان يكون كساء سطوحها، له خواص مغايرة لخواص الباطن، ويرجى من هذه الطريقة الا تستفقت السطوح المعالجة وأن تعمل على حماية الطبقات التحتية من تعديات التغيرات الطقسية.

استخدم هذا العلاج في شهر يوليو (تموز) ١٩٧٣ لتقوية التثال الكلسي لابي الهول في الجزيرة الآخذة في التآكل. وتبدو النتيجة حتى الآن مرضية، ولكن علينا ان نراقب هذه الرقبة طيلة عشرين سنة على الاقل، قبل ان نقر نهائيا ان هذه التقنية قينة بحماية الاحجار والصخور الكلسية والمحافظة عليها.

التدابير العلاجية للوقاية

نهما كانت الثقة التي نولها لتقنية لوين فان مشكل الحفاظ على المعالم الحجرية بالمعالجة الكيماوية لم يحل بعد، على ان هناك بعض التدابير الميكانيكية يوصي بها لحماية هذه المعالم من عوامل التخریب، ومن هذه التدابير:

— لا ينبغي استخدام اي مادة وقائية من شأنها ان تسد مسام الحجارة لمعالجة سطوح المعالم الاثرية الموجودة في الهواء الطلق والمعرضة مباشرة لأشعة الشمس فقد تتقشر الطبقة الخارجية من السطح بسبب ذلك.

— ينبغي القيام بانتظام بعملية ازالة الملح من التربة التي بنيت عليها المعالم الاثرية ويجب ان يجلي الماء المستعمل هذه الغاية بواسطة مصارف لائقة.

— يجب ان تعزل المعالم الحجرية بقدر الامكان عن الأراضي الماخلة لايقاف تنقل الاملاح القابلة للتحلل من الأرض الى الحجر. ويمكن الحصول على هذا العزل بالزلاق ورقة من الرصاص او بافراغ طبقة سميكة من القار تحت التثال او الجدار أو العمود التي تقصد حمايتها.

— اذا اشتمل البني الاثري على املاح قابلة للتحلل، وقد تتسبب في العفن او تكون فطريات يجدر ان نزال هذه الاملاح بالغسل بالماء وان تغطي الاجزاء المصابة بصلصال رملي حتى تتخلص الحجارة منها تماما او تكاد.

— اذا ما كان حجم المعلم متوسطا يكون من الممكن نقله الى متحف او الى ملجأ لوقاية جوانبه من تأثيرات العمل المناخي المصرة. وحل اخر يتمثل في حفظه في محله الاصلي بتغطيته ببناء اخر.

— واذا ما اتلف السقف، فيجب اعادة بنائه لحماية الرسوم الجدارية والتصاوير النائية، وبذلك يحد شيئا ما من الاضرار الناشئة عن التغيرات الكبيرة للحرارة والرطوبة.

توصيات فيما يخص التجديدات

ان معاملة الأحداث العارضة والمعالج الاثرية بكيفية غير مناسبة، قد يتبعها عدد من الاضرار، بل حتى الخراب الكلي لبعض هذه الاثار، ولعل ينبغي التذكير ببعض القواعد المهمة الموصى بها اثناء المؤتمرات الدولية.

(أ) ينبغي باي حال الا تغسل القشرة التي تغطي المعالم القديمة، وان لا تزال بقصد الكشف عن لون الحجر الاصلي، و يقتصر في تنظيف الواجهات على ازالة الغبار بحيث تبقى القشرة كاملة، وهذا هو الطابع الاهم للمعلم.

(ب) عند تجديد المعالم القديمة ينبغي الاعاد البناء الا بالنسبة الى الاجزاء المتعدية الآيلة للسقوط، و يعاد البناء في مكانه الاصلي. وينبغي ان نتجنب التعويضات والاضافات الا ما دعت اليه الحاجة لتدعيم الاجزاء المنهارة او لوقاية الواجهات القديمة من تغيرات الطقس.

(ج) في جميع حالات اعادة البناء، يجب ان يوضع الملاط بين الاحجار حتى يتوزع وزنها توزيعا متساويا ولا يتسبب عنها تبديل في الشكل ولا شقوق.

(د) يجب أن يكون الملاط المستعمل، بصفة عامة، في تجديد الجدران مطابقا للملاط الاصلي، الا في اذ كان هذا الاخير من الجبس. ولا يوصي باستعمال الاسمنت في المنشآت المبنية بالصخور الرسوبية، كالكلس أو الصوان.

(هـ) ان أحسن ملاط بالنسبة لجميع أعمال اعادة البناء، هو ملاط الجير بلا ملح، فهو مرن، مسامي وبذلك لا يمنع تنقلا صغيرا للحجارة بموجب تغيرات الحرارة، ولا يخشى معه حدوث توترات أو شقوق.

(و) وأما الطرق التي تمكن من تمييز واجهات الاحجار المضافة فدونك ما يستحق الذكر منها:

— يمكن ازالة الجديدة ان تختلف قليلا عن مستوى العمل الاصلي.

— ليس محظورا ان تستعمل مواد مختلفة، لكنه يجب التقيد بابعاد القطع الاصلية.

— يمكن ان تستعمل ايضا عين المادة ولكن في هذه الصورة يمكن ان يختلف الشكل والابعاد بالنسبة الى العناصر الاصلية.

— ان صفوف الاحجار وكل المفاصل يمكن صفها على البناء الاصلي ولكن القطع الجديدة يمكن صنعها من مجموعة من الحجارة ذات احجام مختلفة.

— يمكن وضع علامات للتعريف بتاريخ اعادة البناء تنقش على كل الاحجار الجديدة.

— يمكن ان تختلف واجهة الاحجار الجديدة تماما عن واجهة الاحجار القديمة. ويمكن لذلك ان تعالج بألة ذات حد، او ان تنقش في عمقها بمكشط حتى يكون لها بعض الشكل الهندسي ومن الافضل ان يكون من خطوط متوازية ومن قواطع.

الفصل العاشر

القسم الأول

اللغات والتاريخ الافريقي

باتية ديان

آدا كوي دمنكا! وني (فلفلدية)
لمي أي دتكال دمب (وولوف)
ان الكلمة هي التي تشكل الماضي.

ان الزنجي الافريقي يربط التاريخ باللسان، وتلك نظرة مشتركة بين البنو واليوروبا الماندانك. ولكن ليس هذا هو الطريف فالعربي واليوناني قبل توسيديد يتفقان على القول، مع الفلاحي، «ان الخبر هو المحل الذي يوجد فيه الماضي» (هنكي كوي دارل اوراتي) وما يميز الرابطة بين التاريخ واللسان، في التراث الزنجي الافريقي يرجع الى ما احتفظ به عموما هذا التراث، من تصور لهاتين الظاهرتين.

فهو يباين بسهولة بين اللغة والتفكير، والتاريخ لديه ليس علما بل هو المعرفة وفن الحياة. ان التاريخ يهدف الى معرفة الماضي، واللسانيات هي علم اللسان والكلام. والخبر والعمل التاريخي من محتويات التفكير ومن أشكاله. وأما اللغة فهي محل التفكير وهي الحاملة له. ولللسانيات والتاريخ بالطبع مجال خاص بكل منهما، ولكل موضوعه الخاص وطرقه. ولا يمنع ذلك من تداخلهما على الأقل باعتبارين اثنين:

أولا: ان اللغة كنظام وكآلة للابلاغ هي ظاهرة تاريخية، ولها تاريخها الذاتي. ثم هي كحامل للفكرة وبالتالي كحامل للماضي ولعرفته، هي المحل والمصدر المفضل للوثيقة التاريخية، وبالمعنى الواسع الذي نعطيه هنا لللسانيات فانها تشمل حقلا لبحوث تمتد التاريخ على الأقل بانموذجين من المعطيات، خبر لسانی محض من جهة، ووثيقة يمكن أن تسمى فوق اللسانية من جهة أخرى. وهي

تمكن بفضل معطيات التفكير وعناصر التصور المستعملة في اللغة وفي النصوص الشفاهية والكتابية، من مطالعة تاريخ البشر وحضارتهم. وإذا وضعت المشكلة هكذا، يبدو لنا، بكيفية أحسن، ما بين المؤرخ والعالم باللسانيات العاملين في إفريقيا من مجال مشترك.

العلوم اللسانية والتاريخ

من شأن جميع العلوم التي يكون اللسان والتفكير موضوعا لها أن تساهم في البحث التاريخي، على أن عددا منها أكثر ارتباطا مباشرة بالتاريخ. وهذا من التقاليد المستقرة، ولو أنها عند التأمل تبدو محل نقاش. فبموجب التعدد ترجع دراسة القرابة بين اللغات دفعة واحدة إلى نقطة التقاء بين اللسانيات والتاريخ، وذلك بكيفية أسهل من الرجوع لتحليل تطور المادة المستعملة من النصوص المكتوبة أو الشفاهية، ومن مفردات لهجة من اللهجات. هذا على أن كلا الباحثين يتعلق بالأحداث اللسانية أو الفكرية وبالتالي بالتاريخ.

وأوحى تدوين التاريخ الأوروبي هنا بالفصل بين العلم التاريخي الحق وبين التاريخ الأدبي أو تاريخ الأفكار. ولا يبرر هذا التمييز إلا في بعض السياقات.

إن البكنغو من حضارة البنو، والايو من البنين والسوسو ذو الثقافة السودانية، لم يقولوا لنا إلا القليل أو لا شيء، من النصوص التي تتوفر فيها الشروط النظامية لعلم تاريخي عصري. وبالعكس أنهم انتجوا كمصادر للخبر أدبا شفاهيا غزيرا تميز أغراضه تميزا كبيرا أو صغيرا، وفتحوا كذلك آثارا قد نهم اليوم بادراجها مع القصص والروايات والأخبار واليوميات الخاصة بالملاحم التاريخية، والحرفات والأساطير والأعمال الفلسفية أو التابعة لنشأة الكون، والتأملات التقنية والدينية أو المقدسة، فيخلطون فيها بين الواقع الذي عاشوه وبين الخيال، بين الحدث الذي يمكن تعيين تاريخه وبين الأسطورة الخيالية المحضة. وتكرر إعادة البناء لتاريخ البكنغو والايو أو السوسو بالتحليل النقدي لهذه الآداب وهذا المأثور المنقول. ولا يمكن أن نغفل عن خطتهم وتقنياتهم ومعارفهم، وعن حل ألغاز لغاتهم وعن تصوراتهم وما استعملوا من تعبير مما هو باق يكشف عن تاريخ كل منهم.

والعلوم والطرق التي نرجع إليها هنا على أنه من شأنها أن تثير الطريق للتمشيد الإفريقي، ليست إذن نتيجة استقراء مستوف. وهذا ليس عيبا في مستوى الموضوع. وإذا ما حدد الاختصاصي في اللغة لنفسه حدودا معقولة، فهو يوفر لنفسه وسائل أحسن للتعلم في قطاعات مدققة. ويبقى هكذا لغيره من الباحثين، كمؤرخي الأفكار واختصاصيي العلوم والاقتصاد أو الآداب، مهمة الالام بهذه القطاعات مع اعتبار ما لبحوثهم من بعد لساني.

العلم التصنيفي وتاريخ الشعوب الإفريقية

إن تصنيف اللغات فيه ما يكشف عن القرابة بين الشعوب التي تتكلم بها وعن تاريخها، وهناك عدة نماذج من التصنيف:

التصنيف التوليدي

وهو يثبت القرابة رابطة التسلسل داخل أسرة لسانية من الاسرات، وهو يساعد ولوجزيا، على اعادة الوحدة التاريخية للشعوب والثقافات التي تستعمل لغات من أصل واحد.

التصنيف النموذجي

وهو يجمع بين لغات بينها تشابهات او توافقات واضحة في مستوى البنيات والنظم. فلغات من أصل واحد أو من أصول مختلفة تماما، قد تستعمل عين الأنماط من التكوين المعجمي، الاسمي والفعل، والضمير، مع كونها من ناحية التوليد والتاريخ أو الجغرافيا بعيدة جدا الواحدة عن الأخرى.

فيوجد مثلا في الـوولوف والانكليزية ميل الى استعمال عين الصيغة الاسمية والفعلية.

لجاي بي = العمل	لجاي = عمل
The work = العمل	To work = عمل

ومع ذلك فان هاتين اللغتين من ناحية التوليد، ومن ناحية الجغرافيا بعيدتان جدا رغم ما ذكر من التوافقات النموذجية. ويتفق أحيانا أن تكون اللغات من أسرة واحدة ومن نماذج متباينة. وتقام القرابة بينها على أساس الألفاظ المعجمية المشتركة، ولأن هذه اللغات قد تطورت حسب اسس بنسوية متفرقة، وقد يظهر أحيانا حدث الألفاظ المستعارة (من الخارج) أو التخليلات عن الألفاظ المستعملة حتى في المستوى المعجمي. وما أعد من تصنيفات تابعة للغات الافريقية لم يجمع مثلا بعض العناصر من الاسرة المعروفة بالتشادية أو الاسرة المسماة السنغالية الغينية. على أن النظم الصوتية والظواهرية والبنية النحوية تفرض على النظر أن يتم التجميع النموذجي لأكبر عدد منها على الأقل.

التصنيف الجغرافي

يعبر هذا التصنيف عن ميل طبيعي الى المقارنة بين لغات توجد مع بعضها، وضمتها الواحدة الى الأخرى، ويتم هذا غالبا نتيجة لطبر غير كاف.

وما اقترح من تصنيف كمي تطبق في افريقيا هي في غالب الأحيان من النوع الجغرافي في القطاعات الأساسية. فهي تفعل من جراء ذلك ظاهرة الهجرة وتشابك الشعوب، ويحيل كمواول وم. دولافوس ود. وسترمان وج. غرينبرغ أساسا الى مسميات وتجمعات اتوبولوجية وجغرافية. فرتبوا اللغات الى «الغربية الأطلسية» و«النيجيرية، الكنغولية»، و«السنغالية الغينية» و«النيجيرية التشادية» الخ.

ويتضمن التصنيف الدقيق للغات الافريقية استعمال طرق تبين أن ما عرض من الأشكال والمفردات والبنيات اللسانية كمناصر للمقارنة ليست تمثيلية فقط بل هي كذلك خاصة بالتراث الاصلي للغات المقارن بينها. ولا يكون الشبه اذن نتيجة للاستعارة أو للاتصالات القديمة أو الحديثة.

فمن المعلوم أن العربية واللغات السامية، كما أن الفرنسية والبرتغالية والافريقندرية أو الانكليزية، قد أودعت بفعل التاريخ منذ عدة قرون أو حتى بضع الآلاف من السنين عددا كبيرا من المفردات في كثرة من اللغات الافريقية، فبعض اللهجات الكسواحلية، وهي من لغة البنتو، تشتمل على أكثر من ٦٠٪ من المفردات العربية. وما هي الا خطوة كي يتم الاستنتاج، بموجب العاطفة الدينية أو بنتيجة لعدم التحلي بالتحفظ العلمي، بأن الكسواحلية تنتمي الى المجموعة السامية العربية، وقد اجتاز بعضهم أحيانا هذه الخطوة.

وقد تكون الصيغ المشتركة في البداية بين عدة لغات قد تعرضت على مر الزمن الى تغيرات صوتية أو صرفية أو بنوية. وهذا التطور خاضع لبعض القوانين، وهي ظاهرة معروفة يمكن تحليلها. فقد تتغير معاني الصيغ أو مدلولات المفردات المتخذة للمقارنة في حدود حقل دلالي يحاط به بسهولة أو بصعوبة. مثاله: ان الـ «وولوف» في شكله المصري يعرف حذف المصوتة الختامية اذ كانت بعد حرف مضعف مثل «بوب» أو «فط» عوض «بوتا» و «فطا» كما ينطق بها حتى الآن أهل كامبيا والليبو. وصيغة (ندس) في المصرية القديمة صارت في الفلفدية المصرية (ندو) و بالـ «وولوف» (نيت) و يقول البونتو «موتومتو» والـ «هوسا» «موتو» والمندنج «ميكسي» أو «موكسو» وعند الفون «كبيسو» والمينا «أكبيسو» الخ واللفظ المصري «كيميت» كان يعني محروق، أسود، و يؤدي اليوم معنى الرماد والحروق الخ.

اعادة البناء التاريخي للغة من اللغات

وهي تقنية لاعادة الإكتشاف المعجمي والتراث البنيوي المشترك، آخذة بعين الاعتبار أحداث التغيير هذه.

وهذه العملية تمكن من اعادة تاريخ لغة أو أسرة لسانية، وتساعد على إثبات اللغة الأم الأولى، وعلى تعيين الفترات الفاصلة بين مختلف الفروع، وهذا المعنى هي مساعد ممتاز للعلم التصنيفي بالذات. وتوجد عدة معايير وعدة تقنيات لاعادة بناء لغة من اللغات واستنباط معطياتها الاصلية من جديد.

وتلعب الأواصر الصوتية دورا أساسيا في اعادة بناء اللغة الأم، ولا إثبات قرابة من القرابات، فأذا ما علم مثلا أن الباء قد تصير في رواية ثانية ف أو أن أوقد يصير أ وهكذا اذا اعتبرنا أن فا تساوي با وأن لوتساوي ل أمكننا أن نعيد الصوتية والصيغ الاصلية.

اعادة البناء الصوتي

هي خطوة في اعادة بناء الرصيد المعجمي والمفردات الاصلية. وليست الثبرات هي وحدها التي تتغير، فالصرف والبنيات تتطور أيضا، فوظيفة الفاعل في اللاتينية يدل عليه بأعراب خاص يسمى رفعا، وفي اللغات ذات الاصل اللاتيني أو التأثيرة باللاتينية الفاعلية تعرف بمحل الفاعل في الجملة هو موفيديت = فيديت هو = رأى الرجل

وعند وضع أصول اللغات مثل البانتو والتشادي ونحوهما تقع الاحالة دائما الى المفردات والرصيد المعجمي المشترك، وهكذا يمكن أن تقام «نسب مئوية» للكلمات المشتركة بانشاء

لوحات من «العدد المعجمي». و يلاحظ تصنيف ج. غرينبرغ (١) الى هذه التقنية في غالب الأحيان. كما يستعمل هذه الطريقة د. ساير في دراسته لمجموع غربي المحيط الاطلسي (٢) و يقرر هكذا أن السيرير والبولوكار المحشودين في جمع واحد يشتركون في ٣٧٪ من الكلمات. والباكاكوبا والتيني في ٧٩٪ والتيني والسيرير في ٥٪ فحسب، والتشري والسافين في ٥٪.

والحالة أن هذه اللهجات تجمّع كلها في أسرة واحدة ولكن لا يكفي الاشتراك في المفردات المعجمية، التي قد تكون بكثرة من الدخيل، لنفي العلاقة التاريخية أو لإثباتها. فليجأ الى الشبه في السمات النموذجية أو الى تطابق البنيات (المقارنة بين نظام الضمائر والنظام الفعلي أو الاسمي النح).

ويمكن العنصر النموذجي مضافا الى معطيات التحليل المعجمي أو المعطيات الصوتية، من الحصول على نتائج قطعية بقدر ما يعتبر التاريخ والتأثيرات. وترمي إعادة البناء أيضا الى تعيين التاريخ الذي فيه توزع هذا الميراث المشترك ضمن اللغة الاصلية، ثم استخدم من قبل لغات متقاربة أخذة في طريق التميز. وإعادة البناء تهم كذلك بتسخير طبيعة اللغة القديمة التي منها نشأت مختلف اللغات التي يمكن ربطها بأصل لغوي واحد.

إعادة البناء وتعين التاريخ

يمكننا من ضبط عمر المواد المعجمية والبنوية المجموعة أثناء دراسة اللغات، حتى يتيسر بالمقارنة تدقيق المستوى الذي تقع فيه القرابة اللسانية تدقيقا كبيرا أو صغيرا. وعليه فهما ميداننا بإشارات مدققة عن تاريخ تفرقة الشعوب الذين انتموا الى عالم ثقافي ولساني واحد. وهما يلقيان ضوءاً مدهشا على تاريخ العروق وتواريخ الحضارات المتعددة القوميات والمتعددة العروق.

وفي إطار البحث المتعلق بفترة حديثة، وفيما يخص اللغات المكتوبة، فإن المجهود أيسر نسبيا. وقلة الوثائق عما وراء الألف الرابعة قبل الميلاد تجعل العمل أصعب بصفة عامة. على أن المقصود في هذه المرحلة أن يوضح تاريخ فترات حاسمة من التحول اللساني. وعمليات تحول المعجم أو البنيات التي نعتبرها في هذا المستوى هي كما سنرى، بطيئة جدا ولكن يصعب وضع الاصبع عليها، ولعاجلة هذا النقص في الخبر يلجأ الى أساليب لها نجاعة تكثر أو تقل.

التأريخ المبني على تطور المفردات والصيغ

وهو من أحدث التقنيات في هذا الموضوع، ولقد جرى العمل به في الحقل الافريقى. ويرتكز مبدأ هذه الطريقة على تأريخ التطور المعجمي في لغة ما، بالرجوع الى حركة تغير معجمها، المعجم الثقافي (المفاهيم الفلسفية والتقنية النح) والمعجم الأساسي (أسماء أعضاء الجسم، العدد من واحد الى خمسة، مفردات تدل على أحداث طبيعية النح) وتهدف هذه التقنية الى الأخراج عن عمر المفردات والأشكال المعجمية ومراحلها وحالة تطورها.

(١) ج. غرينبرغ، ١٩٦٣.

(٢) د. ساير، ١٩٧٣.

وتطور المعجم الأساسي نسبياً بطيئاً في المجتمعات القديمة، فيما عدا حالات التحول العنيفة التابعة لأحداث حاسمة.

ففي إفريقيا السوداء على الخصوص مكنت أعمال دولافوس من تصور حركة هذا التطور بالرجوع إلى إحصاء الكلمات التي أثبتتها الكتابة منذ القرن الحادي عشر الميلادي. وهذا هو معجم اللغات السودانية الذي جمعه النصوص العربية. وقد بقيت هذه الألفاظ تقريباً بدون تغيير بعد ما يقرب من ألف سنة من التاريخ. على أن أنصار هذه الطريقة يتجاوزون هذا الحد قائلين: إن تطور المعجم الأساسي ليس بطيئاً فقط، بل إنه قار في كل اللغات. وهذا رأى م. سوادش الذي حاول أن يطبق هذه النظرية على اللغات الإفريقية. وتبدو المحاولات المجرىة في بعض الحالات الدقيقة قطعية حاسمة. ويقدر التاريخ المبني على تطور المفردات أن حركة تحول بين ٨١ ± ٢ و ٨٥ ± ٠.٤% لمدة قدرها ١٠٠٠ سنة. وأمدتنا هذه الطريقة، على هذا الأساس، بنتائج ملخصة في المعادلة الشهيرة:

$$d = \frac{\log m}{\log h}$$

حيث d يمثل المدة، و m النسبة المئوية للألفاظ المشتركة بين اللغات المقارنة و h نسبة الاحتفاظ.

فهل في الامكان ما أحرزناه من نتائج، أن نعتبر هذه التقنية قياساً زمنياً لا ثباتاً، أي ضرباً من «الساعات» التاريخية؟ لقد كانت النتائج أقل من المأمول، وذلك لسبب بسيط: ففي سياق من التدخل اللساني ومن تراكم المعاجم، مما لا نعلم إلا القليل عن غايته، حيث تعوزنا الوثائق المدققة المكتوبة أو غيرها، ليس من اليسير في الحالة الراهنة للبحوث أن تصنف الأحداث، وإن ميز مثلاً بين التغير العادي والتحول الناتج عن التدخل، هذا حتى في المعجم الأساسي.

على امكانية علم تصنيفي يستخدم كل هذه التقنيات، وقد يمدنا بفتحاح العلاقة العرقية واللسانية.

تصنيفات لسانية وقرابات عرقية ثقافية

بالرغم عن الأعمال الجليلة التي أجريت، فإن مشكل القرابة اللسانية والعرقية مازال بعيداً عن الحل في إفريقيا، وفي الكثير من القطاعات تتغلب الحُدس بهذه الرابطة، على الحجّة العلمية الثابتة. إن فكرة المجموعة البنّو والاعتقاد بأنها تجمع معظم السكان في إفريقيا الوسطى والجنوبية، قد نشأ في القرن التاسع عشر مع أعمال و. بليك. فكان هذا يثبت في مؤلف شهر نشره سنة ١٨٦٢، القرابة بين اللغات ومختلف صورها اللهجية في منطقة فسيحة جداً تسكنها عروق عدة تستخدم لغات تقتضي الفهم فيما بينها فهماً قليلاً أو كثيراً، فقرابة اللغة والثقافة قد تكون واضحة من أول وهلة بالنسبة إلى عروق تعيش جنباً لجنب وهذه حال الشعوب المعروفة بالبنّو.

وتقوم أحياناً مشاكل من جراء المسافة في المكان أو في الزمان والفلاينيون يقدمون مثلاً يوضح

هذا. فهم يشككون، من حوض السنغال الى حوض النيل، مجموعات كثيرة ما تكون منعزلة في قلب عروق متجاورة أحيانا ولكنها مختلفة عن بعضها كثيرا. ويتكلم دولا الكامرون لغة البانتو، ويمكن عمليا أن يعتبر الدولا كنسخة مغايرة من البانتو وهي لهجة مثل اللكالا، وكما هو الشأن بالنسبة للغتين ميانداكا وكينشاسا. وهذا رغم الابتعاد والانعزال النسبي للمجموعتين اللتين تتكلمان هاتين اللغتين. وتقدم اللغة المصرية الفرعونية التي كان يتكلم بها قبل خمسة آلاف سنة، تشابها واضحا مع الهوسا والولوف والسنغالي (٣).

وهنا أوضاع التراكيب. فما زالت كبار اللغات الموحدة تستعمل لأسباب مختلفة (سياسية واقتصادية وثقافية الخ) كحوامل لإدماج العروق المتباينة. وتلغي من جراء الضغط الاجتماعي والوزن التاريخي لهجات وثقافات لم يبق منها غالبا الا بعض البقايا. فملايين من الأشخاص من أصول مختلفة أو قل عشرات الملايين تتكلم اللينكالا والهوسا والكيسواحي واليوروبا والتوى والايووالجبراجولا والفلفلدي والعربية والولوف. وكحوامل للإبلاغ تجاوزت هذه اللغات اطارها العرقي والجغرافي الاصلي، فصارت لغات حضارة مشتركة بين شعوب كانت في البداية متباينة جدا.

في السنغال تكون الفلانية والسيرير معظم الاغلبية من الأشخاص الذين عمتهم الولوفية، وفي الأصل لغة الولوف هي لغة عرق ليوالذي يوجد منه بقايا على الحدود السنغالية الموريتانية. والآن ليس الليووالا أقلية ضعيفة محصورة في شبه جزير الرأس الأخضر. ومع هذا فإن ثقافة الولوف ولغتهم تطمس تحت أعيننا، بفضل تكاثر المدن بالسنغال، لغات ولهجات عديدة: سيرير وليو وفلفلدي وديولا ونونون الخ. وهذه اللهجات لشعوب مختلفة، ومع ذلك لعبت في فترة تزيد عن عدة قرون، دورا مهما في تاريخ المنطقة.

وهذا التطور عام في الكيسواحي يتكلمه عدة عشرات من الملايين من ذوي اللسان البنتو، وقد نشأ عن لهجة من الزنجبارية كانت مستعملة في البداية في بعض القرى. ثم انتشر بسهولة بمناطق تستعمل لغة متجانسة نسبيا، من أصل البانتواليوم، مع اللكالا، أهم أداة تخاطب في إفريقيا الوسطى والجنوبية. في البلدان الآتية: الزاير والجمهورية الشعبية الكونغولية والامبراطورية الافريقية الوسطى * و(أوغندا وطانزانيا والكينيا وزامبيا والملاوي وإفريقيا الجنوبية، والسودان، وأثيوبيا الخ). خمسون أو ستون مليونا من البشر يتكلمون لغة من هاتين اللغتين أو لهجة قريبة منها.

وكثيرا ما كان الشفك الكبير الإفريقي التقليدي وإعيا، لا بهذا التراكيب فحسب، بل أيضا بما قد يكون للظاهرة اللسانية من دور في توضيح التاريخ. ونجد في التقاليد عددا من النوادر تتحدث عن القرابة بين اللغات أو عن أصل تفرقها الاسطوري

(٣) عن هذه المسألة من المفيد الرجوع الى أعمال الانسة مبركر، والى فصول الاستاذ غرينبرغ واوبنكا والى تلخيص ملتقى القاهرة. (الجزء الثاني)

* سابقا: أما الآن فهي جمهورية إفريقيا الوسطى (تعليم مراجع الترجمة العربية. محمد الفاسي)

وفي أكرّ الأحياء، فإن القرابة الثابتة لم تنشأ إلا بموجب الحاجة إلى الاندماج أو إلى التعاضد مع تاريخ مجموعة «من المفروض» أنها ستظهر بكيفية أو أخرى في عالم عرقية معينة. وكي تكون الأسطورة التقليدية منسقة، يصبح من اللازم أن توجد روابط حقيقية أو أسطورية بين المجموعات التي تعمر اليوم موطننا مشتركا.

وكان و. هـ. بليك (٥) من أوائل المجتهدين في إثبات ما بين لغات البانتو من قرابة. وله فضل السبق في هذا المجال على مؤلفين من أمثال ماينوف أو. هـ. جونسون. على أن مساهمة دولافوس (٦) فيما يخص لغات أفريقيا الغربية مساهمة مشهورة. وكذلك الشأن بالنسبة لمساهمة س. ل. ليسوس (٧) و. ا. ن. تكرر (٨) وج. و. مري (٩) فيما يخص اللغة النيلية وباسي فيما يخص البربرية. وكانت دراسة اللغات المصرية القديمة الاساسية للبحث في اللغة الزنجية الافريقية، وكذلك دراسة اللغات السامية والهندية الاوربية في أفريقيا الشمالية، بل حتى اللغات البونيقية واليونانية اللاتينية. قد أتت كلها بنتائج وافية.

(٩) ج. و. مري، مجلد ٤٤.

وكما يشير إلى ذلك ج. هـ. غرينبيرغ (١٠) مؤلف كتاب تصنيف اللغات الأفريقية، وهو أحدث التصنيفات وأكثرها عرضة للنقاش الآن، إن الأعمال العصرية التي تهتم بجمع القارة والتي لفنت الانتباه أكثر من غيرها، هي أعمال دركسل (١١) وماينوف (١٢). ولم تكن هذه الأعمال هي الأولى ولا الوحيدة. ومنذ عام ١٩٥٦ هـ، عرض كوال (١٣) وكذلك ميخود (١٤) سنة ١٩١٤ هـ طرقاً وأنماطاً للتصنيفات. ويمدنا بومان وسترومان (١٥) سنة ١٩٤٠ بنظام طريف في عين الموضوع.

على أن هذه الأعمال بقيت محل نقاش ونوقشت فعلاً من عدة وجوه، أولاً لأن اللسانيات الأفريقية لم تنج من المذهبية العرقية المركزية، وفي هذا المستوى فإن الانتقادات الحديثة ج. هـ. غرينبيرغ نفسه، تستنفق تماماً مع النقد الذي صرح به منذ عشرين سنة الشيخ أنطادوب في «القوميات الزنجية والثقافات» والذي رده ت. أوبنكا مجدداً المعطيات في كلمته في مهرجان لاجوس ١٩٧٧.

والوجه الثاني علمي محض، يتفق عليه علماء اللسانيات في شبه اجماع، يتلخص في أن مساعي التصنيف سابقة لأوانها، وأن التحفظات والاحترازمات المنهجية اللازمة لم يتم اتخاذها، ولم تجمع بعد المادة المحللة حتى تحليلها والمهياة للمقارنة التوليدية أو حتى النموذجية.

عدم كفاية الأعمال

إن تعدد اللغات الأفريقية وحده تعترضه عقبات، ولم ينته احصاؤها إلى نتائج مدققة جداً، على أن عدد اللهجات المصنفة ككلمات في القارة يقدر تقريباً بين ١٣٠٠ و ١٥٠٠. وتتلخص أحياناً الدراسات الخاصة بهذه اللهجات في جمع نحو العشرين كلمة مكتوبة بقليل أو كثير من التحريف وانعدام تحليل معمق للبنية والمعجم وإمكانية التفاهم بين مختلف هذه اللهجات، أمر عادي بالنسبة إلى الأغلبية الساحقة من اللهجات الأفريقية. وبذلك سرعان ما تسقط التصنيفات التي تجري محاولات القيام بها دورياً. وكم من لهجة صُنفت تحت عنوان «لغة» ولم تكن إلا نسخة مختلفة من عين اللهجة.

وبناء على بعض شهادات مبهمة تستند إليها استنتاجات مصنفين أو مخبرين قليلي التجربة والعلم، صُنفت بسرعة روايات مختلفة ليس فحسب، كلمات متباينة ولكن كمتناصراً لمر مختلفة. كما لو زعم أن البامبرا لغة تخالف المنديكوفي كازامنس، أو أن اليوروبا في البنين يخالف اليوروبا

(١٠) ج. هـ. غرينبيرغ، انظر ١٩٥٧ خصوصاً التحليل النقدي المنشور في «التبليد الحامية والسامية الحامية في إفريقيا»، ١٩٥٨. وكذلك، لغات إفريقيا، لاهاي ١٩٦٣.

(١١) انظر ج. هـ. غرينبيرغ.

(١٢) س. ماينوف، ١٩٠٤، ١٩٠٦، ١٩١٢، ١٩٣٢.

(١٣) س. و. كوال، ١٨٥٤.

(١٤) ف. و. ميخود، ١٩١١.

(١٥) هـ. بومان، ود. وسترومان، ١٩٦٢.

هـ في النسخة المطبوعة ١٨٥٤ (تعلين مراجع الترجمة العربية عماد القاسمي).

هـ في النسخة المطبوعة ١٩١١ (تعلين مراجع الترجمة العربية عماد القاسمي).

في الإيف، والامر مع ذلك يتعلق في الحالين بروايات مختلفة لأصل واحد. وفي مثل هذا، اشترى ماينوف بصدد لغات الكردفان بأخطائه الجسيمة.

نعم انه قد تم أخيراً بعض التقدم، ولكنه لم يتوفر بعد سياق ملائم لعمل تأليني دقيق. وكذلك ليس في الامكان أن تصنف لغات مازالت هويتها غير معروفة بدقة ولم تحلل تحليلًا مضبوطًا، وتوضح الأمثلة المحسوسة التالية مدى الجدالات ومجموعة الشكوك.

يتعلق المثالان الاولان باللهجات الكائنة على الحدود الجغرافية الحالية للاسرة الهندية الاوربية السامية من جهة وللأسرة الزنجية الافريقية من جهة أخرى، ويتعلق المثال الثالث بمجموعة «الاطلسي الغربي» أو كذلك «السنگالي الغربي».

فن أعمال ماينوف ١٩١٢ (١٦) وم. دولا فوس ١٩٢٤ (١٧) وش. ميك ١٩٣١ (١٨) وج. لوكا ١٩٣٦ (١٩) وم. كوهان ١٩٤٧ (٢٠) الى أعمال غرينغ المؤرخة بسنة ١٩٤٨ أو أ. تکر وأ. بريان سنة ١٩٦٦ (٢١) والى دراسات النقدية الحديثة التي قدمها ث. او بنغا (٢٢)، لا يوجد اتفاق تام لا في المعطيات ولا في المنهج ولا في مركبات المجموعات والائتماء وطبيعة العلاقات بين اللهجات؛ فالجغرافيا على الخصوص والاتصال يجمعان حقاً بكيفية لاشك فيها بين اللغات الممتدة من النيل الى حوض التشاد. وإن التعايش طيلة آلاف السنين بين الزنجية الافريقية والسامية ترك فيها رصيدا مشتركا كبيرا من الدخيل من كليهما. وتمنع هذه التبادلات من امكانية التمييز بين المعطيات الاصلية والمكتسبة من الخارج. ومشكل من المشاكل يتمثل في معرفة الى أي حد تكون المفردات الخاصة بالمصرية القديمة و بالهوسا والقطبية والبيغرية والسرا واللغات التشادية والتي توجد في البربرية أو في اللغات السامية كالعربية والامهرية شاهدا على قرابة أو على تأثيرات بسيطة.

ان معطيات المصرية القديمة ترجع الى ٤٠٠٠ سنة، ومعطيات السامية الى ٢٥٠٠ سنة. وأما التشادية والبربرية والكوشيتية التي درست في نفس الاطار لا تمدنا بإرشادات دسمة الا انطلاقا من القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد.

ونشر م. كوهان سنة ١٩٤٧ كتابه «محاولة مقارنة حول المعجم الشاميتي السامي وصونياته» ويفر فيه بين المصرية والبربرية والسامية والكوشيتية والهوسا التي يذكرها من حين لآخر. وانتقد ليسلو (٢٣) وهنتر (٢٤) استنتاجات كوهان حتى في مستوى المناهجية. وبناء على أن مبدأ الحقل «الحامي السامي» نفسه محل جدال أوحى غرينغ بنص خمس متميز هو،

(١٦) س. ماينوف، ١٩١٢.

(١٧) م. دولا فوس، ١٩٢٤.

(١٨) ش. ميك، ١٩٣١.

(١٩) ج. لوكا، ١٩٣٢.

(٢٠) م. كوهان ١٩٤٧، ج. غرينغ «الحامية السامية» س. ج. أ. ٦-٧-٤٧-٣٦-١٩٤٨.

(٢١) أ. تکر وأ. بريان، ١٩٦٦.

(٢٢) ث. او بنغا، ١٩٧٧.

(٢٣) و. ليسلو، ١٩٤٩.

(٢٤) هنتر، ١٩٥١.

التشادي. وسمي المجموع باسم «الحامي» أو «الأفريقي الآسيوي». وأثارت هذه الاستنتاجات الجدل منذ نشرها. فعارض بولوتسكي (٢٥) امكانية وجود الفروع الخمسة في الحالة الراهنة. بدون أن يقنع الى اقتراح يستند بالخصوص على الناحية الجغرافية ورد في «لغات العالم» ويكنى أن نتصفح تصانيف ج. غرينبرغ وتكروبريان المتباينة والمنقحة دائما من قبل أصحابها أنفسهم لكي نقف على مدى الصفة الموقفة لهذه الاستنتاجات.

وشمة أشغال حديثة للواقع التشادي تضع تحسبا حدوده أبعد بكثير من ضفاف البحيرة. وعمق نيسومن وما (٢٦) سنة ١٩٦٦ وإلى سفيتيا (٢٧) سنة ١٩٦٧ معرفة التشادية القديمة. ودقت أصحالي. ب. كابريل (٢٨) محي انتشار هذه اللغة في التشاد نفسه. ويمكن بالاستناد الى ملاحظات نظامية، أن يوحي برابطة توليدية بين مجموعة لغة سرا ومجموعة لغة التشادي، وعدد من اللغات المصنفة ضمن «الاطلسي الغربي» (سيرير وبولار، وولوف، وسافين) (٢٩) الخ. وهذه المساهمات وحدها تعيد النظر في مجموع الجهد الذي بذل قصد الترتيب، كما يلاحظ ذلك س. ت. هودج في مقال نفيس (٣٠).

وإن المشكل الأعظم المتعلق بطبيعة الروابط بين لغات الحد الزنجي الأفريقي والهندي الأوربي لم يحل بعد وأهمية الأعمال التي تدمج العالم الثقافي الأفريقي في السامي مازالت محل اشكال. وذلك أن مشكل الهوية نفسه، ومشكل مركبات الزنجي الأفريقي مازالا قائمين، وأكد ذلك الملتقى الذي نظمته اليونيسكو في القاهرة سنة ١٩٧٤ حول «عمران مصر القديم». فذكر س. سونرون، بالمنااسبة ولتوضيح هذه الشكوك، أن «المصرية مثلا لا يمكن أن تعزل عن سياقها الأفريقي وإن السامية لا تعرف بولادتها».

والكوشيتية تصور مثلا آخر يوضح الشك القائم الآن حول البحث والتصنيفات. فيعرض اليوم ج. ه. غرينبرغ وتكروبريان والسوفياتي دلوكوبلسكي ثلاثة تصنيفات مختلفة، إن لم تكن متباينة لهذا المركب من اللغات المسماة بالكوشيتية (صومالية، كلاء، سيدامو، موكوالخ) و يتركب تصنيف دلوكوبلسكي حول اعادة بناء صوتي انطلاقا من أمثلة محدودة، فيقارن على الخصوص بين الشفويات (ب. ب. ف) والاسناتيات (ت، د) في اللغات التي يحللها و يصنفها الى نحو العشر من تحت المجموعات، بينما يتعرف زملاؤه على ٣ أو ٥.

وهمل ج. غرينبرغ المعطيات الصوتية والشكلية الصرفية والنحوية ويعتني خاصة بالمقارنة المعجمية، ولكن الدخيل له دور كبير في هذا المستوى. ويعيب تكرور بران على ج. غرينبرغ منهجه، و يضعان تصنيفا يعتمد على مقارنة نظام الضمائر والبنية الفعلية. وهما نفسهما يعتقدان أن

(٢٥) هـ. بولوتسكي، ١٩٦٤.

(٢٦) ب. نيومن «التشادي القارن» مجلة لسانيات أفريقيا الغربية ٥، ٢، ١٨، ٢٥.

(٢٧) اللي سفيتيا: «تاريخ الصوامت التشادية» انظر س. هودج، المصدر المذكور.

(٢٨) ي. ب. كابريل، ١٩٧٢.

(٢٩) انظر ب. دباني، ١٩٧٦.

(٣٠) س. ت. هودج، ١٩٦٨.

بعض اللهجات «مبهمة» ويجمعان بينها هنا، مع تأكيدهما على ما يكتسبه مجهودهما من صبغة المحالوة البسيطة. كما أننا نلاحظ أن قيمة الاستنتاجات المقدمة ما هي إلا طابعها المؤقت. ونجد عين المشاكل فيما يخص اللغات التي حددت جغرافيا بغربي المحيط الأطلسي. فهي تمتد على الساحل من جنوبي موريتانيا إلى السيراليوني. ويصنفها كوال سنة ١٨٥٤ في كتابه «تعدد اللغات الافريقية» تحت عنوان «الغربي الأطلسي» ويعرفها على أساس ما فيها من تغيرات السوابق أو الإمالة الصوتية في الحرف الأول أو الأخير. وهذا وصف نموذجي للبانطو، ولا يكفي لتحديد مجموعة من المجموعات، على أن كوال سيعتبر جملة هذه اللغات على أنها «غير مصنفة».

ويصرح م. دولافوس سنة ١٩٢٤ (٣١) ود. وسترمان سنة ١٩٢٨ أن هذه مجموعة توليدية. وسنة ١٩٦٣ اغرق ج. غرينبرغ (٣٢) في هذا الاتجاه، فهو يعتبر هذه اللغات كمجموعة متطرفة غربي الاسرة النيجرية الكنتولوجية.

وفي سنة ١٩٦٣ نفسها رغم ما سجله ولسن (٣٣) ود. دلي (٣٤) من عناصر نموذجية للتشابه داخل هذه المجموعة، فهذا ينكر أن كل امكانية لأن يجعل منها جمعا لسانيا متقاربا متجانسا، في تفاصيل الصرف والنحو والمعجم، كما يقول ولسن، أن «الأطلسي الغربي» أو المجموعة «السنغالية الغينية» بعيد كل البعد عن الوحدة، وفلا أن الأعمال الحديثة التي نشرها د. ساير (٣٥) سنة ١٩٧٤ تدل على أنه لا يوجد أكثر من ٥ إلى ١٠٪ من المعجم المشترك بين الأغلبية الساحقة من هذه اللغات التي يبدو أن الجغرافيا هي الوحدة التي توحد بينها. فعملية الهجرة قد مزجت هنا كما في المنطقة النيلية التشادية شعوبا من أصول مختلفة، وربما أن في التقريب بينها عند انعدام الارشادات الدقيقة التي تثير التاريخ والمؤرخ تسرعا في الحكم.

وعلى هذا المستوى بالذات تكون الحدود الحالية لللسانيات كآلة للبحث التاريخي متسعة فسيحة. ويتعرض الباحث هنا، العقبة المزدوجة التي ذكرناها آنفا، فلم يصل البحث الى نتيجة، لأنه لايزال جزئيا وبصدد التكون، ثم أن نتائجه مؤقتة فهي غالبا غير قابلة للاستغلال إذ تفسدها نظرات ومذهبيات عرفة.

الايديولوجيا المخرفة

ان التاريخ هو موطن الايديولوجيا بالذات. والأعمال الاولى عن ماضي افريقيا واللغات الافريقية وافقت فترة الزحف الاستعماري الاوربي. فتأثرت تأثرا قويا بالنظرات التوقية السائدة اذالك. والتفكير العرقي الخاص يعبر عن اهتمام قطري بالحكم على قيم الحضارات بمقارنتها مع ذاتها،

(٣١) م. دولافوس «الجمع السنغالي الغيني» ضمن «لغات العالم» نشر ميل وكوهان. باريس.

(٣٢) ج. غرينبرغ، ١٩٦٣.

(٣٣) و. ولسن، ١٩٦٦.

(٣٤) د. دلي، ١٩٦٥.

(٣٥) د. ساير، ١٩٧٤.

وذلك ما يؤدي إلى الاستحواذ على آيات الحضارة العليا، كي يبرر الإنسان نفسه كفكرة وقوة مسيطرتين على العالم.

ونظريات التفوق الهندي - الأوربي والآري أو الأبيض باعتبار أهلها مدنيين تشهد على تطرفات مازال حتى اليوم يتردد صداها العميق في عدد من المؤلفات التاريخية واللسانية حول إفريقيا (٣٦).

وهكذا طالما وضعت مصر بين قوسين بالنسبة إلى سائر القارة، وأحياناً قد ينقص من قدمها لصالح وادي الرافدين أو غيره من المراكز الهندية - الأوربية أو السامية المفروضة بالاعتماد على تخمينات خاطئة. وقد بحث أحياناً عن ملقنين خياليين لفن البنين، وركبت نظرية «الحامية» تركيباً اصطناعياً لشرح كل ظاهرة ثقافية إيجابية في إفريقيا السوداء وتفسيرها بتأثير خارجي (٣٧).

على أن ج. غرينبرغ عند سعيه في وضع منهجية دقيقة علمية، وقد كانت مساهمته طريفة هامة على الرغم مما احتوت عليه من أمور قابلة للنقاش، فإنه أحياناً كان لسان حال هذا الأثر السلبي من المذهبية العرقية.

ويدي سليمان وماينوف، وكذلك بعدهما مصنفون قيمون أمثال دولافوس وبومان وسترمان أو ملر، بحجج ذات ضعف مذهل من الوجهة العلمية، وذلك أنهم يستندون إلى أحكام مسبقة من نوع الرأي الذي يصير به ماينوف العبارة التالية: «خلال التاريخ تكرر حدث باستمرار، أعني أن الشعوب الحامية قد أخضعت الشعوب ذات البشرة السوداء وساسوهم كأسبياد لهم». إن مثل هذه الملاحظة تبرر ما يجدر أن يتخذ من الاحتراز عند استعمال ما توفره اليوم الأعمال اللسانية من مادة للمؤرخ أو للأخصائيين في العلوم الإنسانية عامة.

يقول ج. غرينبرغ: «إن الاستعمال المهم للفظ حامي كمقولة لسانية واستعماله في تصنيف الأعراق لتعيين نموذج يعتبر أساساً شبه قوقازي، قد أدّى إلى نظرية عرقية ترى أن معظم الأهالي المتأصلين في إفريقيا السوداء هم نتيجة خلط بين الحامين والسود».

وهكذا فإن تسمية «شعوب اللغة النيلية الشاميتية» ترجع إلى مؤلف س. ج. سليمان (أعراق إفريقيا)». «هذه الشعوب تعتبر عرقياً من أنصاف الحامين» ويمثل البانتو صنفاً آخر من السود المستنسين إلى الحامية. ويضيف غرينبرغ شارحاً: «وذلك على أساس تخمينات ماينوف، وهي تخمينات لم يدل قط بأي حجة في شأنها، إذ لا وجود لحجة على أن البانتو كما يقول سليمان، لغة مختلطة، وعلى أن الإنسان البانتو، إن صح القول، تناسل من أب حامي وأم سوداء».

(٣٦) انظر بعده ج. ه. غرينبرغ في هذه النقطة.

(٣٧) إن العبارات (الحامية) (الشاميتية) (الشاميتية) قد استعملت كثيراً في العالم الغربي خلال قرون ضمن المعجم العلمي والمعجم اليومي، وهي تتضمن قراءات محرفة ووجهة مأخوذة عن التوارق. ولقد ظهرت أسطورة لعنة الاعتقاب السود من نسل شام نتيجة هذه القراءات. ولئن كان حقاً أنه في القرن التاسع عشر، وتأثير علماء اللسانيات والانتولوجيين، أخذت هذه العبارة معنى بدأ أقل سلبية، وفي جميع الحالات أصبحت مستقلة عن أي دلالة دينية، فإنها مازالت تستخدم كثيراً لبعض السود المعترين كشخصية أملي من غيرهم. ولقد للأسباب فإن الجمعية العلمية الدولية، تشجع الدراسات النقدية المتصلة بالاستعمالات التاريخية لهذا المعجم الذي يجب عدم استخدامه إلا بتحفظ شديد.

ويستنتج ج. غرينبرج أن هذه الإيديولوجيا في الواقع تفسد تماما حتى اليوم وضع علم لساني من شأنه أن ينبر العلاقات الخلق بين اللغات والحضارات في إفريقيا.

إن الهجرة في الاتجاه شرق - غرب أو شمال - جنوب للشعوب الأفريقية، قد شوشت المظهر العرقي والنسبي واللساني في القارة. ويشير إلى ذلك أسماء الأشخاص والأماكن والأحداث اللسانية المحضة المتعلقة بالمعجم الأساسي ذاته. ويظهر ذلك في عدة دراسات، وتشهد اللغات في السنغال كالولوف والديولا والفلفلدي والسيرير بأوجه شبه مع لغات البانتو في إفريقيا الجنوبية وفي طانزانيا والكامرون والزاير أعظم منها مع لغات أسرة ماندانك التي اقحمت الجغرافيا داخلها، ومعجم المصرية القديمة وبنيتها ومبادئ كتابتها عينا، كما سرى فيا بعد، أقرب إلى واقع لغات الولوف والهوسا أو التراث الخطي الداهومي، منها إلى البنيات اللسانية السامية أو الهندية الأوروبية التي تقصم إليها بدون احتراز.

فقد ربطت المصرية القديمة والهوسا ولغات الرعاة الرواندية والحبشية والفلاتية والنوبية بلغات سامية أو هندية أوروبية على أسس واضحة الضعف، أو انطلاقا من منهجية واختيار المعايير الأقل اقناعا!

والفلاتيون تهجنوا، تماما كالبالوبا والسوسو والسنغاي إذ أن عددا من الشعوب السوداء في موطنهم القديم أو الحديث كان لهم اتصالات بالسكان البيض، على أن هذه الفرضية للتهجين قد أعيد فيها النظر اليوم بناء على مكتشفات حديثة عن عملية تحول التلون.

ولا تبدى الفلفلدية من حيث صوتياتها ومعجمها وبنيتها شيئا مع أي لغة معروفة أقوى منه مع السيرير. حتى أن الفلفلديين الذين يتكلمان هاتين اللغتين يوحيان نفسها بقرباتها لا اللسانية فحسب بل أيضا العرقية، وهذا لم يمنع بحثين أمثال ف. ملر وجفر يس وماينوف ودولافوص وسترومان من السعي في إثبات أصل أبيض الفلاتيين، بتصریحهم أن الفلفلدية هي حامية قديمة (٣٨) بل يصل تايلر إلى حد أن كتب: «إن الفلاتية بما لها من ثروة في المفردات ومن رنة في الالقاء ومن لطف كبير في العبارات، لا يمكن أن تنتمي إلى الأسرة السوداء السودانية». وهذه الملاحظات جميعها تبين إلى أي مدى تعمست الفوضى بين مقولات متباينة كاللغة ونوع العيش و«العرق»، بقطع النظر عن مفهوم الجنسية المستعمل، حسب الظروف للحالة إلى مفهوم من المفاهيم السابقة أو إلى غيره.

وكما لاحظ ج. غرينبرج أن ما أقر من علاقة بسيطة بين الماشية والغزو واللغة الحامية قد اقتضح خطأ على كامل القارة الأفريقية، فيقول: «أنه لمن السخرية في السودان الغربي أن يشاهد المزارعون ذوو اللغة الحامية تحت سلطة الرعاة الفلاتيين الذين يتكلمون لغة سودانية غربية (نيجرية كنفولية)، وقد تكون سخرية أخرى، إذا ما اتبعنا القوالب المثبتة، أن نلاحظ قدم سلطان الماندانك أو الولوف ودوامه في هذه الأسرة اللسانية السودانية، على شعوب تم ضمها بسرعة إلى «الحامية» أمثال الفلاتيين المنوعين الحامين القدماء أو أمثال «البربر».

وحتى اليوم لا يوفر أي تصنيف موضوع على المستوى القاري أو الإقليمي ضمانات علمية لا خدش فيها، وقد ساهمت العرقية مساهمة قوية في افساد تحليل المواد.

وفي الكثير من الحالات نبقى في التخمينات وإصدار قرارات مبدئية وفي اللحظات الحاطفة. وهناك عدد من الشروط لدراسة اللغات الافريقية في إطار العلم المدقق نتركنا تاريخ شوب القارة وحضارتها. أولا يجدر أن نحرر هذه الدراسة من وسوس الحكم المتجه كليا الى الخارج انطلاقا من السامية أو الهندية - الأوروبية، أي بناء على الماضي التاريخي للانسان الاوربي. ومن جهة أخرى يجب الاحالة على المادة اللسانية القديمة لاثبات القرابة بين اللغات الافريقية، لا الاحالة على المعطيات الجغرافية الحالية أو على التأثيرات القديمة أو المتأخرة، أو على المخططات الشارحة المختارة مسبقا، أو على الأشكال اللسانية الهامشية، بالنسبة الى الأحداث السائدة في الانظمة اللغوية.

العلوم المساعدة

التحليل الراجع للتأثيرات الاجنبية

ويسمى «طوبولوجيا» (٣٩) في الاصطلاح الانكليزي وهو يعود الى علم غرضه دراسة أصل الآثار الثقافية وطرق نشرها (الأفكار والتقنيات الخ) وقد دشّن بماثون ألمان هذه الطريقة معارضين بها دراسة الأدوار الثقافية التي وضعها فرو بنيس، ووسترمان - بومان الخ. وكثيرا ما لفت النظر الى هذا المستوى، نشر تقنيات المزارعين وثقافتهم، وطرق الرعاة، واستنباط تقنيات الحديد وسائر المعادن ونشرها، واستخدام الحصان، وقرار التصورات التابعة للكون ولجميع الالهة أو للاشكال الفنية. على أن الطوبولوجيا قد تجاوزت مجاها أحيانا، وعلى الخصوص انها أدخلت الكثير من الأخطاء في العلم التصنيفي. وذلك ان عددا من المؤلفين قليلي التحفظ قد ظنوا انه في الامكان أن تستنتج قرابة لسانية بناء على ملاحظة بسيطة لآثار ثقافية، والحال أن هذه الآثار كثيرا ما تعود الى ظاهرة الاستعارة أو الاتصال أو التقارب.

علم الإعلام

هو علم أساء: أساء المكان (أساء المواقع) وأساء الأشخاص (الأعلام) أو أساء أماكن الماء (أساء المياه الخ). وعلم الإعلام مقترن اقترانا وثيقا بمعجم اللغات، فالجامعات العرقية المتجانسة نسبيا في فترة معينة، والمجموعة العرقية اللسانية الأكثر تنافرا ولكنها تتكلم بلهجة مشتركة، تكون أسماؤها خاصة بالاحالات على واقعات لغاتها. يطلقون على العالم الأرضي والجغرافي الذي كان لهم أولا ليزال موطن، أساء يركبونها على هذا الاطار. وعلى هذا فباستكشاف أساء الأشخاص، نعرف في الوقت نفسه على العناصر العرقية التي تكون مجموعة ما. فالسرير هم عامة (جون وجووف

وسمين الخ) والغلانيين (سو، وجالو وباكوا، الخ) الماندانك (كيتا وتوري وجارى الخ) وللبربر والبانو أسمر من الأسماء خاصة بهما.

ولعلم الأعلام دور كبير في دراسة تاريخ العروق والجماعات السياسية أو الثقافية. وتدل دراسة الأسماء المستعملة لدى التكرور (٤٠) في السنغال اننا أمام جماعة عرقية لسانية متباينة جدا. ان هذه المجموعة المتكلمة بالفلقلدية، المتأصلة بالسنغال، على طول النهر، على حذو المائي وموريتانيا، متجانسة تجانسا كبيرا في المستوى الثقافي، وعن هذا نتج احساس «قومي» قوي جدا، وفي الواقع هذه المجموعة تكون انطلاقا من عناصر فلانية تغلب لغتهم ومن الماندانك والسيرير والبولولوف والبربر.

ويمثل علم أسماء المكان وعلم أسماء المياه، أيضا علمين أساسيين لدراسة هجرات الشعوب. ويمكن رسم خرائط مدققة انطلاقا من أسماء القرى المندثرة أو الباقية حتى الآن تمكن من تتبع طريق الماندانك حيث تحمل القوى أسماء مركبة انطلاقا من الدوكو. ومن الممكن أيضا أن ترسم بالظريقة نفسها خريطة مسميات الأماكن للمواطن القديمة أو الحالية عند الفلانيين الذين يستعملون لمنشأهم اسم ساري، وكذلك بالنسبة للبولولوف الذين يستعملون لفظ كر، وللغرب والبربر: دار والهوسا الخ.

الانثروبولوجيا الدلالية

وهي تكون طريقة جديدة لادراك الامور، وتسعى الى الكشف عن ثقافة الانسان عن طريق لسانه، وتستند الى تحليل جملي لمجموعة المعطيات التي تمدنا بها لغة عرق من الاعراق، أو جماعة لا متجانسة والتي تستعمل لغة مشتركة، كي تظهر للعيان في آن واحد، ثقافتها وتفكيرها وتاريخها. وتتجاوز الطريقة مجرد جمع المأثور والأدب المكتوب أو المنقول، انها تتضمن اللجوء الى اعادة بناء كامل للأفكار التي تحملها اللغة والتي لا ترجع حتما الى أثر معين، أو الى خطاب منظم. ويجري البحث في هذا الشأن في مستوى تحت المستوى اللساني وفي مستوى فوق المستوى اللساني. وهي تفك الرموز انطلاقا من المفردات، ومن تقسيم الفكرة، ومن وسائل التعقيد ومن إيجاد بنية اللغة، تفك رموز مختلف نماذج المعرفة التي تتبلور فيها النظرة الى العالم والتاريخ الخاص بالمجموعة التي تستخدم اللغة المعطاة. وهذه اللغة العرقية تصل الى الكشف عن نظم هي: التصور الميتافيزيقي، الأخلاق، علم الكائن، الجمالية، المنطق، الدين، التقنيات الخ.

وهكذا فان الأدب المكتوب أو المنقول عن ماضي الهوسا بما فيه من الوثائق الدينية والأمثال والأعمال القضائية والطبية والعنانية والتربوية، يخبرنا في الآن نفسه عن تطور محتوى فكرة الهوسا وكذلك عن تاريخها وثقافتها.

وفي الحاضرات التي تغلب فيها الرواية الشفاهية، حيث تكون نصوص المراجع قليلة، لا وجود عمليا للتفسير التطوري المعتمد على مقارنة النصوص من فترات مختلفة. وتصير إذن اللسانيات وسيلة لاعادة اكتشاف التراث الفكري، وسليما لتسليق الزمن.

والثقافات ذات العبارة الشفاهية التي تكتشفها الانثروبولوجيا الدلالية، تمدنا بآثار يجب جمعها وإقرارها وتمدنا بمؤلفين وباختصاصهم. وقد أبقت كل ثقافة إفريقية شفاهية أو مكتوبة، كما لدى الوولوف، حكيمها مثل ندامال كساس، وعالمها في السياسة مثل ساباسي، وكوكو بورما، وصاحب الكلمة والفصاحة فيها، وصاحب الملحمة أو القصة كابن مبنك (٤١) وأبقت كذلك مبتكري التقنيات في الأقرباذين أو الطب أو الفلاحة أو الفلك (٤٢).
وتصيح هذه الآثار ومؤلفوها مصادر جلية للتحليل الحركي التطوري للثقافة في مجتمع على مختلف أشكاله.

ويمكن حل رموز الكائن البنتو، بل يمكن تفسيره وتنظيمه بالاحالة إلى الألفاظ البنتو عن الكائن في العالم، انطلاقاً من عمل التكوين والتصور الذي يعطي، من خلال المفردات والنصوص البنتو، شكل التصورات التي تكون للبنتو هذه الظواهر.
وإذا كانت اللغة محل تبلور كل الوسائل الذهنية أو المادية التي صنعتها الأجيال المتعاقبة، استطعن القول إن التجربة التاريخية لشعب، مسجلة في طبقات متتالية من نسيج اللغة نفسه.

حامل الوثيقة والفكرة التاريخية

تم الاتفاق عامة اليوم على ما للمؤثر من دور في التاريخ الأفريقي، بل أن «الرواة» التقليديين يلتبس حضورهم إلى المؤتمرات، ويقترح بعضهم أن يخص لهم مناصب جامعية أو حتى يكلفوا بالبحث وبتدريس التاريخ.

نعم أن أولوية القول على المكتوب قد بقيت في الجملة ضمن الثقافات التقليدية التي يغلب فيها الريف في إفريقيا كما في غيرها من البلدان.
والشفاهية كوسيلة لإعداد المنتجات الفكرية وضبطها تقنياً. وإذا كان المجال، بالنسبة لأشكال الفكرة المكتوبة أو المنقولة، مشتركاً على مدى كبير، فالطرق ووسائل تصورها ونقلها ليست دائماً هي ذاتها (٤٣).

ونلاحظ ببساطة أن الفكرة المكتوبة، والأدب بالمفهوم الاشتقاقي، إذا ما نشأت، فإنها يميلان إلى التحوير بكيفية أيسر في شكل دائم، وفي ذلك القطيعة مع المؤثر المنقول الذي يوفر مجالاً أكبر للاستنباط وللأسطورة. وفي مستوى اللغة تزداد امكانيات استعمال اللهجات، من جراء التطور غير المراقب. فاللغة التي يغلب عليها التعبير الشفاهي تبقى أكثر شعبية، حساسة للتحريفات الصوتية التي يفرضها عليها التطبيق في مستوى البنية والأصوات المستعملة، بل حتى في مستوى الأشكال المقبسة. واللغة الأدبية بالعكس، يداخلها العمل في اتجاه التوحيد، وهي تكتسب من جهة أخرى، بعداً مرئياً أوسع وتدمج كعناصر معبرة للمعطيات البيانية التي تمنحها نوعية خاصة: ضبط الاملاء بقطع

(٤١) كلهم شخصيات تاريخية مشهورة في التفكير الوولوف.

(٤٢) آثار جونستون عن اليوروبا، ومطيلس عن البنتو، وكريول عن الدوكون، وطرات عن الطب الأفريقي وكثري عن المدانة الخ... كلها تمثل مع الآثار الدراسة الأدبية المثبتة مساهمة لانثروبولوجيا الدلالية.

(٤٣) انظر، ديباني، المصدر المذكور أعلاه.

النظر عن أصوله، ووضع علامات الوقف الخ. أما اللغة الشفاهية على العكس فإنها تستمر في الرجوع إلى العنصر الصوتي. وهي تبرز بالإيقاع والأوزان والاستجاء أو التناثرات ما للخطاب من بيان. وأهمية دورة الذاكرة في معاوضة انعدام الحامل الكتابي، يعدل أيضا طابع الشفاهية في أشكلها التعبيرية، بل هو يفرض نفسه بما للتحفيظ من تقنيات، ومن علم متخصص للاحتفاظ بالنصوص. وتصير هكذا الوثيقة المكتوبة والمأثور المنقول ظاهرتين متكاملتين، وذلك بتضافر ما لكلية من مزايا ومن خصائص (٤٤).

ثم أن النصوص الشفاهية إذا ما سجلت صارت بدورها من الآداب (٤٥).

المأثور المكتوب — الكتابات الأفرقية

إن ابتكار الكتابة يستجيب إلى حاجيات لم يعلم دائما كيف توضح حسب الظروف والطابع والأصل. والكتابة كوسيلة للتجارة والإدارة تعني طبعا المدينيات الحضرية. ولكن دوافع الانطلاق قد تتغير كثيرا، وفي إفريقيا سواء في العهد الفرعوني أو في عهد ملوك الداهمائي أو المنسا الماندانك، كان استعمال الكتابة يستجيب أساسا إلى حاجيات لا مادية.

إن الكتابة المصرية وكتابة النقوش الداهمية ورسوم الباميرا أو الدوكون، كان لها في البداية وفي أطر ظروفها الخاصة وظفتان: تحميم الفكرة، ويتم بذلك تحقيق عمل له مرمى ديني أو مقدس. فللكتابة المصرية التي استنبطها حسب الأسطورة الإله توت بقيت محصورة خاصة في المعابد بين يدي الكهنة، وكانت تحتّم الأسرار. وهي تستعمل كوسيلة عمل، لفكرة لوحظت كمادة يمكن تحميمها في شكل كلمة أو خط.

وثاني وظيفة كبيرة جعلت للكتابة في الحضارات الأفرقية توافق الحاجة إلى التخليد التاريخي. فالكتابة المصرية ككتابة قصور أوبوماي هي تمجيد الملوك وشعوب اهتموا ببقاء ذكرى مآثرهم إلى من هم بعدهم. وكان الباميرا أو الدوكون حني يحظون على جدران بنديا كآراء علاماتهم الرمزية، يرمون إلى عين الهدف.

فبين لوح الملك كليلي، ساطور الحفل الحاملة للرسالة، وبين لوح نمر يوجد الكثير من أوجه الشبه، الروح واحدة وكذلك المبادئ وتقنيات الكتابة (٤٦).

تعزى الكتابة المصرية لالة توت، وهو أيضا مبتكر السحر والعلوم على غرار الإله ذي رأس ابن آوى عند الدوكون، وهو أيضا حافظ الكلمة والمعرفة وقول الفعال.

والقليل من الاختصاصيين الذين انكبوا على نظم الكتابات ذات الأصل الأفرقي، ولو أن عملهم هذا كان في غاية الدقة، لم يعيروا جميعا أي اهتمام للعلاقة التي تبدو واضحة وسهلة الإبانة تقنيا بين الهيرغليفات وأشهر الكتابات في إفريقيا السوداء.

(٤٤) انظر بديني، المصدر المذكور أعلاه.

(٤٥) انظر عديد المنشورات في هذا المستوى: أعمال هياتي ياوأ، إبراهيم سومولوتا، و. دمبيا وك. موين ف. ولا كروا ود. كريكول وك. ديتزلان و. ريس وك. كستلود. ت. بيان وم. ديابات وج. ميني الخ، وقد نشروا في هذا الشأن مصنفات دراسية، ضمن مجموعات أكسفورد، وجليار وكايمار في مركز نيامي الخ.

(٤٦) م. جليلي، ١٩٧٤.

وبقي الهيروغليف المصري أساسا على شكل تصويري في وظيفته الأصلية كوسيلة للمعابد. وهو كنظيره الداهومي يرجع حسب الامكان الى الصورة. فهي كتابة واقعية بصورة ارادية، مهما تجسم الكائنات والأشياء والآراء. ويتم ذلك بأشد الطرق حسية وأكثرها مادية، كما لو كان ذلك لارجاع بعض صفاتها الطبيعية أو للاحتفاظ بها.

وليس من باب الصدفة أن يكون تحريف الكتابة التصويرية الى الكتابة بالحظ اللين الذي يغير العناصر الممثلة ويجردها، مسموحا به خارج المعابد فقط. فالخط الكهنوتي (الهيراطيقي) المستعمل في الأكثر خارج الوسط الكهنوتي، خلافا لما يوحي به الاشتقاق اليوناني للفظ، والخط الشعبي (الديوطيقي) وقد ازداد بساطة في رسم هذه العناصر، كلاهما خط غير مقدس، انتفاعي. وكما يلاحظ حقا م. كوهين فإن الهيروغليفية تتضمن في فكر الكاهن المصري «قوة إيماء سحرية» وهذا يفسر حسب قوله، «أنه كان يجترز من تصوير الكائنات النحسة أو أن صورها كانت تشوه» ونحن هنا نجده تصور للذات تتصل جذوره بالتراث الزنجي الافريقي وتسبح في أعماقه. فلم يصل هذا التراث خلال آلاف السنين، بالهنود — الأوربيين وخاصة باليونانيين، الى نزاع القداسة عن الفكرة وعن حواملها الشفاهية أو الخطية، وتلك نظرة البامبر واليوروبا والنصبيدي أو كهنة دوكون، إزاء النظم المرسومة التي يستخدمونها في معابدهم أو في جلسات طقوسهم.

ووحدة الرسوم المستكسرة في افريقيا، لا تكن فحسب في المسبقات الايدولوجية التي تمنح لنظمها وظائفها وطبيعتها، بل هي أيضا في التقنية الوحيدة للنقل. وفي تاريخ الكتابة الافريقية يبدو الرجوع المستمر الى تقنيات ثلاث لتثبيت الفكرة بالرسم: الالتجاء الى نسخ صورة الكائن أو الشيء بواسطة علامات تصويرية، الالتجاء الى الرمز لتحميل واقع بواسطة علامات الرموز وهي اشارت لا علاقة مباشرة لها من الشبه الطبيعي مع المفهوم الذي ترمز اليه، وأخيرا استعمال الحاكي لتثليل ذوات الأصوات المتماثلة كلها، أي كل الظواهر الواقعية التي يشير اليها صوت واحد أو مجموعة واحدة من الأصوات. وهذا مبدأ الخط التصويري. هذا وإن المقارنة بين لوح نمر و ماسطور كليي أو دكادونو لشديدة الإيماء، فهي تنقل الخطاب حسب المبادئ ذاتها.

وعلى لوح نمر صورة ملك يقبض على عدوه المنهزم من شعره، و يصصره، بينما يلوذ باقي الجيش المنهزم بالفرار بين رجلي الفرعون العماق، والرسوم المصورة واضحة ناطقة، وأما باقي الاشارات فعلامات رمزية، يميز من بينها شكل بيضوي «تا» يرمز الى الأرض، ومن أعلى مجموعة من الرموز واطار مرتب لطابع اسم الفرعون حورس. سمكة و طائر يمثلان اسم الفرعون، وهما صورتان لرسوم الأصوات.

وماسطور كيزو تمثل الملك الداهمي في شكل جاموس، كما يمثل الفرعون في شكل باز. ويكشر الجاموس عن أسنانه مما يفيد أنه ينشر الرعب بين أعدائه. وفي هذه الصورة إيماء رمزي، وفي حالات أخرى يكون أكثر دلالة.

وماسطور الملك داكودو أو دوكودونو وهو أقدم يرجع الى عام (١٦٢٥م — ١٦٥٠م) ووصفها لو هريسي وهي تبين بوضوح مبدأ «الهيروغليف» الداهومي. وهذا مضمون النص تقريرا، النقوش على شفرة الساطور: هناك رمز به رسم يمثل صوانا «دا» ومن أسفله صورة الأرض «كو». بها ثقب في

وسطها «دونون». فهذه رموز تصورية استعملت كرموز للأصوات، فإذا ما جمعنا بينها كما بالنسبة لاسم الفرعون على لوح نمر، فإنا نقرأ اسم الملك الداومي داكودونو، و يلتقي الخط الداومي مع الهيروغليف الفرعوني مبدأ ومعنى، وهو يكشف عن التقنيات الثلاث التي يجلب إليها الخط المصري أي الصورة الرسمية، الرمز، وعلامة رسم الأصوات (٤٧).

وقد ذكر العالم السوفييتي ديميتري أ. الدروج في مقال تاليفي جليل على اثر ش. انتاديوب بان نظام الهيروغليفيات بقي قائماً حتى عهد متأخر في إفريقيا السوداء.

و يصرح كافاسي دي مولوكولو في كتابه «الوصف التاريخي للممالك الثلاث في الكونغو والماتمبا والآنكولا» المنشور سنة ١٦٨٧ ان استعمال الكتابة الهيروغليفية مازال قائماً في هذه المناطق.

واكتشفت سنة ١٨٩٦ كتابة هيروغليفية منقوشة على صخور التيتي في الموزمبيق، على نهر الزمبار ونشر نصها آنذاك. و يلاحظ ش. انتاديوب أيضاً استعمالاً متأخراً لخط ذي رسوم في الباول، حيث أمكن العثور في عصر قريب على نقوش هيروغليفية على أشجار باو باب عميقة جداً واستعمل الفاي في ليبيريا مدة طويلة خطأ ذا رسوم على شرائط من اللحاء، والخط الميروي في الحدود الجنوبية لمصر القديمة امتداد للخط الفرعوني ومنه كان يقتبس، إلا أن يكون هو الذي أثاره أو أن يكون قد اشترك معه في أصل واحد.

على أنه يبدو أن نظم الخطوط الرمزية قد كانت على الأرض الزنجية الإفريقية الغربية أشد مقاومة من الهيروغليفيات. وعملياً فإن معظم الشعوب الزنجية الإفريقية تعرف استعمال الكتابة الرمزية، إما عن طريق التقنيات الكهنوتية، أو بناء على ما يقوم به رجال الدين من أعمال أو عن نقاشي لأثار فنية الخ.

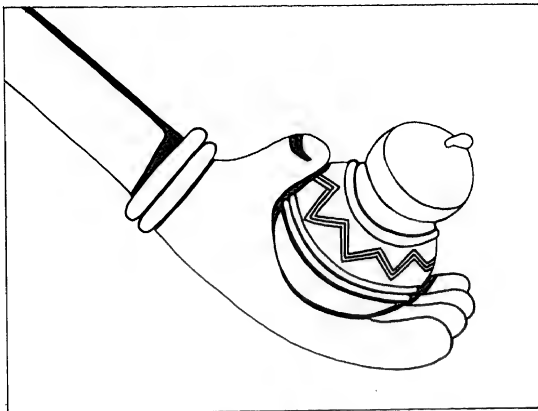
ونخط الرمل عند الكورمانتشي له تقنية فنية راقية (وهو المسمى عندهم كامبييواو)، يرسم الرمال والرموز على الرمل ويعبرها، ثم يتقدم بضرب من «الوصفة» تتمثل في رموز منقوشة بالموسى على قطعة من الدباء، وتشير هذه العلامات المجردة إلى الهياكل والمذابح التي يجب المثول فيه قصد تقديم القرابين، وإلى نوع الدابة التي يجب ذبحها وإلى عدد القرابين الخ. وهذه «كتابة رمزية». والتكهن بواسطة علامات «فا» غزير الثروة: وذلك أن الكاهن يقوم بعمليات شعوية ماسكا بعدد من جوز السخيل بيد ناقلاً إياها من يد إلى أخرى ثماني مرات. ويسجل كل مرة على طبق مرشوش بالغبار أو على الأرض، عدد الجوزات الباقية في يده اليسرى. وتكون جداول (عددها الممكن ٢٥٦) منها ستة عشر أساسية، هي الـ «دو» التي تمثل القدر فيها «خيوط» الإلهة أو كلامها، ويتحكم فيها «الفا». فكل إنسان مطالب بعبادة الدو الذي ينتمي إليه ولكنه في آن واحد، عليه أن يأخذ بعين الاعتبار ما لأقاربه وأجداده وبلاده من «دو» الخ. والتأليفات متعددة جداً. وتعد «الدو» يتألف في ضرب من الاستراتيجية الأسطورية، وهي أيضاً تقنية خطاطية. ويستعمل التكهن «بالفا» على طول ساحل البنين.

وكان ما جمع من نظم الرسوم الرمزية (٤٨) غزيراً خاصة في بلاد السهوب، وقد بقيت تقليدية

(٤٧) انظر الفصل الرابع.

(٤٨) انظر نيكوران بواه: «بحوث عن الصنجات لوزن الذهب عند الاكان» رسالة دكتوراه دولة نُفِشت سنة ١٩٧٢.

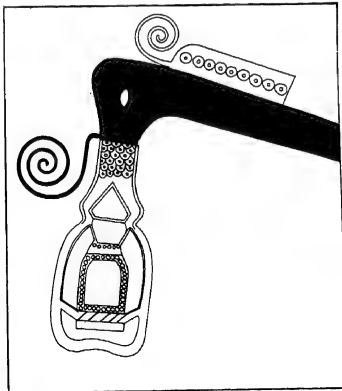




● (١) رسم يثل يقطينة، وهي رمز القوة
(تصوير نوبيا).

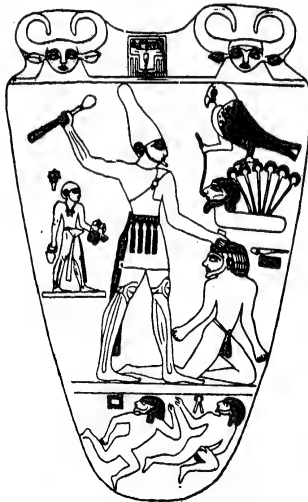
● (٢) رسم مهدى الى داكوتودو
(تصوير نوبيا).

● (٣ و ٤) شيل ينشر الرعب (تصوير
نوبيا).



كتابة تصويرية مصرية	كتابة تصويرية نسيجية
<p>كتابتة تصويرية مصرية (حوالي ١٠٠٠ سنة قبل الحاضر)</p> <p>رجل بحري، ذراع ممدودة؛ أينو = رسول</p> <p>بطن حيوان ثديي؛ كت = بطن، جسم</p> <p>سحلية؛ أنشا = عديد؛ غنى</p> <p>دودة أوتعيان (كفوف)؛ دودة (دفت)</p> <p>شمس ساطعة؛ وين؛ يظهر</p> <p>هلال؛ اعلك = قر</p>	<p>رجل بحري، ذراع ممدودة ما كفر يغور (ص ٢١٢)، رسول</p> <p>دائر يل؛ رمز يحوي سقا في داخله</p> <p>تلبوت؛ سحلية</p> <p>ما كفر يغور (ص ٢١٢) ثعبان؛ دائر يل؛ ثعبان طويل جدا؛ أوروك</p> <p>ايكوت، ثعبان بالافيك و «شاو» بالاور يانجا</p> <p>تالبوت؛ شمس ساطعة؛ أوتين</p> <p>شمس بالافيك و «روا ونيج» بالاو يانجا</p> <p>تالبوت؛ هلال؛ سبي = قر بالاو يانجا</p>

١. مفردات من الكتابة التصويرية
المصرية والنسيجية (مأخوذة من
كتاب «أفريقيا في العصور القديمة»
والهامش السفلي ٣٤ في الصورة يحمل
الى: ج. لك. ساكفريغور ١٩٠٩؛
أ. ديريل ١٩١١؛ تالبوت ١٩٢٣).
٢. لوحة نارمر (مأخوذة من: شيخ
أنتاديوب، ١٩٥٥).



١٨٤٩) قاي	١	→	##	⊙	⊙	2	3
١٩٦٢) ميندى	١	٢	##	6	⊙	2	3
لوما	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
كيلي	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥
باشا	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢
باموم	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩
١٩٠٦) ١٩١٦)	٣٠	٣١	٣٢	٣٣	٣٤	٣٥	٣٦
أوباري	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠	٤١	٤٢	٤٣
أوكايي	٤٤	٤٥	٤٦	٤٧	٤٨	٤٩	٥٠
دجوكا	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٥٥	٥٦	٥٧
ماندينجو	٥٨	٥٩	٦٠	٦١	٦٢	٦٣	٦٤
دولوف	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١
فولا (ديتا)	٧٢	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨
فولا (يا)	٧٩	٨٠	٨١	٨٢	٨٣	٨٤	٨٥
(بوت)	٨٦	٨٧	٨٨	٨٩	٩٠	٩١	٩٢

• عينات من أنواع متعددة من
الكتابات الأفريقية القديمة (مأخوذة
من: د. دالي، ١٩٧٠، ص ١١٠ -
١١١).

1. ተ ገላጽ ከ ስጋ ሆኖ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ
 ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ *
2. ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ
 ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ *
3. ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ
 ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ *
4. ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ
 ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ *
5. ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ
 ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ *
6. ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ
 ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ *
7. ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ
 ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ ስለሆነ *

ስለሆነ ስለሆነ

• الصفحة الأولى من القرآن (سورة
 الفاتحة) مكتوبة بلغة الـ «فاي»
 (مأخوذة من كتاب «أفريقيا في
 العصور القديمة» مؤلفه ت. أوجينا،
 نشر الحضور الأفريقي - بالفرنسية).

cha ché chē chi chō chō chū	△ + ☞ ✦ ◇ ◻ ⊕	kpa kpé kpē kpi kpō kpō kpū	𐌐 𐌑 𐌒 𐌓 𐌔 𐌕 𐌖	nda ndé ndē ndi ndō ndō ndū	𐌐 𐌑 𐌒 𐌓 𐌔 𐌕 𐌖	nya nyé nyē nyi nyō nyō nyū	𐌘 𐌙 𐌚 𐌛 𐌜 𐌝 𐌞	zha zhé zhē zhi zhō zhō zhū
dha dhé dhē dhi dhō dhō dhū	𐌐 𐌑 𐌒 𐌓 𐌔 𐌕 𐌖	lba lbé lbē lbi lbō lbō lbū	𐌐 𐌑 𐌒 𐌓 𐌔 𐌕 𐌖	nga ngé ngē ngi ngō ngō ngū	𐌐 𐌑 𐌒 𐌓 𐌔 𐌕 𐌖	sha shé shē shi shō shō shū	𐌐 𐌑 𐌒 𐌓 𐌔 𐌕 𐌖	متنوعات faa hn kpna nwa nwo whew ahn
gba gbé gbē gbi gbō gbō gbū	𐌐 𐌑 𐌒 𐌓 𐌔 𐌕 𐌖	lda ldé ldē ldi ldō ldō ldū	𐌐 𐌑 𐌒 𐌓 𐌔 𐌕 𐌖	nja njé njē nji njō njō njū	𐌐 𐌑 𐌒 𐌓 𐌔 𐌕 𐌖	tha thé thē thi thō thō thū	𐌐 𐌑 𐌒 𐌓 𐌔 𐌕 𐌖	الترقيم والعلامات الأخرى ترطة فاصلة علامة استفهام نقطة علامة تعجب علامة تشديد علامة خفض صوت أنفي علامة استمرار انكسار
hna hné hnē hni hnō hnō hnū	𐌐 𐌑 𐌒 𐌓 𐌔 𐌕 𐌖	mha mhé mhē mhi mhō mhō mhū	𐌐 𐌑 𐌒 𐌓 𐌔 𐌕 𐌖	nkpa nkpe nkpe nkpi nkpo nkpo nkpu	𐌐 𐌑 𐌒 𐌓 𐌔 𐌕 𐌖	wha whé whē whi whō whō whū	𐌐 𐌑 𐌒 𐌓 𐌔 𐌕 𐌖	

العلامة المسجلة في ١٩٠٧ (غورنغ)	العلامة المسجلة في ١٩٠٠ (كلايوت)	معناها	الكلمة بلغة «موم»
		حبة الكولا	Pé بي
		ملك	Fom فوم
		بيت	Ntab نتاب
		عجل	Nyad نياد

• نظام الكتابة «موم» (من كتاب «أفريقيا في العصور القديمة» بقلم ث. أوجندا، نشر «الحضور الأفريقي» بالفرنسية).
 إلى أعلى: نظام الكتابة التصويرية (بالصور)
 جانبا: نظام الرموز القابلة للأفكار، وفي المستطيل الأسفل نظام المقاطع الصوتية.

	بوين أو بورين	، التأس
	نغو أو نغوي	، الموطن
	نديا	، اليوم
	نسي	، الأرض
	يو	، الغذاء
	پو	، نحن
	في	، و
	غبيت	، يعمل/يصنع
	مى	، أنا
	فا	، يعطى
	پوام أو موم	، يبدى إعجابه

	- المقطع «با» من «إيبا» ومعناها: إثنان
	- المقطع «بين» من «بين»: نوع من الرقص
	- المقطع «بي» من «بييت»: يحن
	- أو من «بي»: يسك
	- المقطع «تشا» من «تنشا»: سمكة

ونسبها ضعيفة الانتساب الى الاسلام. وليس ذلك من باب الصدفة وقد عرّف الاخصائيون ببعضها، ومن أول هؤلاء م. نيجود..

وقدم م. كريلوج. ديتزلان الكتابة الرمزية للدوكون، ونحن ندين لها كذلك بتحليل نظام بامبرا وتقديم مركب جيد لكتابات المنطقة،

واكتشف الاوربيون في نهاية القرن الماضي الخط الرمزي التصيدي المستعمل عند الايبو في جنوبي نيجيريا وهو يركز على مبادئ النقل التي انتشرت انتشارا قويا على ساحل غينيا بأكملها. والكتابات الصوتية (٤٩) التي تعمم بانتظام استعمال صور الأصوات سواء البسيطة أو المركبة بعلامات منتظمة، تظهر في نظرنا، بافر يقيا، كثمرة لتطور متأخر. وكانت الهيروغليفات في مصر القديمة كما هي في الداهومي، تمثل العديد من الأصوات بواسطة الرموز. ولكن النظم الصوتية المحضة التي أساسها الكلمة، والمقطع أو الصوت البسيط - النقل اللفظي - تشير الى مرحلة جديدة (٥٠).

ولعل الكتابة البربرية المستعملة عند «طوارق» الصحراء والمعروفة باسم تيفيناغ قد انتشرت بتأثير البونيقية بالاتصال مع قرطاج.

وتكوّن نظام الكتابة النوبية في القرن العاشر عن طريق الاتصال بالخطاطة القبطية، التي نشأت هي بدورها بتأثير اليونانية. والخط الاثيوبي في تيكرينيا وفي الأمهارا مشتق من الخط السبتي بحسب الجزيرة العربية.

أما الكتابات المقطعية واللفظية الافريقية الغربية المنتشرة انتشارا كبيرا منذ نهاية القرن الثامن عشر على السواحل الغينية وفي البلاد السودانية، فلعها نشأت عن تطور داخلي، أو قد تكون اكتست صبغتها النهائية، بتأثير قريب أو بعيد من دخیل أوربي أو عربي (٥١).

والكتابة الفاي التي أظهرها لأوربا سنة ١٨٣٤ إيريك باطس الاميركي وكويل سنة ١٨٤٩، قد انتشر على أرض لوحظت فيها خطوط من النظام الهيروغليفي. ووصف مومولوسا كوفنصل ليبيريا في انكلترا في القرن التاسع عشر، مبادئ النظام الهيروغليفي المستعمل في منطقته وفي عصره (٥٢).

وللدلالة على الانتصار على العدو، يروي مومولوان الفاي يصورون على اللحاء الذي يقوم مقام البردي عندهم، خيال رجل يجري ويده فوق رأسه. وتضاف نقطة بجانب صورة المتشرد للدلالة على عدد كبير من الناس الفارين، وعلى جيش ولى الأدبار، ويوجد هنا من جديد حتى علامة الجمع بوضع نقطة عوضا عن عدة خطوط كانت مستعملة في وادي النيل العتيق، وهي من معطيات الكتابة الفرعونية.

(٤٩) يعرض د. دلي استراف منها لها في «اللغات والتاريخ في إفريقيا» لندن ١٩٧٠.

(٥٠) أ. هان، ١٩٥٩.

(٥١) تجميع الخطط السودانية بين الصور الواقعية والعلامات ذات المعاني الرمزية (انظر رسالة كريلوج. ديتزلان) فيالجمع بين هذه التجمعات، ينقل الخطاط ويثبت ويصير في الامكان حل رمزه من قبل متعلم الكتابة المدرك لما يحويه من معارف.

(٥٢) انظر المقال التأنيفي المهم بقلم د. الدوج في «رسالة اليونسكو» مارس ١٩٦٦ بعنوان: «خطوط مجهولة في إفريقيا السوداء».

ولعل الفاي حلوا نظامهم القديم في اتجاه النقل الصوتي، ولنا اليوم أنماط مشابهة من كتابة الفاي لدى عدد من الشعوب الافريقية الغربية: مالتكى، مندي، بستا، كرزي، كَبيلي، طوما الخ. وحتى الولوف والسيرير فانها تمجها أخيرا بكتابة مستوحاة من هذه المبادئ.

وخلافا لما يعتقد عادة، فإن فكرة الكتابة بقيت مستمرة في التاريخ وفي التفكير الافريقي، من لوح نمر الى ساطور كليلي. وتشهد بذلك كثرة الاعمال وتعدد المخطوط.

والكتابات الافريقية بعد الفرعونية، قد اتبعت لعدة أسباب، مجرى تطور اعتيادي، وتلاءم هذا المجرى مع الظروف ومع متطلبات التاريخ لمجتمع واقتصاد ريفيين أحرزا الكفاية الذاتية، ولم يدفع هذا الأخير بضغط الحاجة الى أن يدعم، مع الأيام المكاسب المادية أو الذهنية المهددة باستمرار. هذه البيئة السهلة وهذا التوازن اليسير بين الموارد والديموغرافيا في معظم الحضارات الافريقية ولاحداث ثقافتهم، قد جعلت ولدة طويلة من الزمن، امكانية الحل والعقد الشكليين في المدى الواسع، غير محتفظة الا بالأمر الأساسي: المبادئ. فعل مستوى التوازن الباطن لم يكن الخطر كبيرا جدا، وتجاه الخارج، وتجاه تراكم التقدم قد كان هذا الضعف مضرا.

الخلاصة

لابد من اللسانيات لانشاء علم تاريخي افريقي، وسيكون لها دور كبير يعادل ما قدم من جهد هام في المجال الذي هو مجالها، وحتى الآن كانت مساهمتها نسبيا مساهمة ضعيفة وأحيانا قليلة الفائدة في المستوى العلمي. ومازالت الأعمال جارية، وازدادت الطرق دقة وتوسع حقل البحوث كثيرا. ومن المتوقع في هذا السياق ان يتمكن تحليل اللغات الافريقية في القرب العاجل، من المساهمة في توضيح نقط مهمة من تاريخ القارة.

القسم الثاني
النظريات
المتعلقة بـ «العرق»
وتاريخ أفريقيا
ج. كي زربو

ان مفهوم العرق من أصعب المفاهيم حصرا من الناحية العلمية، فإذا ما أقرنا كمعظم العلماء، بعد داروين أن أصل الجنس البشري واحد (١)، فإن نظرية «العرق» لا يمكن علميا أن تنتشر الا في اطار التطورية.

وذلك أن تكوّن العرق ينخرط ضمن العملية العامة للتطور المتنوع. وكما يلاحظ ج. ربي فان ذلك يقتضي شرطين: أولا الانعزال الجنسي، وهو غالبا نسي، وينشأ شيئا فشيئا منظرا وراثيا ومورفولوجيا. فتكون العرق إذن مبني على ذخيرة نطفية مختلفة، أنشأها اما الانحراف الوراثي، اذ أن الصدفة في نقل عناصر الوراثة قد تجعل تكرار النقل في فصيلة ما، أشد منه في أخرى اذا لم يكن بالعكس، أي ان المتباين هو الذي ينتشر انتشارا فسيحا، واما الاصطفاء الطبيعي. ويستتبع هذا تنوع تلاؤمي يعمل بفضل جماعة على المحافظة على الجهاز الوراثي الذي يلائم أكثر ملاءمة بينه وبين محيط محدد. وفي افريقيا قد يكون للوجهين دور. وذلك أن الانحراف الوراثي الذي يعبر عن نفسه الى أقصى حد في الجموع الصغيرة، قد عمل في العرقيات الضيقة الخاضعة الى عمل اجتماعي تقسمي مناسبة الخصومات في الارث أو في شأن الأراضي بسبب المساحات الفسيحة البكر المتوفرة. ومن المحتمل أن هذا العمل قد أثر خاصة في التراث التناسلي لدى العرقيات المتزوجة مع بعضها أو التي تقطن الغابات. وأما الاصطفاء الطبيعي فكان من شأنه أن يقوم بدور مساعدة البيئات المتنافرة، كبيئة الصحراء والغابة الكثيفة والهضاب العليا والسواحل التي يوجد بها المنغروف.

(١) من نظر يات تعدد المراكز وعختلف مظاهرها، انظر أعمال ج. وابندرايش وكوون ومناقضات روبرتس.

وبصورة عامة من الوجهة البيولوجية، فإن أهل «عرق» من الأعراق يشتركون في بعض العوامل الوراثية التي يستعاض عنها في مجموعة «عرقية» أخرى بعوامل مبادنة لها، ويتعاض النطان من التطفلات عند الهجناء.

وكما كان متوقعا، فإن التعرف على العروق تم في البداية انطلاقا من معايير ظاهرة، ثم اعتبر شيئا فشيئا مظاهر واقعية أعمق. على أن الخواص الحارجية والظواهر الباطنة ليست منفصلة انفصالا مطلقا.

فاذا ما كانت بعض التطفلات تتحكم في الأجهزة الوراثية المنظمة للون البشرة فهذا اللون مرتبط أيضا بالحيط، ولوحظ ترابط إيجابي بين القامة وأقوى حرارة في أحترشهر، وترابط سلبي بين القامة والرطوبة. وكذلك فإن الانف الضيق يعمل على اسخان الهواء بكيفية أحسن في مناخ أبرد، ويندي الهواء الجاف المستنش. وهكذا تزداد الإشارة الانفية عند الأهالي جنوبي الصحراء، من البيداء الى الغاية مورويا بالسهب ومع ان عدد الغدد المفرزة للعرق عند الزنج هو نفسه عند البيض، فإن الزنج يعرقون أكثر، مما يبيح جسمهم وجلدهم في درجة من الحرارة أقل. فهناك عدة مراحل في البحث العلمي عن العروق.

التهديد الشكلي

يعرف ايكستدت، مثلا، العروق على أنها «مجموعات حيوانية. طبيعية تنتمي أشكالها الى جنس البشرات، يدي أفرادها عين التناسق التوذجي في الطباع العادية والموروثة في المستوى الشكلي وفي المستوى السلوكي».

فسجلت مجموعة من الملاحظات والقياسات، من لون البشرة وشكل الشعر أو الجهاز الشعري، الى الخواص القياسية أو غير القياسية الى التقوس الحظي الفخذي والكؤيسات والشقوق المرسومة على الأضراس. فتجتمع من كل هذا مجموعة مهمة من الملاحظات والقياسات. ووقع الاهتمام خاصة بالإشارة الدماغية لعلاقتها بالجزء من الرأس الذي يحمي الدماغ. وهكذا وضع دكسن الأنواع المختلفة حسب نماذج ثلاثة تبعا لثلاث اشارات مركبة، مع بعضها بكيفية مختلفة: الإشارة الدماغية الانفية، والإشارة الدماغية الرأسية والإشارة الانفية.

ولكن من بين التأليفات السبع والعشرين الممكنة، قد احتفظ بشمانية فحسب (أكثرها ترددا) على أنها تمثّل نماذج أساسية، واعتبرت الثمانية عشر الباقية ٥ على أنها أخطئة. ولكن الخواص الشكلية ما هي الا انعكاس منحرف قليلا أو كثيرا من الرصيد التوليدي، وقليلا ما يتم بصفة كاملة تجمعها في النموذج مثالي، وذلك أنها تقاويل وجزئيات واضحة على حدود الإنسان والبيئة، فهي لذلك ذاته فطرية أقل منها مكتسبة.

وهذه من أكبر نقائص النظرة الشكلية والتوذجية حيث ينبتى الاستثناء الى أن يكون له من الأهمية أكثر مما للقاعدة. على أنه من اللازم ألا نتهاون بخصوصيات المدارس حول أساليب القياسات

(كيف ومتى الخ) مما يمنع المقارنات المفيدة. فأحصائيات البعد المتعدد التغير، ومعاملات وجوه الشبه العرقية، وأحصائيات «المقاس» و«الشكل» والمسافة المعممة لنهالاً نوبيس، كل ذلك مما يرجع إلى المعالجة الرتيبة. وهكذا فإن الاعراق كيانات بيولوجية واقعية من الواجب فحصها ككل، وليس قطعة قطعة.

النظرة الديموغرافية أو السكانية

ستؤكد هذه الطريقة من البداية على واقع المجموعات (رصيدي توليدي أو «جينوم») وهي أكثر استقراراً من البنية التوليدية الظرفية لأفراد. فما يميز العرق أكثر من الخواص التي تلاحظ فيه، هو تردد هذه الخواص. وحيث تركت الطريقة الشكلية عملياً (٢) كان من الممكن أن تعرض العناصر المصلية أو التوليدية على قواعد تصنيف أكثر موضوعية. وفي نظر لندمان، العرق «هو مجموعة من الكائنات البشرية يظهر بعضها مع البعض الآخر (فيما عدا قليلاً من الاستثناءات) في كثير من التشابه في الخلقة النموذجية، وكذلك غالباً في الطباع الخلقية، مما هو الشأن مع أفراد مجموعات أخرى». ويسبب الكساييف أيضاً تصوراً ديموغرافياً للاعراق مع مسميات جغرافية مخمضة (أوريون، شماليون، أفارقة جنوبيون الخ) وألح سويدكي ويود على النظامية التوليدية: توزع المجموعات الدموية أ. ب. أ. وتآلفات عامل الزمرة، نطفة الإفراس بالعاني الخ.

ويشعاطى عالم النموذجية الدموية أيضاً التشرريح، لكن في مستوى الجزئية، فهو يتعاطى الشكلية المجهرية واصفاً الاختلايا البشرية التي تميزت ببنيتها المانعة وجهازها الحميري، وتكون المادة الأكثر عملية في هذا الشأن متكونة من النسيج الدموي. وهذه المؤشرات الدموية تقفز بنا قفزة كيفية تاريخية في التعرف العلمي على الجموع البشرية، ومزاياها على المعايير الشكلية حاسمة. فأولاً تكاد تكون دائماً وحيدة القياس أي أن وجودها تابع لنطفة واحدة، أما الإشارة الدماغية مثلاً، فهي نتيجة مركب من العوامل التي يعسر استكشافها (٣).

ومن جهة أخرى بينما تترجم المعايير الشكلية بأرقام تستخدم للتصنيف على حدود اعتبارية أو غامضة، مثلاً بين الأصلع النموذجي والمستطيل الرأس النموذجي، فإن المثيرات الدموية تخضع هي إلى قانون الكل أولاً شيء. أما أن تكون (أ) أولاً (أ) زمرة إيجابية أو زمرة سلبية الخ. ثم أن العوامل الدموية تكاد تنفلت تماماً عن ضغط البيئة. فالنموج الدموي يحدد نهائياً منذ تكوين البيضة. ولذا لا تخضع المؤشرات الدموية للاحاساسات الباطنية النموذجية الشكلية. فالفرد يعرف هنا مجموعة من العوامل التوليدية وجميع السكان بسلسلة من الترددات النطفية. وتعرض دقة هذه العوامل الكبيرة ما لها من طابع جزئي بالنسبة لكتلة النطف في مجموع نطفية (جينوم). وهكذا تم وضع أطلس «للاعراق» التقليدي.

على أنه يظهر ثلاثة أنواع من العوامل الدموية. ويوجد البعض منها مثل نظام أ. ب. أ. في

(٢) انظر ويرسكني، ١٩٦٥.

(٣) انظر ج. روييه.

كل الأعراق التقليدية بدون استثناء. فقد كانت بدون شك موجودة قبل المرور الى جنس الإنسان. وأما البعض الآخر كعوامل نظام الزمرة فوجود دائما لكن مع بعض التفرق العرقي، فصيفية (ر) توجد خاصة لدى الببيض والصبغية و (RH) المسماة «الصبغية الافريقية» تتردد ترددا كبيرا خاصة عند السود جنوبي الصحراء. وبما لا شك فيه أن ثمة أنماطا ترجع الى الوقت الذي شرعت فيه البشرية في الانتشار في مجتمعات بيئية مختلفة. و يظهر نوع آخر من النظم توزعاً عرقياً أوضح. مثلاً عوامل ستروهنشا والتي تكاد لا تظهر الا في نطاق السود. وعامل كل الموجود خاصة عن الببيض ولو ان هذه العلامات ليست دائماً خاصة تماماً، فإنها وصفت بعبارة «المؤشرات العرقية» وأخيراً ان بعض العوامل محددة تحديداً جغرافياً كبيراً مثلاً الحنطاب (ج) عند أهالي النجد الفولطاني.

ورغم كون العوامل الدموية عديمة القيمة التلاؤمية، فهي لا تنجو تماماً من عمل الوسط المعدي أو الطفيلي الذي قد يحث غريزاً بين العوامل الدموية التي لها قيمة انتقائية، فينتج عن ذلك مثلاً وجود خضاب مميز كخضاب S المقترن بوجود خلايا منجنية الشكل من بين الكريات الحمر. ولقد اكتشفت في دم السود في إفريقيا وآسيا، وهي خطيرة بالنسبة لواقع الدم فحسب، والحنطاب هـ. ب. س. (Hbs) هو عنصر موامعة لحضور (البلموديوم الفلسيباروم) المتسبب في حمى المستنقعات، ان دراسة نماذج الدم في مساحات فسيحة تمكن من رسم منحنيات متماثلة النطف، تجسم للعيان التوزيع الجغرافي للعوامل الدموية. وتشترك هذه الدراسة مع حساب الابعاد التوليدية فتعطينا فكرة عن الكيفية التي تقع بها مجموعات السكان احدها بالنسبة للآخرى، أن يمكن اتجاه التدفق التوليدي من تشخيص العملية السابقة لتطورها.

ولكن الطريقة النموذجية الدموية والاسكانية رغم نتائجها الاستثنائية، تعترضها عقبات، أولاً لأن الثوابت التي تعتمد عليها مدعوة الى التضاعف بكثرة، فتؤدي هكذا الى نتائج غريبة حتى يراها بعضهم شاذة.

فالشجرة النسالية للسكان التي أقامها ل. ل. كلفي - سفرزا تختلف عن الشجرة القياسية الانسية. فعلى هذه يقع «البكي» (الاقزام) والسان في إفريقيا على فرع واحد قياسي إنسي مع سود غينيا الجديدة وأستراليا، بينما على الأولى يقترب «البكي» (الاقزام) والسان من الفرنسيين والانكليز اقتراباً أكبر. ويقترب سود استراليا أكثر من اليابانيين والصينيين (٤). وبعبارة أخرى الصفات القياسية الانسية، تتأثر بالمناخ أكثر مما تتأثر به النطف، الى حد أن التوافقات الشكلية تتبع البيئات المتشابهة أكثر مما تتبع الوراثة المتشابهة. وبينت أعمال ر. س. لوتنر على أساس بحوث العلماء النموذجية الدموية، أنه بالنسبة الى العالم كله، أكثر من ٨٥٪ من قابلية التغير تقع داخل القوميات، و ٧٪ فقط تفصل القوميات المنتمة لعرق تقليدي واحد، و ٧٪ تفصل الاعراق التقليدية. وبصورة عامة فإن الافراد من عين المجموعة العرقية، يختلفون فيما بينهم أكثر من اختلاف «الاعراق» فيما بينها. ولذا يتخذ عدد أكثر فأكثر من العلماء موقفاً قطعياً يتمثل في انكار وجود أي عرق. فحسب ج.

(٤) ذكره ج. رني، المصدر قبله ص ٣٨٥. وكذلك من جراء التحجيز في الولايات المتحدة ان نسبة الخلط الابيض عند سود أميركا باعتبار بعض الصفات الفصلية (فصلية) FY من نظام دي، خلط RO (الخ) قد تكون ٢٥ و ٣٠٪ واستنتج بعض العلماء أن هذه مجموعة سرعان ما لقيوها «عرق أمة يكي شمالي ملون».

رئي، في بداية البشرية كانت جموع صغيرة من الأفراد موزعة في مناطق بيئية متنوعة متباينة خاضعة لضغوط انتقائية قوية جدا، وكانت الوسائل التقنية ضئيلة، فكان من الممكن أن تتميز إلى حد أنها أدت إلى نسخ مختلفة، منها الإنسان القائم، وإنسان نياندرتال، والإنسان للعالم في بدايته. فجموع الوجه مثلا، وهو المعرض أكثر من غيره للأوساط المتميزة، يتطور تطورا متباينا، فازدادت ثروة البشرة في الملونات القائمة في المنطقة المدارية الخ. ولكن هذا الميل إلى التميز، وقد أوقف بسرعة، بقي في مستوى بسيط.

ويتلاءم الإنسان في كل مكان من حيث الظروف الثقافية (في اللبس والسكن والمأكل الخ) ولكن لا يتلاءم شكليا مع بيئته. فالإنسان المولد في البلاد المدارية ذات المناخ الحار تطور سريرا كإنسان الجنوب وكالإنسان الباروحتي الإنسان القائم، «في العهد الجليدي الثاني فقط وبفضل المراقبة الناجمة للنار، اتخذ الإنسان القائم مسكنه في المناخات الباردة، وتحول الجسد البشري من التهججية المتعددة إلى التهججية الوحيدة، وبدأت عملية نزح العرقية هذه بلا رجعة. وينبغي أن تعتبر البشرية جماء اليوم، كمجتمع واحد لنطف متداخلة في ما بينها (٥)».

وفي عام ١٩٥٢ نشر ليفنجستون مقالة الشهيرة «في عدم وجود الأعراق البشرية» فامام الشعب العظيم للمساءلة وكذلك أمام ضعف المعايير المحفوظ بها لوصف الأعراق، يوصي ليفنجستون بالتخلي عن نظام العالم لبني في التصنيف، ويوحى باستعمال «شجرة النسب» في المناطق الغير المنعزلة فإن تردد بعض الصفات أو بعض الفصائل يتطور تدريجيا في اتجاهات متنوعة، وتكون الفروق بين مجموعتين من السكان مناسبة لبعدها الطبيعي، طبقا لضرب من الانخفاض الجغرافي (ممال)، وإذا ما قورن كل وصف بمزيج عوامل الانتقاء والملاءمة التي تكون قد ساعدت عليه، تسجل ترددات ترتبط أكثر فأكثر يبدو بعوامل تقنية وثقافية وغيرها، ولا تنطبق البتة على خريطة «الأعراق» (٦). وبحسب المعيار المختار (لون البشرة والاشارة الدماغية، والاشارة الانفية، والطباع النطفية الخ) نحصل كل مرة على خرائط متباينة، ولذا يستنتج عدد من العلماء ان «كل نظرية للأعراق غير كافية هي اسطورة».

«ان التقديرات الأخيرة في الموراثيات البشرية أصبحت اليوم في وضع جعل كل البيولوجيين يرفضون وجود أعراق في الجنس البشري» (٧) ومن الوجهة البيولوجية ان لون البشرة عنصر تافه بالنسبة إلى جملة النطف (الجنوم). ويرى بنتلاي كلاص أن لا وجود لأكثر من ستة أزواج من النطفيات يخالف بها العرق الأبيض العرق الأسود. وكثيرا ما يختلف الأبيض فيما بينهم وكذلك السود فيما بينهم بعدد كبير من النطفيات ولذا صرحت اليونسكو، بعد أن جمعت ندوة من الاخصائيين الدوليين أن «العرق ظاهرة بيولوجية أقل مما هو أسطورة اجتماعية» (٨) وفي ذلك من الصحة ما جعل الياباني في افريقيا الجنوبية «أبيض شرقيا» والصيني يعتبر «ملونا».

(٥) مايو، رواه ج. رئي، المصدر المذكور ص ١١٥.

(٦) انظر مونتاجو «مفهوم العرق».

(٧) ج. روفي، المصدر المذكور ص ١١٦.

(٨) أربعة تصريحات حول المشكلة العرقية، اليونسكو، باريس، ١٩٦٩.

وفي نظر هيرنو، الجنس البشري يشابه شبكة من الأراضي الوراثية، وفي «الجنومات» الجماعية التي تكون سكانا يتشابهون كثيرا أو قليلا، ويعبر عن بعدهم الكيني بتقدير كمي (علم قوانين للتصنيف العددية) وحدود هذه الأراضي انطلاقا من الانخفاض الممالي تتأرجح مع كل التغيرات التي تبقى صدها في الظواهر (الطباع الوراثية) والمعطيات المصلية (الأمثلة الخلقية) للمجموعات. وطبقا لما كان لداروين من حدس عبقرى يكون في الجملة عملا يتحرك، يتيم، ان صح القول، حركية المواقع، وتكون الشعوب، هجاء تم تهجنهم أو هم بصدد التهجن. ويحل كل لقاء بين شعوب في الواقع كهجرة فصيلية، ويعمل هذا التدفق التطفي على إعادة النظر في الرصيد البيولوجي لدى الفريقين المتقابلين.

ولكن وإن كانت هذه النظرة أكثر علمية، وإن كانت هذه الأراضي الوراثية الماثجة تعترف بها المجموعات المعنية، فهل سيلغي من جراء ذلك الشعور بالتزوج «العرقى»، اذ هو يحتفظ بأساس مادي مرئي ملموس في شكل الظواهر الوراثية.

ومسند أن أكد واضعو النظرية النازية، ابتداء من هتلر، ومن بعدهم من المفكرين المزعومين، أن ابن الآري «بروميشيوس الجنس البشري» وبين الاسود «الذي هو حسب أصله نصف قرد» يوجد انسان البحر الابيض المتوسط المعتبر واسطة، ولم تمت الاسطورة العرقية. واستمر علماء المورفولوجيا المتعددون على تأجيج هذه النار الفظيعة ببعض الأغصان الميتة (٩) وكان ليبي قسم الجنس البشري الى ستة أعراق: الاميركي والاوربي والافريقي والآسيوي والمتوحش والشاذ، وبلا شك ان العنصرين يملون في أحد الصنفين الآخرين.

ولنحتفظ من كل هذه النظريات، قضايا وفرضيات، بطابع الحركية للظواهر «العرقية» من كون هذه الحركية بطيئة كثيفة تعمل على عدة سجلات، فلون البشرة ولوقيس بواسطة المستضوي التطفي الكهربائي — وكذلك شكل الأنف، ليسا سوى ظاهرة تافهة أو تكاد. وفي هذه الحركية يجب الاحتفاظ بمركبتين محركتين متداخلتين، التراث الوراثي ويمكن أن يعتبر مصرفا عظيما للمعطيات البيولوجية حال عملها، والبيئة بالمعنى الاعم اذ هي تبتدىء في الوسط الجنيني.

وما يطرأ من التغيرات من جراء العمل المشترك لهذين العاملين الاساسيين، يتم اما في شكل غير مراقب من الانتقاء وهجرة النطفة (تهجين)، واما في شكل خطر من الانحراف التطفي أو التحول. وبالاختصار هذا هو كل تاريخ مجموعة سكانية تفسر ملمحها «العرقى» الحالي، بما في ذلك، عن. واسطة التمثيلات الجماعية والأديان والانماط الغذائية واللباسية وغيرها.

وفي هذا السياق ماذا يمكن أن يقال في الوضع العرقي بالقارة الافريقية؟ يصير التحليل التاريخي صعبا في هذا المجال من جراء صعوبة الاحتفاظ بالمتحجرات البشرية بموجب الرطوبة

(٩) يذكر ج. ر. في معجمها فرنسيا للطب والبيولوجيا يتي سنة ١٩٧٢ مفهوم الاعراق التي توجد منها ثلاثة جوع أساسية (البض والبود والصفير) تعتمد على معايير تشكيلة وتشريعية الخ. وكذلك نفسانية.

في بداية القرن كسب سيبتيوبوس في مؤلفه «تاريخ الحضارة» ان الرجال المعمرين للأرض يختلفون أيضا في اللسان والدكاء والاحاسيس. ويمكن هذه الفروق من تقسيم سكان الارض الى جوع عدة تسمى «اعراقا».

وحوضه الأرض، على أنه يمكن أن يقال، خلافا للنظريات الأوروبية المفسرة لعمران أفريقيا بواسطة هجرات قادمة من آسيا (١٠)، أن سكان هذه القارة في معظمهم من الأهالي.

وأما لون بشرة أقدم سكان القارة في خطوط العرض المدارية، فإن الكثير من المؤلفين يعتقدون أنه كان اذكى (براس ١٩٦٤) إذ إن اللون الأسود نفسه هو مواعمة احتواء ضد الإشعاعات الضارة ولا سيما أشعة ما وراء البنفسجي. وأما لون البشرة الفاتحة وكذلك لون العينين لدى شعوب الشمال، فقد يكونان طابعين ثانويين ولدهما التحول أو الضغط الانتقائي (كول ١٩٦٥).

واليوم، ودون أن تتمكن من رسم حد خطي بين المجموعات «العرقية»، فإنه يمكن أن نقف على مجموعتين كبيرتين منها من جهتي الصحراء. في الشمال المجموعة العربية البربرية و يغذيا تراث وراثي من «البحر الأبيض المتوسط» (ليبون، ساميون، فينيقيون، آشوريون، يونان، رومان، أثرك الخ) وفي الجنوب مجموعة زنجية. ولنلاحظ أن التذبذبات المناخية التي عمت أحيانا الصحراء، قد أنشأت الكثير من الامتزاجات خلال آلاف السنين.

وانطلاقا من بعض العشرات من المؤشرات الدموية، عرض ناي ماساطوشي وأ. ر. روي كودوري على الدرس، الفروق الوراثية داخل المجموعة الواحدة وبين المجموعات وذلك في المجموعتين القوقازية-الشكل والمنغولية الشكل (١١). وحددا معاملات الارتباط ليضبطوا الفترة التقريرية التي انفصلت فيها المجموعتان وتكونتا كل واحدة على حدة. وقد استقلت المجموعة الزنجية الشكل منذ ١٢٠ ٠٠٠ سنة، بينما تخصص القوقازيون والمنغوليون منذ ٥٥ ٠٠٠ سنة فقط. وحسب ج. روفي أن هذا «المخطط» يتفق مع معظم المعطيات من التمدنية الدموية الأساسية (١٢).

ومنذ ذلك طرأت امتزاجات عدة على القارة، وقد وقع السعي في تشخيص المسافات البيولوجية للمجموعات السكنية بفضل التقنية الرياضية للمركبات الرئيسية. حاول ذلك أ. جاكوار على سبع وعشرين مجموعة سكنية متوزعة من جهة البحر الأبيض المتوسط الى جنوبي الصحراء، موصوفة بخمسة نظم دموية تمثل ثمانية عشر عاملا (١٣)، فحصل على ثلاثة جموع رئيسية توزع على أربع تراكسات، احدها في الشمال وهم القوقازيون المركبون من أوربيين، والرقبات، والعرب السعوديين وطوارق كل — كمر.

ويشتمل التراكم الجنوبي على جموع السود في أغادس، والتراكمان الوسطيان يشتملان على الفلانتين المنحوتين بورورو وطوارق الغير التاسيلي والأثيوبيون الخ، ولكن أيضا الحرافين وقد اعتبروا تقليديا من السود. وقد يكون إذن من الخطأ أن يظن أن هذا التقسيم تأكيد للقسم الى أعراق تقليدية إذ يقطع النظر عما قبل أعلاه، فإن ملامح التقسيم تنتج عن كمية المعلومات المحتفظ بها، فإذا كانت هذه المعلومات قليلة، تمكنت جميع النقاط من التجمع.

وفيما يخص الانسان في جنوبي الصحراء، فإنه ينبغي أن نسجل أن تسميته الاصلية عند لتي

(١٠) أن النظرية الحامية (بولينيان وغيره) الناشئة جزئيا عن جهل بعض الأحداث وجزئيا من ارادة تبرير النظام الاستعماري، أشد الاشكال العنصرية لهذه التركيبات التي تدعي العلمانية.

(١١) ناي ماساطوشي وأ. ر. رويكودوري ١٩٧٤، ٢٦، ٤٢١.

(١٢) ج. روفي، المصدر المذكور، ص ٣٩٩.

(١٣) جاكوار، ١٩٧٤، ص ١١ — ١٢٤.

كانت «الانسان الافر» (الافريقي) ثم وقع الكلام عن الزنج، ثم السود، وأحيانا عن لفظ أوسع بمعنى «زنج الشكّل» ليضم كل من يشابه السود على حدود القارة أو في قارات أخرى. واليوم، رغم بعض الأصوات المعارضة، فإن معظم العلماء يقرون بالوحدة الوراثة الأساسية لشعوب جنوبي الصحراء. فحسب بويد، مؤلف فكرة التصنيف التوليدي للعروق الانسانية، لا يوجد الا مجموعة زنجية الشكّل تشمل كل القسم من القارة الكائن جنوبي الصحراء، وتشمل أيضا أثيوبيا، وهو يختلف اختلافا محسوسا عن سائر المجموع.

وأثبتت أعمال ج. هيرنو هذه النظرة بوضوح عجيب ودون أن ينكر التغيرات المحلية الظاهرة، بين هيرنوبالتحليل لقدر ٥٥٠ مسافة بين ١٠١ مجموعة من السكان، وحدة الشكّل لسكان المدى العظيم الواقع جنوبي الصحراء الذي يشمل «السودانيين» كما يشمل «البنتو» وأهل الشواطئ والسواحليين، و«الخوازان» والأقزام وأهل النيل والفلائين وغيرهم من «أشباه الاثيوبيين». وبالعكس انه يبين البون الشاسع من الناحية الوراثة بين «السود الآسيويين» والسود الافريقيين. ولقد أوضحت التصنيفات أكثر فأكثر الوحدة الأساسية للغات الافريقية حتى في اللسانيات التي لا علاقة لها بالحدث «العرقى»، ولكنها جتدت نفسها ضد النظريات العنصرية لاستنباط سلسلة لغوية تعكس الطبقة «العرقية» المزعومة التي يجتدل فيها «الزنج الحق» الدرجة السفلى من السلم. والتغيرات الجسدية تفسر علميا بأسباب التغيرات التي ذكرت أعلاه، وخاصة البيوطبات (المدى الجغرافي) التي تثير أحيانا التراكمات السكانية المتنوعة (وادي النيل)، وأحيانا الجماعات المتوحدة من الشعوب المظهرة قليلا أو كثيرا لخصائص لا نموذجية (جبال، غابات، مروج، إلخ). وفي النهاية أن التاريخ يفسر بعض الشواذات الأخرى بواسطة الغزوات أو الهجرات، ولا سيما في المناطق الحدودية. فالتأثير البيولوجي للشبه في الجزيرة العربية على القرن الافريقي يشعره على شعوب هذه الجهة: الصومال والقللا والاثيوبيين، ولكن أيضا بدون شك يشعره التوبو والفلائين والتوكولور والسفغاي والهوسا إلخ... واتفق أن شاهدنا من المركا (فولطا العليا) من له ملامح «المامي» المتميزة جدا.

وخلاصة القول، ان التنوع العجيب في الطباع الوراثة الافريقية، يشير الى تطور طويل المدى في هذه القارة. وما لدينا من بقايا متحجرة مما قبل التاريخ يبين انتشارا واسعا جدا تنموج جنوبي الصحراء، من افريقيا الجنوبية حتى شمال الصحراء، وكان لمنطقة السودان دور مفترق الطرق بالنسبة الى هذا التفشي.

نعم ان تاريخ افريقيا ليس تاريخ «أعرق» ولكنه قد أسرف كثيرا في استعمال الاسطورة العلمية المزعومة القائلة بتفوق بعض «الاعراق» لتبرير نوع من التاريخ. وحتى اليوم ان المهجين مازال يعتبر أبيض في البرازيل وأسود في الولايات المتحدة. وعلم الانتروبولوجيا، وقد برهن أن لا علاقة بين العرق وبين درجة الذكاء، يلاحظ بالعكس أن هذا الترابط موجود أحيانا بين العرق والطبقة الاجتماعية.

ومن الأمور الواضحة منذ ظهور الانسان على هذا الكوكب أن الثقافة كان لها عبر التاريخ قصب السبق على البيولوجيا. فتي يفرض هذا المبدأ نفسه على الأذهان؟

معجم المصطلحات

مختلط: (أو مدغوش) نسخة من الجينة.	البيولوجية فهويثير مشاكل اجتماعية.
انتقاء: توليد مفروق للطرازات العرقية من جيل لآخر.	انحراف وراثي: اضطراب التراث الوراثي في جميع بشري محدود
هجرة جينية: انتقال الأفراد المولدين لمجموعتهم السكانية	منعزل، من جراء حادث تسبب في انحطاط التردد أو في
الاصيلة، الى مجموعة متبناة (تهجين)، والتهجين الذي يعتبره	الاضمحلال نسبة جينية.
الاعتصر يون انحطاطا للعرق الاعلى، هو بالعكس هنا اثراء	تغيير إحيائي: ظهور تغير موصوف وراثي من جراء التبدل في
للمجتمع البشري للجينات، ومع كونه إيجابي من الوجهة	جينة أو عدة جينات.

تعليق: أجريت هذه الدراسات في اطار الاعداد لمشروع التاريخ العام لافريقيا بطلب من اليونسكو:

- ج. هيرنو: تقرير عن مفهوم العرق، باريس، ١٩٧٤.
- ج. ب. ر يتيم شروح عن تاريخ العرق وال عمران البشري في افريقيا، نيويورك، ١٩٧٤.
- أ. ستروغال، مشاكل الدراسة للاعراق البشرية، براغ، ١٩٧٦.

الفصل الحادي عشر

الهجرات والاختلافات السلوكية واللغوية

د. أولدرودج

اعتقد المؤرخون طويلاً أن الشعوب الأفريقية لم تحدث تاريخاً مستقلاً في إطار متطور متميز. فكل ما كان يمثل مكسباً ثقافياً كان يبدو وارداً إليهم من الخارج، أتت به موجات من الهجرات من آسيا. وانتشرت هذه النظريات في عدد عديد من المؤلفات الأوروبية في القرن التاسع عشر. وتعددت وتبلورت في شكل مذهب لعلماء من الألمان (من علماء خصائص الشعوب أو اللسانيين) في العشريّات الأولى من القرن التاسع عشر. وكانت ألمانيا في ذلك العصر مركزاً رئيسياً للدراسات الأفريقية.

وبعد اقتسام القارة الأفريقية من قبل السلطات الإمبريالية، وجد في إنكلترا وفرنسا وألمانيا عدد كبير من المؤلفات عن عادات الشعوب المستعمرة، ولكنه في ألمانيا على الخصوص جرى الانتباه إلى أهمية الدراسة العلمية للغات الأفريقية. فند ١٩٠٧ أنشئ في هيمبورغ، المعهد الاستعماري المعد لأن يكون فيما بعد مركزاً عظيماً أعدت فيه أجل الأعمال النظرية للمدرسة الألمانية عن الدراسات الأفريقية. وفي هذا الشأن كانت ألمانيا متقدمة جداً عن سائر البلدان الاستعمارية، فسنه ١٩١٦ فقط شرع في تدريس اللغات الأفريقية في إنكلترا، بمدرسة الدراسات الشرقية، بينما كانت مدرسة اللغات الحية الشرقية في فرنسا في ذلك العهد لا تخصص أي جزء من مناهجها لهذه المسألة. ويجب أن ننتظر إلى سنة ١٩٤٧ لتنشأ مدرسة للدراسات الشرقية في لندن وهي مدرسة اللغات الشرقية والأفريقية. وبعد ذلك بقليل، شرع أيضاً في فرنسا في تدريس اللغات الأفريقية تدريجاً منتظماً.

نظريات المدرسة الألمانية والاكتشافات الحديثة

وهكذا، حتى قبيل الحرب العالمية الأولى، كانت لألمانيا الزعامة في تدريس التاريخ والانتوغرافيا واللغات الأفريقية، وكانت آراء علماء الألمان تظهر خلال المؤلفات المنشورة بانكلترا أو فرنسا أو بلجيكا. لذا كان علماء الانتوغرافيا في أوروبا الغربية يؤكدون في بداية القرن العشرين، أن الشعوب الأفريقية لا تاريخ لها. وبناء على ذلك استنبط علماء اللسانيات النظرية الحامية القائلة بأن تطور الحضارة في إفريقيا إنما تم بتأثير الحاميين الواردين من آسيا ونلاحظ هنا أثر آراء هيجل الذي كان يقسم العالم إلى «شعوب تاريخية» وإلى «شعوب لا تاريخية»، وكان الأولون هم محررو الرقي البشري، بينما كانت سلبية الآخرين تجعلهم في موقع هامشي بالنسبة لتطور الفكري العالمي. فحسب هيجل، فإننا لا نستطيع أن نكتشف أي تطور تاريخي واقع في إفريقيا الحق، وفي رأيه أن الشريط الشمالي من القارة قد يلحق بالمصير الأوروبي. وقرطاج كمستعمرة فينيقية، ما هي إلا زائدة ملحقه بأسيا، بينما تصبح مصر غريبة عن الفكر الأفريقي.

وقد اصطبغت معظم البحوث العلمية الخاصة في إفريقيا خلال القرن التاسع عشر بآراء هيجل، والامر واضح في أول محاولة لرسم لوحة عن التاريخ الأفريقي بقلم هـ. شورتس. فيشبه هذا المؤلف تاريخ الأعراق الأوروبية بالنشاط الذي يتسم به يوم مشرق مضيء، بينما قد يشبه تاريخ إفريقيا سباتا عميقا لا يكشف بعده شيء عند البقطة.

وهكذا في نظر هيجل، نور الفكر قد أشع من آسيا حيث يرى أن التاريخ قد بدأ منها، وكان العلماء الأوروبيون يعتقدون أن لا شك في كون آسيا، مهد البشرية، قد كانت منبع الشعوب التي زحفت على أوروبا وإفريقيا. ولذا كان يبدو من الواضح للعالم بالانتوغرافيا الإنكليزي ستوان جماعة السان وهم من أقدم المجموعات البشرية في إفريقيا قد جاؤوا من آسيا على فريقي متميزين: جماعة سان الرسامين، وجماعة سان النقاشين، فسلكوا مسلكين مختلفين لعبور البحر الأحمر بمضيقي باب المندب، وبعد أن قطعوا الغابات الاستوائية، التقوا من جديد على حدود إفريقيا الجنوبية. وإننا لنجد في مؤلفات ف. ستولمان الجغرافي والرحالة الألماني صورة مدققة عن موجات الهجرات وعن مختلف المراحل التي مر بها عمران القارة الأفريقية بالسكان. ويعرض المؤلف في كتابه النظريات التي قدمتها المدرسة الألمانية للتوجيه التاريخي الثقافي. فعند فصل القرنين التاسع عشر والعشرين، قامت حلة عنيفة ضد المذهب التطوري الذي يكون الأساس النظري لأعمال ر. تاييلور ول. هـ. مورغان ولبوك الخ. فكان علماء المدرسة التوجيهية التاريخية الثقافية يرفضون قبول فكرة التطور المنتظم الشامل لجملة البشرية. بل اتخذوا موقفا مقابلا لهذه النظرية، وصرحوا بوجود دوائر متميزة للحضارة، يمكن التعرف عليها بواسطة معايير ملائمة تتعلق خاصة بالثقافات المادية.

وفي نظر هؤلاء المؤلفين فإن بث المكاسب الثقافية قد يتم خاصة عن طريق الهجرات. وكان العالم الألماني ليفرو بينيوس هو أول من صرح بهذا الرأي، ثم جاء دور أنكرمان الذي يصف انتشار دوائر الحضارة عبر إفريقيا. ولكننا إنما نجد عرضا مفصلا لهذا العمل في كتب ستولمان. ففي رأيه أن شعوب الأقزام يكبي وسان — هي المكونة للعمران السكاني الألهي الأقدم في إفريقيا، وتكاد هذه

الجميع لا تملك اي عنصر ثقافي. ثم اقبل الزوج ذوو البشرة الدكناء والشعر الجعد، آتين موجات مهاجرين من اعماق الجنوب الشرقي الاسيوي، وانتشر هؤلاء الزوج خلال السهوب السودانية، وتوغلوا في الغابة الاستوائية مدخلين معهم فلاحه بسيطة وغرس الموز والفلقاس، واستعمال الآلات الخشبية والقوس والسهام والبيوت المدورة او المربعة. وكانت هذه الشعوب تتكلم لغات متقطعة. ثم تبعهم اول الحاميين من اصل آسيوي أيضا لكن من مناطق تقع شمالي المهد الاصلي للزوج وكان هؤلاء الفلاحين الجدد يتكلمون لغات. ولعلمهم علموا الاهابي الفلاحه بالمسحة وزراعة الذرة وغيرها من الحبوب وتربية الماشية الصغيرة ذات القرون الخ. وقد يكون تهجين الحاميين الاولين بالزوج ولد شعوب البانتو. ثم جاءت زحوفات الحاميين ذوي البشرة المفتوحة وقد تمت إما عن طريق برنخ السويس، وأما عن طريق مضيق باب المندب. وقد تكون هذه الشعوب هي اجداد الضلانيين والماساي والباري والكلال والصومال والحوي حوي. وقد يكونوا ادخلوا عناصر جديدة ثقافية مثل المواشي الكبيرة ذات القرون، والرمح ومختلف الاستعمالات الجلد، والترس الخ. ويجعل ستولان البلاد الاصل للحاميين ذوي البشرة المفتوحة في سهوب آسيا الغربية، وفي نظره تكون موجه الهجرة التالية اتت بالساميين الذين يكونون قد اسسوا الحضارة في مصر القديمة، وأتوا بزراعة الحبوب وباستخدام المحراث وباستعمال البرونز. ثم اتى دور الهكسوس واليهود القادمين الى مصر ودور الحبشات والمهري النازحين الى هضاب اثيوبيا. وآخر من قدم مصر العرب في القرن السابع. وعند دخول هذه الشعوب القارة ادخلوا اليها عناصر جديدة من الحضارة لم تكن البتة معروفة عند اهابي البلاد السابقين. وظهر كتاب ستولان سنة ١٩١٠ في هبورغ، قبيل الحرب العالمية الاولى، ولكن آراءه فيما يخص البناء التدريجي للحضارة الافريقية بفضل اعراف اجنبية قد كدركها وطورها فيما بعد علماء اتوغرافيا آخرون: سبانوس ولوشان في المانيا، وسليغمان في انكلترا وهونيا في النمسا الخ. وطبقا لنظريات المدرسة التاريخية الثقافية، فاننا نشاهد في اللسانيات ظهور جملة من النظريات توصف بأنها المذهب الحامسي. فيرى س. ماينوف، وهو باعثها، ان اجداد السان كانوا أقدم شعب أهلي في افريقيا. فكانوا يمثلون عرقا متميزا تماما، ويتكلمون لغات ذات تنغم خاص. وأما الزوج فكانوا يعتبرون من اهابي المنطقة المدارية والسودانية، وكانوا يتكلمون لغات متقطعة ذات اصوات وجذور وحيدة المقطع ثم تظهر الشعوب من العرق الحامسي الواردة من جزيرة العرب الى السودان مرورا بافريقيا الشمالية، وهي تتكلم لغات اعرابية وتتعاطى تربية المواشي، وهم في نظره ثقافيا من درجة اعلى من الزوج، على ان جزءا من الزحف الحامسي امتد على سهوب افريقيا الشرقية واختلط بالاهابي في تهجين أدى الى الشعوب الناطقة بالبانتو. وبصورة عامة يمكن اختصار هذا التطور التصاعدي في صورة شريط ذي اربع لقطات، في البداية اللغات ذات تنغم خاص، ثم اللغات المتقطعة البسيطة جدا التي يتكلم بها الزوج السودانيون.

وعند الاختلاط باللغات الحامية ظهرت اللغات البانتو الملتصقة وهي لغة الإشراف. وأخيرا اتت لغات الفاتحين الحاميين لغات ذات اعراب وهي من مستوى عال جدا. وقد انتصر عدد كبير من العلماء للنظرية الحامية التي فرضت نفسها انطلاقا من المانيا مرورا باوروبا الغربية وجاء وراءها.

على ان هذه النظرية انهارت فيما بين الحربين العالميتين، واكتشاف الانسان الجنوبي القديم سنة

١٩٢٤ بمقاطعة الكاب كان باعثا على وجوب إعادة النظر فيها، وتبع ذلك اكتشافات أخرى، وهي مستمرة دائما في شمال إفريقيا وفي جنوبها ولكن بصفة خاصة في الشرق، في طانزانيا وكينيا وإثيوبيا. فتثبت كل هذه الوثائق بصفة قطعية لاشك فيها أن تطور الإنسان وكل النماذج العرقية وقع داخل هذه القارة نفسها منذ الاصول. واكتسحت بذلك ذاته نظرية الموجات الهجيرة الواردة من الخارج. وكما يصرح بذلك حقا العالم الباليونتولوجي الشهير س. أرمبرج، أن إفريقيا هي القارة الوحيدة التي يوجد فيها، في خط تطور غير منقطع، كل مراحل التطور البشري. فالإنسان القديم الجنوبي وإنسان جاوة والنياندرتالي والإنسان العاقل تتعاقب فيها مع الوسائل الملائمة، منذ العصور الخالية حتى العصر الحجري الجديد. وهكذا تتأكد فكرة داروين الذي كان يضع أصل الإنسان الأول في إفريقيا. ثم إن هذه الاكتشافات قد أتت بالحجة الملموسة على أنه من المثير أن ننكر لأفريقيا تطورا ثقافيا داخليا. وفي هذا الشأن فإن الرسوم والنقوش الصخرية في الأطلس وفي إفريقيا الجنوبية وفي الصحراء، تقدم لنا عن ذلك شهادة ساطعة لها أهمية قصوى.

وأما قدم البقايا الأثرية فلا شك فيه منذ أن شغمت اليوم التاريخية النسبية المرتبطة بصناعة الأشياء وبموقعها داخل الطبقات، بتأريخ مطلق يرتكز على طرق توقيعية علمية كطريقة الفحم ١٤ والبيوتاسيوم - أرغون. فتغير بذلك جدول التطور الثقافي للشعوب الإفريقية وقلب ظهرها على عقب. وقد لوحظ مثلا في خطوط العرض الصحراوية والساحلية، أن العصر الحجري الحديث يرجع إلى فترة أقدم من التي كانت تظن، وهذا مما قبل جدول التطور الإفريقي بالنسبة إلى عالم البحر الأبيض والمحيط الشرقي الأوسط.

وما اكتشف من البقايا في تاسيلي ناجر كما في تادراوت أكاكوس على حدود الجزائر وليبيا قاطع حاسم: ففحص المواقف وشظايا الخزف فيها يدل على أن الفخار كان مستعملا منذ ٨٠٠٠ عام، وفي أكاكوس يحمل هيكل لشخص من نوع الزنجي الشكل وقع الكشف عنه، آثار ثياب من جلد، ولما درست هذه المواد، اعتبرت من تاريخ يرجع إلى ٩٠٠٠ عام، وكذلك أن البقايا التي عثر عليها في الهكار والتي وقع تحليلها بثلاثة مختبرات مختلفة، كشفت كلها عن سن مشابهة. وينتج عن ذلك أن العصر الحجري الحديث في تاسيلي ناجر وفي اللايندي يبدو أنه أقدم من مثيله في المغرب ومعاصرا لتظيره في أوربا الجنوبية وفي برقة (شرق ليبيا).

واعجب من ذلك ما استنتج من فحص القطع العضوية المجموعة في التوبة السفلى في حقول العصر الحجري الجديد، ويقدر أنه في سنة ١٣٠٠٠ ق. م. تقريبا وفي هذه الجهة، كانت تحيي مواسم الحبوب البرية وكانت تهيأ للطعام. فالتحليل بالفحم المشع للبقايا المتحجرة في بلدة بلانا، أعطى تاريخ ١٢٠٥٠ ± ٢٨٠. وعين التجربة وعلى انقاض طوشكي كشفت عن تاريخ ٥٥٠ ± ١٢٠٠. مما يدل على أن زراعة النباتات في وادي النيل كانت جارية أربعة آلاف سنة قبل العمل بها في الشرق الأوسط.

وحسب تقليد مستقر، كان كل عرض عن تاريخ إفريقيا يبدأ دائما في مصر. واليوم، كل شيء يدل على وجوب إعادة النظر في هذا التقليد.

وقد سُمي عالم المصريين بريسدة جملة البلدان المكونة من مصر وفلسطين وما بين الرافدين باسم «الهلل الخصيب». وذلك أن هذه المنطقة شبه هلالا عظيما ازدهرت في صلبه ومن

اجله الحضارة الفرعونية وحضارات المدن الدول في سومر وأكاد. والواقع ان هذا العمل لم يشجع فيه الا حوالي ٥٠٠٠ او ٦٠٠٠ قبل الميلاد.

هذا بينما قبل ذلك بكثير كانت الظروف المناخية من وادي الهندوس الى المحيط الاطلسي ملائمة لانتشار تربية الماشية وللزراعة البدائية، اي كل مامن شأنه ان يكون مجتمعا تشاهد فيه اولى خطوط الطبقات والدولة.

وهكذا فان «الهلال الخصيب» لا يمثل سوى النهاية والشاهد بمجال فسيح منعم بالحياة، اخذ الناس يستأنسون فيه بالحوب البرية وشرعوا في جعلها اهلية في آن واحد مع الدواب الضخمة، من البقر الى الماعز. ويشهد على هذا التطور العظم ما تعبر عنه الرسوم والنقوش الصخرية بالصحراء، وما يبدنا به الفحم المشع وتحليل غبار الطلع المتحجر من ارشادات الخ. ومن الممكن ان تصلح بعض الحطوط التوقيتية بفضل التدقيقات الواردة فيما بعد، ولكن الصورة المقدمة حتى الآن فيما يخص العمران في العالم القديم، قد تجاوزتها الأحداث على الإطلاق، وعوضا عنه فلا بد ان يعترف لافريقيا بدورها كقطب لانتشار الناس والتقنيات في أقدم العصور من التاريخ البشري (اول عصر الحجارة القديم). وفيما بعد قد لوحظت تيارات للهجرات المعاكسة اي رحلات العودة الى القارة الافريقية.

مشاكل انتروبولوجية ولسانية

تمدنا الاشارات الأنتروبولوجية بصورة عامة بعلامات اثبت واشد استقرارا من أحداث اللغة التي تخضع لتغيرات سريعة أحيانا في ظرف بضعة أجيال، مثلا اذا هاجر شعب الى وسط لساني جديد، أو كذلك في حالة الغزو اذا ما كان الفاتحون يتكلمون لهجة تخالف لهجة الالاهي.

ومثل الاستيطان النيجي في اميركا الشمالية له دلالة في هذا الشأن: حين حل هذا المجتمع البشري بمناء وفي وسط جغرافي يخالفان ما كان سائدا في قارته الاصلية، فقد احتفظ عمليا بنموذجه الانثروبولوجي (الاصلي كاملا) بينما هوفيا يخص اللغة او الحضارة لا يختلف في شيء عن السكان البسيض في الولايات المتحدة ولا تبقى عناصر الثقافة الافريقية القديمة الا في المجالات الثقافية والروحية: الموسيقى والرقص والمعتقدات. ويجدر ان نشير الى وضع مقابل لهذا هو وضع مجموعة قليلة العدد جدا نعتي السيدى احفاد الافارقة الذين نقلوا من الساحل الشرقي الافريقي الى الهند منذ بضعة قرون. فقد كانوا في بداية القرن التاسع عشر يتكلمون لغتهم الاصلية، ولكنهم اليوم يتكلمون لغات الشعوب الهندية المحيطة بهم، الكوجارتي، الاردو الخ. ولم يحتفظوا من آثار تعكس نسبهم الافريقية الا بملابسهم الطبيعية.

في كلتا الحالتين اذن، فإن الافارقة الذين فارقوا موطنهم قد غيروا لغتهم في فترة قصيرة من الوقت، احيانا في ظرف جيل او جيلين.

ويجدر ايضا ان نذكر اللغات التي يتكلمها اهالي افريقيا الشمالية. فبعد الفتح العربي لبلاد المغرب، وخاصة بعد اندماج «القبائل» العربية في القرن الحادي عشر، صارت شعوب افريقيا الشمالية كلها ثقافيا، عربا من حيث اللغة ومن حيث الحضارة، ولم تبقى اللهجات القديمة الا في بعض الجهات من المغرب الاقصى وبلاد القبائل بالجزائر، وفي جبل نفوسة وفي الواحات. وحسب



- (١) امرأة هاراتينية من إندونيسيا في الجزائر (تصوير أ. أ. أ. نود).
- (٢) رجل من شمال أفريقيا، المغرب. (تصوير هوانس كوي، ريشيه).
- (٣) امرأة جزائرية وطفلها (تصوير أ. أ. أ.، جيهانت).

علماء الانثروبولوجيا فإن الملامح الاساسية التي كانت للانموذج القديم الطبيعي مازالت باقية. فالعناصر الانثروبولوجية اذن، في جللتها، ما لم تؤثر البيئة الحيوية على الجسم، أكثر استقرارا من المعطيات التي تمدنا بها اللغة والحضارة. وما لدينا اليوم من الاحداث، يمكننا من التصريح بان توزيع النماذج العرقية المعاصرة في القارة الافريقية، يعيد في اهم الامور، الخريطة القديمة للجموع الكبيرة الانثروبولوجية الموصوفة احيانا في عجالة بـ «الاعراق». فمختلف النماذج من «عرق» البحر الابيض المتوسط، كانت ممثلة في افريقيا الشمالية منذ عهد بعيد جدا، وفي الشرق كانت تسكن شعوب من الانموذج الاتيودي الشكل وهذا ما تؤيده اكتشافات علماء الانثروبولوجيا في الكينيا. وأما القطاع الجنوبي من القارة فكانت تشغله جموع سان.

وكانت العناية المدارية والاستوائية تمتد قديما على مساحة افسح بكثير، ومن المحتمل ان يكون هناك تغيير جمع طريف، هو جمع الاقزام، وسماهم مدينة بالكثير للرطوبة الكبيرة والى انعدام يكا. يكون تاما للاضاءة في الغابة، و «العرق» الزنجي من الانموذج المعروف بالسوداني والكتغولي قد يدخلون قد تميز في خطوط العرض المدارية ولا سيما في افريقيا الغربية. وفي هذا الموضوع ليس لدينا عدد كبير من المتحجرات الممتحنة المؤرخة كما ينبغي، وذلك بدون شك من جراء التحلل الكيماوي التابع لحموضة التربات. ومع ذلك فبعد انسان اسلاف، اكتشفت في الصحراء وفي نيجيريا الجنوبية هياكل عظمية من انموذج زنجي الشكل، تعود الى فترات مختلفة وأحيانا قديمة جدا. وهي فيما يبدو تشير الى ان هذه المنطقة بؤرة أصلية لهذا الانموذج البشري.

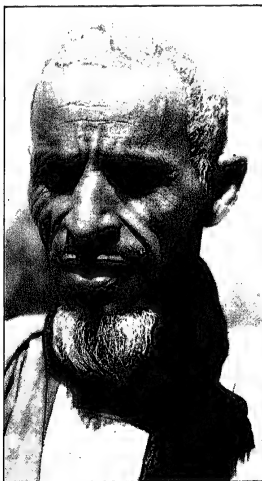
وشارت جدالات قوية حول مشكل الاستيطان الاصلي بالصحراء، ولكن دراسة الفن الجداري لا تبقي اي شك في هذا الموضوع. ان الاستيطان البشري الاسود كان سائدا في هذا القطاع، وهولا يمنعنا ان نجد منذ عهد بعيد في هذه الجهات نماذج بشرية أخرى، هي مجموعات ملامح وجهها افريقية متوسطة (نسبة البحر الابيض المتوسط). وفي مصر في الوثائق وعلى معالم الامبراطورية القديمة، يشار الى الليبيين تامهو ذوي البشرة المفتوحة والعيون الزرق، ولكن تذكر ايضا شعوب تنو ذات بشرة اقتم. وفي المصادر اليونانية ايضا نجد إحالات خاصة بالثيوبيين ذوي بشرة مفتوحة، ولكن كذلك احوالة اخرى خاصة بالثيوبيين جنوبيين لهم بشرة اذكن، فيبدو حينئذ ان السكان الاصليين في ليبيا كانوا خليطا. ويصرح كاتب لا تيني مثلا: «شبه البعض من الليبيين الاثيوبيين والبعض الآخرهم من أهل جزيرة إفریطش» (١).

ويبدو ان التركيب العرقي لعمران وادي النيل كان متشعبا، ان شعوب هذه الجهة فروا من جفاف الصحراء فانزروا الى رطوبة الوادي. واختلطت مجموعات «اثيوبية» وافارقة متوسطيون بالسودان من الانموذج السوداني. ولابد ان امتزاجات من هذا القبيل قد تمت للأسباب ذاتها في الاحواض النهرية - البحرية الملاصقة لصحراء السنغال الادنى والنيجر الأوسط والتشاد.

وان صرح ما اشير اليه اعلاه من كون الملامح انثروبولوجية تتمتع بثبات عجيب احيانا الى حد عدة آلاف من السنين، فليس من المنوع ان نستكمل في ما قبل التاريخ بعض الصفات الرئيسية للشبكة العرقية الحالية، وعلى كل ان عملية تكوين «الاعراق» هي حاصلة تفاعل بين عوامل



- (١) رجل من سكان الفولتا (تصوير
أ. أ. نود).
- (٢) امرأة من شعب الس
(«ساراكونية»)، موريتانيا، منطقة النهر
جاجة سونينكية. (تصوير ب. نانتيه).
- (٣) رئيس عشيرة رخل من الركيزي
موريتانيا (تصوير ب. نانتيه).



متعددة تخصص شيئا فشيئا الملامح الموروثة، ولكنها أيضا تنقل بالوراثة الملامح المتميزة. وكانت هاته الملامح تخصص اساسا بموجب ظاهرة الملازمة للوسط المحيط: أثر الشمس، الحرارة، الغشاء النباتي، درجة الرطوبة الخ. وحسب قاعدة عامة، تضعفها بالطبع استثناءات كثيرة، في نظر علماء الانثروبولوجيا فان افريقي الغابة اقصر قامة وواضح اللون، بينما يكون انسان السهوب والساحل طويل القامة اذكن اللون. ولكن لا ينبغي ان ننظر الى الامور بطريقة جزئية، اذ ان كل العوامل اتت بفعلها في آن واحد، فهكذا انتقال للمجموعات الحاملة لثرائث وراثية متباينة يكشف في الحال عن مصدرين ممكنين للتحويلات: اولا تغير البيئة الحيوية ثم التقاء مجموعات مختلفة تساعد على امكان تهجنات متنوعة. فاذا ما لوحظ شبه بدني عجيب بين اعراق بعيدة جدا الواحد عن الآخر في المدى، كما بين الدينسكا في الصعيد المصري والولوف في السنغال وهم يتشابهون في دكته البشرية وطول القامة فيبدو ان وجودهم على خط عرض واحد يوفر امكانية مرضية للتفسير. ولكن يجب ان لا نغفل عن تظافر العوامل المستخدمة من حركة التاريخ نفسها (٢).

وفي هذا السياق ان المثل المشير للكثير من الجدال، مثل الاقزام والسان، يجدر ان ننظر فيه بالتفصيل.

وفي القديم كان يظن ان هناك تطابقا عرقيا بين الاقزام في افريقيا واقزام آسيا الجنوبية. ويبدو ان وجهة النظر هذه قد تركت اليوم. فكل يرجح الظن بان ذلك نتيجة مواعمة قديمة جدا بين النموذج بدني مع الوسط المحيط، وان هذا العمل قد جرى في فترة طويلة من الانعزال، واليوم نجد الاقزام في غابات الكامرون وفي الكابون وفي المناطق في افريقيا الوسطى، بالزاير ورواندا. ولكنه يظهر من المتحقق ان مجال انتشار الاقزام في القديم كان اكثر امتداد. وفي المآثور المنقول لدى بعض الشعوب من افريقيا الغربية، يروى ان مجموعات من الاقزام كانت تسكن الغابة قبل مجيء الشعوب ذوي القامات الطويلة. نعم ان بعض الخرافات في اوروبا الغربية ايضا تذكر اقزاما حدادين استقروا على الجبال. ولكن المآثور المنقول الافريقي لا يبدو وليدا للمخيلة الشعبية فقط، فهو ينطبق من بعض المصادر التاريخية التي تكشف عن وجود الاقزام في مناطق لا وجود لهم فيها اليوم.

وفي مصر، في كتابة تعود الى الاسرة السادسة من الامبراطورية القديمة على جدران قبر هرهوف (٣) في اسوان شاهد نقل من رسالة الفرعون بيبي الثاني يشكر فيها الملك الشاب الامير الذي اهداه قزما اسمه دنك، و يوجد هذا اللفظ في اللغات الحالية في اثيوبيا، بالامهرة ومختلف هجاتها، كما في التكرينيا والكللا والكبابا بالصيغ الثلاثة: دنك، دانك، دنكي، دنكو، دينكا، (٤) وتذكر رسالة الفرعون ان قبل ذلك بقرن، في عهد الأسرة الخامسة، اتي بقزم مشابه للفرعون ايزيسي، وفي هذا السياق، لنذكر ان رجالة انكليز يا اثبت وجود اقزام دوكو في اثيوبيا الجنوبية. ويمكن ان نستنتج وجودا قديما للاقزام في المناطق التي يجلفها اليوم السودان واثيوبيا.

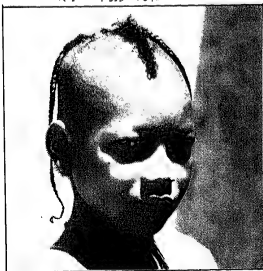
(٢) انتظر هيرنو، ١٩٧٠، مجلد١، ص ٥٣ و ٥٥.

(٣) ان النقل الحرفي لهذا الاسم: هيرب هوف، (هرزق، ١٩٣٨، ص ٩٠).

(٤) و. ليلو، ١٩٦٣، ص ٥٧.



- (١) امرأة من عشيرة الـ «بورورو»
من شعب الفلاني، تاهوراء النيجر
(تصوير ب. ناتيه).
- (٢) طفلة طارقية، أهاديس، النيجر
(تصوير ب. ناتيه).
- (٣) امرأة من جرما سفاي، بالاييرا،
النيجر (تصوير ب. ناتيه).



وشيثاً فشيثاً حل أقوام أثوا حديثاً محل اقزام الغابة الاستوائية والمدارية، وهم شعوب تركب من اشخاص طويلي القامة يتكلمون لغات بانتو. وكما يروي السنوك اليابجا، في الدورة الملحمة للسنكو عن استيطان وادي الزاير، فإن الاقزام الاهالي تراجعوا شيثاً فشيثاً الى المناطق النائية في غابات الاتوري والاو بيلي. ولشعوب بانتو آخر ين قصص اصلها متشابه. ويمكن ان نستنتج ان ما بقي من مجموعات الاقزام اليوم هي كجذيرات تشهد على استيطان قديم أوسع بكثير تم في غابات افر يقيا الاستوائية والمدارية.

والسان يمثلون جمعا آخر طرفا في القارة الافريقية، لهم قامة قصيرة ولون نحاسي واصفر وشعر عجيب «كحلب الأوزار» وما زالت كتب الانتروبولوجيا تحشرهم مع الحوي خوي في «العرق» الحويسان. وبدون شك ان هذامداً خارجياً للتصنيف اللساني الذي يجمع بين السنة السان والحوي خوي في مجموعة واحدة، خاصتها المشتركة هي وجود مصوات ممطقة ذات تنغم خاص لها قيمة صوتية. ولفظ «خويسان» الذي اقترحه ج. شابر و تبناه عدد من المصنفات، وارد في الاصل من لفظين خوي وسان: «خوي بمعنى «إنسان» وسان حيث المادة سا معناها «كندس، جنى الثمار، قلع الجذور، قبض على حيوانات» اي انه وصف لجمع من الناس بكيفية عيشهم «بنمط انتاجهم». وفي الواقع ان الصفات المشتركة بين الحوي خوي وسان قليلة جداً: نذكر منها اللون المفتوح واللغات ذات تنغم خاص. ولكن هذه الصفة الاخيرة ليست خاصة، اذ هي توجد في اللغات البانتو في الجنوب الشرقي كالزولو والكسوزا والسوطو الخ.

على انه توجد فروق عديدة بين المجموعتين: اذ يتميز الحوي خوي بقامة اطول وبوضع الشعر والعلامات الجسمية (٥) وضخامة الارءاف لدى النسوة، بينما يخص السان بوجود ظفيرة على عيونهم، ثم ان لغات الحوي خوي تختلف عن لغات السان من حيث المعجم ومن حيث النظام النحوي. وبين أ. ج. وستفال ٥٥ الاختصاص في الكبير في هذه المادة ان الضمائر عند حوي وهي تمثل أقدم قسم وثبتت في الخطاب، لها صيغ واضحة وضوحاً كبيراً، اذ يوجد فيها جنسان والمفرد والمثنى والجمع مع صيغ الضمنية والحصر بينما لا يوجد شيء من ذلك في لغات السان (٦). وليس الامر هنا يتعلق بمجموعة واحدة لسانية، واما من حيث الثقافات فهما يختلفان من كل وجه، كما سجل ذلك منذ القرن السابع عشر الرحالون الاولون ومن بينهم بيتر كلب. فكان الحوي يعيشون في القرى ويتعاطون صناعة المعادن ويشغلون بترية الماشية. بينما كان السان رحالة يعيشون على الصيد وجني الثمار. وهكذا فان عملي الانتروبولوجيا واللسانيات يعارضان في تجميع هذين الشعبين في كتلة واحدة. وكل منها ايضا كان له تطور تاريخي متميز. فالسان بدون شك، يكتزون بقايا الاستيطان الاصلي في الجنوب الاقصى من افر يقيا. واليوم لقد دفعوا الى المناطق الصحراوية المنفرة في نميبيا والكالاهاري، وتوجد منهم كذلك جمع منعزلة في انكولا، ولكنهم في القديم كانوا ينتشرون خلال السهوب الجنوبية والشرقية حتى حدود الكينيا، كما تشهد بذلك اساء الأماكن واساء المياه، اذ ان

(٥) انظر الكيساف: في التصنيف الانتروبولوجي لأهالي افر يقيا «ضمن المشاكل الاساسية — للدراسات الافريقية» ٥.

(٦) انظر أ. ج. وستفال: ١٩٦٢، ص ٣٠ — ٤٨.

٥ الأصل المترجم عنه وكما في المطبوع خوي خوي.

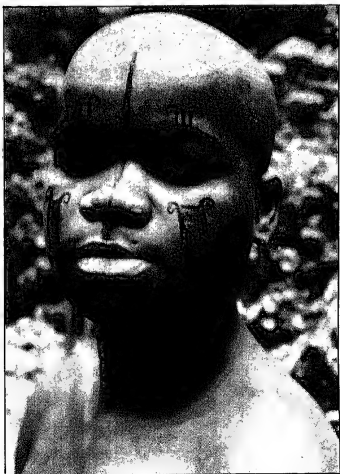
٥٥ ليس في المطبوع وستفال: انظر الكيسادي.



● (١) قزم من الـ «توا»، رواندا
(تصوير ب. نانثيه).

● (٢) جماعة من الـ «سان» (تصوير
ف. بالسان، مجموعة متحف الانسان،
باريس).

● (٣) قزم من الكونغو (تصوير كونغو
— بريس، دانداي، مجموعة متحف
الانسان).



مسميات الانهار المحلية والجبال مقتبسة من لغات السان. وكذلك المصوتات ذات التنغم الخاص قد اقتسبتها عدة لغات باننو. ثم ان الرسوم الجدارية على الهضاب العليا في افريقيا الجنوبية تمثل احيانا معارك بين السان ذوي القامة القصيرة واللون المفتوح، وبين غاربين سود ذوي قامة طويلة يمكن تعيين انتماهم العرقي حسب شكل التروس التي يستعملونها.

والهذاني، وهم جمع عرقي صغير يعيش قريب بحيرة اياسي (طانزانيا) يمكن اعتبارهم شهودا على الانتشار القديم لاستيطان السان عبر افريقيا، ومع ان لغتهم لم تدرس درسا عميقا فانه من الغالب على الظن، انها قريبة من لغة السان. وتأييدا لنظرية قائلة بانتشار السان انتشارا قديما على اماكن افسح، نذكر الحجارات المستديرة المثقوبة الوسط التي توجد أيضا في افريقيا الشرقية. ويسمى السان هذه الحجارات كوى وكانت تستعمل لأثقال العصي المستخدمة لقلع الجذور الصالحة للاكل. ولكن نشر هذه التقنية عن السان، لم يقم عليه الدليل. فعند الكالا مثلا في اثيوبيا الجنوبية وبالحرار يستعمل الدوندار وهو ود مثقل بحجارة لحفر الأرض، ويستعمل الجهاز نفسه لاثقال المذق المستخدم لسحق التبغ.

وعلى كل، فانه من اللازم الا نقصر الاستيطان الاقدم في افريقيا الجنوبية على الاقزام في الغابات وعلى السان في السهوب. فقد تكون مجموعات اخرى وجدت معهم. وهكذا فقد اكتشف مثلا في انكولا مجموعة الكوادي وهي قريبة جدا من السان من حيث اللغة ومن حيث نوع العيش. وفي بداية القرن العشرين درس أيضا فيدار المجموعة العلمية الاوطان ورغم قامتهم القصيرة وعيشهم من جني الثمار ومن الصيد، فإنهم يتميزون عن السان بلون بشرتهم الشديدة السوداء وبشفاهم الثخنة، وهم يسمون بالنوخوا أي «الرجال السود» خلافا للخوي خوي الموصوفين «بالرجال الحمر» ونظامهم الطريف في العد يتميز عن النظام العشري المستعمل لدى الخوي خوي. ومثل هذه المجموعات، وهي بدون شك مازالت باقية في مناطق أخرى، تلقي ضوءا ثمينيا على تاريخ الاستيطان الاصيل المتشعب في الغابات والسهوب في افريقيا الوسطى والجنوبية، ويظهر هذا التشعب في لغات البانانو في المستوى المعجمي والصوتي، مثلا عندما يدل وجود الاصوات ذات التنغم الخاص على اتصالات قديمة جدا بين الأعراق. ويتبع ذلك فروق بين لغات الباننو وقد يصل الامر احيانا كما هي حال مجموعة دزنيك في الشمال الغربي من منطقة البننو، الى فروق في بنية جذور الكلمات. ومن دون شك فان هذا الخلاف ناشئ عن اسس لسانية سابقة، ويشكل الاقزام والسان اليوم جوعا ضئيلة عددا بالنسبة الى مجموعة «الدزنيك» السائدة، بل وحتى بالنسبة الى العرق الافريقي الوسيط في افريقيا الشمالية.

وفي يومنا هذا لا تنطبق الخريطة اللسانية في القارة مع توزيع النماذج «العرقية» ولعل هذا الانطباق كان موجودا في البداية، ولكن منذ عهد بعيد. وقد تطورت الديموغرافيا والهجرات والتجينات، وزال الانطباق بين التطور اللساني والعمل التكويني للنماذج «العرقية» ونعني بالعبارة الاخيرة، ارث المؤشرات الوراثية وملاءمتها التدريجية للوسط، واختلاف الخريطين «العرقية» واللسانية واضح بالنسبة لشعوب السودان، منطقة التجمع لنموذجين مختلفين من الاسر اللسانية.

وينتهي شمال افريقيا، بما فيه موريتانيا واثيوبيا، الى حقل فسيح من اللغات السامية الشاميتية. ويظهر ان هذه التسمية غير صحيحة، اذ هي تتضمن وجود مجموعتين: السامية من جهة



• امرأة من الزولو (تصويراً. روبيان، مجموعة متحف الانسان).

والشاميتية من جهة أخرى، وفي القرن التاسع عشر قد سميت بالفعل سامية، لغات هذه المجموعة التي كانت مستعملة في الشرق الاوسط، وسميت شاميتية لغات افريقيا. ولكن م. كوهان، عالم الساميات الفرنسي، لاحظ انه لا موجب ولا حجة تبرر هذا التقسيم الى مجموعتين، وتصنف اليوم بصفة عامة، لغات هذه الأسرة الى خمس مجموعات: السامية والكوشية والبربرية (٧) والمصرية القديمة (٨) والمجموعة التشادية اللسانية. فيتكلم لغات هذه العائلة اللسانية الكبيرة عدد كبير من الاعراق (ساميين وسود). وفي أقصى جنوب القارة الافريقية فان لغات السان مع ما يضاف اليها من لغات كوادي في بانكولا وهندزاني في طانزانيا، تنتمي فيما يبدو الى مجموعة متميزة، صفاتها المشتركة هي وجود الاصوات ذات التنغم الخاص والمقطعة والبنيات المقطعة.

وقد يكون من الاضمن ان تسمى هذه المجموعة باللغات الافريقية القديمة كما يتحدث عن اللغات الاسيوية القديمة في الحدود الشمالية الشرقية من القارة الاسيوية. ولا يمكن حصر لغات الخوي خوي في هذه المجموعة لاختلاف نظامها النحوي. فالخوي خوي شعب من الرعاة قد هاجر بدون شك من الشمال الشرقي من القارة نحو الجنوب، حيث احاطت به جموع السان الاهلية. وقد اقتبس البعض من هؤلاء، كاهالي جبال أوتاني وحتى التارون بالمنطقة الوسطى، لغة الخوي خوي، وهناك ما يؤيد فرضية التطريف المشار اليه اعلاه لانتشار الخوي خوي ابتداء من مناطق الصعيد المصري مروراً بالسهوب الشرقية، وهو اننا نجد في طانزانيا قرب بحيرة اياسي جمعا من السنداوي تبدو لغتهم منتسبة الى لغة الخوي خوي على ان تاريخ هؤلاء الخوي خوي من اغراض النقط في التطور العرقي في افريقيا. فحسب أ. وستفال ان الاصوات المقطعة ذات التنغم الخاص في لغات الخوي خوي قد تكون مقبسة من لغات السان وهذا رأي مفيد ولكن لا حجة تؤيده.

ومن المحتمل ان تكون سهوب افريقيا الشرقية أقدم منطقة استوطنت في القارة. ويحتلها اليوم سود يتكلمون لغات البانتو. ولكن، كما تدل على ذلك الشعوب الشواهد السنداوي والهندزاني، وجد قبلهم السان والخوي خوي، وهناك شعوب اخرى من المنطقة ذاتها يتكلمون الكوشية، وغيرهم له لغات تابعة لجموع مختلفة كالاراكو وقد سبق هذه اللغات كلها زحف اللغات البانتو التي ظهر البعض منها في فترة متأخرة نسبياً.

وبين اللغات السامية الشاميتية في الشمال، واللغات الافريقية القديمة في الجنوب، يقع مجال فسيح هو مجال اللغات التي سماها العالم اللساني دولافوس «اللغات الزنجية الافريقية»، وبصفتها، س. ماينوف ود. وسترمان بكونها لغات سودانية بانتو، بينما يحسرها ج. غرينبرغ في الاسر الكنفوس كردوفانية والتيلية الصحراوية.

وتعرفت منذ عام ١٦٦٣ على هذه اللغات واقتُرحت تسميتها بالزنجية، وفي الاطار العام قد تميز اسرار جامعات لسانية، عرضا بحسب نتائج البحث.

والتعبير «اللغات الزنجية الافريقية» المقترح من م. دولافوس غير موفق، فالجزء الاول من العبارة فيما يبدو يمزج بين مفهومي العرق واللغة، على ان الزوج في اميركا الشمالية والجنوبية كما في

(٧) يلحق بعض المؤرخين اللغة البربرية بالمجموعة السامية.

(٨) حسب بعض علماء المصريين الافارقة، المصرية القديمة تنتمي الى اللغات «الزنجية الافريقية» (انظر فصل ١، من المجلد ٢).

أفريقيا نفسها يتكلمون لغات متباينة تماما. والجزء الثاني من العبارة أيضا ليس في محله، إذ كل اللغات المستعملة من الشعوب القاطنة في أفريقيا بما في ذلك الأفريقان، هي لغات أفريقية. على أن تصنيف هذه اللغات إلى مجموعات — السودانية والبانتو — هو أيضا مخطئ منذ أن بينت دراسات د. وسترمان القرابة المعجمية والبنوية بين لغات أفريقيا الغربية واللغات البانتو. وقد مهدت هذه الدراسات لاعادة النظر الشاملة في تصنيف اللغات الأفريقية، الذي التزمته خطأ المدرسة اللسانية الألمانية، ويعتمد تصنيف ج. غرينبرغ على الطريقة المدعوة «المقارنة الجمالية» فع اعتبرها للعناصر الأساسية في النظام النحوي فهي تعتمد أيضا على المعجم. لقد ميز غرينبرغ سنة ١٩٥٤، عند تطبيق هذه الطريقة ست عشرة أسرة لسانية في أفريقيا، ثم جعلها اثني عشرة فحسب، ثم اختصر هذا العدد إلى أربع سنة ١٩٦٣، وأن هذا التخفيض السريع في عدد العائلات اللسانية ليبرهن على أن الطريقة لم تركز تركيزا لائقا، وأنه افرد في الاسراع قصد الحصول على تصنيف مهما كان الامر.

ومن الاسر الاربع المحتفظ بها، فإن المجموعة الأفريقية الآسيوية ما هي الا الاسرة السامية الشاميية. وإما الاسرة المسماة باللغات المنطقة ذات التنغم الخاص ثم المسماة الكوزان، فتجمع لغات شعوب سان والخيوي. وكما صرحنا بذلك اعلاه، فإن هذا الادمج خاطئ. وعلاوة على الاسرة النيجرية الكونغولية التي يضيف اليها غرينبرغ لغات كردوفان، انه ميز مجموعة رابعة تكونها اللغات النيلية الصحراوية. وحتى الآن فإن بنية المجموعة الاخيرة لم تدرس الا قليلا. وسنة ١٩٧٢ طبق ادغار كريكرسن طريقة غرينبرغ على هذه اللغات، فادى ذلك الى نتيجة، هي ان كل اللغات في هاتين الاسرتين يمكن ارجاعها الى أسرة واحدة يقترح لها اسم الكونغولية الصحراوية. وتلتقي هذه النظرة بما كنت قد اقترحت من جمع هذه اللغات تحت عنوان مجموعة الزنج. وأما المجموعة المميزة بالسنبرات المختلفة وبالصفات الاسمية، فقد يتعارض مع اللغات السامية الشاميية او الاثرية التي تقع معاييرها الخاصة في النبرة وفي الجنس النحوي. على انه ليس من المستعذر ان تكشف الدراسات المقبلة عن خصوصية للغة من اللغات، او مجموعة من اللغات داخل أسرة الزنج او الكونغولية الصحراوية. ولكنها من الآن تبدي من الترابط والاتساق ما يوجد في الاسرة الهندية الأوروبية مثلا.

وداخل هذه الاسرة الكبيرة الزنجية، فإن لغات البانتوبلا شك، تبدي وجها كثير التجانس اقرته أعمال و. هـ. ل. بليك وش. ماينوف وم. كشري. ومن بين المجموعة التي كشف عنها د. وسترمان ضم المجموعة اللسانية السودانية، فإن اوضاعها هوية هي مجموعة المندي. وعلى شرقي هذه المجموعة الاخيرة. وعلى غربها لغات سماها وسترمان اللغات غور أو الاطلسية. ويعوزها ما للماندي من تجانس، حتى ان علماء اللسانيات الانكليزي حددوا فيها جمعا متميزا هو جمع للغات الميل. وفعلنا فان هذه المنطقة الكائنة في أقصى الغرب من القارة، قد اوت اليها امواج من الشعوب الصغيرة او التقت بها ثم ازاحها القادمون الجدد. فاحتفظت لغاتهم ببعض خاصيات اللغة البانتو، ووضح الامثلة لغة بلوم. واتت مصنفات مانسي الانصبا في هذه اللغات، على الفرضية السابقة القائلة بوحدة لغات الغور، وقوضتها.

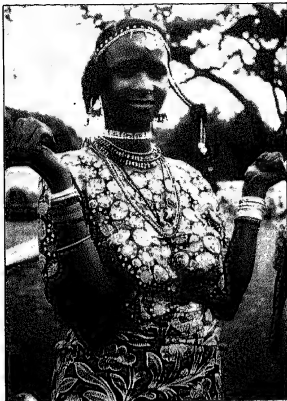
وان ما يوجد في هذه اللغات من الاصناف الاسمية المكونة بطريقة متنوعة، بواسطة السوابق

والواحق، بل حتى الحشوة، ليعكس الشعب العرقي في هذه المناطق التي كانت تمثل ملجأ لعدة جموعاً بشرية تسمى «زنجية قديمة»، وتمتد على مناطق الجبال عبر السودان بأكمله من السنغال إلى كروفان... وقد اعتبروا أقدم الاهالي المستوطنين في السودان، على أن ذلك يبدو غير محتمل تبعاً للتنوع اللساني واختلاف النماذج البدنية في هذه الفسيفساء من الجموع التي أتت هذه المناطق المنشرة، وتكدست فيها. وتشير التواريخ السودانية إلى البعض من هذه الأحداث، مما يدل أذن على أن هذا العمل ليس عملاً عتيقاً، إن التقسيم اللساني في أفريقيا أذن، لا بد أن يعزى كل شيء إلى أسباب تاريخية دفعت موجات الهجرة إلى الأمام.

ومن بين لغات السودان الشرقي التي هي من أقل ما درس من اللغات، نذكر اللغات النيلية القديمة، وتمثل جمعاً متميزاً كثيراً وضرباً من الأسرة المندجة وراثياً، لعلها تكونت أثناء فترة طويلة من العزلة.

وتكشف المصنفات الجلييلة التي قدمها عالم اللسانيات الانكليزيان م. أ. بريان وأ. ن. تركس، تشعباً قوياً في السودان الشرقي، في المستويين العرقي واللساني. وقد استعملنا طريقة تبدو موفقة، متخذين كمعايير بعض العناصر اللسانية المميزة للمقابلة بين لغات ت/ك ون/ك. ومن بين المجموعات اللسانية كلها في هذه الأسرة العظمى الكنفولية الصحراوية، تبدي اللغات البنتو قرابة وراثية ملحوظة، إلى حد جعل هذا الأمر يعتبر حدثاً جديداً.

وعلاوة على اللسانيين، فإن المؤرخين وعلماء الآثار حاولوا أن يوضحوا «كيف تكون البانتو» ولكن فرضياتهم متباينة. فيقول بعضهم إن هجرة البانتو انطلقت من الشمال من جهة الكامرون أو من حوض التشاد، فسارت الغابة في الشمال، ودارت معها شرقاً مارة بأفريقيا الشرقية، ثم انتشرت في أفريقيا الجنوبية. ويرى غيرهم أمثال هـ. جونسون أن البانتو قدموا مباشرة من جهة وسط أفريقيا عبر الغابة الزايرية. وأخيراً فإن بعض العلماء طبقاً لنظرية العالم باللسانيات م. كشري، التي تجعل النواة اللسانية التوذجية الأولى للبانتو تقع في أعلى الزاير لذي اللبواو وبمببا، يجعلون الموطن الأصلي للبانتو في هذا القطاع. بل قيل أكثر من ذلك، وعرضت الشعوب الناطقة بالبانتو كوحدة بيولوجية وثقافية. على أن بعض علماء الآثار يربطون بين انتشار الحديد في جنوبي القارة وبين هجرة البانتو الذين وردوا عليه مجهزين بتقنيات رفيعة. ولكن البرتغاليين، عندما وصلوا في آخر القرن الخامس عشر إلى جزيرة فرناندو بو، وجدوا فيها اهالي يتكلمون البوي وهي لغة بانتو ولكنهم يحلون استعمال الحديد. وهذا الخطأ التمثيل في الخلط بين اللغة وبين نمط العيش أو الانتاج، قد وقع فيه من قبل علماء الانثروغرافيا الذين جمعوا في مفهوم الشاميبي وحدة العرق واللغة والحضارة. وفي التطور التاريخي يجدر الان نعمل، مهما كان الأمر، على إيجاد نماذج خالصة. فالشعوب البانتو تختلف كثيراً من الوجهة الانثروبولوجية من حيث اللون والقامة والقياسات البدنية الخ. وبانتو الغابات لهم أوصاف بدنية مخالفة لأوصاف بانتو السهوب وكذلك فإن نموذج النشاط الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي متنوع جداً، والبعض يتبعون النظام الأبوي والبعض الآخر يتبع النظام الأموي. وفي موضع ما تستعمل الأقنعة وتوجد الجمعيات السرية وفيما عداه لا جود لذلك، والعامل المشترك الوحيد هو البنية اللسانية المعتمدة على اصناف الاسماء، ولكل اشارات هذه الاصناف في كل مكان عبارة صوتية متشابهة ترتكز على نظام موحد للأفعال.



● (١) امرأة من الشلوكيين (صورة من محفوظات ما وراء البحار).

● (٢) امرأة من الشلوكيين، قروب غارووا — بولاي (تصوير هوا — كوي).

● (٣) فتاة من الفلانيين، مالي (تصوير أ. أ. أ. نود).



وبالعكس في سهوب السودان، يبدو ان الشعوب الناطقة بلغات ذات اصناف اسمية، يلعب فيها ارتفاع الصوت دورا مهما، قد ساكن بعضها بعضا مدة طويلة. وكلما ازدادت الصحراء جفافا انزوت هذه الشعوب متنقلة الى مناطق أشد رطوبة: الجبال في الشمال ووادي النيل شرقا والبحيرة الكبرى في تشاد القديم جنوبا، وعروض هذه الجماعات من الصيادين الرعاة الشعوب الاهلية الذين توغلوا نحو الجنوب داخل الغابة أودائرين بها من جهة الشرق. ودون أن تكون هذه الهجرات مقترنة ببداية انتشار الحديد فانها كانت تجري لصالح القادمين الجدد، وقد كانت لهم براعة في صناعة المعادن. واتفق ان حددت المناجم وعمل النحاس القديم بالمنطقة ذاتها التي اليها أشارم. كثري كبرورة المجال البانتوحيث تشتمل اللغات اللوبا والهمبا على أكبر نسبة من الكلمات المنتمة للمعجم «المشتركة بين كافة اللغات البانتو».

وكان من شأن ازدهار صناعة النحاس هذه، ان دفعت بانتشار لاحق للحضارة وكلما ابتعدنا من البؤرة المشار اليها، انتقص صفاء النموذج اللساني البانتو، اذ كلما تم ذلك اختلط الناطقون بالبانتو اختلاطا أكبر بالشعوب المستعملة للغات الأخرى.

وهذا المثال الدقيق يدلنا على أنه لا يجب الخلط بين مفاهيم اللغة والنموذج الانثروبولوجي والحضارة، بل انه حسب تشيع القارة ببطء بهذه الموجات البشرية المتنوعة فان نوع الانتاج كثيرا ما كان يصلح كوسيلة أساسا للتوسع اللغوي، بل وتغلب ذلك الوجه البيولوجي او غيره.

الفصل الثاني عشر

القسم الأول

تصنيف لغات افريقيا

ج. هـ. غرينبرغ

ان عدد الطرق التي يمكن أن تصنف بها اللغات، كغيرها من سائر الأشياء، لا نهاية له. على أنه ينبغي أن نضع على حدة طريقة خاصة، تسمى طريقة التصنيف الوراثي، لها صفات فريدة مهمة، مما يجعلنا إذا استعملنا لفظ «التصنيف» بدون تدقيق فيما يخص اللغات، انما نلمح الى هذا النموذج من التصنيف. وعليه فان هذه الطريقة هي التي سوف تكون دعامة التصنيف المفصل المعروض في الأقسام الأخيرة من هذا الفصل.

طبيعة تصنيف اللغات وأهدافه

يلوح التصنيف الوراثي في شكل سلسلة من وحدات مرتبة، لها من التنظيم المنطقي ما للتصنيف البيولوجي الذي يقسم الى أنواع وأجناس وأسر الخ. حيث يكون كل مستوى من السلسلة مشمولا ضمن عناصر المستويات العليا. وفي الامكان أيضا أن يعرض في صورة شجرة نسب. فاذا ما كان للغات جد مباشر مشترك على شجرة النسب، فذلك يعني أن الشأن هو نهايات ميزها التطور مما كان في التقديم لهجات من لغة واحدة. ويمكن أن نوضح هذا التصنيف بواسطة مثال مشهور جدا مثال الهندية — الاوربية. واذا لم يثبت بعد أن الهندية — الاوربية كانت تنتمي الى جمع أوسع فستكون هي مستوانا الاعلى.

تقسم الاسرة الهندية الاوربية الى عدة فروع من بينها الجرمانية والسلتية والسلافية والهندية الايرانية، وهذا يؤول الى القول بأن المجموعة اللسانية الاصلية الهندية الاوربية قد تفرعت الى عدد من

اللهجات الجرمانية، السلتية الخ. والجرمانية، بدورها، تنقسم إلى ثلاث لهجات، الغوطية والجرمانية الغربية والسكندنافية.

أما الغوطية فانقرضت، ولكننا نعرفها من خلال وثائق قديمة. بينما انقسمت الجرمانية الغربية إلى إنكليزية فرزية، والمانية سفلى متأخرة والمانية عليا قديمة، ويكون كل من هذه الأخيرة مجموعة من اللهجات المحلية، يكون البعض منها قاعدة لغات موحدة الانماط مثلا: الألمانية (لهجة المانية عليا) النيرلندية (لهجة المانية سفلى) والإنكليزية (لهجة إنكليزية فرزية).

وقد قيمة هذه التصنيفات المبنية على هذه المبادئ أنها أولا تعكس التاريخ الواقع للتميزات العرقية في ميدان اللغة، ثم أنها تكون الأساس اللازم لتطبيق ما لللسانيات المقارنة من أساليب، ذلك الأساس الذي يمكن من إعادة بناء الجزء الكبير من التاريخ اللساني بمختلف المجموعات. وأخيرا إن معرفة التاريخ اللساني توفر عناصر لا بد منها للاستنتاجات المتعلقة بتاريخ الثقافة الغير اللسانية للمجموعات المعنية.

تاريخ تصنيف لغات افريقيا

من الواضح أنه لولا مجموعة كافية من المعطيات التجريبية عن اللغات في إفريقيا لما أمكن السعي في تصنيف كامل هذه اللغات. ففي بداية القرن التاسع عشر فقط أمكن الحصول على عدد كاف من المعطيات للقيام بأول محاولة للتصنيف، على أنه، قبل ذلك تمت بعض الملاحظات حول التصنيف تبعا لجملة من الأحداث يمكن ضبطها في بداية القرن السابع عشر، تلك الفترة التي ظهرت فيها كتب النحو الأولى والمعاجم للغات إفريقيا (١). فلاحظ مثلا لويس موربانو في بداية القرن السابع عشر أن لغة المرينا «شبيهة بالملاييزية» مما يدل بصفة شبه قطعية على أن السكان الأولين قدموا من «مواني مالكا» (٢).

وحوالي الفترة نفسها، سجل بعض الباحثين البرتغاليين، الشبه الموجود بين لغات الموزمبيق على الساحل الشرقي لإفريقيا ولغات أنغولا والكنغو في الغرب، مما فتح المجال إلى تصور للغات البانتو المنتشرة على معظم الثلث الجنوبي من القارة. ويمكن أيضا أن نذكر وصف الكيز والامهرية من قبل جوب لودلفوس، في القرن السابع عشر، فابان هذا الوصف قرابة بين اللغات الأثيوبية والعبرية والآرامية والعربية.

ولم يشاهد القرن الثامن عشر سوى إضافات زهيدة إلى معرفتنا باللغات الإفريقية، ولكن، حوالي نهاية هذه الفترة، نلاحظ أن الفكرة الأساسية للتصنيف الوراثي أخذت تبدو في شكل فرضيات متميزة حول وجود بعض الأسر اللغوية، وكانت هذه الفرضيات هي التي كانت في القرن التاسع عشر الأساس لتطور اللسانيات كعلم تاريخي مقارن.

(١) زيادة الاشارات عن تاريخ اللسانيات الإفريقية أنظر س. م. دوك ود. ت. كول ١٩٦١، ص ١٢٩. د. ت. كول ص ١ - ٢٩، ١٩٧١. توجد أحيانا بعض الالفاظ من لغات إفريقية في مؤلفات القرون الوسطى، أنظر في هذا الشأن م. دولافوس، ١٩١٢ - ١٩١٤، ص ٢٨١ - ٢٨٨. وس. ماينوف ١٩١٩ - ١٩٢٠، ص ١٤٧ - ١٥٢.

(٢) رحلة استكشافية إلى جزيرة سان لوان سنة ١٦١٣ - ١٦١٤، مخطوط برتغالي نشرت ترجمته الفرنسية عند أ. ج. كرانديبي ١٩٠٣ - ١٩٢٠، ص ٢٢.

ان كسب تاريخ اللسانيات تذكر عادة تصريحاً لويليام جونس سنة ١٧٨٦ كحدث حاسم في هذا التطور، وكانت الآراء منتشرة في الجو كما يدل على ذلك، قبل ذلك بخمس سنوات، إذ أن مرسدن صرح بصورة واضحة على الأقل، بفرضية مشابهة في شأن اللغات الماليزية — البولينيزية، بينما كان جيارماني يقوم بعين العمل بالنسبة الى اللغات الفنية الاوغرية.

وتتبع هذا التطور هوية حقيقية لجمع مواد المقارنة في عدد كبير من اللغات، وأول مصنف من هذا النوع كتاب «معجم مقارني للغات العالم كله» لسنة ١٧٨٧ وقد شجعت عليه الامبراطورة الروسية كاترينا العظمى، وكان يشمل معطيات عن ثلاثين لغة افر يقية، في طبعته المنقحة سنة ١٧٩٠ — ١٧٩١.

وفي بداية القرن التاسع عشر لوحظ تسارع واضح الى انتاج كتب النحو والمعاجم في اللغات الافريقية، كما شهد نشر قوائم مقارنية من الكلمات من عدد كبير من اللغات الافريقية، كقوائم كلهام (١٨٢٨) نوريس (١٨٤١) وكلاكرك (١٨٤٨) (٣) وأهم هذه القوائم، من بعيد، من حيث محتواها ومن حيث الطابع المناهجي لتنظيمها ولرموزها الصوتية، الكتاب الدراسي «تعدد اللغات الافريقية» ووضعه س. و. كوال (٤) في فريتاون (سيراليوني).

ان تجمع هذه المعطيات في الجزء الأول من القرن التاسع عشر واكب المحاولات الأولى لتصنيف المجموع، كمحاولة بالي ومحاولة بر يشاردي في الطبقات المتوالية لكتاب «بحث عن التاريخ الطبيعي للبشرية» (٥).

ورغم بعض الفروق في الجزئيات، قد برزت استنتاجات تم تقبلها عامة أثناء النصف الاول من القرن التاسع عشر وتحمل بعضها بنجاح محنة التجارب الموالية، وكان للبعض الآخر على الأقل مزية اشارة المسائل التي عمل المصنفون المتأخرون على حلها. ويمكن تلخيص النتائج المتجمعة سنة ١٨٦٠ فيما يلي:

— ان لفظ «سامسي» الذي أدخله شلورز سنة ١٧٨١ كان له تقريبا معناه الحالي (٦) وقد ثبت وجود فرع اثيوبي لهذه الاسرة يشمل الكيز (الاثيوبي الكلاسيكي) واللغات العصرية كالامهرية والتغرينا

— قد لوحظ منذ ذلك العهد تشابه وقاربة بين بعض اللغات الأخرى وبين السامية. وكانت هذه اللغات، المصرية القديمة والبربرية واللغات الكوشية، وكان يتكلم بهذه الأخيرة خاصة في اثيوبيا وفي بلاد الصومال. وأقحم بعض المصنفين الهوسا في افر يقيا الغربية في هذا الصنف، وسميت هذه اللغات أحياناً باسم «السامة الفرعية» ولفظ الشاميتية استعمله رينان سنة ١٨٥٥ (٧).

(٣) هر. كلهم، ١٨٢٨، أ. نوريس، ١٨٤١، ج. كلاكرك، ١٨٤٨، ص ١٠٤.

(٤) س. و. كوال، ١٩٦٣.

(٥) أ. بالي، نتج. أ. هريس الطبعة الأخيرة من بر يشاردي وزاد فيها، ج. س. بر يشاردي ١٨٥٥.

(٦) أ. ل. فون شلورز القسم ٨، ١٧٨١، ص ١٦١.

(٧) ر. رينان، ١٨٥٥، ص ١٨٩.

— يعزى الى ليختنشتاين فضل التمييز الواضح ، لأول مرة، بين لغات افريقيا الجنوبية، لغات خوي وسان من جهة، ولغات بانتو من جهة أخرى (٨).

وقد تم التعرف بوضوح، منذ تلك الفترة، على هذه المجموعة الأخيرة، من اللغات الوثيقة القرابة. وسموها أيضا أسرة الكافر أو أسرة اللغات الافريقية الجنوبية. ولفظ بانتو هو مشتق في عدد كبير من هذه اللغات من أصل معناه الرجال، قد عرضه و. هـ. أ. بليك الذي وضع سنة ١٨٥١ أسس الدراسة المقارنة للغات البانتو، وهذا اللفظ مستعمل منذ ذلك الوقت وحتى اليوم من قبل كل الناس.

— بقيت مجموعة كبيرة من اللغات تشمل معظم اللغات المستعملة في السودان الغربي والشرقي، ولم يكن في الامكان أن تصنف ضمن المجموعة المذكورة أعلاه، كالمجموعة التي لم تكن سامية ولا شاميكية ولا سانا ولا بانتو. وكانت عموما تسمى لغات «زنجية» وفيها يتمثل أكبر مشكل للمصنفين، فاعترف نوريس في تنقيحه لكتاب بر يشارد سنة ١٨٥٥ انها «فلتت من التصنيف» وأن «السود اعتبروا حتى ذلك المكونين لعرق، لأسباب فيزيولوجية أكثر منها لغوية» ؟ (٩).

ورغم كون التصنيفات العامة للغات الافريقية حتى وقت قريب قد فصلت لغات البانتو تماما عن اللغات المسماة «زنجية»، فإن بعض الملاحظين سجلوا أن بعض اللغات المعتبرة «زنجية» أو الكثير منها، ولا سيما في افريقيا الغربية، تظهر قرابته مع مجموعة البانتو. ويبدو أن أول من لاحظ ذلك القس و. أ. فيدال في مقدمته لنحويرو با لصامويل غروثر (١٠) وأعطى بليك للفظ «بانتو» حدا عاما مفسحا لتطبيقه على معظم افريقيا الغربية حتى الدرجة الثالثة عشرة من خطوط العرض الشمالية، من السنغال الى النيل الأعلى (١١). وأعيد القول بهذه الفكرة الاساسية بعد ذلك بكثير، في شكل منقح، من قبل وسترمان، وبكيفية أوضح من قبل غرينبرغ في التصنيف الذي صار اليوم أمرا عاديا.

— لوحظ منذ القرن السابع عشر — كما أشرنا الى ذلك — ارتباط المرينا باللغة الماليزية البولينية وبذلك انعدمت قرابتها باللغات الافريقية وأذعن الى ذلك الجميع.

امتازت عشرية ١٨٦٠ بالتصنيفين التامين اللذين نشرنا خلاصتهما واللذين سادا هذا المجال حتى حوالي ١٩١٠. وأولهما تصنيف ليسيوس وظهر في طبعين أحدهما سنة ١٨٦٣ والاخرى سنة ١٨٨٠ (١٢) وثانيهما تصنيف فريدريك مولر وعرض أيضا في طبعين سنة ١٨٦٧ وسنة ١٨٨٤ (١٣) وكان كتاب مولر أساسا للدراسة المهمة التي قام بها ر. ن. كوست والتي ساهمت في نشر أعماله في البلدان الناطقة بالانكليزية. ودراسة كوست مصدر نفيس جدا فيما يخص بيبيلوغرافيا اللسانيات الافريقية حتى تلك الفترة.

(٨) هـ. ليختنشتاين، ١٨١١ — ١٨١٢.

(٩) ج. س. بر يشارد. المصنف المذكور جلد ١، ص ٤٢٧.

(١٠) و. أ. فيدال، عند غروثر، ١٨٥٢.

(١١) و. هـ. أ. بليك، ١٩٦٢ — ١٩٦٩، جلد ٨، ص ٨.

(١٢) ر. ليسيوس ط. ٢، ١٨٦٣، ١٨٨٠.

(١٣) ف. ملر، ١٨٦٧، ١٨٧٦ — ١٨٨٤ عن اللغات الافريقية انظر مجلد ١، ٢ (١٨٧٧) ومجلد ٣، ١ (١٨٨٤).

وأخرج ليسيوس ومولر في تصنيفهما المرينا كلغة غير إفريقية، وفيما عدا ذلك فإن أهم مشكل شغل بالهما هو مشكل اللغات «الزنجية» ووضعها بالنسبة إلى البانتو، إذ ثبت أن هذه هي المجموعة الوحيدة الفسيحة من اللغات التي تنطق بها الشعوب السود. وكان للاعتبارات العرقية دور مهم في هذين التصنيفين، لكن بأساليب مختلفة.

اتخذ ليسيوس قاعدة لتصنيفه معيار فئات الأسماء. وهي فكرة مستمدة من عمل سابق لبليك (١٨٥١) (١٤)، فقد تأثر هذا الأخير بما كان يعتبره فرقا أساسيا بين لغات البانتو التي كان لها نظم مشعبة من أصناف الأسماء، لا دور للجنس فيها، وبين اللغات السامية والشامية التي يوجد فيها تمييز بين الجنسين يعتمد على العضو الجنسي كميبدأ لتصنيف الأسماء، وبناء على هذا المعيار صنف بليك الحوي خوي ضمن اللغات الشاميّة إذ يوجد فيه تمييز الجنس، ولو أن معظم الخصائص الأخرى تقربه من لغات سان.

وانطلق ليسيوس من الفكرة العامة عند بليك واعتبر من بين اللغات التي ينطق بها الأهالي السود، أن البانتو، بموجب تصنيفه للأسماء غير المعتمد على الجنس، هي اللغة الأصلية بينما تهجن سائر اللغات بتأثير اللغات الشامية. وهو يصنف اللغات إلى أربع مجموعات (١) البانتو (٢) الزنجية المختلط (٣) الشامي (٤) السامي على أنه يوجد قسمان أساسيان: أ — لغات البانتو، والزنجية المختلطة (لغات ذات أصناف اسمية).

ب — اللغات السامية والشاميّة (لغات ذات جنس). وفي النهاية لا بد أنه من الممكن أن يبين أن هذه الأخيرة لها قرابة بالهندية الأوروبية التي هي بدورها لها تمييز يعتمد على الجنس. وفعلًا فإنه يضم الهندية — الأوروبية والسامية والشاميّة في أسرة واحدة يسميها «النوحية» لها ثلاثة فروع تقابل أبناء نوح الثلاثة: سام وشم و يافت. وهو يصحح بوضوح أن اللغات ذات الجنس هي العليا. «على أنه يبدو مما لا شك فيه، أن الفروع الثلاثة الكبيرة من اللغات ذات الجنس، لم تكن فحسب في الماضي مستودع السر التاريخي للحضارة البشرية وأعضائها، بل أيضا أنه عليها هي، وخصوصا على فرعها الأحدث، ألبافيتي، يرتكز أمل العالم المقبل» (١٥).

والقرابة الفكرية بين «النظريات الشاميّة» واضحة، من بليك إلى نظريات ماينوف المتأخرة مرورًا بنظريات ليسيوس.

وفي كتاب مؤرّك الشامل المنشور سنة ١٨٨٤ صنف لغات العالم المعروفة حسب الفرضية القائلة بوجود علاقة أساسية بين اللغة وبين التوزيع البدني للناطقين بها. وأقسامه الرئيسية: «لغات الشعوب ذات الشعر الصلب» و«لغات الشعوب ذات الشعر الجعد» الخ، وتؤدي هذه الفرضية مثلا إلى تصنيف الحوي خوي لا مع الشاميّة كما فعل ليسيوس، ولكن مع البابو ضمن لغات العروق ذات الشعر الصوفي، ومعظم اللغات «الزنجية» وزعت إلى اللغات الزنجية الإفريقية والبانتو. وفرضه في هذه النقطة معاكس تماما لفرضية ليسيوس، إذ هو يعتبر أن بعض اللغات الزنجية الإفريقية تمثل التوزيع الأصلي وأن البانتو مشتق منها و يعتبر أن بعض اللغات المستعملة لدى الأهالي السود تنتمي

(١٤) و. ه. أ. بليك، ١٨٥١.

(١٥) ليسيوس، ١٨٨٠، ص ٩٠.

الى مجموعة متقدمة عليها ثقافيا تقدما كبيرا وهي المجموعة المسماة نوبا فوله، و يقارن الناطقون بهذه اللغات بدنيا بأهالي البحر الأبيض المتوسط وبالدرافيديين وهم مصنفون من بين الشعوب ذوي الشعر المجعد. وفي نشر آراء مولر من قبل كوست يجعلها في متناول قراء اللغة الانكليزية صنف لغات افريقيا الى ست مجموعات، ١ - السامية ٢ - الشاميتية ٣ - النوبا فوله ٤ - الزنجية ٥ - البانتو ٦ - الحويسان.

وبقيت مسائل التصنيف معلقة مدة من الزمن، وتمركز الاهتمام على العمل العلمي العظيم المتمثل في وصف اللغات الافريقية. وفتح مصنف وسترمان عن اللغات السودانية (١٩١١) وكتاب ماينهوف عن اللغات الشاميتية (١٩١٢) الباب الى الفترة العصرية (١٦)

وأول هذين المصنفين، و يبدو أن فكرته الأساسية مستوحاة من ماينهوف، قد أدخل لفظ «السوداني» وكان يشمل تقريبا كل اللغات في افريقيا الغير التابعة للمجموعة السامية والشاميتية (بالمعنى الفسح الذي أعطاه اياها ماينهوف) والسان. وهو يعني بذلك أساسا كل اللغات التي كانت في ما قبل تسمى «لغات زنجية». واختار وسترمان من بين هذه المجموعة الفسيحة ثمانية لغات (ولا يقدم أبدا قائمة كاملة) خمس منها من السودان الغربي وثلاث من السودان الشرقي، وحاول أن يوجد القرابة بينها بواسطة سلسلة من الاشتقاقات ومن الصيغ القديمة بعد أن ركها من جديد.

وقام ماينهوف، وقد اشتهر من قبل بمصنفة الأساسي عن الدراسة المقارنة للبانو، بمحاولة في كتابه عن اللغات الحامية، ليفسح حدود الاسرة الحامية الى ما وراء ما كان مسلما به عادة، فأقحم فيها لغات كالفلسفلدية والماساي والحوي خوي (متبعا في هذا لپسيوس) مستندا أساسا الى معيار الحسن. و يبرز هذا الكتاب بوضوح اعتقاده بتفوق العرق «الحامي» (١٧).

ويبرز إذن من عملي ماينهوف وسترمان، اذا جمعناهما تقسيم الى خمس مجموعات (السامي والحامي والسوداني والبانتو والسان) ونشرت هذه الاستنتاجات في البلدان الناطقة بالانكليزية، نشرتها اليس و يرنر وصارت القاعدة في كتب الانتروبولوجيا واللسانيات (١٨).

وقد وقع الرد على هذا التصنيف منذ الفترة التي ساد فيها (حوالي ١٩١٠ - ١٩٥٠) ولو أن النقد لم يبرز في الكتب المعهودة فقد أتى الأهم منه من وسترمان نفسه، في دراسته الجليلية سنة ١٩٢٧ عن اللغات السودانية الغربية (١٩)، ففي هذا المؤلف يقصر تصوره السابق عن اللغات السودانية على لغات غربي افريقيا، وصار يميز بواسطة وثائق معجمية ونحوية مفصلة، بين عدد من المجموعات الفرعية المتخصصة ضمن السودانية الغربية (مثلا الاطلسي الغربي وكوا وجور). وأشار وهذا أشد أهمية - الى أوجه شبه جزئية من حيث المعجم ومن حيث البنية النحوية بين السودانية الغربية والبانتو، ولكنه لم يقل بالقرابة بينها بكيفية صريحة: فكان السر هنري جوستون في كتابه الواسع عن

(١٦). د. وسترمان ١٩١١، س. ماينهوف ١٩١٢.

(١٧) صارت الفرضية الحامية قاعدة متقدمة للتفسير الثقافي والتاريخي. أنظر عن هذه المسألة. إ. ر. صندر، ١٩٦٩، ص ٥٢١ - ٥٣٢.

(١٨). ل. ورنر ١٩١٥، و ١٩٣٠.

(١٩). د. وسترمان، ١٩٢٧.

البانتو ونصف البانتو هو الذي رأى أن كثيرا من اللغات في افريقيا الغربية لها قرابة بالبانتو (٢٠) وهي التي كان يشير إليها بتعبيره «نصف بانتو». على أنه استمر على الأخذ بالمعيار النموذجي للأصناف الاسمية، بحيث اذا كانت لغتان وثيقتي القرابة وكان لواحدة فقط أصناف اسمية، فهي التي تعتبر نصف بانتو بينما الأخرى ليست كذلك.

ومجدد أن نشره باختصار الى تصنيفات أخرى في الفترة ١٩١٠ - ١٩٥٠ لم يشتهر منها سوى تصنيف دولافوس. وأحد هذه التصنيفات اقترحه أ. دريكسل، فحاول أن يظهر علاقة بين أسر اللغات في افريقيا والثقافات، وكانت هذه العلاقة موضوعة كمبدأ مسلم به من قبل دارسي الثقافة الألمان. وخلافا للباحثين الألمان في هذه الفترة، جعل الباحث الفرنسي دولافوس الإخصائي في الدراسات الافريقية «الحامية» محدودة في البربرية (٢١) والمصرية والمكوشيتية واعتبرت سائر اللغات الأخرى الغير السامية أو الخويسانية كأسرة كبيرة زنجية افريقية (٢٢) فعلاوة على الفروع الستة عشر المتبقية من غير البانتو، وقد حدد كثيرا منها بناء على معايير جغرافية أكثر منها لسانية، يبدو أن دولافوس اعتبر أنه يجب أن يكون البانتو ضمن اللغات الزنجية الافريقية، وما زالت بعض المصطلحات التي استخدمها دولافوس مستعملة بين علماء الدراسات الافريقية الناطقين بالفرنسية. ويجب أيضا أن نذكر الآنسة مبركر التي انطلقت من فكرة الوحدة اللسانية الافريقية، لكن بصورة أفسح، فامتخذت نظرية المصدر المصري كتفسير لهذه الوحدة بل، بقطع النظر عن التضارب، نظرية الاشتقاق البعيد انطلاقا من لغات درايفيدية هندية (٢٣).

وسنة ١٩٤٩ - ١٩٥٠ حدد صاحب هذا الفصل، في سلسلة من المقالات المنشورة في المجلة الجنوبية الغربية للأنثروبولوجيا، تصنيفا كان جديدا من عدة وجوه وتم التسليم به نهائيا بصفة عامة (٢٤). وكان هذا التصنيف يخالف التصنيفات السابقة في عدة نقاط. فكان ورأيا تماما بالمعنى المحدد في مقدمة هذا الفصل، فيعتبر أوجه الشبه المتعددة بين مجموعات اللغات أوجها قطعية، فهي تتعلق في آن واحد بالصوت وبالمعنى، سواء كان الشأن درس الجذور (للمعجم) أو المركبات النحوية.

فكانت التشابهات المتعلقة بالصوت فقط، كوجود التبرات مثلا أو المتعلقة بالمعنى فقط، كوجود الجنس النحوي دون مطابقة في الأشكال الصوتية للخواص، غير مقنعة.

(٢٠) هـ. جونسون، ١٩١٩ - ١٩٢٢.

(٢١) أضيف هذا التعليق بطلب من عضوين للجنة: إن هذا التصنيف ليس فحسب مما كنا لآراء الباحثين الألمان، ولكنه معاكس فعلا للحقيقة العلمية المحضة. لقد اكتشف علماء اللسانيات بافريقيا الشمالية الطلل السياسية التي دفعت المدرسة الاستعمارية الفرنسية لعلماء البربرية، الى تصنيف اللغة البربرية ضمن اللغات السامية الشامية، والواقع أن البربرية لغة سامية بل هي من أقدم اللغات السامية، ولها علاقات وثيقة جدا مع الأكادية والعبرية. فليست إذن حامية سامية ولا أفروآسيوية كما سبق أن قيل في هذا الفصل. أنظر خاصة بالعربية م. القاسبي: البربرية شقيقة العربية، مجلة مجمع القاهرة ١٩٧١.

(٢٢) م. دولافوس، ١٩٢٣ ص ٤٦٣ - ٥٦١.

(٢٣) ل. مبرجر ١٩٤٩.

(٢٤) عن النسخة الحديثة من تصنيف كريبرك أنظر ج. هـ. كريبرك. وتوجد ببليوغرافيا للمؤلفات التي ناقشت هذا الموضوع لدى د. وستن: تصنيف غرينبرغ للغات الافريقية دراسات عن اللغة الافريقية، مجلد ٧، ١٩٦٦، ١٦٠ - ١٧٠ ولوجه نظر أخرى، أنظر الفصل ١١ للأستاذ الدروج.

وكانت هذه الصفات النموذجية كما شاهدنا تلعب دورا مهما في التصنيفات السابقة. فوجود الجنسين مثلا، الذكر والمؤنث لم يكن وحده يعتبر حجة قرابة، إذ أن هذا التمييز للجنس قد يظهر ويظهر فعلا بكيفية مستقلة في أجزاء مختلفة من الدنيا. وبالعكس فإن وجود حرف ك كعلامة للتأنيث في كل الفروع الأفروآسيوية (حامية - سامية) إشارة إيجابية للقرابة. كما أن انعدام التمييز للجنس بفقدان النوع ليس في حد ذاته حجة سلبية.

وبصفة عامة، فإن هذه المبادئ من المسلم بها في المجالات التي استقرت فيها الأساليب المقارنة، مثلا في الهندية - الأوربية، الفارسية والآرامية والحثية على الخصوص لا تميز بين الجنسين، بينما نجد تميزا لذلك في معظم اللغات الأخرى من هذه الأسرة.

ثم إن التصنيفات القديمة، كتصنيف ليسيوس، لم تستند ولم تدل بأي حجة مادية لجمعها في تصنيف واحد. وسترمان في كتابه عن السودانية أعطى الاشتقاقات إلا أنه اقتصر على ثماني لغات من بين مئات منها، والمصنف الوحيد الذي أتى بالحجة مفصلة قبل سنة ١٩٥٠، وهو كتاب لوسترمان عن السودانية الغربية، ولم يعين إلا بجزء من إفريقيا..

وفي تصنيف صاحب هذا الفضل قدمت اشتقاقات وخصائص نحوية مشتركة الميزة بالنسبة لكل المجموعات المهمة، بناء على دراسة استقصائية للأدب.

وأهم المقترحات المادية، وقد أثار بعضها جدالات عنيفة هي الآتية:

- تنقيص قرابة البانتو مع السودانية الغربية حسب معطيات وسترمان، فصير البانتو لا قرعا متميزا من هذه الأسرة الفسيحة، بل مجموعة فرعية مما سماه وسترمان المجموعة الفرعية بينوي - كنغو (نصف البانتو) من فرع السودانية الغربية. ثم إن عددا كبيرا من اللغات المستعملة جهة الشرق (فرع اداماوا الشرقي) ينتمي الى هذه الأسرة التي صار لها اسم جديد النيجر - كونغو.

- من بين امتدادات الحامية التي اقترحها ماينوف بقيت واحدة فحسب هي الهوسا. ثم إن الهوسا ما هي إلا عنصر من فرع أفسح (التشادي) من الحامية السامية، والسامية مقنحة فيها إلا أنها ما هي إلا فرع في رتبة سائر الفروع. فتصير الحامية أفروآسيوية للفروع غير السامية من أسرة أفسح تسمى اليوم أفروآسيوية، ويبدو أنها تشمل خمسة فروع: (٢٥) ١ - البربرية ٢ - المصرية القديمة ٣ - السامية ٤ - الكوشيتية ٥ - التشادية.

- واللغات «الزنجية» التي لم تدخل ضمن المجموعة نيجر - كنغو قد صنفت في مجموعة أخرى كبيرة سميت النيلي - الصحراوي.

- كان الخوي خوي مصنفًا كلفة سان، وينتمي الى المجموعة الوسطى من الخويسان في إفريقيا الجنوبية.

والنتيجة العامة هي أن لغات إفريقيا ما عدا (المرينا) صنفت الى أربع أسر رئيسية توصف في الأقسام التالية، وخصص كل قسم بالتفصيل لكل أسرة من هذه الأسر (٢٦) وسيدكر العرض

(٢٥) ج. لوكا، ١٩٣٨، ص ٢٨٦ - ٢٩٩، ج. ركهان، ١٩٤٧.

(٢٦) توجد قوائم من اللغات أكثر تفصيلا مما هو ممكن في مثل هذا الفصل في غرينغ، المصدر المذكور، وفي مجلدات السلسلة، كتاب الجيب لللغات الأفريقية نشرها المعهد الدولي الإفريقي في لندن، وفي فوكالين (س. ف. وق. م.): فهرس لغات الدنيا، واشنطن، ديوان التربية، مكتب البحث، ماي، ١٩٧٣، ٦ أجزاء.

الآتي، عند الحاجة، المقترحات الحديثة التي تعدل محور أو توسع مجال التصنيف الأصلي، وكذلك الانتقادات الموجهة له في المحتوى.

اللغات الافروآسيوية (٢٧)

هذه اللغات المدعوة أيضا حامية سامية تمتد على كامل افريقيا الشمالية وتقريبا على كامل القرن الشرقي الافريقي (اثيوبيا، الصومال) وبعض اللغات من فرعها الكوشيتي نحو الجنوب حتى طانزانيا، ثم إن الفرع السامي يشمل لغات تغطي اليوم أو غطت في الماضي كل الشرق الاوسط تقريبا.

وتعتبر الافروآسيوية عامة مشتملة على خمسة فروع متساوية التميز تقريبا: البربرية (٢٨) المصرية القديمة، السامية، الكوشيتية والتشادية. على أن فليمنج يقدم مؤخرا بما مفاده، أن من بين اللغات المصنفة حتى الآن ضمن الكوشيتية الغربية مجموعة تضم الكافا وعدة لغات من الجنوب الغربي في اثيوبيا تكون في الواقع فرعاً سادساً، اقترح لها اسمي: الاوموتي وآري ياناً (٢٩).

ويعرض الفرع البربري من الافروآسيوية من التفرعات الداخلية أقل مما تعرض سائر فروع هذه الاسرة ماعدا المصرية، وأهم تقسم له يندوبين لغات مختلف المجموعات الطوارق في الصحراء وبين البربرية الحق المتكلم بها في افريقيا الشمالية وفي موريتانيا. ومن المحتمل ان لغة الفوانش التي انقرضت من الجزر الخالدات، كانت تنتسب الى البربرية. ثم انه يجدر أن نذكر ما يوجد من نقوش بالليبية القديمة لم تفهم تمام الفهم، ولعلها تكون شكلاً سابقاً للبربرية.

ويشهد على فرع ثان من الافروآسيوية، وهو فرع المصرية في أقدم فترة له، نقوش بالمهيروغليفية وبرديات كهنوتية (هيراظيقية)، وأخيراً، وثائق بكتابة شعبية (ديموطيقية). وتسجل كل هذه الكتابات نفس اللغة المتكلم بها، وفي العهد المسيحي تواصل التكلم بهذه اللغة، فانتجت أدباً جليلاً كتب بالالفبائية مقتبسة من الالفبائية اليونانية. وفي هذا الشكل المتأخر المدعو بالقبطية، وجدت عدة لهجات أدبية، منها البحرية وهي مازالت باقية كلغة دينية طقسية في الكنيسة القبطية. وبعد فتح العرب لمصر، تقلص ظل اللغة المصرية شيئاً فشيئاً. ومن المحتمل أنها انقرضت كلغة تخاطب في القرن السابع عشر الميلادي.

وأما الفرع السامي من الافروآسيوية ففيه من الفروق الداخلية أكثر مما في البربرية أو العصرية. ومن المسلم به عامة أن أهم تقسم لها هو وجود سامية شرقية وسامية غربية. ولا يمثل الأولى سوى الأكادية المكتوبة بالخط المسماري. وقد انقرضت منذ عهد بعيد، وكان لها لهجتان جهويتان أساسيتان، هما البابلية في الجنوب والآشورية في الشمال. وتقسم السامية الغربية بدورها

(٢٧) ذكر البحاثون الافارقة في لقاء القاهرة عن «عصران مصر القديمة» ان الأستاذ غرينبرغ كان أغفل في تصنيفه مطاة رئيسية: وضع القواعد الصوتية. وكان موقفهم هو موقف الأستاذ استفان فودور. وقدم هؤلاء البحاثون الافارقة حججاً تدل على القرابة اللسانية الروائية بين المصرية القديمة واللغات الافريقية المعاصرة.

(٢٨) انظر تعليق رقم ٢١.

(٢٩) ه. س. فليمنج ١٩٦٩، ص ٣-٢٧.

الى سامية الشمال الغربي وسامية الجنوب الغربي. وتشمل الاولى الكنعانية (عبرية، موابية، فينيقية ومن المحتمل اغاريتية) والآرامية. ولم يبق من هذه اللغات سوى العربية وقد تم احياؤها خلال القرن الفائت كلفة لاسرائيل وبعض اللهجات الآرامية. وتمثل الأشكال المعاصرة من الآرامية أحفاد الآرامية الغربية، بالجبل المقابل لجبل لبنان في سوريا. والآرامية الشرقية في العراق الشمالي. وللسامية الجنوب الشرقي أيضا فرعان، فرع الشمال وفرع الجنوب، ويشمل الأول معظم اللهجات المعروفة في الجزيرة العربية، واللهجات العصرية السائدة في منطقة فسيحة تشمل شمال افريقيا والشرق الاوسط وبعض اجزاء السودان وهي اللغة العربية الحق. وفرع الجنوب يشمل عربية الجنوب من جهة ولغات اثيوبيا السامية من جهة أخرى، وعرفت العربية الجنوبية في أشكالها القديمة من خلال نقوش كتابية منوية وسبائية وكتبانية وفي أشكالها العصرية المهرية والشهرية، في جنوب الجزيرة، والسوقطرية، لغة جزيرة سوقطرا في المحيط الهندي.

وتقسم اللغات السامية الاثيوبية الى مجموعة شمالية (تغرينيا، تيكرى، كازا وألأثيوبية الكلاسيكية) ومجموعة جنوبية (أمهرية وكوارج وأركبا وكافات وحرارية).

وأما المجموعة الرابعة من اللغات الافروآسيوية أي الكوشيتية فتشمل عددا كبيرا من اللغات تتوزع الى خمسة فروع قوية التميز: الشمالي والأوسط والشرقي والجنوبي والغربي. والكوشيتية الشمالية تشمل أساسا لغة واحدة، البجة، والوسطى تسمى أحيانا لغات أغاو. ومن المحتمل أنها في الماضي كان يتكلم بها على مساحة متصلة، ولكن الناطقين بها القدامى قد استعملوا بنسبة قوية اللغات السامية الاثيوبية وكان الفالاش أي اليهود الاثيوبيون في القديم يتكلمون بلغة أغاو. وتشمل اللغات الكوشيتية الوسطى على مجموعة شمالية (بيلين، خيرقنت) وعلى الآو يا في الجنوب. وتشتمل الكوشيتية الشرقية على اللغتين الكوشيتين اللتين يتكلم بها أكبر عدد من الناطقين وهما الصومالية والكللا. وتتوزعان على المجموعات الآتية: ١ - أفار سا هو، ٢ - الصومالية البيسو الرنديل، البوني، ٣ - الكلا، كنسو جيدي، اريوري، وزري، تساماي، جلابا، مو كوكودو. ٤ - سيدامو، ألأبا، دراسا، هاديا، كمباطا، برججي، ويمكن بدون شك أن يعتبر المجموعة الأخيرة أي «سيدامو - برججي» فرعا معاكسا للمجموعات الثلاث الأخرى. وتستعمل الكوشيتية الجنوبية في طانزانيا وتشتمل على البرنجي والكزوا والالوا والنكومفيا (أسو) والساني والمبوجو، وهذه المجموعة الجنوبية أقرب لسانيا الى المجموعة الشرقية منها الى سائر المجموعات، ومن الممكن جدا أنه ينبغي أن تعتبر مجرد مجموعة فرعية. وقد تأثرت لغة كوشيتية جنوبية، المبوجو، تأثرا قويا بالبابنتو، من حيث النحومون حيث المعجم، فيعتبرها بعض الباحثين لغة مختلطة.

وتختلف اللغات الكوشيتية الغربية اختلافا كبيرا عن سائر اللغات المعتمدة تقليديا كوشيتية. وعلى الأقل يجب تقسيم الكوشيتية الى مجموعتين، الغربية وغيرها. وكما ذكرنا أعلاه فإن فيلمنج اقترح أن تعتبر الكوشيتية الغربية فرع سادس متميز عن الافروآسيوية، ويمكن تقسيم اللغات الكوشيتية الغربية الى مجموعتين: الآري - بنا (وقد استعمل في الأدب القديم لفظ باكو عوضا عن آري) وغيرها. ويمكن تفريع هذه الأخيرة بدورها كما يلي: ١ - ملجي، ناو، مشيكو؛ ٢ - جنجيسرو؛ ٣ - كفا، موشا، شيناشا، ماو الجنوبي؛ ٤ - جيمسيرا؛ ٥ - المجموعة أوميتو

«سيداموغربي» و يضم الشار والمالي والبسكيو، المركب و يلامو والز ياس والكوري — جيديشو.

وأخر فرع من الافروآسيوية يجب اعتباره هو الفرع التشادي، و يتضمن الهوسا، أكثر اللغات انتشارا في افريقيا الغربية، ومن المحتمل على الأقل وجود مائة لغة أخرى يستعملها ناطقون بها، عددهم أقل بكثير، وقسمت اللغات التشادية عند غرينبرغ (١٩٦٣) الى تسعة مجموعات فرعية:

— (أ) الهوسا الغوندر، (ب) بيد نغيزم، (ج) ١ مجموعة ورجوا (البنشي الشمالي) ٢ مجموعة بروا (البنشي الجنوبي)، (د) ١ — مجموعة بلوا ٢ — مجموعة انكاس ٣ — مجموعة الرون، ٢ — مجموعة كوتوكو، ٣ — بشامرجي، ٤ — (أ) مجموعة مسغوي (ب) مجموعة مكتم، ٥ — جدر، ٦ — مندر، كامركو، ٧ — مسكو، ٨ — مجموعة ماسا بانا، ٩ — التشادي الشرقي (أ) مجموعة سمراي (ب) مجموعة كابري (ج) مجموعة سوكورو (د) منجل (هـ) توبوري (و) مجموعة موني.

وأوحى نيومن وما، أن من بين الاسرات الفرعية أعلاه عددي ٣ و ٦ متقاربان جدا، الواحدة من الأخرى، وكذلك الرقمان ١ و ٩. وهما يقترحان للأولين اسم بيومندارا وللآخرين اسم نجد — ساحل (٣٠) وهما لا يقترحان أي تبديل فيما يخص سائر المجموعات الفرعية.

النيجر الكردوفاني

تشمل هذه الاسرة فرعين مختلفي القيمة من حيث عدد الناطقين بها ومن حيث انتشارهما الجغرافي، فالفرع الأول، النيجر — كنغو يمتد على جزء كبير من افريقيا جنوبي الصحراء، يشمل تقريبا كل افريقيا الغربية، وعدة جهات من السودان الاوسط والشرقي، ويجزئه الألباني، معظم افريقيا الوسطى والشرقية والجنوبية، والفرع الثاني من النيجر الكردوفاني وهو الكردوفانية بالذات، محصور في منطقة محددة من جهة الكردوفان الكائنة بالسودان.

والتقسيم الاساسي في مجموعة النيجر — كنغو هو التقسيم بين لغات مندي وغيرها. فيتميز المندي من جهة بانعدام عدد من الوحدات المعجمية الموجودة في سائر لغات النيجر — كنغو، ومن جهة أخرى بانعدام كل أثر مؤثوق به من تصنيف الاسماء الموجود عامة في الكردوفانية وفي سائر لغات النيجر — كنغو. وبالطبع يوجد عدد كبير من هذه اللغات قد أضاع هذا النظام اضافة فردية. واقترح موكارفسكي بموجب هذا التخالف من قبل لغة مندي، ان تعتبر الاسرة الكبيرة الثانية من اللغات الزنجية، فرعا من النيلية الصحراوية، الا أن الخبير الشهير بلغات مندي ويليام أ. ولمرس لا يقبل هذا الاقتراح (٣١).

ومن المسلم به بالاجماع اليوم، هو أن التقسيم الداخلي للمندي الى مندي — طان ومندي — فو الذي اقترحه دولافوفس (٣٢) والمعتمد على اللفظ الدال على رقم العشرة هو تقسيم لا قيمة له. وتصنف لغات مندي كما يلي:

(٣٠) ب. نيومن ور. ما، ١٩٦٤، ص ٢١٨ — ٢٥١.

(٣١) هـ. غ. موكارفسكي، ١٩٦٦، ص ٦٧٩ — ٦٨٨.

(٣٢) م. دولافوفس، ١٩٩١.

— مجموعة الشمال الغربي: ١ — المجموعة الفرعية الشمالية وتشمل الليالونكا الفرعية والسونينكي والكوالا نومو، اللكي والوادي كونو والخصنكي والماننكا مبرا — ديولا؛ ٢ — المجموعة الفرعية الجنوبية الغربية: مندي — بندي، لوكولوما، كباتي.
مجموعة الجنوب الشرقية: ١ — المجموعة الفرعية الجنوبية، مانو، دان، توراء، فواء، نوا، كان، كوروا؛ ٢ — المجموعة الفرعية الشرقية: سامو، بيسا، بوسا؛ ولغة واحدة، السيا (بوفونكا) لا نجد لها محلا في هذا الجدول. وهي مندي بوضوح، ولكن يمكن اعتبارها فرعا أولا متميزا من هذه المجموعة، بحيث أنها قد تمثل وراثيا إحدى مجموعتين ثانيتهما المندي بالمعنى الدقيق.
وتصنف سائر لغات النيجر — كونغوندي غرينبرغ (١٩٦٣) في خمسة فروع: ١ — الغربي الأطلسي؛ ٢ — كوروا؛ ٣ — الكوا؛ ٤ — البينوي كنغو؛ ٥ — آداماوا والشرقي. إلا أن المجموعات ٢ و ٣ و ٤ متقاربة بصورة خاصة وتكون نوعا من نواة ليس الحد داخلها واضحا فيما بين البينوي — كنغو والكوا (٣٣).

وقد أدخل وسترمان تسمية لغات أطلسية غربية سنة ١٩٢٨ فهي تغطي تقريبا عين اللغات التي تغطيها السنغالية — الغينية عند دولا فوس والباحثين الفرنسيين من بعده. وتكون هذه اللغات مجموعتين محددين واضحتين، مجموعة شمالية ومجموعة جنوبية. وذلك مع ما يوجد من تنوع داخلي بين المجموعة الشمالية مما دفع دالي إلى أن يقترح التخلي عن مفهوم الأطلسي الغربي واعتبار المجموعة الجنوبية كفرع مستقل متكون من المجموعة الأطلسية الجنوبية الغربية عند غرينبرغ من عدا الليمبا. ويقترح اسم ميل (٣٤) لهذه المجموعة، ومع ذلك فإن دايفد ساير في دراسة قريية العهد، مدعومة بمجيج تسلسل زمني صوتي، يؤكد من جديد الوحدة الأساسية للغرب الأطلسي كما تم تصويره تقليديا، ويدخل الليمبا ضمن فرعه الجنوبي (٣٥). وأهم تجديد يتقدم به هو اعتبار البجاكو لغة لجزء بيجاكو، كفرع منفصل، له عين الرتبة التي للفرع الشمالي والفرع الجنوبي. وهذا يوافق مللدي من شعور بباينة هذه اللغة لغيرها، ويجدر أن نذكر أن الفلفلية (فولا أو فوليا) التي اعتبرها ماينفوف كلفة شاميتية وكانت على عديد من الجدالات، صارت اليوم في رأي الجميع، ضمن الغرب الأطلسي، وتصنيف هذا الأخير كما يلي:

الفرع الشمالي: ١ — (أ) فولا، سيرير، (ب) وولوف؛ ٢ — مجموعة نون؛ ٣ — ديولا، منجك، بلنتي؛ ٤ — (أ) تنداء، يساري، بديك كونياجي؛ (ب) بيافاذا، باجادي؛ (ج) كيبانا — بنوم — (د) نالو.
الفرع الجنوبي: ١ — سوا (كوننتي)؛ ٢ — (أ) تمبي، باكا؛ (ب) شبرو — كرم، كيسي؛ (ج) كولا؛ ٣ — ليا.

بيجاكو: ويشمل الكور داخل النيجر — كنغو مجموعة أخرى منها. ويسمى أيضا، خاصة في

(٣٣) عن هذا الموضوع انظر ج. هـ. غرينبرغ، ١٩٦٣، ص ٢١٥ — ٢١٧.

(٣٤) د. دالي، ١٩٦٥، ص ١ — ١٧.

(٣٥) انظر هـ. ساير، ص ١١٣ - ١٤٠ في المجموعة المنشورة بأشرف سييك، المصدر المذكور، إلا أن ساير احتز بعض الاحترازاات عن النتائج المذكورة في النص.

الأدب الفرنسي، فلطاني. وأحدث الآراء عن التصنيف داخل مجموعة كوهي آراء بندر- سامويل ونحن تتبع خطوطها العريضة.

ويجدر أن نلاحظ معظم اللغات التي اعتبرت ضمن الفور تنتمي الى مجموعة فرعية فسيحة جدا سماها بندر- سامويل بالكور الأوسط (٣٦) وهو يقابل الموسي كرنشي في البحوث السابقة. ويمكن تقسيم الكور الأوسط الى ثلاثة مجموعات فرعية: ١ - المور كورما؛ ٢ - مجموعة كروسي؛ ٣ - التمري. أما سائر المجموعات الفرعية للكور فهي: ١ - بركو (باريتا)؛ ٢ - اللوبيري؛ ٣ - بواو؛ ٤ - كولنكو؛ ٥ - كرما طيوراما؛ ٦ - وين؛ ٧ - مجموعة سنوفو؛ ٨ - سيمي؛ ٩ - دوكون. وحتى ولو سلم بوجود مجموعة كوا متميزة عن البينيوي - كنغو المذكور أعلاه، فانه يوجد مجموعتان فرعيتان، الكرو في أقصى الغرب، والايير في أقصى الشرق، وقد يثار الشك في انتمائهما لمجموعة كوا. وفي عدا هذا الاحتراز فان أهم المجموعات الفرعية للكوا هي الآتية: معدة بقدر الاستطاعة من الغرب الى الشرق: ١ - لغات كرو؛ ٢ - الكوا الغربي ويشمل الاو- فورا لا كان - كنك (ويسمى اليوم أحيانا فولطا - كاموي) والكا - ادنكي واللغات المتبقية في الطوغو؛ ٣ - اليوروباء، الايكالا؛ ٤ - مجموعة النوب؛ ٥ - مجموعة الايدو؛ ٦ - مجموعة ايدوما؛ ٧ - ايبو؛ ٨ - ايجو.

أما البينيوي - كنغوفهو أساسا مجموعة النيجر- كنغو التي كانت تسمى ببنيوي كروس، أو نصف بانتو من قبل وسترمان باضافة البانتو لقسمة «الشبيهة بالبانتو». وهناك أربعة أقسام أساسية في البينيوي - كونغو: ١ - لغات النجد؛ ٢ - الشبيهة بالجوكو؛ ٣ - وادي كروس وأهم لغة فيه هي مجموعة إفيك إيببيو؛ ٤ - الشبيهة بالبانتو ويشمل البانتو والتيف وعددا كبيرا من لغات أصغر في جهة بينوي الأوسط.

وعدد من لغات نيجيريا التي كانت تعتبر سابقا نصف بانتو بالمعنى الأعم، صارت اليوم تعتبر عامة بانتو، ومن الممكن أن نذكر في هذا القبيل مجموعتي إكوي وجراو. والتقسيم الأساسي للبانتو نفسه قد يكون بين اللغات المذكورة أعلاه والبانتو بالمعنى التقليدي.

وفي هذا المعنى الأخير يبدو مقسما الى مجموعة شرقية ومجموعة غربية. ولزيادة التدقيق في القسمة تستعمل عامة قسمة كشرى الى مناطق معينة بالحروف، تتغير بطرق مختلفة حسب عدة اختصاصين (٣٧).

وكان تصنيف مجموعة البانتو في جلته كمجموعة فرعية من البينيوي - كنغو الذي هو نفسه فرع من الاسرة العظمى النيجر- كنغو، أحد الأوجه التي داخلها النقاش الأكبر في تصنيف غرينبغ. فستننى كشرى على الخصوص النظرية القائلة بأن البانتو مستقل وراثيا وان عديد وجوه الشبه الموجودة بين البانتو وسائر لغات النيجر- كنغو هي نتيجة لتأثيرات البانتو على مجموعة من اللغات متباينة أساسا. وهو يستنتج من هذه الفرضية أن نقطة الأصل للبانتو هي «نواة» الشابا الجنوبي، بينما يجعلها

(٣٦) أني أتبع هنا، من أجل تفاصيل المجموعة الفرعية، ج. ت. بندر سامويل النيجر- كونغو، كرون ٢٤١ - ١٤٨ في سيبوك، المرجع قبله.

(٣٧) عن هذا التصنيف انظر م. كيري، ١٩٤٨.

غر ينسبرغ في الوادي الاوسط من البنيوي في نيجيريا، اذ هناك تستعمل اللغة الأوثق تناسباً مع المجموعة الفرعية الشبيهة بالبانتر في بنيوي — كنفو (٣٨).

وأخبر مجموعة تنتهي للنيجر — كنفو هي فرع آدماءوا الشرقي، فمجموعة آدماءوا يشمل عددا كبيرا من المجموعات اللسانية الصغيرة نسبياً، ومن بينها نذكر كمثالين التشمبا والمبوم. والفرع «الشرقي» يشمل عددا من اللغات ذات الالهية الكبرى كالفببا، في الجمهوريّة الافريقية الوسطى، والزندي (٣٩).

على العكس الاسرة الواسعة نيجر — كنفو التي نظرنا فيها قبلاً، فإن الآخر من النيجر — كرفواني، أعني اللغات الكردوفانية لا يشتمل على أي لغة ذات قيمة كبيرة، وهو يتقاسم هضاب الكردوفان مع لغات متنوعة. من الأسرة النيلية الصحراوية. ويمكن تقسيم هذا الفرع الى مجموع فرعية خمسة متميزة كثيراً، ابعداً مجموعة الشومتوم: ١ - كوالب؛ ٢ - تكالي؛ ٣ - طالودي؛ ٤ - كانلا؛ ٥ - تومتوم (ويسمى أيضاً كوفلي — كرونكو) (٤٠).

الأسرة النيلية الصحراوية

الاسرة الأخرى الكبرى من اللغات الزنجية الافريقية، هي النيلية الصحراوية، ويتكلم بها بضعة عامة في شمال لغات نيجر — كنفو وشرقيتها، وهي سائدة في وادي النيل الاعلى وفي الجهات الشرقية من الصحراء ومن السودان. ولكن لها مركز متقدم غربي في السنغالي في وادي النيجر السفلي. وتشمل فرعاً متمسكاً جداً، الشاري — نيل، وهو يحوي معظم لغات الاسرة وفروعها، ونحن نسير من الغرب الى الشرق كلما أمكن ذلك. فإن فروع الاسرة النيلية — الصحراوية هي التالية:

- ١ — السنغالي؛ ٢ — الصحراوي؛ أ — كانوري — كامبوي ب — تيدا — دازا، ج — زغاوا — برتي؛ ٣ — مايبان؛ ٤ — فرويان؛ ٥ — شاري نيل (ولز يادة التفاصيل انظر الأقسام والفقرات بعده)؛ ٦ — كومان (كوما، غنزا، أدك، غولي، كوموز، وماو).

وللغات الشاري — نيل تشمل مجموعتين رئيسيتين، السوداني الشرقي والسوداني الاوسط، كما تشمل لغتين منعزلتين، البرتا والكوناما.

والسوداني الشرقي، هو المجموعة الأكثر أهمية من بين اللغات النيلية الصحراوية، وتحتوي على عشرة مجموعات فرعية هي: ١ — النوبي: أ — نوبي النيل، ب — نوبي كردوفان، ج — ميدوب، د — بركا، ٢ — مجموعات موريديديتينا؛ ٣ — باريا؛ ٤ — انكسانا (طاني)؛ ٥ — نيبا أفييتي؛ ٦ — تمين طويس — أوم — دنوب؛ ٧ — مجموعة مراريت؛ ٨ — داکو (مجموعة داجو)؛ ٩ — نيلي مقسم الى: أ — نيلي غربي، بوروم، مجموعة لودوينكا نوير، ب — نيلي شرقي؛ (١) — مجموعة

(٣٨) عن النقاش حول البانتو انظر م. كشي، ١٩٦٢، ص ٢٧٣ — ٢٨٢، ر. ليفي، ١٩٦٦، ص ٣٦١ — ٣٧٦، وج. هـ. غرينغ، ١٩٧٢، ص ١٨٩ — ٢١٦.

(٣٩) توجد قائمة مفصلة للغات آدماءوا الشرقية لدى غرينغ، ١٩٦٦، ص ٩.

(٤٠) توجد ارشادات أكثر تفصيلاً عن اللغات الكردوفانية عند غرينغ، ١٩٦٦، ص ١٤٩.

باري (٢) — كراموجونج، تيسو، توركانا؛ ماسيا؛ ج — نيلي جنوبي، ناندي، سوك، تاتوجا. ١٠ — نيانغيا، توسو (إيك).

وتصنيف مجموعتين النيلي الفرعيتين، الشرقية والجنوبية، أثار جدالات حادة، فحين ضم ماينهوف الماساي الى اللغات الشاميتية، كان على ما يظهر ينوي ادخال لغات أخرى من هاتين المجموعتين، رغم شبهها مع اللغات المصنفة هنا. ضمن المجموعة النيلية الغربية، كالكولوك واللوو والدينكا.

وان هو فرق بين لغتين متشابهتين مثل الشلوك والماساي مثلاً، فذاك أساساً لأن الماساي له ميزة الجنس. وحاول وسترمان حلاً وسطاً بتسميته بالنيلية الشاميتية للغات النيلية الشرقية والجنوبية، معتمداً بدون شك، على فرضية انها لغات مختلطة. وخصص لفظ النيلي للنيلي الغربي. وتبنى توكر في البداية رأياً مشابهاً، ثم انه قرب أكثر هذه اللغات من النيلي مسمياً اياها ملحقات النيلي (٤١). وتوجد آراء أخرى حديثة متباينة: عنها رأي هو هنبركر الذي يقارن الماساي بالسامي، ورأي هنتنغفرد الذي يبدو أنه حاول احياء فكرة ماينهوف القديمة القائلة ان هذه اللغات شاميتية (٤٢). والمجموعة الثانية من الشاري — نيل، هي السوداني الاوسط. ويقسم الى ست مجموعات فرعية: ١ — البنكو — باكرمي؛ ٢ — الكرايش؛ ٣ — مورو — مادي؛ ٤ — مانكيتو؛ ٥ — مانكيتوإيني؛ ٦ — لندو.

أسرة خويسان

لكل اللغات الخويسان، مصوتات ذات نغم خاص، ومعظم الذين يتكلمون بها ينتمون الى نموج سان المتميز جسمانياً.

وتستعمل معظم اللغات الخويسان في افريقيا الجنوبية، الا أنه توجد مجموعتان صغيرتان من السكان منقطعين بعيداً جداً نحو الشمال في طانزانيا، هما الهاتسا والصنداوي وتختلف لغاتها كثيراً فيما بينهما، كما تختلف مع لغات مجموعة افريقيا الجنوبية، وتقسم الاسرة الى ثلاثة فروع: ١ — الهاتسا؛ ٢ — الصنداوي؛ ٣ — خويسان افريقيا الجنوبية. ويقسم هذا الأخير ذاته الى ثلاثة فروع: ١ — الفرع الشمالي ويشمل لغات سان الشمالية وبعض آون والكنتغ؛ ٢ — خويسان الاوسط وبه مجموعتان: أ — الكيشوار؛ ب — نارون، خوي خوي؛ ٣ — سان الجنوب، وهو الذي يظهر أكبر تفرقة داخلية، ويشمل عدداً كبيراً من لغات سان المتميزة (٤٣).

وكما شاهدنا في قسم من هذا الفصل خاص بتاريخ التصنيف فإن عدداً من علماء اللسانيات، بليك ولبسيوس وفيما بعد ماينهوف، قد فصلوا الخوي خوي عن السان، وجعلوا هذه اللغة ضمن

(٤١) انظر أ. ن. توكر، و. م. أ. بريان، ١٩٦٦.

(٤٢) انظر عن ذلك ج. و. ب. هنتنغفرد، ١٩٥٦، ص ٢٠٠-٢٢٢، ج. هو هنبركر، ص ٢٨١-٢٨٧ و. ج. ه. غرينغ،

١٩٥٧، ص ٣٦٤-٣٧٧.

(٤٣) انظر الرأي المعاكس للأستاذ أولدروج، الفصل الحادي عشر.

الشاميتية، ويدعم حالياً أ. و. ج. وستفال (٤٤) شكلاً منقحاً من هذه النظرية، وهو يقسم المجموعة الموصوفة هنا باسم خويسان إلى أسرتين مستقلتين، أحدهما الصنداوي وخوي خوي ويشمل الصنداوي ولغات خويسان الوسطى. ولكل هذه اللغات ما عدى الكيشوار تميز للجنسين، ولا يتقدم وستفال بأي رأي فيما يخص القرابة الممكنة مع الشاميتية - السامية. ومجموعة وستفال الثانية، الهندزاسان، يشمل الهاتسا ولغات سان الشمالية والجنوبية. ولكنه يعتبر أن القرابة بين الهاتسا ولغات سان غير ثابتة كامل الثبات.

ولغة مرينا التي فرضت نفسها بالنسبة إلى اللغات من أصل إفريقي المتداولة في بعض الجهات من الجزيرة الكبرى، ليست ضمن التصنيف أعلاه، فلم تناقش قط نسبتها إلى الأسرة الجزرية الجنوبية (ماليزية بولينيزية) وأقرب قريب لها داخل الأسرة في الراجح هو المانيان بورنيو (٤٥). وهناك لغة أخرى لم تذكر في هذا التصنيف: الميرونيتية (٤٦) وهي لغة ميتة كتبت بألفبائية ذات شكلين شكل هيروغليفي وشكل عادي لين وقد انقرضت هذه اللغة منذ القرن الرابع للميلاد تقريباً وليست معروفة إلا من اكتشافات أثرية تمت في منطقة تمتد تقريباً من أسوان في مصر الجنوبية إلى الخرطوم في السودان. ورغم كوننا نجهل قيمة الحروف المستعملة الصوتية، فليس لنا، بسبب انعدام النقوش المزدوجة اللغات، إلا معرفة محدودة غير ثابتة بالمفردات والنحو وأقدم نظرية كانت، أن هذه اللغة من النوبية (غريفيت) ورفضت فرضية حامية (ماينوف، زهلارز) بمقال جليل لهذا. وأعيد عرض الفرضية النوبية مؤخراً في شكل أوسع، قدمها ترجر الذي يذكر أنها تنتمي إلى الفرع الثاني السوداني الشرقي من النيل - الصحراوي، وهو يشمل النوبية (٤٧) حسب تصنيف غرينبرغ.

وفي النهاية ينبغي أن نذكر اللغات الأوربية والهندية المستوردة حديثاً ويتكلم بها، في بعض الحالات سكان مولودون في إفريقيا. فالانكلزية، علاوة على كونها يتكلم بها في إفريقيا الجنوبية وفي زيمبابوي، هي لغات أحفاد السود الأميركيين الذين أسسوا ليبيريا، وهي مستعملة أيضاً في صورة مزيج (كريو) في طاون (سيراليوني). والافريقان، قريب من النيرلندية، وهو مستعمل في إفريقيا الجنوبية. ويوجد في إفريقيا الشمالية عدد كبير من السكان يعرفون الفرنسية والإسبانية والإيطالية، ويوجد شكل مزيج من البرتغالية وهي اللغة الأولى لبضع الآف من الأشخاص في غينيا وفي جهات أخرى. وأخيراً عدة لغات ذات أصل هندي مستعملة في إفريقيا الشرقية، وهي تشمل اللغات الآرية والدرافيدية، وأهمها الكجراتي.

(٤٤) أ. و. ج. وستفال، ١٩٧٧، ص ١٥٨ - ١٧٣.

(٤٥) الاشارات التي تستند إليها هذه الفرضية مقدمة عند س. داهل، ١٩٥١.

(٤٦) نذكر أن ني جانتي (كانون الثاني) وفيغري (شباط) ١٩٧٥، أقيمت ندوة مهمة التأم في القاهرة للاشراف على جلة البحوث عن حل: الفاز الميرونيتية، (انظر المجلد الثاني).

(٤٧) عن هذه المسألة انظر ف. هينتس، ١٩٥٥، ص ٣٥٥ - ٣٧٢ وترجر (ب. ج.)، كوش جلد ١٢، ص ١٨٨ - ١٩٤.

مختلف مراحل التصنيف التي اقترحها صاحب المقال

١- (١٩٤٩م - ١٩٥٠م)

- ١- النيجر- كنفو
- ٢- السنغاي
- ٣- السوداني الأوسط
- ٤- الصحراوي الأوسط
- ٥- السوداني الشرقي
- ٦- الافروآسيوي (حامي سامي)
- ٧- «كلك»
- ٨- «مابان»
- ٩- «ميمي ناشتكال»
- ١٠- «فور»
- ١١- تماني
- ١٢- كردوفاني
- ١٣- «كومان»
- ١٤- «برتا»
- ١٥- «كوناما»
- ١٦- نيانغيا

٢- (١٩٥٤م)

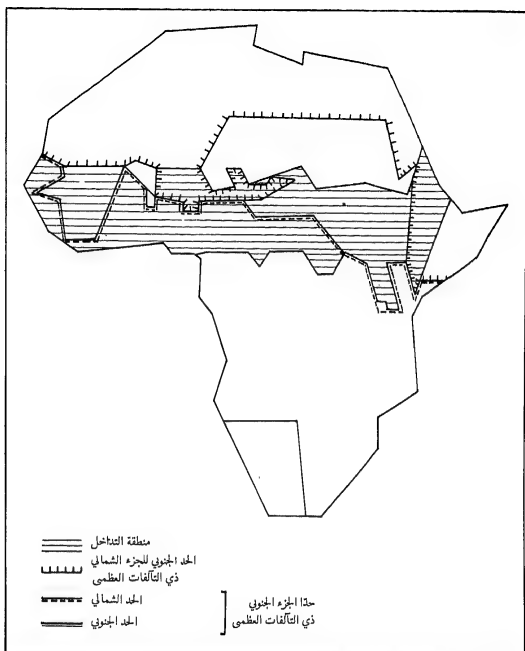
- ١- النيجر- كنفو
- ٢- السنغاي
- ٣- سوداني أعظم (٥ر سوداني شرقي) (٣ر سوداني أوسط) (١٤ر برتا) (١٥ر كوناما)
- ٤- صحراوي أوسط
- ٥- افروآسيوي
- ٦- «كلك»
- ٧- مابان (٨ر مابان) (٩ر ميمي ناشتكال)
- ٨- «فور»
- ٩- تماني
- ١٠- كردوفاني
- ١١- «كومان»
- ١٢- «نيانغيا»

٣- (١٩٦٣ م)

- ١- نيجري - كردوفاني (٢١١ نيجر - كنفو. ٢١٠ كردوفاني)
- ٢- أفرو آسيوي
- ٣- خويسان (انظر ٢٦ كلك)
- ٤- نيلي صحراوي (٢٢ سنغاي، ٢٤ صحراوي (انظر صحراوي أوسط) ٢٧ مابان، ٢٨ فور، ٢١١ كومان بإداخال، شاري - نيل، ٢٣ سوداني أعظم، ٢٩ تماني، ٢١٢ نيانغيا.

- احالات

- ١- المجلة الجنوبية للأنثروبولوجيا ١٩٤٩ - ١٩٥٠.
- ٢- المجلة الجنوبية للأنثروبولوجيا ١٩٥٤.
- ٣- لغات افريقيا ١٩٦٣.



● رسم توضيحي للخريطة اللغوية لأفريقيا

صحيحة صحة مطلقة، ينبغي أن يمثل عليها كل واحد من سكان القارة الأفريقية بنقطة منيرة منعزلة. وقد تنتقل هذه النقطة تنقل الشخص نفسه، وإذا ما اضاءات فينغي ان تتمكن من المرور بنحو الي لون مختلف حسب اللغة التي يتحدث بها ذلك الشخص المعني في ذلك الوقت المحدد بالذات.

وإذا يستحيل ماديا ان توضع خريطة من هذا النوع، فمن اللازم ان نكتفي بوثيقة، ان لم تكن بلغت الكمال، نأمل ان تكون فيها من التفاصيل والصحة ما يفوق ما كان بين يدينا حتى الآن.

فمنذ عشر سنوات يعمل على وضع خريطة أفريقية لغوية خاصة (بالمقابلة للخريطة السلافية).

والهدف من هذا الفصل ان نؤكد على ملامح هذا العمل التي تتعلق بتاريخ أفريقيا (٤).

ولو ان الدراسة المقارنة لللغات الأفريقية كانت تبدو في الخارج تقنية، فانها كثيرا ما قيم بها بكيفية ساذجة جدا. وقد نيل الى ان نسلم بان الخريطة اللغوية المشعبة الحالية، نشأت عن خريطة لغوية قديمة أبسط بكثير، وان العلاقات اللغوية قد تعبر عن نفسها في شكل «أشجار أنساب» متفرعة حسب طبقة تنازلية («الاسر» ما تحت الاسر «الفروع») وان الفكرة التي تقول: ان مئات ومئات من اللغات المعاصرة في أفريقيا قد ترتفع، على نظام تصاعدي منظم، الى بعض «اللغات الامهات» هذه الفكرة قد حدت بالاخصائيين في اللسانيات المقارنة الى النظر في العلاقات الممكنة بين اللغات الأفريقية حتى البعيدة بعضها عن بعض، قبل أن يشتبا ما بينها من علاقات مباشرة على اساس صحيح. وادى ذلك باللغويين الى الاعتناء اساسا بالسير التاريخي للتباين في اللغات ذات الاصل المشترك افتراضا، والى الايعيروا اهتماما بسير التجمع بين لغات لا قرابة بينها، أو العودة الى الجمع بين لغات لها قرابة الواحدة من الاخرى. وازدادت نتائج هذه النظرة السيئة تعمرا بسبب ان التصنيفات التاريخية المزعومة التي وصلوا اليها بهذا الاسلوب، جعلت ايضا اطرار للمرجع، (لا بالنسبة الى اللغات فقط بل حتى بالنسبة الى الاهالي في أفريقيا). ونتيجة لذلك اثرت بدون موجب في تفكير المؤرخين في أفريقيا.

ويجدر اذن قبل كل شيء ان يخلص ما للخريطة اللسانية الأفريقية من تشعب، وذلك باختصاصها الى ابسط مركباتها (اعني الجموع اللسانية التي توجد بينها صلات وثيقة وعلاقات جماعية، والتي تكون لها وحدة خارجية ووحدة داخلية (٥) (وحدات مركبة)، اولغات متميزة لا يمكنها ان تدخل في اية واحدة من هذه المجموعات = (وحدات بسيطة). وهذا العمل يكشف عن خاصية من خواص مهمة للخريطة اللسانية قد حجبتها التصنيفات السابقة، وهي انه من بين ما يقرب من ١٢٠ وحدة بسيطة ومركبة في كل أفريقيا، انحصرت مائة منها تماما في منطقة واحدة

(٤) خريطة لغوية لأفريقيا والجزر المجاورة لها، شرع في وضعها من قبل (مكتب الدراسات الشرقية والأفريقية والمعهد الدولي الأفريقي). وتهدف هذه الخريطة الى إبراز التوزيع الحالي للغات «الام» أو «الاولية» وعلاقتها اللسانية، بمقياس ١: ٥٠٠٠٠٠٠. وعلى هذه الخريطة مثلت أيضا جهات أكثر تشعبا لغويا بمقياس ١: ٢٠٠٠٠٠٠٠. ويعمل المعهد الأفريقي الدولي حاليا (١٩٧٧) على طبع نشرة مؤقتة تتضمن قائمة نظامية للغات الأفريقية (شهادا لنشرة نهائية ستطبع فيما بعد من قبل لوبنكافان).

(٥) لأن قامت علاقة بين اللغات (أ)، و (ب) و (ج) يمكن ان تعتبر ذات «وحدة داخلية» على ان هذا التجميع لا معنى له اذا لم يكن لهذه اللغات «وحدة خارجية» اي اذا كانت العلاقة بين أ، ب، وبين أ، ج، وبين ج و ب في كل هذه الحالات اوثق منها بين كل من هذه اللغات الثلاث وبين أي لغة ليست من مجموعتها.

تمتد عبر أفريقيا كلها، من ساحل السنغال غربا حتى مرتفعات إثيوبيا وأفرقيتا الشرقية، شرقا (٦) فإذا ما اعتبرت اللغات المختلفة (٧)، أن ثلثي المجموع تقريبا بالنسبة للقارة الأفريقية يتكلم بها داخل المنطقة التي تمتد تقريبا على ٥٦٠٠ كيلومتر طولاً، ولكن ليس لها أكثر من متوسط ١٠٠٠ كيلومتراً عرضاً.

وتمتد هذه المنطقة على طول القفر الصحراوي، ونظراً لموقعها الجغرافي ولتشعبها اللساني يمكننا للتسهيل أن نسميها «منطقة التفرع تحت الصحراء». ويمكن تحديد نهاياتها حسب الجغرافيا الطبيعية واللسانية، فإنها بالجملة تجاور شمالاً المغازات الصحراوية وشرقاً الخواصر الجبلية وجنوباً حافة الغابة، وتنتهي غرباً إلى الساحل الأطلسي وجهات التقسيم الأقصى؛ ومن الوجهة الجغرافية الطبيعية، تقع على طول المحيط «لمنطقة التفرع» في الشمال الشرقي، في الوسط وفي غربي هذه المنطقة وفي أقصى الجنوب من قرن أفريقيا الشرقية، وفي كتلة تشمل معظم أفريقيا الغربية. ومن حيث العلاقات البنوية والمعجمية العامة، فإن أشد الجهات تقسماً تقع في الأرجح داخل قرن أفريقيا الشرقية وحول طرفها حيث تستعمل لغات تمثل «الأسر» الأربع التي يفترضها غرينبرغ في دائرة لا يتجاوز قطرها أربعين كيلومتراً.

في هذه الصورة كما في مثل جبال الطوكو ونجد جوس وهضاب الكامرون وجبال نوبيا والاراضي العليا في غربي إثيوبيا، يظهر أنه يوجد ارتباط بين بلاد الجبل وظاهرة التقسيم اللساني الشديد (٨). ويجدر أيضاً أن يلاحظ، أن العلاقات الداخلية بين بعض الوحدات المركبة المتمثلة في لغات داخلية في منطقة التقسيم كلفات خارجة عنها أيضاً، هي أقل وضوحاً أكثر فأكثر في نقطة التداخل بمنطقة التقسيم (٩).

وقد حجب ما لمنطقة التقسيم من قيمة لسانية وتاريخية تراكم شبكة من «الأسر» و«شبه الأسر» اللسانية التي افترضها علماء اللسانيات الأوروبيون والأميركان. ومن هذه الأسر اثنتان من أهمها، بما لها من قيمة واضحة ومن فائدة، تفوقان الأسرتين الكبيرتين الأخيرتين في تصنيف غرينبرغ بل عدة «أسرة فرعية» رتبته ضمنها تقليدياً. وإذا أن كلمة «أسرة» تتضمن ترتيباً بنوياً ذات طابع بشري أو بيولوجي لا تليق بظاهرة اللغة،

(٦) من بين الباقية يوجد لا أقل من سبع وحدات تشمل لغات يتكلم بها على حافات منطقة التفرع (مما يستثنى حسب بعض الوحدات الغير البنوية من جنوبي أفريقيا ومدغشقر).

(٧) في صورة العديد من مجموعات أشكال اللغات المقاربة كثيراً أو قليلاً لا يمكن أن تثبت سوى تميزات اعتبارية بين «اللغات» و«لهجات اللغات» فإذا ما اعتبرنا جميع أشكال الكلام المفهومة قليلاً أو كثيراً كلفات «متميزة بكون المجموع في أفريقيا نحو ١٢٥٠ لغة وإذا ما اعتبرت كل الأشكال كلفة قائمة بذاتها أتى تلج هذا لن نكلمها، وأتت اتخذ لنفسها اسماً متميزاً، يقرب المجموع إذن من ٢٥٠٠ لغة.

لو طبقت هذه الطريقة الأخيرة على أوروبا لاعتبرت السويدية والنرويجية والدانماركية لغات متميزة، ولكن إذا ما اتبعت الطريقة الأولى لزم عددها لغة واحدة. وكسي نحصل على فكرة فيما يخص تقدير عدد اللغات المتكلم بها في أفريقيا، نفترض أن نتخذ معدل التقريرين في أفريقيا ١٦٥٠ لغة لأفريقيا، منها ١١٠٠ تقريباً (حسب بالطريقة نفسها) يتكلم بها في منطقة التفرع.

(٨) نشير إلى نقطة مقارنة مهمة هي أنه توجد «منطقة تقسيم» مماثلة بالنسبة للغات الهندو في أميركا الشمالية. وهذه المنطقة الجبلية في معظمها لها نحو ٣٠٠ كيلومتر من الطول و٣٠٠ كم عرضاً. وتمتد على موازاة ساحل المحيط الهادي، من جنوبي الأسكا حتى الحدود المكسيكية، وتشتمل على منطقة تقسيم أقصى في شمال كاليفورنيا (حيث أن مثلثات ست اسر كبيرة من ثمان فرضت للغات الهندو في أميركا الشمالية تقع في دائرة شعاعها نحو ١٦٠ كم).

(٩) أعني لغات سامية «كوشيتية» شرقاً وبناتو (بإدخال اللغات الشبيهة بالبنوية).

يمكن أن يفكر في تعويضها بعبارة «ناحية التآلفات الكبرى» (للدلالة دلالة صحيحة على كل من هاتين الاسرتين، خصوصا وانها تحتل نواحي متلاصقة تلاصقا قويا او ضعيفا في القارة الافريقية. واولى هذه النواحي أي الناحية الشمالية ذات التآلفات الكبرى» تعرف عادة باسم «الناحية السامية» وسميت حديثا «الأفروآسوية» (غر ينبرغ) او «الاريتيرية» (طكن). والثانية أو «الناحية الجنوبية للتآلفات الكبرى» سميت حديثا «التيجرية الكنفولية» و«الكنفولية - الكردوفانية» (غر ينبرغ) أو «النزنجية» مردوك (١٠). ولم يحدث أي جدل حول الصلاحية العامة لهاتين الناحيتين ذاتي التآلفات الكبرى التي ظهرتا لعلها اللسانيات الاوربيين منذ القرن السابع عشر (١١) وبدون شك أيضا للملاحظين الافارقة منذ عهد اقدم بكثير. ويعتبر من الاهمية النسبية لهاتين الناحيتين أنها تشمل على أكثر من ٨٠٪ من اللغات المتكلم بها في افريقيا، وتشمل الناحية الجنوبية بمفردها ما يقرب من ٦٦٪ من مختلف اللغات بالقارة. وحسب التصنيف التقليدي المستعمل في الخريطة اللسانية الموجودة حالية، فان لغات الناحية الشمالية تتوزع في الجملة الى سبع عشرة وحدة بسيطة ومركبة (انتي عشرة منها توجد تماما في منطقة التقسيم) وتتوزع لغات الناحية الجنوبية الى ثمان وخمسين وحدة بسيطة ومركبة (سبع وخمسون منها توجد تماما في منطقة التقسيم) (١٢).

وهناك سبب حاسم لكي لا نوضع مستويات متوسطة في العلاقات الموجودة بين المناطق الاساسية ذات التآلفات الكبرى على مستوى القارة والوحدات البسيطة او المركبة، على المستوى النسبي المحلي. وذلك انه، لموجب مازلنا نجعله، هذه المستويات الوسيطة في العلاقات اللسانية ليس لها ما يفرضها بوضوح، وتحديددها اصعب بكثير من تحديد المستويات الاساسية والمباشرة. فوحدة الاسرة «الاطلسية الغربية» أو «كوا» أو «كور» أو «كوكو» الداخلية في اطار الاسرة الجنوبية ذات التآلفات الكبرى أو وحدة «الاسرة» الكوشيتية أو «التشادية» في اطار الاسرة الجنوبية ذات التآلفات الكبرى، لم يتم بعد التسهيل عليها بصفة قطعية. ولو أنه لوحظ منذ بعض سنين، ما للتصانيف التقليدية الاوربية والاميركية للغات الافريقية (١٣) من ضعف في هذه النقطة المهمة، فان المستويات الوسيطة للتصنيف، مازالت تحتل مكانة ذات قيمة في المصنفات المخصصة. ومن بعض النواحي، انه في الامكان ان يقارن هذا الابقاء على التقسيمات الاعتبارية المفروضة على

(١٠) ان اسرة «الكنفولية الكردوفانية» غرينبرغ تشمل الاسرة التي يسميها «التيجرية - الكنفولية» مع مجموعة صغيرة من اللغات ذات قيمات لما قرابة اقل مع الاسرة الكردوفانية وصيارة «النزنجية» توضع لتصنيف اقدم اعاد استعماله مردوك سنة ١٩٥٩.

(١١) انظر دراسة غرينبرغ في هذا المجلد (ص ٣ من النص المرقون) ويشير فيها غرينبرغ أيضا الى ان العلاقة بين اللغاشية والماليزية قد لوسطت بالاطريقة نفسها منذ القرن السابع عشر الميلادي.

(١٢) داخل الناحية الجنوبية للتآلفات الكبرى فان الوحدة المركبة الوحيدة الواضحة (في مظهرها) خارج منطقة التقسيم هي وحدة البانتو. على ان هذه الوحدة المركبة تشتمل بفردتها تقريبا على عدد من اللغات (نحو ٥٠٠) يساوي مجموع العدد في الوحدات السبع والخمسين الاخرى في هذه الناحية ذات التآلفات الكبرى.

(١٣) انظر دافيد دالي: «تأملات حول تصنيف اللغات الافريقية» مع احوالة خاصة الى عمل سيكوند والهم كوال وملكهم غوثري» دراسات اللسانيات الافريقية ٤١، ١٩٧٠ هـ ص ١٤٧ - ١٧١ (خاصة ١٥٧ - ١٦١).

• كل ما بين القوسين لا يوجد في النص المطبوع (تعلق الرابع محمد القاسمي).

الخريطة اللسانية في إفريقيا، بتاريخ التقسيمات الاستعمارية الاعتبارية المفروضة على الخريطة السياسية للقارة الأفريقية.

وإن كان غرينبيرغ قد أدى خدمات جليلة لعلماء اللسانيات الأفارقة بلفت نظرهم إلى الاستعمال الاعتباري للفظ «حامي» للدلالة على نوع مستوى متوسط للتصنيف الموجود (١٤). فعليه من سوء الحظ مسؤولية الحفاظ الاعتباري على عدد كبير آخر من هذه المستويات وقد أثر سابقا عدد من الشكوك على عدة من هذه المستويات (١٥) ولكن الاستاذ ستيرت قد نشر أخيرا تكميلا أوضح لتصنيف مجموعة «بنوي كنغو» وهي أكبر «أسرة فرعية» افترضها غرينبيرغ.

وإن من أهم النتائج لهذه الأعمال كلها (الحديثة) على لغات «بنوي كنغو» هو إثارة الشك حول صلاحية البينوي — كنغو كوحدة وراثية، ولقد بدى بتقبل رأي غرينبيرغ دون مناقشة حين زعم أن عدة تجديبات صدق عليها بصفة عامة، قد يكون لها قيمة الحجة. والواقع أنه لم يذكر منها سوى واحدة. اللفظ الذي يدل على «الطفل»، بينما يشير ولسون إلى أنه إذا ما اعتبرت المقابلات العادية المقبولة، قد نشاهد أن هذه الخاصية لا تنحصر في لغات بنوي — كنغو، فلا تكون إذن حجة قطعية، وزد على ذلك أنه، في كل الجزء الأول من كتاب «قائمة الالفاظ المقارنة» (١٦) لبينوي — كونغولا يوجد مثال واحد في مقام الحجة القاطعة. وحين يجزنا ستيرت بشكوكه منذ عهد بعيد حول الوحدة الخارجية لبينوي — كنغو، لا يسعنا إلا أن نتساءل عن السبب الذي من أجله أحجم اختصاصيو اللسانيات المقارنة عن ترك نظام تصنيفهم. ومن سوء الحظ أن كل الموعظة العملية المستمدة من البينوي — كنغو ضاعت، وعوض أن يتخلى ستيرت عن هذا المستوى وعن غيره من المستويات التي لم تثبت في تصنيفه التوسطي — بفضل مواصلة تحطيط غرينبيرغ ضاما «بنوي كنغو» إلى «كوا» و«كور» (وهذان تصوران اعتباطيان أيضا) ليكون تقسيما آخر، اعتباطيا هو بدوره، النيجر — كنغو (و يسمى الآن فولطا — كنغو) (١٧). و يلزمنا بدون شك أن ننتظر نتائج أعمال لسانية مقارنة أخرى لنرى «الفولطا — كنغو» لستيرت تتسع أكثر، كي تضم كل «النيجر — كنغو» أو الناحية الشمالية ذات التالفات الكبرى وهو المستوى الأساسي الوحيد للوحدة الخارجية والداخلية الواضح المعالم المتفق عليه.

ومما يجب على المؤرخين أن يلاحظوه، أن «التقبل الفسيح» للتصنيف المعياري لغرينبيرغ يرتكز إلى حد بعيد، فيما يخص النيجر — كنغو، على تقبله هو ذاته — «مجموعات وسترمان» أو «الأسر الفرعية» للغات إفريقيا الغربية. وكما اشرنا إلى ذلك من قبل، فإن وسترمان لم يثبت وحدة

(١٤) انظر مقال غرينبيرغ في هذا المجلد.

(١٥) انظر دالي، المصدر قبله، ص ١٦٠.

(١٦) ج. م. ستيرت، ١٩٦٦، ص ٦.

(١٧) من السخرية أن نلاحظ أن «الأسرة الفرعية» الوسطية الوحيدة الواضحة التي لا يدخلها شك لأسرة نيجر — كنغو غرينبيرغ، هي المادني. ووضح هذه القسمة يشهد على أن هذه هي من «أسرها الفرعية» التخمينية الوحيدة التي لم يشك في انتماها الأساسي إلى أسرة «النيجر — كنغو».

«مجموعاته» الخارجية (١٨) بينما تدل وحدتها الداخلية الواضحة فحسب، على أن اللغات التي تكونها تنتمي إلى الناحية الشمالية ذات التآلفات الكبرى.

وإذا صح أنه ليس للمؤرخين أن يتقبلوا بدون احتراز التصنيفات الموجودة للغات الأفريقية، فيجب أن نلج بكل قوة على ما للخريطة اللسانية في أفريقيا من أهمية كمصدر للخبر عما قبل التاريخ لهذه القارة. وما زال الأمر يحتاج للقيام بأعمال عديدة للتعلم في هذا الموضوع، ونحن ننتظر الجيل الجديد من مؤرخي اللغات الذين يكونون أيضا يتكلمون اللغات الأفريقية، فيكون في متناولهم أن يدعموا الأعمال التمهيدية التي لا يستغنى عنها للمقارنة الدقيقة المفصلة للغات المجاورة الوثيقة القرابة. ومنذ ذلك يمكن حينئذ الرجوع إلى التعبير التخطيطي الأوسع لجملة الخريطة اللغوية في أفريقيا. وعلى تشعبها اللغوي الذي يفوق تشعب سائر القارات. فإن أفريقيا حقا بارزة لكون ثلثي لغاتها يرتبطان بناحية واحدة ذات تآلفات كبرى، ولكون هذين الثلثين المتنوعين الشريك، ينحصران في حدود منطقة التقسيم في جنوب الصحراء. وأفريقيا التي يتكلم فيها بالبانتو هي الناحية الوحيدة من القارة التي كانت موضوع نقاشات مهمة حول التعبير فيما قبل التاريخ للمعطيات اللسانية.

ومفتاح هذا التعبير في السلم القاري، يكون من شأنه أن يجعلنا نتفهم تفهها أحسن العلاقات اللسانية داخل منطقة التقسيم. ومع ذلك لا يمكن أن ينقص من قيمة ضخامة العمل الذي يجب القيام به.

الفصل الثالث عشر

الجغرافيا التاريخية: المظاهر الطبيعية

د. دايارا

من الصعب، دون شك، أن يفصل التاريخ الافريقي عن الجغرافيا التي كانت له اطارا وحاملا. ولكنه من العيب أن يعتمد على اعتبارات حتمية لادراك العلاقات التي تكونت بين المجتمعات الافريقية وبيئتها الخاصة، بما لهذه العلاقات من الشعب. وفي الحقيقة ان كل مجموعة قد تفاعلت بطريقة ازاء الوسط الذي واجهها. فاتم من محاولات موفقة قليلا او كثيرا، لتنظيم المدى يشهد، هنا وهناك، بدرجة تنظيم البشر، وبما لتقنياتهم من النجاعة لاستغلال الموارد المحلية. على انه من المهم بالنسبة الى افريقيا المتحركة، أن ينظر في بعض الخصائص الجغرافية التي من شأنها أن توضح الأحداث العظيمة التي انتصبت كعلامات على طول المنظور الجغرافي التاريخي للقارة. وفي هذا الشأن، ان خواص التشكل التكويني العام الافريقي، وما يوحي به من متنطق مناخي عجيب، وأخيرا ما للاوساط الطبيعية المكونة للقارة من طرافة، كل ذلك جوانب موروثة قد أعاققت النشاط البشري، أو قد يسرته، لكن دون أن تتحكم أبدا وحتمًا في تطوره. وفي الخلاصة ليس الامر سهلا فبا يخص العلاقات في الصميم بين الطبيعية الافريقية وبين الرجال الذين يشغلونها ويستغلونها ويصلحونها ويغزونها، حسب ما لهم من نظام سياسي، وما لديهم من وسائل التقنية، وما لهم من مصالح اقتصادية.

خصائص التشكل التكويني في القارة الافريقية

انه من المسلم به عموما، أن افريقيا تنتمي الى قارة قديمة جدا كانت تشمل، قبل تصدعها نتيجة انهزام بطيء، على أميركا وآسيا الجنوبية واستراليا. ، من المحتمل أن تكون هذه القارة، هي غندوانا

وهي مظهر الجهود الاولى لانشقاق القشرة الارضية التي أثارت سلاسل ضخمة من الجبال، اتجاهها العام من الجنوب الى الغرب، ومن الشمال الى الشرق، وانحرفت هذه التعاريج بشدة من جراء تعربها الطويل، فردت الى اشباه سهول يشاهد أوسع أمثلتها في افريقيا.

طرافة افريقيا الجيولوجية

ان طرافة افريقيا، يشهد بها أولا هذا الامتداد الحارق للقاعدة الكبرى الاولى الذي يغطي معظم مساحتها. وتبدو هذه القاعدة على ثلث القارة وأحيانا تغطيها قشرة، تختلف سمكا من الرواسب والمواد البركانية، وهذه القاعدة تشتمل على صخور متبلورة (غرانيتات) أو متحولة (شيست، مرو، غنيس) شديدة الصلابة. فنيا عدا النظام الالبي في المغرب، والتعاريج الهرسينية في الكاب، وفي جنوب جبال الاطلس، فإن المجموع الافريقي والملاغشي يشكل مصبقة عتيقة قارة متكونة من ترس لم يتحمل تعاريج ذات قيمة منذ العهد الكبيرى القديم. وعلى القاعدة وقد حتما انحراف طويل ترسبت مع تقصف في الطبقات، تشكيلات رسوبية في صورة غشاوات تحت الاقضية متسوعة الأعمار منذ بداية الدهر الجيولوجي الأول، حتى الدهر الرابع. وهذه السلاسل الرسوبية مركبة من مواد خشنة في الغالب حثية (ثرابية - رملية)، وهي أقرب الى الطبيعة القارية منها الطبيعة البحرية، إذ ان الزخوف البحرية لم تغط القاعدة الا في فترات مؤقتة وبكيفية جزئية. ففي افريقية الغربية يكون حث الدهر الأول هالة داخل مابرز من الساحة القبل كمبرية. وفي افريقيا الجنوبية فان التراكمات العظيمة القارية من العصر البرمي الترياسي تكون سلسلة كاروالتى يبلغ سمك سلاسلها الحثية أحيانا ٧٠٠٠ متر وشمالى القارة ولا سيا في الصحراء الشرقية وفي النوبة، فإن الحث الجيواسي والطباشيري «قاري متداخل».

ولكن في الدهر الثاني تراكمت السلاسل البحرية من الجوراسي الى العصر الفجري في المناطق الساحلية وفي الأحواض الداخلية وإنها تشاهد في خليجان السنغال وموريتانيا والبنين والكابون وانكولا وفي حوض التشاد، وفي السهول الساحلية في افريقيا الشرقية من الصومال الى الموزمبيق. ومنذ العصر الفجري تراكمت الرواسب النهرية والهوائية في الأحواض الكبيرة الداخلية في افريقيا. وكل هذه السلاسل من الأغشية، التي ترتكز على القاعدة الصلبة، لم تؤثر فيها تعاريج بل تغيرات في الشكل كبيرة منقوصة الشكل جدا، توالى منذ الدهر الأولى حتى فترة حديثة. فكانت هزات في شكل رصيف وانهارات بعيدة المدى، وذلك ما يفسر بينة التثؤات والأحواض المميزة لافريقيا. وفي الدهر الثالث عندما بلغ التكون الالبي للجبال أشده، أثارت حركات رأسية أقوى حدة، نقصفات كبيرة في افريقيا الشرقية. وتصور هذه الكسور خنادق طويلة تقع تحت خطوط الزوال، تحيطها انهدامات، «أودية الارتفاع». وقد يصحبها أحيانا انصبابات بركانية مولدة لتضاريس أقسى، مثل الكيلميندنجاو وعلى رأسه كتلة الجلييد والبالغ من الارتفاع ٦٠٠٠ متر. وفي الغرب كانت الانفصامات الطوف، ولكن الانفصام الواقع في قعر خليج غينيا، أظهر نشاطا بركانيا قويا يشهد عليه بقوة جبل الكرون (٤٠٧٠ م).

تأثيرات مناخية قديمة

تأثرت القارة الافريقية بأطوار طويلة من الانحراف تابعة لحركات تشقق القشرة الارضية، التي يبدو أنها كانت بطيئة طيلة العصور الجيولوجية. فأطوار الاستقرار تبعها عودة للانحراف أدت الى تشكيل مساحات فسيحة ممهدة. وفي سرتطور أشكال التضاريس فإن أهم عامل هو عامل التغيرات المناخية، وأبرزها تغيرات الدهر الرابع. فتداول المناخات الرطبة والمناخات نصف الجافة، يظهر بأطوار لتغير الصخور والانحراف الحظي أو الطيني، و ينتج عن ذلك ردم للمناطق المنخفضة وإبراز للصخور الصلبة المكونة غالبا لتضاريس منعزلة تطفو أحيانا فجأة فوق المساحات المنبسطة. وهذه «الجبال الجزرية» الموحدة منتشرة انتشارا كبيرا في الجهات الكائنة جنوبي الصحراء. ويتبع التغيرات المناخية في الدهر الرابع وتغيرات مستوى البحر، تنقيحات مهمة للتشكل المدرج للمقابل الافريقي الناشئ عن تعاقب دورات التعرية والتجميع خلال الفترات السابقة. فالمناخات القديمة مسؤولة عن وجود الصحراء، حيث توجد بقايا حجرية متعددة، ومتحجرات حيوانات من غنّج استوائى تدل قديما على ظهور مناخ رطب مساعد لنشوء الانسان. ولكن امتداد المناطق المناخية الحالية، خلال الدهر الرابع، نحو الشمال أو نحو الجنوب، يتبع الزيادة أو النقص في الأمطار. فالنظم المطرية مثلا نتج عنها الزيادة العظيمة في نسبة المساحة الكاملة من القارة المساعدة على حياة البشر. وبالعكس فإن الفترات الجافة ساعدت على امتداد المساحات الضحراوية من وراء حدودها الحالية، وجعلت من الصحراء هوة مناخية بين عالم البحر المتوسط والعالم المداري الاستوائي. ولكن هذه الصحراء التي تغطي ما يقرب من ثلث القارة، وتمتد على نحو خمس عشرة درجة من العرض، لم تكن قط حاجزا فاصلا بين شمال افريقيا وجنوبها؛ فهي يسكنها الرحل وقد شقّت مسالك القوافل منذ قرون طويلة، وإن هي لم تمنع العلاقات بين افريقيا السوداء وبين البحر الابيض المتوسط منذ القرون الحالية حتى الفترة المعاصرة، فإنها مع ذلك كانت كالمصفاة، حددت اختراق تأثيرات البحر الابيض المتوسط، ولا سيما في مجالات الفلاحة والبناء المعماري والصناعة التقليدية. فكان لأكبر صحراء في الدنيا دور رئيسي في التقسيم الجغرافي لجزء كبير من افريقيا.

ضخامة القارة الافريقية

إن قوة الصفات الطبيعية في افريقيا ووضوحها، يميزان هذه القارة عن سائر القارات. وضخامتها وثقل آفاقها كانا نتيجة لتاريخ جيولوجي طويل. ويمكن أن ننظر الى الخريطة كي نلاحظ أن المجموعة الافريقية بما لها من مساحة ثلاثين مليونا من الكيلومترات المربعة، تمتد قطعة واحدة على ما يقرب من ٧٢ درجة في العرض منذ رأس ابن سكا (٣٧° — ٢١° شمالية، قرب بنزرت) حتى رأس الاب (٣٤° — ٥١° جنوبية). فنحو ٨٠٠ كم تفصل بين هاتين النهايتين للقارة، بينما يوجد ٧٥٠٠ كم طولاً بين الرأس الأخضر ورأس غردافوي. وتظهر التقاربية العظمى شمال خط الاستواء، إذ أن القطعة الشمالية تمتد على ثلثي افريقيا التي تقتلص في النصف الجنوبي، ويؤكد طابع الكثافة هذه القارة أن لا وجود لفجوات شاطئية عميقة، خلافا لاوربا ولاميركا الوسطى مثلا. ثم إن الجزر تمثل جزءا ضئيلا من المجموعة الافريقية التي بدأ شكلها المتعقش واضحا بقوة بسبب بساطة المحيط وضعف تطور السطح القاري. وإن انخفاض

المستوى البحري يؤثر قليلا في شكل افريقيا، إذ أن منحني العمق البحري ١٠٠٠ متر مرعاة قرب الشاطئ، وتتأكد ضخامة القارة بثقل التضاريس التي تمثلها في الغالب هضاب تعلو نهاياتها لتكون مرتفعات شاطئية تحترقها بصعوبة الأجهزة النهرية، ورغم قلة السلاسل الجبلية المرحجة فإن افريقيا تتميز بارتفاع معدل ملحوظ قدره ٦٦٠ متر من جراء الجهود التشيقية التي أكدتها بقوة في دهر البليوسين تكسيرات وعمليات رفع للسطح القاعدي، على أن بساطة التضاريس الظاهرة تغطي تفرقات جهوية محسوسة. وهكذا يتميز المغرب المنتسب للعالم الاوربي بسلاسل جباله ونضاريسه المقسمة. ويمتد فيه بين مجموعتين كبيرتين: سلاسل التل والريف في الشمال وسلاسل الاطلس في الجنوب، وتتجه هذه السلاسل كأشرطة ممتدة من الغرب الى الشرق، بين البحر الابيض المتوسط والصحراء.

وثمة أسرة أخرى من التضاريس تمثلها منطقة فسيحة تشمل افريقيا الشمالية الشرقية وافرريقيا الغربية وحوض الكونغو. فهناك تسود السهول والأحواض والهضاب المنخفضة التي تحيط بها مرتفعات جبلية.

وأهم الأحواض في قلب القارة المتجمعة في هذه المنطقة هي أحواض النيجر والتشاد والكونغو وبحر الغزال.

وأخيرا ان افريقيا الشرقية والجنوبية تمثلان مجال الأراضي المرتفعة حيث تحمل المرتفعات التي تفوق ١٥٠٠ متر مكانا فسيحا. ويحيط بالهضاب العليا في الجنوب مرتفع هامشي. ذلك المنحدر العظيم الذي يشرف على الشاطئ بمجدار صخري قد يبلغ ارتفاعه ٣٠٠٠ متر. ولكن طرافة افريقيا الشرقية تكمن في قوة التضاريس الناتجة عن الحركات البنيوية للقشرة في الدهر الثالث. فاهتزت مصطبة القاعدة بشدة وقطعتها انقصاصات عميقة وكسور. كما أثرت فيها بركانيات قوية. فالمجموعة الجبلية في الحبشة، المكونة من هضبة يعلوها أكثر من ٢٠٠٠ متر من الالة البركانية، تبلغ أقصى ارتفاعها على أكثر من ٤٠٠٠ متر وتمتد حفرانها على طول ٤٠٠٠ كم من البحر الأحمر الى الموزمبيق. هذه الأودية التي لعبت دورا عجيبا في جولان الانسان وفي نشوئه فيها سلسلة من البحيرات كبحيرة النياسا والطنكنيكا والكيفو وعيدي أمين (سابقا ادوارد) وموبوطو (سابقا البيرت) وفكتوري يا ورودلف. وعلاوة على ذلك فهي تحف بها جبال بركانية ضخمة أشهرها جبال كينيا والكيليمندجارو.

العزلة الجغرافية

ان ضخامة افريقيا وثقل تضاريسها نتج عنها نتيجة عظمى هي عزلتها حتى فترة قريبة. فنيا عدا افريقيا الشمالية المتوجهة نحو عالم البحر الابيض المتوسط، فإن باقي القارة بقي طيلة قرون على هامش تيارات التبادل العظمى، نعم، ان هذه العزلة لم تكن قط مطلقة ولكن كان لها وزن كاف على مصير عدد من المجتمعات التي تطورت داخل تقسيم جغرافي وقد انفصلت افريقيا عن العالم القديم من جراء انفصال القارات، ولكن بقي لها نقطة اتصال بآسيا: برزخ السويس الذي كان الممر المتميز لأكبر الهجرات نيا قبل التاريخ.

وتسبح الشواطئ الافريقية في أكثر امتدادها في كتلتين محيطيتين، اختلف استعمالهما قبل

العصر الحديث. فلم يسلك المحيط الاطلسي قبل القرن الخامس عشر الميلادي حيث بدأت الرحلات البحرية العظمى انطلاقاً من أوروبا. وقبل ذلك فإن تقنيات الملاحة الشراعية لم تكن لتكن البحارة العرب مثلاً، من الشروع في سفرات تتجاوز الشواطئ الصحراوية، إذ أن المراكب الشراعية لم يكن في وسعها أن تعود في معارضة عصف الرياح الصائبات الموجهة باستمرار نحو الجنوب. وخلافاً للمحيط الاطلسي فإن المحيط الهندي منذ عهد بعيد، ساعد على التواصل بين أفريقيا الشرقية وآسيا الجنوبية، فكان المراكب الشراعية العربية والهندية من القيام برحلات نحو القارة الافريقية، والعودة الى قواعد انطلاقها بفضل النظام التناوبي للرياح الموسمية على المحيط الهادي. ولئن قامت علاقات مكثفة بين أفريقيا الشرقية وعالم المحيط الهندي، فإن هذه العلاقات اقتصرت على الساحل، إذ كان الهدف عند الشعوب البحرية الآسيوية ممارسة التجارة وليس استعمار الأراضي الداخلية. وبالجملية فإن آثار الحضارات البحرية للقارات الأخرى لم تدخل الى أعماق أفريقيا السوداء التي بقي معظمها معزول عن العالم القديم.

ومن التقليدي أن تذكر صفة الشواطئ الافريقية الغربية المضيفة لتبرير عزلة القارة، فقلة الفجوات على الشواطئ، تحرم الساحل من الملاحة، فهو غالباً منخفض رملي، والشواطئ الصخرية وهي قليلة في أفريقيا الغربية، تظهر بكيفية أبرز في المغرب وفي مصر وعلى طول البحر الأحمر، وفي الطرف الجنوبي من أفريقيا الجنوبية. وفي أفريقيا الغربية تمتد شواطئ الاودية البحرية، من السنغال الجنوبي الى غينيا، وعلى سواحل الكامرون والكابون، وهي مصبات فسيحة ناتجة عن انغمار أودية نهرية قديمة، ولكن معظمها كثير الأوحال. وتحمل بعض الشواطئ المنخفضة التي زحف عليها المد والجزر: موائل المنغروف ولا سيما في منطقة «أودية الجنوب» حتى السربوني، وفي دلتا النيجر وعلى طول الساحل الكابوني. وفي مواطن أخرى تكون أشربة ساحلية حاشية للقارة، عازلة أحياناً بمحيرات شاطئية كبحيرات خليج غينيا. وأخيراً تمتد شعب المرجان قرباً من الشواطئ الافريقية في البحر الأحمر في قناة الموزمبيق وعلى الساحل الشرقي في مدغشقر. ويعزى ما للساحل الافريقي من صفة غير مضيفة، في جانب كبير الى «الموج العالي» أي الى تدفق الأمواج في صورة لفائض قوية تجعل من العسير الوصول الى بعض الجهات الساحلية من القارة. على أن ما جعل للشواطئ الافريقية من مناعة تتضمن بعض المبالغة، إذ أن شواطئ البحر الابيض المتوسط سمحت لأفريقيا الشمالية بالمساهمة طيلة القرون في المبادلات مع الخارج. ونذكر أيضاً اندام الموافي الطبيعية لتبرير عزلة أفريقيا السوداء حتى عهد قريب. و يمكن أن تستعرض المواقع المساعدة على النشاط البحري كتي تلاحظ ثروة السواحل الافريقية، في هذا المجال، على الواجهة الاطلسية كما على واجهة المحيط الهندي. على أن العقبات المذكورة، لم تكن قط متعذرة للاقتحام إذ أن التأثيرات الاثيوبية وفيما بعد التأثيرات الاوربية قد طبعت الشعوب الافريقية بقوة بحيث أن عزلتهم لم تكن الا نسبية. وقد تفسر العوامل البشرية بلا شك قلة اهتمام سكان السواحل الافريقية بالرحلات البحرية الكبيرة.

منطقية افريقيا المناخية

ان الاطار المعروض على الحياة في افريقيا يتبع أساسا الاحداث المناخية وتناظر القارة وامتدادها العظيم من جهتي خط الاستواء وكثافتها وتجانس تضاريسها النسبي، وتضافر آثارها لتتبع المناخ منطقية لا مثيل لها في الدنيا. فتقدم افريقيا طرافة عجيبة بتعاقب الأشرطة المناخية مرتبة على توازي خط الاستواء. وفي نصفي الكرة الأرضية، تتدرج النظم المطرية الافريقية نحو خطوط العرض العالية. لأن افريقيا أفسح القارات فيما بين المنطقتين المداريتين فهي أكثر مناطق الأرض تجانسا في الحرارة. ويتبع هذه الحرارة اما جفاف يزداد كلما وقع الاقتراب من المنطقة المدارية، واما رطوبة تزداد عادة باتجاه خطوط العرض المنخفضة.

عوامل كونية

في هذه القارة الواقعة أساسا بين المدارين، فإن الفروق المناخية تتبع الأمطار أكثر مما تتبع الحرارة التي هي مرتفعة في كل الفصول في معظم الجهات. ومهما يكن من أمر، فإن النظم المطرية والحرارية مرتبطة قبل كل شيء بعوامل كونية، أي بخط العرض وبحركة الشمس الظاهرة، فالشمس تمر مرتين في السنة بسمت الرأس فيما بين المدارين، ومرة واحدة في مدار السرطان يوم ٢١ جوان (حزيران) تار يخ المتقلب الصيفي، ومرة واحدة في مدار الجدي يوم ٢١ ديسمبر (كانون الأول) تار يخ المنقلب الشتوي في النصف الشمالي من الكرة الأرضية. ويشاهد مرورها بسمت الرأس مرتين في السنة بخط الاستواء عند الاعتدالين الربيعي ٢١ مارس (آذار) والخريفي ٢١ سبتمبر (أيلول) والشمس في حركتها الظاهرة لا تنزل قط كثيرا تحت الأفق. ولذا تكون الحرارة مرتفعة كل السنة في المنطقة المنحصرة بين المدارين. وفي الجهات القريبة من خط الاستواء حيث يتأرجح الموقع الظاهر للشمس حول سمت الرأس، يلاحظ انعدام الفصل الحار إذ أن التغيرات الفصلية للحرارة ضعيفة. فالفروق السنوية فيها نحو ٣ الى ٤ درجات. ولكن كلما تقدمنا نحو المدارين شمالا وجنوبا تصير المعطيات الحرارية أكثر تعاكسا. ففي الصحراء مثلا سجلت فروق قوية من نحو ١٥ درجة بين الحرارة المعتدلة في شهر جانفي (كانون الثاني) و يولييه (تموز). وينتسب الطرفان، الشمالي والجنوبي من افريقيا للمنطقتين المعتدلتين. ففيها تتعكس النظم الحرارية، إذ أن الفروق القوية السنوية تنتج عن التقابل بين الاشتية الباردة والصيفيات الحارة، ثم أن الانحرافات اليومية قد تكون في هذه المجالات الوسطية مرتفعة ارتفاعها في منطقة ما بين المدارين. وبصورة عامة إن العوامل الكونية تعين في افريقيا نموجين كبيرين من النظم الحرارية: في خطوط العرض الاستوائية، نظم منتظمة، وفي جهة المدارين نظم تتعكس أكثر فأكثر.

الآلية الغيشية

ان التغيرات الموسمية للمناخ الافريقي تفسر بوجود مراكز عمل كبيرة في الجو، تحرك كتلات من الهواء من النماذج المدارية أو الاستوائية البحرية أو البرية. وتسود المحيط الاطلسي باستمرار اعصارات معاكسة مدارية أو مراكز ضغط علوا، أحدها في النصف الشمالي من الكرة الأرضية (اعصام معاكس في الاسور) والثاني في النصف الجنوبي (اعصام معاكس بناسنت هيلين).

وتوجد خليستان أخر يان من الاعاصارات المعاكسة، احداها في الصحراء والثانية في الكالاهاري. وهذه الاعاصارات القارية طابع موسمي. فليس لها دور معتبر الا في الشتاء الشمالي أو الجنوبي. وفي الصيف، يضعفان ويدفعان الى طرفي القارة. وتشمل مراكز العمل في النهاية منطقة للضغوط الحقيقية، متمركزة على خط الاستواء الحراري، ومتأرجحة من ٥ درجات من خط العرض الجنوبي في جانفي (كانون الثاني) الى ١١ درجة من خط العرض الشمالي في يولييه (تموز). تثير الاعاصارات المعاكسة في اتجاه الضغوط المنحطة الاستوائية رياحا ملاصقة للارض، هي الصابيات التي تكتسح مجال ما بين المدارين. فمن اعصار الأسور المعاكس تنطلق رياح باردة قارة، في الصابيات الاطلسية، واتجاهها الشمالي الشرقي، ولا تؤثر الا في حاشية ضيقة من الساحل الصحراوي حتى الرأس الأخضر. واعصار المرتفعات بالصحراء تصدر عنه رياح شمالية شرقية، والصابيات القارية، جافة وباردة نسبيا ولكنها تسخن كلما انتشرت نحو الجنوب. اما هارطمان تلك الريح الشديدة الحرارة ذات الاتجاه الشرقي الالفة المجففة، فانها تستقر بانتظام كبير على كل افرقيشيا الساحلية من التشاد الى السنغال، وتتبعها دوامات متصاعدة رافعة للرمال أو الغبار مولدة ضبابيات جافة. وفي النصف الجنوبي من الأرض تظهر أيضا في الشتاء الجنوبي رياح جافة حارة نسبيا تصل بعض القطاعات من الحوض الكنكولي. ولكن، خاصة في هذا الفصل الذي يقابل الصيف الشمالي، تجذب الضغوط المنحطة القارية المتمركزة جنوبي الصحراء الصابيات البحرية الناشئة عن اعصار سانت هيلين المعاكس، والمنحرفة نحو الشمال الشرقي بعد عبورها لخط الاستواء. تلك هي الريح الموسمية الغينية التي تفوق تحت الهارطمان، دافعة اياها نحو الشمال ونحو المرتفعات. والتقاء هاته الكتل الهوائية ذات الاتجاه والحرارة والرطوبة المتباينة، يمثل منطقة التجمع بين المدارين أو واجهة ما بين المدارين التي تعين الفصول المطيرة.

وفي الصيف الشمالي، من ماي (أيار) الى سبتمبر (أيلول)، تنتقل واجهة ما بين المدارين ممتدة من الغرب الى الشرق فيما بين الدرجة العاشرة والدرجة العشرين من خط العرض الشمالي، وتحمل الصابيات الآتية من الجنوب اذالك كتلات رطبة من الهواء نحو خليج غينيا فتبعث فصل الأمطار. وفي الشتاء، تتكون منطقة التجمع في خليج غينيا ثم تصل القارة عن طريق الساحل الكامروني وتقطع النصف الجنوبي من القارة لتعبر قناة الموزمبيق والشمال الغربي من مدغشقر. في شمالي خط الاستواء تسود الرياح الغربية الشديدة الجفاف في افرقيشيا الغربية. وفي جنوبية، تتجمع الصابيات القارية الجنوبية مع كتلات هواء الصابيات البحرية الواردة من شمال المحيط الهندي فتبعث الأمطار.

وقد تشير الآلية العامة للمناخ بعوامل جغرافية كالتيارات البحرية والتضاريس واتجاه الشواطئ. فالتيارات الباردة المنتظمة على الواجهة الاطلسية لافريقيا، متناظرة من جهتي خط الاستواء. وفي الشمال فإن تيار الخالدات الذي أثارته الرياح الناشئة عن الاعصار المعاكس في الأسور، يساير الشواطئ من جبل طارق الى داكار. فيكون فيها انعطافات في درجة الحرارة وضبابا. وحوالي الدرجة الخامسة عشرة في خط العرض، يتحول تيار الخالدات نحو الغرب. أما نظيره في نصف الكرة الجنوبي، فهو تيار بنكيلا الذي تثيره الرياح الناشئة عن اعصار سانت هيلين. وتتبعه درجات منخفضة من الحرارة وضباب كثيف على طول الشواطئ الجنوبية الغربية

الافريقية، قبل تحولها الى الغرب في مستوى رأس فريو. وهكذا تفسر الصحاري الساحلية في موريتانيا في ناميب، وبين التيارات الباردة على الواجهة الاطلسية، يتسرب التيار المعاكس الاستوائي في غينيا والذي ينقل من الغرب الى الشرق كتلات من الماء الحار رافعا نسبة الرطوبة، وعدم استقرار الجو، موفرا بهذا امكانيات الامطار على الساحل من كونكري الى ليبرفيل.

ويظهر تنقل التيارات البحرية على واجهة المحيط الهندي بكيفية مخالفة. ان المياه الاستوائية التي تدفعها نحو القارة رياح الجنوب الشرقي الناشئة عن الاعصار القائم شرقي مدغشقر، تكون تيار الموزمبيق الحار الموجه نحو الجنوب الممتد بواسطة تيار الابن، فيجلب الرطوبة على الشاطئ الجنوبي الشرقي من افريقيا. وعلى شمال خط الاستواء، تنعكس التيارات البحرية مع تغير في اتجاه الرياح. ففي الصيف يسير الساحل الصومالي تيار حار متجه نحو الشمال الشرقي، وفي الشتاء يغمر السواحل ذاتها تيار بارد متقدم من جزيرة العرب نحو خط الاستواء.

ورغم تشابه التضاريس النسبي، فان لها أثرا على المناخ، اذ تعاكس بوضوح المرتفعات الساحلية، وهي حواجز حقيقية على طريق كتل الهواء الرطب، مع الأحواض الوسطية والمصاب الداخلية وحفر الانهدام الواقعة كلها تحت تأثير الجفاف المختلف الشدة.

وضعية الساحل بالنسبة الى الرياح المطيرة عامل من عوامل التفرقة المناخية. فالتقاطعات المعروضة مباشرة على الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، ولا سيما اذا كانت جبلية، تتلقى أمطارا غزيرة في افريقيا الغربية (نحو ٥ أمتار في غينيا). وفي افريقيا الجنوبية وفي مدغشقر تتقبل الشواطئ العمودية على وجهة الصابيات البحرية، أمطارا غزيرة. وبالعكس فان قطاعات الساحل الموازية لاتجاه الريح، والحالية من التضاريس الملحوظة كما في الداهامي والصومال تستفيد من غيث أقل. وفي افريقيا تحدد الدورات المناخية الموسمية أساسا، من قبل المعطيات الإمطارية. فالأمطار تقل حجما تدريجيا من خط الاستواء الى المدارين، حيث يسجل قفرا الصحراء والكلاهاري أقل من ٢٥٠ مم من الأمطار في السنة. ويتبع هذا التدهور في مجموعات الأمطار تغيير في تداول الأمطار الموسمية متعاكسة أكثر فأكثر نحو الشمال. ففي الجهات القريبة من خط الاستواء المعروضة بذلك على تأثير مستمر للضغط الخفيفة، تظهر الأمطار على طول السنة مع تباطؤ محسوس عند المنقلبين. وفي وراء ذلك، نحو الشمال ونحو الجنوب، تنحصر الأمطار في فترة واحدة تقابل الصيف في كل من نصفي الأرض. وثمة فصل ندي يقابل فيها فصلا جافا يزداد امتدادا نحو المدارين. ولكن طرفي القارة، المغرب ومقاطعة الكاب، يبدان خاصية ملحوظة تتمثل في أمطار الفصل البارد، ولتلك المناطق أمطار متوسطة غير منتظمة في المدى.

المناطق المناخية

ان تغيرات النظم الغيئية، من حيث مجموعاتها السنوية ومن حيث توزيعها حسب الفصول أيضا، تفرض تقسيم افريقيا الى مناطق مناخية كبيرة.

المناخات الاستوائية

وهي تميز المناطق الوسطى التي تشهد، من جهتي خط الاستواء، مرورين في اعتدالي الواجهة

الواقعة بين المدارين التي تربط بها التباينات المطرية القوية، فمن الكامرون الجنوبي الى حوض الكونغو، ينزل المطر بغزارة طول السنة، والهواء مشبع ببخار الماء في كل الفصول، و يفوق مجموع التباينات في السنة عادة المترين. وفي هذا الجو الهندي، يكون لدرجات الحرارة تغيرات شهرية ضئيلة، اذ هي تتأرجح حول معدل سنوي قدره ٢٥ درجة مئوية.

وجبهة الشرق، في المناطق الاستوائية المتأثرة مناخيا بالمحيط الهندي، توجد عن التداولات المطرية، ولكن المجموعات السنوية أقل من ١٥٠ متر، وللحرارة تغيرات سنوية أكبر منها على الواجهة الاطلسية في المنطقة الاستوائية. والفروق اليومية على الخصوص هي أقوى في الجهات المتتمة مناخيا للمحيط الهندي.

المناخات المدارية

وهي تقابل المساحة الفسيحة التي تحمل تنقلات الواجهة بين المدارين، في شمالي المنطقة الاستوائية وجنوبها، فالشمال الغربي الافريقي الممتد بين الدرجات الرابعة من العرض ومدار السرطان، يشتمل على مناخات متنوعة، من المجال ذي المرور بين الاعتداليين في الجنوب، الى المجال الذي لا يشمل الا مرورا واحدا لانقلاب الشمس في الشمال.

وعلى ساحل خليج غينيا يسود مناخ تحت الاستوائي يدعى الغيني و يتميز بنظام مطري بدون فصل جاف، لكن مع غزارة ملحوظة عند مروري الشمس في سمت الرأس، والأثر الجلي المتمثل في الهضاب الساحلية يتسبب في تكثيف رطوبة قوية تحملها الريح الموسمية الجنوبية الغربية. لهذا تتقبل الحاشية الساحلية الممتدة من جمهورية غينيا الى ليبيا أكثر من مترين من الأمطار سنويا.

والمجال السوداني الواقع جهة الشمال، يبدى عدة ملامح من مناخ منطقة ما بين المدارين، يميز نوع ندي ونوع جاف منذر بالصحراء، وكلما صعدنا مع خطوط العرض قل التمييز بين مروري جهة ما بين المدارين، وهكذا من الأمطار الاستوائية المتأصلة الى جفاف مدار السرطان نلاحظ الفروق الطفيفة التالية:

- منطقة فرعية أولى تتميز بمجموعات سنوية من الأمطار بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ مم فيها أكثر من ستة أشهر مطيرة؛ وتزداد الفروق الحرارية بالنسبة الى المنطقة الاستوائية.
 - المنطقة الفرعية الوسطى وتسجل جفافا أصبح أوضح، اذ أن الأمطار التي لا تنزل الا مدة ثلاثة الى ستة أشهر تتراوح بين ٦٠٠ و ١٥٠٠ مم، وتزداد الفروق الحرارية زبادة محسوسة.
 - المنطقة الفرعية الشمالية وتسمى في افريقيا، الساحل الغربي، ولها أقل من ٦٠٠ مم من الأمطار السنوية التي تنزل في أقل من ثلاثة أشهر، ويقل انتظام الأمطار ويزداد انحراف الحرارة.
- ويميز عن التوزيع العرضي لأنواع المناخات المدارية جنوبي خط الاستواء. ولكنه يوجد أنواع أشد وضوحا من جراء طابع عدم التكتل في افريقيا الجنوبية، ونظرا لأهمية التضاريس المرتفعة التي تشرف على السهول الساحلية التي يغمرها المحيط الهندي؛ ويتسبب تجمع الهواء البحري الاستوائي الشمالي الغربي مع الهواء البحري المداري الشرقي، تباينات غزيرة على سواحل الموزمبيق، وعلى الواجهة الشرقية من مدغشقر، والساحل الاطلسي على العكس هو جاف بسبب وجود التيار البارد في بنكيبلا المحدث لغفر نيب.

المناخات الصحراوية

وهي تميز المناطق الكائنة على جهتي المدارين، وفيما يهبط التهاطل عن ٢٥٠ مم ويسبب اختلالاً كبيراً. وتتقبل الصحراء وهي أكبر قفر حار في العالم، أقل من ١٠٠ مم من الماء سنوياً. ولكننا نلاحظ فيها فروقا بسبب تأرجحات الأعصار المعاكس الصحراوي الذي ينتقل على البحر الأبيض المتوسط وقت الانقلابين، ثم ينزل فيها نحو خطوط العرض المنخفضة. ففي وضعه الأول يسهل دخول الرياح الموسمية، وفي وضعه الثاني يسمح بزحف الرياح القطبية. وتتمكن هذه التآرجحات من التمييز بين الصحراء الشمالية ذات الأمطار من جنس أمطار البحر الأبيض المتوسط في فصل الجفاف، وبين الصحراء الوسطى، عمليا عديمة الأمطار والصحراء الجنوبية، ذات الأمطار المدارية في الفصل الحار.

وفي مدار الجدي تصيب تأثيرات المحيط الجنوبية الغربية صحراء كالاهاري بكيفية أيسر من اصابتها الصحراء، إذ أن تضاييق القارة يخفف من تأثير الخلية الأعصارية المعاكسة على المناخ، لذا تشاهد رطوبة أوفر وفروق حرارة أقل حدة.

مناخات البحر الأبيض المتوسط

في المغرب والشرق الجنوبي من إفريقيا، تكتسب طرافتها من تقسيم السنة إلى فصل شتوي بارد مطير، وإلى فترة صيفية حارة جدا جافة. وبمجال البحر الأبيض المتوسط هذا الخاضع لنظام الرياح في المنطقة المعتدلة، يتميز في الشتاء بمرور أعصارات عيطية محملة بالرطوبة. وهو يشهد أحيانا زحف الهواء القطبي متسببا في برد قاس يتبعه جليد وتساقط الثلج، ولا سيما على السلاسل الجبلية بالمغرب. وأما حرارة الصيف وجفافه، فنشأتان عن تأثير الرياح الواردة من الصحاري المجاورة، أي الصحراء في نصف الأرض الشمالي، والكالاهاري في النصف الجنوبي.

الأوساط البيولوجية المناخية الإفريقية

في إفريقيا أكثر مما في غيرها، تنظمت الحياة البشرية في أطارات طبيعية تبدو قبل كل شيء أوساطا بيولوجية مناخية. والحق أن المناخ والتضاريس تميز تأثيراتها لتعين المجموعات الجبلية العظمى المتميزة بمجهازها المائي وخصائص تربتها ومناظرها النباتية.

جريان المياه القارية

ينعكس تنوع المناخات في الجهاز المائي. ولكن في إفريقيا فإن جريان المياه نحو المحيطات أقل أهمية بكثير مما توجي به التهاطلات. إن أكثر من نصف المساحة في هذه القارة مركب من جهات جافة أو محبوسة المياه. هذا وإن الأجهزة النهرية تعترضها عقبات في سيرها، وذلك إن ملاحظها الجانبية تتكون من قطاعات ذات ميل ضعيف تتصل بعنف بمنحدرات سرية ومساقط أو شلالات. لذا تخضع كمية كبيرة من المياه التي تحملها، إلى رشح مستمر وبالحصوص إلى تبخر قوي ناتج عن الركود في الأحواض أو في الخنادق أو في منخفضات الساحة القاعدية.

تنظيم الشبكة المائية

مساحات كبيرة من القارة تنقل فيها الأمطار أو تنعدم، فهي خالية من مجاري المياه المستمرة، ولكن إفريقيا الجافة وإفريقيا البحر الأبيض المتوسط، تشهدان أحيانا أمطارا قوية تتولد عنها طبقات من المياه الجارية قد تتجمع في أودية ثم تنضب هذه الأودية في النهاية من جراء التبخر ورشح المياه. وفي الجهات المكتفية الري، في المناخ المداري أو الاستوائي، تكون الأنهار الكبار وأهم روافدها شبكة منظمة تجمع جزءا من مياه الأحواض، وتعمل على إفراغها في ظروف كثيرا ما تكون صعبة. وذلك أن الأحواض التي يتكون فيها معظم الأنهار الإفريقية تظهر عتبات محيطية غير ملائمة لتصرف المياه نحو البحر تصرفا لائقا.

فإفراغ المياه القارية يتم من خلال تنوعات ساحلية بواسطة مضائق قليلة العرض عميقة تنم عن انقطاعات حرارية عديدة في المجرى السفلي من بعض الأنهار الكبيرة. فالكونغويدي ٣٢ منحدرًا سرعًا بين صهر ييج ستانلي والمصب. والزامبي يقفز قفزة ذات ١١٠ أمتار شلالات فكتوريا، قبل أن ينسحب في مضيق كريبيا وأن يعبر عدة شلالات بزلتية. وهي أسفل الخرطوم، يقطع النيل ستة منحدرات سرعته تدعى شلالات قبل أن يصل إلى البحر الأبيض المتوسط. وسائر الأنهار الكبيرة كالنيجر والسنگال والأورنج والمبوبو تظهر جانبيًا في شكل المدرج ولا سيما في جزء مجراها السفلي. ومن السهل إذن أن نفهم صعوبات الملاحاة على الأنهار الإفريقية التي تبدو مسالك ضعيفة للمواصلات. ومع ذلك فلقد مكنت في الماضي من اتصالات مشمرة بين شعوب مختلفة من القارة.

وبين هذه الأنهار العظيمة وروافدها تشاهد شبكة غامضة من الجداول والبرك والمستنقعات غير منظمة لا وجود فيها لجرىان مستمر نحو الخارج. فهي تارة تمتد من الماء الراكد، وتارة مصبات لما فاض من الأنهار المجاورة، وطورا بالعكس رافدة تساعد على المحافظة على تدفق هذه الأنهار، وقد تكونت هذه الروافد في العصور الجيولوجية في أحواض الحنف حيث تجمعت في أعماقها، في شكل بحيرات، المياه القارية المحملة بالطين. ومن الممكن أن يتم الإفراغ إثر حركات تشققية في المصطبة المساعدة. وهكذا فإن سيل المياه الداخلية الضخمة تم بواسطة مخارج سايرت خنادق الانخفاض أو الانقصاصات. وبدون شك أن ظاهرات الحصر التابعة لكسور طرات على المصطبة وللتطور الشكلي، قد ساهمت في تنظيم الشبكات المائية. ولكن هذا الحيس مازال يلوح في أحواض التشاد والاكوفانكو التي تحتلها بحيرات قليلة العمق ومستنقعات ذات أبعاد مذهلة مما تأتي به الفصول من المياه الجارية. ولأحواض خفسف أخرى بعض المخارج نحو المحيط، ولكنها مع ذلك لها ميل مشابه إلى الحيس، وهكذا تكونت مستنقعات ماسينا أو «الدلتا الداخلي للنيجر» ومستنقعات بحر الغزال في السودان وحوض الزاير.

السرعات العادية للأنهار الإفريقية

في كل ناحية من إفريقيا، فإن نظام الأمطار يتحكم في سرعة الجهاز المائي، أي أن التغيرات الموسمية لحمل الأنهار تتبع نظام الأمطار السنوي. أما مجاري المياه في الجهات الاستوائية، فلها سرعة منتظمة بمياه غزيرة تسيل كل السنة. على أنها تظهر في مستوى عال من المياه في فترتين توافقان الأمطار الاعتدالية.

وفي المنطقة المدارية فترة من المد توافق فصل الأمطار أي في المنقلب الصيفي، تتلوها فترة جزر قوي في الفصل الجاف. لذا كان نظام الأنهار كثير التضاد. ثم انها تنفسي مدة بين ارتفاع المياه وبين نزول الأمطار من جراء سير المياه ببطء على مساحات قليلة الانحدار عموما.

وفي الجهات القريبة من الجافة، تجري («الوديان») بتقطع عند نزول الأمطار القليلة العنيفة، التي تسبب فيضانات فجائية، الا أنها قصيرة المدة، اذ أن المياه تضعع عند أسفل الوادي. وفي منطقة البحر الأبيض المتوسط، فإن عنف الشايب، ووجود التضاريس الجبلية، تجعل مجاري الماء طابعا تدفقيا، سرعتها قليلة الانتظام، مما يؤدي الى فيضانات في المنطقة المناخية تتمثل في وديان سيلها متقطع.

والانهار الكبيرة ذات الشبكات الممتدة على عدة مناطق مناخية، لا تدخل تحت الصور البسيطة المذكورة أعلاه، فيميزها نظام عام متشعب متغير تغيرات موسمية في حملها، تتبدل من أعالي النهر الى أسفله.

مجري المياه الكبيرة في افريقيا

إن بعض الأنهار الكبيرة، وهي من أهم الأنهار في العالم، تكون أحواضا فسيحة، يقع معظمها في منطقة ما بين المدارين. ويرتب نظام جريها بظروف تغذية أحواضاها بالأمطار النازلة من الأعالي.

ويلوح نهر الكونغو مثلا نموذجيا لمجري الماء الاستوائية التي يتميز نظامها بمستوي مد أقصى اعتدالين، والواقع ان شبكته تنتشر على ما يقرب من أربعة ملايين من الكيلومترات المربعة بين ١٢ درجة من خط العرض الجنوبي و ٩ درجات من خط العرض الشمالي. وهكذا بواسطة الكاساي واللالابا، يخترق جهات جنوبية فيها أقصى الأمطار الانقلابية. وأهم روافده في النصف الشمالي من الأرض تغذيه بالعكس أمطار الانقلاب الشمالي، بينما يمتد جزء كبير من مجراه على جهات لها فترتان توافقتان قيمة قصوى من الأمطار الاعتدالية، وتضافر التضخمين المختلفين يولد في كنشاسا نظاما مائيا ذا مدين عظيمين في مارس (آذار) وفي يولييه (تموز). فالكونغو نهر غزير منتظم حمله المتوسط السنوي ٣٠ ٠٠٠ م^٣/ثانية، ولا يفوقه في ذلك سوى الأمازون.

والنيل يأخذ مصدره في رواندا والبورندي، بفرعه الاصيلي الكبير و يتقبل المياه الاستوائية المفتوحة في مستنقعات بحر الغزال، وبعد اختراقه لبحيرة فكتوريه تقويه الروافد المدارية الواردة من الجبال الاثيوبية. وهكذا فان النيل الأزرق ونهر النيل لها نظام ذو مد اعتدالي، يمكن النهر من اختراق منطقة صحراوية فسيحة، قبل أن يدرك البحر الأبيض المتوسط. ورغم طوله الذي ليس له مشيل في افريقيا (٦٧٠٠ كم) فان النيل قليل القوة، لأن حمله السنوي المتوسط لا يصل ٣٠٠٠ م^٣/ثانية. ولكنه منذ العصور الحالية كان من أنفع الأنهار على البسيطة.

ونهر النيجر يمتد حوضه من ٥ درجات الى ١٦ درجة من خط العرض الشمالي، وله نظام أكثر تشعبا، وهو يرسم انعطافا فسيحا بشكل طريف، وذلك انه بعد أن يترك منبعه على حاشية المحيط الاطلسي الجبلية، يتجه نحو الصحراء، ثم يتوجه نحو خليج غينيا حيث ينصب في دلتا فسيح. فجراه الأعلى ومجره السفلي يخترقان جهات جنوبية ذات مناخ مداري رطب، وقطاعة الأوسط يتأخر في «دلتا داخلية» ذي مناخ ساحلي، ويتقوس بعناء في الجهة تحت الصحراء في تمبكتوق قبل أن

يتقبل تغذيات تزداد غزارة نحو الأسفل. ويحدث فصل الأمطار فيضاني معاً، أحدهما في المجري العلوي والآخر في المجري السفلي، ولكن الأول الذي يظهر حتى النيجر ينخفض تدريجياً من جراء التبخر والرشح في المنطقة المدارية الجافة. ويشاهد الفيضان الثاني منذ شمال الداهامي، ولا يزال شديد السيطرة عند مجراه السفلي بسبب الأمطار المحلية ذات القيمة القصوى الانقلابية، ويتقوى النيجر في مجراه السفلي بنهر البيني، أهم روافده.

التربات الافريقية

إن التوزيع الجغرافي للتربة يتبع منطقة هي نسخة من منطقة المناخات. ومختلف التشكيلات الترابية ينتج أساساً عن عمل الماء والحرارة على الصخور الموجودة في عملها. ففي الحقل المداري فإن الأمطار الغائرة الغزيرة المحملة بالحامض تغسل الصخور وتحل المعادن القاعدية وتدفعها إلى الأعماق. وفي خطوط العرض المنخفضة الرطبة جداً حتى ١٠ درجات في الشمال وفي جنوب خط الاستواء، فإن التحليل الكيميائي للصخور يؤدي إلى تشكيل التربة المحتوية على الحديد، وهي عموماً صلصالات محمرة سهلة التفتت، لها عدة أمتار من السمك، وهي ناتجة عن تغير الصخرة الأم إلى عناصر غروانية تشتمل على الصلصال الصيني (الكاولان) والهيماتيت ونسبة من رمل الصوان تقرب من ٣٠٪ من المجموع. ويحتمي الغطاء الغابي التربة من الرشح، وهكذا فإن التربات الحديدية لا تحوي إلا القليل من المواد العضوية ومن الدبال.

وفي الجهات السودانية ذات الفصل الجاف الواضح، تتكون تربات حديدية مدارية أقل عمقاً من السابقة غنية بأكسيد الحديد، وهي رملية في السطح صلصالية في الأعماق. وهذه التربات قليلة الاستقرار، وهي حساسة للانجراف بالماء وبالرياح. وتندهر بنيتها بسرعة كبيرة على السطح في غياب الغطاء النباتي. وكثيراً ما تكون هذه التربات متكثفة أو مصفحة في إفريقيا الغربية، حيث يتناوب الفصل في فصل الأمطار مع التجفيف القوي في فصل الجفاف، ولا سيما إذا ما صاحب هذا التجفيف لفح الحور، وفي بعض الجهات الواقعة شمالي الحاشية الساحلية في خليج غينيا، تمتد مساحات عتيقة انجرافية عارية ذات تربات مصفحة أو مدرعة تسمى «بوي». وهذه التشكيلات الترابية تتميز بتجمع قوي لأكسيد الحديد والالومين، يتبعه تصلب على عمق ضعيف، بيد أن عدداً من هذه «البوي» القديمة يرجع إلى الدهر الثالث. وعربت مساحاتها الزراعية المحدودة نتيجة انجراف السطح العلوية الكاسية، ولوحظت تربات مشابهة في مدغشقر على «الطبوكوكسا» على الشمال الغربي من طاناناريف. ومن جهة الشمال في نصف الأرض الشمالي، تكونت في مناخ ذي فصول متعكسة، وتحت غشاء من الأعشاب، تربات سمراء مركبة لها قيمة زراعية كبيرة. ورغم حساسية هذه التربات للتلويح، فقد مكنت من تطوير حضارات فلاحية مصاحبة للامبراطوريات السودانية في فترة ما قبل الاستعمار.

وجنوبي خط الاستواء، في بلدان الزمبار، تكونت تحت غشاء الغابة الجافة تربات غسلت غسلًا خفيفاً، تشبه التشكيلات الرمادية.

وفي الشمال وفي الجنوب، في الجهات شبه الجافة المجاورة للصحراء ولكلاهما، توجد تربات سمراء سهوبية تقابل رمالاً دعصية مشبعة قليلاً أو كثيراً، أو تشكيلات صلصالية رملية في

المنخفضات، هذه التربة خفيفة قابلة للتفتت تكون مزروعات حسنة، إلا أن أحياءها يستدعي أن تبقى هذه الأراضي بوراً لمدة طويلة لا تنبت إلا الأعشاب. وفي المناطق الجافة حيث يسود الانجراف الميكانيكي، فإن التغيرات القوية للحرارة تساعد على فرقة الصخور، وهي من جهة أخرى متأثرة بعمل الرياح العنيف ويعمل الأمطار القليلة التي تسبب في جريان طبقات من الرديم. فيميز في هذه المناطق رمال جدياء تكون الكثبان، وركامات الحصى، أو العروق الرملية الممتدة على مساحات فسيحة، وقشور صلصالية في السهول. وفي أودية الواحات فإن الصحاري خالية من التربة الصالحة للزراعة.

وفي أوساط البحر الأبيض المتوسط فإن عمل الماء وتأثير الفصول المتعكسة يظهران في تغير كيميائي أقل للصخور بالنسبة إلى ظاهرة التحليل الملاحظ في المنطقة المدارية الندية. وتذكر التربة بالتربة المدارية الجافة وتشتمل على ملامح حمراء ورمادية أو كستنائية، وهي تربة في عمومها غنية بالأملاح، وبعضها كالتربة السهوية الغنية بالكلس تنبئ بالأوساط المعتدلة. والبعض المكون من قشور كلسية أو من الجبس يميز لمناطق البحر الأبيض المتوسط.

المجالات البيولوجية — الجغرافية

إن عوامل المناخ والتربة تفسر تنوع الظروف الوسطية التي تتكون فيه المناظر الطبيعية النباتية.

الغابات الكثيفة الندية

إن أضخم مجموعة من بين المناظر الطبيعية النباتية يوجد في وسط القارة بين ٥ درجات من خط العرض الشمالي و٥ درجات من خط العرض الجنوبي من جهتي خط الاستواء، والنبات المميز هنا هو الغابة الندية الكثيفة المرتفعة. تتوزع على عدة طبقات متتالية، بينا تقوى التساقطات والنباتات المعيشة في الظلمة الناشئة على تراكم طبقات الأوراق الدائمة الخضرة، على أننا نميز فيها ألواناً وأنواعاً، سواء أكان الأمر يتعلق بأدغال المستنقعات على أرض الوحل (١)، أو بوطوط أو في الفرجات التي تعلن عن المرور إلى أشكال مميزة لمناخات أشد جفافاً. وأصناف الغابة الندية كثيرة التنوع والتداخل، مما يجعل استغلالها صعباً. والحرارة والرطوبة المستقرتان إضافة إلى مساعدتها لغزارة النباتات تساعدان على انتشار الجراثيم والديدان والحشرات، وهذا وسط منبؤ عالٍ للآفات، ورغم صمته فهو يستوعب عدداً متنوعاً من الحيوانات، كالفراش والماء وكالفيلة وخنازير الأنهار والتمور. ولكن الطيور والزواحف والنباتات الشجرية وحدها تستطيع أن تنتقل فيها كما تشاء، وأن تتكاثر رغم عوامل الامانة كوفرة الطفيليات، وخارج المنطقة الاستوائية، قد توجد الغابة الكبيرة الندية على المرتفعات المعرضة طويلاً إلى الرياح المحملة بالرطوبة، كمقلب الماء الشرقي من الهضاب العالية المالقاشية.

(١) الهلوبوطو: تربة وحلية تتربك أساساً من صلصال على عمق يضيع سنتيمترات.

السهوب والغابات الوضاء

إن منطقة الغابة المظلمة، تحف بها غابة جافة تنفض أوراقها تتميز بها المناطق التي تتجمع فيها الأمطار في الفصل المنقلي. وتلوح هذه الغابة في الأغلب كشكيلة مفتوحة، لا يغطي فيها مجموع الأشجار إلا تغطية ناقصة نبات الحراج من الشجيرات والأعشاب. وأفسد الإنسان هذا المجموع فحلت محله مناظر عشبية تتميز بها المناطق ذات فصل جاف أوضح. فالسهوب المدارية تغلب مثلاً كلما ابتعدنا عن خطوط العرض الصغيرة. وتظهر هذه التشكيلة النباتية في المناطق ذات الفصول المتباينة، تظهر فروقا تابعة لأنواع المناخات المدارية الكثيرة الرطوبة أو قليلتها.

وعلى حافة الغابة وفي السهوب القريبة منها مازالت أشجار ضخمة، ولكنها أقل من الشجيرات، ويكتسب بساط العشب أهمية كبيرة. والغابة — الرواق تسير مجاري الماء في شكل سيوريزداد عرضها أو يقل. والغابة — المريد، تجعل المساحات المشجرة بمجوار مساحات سافرة تلاحظ فيها نباتات حبوب عالية. والسهوب العشبية الحالية تقريبا من الأشجار ناتجة دون شك عن قلع الغابات من قبل الإنسان، وعن تدريع التربات. وعن مسافة أبعد عن الغابة الكثيفة، يحل شيئا فشيئا محل السهوب الشجرية المركبة من بساط مستمر من الحشائش العالية، سهوب شجرية تبدو فيها التربة عارية من بين الغشاء العشي، وفي مختلف أنواع السهوب تجد الحيوانات، آكلة العشب الظروف المناسبة لعيشها. ففيها يكون الصيد مثمرا، وفيها يمكن تربية المواشي الضخمة. وفي وسع الإنسان أن يشتغل بالفلاحة في هذه المناظر النباتية التي يسهل استصلاحها.

مناظر الفيا في السهوية

يطبع السهوب المناطق ذات الفصل الجاف الطويل بطابعه، وهي تتركب من آجام من النجيليات ومن الشجيرات الشائكة ولا سيما الاقاصيا. وتوجد هذه التشكيلة المفتوحة، في الجهات الشمالية من إفريقيا الغربية والشرقية.

كما توجد أيضا منتقطة في إفريقيا الجنوبية وفي الكلاهي وفي الجنوب الغربي من مدغشقر. وتوجد النباتات تحت الصحراوية في فياف تحف تدريجيا في الجهات التي تتقبل أقل من ٢٠٠ مم من الأمطار.

التشكلات النباتية حول البحر الأبيض المتوسط

تشمل أطراف القارة الأفرريقية فيافي مدغلة أو ذات نجيليات في الجهات الأكثر جفافا، وفي الجهات الأكثر رطوبة، وخاصة على سلاسل الجبال في المغرب، حيث تظهر غابات جافة مكونة من البلوط الأخضر ومن بلوط الفلين ومن الصنوبر. وهي تشكيلات نباتية ذات أوراق ثابتة تنبت تحت الحراج المدغلة.

الخلاصة

تلوح إفريقيا كقارة عتيقة احتلتها من عهد بعيد بشرية بعثت فيها منذ القدم حضرات باهرة. وتبدي الجغرافيا الإفريقية معالمها المعمارية وبأساطها الطبيعية صفات قوية مستمدة من تراث ماضٍ جيولوجي سحيق. لذا كان الفضاء الإفريقي أشد كثافة وأكثر قارية من أي فضاء آخر في كوكبنا. وبقيت جهات فسيحة في قلب القارة على بعد يفوق ١٥٠٠ كم من البحر، مدة طويلة على هامش تيارات المرور الكبرى الواردة من الساحل. وقوى هذا التقسيم الجغرافي ما كان في المناطق المدارية من تغيرات مناخية في الدهر الثالث والدهر الرابع. فطيلة آلاف السنين، كانت الصحراء الندية من أقدم مراكز الاستيطان في العالم وتدخلت الحقبات المجبدة، فيما بعد، في تكوين الشيفاء الواسعة، مثل الصحراء والكالاهاري. فتضايقت التبادلات بين مختلف الحضارات في القارة الإفريقية، ولكنها لم تنقطع. ويبدو المناخ حينئذ عاملاً أساسياً لادراك الماضي الإفريقي، ثم إن النظام الأمطارى والأوساط البيولوجية المناخية كلها، تؤثر تأثيراً حقيقياً في حياة البشر اليوم. واستفادت المجتمعات الإفريقية من التكامل بين المناطق المناخية لتربط فيما بينها أقدم تيارات التبادل وأقواها. وأخيراً فإن تاريخ إفريقيا تأثر تأثيراً قوياً بالثروات المنجمية التي كانت من أقوى عوامل جذب الشعوب الغازية للقارة الإفريقية. فذهب النوبة والكوش ثم استغلاله من سلالات مصر العتيقة، وفيما بعد كان ذهب إفريقيا المدارية وخاصة ذهب المنطقة السودانية وزمبابوي مصدر ازدهار لمجتمعات إفريقيا الشمالية والشرق الأدنى، وعماد الإمبراطوريات الإفريقية العظمى في جنوبي الصحراء. وكان الحديد موضع تبادلات قديمة بين المناطق الغابية والمدارية في إفريقيا. وكان للملاحاة الواقعة على حاشية الصحراء دور مهم في العلاقات بين الدول السوداء في السودان وبين البلاد العربية البربرية في إفريقيا الشمالية. وفي عهد قريب منا استغلت الثروات المنجمية الإفريقية لفائدة السلطات الاستعمارية. وحتى اليوم مازالت هذه الثروات تصدر في معظمها في شكل مواد أولية خام.

الفصل الرابع عشر

الجغرافيا التاريخية: الجوانب الاقتصادية

آكن مابوكونجي

يرى جلبرت «أن الهدف الحقيقي للجغرافيا التاريخية، هو إعادة بناء الجغرافيا الجيوية للماضي» (١) وفي مجلد كهذا كان من اللازم أن يؤدي مثل هذا التحديد إلى عرض الجغرافيا الجيوية فيما قبل التاريخ الأفريقي مع التأكيد على جوانبها الاقتصادية. ومن الواضح أن مشروعاً كهذا يتضمن اختياراً تاماً للظروف الطبيعية والبشرية في ماضٍ سحيق، ولا بد من أن يمتد إلى عدد من سائر الفصول في هذا المجلد... وهكذا سيرمي هذا الفصل خاصة إلى إبراز الموارد الطبيعية الأساسية كما اكتشفت وكما استعملت في أفريقيا فيما قبل التاريخ، وإذا نكشف عن الأنواع المتعددة للثروات الطبيعية في القارة كما وصلت إلى علمنا اليوم، فإن هذه النظرة سوف ترمي إلى التأكيد على ما اعتبر منها ثورة في الماضي البعيد، والمواضيع التي اكتشف فيها، والطريقة التي استعمل بها، وإلى أي حد ساعد على مراقبة الإنسان لأقسام متسعة من القارة، أو بالعكس إلى أي حد عمل على إبطاء هذه المراقبة.

المعادن وتطور التكنولوجيا البشرية

لعل المعادن هي الأكثر دلالة من الموارد التي تمكن الإنسان من مراقبة محيطه. فالمعادن هي المادة المفتاح في العالم. وسارتكوينها ببطء شديد، فقد يمتد على ملايين السنين، وبالقياس إلى حلول الإنسان على الأرض مما قد يعود إلى ثلاثة ملايين من السنين، فإن السلم الزمني الجيولوجي طويل جداً، فهو يمتد على أكثر من خمسة آلاف مليون سنة.

(١). و. جلبرت، ١٩٣٢، ص ١٣٢.

إن مناطق فسحة من افريقيا تركز على كتل صخرية من أقدم الكتل على كوكبنا. والصخور المتبلورة القديمة، وتعتبر مصطبقة القارة الصخرية تغطي على الأقل ثلث مساحتها. وهي تشمل خاصة الغرانيتات مع صخور تحملت تغيرات شديدة كالشيسيت والغنيس؛ وبعضها تعدن تعدنا قويا. فمن اهم التشكيلات، يجدر أن نشير الى المنطقة النحاسية في الشايبا (بالزاير) وهي تمتد على أكثر من ٣٠٠ كم وتحتوي على أفسح مناجم النحاس في العالم بل أيضا على أغنى مناجم الراديوم والكوبالت. وفي الترانسفال (في افريقيا الجنوبية) يفيض المركب الناري بوشفيلد، ومساحته ٦٠٠٠ كم^٢. وكريت دايك الذي يخترق الترانسفال على طول ٥٠٠ كيلومتر حتى روديسيا، يفيض كل ذلك أيضا بالمعادن، كالبلاتين والكروم والأميانت. ومنطقة الألماس الافريقية لا مثيل لها في بقية الدنيا، وتبلغ تجمعها الأقوى في افريقيا الجنوبية، على أنه توجد مناجم أخرى في طانزانيا وأنكولا والزاير. ولافريقيا الجنوبية وغانة والزاير مناجم من الذهب، ويوجد القصدير في الزاير وفي نيجيريا، ولندكر أيضا مناجم هامة من معدن الحديد في افريقيا الغربية، كمناجم ليبيريا وغينيا وسيراليوني.

وقد تحملت المصطبة الافريقية القديمة عدة كسور بركانية ترجع الى ما قبل العصر الكمبري. فتسببت هذه الكسور في ترسبات غرانيتية حاملة للذهب والقصدير، وفي تشابكات الصخور القاعدية وما وراء القاعدية، كما انتجت صخورا بركانية أو اندفاعية الكثير منها أكثر حداثة، لم تكتف بالتفتت لتكوّن ترابات غنية خصبة، بل انتجت أيضا معادن وصخورا كباالت السجج في الكينيا، لها قيمة حقيقة في تاريخ القارة.

وعلى ما بقي من المصطبة، أي على ثلثيها تقريبا، توجد صخور رسوبية قديمة تعود الى ما قبل العهد الطباشيري، وتبعاً لسنا فإن هذه الصخور تحتوي أيضا على عدة راسب معدنية. فعلى طول الحاشية الشمالية للقارة مثلا، في منطقة تمتد من المغرب الأقصى الى تونس مروراً بالجزائر، يوجد حزام الفوسفات الكين مقترنا بمناجم الحديد الغنية جدا.

وتوجد أيضا مناجم هامة من معدن الحديد من أصل رسوبي في جهة كارو في أفريقيا الجنوبية وفي الدامارا في نيميبيا. وعلى النقيض فإن الفحم يكاد يكون منعدما في القارة إلا في بعض الحالات الشاذة في البلاد العليا من افريقيا الجنوبية وفي حقن ونكي في روديسيا، وكان في الأمر تعويفا لهذا النقص، فإن الصخور الرسوبية الحديثة مما بعد العهد الطباشيري، تشمل في الصحراء وعلى ساحل افريقيا الغربية طبقات فسحة من النفط ومن الغاز الطبيعي. وساهمت هذه الثروة المعدنية مساهمة كبيرة في دعم التنظيم البشري واستغلاله في فترة طويلة من التاريخ.

فلنلاحظ مثلا أن مراقبة تجارة الذهب بين غرب افريقيا وشمالها عبر الصحراء، كانت في العصر الوسيط من الأسباب الرئيسية التي بعثت على انشاء امبراطوريات وممالك في السودان الغربي وساعدت على سقوطها. فبلا شك أن تجارة الذهب ومناجم الحديد قد جلبت العرب نحو افريقيا الشرقية في الألف سنة الأخيرة.

ومن جهة أخرى ان الاوربيين بعدما سحرتهم الثروات المعدنية في أميركا اللاتينية، تجمعوا في افريقيا باعتبارها خزاناً استعماريًا للمعادن الخام وذلك قصد تغذية تنمية صناعاتهم.

على أنه في عصر ما قبل التاريخ، فإن المعادن التي تمثل أهمية رئيسية في تقدم التكنولوجيا عند الإنسان، كانت في مستوى أضعف، وكان توزعها أغمض. وأهمها كانت تلك المعادن الحجرية ذات البنية المتجانسة الشديدة الصلابة التي توفر إمكانات حسنة جدا للتفكك (٢). ومن أهم معادن هذا الصنف، الصخور النارية المزججة التي توجد في المناطق البركانية من إفريقيا الشرقية، وخاصة بجوار وادي رفعت الكريكوري. وكان هذا النوع أساسا لصناعة العصر الحجري القديم القفص في الكينيا حيث وفرت شفرات طويلة وعدة آلات من الحجارة الصغيرة. وهناك مادة أخرى حسنة الصفات، هي الأشكال السيليسية كالحث الصواني والصخور ذات التركيب الدقيق، المتصلة بالسلكرات والشيت والفليسات، ففي الزيمبابوي استخدمت صناعة العصر الحجري الأوسط بمباطا كمية كبيرة من الكالسيدوم، بينما استعمل صوان العصر الحجري وسيليسية على الهضاب التونسية وفي مصر، ومن المحتمل أنها مستوردان. والحث الصواني أكثر انتشارا في إفريقيا، ولا سيما في شكل حصباء في مجاري المياه. وهو الأساس في الصناعات الآشولية في العهد الحجري القديم. وفي بعض البقاع كما في الجري الأوسط من نهر الأورنج في إفريقيا الجنوبية، استعمل الشيت المتصلب تقرينا لعين الأغراض التي استعمل فيها الحث الصواني.

والخصائص الحجرية للصخور الحائرة ذات التركيب الدقيق المعروفة باسم «الحجارات الخضراء»، وللصخور النارية العميقة أو الوسطى كالبازلت والاولريت والدوريت — وهي كلها توفر مادة صالحة لصنع البلطات والقاطعات — لها مع ذلك أقل أهمية. وهي تستعمل أيضا لصنع الأسلحة كحجارات الرمي وشوكات السهام. ومن بين الصخور النارية الكثيرة الاستهلاك، لعل البازالت هو الأكثر استعمالا في صنع الأواني الحجرية، ولأنه عمليا استخدمت لهذا الغرض كل أنواع الصخور الموجودة. ومن سائر الصخور النارية استعمل عمليا وبكيفية مكثفة الغرانيتات والدوريت والدوريت. وأما الصخور الأقل صلابة كاللكسيات، فلم تكن مجهزة، بل إن في مصر استعملت صخورا ناعمة كحجر الطلق والمرمر المرقط. هذا وإن الصلصال مثل في إفريقيا بأجمعها الأساس في صناعة الفخار، وكانت منتشرة جدا متنوعة أكبر التنوع وهي ترجع إلى العصر الحجري الأوسط.

وأهمية المعادن في رقي التكنولوجيا البشرية في أزمنة ما قبل التاريخ قد تجاوزت صنع الأدوات والأسلحة والأواني. بل هي توجد أيضا في بناء المنازل حيث يحمل الجلس عمل الوحل البسيط. والعمارات العامة ذات الأهمية والمعالم كالأهرام المصرية، كل ذلك اقتضى كميات عظيمة من الصخور الغرانيتية الصلبة أو الحث الصواني. وقد أمدتنا المعادن أيضا بأصباغ الرسوم الصخرية، وقد حفظ البعض منها بكيفية عجيبة حتى اليوم في الصحراء وفي إفريقيا الجنوبية. وكانوا يحصلون على هذه الأصباغ بتهريس عدة أنواع من الصخور، كالهيماتيت والمنغنيز والصلصال الصيني، ويخلط الدقيق الحاصل ببعض العناصر الدهنية أو الصمغية.

ولكن الحديد بلا شك، هو الذي سيصير المعدن الحاسم فيما حصلت عليه إفريقيا من رقي في آخر عصور ما قبل التاريخ. فلو أن التكنولوجيا العصرية، بما لها من آلية متشعبة وما يتبعها من

استثمارات اقتصادية، تفرض استغلال مناجم غنية نسبيا بالمعدن وبصورة عامة متجمعة تجمعا كبيرا، فإن الوضع في قبل التاريخ كان أقل تحديدا وتقييدا.

والقشرة ذات الصبغة الحديدية تفتش على مناطق فسيحة من السهوب العشبية في إفريقيا. وهي تغطي عدة أصناف من الصخور على الهضاب السهبية العتيقة.

وإن لبعض الأصناف من الفروا ما يكون الأساس للأنواع النشطة الأولى لعدانة الحديد في القارة، وما إن اكتشفت تقنياتها حتى انتشرت بسرعة من طرفها إلى طرفها الآخر، وهذا ما يعاكس وضع النحاس والقصدير المحددين في المكان في توزيعهما، حتى أنها لم يتمكننا من منح إفريقيا ثقافة برونزية كبيرة الانتشار، فيما عدا بعض المجموعات في قبل التاريخ المستعملة للنحاس، كسكان النجد الشمالي الشرقي في إثيوبيا وجنوب ليبيا في ليبيا. على أنه من الواجب أن نذكر بوجود عصر للنحاس في موريتانيا، قبل الميلاد بخمسة قرون.

الموارد النباتية ونمو الاستيطان

إن الموارد النباتية هي التي تعتمد عليها القارة الإفريقية للقيام بمجريات استيطان لم ينفك يزداد كثافة. فكما ذكرنا آنفا فإن إفريقيا قبل كل شيء قارة مروج، تغطي أشعاب معمرة متنوعة أكثر من ٥٠% من مساحتها الكاملة، وتغطي الصحراء نحو ٣٠%، ثم تغطي الغابة أقل من ٢٠%. وفي مستوى الاستيطان البشري، فإن تنوع هذه المجالات كان له دور من حيث أنها أمدت الصيد بما يقتات به، ووفرت اثمار والجذور المأكولة، كما منحت من المواد ما مكن من صنع الآلات والملابس والمأوى، وقدمت أخيرا نباتات قابلة للزراعة، في إمكانها أن تتأقلم وأن تتحول إلى مزرعات فلاحية.

ومنطقة المروج هي أساسا مستودع الصيد الإفريقي بأنواعه المختلفة، من الظباء والغزلان والزرافات والحمر الوحشية والأسود والجواميس والحيارم والفيلة والكركدونات وأفراس البحر، بقطع النظر عن الصيد الصغير. فلا غرابة إذن كما لاحظ كلارك، أن وجدنا بعضا من أقدم مواقع الاحتلال البشري على طول مجاري المياه أو الأنهار وعلى ضفاف البحيرات أو على شاطئ البحر، في مشهد هو اليوم المروج والسهب المشجر، والساحل النصف الصحراوي أو الصحراء (٣).

والغابة عموما خالية من السكان، على أنه مع مرور الزمن ازداد عدد السكان وتطورت التقنيات مما دفع الإنسان إلى أن يحل في كل أنماط المناطق، من سواحل المحيط حتى الهضاب الجبلية العالية، ومنذ ما صار اليوم صحراء جافة حتى أعماق الغابة الكثيفة.

ومع ذلك فإنه يجدر أنه نذكر أن مناطق النباتات اليوم لا توافق حتما ما كان يسود من وضع في عصور ما قبل التاريخ. فعدة دورات من التغيرات المناخية العظمى أثرت في الصحراء التي كانت في الدهر الرابع القديم أكثر رطوبة، وعرفت نباتات شجريا من نوع نبات السهوب، ترعى فيها حيوانات، كالشور والخنزير الوحشي (خنزير أبو قرن) والظبي وفرس الماء. ومن المعتقد بحسب عامل التقابل، أن الغابة الاستوائية قد مرت في الوقت نفسه، بفترات أشد جفافا.

وفي الوقت الذي كان فيه الإنسان يستفيد من الموارد الحيوانية التي كانت مناطق النباتات المختلفة توفرها له، فإنه كان يستغل عين هذه المناطق للحصول على الثمار وعلى الجذور المأكولة. وفي هذا الشأن كانت الغابات — المرات، على طول مجاري المياه في مناطق المروج، تمكن الإنسان في العصر الأشيلي من استغلال الثمار والحبوب والجوز في الغابات والسهوب، وحسب كلارك فإن عددا كبيرا من الثمار البرية ومن الجوز ومن نباتات السهوب التي كانت في شمالي زامبيا في متناول النشاشيكوفين من العصر الحجري الحديث كثمار الموبويو والموسوكو — ما زالت حتى اليوم تحمي بانتظام وتستهلك من قبل الشعوب المتكلمة بالبانتو (٤). وعندما تكاثرت السكان تم احتلال كل أشكال المناطق، وأن مجموعة المنتجات الاستهلاكية المتوفرة للإنسان قد اتسعت اتساعا كبيرا. ويظن مثلا أن ما تحيط به بعض المجموعات التي تعيش بالجنوبي في وادي النيل من أهمية كبرى لأشكال من الحبوب، قد سبق زراعة هذه الحبوب المقصودة، وأدى إلى عصر انتشار الفلاحة الذي كان له الأثر الحاسم في احتلال الإنسان لأفريقيا.

وبقطع النظر عن الصيد وجني الثمار، فإن الموارد النباتية كان لها أهمية أساسية فيما يخص التجهيز بالآلات والملبس والسكن، ففي أقصى الجنوب من بحيرة طنجانيكا قرب شلالات كالمبو احتفظت آلات من الخشب احتفاظا كبيرا بشكلها ومادتها وهي نوع من بعض الأدوات القصيرة المحددة من طرف أو من الطرفين، وأعمدة مقلدة بالليل، كانت بلا شك تستعمل كمعزقات، وهي كلها ترجع إلى العصر الحجري القديم. ولأنه قل أن تحفظ مثل هذه الأدوات في مواضع أخرى، فإنه يبدو أنها كانت مستعملة استعمالا عاديا. ففي الغابة الاستوائية يعكس التجمع الصناعي اللوحي من العصر الحجري الأول بواسطة آلات ذات الوجهين النحوية الشكل، ما كان من أهمية كبرى لتقنية الخشب. وكذلك في السهوب العشبي في زامبيا وفي الملوي، فإن ما يوجد من عدة نماذج من المجرفات الشقيلة من بين الأدوات الحجرية التي تعود للعهد النشاشيكوفي من العصر الحجري القديم المتأخر، يوحي باستخدام متداول للخشب ومشتقاته في صنع كل أنواع السياجات والأوتاد والافخاخ المستعملة للصيد.

وفي الجهات الكثيفة الأشجار مثلا، حيث الصيد الفتي قليل، فلا يمد بالجلود الصالحة للكساء، تقدم الأشجار لحاءها، ومن المحتمل أن استعملت البلطات الحادة ذات النصاب، كالتى وجدت بجوار صخور مويلا بشمال زامبيا، لقطع اللحاء ولتهيئته لصنع الثياب والأواني والجبال. ومنذ العصر الحجري الوسيط على وجه التحديد بدئ في استعمال الانتاج النباتي لبناء الملاجئ التي حلت محل المساكن داخل الكهوف. مثل ذلك أن بعض الأغصان والقش والتبن المضغوط استعمل لبناء شاطرة الريح من العصر الحجري الأوسط، والتي عثر على أنقاضها في شلالات، كويشوسبرينغ، وهي ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد. وفي العصر الحجري الحديث، ولا سيما في المناطق التي اكتشفت فيها الزراعة، تكاثرت الملاجئ المسبنة بالمواد النباتية، وأحيانا بخلط الوحل بالنباتات، وقد انتشرت انتشارا كبيرا. وسجلت بلا شك أول أثر ثقافي للإنسان في المشهد الطبيعي.

ولكن لئن كان وجود هذه المنازل المتواضعة علامة على بداية الاحتلال الفعلي لسطح الأرض من

(٤) ج. د. كلارك، ١٩٧٠، ص ١٧٨، المصدر المذكور.

قبل الانسان، وعلى قابليته لاختيار نباتات جديدة يؤهلها من بين مجموعة الأنواع الوحشية المحيطة به، فانه في هذا كرس تفوقه نهائيا.

وبقيت الظروف التي مكنت الانسان من خلق أنواع جديدة قابلة للزراعة انطلاقا من الأنواع الوحشية محل جدال بين العلماء، وليست مساهمة إفريقيا في هذا الحدث العظيم وما يحيط به من ألغاز، بأقل حظ في هذا الجدل. وفيما نعلم حتى اليوم، فانه من المسلم به عموما أن هذه المساهمة أقل خطرا من مساهمة آسيا، وشرع في بحوث حديثة بعد أن حرر العالم النباتي الروسي، فافيلوف كتابه الضخم في الموضوع، حيث يرفض أن يسلم أنه لم يكن يوجد في إفريقيا مركزا لهذا الاختيار سوى مركز الأراضي المرتفعة الاثيوبية، وبدأت هذه البحوث تقدم منظورا أحسن توجهها نحو المساهمة الداخلية لأفريقيا في تطور الزراعات الفلاحية (٥). وفي هذا الشأن لا يختلف اثنان، في أن السهب كان له أهمية محسوسة أكثر من الغابة. ففي السهب، بين الألف الرابعة والألف الثانية قبل الميلاد. تم اختيار عدد كبير من الأنواع الأهلية الصالحة للزراعة. وكوّن عدد كبير من هذه النباتات الصالحة للزراعة «مركب الفلاحة ذات البذور» وقد تميزت ببذر الحبة قبل زراعتها (٦).

وفي مقابل ذلك فان بعض التأقلمات التي أجريت في الغابة، تنتمي الى مركب الزراعات التي تقتضي مسبقا تحضير النباتات والفسلات والجذامير الدرنا. وأهم تأقلم في هذه المنطقة تأقلم الأنشيام (ديوسكوريا - سب) الذي يزرع منه اليوم عدة أنواع، ومن النباتات المستأنسة في نفس هذه المنطقة: نخل الزيت (إلايس - غينينسيس).

ورغم الزراعات القليلة المؤقلمة، فان اكتشاف الفلاحة تضمن علاقة جديدة خصبة بين الانسان وبيئته. فهي تدل خاصة على قابلية للتجديدات، وذلك كنشر النباتات القابلة للزراعة الواردة من أقاليم أخرى. وإفريقيا مدينة لآسيا وأميركا الجنوبية بعدد كبير من المزروعات الجديدة. وفي اطار الموارد النباتية الطبيعية، فإن الأخذ بالاختيار لعدد عديد من النباتات الأهلية أو الأجنبية يدل على أن الانسان كان في وسعه أن يستخرج قوته من وسطه الطبيعي، بل انه أيضا كان منذ ذلك الوقت على طريق التغييرات البيئية العظمى.

وما كان لازما من استصلاح الارض لاحتلال مزروعات جديدة فيها، ومن إبادة بعض النباتات الأخرى التي قد تتقاسم معها العناصر المغذية في التربة، كل ذلك آل في كل إفريقيا الى تغييرات جذرية لطابع النباتات.

ولعل النار هي العنصر الأقوى الذي اتجه اليه الانسان لهذا الغرض: ويشهد على استعمال الانسان الإفريقي للنار شواهد تدل على أن الانسان كان يستخدم النار استخداما متداولا في إفريقيا منذ ٦٠٠٠ سنة. على أنه في البداية يبدو أنه استعملها لحماية نفسه ولصنع الآلات، ولعله استعملها للصيد بإحراق الأعشاب قصد اخراج الصيد منها. وعند اكتشافه للزراعة قد كان من الطبيعي أن يستخدم النار للتخلص من النباتات المضرة. وأثر هذا الكفاح بواسطة النار ضد النباتات الطبيعية في صالح الزراعة تأثيرا متنوعا في الأعشاب وفي الأشجار. ففي السهب وفي الفصل

(٥) أ. فافيلوف، ١٩٣٥.

(٦) رولند برتريس، ص ١٩٥ - ٢١٠، انظر في الموضوع الفصل ٢٧ من هذا المؤلف.

الجفاف يحرق العشب حتى مستوى التربة، ولكن الجذور المختفية في الأرض تمنع من إبادة هذا العشب، وبالعكس فإن الأشجار ما لم يَحْمِها لحاء كثيف قد تموت فعلا، أن هي تبقى مشوهة الشكل منكشة.

ودخول النار في الوسط الطبيعي قد أدى حينئذ إلى تحول عظيم للمشهد تسبب فيه الإنسان على مر العصور. وحيث أن تكرار النيران يقتل الأنواع القابلة للعطب في الغابة الغضة الكثيفة، فإن ظروفًا جديدة تخلق مساعدة على امتداد تدريجي للمروج. ففي أفريقيا الغربية كان هذا الوضع من الحركية ما خلق منطقة مهمة من «السهب المشتق» تمتد من الجنوب حتى ست درجات من العرض الشمالي (٦ مكرر) وفي السهب الحقيقي يلاحظ أن طابع النباتات يتغير بتأثير النارين الناشئتين في السنة، وبحسب الخواص الدنيا للمشهد، فيمر من المرح في السهل إلى سهب ذي أشجار في التربات الأكثر صخرية. وفي الواقع فإن هذا الاحتفاظ بالحريجات المتبقية على التربات الصخرية، يؤدي إلى الاعتقاد بأن النباتات الرئيسية في معظم المروج الحالية من الراجح أن تكون هي الغابات (٧).

ومهما يكن من الأمر، فإن المروج الأفريقية وفرت للإنسان في القديم موارد عظيمة. فلم تكن فحسب قابلة للاستصلاح بسهولة، بل كانت أيضا سهلة الاختراق، وكانت سهولة التنقل العامل الحاسم في العمران. فأفريقيا قارة ممتازة بالنسبة إلى كبر الهجرات البشرية، وقد استعبد وصف البعض منها بفضل الشواهد الأثرية والأثنولوجية واللسانية والتاريخية. وكان لهذه التحركات السكنية أهمية في سرعة انتشار الأفكار الجديدة وبث الآلات والتقنيات بالخصوص. وكان لهذا الإشعاع من السرعة أحيانا، ما جعل البحوث الرامية إلى التعرف على مناطق أصلية لتجديد ما، تصطدم بعقبات كأداة.

وحركية الإنسان كانت دائما عاملا حيويا في تنظيم المجموعات السكنية إلى وحدات سياسية، فكان للسهب اذن دور حسن ساعد في أفريقيا على توفير الظروف التهديدية لنشأة الدول. وحين حصلت هذه الدول على وسائل القمع، كان من الطبيعي أن تفرض هيمنتها على مجموعات أخرى لها نظام أو تجهيز عسكري أضعف مما لديها. وبعد حق مقاومة هذه الجموع لم يبق لها سوى أن تندمج في الغالب أو أن تلتجئ إلى خلوات صعبة المئال أو صعبة المعاش. وبكلمة مختصرة فإن ظهور الدول في مناطق السهوب تبعه تشتت للجموع الأكثر ضعفا، والأقل تنظيما في أوساط منفرة كالمناطق الجبلية الوعرة أو الصحاري أو الغابات الكثيفة.

شاهدنا أن الموارد النباتية في القارة لعبت دورا قويا في التطور التاريخي للإنسان في أفريقيا، فهي وفرت له ذخائر غزيرة من الثمار والدرنات، كما مكنته من خلق مزارع تعدها وحماها فأمدته بوسائل للقتل جديدة غنية. فحتى عام ١٦٥٠م حسب كارل صوندرس، لم يبق القارة سوى آسيا في الاستيطان. وكان ماها من مئة مليون نسمة يمثل ٢٠٪ من المجموع العالمي (٨). ومن أهم عوامل

(٦) مكرر. و. ب. مرجن، و. ج. س. بيغ، ١٩٦٦، ص ٢١٠.

(٧) س. د. إير، ١٩٦٣.

(٨) أ. م. كارل صوندرس، ١٩٦٤.

التسمية الاستيطانية ما وفرته الوحدات الاجتماعية السياسية الأحسن تنظيماً من زيادة في استتباب الأمن.

وسيجب أن انتشارها الأقوى كان في مناطق السهوب، فانه من اليسر أن ندرك، لماذا كانت في ذلك العهد هي المناطق ذات النسبة العليا من الاستيطان الأقوى في القارة، وستأخذ هذه النسبة في التغير شيئاً فشيئاً، خاصة في أفريقيا الغربية، منذ القرن السادس عشر الميلادي، مع تجارة العبيد ثم مع الاستعمار الأجنبي.

الموارد الحيوانية والتنوع الثقافي

ان توزيع الموارد الحيوانية مرتبط أوثق الارتباط بتوزيع المواد النباتية. وفي كل الأئمة اعتبرت إفريقيا قارة متميزة الغنى في اللبونات. والواقع أنه يعتقد أن اللبونات الإفريقية، بقطع النظر عن الحفاس، تشمل ثمانياً وثلاثين من الأسر.

وتطور توزيع هذه الحيوانات بحسب العصور وبحسب الأمكنة. وتدل الآثار المتحجرة على أن جميع المناطق كانت عامرة في وقت من الأوقات بأعظم الأنواع الوحشية. وفي منطقة البحر الأبيض المتوسط في أفريقيا الشمالية، كانت توجد بعض الحيوانات كالأسد والفيل، ومن المعتقد أن الكثير منها قد طارده فترات الجفاف القوي في العهد البليستوسيني. وتحمل ما بقي منها أثناء آلاف السنين الأخيرة انقاصات ثقيلة مما كانت تتطلبه مثلاً حاجيات الملاعب الرومانية. وقرىنا منا في أواسط القرن التاسع عشر اكتشفت الجيوش الفرنسية بقيادة الدوق دومال، أبناً مرت في الجزائر بين الصحور الوعرة في مقاطعة قسطنطينة وحتى سهول مقاطعة وهران، أعداداً ضخمة من الحيوانات الوحشية ومن جلها الأسود.

وتحتفظ الصحراء نفسها حتى الآن بسلسلة عجيبة من نماذج الحيوانات الوحشية: غزلان «موزكا» وفاما واضاكس وأور يكس ذات القرون على شكل الخنجر الخ. ونحن نعلم أنه في العصور البعيدة الكثيرة الرطوبة، كانت هذه الموارد أكثر أهمية بكثير فكان من بينها حيوانات كالغزل والكركدن وفرس الماء والزرافة والجاموس العملاق الذي انقرض اليوم وغزلان كبرى.

على أن السهوب الإفريقية تشكل المأوى الحقيقي لمعظم الصيد الضخم الإفريقي (٩) ففي المناطق الواقعة في غربي أفريقيا وشرقيها ووسطها وجنوبها، توجد الحيوانات الضارية كالأسد والفهد والقط النمر الإفريقي والضبع. وهنا توجد الحيرم والطواي والغزال والخنزير أبو قرن والغزال الأغبر وحمار الوحش والزرافة والنعامة. وهنا الموطن الطبيعي للفيل والجاموس والكركدن الأسود وفيلند دربي وعلند الكاب ورأسى الأرجل وكب سنج وكب القصب. وعلى مر العصور تغيرت أهمية الموطن الذي احتلته كل من هذه الأنواع. وقد لحق هذه الحيوانات كثير من الأضرار من قبل الإنسان. وفي الكفاح القوي في سبيل البقاء قد اضطرب بعض الأجناس إلى ترك محلها لغيرها كلها تغيرت الظروف البيئية. وهكذا فإن انعدام الكركدن الأبيض بين الزاميز والنيل الأبيض

(٩) فرنسو سومر، ١٩٣٥، ص ٩٤ (أنظر في هذا الشأن الفصل ٢٠).

الأعلى، قد يعزى الى ما وفرته تغيرات المناخ والنبات خلال العصر البليستوسيني في صالح الكركدن الأسود الأكثر عدوانية.

ورغم كون الصيد الوحشي في معظمه يتردد على الغابة المدارية الافريقية، فإن هذه المنطقة في جبلتها منحت القليل في مستوى الموارد الحيوانية، ومن أهم سكان الغابة يجب أن نذكر البوسايغ أي خنزير الدغل والخنزير الوحشي العملاق والبونكو، وكبار القردة كالشبنزي والغوريلا وكذلك الأوكابي. وفي هذا أيضا فإن التغيرات الحادثة في البيئة أثرت في امتدادات المواطن السابقة. وما لوحظ من فراغات في تعمبر البونكوناشي عن تراض ما سيكون يوما الغابة الكثيفة الممتدة على افر يقيا الاستوائية بأكملها.

ولقد أدت غزارة الموارد الحيوانية خدمات جليلة للإنسان خلال المدة الطويلة من حياته التي كان فيها صيادا قبل كل شيء. وكانت تبدو هذه الذخائر غير نادرة، حتى أن بعض المجموعات الافريقية بقيت حتى اليوم في هذا المستوى من الفخ. وهناك صنف آخر من الموارد الحيوانية: الأسماك، فهي أيضا قد تم اقتناصها منذ العصر الحجري الأوسط، فبحاري المياه وأيضاً بحيرات الماء العذب — رودلف وناكورو وعيدي أمين (سابقا ادوارد) في افر يقيا الشرقية والوسطى وفي التشاد في افر يقيا الغربية — جذبت أولى المجموعات البشرية بفضل الموارد السمكية (١٠). ومن بين الأنهار كان بالطبع للنيل قيمة فريدة، فوجدت على ضفافه أنقاض مجموعات مجاورة كانت تستخدم المخاطيف وصنارات العظم، وكانت أيضا تصطاد فرس الماء والتمساح وتستهلكها، ومازال حتى اليوم من طرف افر يقيا الى طرفها الآخر يستعمل فلك بسيط عفور في جذع شجرة قصد الصيد في المياه الداخلية. وقد تتجرا قليل من مجموعات الصيادين على صنع أفلاك ذات أهمية للمخاطرة بها للصيد على الساحل البحري. وفي كل مكان وحتى عصر قريب، فإن التطور التقني الغير اللائق، قد منع الناس من استغلال الموارد الغنية على المناطق الجافة في القارة.

والشروة الرائعة للحيوانات البرية وتنوعها، وفرا ذخيرة عظيمة مليئة من الحيوانات الأهلية على أن تدجين الحيوانات في افر يقيا اقتصر عمليا على الحمار والقط والدجاج الحشيشي (١١). وأحد أسباب هذا العمل المتواضع هو أن افر يقيا في العصر الحجري الحديث قد برزت عليها الأساليب السابقة الأكثر نجاعة والمجربة في الجنوب الغربي من آسيا. وأذاك تعلمت القارة حياة الرعي، فالرعاة الأولون في العصر الحجري الحديث ظهروا، حسب كلارك، في الصحراء خلال الألف الخامسة قبل الميلاد وربما قبل ذلك فكانوا يسوقون قطعانا من الدواب ذات القرنين الطويلين أو القصيرين، ومن الماعز والخرفان. واستمروا على ذلك حتى طاردهم جفاف الصحراء المتزايد.

على أن صناعة الرعي لم تنتشر بكيفية منتظمة في كل الأوساط في القارة. فإن كان معظم المجموعات قد نجح في مراقبة عدد من القطعان الصغيرة، فإن قلة فقط تمكنت من تدجين القطعان الكبرى. ومن هؤلاء طوارق الصحراء الفلانيون في السهب الافريقي الغربي، والماساي في مروج

(١٠) أنظر بوتون، في هذه النقطة أنظر الفصل ٢٠.

(١١) ج. دسمند كلارك، ١٩٧٠، المصدر المذكور ص ٢٠٤.

أفريقيات الشرقية، وقد بقوا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بحياة الرعاة، وتركوا كل محاولة للجمع بين هذا النمط من العيش وبين نمط الفلاحة.

وتستبع هذه المجموعات بلا فتور قطعانها في طلب الماء والكلأ، فعاشت حتى اليوم حياة البدو الرحل في أدق شكل لها. على أن بعض مجموعات البوتني في إفريقيا الشرقية وفقت في مشاركة تربية الماشية مع العمل الزراعي، لصالح الواحد منها بتأثير الآخر. ولعله مما منع ازدهار الرعي في إفريقيا، تكاثر أجناس حيوانية أخرى كان لها أثر متميز السلبي على نمط الموارد بالقارة.

وفي هذا المجال، لابد من ذكر ذبابة النعاس (تسي، تسي)، وهي ذبابة ضخمة كثيرة التحرك، وهي العامل الرئيسي وليس الوحيد في داء المثقبيات، وهو مرض يسبب للإنسان مرض النعاس، وهو يعني الموت بالنسبة للحيوانات. وتوجد اليوم هذه الذبابة في منطقة تخترق إفريقيا بين الدرجة ١٤ من العرض الشمالي إلى الدرجة ١٤ من العرض الجنوبي. ولا يشد عن ذلك سوى الأراضي المرتفعة التي تتجاوز ١٠٠٠ متر وهي نسبياً باردة، وسوى مناطق الأعشاب القصيرة، حيث يكون الفصل الجاف شديد الحرارة والجفاف، فلا تتمكن ذبابة النعاس من التكاثر فيها.

وجدت ذبابة النعاس في إفريقيا منذ أقدم العصور، واذ وجدت آثار متحجرة من هذا الحشرة في أميركا الشمالية في طبقات الميوسين فإنه يبدو أنها كانت أكثر انتشاراً في ما قبل التاريخ (١٢)، وقد يكون انقراضها من بعض الجهات الأفريقية أو الخارجة عن إفريقيا ناتجاً عن التضايف بين التغيرات المناخية والحوادث الطبيعية والعهد الجليدي. ومن الثابت في إفريقيا ذاتها أن التداولات المناخية في عصر البليستوسين، قد كان لها كبير الأثر على توزيع مختلف أجناس ذباب النعاس، بل وحتى على نسبة ضررها.

والمناطق التي عانت فيها هذه الذبابة فساداً، قد كونت حاجزاً كبيراً فاعلياً ضد انتشار تربية المواشي. ومن المحتمل أن الرعاة قد فهموا بسرعة أن قطعانهم كانت مهددة بأخطار جسيمة عند مرورها بالمناطق التي أفسدها.

لذا فإن نزول القطعان نحو الجنوب انطلاقاً من إفريقيا الشمالية، كان تابعا لوجود ممرات خالية من الذباب، كما هو الشأن القطعان التي كانت تنشؤها مجموعات زراعية منظمة لها كثافة كافية. ومثال مفيد على ذلك، مثال هجرة الرعاة المربين للحيوانات منذ ما يقرب من تسعة قرون، منصهرين مع شعوب أخرى لانشاء مجتمع التسي وهوو في روندا وبرندي الحاليين.

ولا شك أن تاريخ إفريقيا كان من المتوقع أن يكون مخالفاً كثيراً لما هو عليه، لو لم تعرف القارة ذبابة النعاس. إذ أن هذه الحشرة كانت تمنع المجموعات الزراعية المنظمة من استخدام الدواب الضخمة، فلم يلبأ قط إلى هذه الحيوانات كدواب للجر والنقل. ولم تتوفر قط أيضاً للأفارقة فرصة اكتشاف العجلة الكبير الأهمية. وفي هذه الحالة فإن ما مكن الدواب الضخمة عند بعض الشعوب من حرية الحركة، لابد أنه شجعهم على التعدي على الشعوب المستقرة (١٣).

(١٢) ت. د. أ. كيرال، ١٩٠٧، ١٩٠٩، ١٩١٩، ص ٣٠١ - ٣١١.

(١٣) أنظر في هذا الصدد دور الحياة (الفرسان) في تكوين الدول، ولا سيما في شمال وسط الإستواء.

ومن العوامل الحيوانية السلبية نجد بعوضة حمى المستنقعات والجراد. فمن عديد أنواع البعوض التي في امكانها أن تنقل عدة أصناف من طفيليات حمى المستنقعات، يوجد ما يجلبه الدم البشري أكثر من غيره. فمن البعوض الذي يعيش أكثر من غيره في افريقيا، بعوضة الملاريا جامبيا التي تجد غذاءها على الحيوانات أيضاً، فيكون من الصعب القضاء عليها اذ هي تتمكن من البقاء حتى ولو منعت مؤقتاً من الهجوم على الانسان. ويتكاثر البعوض على المياه الراكدة، ويتوالد بجوار المستنقعات والجداول. ويتكاثر خاصة عند ازدياد الأمطار. وتساعد درجات الحرارة المرتفعة على نمو دعاميصها وعلى دورة الطفيليات الدموية في البعوضة البالغة. وبالعكس ان الطقوس الباردة في المرتفعات العالية تخفض من حدتها. فالملاريا المستوطنة تميل نحو الانقراض في ارتفاع يفوق ١٠٠٠ متر، ولو أن نقلها يستقر على أكثر من هذا الارتفاع.

ولا يعلم منذ متى صارت هذه البعوضة جزءا من المحيط البشري في افريقيا. ونسبة خلايا جلجسي الكبيرة الموجودة عند الكثير من الأهالي الافريقين، قد يشير الى علاقة وثيقة وطويلة المدى بين هذه الخلايا وبين تطور الاستيطان الافريقي. وبدون شك، فإن هذه الخاصية ناتجة عن أثر عدة قرون من الانتشاء الذي ساعد هؤلاء السكان على البقاء في ظروف وباء كبير الاستيطان من الملاريا. ويقدر ما كانت هذه البعوضة تهدد حظوظ البقاء لهذه المجموعات البشرية غير المكيفة تهديدا خطيرا، فهي أيضا قد لعبت دورا مهما في تاريخ القارة. ومن الأكيد أنها بالفعل، حتى القرن العشرين، أياست الاروبيين في محاولاتهم الاقامة في المناخ الحار الرطب في افريقيا الغربية، وحفظت هذه المنطقة من المشاكل الشائكة القائمة بين الأعراق، تلك المشاكل التي اضطرب منها تاريخ الأراضي المرتفعة في افريقيا الشمالية والشرقية والوسطى أو الجنوبية، وقد كانت ضحية للاستعمار الاستيطاني.

والجراد من المصائب التقليدية في افريقيا. وهي حشرات ضخمة تعيش عادة منعزلة أو جماعات صغيرة. وهي توجد في مناطق التحول النباتي، على حافة الصحراء أو على حدود السهب العشبي والغابة، ويوجد في افريقيا على جنوبي الصحراء، الجراد الأحمر والجراد الرحال الافريقي وجراد الصحراء، وتحتاج ثلاثتها الى نوعين من المواطن: تربة عارية لوضع بيضها، ومشهد مخضر لتتغذى منه. فإذا ما ضاقت تربة تغذيتها أكثر مما يلزم لسبب من الأسباب، فهي تتجمع فرقا كبيرة لتهاجم مناطق قريبة أو بعيدة. ويوجد في الماضي أمثلة من هذا النوع من الزحف، تنص عليه التوراة كاحدى الكولم التي رمى بها موسى مصر. ومنذ القرن التاسع عشر صارت التقارير يرعنا أكثر غزارة. فنحن نعلم مثلا أن افريقيا الوسطى قاست من هذه الزحفوات المتكررة بين سنة ١٨٤٧ و ١٨٥٤ و ١٨٩٢ و ١٩١٠، وقرىبا منا بين ١٩٣٠ و ١٩٤٤. وفي نظر الأهالي المزارعين المستقرين، ان الأضرار الناجمة عن تهاتل سيول الجراد، ولا سيما اذا وقعت في فصل الحصاد بالذات، فانها تعني المرور العنيف من الخصب والثروة الى المجاعة. وفي الماضي اذا وافقت الظروف المناخية السلبية - كالجفاف مثلا - وقوع هذه الهجومات، فهي تساعد على انبعاث الانقلابات السياسية والاجتماعية.

الثروات المائية والحركية البشرية

يجدر أن لا ننقص من قيمة الثروات المائية في تطور التاريخ الافريقي، فان وجدنا في قطاعات مختلفة من القارة أرقاما تسجل أقوى التهاطلات في العالم، فان أرقاما أخرى تشير الى بعضها الأكثر ضعفا. وامتدادات الصحراء والكلاهاري العظيمة شاهد لا يقبل الطعن، على ما في قطاعات فسيحة من افريقيا من الجفاف القاسي. وحتى خارج الصحاري، فان منطقة السهوب الفسيحة لا تستقبل الا تهاتلات كافية تماما، وفي هذه المناطق فان الحياة البشرية تابعة في جانب كبير، للتأرجحات الاتفاقية للرياح المحملة بالأمطار. ولو كان في الامكان أن يلجأ الى موارد أخرى للماء، كالجداول والبحيرات وحقول الماء الجوفي، لكان الأمر أقل خطورة.

ولكن في مناطق متسعة من القارة، ولا سيما في الجهات الحارة نسبيا من الأراضي المنخفضة، فان الأودية النهرية التي تعيث فيها الحشرات الضارة، غير صالحة بموجب ذلك للاستقرارات البشرية. ثم ان نظام الأنهار يتبع من قريب نظام الأمطار وهكذا تكون مساعدتها قليلة، في فترات التهاطلات غير الكافية مثلا، اذا ما استطال فصل الجفاف، واذا ما كان يجري الأنهار ذاته ناضبا. وفيما عدا وادي النيل، فإن التكنولوجيا التقليدية لم يكن لديها أي وسيلة لحزن الماء استعدادا للأيام التي لا مطر فيها. والتقنية الناقصة في التقدم تعني أيضا، أنه لم يكن في الامكان الوصول الى ما تحت الأرض من مياه على عمق يتجاوز عمقا معيناً حتى في مناطق الأحواض الارتوازية. حيث خزنت البنيات الجيولوجية كميات ضخمة من الماء. وعلى جانب كبير فان القارة تبطنها قاعدة من الصخور، لا يوجد فيها الا القليل من امكانيات الحزن لطبقات مائية غزيرة. ولا يمكن للمستوطنين البشر الا أن ينتظروا التهاطلات السنوية.

ولذا فان قلة الماء الناتجة عن الجفاف كانت دائما من خواص الحياة الافريقية. والتاريخ المناخي لعصر البليوسين، يدل على أن عدة قطاعات من القارة تبعت على الأرجح، نظاما دوريا طويل المدى من تهاطلات تزداد أو تقل قوة. ومهما يكن من أمر، ان الجفاف يمثل ضغطا من النطاق المكاني على الجموع البشرية، وهو يضطرها الى رد الفعل، ويعبر عن هذه التفاعلات في الأكثر بالبحث عن مناطق أكثر أمطارا للاستقرار فيها نهائيا، أو بصفة مؤقتة.

وقد تكون هذه الهجرات مسالمة، ولكنها غالبا وبحسب تنظيمها وبحسب الكيفية التي وجهت بها، قد تميل الى التعدي، ويرى تاريخ العديد من الجماعات الافريقية حركاتها الهجرية من قطاع الى آخر، أو ذلك زحف جمع مهاجر قوي أخضع لسلطانه المجتمعات ونظمها.

وحيثما وجد الماء بكيفية كافية، سواء في ذلك ماء المطر أو الماء الجوفي، وحيثما تمكنت الفلاحة من التطور والنمو انتشر استيطان منظم حسب سيرة تدرجها للتطور الاجتماعي، على الطريق الطويلة الوعرة، قصد السيطرة على الطبيعة، ونضجت المحاصيل غنية متنوعة، وفرضت سرعة نضجها بسرعة الحياة الاجتماعية. وصار لفصل الحصاد أهمية حاسمة، ووضعت أعمال طقوسية تقدس حدثا مجهول التفسير، حتى أنه نسب الى بعض القوى المحسنة، ويتبع الصعود في السلم الاجتماعي هؤلاء السكان المظمين عددا من سائر العوامل، أحدها — على الأقل — غزارة الموارد الغذائية التي تمكن

من تقسيم العمل ضمن المجموعة، وتساعد على ظهور جموع مخصصة في نشاطاتها. وليست هذه الامكانية تامة فقط لمخزونات الماء، بل كذلك لخصب الأراضي.

ثروات التربة والتطور الاجتماعي للمجموعات

ان الخواص الجيولوجية لمقاطع فسيحة في افريقيا عينت الى حد بعيد طبيعة التربة، ونظرا لتنوع الصخور في القاعدة كانت صفات التربة التي تكونت من عناصر متشابهة، هي ذاتها متنوعة جدا. ولكن خصبها في الغالب ضعيف، نعم ان تلك الصخور تبدي عادة ذخيرة ملائمة من معظم العناصر المعدنية اللازمة لتغذية النباتات، ولكن تنوعها يؤدي الى تفتيرات مهمة في شعاع جغرافي صغير. وما تكون من التربات على الصخور الرسوبية، يرمي الى الاحتفاظ بتجانس أكبر على مساحات كبرى، على أنه لا صلة له بالمساحات الممتدة التي لها خصب التشنوزيوم في أراضي القمح في اكرانيا، أو هروج أميركا الشمالية.

ان التفاعل بين خواص التربة والعوامل المناخية، بدا حاسما تماما بالنسبة الى خصب التربة وقدرتها على الوفاء بحاجيات عمران كثيف لمدة طويلة. وفي المناطق الندية فان الخصب الموهوم الذي يظهر من نبت النباتات الغضة، يعني طبيعة التربة الهزيلة. وإذا ما استصلحت الارض بقلع النباتات الطبيعية تنفست المواد العضوية للتربة بسرعة بعمل الجراثيم القوي، تنشط درجات حرارة عادة مرتفعة. ففي وقت قصير ينحط الخصب، ويتضاءل انتاج المحاصيل، ويضطر البشر الى البحث عن موطن آخر.

وعلى النقيض في المناطق الناقصة الرطوبة، يكون خصب الأرض أحسن، إلا أن تغيرات رطوبة الأرض الدورية تساعد على تكوين قشور من معدن الحديد الوعي غير صالحة للزراعة. وينتج عن هذه القشور تشتت التربات المتوسطة الخصب، فتكون امكانياتها لتغذية استيطان بشري كثيف محدودة جدا. وتلك هي طبيعة التربات التي نجدها في افريقيا الغربية شمالي الغابة الغضة، وعلى هضاب افريقيا الوسطى على حافات حوض الزاير. كما توجد هذه المساحات أو القشور الملموسة من بين الأراضي نصف الجافة المستقبلية لتأطلات معتدلة، إلا أنها أكثر تشتتا، وينتج عن ذلك أن التربات السمرء والرملية في هذه الجهة، هي أكثر خصبا، وإذا ما كانت السنة مطيرة بقدر كاف، فهي تنتج محاصيل لائقة. وفي الشمال فان تربة الصحراء سطحية وملاحتها ضعيفة وتعوزها المواد العضوية.

ومن الصفات الملحوظة في جغرافية افريقيا قلة امتداد التربات الخصبة تماما، وشدة تشتتها. وتشمل هذه التربات الصلصالات العميقة المشتقة من البازلت ومن سائر صخور العصر البليوسيني، أو صخور فترات أكثر حداثة، وبعث عليها خاصة، في بعض أجزاء افريقيا الشرقية. وفي الغابة الكثيفة يكون لهذه التربات في المرتفعات لون الشوكولاتة وفي البقاع المنخفضة لون الحمرة. وهناك تربات مشيلة لها في الخصب هي التربات الغنية المشتقة من عين الانحزج من الصخور، والموجودة في السهول المعرضة لفيضان الأنهار كالنيل.

وساعدت المحاصيل الغزيرة في هذين النموذجين من التربات، على نمو استيطان بشري كبير كثيف. فإذا ما أدى هذا التجمع — كما في وادي النيل الى درجة عليا من التنظيم الاجتماعي ومن رقابة المحيط — مثل ما كان في العصور الحجرية الحديثة وقبل عهد السلالات — فتكون الظروف متوفرة لتسارع الرقي. ويتضمن ذلك تطور الحضارة في المدينة، والتمييز بين الطبقات، كما يتضمن صناعة مهذبة وفنا معماريا معلمييا. وفي النهاية استعمال الكتابة. وكان هذا، أكثر فأكثر مآل العلاقات المنتظمة مع وادي الرافدين، بل كذلك مآل الامكانيات التي وفرها الاستيطان الكثيف المتكون من جميع اجتماعية متنوعة لتحقيق ازدهار الفلاحة التي بلغت في ذلك العصر السحيق درجة مذهلة.

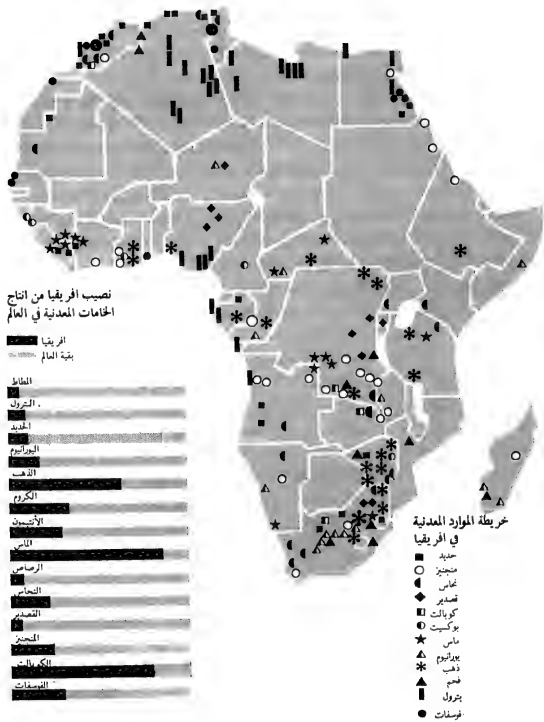
ووجدت ظروف مماثلة لذلك فيما بعد في عدة أماكن من إفريقيا، وذلك كمثال منعطف النيجر عند انشاء امبراطورية غانة في بداية العصر «الوسيط». ومع أن مناطق أخرى تظهر تربات خصبة نسبيا، فإن امتدادات كبيرة، ولا سيما على سهول الأراضي المرتفعة حيث عاث فيها غسل منذ ملايين السنين، ليس فيها سوى تربات سهلة الفلاحة تعوزها السمد الملائم للنباتات، فبقيت حتى في عصرنا هذا ذات قيمة ضعيفة من الوجهة الفلاحية. ففي هذه الجهات لم يتمكن الانسان من البقاء الا بالمرور من زراعة الى أخرى منذ العصر الحجري الحديث. وهذا الصنف من الاقتصاد فيه تدمير ثابت للتربة، ولهذا كان حائلا دون تكوين مجموعات سكانية كثيفة، قليلا أو كثيرا. وهذا الوضع الاستيطاني المتفرق على مساحات فسيحة من القارة، وآثار هذا التوزيع غل التطور الاجتماعي، لا بد من اعتباره عامل محس في تاريخ إفريقيا. وكل يعلم أن خصب منطقة من المناطق يتبع في أن واحد خواصها الذاتية ونجاعة استغلال تربتها. ومن الحقيق أيضا أنه في جهات أخرى من العالم، قد مرت مجتمعات بلغت اليوم مستوى عاليا من التطور الاجتماعي، مرت بأطوار تبع فيها اقتصادها أيضا، زراعات طارئة. فبالنسبة الى إفريقيا إذن فإن الاستغلال اللائق للتربة يكتسي أهمية رئيسية في التطور الاجتماعي، وإن كان هذا الاستغلال عدودا في الماضي، فهو يدل اليوم على الطريق التي ينبغي سلوكها للمشروع بجهد في دورة الرقي الخامس.

الخلاصة

إن الجغرافيا التاريخية الإفريقية، وبخاصة منها ما له علاقة بالمظاهر الاقتصادية، تمدنا بصورة قارة كانت الطبيعة معها في غاية اللطف. وعلى الأهل في المستوى السطحي، فإن هذا الطابع المظاهر للحلم الطبيعي التي توضحه الغزارة الواهية للغاية المدارية، كون ضربا من الفخ شعوب هذه القارة. وهذه المجموعات البشرية وقد توقفت عند سهولات للعيش كبيرة، مرت بجوار ظروف ممزقة للتطور الاجتماعي. ولا شك أن بعض الرجال أو بعض المجموعات من الناس ظهرت هنا أو هناك وحاولت أن تستقطب أتباعها وأن تسير بهم الى الامام. ولكن عنفهم بقي أثرا على ورق. وما لا شك فيه وبصفة مبدئية، فإن التدخل الأجنبي، خلال مغامرة النخاسة الطويلة القاسية، قد طبع تطور القارة العام بمسهم الشؤم. ولكن لئن كان هذا التدخل حادثا، ألم يكن ذلك ليذكر بعنف ما يمكن

أن يجابهه من مخاطر كل أخطار جمع بشري يتأخر عن أن يدعوا دون تلكؤ دائما الى انشاء منظمات اجتماعية أشد تماسكا، وأقوى امتدادا، وأكثر تشعبا، وأقوى مواجهة للتحديات المحتملة؟. ولن يأتيينا تاريخ أفريقيا بشيء، إن لم يبرز هذا الأمر ابرازا واضحا. وتكشف لنا الجغرافيا المعاصرة لأفريقيا عن قارة حازت منذ ما قبل التاريخ على ثروات طبيعية غزيرة - على أن الماضي الاستعماري الحديث قد أعان على انشاء وضع مكن من استغلال هذه الثروات على نطاق واسع في شكل مواد خام، صدرت لصالح مجتمعات أخرى.

ثم إن الاقتصاد العصري، الذي يملك كفاءة تقنية عالية، لا يسمح باستغلال هذه الثروات، إلا إذا انتظمت الشعوب الأفريقية في مجموعات عظيمة مندمجة لتكون قواعد كافية للنمو الحقيقي. وتاريخ عشرين من سنوات الاستقلال ليبقى انطباعا غائما، ويبدو أن حتمية بناء مجموعات كهذه تقابل مجموعات مشابهة، تتكون أكثر فأكثر على أرضنا، ما زالت حتى الآن، بعيدة جدا عن الإدراك... وإن كان لهذه اللوحة من الجغرافيا التاريخية والاقتصادية للقارة الأفريقية، أن توتّي أكلها، فلنذكر أن الطبيعة لا تعين مصير شعب ولا مساره، وهي لا ترغم على أمر ما، وفي أحسن الأحوال هي تؤثر وتغري. والشعوب كالأفراد كانت دائما وستبقى بناءة لمصيرها الذاتي.



● الموارد المعدنية في أفريقيا — خريطة مأخوذة من كتاب «أفريقيا» (بالفرنسية) — مجموعة دار «هاتيه» للنشر، ١٩٧٦ .
قبة ٢

الفصل الخامس عشر

مناهج تداخل العلوم المعتمدة في هذا الكتاب

بقلم ج. كي. زيربو

منهج تداخل العلوم

إن اعتماد منهج تداخل العلوم في ميدان البحث التاريخي يعتبر موضوعا موافقا لذوق العصر. إلا أن تطبيقه أصبح عسيرا سواء لتباين الطرق المنهجية التي تختص بها العلوم المعنية بالأمر، أو لأثر العادات الخصوصية التي انغلق فيها الباحثون، غير أنهم على نوع من السيادة الترايبية العلمية. وقد كان لذلك أثر على عرض نتائج البحث الذي ما انفك يميز في حياة شعب من الشعوب، الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها وذلك من خلال قطاعات مفصولة عن بعضها، فإن بدا لباحث أن ينجح منهج تداخل العلوم، فإن ذلك غالبا ما يتخذ أسلوب الاستيعاب والشمول. إن التاريخ يحتل في حرب التصدر والهيمنة هذه، مرتبة غير واضحة: فهو طبعاً ضروري لجميع العلوم، إلا أنه لما قصر عن الاشتغال على مصطلح خاص شبه سرّي كثيراً ما يتحصن به الاختصاصيون في العلوم الأخرى، فإنه يبدو وكأنه ملتبس الطرق، ولهذا يُخشى عليه أن يفقد شرعيته بسبب وجوده في كل مكان.

فالتاريخ باعتباره مادة رئيسية، كان يعتمد تقليدياً على عنصر أساسي، وهو الوثيقة المكتوبة. إلا أن تاريخ القارة الأفريقية ولا سيما ما وجد منها جنوب الصحراء، يتميز بقلّة نسبية من حيث المصادر المدونة خاصة قبل القرن السادس عشر الميلادي. والأمر أسوأ بالنسبة لما قبل القرن

السابع الميلادي. واعتباراً لذلك فإن المثل الافريقي يقول: «ترضع الجدة عندما تفقد الأم» (١) فوجب عند فقد المصادر المدونة، أن يستجمع تاريخ القارة الافريقية كل المصادر المتوفرة من أجل استعادة أسس الماضي. ويمكن أن يتحول النقص إلى عنصر إيجابي، وذلك بالتخلص من الأثر السلبي للنص المكتوب، الذي يتسبب أحياناً في تهاون ضمني بالمصادر الأخرى. ومن جهة أخرى، لقد عانى البحث في التاريخ وفي العلوم الإنسانية بأفريقيا متاعب كثيرة من داءين متناقضين: أولهما التحرّيف التاريخي الذي يؤدي إلى اعتبار مجرى الأحداث في النظام الاجتماعي كأنه سبحة تشكل حياتها الأحداث المسجلة في التاريخ. ولذلك أصبح الشغل الشاغل هو إعادة عناصر التوثيق التي تساعد على توضيح تطور الشعوب، مع إهمال كل ما تبقى (الاقتصاد والبنيات الاجتماعية والثقافات).

ومن هنا نشأ ذلك التاريخ التسلسلي الذي يعتمد الانساب والأحداث والذي جاء هز يلاً لأنه متجرد من كل لحمه تربطه بالحياة. و يوجد انحراف أسوأ، يبدو أنه نشأ جزئياً عن الحكم المسبق بالبدائية على الواقع الافريقي، وقد أطلقت نظرية التطور السطحية. فهو يحلل بنيات خارجة عن الزمن، مهددا العمق التاريخي الذي لا يمكن دونه أن يكون لتلك البنيات معنى موضوعي أو شعوري.

وكذلك الشأن بالنسبة لبعض الباحثين المعجبين بكمال العلوم التي ينتسبون إليها. ومنهم اللغويون الذين يرفضون كل ما هو من قبيل التداخل الثقافي، وعلماء الأجناس الوظيفيون الذين ينكرون كل بعد تاريخي. ولكن هذه الأسوار المنيعية بين المواد العلمية أخذت لحسن الحظ تهار تدريجياً، وفي هذا المجال يقول ج. دسمند كلارك (لقد ثبت أن علماء الآثار واللغويين وعلماء الإنسان الشقائي وعلماء الأجناس، يواجهون في أغلب الأحيان نفس المشاكل، وأن أحسن طريقة لحلها تكون في العمل ضمن مجموعة العلوم المتداخلة. وهذا عامل من أكثر العوامل تشجيعاً على الدراسات الافريقية اليوم وحثاً عليها..) (٢).

إن شبه التاريخ المطبوع بالاعجاب بالترتيب التاريخي فحسب، وبسرّاب التحليل البنيوي السكوني والشكلي المحض، يضمحل شيئاً فشيئاً، مثلما تشهد بذلك المدارس التي تدرج التطور الزمني والتفاعل في منهج تحليلها، وذلك بادماج الظاهرة الثقافية والظاهرة اللغوية معاً، مثلما فعل كالامسي وغريول وهويس، أو بالتخلي عن طريقة الاجتماعيين الجامدة مثلما فعل بلندية، واعتماد طريقة دينامية تتخذ الحركة والمقابلة وسيلتين للتحليل. أليس التناقض جزءاً لا يتجزأ من الواقع؟ فالمؤكد هو أنه ليس من مصلحة أي علم كان أن يعالج وحده العالم الافريقي الذي هو على غاية من الكشافة والتعقد. فكأننا نبغي حل المشكلة بضرر حاسم. وذلك شأن الباحثين الذين يظنون بأنه يمكن العثور في عنصر واحد، على التفسير الأساسي الخاص بهذا أوداك من المجتمعات الافريقية، مثلاً باعتماد التحليل البنيوي للرقابة، أو نظام التصورات والمعتقدات والأساطير والرموز التي تعتبر

(١) قد يبدو أن الرضاع عملية قائمة على رد فعل. إلا أن النظام الافريقي للأدوية كان يشتمل على وسائل لتشيطه.

(٢) جاك دسمند كلارك: ما قبل تاريخ أفريقيا: إمكانيات التعاون بين علماء الآثار وعلماء الأجناس وعلماء اللغة، صدر بجلة اللغة وانتاريخ بأفريقيا — فرنك كاس، ١٩٧٠.

متميّزة باستقلال ذاتي أو بنطق خاص، فتكون مستقلة مثلاً عن علاقات الانتاج (٣). وفيما يخص القرابة، فإن تحليلها مرتبط في افر يقياً بنظم أقل «صفاء»، وأكثر تعقيداً مما هي عليه باستراليا مثلاً. وتلك بنىيات يعتبر لبني سترأوس انها خاضعة لعناصر أخرى (اقتصادية وسياسية)، تختلف عن القانون الوحيد الخاص بقواعد القرابة.

ان التاريخ الافريقي أقل العلوم احتمالاً للحصار المضروب عليه، و يصدق ذلك حتى على وضع يعتبر فعلاً من خصائص التاريخ، وهو الترتيب الزمني، ففي كثير من الأحيان لا يمكن أن نثبت بالدليل القاطع حل مشكل من مشاكل الترتيب الزمني، الا بالاعتماد على أربعة مصادر مختلفة: الوثائق المكتوبة، وعلم الآثار، واللسانيات، والتقاليد السماعية. فالمؤرخ الذي يلتفت الى الماضي يشبه سائق السيارة الذي توفرت له، لتقدير المسافات، آلات متعددة: عداد سيارته، وساعته، والعلامات الكيلومترية، وربما أيضاً أقوال أحد من أهالي المنطقة. إن هذا التأثير الضروري يعتبر فعلاً عنصراً إيجابياً يضمن استعادة صورة الماضي في وضوحها وكمالها، في حين أن مصدراً واحداً قاصر عن استعادتها مكتملة. إن وصف كومي في كتاب المسالك للبكري يمكن أن يظل ناقصاً لولم يستخرج الآثار يون الأطلال ولم يفسروها تفسيراً أبلغ مما قاله عنها البكري. ولنصف هنا أيضاً أن التقاليد السماعية لم تكن مفقودة، بل كانت السبب في اكتشاف موقع كومي صالح، وفي هذه الأحوال، هل يمكن لنا أن نقول بالمصادر الجيدة أو بالمصادر الرديئة، عندما نصفها حسب سلم تمايزي تحتل فيه الوثائق المكتوبة القمة وتنزل التقاليد السماعية المنزلّة الدنيا؟ ذلك ما يمكن تصوره. ان قيمة مصدر من المصادر لا تشكل واقعا في حد ذاتها، فهي مرتبطة بالموضوع الخاص المستهدف بالبحث. في كل حالة يوجد ضمن مجموعة الروايات المتوفرة لدينا، مصدر محوري ومرجع أساسي يمكن أن يختلف بحسب الموضوع. ان الوثائق المكتوبة لا تعتبر المصدر المثالي بالنسبة لما قبل تاريخ افر يقياً، أو بالنسبة للمجتمعات (القرمية) لأن تلك الوثائق مفقودة. ان مجموعة الأدلة التاريخية تخضع، حسب الأثرية وحسب المناطق الأفر يقية، لهذا المصدر المحوري أو لذلك، وتؤدي المصادر الأخرى وظيفة تكميلية أو ثانوية. فالمصدر الأساسي قد لا يكون واحداً اذا تعلق الأمر مثلاً بمجموعة مجهولة من قبائل الجيتول، أو بمملكة يوغرطا أو الكيردي بشمال الكرون أو قبائل الأشني في بلاد غانا أو قبائل الكابني بشمال الطوكو، أو امبراطورية كاوو التي سجل أحداثها تاريخ الفلانيين فلا يمكن استعمال نفس المصدر من مصادر التاريخ ولا يمكن أن يعتبر اي مصدر أساسياً الا بعد الانتهاء من التحقيق، لأن المصدر هو الذي يكتيف النتيجة، ولكن النتيجة هي التي تبرز المصدر. فان كان ذلك صحيحاً، يمكن حينئذ أن نقول دون خطأ، بأن منهج تدّخل العلوم، في مستوى المادة التاريخية الافريقية، ليس من باب الترف، بل يعتبر مقدّمة من مقدّمات المنهج الأساسية. ولذلك لا يوجد بديل لمنهج تدّخل العلوم.

تكاملي المصادر

ان مصادر التاريخ الافريقي — لا شك في ذلك — متكاملة الى حد أن كل واحد منها عندما يقتصر عليه، يظهر مشوهاً ويعكس صورة باهتة لا يمكن توضيحها الا اذا اعتمد على مصادر أخرى. ان علم الآثار لا يعدو في حد ذاته أن يكون وصفاً جافاً، ومعاينة قد تبث على الأسف، خاصة اذا اعتمد على أسلوب مرتجبل، انطلاقاً من بعض العينات، ويمكن أن يتباطأ الاكتشاف بتباطؤ مزعجاً اذا ما اضطر الباحث لانظار حفريات أخرى لتأييد أو تفنيد الافتراضات المقدمة. على أن علم الآثار يمكن أن يقدم خدمات جليلة للعلوم الأخرى التي تعامله بالمثل اذا ما وضع في اطار الحياة المتعددة الأشكال التي يريد الكشف عنها. ان تفسير ما يعثر عليه من اكتشافات يوجد في غالب الأحيان خارج ميدان علم الآثار نفسه. ففي الزمبابوي مثلاً نجد في مناجم الذهب، والدفاع عنها الاعتقادات الدينية، نجد التفسير الصحيح لأغلب البنيات التحتية والبنيات الفوقية. وفي مكان آخر لا يمكن تفسير محتوى القبور ووضعية الموق في أضرحتهم الا بالاعتماد على معتقدات الناس وتصوراتهم للأخرة. وعلى العكس، اذا كشفت الحفريات بشمال غانا عن تصميم معماري مشابه للتصميمات المعمارية الموجودة بالسودان الساحلي، فذلك يعني أن علم الآثار يضع أو يحل مشكلاً مهماً من مشاكل التأثير الثقافي.

وكذلك الأمر بالنسبة للفن الافريقي الذي يجب أن يسلط عليه ضوء التاريخ ليسلط عليه ضوءه بدوره. فالفن ولا سيما فن ما قبل التاريخ خاضع لعناصر متعددة، انطلاقاً من الجيولوجيا، الى الديانات، والأساطير، وخلق الكون، مروراً بالبنيات الاجتماعية — السياسية وبتمسك الملوك بالسلطة. وفي هذه الأحوال فان الجمال يخضع خضوعاً مباشراً للاخلاق ويتغدها في نفس الوقت. أما الفن، فهو مكان تحفظ فيه تحف الانثروبولوجيا الثقافية، وحتى الطبيعة، نظراً لما يتوفر فيه من الطقوس والتشريعات وتسريحات الشعر، والملابس والمناظر.

لكن فهم الفن نفسه كوسيلة تقنية ملهمة، لا يمكن أن يتحقق خارج التاريخ. فيمكن مثلاً أن نفسر الأسلوبية بالاعتماد على التنظيم الاجتماعي. ففي بلاد بينان يتولى الفنانون أنفسهم (إيكبي مابوتا) النقش على الخشب والعاج، ويعمل آخرون على الفخار والبرونز. ومن الواضح أن استعمال مادة دون أخرى يفسر على العموم صفات الأواني من العاج أو البرونز. ولا يمكن أن نفسر الرسم الداخلي والصور الخارجية لأواني الفخار طيلة ما قبل التاريخ الا باعتبار كونها قد اخترعت انطلاقاً من سلات التبن المفتول، وما عسانا أن نقول في شأن الأقمعة التي استوحاها الأفارقة عند صنعها من خيالمهم الفياض، مثال ذلك أقمعة بوبو، لاسياً الثلاثة الرئيسية منها: كيلي (القناع العتيق) وكيمي (رأسه رأس الطائر الملك الحزين)، وتيبيلي الذي له جمجمة الجاموس. إنها تعبر عن شخصيات حقيقية معروفة بالقرية، فهي من شواهد التاريخ، بل تساهم مساهمة فعالة في صنعه (٤).

(٤) (ان قناع هشاف الغيب الأكرأو «روح الاله» هو الكوجي الذي يحميه كاهن أكبر يسمى كونيلا، ويملك هذا القناع دوراً هاماً في النظام السياسي لتلك المجتمعات. انه امتداد عملي لعبادة الأجداد، ويقوم بوظيفته ليلاً في السرية الكاملة. ففي حلقات البروز، يؤتى بالقناع الأكبر مسبقاً الى الغاية المقدسة، بغطاء أبيض. ويقوم الكونيلا بدور الرئيس والكاهن، فينطق بالحقيقة التي يوصي بها الأجداد. ويعتبر الكوجي أيضاً مشرعاً لأن قراراته تعلن على الملأ في القرية ولها قوة القانون). أنظر: م. هويس، في: «دراسات خفية» ١٩٦١، ج. ف، ك. و. هارلي ١٩٥٠.

وما عسانا أن نقول في شأن «الكوري» التي أشار ابن بطوطة الى وجودها منذ سنة ١٣٥٢م ببلاد بلاد مالي، وكانت الغاية الأولى منها تقديده، إلا أنها كانت تستعمل للزينة عندما ترتب في صفوف ترتيبها فيها. ولقد كانت لها قيمة خاصة في الالتزامات الاجتماعية والاحتفالات الدينية. فالغنم منغمس هنا في نظام معقد يزوده بالمعلومات التي تبث فيه الحياة. ان الشروع في وضع تاريخ بعض المجتمعات الافريقية دون فهم المغزي من «الكوري» والأفئدة يعني أننا ندخل قاعة وثائق ونحن نجهل كل شيء عنها، وبذلك يكون فهمنا لحركة التطور ناقصا.

ويمكن أن نقول نفس الشيء بالنسبة للتقاليد السماعية (٥) التي وقع الاعتناء بها اعتناء كبيرا في غير هذا المجال. فالتقاليد السماعية، هي التاريخ الحي، الذي ترويه الذاكرة الجماعية مع كل ما يطرأ على ذلك من اتفاق ومن سداجة، وكل ما فيه من طرافة وعذوبة. يوجد في التقاليد ما يوجد في لسان ايزوب من خير ومن شر. ولا شك أن التقاليد السماعية قد لا تهتم بالعناصر الاقتصادية والبنوية. ولكنها تصلح في حالها تلك لاكتشاف مصادر أخرى أكثر تعبيراً من المخطوطات والمواقع الأثرية. ويستحسن أن يشجع الباحثون قبل القيام بعملية حفرة في استقراء التقاليد المحلية، لأنها تساعد أيضا على تصحيح الأخطاء في التأويل الناتجة عن نظرة خارجية بحتة. هي تسمح فضلا عن ذلك بحصر عدد الفرضيات، وتحديد نطاق الاختيارات (٥). فان تعددت الروايات يعتمد مصدر آخر يسمح بحسم المشكلة، وذلك مثلا بمراجعة خريطة المناطق التي وقعت فيها الحادثة المتناقلة بالرواية. ان الطبول التي لها صلة وثيقة بالتقاليد، تعتبر من أمهات الكتب الحية، فبعض الطبول تقوم بدور البشر والتذير، والبعض الآخر يبلغ الأخبار والبعض الآخر يؤدي صراخات الحرب التي تبث الحماس، ومنها ما يقوم مقام المؤرخين الذين يروون مراحل الحياة الجماعية. ان لغتها هي قبل كل شيء رسالة تحمل في طياتها التاريخ. وخصوص هذا الموضوع، أمكن التمييز بين علم موسيقى الأجناس الداخلي أو الفني وعلم موسيقى الأجناس الخارجي، أي المتصل بالنسيج الاجتماعي والثقافي (٦).

وكثيرا ما تتغنى بالملاحم أو الوقائع الكبرى جماعات منظمة لهذا الغرض وبشكل خاص في افريقيا، وذلك في أداء يشترك فيه الجميع مشاركة حية، ان الموسيقى لا تسمع أبدا سماعا سلبيا لأن الجماعة كلها تؤثر فيها. فهي حفلة جماعية يدعون فيها الثلاثي المتكون من الغناء والرقص والموسيقى الى التأويل التركيبي، اعتمادا على اللسانيات، والتاريخ، وعلم النبات، وعلم النفس

(٥) تستعمل في هذا الكتاب أيضا عبارة الشفاهي لترجمة (ORALE) وهي ترجمة صحيحة ولم أعثرها برامحتي هذا الجزء وأرى أن التعبير سماعية أحسن (تعليق المراجع محمد الفاسي).

(٥) لا بد أن نتزل الشفاهي منزلتها. فلقد حدد بعض الباحثين في ٧ جداول، اعتمادا على لوحة منهجية مفيدة للحكايات والسبب المعطيات الداخلية للحكاية (لا سيما الدلالية والبلاغية منها) ومعطياتها الخارجية التي يرتبط بعضها بالسياق الثقافي والخفاري. أما البعض الآخر فهو يجرد خارج هذا السياق. انظر: الآداب السماعية العربية والبربرية، النشرة الرابعة للاتصالات ١٩٧٠، مركز الدراسات افريقية. متحف الانسان باريس.

(٦) ان الباحث الذي يسلك هذا المنهج، يستطيع أن يعمل الى مادين عديدة أكثر اختصاصا: من ذلك علاقات الموسيقى باللغة، والرموز الاجتماعية والفلسفة التي لها صلة بالموسيقى، وعلاقة الايقاعات بمظاهر المسّ الجنوني، وعلاقات الموسيقى بالبيئة الاقتصادية والمناخية والعلاقات بين أنواع الموسيقى من مختلف الأجناس: انظر: سيمها آروم رئيس كونستانت، في كتاب «دليل البحوث — أفريقيا السوداء»، د. مارتن وت. يانوبولوس. الناشر: آريمان كولان، باريس، ١٩٧٢.

الاجتماعي، وعلم النفس العام، (والفيزيولوجيا) والتحليل النفسي، والدين الخ. ودون أن نعتد الآمال العريضة على علم الموسيقى التاريخية، فإن الدراسة المقارنة لآلات الموسيقى ومادتها باعتبارها قياسات رياضية يعالجها التحليل الاحصائي، تستطيع أن تقيّدنا بنتائج مثيرة فيا يتعلق بشعر الثقافة وتطوّرهما. إن عالم النغم الأفريقي يتقلّص أمام غزو موسيقى كثيرا ما تكون أقلّ منه ثراء، وتروّجها نظم اقتصادية أكثر منه غنى. فهل سيصبح طبل الطام طام الذي صنع التاريخ في حد ذاته موضوعا من مواضيع التاريخ؟

أما اللسانيات، فإنها قد أصبحت رفيقا جديدا أميننا وثريا يلازم التاريخ، لأن التقاليد محفوظة في الأجناس وفي المتحف الحي للغات التي يجب أن نحصل عليها لنستخرج منها «اللب المغذي». فكل لغة ابتداء فكري، وهي كذلك ظاهرة اجتماعية. إن مفرداتها تمكس مثلا وجوها من الواقع قد صهرها تاريخ كل شعب. وبالمقابل فإن اللغة والكلمة، يدرجان في عقليات الشعوب وحواظها نظاما من التصورات والمعايير التي تذبّ سلوكها. ويسر أن نعبر تعبيرا متشابها عن بعض تلك التصورات بلغة لها صلة بسياق أجمالي مغاير، ومن الأمثلة على ذلك فكرة (سانا كوبا) في لغة الماندي، وفكرة (راكيري) في لغة الموري، فيمكن ترجمتها بـ «قراءة فكاهية»، وهو معنى له دور تاريخي على غاية من الأهمية في المنطقة السودانية الساحلية. وذلك أيضا شأن كلمة (دياتيكي) بالماندي التي لا تعبر فقط عن مجرد معنى (المؤثر للسكن). أما كلمة (تنكسوبا) فإنها تعبر حرفيا فقط عن معنى «رئيس الأرض». إن المؤرخ محتاج دوما إلى النقد اللغوي وإلى مساعدة مصادر أخرى. وهكذا فإن الترتيب التاريخي والبحث عن أصل الآثار الدائرية الشكل ببلاد لوبي ناشئان عن توافق أدلة تتنازع وتتأزّر: فهي تدحض الفرضية التي تعود بها إلى أصل برتغالي والتي تعتمد نصا لباروس وهذا يخالفه تخطيط الطريق الذي له دخل في الموضوع، كما يخالفه معاناة غلاف التليس الذي لا تسمح لنا حدائته بأن تعود به إلى تاريخ قديم، ويمكن أن تعتمد تسمية (وي لوبريغور) لتلك الآثار (كول ناو) أي (مرابط بقر الأجانب). ويمكن التعرف على هوية هؤلاء الأجانب في شخص قبائل (كولانكو) إذ أخذنا بعين الاعتبار أسلوب أنية الفخار الموجودة بالآثار، كما لنا أن نقومها باعتبار الترتيب التاريخي الذي فصله بتقاليد هجرة شعوب المنطقة. وهنا نلمس الدور الأساسي الذي تلعبه اللسانيات في محاولة تأويل حدث تاريخي معين (٧).

ولا يجوز — لكي لا نقع في خطأ فاحش — أن نخلط بين الظاهرة اللغوية وهي ظاهرة ثقافية، وبين الظاهرة القبلية، أو المظهر البيولوجي الخاص بالجنس البشري. يبدو أن لغة فرسان داكوميا الذين غزوا وادي الفولطا في القرن الرابع عشر الميلادي قد انقرضت وحلت محلها لغة النساء كوساسي اللواتي تزوجوهن في عين المكان وأصبحن أمهات أبنائهم — وهذه عدوى لغوية قد وقعت كما يحدث أحيانا على حساب من كانت يدهم مقاليد الحكم السياسي. أما تاريخ الأجناس المقصور على الحاضر المحط الذي يعتمده الوظائفيون، فإنه ليس تاريخيا بآتم معنى الكلمة ولا يمكن له أن يلعب دورا إيجابيا في هذا التفاعل بين المصادر، حيث لا يشكل كل واحد منها عنصرا ستياتيكي بل عنصرا متحوّلا يحمله مجرى النظام التاريخي. إن تاريخ الأجناس الوطني، كثيرا ما يتهاون

(٧) انظر: ب. برنكو، و. ب. ج. هيرت، ١٩٦٢.

بالشكافات المادية وبتملك الحركة العامة للمنتجات التي يعتبرها لوروا كورهان أساس الحضارات. أوليس العدد الزوجي في التجارة عبر الصحراء (ملح مقابل ذهب السودان)، الذي عوض بعد عدة قرون بالعدد الزوجي (السجنا مقابل النادق)، أهم الأسس التي شيدت عليها ممالك الغرب الافريقي وامبراطورياته؟

وفي هذه الأحوال يشكل علم الاجتماع الدينامي مجالا أساسيا يحسن أن يطبق فيه حكم النقد التاريخي الافريقي. ان الأمر لا يتعلق بأن ننقل في المكان أو في الزمان أدوات تحليل لنسيج اجتماعي سياسي معين، بدون دراسة، الى نسيج آخر، لأنه يُخشى أن نعدد المشاكل أكثر مما نحل منها. في ما يتعلق بضبط المعدلات لدوام عهد الملك، لا يمكن لنا بالنسبة لفجر التاريخ أن نتصور دون حذر، مدة وسطى تُستنتج من فترة معاصرة معروفة لأن الاستقرار أو عدم الاستقرار السياسي والثقافي غير متشابهين بالضرورة. ولا يمكن في نفس الحالة المتعلقة بالوراثة الجانبية (أنغ عن أنغ) المستحبة في مملكة موسي من ياتنكا أن نفيدنا بمعدلات تشابه معدلات مملكة واجادوجو حيث أن الوراثة المستحسنة تجري مباشرة (ابن عن اب). ان المدة الوسطى لعهد الملك في واجادوجو تدوم أكثر ويكون فيها عدد الأجيال أوفر. ويضاف الى ذلك إمكانية الأخذ بالاعتبار العناصر الدينية في الموضوع. ويكون معدل مدة عهد الملك أكثر طولاً اذا اعتبرنا سلالات ملوك كان (كان ماسا) الذين كانوا ينتخبون من بين الرجال الراشدين والأصغر سناً، وهذا يعني انه لا يمكن تحديد الخط الأفقي الزمني بمعزل عن معرفة علم الاجتماع السياسي الخاص بقطر معين. ان مفهوم الاستقرار ليس نموذجاً جاهزاً يطبق دون تحوير على جميع الفترات وجميع الاقطار. فمن الممكن أن يكون الاستقرار ظاهراً وأن يقدر بضمن اجتماعي ثقيل جداً. في أثيوبيا وكذلك واجادوجو، كان يضمن استقراراً نسبياً بالقضاء على المترشحين الخائبين والوراثة الجانبية أو نفهم، مما يتسبب في دفع ثمن باهظ من الضحايا البشرية التي يجب على التاريخ أن ينظر اليها بأنها من عوامل عدم الاستقرار حتى يوفر تفسيراً مفيداً لتطور تلك الاقطار.

ويمكن أن نعول أيضاً على العلوم الطبيعية والدقيقة من أجل الإحاطة بصورة الماضي الافريقي أو تدقيقها، وذلك بالعقل الالكتروني في معالجة معطيات مرقمة، وبالطرق التقنية، والفيزيائية والكيميائية والبيوكيميائية لوضع التواريخ، وبتحليل المعادن، والنباتات والمواد الغذائية، والمناشئة والدواب، وبعلم الأوبئة والكوارث المادية المتصلة بالمناخ الطبيعي. وليس غريباً أن يعني عناية كبرى في التقاليد الافريقية بالجماعات التي يؤرخ بها، مثلها في ذلك مثل الحروب. ولا شك أن دور العنف بافر يقياً كان يشابه، في تطور القارة، دوره في تاريخ قارات أخرى. الا أن المستوى التكنولوجي الضعيف قد قلل من حدة وقعه المطلق، وإن كان وقعه النسبي قد تضخم، إذ أن تقدم شعب على آخر بعض الشيء في هذا الميدان كان يكتسي معنى كبيراً. ألم يكن اختلاف الأسلحة حاسماً في بسط هيمنة الأشرقيين على مصر، وملوك غانا الأولين وتشاكا الزولو؟ من واجب علم الإحصاء أن يقدم مساهمة مهمة مدعمة بالأرقام، ومن دونها تأتي وجوه الواقع مشوهة حتى في مستوى الكيف، لأننا نستطيع أن نقول، انطلاقاً من مستوى معين، بمحصل وثبة كافية فيما يتعلق بطبيعة الظواهر، اذ لا يمكن أن تتشابه طبيعة بنتين لشعبيين أولها يشمل ١٠ ٠٠٠ نسمة والآخر ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠. ان الخطأ التاريخي عندما نتحدث عن الغزوات، والأسلحة الافريقية في القرن

الرابع عشر الميلادي، يمكن في تصور تلك التحركات حسب منظار القرن العشرين. لذلك فإن المرجح الاحصائي يساعد، ولو باعتبار تقديراته التقريبية، على وضع الأشياء في نطاق سلم من الحجم الطبيعي يكون أقرب الى مجرى الحوادث الواقعي.

لا يستطيع علم الحرب الافريقي أن يساهم مساهمة مفيدة في تاريخ افريقيا اذا لم يربط بالدين الذي له به صلة وثيقة، لأن فن الحرب كان جزئيا مجابهة سحرية. فيكفي أن ننظر الى لباس البوري ندياي الحربي الموشى بالحروز لتقتنع بهذا الأمر. ولقد استمرت هذه التقاليد جارية حتى عند الجنود الافريقيين من صنف المشاة أثناء الحربين العالميتين.

أما الانثروبولوجيا الطبيعية، فيمكن من جهتها أن تسهم في وضع تاريخ صحيح. ان الأساطير العنصرية، من أمثال النظرة الحامية المعتمدة على مظاهر واهية، قد غفلت هذا الميدان من البحث. ولا يمكن أن يظهر فعلا إلا بالاعتماد على منهج تداخل العلوم الذي تشترك فيه أدلة متنوعة تقود الى الحقيقة. فيمكن لرسم الجدارية فيما قبل التاريخ أن تبرطر يقنا الى بعض الاكتشافات، شريطة ألا يخلط بين نمط المعيشة مثلما يظهر على سطح صخرة، وبين الجنس، لكن لا ننسى أن تشويه الهيكل العظمي، وتطويل الجمجمة اللذين كانا جاريين عند المانكبيتي، متصلان بنمط المعيشة والثقافة. فإذا استطاع التحليل المصلي أن يساعد على رفع الالتباسات، فانه من جهة أخرى قد أفادنا أن الفئات الدموية قابلة للتكيف مع البيئة وذلك ما يبينه أثر العامل البيولوجي الحاسم على الجنس البشري الذي لا يمكن إدراكه على حقيقته — مثله في ذلك مثل جميع الأشياء المتصلة بالتاريخ — الا بعد وضعه في مكانه بين الطبيعة والثقافة، مروراً بعلم الأحياء. وقد كان للطبيعة الافريقية وقع شديد على التاريخ ولهذا وجب — دون أن نغف في حتمية ميكانيكية — ألا ننسى الأحوال الجغرافية أبداً (٨).

فلا يمكن أن ندرك خاصية الثقافات وتطورها قبل التاريخ بافريقيا الوسطى الا بالتفكير في وجود الغاب الكثيف الذي يذكّرنا بأثر المكان في الزمان (٩). فكيف يمكن لنا أن نتحدث عن سكان نهر النيل الأولين دون أن نعتد على شكاله الأرض (الجيومورفولوجيا) وعلم المناخ الأحائي (بليوكليمااتولوجيا) (١٠).

وكيف ذلك؟

وهكذا فإن تداخلات العلوم وثقاعاتها التي يحتاج اليها من يؤرخ لافريقيا، كثيرة. لكن كيف يمكن أن نعد هذه المعركة التي تشارك فيها علوم متباينة تريد كلها أن تكشف عن وجه افريقيا القديمة.

(٨) «الطبيعة تحدد الانسان بقر» ذلك ما كتبه فيدال دي لا بلاش أو كما يقترح ب. تيلاردي شردان الذي يقول «أليس التاريخ عندما ينظر اليه من على، أكثر فصول التاريخ الطبيعي حدائق».

(٩) انظر: هـ. لوبير ١٩٧٤. وهو كتاب رصين يعالج فيه المؤلف نظرية موحدة للمكان. (الفيزيائي والعقل والاجتماعي).

(١٠) إن إعادة أساس الحمية التي توفر بعض المعلومات عن الديمغرافيا وعن مدة الاستيطان بواقع يمكن أن تستخرج من اختبارات كيميائية تجري على الكلسيوم، والفوسفات، والفلاح والبروتينات. ويسمى علماء الفلاح لتكوين مصروف للفلاحات الافريقية.

يمكن لنا أن نتصور نوعاً من التعاون البسيط المقصر على ضبط بعض الأهداف المشتركة، تاركين لكل واحد السير حسب مشكلته علمه الخاص، أملاً في الالتقاء عند خط الوصول لمقارنة النتائج. ويبدو أن هذه الاستراتيجية غير مرضية لأنها لا تقتضي على جميع العراقيل الخاصة بكل علم، بدون أن نستفيد من فضائل كل منها، وكان من الممكن أن نستفيد فائدة كبرى من تعاونها الوثيق في الأساليب. وعلينا أن نفضل على تداعل العلوم التصاقاً، تداعلها تطعياً للطرق والعلوم. ويجب أن نتخذ قراراً مشتركاً يضع استراتيجية عامة للبحث ومراحله التكتيكية. و ينبغي بعد الاتفاق على التساؤلات الأساسية في تعقدها الأصلي، أن نوزعها على فئات، بحسب ما يلزم من تدخل هذا العلم أو ذاك. ويجب أن توضح بعض الأمور وأن تجمع بعض الآراء، في آجال محددة وبطلب من الدوائر المعنية بالبحث، فتكون أنواع من الندوات التي تطرح المشاكل في صور جديدة حسب ما يقتضيه تقدم الطريقة المشتركة. وتوضع عند الاقتضاء برامج طارئة وتضاف الجهود عندما تظهر عقد أو عراقيل في المسيرة. إن هذا التعاون الدائم، أو هذا البحث عن التعاون يستوجب مديراً يدير مجموع العمل أو البرنامج. ولكن يمكن أن يعين مسبقاً رؤساء مختلفون مختلف فترات البحث، باعتبار أن حالة ما تستدعي رئاسة لغوي، وأن حالة أخرى تستدعي رئاسة اجتماعي الخ. فشل هذه الاستراتيجية المتداخلة الاختصاصات كفيلاً بأن تثري ثراء كبيراً طريقة كل علم وبأن تجعل أثره محمداً على الموضوع المشترك من البحث. فهي تحببنا من أن نتيه في المراتل، وتفتح مجالات ثرية وتوفر طرقاً مبرجة سريعة. إن مثل هذا البحث الجماعي الذي يدعو المؤرخين والاختصاصيين في علم الإنسان، وفي الفن، وعلماء النبات، إلى النزول إلى المواقع مع الأثرين، يظهر في مظهر شبكة صيد ضخمة تزيد مادة الواقع التاريخي اتساعاً وعمقاً. وذلك يفرض أن تتكيف مع هذا النوع من العمل بنيتات معاهد الدراسة الأفرقية التي يوجد منها عدد كبير. كما يفرض ذلك أن تسود بين الباحثين أنفسهم روح جديدة.

فأ هو عندئذ هدف هذا المسعى؟ هو أن يستعيد الأفارقة ماضيهم ويشعروا به، وهذا الماضي لن يكون صورة عن الحياة الغابرة، بل يجب أن نستعيد مشاهدته بطريقة الإسقاط، كما كان الأمر في كهف أفلاطون.

والملاحظ أن الحياة أساساً اندماج وتماسك وتلاحم بين قوى مختلفة حول مشروع مشترك. فالموت يفيد التلاشي، والانقسام. والحياة الفردية أو الجماعية ليست وحدية الخط، ولا وحدية البعد. فهي نسج كثيف وتماسك. ويحد أن يعتمد أحد الكتاب الرواية التاريخية (في ظروف أسهل طبعا) وأن يبلغ الهدف من هذا المشروع الذي قل أن حققه المؤرخون، ونعني بذلك إحياء الماضي. ويمكن لأساتذة في التاريخ والاقتصاد وعلم الاجتماع الخ... أن يجدوا مادة للدرس مشتركة في تلك اللوحات الحية مثل رواية أعصاب الغضب لستانينباك والمصير الإنساني لمارو أو تشاكاء، ل. ث. موفولو.

يجب إذن أن نتحاشى الوقوع في أدب الرواية، وأن نهذف إلى استعادة الماضي بهذا النوع من الكشف، لأن الحياة الواقعية أكثر إثارة من الرواية. إن الواقع يتجاوز بكثير الخيال، لأن كل حركة تاريخية تستوحى في نفس الوقت من كل مظاهر الواقع الاجتماعي. والاستعادة التاريخية التي لا تأخذ بعين الاعتبار كل هذه الجوانب، تكون في الواقع استعادة نافية للتاريخ، بل تكون على الأقل

تاريخنا آخر، فهي عندئذ نظرة متحيزة لأنها جزئية. ويمكن فعلا أن نركز على نقطة دقيقة من اللوحة التاريخية لنصنع منها مظهرا ضخما، ولكن شريطة أن لا ننسى أنه جزء من اللوحة التي لا يمكن دونها أن يدرك إدراكا كاملا. وتنطبق هذه الملاحظة أكثر على مجموع اللوحة. إن الأحداث التاريخية الكبرى، مثل التوسع المندي بالغرب الأفريقي، ناتجة عن لقاء، وعن توافق بين القوى: أي التكنولوجيا، والجهاز المادي، والتجارة، ومزايا اللغة، وأهمية التنظيم السياسي، وحساس الشعور الديني. إن السعي، حسب العادة، إلى تفضيل السبب الرئيسي تفضيلا مجحفا قبل محاولة فهم جميع الأسباب الأخرى في فيضها الحيوي، هو كمن يبني صرحا بغياله، عوضا عن السعي إلى استعادة الماضي عقليا. إن هذا الإدراك الشامل للتاريخ المتعدد المصادر أكثر وجوبا بالنسبة لمجتمعات فيها الحياة أكثر اندماجا. وأقل انفصالا مما عليه في الأقطار التي أدى فيها الانشقاق إلى طبقات متنافرة. ولعله قد وقع التسرع بالنسبة لأفريقيا، في تمييز المجتمعات التي لها دول، عن المجتمعات التي نخلت منها وذلك بتحديد النوع الثاني باعتبار المعايير الخاصة بتجربة إفريقيا الجماعية (١١). وربما نسى البعض أن انعدام الطرقات المسلوكة، والإدارة البيروقراطية، واختيار المسؤولين عن قصد للمركزية في البلدان الأفريقية، بل حتى في إمبراطورية مالي، كل ذلك، كان من نتائجه أن الحياة الحقيقية لمعظم السكان كانت تجري خارج نطاق (الدولة)، أي في القرى المتمتعة منذ القدم باستقلالها، إذ لم تكن مرتبطة بالحكم المركزي لا بعلاقة إقطاعية متمثلة في التبعية له، ولا بواقع محسوس متمثل في الطرق المعبدة والسكك الحديدية، ولا بوجود أوراق الضرائب والقرارات الصادرة عن الوزارات أو الولايات. وإذا تجاهلنا هذا، فإنا نكون قد أضلنا أنفسنا أن ننظر إلى تاريخ إفريقيا نظرة سطحية، على أساس أنه حلقات من الملوك والأمراء الذين لا نعرف أحيانا من مآثرهم سوى حادثة أو اثنتين، في عهد قد يدوم ١٥ أو ٢٠ سنة، فلا يكون منا بعد ذلك إلا أن نعدّها حلقات من حياة الشعوب. إن حياة الشعوب الأفريقية في أغلبيتها العظمى كانت حياة المجتمعات المتكاملة أو المستقلة بأمورها، فما من شيء إلا ويعالج داخلها، ابتداء بصنع الأدوات، إلى العوائد الزراعية، مروراً بطقوس الحب والموت، ومن هذه الناحية، فإن المجتمع الإفريقي المعتنق للحياة ليس أقل تكاملا من المجتمع المعتنق للإسلام، فهذا المجتمع لم يكن لا تكتيا لعدة اعتبارات: فلو اعتبرناه لا تكتيا لحذفنا جزءا مهما من الواقع. وبصفة عامة فإن المركزية موجودة أيضا في تلك الأقطار. ولكنها ليست مركزية الدولة العصرية (١٢)، التي تكاد تكون هي الثمن أو هي الدواء للتقسيم الجنوني للعمل الاجتماعي، وكثيرا ما كانت مثلا عند السنوفو (بورو) واللوئي (ديورو) والدوليا تلعب دورا مركزيا لتنظيم حوله الحياة الجماعية كلها. ولذلك شددت فيدراليات حقيقية في القرى حول معبد أو ديانة مشتركة مثلما هو الشأن في بلاد سامو (فولطا العليا) وفي بلاد ابوي.

والملاحظ أن الأقطار الأفريقية التي ظلت فيها القوى المنتجة في مستوى منخفض، تتميز على العكس بنشاط ثقافي يكاد يكون خارقا. فكل لباس تحفة وإن كان الخضوع للطبيعة يكاد يكون

(١١) انظر في هذا الصدد ماكي ج، ج، ١٩٦١. إن المؤلف يستعمل بالتناوب التحليل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي سعيا إلى تحديد «مثال» يطبق على جميع السوكا.

(١٢) وأكبر دليل على ذلك القصة التي رواها ابن بطوطة عن شعب البوري الذي حاول إمبراطور مالي عبثا أن يدمجه، ثم انتهى به الأمر إلى الاعتراف باستقلاله الثقافي.

كليبيا. إن أثر الفن واضح في كل آلة وكل أداة. فحتى التشريطات الجسمية العميقة أو السطحية، تدخل على خاصية عرقية أو تعبر عن غاية جمالية. وهذا شأن نفوذ الحديد (الكينزي) المستعملة عند قبائل لوما (طوما) والكيسي والكونيانكي، والمندي والكورينكو في سيراليوني وليبيريا. إن الكينزي كانت بلا شك تؤدي وظائف كثيرة: النقود، وحماية المساكن والحقول، وإيواء أرواح الموتى والأجداد. ولا يمكن دون خطأ أن نحصرها في بعد واحد من أبعادها. إن هذه المجتمعات الكاملة تستوجب تاريخاً شاملاً يكون على قدرها. فيكون تداخل العلوم أحسن طريقة للتعبير عنه. وذلك ما يدل عليه مؤلف د. طبايت المستخصص في علم الإنسان (الانثروبولوجي)، وج. فاج المؤرخ، حول قبائل كونكومبيا، والمنهج التركيبي الذي اعتمده جاك بيرك لدراسة الشاريخ الاجتماعي لقرية مصرية (١٣)، وفي هذه الأحوال فإن المنهج الشامل يفرض طريقة تأخذ بعين الاعتبار كل العوامل الخارجية وكذلك العناصر الداخلية وهي تفرض أن تتجاوز الحدود الأفريقية لتستوعب الشخصية الأفريقية الإسهامات الآسيوية والأوروبية والأندونيسية والأمر يكتفي. فلا يمكن أن يكون ذلك في شكل تزيعة سطحية لأنه وأن وجد تدخل خارجي، فإن القوى العاملة في الداخل تستوعبه وذلك ما يستفاد من حكمة الفلاسفة المدرسين: (إن كل ما يؤخذ يؤخذ بقدر سرعة الظروف وشكله). وهكذا تأقلم الرز الآسيوي في المكان الذي كان يوجد به الأوريزا (ORYZA) الأفريقي الأهلي وذلك شأن البانثوي حيث كان يوجد الإينيام (IGNAME). إن الثقافة الأفريقية تبدو كأنها تشكيلية بدئية من العوامل. إلا أنه لا يمكن أن نلخصها في مجموع تلك العوامل العديدة لأن تلك العوامل لا تضاف ولا ترتب ترتيب السلع بمنحرج. فالثقافة الأفريقية هي كل ما يستوعب العناصر المكونة ويعوها. إن المثل الأعلى بالنسبة للشاريخ الأفريقي ينحصر في الاعتماد على جميع تلك العناصر ليعبر عن الثقافة نفسها في تطويرها الدينامي. وذلك يعني في النهاية أن منهج تداخل العلوم يدعو إلى وضع مشروع يشمل جميع العلوم.^٩

الفصل السادس عشر

الاطار الزمني للمراحل المطرية والجمودية بأفريقيا

القسم الأول

رشدي سعيد

ان هدفنا هو أن نقدم عرضاً عاماً عن بعض التغيرات الفيزيائية التي حدثت بالقارة الإفريقية في البليستوسين والهولوسين من العصر القديم أو من العصر الحديث. فلقد طرأت في تلك الحقبة التي تقارب مليوني سنة تحولات كبرى على المناخات والبيئات الأرضية. وأخضعت سلسلة من الحوادث المناخية الرئيسية التي وقعت أربع مرات في ذلك العصر، خطوط العرض الشمالية لتعدد طبقات جودية وتقلصها (تجمدات جونز ومندل وريس وورم بحبال الألب). وتشكلت أودية وسطوح نهريّة، كما تشكلت السواحل الحالية وطرأت على الحيوانات والنباتات تغيرات هامة، وتفرعت أشكال ما قبل الإنسان انطلاقاً من جذع المقدمات وذلك في مطلع الهولوسين. وعثر على أقدم الأدوات المشخصة في حدود البليستوسين الأعلى. و يبدو أن تطور الثقافة، ابتداء من ظهور الإنسان كحيوان ثديي يستعمل الأدوات، قد تأثر إلى حد بعيد بالعوامل البيئية التي اختصت بها المراحل المتوالية من البليستوسين.

إن الرأي القائل بأن الجموديات كانت في عصور متعددة من البليستوسين أكثر امتداداً مما هي عليه الآن، قد أصبح بأوروبا، مفهوماً مقروءاً، وسرعان ما اتضح أن تلك الفترات من تدهور حالة المناخ في أوروبا لم تكن ذات طابع محلي. ولقد دلت الأبحاث المنجزة في القارة الإفريقية مثلاً، أن هذه القارة خضعت أثناء الهولوسين لتحولات مناخية كبرى. ونحن، وإن كنا لم نستطع بعد أن نضبط ببطء يقة قفلية صلتها بالأحداث التي طرأت بأوروبا وغيرها، فإنها مربوطة بها إلى حد بعيد وذلك بصفة لا تزال تستوجب الاستكشاف.

ولقد تحسنت في العقد الأخير من الستين تحسناً مهماً إمكانيات وضع ترتيب تاريخي

للسينوزويك الحديث والبليستوسين، وفورت التنقيبات في أعماق البحار معلومات مفيدة جدا تهم حوادث رسوبية متتالية نوعا ما تذكر بأحداث القسم الأخير من تاريخ الأرض. ولقد ساهمت الدراسات المتعددة الجوانب والمفصلة لعينات ترابية حصل عليها ضمن هذه البرامج، وكذلك التقدم الحاصل في علم الجغرافية الفيزيائية وخاصة الدراسات الجغرافية المغناطيسية، وتحسن تقنيات قياس قوة الأشعة، كل ذلك ساهم مساهمة كبرى في وضع تاريخ دقيق بعض الشيء لتلك الحقبة. والطريق مازال طويلا في هذا الميدان لأنه لم يتيسر إقرار صلة نهائية بين أحداث مختلف العهود. إلا أن الترتيب الزمني لأحداث أقسام تاريخ الأرض، يعتبر من أحسن ما تم إثباته، حتى وإن اختلف الاختصاصيون في شأن تحديد البليستوسين نظرا للالتباس الكبير الناشئ عن تصنيف الأنواع الطباقية، من البليوسين والبليستوسين، وذلك باعتبار القطعة المدروسة اعتمادا على الإعاقات البحرية. وتشير فيما يلي إلى التصنيف الذي سيعتمد في هذا الفصل. إن الترتيب الزمني الجغرافي المغناطيسي الخاص بالـ ٥٠٠٠٠٠ سنة الأخيرة يبين أن الحقل المغناطيسي الأرضي قد كان بالتناوب «عاديا» و«مقلوبا». ولقد وقع انقطاع في تلك العصور المختلفة نتيجة «أحداث» طفيفة تميزت بالقلب. والعصور المعنية هي، تنقلا من أحدثها إلى أقدمها: برونس (— ٠٦٩ مليون سنة) ماتوياما (— ٠٦٩ — ٢٤٣ مليون سنة) كوس (— ٢٤٣ — ٣٣٢ مليون سنة) وجلبار (— ٣٣٢ — ٤٤ مليون سنة). ولقد اقتص الفاصل المغناطيسي لجلبار وكوس بتدهور كبير في المناخ، ويمكن ملاحظته في مناطق عديدة من الكرة الأرضية (انظر في هذا الشأن هايس وآل ١٩٦٩). وتوافق هذه الفترة الباردة بداية تجمد نيبوراسكا والشاهد على ذلك خليج المكسيك، وكذلك ظهور رواسب جوفية بالحيط الأطلسي الشمالي وظهور الحيوانات البرية في الفيلافرنشي المتوسط. إن هذا الحدث يدل على بداية البليستوسين، اعتمادا على بعض المؤلفين الذين يعتبرون أن بداية تدهور المناخ هي الحد الفاصل بين البليستوسين والبليوسين. إلا أن اعتماد هذا الحد يناق في توصية مؤتمر الجمعية الدولية لبحوث الدهر الرابع المنعقد في ١٩٥٥، لأنه يفيد أن المجموعات الحيوانية الخاصة بالمقطع الكلاسيكي كاستيلار كواتر، خارجة عن البليستوسين. ولعله من الأفضل أن نضع الحد — في ١٨٥ مليون سنة، ذلك ما يوافق أساس الكلابري والحدث المغناطيسي للأولدواي أي من عصر ماتوياما. ولقد دلت أبحاث حديثة على أن تلك الحقبة كانت حقبة تميل إلى الدفء ولم تكن حقبة تبرّد. فتكون التجمّدات الكبرى الأولى من البليستوسين بخطوط العرض المعتدلة قد وقعت حوالي ٥٠٠٠٠٠ خلال فاصل برونس - ماتوياما. وهذا التجمّد يوافق تجمد جونزال ألبّي. وعلى هذا الأساس يمكن أن يقسم البليستوسين إجمالا إلى قسمين، يكون أحدثهما الحقبة الجوفدية و يكون أقدمهما بليستوسينيا ما قبل التجمّد. ويرجع تجمد ريس الألبّي إلى ما بين ١٢٠٠٠٠ و ١٣٠٠٠٠ ويتبدى تجمد ورم في ٨٠٠٠٠. ويمكن أن نعتبر أن هذا التجمّد الأخير من أحسن ما ضبط تاريخه ودرسه. ولقد دام حتى الهولوسين الذي حدد بحوالي ١٠٠٠٠.

إننا نسعى في هذا الفصل، كما أشرنا إلى ذلك سلفا، إلى استعراض أهم التغيرات التي طرأت على القارة الإفريقية تأثرا بالتحولات المناخية في البليستوسين. إن القارة الإفريقية تشمل بيئات عديدة متميزة قد تأثرت كل واحدة منها حسب طريقة معينة ودرجات مختلفة بالتغيرات الجغرافية المناخية الكبرى في البليستوسين. ولذا سنفحص هذه التحولات باعتبارها أطار المناطق المناخية

الأساسية الحالية من القارة الإفريقية التي يمكن تصنيفها الى نوعين: المناطق الاستوائية وفوق الاستوائية والمناطق المدارية، وفوق المدارية.

المناطق الاستوائية وفوق الاستوائية

تشمل المنطقة الاستوائية حالياً حوض الكونغو بغربي افريقيا الذي يختص برياح قليلة التحول، وباختلافات فصلية طفيفة في مستوى الحرارة والرطوبة الجوية، وبالعاصير أو الزوايع الرعدية المبردة، وتغطي هذه المنطقة حالياً غابات ذات طابع خاص. أما المنطقة فوق الاستوائية فهي تشمل أكبر جزء من وسط افريقيا وهي تختص بوجود كتل هوائية من النوع الاستوائي في الصيف وبكتل هوائية من النوع المداري في الشتاء. وفصل الشتاء غير مطر، مع زيادة طفيفة في البرد على فصل الصيف. ويشمل الجزء الأكبر من هذه المنطقة جهات تنشأ من رطوبتها الوفيرة نباتات السبب المداري إلا أنه يوجد بالحواش الجنوبية والشمالية حالياً نباتات السبب المدارية.

إن تقلبات الأمطار بتلك المناطق مدة البليستوسين تسمح بأن نقسم ذلك العصر الى سلسلة من الممطاريات والممطاريات البينية. وتعرف الممطاريات باسماء الكاكيري والكاماسي والكنجيري والكنبلي التي تعتبر نظريات التجمعات الأربعة الكبرى بنصف كرة الأرض الشمالي. إلا أن هذه الصلة تحتاج الى برهان. ولقد اختص الهولوسين بفوق مطارين، يسميان الماكالي والناكوري.

تتميز الممطاريات بتكدس أكبر للرواسب البحرية وارتفاع في الخطوط الساحلية التي بقيت في أحواض متعددة مسدودة بسبب توسيع البحيرات الموجودة. وتتميز الممطاريات البينية بتزايد نشاط الرياح. ففي هذه الأثناء تنقلت الرمال الرملية، أو توزعت الى أقصى الجنوب من الحد الشمالي الحالي من التلال المتنقلة، وصاحب ذلك تغيرات عميقة طرأت على النباتات. وتمتاز قمم بركانية عديدة في تلك المناطق بجموديات توجد بارتفاعات هي دون الحد الحالي للتلوج الدائمة، مما يدل على وجود مناخ أكثر بردا في بعض الأوقات في الماضي. وسنقدم في الفقرات التالية أمثلة عن هذه التغيرات التي طرأت بافريقيا الاستوائية وما فوق الاستوائية.

الأحواض البحرية بافريقيا الشرقية

تعتبر افريقيا الشرقية، لا سيما في أحواضها البحرية، منطقة نموذجية للمناطق المطارية وبين الممطارية المقترحة لوصف تطور افريقيا فوق الاستوائية. توجد بحيرات افريقيا الشرقية في مجموع أغوار الأهدام الإفريقية، وليس للبحيرات التي تملأ أعماق القسم الشرقي مخارج باستثناء بحيرة فيكتوريا وتوجد في مناخات أكثر جفافاً. وخلافاً لذلك فإن بحيرات القسم الغربي مملوءة الى حد الفيضان.

ويبدو بديها من أول وهلة أن دلائل ارتفاع المستويات البحرية في منطقة معرضة للزلازل — كما هو الشأن بافريقيا الشرقية — توحى بفرضيات، ولكن لا تسمح باستخلاص النتائج. ينبغي أن نتصور في تلك المنطقة التي هي على غاية من الاضطراب امكانية تنقلات في بنية الأديم، وتغيرات في مستويات فيضان البحيرات، وانقلاباً في الاحواض البحرية. ولهذا السبب نحلى العلماء عن

فكرة ممطاريات البليستوسين القديم أو المتوسط، (نظريّة كوك ١٩٥٨، وفلنت ١٩٥٩، وزونر ١٩٥٠). ولقد أدت الدراسات الحالية للأحواض البحرية بإفريقيا الشرقية إلى الحد من استعمال هذه العلامة المناخية الطبقيّة بالممطار الكبلي. الذي يحوي في بعض الأماكن رواسب لم ينظر عليها التواء في بنية الأديم.

وتفيد شواهد جيولوجية عديدة بصفة قطعية أن الحدود الرئيسية للغابات ذات الأمطار قد تحولت كثيراً في الماضي. ولقد شكلت الغابات الكبرى الواقعة غرباً، في الأحواض الجارفة للمياه، عاملاً مهماً في تكييف حياة الإنسان طيلة الحقبة التي توفرت لنا عنها شواهد أثرية. إن الموقع المشهور والمعروف بفتح أولدواي والواقع بشمال طانزانيا يشتمل بأسفله على حيوانات قفريّة قد صيبت صيانة على غاية من الأهمية و(الكاغيري أو الأولدواي الأول). ويوجد فوق ذلك تشكيلان يدل كل واحد منهما على فاصل زمني أكثر جفافاً قد تبعه ممطار هام نسبياً. كما توجد بذلك الموقع الخاص، قطعة طبقيّة تحتوي على أكمل سلسلة تطوريّة من الآلات ذات الوجهين ابتداء من الأشكال البدائية المخرقة في القدم، إلى أهم الأنواع المتخصصة من هذه الآلة من العصر الحجري القديم الأسفل، مثلاً هو معروف عنها بأوروبا وآسيا الغربية.

تتكون الشواهد على الممطار الكبلي خاصة من الشواطئ المرفوعة ورواسب الأحفورات البحرية في ثلاث مجمرات كانت سابقاً متجاورة، وتقع في الشمال الغربي من نايروبي (نكورو، المنتيتا، نايفاشا). ولنايفاشا مستوى من الشاطئ المرفوع سبق بقليل العصر الحجري القديم الأعلى، وهذا يعني أنه كان للبحيرة عمق أقصى قدره ٢٠٠ متر ومن المحتمل أنها كانت تنصب من خلال خط عال مجاور إن المساحة الضعيفة لحوض البحيرة المنحدر وكذلك عمق البحيرات الحالي الذي لا يتجاوز ١٠ أمتار يسمح بأن نعتبر ذلك التوسع القديم للبحيرة دليلاً على وجود مناخات أكثر رطوبة في الماضي.

لقد اكتشف لايبكي في ملجأ يقع تحت صخرة ويشرف على مجمرتي نكورو والمنتيتا الحاليين موقعاً بكهف كمبلي طبقاته واضحة ويحوي صناعة حقيقية منظمّة للشفرات. ولقد وصف الترسيب الواقع بالطابع الأسفل بأنه متكون من الحصاة الملساء البحرية المرفوعة على السطح الصخري للملجأ وذلك على ارتفاع يقارب ٢٠٠ متر تحت المستوى الحالي للبحيرة. أما الترسبات التي تحوي الأدوات فإنها توجد كامة فوق الحصاد وتتكون من ترسيب هش فيه «رماد وغبار، وعظام وسيق». وتعتبر الحيوانات المزوجة به قطعاً من النوع العصري. ويرى لايبكي أن ترسيبات الأدوات تعود إلى آخر حقبة تخصص بأقطار غزيرة (يسمى الكبلي، نسبة إلى الموقع المعنى بالامر) وهو أول ممطار يتبع مباشرة ممطار المستويات الأخيرة من الأولدواي التي كانت لها أدوات (أشولية) وحيوانات انقرضت ولها مميزات خاصة.

تعتبر دراسة نلسن الكلاسيكية (١٩٣١ - ١٩٤٠) المتعلقة بأحواض إفريقيا الجنوبية البحرية من أحسن الوثائق عن تنفلات مستوياتها في الماضي. إن هذا المؤلف يصف خطوط شواطئ بحيرة تانا المرفوعة (مستوى المساحة يقدر بـ ١٨٣٠ متر). وهي منبع النيل الأزرق. ويسجل خمسة خطوط شاطئيّة رئيسية تبلغ حتى + ١٢٥ متر وجود مستوى أقل وضوحاً يبلغ + ١٤٨ متر. ويبين نلسن أيضاً

أن أربعة مجيرات من وادي الريف (زقاي، أبياتا، لنكانا، وشالا) كانت متصلة ببعضها وكانت تصب لمدة ما في نهر أوأش.

إن المعطيات الجيولوجية المناخية المتعلقة ببحيرة فكتوريا تبين أن البحيرة كانت منخفضة وقد حُبست مياهها لحقبة أجلها غير محدود سبقت - ١٤٥٠٠ وهو عصر سادت فيه نباتات السهب العشبية. ولقد أخذت البحيرة في الصعود حوالي - ١٢٠٠٠ وهو عصر أخذت فيه نباتات غابية تظهر أولا حول التخوم فوق الاستوائية من البحيرة. ولكن من الممكن أن يكون مستواها قد نزل إلى ١٢ مترا تحت المستوى الحالي وذلك في حقبة قصيرة تدو حول - ١٠٠٠٠. وكانت بحيرة فكتوريا مملئة تماما بين - ٩٥٠٠ و - ٦٥٠٠. وكانت تحيط بها غابة دائمة الخضرة. ولقد تأثر مستوى بحيرة فكتوريا جزئيا بشق مخرجها إلا أن مستواها السابقة وكذلك القطعة البليولوجية كانت بالتأكيد مستقلة عن هذا العامل.

قام بوتنز وآل، (١٩٧٢) بدراسة مفصلة تخص الأحواض البحرية لافريقيا الشرقية ووفرنا توار يخ باعتماد الراديو كربون الخاص برواسب الشواطئ القديمة. إن وقائع الدهر الرابع الحديث وتوار يخه المتعلقة ببحيرات رودلف، ونكورو، ونايفاشا ومكادي متوافقة إلى حد كبير. وتعتبر بحيرة رودولف التي تبلغ مساحتها حاليا ٧٥٠٠ كلم مربع أكبر بحيرة حاسبة للمياه بافريقيا. إنها موجودة بمنطقة غورية ويزودها بالمياه أساسا نهر أومو الذي ينبع بالاراضي العالية بغربي أثيوبيا. وتبين دراسات بوتنز أن الساحل، والمجاري الدلتائية النهرية المتصلة بتلك البحيرة كانت على مستوى يفوق تقريبا بستان مترا المستوى الحالي وذلك في حقبة تعود إلى ما حول - ١٣٠٠٠ سنة، كما كان يفوقه ب ٦٠ إلى ٧٠ مترا في حوالي - ١٣٠٠٠ سنة. وأصبحت البحيرة أصغر حجما مما هي عليه الآن بين تلك الحقبة و - ٩٥٠٠، كما أصبح المناخ أكثر جفافا. ولقد ارتفع مستوى البحيرة من جديد ابتداء من هذا التاريخ الأخير وتراجع مستواه بين ٦٠ و ٨٠ مترا فوق المستوى الحالي إلى حدود - ٧٥٠٠ - وهو تاريخ ابتدأت تضيق فيه بحيرة رودولف. وظهرت بعد ذلك مستويات أكثر ارتفاعا حوالي - ٦٠٠٠ وابتداء من - ٣٠٠٠، استقرت البحيرة على أبعادها الحالية. إن الشواهد التي توفرها البحيرات الأخرى بافريقيا الشرقية والتي درسها بوتنز وآل تشير إلى تاريخ مماثل بالنسبة للدهر الرابع الحديث.

حوضا التشاد والسد

يستحق حوض بحيرة التشاد عناية خاصة باعتبار وجوده بالطرف الجنوبي من الصحراء وبطرف المساحة الكبرى للبحر الداخلي الذي ملأ كامل الحوض في البليستوسين. إن بحيرة التشاد الحالية هي أثر لذلك البحر الداخلي (انظر مونود ١٩٦٣، وبوتنز ١٩٦٤) وتأتي مياهها من سباسب افريقيا الوسطى. وتقع مساحة البحيرة الحالية على ارتفاع يبلغ ٢٨٠ مترا وتتراوح تلك المساحة بين ١٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ كلم مربع.

أما معدل عمقها فهو يتراوح بين ٣ و ٧ أمتار و يبلغ في الحالة القصوى ١١ مترا. يفصل البحيرة عن منخفض بودبي والجوراب خط قاسم للمياه غير مرتفع، يشقه وادي بحر الغزال الناشف. إن أسفل خط من الخطوط الشاطئية لبحيرة التشاد الحالية، وهو يتراوح بين ٤ و ٦ أمتار، يسمح للمياه

بأن تفيض في منخفض بودبلي الذي يبعد عن البحيرة ٥٠٠ كلم. أما في مستواه الأعلى الذي يبلغ ٣٢٢ متر فقد كَوَّن سلف التشاد البليستوسيني خطوطاً شاطئية تظهر بوضوح على بعد ٤٠ أو ٥٠ متراً، وتعاادل مساحتها ٤٠٠٠٠٠ متر مربع. وتوجد أيضاً آثار متقطعة تدل على خطوط شاطئية متوسطة. ولقد بين كروف وبولان (١٩٦٣) أن المياه التي تفقدها البحيرة تبخرها يعوضها تعويضاً كبيراً منسوب المياه الواردة من اللكون والشاري القادمين من الجنوب. ويعتبر المؤلفان أن تبخر البحيرة في البليستوسين كان يفوق ذلك بست مرات إلى حد أنها كانت تستوعب سنوياً كمية من المياه تعادل ثلث منسوب الكونغو السنوي.

ولقد قال بوتزر (١٩٦٤م) عن صواب بأن بحر التشاد السابق يمثل نتيجة لذلك أبلغ شاهد على وجود رطوبة كثيرة بالخطوط العريضة المدارية الرطبة جداً، إلا أنه لم يكن مع الأسف أثبات الترابط بين الخطوط الشاطئية لمختلف أجزاء الحوض. إن طبقة أراضي البليستوسين التي يبلغ سمكها ٦٠٠ متراً والموجودة تحت بعض أجزاء الحوض تدل على تعقد هذا الحوض الداخلي وطول تاريخه. أما فيما يتعلق بنيجيريا — كروف وبولان أن المناخ قد جف وصاحبه تشكيلات تلالية هامة بالسهل الذي كانت تحتله البحيرة سابقاً وذلك بعد حقبة كان فيها مستوى البحيرة في البليستوسين القديم يفوق بـ ٥٢ متراً مستواها الحالي. ولقد أعقبت تشكّل شبكة جديدة من الأنهار في تاريخ لاحق حقبة رطبة أخرى تميزت بارتفاع مستوى البحيرة لا يقل عن ١٢ متراً في الهولوسين. فيمكن أن نؤكد أن حركتين إيجابيتين، بالبحيرة حللتا تحليلًا سيئاً، قد وقعتا قبل — ٢١٠٠٠، وتبعهما فصل طويل من النشف ومن النشاط الريحي حتى قبيل — ١٢٠٠٠، وهي فترة أخذت البحيرة تمتد فيها من جديد وبلغت البحيرة في حوالي — ١٠٠٠٠، مستوى أقصى صاحبه فياضانات متناوبة. ودامت هذه الحقبة من المياه العالفة حتى قبيل — ٤٠٠٠. ويبدو أن تاريخ هذا البحر الداخلي بالبليستوسين القديم والهولوسين يكاد يوافق عندئذ وحتى في التفاصيل تاريخ أحواض إفريقيا الشرقية.

إن كاتب هذا المقال يعتبر أن بحيرة سد بالسودان الجنوبي تمثل بحراً داخلياً كبيراً، ومن المحتمل أن يكون تاريخها مماثل لتاريخ حوض بحيرة التشاد. فالسد بحيرة ميتة يحتمل أنها شملت منطقة سد وحوض النيل الأعلى وامتدت إلى ما وراء النيل الأبيض وإلى أجزاء من النيل الأزرق وبحر الغزال. ولقد نشأت فكرة وجود هذه البحيرة القديمة عند المهندسين المختصين في الري والعاملين بمصر (وهم لوميرديني، وكريستان، وويل كوكس. وكان لوسن (١٩٢٧) واضعها. ولقد تعجبوا جميعاً من انبساط سهول السودان الأوسط والجنوبي ولاحتظوا أن كل ارتفاع صغير في مستوى النيل يؤدي إلى الفيضان على مساحات واسعة. ويعتبرون أن بحيرة سد قد كانت تحتل مساحة قدرها ٢٣٠٠٠٠ كلم^٢ (المنطقة التي يحدها منحنى الـ ٤٠٠ متر، وهي ارتفاع شعبة). ويغطي تلك المنطقة تشكّل (أم روابة) الذي وضعت له خريطة حديثاً والذي يتكون من سلسلة طويلة من الرواسب النهرية، والدلتائية والبحيرية. وتتجاوز قته العليا ٥٠٠ م وهذا يعتبر أعلى بكثير من أسفل نقطة السينلان عند قمة سبلوكة بشمال الخرطوم (٤٣٤ م). ومن المحتمل أنه كان الحد الشمالي للبحيرة. إن تلك القمة توجد، كما أشار إلى ذلك سعيد (م. س.) على المخطط الرئيسية من التضاريس التي تتحاذي جنوب الجبل النوبي الذي يعتبر مركزاً لنشاط زلزالي كبير ولا يمكن اعتبار هذا الارتفاع، سواءً هذا السبب أو لأسباب أخرى لها صلة بشق فج سبلوكة إثر اجتراف سابق، لا يمكن اعتباره مثلاً لعلو القمة

عندما كانت البحيرة مملوءة. ويدخل في الحساب تعقد آخر ينشأ مدة الفيضانات عن رد فعل سد مياه النيل الأزرق التي تصب في النيل الأبيض. ورغم أن تاريخ بحيرة سد، غير معروف بصفة مفصلة إلا أن في امتداده ثابت، يشهد به بوضوح الشاطئ الذي يبعد ٣٨٢ م والذي يحيط بمناطق شاسعة من النيل الأبيض. ومثلها مثل حوض التشاد، اذ يبدو أنها كانت واسعة جدا بين ١٢٠٠٠ و ٨٠٠٠. وقد كان لها في الشمال عرض ٥٠ كلم (ويليم، ١٩٦٦). وضائق البحيرة بعد ذلك وفي حوالي ٦٠٠٠ انخفض الامطار السنوي الى ما يقرب من ٦٠٠ مم، غير بعيد من الخرطوم، وانخفض مستوى النيل الأبيض الى ٥٠. أومترواحد، تحت المستوى المتوسط الحالي للمياه العالية.

الظواهر الجمودية

أن نحمد افر يقبها القديم مربوط ربطا وثيقا بالجموديات الحالية، التي ترتبط بدورها أساسا بتوزيع المرتفعات الكبرى. فباستثناء جبال الأطلس، توجد القمم ذات الجموديات بافريقيا الشرقية، على بعض الدرجات من خط الاستواء. وتتراوح المرتفعات من حوالي ٣٩٠٠ م الى ٦١٠٠ م، ولقد لخص فنت (١٩٤٧ - ١٩٥٩) المعطيات المفيدة الخاصة بتلك المناطق الجمودية و يشير الى أن تساقط الثلوج التي تزود تلك الجموديات قد يكون ناشئا عن رطوبة جبلية ناتجة عن ككل الهواء البحرية المتقلبة نحو الشرق والآتية من المحيط الأطلسي الجنوبي أو المتقلبة حسب درجة أدنى، من المحيط الهندي الى الغرب.

يبلغ ارتفاع جبل كينيا (خط العرض ١٠ ر، جنوبا، خط الطول ٣٧ ر١٨ شرقا) ٥١٥٨ م ويضبط حد الثلوج الحالية بـ ٥١٠٠ م. ومن الثابت أن حد الثلوج الدائمة في البليستوسين قد نزل الى حد أسفل يقدر بـ ٩٠٠ م (فلنت، ١٩٥٩). و يبلغ جبل الكلمنتجارو، بطنجيقا (خط العرض ٣٠٥ جنوبا، خط الطول ٢٧ ر٢٢ شرقا ارتفاعا قدره ٥٨٩٧ م. ويبدو أنه يوجد حاليا بالتدقيق دون الحد المناخي للثلوج الدائمة. فلقد كان الحد الأدنى في البليستوسين يتجاوز ١٣٠٠ م (فلنت ١٩٥٩). و يبلغ ارتفاع جبل الكن بأوغندا (خط العرض ١٠ ر٠٨ شمالا، ٣٣ ر٤٣ شرقا) ٤٣١٥ م، ويوجد حاليا دون الحد المناخي للثلوج الدائمة بكثير. وكانت له جوديات في البليستوسين. و يبلغ ارتفاع جبل روتزوري (خط العرض ٢٤ ر، شمالا، ٢٩ ر٥٤ شرقا) ٥١١٩ م كما يبلغ حد الثلوج الدائمة ٤٧٥٠ م على السفح الغربي بالزايزيرو ٤٥٧٥ م على السفح الشرقي (أوغندا). وكانت جوديات البليستوسين تنزل الى ٢٩٠٠ م على السفح الغربي والى حد ٢٠٠٠ م تقريبا على السفح الشرقي. ان الأراضي المرتفعة بأثيوبيا لا تحتوي على جوديات ولكن يبدو أن جبال سميان (خط العرض ١٣ ر١٤ شمالا، وخط الطول ٢٨ ر٢٥ شرقا) كانت تحتوي على جوديات في البليستوسين فلقد اثبت نلسن (١٩٤٠) وجود تجمدين على بعض قمم هذا الجبل (ارتفاعه ٤٥٠٠ م تقريبا) مع اعتبار الحدود المناخية للثلوج الدائمة البالغة ٣٦٠٠ م الى ٤١٠٠ م و ٤٢٠٠ م. ان الانسحاب الجمودي المصاحب للبليستوسين الحديث يوافق حدا من الثلوج الدائمة يقدر بـ ٤٤٠٠ م. ويصف نلسن (١٩٤٠) كذلك تجمدا بالبليستوسين الحديث بجبل كاكا (خط العرض ٧ ر٥٠ شمالا، وخط الطول

٣٩٢٤ شرقاً) يبلغ حد ثلوجه الدائمة ٣٧٠٠ م. ان القمم البركانية الأخرى باثيوبيا التي توجد حالياً دون حد الثلوج الدائمة بكثير توفر أيضاً شواهد على التجمدات، من ذلك جبل كونه (خط العرض ١١٤٣ شمالاً، خط الطول ٣٨١٧ شرقاً) وجبل أمبافاريت (خط العرض ١٠٥٣ شمالاً، وخط الطول ٣٨٥٠ شرقاً) وجبل شلاي (خط العرض ٧٥٠ شمالاً، وخط الطول ٣٩١٠ شرقاً).

وتوجد شواهد قاطعة على التجمد الذي وقع على الأقل مرتين بالمناطق الجنوبية وفوق الجنوبية من إفريقيا، وعلى مناخ أشد برداً طيلة الحقبة الموافقة لتجمد (وورم). ولقد اكتشفت في أثيوبيا، فضلاً عن العلامات ذات الأصل الجمودي الملحوظة في بعض قمم هذه المنطقة، آثار عن انزلاق التربة وعن تغيرات الأديم ناشئة عن الجليد (على ارتفاع ٤٢٠٠ م/٤٣٠٠ م) ويرى بودل (١٩٥٨) ان الحد الأسفل لظواهر انزلاق التربة بلغ ٢٧٠٠ م في حقبة وورم. ولوحظت أيضاً رسوبات جمودية نهريّة في مناطق مختلفة من إفريقيا الجنوبية. ولقد درس دي هنزلي ١٩٦٣ رسوبات جبل رونزوري وتبين أنها موازية للسطوح الغميلة لنهر سمليكسي. ان هذا النهر الذي يصل بمحيطي ادوارد وألبيرت عند حدود الكونغو وأوغندا، يمر بجوار تكثر فيها الحصاة والحصى، والرمل والتربة الحمراء ذات الطمي، مع الرسوبات الخفيفة. وبين دي هنزلي أن السطوح السنغوثينية — اللومبينية معاصرة للرسوبات الجمودية النهريّة لجبل رونزوري.

المنطقة المدارية والمنطقة فوق المدارية

تختص المنطقة المدارية الحالية بنظام من الرياح الشرقية الغالبة وتحولات فصلية حرارية محسوسة. ويختص القسم الغربي من هذه المنطقة التي توجد على الساحل الأطلسي، برياح صابية قارة، وبطقس يميل إلى البرودة نسبياً، وبرطوبة فضائية مرتفعة وبانعدام المطر تقريباً. أما الباقي من هذه المنطقة فإنه يشمل الصحاري الكبرى بالشمال وبالجنوب من القارة. ان هذه المناطق جافة وحارة يصحبها تحول نهاري هام في الحرارة وارتفاع أقصى مطلق في تلك الحرارة.

وتشمل المنطقة فوق المدارية الأطراف الشمالية والجنوبية من القارة وتختص بكتل هوائية من النوع المداري في الصيف وبكتل هوائية من النوع المعتدل في الشتاء. وتتبدل الحرارة والأمطار الفصليان تبدلاً كبيراً. أما المناطق التي لها مناخ البحر المتوسط فهي تمتاز بطقس صاف وهادئ في الصيف وشتاء ممطر.

الصحراء

يمكن أن نعد الصحراء أكبر العناصر أهمية في هذه المنطقة. فهي تمتد على ما يفوق ٥٥٠٠ كلم من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي ولها عرض متوسط من الشمال إلى الجنوب يفوق ١٧٠٠ كلم. فهي تشمل ما يقرب من ربع المساحة الكاملة من القارة الإفريقية. فالأمطار الموزعة تبعاً لمناخها متفاوتة على مجموع تلك المنطقة، يفوق في بعض الأماكن ١٠٠ م سنوياً، أما المعدل فهو دون ذلك بكثير فلا

يوجد استنتاجا من ذلك انهار دائمة المياه، باستثناء النيل الذي تأتي مياهه من منابع موجودة في أماكن خارجة تماما عن الصحراء. وليس لكيات الماء العارضة أو الدائمة الناشئة عن السيلان السطحي أية أهمية بالنسبة لحياة الإنسان في العصر الحديث باستثناء الينابيع والآبار التي تزودها المياه الجوفية. تتكون الصحراء من قاعدة صماء من الصخور الماقبكية التي تغطي رواسب من عهد الباليوزوئيك إلى عهد السينوزوئيك، وظلت ثابتة طيلة جزء كبير من عهد الفانيروزوئيك. إن النشاط الذي تسبب في تغيير المعالم والالتواء لم يحدث إلا في جبال الأطلس، وخليج قابس بتونس وعلى هضاب البحر الأحمر، شرقي نهر النيل. ويمكن ملاحظة نشاط مشابه ببرقة وتحت الأرض بالمنطقة الساحلية من شمال إفريقيا. إن هذه الحركات الالتوائية تنسب إلى النظام الألبى، وقد تشكلت منها الجبال بعهد السينوزوئيك الحديث والدهر الرابع. أما جبال البحر الأحمر، فإنها على العكس مرتبطة بالحركات التي طرأت على بنية الأرض وامتداد الوقت الأفريقي الكبير.

تعتبر منطقة جبل الأطلس أوسع المناطق تضريرا. وهي تمتاز بمطر غزيرة. وتوجد تضاريس قليلة الأهمية ببرقة وبجبال الحقار والتبستي من الصحراء الوسطى. ويشكل الجبلان الأخيران منطقتين ذاتي طوبوغرافية جبلية متصلان ببعضهما عن طريق سرج طمو المنخفض. وللمنطقة ارتفاع متوسط يبلغ ٢٠٠٠م مع وجود قمم تبلغ ٣٠٠٠م وتتكون أغلب القمم من صخور بركانية تشكلت طيلة حقبة متواصلة من النشاط البركاني الذي يعود إلى ما قبل البليستوسين.

وتوجد مناطق أقل اتساعا مكونة من الصخور البركانية بجبال العاير، بالجنوب الغربي من الحقار، ومنها الأوجيات الذي يرتفع ارتفاعا شاهقا في منتصف الطريق بين التبستي والنيل، وجبل العاطر الخ. ويعتبر حاليا أثر هذه الجبال على المناخ ضعيفا، إلا أنه توجد علامات جيولوجية عديدة تدل على أن الصحراء كانت أقل جفافا طيلة حلقات عديدة من البليستوسين.

إن أكبر عامل من عوامل الاجتراف بالصحراء حاليا وفي جميع حقبات الجفاف هو الاجتراف الريحي الذي يعتبر المسؤول عن تكوين سهل هذه الصحراء. إن الرمال الحشنة التي تنقلها الرياح تتراكم حسب مساحات تدعى عرق أو رق، أما المواد الناعمة، فتتقلب إلى الأعلى بالفضاء حيث تظل معلقة تعليقاً جزئيا متواصلا. وتسمى المساحة الصخرية المعرة الناشئة عن هذا الاجتراف حمادة. وتمثل هذه المساحات أحواضا وهادا تتراوح بين الأحواض الضيقة والهواد الضخمة التي يبلغ عمقها في بعض الأماكن ١٣٤م تحت مستوى البحر (مثال ذلك وهدة قطارة). وقد فسحت هذه الهواد، في مواسم المطر، المجال لنشوء الطمي، وظهرت بها عيون من الماء ونشاط ترسيبي بحري عندما هبطت إلى مستوى المياه الجوفية. وتوجد الهواد الكبرى أساسا على حافة المنحدرات، وقل أن تحيط بها تلك المنحدرات من جميع جوانبها. ومن المؤكد أنها تكونت بعامل اجتراف ريحي لأنها تشكل أحواضا داخلية لا مسيل لها.

إن الآراء تختلف في شأن تاريخ الصحراء الجيولوجي. ويعتقد بعض المؤلفين أنها كانت صحراء طويلة حقبة الفانيروزوئيك كلها وأن الحقبات الرطبة تمثل تقلبات غير عادية في تاريخ جفاف متواصل. ويعتقد آخرون أن التصحر (أي التحول إلى صحراء) ظاهرة حديثة توافق النظام الحالي لتوزيع كتل الهواء.

وهناك علامات ثابتة تدل على وجود مناخات أكثر رطوبة سابقا في الصحراء، ومن بينها نظام

توزيع النباتات، وخصائص الرواسب التي لا يمكن تفسيرها إلا بافتراض وجود مناخ قديم أكثر رطوبة. إن بعض الحيوانات الأهلية باقيا تعيش دوما في الصحراء، وما كانت لتهاجر إليها لولم توجد مناطق تتوفر فيها النباتات والأحواض من الماء. ولقد اكتشفت أنواع من تماسيح إفريقيا الوسطى بحفر مائية داخل أغوار عميقة من جبال الهقار والتبستي. وعثر على «المدفش» الإفريقي (وهو حوت) بالشمال وحتى بواحة بسكرة بالجنوب الجزائري. إن خصائص نظام تصريف مياه الصحراء تدل على أن الأمطار كانت غزيرة، إذ يمتد، غربي الهقار، سهل مترامي الأطراف يقف دون المحيط الأطلسي ببعض المئات من الكيلومترات، وينحدر إليه، ويتبع منحدر ابتداء من هذه الجوف. وهنا تشكل في الماضي حوض التبخر لمجموعة من الأنهار. إن خطوط تصريف المياه المتجهة نحو الجنوب، ابتداء من منحدرات الأطلس الجنوبية. ومنها منحدر وادي الساورة الذي تتبع العلماء مجراه على مسافة تزيد على ٥٠٠ كلم، هي على غاية من الإفادة في هذا الشأن. وذلك يعني أن الوادي كانت تجري به في الماضي مياه كثيرة قادرة على حمل الرمال الريحية التي تسد حاليا مجراه الأوسط.

وتستمد بعض الاودية، ابتداء من هضاب البحر الأحمر، على ٣٠٠ كلم وتخترق مساحات تبلغ حوالي ٥٠٠٠٠ كلم. وتحتضن احدهما، وهو وادي جهاريت الذي يمر بسهل كم أمبو، بشمال أسوان ضفاف ضيقة من الطمي ذي الحب الناعم يزيد سمكه على ١٠٠ م. ومن المؤكد أن مرسبه نهر كبير لا تنضب مياهه.

لقد استعرض مونود (١٩٦٣ م) الدراسات الهامة الخاصة بالتقسيمات المناخية الطبقيّة، فأشار الى بحوث إيمان وشيفايون ومركا (١٩٥٩ م) الخاصة بمحوض الساورة الكلاسيكي الذي اقترحت في شأنه التقسيمات التالية، تنقلا من أقدمها الى أحدثها:

— الممطار الفيلافرنشي (= عائدتي): رمل، حصياء ومشبكات لونها وردي أحمر نازلة فوق صخور أكثر قدما.

— ما بعد الفيلافرنشي الجاف: حطام انهيالات، وغرين رملي الخ، تملؤه تربة متطورة سمراء وحمراء. ولقد عثر بموقع في الجزائر على حصى مهيأة هجينة الصنع.

— الممطار الأول المازيري (Q/a) مشبكات ورمال.

— ما بعد المازيري الجاف: ترسبات من الطين الرملي، ورمال ريحية وانهيالات.

— الممطار الثاني التاوريرتي أو الأوغرتي الأولى (Q/b) مشبكات وزراعة على الحصى المهيء المتطور جدا من العهد الأشولي المتوسط.

— ما بعد التاوريرتي الجاف: اجتراف.

— الممطار الثالث (أو الأوغرتي الثاني): حصى ذات ألوان متنوعة ورمال أو تربة متطورة حمراء وسمراء.

— ما بعد التاوريرتي الجاف: اجتراف.

— الممطار الرابع الساورى (Q1) رمال رمادية وخضراء. ومواد حتاتية، وتربة ذات أحفورات سوداء — عاطري.

— الممطار ما بعد الساورى: غلاف من الصلصال الرملي، عنصر حجري جديد.

— مرحلة رطبة غيرية (Q2d): عصر حجري جديد.

ويرى أرمبوز (١٩٦٢) أن المسطارات الاربعة الأساسية وهي المازيري والأوغرتي الاول والأوغرتي الثاني والساوري شمال الصحراء قد توافق مطارات افريقيا الشرقية وهي الكاغيري (أولدواي الاول) والكاماسي والكنجيري والكلبي. وقد يوافق الغيري في الشمال الغربي من افريقيا المراحل الرطبة لما بعد الكلبي.

النيل

اعتنى الاختصاصيون منذ القديم بالنيل وخصصت لختلف جوانبه مؤلفات كثيرة. ولقد درس نندورف (١٩٦٨م) وبوتزر وهانسن (١٩٦٨م) وهنزلين (١٩٦٨م) وشيلد (م س) وكيكناك (١٩٦٨م) وسعيد (تحت الطبع) دراسات مكثفة لما قبل تاريخ هذا النهر وتطوره الجيولوجي. وتمثل الملاحظات التالية نتيجة عمل قديمه سعيد واعتمد فيه على فن رسم الخرائط وركز فيه بعين المكان على الترسيبات النهرية والرواسب المشتركة. وعلى فحص عدد كبير من التنقيبات العميقة أو السطحية التي أجريت بحثاً عن الماء والبترو. ويمكن أن نعتبر أن النيل قد مر بخمس حلقات منذ أن شقّ مجراه في الميوسين الأعلى. ولقد اختصت كل حلقة بوجود نهر كان يأخذ أكبر قسط من زاده المائي من منابع خارج مصر. ويبدو أن النهر قد نقص أو كف نهائياً عن الجريان في مصر وذلك حوالي آخر الحلقات الاربع الاولى (والحلقة الأخيرة تجري الآن). ولقد صاحبت هذه الحلقات الانحسار في تغيرات فيزيائية ومناخية، ومائية هامة. ويبدو أن البحر قد تقدم، مدة الانحسار الاول، في الأرض مكوناً خليجاً يشمل الوادي المحفور حتى جنوب أسوان. واستقر مدة الانحسار الثاني الذي ابتدأ بالبلستوسين الجاف، وتواصل مدة تفوق ١١٠٠٠٠ سنة، مناخ على غاية من الجفاف بصر التي تحولت الى صحراء قاحلة. وكان النشاط الريحي في ذلك العهد هاماً، وأخذت الوهاد الصحراوية الكبرى تتشكل، وضاع الغطاء النباتي الذي كان يكسو مصر مدة البلستوسين. وتوجد شواهد على مرحلة مطارة قصيرة نسبياً وقعت في بداية هذه الحقبة. ولقد نشأت في هذا المطار أنهار متكونة من سيول قصيرة المدة، تنزود تماماً في مصر. إن الانهار الخمسة التي احتلت وادي النيل منذ أن جفر مجراه في الميوسين تدعى: .. ايونيل (Tmu) بالنويل (Tplu)، بروتونيل (Q1)، برينيل (Q2)، نيونيل (Q3).

ويمكن أن نلخص في اللوحة التالية، التحولات المناخية التي سجلت بمصر، تنقلاً من أقدمها الى أحدثها.

مطار بليستوسين

(Tplu) يقدر ب (٣٣٢ الى ١٨٥) مليون سنة.

وتتكون رواسب البليونيل أساساً من رواسب متفتتة ذات حب دقيق في المجاري الضيقة، ومن الطين، وذلك في باطن الوادي وعلى امتداد الأودية. وكانت منابع البليونيل موجودة في مصر وفي افريقيا الاستوائية وما فوق الاستوائية. والملاحظ وجود غطاء نباتي واسع، وحدوث انحلال

كيميائي قوي، وسيلان ضعيف. ومن المحتمل أن الامطار كانت تتوزع بها توزعا منتظما على كام السنة.

الطور الجاف جدا من البليستوسين الحديث

(فاصل Tplu/Q1) يقدر بـ (١٨٥٠) الى (٠٧٠) مليون سنة.

ولقد أصبحت فيه مصر صحراء معرضة لنشاط زلزالي في وادي النيل حيث بلغ مفعول الريه أشده. وقطع هذا الطور ممطار قصير (أرمنت) تكونت فيه مجار من الحصر متناوبة أحيانا من مجار من الرمل، حباته مرصوفة أو من المارن الممزوج بقلب أصفر وأحمر، وتعلوها ثغرة مؤسمة. ولم يعثر على أية أداة بهذه الترسبات.

مطار أدفن

و يقدر بـ (٧٠٠٠٠٠ الى ٦٠٠٠٠٠)

ففيه عادت الأحوال المناخية الخاصة بالبليوئيل. أما البروتونيل فانه يختص بمنايع مائية تشابه منابع النيل السابق اذ دخلت مصر وحفرت مجراه حسب ممر مواز لمجرى النيل العصري وموقعه بشمال هذا الأخير توجد به رواسب في شكل مجار من حصي الصوان وحجرات الصوان الممزوج بقلب من الملح الأحمر الآجري. ولقد أتت تلك الرواسب من أرض تفتتت تفتتا عميقا، وغسلت تغسيلا. اذ الرواسب الموجودة بالصحراء المشابهة لمشيكات الاودية تظهر على شكل قنوات مقلوبة وقد عثر في هذه الرواسب على أدوات مصنوعة حسب التقاليد الشالية.

مطار البرينيل الجاف

(Q2) يقدر بـ (٦٠٠٠٠٠ الى ١٢٥٠٠٠) مليون سنة

فيه ظهر نهر جديد دخل مصر، وزودته مياه آتية من الأراضي العالية بأثيوبيا. ان التركيب المعدني لرواسب البرينيل يدل على وجود معدن الأوجيب (وهو من خصائص رواسب النيل العصري، الآتية من مرتفعات أثيوبيا)، كما يدل على وجود كمية وافرة من معدن الأبيدوت الذي يميز هذه الرواسب عن رواسب النيونيل الموالي والنيل العصري. يوجد كذلك ممطار صغير خلال الأطوار الاولى من هذا الفاصل الزمني.

مطار العباسية

(Q3) (١٢٥٠٠٠ الى ٨٠٠٠٠)

وفيه كف البرينيل عن السيلان بمصر لأن منابع النهر قد انقطعت بعد نهوض جبل التوبة ويتميز هذا الممطار بمحصى متعددة الاصل آتية من هضاب البحر الأحمر الذي تفتت سطحه تفتت عميقا الا أنه لم يغسل الا تغسيلا قليلا. ويحتوي الحصى على أدوات وافرة من العهد الأشولي الحديث.

طور العباسية/مخدة الجاف

(يقدر بـ ٨٠٠٠٠ الى ٢٤٠٠٠).

و يتميز بالاجتراف.

ما فوق بمطار مخدة

(٤٠٠٠٠ الى ٢٧٠٠٠).

فيه اجتراف طبقي وأدوات تقليدية سنغونية لومبية تظهر بهندرات عديدة من الجري المجروف من البرينيل. وتوجد في كل مكان من الصحراء أدوات تقليدية موسيرية وتلبها فيما بعد أدوات عاطرية.

طور النيونيل الجاف (Q 3)

من ٢٧٠٠٠ الى يومنا هذا)

وفيه دخل مصر نهر هو النيونيل، له منابع ونظام يشابه ما يوجد بالنيل العصري. ولقد مرّ النيونيل بطورين انحسارين نتج عنها ما فوق المطارين الأقصىين: وهما ما فوق مطار دير الفاخوري (١٠٠٠٠ الى ١٢٠٠٠) وما فوق مطار دشنة (١٠٠٠٠ الى ٩٢٠٠) والعصر الحجري الجديد (٧٠٠٠ الى ٦٠٠٠).

ويمكن أن نؤكد أن رواسب وادي النيل لا تختلف كثيرا عن الرواسب التي عثر عليها بالصحراء ومن الممكن أن نعمم وأن نبين أن مطار أرمنت بمصر قد يوافق مطار الفيلافونشي بالشمال الغربي من الصحراء، وأن أدفن يوافق المازيري، وأن العباسية يوافق الأوغرتي، والمخدة يوافق الساوري ودير الفاخوري، والدشنة والعصر الحجري الجديد يوافقان الغيري.

وينبغي أن نلاحظ في الختام أن المطارات الافريقية قد تكون ناشئة عن تحولات مناخية عالمية، توافق نظريا التجمدات بأوروبا وأمريكا الشمالية. وإذا كان من العسير إقامة الدليل على هذا الأمر، يمكن بمصفة عامة افتراض وجود ارتباط بين الأوغرتي (بالشمال الغربي من أفريقيا) والعباسية (بالشمال الشرقي من أفريقيا) والكنكري (أولدواي ٤) بأفريقيا الشرقية، وبين التجمد الالبي لريس. ومن الضروري أن تجري دراسات تكميلية، لا سيما في ميادين القياس الجيولوجي المغناطيسي والاشعاعي قبل استخلاص استنتاجات مضبوطة.

الاطار الزمني للمراحل المطرية والجمودية بأفريقيا

القسم الثاني

هـ. فور

لقد طرأ على تاريخ معمورتنا في ملايين السنوات الأخيرة تعاقب مطرد من تحولات مناخية عميقة وأهم ظاهرة من ذلك، وقد عرفت منذ أكثر من قرن، وهي تقدم وتأخر الجموديات بصفة خارقة للعادة في خطوط الطول العليا وفي المرتفعات (شكل ١). وقد تجلّى ذلك في برد شديد كان له أثر عميق على البيئة وعلى حياة البشر. وكان من المظاهر المشهودة للتحولات المناخية في الدهر الرابع بأفريقيا أن توسعت المساحات البحرية بالمناطق الجافة، وتقدمت مساحات شاسعة من الهضاب الرملية نحو المناطق التي لها الآن مناخ أكثر رطوبة.

ولقد أحرز العلماء منذ عشر سنوات تقدما ملحوظا في ضبط توارخ تلك الأحداث بالنسبة للثلاثين ألف سنة الأخيرة، وذلك بعد استعمالهم استعمالا منهجيا للقياسات الراديوية بالكربون ١٤. ان الترتيب التاريخي للتقلبات المغناطية، المعتمد على قياسات راديومترية بحسب طريقة أرغن بوطاسيوم أولك يسمح بإيجاد علاقة ارتباط من بعيد مع المناطق الأخرى التي استعملت فيها تلك الطرق، لا سيما، فيما يتعلق بميدان المحيطات.

فقبل ان تستعمل طرق الارتباط تلك، كانت طبقة الدهر الرابع الأرضية تعتمد على تعاقب الاحداث المناخية الذي اعتبر اطارا تاريخيا. ان علاقة الارتباط بين منطقة وأخرى كانت تقع بالاستناد الى موازاة الفترات الزمنية المتعاقبة بالمناخات المتشابهة. وعلى هذا الأساس اقترح اعتبارا وجود توافق بين الحقبات الجمودية الاوربية والاطوار المبطارية الافريقية.

ولقد كان لهذه النظرة اعتراضات قدمها مؤلفون عديدون (انظر تريكار، ١٩٥٦، و بالوت ١٩٥٢ (التح).

ان الجواب على هذه المسألة المتعلقة بالارتباط قد كان أكثر تعقدا في الواقع ولم يدرك الا بفضل

المعرفة الدقيقة لآليات المناخ الشاملة من جهة، وللترتيب التاريخي المناخي في بعض الآلاف من السنوات الأخيرة من جهة أخرى.

الطبقة الأرضية المغناطية والترتيب التاريخي الراديومري

يجب أن نسجل، فضلا عن الملاحظات التي أبداها رشدي سعيد قبله، أن التباسا مطردا قد وقع بين الوحدات الطبقة الأرضية الحجرية، والطبقة الأرضية الأحيائية والطبقة الأرضية التاريخية، حتى أن انعدام الدقة في التعريفات قد تسبب في وضع قائمة من المصطلحات لا تفيد أحيانا في ميدان التاريخ الذي أخذ يميل إلى الدقة.

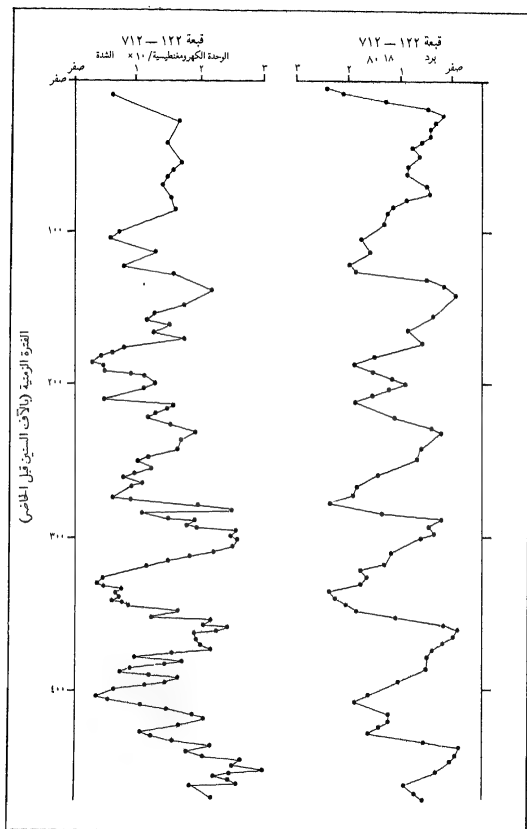
ويظهر من جهة أخرى أن بعض عناصر الحقل المغناطيسي، كالانحناء أو الشدة متصلة اتصالا وثيقا بعناصر مناخية (شكل ٢ وشكل ٣ حسب ولان وآل ١٩٧٤).

تجمدات الدهر الرابع، والترتيب التاريخي

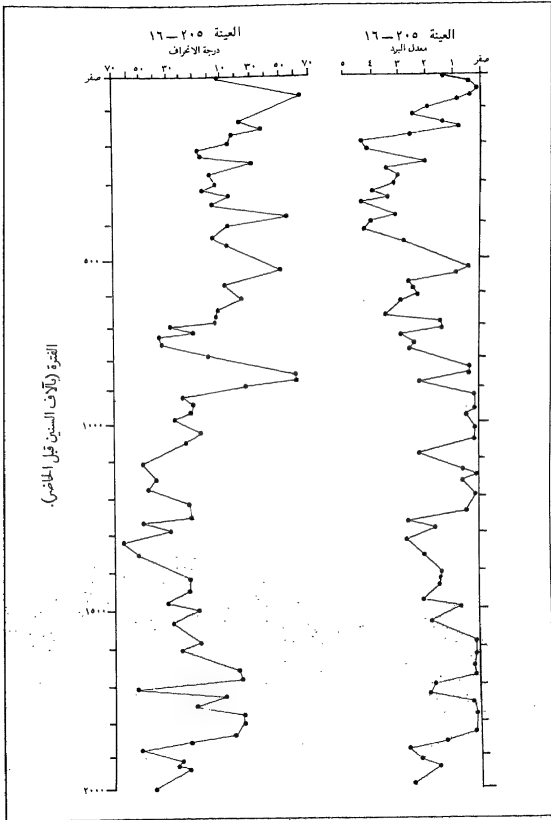
يسدو أنه سجل في العهد الرابع ما لا يقل عن اثنتي عشرة موجة هامة من البرد وذلك في الترسبات المتراكمة باستمرار في عمق البحار، ولم يعرف منها سوى ثمانية في الترسبات القارية بأوروبا الشمالية، وترتبط السطوح النهرية والترسبات الجمودية التابعة للمنطقة الألبية بأربعة (أو ستة) تجمدات كلاسيكية، وهي: غونز، مندل، ريس، وورم (وكذلك دونو وبيبر)، وكل تجمد من تلك التجمدات قد يشتمل على مراحل.

إن ما تتميز به الشواهد القارية من تقطع يجعل من العسير إن لم يكن من الخيالي، وضع علاقات ارتباط بين الحقبات الجمودية بالمناطق البعيدة عندما لا تكون مضبوطة ضبطا دقيقا بالنسبة إلى سلم تاريخي مغناطيسي أو راديومري. والملاحظ فعلا أن الترتيب التاريخي للتجمدات الألبية لم يضبط ضبطا دقيقا من حيث الزمن. ولقد أطلقت مصطلحات غونز، مندل، ريس، وورم، بغير فيما يتعلق بمناطق متنوعة باعتبار تشكلات غير متزامنة. وعلى هذا الأساس ينسب الترتيب التاريخي للصخور البركانية المقعقة في سطوح نهر الراين والمسماة «مندل ١ و ٢»، عمرا قدره ٣٠.٠ إلى ٣٤.٠ مليون سنة. وينسب للسطوح المسماة «غونز ١ و ٢» عمرا يقدر بـ ٢٠.٤ إلى ٣٤.٠ مليون سنة. إلا أن نفس المصطلح «غونز» يطبق أحيانا على الحقبة الباردة التي تسبق الكرومري والتي قد يكون عمرها ٩.٠ إلى ١٣.٠ مليون سنة. مما يوافق الحقبة الباردة السابقة لحدث جارميو في العينات الترابية تحت البحار. وفي إطار هذا التأويل الأخير، يجب أن يشمل (دونو)، وهي حقبة باردة سابقة، حدث جلسا وإن يكون معادلا للابوروني.

واعتبارا لهذا المثال ندرك الخطر الناشئ عن أن نعم من منطقة إلى أخرى، ترتيبا زمنيا مركزا على تعاقب مناخي قاري: فبقدر ما نتأخر في الزمن اعتبارا لعدد الاحداث الباردة، واعتبارا



● شكل ١ - منحنيات تبين التشابهات الموجودة بين العلاقات النظائرية للاوكسجين (أو التغيرات في الحرارة) وشدة الحقل المغنطيسي الأرضي في قبة تحت البحر، وذلك بالنسبة لفترة الـ ٤٥٠٠٠ سنة الأخيرة، اعتماداً على وولين وأريكسون وويلين



● شكل ٢ - منحنيات تبين التشابه بين درجات الحرارة كما تدل عليها الحيوانات الصغيرة والانحناء المغناطيسي، وذلك بالنسبة للمليون سنة الاخيرة. اعتماداً على «اولين وآخرين» (١٩٧٤).

للمصطلحات التي أطلقت عليها اعتباراً، تتسبب الاختلافات في عدم توضيح علاقات الارتباط القائم بين الشواهد الدالة على التجمدات الألبية، وموجات البرد المتتابعة المقاسة بالعينات الترابية في المحيطات.

فلا بد من تسجيل كامل ومتواصل للظواهر المناخية من جهة، وللعلامات الطبقيّة الأرضية المغناطيسية والراديو مترية من جهة أخرى، لكي نضع، ولو تقريباً، سلماً طبقياً أرضياً ونساعد على الوصول إلى مقارنة مفيدة بين منطقتين.

إن القلب المغناطيسي ماتيما - برونس (٠.٦٩ مليون سنة) قد حدد في الطبقة الكروميرية بفضل البليولوجيا، كما حدد حدث جلسا (١.٧٩ مليون سنة) بالابوروني، (فان منفرنس ١٩٧١).

التعدي البحري في الدهر الرابع والترتيب التاريخي

يتسبب كل تجمد في تسهقر جمودي لمستوى البحار يقدر تقريباً بمائة متر. إن التعديّات البحرية الناشئة من ذوبان الثلوج، تسمح إذن في المناطق الساحلية، بالربط بين الترتيب التاريخي الطبقي الأرضي المناخي وبين الترتيب التاريخي الخاص بالدورات البحرية.

أما في المناطق التي تكون فيها التشكلات البحرية مرجانية (وذلك في برباد و برمودا وغينيا الجديدة والبحر الأحمر) فقد سمح ضبط التواريخ بطرق عدم اتزان الاورانوم، المطبقة على أرغونيت المرجان بضبط عمر التعديّات التابعة لما بين التجمدات (٢٠٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠٠ و ١٠٥٠٠٠ و ٨٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد تقريباً). ونلاحظ (مع اعتبار فارق الخطأ الفيزيائي الناشئ عن مختلف الطرق الراديوية تاريخية) أن تلك المستويات البحرية العالية توافق بالتدقيق المراحل الحرارية الأكثر علواً وتدل عليها الحيوانات البحرية الصغيرة واللقاحات، كما تدل عليها نظائر الأكسجين.

آلية المناخة الشاملة

إن المناخ ليس وسيلة لاقامة علاقة ارتباط تاريخي. وذلك أن تعقد العوامل القائمة في وقت معين (أو في فترة تدوم بعض القرون أو بعض الألوف من السنين) تمنع من أن نستعمل المعطيات غير المؤنخة تاريخاً مضبوطاً كميّار طبق أرضي أو تاريخي.

إن العوامل التي تؤدي إلى هذه الملاحظات على نوعين:

— أولاً : إن معرفة التطور المناخي العام على مستوى بعض عشرات السنين (أو بعض القرون استناداً إلى معطيات تاريخية) تبين تعقّد المسألة في مستوى الكرة الأرضية، ولذلك وجب معرفة جميع العوامل، ومن بينها «الشمس» كعامل ثابت، وحركة المحيطات، ووضع الجبهات القطبية، والامطار (ليس معدلها، فحسب بل كذلك تفاوت نسبها).

— ثانياً: إن معرفة تحولات بعض العوامل المناخية منذ ٢٥٠٠٠ سنة تقريباً (آخر البليستوسين والهولوسين) اعتماداً على القياسات الراديومترية، تدل من جهة على سرعة تغيرات هامة توفرت لنا عنها وثائق مفيدة، ومن جهة أخرى على تعدد علاقات الارتباط على مستوى الكرة الأرضية. وبذلك يلعب سلم الأزمنة المعتبر دوراً هاماً.

إن «النظام المناخي»، كما عرفه المجمع القومسي للعلوم بواشنطن (١٩٧٥) يتألف من الخصائص والعمليات المسؤولة عن المناخ وتحولاته، كالخصائص الحرارية: (حرارة الهواء، والماء، والمثلج، والتربة). والخصائص الحركية: (الرياح، والتيارات البحرية، وتنقلات المثلجات)، والخصائص المائية: (رطوبة الهواء، السحب، الماء المطلق أو الجوفي، الثلج النخ). والخصائص السكونية: (الضغط، وكثافة الفضاء والمحيطات، وملوحة الماء النخ)... ثم الحدود الهندسية والعوامل الثابتة التابعة للنظام المناخي. وترابط جميع متحولات النظام بالعمليات الطبيعية التي تطرأ عليها، مثل نزول الأقطار، التبخر، الإشعاع، التنقل، ارتفاع الهواء الساخن، اضطراب الجو. وتشمل المقومات الفيزيائية للنظام المناخي: الفضاء المحيط بالمائي والمحيط البارد، وقشرة الأرض، والمحيط الحيوي. أما العمليات الفيزيائية المسؤولة عن المناخ فانه يمكن التعبير عنها كمياً باعتبار المعادلات الدينامية للحركة، ومعادلة الطاقة الحرارية الدينامية ومعادلة التواصل للكتلة والماء.

إن التحولات المناخية ستكون أكثر تعقداً بقدر ما يوجد من تفاعلات كثيرة بين عناصر النظام المناخي، ولهذا فإن أسباب التغيرات المناخية عديدة ومتنوعة لا سيما إذا اعتبرنا سلم الزمن المعتمد، وآليات التفاعل (المفعول الرجعي). ويعتبر دور المحيطات مهماً في التحولات المناخية من خلال عمليات مقابلة الهواء للماء، والمتحركة في تبادل الحرارة والرطوبة والطاقة. إن هذه الاعتبارات المبدئية تبين أن مرحلة الطبقة الأرضية المناخية في الدهر الرابع كانت من باب المقاربة الضرورية، ولكنها تفسح المجال تدريجياً للبحث عن الآليات الخاصة بحالة معينة جداً على سلم مختلفة من الزمن. ولهذا السبب سندرس عدة أمثلة من النتائج الحديثة التي تهم الحاضر ثم الهولوسين، والبليستوسين، والبليو — بليستوسين.

المناخ الحالية والحديثة بإفريقيا

إن النسق السنوي لتناوب فصل جاف وفصل رطب بإفريقيا في المنطقة المابين الاستوائية مربوط بتنقل منطقة التقارب المابين الاستوائية.

إن «السيات»، كما خصه حديثاً ج. مالي (١٩٧٣) ول. دوريز يمثل مكان المجابهة بين الرياح «الموسمية» (وهو هواء رطب أصله المناطق الاستوائية أو الصحايبات البحرية من نصف كرة الأرض الجنوبية) وبين «الحرمتان» (هواء صحراوي). إن «السيات» الموجهة تقريباً غرباً — شرقاً تنقل من الجنوب إلى الشمال مدة الربيع والشهرين الأولين من الصيف، ثم من الشمال إلى الجنوب. إن هذا التآرجح الفصلي يقع بين الدرجة الرابعة (٤) شمالاً والدرجتين (٢٠ — ٢٣) شمالاً. إن مساحة انقطاع التواصل ترتفع ببطء بين الهواء الرطب والهواء الجاف من الشمال إلى الجنوب. ولا

تشكل الطبقة الرطبة من الريح الموسمية في الصيف الا كتلة باردة ضيقة جدا في الشمال فلا تأتي الا بأقطار ضعيفة، اذ يجب أن يبلغ الهواء الرطب من السمك ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ متر حتى تسقط أمطار غزيرة، وتلك أحوال لا تتحقق الا على ٢٠٠ أو ٣٠٠ كلم جنوبا من خط «السيات» (انظر ل. دوريز، ١٩٧٤)، وتطراً على موقع السيات تحولات مهمة جدا لا على سلم الفصل بل على السلم النهاري، باعتبار حقل الضغط بافريقيا والمحيط الأطلسي. وكما بين ذلك ب. بودي لا بورد (١٩٧٠) فإن الدفع الآتي من المحيط الأطلسي الجنوبي مربوط بنشاط الجهة القطبية الجنوبية يمثل المحرك الأساسي الذي يدفع بمنطقة التقارب نحو الشمال. ويعتبر تقلص «السيات» نحو الجنوب ناشئا في نفس الوقت عن ضعف الإعصار المعاكس جنوب المحيط الأطلسي (في سبتمبر ولتأثير نصف كرة الأرض الشمالي، إن هبوب الهواء الشمالي الجاف بعد أن يمر بالصحراء لا يتسبب الا في بعض الأمطار على الجبال الصحراوية. وبالعكس يأتي الهواء الجنوبي بعد مساره البحري، بالرطوبة. ان الازمة المناخية الحالية بمنطقة الساحل تعود حيثئذ الى أن «السيات» قد تركز في ٣ إلى ٤ درجات) الى الجنوب أكثر من وضعه المعتدل. وكانت الصحراء قد تقلصت مدة العشرة في الرطبة (١٩٥٠ — ١٩٥٩): فوافقت الرطوبة، كما بين ذلك مالي (١٩٧٣) انخفاض الحرارة القصوى على الهوامش الجنوبية.

ولذلك فإن قوة الجهات القطبية وتوسعها نحو خط الاستواء يتعاطمان بقدر ما يكون الهواء القطبي أكثر برودة، وذلك ما دعا مالي (١٩٧٣) الى التمييز بين آليتين: آلية الحقبات الجمودية وآلية الفترة الحالية. ففي الأول طرأ على المساحة المتجمدة القارية من نفس كرة الأرض الغربي توسع كبير، ولم يطرأ الا شيء قليل على المساحة المتجمدة القارية الجنوبية، فكان للجهة القطبية الشمالية اثر غالب وكانت تدفع بالموسمية في الصيف بعيدا نحو الجنوب. وعندئذ وقع التجفاف الذي صاحبه الزحف الجمودي، وضعف أثر المركز القطبي في التسخن الهولوسيني، وذلك منذ ٥٠٠٠ — ٤٠٠٠ سنة ق. م. ان تقلص الجهة القطبية (ج. ق) الشمالية قد ساعد، مدة الصيف الشمالي، على توسع الموسمية نحو الشمال من خط الاستواء بينما كانت الجهة القطبية الجنوبية تدفع بشدة الإعصارات المعاكسة المانحة الاستوائية نحو خط الاستواء. واستطاعت الجهة القطبية مدة الشتاء الشمالي ان تضاعف أثرها في الصحراء وأن تتسبب في أمطارها. ان هذه الامطار الشتائية والصيفية تفسر المناخ الرطب الذي ساد الصحراء الجنوبية، كما تفسر تقلص الصحراء مدة النصف الاول من الهولوسين.

ان تقلص الجموديات القارية منذ ٥٠٠٠ سنة قد قلل من قوة الجهة القطبية كما ان تقلص منطقة القطب الشمالي منذ ٥٠٠٠ سنة قد أضعف قوة الجهة القطبية الشمالية، وتناقضت في نفس الوقت قوة تأثير القطب الجنوبي. ولذا يفسر التجفاف التدريجي بالصحراء التناقص المزدوج الطارئ على دفع الموسمية وعلى تأثير هواء القطب الشمالي على الصحراء.

ان هذه الآليات المناخية كفيلا بان تساعد على ادراك التغيرات المناخية بافريقيا مدة الدهر

الرابع.

الترتيب التاريخي والمناخات منذ ٢٥٠٠٠ سنة

تعطينا الـ ٢٥٠٠٠ سنة الأخيرة من الدهر الرابع (آخر البليستوسين والهولوسين) مثالا حديثا ومعتمدا على معلومات ثنائية، عن توسع جمودي كبير جدا وعن تقلصه الى حد الحقبة المايين جمودية الحالية. ولقد طرأ في نفوس الحقبة على المناطق ما بين المدارين جفاف شديد، تبعته مرحلة رطبة ثم تحفّظ جديد. ان الامر يتعلق هنا بالاضطراب المناخي الوحيد الذي يمكن دراسته على سلم يقدر ببضعة قرون أو بضع الألوف من السنين، والذي يسمح بالمقارنة بين عناصر النظام المناخي. وتقلباته في مناطق عديدة على جميع خطوط الطول من الكرة الأرضية. ونضيف في شأن تلك الحقبة أن العلامات التي وفرتها اللقاحات، والمشطورات والحيوانات المشابهة للأنواع الحالية تسمح بأن نضبط كميّا مدى التحولات البطّارة على المحيط الجغرافي. أما معدل مستوى البحار فقد أصبح معروفا، بل يوفر فضلا عن ذلك، وفي كل لحظة، فكرة عن الحجم العام للمثلجات وعن العلاقات النظائرية للأكسجين في أهم المستودعات (المحيطات، الثلجات) انظر موزير (١٩٧٥م).

أما فيما يخص إفريقيا الصحراوية، ومنذ أن تم إنجاز الدراسات الاجالية الاولى المعتمد على التوارينغ بالكربون ١٤ (بوتزر، ١٩٦١، مونود ١٩٦٣م، فور ١٩٦٧، ١٩٦٩) تعتبر الأعمال الأكثر حداثة التي يجب الإعتماد عليها من أجل الوقوف على ترتيب تاريخي مفصل للتقلبات المناخية، هي أعمال م. سرفنت، ببلاد الشاد والنيجر، وف. غاس ببلاد العفر، وبإفريقيا الشرقية. وأعمال الفرق من العلماء: فان زندرن باكرو، ولفنغستون، ورشاردن، وويليامز، وفيكنس الخ. وفي الامكان مقارنة نتائج دراسات اجالية عديدة خصصت للمناطق من خطوط الطول العليا القريبة من القطب، ومنها دراسات فلتشكو ودراميس الخ. ويعرف ميدان المحيط الأطلسي في جملة من خلال اعمال فرق كليام (١) ومكانتاير. أما فيما يتعلق بنصف الكرة الأرضية الجنوبي فيعمل على ما نشره فان دراهم وويليامز، وبولو، وآل.

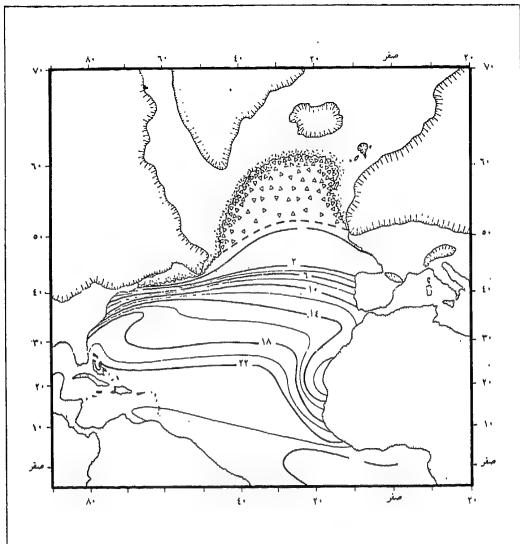
ان السعي الى وضع تاريخ تطور المناخ بإفريقيا في اطاره منذ ٢٥٠٠٠ سنة يجعلنا نغزى مراحل زمانية عديدة:

٢٥٠٠٠ — ١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد

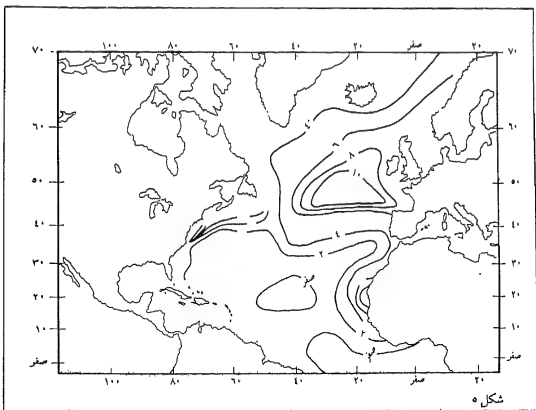
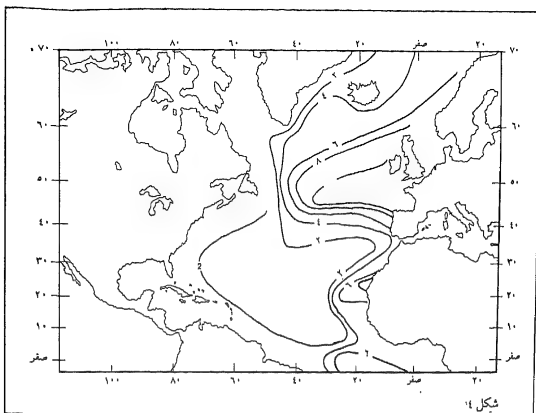
خطوط الطول العليا القريبة من القطب

توافق الحقبة الزمنية بين ٢٥٠٠٠ و ١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد، نهاية التوسع الأقصى للبقعات الحمودية التي كانت ممتدة على النصف الشمالي من الكرة الأرضية. ان هذا التوسع من تجمد وورم = (فيسكونس = فايشيلن = فلداي) قد غطى بالمثلجات مساحة تمثل ٩٠ أو ٩٥ في المائة من المساحة التي احتلت مدة كل التجمدات السابقة في الدهر الرابع (فلنت، ١٩٧١)، ولهذا فان الأمر يتعلق هنا بنموذج يمثل تمثيلا صحيحا تجمدا معينا. يبدو أن البيرما فروسيت (أي تغطية الأرض

(١) كليام (التاويل الواسع المناخي، والتخريط والتوقع) من العشرة الدولية لاستكشاف المحيطات.



● شكل ٣ - خـر يـطـة خـطـوط الحـرارة المتساوية للمياه السطحية في شهر فبراير في المحيط الأطلسي ١٨٠٠٠ قبل الحاضر وتخطوط الحرارة المتساوية المرسومة بالشرط الصغيرة تفسيرية، يبينان الحدود المشرشرة الكتلة الجليدية القارية الكبرى، وتبين الحدود المبينة بالحبيبات الجليدية الساحلي المستديم. وقد رسم خط الساحل الجليدي على أساس مستوى سطح البحر يقل بمقدار ٨٥ متراً على المستوى الحالي. (استناداً إلى ماكتاير وآخرين، ١٩٧٥).



● خريطة تبين اختلافات حرارة المياه السطحية بين الزمن الحالي وبين سنة ١٧٠٠ قبل الحاضر. (استناداً إلى ماكنتاير، ١٩٧٤، كليماب)، شكل ٤: فصل الشتاء، وشكل ٥: فصل الصيف.

بالجليد بصورة دائمة طوال السنة) كان أكثر اتساعا مما كان عليه مدة التجمدات الأخرى (فالتشكو ١٩٧٣، ١٩٧٥ م). ومن المحتمل أن امتداد التجلد الدائم مربوط خارج القارت، بجليد بحري متطور جدا امتد على المحيطات الشمالية وساهم في الحد من التبخر عند تقابل الهواء والبحر.

المحيطات

سأهم انخفاض معدل مستوى المحيطات من ٥٠ إلى ١٠٠ متر، فضلا عن تقلص المساحة الطلقة الناتجة عن جليد البحر، في تقليص مساحة تلك المحيطات بحوالي عشرة في المائة فبرزت خارج الماء، في نهاية الحقبة المعنية، أغلبية المسطحات القارية. ولقد استطاع الباحثون من فريق كليما ب (مكأنتاير وآل ١٩٧٤، ١٩٧٥، وهيس، في كليما ب ١٩٧٤ الخ...) وضع خرائط عن حرارة المياه السطحية بالمحيط الأطلسي بالنسبة للحقبة الموافقة للتجمد الأقصى (١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد) (الشكل ٣). ان تلك الخريطة، عندما تقارن بالخرائط الحالية (وهي خرائط ما بين جودي) تبرز معدلا عاما من فروق حرارية لا يزيد على ٢٥° بن التجمد الأقصى والتجمد الحالي. الا أن توزيع الفروق الحرارية يبين حدا أقصى بالنسبة لخطوط الطول المتوسطة (٦° إلى ١٠° من الفرق) كما يبين فروقا أضعف بكثير (أقل من ٣°) بالنسبة لخطوط الطول ما بين المدارين (الشكلان ٤ و ٥). ومثال ذلك أن الحرارة السطحية بالنسبة للنقطة ٥° شمالا - ٣° غربا كانت في الشتاء أقل من ٧٣° إلى ١٢٧° في ١٨٠٠٠ (أو ١٧٠٠٠) سنة قبل الميلاد، مما هي عليه اليوم، أما في الصيف، فإن الفرق ينخفض الى ١٢° إلى ١٦° (كليما ب، ١٩٧٤).

ان انتقال المياه القطبية من نصف كرة الأرض كانت العامل الغالب بهذه المرحلة الجمودية، ففي شمال المحيط الأطلسي نزلت المياه القطبية حتى خط الموازية ٤٢° شمالا (ابتداء من وضع قريب من الوضع الحالي أي نحو ٦٠° شمالا) متسببة في انخفاض سريع في الحرارة جنوب خط ٤٢° شمالا، كان المحور المحتمل للرياح الغربية في العصر الجمودي. أما في جنوب هذا الحد، فإن النموذج ظل قريبا من النموذج الحالي، وان كنا نلاحظ أن خطوط التحارر، الموجهة نحو سواحل افريقيا، تتسبب، خاصة في الصيف، في مياه باردة نسبيا ناشئة عن ينابيع متفجرة قوية (جاردنر، هابس، ١٩٧٥).

تتشكل الجبهات القطبية ومحور الرياح الغربية نحو خط الاستواء بأكثر من ٢٠٠٠ كلم بالمحيط الأطلسي الغربي وبـ ٦٠ كلم في نصف الكرة الأرضية الجنوبي بالنسبة لنفس المحيط (في المحيط الهادي، لم تنتقل الجبهات القطبية الا قليلا في الحقبة الجمودية) وهكذا ندرك انخفاض تسرب الموسمية الى الصحراء (انظر ص ٧ - ٨، مالي، ١٩٧٣) وحالة الجفاف بالمنطقة الساحلية في نهاية الحقبة الجمودية.

افريقيا

ان التطور المناخي العام لـ ٢٥٠٠٠ سنة الأخيرة بمناطق الصحراء الجنوبية وبالساحل تكشف عن اتجاه مماثل ابتداء من سواحل المحيط الأطلسي الى سواحل البحر الأحمر. وان هذه الحقيقة الزمنية

تشمل نهاية طور رطب من البليستوسين الأعلى (الذي دام تقريبا ٣٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد) وبداية طور جاف ينتهي حوالي ١٢٠٠٠ قبل الميلاد.

ان دراسة الرواسب البحرية بمحوض التشاد قد دلت على أن العلاقة بين الأمطار والتبخر (م/ت) كانت كافية لاستمرار بحيرات واسعة جدا منذ ٤٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد الى حوالي ٢٠٠٠٠ سنة (م. سرفنت ١٩٧٣). إلا أن الجفاف يمتد بعد ذلك وطيلة الثمانية آلاف سنة الموالية، ويتجاوز بمقدار ٤٠٠ كلم الحدود الحالية نحو الجنوب.

ان هذا التحول من حادثة بحيرية الى حقبة جافة جدا ملحوظ أيضا في رواسب بحيرات بلاد العفر حيث استطاع ف. جاس أن يبين وجود حلقات بحيرية ثلاث وقعت في البليستوسين الأعلى ولقد تدهورت البيئة البحرية بين ٢٠٠٠٠ و ١٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وتحتل النباتات النجيلية أعماق بحيرة آبس الناشفة (جاس، ١٩٧٥م).

ويلاحظ سرفنت (١٩٧٣م) وف. جاس (١٩٧٥م) عند تحليلها المؤلفات الحديثة، تطورا مماثلا طرأ على البحيرات الشرقية الإفريقية، وذلك على ارتفاعات وخطوط عرض متفاوتة، وتدل على ذلك أعمال ريتشاردسن وكندل وبتزروليفنغستون بالنسبة لبحيرات رودولف، نكورو نايقاشا، مكدي، البرت ألخ. والشكل ٧ يلخص هذه المقارنة و يبين تطورا متماثلا تقريبا لحوالي اثنتي عشرة بحيرة افريقية.

١٨٠٠٠ - ١٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد

خطوط العرض العالية

توافق هذه الحقبة في المناطق ذات خطوط العرض العالية النهاية الجمودية القصوى وتوقف التجمد. إن القبعات الجمودية التي كانت تغطي شرقي أمريكا الشمالية واسكندنافيا والتي بلغت أقصى امتدادها بين ٢٢٠٠٠ و ١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد، أخذت تذوب بسرعة بعد ذلك التاريخ ولم يبلغ غشاء جبال الكورديير في الشمال الأمر يكفي أقصاه الا حوالي ١٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ثم اختفى في حوالي ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وهكذا فان توقف التجمد بدأ في حوالي ١٤٠٠٠ سنة ق.م. أما في نصف كرة الأرض الجنوبي، فيبدو ان القبة الجمودية القارية في القطب المتجمد الجنوبي لم تتبدل الا قليلا في الناحية الشرقية بينما نقصت كثيرا في الناحية الغربية منه، وتوجد قاعدته تحت مستوى البحر. (الجمع القومي للعلوم، واشنطن ١٩٧٥م).

المحيطات

من المؤكد ان المساحات الشاسعة التي كانت تغطيها الثلجات البحرية قد زالت عندما ارتفع مستوى البحر ارتفاعا سريعا نتيجة توقف التجمد. ولقد بلغ ذلك الارتفاع معدل ١٥ م في كل قرن وذلك بين ١٥٠٠٠ و ١٢٠٠٠ سنة ق.م. وفي التاريخ الثاني، من المحتمل أن ذلك الارتفاع تجاوز النصف بل الثلثين. وتحولت في نفس الوقت مياه المحيط الأطلسي القطبية الى خطوط عرض شمالية.

افريقيا

تعتبر حقبة الجفاف الكبرى الفاصلة بين ١٨٠٠٠ و ١٢٠٠٠ سنة ق. م من الظواهر التي تمتد على أكبر قسم من افريقيا والتي لنا عنها أحسن المعلومات، وذلك ما تعرّنه بوضوح رسوم تطور المستويات البحرية بالنيجر والتشاد (سرفت، ١٩٧٣) وبلاد العفر (جاس ١٩٧٥) والسودان (ويليمز ١٩٧٥) وفيكنس (١٩٧٥) انظر الرسم ١٢) ولقد مكن اندثار النباتات الرياح من أن تقدم التلال الرملية بقدر ٤٠ الى ٨٠٠ كلم نحو خط الإستواء وعلى الهضاب الداخلية المرتفعة. ومن المؤكد ان الصحراء المتوسعة قد كانت طيلة آلاف من السنوات حاجزا في وجه الإنسان عاقه أكثر مما تعوقه الصحراء الحالية. و يبدو ان هذا التجفف قد كان على غاية من الانتشار، وهناك ما يدل على أن جفافا نسبيا بلغ أغلب المناطق الواقعة بين المدارين بافريقيا (دي بلوى، فان زندرن باكر... في كتاب ويليمز ١٩٧٥)، وآسيا وخاصة الهند (منغ، ١٩٧٣ م) ولقد استعرض ويليمز (١٩٧٥ م) حديثا المؤلفات المتعلقة بذلك الطور وبين امتداده الإستثنائي وتزامنه التقريبي.

حوض البحر الأبيض المتوسط

خلافًا للتاريخ المناخي السائد خلال التجمد الأخير (منذ حوالي مائة ألف من السنين) والذي يبدو معقدا فيما يتعلق بمحوض البحر الأبيض المتوسط (انظر ص ٤١٢) تشهد النتائج البليولوجية (بوناتي، ١٩٦٦ م). والنتائج البليولوجية (رودنبرغ، ١٩٧٠ م) بان المناخ كان جافا وباردا في النهاية الجمودية القصوى. واحتل سهب جاف جدا منطقة البحر الأبيض المتوسط بين ١٦٠٠٠ و ١٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد وكثرت الغشاعات الكلسية بالأرض.

نصف الكرة الجنوبي

ان مستويات الحرارة باستراليا التي تشهد بها اللقحات قد هبطت بانتظام في حدود ١٨٠٠٠ أو ١٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، بينما كان الجفاف يمل بالمكان وكانت الهضاب تمتد على المسطحة القارية البازرة (بولر، وآل، ١٩٧٥ م) وكان التجمد يحتل طرمانيا والجبال المكسوة بالثلوج، وجفت بحيرات أستراليا الجنوبية في حوالي ١٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ان الدفء الذي يدل عليه صعود حط الأشجار في المرتفعات (تمبرلين) ابتداء في حوالي ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد ولم يبدأ امتلاء البحيرات الشمالية باستراليا من جديد الا بعد ١١٠٠٠ سنة قبل الميلاد (بولر، وآل ١٩٧٥). ولقد بين فان درهامن ١٩٧٤ م وو يلیمز (١٩٧٥ م) الخصائص المتشابهة التي تميزها مناخات نصف الكرة الأرضية مدة التجمد الأقصى الأخير منذ حوالي ١٨٠٠٠ سنة. وباستثناء الجنوب الغربي من الولايات المتحدة، استمر جفاف عام مدة آلاف عديدة من السنين بمجموع مناطق المعمورة ذات الخط العرضي الأسفل.

١٢٠٠٠ سنة — إلى ٠ سنة قبل الميلاد

خطوط العرض العليا

تختص هذه الحقبة بانتهاء التجمد وعودة دفء ملحوظ، فارتفعت الحرارة الى أقصى درجة فبدأ بين ٧٥٠٠ و ٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد. (الدرجة المناخية القصوى التي لا تزال تدعى «الحقبة الأطلسية»). وسرعان ما ذابت القبة الجمدية للكورديليز وضمحلّت في حوالى ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد كما اضمحلّت قبة أسكندينايا بعد ذلك بقليل (٩٠٠٠ سنة قبل الميلاد). وسجلت تقلبات واضحة وسريعة مع فاصل زمني يتدرب ٢٥٠٠ سنة (من ذلك تبرّد درياس (DRYAS) الحديث بين ١٠٨٠٠ و ١٠١٠٠ سنة قبل الميلاد).

وسادت في أوروبا الشمالية أحوال تشابه أحوال الحاضر فيما يتعلق بالتلج الذي أصابها في حوالى ٨٠٠٠ سنة وأصاب أمريكا الشمالية نحو ٧٠٠٠ سنة (المجمع القومي للعلوم ١٩٧٥ م) وفي تلك الحقبة أيضا تقلصت القبة الجمدية للمحيط المتجمد الجنوبي.

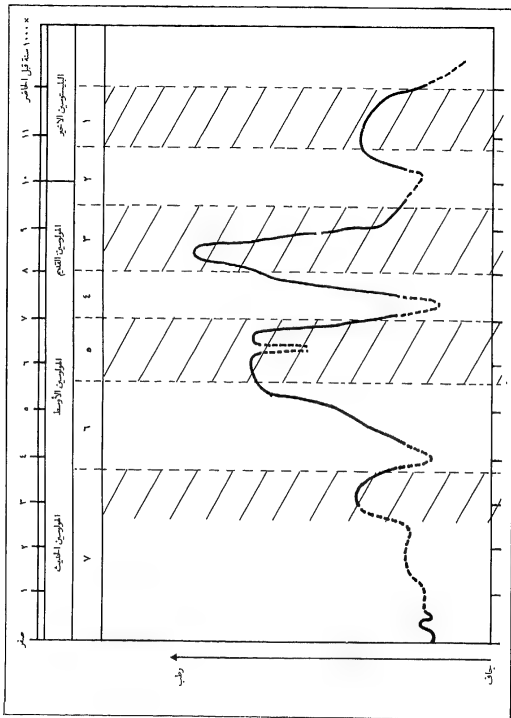
المحيطات

إن صعود مستوى البحر الذي يسجل معدل ذوبان جميع جوديات العالم، كان لا يزال سرّياً جداً بين ١٢٠٠٠ و ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد (أكثر من متر واحد في القرن معدلاً، يصاحبه تباطؤ كبير أو انسحاب حوالى ١١٠٠٠ قبل الميلاد). ويبدو أن المحيطات بلغت مستوى يقرب كثيراً من المستوى الحالي ابتداء من ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد، كما يبدو أنه ظل متأرجحاً حول ذلك المستوى منذ ذلك العهد، مع الامتداد بقدر لا يتجاوز بعض الأمتار. وتتطابق مع هذا الاتجاه العام تقلبات يشهد بها منحني الصعود الذي يؤكد وجود تحولات مناخية هامة (مورنر ١٩٧٣).

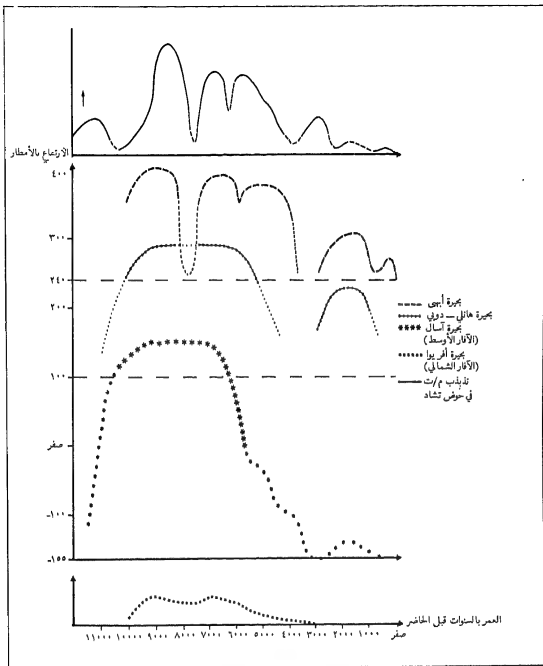
إن مناطق الترسيب البحري التي درسها ولين وأريكسن دراسة كافية، تسمح أيضاً بأن نتتبع التبدلات في توزيع الفلورامينيفر وخاصة تغير النسبة المئوية للغلوبوروثاليا / ترونكاتوليتويد التي لها التفاضل مياسر، إن قم المنحنيات الموافقة لها قد توافقت حسب مورنر (١٩٧٣) قم التبدلات المناخية التي سجلتها العلاقات النظائرية لجموديات غروثلاند والسلام البليولوجية وتقلبات المستوى البحري. وهنا نبليغ حدود الدقة التي تسمح بها طريقة التاريخ الإشعاعي، فلا بد عندئذ من تحشيات خطية بين التواريخ مع اعتبار تحولات مقدار الترسيب. يضاف الى ذلك أن التفاوت في السلم الزمني للكربون ١٤ بالنسبة لسلم الزمن يفرض ادخال تصويبات تجعل من العسير وجود صلات بين الظواهر التي تقاس حدودها باعتبار قرن كامل.

إفريقيا

لقد شهدت المناطق الصحراوية الإفريقية بعد الجفاف الشديد خلال سنوات ١٦٠٠٠ الى ١٤٠٠٠، وابتداء من ١٢٠٠٠ قبل الميلاد، توسعاً خارقاً للعادة في البحيرات انطلاقاً من سواحل المحيط الأطلسي الى سواحل البحر الأحمر. وتسمح كل المناطق المنهارة بأن نلاحظ في الواقع رواسب بحيرية متشكلة في أكثر الأحيان من المشطورات.



● شكل ٦ - التطور النسبي للعلاقة بين معدل المطر/البخر منذ ١٢٠٠٠ سنة في حوض تشاد، بين شتلي عرض ١٣ و ١٨ شمالاً. وقد تم تحديد هذا التطور بعد دراسة مقارنة للتغيرات في مناسيب عدد من البحيرات التي تشتمل مياهها بصفة رئيسية من الطبقات الجوفية، والسيان، أو الانهار. (استناداً الى سرفانت، ١٩٧٣، ص ص ٤٠ - ٥٢).



● شكل ٧ - تذبذب مستويات البحيرات في أحواض الآفار (العش). ويحتوي نفس الرسم على المنحنيات الخاصة ببحيرات أبيي، وهانلي - دوبي، وأسال التي ترجع إلى العصر الحجري القديم وتقع في إقليم الآفار الأوسط. أما المنحني الخاص ببخيرة أفريوا فهو مستقل، والمقارنة مع المنحني م/ت في حوض تشاد. (استنادا إلى ف. غاس، ١٩٧٥).

وفيما يتعلق بالنيجر والتشاد استطاع م. سرفنت أن يستنتج وجود منحنى متواصل يمثل العلاقة م/ت (الشكل ٦) وذلك باعتماد دراسة نماذج مختلفة من البحيرات و باعتبار طرق تزويد الماء وأحوالها المائية الجيولوجية والجيومورفولوجية. إن ذلك المنحنى المناخي يدل على التبدلات الكبرى التي يبدو أنها تحدث باطراد: من ذلك توسع البحيرات توسعا كبيرا في حوالي ٨٥٠٠ قبل الميلاد وتقلصها في حوالي ٤٠٠٠ قبل الميلاد ووقوع تقلبات طفيفة بعد ٣٠٠٠ قبل الميلاد وتحدث هذه التحولات الأساسية في مختلف بحيرات العفر (جاس، ١٩٧٥) (الشكل ٧)، مع اعتبار بعض الاستثناءات الناتجة عن طرق تزويد الماء بالمياه. ونلاحظ تشابها واضحا بين منحنى التشاد ومنحنى رطوبة المنطقة البرية للسيبيرية.

إن دراسة البحيرات الافريقية الأخرى تبين اتجاهها تطوريا عاما، متشابه، و يرى ليفنغستون وفان زندرن بأكر وجود توافق وثيق بين التطور المناخي بالشرق الافريقي وتطوره بأوروبا. و يبدو أن توسع البحيرات الصحراوية الى حدود ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد مرتبط بامطار موزعة توزيعا أحسن طيلة السنة وبضبابية شديدة للتقليل من التبخر. و يعتقد م. سرفنت (١٩٧٣) أن الحركة المناخية كانت مختلفة عما هي عليه اليوم. إن وجود مستويات عديدة من مشطورات مناطق «باردة» يجعله يفترض تسربات محتملة من الهواء القطبي الى الصحراء و يبدو أن النظام المناخي الحاضر لم يستقر الا بعد ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

نصف كرة الأرض الجنوبي

يحدد بولر وآل (١٩٧٥) اضمحلال الجموديات وتزايد الأمطار في حوالي ٨٠٠٠ سنة ق. م (جبل ويلهلم). وفي نفس الوقت طرأت تقلبات طفيفة وذلك بشمال استراليا وغينيا الجديدة. ولقد كانت حرارة الطقس الوسطى ما بين ٨٠٠٠ و ٥٠٠٠ سنة ق. م. تفوق بدرجة أو درجتين الحرارة الحالية، و يعتبر الحد الأقصى المناخي (حسب قياس الحرارة) حدا ذا قيمة عالمية. وخضعت غابات المناطق الممطرة والحارة (الغابات الممطرة) لأحوال تطور مواتية جدا (منذ الجمودي السابق قبل ٦٠٠٠ سنة) بين ٧٠٠٠ و ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وكذلك الشأن بجنوب استراليا، إذ أن البحيرات الناشئة في ١٥٠٠ قبل الميلاد أخذت تمتلئ في ١١٠٠ قبل الميلاد وعرفت مستويات عالية من ٨٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

و يبدو أن الدفء وتزايد الرطوبة المعروفة برطوبة خطوط العرض القريبة من الإستواء ظاهرة عامة برزت مدة النصف الأول من ١٢٠٠٠ سنة الأخيرة، وهي حالة يتميز بها ما بين الجمودي الحالي.

خلاصة تلخيص التاريخ المناخي لـ ٢٥٠٠ سنة الأخيرة

تعطينا هذه الحقبة صورة عن التطور المناخي إثر التوسع الجمودي الأقصى (في نهاية حقبة

جمودية) وخلال زوال التجمد الذي أدى الى المابين جودي الحالي. و يشهد هذا النموذج من نصف دورة في زوال التجمد بجفاف عام دام ٥٠٠٠ سنة بإفريقيا ويميز انتهاء التجمد الذي تبعته مرحلة رطبة لها نفس المدة، متقلبة، عادة تدريجيا الى حالة الجفاف. ويمكن ان نفسر هذه التقلبات المناخية في مستوى الـ ٢٠٠٠٠ سنة باعتبار تنقل الجبهة القطبية وأثرها على الجبهة ما بين المدارين (فيت: FIT)، وباعتبار النوعين من الحركات: أي السرعة والبطيئة.

ومن الممكن أن يكون هذا النموذج معبرا عن أحوال أخرى مشابهة ومن نفس السلم في الدهر الرابع، أي الاحوال التي كانت لها نفس المدة ونفس السعة. الا أنه لا يوجد ما يسمح بتعميم ذلك على مجموع حقبة جمودية مدتها ١٠٠٠٠ سنة، كما لا يمكن أن نعلمه بالاحرى على مجموع التجمدات الحاصلة في الدهر الرابع والتي دامت ملايين عديدة من السنوات. واعتبارا لما سبق، سندرس الآن تاريخ حقبة جمودية في مجموعها.

التاريخ والمناخات منذ ١٣٠٠٠ سنة

ان الـ ١٣٠٠٠ سنة الأخيرة (أو البليستوسين الأعلى) تسمح بدراسة نموذج مناخي طبعي. في مستوى زمني يتعلق بحقبة جمودية — بين جمودية كاملة. إن تاريخ تلك الحقبة يتجاوز تجاوزا كبيرا امكانيات التاريخ باشعاع الكربون التي مكنت من اثبات التتابع الدقيق نسبيا (تقياس القرن أو الالف سنة بالتقريب) للـ ٢٥٠٠٠ سنة الأخيرة، الا أن هذا الفاصل الزمني الموافق لما بين الجمودي الكبير الأخير (الابمي السابق للحالي)، وللتجمد الكبير الأخير (وورم) = فسكنسي = فايشسليين = فلداي) أصبح معروفا نسبيا اعتمادا على ضبط زمني من درجة ١٠٪ أو ٢٠٪. فمما يتعلق بمجزمه الأكثر قدما.

ان تعميم سرعات الترسب المعروفة، وتطبيق مناهج عدم توازن الاورانيوم والبوتاسيوم — أرغن الى الحد الأقصى من إمكانياتة يوفران لنا في المحيطات وفي الأحواض الترسيبية، معطيات تاريخية إضافية. ان الادمج الخطي بين نقطتين مؤرختين من سلسلة متواصلة، تسمح بوضع تاريخ تقريبي، الا أنه لا يمكن تدقيق علاقات الترابط البعيدة تدقيقا كافيا اذا اعتبرنا الأحداث في مستوى زمن يكون دون بعض آلاف السنين. فيمكن أساسا ان نحدد أحسن تحديد الاتجاهات العامة التي تم حقبة متوسطة (١٠٠٠ سنة) والتي يمكن مقارنتها بالنسبة الى منطقة وأخرى.

مقارنة بين المناطق

خطوط العرض العليا

ان نباتات البين جودي تبين أن الحرارة بأوراسيا وأمريكا تقرىبا حرارة الحقبة الأطلسية (بين ٧٠٠٠ و ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد) وذلك طيلة أطوار هذا البين جودي الأكثر حرارة (بين ١٢٥٠٠ و ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد) وهذا يعني أنها كانت مختلفة قليلا عن الحرارة الحالية. وقد حدث هذان

البين جوديان فجأة بعد برد كبير (آخر طور بارد جدا لرئيس: ١٣٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد وآخر طور بارد جدا لوروم: ٢٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد).

المحيطات

يسجل تفاوت مستوى المحيطات تسجيلا حسنا الحدين الجموديين الأقصىين، باعتبار انخفاضات هامة في الحرارة (- ١١٠ م ± ٢٠ بالنسبة للحدى الأقصى الثاني في حوالي ٢٠٠٠٠ الى ١٨٠٠٠ سنة) وتشابه المستويات العليا المسجلة التي وقعت خلال البين جوديين الايجي والحالي (بنسبة ٥% بالتقريب) وقد تكون ارتفاعات مستوى البحر مدة بين الطورين (٤٥٠٠٠ و ٣٠٠٠٠) بلغت ما بين ٦٠ و ٨٠% من الارتفاع الأقصى (انشيري موريتانيا مثلا)، مما يؤكد ذوبان كتلة جمودية مساوية مدة ما بين الطورين.

أفريقيا

من المحتمل أن يكون أثر الظواهر الجمودية، على غرار ما يجري في المحيطات، أقل وقعا في خطوط العرض القريبة من خط الاستواء. ان اختلافات الحرارة من طور جودي الى طور بين جودي وباللغة ٥ الى ١٠ في خطوط العرض الوسطى، يمكن أن تتراوح بين ٢ الى ٣ في خط الاستواء. أما الظاهرة التي يمكن تسجيلها بسهولة في أفريقيا، فهي توزيع الامطار وكمياتها.

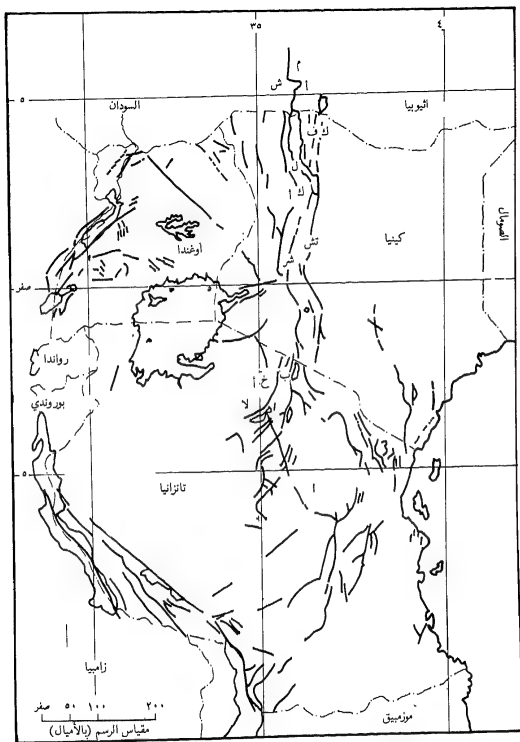
ان المناطق الافرريقية التي توفر لها تأريخ قياسي اشعاعي مضبوط ضبطا محكما بالنسبة لـ ١٣٠٠٠ سنة الأخيرة، عددها قليل. الا أن سر بحيرة أبيي (ABHE) قد مكن ف. غاس (١٩٧٥م) من أن يبرز ثلاثة أطوار بحيرية بالبلبستوسين الأعلى قبل وقوع التجفف من ٢٠٠٠ سنة الى ١٤٠٠٠ سنة. وأليك هذه الحقبات البحرية المعتبرة: حقبة ٣٠٠٠ سنة الى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد (المناخ رطب استوائي معتدل)، يفصلها عن توسع بحيري آخر وقع منذ حوالي ٤٠٠٠ الى ٣٠٠٠ قبل الميلاد تقلص هام وقع منذ حوالي ٣٠٠٠ سنة. ولذلك قد يعود تاريخ أقدم طور بحيري الى ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ سنة (أوربا ٦٠ — ٨٠٠٠ سنة) و يوافق حقبة أكثر برودة تدل عليها المشطورات النباتية.

لقد وفرت لنا دراسة اللقاحات بالوادي الاعلى من آواش في بلاد العفر علامة أخرى عن تحول مناخي تاريخه غير مضبوط يعود الى البلبستوسين، حيث استدل ر. بونفي (١٩٧٣م، ١٩٧٤) على وجود مناخ أكثر رطوبة من المناخ الحالي، ومن المحتمل أن يكون أبعد منه، وهو خاص بالسهب الواقعة في المرتفعات.

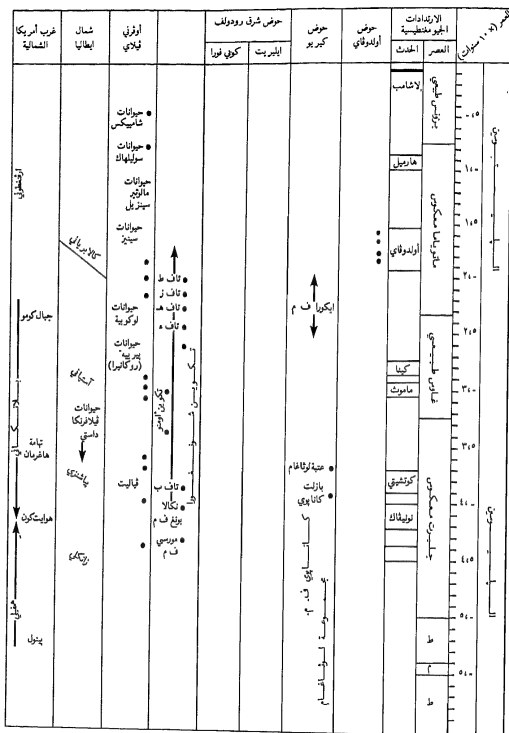
حوض البحر الأبيض المتوسط

ان حوض البحر الأبيض المتوسط الكائن بين المنطقتين الجغرافيتين المدروستين سابقا بشكل ميدانا مناخيا هاما و يبدو تطوره معقدا. ولا يمكن أن نعتبر بصفة خاصة أن التجمدات قد مكنت بكل بساطة استقرار مناخ رطب به.

فلقد توصل فاران (١٩٧٧) بعد تحليل الدراسات البلنلجية والميكرو بليوتولوجية والنظائرية التي جرت بالشرق من البحر الأبيض المتوسط، واليونان، واسرائيل (قام بهذه الدراسات ايملياني،



● شكل ٨ - خريطة المواضيع الاحفورية من عصر البليوسين في شرق أفريقيا.
 المقطع: م = مورسي، أ = أوسو، ش = شونجورا، أي = إيليرت، ك ف = كوفي غورا، ك = لوثاغام، ك/أ = كانايوي واينكورا، شر = شرمون، تش = تشيسووانجا، ك = كانام، ب = بينج، خ أ = خاتق أولدوفاي، لا = لايتوليل - سهل سريغيتي، والحزبة مأخوذة في جانبها الأكبر من الخريطة الجيولوجية المرسومة بمقياس ١:٤٠٠٠٠٠٠ لشرق أفريقيا (كينيا). (استنادا إلى ف. كلارك هوو يا، ١٩٧٢).



● الشكل ٩: تاريخ إشعاعي ومغناطيسي للبلوبليستوسين من الشرق الأفرقي ومن الجنوب الغربي بأوروبا، ومن الشمال الغربي من أمريكا، اعتماداً على كلارك هوو يل (١٩٧٢).

١٩٥٥ وفرنزو - كرازي، وهرمن - روزنبرغ، ١٩٦٩، وويسترا ١٩٦٩ وفان درهامن، ١٩٧١، ورويسنيول، ١٩٦٩، وإيسار، ١٩٦٨، وإيسار وبيكار، ١٩٦٩) إلى النتيجة التي تفيد أن انخفاض الحرارة مدة التجمد الأخير قد يكون بمعدل ٤ بالنسبة للفضاء وبمعدل ٥ إلى ١٠ بالنسبة للبحر. ولقد كان الجفاف أكبر باليونان طيلة الحقبة الجمدية بينما جرى عكس ذلك على سواحل إسرائيل. وعلى النقيض من هذا، فإن دراسة البقايا الصغيرة من الثدييات (القواضم) (انظر تشرنوف، ١٩٦٩ بكتابتها فاران، ١٩٧١). قد تفيد تطور أحوال جوية رطبة تطورا تدريجيا نحو أحوال جوية جافة مدة الـ ٨٠٠٠ سنة الأخيرة. ولقد انخفض مستوى بحيرة لسان إسرائيل في حوالي ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد بمقدار ١٩٠ في ظرف ١٠٠٠ سنة بسبب انتشاف (مترباط مع حركة بنوية أدمية بالرفق في البحر الأحمر). ولقد سبق أن رأينا (ص ٤٠٣) أن انتهاء التوسع الأقصى من برد وورم يوافق أحوالا جوية باردة جافة في مجموع البحر الأبيض المتوسط.

ان تعقد الحالة الجغرافية المناخية بحوض البحر الأبيض المتوسط مازال يستوجب كما هو الشأن بافريقيا، دراسات مفصلة ستفيد في ضبط تطور المناخ باعتبار طور وورم.

خلاصة تتعلق بالتاريخ والمناخات منذ ١٣٠٠٠ سنة

توفر الحقبة الجمدية الأخيرة نمودجا عن دور مناخي كامل يقاس بحوالي مائة ألف من السنوات (بين جمودي — جمودي — بين جمودي) مع اعتبار تقلباته البين طورية والطورية التي دامت تقريبا ١٠٠٠ سنة. ولقد تميزت هذه الفترة بافريقيا بتوسعات بحيرية (مدتها تقارب الأولى)، تفصلها أطوار من التجفاف.

ان التدقيق التاريخي لا يسمح نظرا إلى معارفنا الحالية، بربط الصلة ربطا مؤكدا بين الاطوار الباردة أو الدافئة مع الأطوار الرطبة أو الجافة بافريقيا. ونحن نأمل ان نحيب على هذه المسألة في المستقبل، الاعمال الجارية المعتمدة على مقاطع واستبارات تدل على تتابع متواصل في الأحداث.

التاريخ والمناخات منذ ٣٥٠٠٠٠ سنة

ان الاتجاه البطيء نحو البرد الذي يميز الدهر الرابع، ابتدأ منذ ٥٥ مليون سنة تقريبا (انخفاض المناخ في الدهر الحديث) (المجمع القومي للعلوم ١٩٧٥). ان القبة الجمدية بالقطب الجنوبي التي تشكلت منذ حوالي ٢٥ مليون سنة، قد ازدادت كثيرا منذ حوالي عشرة ملايين سنة ثم حوالي ٥، أو ٤ ملايين سنة، اذا كادت تبلغ عندئذ حجمها الحالي. وظهرت قبة القطب الشمالي المبسوطة على القارات المحاورة للمحيط الاطلسي الشمالي منذ حوالي ٣ ملايين سنة. وابتدأ البرد الأكبر الأول الطارئ على جميع المحيطات منذ حوالي ١٨ مليون سنة (انظر بندي في كتاب بيشوب، ميلر ١٩٧٢) وذلك قبيل قاعدة الطبقة البحرية «كالابري» عند حدوث جيلسا (١٧٩ مليون سنة).

لقد زودتنا مناطق عديدة من افريقيا (تشاد، افريقيا الشرقية الخ) بمحوانات فقيرة وافرة، فاعتبرت انها ترجع الى عهد الفيلافرنشي (بين ٣٨٣ و ١٧٠، أو مليون سنة). ولكن بعض المجموعات من الثدييات تدعو الى الاعتقاد بوجود أحواك من الرطوبة تفوق الرطوبة التي تختص بها البيئة الحالية للطبقات المعدنية. ولذلك فلقد اعتبرت دليلا على أنها ترجع الى عهد «المطارات» بافريقيا.

ان الطبقات الأكثر تفصيلا، المعتمدة على تاريخ (أ/ك) وجيولوجي مغناطيسي، هي ترسبات الاغوار (رفت) بالشرق الافريقي. ففي هذا النوع من الملء الرسوبي يكون ابراز أثر المناخ أعسر مما هو على بنية الأرض أو في البراكين أو في التغيرات الطبوغرافية مما حدا بالمؤلفين الى أن يتركوا حاليا اعتماد تسلسل مناخي مفصل. وعلى النقيض من ذلك فان التأريخ الطبقي يعتبر أمرا ثابتا و يعتبر مرجعا من المراجع العالمية.

ان التسلسلات الرسوبية المؤرخة، الموجودة بمختلف الطبقات الفقيرة أو البشرية بافريقيا الشرقية (الشكلان ٨ و ٩) هي:

— اومو (بأثيوبيا): ينحصر بتشكيل طبقي هو تشكل شنغورة البالغ سمكه تقريبا ١٠٠٠ م وتتراوح مدته ما بين ٣٢٢ الى ٨٠٠ مليون سنة (اعتمادا على هنزلين، وبروان، وهول، وكوبنس، ١٩٧٢م وبيشوب، وميلر، ١٩٧٢م، وهول، ١٩٧٢م، وبروان ١٩٧٢م).
ان دراسة اللقاحات لتشكيل شنغورة قد أبرزت تحولا مناخيا هاما استحال الى الجفاف وذلك منذ مليوني سنة، ونفساسب عشبية من النجيليات (بونفي ١٩٧٣م، ١٩٧٤م). وتؤكد دراسة الحيوانات هذا التحول. ويمكن أن تقترح موازاته بحقبة برد عالمي طرأ على المحيطات (١٨ مليون سنة).

— أولدواي (طانزانيا): ان تسلسل التشكلات الكلاسيكية وتأريخها هو كما يلي

— مجاري ندوتو ٠.٣٢ مليون سنة

٠٤

٠٦

٠٨ مجرى ٤

١٠٥ مجرى ٣ (الكنكري القديم)

١٧ مجرى ٢

٢١ مجرى ١ (الكاماسي القديم)

(بالاعتماد على ليكيي وكوك، وبيشوب ١٩٧٦م، وهول، ١٩٧٢م، وهاي، ١٩٧٥م)

— شرقي رودولف (كينيا): ان الطبقة الملمخة في الشكل ١٠ والتي وضعها بروك واسحاق (١٩٧٤) تم ٣٢٥ مترا من الترسبات التي تمتد على الزمن المتراوح بين ٣٥ الى ١٥ مليون سنة (اعتمادا على بون، وبروك، واسحاق، وفندرا، ١٩٧٤م).

— هدرن في العفر الأوسط (اثيوبيا): ان التشكلات البشرية ذات الأحفورات الوافرة الموجودة في هدرن في العفر الأوسط، التي درستها المجموعة (المتكونة من البعثة الدولية من أجل البحث بالعفر) تعود الى حوالي ٣ ملايين سنة حسب يوهنسن والطيب ومجموعتها (١٩٧٤، ١٩٧٥).

ان الاعمال الجارية حاليا بتلك المناطق من الشرق الإفريقي ستسمح في بضع سنوات باقتراح تطور مناخجي جديد يعتمد على الرسوبية وعلى علم البيئة النباتي والحيواني و يأخذ بعين الاعتبار تداخل العوامل البنيوية والبركانية. ولقد درست دراسات مكثفة مناطق أخرى من إفريقيا مثل سوارا (أثيان وجماعته، ١٩٥٩م، إيمان ١٩٧٥م) ووادي النيل (وندورف، ١٩٦٨م، بوتزر وهنسن، ١٩٦٨م، وهنزلين، ١٩٦٨م، وفيغنباك، ١٩٦٨م، وسعيد (تحت الطبع) والتشاد (كوبنس، ١٩٦٥م وسرفنست، ١٩٧٣م)، وإفريقيا الشمالية. ان التحولات المناخية المقترحة تعتمد على تسلسل الترسيبات والتحفرات النهرية، وأعلى تعاقب الحيوانات الثديية، ولا يمكن الآن، لا سيما عند فقدان تأريخ بالقياس الاشعاعي، أو المغناطيسي الطبقي، أن تربط هذه التحولات بالتقلبات الجيومدية الأوربية.

الخلاصة

ان تزايد الانخفاضات الحرارية بالمعمورة، المربوط بتغيرات المناخ عبر الزمن من مميزات السينوزويك الأعلى منذ ٥ ملايين سنة. ولقد تسبب على مستوى خطوط العرض القطبية في تغيرات حرارية هامة، كانت أساسا للحقبات الجيومدية والحقبات بين الجيومدية. ان التقلبات الحرارية تضعف نسبيا في مستوى خطوط العرض بين المدارين. الا أن التقلبات الطقسية التي يشهدها تعزيز أو ضعف الجهات القطبية، تسبب في تغيرات هامة في توزيع الأمطار وكمياتها التي تساهم في تبديل محيط مختلف المناطق المناخية تبديلا عميقا. ان هذه التغيرات المناخية عندما تحول دوريا الوسط الجغرافي والنباتي، وهو اطار حياة الحيوان وتطور البشر، تنظم تاريخ تطور إفريقيا بطريقة أكثر خفاء من طريقة الجيومديات بأوروبا.

ان ما يجدر الاحتفاظ به من هذه اللمحة السريعة عن حالة معارفنا المتعلقة بالتأريخ والتغيرات المناخية بإفريقيا، هو ضرورة متابعة رصد الأحداث الملحوظة والمقيسة قبل أن تجمد معارفنا المتناثرة في قالب نظرية متحجرة. ولا بد من جهة أن نعتبر أهمية السلم الزمني المتصل بمختلف المظاهر من تغيرات المناخ. فيجب أن ننبه الى وضع كل مشاهدة وكل ظاهرة في سلم الزمن الذي تنسب ان اليه. وذلك ما يشهد به الشكل ١٤، المأخوذ من مؤلف المجمع القومي للعلوم (١٩٧٥م)، حيث ذكرت أمثلة خمسة من التغيرات المناخية باعتبار سلام، من الزمن تتراوح بين القرن ومليون سنة.

الفصل السابع عشر

ظهور الانسان المشاكل العامة

القسم الأول

بقلم: ل. بالوت
واي. كوبنس

المعطيات الاحاثية

الإنسان حيوان ثديي، و بعبارة ادق حيوان ثديي مشيمي(١). وهو من فصيلة المقدمات (Primates).

المعايير الاحاثية (Paléontologiques)

تختلف المقدمات التي ينتسب إليها الإنسان عن الثدييات الأخرى المشيمية بنمو المخ المبكر، وتحسن الرؤية المجسدة للأشكال، وصغر الوجه، والاستعاضة عن المخالب بأظفار مبسطة، ومقابلة الإبهام للأصابع الأخرى. ان المقدمات تنقسم الى ما قبل القردة وإلى القردة. وينتسب الإنسان الى القسم الثاني الذي يتميز بتزايد القامة، وانتقال محاجر العينين الى القسم الأمامي من الوجه، مما كان له أثر في تحسن الرؤية واستقلال الفراغين الصدغيين.

ولقد حدث فجأة انقلاب في أشكال تلك القردة، وذلك في الأوليغوسين الأعلى منذ حوالي ٣٠٠٠٠٠٠ سنة، مما يجعلنا نفترض أن تميز فصيلة البشريات يمكن أن يعود الى ذلك العهد. ان كتابة تاريخ هذه البشريات يستوجب ان نبحث في تلك الأحفورات التي تنتج ميولها التطورية نحو الصفات المميزة للجنس البشري الذي نحن منه، ومن ذلك خاصية الرجلين وما ينتج عنها من تغيرات في القدم، والرجل، والحوض، واتجاه الدماغ، ونسبة العمود الفقري ونحو الجمجمة وصغر الوجه، واستدارة قوس الأسنان وصغر الأنياب، وتعمق الحنك الخ.

(١) تمثل الثدييات أكثر ما تطور من أقسام الفقريات الحس، وتعتبر الثدييات المشيمية أكثر الثدييات تطوراً إذ لها عضواً جديداً، وهو المشيمة الصالحة لتغذية الجنين وتغذيته.

ان قرد بروبليو (Propliopitèque) الذي عاش في الاوليغوسين الأعلى يتميز الى حد ما ببعض تلك الصفات، مما نشأ عنه حماس سابق لأوانه عند بعض المؤلفين الذين يعتبرونه من جنسنا.

أما الصفات الملحوظة عند قردة راما (Ramapitèque)، فتبدو أكثر دلالة، اذ يظهر ان المخ قد بلغ عندها ٤٠٠ سنتيمتر مكعب واصبح الوجه أصغر، واستدار قوس الأسنان، ونبتت بشكل عمودي الشانبا والأنياب التي أصبحت أصغر أيضا. وبما أن مقدما بشري آخر، وهو قرد أوريو (Oreopitèque) الذي عثر على هيكله كاملا، بما أنه يتصف بنفس الصفات الخفية وبحوض يناسب من يشي أحيانا على رجلين، لذلك يمكن لنا أن نفترض أن الهيكل الواقع أسفل المخ عند قرد راما الذي لم يعثر عليه بعد، قد يشمل هو أيضا على كل هذه الصفات الأولى المناسبة لاستقامة الجسم.

اما الصفات التطورية الخاصة بقردة أسترالو (قردة الجنوب Australopitèque) فانها لا تدع مجالاً للشك، فهي تمشي دوما على رجلين، ولما قدم انسان، و يد عصرية جدا ومخ متزايد الحجم، وأنياب صغيرة ووجه مصغر، فلا بد اذن من ان نعتبرها من البشرىات.

يتميز جنس الانسان الذي يأتي في نهاية السلسلة، عن قردة أسترالو، بتزايد القامة، وتحسن في الوقوف مستقيما، وتزايد في حجم المخ الذي كان يبلغ بالنسبة لأقدم الأنواع ٨٠٠ سنتيمتر مكعب، كما يتميز بتحول في الأسنان تمثل في نمو الانسان الامامية بالنسبة للأسنان الجانبية وذلك إثر تغير نظامه الغذائي النهائي الى نظامه الغذائي القارتي (ياكل كل ما يجده).

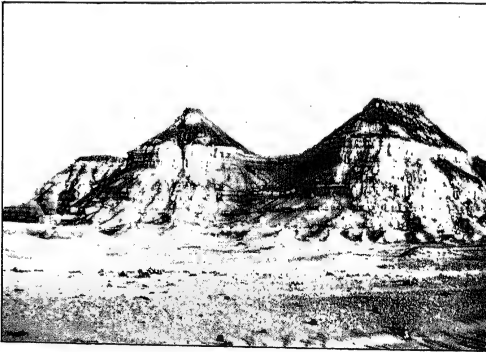
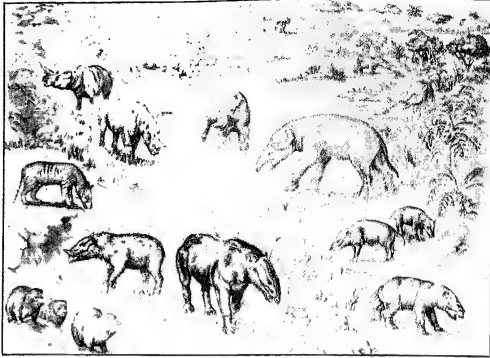
ومن هنا ونرى أن طريقة عمل الباحث الإحاثي (Paléontologist) تستوجب دراسة تشرحية مقارنة ودينامية على السواء. واعتبارا أن التطور ينطلق دائما من البسيط الى المعقد، ومن العام الى الخاص، وجب عليه أن يعثر على أحفورات صالحة للمقارنة وتكون، مع اعتبار العمر الجيولوجي، على درجة من الاختلاف عن الانسان الذي يبحث عن أسلافه.

ان أقدم المقدمات هي مخلوقات ما قبل القرد (Prosimiens) التي تمثلها اليوم الليموريات المغاشية، والترسيات الفيليبينية والاندونيسية، والغالاغوس الصغير في إفريقيا المدارية وقد انقسمت القردة منذ الايوسين (٢) الى مجموعتين كبيرتين: الفطاسيات (٣) أو قردة العالم الجديد، المستعرضة الأنوف والتي لها ٣٦ سنا، وسفليات المنخرين، أو قردة العالم القديم الرقيقة الأنوف والتي لها ٣٢ سنا.

وستنقسم سفليات المنخرين الى عدد من الأسر وهي الذبالات، والبنجديات، والبشرىات والشقوق، وقردة الجبال وقردة سيفا وقردة العملاقة الخ.

(٢) انشا نذكر ان الزمن الجيولوجي ينقسم الى عهود: الأول، والثاني، والثالث، والرابع. ولقد ظهرت المقدمات البشرية في آخر العصر العدي الثاني، وذلك منذ ٧٠ مليون سنة وأخذت تتطور منذ العصرين الثالث والرابع. و ينقسم العهد الثالث الى خمسة طبقات وهي: ابتداء من أقدمها الى أحدثها، البليوسين، والايوسين والأوليغوسين والميوسين والبليوسين. أما العهد الرابع فانه لا يشمل الا طبقتين: البليوسين والهولوسين.

(٣) يوجد في آخر هذا الفصل معجم يفسر معاني مختلف المصطلحات العلمية المستعملة.



- ١ • (إعادة بناء بيئة القيدوم كما كانت منذ ٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠ سنة. رسوم برتوتشيبي - غايارد باشراف إيف كوبان؛ معرض أصل الإنسان، متحف الإنسان (سبتمبر/أيلول ١٩٧٦ - أيار/يل/نيسان ١٩٧٨)، (تصوير: إيف كوبان)، مجموعة متحف الإنسان.
- ٢ • طبقات عصري الايوسين والاوليوسين في القيدوم، مصر. مجموعة متحف الإنسان (تصوير الوين سايزن).

ما بين ٢٠ و ٤٠ مليون سنة

ليس من السهل أن ندرك ما عسى أن يكون قد وقع بالايوسين والأوليغوسين، أي بين ٢٠ و ٤٠ مليون سنة، لأن المناظير المفتوحة على هذا الماضي قليلة.

إلا أن الموقع الرائع الموجود بالقيوم، على بعد بعض الكيلومترات من القاهرة، قد زود مختلف البعثات التي أتت لاستقاء المعلومات منه، بأنواع مذهشة من المقدمات البشرية وهي: شبه القرد، والقرد الذبائي ذو الذيل الأوليغوسين، وقرود ما قبل البليستوسين، وقرود الريح، وقرود مصر. إن شبه القرد والقرد الذبائي ذا الذيل يحتضنان بثلاثة أضراس أمامية أي ٣٦ سنا مثل ما بعد القردييات ومثل قردة العالم الجديد، أي الفنتاسيات. و يوجد جنس ثالث، له مورفولوجية مشابهة، وهو القرد البري — المائي الذي يوجد في بورما.

وهناك خصائص كثيرة وأخرى تجعل هذه المقدمات البشرية شبيهة بسفليات المنخرين التي تختص بـ ٣٢ سنا. و يتعلق الأمر هنا بأسلاف سفليات المنخرين.

إن أول نظرة إلى الوراثة تبرز لنا كيف أصبح السبيل ممهدا لظهور ما قبل البشر، ويستدل عليه بمرحلة سفليات المنخرين ذات الـ ٣٦ سنا وبثلاثة أشخاص، وهي شبه القرد، والقرد البري — المائي والقرد الذبائي.

ويختص قرد الأوليغوسين، وقرود ما قبل البليستوسين، وقرود الريح وقرود مصر، بضرسين أماميين. فيتمثل الأمر بسفليات المناخر ذاتها التي لها ٣٢ سنا. إن قرد أوليغوسين، وهو مقدم بشري صغير ذو ٣٠ سنمترات علواً يختص بأضراس من النوع البدائي، ويدل على أنه من طبقة القرد الديال. فهو أقدم مقدم بشري معروف له ٣٢ سنا. أما قرد الريح فانه يختص بأنياب كبيرة وأضراس لها حديدات مستقلة. ويحتمل أن يكون سلفا للجيونيات أو الشقوق (Gibbons). وتوجد قرابة بينة وبين قردة (البليوبيتيك)، من الميوسين بأوروبا، وقردة البحيرات (اللمنوبييتيك). من الميوسين بالكينا والأوغندا.

ويختص قرد مصر أيضا بأنياب كبيرة وأضراس أمامية متغايرة الشكل (٤) إنه سلف قردة الدريوبيتيك التي عثر عليها بالعالم القديم، ويحتمل أن يكون سلفا للشمبنزي. ويختص قرد ما قبل البليستوسين بأنياب أضعف وبضرس أول سفلى له حديدية ونصف. و يعتبر أنه فاتحة لتشابه أشكال الضرسين الأسفلين، اللذين تختص بهما البشر يات. فهل يعني ذلك أنه سلف المجموعة، أم أنه بكل تواضع للسلف المشترك للقردة الكبرى وللإنسان أم أنه أصبح بنجديا؟

ومهما كانت درجة القرابة، فإن أهمية تلك الفترة بالشمال الشرقي من إفريقيا، منذ ٣٠ مليون سنة تبين وجود تنوع كبير في المقدمات الصغيرة التي أذنت بالمقدمات الحالية كلها، أي القردة الذبالية، والبنجديات، والهيلوبانثيدات، والبشريات. وذلك يعني أن جميع الاتجاهات الأساسية قد تحققت.

(٤) الأضراس الأمامية والأضراس لها تيجان تفصلها شقوق في شكل حديدات صغيرة تدعى المالتاق أو الحديدات، وبشابه الضرس الأول الأسفل عند القردة الكبرى (البنجديات) الثاب وله مذائق، وبشبه ذلك السن عند البشريات ضرسا أماميا ثانيا وله مذلق فيتمثل الأمر في الحالة الأولى باختلاف أشكال الأضراس، وفي الثانية بتشابه الأشكال.

ما بين ١٠ و ٢٠ مليون سنة

حصلت أنواع أخرى في التقدم.

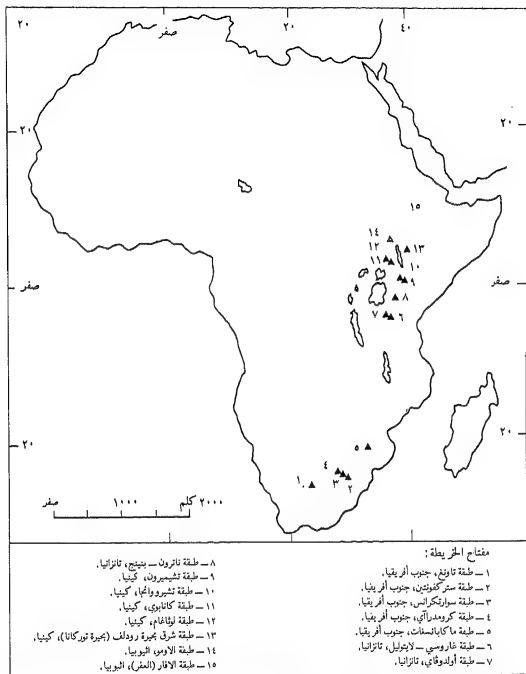
اكتشف ل. س. ب. لايكبي بالكينيا والأغندا، بقايا مقدم بشري صغير وهو القرد الكيني الإفريقي فصنفه في فصيلة البشريات. ويرجع هذا المقدم البشري الى عهد ٢٠٠٠٠٠٠ سنة، وقوس أسنانه مستدير، وأسنانه الخدية (٥) العليا متباعدة، وتتوء فكك ضعيف (٦) وثناياه وأنيابه نابتة عموديا، وتيجان أضراسه الامامية واطئة. ولقد رأى فيه كثير من المؤلفين سمات القردة الكبرى، ولقد وجد ل. س. ب. لايكبي بالكينيا أيضا، في فورتزان، ما يعتبره نوعا آخر من نفس الجنس، وهو قرد الكينيا فكري، وقد أرجعه في هذه المرة الى تاريخ ١٤٠٠٠٠٠ سنة. ويعد مؤلفين آخرين ينسبون هذا المقدم الى البنجديات اعتمادا على سمات أخرى، أو لتأويلهم بطريقة مختلفة الخصائص الموصوفة. وكان ل. س. ب. لايكبي قد أتى لصالح مرشحه الجديد، بموجب قاطعة لأنه اعتمد حججا ثقافية. ولقد قدم في المؤتمر الافريقي بداركار سنة ١٩٦٧، أحجارا من البازالت كانت حوافها الطبيعية تشتمل على آثار تدل على استعمالها. وصرح سنة ١٩٧١ بأدس أبابا أن معظم العظام الحيوانية المكتشفة والمتعلقة بقرد الكينيا فكري كانت مهشمة تشها مصطنعا. فن العجيب جدا تصور ذلك المقدم الصغير الافريقي وهو يختار أحجارا حادة أو قاطعة لتحضير طعامه. وعلى أية حال، فهذا ليس بمستحيل نظريا.

ولقد عثر في ١٩٣٤، بالتشكلات نصف البليوسينية بشمال الهند والباكستان، على مقدم آخر وهو قرد راما البنجابي. ويرجع عهده أيضا الى ٨ أو ١٤ مليون سنة. ولقد درسه سيمونز دي يال من جديد وربطه بقايا تنسب الى قرد راما. فهو مقدم صغير ين ١٨ و ٣٦ كلم. ان وجهه القصير وفكك الكثيف ذا الفرع المتصاعد العمودي، واستقامة أنيابه وثناياه الصغيرة وتأخر بروز أضراسه، ومشابهة أضراسه الامامية السفلى لأضراس البشر، قد جعلت كثيرا من المؤلفين، وليس كلهم، يقولون أن قرد راما البنجابي من البشريات. بل ذهب سيمونز الى ربط هذا الأحفور الهندي بالقرد الكيني من افريقيا الشرقية وبعض الاكتشافات المعزولة في الصين وأوروبا ليؤلف من مجموعها قاعدة بشرية ميوسينية تشمل العالم القديم كله. وهو لم يكن مخطئا لأن الابحاث الواقعة في الثلاث سنوات الأخيرة، دلت على وجود قرد راما هذا بتركيا (اتيكابا) وبالجزر (م. كرتروا) فضلا عما وفرت الوثائق الباكستانية الجديدة (بعثقد. بليم) من معلومات جديدة عن هذا المقدم.

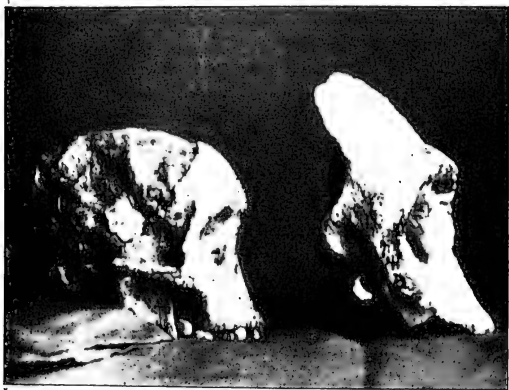
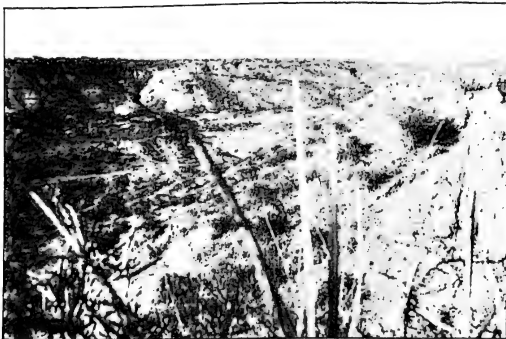
وعثر في الصين والهند على مقدم ضخم وهو القرد العملاق وهو يدعى القرد العملاق الأسود بالصين، والقرد العملاق بيلاسبورانسيس بالهند التي يقدر فيها عهده ببعض الملايين من السنوات. ان ثناياه صغيرة، وأنيابه ليست كبيرة الا أنها ليست بشرية. ولضره الأمامي الأول السفلي مذلّقان، وأسنانه الخدية كبيرة وقوية وتدل على اهتلاك كبير ووجهه قصير وفكك قوي ذو فرع متصاعد عال وعمودي، الا أن جميع المؤلفين رفضوا تماما ترشيحه ليكون أصلا للانسان، وكشفت

(٥) تسمى الاسنان خدية أو أسنان الحة و يعني بها الأضراس الامامية والأضراس.

(٦) الفك الناقص أو الفك البارز الى الأمام (Prognathisme) يعبر عن إسقاط الوجه كله أو جزء منه مما يوجد تحت اللانف، الى الامام.



• خارطة المعطيات الاحاثية (الخاصة بعلم المتحجرات).



- ١ • خواتم أولدوفاي، تانزانيا: حفريات لويس وماري ليكي (تصوير أ. كوبان)، مجموعة متحف الإنسان.
٢ • جمجمة إنسان الجنوب الأفريقي البدائي (أوسترالوبيثيكوس أفريكانوس). من اليمين إلى اليسار: منظر جانبي لجمجمة صغرى (تاونغ، بوتسوانا) ومنظر جانبي لجمجمة بالغ (ستيركفونتين، الترنسفال)، مجموعة متحف الإنسان (تصوير أ. كوبان).

أبحاث باليونان باشراف ل. دي بونيس على مقدم له ١٠٠٠٠٠٠٠ سنة وهو قرد أورانو المقدوني الذي يحتمل أن يكون جد القرد العملاق. وأخيرا فنذ ١٢٠٠٠٠٠ سنة مضت كان يتأرجح بين أغصان الشجر في غابات توسكانا، وربما أيضا بغابات الكينيا، مقدم آخر وهو قرد أوريو (Oréopithèque). إن مكتشفه هوجري الا أن واصفه هو الإحاثي الممتاز السويسري يوهانيس هرزل الذي قام بحفريات في غروستينو، بتوسكانا فتم على هيكل عظمي يكاد يكون كاملا من قرد أوريو الجبلي الذي له وجه قصير، وعظام انفه بارزة بالنسبة للجانبية وجهه، وثناياه صغيرة، وكذلك أنيابه، وضرسه الامامي الاول السفلي له مذلان، وحوضه حوض ذي الرجلين، الا أن اعضاءه الخلفية طويلة جدا. ويبدو أن قرد أوريو من البشرات الصغيرة، وهو على كل حال مقدم يتنقل في الأشجار (٧)، ومتكيف لنوع من العيش في الغابة.

لقد عرفنا قرد كينيا الا فرقي، وقرد الكينيا فكري، وقرد راما، وقرد راما البنجابي، والقرد العملاق الاسود، والقرد العملاق بيلابونونسيس، وقرد أوريو جبلي، ولكن الأهم من كل هذا ليس أن نعلم الآن من هوسلف الاخر منها. ولقد مثلنا هنا بسلاسل عديدة. لكنه يبدو لنا ان هذه الأجناس الأربعة التي ترجع الى الميوسين، تبرز صورة مقدم كان يعيش بالغابة و يأتي على ما يظهر لأول مرة يتغذى جزئيا بمناطق مكشوفة، حول البحيرات وعلى ضفاف الأنهار. ومن الواضح أن طرقا في العيش جديدة ستظهر اثر ذلك الخروج من الغابة وسيظهر معها في نفس الوقت صغر الاسنان الخلفية وصغر الوجه، وميل الضرس الامامي الاول، الذي لم يبق التاب يعرفه، الى مضاعفة مذلته الاول. وذلك يدل على بداية غزو السبابس ومعها التيزر جلين اثنتين (٨).

ما بين ١٠ ملايين ومليون واحد من السنوات

في البليوسين والبليستوسين، بين عشرة ملايين ومليون سنة، تواجه مجموعة متعددة الأشكال ومحصورة في المكان وهي تؤلف القردة الجنوبية. ولا بد من نبذة تاريخية عن اكتشافها لنتمكن في نفس الوقت من تحديدها في المكان.

سارتها

ففي ١٩٢٤م قام الأستاذ ر. دارت (R. Dart) بوصف وتعميد أول قرد من القردة الجنوبية وكان يتعلق الأمر بمجموعة قرد شاب عمره ٥ أو ٦ سنوات، اكتشف بمجنوب أفريقيا، في شق كهف بمنطقة بشوانالاند يسمى تونغ. وتبع هذا الاكتشاف اكتشافات أخرى ابتداء من ١٩٣٦م قام بها الأستاذة ر. بروم وج. روبنسون ثم الأستاذة ر. دارت، وب. توبياس في أربعة كهوف من الترنسفال، وستركفنتاين، وشفا رتكرنس، وكردراي قرب يوهنسبورغ ومكبسنغات قرب بوتغيتسرس.

(٧) ان التنقل الشجري هو نوع من التنقل بواسطة الشجر وذلك بالانتقال من فرع شجرة الى آخر مع التعلق بها بواسطة الأعضاء الأمامية.

(٨) ان التنقل على الرجلين هو نوع من التنقل براء، ويتمد على الوقوف على الاعضاء الخلفية.

واكتشف في ١٩٣٩م، الأستاذ الألماني ل. كوهل لرسن (Kohl Larsen) مكان يدعى غروززي او (لاتوليل) بالشمال الشرقي من بحيرة اباسي في طانزانيا، اكتشف فكا لقرد جنوبي، وبذلك توسعت الى افريقيا الشرقية مساحة توزع هذه البشريات. ولقد عادت الى العمل بهذا الموطن ماري لايكسي فحالفها النجاح إذ أنها أبرزت الى الوجود مجموعة مهمة جدا من البشريات الأحفورية التي يمكن نسبتها بلا شك الى القردة الجنوبية.

وتبع ذلك أعمال مشهورة قام بها أعضاء أسرة لايكسي بفتح أولدواي، بطانزانيا، وهي أعمال وفرت سنة ١٩٥٥م، ما يقرب من ٧٠ قطعة تنسب الى البشريات، ومنها ما كان قطعاً ممتازة. واكتشف سنة ١٩٦٤م ر. لايكسي وج. اسحاق موطناً ثالثاً للمواقع الطانزانية عندما عثرا على فك قرد جنوبي قرب بحيرة ناترون، ثم تحولت الاكتشافات نحو الشمال.

في سنة ١٩٦٧م، عادت بعثة عالمية الى استكشاف مواطن احاثية تقع بالقرب من الضفة الغربية من الوادي السفلي من الأوموباثيوبيا. وكانت تتركب من ثلاثة فرق: الفريق الاول فرنسي بإشراف الاساتذة ك. أرمبورك واي. كوبنس، والثاني أمريكي بإشراف الاستاذ ف. كلارك هول والثالث كيني بإشراف الدكتور ل. س. ب لايكسي وابنه ريتشارد. ان تلك المواطن التي اكتشفها في مطلع العصر مسافرون فرنسيون، كانت قد استغلها منذ ١٩٣٢م - ١٩٣٣م بعثة من المتحف القومي للتاريخ الطبيعى بباريس بإشراف ك. أرمبورك. ولقد كان من حظ تلك البعثة الجديدة ان اكتشفت ابتداء من الشهر الاول، أول فك لقرد جنوبي بتلك المواطن. وتبع ذلك الاكتشاف، اكتشافات أخرى، وتوصلت البعثتان الفرنسية والامريكية، في ٩ زيارات إلى تحقيق نتائج باهرة، أي ما يقرب من ٤٠٠ بقية من البقايا البشرية.

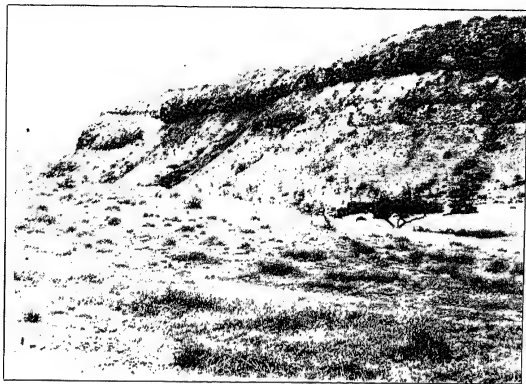
وترك الفريق الكيني أوامو منذ ١٩٦٨م ليستكشف بإشراف ر. لايكسي، الشواطئ الشرقية من بحيرة تركانا بالكينيا. واستطاع ذلك الفريق أن يجمع إثر ١٠ زيارات أكثر من ١٠٠ قطعة من البشريات، منها ما هو مهم جداً.

وكانت بعثة أمريكية من هارفارد بإشراف ب. بترسن تستغل في نفس الوقت، بالشواطئ الجنوبية الغربية من نفس البحيرة ثلاثة مواطن صغيرة، سيوفران منها بقايا بشريات.

واكتشفت بعثة انكليزية من بدفورد كولاج بلندن بقايا جيولوجية احاثية بخمسة مواقع. وفي سنة ١٩٧٣م اكتشفت بعثة عالمية بإشراف موريس طيب وايف كوبنس، وذلك س. يوهنسن في هدر بمنطقة العفر بأثيوبيا، وذلك في أربع زيارات، أكثر من ٣٠٠ قطعة جيولوجية احاثية حفزت حفظاً خارقاً للعادة، وتنسب الى شكل أو شكلين من البشريات. ولقد عثرت بعثة ثانية بالعفر، متفرعة عن الأولى، على جمجمة تنسب الى الإنسان القرد.

وفي النهاية، اكتشف جان شافايون، بعد ٩ سنوات من الحفريات المتأنية، وذلك سنتي ١٩٧٥م و١٩٧٦م ملكاً - كنتوري، ثلاث قطع هامة لها صلة بالصناعات الأولدواية والاشولية.

ان هذه المجموعة من الاكتشافات قد حددت مساحة توزع القردة الجنوبية في المناطق الشرقية والجنوبية من افريقيا.



● (١) خوانق اولدوقاي، تانزانيا (حفريات لويس وماري ليكي)، (تصويراً، كوبان)، مجموعة متحف الانسان.



● (٢) طبقة الأومو في الزويبا، (تصويراً، كوبان)، مجموعة متحف الانسان.

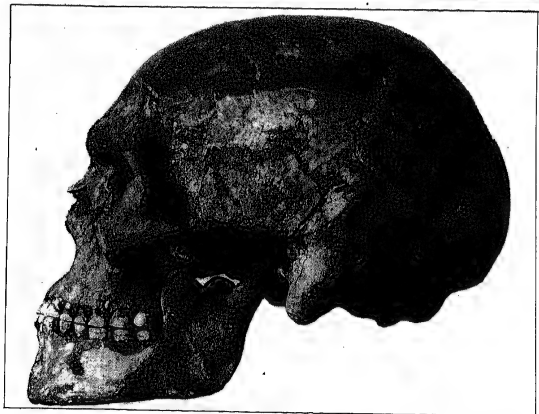
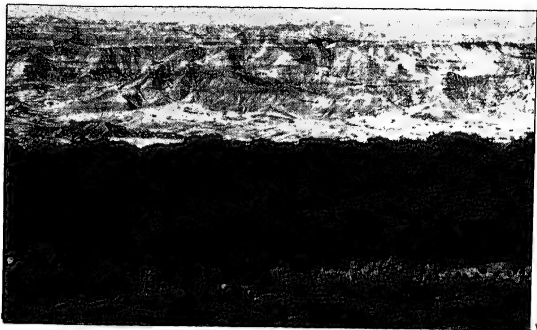


● (٢) طبقة الأوسني أنثروبيا، (تصويراً، كوبان)، مجموعة
متحف الانسان.



● (٤٣) ججستان لاسان الجنوب
البدائي في يوزي، (أسترالوبيثيكوس
بويزي)، طبقة الأوسني أنثروبيا —
بعة إلف كوبان ١٩٧٦، (تصويراً،
أوسر)، مجموعة متحف الانسان.





- (١) طبقة الأناضول (العصر)، الأيوبيات، بعثة م. الطيب، وأ. كويان ود. ك. جوهانسون (تصوير م. الطيب)، مجموعة متحف الإنسان.
- (٢) جمجمة إنسان أفاو الكرومانيوني، الجزائر، مجموعة متحف الإنسان (معهد الأحياء والبيولوجيا البشرية)، (تصوير ج. أوست).

ضبط التاريخ

ان أقدم هذه المواطن، موطن نكورورا بحوض بحيرة بارنكو، بالكينيا، إذ أنه يبلغ ٩ الى ١٢ مليون سنة. ولم يوفر إلا أضرسا أعلى لبشري غير محدد. إلا أن الحفارين يأملون كثيرا فيما ستأتي به استغلالات هذا الموقع في المستقبل. ولقد كان تاج ذلك الضرس منخفضا مثل تيجان أسنان قرد راما. ان بنية مذكاه تشابه بنية قردة الجنوب. ولعل الامر يتعلق بقرد سيفان. ولقد وفر أيضا موطن آخر من حوض بحيرة بارنكو وهو لوكينو الذي يعود تاريخه الى حوالي ٦ أو ٦٥٠٠٠٠٠ سنة، وفر ضرسا وهو هذه المرة آخر ضرس سفلي يشابه كثيرا أضراس قردة الجنوب.

وفي لوانغام، بالجنوب الغربي من بحيرة تركانا، بكينيا، اكتشف ب. بترسن، قطعة من فك فيه سن يذكر شكله بقرد الجنوب. ان الحيوانات الفقيرة المربوطة به تفيد أن تلك الفترة الزمنية ترجع الى البليوسين، أي الى ٥ أو ٦٠٠٠٠٠٠ سنة. ويوجد موقعان بالكينيا، أحدهما بحوض بحيرة بارنكو، وهوسمرون والآخر بحوض بحيرة تركانا، وهو كنبوا اللذان يقدران بـ ٤٠٠٠٠٠٠ سنة، واللذان وفرا صدغا، ونقا (عظم العضد) بشريين.

ان مواطن لا تويل بطانزانيا قد أرخ على الأقل بـ ٣٥٠٠٠٠٠ سنة، وتشابه بشريات الاحفورية مشابهة غريبة البشرات المجموعة بهدر في العفر من أثيوبيا، والتي تنسب الى ما بين ٢٨٠٠٠٠٠ و ٣٢٠٠٠٠٠ سنة.

وتتكون مواطن الاوموم من مجموع ترشي يتجاوز ١٠٠٠ متر بالقوة، ويشمل سلسلة متوالية من الرمال الاحفورية، ومن الطين ورواسب بركانية تسمح بتأريخها تاريخيا مطلقا. فلقد أمكن تأريخ المقطوعة بأكثر من ٤٠٠٠٠٠٠ سنة في القاعدة، وبأقل من ١٠٠٠٠٠٠ سنة في القمة.

أما باقي البشرات فانها توجد ابتداء من ٣٢٠٠٠٠٠ حتى القمة، أي بطريقة متواصلة على مدى ٢٠٠٠٠٠٠ سنة أو أكثر.

ان مواطن الشرق من بحيرة تركانا التي توفر البشرات تتراوح بين ٣٠٠٠٠٠٠ و ٦٠٠٠٠٠٠ سنة. ولقد قدرت حديثا أقدم الكهوف الخاصة بقردة الجنوب، أي مكبنسغات وستركنتاين بـ ٢٥٠٠٠٠٠ سنة الى ما يتجاوز ٣٠٠٠٠٠٠ سنة. إلا أن هذا التاريخ ما انفك على نزاع كبير. وتوفر فجاج أولدواي في طانزانيا بقايا بشرات أرخت صناعاتها على طول المائة متر من قاعدة الرواسب بـ ١٨٠٠٠٠٠ سنة.

ويمكن أن يكون كهفان آخران خاصان بقردة الجنوب بمجنوب افريقيا، وهما سفرتكرنس وكرومدراي معاصرين لطبقات قديمة بأولدواي، أو سابقة لها بقليل (٢٠٠٠٠٠٠ الى ٢٥٠٠٠٠٠ سنة).

وفي النهاية وفر شاسوونغا الموجود بحوض بحيرة بارنكو بالكينيا، وموقع بحيرة ناترون بطانزانيا وحتى ثغرة تودينغ بمجنوب افريقيا، القردة الجنوبية الاصغر سنا، لانها لا تكاد تتجاوز المليون سنة. ويبدو ان القردة الجنوبية قد ظهرت منذ حوالي ٦ أو ٧ ملايين سنة ثم انقرضت في حوالي المليون سنة.

فما وفرت تلك المواطن «كثيرا من البشرات، وبعضها ينسب الى هذا العصر. أحدهم قرد الجنوب القوي أو ما قبل الانسان (Paranthrope) او الإنسان الزنجي (Zinjanthrope).

أما الآخر فيسمى قرد الجنوب الرشيق، أو قرد الجنوب بالمعنى الدقيق، أو إنسان البليستاتروب (Plesianthrope) أو ما قبل القرد الجنوبي (Paraustralopithecus). أما الثالث فلقد سمي الإنسان الماهر أو قرد الجنوب الماهر، ودعي الأخير الإنسان المستقيم (Homo erectus) أو الإنسان البعيد (Telanthropus) أو الإنسان الكبير (Méganthropus).

(أ) القرد الجنوبي القوي: هذا القرد معروف بجنوب أفريقيا في كهوف لها ٢ الى ٢.٥ مليون سنة، وبوادي أومو باثيوبيا وبشرق بحيرة تركانبا بالكينيا، وبنفس السن بأولدواي منذ حوالي ١٨٠.٠٠٠ سنة وشيسونجا منذ ١١٠.٠٠٠ سنة، وهو يسمى القوي لأنه فعلا أقوى وأكبر من الآخرين. ان مرفولوحيته تدل على جهاز ماضع قوي اذ له اضراس واضراس أمامية ضخمة. فنتج عن ذلك فك قوي، وعضلات ماضغة متينة، وله قوس وجني (٩) قوي، وعرف سهمي (١٠) مدهش بالنسبة للعضلات الصدغية. ان حاجبه منخفض ووجه عال ومنبسط وأسنانه الخلفية صغيرة مما ييسر حركات المضغ الجانبية. وللفك شعبة صاعدة عالية جدًا، وذلك من شأنه ان يز يد في حركات مضغ العضلات الماضغة والجناحية. ان جسم قرد الجنوب هذا أصلب من أجسام الانواع الاخرى. و يقدر وزنه بـ ٣٥ الى ٦٥ كـلـغ بالنسبة الى طول ١.٥٥ متر). ان رجله لم تكونا كاملتين، إذ لعظمي الفخذين رأسان صغيران وعنقان طويلان وسعة الجمجمة مقدرة بـ ٥٣٠ سنتيمتر مكعب في سوار تكرنس وأولدواي أيضا، ونلاحظ في هذا الصدد تطوراً طرأ على الخيخ، مما يدل على بلوغه درجة أكبر في ضبط الحركات (حركات اليد، والمشى مثلاً).

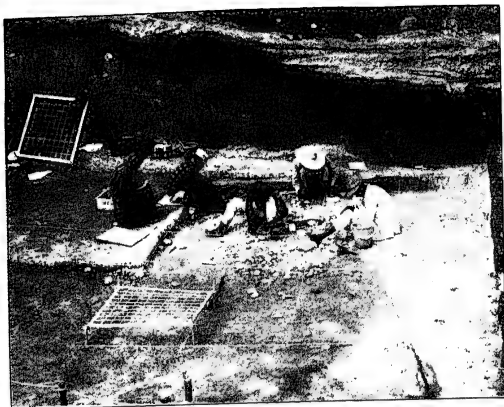
(ب) ينتسب قرد الجنوب الرشيق الى مكينسغات وستركفتناين بجنوب أفريقيا. و يعتقد أنه عثر عليه في أومو باثيوبيا، في غروسي أو في لاتويل بطانزانيا، وبالعفر باثيوبيا، ولوثاغام بالكينيا، وله متر واحد أو ١.٢٥ من المتر، طولاً، و ١٨ الى ٣١ كـلـغ وزناً، فوجهه أكثر اسقاطاً من وجه القرد الجنوبي القوي، وقوساه فوق الحجرين (١١)، ناميان نموا معتدلاً، ومتصلان بيمين نام نسبياً. أما الشنايا الملحقية فلقد أثبتت عمودياً. أما الانياب، وهي صغيرة، فتشبه الشنايا، وأسنانه الوجنية متباعدة مما جعل قوس أسنانه على شكل قطع مكافئ. ان أسنانه الوجنية كبيرة ومذلتها مستديرة، ميناؤها كثيف، واهتلاكها قد بلغ النهاية.

ان هذا القرد الجنوبي، وإن كان قارتياً (ياكل كل شيء) أكثر من السابق، الا أن غذاءه الأساسي متكون من النبات. ان كثافة الفك وكثافة المينا، والاهتلاك المتناهي، وقصر الوجه، وكبر حجم الاضراس الامامية والاضراس، كل ذلك يدل على وجود جهاز ماضع قوي. ولقد حدث تأخر في بروز الاسنان، وهذا التأخر، مضافا الى كثافة المينا، يدلان على تكيفه مع حياة ومراقبة طويلتين. ان سعة الصفح في الداخل تتراوح بين ٤٢٨ و ٤٨٥ سنتيمتر مكعب، أي بمعدل ٤٤٤ سنتيمتر مكعب بالشكل الإفرقي الجنوبي. وتشير العظام الطويلة، لا سيما النقا وعظم الكتف، الى ما

(٩) القوس الوجني هو جسر يربط الصدغ بالوجه.

(١٠) العرف السهمي هو نوع عظمي، له في أعلى الدماغ، حد يشبه زينة الخفوة.

(١١) القوسان فوق الحجرين هما الحاشيتان العظمتان العلويتان من الحجرين (الحجر: الذي يحوي العين).



- ٧
- ١. منطقة حفائر أولدوفاي (تصوير ج. شافايون)، مجموعة متحف الانسان.
 - ٢. انسان الجنوب البدائي القوي (الى اليمين) والرشيق (الى اليسار). (تصوير ج. روبنسون)، مجموعة متحف الانسان.



١٠ و ٢) الإنسان الماهر. (تصوير متحف كينيا الوطني).

درج عليه أسلافه من التنقل على الأشجار. ومع هذا، فإن القرد الجنوبي الرشيق يعد من ذوي الرجلين الدائتين.

(ج) وصف الإنسان الماهر في أولدواي (طانزانيا) سنة ١٩٦٤، ويبدو أنه عر عليه في أمو باثيوبيا، وبشرق بحيرة تركانا وكنبوى بالكينيا. ولأسنانه الوجنية احجام دون أسنان القرد الجنوبي الرشيق من جنوب افريقيا. وتتميز أسنانه بنسب مختلفة: فهي أكثر استطالة وأكثر ضيقاً. ولقد قدرت سعة داخل الفتح ابتداء من العظام الجدارية بـ ٦٨٠ سنتيمتر مربع، وبلغت ججمة من شرق تركانا ما يقرب من ٨٠٠ سنتيمتر مكعب. فبدوا أن الامر يتعلق بكائن يقترب أكثر من قرد الجنوب باعتبار ميل أسنانه ونحى الى التطور. الا أن هيكله ما وراء الجمجمي (١٢) يقربه من قرد الجنوب الرشيق. ان ترقوته تشير الى العادة القديعة في التنقل على الأشجار، وقد تحدثنا عنها لما ذكرنا هذا الأخير. وتقدر قامته بين ١٢٠ و ١٤٠ متر.

(د) الإنسان المستقيم: ان الحفريات قد تمخضت في النهاية عن اكتشاف الإنسان المستقيم، أي عن بشريات أكثر تطوراً من كل ما سبق ذكره، وذلك في سوارتكرنس بجنوب افريقيا. و يعود تاريخه الى ٢٥٠٠٠٠ سنة، وفي أولدواي بطانزانيا يؤرخ بـ ١٥٠٠٠٠ سنة، وبشرق بحيرة تركانا، يؤرخ بـ ١٥٠٠٠٠ سنة، وهلكا كنتوري، وبودو، وأمو باثيوبيا بين ٥٠٠٠٠ و ١٥٠٠٠٠ سنة.

وكان بروم وروبنسن قد قاما منذ ١٩٤٩، في سوارتكرنس، بفرض بعض العظام ونسبها الى شكل أكثر بشرية يسمى التيلانثروب كابنيسيس (*Telanthropus Capensis*) ولقد رأى روبنسن سنة ١٩٥٧، أن ينسب ذلك الشكل الى الإنسان القرد والى الإنسان المستقيم.

وفي ١٩٦٩، فحص رون كلارك، وكلاارك هول. وبراين نماذج سوارتكرنس وتبين لهم أن ججمة قرد الجنوب القوي ٨٤٧ (SK)، يمكن وصلها تماماً بفك التيلانثروب ففتح عن هذا الجمع صورة مفيدة تؤكد تخمينات روبنسن، اذا لاحظ تحت الجبين المنحني المتصاعد، وجود انتفاخ (١٣) فوق محجري ناء، بعكس ما لاحظته من ضمور جبين القرد الجنوبي القوي. وهذه الججمة جيوب (١٤) جبهية كبيرة وانقباض بعد محجري (١٥) كما له عظام أنفية ناتئة، وقوس سني قصير، مما يدل على فك صغير ذي فرع صاعد منخفض. ان الأسنان وبنية الهيكل الوجهي تقربه من الإنسان وخاصة من الإنسان المستقيم.

وفي الأولدواي يختص الإنسان ١٣ بعدد من الأسنان يقل بنسبة ٢٠٪ عن أسنان الإنسان الماهر وبفك أصغر منه. ويختص الإنسان ١٦ بقوس فوق محجري بارز. ويعتبره لايكبي وطوبياس أحياناً انساناً مستقيماً. فان كان هذين الأحفورين وضع غير واضح، فذلك ليس شأن الإنسان ٩ الذي له قبة دماغية تنسب لا منازع في ذلك الى الإنسان المستقيم.

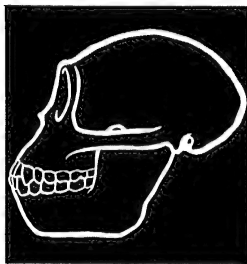
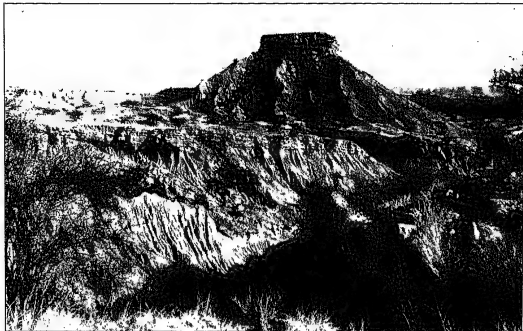
وتتصلل اكتشافات عديدة بشرق بحيرة تركانا بهذا النوع المتدرج من جنس الانسان. ولنذكر

(١٢) يعني بالهيكل العظمي ما وراء الدماغ، بجميع تلك الهياكل دون الجبهة.

(١٣) عندما يدوم الحاشية العليا من المحجر نحو عظمي واق، يسمى هذا النمو (توروس) واقية أو انتفاخ زائد، أو فوق محجري.

(١٤) الجيوب هي تجاويف.

(١٥) تنقبض الجبهة جانبياً، وراء المحاجر، وهذا ما يسمى الانقباض المحجري.



● (١) طبقات سيواليكس في شمال
باكستان. بعشة د. بليج، مجموعة
متحف الانسان (تصوير ه. توماس).
● (٢) اعادة بناء جمجمة الانسان
البدائي راما بيثيكوس، مجموعة متحف
الانسان (تصوير ج. أوستر).
● (٣) هيكل عظمي للانسان البدائي
أوريوبيشيكوس بامبوبي، عمره
١٢٠٠٠٠٠ سنة، عثر عليه في موقع
غروسيتو (مقاطعة توسكانيا بإيطاليا)
يوهانس هورنسلر في ١٩٥٨ (تصوير
ج. أوستر)، مجموعة متحف الانسان.



- (١) إعادة تشكيل بيئة الإنسان المستقيم في تشوكوتين (أو إنسان الصين البدائي - سينانزروب)، بالصين (٤٠٠٠٠٠ سنة، (تصويراً، كويان)، مجموعة متحف الإنسان، معرض «أصل الإنسان»، نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٧٦ - أبريل/نيسان ١٩٧٨، رسم برتوتشي - غاباره بأشراف أ. كويان).
- (٢) إنسان تشوكوتين المستقيم (إعادة تشكيل). صورة جانبية وأخرى أمامية. (تصوير ج. أوستر)، مجموعة متحف الإنسان.

خاصة الثلاث ججمات التي عُثر عليها حديثاً، وهي تنتمي إلى عهود مختلفة، وتقدم أحسن مثال عن نمو الميول التطورية ضمن هذا النوع.

ولنذكر هنا أنه تم حديثاً ضبط تاريخ أقدم إنسان قرد جاوي، وهو حجممة طفل مودجوكروتو الذي ضبط بـ ١٩٠٠٠٠٠٠ سنة. لكن هل يتعلق الأمر بإنسان مستقيم؟

إن المقارنات التي أجريت بكامبريج بين قطع أصلية من جاوا ووطنانزيا من طرف طوياس وفون كونكسوالد أدت إلى استخلاص ما يلي، وهو التماثل المورفولوجي بين الإنسان الماهر القديم وبين الإنسان الكبير الحجري الجاوي، وربما بينه وبين نصف الإنسان من الصين، وكذلك التماثل بين الإنسان الماهر الحديث (الإنسان ١٣) وبين الإنسان القرد ٤، وستيجران ب والتيلاتروبوس كابنيسيس.

الصناعات

لقد حدث أن هذه البقايا كانت لأول مرة في تاريخ المقدمات البشرية، مربوطة بأدوات مصنوعة.

اكتشفت البعثة الفرنسية بمواطن أومو، سنة ١٩٦٩م، بعض الأدوات الحجرية والعظمية تزيد على أكثر من مليوني سنة. وفي السنة الموالية عثرت البعثة الكينية بشرق بحيرة تركانا في معيق بركاني يعود إلى ٢٠٠٠٠٠٠ سنة، عثرت على صناعة من الحجر والعظام تشابه أدوات أومو.

وأخيراً كان دور البعثتين الأمريكيتين والفرنسية اللتين عثرتا على ١٢ مستوى جيولوجيا أرخت بلسيوني سنة. إننا نستطيع أن نقول أن هذه الاكتشافات الواقعة بمحوض البليو بليسوسين من بحيرة تركانا، قد أضافت إلى عمر الأدوات الأولى المنحوتة أكثر من مليونين ونصف المليون سنة، بل ٣ ملايين سنة مما زاد مليون سنة في عمر أقدم الصناعات المعروفة إلى الآن.

إن هذه الصناعة الأولى في التاريخ تتكون من كمية من الشظايا، التي قرعت اصطناعياً واستعملت قواطعها، ومن حصاة لُهي أحد حديها أو قاطعها بطرق عدة، ومن عظام أو أسنان هيئت واستعملت مباشرة عندما تسمح بذلك أشكالها (أنياب فرس البحر أو أنياب الخنزير مثلاً).

يمكن ترتيب هذه الأدوات حسب عدد من الأنواع. ولقد صنع من هذا النوع عدد معين من النماذج. وهذا يعني أن شكلها كان موضوع بحث، وأنها اكتساب ناتج عن خبرة يرثها جيل عن جيل، مما يفترض وجود حياة اجتماعية معينة، وهذا يعني أنه رغم مرور ٢٥٠٠٠٠ سنة فإننا لم نصل إلى معرفة أصل الأداة، لكن من المحتمل أننا نفترق من حدود ادراكها. وهي تلتبس وراء تلك الحدود، مع الأشياء الطبيعية.

وفي مكبنسغات بنجوب أفريقيا تم اكتشاف صناعة متكونة من العظام، ومن القرون والأسنان فسميت لهذا السبب صناعات عظمية سنية قرنية ويمكن أن تكون قديمة جداً إذا صحت المحاولات الحديثة في وضع توافق بين الكهوف الأفرقية الجنوبية والمواطن الكبرى بشرقي أفريقيا. وعلى كل حال نستطيع أن نلاحظ نفس الشيء فيما يتعلق بمحوض بحيرة تركانا التي تصنع فيها مختلف الأدوات جملة، وذلك يدل على أنه قد كان لها تاريخ عريق.

وكشف هـ. روش حديثا في هدر صناعة من الحصاة المهيأة، تقترب من حصاة أولدواي في مستوى لا يستغرب إذا أُرِخ بـ ٢٥٠٠٠٠٠ سنة. وهكذا فإن الأدوات ظلت متوفرة وملحوظة في كل مكان، ابتداء من الطبقات الأكثر قدما بأولدواي (١٨٠٠٠٠٠ سنة). ان الحصى المهيأة المتوفرة بصفة خاصة استوجبت تسمية هذه الصناعة بـ «ثقافة الحصاة» أو الأولدوايية. ولقد لاحظ الدكتور لاكي، وهو يخفر أقدم مستوى بأولدواي، تراكما كبيرا من حصاة البزلت. وكلما تقدم الحفر، أدرك أن تلك الحصاة لم تكن مبشرة بل كانت على عكس ذلك مرتبة حسب أكداش لها رسم الدائرة. ويحتمل أن يكون كل تكداش متكونا من حجارة لشركيز عمود، فلو تصورنا دائرة من الأوتاد ومن أقواس العقد وجلودا وسعنا مبسوطا لدعنا هذا الأمر إلى تصور آثار بناء، فتكون أمام بنية سكنية تعود إلى نحو مليوني سنة. واكتشف ج. شفيان، ملكا كنتوري بنية مشابهة تقريبا قرب أديس أبابا، بالمستوى الأولدواي بأقدم موقع (١٥٠٠٠٠٠ سنة). فلقد وقع على حين غرة، في الوسط بالضبط من عل الإقامة الذي تبعثرت فيه الأدوات، وقع على مساحة دائرية قطرها ٢٥٠ مترا، خالية من أية أداة بها، ويبلغ علوها ٣٠ سنتيمترا بالنسبة لما تبقى من الأرض التي يحيط بها ميزاب طوله متران. وكانت بعض أكداش من الحجارة توجي هنا أيضا بوجود أوتاد.

يقال إن القرد الجنوبي القوي يحتمل أن يكون ذكر القرد الجنوبي الرشيق. ويرى بعضها أن الإنسان الماهر كان قردا جنوبيا رشيقا، أصغر سنا من النوع الجنوبي الأفريقي وأكثر منه تطورا. ويقول البعض الآخر أن الإنسان المستقيم من سوارتكرنس قابل لأن يتدرج في الحدود السفلى من تبدلات القرد الجنوبي القوي من نفس الموطن، ويقال أن الجاوي كان قردا جنوبيا. وأن بعض القردة الجنوبية (أولدواي، سوارتكرنس) كانت أيضا من نوع الإنسان القرد. ونخرج من هذا الالتباس الظاهري بما يلي:

ظهر الجنس الإنساني، وظهرت الاداة المصنوعة من بين مجموعة القردة الجنوبية، المستوطنة أولا بأفريقيا الشرقية وبأفريقيا الجنوبية، (في شكل القرد الجنوبي أو في شكل أكثر منه تطورا والمتوسعة بعد ذلك إلى آسيا جنوب الهيمالايا. وسرعان ما أصبحت الاداة عنوانا على صانعيها. فلقد أبدعت بسرعة أنواع عديدة من الأدوات لغايات مضبوطة. وأصبحت صناعتها تلقن وظهرت بعد ذلك بنيات سكنية. وعلى هذا الأساس يمكن لنا أن نتحدث عن الأصل الإفريقي للإنسان.

الخاتمة

وهكذا يبدو أن الإنسان ظهر في نهاية التاريخ طويل جدا، في شكل مقدم بشري أخذ يحسن الاداة التي كان قد استعملها منذ أمد طويل. ان الأدوات المصنوعة والمساكن تدل على كائن مفكر، مدبر، يتعلم ويعلم، ويشيد المجتمع الأول ويضع له ثقافته الاولى. ولقد اقترح حديثا تاريخ يز يد على مليوني سنة لبعض البقايا الأحفورية البشرية من جاوا. وقدترت أحيانا الحصاة المهيأة من جنوب فرنسا بعمر يعادل ذلك. الا أن حالة معارفنا الراهنة باعتبار عددها وأهمية مستكشفاتنا القديمة جدا، جعلت إفريقيا هي التي تنتصر في هذه المباراة.

ولنسختهم قائلين بأن كل شيء وقع كما لو نشأت، منذ ٦ إلى ٧ ملايين سنة، بالربعية الجنوبية الشرقية من القارة الإفريقية، مجموعة من البشر يات تسمى قردة الجنوب. فلقد برز منذ مليونين ونصف أو ثلاثة ملايين سنة، برز من تلك المجموعة المتعددة الأشكال، كائن هو قردة الجنوب نفسه الذي كان انسانا، قادرا على نحت الحجر والعظم، وعلى بناء الأكواخ وعلى العيش في مجتمعات صغيرة، تمثل في جميع تظاهراتها الأصل الأصيل للإنسانية الصناعية.

المليون الأخير من السنوات

لقد شهد المليون الأخير من السنوات نشأة الإنسان العارف، وتكاثره بشكل يبعث على القلق في القرون الأخيرة إذ في ١١٥ سنة ارتفع عدد الافراد من مليار الى مليارين ثم ارتفع في ٣٥ سنة من مليارين الى ثلاثة مليارات ثم ارتفع في ١٥ سنة من ٣ مليارات الى ٤ مليارات، ولا يزال التكاثر مستمرا....

ظهور الانسان المشاكل العامة

القسم الثاني

بقلم : ل. بالوت

المعطيات الأثرية

ان دراسة مشكل (ظهور الانسان) في افر يقيا تستوجب من الباحث في ما قبل التاريخ منهجا يختلف كثيرا عن منهج الاحاثي. ان ظهور الإنسان بالنسبة لهذا الأخير هو هذا التطور التدريجي في المخ الذي سمح للانسان بالتصور والإنجاز، وذلك بوضع تقنيات تزداد تعقدا وصنع أدوات (و يؤخذ هذا المصطلح في معناه الواسع) بلغت من التنوع والفعالية حدا جعله عبر العصور يضاعف تأثيره على البيئة الطبيعية، حتى وصل الى الاخلال بالتوازن البيولوجي لصالحه. ان التطور الأحاثي الذي يفضي الى الإنسان لا يسمح بتحديد عتبة ظهور الإنسان. ان الحجارة المنحوتة تبين أنه تجاوز تلك العتبة. ولقد سبق أن عبر عن ذلك ب. تيلاردي شاردان تعبيراً مأثوراً «لقد ظهر الانسان دون ضوضاء... وسارسيرا لا يكاد يحس به، حتى اذا ما دلت عليه الادوات الحجرية الثابتة التي هي خير شاهد على وجوده، عندئذ فقط أخذنا نلفظ له... ولكنه كان حينئذ قد ملأ العالم القديم».

ان موقف الباحث في ما قبل التاريخ له ما يبرره لأن الحلقة المفقودة ليست الشكل الأوسط بين قرد الجنوب والإنسان القرد وبين النياندرتالي والإنسان العارف. بل هي الشكل الأوسط بين الحجارة والعظام المنحوتة وبين تلك الأحفورات. ان صناعات ما قبل التاريخ المنسوبة بيقين مطلق للإنسان العارف، ابتداء من العصر الحجري الأعلى، بالاعتماد على برهان لا نزاع فيه، وإلى انسان نياندرتال بالعصر الحجري الوسيط، لا يمكن نسبتها إلى الإنسان القرد وإلى قردة الجنوب الا افتراضا. و يغلب على الظن أنها الفرضية الوحيدة التي يمكن التعبير عنها علميا. الا أن الصناعة التي تصاحب إنسان الصين مخالفة للتي عثر عليها عند الإنسان القرد، وهذه بدورها تختلف عن التي عثر

عليها عند الإنسان القرد بجاوا، وإنسان الأطلس بالجزائر، وبإفريقيا الشرقية. أما فيما يتعلق بقردة الجنوب فهي تمثل مجموعة غير متجانسة ولا تعرف بالضبط إلى أي نوع منها يمكن أن ينسب العصر العظمي الإنساني القرني (Ostéodontokératique)، وكذلك ثقافة الحصى.

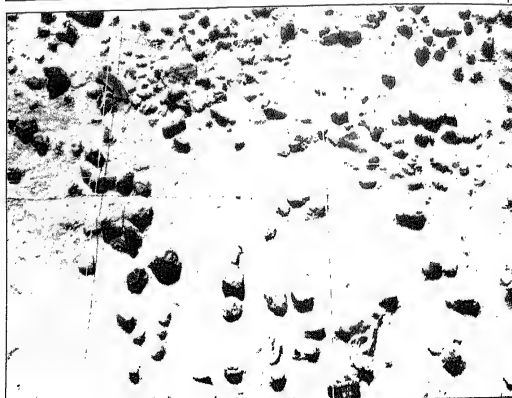
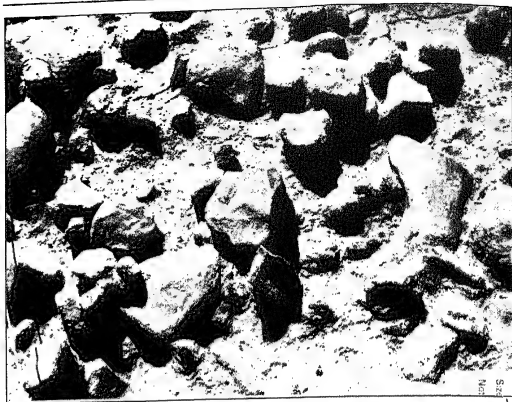
فاذا وجدت «عتبة» لظهور الإنسان بالنسبة للإلحاثي، أو «حد غني» ضبط سعته الاستاذ فالوا (Vallois) بـ ٨٠٠ سنتمتر مكعب، فإنه يوجد بالنسبة للمؤرخ «عتبة تقنية» ما كاد الإنسان يخطئها حتى انفتح طريق التقديم امامه إلى يومنا هذا. إن تحديد تلك العتبة يستوجب حل مشكلين: كيف ومتى وقع ذلك؟ فالمشكل الاول يستدعي أن نترك جميع الأسباب الطبيعية، لكي نعرف من خلال الأداة، بأن اليد التي استعملتها هي يد الإنسان. أما الثاني فهو يستوجب توفر الاطارات الزمانية التي تسمح بأن نؤرخ تاريخنا تقريرا مقبولا الشواهد المتأخرة جدا من الصناعة الإنسانية.

إن إفريقيا، إلى يومنا هذا، هي القارة الوحيدة التي اعطت الجواب المقنع لهاتين المشكلتين واعتبارا أن نظرية الأصل الواحد أصبحت مقبولة عالميا، تعتبر إفريقيا اليوم مهد الإنسانية. إن هذا «المهد المتنقل» كما عبر عنه القس بروي (Breuil)، والذي طالما رأيناه ينتقل من قمم جبال سهل الفرات، قد استقر الآن بإفريقيا الشرقية، ويكون ذلك الاستقرار قد وقع منذ ٣٠٠٠٠٠ سنة على الأقل. والحقيقة أن سفر العهد القديم (سفر التكوين) حدد موقع الجنة في الدنيا، وهي عدن، بكان طبيعي فيه جنات ونباتات وأشجار، وخلق الله آدم ليتعاطى الفلاحة وتربية المواشي، أي ليعيش عيشة «العصر الحجري الجديد» في منطقة ما لبث أن أخذ يبرز فيها عصر حجري قديم. إن جميع التواريخ المستخرجة من الكتاب المقدس تؤرخ الخلق ابتداء من ٦٤٨٤ و ٣٦٦٦ سنة قبل عصرنا. والغالب على الظن أن الشرق الأدنى كان من أقدم، إن لم يكن أقدم مكان للعصر الحجري الجديد وليس هناك من مبرر اليوم للقول بأنه كان مهد الإنسانية.

لقد ظهر الإنسان دون ضوضاء، ثم دلت بعد أمد طويل الحجارة التي نحتها على وجوده. إن النوع الإنساني «لم يزعزع شيئا ما في الطبيعة عند ظهوره... فرأيناه يبرز كنوع متميز مثلما يبرز تماما أي نوع آخر» (تيلار). وعلى هذا الأساس تصبح مسؤولية الباحث في ما قبل التاريخ عظمي عندما يأتي، وهو يعرف أقدم آثار الصناعات الإنسانية التي يمكن الإطلاع عليها، ببرهان كان علم الاحاثية عاجزا عن تقديمه. «يدرك أصل الإنسان بفضل الأداة التي استعملها. ذلك هدف علم ما قبل التاريخ الأسمى».

إن الباحث في ما قبل التاريخ بإفريقيا مدعو إلى الاجابة مسبقا على ثلاثة أسئلة:

- هل تعتبر الاداة على وجه اليقين معيارا دالا على ظهور الإنسان السوي؟.
 - هل يمكننا الاداة من ادراك بدايات ظهور الإنسان السوي؟.
 - هل ندرک الاداة الإنسانية ادراكا واضحا، عندما يعثر عليها في حالة جيدة من المحافظة؟.
- إن معطيات هذا المشكل إفريقية في جلها. لقد كان القس بروي في آخر حياته، وقد اعتبر بسلوك بعض الحيوانات، يسر إلى أنه يتساءل هل الاداة تدل حقا على تجاوز عتبة البشر السوي ولماذا لا نختار الفن كـ معيار؟ فذلك يفيد التمييز بين انسان «صارف» حقا، وهو راسم



- ١) تفاصيل التربة الأولدوفانية (تشتمل على حصص متعدد الجوانب وعظمة سمكة لفرس نهر)، (تصوير ج. شافين)، مجموعة متحف الانسان.
- تفاصيل التربة الأولدوفانية (تصوير ج. شافين)، مجموعة متحف الانسان.

لسكو (Lascaux) سلفنا المباشر، وبين مجموعة أخرى من الكائنات المدبرة التي يمثلها الإنسان (الصانع) السابق للاول في الظهور.

وكما قالت السيدة تيري (Tetry) بعبارات دقيقة، فإن استعمال أدوات مستقلة عن أعضاء الكائن الحي، وهي «أدوات طبيعية» هذا الإستعمال ليس من خصائص الإنسان ولا حتى من خصائص المدمات البشرية. وأكبر دليل على ذلك، الزنبور المسلح والملة الحياطة (في الحشرات) وشرشور جالاباجوس، وزمج الماء، وكاسر العظام، والمزرة، والسمنة الشاذية (في الطيور)، وقضاعة البحر، والقندس وحيوانات أخرى. ان الشمبزي، في رتب المدمات، يعتبر أقرب الحيوانات الى الإنسان. فهو يستعمل في حياته اليومية أدوات وأسلة للدفاع عن نفسه ضد الحيوانات النجابة مثل الحيات. ان الخوف والدفاع عن النفس يدفعانه الى التقاط عصي وأشهارها (١). ان هذا السلوك الملحوظ لدى الحيوانات، وهي حيصة في الحدائق، قد استكملت دراسته بين ١٩٦٤م و١٩٦٨م بملاحظة سلوك الحيوانات في الغابات المخصصة لها في طانزانيا. ان الشمبزي الذي يعيش في جماعات تتكون من ٣٠ فردا أو أكثر يعرف كيف يمسك بعض الأغصان الصغيرة لاستخراج الأرضات، ويستعمل العصي لتشمم الأعشاش للوصول الى العسل، ويستعمل الأوراق ليأخذ الماء الموجود بثقب الأشجار، ويثبت المقابض بالعصي بلوغ الموز.

اما الحجارة، فيستعملها لتشمم الثمار، أو لإبعاد الحيوانات المخاصة عن طريق الرمي من فوق ومن تحت عضده، مثلها مثل العصا. وهو يفاهم مع غيره باستعمال اشارات صوتية. ويمكن لنا أيضا أن نستشهد بملاحظات أجريت على قرودة الغوريلا في رواندا (٢).

ولتصبح الاداة معيارا للدلالة على ظهور الإنسان السوي، فلا يكتفي استعمال شئ خارج عن «الأدوات الطبيعية» للكائن الحي، ولذا فلا بد من حصول التحويل المقصود، ولا بد من «التهيئة» لتلك الاداة، وذلك ما يساعدنا على إعطاء جواب إيجابي على السؤال الثالث المطروح، والامتناع عن هذا الجواب بالنسبة للسؤال الثاني.

ان الأداة لا تسمح لنا بأن ندرك بدايات البشرية أولا لأنه لم يبق محفوظا الى عهدنا إلا عظام أحفورية وأحجار. ودون أن ندعو الى مقارنة اثنوغرافية غير معقولة، فاننا نذكر بأن جماعة إنسانية تستطيع أن تستمد مجموع أدواتها من العالم النباتي وحده. ويمثل هذا بقبيلة المونكوي من جزر اندامان. فان كانت الشجرة، بالسبابس المشجرة في المضاب الإفريقية، قد وفرت للبشر الاولين الادوات الأولى، فهذا امر لا يمكن اقامة الدليل عليه، وان كان أمرا محتملا. وحتى فيما يتعلق بالعظام الأحفورية، والأسنان، فلقد نسب ر. دارت الى القرودة الجنوبية من تروانفال، صناعة أساسها العظام، والأسنان والقرون وسماها الصناعة العظمية الإنسانية القرنية، وهي صناعة ظلت قائمة طويلا، وسنعود الى ذلك فيما بعد. ولقد ميزر. فان ريت لوي في «ثقافة الحصاة» بين «المشقوق» و«المنظم» منها. فالأولى، وهي حصاة مشقوقة فقط قد كانت على العموم موضع شك فان كان من المؤكد أن الحصاة التي التقطها اليد الإنسانية وألقها لم تحتفظ بأي أثر ملحوظ من ذلك

(١) انظر: الاترو بولوجيا المعاصرة، يونيو ١٩٦٧

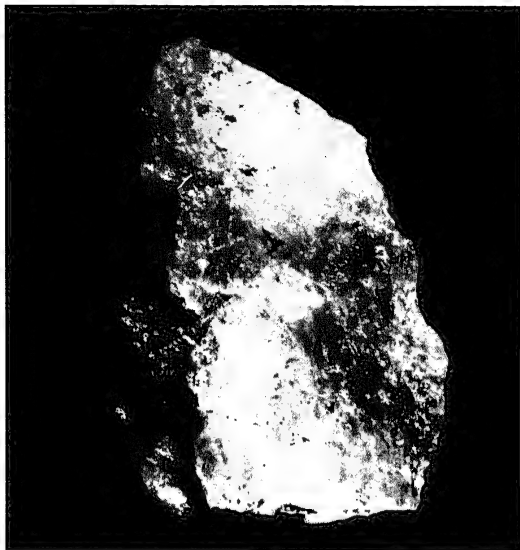
(٢) الجمعية الجغرافية الوطنية، واشنطن، أكتوبر، ١٩٧١.

الاستعمال، فحتى الحصى المهشمة يمكن أن تكون لعبة من لعب الطبيعة: ان الانهار في أسفل مسقطها، وارتداد الأمواج ينقشان الحصى نقشا لا يختلف عما هشمه الإنسان منها. ان صناعة (الكافوتين) لم تصمد أمام هذه الحجة.

ان نص تيلاردي شردان الذي ذكرت جزءا منه في أول هذا العرض يحتوي على اخطاء جسيمة وبه نقص كبير. (لقد ظهر الإنسان دون ضوضاء... وسارسيرا لا يكاد يحس به، حتى اذا ما دلت عليه الأدوات الحجرية الثابتة التي هي خير شاهد على وجوده، عندئذ فقط أخذنا ننطق له... ولكن كان حينئذ قد ملأ العالم القديم، من رأس الرجاء الصالح الى بكين. وقد كان — على وجه اليقين — يتكلم ويعيش على شكل مجموعات. وكان يوقد النار، وعلى أية حال، أليس ذلك ما كنا ننتظر بالفعل؟ فكلمنا انبثق شكل حي جديد أمام أعيننا من أعماق التاريخ، نراه قد برز شكلا سويا وأصبح ألافامولفة...) ويبدو أن الإنسان الناطق لم يظهر الا في زمن الإنسان القرد. ان نسبة النار الى القرد الجنوبي البروميتي، كانت نسبة تأولية خاطئة اذا لم تتوفر لدينا علامة ثابتة على ذلك قبل الإنسان القرد. ولم يكن ذلك بافر يقيا، وبالعكس فان «الأدوات الحجرية الثابتة» من الأولدواي لا تدل يقينا على البداية اذ ان تنوع أشكالها، وعددها، وانتظام نحتها تجعل منها على العكس علامة على النهاية. ان الباحثين في ما قبل التاريخ بافر يقيا هم الذين طالبوا بهذا المليون من السنوات الذي زودهم بها حديثا أومو وكوبي فوراً، وهذا أمراً يرضينا!

ولهذا وجب علينا أن نقتصر على حل المشكل الثالث وهو يستدعي أن نوضح أغراض الإنسان «الأدوات» البسيطة جدا والأقل تهذيبا. ان افر يقيا هي القارة الوحيدة الكفيلة، بما لها من ثروة وثاقفية، بأن تسمح بذلك البحث الذي يشمل ميدانين: العظم والحجر.

أ — الصناعة العظمية السنية القرنية: لقد كانت الفرضية التي عبر عنها ر. درات سنة ١٩٤٩م موضوع تقييم من طرف دونالد ل. ولبرغ سنة ١٩٧٠م (ك. أ. فبراير ١٩٧٠) ولقد سبق للقس بروي أن اقترح بعد دراسة العظام المكتشفة لانسان الصين، من شو كوتيان، بأن «عصر العظم» ربما سبق «عصر الحجر»، فن المحتمل وجود عصر «ما قبل الحجري» سابق للعصر الحجري القديم. ولم تعرف صناعة حجرية متصلة بملاجئ قرودة الجنوب قبل ١٩٥٥م (جنوب افر يقيا) و١٩٥٩ - ١٩٦٠م (أولدواي طانزانيا) و١٩٦٩م (أومو أثيوبيا) و١٩٧١م (بحيرة رودولف، الكينيا). الا أن درات قد قام مدافعا عن صناعة عظمية، أساسها العظام والأسنان والقرون، يسمحها الصناعة «العظمية السنية القرنية» ولم يتوفر لنا مع الأسف ترتيب تاريخي دقيق، سواء كان نسبيا أو مطلقا، عن قرودة الجنوب بافر يقيا الجنوبية، التي كانت من هذه الناحية أقل حظا من أثيوبيا والكينيا وطانزانيا. وإذا اقتصرنا على مشكل الصناعة فإن. ر. دارت الذي ظل من ١٩٤٩م الى ١٩٦٠م يدافع عن وجوده، قد اعتمد في حكمه على فحصه لكسور دماغية للفراخ (يابوان) وقرودة الجنوب. ولقد فضل فيما يبدو أن يختارين العظام المتراكمة في ما كابنسغات (٣٣٦ قنا، ٥٦ عظما فخنذا مثلا) والفقرات الخفية (الأطلس والفاق) التي تمثل ٥٦% من الفقرات مع جمجمات البقرات. وقد رأى بأن العظام المتراكمة الخاصة بقرودة الجنوب، هي أكدر من الفضلات ومن



● (١) حصاة من أقدم الحفريات
المشكلة في العالم (حفريات ج.
شافايرن).

● (٢) حصاة من أول الحفريات
المشكلة في العالم (حفريات ج.
شافايرن).



ببقايا طعام تركه صياد نهب، مكّنه تحزّز ريد، نظرا لقدرته على الوقوف، من أن يستعمل الأسلحة والأدوات. وفي هذا الميدان استطاع (دارت) بعد فحصه لخمسين هجمة للقرادح و٦ لقردة جنوبية أن يؤكد وجود رضوض في ٨٠٪ منها، وقد تسببت فيها أسلحة يدوية، وكانت الضربات تصيب غالبا الوجه، ويمكن للضرر أن يكون مضاعفا، مما يدل على سلاح ذي رأسين. ويوجد في ماكاينسغات عدد من عظام النقا، لذوات الحافر عليها آثار اهتلاك حدث قبل التأخر، بينما كانت العظام الطويلة الأخرى سليمة. وذلك ما دفع دارت إلى استنتاج ما يلي: (إن الاداة التي يختص بها قرد الجنوب هي هراوة من عظم، وعلى الأخص من نقا حيوان ذي حافر). ولقد استعمل الصياد أيضا فكوكا. إن التكسير باللي (كسر لولبي) في النقا والعظام المستدقة يفيد هنا أيضا تدخل اليد كما اقترح ذلك بروي وتيلارد في شردان في شوكتين موطن إنسان الصين. إن ذلك القرن الأيمن المتأخر من الغزالة الرشيق، المغروز بعظم فخذي لظي كبير، حيث تصلب بفعل الكلسيت، يعبر عن فعل انساني، سواء أكان أداة أثبتت على تلك الحال أم أداة لكسر عظم الفخذ. وكذلك شأن عقب هجمة ضبع قد غرز بها عقب ظبي، بين القبة والقوس الوجني.

وهكذا فقد سبق أن وجدت مرحلة «عظمية سنّية قديمة» ما قبل المرحلة الحجرية تلاها العصر الحجري، الذي واصلته «ثقافة الحصاة» ثم صناعات الأسلحة ذات الوجهين. وكان ذلك بداية (لنشاط ثقافي قائم على استعمال الأدوات).

إن مثل هذه الفرضية قد تسببت في مناقشات عنيفة تتعلق بموضوع «الصيد أو الصيد» و يرى بعضهم أن جميع العظام، حتى عظام قردة الجنوب ليست إلا شواهد على مآذب الحيوانات اللامحة. و يرى فيها آخرون أنها تراكمات موجودة بملاحي الضبع، إلا أن هذا يتنافى مع عوائد ذلك الحيوان آكل الجيف، وأنها من أعمال الشياهم (بورك إبييك). والحال تشهد بأنها من الـ ٧١٥٩ قطعة عظمية المجموعة في ماكاينسغات، لم يقضم منها سوى ٢٠٠ قطعة. يضاف إلى ذلك أن الضباع تعيش وسط عظام ضبيعية. ولقد بين موطن يرجع إلى عهد ريس ووورم أنه يوجد ١١٠ ضبعا بين ١٣٠ حيوان، بينما لا يوجد منها في ماكاينسغات إلا ١٧ من ٤٣٣ حيوان. و يوجد في الركام الخاص بقردة الجنوب ٤٧ سنا منفردة للضبباع، من ٧٢٩. و يوجد بموطن ريس. وورم ١٠٠٠ على ١١٠٠.

ولقد تغلبت شيئا فشيئا النزعة المناصرة للصناعة العظمية السنّية القريّة، من دون أن تحكم مسبقا على نوع القرد الجنوبي الذي قد يعتبر أنه كان الصياد. إن وجود صناعة حجرية معها (ستركفشتاين ١٩٥٥) جاء ليؤيد ذلك، ولقد أثبت بالبرهان الصناعة العظمية بأولدواي التي نشرها أحسن نشرم. لا يكي (٣). فهي لا تقبل النزاع وقد مهدت السبيل للصناعة المنسوبة للإنسان القرد بأفريقيا وآسيا (شوكتين) وأوروبا (ترايبا وأميرونا مثلا).

ويوجد على طول الأزمنة ما قبل التاريخ عرق من الصناعة العظمية كان موازيا لعرق الصناعة الحجرية. إن تحليله يعتبر أدق، إلا أن ذلك لا يمنع وجوده. وهذه الصناعة ليست في أي مكان آخر أقدم مما هي في إفريقيا، وإن كان البرهان على وجود مرحلة «قبل المرحلة الحجرية» لم يحصل.

ب - الصناعة الحجرية: منذ أن تركت فرضية «الصوانيات»، تمثل الحصة المهيأة التي سميت مدة طويلة «ثقافة الحصة»، أقدم صناعة حجرية معروفة لدينا، ونحن نعلم كيف أن ج. ويلاند، الذي كان مدير المصلحة الجيولوجية بأوغندا، قد لاحظ سنة ١٩١٩م بذلك الجزء من إفريقيا الشرقية وجود حصة منحوتة تشابه تلك التي اكتشفت باستراليا قبل ١٩١٤م. ولقد وضع سنة ١٩٢٠م مصطلح «ثقافة الحصة» و«كفوين» (نسبة إلى نهر كفو). وميز سنة ١٩٣٤م مراحل تطويرية عددها أربع. وهو الذي أشار على ل. لاكي سنة ١٩٣٦م بأن يضع مصطلح أولدواي لوصف ثقافة الحجارة المتطورة الموجودة بنفخ أولدواي (طانزانيا). وحاول فان ريت لو سنة ١٩٥٢م أن يضع تصنيفا تقنيا ومرفولوجيا أول لثقافة الحصة. ولقد أتى من آسيا مرة أخرى، على لسان ه. موفيس، تعريف أشكال تعتبر أساسية: الساطون والساطور الأداة، والفأس اليدوي (١٩٤٤م). ويقتنع بذلك تدريجيا المؤرخون لما قبل التاريخ بإفريقيا، ولا سيما بوربا: الجزائر (ك. أرمورك)، المغرب (ب. بيبيرسن)، الصحراء (ه. هوغو، ه. الجمان، ج. هيفايون) كتنكا (مرتلمان) الخ... ولقد اقترحت تصنيفات مرفولوجية، معتمدة على تقنيات التحت (ل. رمنندو، ب. بيبيرسن)، و بيرز من هذا ملاحظتان:

١ - أن «ثقافة الحصة» تعتبر معقدة جدا لأن أشكالها متنوعة جدا، وقارة ومنظمة. فهي لا تمثل بداية الصناعات الحجرية.

٢ - أن «ثقافة الحصة» تشمل بالقوة كل الإمكانيات التطورية التي ستوفر الصناعات الكلاسيكية بالعصر الحجري الأسفل بإفريقيا، أي صناعة الأسلحة ذات الوجهين، والقذومات، ولن نحتفظ إلا بالنقط الأولى.

واعتبارا إلى ذلك التعقيد الخاص بثقافة الحصة وانتشارها، أصبح الباحثون في ما قبل التاريخ بإفريقيا يتطلعون إلى وضع ترتيب تاريخي أطول من الذي لم يقبل إلا بصعوبة، والذي أعطى ١٠٠٠٠٠ سنة للدهر الرابع. ولقد أصبح تأريخ الأولدواي بطريقة البوتاسيوم أرجن (١٨٥٠٠٠ سنة) إلى ١١٠٠٠٠ سنة لهذا «الباد ١» مؤكدا بتاريخ موطن بحيرة تركانا أي بما قدره ٢٦٠٠٠٠ سنة. إلا أن هذه الصناعة الأخيرة، وإن كانت تشمل حصة مهيأة، فهي لا تنتسب في جلها إلى «ثقافة الحصة». لأنها صناعة شظايا، ففي سنة ١٩٧٢م جعت بأوموشظايا، يغلب على الظن أنها برهان ضعيف ونحن نتساءل أن لم يسبق تهية الحصة لتكون أداة، استعمال الشظايا المقطوعة من صخرة معنية من المادة الخام. إلا أننا نصل هنا إلى حدود إمكانية النسبة إلى سبب غير طبيعي: فإن كانت آثار النحت غير واضحة (عقب - بصلة)، وإن جاز أن نؤكد على «حقل الاستعمال» فأننا سنعود إلى مشكل «الصوانيات» القديم.

ولذلك فإن الموجد الذي لا يفسر بغير تدخل الإنسان هو الذي يلفت النظر. لكن أين سينتهي بنا التساؤل؟ إن الحد الأكثر جرأة في هذا الصدد قد بلغه ل. لاكي الذي ينسب إلى قرد الكينيا

«نشاط القصر بالعظم» لأنه استعمل قطعة من طفح قرعة الإستعمال وسحقه كما استعمل عظامها طويلا يمثل كسرا عميقا (٤).

وهنا تتلاقى مشاكل الصناعتين العظمية والحجرية في أصليهما. فلقد استحال الإتيان بأي برهان تكنولوجي أو مرفولوجي اذ لم يمكن ملاحظة أي أثر (كلاسيكي) من نشاط إنساني. والبرهان الإيجابي الوحيد هو ذلك الموجود الذي لا يفسر، والمتكون من شظايا بالقرب من بقايا قرد الكينيسيا. إلا أن نفي دور الطبيعة لا ينفي الاستعمال من قبل كائن شبيه بالإنسان وسابق لظهوره. وما ذكرناه سابقا في شأن سلوك الشمبزي حاليا يؤيد هذا الاتجاه.

فإن كانت أدوات العظم والحجر تشهد على أن عملية عقلية بشرية حدثت منذ أكثر من مليونين ونصف من السنوات، فذلك لا يعتبر في نظر مؤرخ ما قبل تاريخ أفريقيا، نقطة البداية للعمليات العقلية.

معجم المصطلحات

إنسان التشاد (Tchdanthrope): من البشريات الأحفورية، يقع من حيث التركيب البدني بين مرحلتين قرد الجنوب والإنسان - القرد.

الإنسان العارف (Homo sapiens): تسمية أطلقها س. ليني (١٧٥٣)، وهي مخصصة للأشكال الحديثة أو للإنسان الجديد، للدلالة على الإنسان الذي توصل بفضل ذكائه إلى حالة من التكيف مع الوسط تسمح له بأن يفكر ويتأمل بكل حرية.

الإنسان الماهر (Homo habilis): تسمية أطلقها لايبكي، وتوبياس، ونابسي، للدلالة على الأحفورات التي تقع درجة تطورها التشريحي بين قرد الجنوب، والإنسان - القرد.

الغنايس: نسبة إلى أفنة ببلاد المغرب. وهو التندب البحري الثالث الذي حدث في الدهر الرابع بالمغرب.

أوجيت: سلبكات الكالسيوم والمغنيسيوم والحديد الطبيعي. وهذا المعدن يدخل في تركيب البزلت.

أورينثاسي: نسبة إلى أورينياك (جارون العليا بفرنسا)، قامت فيه صناعة فيا قبل التاريخ في العصر الحجري القديم الأعلى. إن هذا الاسم الذي (أطلقه ه. بروي: وأ. كارتيلهاك في ١٩٠٦)، يدل على الصناعات المحددة تاريخيا بين الموستيري والبريغودي، ويتميز بأداة قصيرة من خشب الرنة (حيوان) وحكاكات ثخينة، ونصال عليها زخرفة خطية مستوية ذات قشور، كما يتميز ببعض المناقش. وفيه ظهرت الآثار الفنية الأولى، وهي عبارة عن تماثيل صغيرة حيوانية، وعلامات منقوشة نقشا سهيا على كتل من الأحجار الكلسية. ويرجع إلى حوالي ٣٠٠٠٠ سنة.

أوغري ١: المطار الصحراوي الثاني، و يعادل الكاماسي.

أوغري ٢: المطار الصحراوي الثالث، و يعادل الكنفري.

أولدواي: نسبة إلى فج أولدواي في طانزانيا الشمالية. و يوجد به مركب من الأدوات الحجرية القديمة (حصي مهين) اكتشفه (كاتو بكنل عام ١٩١١). وقد ميز (لايبكي) في هذا المركب ١١ مستوى يستند بالآلدواي ١ الموافق للشوي القديم، وتنتهي بالآلدواي ١١ الموافق للآشوي ٦، مع أدوات لوفالواسية.

آبيلي: مظهر من التشايط الصناعي قام بتعريفه (ه. بروي (Breuil) في أبينيل الواقعة بوادي الصوم بفرنسا. و يتميز بأدوات حجرية ذات وجهين، ومنحوتة تحت عميقا بواسطة قراع صلب (من حجر). وهذا المظهر الذي عرف في أوروبا يوافق مطلع العصر الحجري القديم الأسفل.

أشول: نسبة إلى سان أشول، الواقعة بوادي الصوم بفرنسا. وهو المظهر الثاني الرئيسي في العصر الحجري القديم الأسفل. وقد دام من يتجدد (متدل) إلى نهاية العصر الجليدي البيني (ريس - وورم). والأداة التوجذجية المستعملة هي آلة ذات وجهين، أكثر انتظاما من التي استعملت في الأبيلي، وهي منحوتة بقراع غصص (خشب أو عظم).

أمازوليت: نوع أخضر من الميكرولين.

أميري: دورة قارية مغربية معاصرة للمندل الأوربي.

الإنسان (Homo) اسم جنس مخصص في تصنيف الحيوانات للإنسان الأحفوري، والإنسان الحالي.

إنسان الأطلس (Atlantrope): أحفور من مجموعة الإنسان القديم، قام بتعريفه س. آريبورغ في منجم يقع في تيرمينيفين (الجزائر)، وتمزيي البقايا إلى نهاية البليستوسين الأسفل.

إنسان المتل (Méantrope): تسمية نوسمية أطلقها بروم، وروبنس على قطعتين من فك أسفل عثر عليها في ١٩٤٩ في منجم سوارنكرنس (جنوب إفريقيا)، وشكلها شبيه بشكل الفك الأسفل للإنسان القديم.

الإنسان الصين (Sinantrope) من السلاتينية سيناتيسس وتعني: صيني، ومن اليونانية أثرو بوس، وتعني (إنسان). يشهد به أحفور تمثل فيه في نفس الوقت خصائص قريبة من الإنسان الحالي تجعله ينتمي إلى الجنس البشري، وخصائص أخرى مخالفة للأول، يتميز بها نوع آخر، إن منجم شوكوتيان (في الجنوب الغربي من بكين) قد استغل بين عامي ١٩٢١ و ١٩٣٩ المذكور بيني وم. بلاك، والأب تيلاردي شاردان، وف. فيندرنارنغ. وهو ينتمي إلى نوع الإنسان المستقيم.

تكثفت: زجاج طبيعي غني بالسيلييس والأوبون، ومن المحتمل أن أصله من الكون.

توف (Tuf) : صخر بركاني مسامي خفيف وغضق طري.

ثقافة الحصى: يتقصد بهار صناعة الحصى المثقف، وهي أقدم صناعة حجرية معروفة، وتتألف بصورة أساسية على حصى أحدث فيها حد قاطع بالنزح مرة أو عدة مرات.

جاديت (Jadéite) : الومينوسيليكات طبيعي للصوديوم، مع شئ قليل من الكالسيوم والمغنيزيوم والحديد.

دوليريت: صخر من فصيلة الكابرو، معادنه يمكن رؤيتها بالعين.

دهنج (ملاشيت) (Malachite) : كربونات النحاس الأساسي الطبيعي، لونه أحمر.

دياباز: صخر من فصيلة الكابرو (صخر حبيب) والديوريت لونه أخضر في الغالب.

ديوريت: صخر متبلر.

ذو الوجهين (بيفاس): آلة من حجر منحوتة على الوجهين، شكلها شكل لوزة. وكانت تسمى (الفاش) ثم (اللكة) ويبدو أنها كانت تستعمل للقطع، وأحياناً للكشط. وبهذه الآلة يتميز العصر الحجري القديم الأسفل.

ريس: نسبة إلى جدول ماء في بافاريا. و يقدر به التجمد ما قبل الأخير الألبى في الدهر الرابع، وقد وقع في -٢٠٠٠٠ سنة. و-١٢٠٠٠ سنة.

ساوري: نسبة إلى الساورة (واد في الصحراء الجزائرية)، ويقصد به للمطار الصحراوي الرابع، و يبادل الكيلي.

سج (Obsidienne) : صخر بركاني زجاجي مرصوص يشبه الزجاج الفارط إلى السواد.

ستيلباي: نسبة إلى ستيل باي (مقاطعة الرأس)، قامت فيه صناعة حجرية غنية بالقطع الوترية الشكل ذات ثقبات على الوجهين شبيه بأوراق الرند في السلوترى الفرنسي وهو معاصر للكيلي.

سرينتين: سيليكات المغنيزيوم الموهة.

أوليكموس: الحقبة الثانية من الدهر الثالث، تتراوح من ٤٥ مليون سنة إلى ٢٥ مليون سنة.

إيبيروموروسي (Ibéromaurisien) : مظهر ثقافي من أواخر العصر الحجري القديم، ومن بعد العصر الحجري القديم بالمغرب، ويتميز هذا العهد بكثرة الأدوات الحجرية الصغيرة. وقد دام من الألفية العاشرة إلى الخامسة ق.م.

إيبيدوت: سيليكات الألومنيوم والكالسيوم والحديد الموه الطبيعي.

إيبوسين: الحقبة الأولى من الدهر الثالث، منذ ٦٥ إلى ٤٥ مليون سنة.

بازلت: صخر بركاني.

باليز ويلك: كلمة مرادفة للدهر الأول.

بشريات (Hominidés) : فصيلة حيوانية من المقدمات العليا، يشملها البشر الأحفوريون (Fossiles) والبشر الحاليون.

بليستوسين: (من اليونانية بليستوسن، وتعني كثير، وكينوس، وتعني حديث) ويقصد به الانقسام الجيولوجي الفرعي للدهر الرابع، ويشمل مظهره وأجزءه الأكبر منه. إن هذا المصطلح الذي وضعه ش. لبيال عام ١٩٣٩ يوافق أوقات التجمدات الكبرى في الدهر الرابع، ويسبق الحقبة الهولوسينية التي تبتدئ منذ ١٠٠٠٠ سنة قبل عهدنا.

بليوسين: حقبة ثالثة من الدهر الثالث. ابتدأ في -٥ ملايين وانتهى في -١٨٨ مليون سنة.

بنجديات (Pongidés) : فصيلة من القردة الشبيهة بالإنسان، وغودجها هو الآرورثوتان، وتشمل أيضا الغوريلا والجيون والشيمنزي.

تشيولي: اصطلاح وضع على اساس مركب حجري مؤرخه في تشيتولو (كاساي). ويدل على مظهر صناعي من العصر الحجري القديم اللاحق ويتميز باستمرار وجود أدوات ضخمة، ولكن أحجامها أصغر مما كانت عليه في اللوبي، و يتعدد أسنة السهم المثقف على الوجهين.

تانيسيفنتي: نسبة إلى غربي تانيسيفنت (القسم الغربي من المغرب) ويقصد به الدورة القارية المغربية الموافقة للقسم الأول من ريس.

المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا

جديد وليستوس وتعني حجر). يقصد به العصر الحجري التميز بانتعاش القوت (زراعة، رعي)، وهذه الكلمة من وضع ج. لوبوك عام ١٨٦٥م.

عصر حجري قديم (بالبوليتيك): (من اليونانية باليوس، ومعناها قديم، وليستوس، ومعناها حجر). يقصد به العصر الحجري، بدون انتعاش للقوت. وهذه الكلمة من وضع ج. لوبوك عام ١٨٦٥.

عصر حجري وسيط: (الكلمة الأجنبية ميزوليتيك أصلها ميزو، وتعني: في وسط، وليتوس، وتعني: حجارة). استعملت هذه الكلمة مدة طويلة لتدل على مجموع المظاهر الثقافية الواقعة بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الجديد. وتنسب اليوم على الأربع لمرحلة لاحقة للعصر الحجري القديم.

عقيق أحر (كورالين): كلسيدونية حرار.
كاليته (Galène): سلفور الرصاص الطبيعي.

كمبلي (Gamblien): هو المطمار الإفريقي الرابع، وقد وصف وصفا علميا بالنسبة لما حول بحيرات تاكورو، ونايفاشا، والماتيتا (الكينا). وهو معاصر للعصر الجمودي الورومي، ولكن لا يستعمل اليوم.

غونز (Günz): نسبة إلى نهر بألمانيا. ويقصد به أقدم مجعد ألبي في الدهر الرابع.

فنتسي المنخريين (Platyrrhiniens): قرد العالم الجديد، له ٣٦ سنا، وله وثيرة أنفية ثخينة.

فورسميث: نسبة إلى بلدة تقع في ولاية أوراني (جنوب إفريقيا). قامت فيها صناعة حجرية تشتمل على مكاشط وأسنة ذات وجه واحد تستعمل للتسوية، والآلات ذات وجهين، وقدموات صغيرة، وهي توافق العصر الحجري القديم الوسيط بأوروبا.

فيلافرنشي: نسبة إلى فيلافرنكا داستي (بييمون). ويقصد به التشكل الرسوبي الموافق للفترة الانتقالية بين الدهرين الثالث والرابع.

قابسي: نسبة إلى كابسا (الاسم اللاتيني لقابس في تونس الجنوبية) قامت فيه صناعة من العصر الحجري القديم الإفريقي. تولى تعريغه ج. دي مورغان. احتضنت فيه أدوات من النوع السائد في العصر الحجري القديم الأعلى، إلى جانب العديد من الأدوات الحجرية الصغيرة، والآلات الثقوب الصغيرة، الثخينة،

سفلبات المنخريين (Catarhiniens): قردة العالم القديم، لها ٣٢ سنا، ولها وثيرة أنفية رقيقة.

سنتغري: موقع ينسب إلى خليج سنغو (في بحيرة فكتور يا بأوغندا). وهو مركب للصناعات الحجرية اكتشفه وإيلاند عام ١٩٢٠، يتميز بأدوات جمعت بين آلات مصنوعة من شظايا بطريقة لوفالوا، وبين معاول ضخمة، وذوات الوجهين، وقطع مزينة بالأوراق. وقد أذهر بين الكاماسي والكبلي.

سينوزوك: مرادف للدهر الثالث والدهر الرابع. يتدعى مع الأوليوسين منذ ٦٥ مليون سنة، ويشتمل بعد ذلك على الأوليوسين (٤٠ مليون سنة)، والميوسين (٢٥ مليون سنة) والليوسين (١١ مليون سنة) والبلستوسين، والحقبة الحديثة.

شولي (Chelléen): نسبة إلى شول. يقصد به المظهر الصناعي في العصر الحجري القديم الأسفل وصفه ج. دي مورتسي. وهو التسمية القاعدية للأفريقي.

صناعة عظيمة سنبة قرنية (Ostéodontokeratique): من صناعات ما قبل التاريخ وهي قائمة على العظم. (من اليونانية أوستيون، وعلى الأسنان (من اليونانية أودوس، أودنتوس)، وعلى القرن (من اليونانية كيراس، كيرانوس)، اكتشفت في ماكسبست (جنوب إفريقيا) من طرف ر. أ. دارت.

صولوتري: نسبة إلى صولوترا (منطقة الصون واللوار بفنلسا). قامت فيها صناعة قبل التاريخ في العصر الحجري القديم الأعلى، و يتميز بصناعات رقيقة جدا من الصوان (سيليكس). ان المظهر الخارجي للأدوات المميزة له سببه الصنع بتقنيات حائلة متوازية على وجهي القطعة.

عاطري: نسبة إلى بؤالماطر بالجزائر الشرقية. يتميز بالصناعة في العصر الحجري القديم بشمال إفريقيا، بين المويستري والتابسسي. ويشتمل على أسنة الرماح، ومجرقات ذات ساق، وعلى بعض الأسنة التي لها شكل أوراق. وقد تواصل العاطري خلال قسم كبير من (وروم)، ومن المرجح أن قسا منه معاصر للعصر الحجري القديم الأعلى بأوروبا.

عصر السنجاس والحجر (Enéolithique): أصل التسمية الأجنبية من اللاتينية إنيوس، ومعناه البرونز. ومن اليونانية ليتوس، ومعناه الحجر. كلمة مرادفة للعصر المعدني الحجري (Chaleolithique)، وهي حقبة فيما قبل التاريخ بدأ الإنسان يستعمل فيها النحاس.

عصر حجري جديد (بوليتيك): (من اليونانية نيوس، وتعني

(أكله كل شيء)، من الميسين ومن المحتمل أن يكون جد البشرات. ويرجع إلى عهد ١٢ أو ١٤ مليون سنة. اكتشف في روابي سيواليك (شمال الهند)، وتوجد منه غاذج أخرى معروفة في الصين وتركيا وقوتارتان باقر يشيا أما في أوروبا، فهو معروف في فرنسا وألمانيا واليونان وإسبانيا والمجر.

قرصاني: آلة من حجر شكلها شكل القرص، مستعملة في أواخر الأشولي، ومنحوتة على الوجهين.

كاغيري (Kaguerien): نسبة إلى نهر كاغيرا (طانزانيا). ويقصد به المطار الإفريقي الأول، وقد وصفه أ. ج. ويلاند عام ١٩٣٤م. وهو معاصر لتجمد كوتز في جبال الألب. ولكنه لا يستعمل اليوم.

كافورن: نسبة إلى نهر كافو (أوغندا) ويقصد به مظهر صناعي في مطلع العصر الحجري القديم الأسفل باقر يفتيا الشرقية، ويشير بمحض مسطح منحوت تحت غشفاً وغير مصقول، ومن العلماء من ينادي في أصله البشري.

كالابري: نسبة إلى كالابري. أقدم طبقة في العصر الرابع البحري، غام بتمتع به م. جينوعام ١٩١٠م.

كاماسي (Kamasien): نسبة إلى كاماسا (كينيا). ويقصد به المطار الإفريقي الثاني، والتسمية العادية له هي الكاماسي الأول، وهو معاصر لتجمد مندل الأوري، ولكنه لا يستعمل اليوم.

كانجيرري (Kanjerien): نسبة إلى كانجيررا (كينيا) ويقصد به المطار الإفريقي الثالث، وقد وصفه ل. س. ب. لايسكي، والتسمية العادية هي الكاماسي الثاني. ويقابل في جبال الألب العصر الجمودي لر يس، ولكنه لا يستعمل اليوم.

كلاكيتوني: نسبة إلى كلاكيتون — أون — سي (بريطانيا العظمى). قامت فيه صناعة فبا قبل تاريخ من العصر الحجري القديم الأسفل. وصفها هـ. بروي في ١٩٣٢م. وهي تتميز بشظايا من الصوان لها سطح أملس وعرض يستعمل للضرب. ويدون الكلاكيتوني معاصر للأشولي.

كلست: كربونات الكلسيوم المتبلرة، ويوجد منه في الطباشير، والرخام الأبيض والمرمر الكلسي.

كلسيدونية (Calcedonie): نوع لوني من السيليس يتألف من رمل الصوان وحجر الأوباك.

لازورد (Lapis-Pazuli): صخر أزرق لازوردي يستعمل في

ولعملها كانت تستعمل لتقب القطع من قواقع بيض النعام المستخدمة لصنع العقود. ويرجع إلى حوالي ١١٠٠٠ سنة.

ما قبل السلطاني (Présoltanien): حقبية قارية مصرية توافق نهاية ريس. وهي سابقة للسلطاني (نسبة إلى دار السلطان).

ما قبل الكبري (Précambrien): يقصد به أقدم تشكيل جيولوجي، دام منذ تشكل الكرة الأرضية (يقدر ب ٤ مليارات سنة) إلى الدهر الأول (— ٥٠٠ مليون سنة).

قدوم: آلة ضخمة مصنوعة من شظية لها حد قاطع يتكون من تلاتي سطحي الشظية. وبه الآلة يتميز الأشولي الإفريقي، ولكن عثر عليه أيضاً في صناعات العصر الحجري الوسيط في بعض المناجم من جنوب فرنسا، وفي إسبانيا.

قرد البليستوسين: يقصد به قرد الجنوب الرشيقي. اكتشف في ترانسفال عام ١٩٣٦م، في قاعدة البليستوسين.

قرد الجنوب (أوسترالوبيثالك): (أصل التسمية، من الكلمة اللاتينية أوستراليس، أي الجنوبي، ومن الكلمة اليونانية بيتاكوس، أي القرد). اسم جنس أطلقه (دارت) عام ١٩٢٤م على عدد من الأحفورات في جنوب أفر يفتيا، لها خصائص القرد، وصفات قريبة من صفات البشر. ومنذ ذلك العهد وقت اكتشافات أخرى في أفر يفتيا الشرقية والجنوبية.

قرد إنسان (Pithecanthrope): يقصد به أحفور له خصائص قريضة نوصا ما من الإنسان الحالي، تضعه في جنس الإنسان، وخصائص أخرى يميزها نوع آخر. وقد اكتشف أول قرد — إنسان من طرف أ. دوبوا، في جاوة عام ١٨٨٩م وينتمي إلى نوع الإنسان المستقيم.

قرد ذبالي (Cercopitheque): أصل الكلمة الأجنبية، من اليونانية (كركوس) ومعناها: ذيل. و (بيتاكوس) ومعناها: قرد. وهو قرد أفريقي ذو ذيل طويل.

قرد شبه الإنسان (بانثروب): صنف من قرد الجنوب القوي، عثر عليه في عام ١٩٤٨م في البليو — بليستوسين في كروم راسي (ترانسفال). ويقال له أيضاً: القرد — الإنسان الزنجي، (زنجشروب)، وشبه قرد الجنوب (باروسترا لوبيتيك)، أن هذا الصنف الباشد له خصائص قريضة كثيرة، ولكن، له سمات تجعله أقرب إلى الإنسان منه إلى القرد الشبيه بالإنسان، وخاصة في ما يتعلق بانتظام أسنانه.

قردا واما: قرد راما فيكيري: ينتمي إلى المقدمات القارية

المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا

معارق: نسبة إلى المعارق (المغرب) و يقصد به التعدي البحري على الشاطئ الأطلسي من المغرب في الدهر الرابع.

معدل: نسبة إلى نهريق في بافاريا. يطلق على التجمد الثاني الألي في الدهر الرابع. ويبدو أنه يتراوح بين ٣٠٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

موسستيري: نسبة إلى موتبي (دورونيا). قامت فيه صناعة لها قبل التاريخ في العصر الحجري الوسيط، وانتشرت في القسم الثاني من البين جودي الأخير. وصفها أ. لاريت في ١٨٦٥م، وتتميز بكثرة الأسنان والمكاشط المصنوعة بتسوية الشظايا على وجه واحد منها.

مولوبي: نسبة إلى وادي المولوية بالمغرب. وهي كلمة استعملها بيرسون وتطلق على الفيلانيشي الوسيط بالغرب.

ميكوك: من مواقع ما قبل التاريخ، شمالي الإيزي بفرنسا (Eyzies) على بعد ٢٥ كلم في الشمال الغربي من سارلا، اكتشفت بهذا الموقع الصناعة الميكوكية (وهي شكل متطور جدا من الأشولي ومعاصرة لتجمد وورم).

ميسون: (من البونانية ميون، وتعني: أقل وكنوس، وتعني: حديث)، أي أنه أقل امتثالا على الأشكال الحديثة من النظام المولي له. وهو حقبية من الدهر الثالث الواقعة بين ٢٥ و ١٠ ملايين سنة قبل الميلاد.

نضيد (شيسيت): صخر رسوبي سيليكو — ألوميني، موزق يتفلق بسهولة إلى صفحات.

نيساندرتالي: نسبة إلى واد صغير من حوض دوسيل (ألمانيا)، حيث اكتشف الدكتور فوهاروت عام ١٨٥٦م، أول مثل لمجموعة خاصة من جنس الإنسان، كان يعيش بأوروبا الغربية، في البليسوسين الأعلى، ثم انقرض فجأة من غير أن يترك خلفا له.

هاروني: التعمدي البحري الرابع في الدهر الرابع على الشاطئ الأطلسي للمغرب.

هولوسين: أحدث حقبة في الدهر الرابع. بدأ منذ ١٠٠٠٠ سنة. **هيماتيت:** أكسيد الحديد الطبيعي.

وعنة (Latérite): من (لاتر، أي الآجر)، وهي تربة حمراء فاتح لونها، أو حمراء داكن لونها، غنية جدا بأكسيد الحديد والالومين، وتتشكل في المناخ الحار نتيجة للتآكل.

الفينيفساء (موزاييك)، و يسمى محرقه «الأوتريمر Autremet».

لكة القبضة: آلة من حجر على شكل لوزة، منحوتة على الوجهين، وربما كانت تستعمل للحفر والسلخ وهي التسمية القديمة للذي الوجهين (بنفاس).

لوبي: نسبة إلى لوبيا في كاماي (زراير). ويقصد به المظهر الصناعي من العصر الحجري القديم النهائي المتميز بالجمع بين أدوات ضخمة من حجر منحوت (مناول — مقصات) وبين قطع ورقية الشكل مسواة بدقة على الوجهين. ويرجع إلى حوالي ٧٠٠٠ سنة قبل عصرنا.

لوفالوا (تقي): نسبة إلى لوفالوا — بيرري، (مرتفعات السين بفرنسا). ويقصد بهذه الكلمة طريقة في تقطيع الحجارة تسمح، بعد إعداد البقايا الحجرية بالحصول على شظايا كبرى لها شكل معين.

لوفالواسي: مظهر صناعي، تولى وصفه هـ. بروي في ١٩٣١، ويتميز بوجود شظايا غير مسواة عادة أو مسواة قليلا، ومستخرجة من بقايا حجرية من نوع لوفالوا. ولا يعتبر اليوم مظهرا حقيقيا.

ليديانتي: شيت متصلب.

مازييري: المطار الصحراوي الأول، و يعادل الكاغيري.

ماعدوسي: نسبة إلى مافوسا (أوغندا). قامت فيه صناعة حجرية اكتشفها ويلاند في ١٩٢٦م، وتقع بين الكبلي والمالكالي، وقد جمعت بين أدوات ذات مظهر موسستيري، كالبقايا الحجرية والأقراص والأسنة، وبين قطع ورقية الشكل مسواة على الوجهين، وأحجار صغيرة هندسية الشكل.

ماكالي: نسبة إلى ماكالا (كينيا). ويقصد به المرحلة الوطية من الدهر الرابع بالتقسيم الجنوبي من إفريقيا، وهي مرحلة معاصرة لما بعد العصر الجسودي الأول في أوروبا لا يستعمل اليوم.

ماكوي: طور تاريخي رطب عرف بواسطة الترسبات الموجودة فوق سطح أدنى من سطح بحيرة ناكورو (كينيا) ١٠٢ م. وقد اكتشفت في هذه الطبقات صناعات مرتبطة من حيث المظهر بالعصر الحجري الجديد الذي قد يرجع عهده إلى حوالي ٣٠٠٠ سنة.

مرو (Quartzite): صخر صلب يتألف أساسا من الصوان.

وورم: نسبة إلى بحيرة وإلى جدول ماء في بافاريا، ويقصد به أحدث التجمعات الأليية في الدهر الرابع. وهذا التجمد بدأ منذ ٧٥٠٠٠ سنة وانتهى قبل الميلاد بحوالي ١٠٠٠٠ سنة.

يشب (Jaspe) : كلسيدونية غير صافية ملبونة على شكل أشرطة أو بقع، وغالبا ما يكون اللون أحمر.

ولطوفي: نسبة إلى موقع ولطون (الرأس الغربي). يتميز بصناعة حجرية مؤرخة بحوالي ١٥٠٠٠ سنة، تشتمل على عككات على شكل سفود، وأحجار صغيرة على شكل قطع من دائرة، وعلى شكل مربع منحرف، وكذلك على مثاقب وقطع ذات حواف مسننة. ويعتبر مظهرها متأخرا امتد إلى أن بدأ الإنسان يستعمل الحديد.

الفصل الثامن عشر

البشرىات الأحفورية الافرىقية

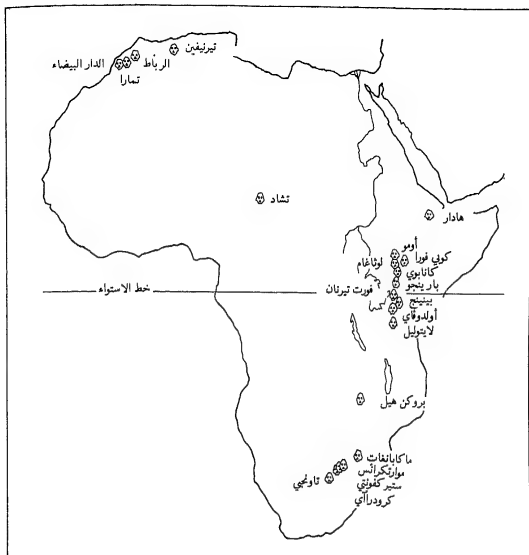
بقلم: ر. لاىكى

افرىقىا مهد الإنسانية

كان شارل داروين أول عالم أبدى نظرية عصرية تتعلق بتطور الإنسان وأصله، وكان أول من اعتبر أن افرىقىا مهده الأصلي. ولقد بينت الأبحاث التى أجريت خلال القرن المنصرم كم كان على صواب، لأن كشييرا من المظاهر الخاصة بعمله الرائد قد تأكدت، ولذلك لا يمكن أن نتصور التطور مجرد فرضية نظرية.

إن الشواهد على تطور الإنسان بافرىقىا مازالت غير مكتملة، إلا أننا نرى أن عددا كبيرا من الأحفورات قد تمت دراستها وتم تأويلها في القرن الاخير، اذ توجد أسباب راجحة تفيد أن افرىقىا هي القارة التى ظهر بها البشر لأول مرة، حيث اكتسبوا الممشي على الرجلين والإستقامة العمودية اللذين يمشلان عنصرتين قاطعتين تمام تكيفه. ويجدربنا أن نبحت متى، وبأية طريقة استطاع الإنسان تحقيق ذلك التكيف. لقد كان التطور طويلا. على أن مراحل عديدة من تطور الإنسان لا تستند الى أية حجة من النماذج الأحفورية، لأن المحافظة على تلك الأحفورات مرتبطة فعلا باحوال خاصة للغاية.

إن الأحفورية تحتاج الى أحوال جيولوجية يكون فيها الترسيب سريعا ويسمح التركيب الكيمىائي للترربة، وكذلك مياه التصفية بتعويض العناصر العضوية بالعناصر المعدنية. إن الأحفورات المتشكلة على هذه الطريقة تظل غفية في الأعماق تحت الرواسب المتراكمة ولا يمكن للإنسان العصري أن يكتشفها اذا لم تتدخل الطبيعة ببعض الوقائع مثل الإحتراف، أو الحركات التى تحدث في بنية الأرض. وأمثال هذه المواطن نادرة ومبعثرة. فان كتب لنا أن نكتشف كل سنة مواطن جديدة فسيمتنع جزء كبير من افرىقىا امتناعا باتا من توفير شواهد أحفورية على ظهور الإنسان.



● عدد من أهم مواقع ظهور الكائنات البشرية.

وهنا أن نذكر الأسباب التي جعلت بعض أجزاء إفريقيا ثرية جداً فيما يتعلق بشواهد ما قبل التاريخ، وأولها تنوع السكن بأفريقيا فالقارة شاسعة من جهتي خط الاستواء وتمتد حتى المناطق المعتدلة شمالاً وجنوباً. وهذه الحال تتسبب في تنوع المناخات. أضف إلى ذلك الأراضي العالية في المنطقة الاستوائية تدخل بعداً آخر. ويرتفع هذا الحجاز الداخلي من الحاشية الساحلية و يتمثل في الأنجاد بل في جبال وقم يحتفظ البعض منها بالثلوج الدائمة رغم حرارة المناخ وجفافه. وتتوافر بالمرتفعات بيئات مختلفة تزداد برودة مع الإرتفاع. ولقد كانت تلك العوامل دائماً موجودة بأفريقيا. فإذا حدث أن وقعت تغيرات مناخية فعلاً، فالذي لا شك فيه أن إفريقيا وفرت دائماً للإنسان مسكناً لائقاً، وكلما أصبحت منطقة خاصة شديدة الحرارة أو البرد، أمكن دائماً التحول تحولاً جوهرياً نحو محيط ملائم أكثر.

لقد أبدى بعضهم فرضية تفيد وجود علاقة ارتباط بين الحقبات الجيودمية بنصف الأرض الشمالي، وبين الحقبات الرطبة بأفريقيا، باعتبار أننا نلاحظ فعلاً أن التحولات الهامة الطارئة على مستوى البحيرات، توافق التحولات الطارئة على نسبة نزول المطر. ولقد درست هذه القضية بتوسع في السنوات الأخيرة. فإذا استطاع تقدم جوهري أن يؤثر عموماً على الأحوال الجوية فذلك لا يقيم دليلاً قاطعاً على وجود علاقة ارتباط (١). إلا أن تراكم الرواسب بأحواض بحيرات إفريقيا مدة البليستوسين يؤكد الفكرة التي تفيد أن الأمطار كانت أغزر في تلك الحقبة.

إن حجم الترسيب كان كبيراً جداً، لقد كانت بحيرات عديدة من البليستوسين الإفريقي صغيرة وقليلة العمق، ويحتمل أنها كانت فصلية يطرأ على مستواها اضطراب سنوي، يعكس طبيعة المناخ المداري نفسه، مع نزول الأمطار قوية في بعض الأشهر فحسب. لقد كانت تلك البحيرات أحواضاً مثالية تتجمع فيها الرواسب التي تنزل سنوياً على شواطئها وحول مصبات الأنهار، وتطفو على حافاتها عند ارتفاع المياه. وكثيراً ما تدفن الحيوانات الميتة قرب شواطئ البحيرة بالرمال أو الأوحال المتجمعة مدة الفيضان. إن هذه الطريقة قد دامت ملايين السنوات، وعثر على آثار حيوانية بمستويات مختلفة، في مجموعات ترسيبية يتجاوز سمكها الكامل ٥٠٠ متر.

وجفت أحواض وتكونت أخرى إثر ردم البحيرات وتحولات نظام الأمطار، ولا شك أن عملية التآحفر (Fossilisation) كانت طويلة، لأن البليستوسين يغطي أكثر من ثلاثة ملايين سنة فانطمرت مدة تلك الفترة كلها، بقايا الحيوانات في ترسبات صالحة للمحافظة عليها.

إن العثور على تلك الآثار يعتبر طبعاً مشكلاً هاماً بالنسبة للإحاثيين، غير أن بعض العناصر قد ذلت العقبات، في إفريقيا ولا سيما بأفريقيا الشرقية. فلقد حدثت بأفريقيا الشرقية طيلة البليستوسين، وخاصة في نهايته، تحركات بنيوية مرتبطة بكسر أصاب القشرة الأرضية يسمى الرفع (وادي الرفع)، فتسببت هذه التحركات في صدوع جيولوجية، بأماكن عديدة ونتج عنها نهوض كتل من الرواسب. وأبرز الإجتزاف المولي طبقات كانت قد تشكلت بها الأحفورات. وقد تركز البحث عن الأحفورات عادة بالأحواض القديمة حيث تكسرت التشكلات الرسوبية، وظهرت في شكل أراض جافة تسود فيها الوهاد.

على أنه توجد امكانيات أخرى، كما يشهد بذلك العدد الكبير من البقايا البشرية بمنجوب إفريقيا. لقد جمعت تلك الأحفورات بكهوف كلسية حيث طمرت العظام المترامية عند امتلاء الكهف وسقوط سقفها. ولقد نقلت العظام إلى الكهف، بفعل عوامل كثيرة منها، حسب الاحتمال، الحيوانات آكلة الجيف أو النهاية مثل الفهود والضباع، وتوجد بعض العلامات على احتلال تلك الكهوف من طرف البشر، وبالتالي يمكن أن تعزى إليهم بقايا العظام التي وجدت متحجرة. فالمشكل الخاص بهذا النوع من المواقع هو انعدام معيار عملي في علم طبقات الأرض، فيعسر ضبط العمر النسبي للأحفورات المكتشفة.

ولم تتحقق الشروط الضرورية لتأخير الآثار الحيوانية في مناطق كثيرة بإفريقيا في البليستوسين. واعتبارا لذلك، فإن انعدام الآثار لا يعني أن الإنسان لم يكن موجودا في تلك المناطق، إذ أن أبحاثا جديدة كافية بأن تكشف مواقع جديدة.

إن الأدوات الحجرية أكثر وفرة من الأحفورات العظمية. فهي تظل محفوظة في غالب الأحيان، حتى وإن لم تطمر في الحين تحت البراسب. ولقد جمع الأثريون عددا كبيرا من المعطيات عن التكنولوجيا البدائية التي تساهم كثيرا في معارفنا عن ظهور الإنسان.

إن الإنسان، وبالأحرى الجنس الإنساني، يعتبر بلا شك الحيوان الوحيد القادر على صنع أدوات من حجر. إلا أن آراء الاختصاصيين تختلف، في هذا الميدان وغيره من ميادين البحث المتعلقة بمستقبل الإنسان.

فدراسة أصل الإنسان تعتمد اعتمادا كبيرا على منهج تداخل العلوم بحيث لا يقتصر على دراسة العظام المتأخرة والمعالم الأثرية، بل تشارك في ذلك مشاركة فعالة كل من الجيولوجيا والبيولوجيا، وعلم الإحاثة، والجغرافيا الطبيعية، والجغرافيا الكيميائية. لقد أصبح علم الآثار ذا أهمية كبيرة عندما شرعت البشريات في استعمال الأدوات. إن دراسة المقدمات الحية بما في ذلك الإنسان، كثيرا ما كانت مفيدة لنذكر أحسن إدراك ما قبل تاريخ معمرتنا.

إن أحفورات فصيلة الإنسان، أي البشريات، تظهر متميزة ومنفصلة عن القرود الكبرى الحالية، أي «البنجديات»، منذ ما يزيد على ١٤ مليون سنة. إن أقدم الشواهد في هذا المجال غير مكتملة ويوجد في معارفنا عن تطور الإنسان نقص يتعلق بالفترة المتراوحة من ١٤ مليون سنة إلى ما يتجاوز قليلا ٣ ملايين سنة. فيبدو أن التميز قد وقع في تلك الفترة لأننا نعرف أشكالا عديدة من البشريات الأحفورية ابتداء من ٥٠٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

وكثيرا ما كانت الشواهد الأحفورية المتعلقة بالمجموعات الأخرى غير الإنسانية، معروفة أحسن معرفة إذ توفرت لنا عنها أدوات أكثر اكتمالا. وتعتبر تلك الآثار مهمة وتسمح بالسعي إلى إعادة تشكيل البيئة البدائية الخاصة بالبشريات في المراحل الأولى من تطورها. ولنا معطيات عن حقبات زمنية عديدة مهمة، طرأت فيها على أجناس حيوانية عديدة، تغيرات سريعة جدا كانت جوابا على ضغوط البيئة.

ولقد تبين أيضا أن الإنسان قد مر بمراحل متنوعة قبل أن يصبح ذا رجلين، وإذا فكر متطور جدا كما هي الحال اليوم. ولقد عاشت في بعض الفترات، أنواع عديدة من البشر وكان كل نوع يتكيف تكيفا خاصا. فالتغيرات الطارئة انطلاقا من الشكل القروي للبشريات في الميوسين تمثل نوعا من

التخصص أو التكيف تستوجب منا توضيحها. وبالرغم من أن المعطيات المتوفرة لدينا لا تزال ناقصة، فإننا نعرف بعض التفاصيل عن ذلك التطور المعقد. وسندرسه انطلاقاً من الأحفورات الحديثة جداً لنصل إلى أكثرها قدماً.

الإنسان الحالي والإنسان العارف

إن التعريف الكلاسيكي للإنسان، لا يرضي كل الرضى فهو يعرف به (الكائن الإنساني والجنس الإنساني، والكهل الذكر، والفرد من الجنس الذكر). ومن مشاكل هذا التعريف أن الإنسان المعصري يعتبر فيها يبدو النوع المعروف الأكثر تنوعاً، نظراً لكثرة الاختلافات الجسدية أو السلوكية بين سكان العالم، وهي تنوعات يجب أخذها بعين الاعتبار. ومهما كانت الاختلافات الظاهرة فإن الإنسان يشكل اليوم نوعاً واحداً ويشارك الناس في نفس الأصل وفي نفس التاريخ طيلة تطوره الأول. ويحتمل أن النوع قد أظهر في بعض الالقيات الأخيرة تنوعات سطحية، ويرجى أن تساهم هذه الفكرة في طمأنة الإنسان على وحدة ذاتية وغايته، وأن تجعل الناس أكثر اقتناعاً بوحدهم الطبيعية والمصيرية.

إن الإنسان الحالي الذي ينتمي انتماء كلياً إلى الإنسان العارف (*Homo sapiens*) يستطيع أن يعيش في مساكن متنوعة جداً. ولقد تسر ذلك بفضل نمو التقنيات. إن الحياة بالنمط المكتظة بالسكان، تقابل حياة البدو الرحل رعاة الجمال بالصحرى، وهما تقابلان بدورهما حياة الصيادين الذين يعيشون في أعماق الغابة الكثيفة بأفريقيا الغربية. ويستطيع الإنسان أن يعيش فترات طويلة تحت البحر، في الغواصات، وأن يعيش في مدار فلكي على متن أقمار فضائية. وفي كل هذه الأحوال يكون التكيف بالاعتماد على التكنولوجيا. فالإنسان الحالي مزود بمنهج كبير ومعقد، ويبدى متحررين من أداء وظيفتها القديمة في المشي، وأصبحتا متفريغتين تماماً لمعالجة الأمور، كما أنه أصبح قادراً على الوقوف مستقيماً على رجله. إن هذه الشروط الفيزيولوجية الأساسية قد توفرت للإنسان عبر العصور. وبذلك توفرت لنا الآثار الدالة على نشاطه. ولهذا تعتبر درجة تطور المخ، والقدرة على معالجة الأمور بالبدن، والمشى على الرجلين، من أحسن ما يمكن الرجوع إليه لضبط تاريخ النوع البشري عبر الزمان.

تشهد اكتشافات هامة بأفريقيا على ظهور الإنسان العارف البدائي منذ أكثر من ١٠٠٠٠٠ سنة. وكل شيء يشير إلى أن وجود النوع البشري بأفريقيا لا يقل قدماً عما هو عليه بغيرها من القارات. وبفضل أبحاث حديثة، تم تحديد أقدم أثر عثر عليه في إفريقيا، ويرجع إلى أكثر من ٢٠٠٠٠٠ سنة.

وفي ١٩٦١م اكتشفت جمجمة وبعض البقايا العظمية في بروكن هيل ببلاد زامبيا، ولما كان هذا القطر يسمى سابقاً روديسيا الشمالية عرف هذا الفؤج باسم إنسان روديسيا أو الإنسان العارف الروديسي. والتاريخ المقترح لها ٣٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ولشأن أن هذا الفؤج ينتمي إلى نوعنا البشري، ويبدو أن عمره الواقعي أقدم من التاريخ المقترح، وأن ظل مشكلة قائمة. فهو

يشابه مشابهة قريبة نموذج نياندرتال بأوروبا ويعتبر فعلا مثالا إفريقيا من ذلك النوع، ولقد عثر على آثار أخرى أكثر قدما تدل على وجود الإنسان العارف بإفريقيا الشرقية.

في ١٩٣٢م عثر الدكتور ل. س. ب. لايبكي بموقع كنجيرا، في غرب الكينيا، على قطع من دماغين. ولقد كانت تلك الأحفورات مرتبطة بجوانات من آخر البليستوسين الأوسط، مما يفيد عمرا يقارب ٢٠٠٠٠٠ سنة. ولم يقع إلى الآن ضبط تاريخ الموقع وذلك ما يؤسف له، إذ يبدو أن الدماغيين وقطعة من عظم الفخذ هي نماذج من الإنسان العارف، ويمكن أن تمثل أقدم الشواهد عن النوع المعروف حاليا بإفريقيا.

وفي ١٩٦٦م عثر على قطع من شخصين بموقع في وادي أومو بالجنوب الغربي من أثيوبيا وهي تتكون من قطع دماغية ومن أجزاء الهيكل ما وراء الدماغ ومن قبة دماغ آخر. ولقد أتت تلك الأحفورات من طبقات أقترح لها تاريخ يعود تقريبا إلى ما قبل ١٠٠٠٠٠ سنة. ويحتمل أن يكون وادي أومو قد عرف بأحفوراته الأكثر قدما. إلا أنه يوجد عدد كبير من الرواسب الحديثة التي تسمح بتوفير معلومات ثرية عن الإنسان العارف الأول بإفريقيا. ويضاف إلى ذلك، أن بعضهم أشار في نفس المنطقة إلى مواقع وفرت الفخار العتيق، وذلك من شأنه أن يقدم إضاحات عن استعمالات الفخار في أقدم العصور.

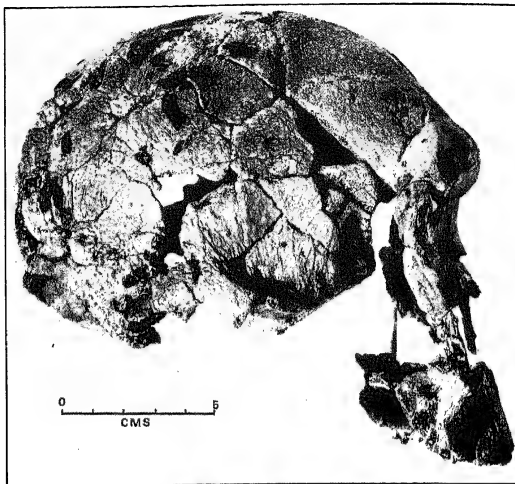
وهكذا يبدو من المقول أن نفترض بأن النوع البشري انتشر انتشارا واسعا بإفريقيا وغيرها من مناطق المعمورة، وإن كان الإنسان العارف البدائي مثلا تمثيلا ضعيفا من خلال الأحفورات.

ما قبل الإنسان العارف

يميل بعضهم دائما إلى ربط الأنواع الأحفورية بالأنواع العصرية، على أن الأمر يستوجب أن يدرك ذلك في نطاق علاقات عامة جدا. ونحن نقترح هنا أن نعتبر أصل الإنسان العارف حسب سلالة يمكن أن تعود إلى ملايين عديدة من السنوات. فقد وجدت احتمالا في عهود مختلفة نماذج عديدة تتميز مرفولوجيا ضمن السلالة مما يجعل التركيب الوراثي للإنسان المعاصر، يعكس جزئيا تلك الوراثة المركبة.

إن تحديد الأنواع الأحفورية صعبة، وكثيرا ما تحدث التباسات ناتجة عن الرغبة في وضع عنوان جديد على كل نموذج مكتشف. والعادة تفرض تصنيف النماذج المشابهة في نفس النوع. فالاختلافات الطفيفة يعتمد عليها للتمييز داخل النوع الواحد. أما الاختلافات الكبرى، فإنها تصلح لتعريف الجنس. إن الأنواع الحيوانية الحية لا يعسر تصنيفها، ولقد وضع لها العالم الكبير لينى نظاما ممتازا لتصنيفها. فالمشكل الذي يعترض الإحاثيين يتلخص في اعتبار تطور نوع خاص زمنا مع اعتبار ما طرأ عليه من التحولات السريعة. وفي هذه الأحوال، تستعمل عبارة (النوع المرفولوجي) لوصف الأحفورات التي لها خصائص طبيعية متشابهة. وينبغي أن نفهم أن الخلاف في شأن أصل الإنسان يرجع غالبا إلى آراء مختلفة فيما يخص استعمال المصطلحات الخاصة بالموضوع.

لقد سمحت أحفورات الملايين الثلاثة الأخيرة من السنوات بأن يعرف على الأقل جنسان وأنواع عديدة من البشر، وذلك من شأنه أن يساعد على أن نفهم أحسن أصل النوع البشري.



- (١) جمجمة الانسان الماهر. منظر جانبي، كوفي فورا، كينيا (تصوير متحف كينيا الوطني).
- (٢) جمجمة الانسان المنتصب، منظر جانبي، كوفي فورا، (تصوير متحف كينيا الوطني).



وما انفك الناس يعتبرون اليوم أن التطور قد وقع حسب نسق موحد. إلا أنه يبدو أن السكان المحليين من نوع معين، كانت لهم ردود فعل مختلفة لعوامل الانتقاء. ولعله من الممكن أن توجد أشكال «بدائية» معاصرة لأشكال متقدمة أو «تقدمية»، وإن تحديد الخصائص (البداية) عند نوع ثابت الوجود على عهد طويل أقل صعوبة مما لو كانت العينة ضيقة، لأنه يمكن تحديد الاتجاهات والتكيفات التي تساعد في تفسير عملية البقاء وذلك بالاعتماد على تغيرات متدرجة.

إن الباقى من الأحفورات الإنسانية بافر يقيا يكشف لدى التحليل عن مجموعتين أساسيتين ونحن نقترح أن نعتبرهما سلاتين تطوريتين، يمثل الأولى منها جنس الإنسان الذي لا يزال باقيا إلى يومنا هذا، أما الأخرى التي يمثلها جنس قرد الجنوب فانها فيا يبدو قد اضمحلت منذ مليون سنة. ومن الممكن أيضا أن ننظر إلى الأشكال البدائية التي عثر عليها في الترسبات، حيث لا توجد الأشكال المتطورة، وإن كانت موجودة في طبقات أكثر قدما. فهناك ما يدعو إلى اعتبار هذا الأمر نوعا من التقهقر. على أنه من المحتمل أن استمرار أحد الأنواع المتطورة غير ثابت لدينا لا لشيء سوى لأنه كان يعيش في مناطق لم تساعد على تأخفه.

إن الضرورة في هذا الفصل، تدعونا إلى أن نقترح اعتبار البشرات السابقة للإنسان العارف حسب سلاتين. وليس من السهل وصف الشكل السلفي المشترك للفرعين، لأن الشواهد الأحفورية مجزأة. فلقد عثر على أقدم البشرات الإفريقية في فورترنان بالكينيا، حيث وجدت قطع عديدة من الشدق الأعلى، وقطعة من فك، وبعض الأسنان، ولقد ضبط تاريخ الموقع بـ ١٤ مليون سنة. إن أحفورات تين إن تميز البشرات عن البنجديات قد تحقق في ذلك العهد. وهكذا صغر الناب، وتلك ميزة تخص بها البشرات، وتواصل صغره انطلاقا من خصائص قردية مميزة.

إن الشواهد الأحفورية الموفرة بين ١٤ و ٣٥ مليون سنة ناقصة جدا. ولدينا أربعة نماذج فقط يمكن أن تربط بتلك الفترة. وهي كلها من الكينيا وتتكون من قطعة من فك معطوب كثيرا وأصلها من كانام، وجدها الدكتور ل. س. ب. لاكي سنة ١٩٣٢م، ومن قطعة من فك مع تاج سنّي من لوشاغام، وضرر بمفرده من نكورورا. ولقد أتت النماذج الثلاثة الأولى من ترسبات أرخت بـ ٤ إلى ٥ ملايين سنة، ويعتبر أن الضرر المنفرد أصله من ترسبات تاريخها ٩ ملايين سنة، ولا يعتبر أي نموذج منها مفيدا لأنها مجزأة، ولقد نسبت قطعة لوشاغام إلى قرد الجنوب إلا أن حالة معارفنا الحالية تجعل من هذا الأمر موضوع جدال بين الأنثروبولوجيين.

ولقد أصبحت المعطيات عن تطور البشرات بافر يقيا أوفر فيا يتعلق ببداية البليستوسين أي حوالي ٤ ٠٠٠ ٠٠٠ سنة، حتى ظهور الإنسان العارف. وأجريت سنة ١٩٧٣م أبحاث في موطنين جديدين وفرا عددا كبيرا من الأحفورات المستخرجة من طبقات أرخت بـ ٣ إلى ٤ ملايين سنة. ويعتبر موقعا لا توليل (Léotolil) في طانزانيا، وهدر بأثيوبيا على غاية من الأهمية بالنسبة لظهور الإنسان العارف، مما يبرر الوقوف عندهما قليلا.

توجد لا توليل على بعد ٥٠ كلم تقريبا من فح أولدواي المشهور على منحدرات جبال لاماكروت التي تشرف على الطرف الغربي من بحيرة إياسي ويعود تاريخ هذا الموقع إلى ٣٥ ملايين سنة تقريبا، وهو تاريخ على غاية من القيمة باعتباره اقترح أن تنسب نماذج مكتشفة لا توليل إلى النوع الإنساني، ويتعلق الأمر بأشداق، وأسنان وقطعة من عضد.

أما مواطن هدر، الموجودة بمنخفض العفر باثيوبيا، فهي معاصرة لما سبق أو أحدث منها قليلا. فلقد اكتشفت أجهزة أثرية منذ ١٩٧٣م منها أمثلة مفيدة من هيكل الدماغ وما وراء الدماغ ويمكن تمييز ثلاثة نماذج يحتمل أن تنسب إلى الإنسان الماهر وإلى القرد الرشيق والقرد الجنوبي القوي. وهكذا نلاحظ أن هذه الفترة الأولى تكاد تكون خالية من كل ما يشير إلى أصول الإنسان أو القرد الجنوبي. وبخلاف ذلك، تعتبر الفترة بين ٣ ملايين ومليون سنة أثرية نسبيا فيما يتعلق بالشواهد الأحفورية.

إن العينة المهمة نسبيا المتكونة من النماذج المتوفرة لدينا والمكتشفة في مواقع تؤرخ بـ ٣ ملايين سنة أو أقل تبين أنه كان يوجد مجموعتان متميزتان من البشرىات البدائية التي كانت تقيم أحيانا بنفس المنطقة. إن ذلك الشككين: شكل الإنسان، وشكل القرد الجنوبي، من المحتمل أنها كانا يعيشان في أماكن مختلفة، وإن حدث لمواطنها أن تتداخل، فإن التنافس على الغذاء لم يكن فيما يبدو قويا حتى يقضي أحد الشككين على الآخر. وما زلنا في حاجة إلى معلومات كثيرة عن تكيف كل نوع من البشرىات، أما حاليا فإن تعايش الجنسنيين طيلة مدة تتجاوز ١٠ مليون سنة، يعتبر أمرا ثابتا، كما ثبت بأن كل واحد منها له طابعه الخاص.

فهل كان القرد الجنوبي سلف الإنسان؟ إن لهذا السؤال غالبا جوابا إيجابيا. إلا أن المعطيات الجديدة المتوفرة، تجعلنا نتيقن أن الأمر لم يكن كذلك. يميل بعض الاختصاصيين، وفيهم المؤلف، إلى أنه كان للشككين سلف مشترك يختلف عن كل واحد منهما. ولا بد، لاثبات هذه الفرضية، أن ندرس الجنسنيين باعتبار (تكيفهما الخاص) وأن ننظر إلى معدل التحول إذا وجد، في كل مجموعة. وسعيا وراء ذلك، ينبغي أن نحدد بوضوح الخصائص التي يتميز بها كل منها، والتي تبين أنها قارة عبر الزمن.

ولنلاحظ أخيرا أن بعض الباحثين يجمعون كل هذه الأحفورات في جنس واحد يتميز بتحول كبير بين وراثي، وازدواج شكلي جنسي بارز.

الجنس الإنساني (ما قبل العارف)

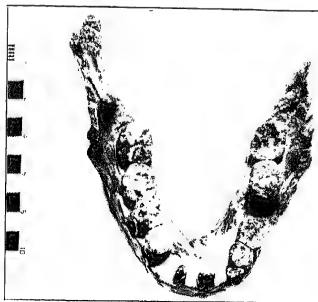
الإنسان المستقيم

إن شكل ما قبل العارف، المشهور بالإنسان، هو ما نسب إلى نوع مرفولوجي منتشر انتشارا واسعا وكثير التنوع وهو الإنسان المستقيم. فلقد عرف هذا النوع أولا بالشرق الأقصى وبالعين، وحديشا، وجد نفس الشكل بأفريقيا الشمالية وأفريقيا الشرقية وربما في جنوب أفريقيا ولم يضببط تأريخ النماذج الأسيوية ضبطا مطلقا. إلا أن تاريخنا ينطبق على بعضها أصبح معروفا وهو يوحى بأن الإنسان المستقيم ظهر بمواقع يقدر قدمها بـ ١٥ إلى ١٠ مليون سنة. أما تاريخ مواقع أفريقيا الشمالية وجنوب أفريقيا المرتبطة بالإنسان المستقيم فيعتمد أيضا على قواعد تؤرخ «بالبلستوسين الوسيط».

إن البقايا بأفريقيا الشرقية أصلها من مواقع تحققت فيها تأريخات فيزيائية كيميائية. ويؤرخ النموذج الأكثر قدما المنسوب إلى الإنسان المستقيم بما قدره ١٦ مليون سنة. إن هذا التاريخ المتأخر



- (٣) جمجمة انسان الغابات البدائي
الجنوبي (أوسترالوبيثيكوس بويزي)،
منظر جانبي، خائق أولدوفاي، تانزانيا
(تصوير متحف كينيا الوطني).
● (٤) فك انسان الغابات البدائي
الجنوبي (أوسترالوبيثيكوس بويزي)،
منظر أمامي، كوبي فوراء، كينيا
(تصوير متحف كينيا الوطني).



حداً قد يشهد بأصل إفريقي للإنسان المستقيم. ويوجد من الباحثين من هو مستعد لقبول الفكرة التي تفيد بأن كل الشواهد عن هؤلاء البشر، والمكتشفة خارج إفريقيا، أصلها سكان هاجروا من أفريقيا في بداية البليستوسين. إلا أنه توجد بعض التواريخ الجديدة الأكثر تقدماً تتعلق بأناس مستقيمين كانوا يعيشون في أفريقيا.

إننا نفترض إلى حد الآن إلى أجهزة وافرة تسمح بدراسات شاملة وتركيبية. ولكن المعطيات كافية لتبين أن ذلك النوع كان منتشراً انتشاراً كبيراً بإفريقيا وأنه كان موجوداً أيضاً بآسيا وأوروبا. إن ما تبقي من الأعضاء يشهد بالوقوف المستقيم، والتكيف للمشبي، والتخصص برجلين تشابهان رجلي الإنسان المعاصر. أما درجة الذكاء، فهي قابلة للتقدير إجمالاً وذلك بتقدير حجم الجمجمة، وتختلف تلك السعة من ٧٥٠ سنتيمتر مكعب إلى ١٠٠٠ سنتيمتر مكعب بالنسبة للإنسان المستقيم، حيث يتجاوز معدل الإنسان العارف ١٤٠٠ سنتيمتر مكعب.

ويستندل على تكنولوجيتها بمشاهدة آثارها. فالإنسان المستقيم كان يصنع ويستعمل أدوات حجرية وكان يعيش من الصيد وجمع الثمار في السباسب بإفريقيا. ويجمع الاختصاصيون على ربط السلاح ذي الوجهين المميز للصناعة الأشولية بالإنسان المستقيم. إن هذا النوع من الأجهزة الحجرية المميزة متوفرة في مواقع توجد بإفريقيا وأوروبا، وبصفة أقل بآسيا، وليس من المؤكد أن يكون الإنسان المستقيم هو المرحلة النهائية من التطور الذي آل به إلى الإنسان العارف، ويستحسن أن تظل القضية معلقة في انتظار معلومات إضافية فيما يخص هذا النوع.

وقبل أن نترك الإنسان المستقيم سندرس بسرعة خصائصه. تظهر المميزات الأكثر اختصاصاً به في الدماغ: قوسا الحاجبين كشيخان وناثان والجبين منخفض، والقذال متشكل ويمكن أن تميز أسنانه، لكن من الممكن أن تكون لأنواع مختلفة من سلالة الإنسان مرفولوجية أسنانية مشابهة جداً. ومرفولوجية الفك أقل تميزاً مما يعتقد عامة. ومن الممكن أن يتكون نوع مختلف ضمن الجنس نفسه من بعض النماذج المزعومة من الإنسان المستقيم التي ليس لنا من شواهد عليها سوى بعض الفكوك والأسنان.

الجنس الإنساني (ما قبل العارف)

الإنسان الماهر

إن البقايا التي تنسب إلى سلالة الإنسان، التي تعتبر أقدم من الإنسان المستقيم تقتصر حالياً على إفريقيا الشرقية فحسب. ويمكن أن نعتبر أن أقدم الأشكال، أشكال لا توليل وهدر التي تنتظر أن تدرس دراسة عميقة. ومن المحتمل أن تكون تلك الأحفورات أشكالاً سلفية لأنواع أحدث منها. إن تلك الأنواع المتوسطة، على فرض أن هذا هو الواقع، يمكن أن تسمى الإنسان الماهر ويعتمد تعريف هذا النوع على نماذج اكتشفت في أولدواي، وأخيراً في كوبي فوراً على الشاطئ الشرقي من بحيرة تروكانا.

ومن خصائص الإنسان الماهر الأساسية تطور دماغه تطوراً كبيراً نسبياً (السعة الدماغية يمكن أن تتجاوز ٧٥٠ سنتيمتر مكعب) وعظام دماغه رقيقة نسبياً، وقبة دماغه متطورة إلى حد ما وانقباضاً ما

بعد مجري صغير. أما الثنايا فهي عريضة جدا والأنياب وما قبل الأنياب مصغرة، وتظهر بالفك غدة اسطوانية خارجية. وتقترب عناصر هيكل ما وراء الدماغ من مفولوجيا من عناصر الإنسان العصري.

إن الأمثلة الأكثر اكتمالا عن الإنسان الماهر آتية من كوبي فورا حيث اكتشفت أدمغة عديدة وفكوك وعظام طويلة. ويسمى الدماغ الذي أحسن المحافظة عليه ك.ن.م.أ. ر ١٤٧٠ (الشكل ٢).

جنس قرد الجنوب

مازلنا بعيدين عن حل مشكل تحديد أنواع محتملة من جنس قرد الجنوب. إلا أنني اعتقد أن لدينا عناصر ثابتة كافية في تشكل كوبي فورا للتمييز بين نوعين، فأوضحهما هو قرد الجنوب الخشب، وهو شديد الاختصاص، وله فكك قويان جدا، وأضراس أمامية، وأضراس كبيرة مقارنة بالثنايا والأنياب، وسعة دماغية دون ٥٥٠ سنتيمتر مكعب. ويظهر الازدواج الشكلي الجنسي من خلال أوصاف خارجية للدماغ مثل العرف السهمي والقفوي النامي عند الذكر (الشكل ٤). وإن ما نعرفه من هيكل ما وراء الدماغ يعتبر أيضا مميزا، وذلك فيما يتعلق بعظم الفخذ والناق والكعب.

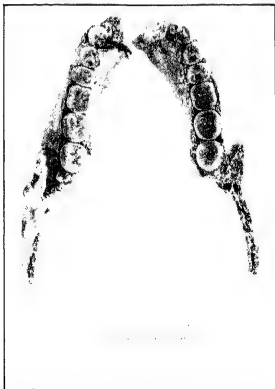
وقد انتشر هذا النوع في مساحة واسعة جدا وهو معروف في مواقع أخرى وهي: شسونغا بيننج وأولدواي، بالجزء الجنوبي من الرفت فالي بالشرق الإفريقي. وليس من المحقق رغم ذلك أن يكون القرد الجنوبي الخشب نوعا حقيقيا، ويمكن أن نعده مظهرا جهويا من الشكل الجنوبي الإفريقي وهو القرد الجنوبي القوي. فلا يعيننا في حل تلك المشاكل إلا إكتشافات جديدة، تبدو دائما في مستوى تنظيم دقيق جدا في علم أحاث الفقريات. ولذلك يبدو من المستحسن حاليا أن نقر وجود نوعين قوين متقاربين لكنها متميزان جغرافيا.

إن الشواهد على وجود شكل رشيق، من القرد الجنوبي بإفريقيا الشرقية، أقل إقناعا. إلا أننا لو أدمجنا جميع النماذج المكتشفة في نوع واحد، لبدا التحول عندئذ على غاية من الأهمية. إن أحسن مثال على شكل رشيق بإفريقيا الشرقية قد يتجسم في النموذج ك.وم.أ. ١٨١٣ (KWM ER 1813) في كوبي فورا (الشكل ٥). ويمكن أن نربط بين فكوك عديدة وقطع من هيكل ما وراء الدماغ مع اعتبار الصعوبة الناتجة عن تصنيف الفكوك. ولم يقتصر إلى الآن أي وصف لتلك الأشكال الرشقة بإفريقيا الشرقية لكنه يمكن أن نسجل خفة الفكوك وما معها من أضراس أمامية وأضراس صغيرة، وسعة دماغية تقدر بـ ٦٠٠ سنتيمتر مكعب، وعرف سهمي صغير أو مفقود. ويبدو هيكل ما وراء الدماغ مشابها هيكل القرد الجنوبي الخشب، وذلك على مستوى أصغر وأقل قوة. ومن خصائص هذين النوعين المشاشة القوية من عظم الفخذ: فالعنق طويل، مكبوس من الامام إلى الوراء، والراس صغير وكروي، وتوجد خصائص أخرى تستوجب الوصف إلا أن معارفنا ناقصة فيما يتعلق بالتحول الداخلي لتلك الأنواع، والعينات قاصرة الآن لنستدل بها.

الآن أعتقد أن هذا النوع الأخير قريب من القرد الجنوبي الإفريقي الرشيق الموجود بنجوب إفريقيا، ويمكن أن يكون مظهرا من مظاهره في المناطق الشمالية. إننا نعرف العظم الحرقص من



- (٥) جمجمة انسان الجنوب البدائي
الافريقي، منظر جانبي، كوفي فورزا،
(تصوير متحف كينيا الوطني).
- (٦) فك انسان الجنوب البدائي
الافريقي، منظر أمامي، كوفي فورزا
(تصوير متحف كينيا الوطني).



القرد الجنوبي الإفريقي ومن القرد الجنوبي القوي بجنوب أفريقيا. ولقد برزت اختلافات صغيرة بينها ولا يمكن أن ننسب أية بقية من ذلك الجزء من الهيكل إلى القرد الجنوبي بأفريقيا الشرقية، وعلى العكس من ذلك يوجد نموذجان معاصران يمكن نسبتهما إلى الإنسان، وهما يشهدان باختلافات ملحوظة بين الجنسين. إن تلك الاختلافات أهم من الاختلافات التي يمكن توقعها لدى نوع واحد حتى وإن كانت مساحة انتشاره شاسعة.

الأدوات والمسكن

إن أكبر عدد من الأدوات والمواقع أصله من بحيرة تركانبا بالكينيا، ومن ملكا كنتوري بأثيوبيا ومن فج أولدواي في طانزانيا التي جرت بها حفريات كثيرة منذ ثلاثين سنة. ويمكن أن نستنتج تدرجها ابتداء من الحصاة المهيأة الصغيرة جدا إلى الفؤوس ذات الوجهين الأكثر اتقاناً فيمكن أيضاً وانطلاقاً من تلك المواقع أن نستخلص بعض الاستدلالات على النظام الاجتماعي (أهمية الجماعة) وعوائد الصيد. ففي أولدواي كشف في بلدة عن بقايا بنية حجرية ولعلها قاعدة كوخ، أرخت حسب احتمال مرتجع بـ ١٨ مليون سنة. ولقد اكتشفت بملكا كنتوري عن مسطحة مرتفعة ومستديرة. إن الأصل الحقيقي للملكات التقنية الخاصة بالبشر بات صعبة الضبط وليس في وسعنا إلا أن نقترح في أحسن الأحوال كيف كان ظهورها في البليستوسين، ولعل ذلك يكون مرتبطاً بالقدرة على التكيف الذي يعتبر من صمم ما يتميز به الجنس الإنساني.

في البليستوسين القديم أي منذ حوالي ١٦ مليون سنة ظهرت فؤوس ذات وجهين خشنة ويمكن أن نستنتج في أولدواي وكذلك بمواقع أخرى من الشرق الإفريقي حركة التطور من الحصاة المهيأة إلى الفأس ذي الوجهين، وكانت الصناعات الأكثر قدماً المكتشفة بأوروبا في فترة حديثة هي صناعات الفؤوس ذات الوجهين. ويبدو لي أن المعطيات قد توحي بوقوع هجرة مجموعات إنسانية ذات فؤوس من أفريقيا نحو أوروبا وآسيا في بداية البليستوسين، وحتى قبل ذلك. إن تطور الصناعات الحجرية الموالي يعتبر معقداً جداً، ولنا عنه شواهد وافرة بالعالم كله، ويمكن أن نفترض أن كان الدليل يعوزنا — بأن ظهور الصناعات ما بعد الأشولية مرتبط بظهور الإنسان العاقل. إن ربط الصناعات الحجرية ببقايا إنسانية قديمة يعتبر نادراً، إذ لم تتوفر لنا مواقع عديدة من البليستوسين الوسيط، والحديث النموذجاً أو اثنين، على أنه قد توجد استثناءات ملحوظة.

يبدو واضحاً أننا تقدمنا كثيراً جداً في السنوات الأخيرة في البحث عن الشواهد الأحفورية. ولا ريب أن الأبحاث الجارية ستأتي بالزبد. فلقد توفرت لدينا الآن دلالات متنوعة جداً عن بشريات البليو — بليستوسين بأفريقيا، ولقد أول ذلك كنتيجة للتمييز الذي وقع خلال البليوسين، ثم أعقبته تجارب تطويرية مختلفة إلى بداية البليستوسين. إن التقاء يوجد بين ثلاثة أنواع على الأقل بأفريقيا الشرقية يمكن إثباته، وذلك سواء بالإعتماد على أجهزة دماغية أو ما وراء دماغية، علماً بأن كل دراسة تحليلية يجب أن تأخذ بعين الاعتبار جميع النماذج المكتشفة.

الجدول (أ) قائمة بقايا الإنسان المستقيم المعروفة بأفريقيا

المنطقة	القطر	الموقع	تفصيل التماذج
الشمال الغربي	الجزائر	ترنيفين	٣ فكوك وقطعة من دماغ
الشمال الغربي	المغرب	سيدي عبد الرحمان	قطعتان من فك
الشمال الغربي	المغرب	الرباط	قطعة من فك ودماغ
الشمال الغربي	المغرب	تمارة	فك
الشرق	طانزانيا	أولدواي	دماغ، بعض بقايا عظام
			مؤخر الدماغ، وفك محتمل
الجنوب	جنوب إفريقيا	سوارتكرنس	دماغ ناقص وبعض القطع من فك.

مصطلح

لقد قرر المؤتمر الشامن لكل إفريقيا المنعقد في نيروبي (كينيا) في شهر سبتمبر-أيلول (١٩٧٧)، الاحتفاظ بالإصطلاحات التالية باللغة الانكليزية فيما يختص بالمنطقة الإفريقية الواقعة في جنوب الصحراء، وهذه الإصطلاحات لم تترجم إلى الفرنسية وإنما ترجمت إلى العربية: العصر الحجري الوسيط، العصر الحجري القديم، العصر الحجري المتأخر.

أورو با	التقاربات المستعملة التي علماء الآثار الانجليز	المصاحبات	جنوب المصرياء الكبرى	غرب المصرياء الكبرى	شرق افريقيا	الغرب			
حالي	المصري الحجري المتأخر الانجليز القديم المصري الحجري الأوسط الانجليز الأول	عصر المادان	حالي	حالي	ما كالي مطير	داربي	الانجليز		
بند الانجليز		حجري حديث	متحضر	جومي		جاف بند غاملي		سلطاني	الانجليز
قويم		فوق الحجري القديم	موجة الطر	سلطاني		غاملي مطير			
رسي - قويم		أثري موسمري	جفاف البحيرات الكبرى الأخضر جفاف		جاف بند كاخيري				
رسي	المصري الحجري القديم الأدنى - فترة الأدوات ذات الوجهين	المصري الحجري القديم الأدنى - فترة الأدوات ذات الوجهين	المصرياء المصرياء ذات البحيرات الكبرى	أوغاندي	كاخيري مطير	تشيغي	الانجليز		
بين موبيل - رسي					جاف بند كاخيري	آثري			
موبيل					كاكاسي	ساليقي			
بين قويم - موبيل					جاف بند كاخيري				
قويم	(المصري الحجري المتأخر الانجليز القديم المصري الحجري الأوسط الانجليز الأول)	المصري الحجري القديم الأدنى - فترة الأدوات ذات الوجهين	المصرياء المصرياء ذات البحيرات الكبرى	أوغاندي	كاخيري	مولوي	الانجليز		
بين قويم - رسي					جاف بند كاخيري	مولوي			
موبيل					كاكاسي				
بين قويم - رسي					كاكاسي				

● فترات ما قبل التاريخ وصناعاتها في أفريقيا، جدول توافقي من اعداد هـ. ج. هوفو.

الفصل التاسع عشر

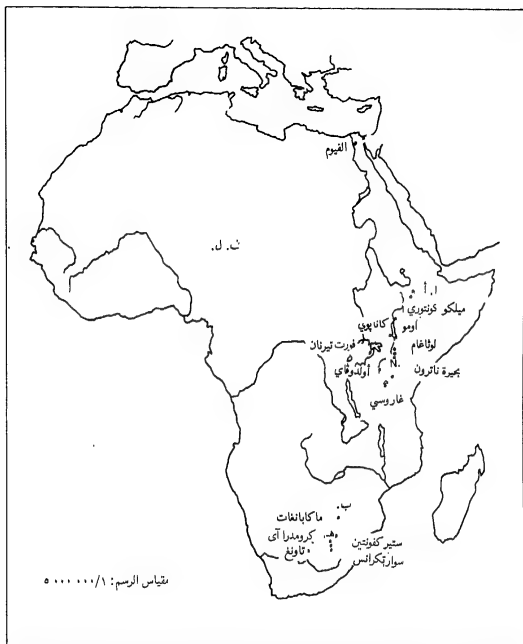
أفريقيا الشرقية قبل التاريخ

بقلم: ج. أ. غ. سوتن

البحث فيما قبل التاريخ

مقدمات منهجية

في الجزء الشرقي من إفريقيا ظهر الإنسان كحيوان ذي استقامة عمودية، يصنع الأدوات وذلك حوالي ثلاثة ملايين سنة تقريبا. ولهذا السبب، فإن التاريخ في ذلك الجزء من العالم دام أكثر مما دام في أي جزء آخر، وامتد فيه خصوصاً العصر الحجري أكثر مما امتد في القارات الأخرى وفي الأجزاء الأخرى من إفريقيا. ويمكن أن نضبط نقطة انطلاقه حين شرع البشر في صنع أدوات حجرية تعرف بأشكالها وأنواعها المصممة تصميماً، وبصفة منتظمة. إن هذا الجمع للمؤهلات البدنية والذهنية في صنع الأدوات (وبعبارة أخرى تجاؤز الإنسان للحالة البيولوجية) والارتباط أكثر فأكثر بتملك المؤهلات والنشاط الخارج عن الوضع البيولوجي، ونعني به النشاط الثقافي، تميز الإنسان عن الحيوانات الأخرى. وتعرف الإنسانية، إن تطوّر الإنسان نحو وضع حيوان قادر على الجلوس، والوقوف، والتنقل بواسطة الرجلين، خلافاً للقرود والثدييات الرباعية الأرجل أو الرباعية الأيدي، قد ييسر استعمال الأدوات وصنعها، وذلك بتخليص الأيدي التي أصبحت مستعدة للقبض، والحمل، والامساك، والمعالجة باليد. ولقد كانت تلك التطورات، فضلاً عن ذلك، ضرورية للمحافظة على حياة الإنسان، ولسلوكه في العالم، لاسيما فيما يتعلق بالحصول على الغذاء وتهيشته. وكان على كل جيل جديد أن يكتسب المؤهلات والمعارف الثقافية التي جمعها سلفه. ومن المحتمل أن تظل الأدوات الأولى التي صنعها الإنسان مجهولة لأنها كانت على غابة من البدائية لا تختلف عن بعضها إلا قليلاً جداً بما يجعل من العسير التعرف عليها. ويحتمل أيضاً أن تكون مواد



● ما قبل التاريخ في أفريقيا الشرقية (١٩٧٤)

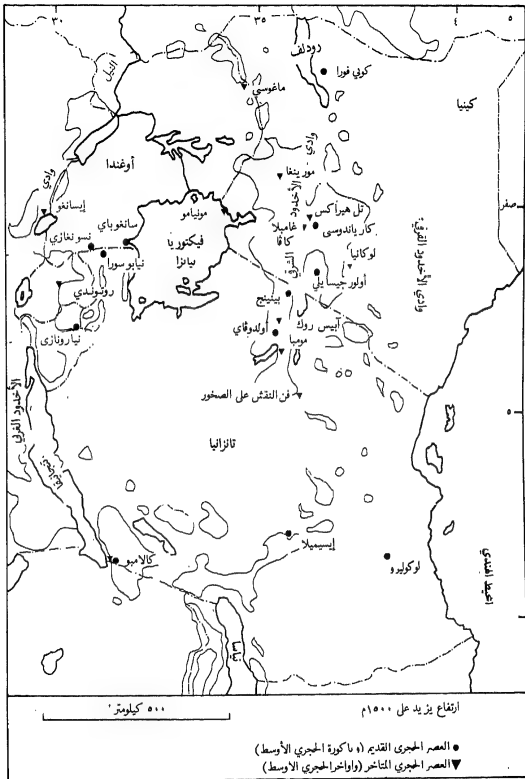
أخرى — تفسخت من دون أن تترك أثراً، لا سباً الخشب، والجلد، والعظم — قد استعملت وصنعت في فترة لا تقل تقدماً عن العصر الحجري على الأقل. إلا أن التقدم في استعمال المواد الأخرى كان محدوداً طالما لم يسيطر الإنسان على التقنية الأساسية التي تمكنه من أن يصنع بصفة منتظمة حداً قاطعاً، وأداة ناجعة، لقرع حجرة معينة وتشميمها تشيماً دقيقاً بواسطة حجرة أخرى أو بشيء آخر صلب ومناسب.

وهكذا فإن صنع الأدوات، وظهور الانسانية، قد ابتدأ قبل للتاريخ الذي لنا عنه حالياً بعض الشواهد الثابتة الدالة على تلك التطورات الهامة. وتتكون تلك الشواهد من الأدوات الحجرية الأولى المعروفة. وعلى هذا الأساس يجب أن نحدد بداية ما تواضعنا على تسميته بالعصر الحجري.

ولقد ابتدأ هذا العصر الحجري منذ حوالي ٣ ملايين سنة ودام إلى حقبة حديثة جداً من التاريخ الإنساني الذي حل فيه المعدن محل الحجر فأصبح مفتاح التكنولوجيا ومادة أساسية لصنع الأدوات وانتاج الحدود القاطعة. إن هذا الانتقال من صناعة الحجر إلى صناعة المعدن، قد حدث في عصور تختلف اختلافات طفيفة بمجموع أقطار العالم. فلقد صنع النحاس في آسيا الغربية منذ حوالي ستة أو تسعة آلاف سنة. أما في إفريقيا الشرقية، فلقد صنع الحديد، وهو المعدن الأول والوحيد الذي استعمل بطريقة منتظمة منذ ما يقرب من ألفي سنة.

ولنا أن نتساءل إن كانت التسمية بالعصر الحجري تسمية ترضينا من حيث التاريخ، لأنها تغطي الآلاف ٩٩٩ من الحقبة التي عاش فيها الإنسان بإفريقيا الشرقية. وهي تؤكد فضلاً عن ذلك على الجانب التكنولوجي من تطور الانسانية، وذلك على حساب جوانب اقتصادية أو ثقافية أعم منها. ويمكن لنا أن نتعرض على أنها تاريخياً طويلة جداً وأنها ثقافياً ضيقة جداً. إلا أنه يمكن أن نرد على هذه الاعتراضات، فنستغل عبارة «العصر الحجري» مفيدة لفظاً ومفهوماً، إن أحطناها ببعض التحفظات لذلك، ونظراً إلى أن تلك الحقبة الطويلة جداً من الماضي لا تعرف إلا بالاعتماد على شواهد الآثار علمياً بأنها ناقصة نقصاناً كبيراً إذ لم يبق منها شيء سوى الحجارة، دون أية تقاليد سماعية أو وثائق مدونة، لذلك اضطر المؤرخون إلى الاصطلاح على لفظ أو عدة ألفاظ لتسميتها ودراساتها ووصفها.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن العصر الحجري لم يكن فترة قارة من التاريخ إذ أن التطور التكنولوجي الحاصل في العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث، يظهر بوضوح من خلال التغيرات والتنوعات الطارئة على مختلف الأدوات، ومن خلال تزايد نفاذة الأداة الحجرية وتقنيات صنعها. وعلى هذا الأساس يبدو من الممكن ومن الضروري أن نقسم العصر الحجري إلى فترات متعددة وأن نقرعه إلى فروع تكتيلية تاريخية وجغرافية. إن المجموعات من الأدوات الحجرية (عندما تختار اختياراً حسناً وتقدم تقدماً مناسباً) يستهويننا منظرها في حد ذاتها، إلا أنها لا تفيدها إلا قليلاً إن لم تنظم ولم تدرج باعتبار الترتيب التاريخي ومرحلة التطور. وتخلو من المعنى أيضاً العبارات مثل «عاش في العصر الحجري» أو «إنسان العصر الحجري» المركبتان على المفهوم الخاطئ الذي يرى أن الإنسان ونوع حياته قد ظلا قارين طيلة تلك الفترة، لأن أدوات أهالي العصر الحجري كانت تختلف بحسب الزمان وبحسب المكان، ولأن أولئك الأهالي قد تطورا من حيث الثقافة ومن حيث الطبايع. فلقد شهد العصر الحجري تغيرات وتحولات طرأت على جسم الإنسان ودماعه وعلى



● أفريقيا الشرقية: المواقع الرئيسية
للعصر الحجري (١٩٧٤).

اقتصاد والنظام الاجتماعي والثقافة عموماً، وهذا يتماشى مع التطورات التكنولوجية التي تشهد شواهد الآثار، وينبغي أيضاً أن نلاحظ هنا بأن التفرقة بين فترات العصر الحجري، وإن كان بطيئاً جداً بالمقارنة مع المعايير العصرية، فإنه كان أبطأ بكثير في الفترات التي سبقتة؛ فكلما تربعنا من الفترة الحالية، كانت التغيرات أكثر سرعة، ولقد كانت هذه الفترة الحديثة مرحلة خصص وتنوع جهويين لها أهمية كبرى. فنتج عن هذا أن ظهرت فجأة في منطقة، خصائص بقيت مدة طويلة تنمو في منطقة أخرى، وذلك في صورتها الكاملة (أثر الهجرات والاتصالات الثقافية) مما رهم مجدوث ثورة في تلك المنطقة الثانية، ولذلك قد يعادل جيلان في آخر العصر الحجري، نصف يون سنة من الحقبة الأولى إذا نظرنا إلى ذلك من حيث معايير النمو.

وعلى هذا الأساس فلا تقتصر الدراسة التاريخية للعصر الحجري على الحجارة والأدوات إذ يكون حفظ عالم الآثار العثور على مستكشفات أخرى توجد غالباً بمواقع سكنية يعود تاريخها إلى العهد ما قبل العصر الحجري حيث بقيت شواهد مباشرة مطبخية أو غذائية، في شكل فحوم خشبية تشهد إلى منازل، أو في شكل قطع من العظم الحيواني. إن هذه البقايا العضوية قليلة جداً بافر بقايا فيما يتعلق بالفترات الأولى، باستثناء بعض المواقع التي أريت فيها بعض الأحوال المعدنية المواتية إلى استحجار العظام قبل أن تتفسخ. إن عالم الآثار مدعو وجوباً، حتى وإن كان لا يستطيع، إلى اعتماد على الحجارة، وإلى أن يطبق استنتاجه وتأويلاته على ميادين أوسع منها.

فلا يهتما في أول الأمر، الأدوات الخاصة المكتشفة، والمدرسة بمزج عن بعضها، بل يهتما لأوامر الأدوات مع مختلف أنواع الأشياء التي يمكن العثور عليها في موقع، سواء كان سكناً مجموعة، أو مخبأ مؤقتاً للصيادين، أو «عرفاً» لصنع الأدوات.

إن الشظايا الحاصلة من «تقطيع الحجر» وبقياءه أكثر انتشاراً من الأدوات الجاهزة، ولذلك يجب دراستها في نفس الوقت الذي تدرس فيه الأدوات الجاهزة لأنها تدل على تقنيات صنعها على مستوى المهارة التي وصل إليها الإنسان. يضاف إلى ذلك أن تلك البقايا لا تعتبر من السقط، إن عدداً من تلك الشظايا، لا سيما ما وجد منها في المراحل البدائية من العصر الحجري كان لها حد طبع، فإذا كان حجمها وشكلها مناسبين للاستعمال، فإنها تكون تكتمل للأدوات الجاهزة التي هي قتل منها. وعلى هذا الأساس تعتبر جزءاً مهماً من الأدوات. إن الاقتصاد على جمع ودرس الأدوات ناهضة المعروفة مثل ذي الوجهين والقدمومات، يجعلنا نقدم لوحة ناقصة ومشوهة جداً، عن كولوجيا بشر ما قبل التاريخ وعن نشاطهم، في الفترات الحديثة من العصر الحجري، لما عوضت أدوات الثقيلة من نوع ذات الوجهين، بأدوات أصغر وأجود وأدق منها، كثيراً ما كانت تثبت بسبضة خشبية أو بمقبض عظمي، وكانت تلك الأدوات الحجرية تصنع حسب نهضة ماهرة للبقايا نجرية وتسوية جيدة للتصال والشظايا المفصلة. ولذلك ينبغي أن تتوفر لدينا مجموعة كاملة على ر.الامكان من القطع المنحزة، وبقياء تقطيع الحجر، حتى نتمكن من تحليلها وتقديم الاستنتاجات بيدة عنها.

إن ملازمة الأدوات مع ما تنوع من القواطع والحدود الصالحة للقطع والقرص، والسليخ والقشر، شطب والحزب، والضرب، والسحق، والتفتيش، تساعد (حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار بعض حترارات التي لا تمانص منها، المتعلقة بالوظيفة التي خصصت لها) على تصور وجود أدوات أخرى

صنعت من مواد سريعة العطب أصلها حيواني أو نباتي، مما كانت تلك المجموعة البشرية تستعمله والمثال على ذلك أن الجلود الحيوانية، عندما تخلص من دهنها وتُجفف وتُدبغ، يمكن تقطيعها لتصنع منها حبال من جلد وأحزمة، ولقد استوجبت عمليات القنص، والقتل، والسلب أدوات وأسلة حجرية وخشبية، وكان من الممكن استعمال السيور مع الأدوات الحجرية لربط وحزم القذائف المستعملة للصيد أو لتثبيت نصل حجري أو حديد على زرع خشبي أو سهم، بواسطة راتنج نباتي. إن دراسة البقايا الحجرية من نهاية العصر الحجري دراسة ذكية تستعيد لنا، فضلا عن تلك الأسلحة، أدوات مركبة عادية، متكونة من شظايا صغيرة وحدود صنعت صنعا جيدا، وأثبتت أو أُلصقت بدقة بقبضات أو مقابض من العظم أو الخشب. وذلك يمكن ولولم يتوفر لدينا شاهد واحد مباشر على العناصر الخشبية والعظمية وحتى قبل ذلك التاريخ، لما كانت أدوات الخشب والحجر الأكثر بدائية غير متراكبة، فإنها كانت على كل حال مترابطة. فلقد كان من الممكن مثلا قطع رمح خشبي ليكون له الطول المرغوب بواسطة سكين حجري، وإن كان لا بد أن ينجره وأن يسويه مكشط، وهو أداة نجر. ومن الممكن استعمال حزام جلدي أو ليفي نباتي لكي يتيسر قبض ذلك الرمح أو رميه. إن تهيئة حد الرمح، يستوجب من جهة أخرى استعمال أدوات حجرية قاطعة، مما يفرض بعد ذلك توصيله بالنار كما تشهد على ذلك بعض النماذج التي عثر عليها. إن الصاق حد حجري بجرية الصاقا متفتنا، وذلك في أحدث فترة من العصر الحجري، كان ناجما عن عمل جيد من القضم والحز بواسطة أدوات دقيقة.

تلك بعض الأمثلة التي يمكن الحصول عليها اثر دراسة ذكية فيها تحليل للأدوات الحجرية حتى نخلص تلك الأدوات من الجمود، ونثبت فيها الحياة. ومن الممكن أن تأتي بتخرجات فيما يتعلق باستعمالات الخشب والجلود المهيأة لنصل الى دراسة مسألة الخيام وحواجز الرياح. وهنا فأننا نخرج، مثلا هو الشأن بالنسبة للأدوات والأسلحة التي تحدثنا عنها، من وجهة نظر تكنولوجية ضيقة لننتشر تأويلا اقتصاديا وثقافيا أشمل عن الشواهد والآثار، ولنستعيد حياة مختلف مجموعات الصيادين القاطنين من مختلف الفترات من العصر الحجري. و ينبغي أن نلاحظ هنا أن جل الأدوات في جميع فترات العصر الحجري، بما في ذلك الأدوات الحجرية، لم تكن أسلحة. فإن كان الصيد دلتا مهما وأساسيا لتوفير البروتينات (باستثناء الأماكن التي يكثر فيها السمك، شريطة أن تتوفر الوسائل لصيد) فإن جمع النباتات أيضا، وبالأحرى جني العروق النشوية والعسقيات، كان أساس النظام الغذائي. إن هذا النشاط وكذلك النشاط المتصل بالأشغال المنزلية، وبخدمة الخشب، يساعدان على توضيح وظيفة أغلبية الأدوات.

إن صعوبة نقل الماء كانت بدون شك قد حدثت في اختيار مواقع التجمعات إذ يجب أن يكون النجم الفصلي الذي يختاره الفريق العائلي قريبا من مجرى ماء أو من بحيرة، وأن تتوفر له فضل عن ذلك نباتات كثيرة وأنواع من الطعام الذي يجلب الصيد.

ولقد حاولنا أن نبين بأن دراسة العصر الحجري دراسة تكنولوجية معتمدة على العقل النير والحيال، تساعد في رسم صورة واضحة للوضع الاقتصادي والثقافي. إلا أنه يجب أن نقرأ الشواهد، حتى فيما يتعلق بالجزء الأكثر حداثة من عصر ما قبل تاريخ إفريقيا الشرقية، هي شواهد قليلة جدا، وأن مجهوداتنا في التأويل الموسع هي مجهودات، لا مناص من ذلك، نظرية. فن الضروري

أن نقاوم التخمينات والنظريات الواهية. إلا أنه لا فائدة، بعد الاتفاق على هذا، من أن نهمل الآثار المتوفرة لدينا، و ينبغي أن ننظر إليها نظرة إيجابية، فيها ذكاء وخيال، حتى نضبط الأحداث والمفاهيم التي يمكن أن نستخرجها منها. وهكذا تشد العزائم الجديدة والبحوث للثور على وثائق أخرى. ولذلك فإننا سنسعى في ما يلي من هذا الفصل إلى ضبط بعض الوسائل التي تسمح بالحصول على عدد وافر من المعلومات وبالوصول إلى استنتاجات أكثر أهمية.

ولقد ذكرنا سابقاً أنه وجدت مصادفة عظام حيوانية مستحجرة في بعض المواقع القديمة، واكتشفت عظام غير مستحجرة في مواقع حديثة، لا سيما في ملاجئ كانت تحت الصخور. وفي ذلك شاهد مباشر على الحيوانات التي كانت تصطاد وتؤكل. إن دراسة العظام دراسة ثابتة بغية العثور على آثار الأدوات، والكسور، وحتى على الطريقة التي طرحت بها تلك العظام على الأرض، يمكن أن نفيدنا عن طرق فصل اللحم عن الحيوان واستهلاكه، إلا أن الشواهد المباشرة من هذا القبيل لا تقدم لنا إلا لوحة ناقصة. ومثال ذلك أنه يمكن أن تصطاد ثدييات صغيرة، وزواحف، وطيور وحشرات، إلا أنه لا يبقى لها أثر سواء لأن عظامها أو أجزاءها الصلبة كانت هشة فلا تدوم، أو لأن الصياد قد استهلك تلك المصيدات الصغيرة بعين المكان دون نقلها إلى المخيم. فالعسل، والنار والعنبيات، والجوز وحتى بيض الطيور لا تترك من الأثر إلا القليل أو لا تترك أثراً واضحاً لأنها تستهلك في الطبيعة من دون حاجة إلى أدوات حجرية لجمعها أو لتجهتها. فنحن لا نكتشف في الواقع إلا نادراً جداً بقايا ما قبل التاريخ من الطعام النباتي. لكن نظام الصيادين القاطنين الغذائي كان بدون شك متوازناً، فلا بد من أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار عند استعادته تاريخياً، بالاعتماد على دراسة ذكية تشمل الآثار والبيئة المحلية مع اعتبار جميع مواردها الغذائية.

إن شواهد الآثار، في بعض المناطق (مطازنانيا الوسطى)، والمتعلقة بنوع حياة الصيادين القاطنين في العهد الغابر من العصر الحجري، تكتمل اكتمالاً رائعاً بالاعتماد على فن النقش على الصخر. فبسطع النظر عن كل اعتبار يتعلق بالمهارة الفنية، وبالضيق والدق الفني اللذين تشهد به تلك الرسوم، فهي تزودنا بمعلومات مضبوطة عن الصيد المخصص وعن طرق الصيد بالرمح أو بالسهم، وعن بعض الأنواع، من الفخاخ. ويبدو أن التقنيات الأخرى المستعملة للحصول على القوت غرملقة. في هذه الرسوم، ومن ذلك قلع الغسقلات وجني العسل. وهذا من شأنه أن يثير عقولنا ويوسع رؤيتنا إلى الحياة في ما قبل التاريخ، لا سيما وأن بعض أنواع النشاط المشار إليها في الرسوم قابلاً لأن تقارن بالموائد الحالية أو المعاصرة عند شعوب إفريقيا الشرقية.

إن شهادة الفن تستوجب مقارنتها بالعتاد التقني الذي له هدف اقتصادي وثقافي. فكلما توضحت لنا هذه اللوحة، أمكن لنا أن نشرع في وضع أسئلة متعلقة بطرق الصيد، ونصب الفخاخ والجني، وعدد فريق الصيادين أو المجموعة البشرية، وترباها ونظامها الاجتماعي الضروري لبقائها على قيد الحياة. إن الجواب على هذه الأسئلة لا يدعو إلى الثقة الكاملة. ولقد تحقق رغم ذلك بعض التقدم الثابت باعتماد الشهادة الأساسية المأخوذة من مختلف المواقع الأثرية. وهذا يعني أن الأمر يستوجب أن نجتمع تلك البراهين باستعمال أدق الطرق، وأكثرها تنظيماً، وأكثرها جودة إن أمكن ذلك. إن المناجم التي اكتشفت فيها الصناعة الحجرية ليست نادرة بإفريقيا الشرقية. فلقد أصبحت معروفة في مطلع القرن العشرين وذلك إثر العمل الرائد الذي قام به الدكتور لويس لاكيي بالكينا

في العشريّات من هذا القرن، فكشف عن عدد متزايد من المواقع من جميع حقب ما قبل التاريخ، وذلك بافر يبقيا الشرقية. وظل عدد آخر منها لم يكتشف بل كشفت عنها الاحترافات أو تغيرات أخرى طرأت على أرضها. أما الأدوات أو شظايا النحت فقد جرت الى الوهاد ومجاري الأنهار أو الملاجىء تحت الصخور. وأبرزتها على سطح الارض الحراثة وحواضر المواشي، أو أشغال البناء. ان تلك المواقع وتلك الاشياء قد اكتشفها أثر يون محترفون وكثيرا ما اكتشفها أيضا هواة، وفلاحون، وطلبة الخ، وهي تستحق التعريف بها كما تستحق تنبيه السلطات المعنية لها. فجميع الأدوات وغيرها من الأجهزة الاثرية المكتشفة تستوجب أن تودع بالمتاحف حيث يمكن دراستها ومقارنتها بمجموعات عملية أخرى. فالعادة التي كان يمتصها بأخذ الأثر يون الا جانب مكتشفاتها بل بلدهم الاصيل لم تكن سائدة فيما يتعلق خاصة بافر يبقيا الشرقية، ولقد زالت الحسن الحظ الآن، الا أن بعض المجموعات من افر يبقيا الشرقية مازالت محفوظة في متاحف أوروبية. وقد حفظ الجزء الأكبر وهو آمن الأجزاء، من الأجهزة الاثرية لا فر يبقيا الشرقية بالمتاحف الوطنية.

ان المجموعة السطحية لا تفيدنا في حد ذاتها بكثير لأن الأدوات وبقايا النحت قد نقلت خارج موقعها الاصيل. يضاف الى ذلك أن جمعها يخضع عادة لمبدأ الانتقاء. الا أننا نعتبر أن مجموعة سطحية صغيرة تستطيع في حد ذاتها أن تزودنا بتوضيحات لأن نوع الأدوات أو طريقة صنعها يرشدان الى الفترة التي تعود اليها الأدوات والى الروابط القائمة مع مواقع أخرى معروفة وذلك من شأنه أن يساعد على اظهار الفائدة من استكشاف أكثر تفصيلا ومن حفريات حقيقية.

ان تلك الحفريات تستوجب أن يتيها لها وأن يشرف عليها أثر يون لهم دراية متعلقة بالموقع المعنى بالأمر. الا أن أولئك الأثرين، مرتبطون كما أشرنا الى ذلك، بالمعلومات المحلية التي يوفرها لهم الهواة أو الطلبة الذين يمكن لهم علاوة على ذلك أن يساهموا في الحفريات وأن يتدربوا في نفس الوقت على المهنة. ان الطرق التطبيقية، التي تعتمد أحدث التقنيات في الحفر وفي دراسة الآثار، سواء في مكانها الاصيل، أو بعد أن تسجل وتنقل، هي الوحيدة التي تسمح لعالم الآثار، أن يجمع في موقع ما أقصى ما يمكن من المعلومات، وأن يرسم لوحة إن لم تكن مستنفدة فانها قد تشمل أكثر ما يمكن من أنواع النشاط التي جرت بذلك الموقع. ولقد ساهمت أشغال حفرة مثالية وقعت في مواقع تنتسب الى العصر الحجري القديم بافر يبقيا الشرقية، وذلك في السنوات الأخيرة، في توجيه أسلوب البحث في مناطق أخرى من العالم، وذلك فيما يتعلق بالمنهجية، والتحليل، والتأويل.

إن عالم الآثار المتعهد بالحفريات، لا يهتم باكتشاف نماذج فردية بقدر ما يهتم بالبحث عن أهم المعلومات الممكنة عن نوع حياة مجموعة قديمة، وبالتعرف على أكبر جزء ممكن من «المجموع الثقافي» ودراسته دراسة مستفيضة، ويجمع كل المعلومات المتوفرة عن البيئة. وذلك يستوجب اعتماد طرق في الحفر دقيقة وبطيئة. اذ يجب جمع كل الأشياء كما يجب الاشارة الى كل خصائص الأرض التي يقع فيها السكن، بما في ذلك التغيرات الطارئة على السطح، وتحولات لون الأرض التي يمكن أن تكون شاهدة على النار أو على نشاط آخر. والعادة تستدعي غربة الرواسب، عندما يحتمل أن يكون أن توجد أشياء صغيرة مثل شظايا الحجر، وقطع العظام، وحتى الحبوب النباتية، ان تلك الغربة عادة مطردة في الملاجىء الكائنة تحت الصخور والحديثة حيث تكون الرواسب هشة ورمادية. ان العرف يعتبر الاجهزة الموجودة في ملجأ تحت صخرة، أو في موقع كثير الهواة، أجهزة لا تدل على اقامة واحدة

بل على أقامات متعددة متتابعة، قد تركت كل واحدة منها بقايا فوق بقايا الإقامة السابقة. وتستدعي كل إقامة دراسة مفصلة ولذلك يجب على الأثري القائم بالحفرات أن يعنى بناية خاصة بالطبقات الأرضية، لأن اختلاط الأشياء الآتية من أقامات مختلفة، قد يشوه التأويل تشوها مؤسفاً. وإذا كان الأثري الحافر مسؤولاً عن التعرف على الموقع، وعلى التسجيل والدراسة الأساسية المتعلقة بكل الاكتشافات، فهو يحتاج إلى مساعدة اختصاصيين آخرين. ويمكن لتلك المساعدة أن تقدم في مرحلة لاحقة في المختبر، مثلاً للتعرف على عظام حيوانية. وإذا توصل القائم بالحفرات بفضل الظروف المواتية لحفظ المواد، إلى استخراج بقايا نباتية مثلاً، وجوب متفحمة، وجوز أو قطع خشبية، وجب عليه أن يعالجها معالجة خاصة بعين المكان وأن يرسلها إلى اختصاصي في علم النبات. إن التعرف على تلك العينات ودراستها يوفران مزيداً من المعلومات عن النظام الغذائي واقتصاد المجموعة لأن ما تزودنا به عن تلك البيئة يعتبر مهماً أيضاً. فإن كتب للباحثين قديمة أن تظل محفوظة، يمكن أن يأتينا فحص تلك العينات فحصاً بليولوجياً بفائدة وأن يزودنا بتوضيحات عن نوع النباتات وما طرأ عليها من تغيرات. ويمكن أن نستفيد في هذا الصدد من العينات الأرضية المشتملة على أجسام صغيرة أو على صدقات، لأنها تستطيع أن توضح نوع النبات السائد، وبالتالي تدل على المناخ الطارئ، إن الجيولوجيا والجيومورفولوجيا، وبنية التربة مفيدة أيضاً لهذه المحاولات الرامية إلى استعادة بناء البيئة القديمة والموارد التي كانت تستثمرها مجموعة ما قبل التاريخ. ومن الواضح أن أكبر جزء من هذا البحث حول البيئة يتطلب، ليكون عميقاً ومفيداً، الاستفادة من وجود مختلف الاختصاصيين في الموقع بالذات، ولولدة قصيرة من الوقت، لأن العينات المجموعة والمرسلة إلى المختبرات لا تكون وحدها كدليل، إذ يجب أن تختار بدقة وأن تراقب في عين المكان. فربما طرأت تغيرات كبرى على الطبيعة بين الفترة المدروسة والفترة الحالية، تبعاً للتغيرات المناخية، والحركات الجيولوجية، وفي أكثر الأحيان تبعاً للنشاط الانساني، لا سيما الفلاحة، واستصلاح الأرض في العصور الحديثة. إن دراسة الماضي تخضع دائماً لدراسة ذكية للحاضر ولكل العلامات الأثرية وغيرها التي يشملها ذلك الحاضر.

ومن الدراسات الأخرى ما له أيضاً صلة ببحثنا، فهي وإن لم تأت بشاهد مباشر على ما قبل التاريخ، فإنها تزودنا بإيضاحات غير مباشرة ثمينة جداً. ونقص هذه الدراسات البحث الانثروبولوجي حول بعض مجتمعات الصيادين القاطنين الموجودين بالعالم، لا سيما ما يوجد منها بإفريقيا، فلقد سبقت الإشارة تصريحاً أو تلميحاً، إلى بعض الاعتبارات المتعلقة بعادات الصيادين المعاصرين مثل قبيلة هذرة في طانزانيا الشمالية وقبيلة سان من منطقة كالاهاري اللتين أهتم بهما الباحثون في السنوات الأخيرة لجمع معلومات أوفر عن ثقافتهما وأنواع حياتهما القديمة. إن الملاحظات المستنتجة من هذرة وسان توفر نحات عديدة ومفيدة عن إمكانيات العيش، والتنظيم وضغوط نمط العيش المرتكز على الصيد وجني الثمار، وتوحي بعدد من النقاط التي كان من الممكن أن لا ينتبه إليها الأثريون، فمن الخطأ الجسم أن تعتبر تلك المجموعات كصور مطابقة تماماً لمجتمعات العصر الحجري أو من بقاياها.

من الصحيح أن بعض تلك الفرق المعاصرة من الصيادين القاطنين، لا سيما قبيلة سان بمجنوب إفريقيا، يعتبرون أحفاداً لسكان العصر الحجري المتأخر، وذلك من شأنه أن يوضح بعض مشاكل

الماضي، ومثال ذلك أنه كثيرا ما عثر الباحثون في إطار العصر الحجري المتأخر على حجرة فيها ثقب مستدير، إن عادة قبيلة سان الحالية، التي تؤكد أنها فيبدو، رسوم جدارية بجنوب إفريقيا، تبين أن تلك الحجارة المثقوبة كانت تستعمل أحيانا لترشيح العصي الحادة الصالحة لاستخراج العروق التي تؤكل، إلا أن هذا التوافق الخصوصي من هذا النوع قليل. ولقد حدثت هذه التغيرات في مجتمع قبيلة بوشيمان^٥ وذلك لأسباب مختلفة منها الاتصال المباشر أو البعيد بشعوب تستعمل الحديد وتعيش في اقتصاد قائم على إنتاج القوت. و يوجد عدد قليل من البوشيمان^٦ الذين ظلوا يخدمون الحجر على نطاق واسع لأنه يمكن الحصول على الحديد مبادلة أو من البقايا، مما نتج عنه تغيرات تكنولوجية أو ثقافية حتمية. ولقد اختلط أحفاد آخرون للصيادين القاطنين اختلاطا عميقا بسكان منتجين للقوت، أما البعض الآخر فأنهم لم يصبحوا بعد بلديين بصورة نهائية. فلما عادوا إلى هذا النمط من الحياة منذ عهد قريب، ظلوا يعيشون من مبادلة منتجات الغابة مع جيرانهم الفلاحين والرعاة، أن هذا الاحتياج المتبادل ملحوظ لدى عدد من الجماعات المعروفة باسم «دوروبو» الذين مازالوا يعيشون في المرتفعات من الكينيا و طانزانيا. وإذا كان هذا النوع من الاحتراز يبدو ضروريا لكيلا يقع الباحث في الخطأ، بالحاق الصيادين القاطنين المعاصرين لنا، بسكان ما قبل التاريخ المتأخر، فإن هذا الاحتراز يصبح أكثر ضرورة أن اعتبرنا الفترات المتأخرة جدا. إلا أن هذا لم يمنع توافر توضيحات مفيدة عن المواد الغذائية بالمنطقة وعن التنظيم الضروري لاستثمارها.

يوجد مصدر آخر مفيد من المعلومات، وهو دراسة الحياة الاجتماعية للمقدمات البشرية، لاسميا أقرب أجداد الإنسان الحاليين، أي الشمينزي والغوريلا، وكذلك القراوح (Babouins). فالقراوح هي ببيولوجيا أقل مماثلة للإنسان، إلا أنها مهمة بصفة خاصة من جهة السلوك، وذلك بغية دراسة المجتمع الإنساني، لأنها تعيش، أكثر من المقدمات الأخرى، جماعات على الأرض، ويسهل نسبيا ملاحظتها ودراستها. فالإنسان، كما جاء في مكان آخر من هذا الكتاب، ليس من سلالة تلك القردة، ولا نريد أن نقول هنا بأنه لم توجد في ما قبل التاريخ أية جماعة، ولو أنها قديمة جدا، هي أقرب إلى تلك القردة من الإنسان العصري، فلو أردنا أن ندرك السلوك الأساسي للمقدمات البشرية والتقاليد التي ورثها الإنسان عن أسلافه من الحيوانات السابقة له، وحاولنا أن نفهم كيف كان هؤلاء السلف المباشرون للإنسان يقومون بأود العيش بالاعتماد أساسا على النباتات، علما بأنه لم يكن من عاداتهم صنع الأدوات، بل هم عاجزون عن ذلك، إذن لاستفدنا فائدة كبرى من تلك الدراسات التي يجري العديد منها بإفريقيا الشرقية.

لقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن مدة ما قبل التاريخ كانت مديدة، وأن السكان في أواخر تلك الحقبة حققوا تقدما كبيرا، وأنهم كانوا يختلفون كثيرا عن أسلافهم من فجر ما قبل التاريخ، يضاف إلى ذلك أن سكان إفريقيا الشرقية من العصر الحجري المتأخر — وقد بقيت منهم نماذج إلى عهد قريب — كانوا بلا منازع إفريقيين. وكان لبعضهم قرابة مع البوشيمان^٧، وقد اندمج آخرون في سكان عصريين من زنجو العصر الحديدي. وبالمقابل، فإن سكان العصر الحجري القديم، لا سيما في فترته المتأخرة جدا، يمثلون تمثيلا حسنا بإفريقيا الشرقية ولم يعرفوا، لمدة طويلة، إلا بذلك الجزء من

^٥ في الجزء المطبوع لا ذكر للبوشيمان وإنما ورد فيه «سان» — تعليق المراجع محمد القاسمي.
^٦ هذا اللفظ غرض في المطبوع للفظ «سان» كما تقدمت الإشارة إليه — تعليق المراجع محمد القاسمي.

العالم، لأنهم أيضاً أسلاف البشرية في مجموعها. إن هؤلاء الصانعين للأدوات البدائية جداً، والذين اكتشفت عظامهم في أعماق الطبقات من الأولدواي، بشمال طانزانيا ومنطقة بحيرة تركانا بشمال إكيتيا وبجنوب أثيوبيا، يصنفون عادة ضمن جنس الإنسان العاقل، إلا أنهم كانوا من حيث البنية والدماغ يختلفون عن الإنسان العصري. وهكذا أصبح تاريخ إفريقيا الشرقية القديم تاريخ الإنسانية القديم، وهذا المنصر يضي عليها دلالة كونية. فإفريقيا الشرقية، نظراً إلى كونها تحتوي على معلومات لا تقدر بثمن عن الإنسان البدائي، وعن ثقافته، وعن مناخ المقدمات البشرية، قد أصبحت بكل جدارة المركز العالمي للبحث عن الحياة، والبيئة، وأصل الإنسان.

الترتيب التاريخي والتصنيف

بينما نجد أن العصر الحجري، في أغلب المناطق من آسيا، وأوروبا وإفريقيا الشمالية يقسم اصطلاحاً إلى العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث، فقد ترك أغلب الاختصاصيين هذا النظام فيما يتعلق بالمناطق الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء. فالعصر الحجري عموماً ينظر إليه ويدرس بحسب ثلاث حقبة هي: (العصر المبكر، والوسيط والمتأخر). وهي حقبة تتميز بحسب تحولات مهمة تعرف من خلال التكنولوجيا (مع كل ما للتكنولوجيا من انعكاسات ثقافية واقتصادية). إن هذه النظم من التصنيف لا تشكل طريقتين للتعبير عن نفس الشيء، لأن معايير التصنيف تختلف اختلافاً كلياً في مستوى التصور والترتيب التاريخي. (انظر الجدول للمآتي، وما يتعلق به من الحواشي).

إن الحقبة الأفريقية الثلاث تؤرخ تقريباً كما يلي:

- العصر الحجري المبكر (أو العصر الحجري القديم): ابتداء من عهد أدوات الحجر الأكثر بدائية. (لتفترض، منذ ٣ ملايين سنة إلى ١٠٠٠٠٠ سنة).
- العصر الحجري الوسيط: تقريباً منذ ١٠٠٠٠٠ سنة إلى ١٥٠٠٠ سنة.
- العصر الحجري المتأخر: من ١٥٠٠٠ سنة إلى بداية عصر الحديد (وهو مجدداً يقرب من ٢٠٠٠ سنة في أغلب المناطق).

ويجب علينا أن نؤكد في نفس الوقت أن تلك التواريخ تقريبية وأنها بصفة عامة محل نزاع، فلقد اقترحت إلى الآن تواريخ أكثر تأخراً لا سيما فيما يتعلق بفترة الانتقال من العصر الحجري المبكر إلى العصر الحجري الوسيط. إن هذه النظرة المحافظة تعود نوعاً ما إلى قلة المواقع والصناعات الحجرية المعروفة، والموصوفة والمؤرخة بطريقة مرضية. ويضاف إلى ذلك أن الانتقال الأول من العصر الحجري المبكر إلى العصر الحجري الوسيط، وقع في فترة توجد عملياً في حدود إمكانيات ضبط التواريخ بالراديو كربون. وبالرغم من أنه حدث أن حددت تواريخ بـ ٥٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠٠ سنة، وأنها معتمدة من قبل الباحثين أحياناً، إلا أن تلك التواريخ تعتبر هي الحد الأدنى، لا تواريخ مضبوطة بدقة. وفي الواقع يوجد شك كبير لا يتعلق بأوائل العصر الحجري الوسيط فحسب بل أيضاً بالجزء الأخير من العصر الحجري المبكر كله. وتجرب حالياً تقنيات جديدة مشروحة في مكان آخر من هذا الجزء. ولقد ساهمت طريقة البوتاسيوم-أرغون خاصة، في تحديد إطار تاريخي تقريب

بالنسبة لحقبة من التاريخ تتجاوز نصف مليون سنة. فن الضروري فعلا أن نعوّل كثيراً ودائماً على التاريخ النسبي المستنتج من علم طبقات الأرض الأثرية والجيولوجية ومن علم الفخار البشرية. إن التواريخ المقترحة هنا لحقبة ما قبل التاريخ هي إذن أقدم من التي تقدم عادة، إلا أنها ليست قطعية بقدر ما يريد ذلك حالياً بعض الاختصاصيين. فحتى مدرسة «المراجعة» فهي أقل قطعاً في هذا مما قد يتبادر إلى الذهن، لأن القضايا التي تطرحها تهم في الواقع التعريفات أكثر مما تهم ضبط التواريخ.

وفضلاً عن أن تاريخ هذه الحقبة غير مدقّق — إن لم يكن محل نزاع — فن المهم ألا نعتبرها حقبة ثابتة لا تجري داخلها تغيرات ولا تحولات. فلا يجوز أيضاً أن نتصور أن التغيرات من حقبة إلى أخرى قد وقعت ختاً بصفة مفاجئة. لقد طرأت تطورات سواء ضمن كل حقبة أو عند الانتقال من واحدة إلى أخرى. يضاف إلى ذلك أن الانتقالات الواقعة بين التكنولوجيات من العصر الحجري المبكر ومن العصر الحجري الوسيط، وكذلك بين العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري المتأخر تعتبر انتقالات معقدة. ولكي يؤخذ هذا الأمر بعين الاعتبار، يتحدث بعض المؤلفين عن حقبة فاصلة هي (بين بين). إلا أن الاتجاه الحديث ينحصر في التخلي عن فكرة هذه الحقبة «الفاصلة» كحقبة «رسمية» للجدول التاريخي للعصر الحجري. ولتذكر كان وصف «الفواصل الثانية» بين العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري المتأخر وصفاً ليس على أية حكمة مرضياً. أما «الفواصل الأولى» الذي يشمل الصناعات المعروفة باسم (فورسميثي) و«سنگون»، فانه حالياً يعتبر أحياناً مرحلة نهائية من العصر الحجري القديم، إلا أننا نفضل أن ندججه في عصر حجري متوسط أكثر امتداداً. وهذا ما يفسر لماذا كان تاريخ بداية هذا العصر الحجري المتوسط أكثر قدماً في دراستنا هذه.

إن التخلي عن هذه «الفواصل» هو قضية ملائمة لا أكثر ولا يدل على تبسيط للنظريات المتعلقة بالتطور التكنولوجي والثقافي والاقتصادي للإنسان في عهد ما قبل التاريخ. وقد أصبح من الشايت أن الأمر يختلف عن ذلك تماماً. والملاحظة الأولى هي أن تكنولوجيات مختلفة كانت تستعمل في نفس الوقت حتى داخل مناطق ضيقة في مختلف عهود العصر الحجري. ويمكن تفسير هذه الاختلافات في بعض الأحوال بالاعتماد على البيئة، إذ يمكن لتكنولوجية أن تلائم الحياة في منطقة مشجرة أو في منطقة على شاطئ البحر، ويمكن لتكنولوجية معاصرة مختلفة أن تلائم مناطق أكثر جفافاً أو أكثر عراء. ولذلك يمكن للموارد الغذائية وطرق استثمارها أن تفرض تكيفاً ثقافياً وتكنولوجياً مختلفاً (١).

إن التفسير الصحيح قد لا يكون أحياناً بسيطاً. فلقد يحدث أن تظهر أنشطة إحدى المجموعات (مثلاً صيد الحيوانات الكبرى والصغرى، ونصب الفخاخ، وقلع العروق والعسقيات، وخدمة الخشب والجلد الخ.) ويكون بعض تلك الأنشطة فصلية، قد تظهر في مظاهر على غاية من التنوع، فتتوفر فيها أدوات مختلفة من نفس العهد، وذلك بجهة معينة. ويمكن من ناحية أخرى أن تظهر اختلافات تدل على تباعد ثقافي وعلى تخصصات اقتصادية أكثر عمقاً، وهي في تصورتنا ناتجة عن الاختلاف في العرق أو في المجموعة، أو قد تكون ناتجة عن وجود أنواع من البشر في العصر الحجري

(١) انظر خاصة، فيما يلي، الغرض المخصص للعصر الحجري الوسيط.

المبكر. إن هذا موضوع اختلاف، إلا أن أحدث الاكتشافات بإفريقيا الشرقية بينت أن ما كان يعتبر إلى الآن مرحلتين متميزتين من العصر الحجري القديم والمتمثلتين في الصناعات ذات الحصاة الملساء المهيأة (أو ما يدعى الأولدواني) التي تحولت إلى صناعة الأدوات ذات الوجهين (وتدعى بالأشولي) إنما يغطي في حقيقة الأمر حقبة طويلة دامت على أقل تقدير نصف مليون سنة. ومن الصعب أن نعتمد «النظرية القائلة بنوعية النشاط» لإبراز جوانب هذه الملاحظة، وبإلحاق بعض الاختصاصيين إلى تأويله كدليل على وجود نمطين من التقاليد الثقافية متميزين، لنوعين من السكان منفصلين تماما، يعيشان جنباً إلى جنب و يستثمران موارد غذائية مختلفة.

وفضلاً عن هذا يمكن لنا أن نلاحظ أنواعاً من التغطية في التقسيم الاعباطي بين العصر الحجري المبكر، والعصر الحجري الوسيط والعصر الحجري المتأخر. فمن الممكن أن نجد بعض الأدوات من العصر الحجري المبكر أو تقنيات بدائية في محيط هو أساساً من العصر الحجري الوسيط. إن تمارج خصائص محددة وأخرى محافظة قد يكون علامة على تغير متدرج. إلا أن فترة الانتقال قد لا يحس بها أحياناً؛ وقد يحدث في بعض المواقع التي لها مقطوعة طبقية أرضية واضحة أن تظهر بها فجأة تكنولوجيا جديدة وذلك في شكل مكتمل، من غير أن يكون هناك أثر يدل على تطور محلي. وهذا يوحي بانتشار التكنولوجيا من منطقة إلى أخرى ويمكن أن يكون ناتجاً عن تحرك السكان. ولقد كانت التغيرات المناخية، مع ما لها من أثر على البيئة، من حوافز التكيف الثقافي والتقدم التكنولوجي. إلا أنه على عالم الآثار أن يحترز في هذا الميدان من التأويلات الختامية البسيطة.

إن هذا التقسيم الفرعي الاعباطي جداً للعصر الحجري هو حينئذ نظام مرجعي مفيد في الحالة الراهنة لمعارفنا. ولكن يجب أن نجعله مرناً بحيث تتمكن من تغييره باستمرار. وربما ذات يوم سوف لا يفيد هذا النظام. ولئن كان هذا اليوم لم يصل بعد، فإن فائدة ذلك النظام معرضة للخطر إذا طبق تطبيقاً شكلياً جداً أو بدقة متناهية في أغراض لم يوضع من أجلها.

سنقدم في الجدول بيانات أكثر تفصيلاً توضح الطريقة التي يمكن أن تتحد فيها مختلف «الشفافات» من العصر الحجري، ومختلف الصناعات الحجرية التي عرفها الأوروبيون بإفريقيا الشرقية وفق التقسيم إلى ثلاث حقب. ولقد عرضنا هذا الجدول ليكون دليلاً لمعارفنا الحالية وللدراسات الأساسية. ولا ندعي بأنه يحتوي على التأويل «الصحیح» ولا التأويل الذي سيعمر طويلاً بعد نتائج البحوث المستقبلية، أو بعد إعادة النظر في البحوث التي أنجزت. يجب أن يعتبر بكل بساطة دليلاً ودليلاً مرناً. إن بعض «الثقافات» المذكورة فيه (وغيرها من التي لم تذكر قصداً) ربما درست على حدة بالاعتماد على بحث أو أوصاف غير مكتملة، ومركزة على استكشاف ووصف موقع واحد وصفاً كاملاً وهذا من شأنه أن يشكك في وجودها كوحدة ثقافية، وتوجد ثقافات أخرى لها امتداد جغرافي أو تاريخي شاسع. ويقدّر بعضهم أن الأشولي من العصر الحجري القديم يغطي أكثر من مليون سنة بإفريقيا الشرقية ولا يمتد في كامل القارة فحسب، بل يمتد في جزء كبير من أوراسيا الجنوبية والغربية، ولقد امتد السنگوي (Sangoen)، في أول مرحلة من العصر الحجري الوسيط من بعض أجزاء إفريقيا الشرقية والجنوبية إلى أقصى الغرب من القارة. ومن الصناعات الأكثر حداثة والمثلة بإفريقيا الشرقية نذكر الستيلباي (Stillbayeis) والولطوني (Waltonien)

الذين وصفا لأول مرة وسميا في مقاطعة رأس الرجاء الصالح (بجنوب أفريقيا). و بفضل الاختصاصيون إطلاق أسماء جديدة ومتميزة على مختلف الأنواع بافر يقيا الشرقية إلا أننا فضلنا أن يكون عرضنا هذا مبسطا، مع الإشارة إلى بعض الصعوبات البنيوية وإلى بعض المراجعات المحتملة. ويمكن للقراء الراغبين في ذلك أن يتبعوا التطورات الجديدة والمجالات وذلك بالشروع في قراءة المؤلفات التي توجد منها قائمة في مراجعنا ولهم الخيار في استعمال مصطلحات أكثر تفننا.

ان هذا المقال وهذا الجدول مع حواشيهما غير مخصصين للمصطلحات، لأن المصطلحات لا تعني شيئا في حد ذاتها. ولذلك فإن الذي سيحاول حفظ هذا الرسم عن ظهر قلب، سيسئ إلى نفسه ويمكن أن يعرف العصر الحجري كحقة «ما قبل التاريخ» فحسب وأن يناقش وأن يدرس بطريقة مفيدة بالاعتماد على مصطلحات ورموز وضعها الأثريون. إن كل محاولة جديدة للاحاطة بتلك الحقة وبالمؤلفات المرتبطة بها، سواء عندما ينظر إليها في مجموعها أو عندما تحلل تفصيلا، تستوجب استيعاب المصطلحات المستعملة عند مختلف المؤلفين، وإن كانت مضطربة وباطلة في بعض الأحيان. ان هذا الفصل يشكل مدخلا إلى كل ما ألف حول تاريخ إفريقيا الشرقية في العصر الحجري، من أجل الاحاطة به.

الحواشي المتعلقة بالجدول

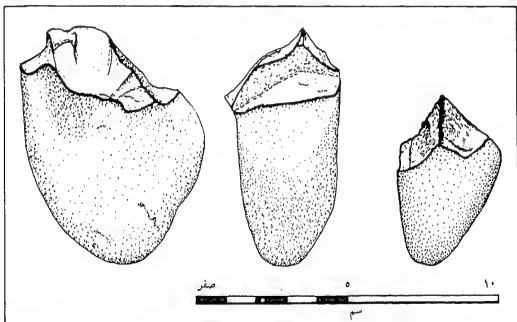
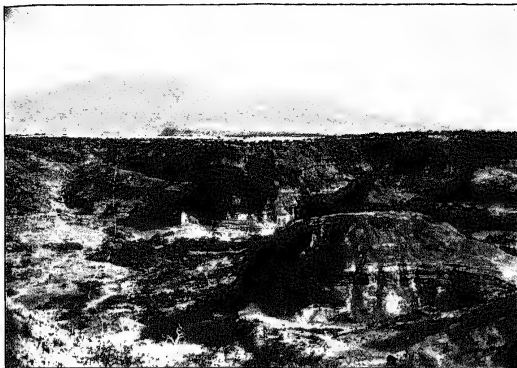
ان العمودين على الشمال يقدمان توافقات أجمالية مع الحقب الجيولوجية وتاريخ العصر الحجري الأول، المنطبق على منطقة الابيض المتوسط، أما شمال إفريقيا، وأوراسيا، فإنها لم يذكر إلا بصفتها مرجعين لها ارتباط خاص بفصول أخرى في هذا الجزء وبمصوص أخرى (تشمل مؤلفات قديمة خاصة بعلم الآثار المتعلق بإفريقيا الشرقية). فهذان العمودان غير ضروريين لفهم ما جاء في هذا الفصل.

ان المصطلحات «الأسفل» و «الوسيط» و «الأعلى» تدل على العصور القديمة علما بأن «الأسفل» هو أقدمها وهي مطابقة للتقاليد الجيولوجية العادية المركزة على المقطوعات من طبقات الأرض وتقدم هذه الجداول حسب ترتيب منطقي من الأسفل إلى الأعلى في أغلب المؤلفات الجيولوجية وفي عديد من المؤلفات الأثرية. و يعرض هذا الجدول حسب الترتيب من الأعلى إلى الأسفل طبقا للجدول التاريخي.

ان لفظ «الحجري القديم» ليس هو اللفظ الذي يعادل العصر الحجري المبكر الإفريقي «فالحجري القديم» يفيد، مثلما استعمل ولا يزال يستعمل بأوربا «عصر الحجارة بدون إنتاج القوت». وهو يقابل «الحجري الجديد» أي (عصر الحجر الجديد) الذي يفيد «عصر الحجر مع إنتاج القوت»، وهنا يعني الفلاحة والرعي السابقين لاستعمال المعادن. و يوجد تأويل مخالف شيئا ما «للحجري الجديد»، وهو مستعمل أحيانا؛ ويفضل أصحاب هذا التأويل معايير ثقافية مادية متقدمة، لا سيما الحرف أو الحجارة المهذبة، عوضا عن إنتاج القوت، وهناك تمييز في بعض الأنحاء من العالم لحقبة انتقالية (أو درجة ثقافية حسب بعض المؤلفين) تدعى «الحجري الوسيط». اننا لا نعتبرها هنا إلا لتسجل انه لا صلة لها بالعصر الحجري الوسيط الإفريقي، خلافا لحظا شائع جدا في الدراسات العامة المتعلقة بتاريخ إفريقيا.

ما قبل التاريخ في أفريقيا الشرقية

السنوات (والقريب) قبل الميلاد	التقسيمات	السمات الكهولوية التخصصية المعيرة	المصنوعات الحجرية الربنية	التقنيات	المعصر	السنوات (والقريب) قبل الميلاد
٣ ملايين	المعصر الحجري الأول	حجرات مشككة ومشقاة أدوات ذات وجهين (ذات وجهين، فاسية، الخ.)	أرودواني (مصنوعات الحشرات المشككة) أدوات	الرحلة الأولى	المعصر الحجري الأول	٣ ملايين
١ مليون	المعصر الحجري الثانية	أدوات مشككة ممنوعة من نويات مجزأة استخدام القايض: أدوات أصغر حجماً وأفضل تنقيهاً	أدوات ذات وجهين (ذات وجهين، فاسية، الخ.)	الرحلة الثانية	المعصر الحجري الثانية	١ مليون
٤٠٠٠٠	المعصر الحجري الأوسط	أدوات مركبة صغيرة دقيقة تصال وأدوات حجرية	أدوات ذات وجهين (ذات وجهين، فاسية، الخ.)	الرحلة الأولى	المعصر الحجري الأوسط	٤٠٠٠٠
١٥٠٠٠	المعصر الحجري الثالثة	أدوات مركبة صغيرة دقيقة تصال وأدوات حجرية	أدوات ذات وجهين (ذات وجهين، فاسية، الخ.)	الرحلة الثالثة	المعصر الحجري الثالثة	١٥٠٠٠



١. خانق أولدوفاي، تانزانيا الشمالية: يمثل الخانق فجاً عمقه أكثر من ١٠ متر في السهل، ويكشف عن طبقات متعاقبة متراكبة (أهمها الطبقات البحرية السفلى). و يبلغ عمر الطبقات السفلى حوالي مليوني سنة، وهي تحتوي على آثار لبعض أفراد الإنسان الأول (و بعض المخلوقات البشرية) وعن عدد من أدواتهم (من النوع الأولدفاي) وبقايا من أغلبيتهم. وفي مستوى أعلى، تم العثور على أدوات ثنائية الأوجه وأشياء أخرى من نوع الحياة الأشولية (المرحلة الثانية من العصر الحجري الأول) (تصوير ج. أ. غ. ساتون).
٢. العصر الحجري المبكر. المرحلة الأولى: أدوات أولدوفانية غطية (حصى مشكّلة).

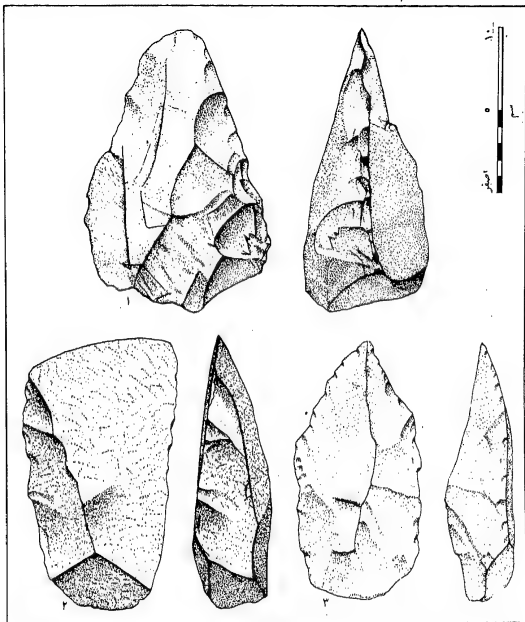
إننا لا نحدد تقريبا في مجموع المناطق الأفريقية الواقعة جنوب خط الاستواء ما يعادل العصر الحجري الجديد الخاص بالأقسام الأخرى من العالم، لأن إنتاج القوت لم ينتشر قبل ابتداء عصر الحديد (٢). إلا أنه توجد بالأراضي العالية من الكينيا وشمال طانزانيا، شواهد تدل على إنتاج القوت (الرعي)، وعلى الأقل شيء من الفلاحة أيضا) بالعصر الحجري المتأخر النهائي، وذلك منذ اثنين أو ثلاثة آلاف سنة. إن تلك الشكافة وما لها من الحُرف وأقداح حجرية تدعى «العصر الحجري الجديد» من طرف بعض المؤلفين.

العصر الحجري القديم

المرحلة الأولى

يعود تاريخ الأدوات القديمة جدا التي صنعها الإنسان والتي نعرفها، إلى حقبة تتراوح بين مليونين إلى ثلاثين سنة، وبين مليون سنة على الأقل. ولقد وقع اكتشافها على شواطئ بحيرات قديمة ومستنقعات قرب الريفت فالي بطنانزانيا الشمالية، والكينيا وأثيوبيا. ولعل أقدم الأدوات المسحوقة تتكون من تلك الشظايا الصغيرة جدا من الصوان، المفصلة والمستعملة، والتي وجدت في مواقع عديدة من بحيرة تركانا ومن وادي أومورباثيوبيا. ويعتبر استعمالها مشكلا من المشاكل ومن تلك الأدوات ما هو موجود بكثرة ومعروف معرفة حسنة، وهي الحصاة الملساء المهيأة، والمعاصرة للشظايا أو الموالية لها بقليل. فهي حصاة من حجم قبضة اليد، وكتل صغيرة من الحجر، أخذت منها بعض الشظايا (بواسطة حجارة أخرى) لإنتاج أدوات قاطعة، خشنة لكنها صالحة للاستعمال. وبينما نجد أن الأشغال الصعبة ومنها ما يتعلق بقطع جلد حيوان، أو بكسر أو تهشيم مادة نباتية صلبة تستوجب عادة استعمال الآداة الأساسية التي تفيض باليد، فقد كان من الممكن أن يستعمل عدد كبير من الشظايا (وتوصف عادة، لكن عن خطأ، بأنها نفايات)، وهذه الشظايا أكثر رهاقة وبالتالي أكثر قطعاً، وأن يستفاد منها في أشغال أخف من غيرها وأكثر دقة، كإعداد حيوان مقتول للأكل، وصنع أسلحة خشبية، أو القيام بأشغال منزلية في المخيم. وفي الواقع فإن الدراسة المعمقة لهذه الصناعات المدعوة «بالسائورية أو صناعة الحصاة» المهيأة، لا سيما دراسة الدكتور ماري لاكي في ما يتعلق بفتح أولدواي حيث عثر عليها بالمستويات السفلى، أو مثلا فعل ج. شيفايون في ملكا كنتوري بأثيوبيا، تشهد بوجود نوع كبير في النماذج، ومهارة تكنولوجية هي أكبر ما كان يتصور من قبل. إن عبارة «حصاة مهيأة» عبارة متقضية بعض الشيء، كما أن عبارة «حصاة المهيأة» التي كثيرا ما تستعمل فيما يخص هذه المرحلة من العصر الحجري المبكر، هي عبارة غير صحيحة لأن الحجارة المختارة لصنع السواطير والشظايا وأدوات أخرى، لم تكن دائما هي الحصاة، يضاف إلى ذلك أن العظم، وكذلك الخشب كانا أيضا مستعملين. وإن أغلب الأثرين يفضلون تسمية تلك المرحلة الأولدو واثية، نسبة إلى أولدواي، بطنانزانيا الشمالية. وهذا لا يعني

(٢) وقدرة على هذا الرأي مؤلفون عديدون.



• العصر الحجري المبكر، المرحلة
الثانية: أدوات أشولية نعلية (مناظر)
أمامية وجانبية). ١. منقار (٢) أداة
شق (٣) فأس يلوية ذات وجهين.

طبعاً أنها صنعت لأول مرة بأولدوواي (٣).

وكان يظن أن صانعي تلك الحصى المهيأة، لا يصيدون ولا يقتلون الحيوانات الصغيرة مثل الطيور، والضباب والسلاحف والهيركسات، لتنمى ما يجمعون من ثمار ونباتات وحشرات، وقد أصبح من الثابت أنهم كانوا يقتلون حيوانات كبيرة إذ أنه يوجد بين العظام المستحجرة المكتشفة مع الأدوات، أو قرب المحميات، عظام فيلة أو طباء كبيرة. ويمكن أن تكون بعض هذه الحيوانات قد ماتت ميتة طبيعية، أو أنها جرحت عرضاً أو قتلها أسود أو غيرها من اللواحم. ولكن من المحتمل أن البعض الآخر قبض عليه، في ذلك العهد القديم بواسطة الفخاخ، أو دفعها إلى المستنقعات جهماً من الصيادين الذين يفتكون بها بنصالحهم أو بدبابيس أو بقذائف حجرية.

وكان الصيادون يستهلكون جزءاً من اللحم بعين المكان الذي قتل به الحيوان، أما الباقي فكثيراً ما كان ينقل إلى الخيم ليقسم على ما تبقى من الجماعة، بما في ذلك النساء والأطفال، لأن ما يبقى من ذلك الحيوان كثيراً ما يشمل عظام حيوانات مختلفة مخلوطة بأدوات متنوعة كانت تستعمل للقطع، والكشط، والمهرس، فهي تشكل شواهد مهمة عما قد يكون محل سكن في هذه المرحلة القديمة جداً من الإنسانية. إن دراسة مواقع الآثار، تفيد فضلاً عن ذلك أن حواجز ضد الرياح كانت قائمة. وقد رأى البعض في دائرة حجرية بأولدوواي أساساً قديماً لكوخ أو ملجأ خشبي، ومن المحتمل أنه كان مغطى بالجلود. ولقد استعملت لنفس الغرض مسطحة اصطناعية في ملكا كنتوري.

لقد أبرزت الوجود متناجم من الحصى المهيأة ابتداء من جنوب إفريقيا إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط فضلاً عن المواقع العديدة الموجودة بشواطئ البحيرات التي تمتد من أولدوواي إلى بحيرة تركانا، والتي توجد فيها أقدم المواقع السكنية المعروفة. ولعلها تعود إلى عهد متطور أكثر من أقدم مرحلة بافريقيا الشرقية. ومن المحتمل — ولكن لا على سبيل اليقين — أن تلك الصناعة قد انبثقت أصلاً من إفريقيا الوسطى، أو الشرقية وانتشرت في كامل القارة واعتباراً لتاريخ تلك الأدوات، فضلاً عن تمازجها العرضي بافريقيا الشرقية مع العظام الإنسانية، يمكن أن تسب إلى أكثر البشر بدائية أو إنسان الجنوب، أو بالأحرى إلى الإنسان الماهر، كما يدعوا بعضهم إلى ذلك اليوم (٤).

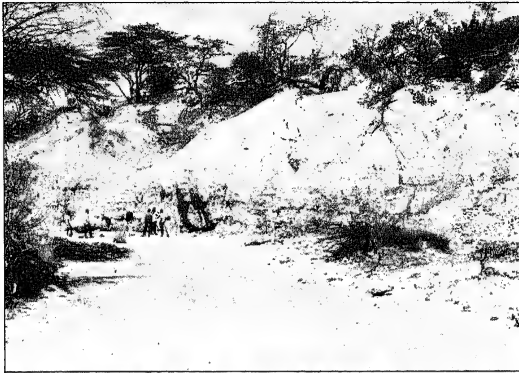
العصر الحجري القديم

المرحلة الثانية

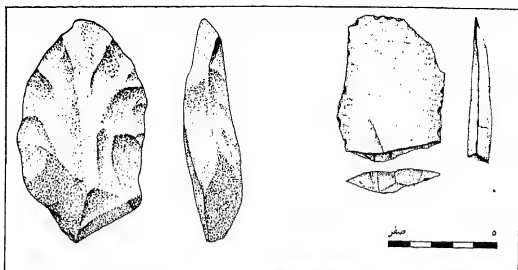
إن الأثولي أو «حضارة ذي الوجهين» منتشر أيضاً بافريقيا انتشاراً الأولدواي، وتوجد به مواقع أكثر. ولعل ذلك يعود إلى وجود سكان أكثر عدداً، كما يعود إلى صناعة عدد متزايد من الأدوات

(٣) — إن الرسم الاملائي «أولدوواي» (Oldoway) مشتق من الصيغة الألمانية لكلمة أولدوواي (Oldoway) المكتوبة هكذا على الحوائط الأولى. واسم المكان من أصل ماسايي، والصحيح أن نكتب «أولدواي».

(٤) انظر الفصل ١٧ من هذا المجلد.



● إيسميلا، مرتفعات طانزانيا الجنوبية. ١ - منظر على أرض الحفر المتحات يحشف عن الطبقات التي تتعرض فيها الأدوات
الاشولية للشحاحات ؛ ٢ - مجموعة من الأدوات ثنائية الواجهة، من فؤوس وأدوات أخرى أشولية (في الوسط، مكشط ملاط لبيان
القياس النسبي للحجم).



- (١) العصر الحجري الاوسط والادوات الانتقالية: الى اليمين فوفج لسن مذهب يمكن تركيبه على مقبض، أو ربما كراس لرمح.
- (٢) أولدورجيسايلي، الوادي الاخندودي في كينيا، حفريات جارية في موقع كان مسكونا في الزمن الاشولي. (تصوير ج. أ. غ. ساتون).

ذلت الاحجام للكبيف، التي يسهل التعرف عليها. وبخلافه، للأولدوواي، يمتد الاشولي خارج افريقيا أي في آسيا الغربية والجنوبية وكذلك أوروبا الجنوبية والغربية. ان بدايته بافريقيا تعود الى أكثر من مليون سنة.. ولقد دامت منه التقاليد التكنولوجية طيلة مليون سنة الى عهد حديثة نسبيا لا تتجاوز مائة ألف سنة. ولقد سجل هذا المليون من السنوات تغيرات مناخية ملحوظة على المستوى العالمي (٥). وهناك احتمال قليل في أن تكون جميع المناطق التي وجدت بها أدوات أشولية مسكونة بصورة مستمرة، مع الملاحظة من جهة أخرى، أن الصناعات الاشولية كانت بالشرق من الهند قليلة أو مفقودة، ويدو أن الهند قد احتفظت بتكنولوجيا حجرية متميزة تنتسب الى نوع (الحصاة المهيأة) المتطورة. وهذا من شأنه أن يعتبر حدا ثقافيا بين الشرق والغرب، ان هذه الصناعة الأشولية التي كان فيها ذو الوجهين أكثر الأدوات تدولا، تستوجب أن تربط بوجود الانسان المستقيم، وهو شكل بشري وسط بين إنسان الجنوب والإنسان العصري. الا أن تطور الانسان المستقيم، نحو نماذج الانسان العارف الأولى، كان قد أخذ يتحقق في حوالي نهاية الفترة الأشولية.

لقد كانت افريقيا احدى المناطق التي جرى فيها تطور الانسان المستقيم، كما جرى بها التطور الثقافي الذي تدل عليه التقنيات الاشولية لصنع الادوات، وطرق من العيش كانت مجدية أكثر مما يمكن أن نتصور. ولقد ظلت تقاليد ثقافية أكثر قدما (ولعلها من النوع الطبيعي البدائي) ظلت قائمة لمدة معلومة جنبا الى جنب مع التقاليد الجديدة. ان أحسن دليل على ذلك يظهر من المستويات المتتابة من السواحل القديمة البحرية بأولدوواي حيث صنعت واستعملت معا أدوات متميزة أولدووايية وأشولية طيلة مدة تقدر بعدد من مئات آلاف السنوات، وذلك منذ مليون سنة تقريبا. ان الاشولي يشمل فضلا عن ذلك مراحل وتحولات متعددة، الا أنه لا يؤخذ بعين الاعتبار في دراسة عامة، الا التقسيم الاساسي بين الأشولي القديم، وهو أشد خشونة وأكثر بساطة والأشولي المتطور الذي يشمل أحسن ذوات الوجهين وأحسن القدامات. وتزدان المعارض في متاحف افريقيا الشرقية بمختارات من تلك الأدوات، وتعتبر الأدوات الآتية من إسميلا (من الاراضي العالية بطنانزانيا) من أجل الأدوات بالعالم. ومن الواضح أن «الأشولي المتطور» كان قد أخذ يتطور في مكان ما انطلاقا من «الأشولي القديم». وعلى كل حال ظلت بعد ذلك التقنيات الحديثة والتقاليد القديمة قائمة جنبا الى جنب لمدة معينة.

لم تكن افريقيا الشرقية، في العهد الاشولي، الا منطقة من مناطق العالم القديمة العديدة التي سكنها الانسان: فهي تشمل مواقع وفرت دراستها أدق المعلومات عن تكنولوجيا الانسان المستقيم والانسان العارف البدائي وعن اقتصادهما. فزائد على مواقع أولدوواي وسلاسل طبقات التي لا مثيل لها، وزيادة على مواقع أخرى بنفس المنطقة، توجد مواقع ألرغنسيلي Olorgesailie، وكريندوسي بالرفيت بالكينيا ومطرح أخرى بشرق بحيرة تركانا، ونسوغيزي والمواقع المجاورة بحدود طانزانيا وأوغندا، وإسميلا ولوكويرو بطنانزانيا الجنوبية، وملكا كنتوري Melka Konturé بأثيوبيا حيث اكتشفت أطوار عديدة من الاشولي.

ان التسميتين «ذو الوجهين» و «القدم» المطلقتين على النوعين المميزين أحسن تمييزاً للأدوات الاشولية، هما بطبيعة الحال من مصطلحات علماء الآثار المتفق عليها. ان ذا الوجهين لم يكن فأساً، بل كان على الأرجح أداة للاستعمال العام، وكان طرفها الحاد وقاطعها الطويلان يمكن استعمالهما للتفتيش والسلخ، فضلاً عن وظائفه الأخرى، و يصلح القدم لسلخ الحيوانات باعتبار طرفها القاطع. ان الفرق بين تكنولوجيات الأولدوواي والأشولي، هو في أغلب الأحيان كمي، ان مجموعة الادوات، مثل الادوات الفردية قد أصبحت الآن أكثر تميزاً. يضاف الى ذلك أن التقنيات الاشولية تسمح بصنع أدوات أكبر حجماً، لها قواطع أكثر طولاً، وحدود مشحودة لكي تستعمل سكاكين. ولتلك التقنيات تقطيع أكثر دقة، وأكثر اعتدالاً وانتظاماً بالوجهين، و يكون هذا التقطيع أحياناً بقارع من حجر كما في الأولدوواي، ولكن يكون في أكثر الأحيان بقارع خشبي أسطواني أو عظم حيواني طويل.

ان السكان طيلة العصر الحجري المبكر، كانوا يشكلون فرقا من الصيادين القاطفين، وكانوا يتحولون في كل فصل الى السهاسب والمناطق القليلة الشجر تبعاً لما يطرأ على الموارد الحيوانية والنباتية من تغيرات. ومن المحتمل أنهم كانوا يتفرون في بعض الفترات من السنة ويجمعون في آخر الفصل الجاف في فرق عددها أكبر، وذلك قرب بحيرة أو منطقة أخرى خصبة. ولقد رأى بعضهم ان التجمعات الضخمة من الادوات الاشولية ذات الصنع الجيد، بمواقع مثل إيسميلا وألورغسيلي قد تدل على إقامة خيمات سنوية.

ولقد اكتشفت الشواهد الأولى عن النار في إفريقيا الشرقية بمواقع أثرية أبرزت صناعات من الاشولي المتطور، وتؤرخ المؤلفات الموجودة ذلك الاكتشاف بخمسين ألف سنة تقريباً. وهذا التاريخ لا يخلو من الاحتراز، إذ توجد آثار لا نزاع فيها تدل على النار والطهي تركها الانسان المستقيم بأسيا الشرقية و باوروبا وذلك منذ نصف مليون سنة. و يبدو من المحتمل جداً، وان لم توجد حجة، أن النار قد عرفت وأن الطعام المطبوخ كثيراً ما استهلك طيلة جزء كبير من الاشولي بإفريقيا.

العصر الحجري الوسيط

ان سكان العصر الحجري الوسيط ينتمون الى نوع الانسان العارف، وربما كانوا في أول الأمر، ينتمون الى أنواع متفرعة عن الانسان العارف، ومختلفة قليلاً عن الانسان المعاصر. إن الانسان المصري (الانسان العارف) لم يكن قد ظهر فحسب في آخر العصر الحجري الوسيط بل ان الخصائص البدنية المميزة للأجناس الموجودة، قد ظهرت وتطورت بإفريقيا وفي غيرها من القارات. لقد سجل العصر الحجري الوسيط، من حيث وجهة النظر التكنولوجية، تقدماً مهماً. وهكذا تركت التقنية الأساسية لصنع أدوات الحجر والمتمثلة في نزع الشظايا من صخرة حتى يقارب شكلاً نموذجياً له حدود قاطعة صالحة للاستعمال، فاستعاض عنها بتقنية أكثر تعقيداً، تستوجب تهيئة النواة بنزع الشظايا نزاعاً دقيقاً حتى يكون له الشكل والحجم المطلوبان اللذان يسمحان باستخلاص الأداة الكاملة الصنع. ولقد استعملت موازنة لذلك تقنية تعتمد على فصل شظايا عادية تهذب بعد ذلك ليصبح لها الشكل المطلوب، فنتج عن ذلك صنع أدوات أقل حجماً، لها أشكال أكثر اكتمالاً، وتكون

عادة أرقع من أدوات العصر الحجري المبكر، وأكثر نفعا منها. ولقد سمح ذلك بتجديدات في الحقبة الثانية من العصر الحجري الوسيط كانت لها نتائج هامة، منها صنع أدوات حجرية منحوتة ذات مقابض من خشب ومن مواد أخرى. إن الحدود الورقية الشكل، التي تخصصت بها الصناعات الستيلباية، والتي تهذب بضغط دقيق جداً، كانت تثبت وتلصق في نواة ذات مقبض خشبي لتكون رمحا. وحدث أن ركبت بنفس الطريقة أدوات كثيرة ذات استعمال منزلي، مما استوجب تحضير الاصماغ والراتنجات وكذلك نجر الخشب وتقومه وحزه وهي أشغال يسرتها بلا شك المعالجة بالنار. إن هذه التطورات التكنولوجية بالعصر الحجري الوسيط كانت مرتبطة بالتطورات الاقتصادية، وعلى الأقل بالتحويلات المتعلقة بالتكيف مع البيئة وهنا يبرز سؤالان مترابطان، أولهما متعلق بالتغيرات المناخية (٦). إن تفاصيلها وضبط تاريخها، وكذلك مطابقتها للشاهد الأثرية ما تزال غير معروفة. ونكون متعشقين إذا فسرنا بعضها بالاعتماد على البعض الآخر. يضاف إلى ذلك أن هذه التغيرات المناخية من الجفاف إلى الرطوبة والعكس بالعكس، وهي قطار على توسع الغاب أو تقلصه، وعلى عدد البحيرات والانهار ومساحتها، مما له أثر على توزيع وفرة مختلف الموارد الغذائية، هذه التغيرات المناخية لم تكن شيئاً جديداً. فمن الضروري عندئذ أن نتساءل: لم تتسبب التغيرات المناخية الأكثر تقدماً في فترة تكنولوجية واقتصادية؟ لا يمكن، نظراً إلى وضع البحوث الحالية أن نعطي جواباً مرضياً على هذا السؤال، وإن كان من الممكن أن نتصور أن الضغط السكاني قد فرض وسائل أكثر نجاعة وأكثر تنوعاً لاستغلال موارد المحيط. ومهما كانت الأسباب فذلك ما وقع فعلاً بالعصر الحجري الوسيط.

أما السؤال الثاني فهو يتعلق بالتخصص الجهوي الذي سمح للإنسان باحتلال مناطق جديدة. إن الإنسان العارف كان يستعمل عبر العالم مرونته في التكيف تكييفاً فطرياً والتوسع في المكان. ولقد ظهر بأفريقيا تقسيم ثقافي واضح بين سكان المناطق العشبية أو السهول المشجرة قليلاً وبين السكان الذين يسكنون مناطق أكثر رطوبة ذات غابات أكثر كثافة. فتكونت عند الأولين تقاليد صيد الحيوانات الكبرى بالرمح. (وذلك لا يعني ترك جني الثمار)، بينما تعلق الآخرون بجني النباتات والثمار، وصيد السمك، والقتص في الساحل بواسطة رماح، وباستعمال فخاخ.

إن ذلك التخصص لم يكن في المرحلة الأولى من العصر الحجري الوسيط مطلقاً مثلما يدّعي بعضهم ذلك. فلقد عثر على أدوات تعرف باسم «فورسميثي» بالاراضي العالية من الكينيا، وكذلك في حواشي الغابات. وهذه الأدوات شبيهة بصناعات كندار (Gonder) وكربا وملكاكتوري ويعتبر «الفورسميثي» في كثير من الحالات، من الاشولي المتطور. فالأدوات الاساسية متشابهة لكن عادة من حجم أصغر وتجمع فيها تقنيات صنع جديدة. وتحالف تلك الصناعات «السنغونية» وهي أكثر انتشاراً. وقد عثر على أحسن النماذج منها حول بحيرة فكتوريا، وبالرفرت فالي الغربي بأوغندا الجنوبية، وفي روندا وطانزانيا الغربية. وتشمل تلك الصناعات خليطاً من الأدوات الأشولية ومن التقنيات الجديدة، إلا أن خصائصها الكبرى تختلف عن خصائص مظاهر

الفورسمي. إن مجموعات «السنفون» توجي أولا بخشونة صنعها، ويحتمل أن يكون ذلك علامة على نشاط تكنولوجي أكثر تنوعاً، لا على تفهق ثقافي. ويحتمل فعلاً أن تكون كثير من تلك الأدوات ذات المظهر الخشن أدوات استعملت لصنع أدوات أخرى، خاصة من خشب، بينما كانت المعاول الكبيرة تستعمل لاستخراج العروق التي تعتبر جزءاً من الحماية الخاصة بالمناطق المشجرة.

إن الشكل المتطور الذي برز فيه أولاً «السنفون» بإفريقيا الشرقية يوحي بأن أصله وتطوره، انطلاقاً من الأشولي، يستوجبان نسبتها إلى مكان آخر، إما في الوسط أو الغرب من القارة. ويمكن أن يكون انتشاره بالأجزاء الغربية من إفريقيا الشرقية قد وقع في فترة رطبة توسعت فيها حدود الغابة الاستوائية. ومن المحتمل أن مواقع الخيميات كان قائمة في مناطق مشجرة، على طول الشواطئ المشجرة، لا بالغابات الكبرى الكثيفة. ولنلاحظ أن توزيع مواقع «السنفون» المدروسة بمحوض الزاير يفيد أن دخول الغابة الاستوائية لم يزد إلا بقدر قليل عما حصل في الأشولي. ولكن أصحاب الصناعات «اللومبي» (التي تعتبر تطورا وتحويدا للصناعات السنغوية) — وقد اشتهرت برماحها البديعة الصنع، وذات السنان الحجري — كان أصحاب هذه الصناعات في المرحلة الثانية من العصر الحجري الوسيط يعيشون في وسط الغابات.

يوجد النموذج اللومبي أيضاً حول بحيرة فكتوريا وبمناطق أخرى غربية من إفريقيا الشرقية وكذلك بمحوض الزاير، وبينه وبين النموذج الستيلياني اختلاف من حيث الأسلة الوقية الشكل، وهو يوجد بالأراضي العالية العشبية التي تحف بالفرف، بالكينا وأثيوبيا، قرب بحيرة طانا (ملجأ كركوة) أو ديرداهو (كهف الشيم). وتغلب في مناطق أخرى، لاسيما في الجنوب الشرقي من طانزانيا نماذج مختلفة من صناعات العصر الحجري الوسيط. وهي أقل اختصاصاً، أو بالأحرى إلى أن يأتي ما ينافي ذلك. وللبعض منها شي من التقليل للعلم مع «السنفون — اللومبي». ويحتمل أن تكون وجدت تقاليد جهوية عديدة قد نتجت عن التكيف مع بيئات محلية، فحافظت، لما استقرت استقراراً نهائياً، على عدد من خصائصها المميزة، بسبب التقاليد الثقافية وبسبب الضغوط البيئية أو الاقتصادية. ويمكن أن تكون تلك العوامل الثقافية الجهوية مسؤولة عن التحول الذي يظهر واضحاً بإفريقيا الشرقية، بعد تبني التجديدات التكنولوجية من العصر الحجري الوسيط.

العصر الحجري المتأخر

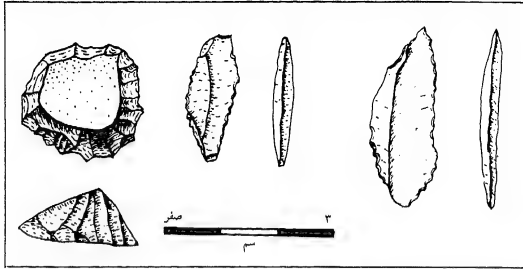
إن حدوث هذه التقنيات الأكثر تعقيداً بغية صنع الأدوات الحجرية، يعود إلى عشرين أو عشرين ألف سنة. وخلافاً للعصر الحجري الوسيط الذي كان التركيز فيه على صنع شظايا انطلاقاً من بقايا حجرية، أصبح التركيز في العصر الحجري المتأخر خاصة على الصفائح المفصلة وذلك باستخلاص مباشر أو غير مباشر لقطع ذات حواف متوازية طويلة رقيقة. وكان من الممكن بعد ذلك تثقيب تلك الصفائح بحسب الأشكال المرغوبة والاستعمالات المتنوعة جداً. وعلى العموم كانت القطع المثقبة صغيرة جداً. أنها «حجيرات» كان طولها أحياناً دون سنتيمتر واحد ويطلق الاثريون على الشكل المشترك اسم «قطعة الدائرة» التي لها قاطع مستقيم وحافة معكوفة. ولم يصنع ليقبض باليد فليستعمل كأداة فردية، بل ليدمج ويثبت بمقبض من الخشب أو العظم. ولقد أصبح وضع

المقايض طريقة محكمة وجارية. وكانت حجارات صغيرة جدا مثبتة معا، بعد ذلك في شق مقبض خشبي لتكون «أداة مركبة» مثل السكين أو المنشار. أما في المناطق التي بها صخور تصلح لصنع صفائح، لا سيما صخور الصوان، وأحسن منها الزجاج البركاني الداكن (السيج) الذي يوجد بأماكن قرب الرفت فالي بطانزانيا الشمالية، وبالكينيا، فقد كان من الممكن صنع قطع جبيلة، وصفائح حوافها معكوفة، ومثاقب، ومخافير ومكاشط وأنواع أخرى خاصة. أما في المناطق الأخرى فهي لا تحوي إلا حجر الصوان أو حجارة دون ذلك قيمة، لا يصلحان لتقطيع الحجر. ولئن أمكن صنع أدوات مفيدة اعتمادا على تلك المواد، فقد كانت تظهر لأول وهلة في مظهر الآلات الغير المنتظمة والخشنة. ولقد كان الأثر يكون يعثرون أحيانا على آلاف من الشظايا في موقع سكني من العصر الحجري المتأخر، إلا أنهم كانوا لا يستطيعون أن يصفنوا إلا اثنتين أو ثلاثا بالمائة منها حسب أشكال معروفة من الأدوات.

إن هذه التجديدات التكنولوجية كانت تسمح بالتعرف على عدد من التجديدات الثقافية أو الاقتصادية أو استخلاصها منها. ويحتمل أن يكون القوس والسهم قد استعملا في ذلك العهد للصيد. فكانت تثبت بحجارة أو اثنتان بعضا من خشب لصنع الأسنة، وكانت أخرى توضع في مكان أسفل من ذلك لصنع الحراب. ومن المحتمل أن تعود إلى ذلك العهد تهيئة السم الخاص بتلك الاسهم ذات الهياكل الحجرية. وتوحي عادات السكان الصيادين القاطنين الحالية أو الحديثة التي احتفظت ببعض تقاليد العصر الحجري المتأخر باستعمال الشباك في المناطق المشجرة. وكثيرا ما كان يستعمل العظم إذ أن اكتشاف المثاقب الحجرية والمثاقب العظمية يدل على خياطة الجلود لصنع ملابس ومخابئ. ولقد صنعت لأثني من الحبوب والعظم، وقشور بيض النعام، وحتى من الحجارة ويحتمل أنها خيطت بتلك الملابس أو استعملت كمقود. إن الرحى التي ظهرت في بعض المجموعات من العصر الحجري المتأخر، كانت تستعمل فيما تستعمل لطحن للمغرة (Ocre) الحمراء. ولكن يبدو أيضا أنه كان لها استعمال اقتصادي أهم وذلك لطحن أطعمة نباتية.

كانت بعض الحيوانات قائمة، في العصر الحجري المتأخر، في الهواء الطلق، قرب أنهار أو بحيرات، مما يستوجب أن تصور وجود واقيات من الرياح أو أكواخ متكونة من أعمدة، ومن عشب، يحتمل أنها كانت مغطاة بجلود. ومن العادات المشتركة أيضا في ذلك العهد الإقامة في الملاجئ تحت الصخور (تسمى أحيانا خطأ «الكهوف») توجد تلك الملاجئ الطبيعية تحت صخور شاطئية على طول بعض الأودية أو تحت صخور كبرى من الغرايت وفي كل مكان يمكن العثور فيه على ما يحمي من المطر والرياح والعاصفة. وكانت بعض تلك الملاجئ تحت الصخور في مواقع متميزة، على مرتفعات تسمح بمراقبة مساحات شاسعة من السهول وما فيها من حيوانات الصيد فكان يحدث لفريق من الصيادين أن يستريح بها ليلا، ولأسرة أو مجموعة من الأسر أن تستقر بها لسبب من الأسباب. وكانت بعض الملاجئ المتميزة تستعمل عاما بعد عام أو بالتناوب مدة مئاة وحتى آلاف السنوات طيلة العصر الحجري المتأخر. وذلك ما يفسر الطبقات المتتابعة من الحطام المتكون أساسا من رمد الطبخ، وعظام الحيوانات المستهلكة، والأدوات الحجرية وبقايا النحت.

وفي منطقة من الوسط — الشمالي بطانزانيا كان الجدار الصخري لتلك الملاجئ على شكلها كما



- (١) العصر الحجري المتأخر: نصل مظهر (الى اليمين)؛ ونصل هلالى (في الوسط)؛ ومكشط (الى اليسار)، مصنوعة كلها من الاوبسيديان، في الوادي الاخندوي في كينيا.
- (٢) آبيس دوك (ناسيرا) في تانزانيا الشمالية. تحت الظل الواضح في الصورة الى اليمين كشفت الحفريات عن مستقرات بشرية متعاقبة من العصر الحجري الحديث (تصوير ج. أ. غ. ساتون).



لاحظنا ذلك سابقاً، مزينا برسوم حيوانية، ومشاهد عن الصيد ورسوم أخرى. ولئن كان من المتعذر أن تربط تلك الرسوم الخاصة بطبقة معينة من مقطوعة من العصر الحجري المتأخر، مما يوجد بشك اللامحجج، فإن العلاقة العامة بينها تبدو واضحة للغاية. ويبدو أن أغلب جزء من الفن الذي بقي، يعود إلى الاليفيات الحديثة، في حوالي نهاية العصر الحجري المتأخر الذي يتجاوز جزء منه فترة انتشار مجتمعات العصر الحديدي. إن أصل فن الصيادين هذا وما يوافقه من معتقدات وعلم الكونيات يعود رغم ذلك إلى تاريخ قديم جداً.

إن احتمال وجود رصيد قديم من التقاليد، مضت عليه الآف من السنين منذ مطلع العصر الحجري المتأخر، بل ربما منذ العصر الحجري الوسيط، قد يكون فيه دليل على وجوه الشبه بين فن الصيادين بطنانزانيا وفي جنوب أفريقيا. وكذلك، الصناعات الحجرية بالمنطقتين، وإن كانت غير متماثلة تماماً، إلا أنها تشترك في بعض الوجوه العامة (غالباً ما تدعى «ولوطونية»). ولقد تبين في جنوب أفريقيا أن بعض المجموعات الحديثة من الفن الجداري وصناعات حجرية ولوطونية كانت من صنع قبيلة البوشيمان^٥، الذين تعيش فرق منهم عيشة الصيادين القاطنين ببعض المناطق. إن خصائصهم البدنية «سان» ولغاتهم «خوازان» أو اللغات ذات تنغم خاص (click) تعتبر كلها متميزة. ولا توجد فعلاً بأفريقيا الشرقية سوى منطقة صغيرة تستعمل فيها اللغات «ذات تنغم خاص». وهي بالذات منطقة الفن الجداري في الوسط — الشمالي من طانزانيا. إن أولئك السكان الناطقين بلغة «خوازان»، يحتفظون بتقاليد عريقة تنسب إلى الصيادين القاطنين (v)، وإن كانت لهم خصائص بدنية تدل على أصل «ساني» محتمل.

لا يمكن أن نفسر تفسيراً مقنعاً تلك القرابة بهجرة حديثة نسبياً قامت بها قبيلة «سان» من جنوب أفريقيا. ويبدو أنه وقع في وقت ما هجرة متواصلة قام بها أولئك الصيادون القاطنون من شمال طانزانيا إلى رأس الرجاء الصالح، ثم انقطعت طيلة الاليفيات الثلاث الأخيرة نتيجة لانتشار سكانها لغات وثقافة واقتصاد مختلف عنهم، ولهم نمط من العيش يقوم على الرعي والفلاحة. إن أصول هذا التبادل الثقافي في سباسب أفريقيا الشرقية والجنوبية، تنسب بوضوح للعصر الحجري المتأخر، بل إلى مرحلة «الستيبلاني» من العصر الحجري المتوسط. إن المسألة المتعلقة بهذه الأقدمية ستظل معلقة إلى أن تعرف وتدمج في المناطق المتوسطة هذه المرحلة من العصر الحجري المتوسط وصلتها بالعصر الحجري المتأخر التي تمثلها الصناعات المعروفة خطأ بالصناعات «الماغوسية». ويمكن لنا أن نلاحظ أن «الماغوسي» في إثيوبيا يأتي في مواقع عديدة مباشرة بعد الستيبلاني، وهو متميز عن هذا الأخير بتنوعه الكبير.

إن هذا القول بوجود تقاليد عريقة خاصة بثقافات السباسب في العصر الحجري المتأخر، قد يفسر بعض التنوعات الجوية الملحوظة في النصف العام من «الولوطوني». وكان الأثر يون، في الماضي يملون، إلى أن يدجوا فيه كل الصناعات التي فيها عنصر حجري صغير مطبوع، سواء بأفريقيا الشرقية أو بأفريقيا الجنوبية. ومن الممكن ألا يكون لبعض تلك الصناعات، في الأقسام الشمالية جداً من

٥ في النص الطبع «سان» عوض بوشيمان، تعليق المراجع محمد القاسمي.

(٧) انظر الفصل الحادي عشر من هذا المجلد.

إفريقيا الشرقية، إلا علاقات ضعيفة جداً، كما يمكن ألا يكون لها صلة بالسكان البوشيمين بالجنوب. فضلاً عن ذلك قد يكون من المنتظر العثور في الأجزاء الغربية من إفريقيا الشرقية، على تقاليد متميزة، تقيم الروابط مع حوض نهر الزايزير الذي ازدهرت فيه صناعات «التشيتولي» المتفرعة المكتسبة عن صناعات الغابات والمناطق المشجرة من العصر الحجري الوسيط («سغون — لو بمبي»)، إلا أن تلك الروابط ليست واضحة، باستثناء رواندا.

ومع ذلك، توجد منطقة تختلف عن غيرها من المناطق، وهي منطقة الأراضي العالية وأراضي المرتفعات في الكينيا. فمن المحقق أننا نجد بها في العصر الحجري المتأخر صناعات لها خصائص «ولطونية» وكذلك صناعات أخرى تغلب فيها أدوات صنعت على صفائح، عوضاً عن الحجارة الصغيرة. إن تلك الصناعات التي تدعى «قاسبية الكينيا»، تستعمل السبع المحلي، وهي تؤرخ بـ ١٠ ٠٠٠ إلى ٥ ٠٠٠ سنة قبل الميلاد. إن أحسن مجموعة هي التي عثر عليها الدكتور لايبكي بكباز كيف قرب نكورو في العشرينات من هذا القرن. وقد دامت هذه الصناعات المتفرعة أو المكتسبة إلى أقصى نهاية العصر الحجري ولهذا «القاسبية الكيني» ارتباط بتقاليد أكثر قدماً كانت منتشرة في جزء كبير من إفريقيا بالشمال الشرقي، في منطقة البحر الأبيض المتوسط. إلا أن مقارنة الصناعة الحجرية ليست هي الأمر المهم الوحيد. فالأهم من ذلك أن نلاحظ أن «القاسبية الكيني» والذين صنعوه يمثلون انتشار الحضارة السوداء نحو الجنوب الشرقي، تلك الحضارة المرتكزة على استثمار الموارد المائية. وقد امتد الانتشار إلى إفريقيا مثل الوشاح، بجنوب الصحراء، وفي أعلى وادي النيل باتجاه إفريقيا الشرقية.

وقد وقع ذلك الانتشار في رطوبة مؤقتة، صعد فيها مستوى البحيرات والأنهار القوية وبلغت تلك الحضارة غلّاها نحو الألفية السابعة قبل الميلاد. وكان أولئك السكان الساحليون يصطادون الأسماك والحيوانات المائية مستعملين الرماح والمخفافات العظمية الخصوصية المصنوعة بأدوات حجرية. ويمكن العثور عليها في منطقة بحيرة أدوارد بالمرتفعات في الغربي، وبحيرة رودلف وعلى الضفاف القديمة لبحيرة نكورو. إن صناعة السلات والفخار كانت معروفة. وكان الفخار يمثل أقدم الاختراعات لحثي الخوف بالعالم. كل ذلك يبين نمط عيش قارة كان السكن الرئيسي فيها على شواطئ الماء.

العصر الحجري الجديد

إن انعدام الأدلة الأثرية جعلتنا نرى منذ سنوات قليلة أن تربية الماشية وعلى الأخص الفلاحة، كانت قليلة التطور بإفريقيا الشرقية قبل الألفية الأولى، باستثناء المواقع المحاذية لوداي النيل، والتي تنسب إلى العصر الحجري الجديد للخرطوم. ولا يزال من المجازفة بالرأي القول بأن مجموعات الصيادين الذين استقروا جزئياً ابتداءً من الألفيتين السابعة والسادسة حول البحيرات الكبرى والأنهار كانوا هم السبب في نشوء الرعي وربما الفلاحة أيضاً، وذلك تحت ضغط المحيط

(سرعة انقلاب منطقة الصحراء إلى أرض قاحلة ابتداء من الألفية الثالثة)، وبفضل ما لديها من تكنولوجيا متقدمة (كانوا يستعملون الفخار). ويمكن على أية حال أن تعتبر أنهم تأثروا بتقنيات إنتاج الأغذية الجماعي (تربية الحيوانات الأليفة والنباتات) التي انتشرت بالمنطقة كلها ابتداء من الألفية الثالثة وسمحت بمواجهة اثر التغير المناخي على الموارد الطبيعية.

إن أكثر المواقع شهرة بتلك الفترة، هو موقع الشهاب بالسودان، الموجود على سطح مرتفع قديم، يبعد قليلا إلى الشمال من ملتقى النيل الأزرق والنيل الأبيض. فلقد عثر أ. ج. أركيل، فضلا عن الصناعة الحجرية ذات الحجيرات الهندسية، على خطافات (مكتوبة القاعدة) وضنارات صدفية تشهد بشعاطي الصيد البحري، وقافات (Herminettes)، من الربوليت، ومنقر وفؤوس صغيرة مصقولة من العظم، وفخار منقح حسب خطوط متماوجة ومنقطة. ومن الآثار العظمية، توجد آثار الأنواع من الوحوش، أكثرها أسماك، ولكن يوجد بينها ما هو قليل جدا من الضأن. ويعود تاريخ موقع الشهاب إلى النصف الثاني من الألفية الرابعة. أما في موقع كاديرو القريب منه من حيث المكان ومن حيث الآثار المادية، فإن تسعة أعشار من البقايا العظمية هي بقايا أنواع أليفة لاسيما البقر يات.

ولقد عثر في أثيوبيا، بأغردات (إريتريا) على آثار أربع قرى للاقامة النصف الدائمة. إن الأدوات، وإن كانت مقصورة على الزراعات السطحية، يوجد بينها فؤوس، وهراوات من الحجر المقصول وأوان وأساورة من حجر، وفخار ذو زخرفة ناتئة، وشاريات محزوزة، ولآء، وليريات (Laberts)، ومنجدات (Pendentifs). على أن وجود طاحونات وهراوات، وتمثال صغير من حجر يرمز لبقرة ويشابه التمثالات التي يشيدها فريق من (وهم سكان مركزهم النوبة وغربها)، كل ذلك لا يكفي كدليل على وجود اقتصاد في ميدان الزراعة والرعي. كل ما في الأمر أنه يوحي بذلك، ولقد عثر على آثار صناعة للأحجار الصغيرة الهندسية الشكل وعلى أوان من فخار، وكذلك على حبوب الذرة الألفية (Eleusine coracana). وذلك بمليجا كودبرا (الألفية الثالثة)، قرب أكسوم. ولم يعثر في أي مكان من أثيوبيا على آثار قديمة لزراعة التشف (Era grostis tef) الذي ظل من الحبوب الأساسية المغذية جدا لاجناس كثيرة بشمال أثيوبيا، ولا على آثار موز الحبشة (Ensete edule) الموجود بكثرة بالجنوب كما لم يعثر على القمح ولا على الشعير.

وإذا كانت الأدلة على وجود الفلاحة في الكينيا ما تزال مفقودة، فإن وجود الرعي مؤكد على طول الريف فالي، حتى طانزانيا، وبالمرتفعات العليا أيضا. وهذه الأدلة متمثلة في مقابر (نجور، ريفر، كاف، قرب ناكورو، كرنكت كاف، قرب مولو، وهي مقابر تحرق فيها الموق، تكون كودو كراتر، طانزانيا الشمالية، قبر تحت بدوة صنية (Cairn)، وفيها الهيكل العظمي في وضع انطواء) رمعها أدوات «أثرية» يوجد ضمنها دائما الطاحونات والمهارس، كما أن هذه الأدلة متمثلة في مساحات سكنية (كريسن آيلند، قرب بحيرة نايفاشا، ناروسو جنوب الكينيا) إن ٩٥٪ من الحيوانات المجموعة في ناروسو، حيوانات أليفة وهي تنوع كما يلي: ٥٧٪ من الماعز والضأن مقابل ٣٩٪ من البقر يات. إن دراسة العظام قد بينت من جهة أخرى أن أغلبية الماشية كانت تقتل مسنة وأن الماعز والضأن كانا يقتلان وهما أكثر صغرا. ونستنتج من هذا أن الماشية كانت تربي عليها

(أو لدمها كما تفعل قبيلة مسئيس الحالية) أكثر منه للحمه. وهنا أيضا لا يعتبر وجود الطاحونات والمهارس الا دليلا غير مباشر على نوع من الفلاحة.

ان دخول الرعي والفلحة، المترابطين غالبا في الاقتصاد المزدوج، كثيرا ما اعتبر بالنسبة لافريقيا الشرقية على أنه ناشىء عن تأثيرين، أحدهما أتى مما أصبح الآن جنوب الصحراء، الى المنطقة السودانية، والآخر أتى من مصر الى النوبة (الخرطوم). ولقد بلغ العصر الحجري الجديد المرتفعات العالية الأثيوبية ثم انتشر نحو الجنوب اعتمادا على تحركات صغيرة يقوم بها السكان المتكلمون باللغة الكوشيتية. الا أن الانتقال الى اقتصاد إنتاجي، قد وقع، كما يقع كثيرا، بطريقة متدرجة، ولقد أتى علم الآثار بالدليل الذي يشهد بأن الطبقة السفلى قد لعبت دورا هاما في المستوى الشقائي والتكنولوجيا على السواء. ولقد دام صيد الحيوانات وصيد السمك ولم تطرأ قطعة مع الفلاحة المادية الخاصة بالجماعات الصغيرة من صيادي السمك المستقرين جزئيا قبل الألفية الثالثة، والصيادين القاطنين الذين لم يكونوا يعرفون صناعة الفخار (القابسي الكيني والمنتيتي). فان كان لا يوجد الى الآن براهين على تطور الفلاحة تطورا كبيرا، فاننا نعلم أنه سبق أن وُجدت وأن تربية الضأن، والماعز ثم البقر، قد تطورت تطورا سريعا ابتداء من الألفية الثالثة وخاصة الألفية الثانية. وعندما ازدهر العصر الحديدي من المحتمل أن يكون أولئك السكان قد تجاوزوا مرحلة ما قبل المرحلة الفلاحية.

تقاليد صيادي السمك بإفريقيا الوسطى والشرقية

كان طقس إفريقيا، منذ ثمانى أو عشرة آلاف سنة رطبيا جدا. ولهذا كانت البحيرات مترامية الأطراف وأكثر عددا. وكانت المستنقعات أكثر اتساعا والانهار قوية جدا وطويلة للغاية ويجاري المياه الفصلية أكثر انتظاما. وفي هذه الأحوال كان نموذج من العيش خاص جدا ومرتب ارتباطا وثيقا بالماء، والصفاف ومواردها الغذائية، التي تستدعي تقنيات متقدمة في الصيد البحري، وصنع المراكب، قد استقر جميع نواحي القارة، من الساحل الأطلسي الى حوض النيل، فامتد على مساحة واسعة، تنحصر بين صحراء متقلصة جدا، وغابة استوائية متسعة جدا، و يشهد على تلك «الحضارة المائية»، كما نسميها، مواقع أثرية عديدة بالأراضي العالية من الصحراء والحاشية الجنوبية من الفيضاني، انطلاقا من النيجر الأعلى الى أودية الانبار (رفتنالي) بإفريقيا الشرقية ونشط الاستواء. فلقد عثر عليها، بالرفرت الغربي في أيشنغو على الشاطئ الكونغولي من بحيرة عيدي أمين (ادوارد سابقا)، ونجد بالرفرت الشرقي مواقع مشابهة على حافة خطوط الشواطئ المستحجرة الأكثر علوا من بحيرتي تركانا وناكورو. أما الاول فيقع في قعر الانبار، وأما الثاني، الذي يقع أكثر جنوبا، فهو في الجزء الجبلي من الرفرت فالي. ان أكثر المواقع أهمية، والذي لا يبعد عن المكان الذي تتسع فيه بحيرة ناكورو، قد سمي كمبرز كاف، وهو في الواقع ملجأ تحت صخرة اكتشفه حوالي ١٩٢٠م الدكتور ل. س. ب. لايسكي. ولقد وجد في أعماق الطبقات آثارا من «العصر الحجري المتأخر» الذي ينسب الى «القابسي الكيني». ان وجود خزف متميز وصناعة عظمية خاصة، وتاريخ هذه الطبقة

الحديث (حوالي ٦ ٠٠٠ سنة قبل الميلاد) تسمح لنا بأن نعتبر «القابسي الكيني» شكلا محليا من التقاليد الكبرى التي يخصص بها صيادو السمك الافريقيون. ان ما وجد في الخيمات القديمة والمنازل الساحلية من حسكات الاسماك وصدفات الرخويات، وعظام الشدييات والزواحف المائية (الجرذ، وسلحفاة القصب وحتى فرس الماء والقمح) يوحي بمعلومات اقتصادية مهمة. الا ان ذلك لا يعني أن الحيوانات البرية، لم تكن تصاد هي أيضا. ويحتمل جدا أن تكون النباتات التي تغذيها المياه الجارية والمستنقعات قد زُرعت بانتظام واستهلك. وكانت تقنيات اقتناء الاغذية وتحضيرها تتميز ببعض الخصائص المتقدمة جدا، ومن ذلك رؤوس المخطافات المنحوتة في العظم (بواسطة أدوات حجرية) وأواني الخزف. وكانت المخطافات مثبتة بطرف رمح خشبي له روابط ليفية، وكانت تصلح لقنص الاسماك وحيوانات مائية أخرى، من الفلوكات أو من الضفء. ولقد كان صنع الفخار جيلا، وكثيرا ما كان مزخرفا بحسكات سمكية، أو هذفات، أو رسوم تدعى «الخط المتعرج»، «والخط المتعرج المجهز». ورغم أن تحولات قد طرأت على تقاليد «الخط المتعرج» «والخط المتعرج المجهز»، فإنه على غاية من الخصوصية، مما يمنع أن يخلط، في تلك المناطق الشاسعة، مع نماذج حديثة من الفخار. ويمكن أن تكون السلالات التي كانت تستعمل لنقل الاسماك بعد صيدها، قد أوحى ببعض الرسوم المنمقة، وكذلك بأشكال تلك الأواني الخزفية التي اتسعت فتحاتها كثيرا.

ان تطور هذه الحضارة بالمواقع الموجودة على الضفاف البحرية الشرقية الافريقية، وعلى طول النيل وبالصحراء يمكن أن يؤرخ بين ٨٠٠٠ سنة و ٥٠٠٠ سنة. ولقد بلغت أوجها وازدهارها في الالفية السابعة. ويبدو أن المخطافات الأولى قد نحتت قبل ذلك بقليل، بينما لا يعود اكتشاف الفخار الى أبعد من ٦٠٠٠ سنة. ان تلك الأواني ليست أقدم أواني افريقيا فحسب، لكنها تعتبر اول الفخار المصنوع بالعالم. ومن المستبعد أن يكون ذلك الاختراع قد حدث بالمصادفة فقط في مكان ما بتلك المنطقة من افريقيا الوسطى..

ولا يوجد ما يوحي بأن أولئك السكان الساحليين قد تعاطوا، منذ سبع الى عشرة آلاف سنة، الفلاحة سواء بافريقيا الشرقية أو بأماكن أخرى من موطنهم الشاسع. لكن مدى انتشارهم، والسرعة التي وقع بها، مع اعتبار التعقد التكنولوجي لهذا النوع الجديد من الحياة، تؤكد ازدهار تلك الحضارة وإشباعها الشقايقين طيلة تلك الفترة ذات الرطوبة القصوى. إن اعتبارها مجرد نوع من الشقافات المعتمدة على الصيد والجمع، المنتسبة الى «العصر الحجري التأخر» معناه تجاهل خصائصها ومنجزاتها. فن الممكن: أن أولئك السكان لم يعيشوا في قرى مستقرة بأسم معنى الكلمة، الا أنها استطاعت، بفضل مواد غذائية تضمها البحيرات الكبرى والأنهار، وتكنولوجيا قادرة على استغلال تلك البيئة استغلالا مفيدا، أن تنشئ عمرا بشريا أكثر أهمية وأكثر استقرارا مما أقامه السكان السابقون. ان السكان لم يزدادوا فحسب بفضل تلك العناصر، بل سمحت هذه العناصر فضلا عن ذلك بخلق مناخ فكري واجتماعي جديد تشهد عليه الصناعات التقليدية المعقدة، الضرورية لصنع الزواجر والمخطافات والسلالات والادوية، كما أن أسلوب العيش المتطور الداعي الى استعمالها، يشهد على ذلك.

ان الدور الذي لعبته صناعة الخزف هو على غاية من الاهمية. ويبدو أنها تجاوزت ما أقره عموما

المؤرخون، وحتى بعض الأثرين. فأواني الخزف المكونة من مادة هشة، لها أهمية قليلة في المجتمعات المتحركة، التي تعوزها القواعد الثابتة، وبالتالي فإن أهميتها قليلة بالنسبة لجميع الصيادين بافريقيا. إلا أن الخزف يحوي بالنسبة للمجتمعات المنظمة، معنى له شحنة حضارية تعبر عن طرق جديدة لتيسير إعداد الطعام وطبخه.

إن شكل أولئك التيجان الساحلين من افريقيا الغربية والشرقية قد تطور. إلا أن بقايا الهياكل العظمية المكتشفة تفيد أن الاصل كان أساساً زنجياً (٨). و يبدو أن انتشار ونجاح المجتمعات التي تستغل الموارد المائية، منذ تسع أو عشرة آلاف سنة، قد أقرا نهائياً تفوق نوع زنجي بجميع الرقة السودانية الى النيل الأوسط والنيل الأعلى والقسم الشمالي من افريقيا الشرقية. ومن المحتمل أن هذا التفوق كان يتماشى مع التوسع الجغرافي، وتشتت وتنوع الاسرة الكبرى (أو الفصيلة) اللغوية التي يسميها غرينبرغ بالاسرة النيلية الصحراوية. وهي اليوم موزعة على طول المنطقة التي تبتدى من أعلى النيجر وتنتهي بطانزانيا الوسطى. إن ذلك التوزيع يوحي بالنسبة لتلك الفصيلة المنتشرة جداً بأقدمية بها آلاف عديدة من السنوات. وهو قدم يفوق كثيراً قدم الاسر اللغوية الاخرى (مثل أسرة النيجر - كونيكو، وعدة فروع من الاسرة الافريقية الاسيوية) التي تسربت الى تلك المنطقة من افريقيا الوسطى. فمن المناطق التي بقي بها النيلي - الصحراوي، بما في ذلك فرعه الشرقي، وهو «الشاري - نيل» نذكر المناطق التي تكثر فيها البحيرات والبرك والانهار، أي المناطق التي استطاعت فيها حياة الصيادين المربوطة ربطاً وثيقاً باللغة النيلية الصحراوية كما تصورها، أن تدوم كثيراً، حتى بعد أن طرأت عليها تحولات.

إن هذا العرض عن الحضارة الكبرى المزدهرة بالمحيطات المائية، وعن اللغات النيلية الصحراوية، قد ساقنا قليلاً الى أبعد مما كان يتطلبه هذا الفصل من هذا المجلد. إلا أنه جانب مهم جداً، لم يعن به الى الآن في تاريخ السكان الافريقيين. وهومن الجوانب التي تركت آثاراً لا نزاع فيها في السكان التابعين، وفي ثقافتهم واقتصادهم، وذلك على مستوى عظيم من هذه القارة بما في ذلك افريقيا الشرقية.

على أنه ابتداء من ٥٠٠٠ سنة تقريباً قبل الميلاد، حدث جفاف عام في المناخ، فنزل مستوى البحيرات نتيجة ذلك، وطرأ ركود على اقتصاد استغلال الموارد المائية. ولقد دام ذلك الاقتصاد قليلاً رغم ذلك بالرقت فالي بالكينيا، وحلّ بتلك المنطقة في الألفية الثانية أو الأولى قبل الميلاد، سكان جدد من الثوبيا، وماشية، وربما بعض العادات الفلاحية.

(٨) الملاحظة المطردة والمتعلقة بالاصل الكوكازي لسكان «الكبي القابسي» تعتمد على تأويل باطل للأعمال لايبكي في كمبلكاف وغيره.

الفصل العشرون

أفريقيا الجنوبية قبل التاريخ

بقلم: ج. دسموند كلارك

البشرىات الأولى

كان داروين وهكسلي يعتبران أن المناطق المدارية، وربما القارة الإفريقية كانت مسكن الإنسان الأصلي، لأننا نجد فيها الشمينزي والغوريلا، وهما أقرب الأقارب اليه بين المقدمات البشرية. ان تلك البنجديات، وكذلك الجد المشترك للقردة الشبيهة بالانسان وللانسان هي من الشجرىات. أن خصائصها المرفولوجية تبين أن تطورها كان قد جرى اثناء حقبة طويلة جدا من التكيف مع الغابات المدارية، وذلك بالاراضى المنخفضة والجبال المتوسطة الارتفاع. أما الإنسان، فانه لم يتطور في الغابة بل في السباسب، ولقد عثر بأفريقيا الشرقية والجنوبية، على البشرىات الاحفورية القديمة جدا، وذلك في المروج النصف الجافة والغابات القليلة الأشجار ذات الاوراق الناقصة ويحتمل أن يكون أجدادهم قد واجهوا مشاكل خاصة للبقاء على قيد الحياة وقد توفرت لهم موارد تفوق كثيرا بتنوعها الموارد التي توفرت للقردة الشبيهة بالإنسان.

لم يحصل الى الآن اتفاق حول العهد الذي تميزت فيه فصيلة البنجديات عن أسرة البشرىات. ان الاعتماد على تأويل الشواهد الاحاثية، يفيد أن ذلك التميز قد حصل في السينوزيوك القديم أثناء الميوسين الاسفل، وذلك منذ ٢٥ مليون سنة وعلى النقيض من ذلك فان الأعمال الجارية بالاعتماد على البيوكيمياء المقارنة للمقدمات البشرية (الصبغيات، بروتينات المصل، واليحمور، هيماغلوبين) والفروق في المناعة بين الإنسان والقردة الشبيهة بالإنسان وقردة العالم القديم) تبين أن التميز لم يكن سابقا لعشرة ملايين من السنوات، وحتى لاربعة منها. وكان يظن أن العلامات الملحوظة على الأحفورات نفسها قد يكون أكثر اقادة. ولكن ذلك لم يتحقق بتاتا مع

الأسف. فإذا اعتبرنا أن الترتيب التاريخي الطويل صحيح، فإن الحقبة الأساسية التي كانت البشر يات قد تميزت فيها تميزا محسوسا عن سلالة القردة الشبيهة بالإنسان، من الميوسين الحديث والبلبيوسين القديم (من - ١٢ مليون سنة إلى - ٥ ملايين سنة) لم تتوفر لنا إلى حد الآن إلا أحفورات قليلة عن البشر يات بافريقيا. فلم تتوفر لنا إلا في آخر البلبيوسين مواد متفرقة، ويمكن أن نعتبر أن البشر يات الاحفورية في تلك الفترة أمر لا يشك فيه.

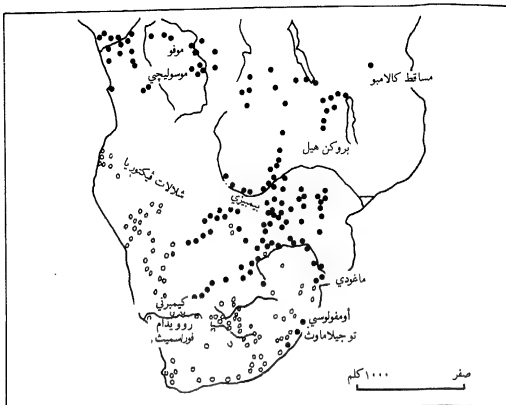
أن قرد راما فكري، الأحفوري من الميوسين الحديث، اكتشف في فور ترنان بحوض بحيرة فكتوريا و يعود تاريخه إلى ١٢ - ١٤ مليون سنة. فلا نعرف منه مع الأسف إلا أطرافا من الوجه والأسنان، ولكن خصائص تلك الأطراف تدعو إلى تصنيفه ضمن البشر يات غير أن التيقن من أن باقي جسمه ونظام تنقله لا يختلفان أساسا عما هما عند البشر يات، يستوجب وجود آثار أقل فقطعا ولا سيما عظام قاعدة الجمجمة. ولذلك يجب مع الأسف أن نعلق حكمتنا مؤقتا قبل القول بأن هذا النموذج قد تميز تميزا كافيا بصفته من البشر يات: وكان قرد راما يعيش في الغابات الشبيهة بالسرداب وفي مجاري المياه والسياسب وذلك في وقت كانت فيه الغابات الدائمة التي لم يبق لها أثر إلا بمجوب المنحدر الكبير من جنوب افريقيا، أوسع مما هي عليه اليوم. ولما كان وجود قرد راما ثابتا بافريقيا الشرقية وبالشمال الغربي من الهند، فهو إذن محتمل الوجود بالسياسب من افريقيا الجنوبية.

ان الإشارات الأولى التي تدل دلالة قطعية على وجود البشر يات تعود إلى خمسة ملايين سنة، وهو عهد كانت فيه قردة الجنوب، أو (البشر القردة) موجودة بالقسم الشرقي من الوادي الكبير من الريف. ان أولئك البشر القردة كانوا يقيمون بسياسب افريقيا سواء الجنوبية أو الشرقية و يعتقد أن أقدم أحفورات افريقيا الجنوبية ترجع إلى آخر البلبيوسين أو البليستوسين القديم، أي - ٢,٥ إلى - ٣ ملايين سنة.

لقد عرف أكبر جزء من الحقبة الجيولوجية للبلبيوسين مناخا قارا نسبيا قد يسر تطور وتوسع أنواع متكيفة ببيولوجيا في السياسب. ولقد قضى على ذلك الاستقرار النسبي انخفاض الحرارة العام، والانقلابات البنوية والظواهر البركانية، وذلك على طول الوادي الكبير من الريف خاصة، وطرات في ذلك العهد تغيرات عظيمة أحيانا على نظام تصرف المياه الخاص بعدد من الأحواض النهرية والبحيرية وذلك أثر التواء بنيوي بالقرشرة الأرضية. ووافقت الحرارة المنخفضة التي تدل على بداية البليستوسين نقصا في نزول كميات الامطار وتحتففا، مما جعل أدغال كروتوتوسع كثيرا بافريقيا الجنوبية على حساب المروج والغابات.

ان هذه التغيرات الهامة بالمناخ وبالحيط قد فرضت على البشر يات تعديلات مهمة وتنوعا في الشكل مصحبا دعت إليها ردود فعل بغية التكيف مع الضغوط الجديدة بتلك البيئة (١) فمن الشابت أن جد البشر يات (سواء أكان ذا أربع أرجل أو رجلين) لمّا فارق الغابة في ذلك العهد نحو

(١) تعتبر لنغاباف، بافريقيا الجنوبية، غري مقاطعة رأس الرجاء، الجهة الوحيدة المهمة التي وفرت أحفورات من ذلك العهد. والموقع ليس بعيدا عن الشاطئ، والمحيط هو محيط أرضي ومصب نهر. وتوجد به حيوانات لثدية افريقية وافرة أشكالها عتيقة، بقدر تاريخها ب ٣ إلى ٥ مليون سنة. فان لم يعثر بها على أثر بشري، فانه توجد بها أحفورات مقدمات بشرية ويحتمل أن تكشف أعمال آتية في لنغاباف عن آثار بشرية يمكن مقارنتها بالآثار الموجودة بافريقيا الشرقية من نفس العهد.



- ١ توزيع مواقع فورسميث (الدوائر المفرغة) والمواقع الساجوية (الدوائر المصمتة) في أفريقيا الجنوبية (شكل ٢١ في كتاب «ما قبل التاريخ في أفريقيا» (بالإنجليزية) مؤلفه ج. د. كلارك، ١٩٧٠، دار نشر تيسيس وهندسون، لندن).
- ٢ مواقع الإنسان في عصر البليستوسين الأعلى (الدوائر المصمتة) وبعض مواقع الإنسان الإحفوري في عصر ما بعد البليستوسين (الدوائر المفرغة) في أفريقيا الجنوبية (شكل ٢٥ في الكتاب المذكور في تعليق الصورة رقم ١ أعلاه).

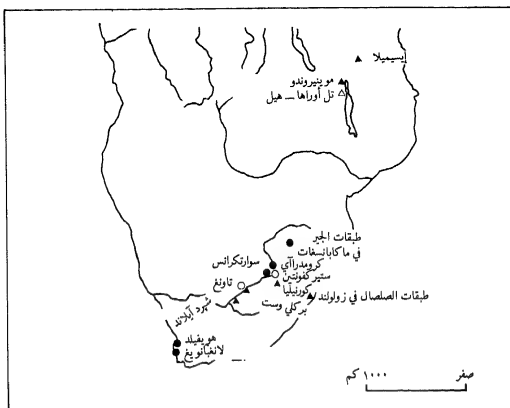


السباسب، وذلك في فترة من البلوسين، أو ربما قبل ذلك، كان قد خضع لتطور وراثي سريع نسبيا يسمح بتكيفه مع ظروف بيئية جديدة. ولذلك يمكن لنا بالنسبة للبلستوسين الأسفل أن نضبط ثلاثة أشكال متميزة من البشر يات بافريقيا الجنوبية، يحتمل أنها كانت من نفس النوع، وكانت متكاثرة فيما بينها.

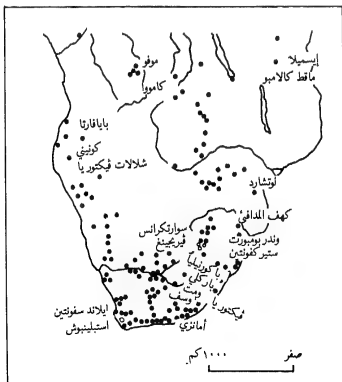
أن أول أحفور عن الإنسان القرد، وهو طفل، وقد استخرج سنة ١٩٢٤م من ثغرة مسدودة بالكلس بكهف، وذلك في تنغ، شمال مقاطعة رأس الرجاء الصالح بجنوب افريقيا. وفي ١٩٣٦م عثر على أول انسان راشد، في الترسبات القديمة بأحد الكهوف، ولكن هذا الاكتشاف وقع في هذه المرة بولاية ترانسفال، بمنطقة كروغزدر. ولقد عثر منذ ذلك الحين على بشر قردة عديدين وعلى بشر يات أخرى بالاعتماد على أعمال جماعية مكثفة، قد أجريت في مستوى الرواسب التي جمعها المياه بمحوض الرفت بافريقيا الشرقية وبالكهوف العميقة من التجد الكلسي بجنوب افريقيا التي كانت فيها الاحوال تساعد على المحافظة على الأحفورات من ذلك العهد.

وباستثناء تلك المناطق، فإن الاحفور الآخر الوحيد الذي نسب إلى الإنسان القرد، أصله من كوروتورو بمحوض بحيرة التشاد. إلا أن هذا النموذج يعتبر أكثر حداثة. ولهذا فإن كان عدد كبير من الأحفورات الإنسانية القردية معروفا، فإن أمانتها الأصلية محدودة. وقد عثر على الأغلب منها في كهوف جنوب افريقيا، وفي مناجم الرفت فالي، لأن الأحوال المناسبة للمحافظة على الأحفورات العظمية قل أن تتوفر. إن حوض التربة، والإجتراف، وعوامل أخرى قد منعت المحافظة عليها في مناطق كثيرة بافريقيا، مثلا بالغابات الكثيفة بافريقيا الغربية. إلا أن ذلك لا يمنع من أن نعتقد أن أنواعا عديدة من البشر يات المتميزة كانت منتشرة منذ مليونين أو ثلاثة ملايين سنة، بالسباسب المدارية. أما في إفريقيا الشرقية، فإن تاريخ الأحفورات يزداد دقة بالاعتماد على الطرق الراديومترية وعلى تاريخ التعاكسات الاثائية المغناطية. ولم تؤرخ أحفورات جنوب افريقيا الى الآن إلا بحساب التاريخ النسبي استنادا الى مقارنات ااثائية وجيومورفولوجية. إن آخر الدراسات المعتمدة على الحفريات والفيلة والضباع، توحي بأن أقدم الأحفورات بترنسفال تؤرخ على الأقل بمليون ونصف مليون من السنوات. إن ثغرات الكهوف التي وفرت هذه الأحفورات، وكذلك مقالع الجص في ماكابان والمنجم التودجي في ستر كفويناين، تشمل بعض الأنواع الثديية الموجودة بالمجموعات الحيوانية بافريقيا الشرقية. فهي توفر خصائص مورفولوجية تشابه خصائص أحفورات الحدود البليو- بلستوسين.

إن أقدم البشر القردة بجنوب افريقيا كانوا في أكثرهم من ذوي مورفولوجية مشوقة (الإنسان القرد الإفريقي). إن معدل قامتهم ١،٤٠م من المتر، وكانوا عمودي الإستقامة، وكانت أعضاؤهم السفلى ملائمة للمشي على الرجلين تماما، وكانت أعضاؤهم العليا متخصصة لاستعمال الأدوات. وكان الرأس متمركزا في قمة العمود الفقري القائم على حزام حوضي له شكل إنساني تماما. وتقرب السعة الجمجمية عندهم من سعة جمجمة الغوريلا (٤٥٠ الى ٥٥٠ سنم مكعب) أكثر مما تقرب من سعة جمجمة الإنسان العصري، وإن كان هيكل ما وراء الجمجمة والاسنان يوحى بشكل إنساني تماما. إلا أن الوجه كان قرديا، والقسم الأسفل أدفق (Prognathe)، والوجنتين بارزتين،



● (١) المواقع الرئيسية لوجود الحيوانات الاحفورية (الثلاثاء المفرقة) والانسان الاحفوري (الدوائر المفرقة) في نهاية البليستوسين، وفي بداته (الثلاثاء والدوائر المصمتة) في أفريقيا الجنوبية. ● (٢) توزيع المواقع الأثولية الرئيسية في أفريقيا الجنوبية، الأثولي الأدنى = الدوائر المفرقة، الأثولي الأعلى = الدوائر المصمتة، (الشكلان ٩ و١٨ في كتاب «ما قبل التاريخ في أفريقيا» بالانجليزية، تأليف ج. د. كلارك، ١٩٧٠، دار نشر تيمس وهندسون، لندن).



و يعملو الوقيين انتفاخ كبير وتدل نقاط الارتباط بين عضلات العنق وعضلات المصغ على ان هذه العضلات الأخيرة كانت قوية جدا.

وفي المناجم الأكثر حداثة بكهوف سوارنكرنس وكرومداري (ومن المحتمل جدا في تنغ، كما يظن اليوم) فإن النوع الغالب هو أكثر قوة (الإنسان القرد القوي). ان الامر يتعلق بافراد أثقل بكثير، يزنون ٦٨ كلغم. ويختص الذكور الكبار بعرفين عظميين، أحدهما بقمة الجمجمة والآخر بقاعدتها، ويسمحان بالربط بين العضلات القوية للعنق والعضلات الماضغة. وكان يعتقد على العموم أن كل الأشكال الأكثر قدما كانت مشوقة (الإنسان القرد الإفريقي) وأن أحدها كانت قوية (الإنسان القرد القوي). إلا أن دراسات أنثروبومترية حديثة تبين أن الفارق ليس واضحا بقدر ما كنا نعتقد. ومن المعلوم اليوم أن النماذج القوية المشوقة قد تكون متعاصرة. وذلك هو الشأن بأحد مناجم جنوب إفريقيا على الأقل (مأكابن). وكذلك الشأن بالنسبة للبيستوسين الأسفل بافر يقيا الشرقية. إن الأحفورات المجموعة بتلك المنطقة تفيد أن الاختلاف الطارئ على السلالتين انطلاقا من سلف مشترك مشوق، كان قد وقع منذ ٥ ملايين سنة.

واكتشفت حديثا، أي سنة ١٩٧٢م بالشمال الشرقي من بحيرة تركانا، جمجمة أحفورية (سعتها: ما يقرب من ٨١٠ سنتم ٣)، وعظام طويلة وقطع جمجمة أخرى وما وراء جمجمة تؤرخ بـ ٣٠٠ الى ٢٠٦ مليون سنة. وتلك الآثار صلات عديدة بالإنسان وتشهد بخصائص (لا سيما بالوجه والاسنان) تربطها بالإنسان القرد. واكتشفت بمناجم أخرى من إفريقيا الشرقية، لا سيما بفع أولدو واي (طانزانيا) أحفورات أخرى تنسب إليها، لها سعة جمجمة كبرى، وتصنف سواء كقرد جنوبي مطور أو كإنسان قديم (أي الإنسان الماهر). ويمكن أن نؤرخها بين ٢ و ١٧٥٠ مليون سنة (٢) ويحتمل أن يكون وجد شكل قديم من الإنسان في نفس العهد بافر يقيا الجنوبية. فلم يبق إلا أن نكتشف أحفوراته الخاصة به. و يصبح هذا الاحتمال ممكنا إثر الاكتشاف الذي وقع بهدر سنة ١٩٧٥م، بالجنوب الاثيوبي من الرفت فالي، المعروف بثلاث عفر، فعثر على أحفورات بشرية يعود تاريخها إلى ٣ ملايين سنة. و يقترح الدكتور د. يهنسن أنه يمكن أن ينسب الافراد الاثنا عشر إلى ثلاثة ضروب متميزة أولا بشري رشيق يمثله هيكل عظمي حفظ حفظا جيدا، وثانها شكل قوي يشابه الإنسان القرد القوي وثالثها شكل ضبط بفكه الأسفل وفكه الأعلى، وهو أقرب إلى الإنسان العارف. فإن تأكد هذا، فهو يعني أن سلالة الإنسان، قد تميزت عن الإنسان القرد منذ ٣ ملايين سنة.

نخط عيش البشرات الأولى

بالرغم من أن عددا من الأحفورات البشرية للإنسان القرد قد اكتشفت بكهوف جنوب

(٢) يمتد الآن أن القطعة الزهنية والحنك المرجودين بشسونغ، بموض بحيرة برنكو تعود إلى أكثر من ٣ ملايين سنة. ونظرا إلى أن تلك القطعة لها بعض خصائص تقترب من خصائص الإنسان (وهو نوع غير محدد)، يمكن أن تكون غير بعيدة عن العهد الذي بدأت فيه سلالة الإنسان تميز عن الإنسان القرد.

أفر يقنيا، فن المستبعد، بل من المستحيل، أن تعتبر المواقع التي وجدت بها هي مواطن إقامتها. لقد مضى زمان كان يعتقد فيه أن الكهوف العميقة الكلسية بترنسفال كانت مساكن للبشرىات، وأن العظام التي تحويها كانت بقايا حيوانات جلبتها البشرىات لتصنع منها أسلحة أو وسائل أخرى. لكنه يمكن أن يكون نتاج تلك «الصناعة العظمية الإنسانية القرنية» بقايا طعام قد تركها بعض أكلة اللحوم. فلقد بينت دراسة دقيقة للبقايا الحيوانية بمنجم سوار تكرنس أن تراكم أحفورات الإنسان القرد وثدييات أخرى بالكهوف يمكن أن تكون ناشئة عن أسباب مختلفة أوضحتها في هذا الصدد ما كانت تنبه آكلات اللحوم الكبيرة، ولعلها الفهود أو الثور. لكل الاتفاق في شأن هذه النقطة لم يتحقق (انظر الفصل ١٧، القسم الثاني).

ونظرا إلى أن كل مادة معرضة سريعا للتلف، إلا إذا توفرت ظروف استثنائية، فلم تحفظ إلا أدوات الإنسان الأولى التي صنعت من حجر. والحقيقة أنه لم تكتشف أية أداة حجرية لها هذا الوصف، بشغرات الكهوف التي وجدت بها أحفورات أقدم البشرىات بمنجوب إفريقيا (ماكبن، ستر كفتاين) وإن عرفت أدوات حجرية في مناجم ثلاثة للبشرىات بإفريقيا الشرقية قدر تاريخها بمليونين ونصف من السنوات قبل الميلاد أو أكثر. ولقد كانت مواقع الإقامة بإفريقيا الشرقية قرية من بحيرة أو من مجرى يصب في بحيرة. وهي تعرف بما يتجمع فيها من العظام والأدوات الحجرية. إن تعدد الأنواع، وعدد الحيوانات التي تشهد بها العظام المهشمة تهشبا كليا الموجودة بتلك المناجم، تجعلنا نتيقن أننا إزاء آثار نشاط جماعي (الصيد/أكل الجيف) قامت به البشرىات التي كانت تستعمل الأدوات الحجرية لتقطع من بين ما تقطع اللحم والعظام والنباتات التي كانت تمثل القسط الأوفر من غذائها. إن تنوع تلك الآثار وحالة حفظها يجعلنا نفكر في أن تلك النجميات قد احتلت مرات عديدة لا إثر وقفة عبور. إلا أننا نعرف أيضا «مواقع للذبح» عثر فيها على بقايا حيوان واحد كبير الحجم اشتركت مجموعة في تقطيعه. إن المساحة المحدودة على العموم، والتي وجدت البقايا المتروكة بالنجميات توحي بأن المجموعة كانت قليلة العدد ولا تشمل أكثر من أسرتين أو ثلاثا. أما دور القتالين النهائي الذي كثيرا ما ينسب إلى البشرىات الأولى، ففيه خلاف، إذ من المحتمل جدا أنهم، في سعيهم للحصول على غذائهم من اللحم، لم يكونوا أكثر عدوانية من الحيوانات أكلة اللحوم الأخرى. ولا شك أنهم كانوا أقل منها عدوانية، لأنهم لم يكونوا مر بوطن باللحم فقط، بل كانوا يستعملون أيضا الموارد النباتية. لكن من الواضح أن تنظيم الصيد هو الذي دفع البشرىات إلى ابتداء نظام اجتماعي اقتصادي أكثر هيكلية. وذلك ما فعلوه اعتمادا على مهارتهم في صنع أدوات لها أهداف محددة. في إفريقيا الشرقية تبين آثار عظيماتهم التي يجلبون إليها بانتظام نتاج الصيد والجنى. أن البشرىات من البليوسين الأخير والبليستوسين الأسفل. كانوا حسب يدو منظمين حسب فرق إجتماعية يعضع تركيبتها لتغيرات كثيرة. إن توزيع الطعام، وكذلك المدة التي يعضع فيها الصغار لأهلهم من أجل تغذيتهم وتكونهم (مثل الطفل حاليا) كانت تضمن وحدة تلك الفرق ويحتمل أن يكون الصيد واستهلاك اللحم قد جعل البشرىات الأوائل يصنعون الحجر لإنتاج شظايا حادة، لأن الصيد كان يستوجب تنظيما وتوصلا ناجعين بين المشاركين، وذلك من شأنه أن يقود في النهاية إلى تطور الكلام. فلقد وقع في ذلك العهد تقريبا تقسيم الأشغال بين الرجال والنساء، فكان الأولون يصطادون وكانت النساء تهتم بالجنى ورعاية الأطفال.

فان كانت كهوف ترنسفال لم تصلح مسكنا للبشريات بل كانت مستودعات لغذاء أكلة الاحوم - وربما كانت البشرات نفسها من ضحاياها - يحتمل ان الناس القدرة قد كانوا عاشوا بالقرب من تلك الأماكن، لأنه عثر بالثغور الأكثر حداثة من مجموع كهوف ستركتنتاين (سوار تكرنس، ستركتنتاين، اكستشين سايت، وكرمديري) التي يمكن أن تؤرخ بـ ١٥ مليون سنة، على أدوات حجرية بدائية، ممزوجة بالاحفورات. لقد صنعت تلك الأدوات من صخور توجد بالامالكن المجاورة القريبة من الكهف. وهي حصاة من الصوان، والمرو، والدياباز، ولعلها مجلوبة من نجح مجاور.

ان أكثر بقايا البشرات الموجودة بالثغرات الحديثة من سوار تكرنس وكرمديري تنتسب إلى الإنسان القرد القوي. والرأي السائد انه كان صانع تلك الأدوات. وينطبق نفس الشيء على ستركتنتاين (اكستشين سايت). الا أنه اكتشفت بترسب سوار تكرنس قطع عظمية من حجمه ومن بعض العظام من وراء الجمجمة تنتسب للإنسان العارف، ولا شك أن الأمر يمكن أن يستدعي نسبة تلك الأدوات إليه. وذلك لا يمنع ان الناس القردة كانوا قادرين على صنعها. فلقد بينت تجربة طريقة أجريت، حديثا ببرستل أن قردا أورنغ - أوتنغ صغيرا كان قادرا على إنتاج شظايا يحصل بها على القوت بعدما لقن الطريقة وبعد أن أدرك ما يمكن أن تستعمل له. ونظرا إلى أننا نجد في إفريقيا الشرقية والجنوبية أحفورات لأناس قردة وللإنسان في نفس الأماكن وأنهم كانوا يعيشون في مناطق بيئية متشابهة، بل متماثلة، فيحتمل أيضا أن يكون الإنسان القرد القوي قد اكتسب المهارة الكافية لصنع أدوات بسيطة تشابه الأدوات التي تنسب إلى أقدم الصناعات المعروفة، أي الأولدوواي، وإن كنا نشك ان كانت له الملكة الذهنية لصنعها لأن صنع الأدوات كانت بحسب أشكالها القديمة المنسوبة للإنسان (الماهر وغيره) تعود الى مليونين ونصف مليون من السنين.

الأدوات الحجرية الأولى: الصناعات الأولدوواي

رغم أن أدوات الإنسان الأولى التي بلغتنا كانت من حجر، فلا ننس أن أدوات أخرى خشبية وقرنية، وعظمية، وجلدية الخ، كانت أيضا مستعملة. ويحتمل أن حقبة استعمال الأدوات التي لم تتغير فيها إلا قليلا أشكال الأشياء المناسبة لها، كانت قد سبقت الصنع المقصود مع العزم على إنتاج عدد صغير من أنواع الأدوات المعنية بالإعتماد على مواد، قد لا تصلح للاستعمال ان لم تحور. ان شكلها كان قابلا، بعد التقطيع أو أي تحويل آخر، ان يتحسن بالتسوية. فلقد كانت أدوات الحجر من البداية تشهد على قدرة البشرات على نحت المواد وعلى استيعاب قواعد تقنياتها.

لقد سميت أقدم الصناعات الحجرية المعروفة في العالم كله بالصناعات الأولدوواي نسبة إلى فع أولدوواي بطنانزانيا. ويعود تاريخ أقدم نماذج إفريقيا الشرقية إلى ٢٥٠٠ مليون سنة (٣). ومن

(٣) أرغنت أدوات الشف (ك. م. ب. بكوني فور) ب ٢٠٦ مليون سنة حسب طريقة ك/از (البوتاسيوم/الارغن) للقيبط البوار يخ. الا أن نتائج حديثة، وكذلك التوافقات الحيوانية مع تشكل شجرية في أومو. وتشكل كوني فوراً بحيرة تركانا توسعي بأنه يبلغ في قدمها وأنه يصح أن تؤرخ بـ ١٨٠٠ مليون سنة.

الممكن أن تكون بعض الاكتشافات الموجودة بالحصباء النهرية القديمة (حصباء قال أو الزمبين) أو على الشواطئ الصخرية الجافة بسواحل إفريقيا الجنوبية، تنسب أيضا إلى ذلك العهد نفسه. ولما كانت تلك الأدوات لم يعثر عليها ضمن طبقة أرضية متصلة بعناصر تسمح بتأريخها، فلا يمكن لنا أن نطلق حكما في شأن قدمها، إذ يمكن ألا تكون قديمة جدا. وكان من المنتظر أن يشتمل رقت المولي، مثلما هو الشأن في الوادي الكبير لرقت إفريقيا الشرقية، على أدوات من ذلك العهد، وعلى عدد متساو من أحفورات البشريات. لقد وفر الطرف الجنوبي من المولي فعلا مجموعة من الآثار الحيوانية التي يعود تاريخها إلى البليو-بليستوسين، وهنا يشكل الصلة الوحيدة المهمة بين آثار الشرق والجنوب من إفريقيا. إلا أن تلك المنطقة، لم يسكنها الإنسان وذلك لأسباب غير معروفة بعد، إلا مؤخرا. ولا نجد بها إلا آثار قليلة عن المقدمات البشرية، وذلك بالرواسب من تلك الأحواض العميقة بالغور الجنوبي.

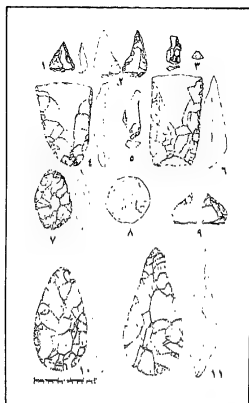
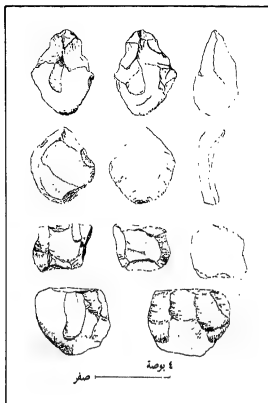
إن الأدوات التي عثر عليها في المناجم الحديثة للإنسان - القرد (سوارتكرنس، ستركتنتاين (اكستشين وكرداري)، قرب كرو غردرب توفر أنواعا مختلفة. فمنها سواطير صنعت بنزع شظايا من وجه أو وجهين من حصة أو كتلة صغيرة للحصول على حافة قاطعة غير منتظمة. ومنها صفحات عليها آثار قرد تدل على الصنع بالطرق العنيف، ومنها أدوات قاعدتها منبسطة وحافتها معكوفة منحنية لها حافة حادة مكشطة ومنحوتة في جزء من دائرتها، ومنها شظية للتقطيع والتجزئة، ومنها بقايا حجرية قطعت منها تلك الشظايا قصدا. إن الشظايا والبقايا المنحوتة قليلة بصورة عامة في ستركتنتاين اكستشين وسوارتكرنس، وتلك حجة أخرى لافتراض بأنها لم تكونوا موطن إقامة. إلا أنه على قدر ما يتقدم الحفر الشامل للفتحات بالموقعين و يبرز مجموعات أكثر اكتمالا، من المنتظر أن نعلم أكثر عما نعلم عن أدوات البشريات الأولى.

إن أدوات جنوب إفريقيا تمتاز، بالمقارنة مع صناعات مناجم إفريقيا الشرقية بخصائص قريبة إلى صناعات الأولد وواي الحديث أكثر من صناعات القرد منها. ولذا فهي تنتمي إلى الأولد وواي المتطور. إن الأولد وواي المتطور الأكثر قدما بإفريقيا الشرقية يعود إلى ٥٠٠ مليون سنة ومن الشابت اليوم، باعتبار الحيوان الأحفوري، أن مناجم الإنسان القرد الحديث بجنوب إفريقيا ترجع إلى نفس العهد (٤). ولذلك توجد سلالتان متميزتان جدا من البشريات. أولها سلالة الإنسان القرد القوي وثانيتهما تناسب النماذج الأولى من السلالة الحقيقية للإنسان.

المركب الأشولي

برزت في ذلك العهد تقريرا صناعة ثانية تدعى الصناعة الأشولية، تختص بأدوات قاطعة كبيرة تعرف باسم ذوات الوجهين والقدمات. إن تلك الصناعة تتميز عن صناعة أولد وواي بكبر حجم الأشياء التي صنعت من شظايا كبيرة يستدعي قطعها من كتل أو من فخر القوة والمهارة، وعلى

(٤) لقد أعلن الدكتور س. ك. براين حديثا أن أقدم فترة تحوي بقايا الإنسان القرد والإنسان، يمكن أن تقسم حسب ستروبين. المستوى ١، وهو أقدمها، وقد عثر فيه على الإنسان القرد القوي والإنسان العارف وعلى أداة واحدة من الحجر لا شك فيها. أما المستوى ٢، وهو أكثر حداثة، فهو تحوي الإنسان العارف وصناعة حجرية تشبه. يتوهمين الأشولين ويعود تاريخ هذا المستوى ٢ إلى ٥٠٠.٠٠٠ سنة (س. ك. براين - رسالة شخصية).

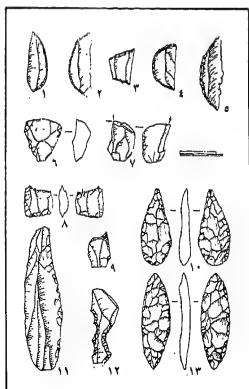


● (١) الاشولي الادنى، ستيركفونتين: أدوات ثنائية الوجه، مشظاة مكعبة الشكل ونويات (شكل ٨٣ في كتاب «ما قبل التاريخ في الترنسفال» للؤلؤه ر. ماسون، بالانجليزية ١٩٦٢، مطبعة جامعة ويتواترسراند، جوهانسبرغ).

● (٢) أدوات من الاشولي الاعلى، مساقط كالمسك الاسود: الكبيرة من الكوارتزيت والصغيرة من السيليكس الاسود:

١ - مكشط عذيق، ٢ - مكشط مقعر، ٣ - مكشط مستن، ٤ - فأس ذات اشواك متناثرة الاتجاه، ٥ - سكين مشظاة ذات حواف مثقفة، ٦ - فأس ذات اشواك متوازية، ٧ - أداة بيضاوية ذات حدين، ٨ - أداة كروية، ٩ - مغرز، ١٠ - أداة بيضاوية ذات حدين وشكل مستطيل، ١١ - أدوات بيضاوية مسحوبة ذات حدين. قبل الزمن الحاضر يكثر من ١٩٠٠٠٠ سنة.

● (٣) أدوات من مواقع هوبو يسونسورت: ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥: قطاعات من دائرة ذات حافة مشظوة، ٦ - نواة ليقالو، ٧ - ازميل، ٨ - أداة قشر، ٩ - مشقاب، ١٠ و ١٣ - مخارز أو ابر ذات وجهين، ١١ - مكشط، ١٢ - مكشط ثنائي. والمخينات ٢ و ٣ و ٥ من هوبو يسونسورت، أما العينات الاخرى جميعا فهي من مغارة الشفق الشكل ٨٤. من كتاب «أركيولوجيا العصر الحجري في أفريقيا الجنوبية» بالانجليزية» تأليف س. ج. سامبسون، ١٩٧٤، المطبعة الأكاديمية، نيويورك).



العكس من هذا، فإن الأدوات الأولدووائية يمكن أن نضعها في كف اليد، وأن نضعها بين الإبهام والأصابع في الأعمال الدقيقة. لقد اعتبر الأولدووائي المتطور والأشولي صناعيتين متعاصرتين تكتشفان أحيانا في شكل أولدووائي محض أو أشولي محض، وأحيانا متمازجين حسب نسب متغيرة في نفس الموقع. ولقد أولت تلك التقاليد التكنولوجية تأويلات متنوعة. ويقال أنها من صنع البشرات المنتسبة إلى أنواع مختلفة أو أنها نتاج نشاط متنوع يستدعي أدوات مختلفة تناسب سلوكا متميزا (انظر الفصل ١٩). إن تلك التقاليد مازالت قائمة وهي موجودة في مركبات عديدة إلى حوالي ٢٠٠ ٠٠ سنة أي بعد مدة طويلة من انقراض الإنسان القرد القوي الذي كان سببه الصراع مع الإنسان ونحن نفصل أن نفسر ذلك النوع من الأدوات المتميزة باختلافات ناشئة من نشاط أو من طريقة استثمار للموارد، أو باختيارات مركزة على ميول شخصية علما بأن الأهالي من البشرات كانوا يصنعون تلك الأدوات بحسب الظروف. إن بروز الأشولي بصورة مفاجئة نسبيا يبين إذن أن موارد جديدة أصبحت تستغل، أو أن طرقا محسنة قد أدت لاستعمال الطرق التي كان الإنسان يستعمل فيها أدوات من النوع الأولدووائي.

إن المجموعات الأولى جنوب إفريقيا المنتسبة إلى الأشولي والتي يمكن أن تكون معاصرة للإنسان العارف والإنسان القرد القوي بسوار تفرنس، أصلها من مجتمعين متجاورين موجودين حيث يلتقي نهر «فال» برافدة كليب، قرب فريبنجنج وهي موجودة بحضباء لسطح يرتفع بمسافة أمتار فوق النهر الحالي. وكثيرا ما تكون الأدوات منسأة، أي محولة وليست في إطارها الأصلي، وتوجد بتلك الأماكن مجموعة من تلك الأدوات المتكونة من ذوات وجهين حادة أنجزت بنزع عدد من شظايا كبيرة وقذومات وصفحات وحصاة مهيأة، ومكاشط مصنوعة من بقايا حجرية، وعدد من الأدوات المركبة على شظايا مسواة بعض الشيء، ومن بقايا حجرية وفضلات النحت. وكلها تدل على استعمال تقنية القارع الصلب. ولهذا فهي توافق الأفضلي الأوربي. ويدون وجود شكلين يشابهان ذوات الوجهين بنجم ستر كفتناين اكتشفناهما، فيد أن ذلك المنجم ليس بعيدا جدا من حيث الزمن عن مناجم كليب (ثري ريفرز و كلييلادريف) ويظهر أنه عثر على مجموعات أخرى تبدو قديمة وذلك بأماكن مختلفة من إفريقيا الجنوبية، مثلا بالسطح النهرية القديمة بستانليوغ، بمقاطعة رأس الرجاء، أو بجوار لفنستون بزامبيا، ولكنها غير كاملة ولم تؤرخ تاريخيا مضبوطا.

وفي ما بين مليون سنة، و٧٠٠٠٠٠ سنة حل محل سلالة الإنسان البدائي (الذي يمثله حجمه ١٤٧٠ بكوبي فوراً، بشرقى بحيرة تركانا، وأحفورات الإنسان الماهر بفتح أولدوواي، بمحوض أومومناجم أخرى). حل محله نوع أقوى له سعة حجمية أكبر ويعرف باسم الإنسان المستقيم، وفي نفس ذلك التاريخ، أو ربما قبله بقليل، كانت المجموعات البشرية قد انتشرت بسرعة نحو إفريقيا الشمالية، وخارج إفريقيا، نحو أوروبا وآسيا. ولذلك نجد أحفورات وبقايا ثقافية للإنسان المستقيم بمناطق عديدة من العالم القديم بعيدة جدا عن بعضها. لقد أصبحت أحفورات الإنسان المستقيم بإفريقيا معروفة بفضل ما توفر من آثار في القسم الأعلى من باد ٢ من حث أولدوواي (وهي تشكل له مخ متطور) وكذلك بفضل مكتشفات ملكا كنتوري بأثيوبيا ومناجم الساحل والداخل من إفريقيا الشمالية الغربية. وبالمغرب العربي، حيث تتصل بصناعات الأشولي القديم ويحتمل أن الإنسان المستقيم، كان بإفريقيا الجنوبية، صانع تلك الآثار الأشولية، إلا أنه لم يعثر على أحفور واحد.

وتستوعب في ملاحظة تكثر المناجم الدالة على زيادة عامة في عدد المجموعات البشرية وكميتها وذلك بافر يقيا الجنوبية والأماكن الباقية من القارة إثر بروز الأشولي الحديث أو المتطور. ومن الممكن أن تكون ندرة المناجم المنتسبة إلى أزمنة أبعد، عائدة جزئيا إلى الندرة النسبية في الرواسب المحفوظة المؤرخة لذلك العهد، ولكن هذا ليس هو السبب الرئيسي الدال على الزيادة الواضحة في عدد المناجم الأشولية الحديثة ولا على توسعها الجغرافي الكبير وذلك ورغم أننا نعرف مناجم عديدة (منها منجم ٣٨٩ بجنوب افريقيا بأطلس ما قبل تاريخ افريقيا. وقد وفرت أغلب الشبكات النهرية المستكشفة مجموعات متواصلة من ذوات الوجهين وقدومات خاصة) ولم تجر الحفريات إلا في القليل منها، وقل أن وجد البعض منها في أماكنها الأصلية (٥) ولوقبت في أماكنها لاحتفظت الاودان بأوضاعها، ولقيت كثير من الآثار السكنية بعد أن فارق الموقع ساكنوه.

إن المناجم المخفورة توحى بتنوع مواطن السكن وبعض جوانب سلوك الإنسان الأشولي، ولم يؤرخ أي واحد من تلك المواقع تاريخا دقيقا لأنها كلها تتجاوز المدى الذي يصل إليه الراديوكربون ولأن الصخور أو الرواسب التي لها صلة لا تخضع لطريقة البوتاسيوم أرجن ولا للترتيب التاريخي المعتمد على التعاكسات الاحاثية المغناطية. ويعتبر منجم كلمبولز أكثر المناجم شمالا، محدود زامبيا وطانزانيا (افريقيا الوسطى) حيث ساعدت أحوال استثنائية على المحافظة على الخشب بمستويات متعددة من مواطن الإقامة. ويمكن ضبط تاريخ ذلك الخشب. ولقد توفر لنا بالنسبة لعينة من إحدى تلك المناجم وبالاتحاد على طريقة مرازمة الحوامض الأمينية، تاريخ سابق لـ ١٩٠٠٠ (ج بيداء رسالة شخصية). إن ذلك التاريخ يوافق تاريخ اسميلة، بوسط طانزانيا، حيث أرخت مجموعة أشولية طبقية بـ ٢٦٠٠٠ سنة، بالاعتماد على طريقة الثريوم — أورنيوم. ويحتمل ألا تتجاوز أية واحدة من تلك الصناعات — ٧٠٠٠٠ سنة، وهو عهد انتهت فيه الحقبة الكبرى من المغناطيسية العاكسة وهي حقبة ماتو ياما. ولا يمكن أن تكون تلك الصناعات قد وجدت بعد — ١٢٥٠٠ سنة، وهو بداية الحقبة الأخيرة ما بين جودية (أيمية) التي ظهرت فيها صناعات أكثر تطورا. فهي تنتسب أساسا إلى عهد يسمى البليستوسين الوسيط.

وكان النباقي من مواطن السكن بشلالات كالموجودا على كتيان من الرمل المحاذي للنهر، ومن المحتمل أن يكون بداخل الغابة الاستوائية التي كانت تغطي الضفتين في ذلك العهد. إن دراسة اللقاحات تبين أن الحرارة كانت في بداية الأشولي أكثر ارتفاعا، وكمية الأمطار أقل من كميات اليوم بقليل. إلا أن الانتقال نحو جفاف أكبر لا يعني أن يغير ولو قليلا عالم النبات الذي كان يتكون مثل اليوم من غابة للرعي ومن أودية قليلة العمق ومعشبة، وتطفو عليها المياه من حين لآخر (ديموس). وتوجد بالمنحدرات الأكثر علوا غابة براكتيجيا. إلا أن دراسة اللقاحات لإشارات النباتات الكبيرة الحجم، تدل في حوالي نهاية الفترة الأشولية على انخفاض الحرارة وبعض الزيادة في كميات الأمطار التي مكنت بعض الأنواع النباتية الموجودة حاليا فيما يقرب من ٣٠٠ م علوا، أن تنزل إلى مستوى الحوض المحلي من كالمبو. ومن المعتد أن كل مستوى من مستويات السكن لم يكن

(٥) نجد مثالا بالنسبة الغربي من وادي الغال وبعدد من روافده، كثيرا من الأدوات الأشولية. إلا أنه أن كان البعض من تلك المجموعات يشهد بتغيرات تكنولوجية مهمة، فإن الاجتراف قد نقلها وأصبحت في حالة متغيرة.

مسكونا الا في فصل أو فصلين. ثم أصبحت التربة مغطاة بترسبات الرمال النهرية والطين والوحل، فأقيست فوقها فيما بعد منشآت مماثلة. وقد اكتشف فيها عدد كبير من ذوات الوجهين والقودومات والأدوات المصنوعة من شظايا مسواة، والمكاشط الحجرية، وعدد قليل من المعاول والصفاحات والأدوات الكروية الشكل.

وتتصل بتلك الصناعات الحجرية أدوات خشبية مختلفة من بينها حربة، وعصى للحفر، وعصي قصيرة وحادة (تصلح أيضا على ما يبدو للحف) وأداة رقيقة لها شكل الصفيحة، وقطع من قشور الأشجار قد تكون استعملت أطباقا. و يوجد ببعض تلك المستويات الطبقيّة آثار عديدة عن استعمال النار، كجذوع أشجار محرقة، وفحم خشبي، ورماد وأكّداش بيضوية الشكل لها شكل الحوض، وعشب محروق ومهشم، وكذلك نباتات ليفية يحتمل أنها كانت استعملت فراشا للدواب. ونجد أيضا عددا كبيرا من الحبوب والثمار المحرقة تنتسب الى أجناس وأنواع من النباتات المستهلكة التي نسمو حاليا بحوض كالمبو. ومن المعتقد ان تلك الاقامات الاشولية كانت خيمات تقام في الفصل الجاف، نظرا لكون تلك النباتات تبلغ نضجها في ذلك الفصل (سبتمبر/أكتوبر).

ولم يعثر على اثر واحد للحيوانات في كالمبو فولز. أما في موانكاندا قرب كارونكا بالطرف الشمالي الغربي من بحيرة ملوي، فيوجد منجم آخر من البليستوسين الوسيط. قطع فيه قيل، في مكان غير بعيد عن مجرى ماء، يتجه نحو الشرق حتى البحيرة. ويبدو أن فرقا ثلاثا على الأقل شاركت في عمليات القطع اذ وجدت ثلاث مجموعات من العظام المنفصلة، كل واحد منها مرتبط بالادوات الحجرية المستعملة بعين المكان قبل أن تترك. ان أغلب تلك الادوات متكونة من شظايا لم تهذب الا قليلا، ومن مكاشط صغيرة وبعض الحصاة المهيأة. ان الامر يتعلق هنا بالاولدوواني المتطور الذي ظهرت به أدوات الاولدوواني البدائي. وقد وفرت حفريات في أو بر منسدر يف قرب بلومفوهف أدلة مهمة عن مهارة الإنسان الأشولي الصياد، وكذلك عن تقنياته في تقطيع اللحم وتصريف بقايا العظام التي تتراكم حسب أكّداش متعددة، على طول مجرى الماء، وتمتزع بذوات الوجهين التي عثر عليها في نفس المستوى الطبقي.

وتتصل الادوات الاشولية أحيانا بنبوءات المواد المختلطة بالانهيالات وشظايا الصنع، وتفيدنا تلك المواقع (مثل موقع كويلو كويجي، بروديسيا) * بمعلومات قليلة عن المحيط، ويبدو أنها كانت مسكونة بانتظام، وذلك شأن وندر يومبورت قرب بر يتوريا، بترنسفال حيث توجد بقايا تشكل طبقة كشيّفة لها ٣ أمتار ويبدو أنها متصلة بأحد نقاط مرور حيوانات الصيد بجبال مكاليسبارك بين الميدلفالد والهافالد.

ومهما يكن من أمر، فقد كان الإنسان يقيم مدة الأشولي، دائما قرب عين ماء مثل «الدامبوات» حيث تتجمع حيوانات الصيد، وحيث الماء متوفر. ويوجد ذلك النوع من المواقع في كبوي (بروكن هيل)، قرب كُنجي المشهورة التي اكتشفت بها ججمة وبقايا أخرى من الإنسان الروديسي. ولقد عثر على مجموعة صغيرة من الادوات الكبيرة القاطعة التي لها صلة بأشكال كروية وبعدد من الادوات الصغيرة المتكونة من المرو. ويوجد بروديسيا * وفي لوشار، على مسافة متساوية

المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا

من خطط تقسيم مياه الزمبيز ولبويو، منجم آخر في أحد الادمبيات لم يفربعد ووفر ذوات وجهين وقدموات عديدة. ويعتبر المكان المعروف بكريتليا مثلاً آخر وذلك بشمال ولاية اورانج الحرة بجنوب إفريقيا. وخلافاً للمنجمين الأولين، وفرت كريتليا آثاراً عديدة من الحيوانات. يتعقد أن بعضها متصل بصناعة تشمل بعض الوجهين والقدموات وكذلك عدداً من الصفائح والحصى المهياة وأدوات صغيرة. ويمكن أن تكون الحيوانات لا سيما الحيام (Bubales) العملاقة قد دفعت إلى وحل الدمبو وقتلت به. ويحق لنا أن نعتقد أن الهايفيلد كان في ذلك العهد كثير المطر تكسوه أعشاب قصيرة، وغيضات خفية وغابات عروية مثلاً هو الشأن اليوم. وفي الأدغال السهوية (كرو)، شمال مقاطعتي رأس الرجاء وبستونا، أقام الأهالي الأشوليون حول أحواض بحيرية قليلة العمق كانت كثيرة بتلك المنطقة. أما دورنلاخت قرب كمبرلي فتعد من ذلك النوع من مواطن الإقامة التي يوجد بها سلسلة كاملة من الأدوات المقواة والمختومة في قشرة كلسية، وذلك حسباً يبدو في أطاها الأصلي. ولقد احتل الموقع عدة مرات لمدة طويلة وإن كانت الحيوانات مفقودة فيه.

في اللندز فنتاين قرب هايفيلد، بالقسم الغربي من مقاطعة رأس الرجاء حول المستنقعات والأحواض الموجودة بين كشان الرمال القارة، كان الإنسان الأشولي قد وجد مناخاً مناسباً لصيد الثدييات الكبيرة. وتعتبر تلك الحيوانات من حيوانات البليستوسين الوسيط. وهي تخص بصفاتها الحيوانات التاريخية برأس الرجاء كالفيلة، والكرأكدة والزرافات، وأفراس البحر، والظباء الكبيرة والصغيرة، والحيول والخنزير الوحشية. وهنا أيضاً يحتمل أن تكون الحيوانات قد قتلت بعد أن طردت حتى المستنقعات، ولا يستبعد أن تكون عيون الماء قد سممت. ولقد وفر ذلك المنجم القشرة الجمجمة لبشري قريب من بشري كبوي في بروكن هيل، وهوبدون منازع أكثر تطوراً من الإنسان المستقيم ولا يوجد هنا ما يمنع من أن نعتبر أن المحيط قد تغير هنا وبغري رأس الرجاء تغيراً محسوساً يختلف عن المحيط الموجود اليوم.

ولقد عاش البشر في الأشولي على الساحل أيضاً كما يدل على ذلك المنجم الهام المكتشف في الجنوب، بالساحل الضيق، وذلك برأس هنك كليب في فولسن باي حيث توجد كشان رمل صلبة تغطي الشاطئ بما قدره ١٨ متراً. ولا توجد به حيوانات لكن المنجم وقرعداً كبيراً من ذوات الوجهين الجميلة وعدداً أقل من القدموات، وكذلك مكاشط عديدة مصنوعة على شكل شظايا، ومكاشط نووية الشكل وأدوات صغيرة. لكن يهنا أن نلاحظ أن الإنسان، في ذلك العهد، سواء على الشواطئ الأطلسية من المغرب أو بالبحر المتوسط، كان لا يأكل الثدييات البحرية ولا الأسماك، بل كان لا يأكل الثدييات الأرضية.

كان الإنسان الأشولي يقيم أيضاً بجوار عيون الماء مثل أمنزى، بمنطقة أمطار الشتاء جنوب الإغدار الكبير قرب فورث أليزيت. ولقد وضعت عيون كثيرة عندما كانت تجري، سلسلة من الرمال الطبقية، وتشكلت طبقات من الحث في الأوقات الميتة التي كانت تنمو فيها الاقصاب ونباتات أخرى. كان الإنسان الأشولي يتردد على تلك العيون ويحجم بالأماكن التي ترك بها أدواته والتي داسها الفيلة وحيوانات أخرى جلبتها. هي نفسها نفس المياه. ولقد أبرزت إلى الوجود بعض

المركبات المبعثرة، و يبدو حسب آثار الحشب والنباتات واللحقات ان الأعشاب بذلك العهد لا تختلف الا قليلا عن الأعشاب الموجودة اليوم برأس مكشيا.

اما بافر يقيا الجنوبية فلقد أقام الإنسان الأشولي أحيانا بكهوف سنشبرالى اثنين منها. أولها كهف الموأقد الذي يوجد في ماكبان بالبوشفالد بترنسفال الشمالي، ويحوي تسعة أمتار من الرواسب، وله مستويات إقامة أشولية وموأكد للنار. ان تحليل الرواسب يبين ان كميات الأمطار كانت اذاك أكثر مما هي عليه اليوم، وتعد حيواناته عامة من البليستوسين الوسيط وتتنسب الى حيوانات بوشفالد الحالي. ولقد وفر هذا المنجم أيضا قطعة من فك إنساني، وهو فك شخص شاب يمكن أن تكون له علاقة بالاحفورات الشبه الناندرتلية أو الشبه الروديسية (٦). والأثاث شبيه بأثاث كلمبوفولز، وهنغكسليب ومناجم أخرى حيث اكتشفت أدوات كبيرة قاطعة مخلوطة بادوات عديدة لها حجم صغير. أما الكهف الثاني، فهو كهف منتكو جنوب مقاطعة رأس الرجاء، وهو قريب من عين وجمري ماء قارين، وتحيط به أعشاب الجبل. وهو يحوي أيضا عددا من الطبقات المتلاصقة من عهد أشولي حديث، إلا أنه للأسف لم يعثر فيه على بقايا حيوانية.

ان تلك المناجم المختلفة توفر أمثلة حسنة من مختلف أنواع السكن وعن تنوع الادوات الأشولية بالبليستوسين الوسيط. و يشترك جميع السكان في بعض الخصائص فهم يعيشون في أراض مكشوفة، كالحفريات الخفيفة (كلمبوفولز، كبوي، بروكن هيل) والمروج والحدائق الطبيعية (لوشار وكزنيليا) وأشجار الأدغال (منتكو، وأمنزي) وهي كلها موجودة قرب الماء حيث توفر الأشجار الظلال والثمار الناضجة وحيث يتجمع الصيد كلها تقدم الفصل الجاف. وتقع كلها باماكن يوجد بها اليوم عدد من التجمعات العشبية (وتدعى بالمناطق الايكوتونية). وإذا كان الاطار العام قد ظل قارا لم يتغير عن حاله في الماضي، مثلما تدل على ذلك الاثار الحالية، فيمكن أن نستنتج بأن تلك التجمعات العشبية استغلت بأماكن غير بعيدة عن مواطن السكن. ففي الأماكن التي حفظت فيها الحيوانات، توجد المناجم التي توجد بها آثار الصيد الكبير كالفيلة، وأفراس البحر، والزرافات والبقر يات الكبيرة والخيل، ولكننا نجد أيضا بقايا من بقر يات صغيرة، ومن الخنزير يات النح.

وقد استعملت مجموعة كاملة من المواد الأولية في صنع أدوات الحجر اعتمادا على الموارد المحلية. وهكذا يكون لنا دليل على أن الانسان الأشولي اكتسب مهارة وقدرة على التكيف لا نظير لها لنحت صخور عديدة بالإعتماد على القوارع الصلبة والهشة ولاتنتاج أدوات جيدة. وكان يحسن الإختيار بين تقنيات متعددة، فيختار أنسبها للمواد المستعملة. وكلما كانت الحصاة الكبيرة من الصوان أو المرو تشكل الميأة الأولى، كانت ذوات الوجهين تحت مباشرة من الحصاة. ولكن اذا دعا الأمر إلى استعمال كتل أكبر من تلك، كان الإنسان الأشولي يستعين بطرق ذكية (٧) وذلك بتهيئة وقطع نواة كبيرة ليحصل على شظاياا كبرى يصنع منها ذوات الوجهين والقذوموات.

(٦) انظر ص. ٥٢٩.

(٧) مثلا: شبيه لوفالوا، وما قبل لوفالوا، تاشنقيط وكمبرا. انظر م. ث. برزيون (M.N. Brezillon)، تسمية الأشياء من الحجارة المنحوتة — تحليل في ما قبل التاريخ، ملحق ٤، باريس، ص ٧٩ — ٩٦ و ١٠١ — ١٠٢.

ومن المحتمل أن يكون الاشولي الحديث بإفريقيا الجنوبية قد غطى حقبة تماثل تقريباً حقبة الاشولي الحديث بإفريقيا الشرقية، أي ما يوافق تقريباً ٧٠٠٠٠ سنة الى — ٢٠٠٠٠ سنة. على أنه لا توجد الى الآن طريقة دقيقة بعض الشيء تسمح بقياس الفروق في الأعمار بين الصناعات الاشولية المتنوعة. فعندما تتوفر لنا تلك الدقة ونكون قد أجرينا عدداً أكبر من الحفريات بمواقع نخضع لعلم طبقية الأرض، يمكن اذاك أن نعرف كمياً الاتجاهات العامة لتقنية الأدوات وما يوجد من قرابة بين مختلف التنوعات المعروفة ضمن المركب الاشولي؛ وكذلك الجانب الاحاثي البيئي لموقع معين في العهد الذي كان فيه مسكوناً.

ان الصناعات الاشولية كما تبين من هذا التلخيص القصير، خاصة لبعض النماذج النوعية التي توجد بمجموع العالم الاشولي. فتوجد أدوات لا تتكون الا من ذوات الوجهين ومن القدومات، وأخرى تشمل حصاة مهياة وأدوات أصغر حجماً، مثلاً هو الشان في الاولدواي المتطور، وتوجد أخرى يظهر فيها المرج بين هذين النوعين من التقاليد، وأخيراً، توجد أخرى أغلبها نقارات ومكاشط نووية الشكل وأدوات أخرى «ثقيلة». وهكذا فقد كان هناك توزيع كبير من حيث الصناعات، والسكن والموارد، ولكن توجد خصائص عامة مشتركة بالنسبة لمجموع الاشولي. ويستفاد من ذلك أن طرق العيش لا تختلف في جميع المناطق التي تستعمل فيها ذوات الوجهين. ويعتبر المظهر العام لسلوك البشرات خلال البليستوسين الوسيط هو سلوك جماعات الصيادين القاطنين الذي لهم نفس أسلوب العيش، والذين يميلون الى التواصل بعضهم ببعض تواملاً متفاوتاً. فلقد كانوا يشكلون تجمعات هي أكبر مما كانت في الماضي، وأصبحوا يترددون بانتظام على بعض الأماكن المعينة حسب الفصول. وكانت البنية الاجتماعية مرنة جداً مما سمح بتنقل الأشخاص والأفكار. الا أن مناطق هامة من إفريقيا، ومنها الغابات، ظلت ظاهرياً خالية، ويفيد انتشار مجموع السكان، ان كل جماعة كانت معزولة عن جيرانها عزلة تكاد تكون كاملة.

الاشولي الأخير أو «الفورسمي»

نعلم منذ أمد طويل أن بعض الصناعات قد وجدت على السجدة الداخلي. فهي تختص بذوات الوجهين التي لها حجم صغير عادة، والمقنة الصنع، كما تختص بمجموعة كبيرة من الأدوات المنحوتة على الشظايا، ومكاشط نووية الشكل. أما القدومات فهي قليلة نسبياً، ويبدو أن تلك الصناعات تعود الى عهد أكثر حداثة من الاشولي المذكور أعلاه. فان كان الأمر كذلك، فمن المحتمل أنها تمثل مرحلة «نهائية» من تقاليد ذوات الوجهين. لكن أغلب الأدوات جمعت على سطح الأرض ويمكن أنها كانت مخلوطة بعناصر أكثر حداثة. وكانت المادة الخام المستعملة عادة هي الليديانيت (النضيد المتصلب) الموجودة بكثرة في بعض المناطق. أما في مناطق أخرى، فالمادة المستعملة أكثر هي الكوارتزيت (الصوان).

لم تتوفر الحفريات الا قليلاً من السلاسل، والقليل منها فقط يمكن أن يعتبر ممثلاً لتلك الأدوات. ولقد أتت إحدى السلاسل من حوض قديم، قرب روثام، غربي كمبرلي. وكانت الصناعة بها مندرجة في خمسة أمتار من الرواسب على رأسها قشرة كبيرة من الكلس السهي، وتمثل تلك الرواسب تراكمات متدرجاً من الترسبات الخفيفة وناتجاً عن سيلان الماء. ان ذوات الوجهين التي لها أحياناً أحجام

صغيرة تتميز بصنع رديء.. وأغلب الادوات متكونة من مكاشط صغيرة ومن أدوات صغيرة أخرى مهذبة، قد صنعت كلها من الليديانيت. وتبرز بوضوح في هذا المجموع طريقة تهيت النواة التي تدعى «تقنية النواة الصحنية الشكل» والتي تسمح بالحصول على شظايا صغيرة. وخلافا لذلك لم يعثر على أثر لتقنية «لوفالوا» التي تعطي شظية أكبر حجما كلها هيئت النواة. ويحيى منجمان آخران بعين المكان (على الغال، قرب وندسور— تان ومنطقة سد فرفوردي على الاورانج) صناعة مماثلة، لكن مع وجود الشقنيتين، وهما: تقطيع لوفالوا، والنواة الصحنية الشكل. ويبدو أن التقاليد، وربما عناصر أخرى كالزمن، ستساعد على تفسير هذا التنوع في شكل الشظايا والنواة.

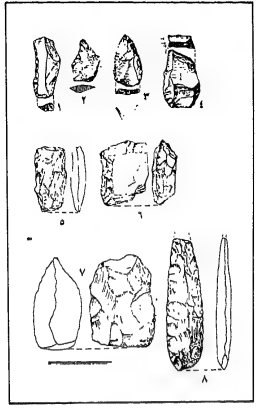
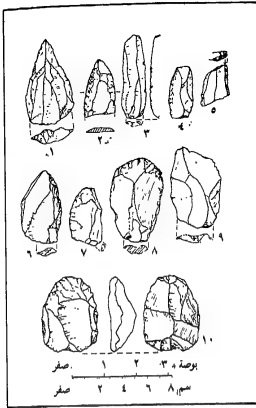
لقد أطلق على تلك الصناعات اسم «فورسميثي». نسبة الى المكان الموجود بولاية أورانج الحرة، حيث عثر لأول مرة بالسطح على عدد كبير من ذوات الوجهين اللوزية الشكل المتميزة. إلا أننا نعلم الى الآن أكانت تلك الصناعات تمثل وحدة كافية للتمييز الأشوي لتستحق تسمية خاصة بها أم لا. فهي توجد غالبا بالمروج والادغال في كارو، وفي جبال جنوب افريقيا وتامبيا. ان العلامة الوحيدة عن عمرها المحتمل قد وفرها التاريخ بالثريوم / أورانيوم على كربونات روئدام. وهويشير الى تاريخ ١١٥٠٠٠ ± ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ونحن نجهل متى عوضت الصناعات «الفورسميثية» بركب جديد أو تقاليد تكنولوجية جديدة تهتم بالادوات المنحوتة على الشظايا وعلى الصفائح التي تدل على بداية «العصر الحجري الوسيط». ويبدو أن هذا التحول قد وقع بين ١٠٠٠٠٠ — ٨٠٠٠٠ سنة.

أما في المناطق التي تكثر فيها كميات الامطار وتكثف فيها الأعشاب بافريقيا الوسطى فلم يحل «الفورسميثي» محل الأشوي الحديث، بل حلت محله صناعات توجد فيها نسبة كبيرة من الادوات الثقيلة، مثل النقارات وذوات الوجهين، والحصاة المهياة والمكاشط القلبية الشكل. ولقد سبق أن ظهرت تلك الأنواع بالصناعات الاشوية. ولكن باستثناء نوع غير معروف في السابق، فانها لم تتميز في ذلك العهد عن أنواع الادوات الاخرى. على أن تلك الأجهزة ستصبح غالبية فيما بعد بالمناطق التي تكثر فيها كميات الامطار وترتفع فيها الحرارة، حيث نجدها مخلوطة بمجموعة كاملة من الادوات الخفيفة المنحوتة على الشظايا والقطع الحجرية. وهي توجد بزامبيا، وروديسيا (٥) و ببعض المناطق الشرقية من إفريقيا الجنوبية (لا سيما بسهل الموزمبيق) وبالمناطق الساحلية بالناطال، حيث تنتسب الى ما يدعى بالمركب السنغوني. ان المجموعات السنغونية ليست في جملها مؤرخة اعتمادا على الطريقة الطبقيّة ولا تعلم بدقة ان كان السنغون معاصرا للأشوي النهائي (فورسميثي) بالسباسب العشبية أو أنه أحدث منه.

وفي شلالات كالمبوء ضبط تاريخ مظهر السنغون المحلي (صناعة شيتا) بـ ٦٠٠٠ الى ٣٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر (٥) بالإعتماد على ١٢ نتيجة وفرتها طريقة الراديو كربون، وفي أنجولا الشمالية الشرقية أرخت مرحلة مشابهة بـ ٣٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ويشابه السنغون المحلي (صناعة

(٥) د. ح. = قبل الحاضر، والحاضر هو ١٩٥٠م. أي السنة التي استعمل فيه الكربون ١٤ لأول مرة.

(٥) في مطبوع زيمبابوي — تعليق المراجع عماد القاسي.



١. أدوات مشكّلة من العصر الحجري الأوسط، من كهف ويشكرانس (شكل ١١ من كتاب ج. د. كلارك، ١٩٧١ بالانجليزية) «الاختلافات في السلوك البشري في أفريقيا الجنوبية خلال عصر البلايستوسين المتأخر»، في «أمريكان أنثروبولوجيست»، المجلد ٧٣. وجميع هذه الأدوات من السيليكس الاسود ما عدا رقم ٦ فهي من الشيت. ٢ و ٣ غرازان وحيدى الوجه، ٤ - نصل مستعمل، ٥ و ٦ مكاشط بسيطة، ٧ - ازبل على قاطع، ٨ - حلك، ٩ أداة ليفالوا مشطاة، ١٠ نواة ليفالوا.

٢. أدوات من اللوي الأوسط، مساقط كالامبو، السد ١، الموقع ب ١ - ١٩٥٦. وجميع هذه الأدوات مصنوعة من السيليكس ماعدا الاداة ٤ - ازبل ذو زاوية زوجية مصنوع من قشرة سيليكية. ٧ - قاطع (كوارتزيت)، ١ - مكشط مقعر بسيط، ٢ - عيط مسن مترافد الوجه وذ خطم، ٣ - شوكه وحيدية الوجه، ٥ - فأس نووية الشكل، ٦ - حلك نووي الشكل، ٨ - شوكه رعية الشكل.

٣. توزيع النصال وشظايا النصال المستعملة، بالنسبة الى هياكل من كشل الدويريت، على الاقن الاول في اورانجيا (الشكل ٥٨ من كتاب «أركيولوجيا العصر الحجري في أفريقيا الجنوبية»، ص ١٦٦، ١٩٧٤ - بالانجليزية) مؤلفه س. ج. سامسون، المطبعة الاكاديمية، نيويورك.



كوييلو-بروديسيا) صناعات كانت تسمى «ما قبل الستيلباي» غير أنه يمكن أن يكون أقدم منها (٨) وما يزيد في صعوبة إيجاد علاقة الترابط بين هذه الصناعات من نوع «سنغون» أنه يجب علينا اعتبار العناصر البيئية وغيرها لأنه أن كان السكن والتقاليد أو الإعتبارات الخاصة قد سرت استعمال تلك الأدوات الثقيلة، فن المحتمل أنها لعبت مبكرا دورا هاما وأن ذلك الدور قد دام دوام الأسباب التي سرت استعمالها. و يوجد بلا شك ترابط بين تلك الأدوات من جهة وكثرة كميات الأمطار التي تنشيء مناطق عشبية من جهة أخرى. ولا بد أن نعتبر أن تلك العناصر الثقيلة ناشئة عن معطيات بيئية أكثر مما تمثل فترة ما أو مرحلة ثقافية ضمن تطور الأدوات الحجرية. ونظرا إلى أننا نستطيع في نفس الوقت أن نبين أن تلك العناصر «السنغونية» متصلة بنظم من الأعشاب الأكثر كثافة، يمكن أن نتصور برزها أولا، بتلك المناطق، في نفس العهد الذي يوافق الفترات النهائية من الأشولي (فورسمي) بالسباسب العشبية، وإن تكون معدومة بمواطن السكن الأكثر انفتاحا حيث كان الاهتمام، كما رأينا بأنواع أخرى من الأدوات.

لقد اكتشفت صناعات من نوع «سنغون» في زامبيا، وملاي وروديسيا ه، وموزمبيق وأنغولا وكذلك بالشمال وبالجنوب الشرقي من جنوب إفريقيا. ولذلك يمكن لنا أن نجد في الفورسمي والسنغون بداية تخصص جهوي للأدوات، يعكس طرق تكيف مختلفة باعتبار استعمالها بالمروج أو بالغابات الكثيفة والغابات الكثيفة.

العصر الحجري الوسيط

إن ضرورة اعتبار الأدوات الحجرية للإنسان في ما قبل التاريخ وذلك كل ما بقي منه — شاهدا على صانعها، وعلى حاجاتهم العاجلة، لا دليلا على سكان يختلفون بالضرورة جنسا وعرقا، هذه الضرورة تفرض نفسها لا سيما عند اعتبار مختلف العناصر المكونة للمجموعات الجهورية المعاصرة، في ما يسمى مدة طويلة «العصر الحجري الوسيط». ولقد اعتمد أساسا لضبط تاريخ مجموعة من الأدوات من العصر الحجري الوسيط على بعض الخصائص التقنية والتنوع وعلى كونها موجودة طبقيا «العصر الحجري المبكر» و «العصر الحجري المتأخر». إن هذه المصطلحات التطورية، والزمنية الطبقة أصبحت لا تفيد اليوم شيئا كثيرا. ولقد ظلت سيئة التعريف مثلما كانت عند ظهورها. ويضاف إلى ذلك أن ضبط التاريخ بالراديو كربون يظهر أن المراحل التكنولوجية التي تعتمد عليها تلك المفاهيم هي ظرفية أكثر منها واقعية، ولأن التقنيات وأنواع الأدوات التي انبثقت عنها، تتجاوز أمثال هذه الحدود الأفقية المصطنعة. ونظرا لكون الموزج يشتغل على أشياء حجرية، فإنه يميل إلى عدم اعتبار تلك الأشياء جزءا باقيا من مجموعة عظيمة من

(٨) إن مناجم الكهوف الطبقة، وكنجيم يونكري وبباطا وموقع شغوما الموجود في الهواء الطلق الذي اعتمد عليه، تسمى تلك الصناعة حديثا «صناعة شغوما»، هي التي تقدم أحسن فكرة بروديسيا عن محتوى تلك المجموعات في قبل الستيلباي. وبالرغم من أننا لا نعتمد على أي تاريخ مضبوط، يبدو أن صناعة شغوما تعود إلى تاريخ هو أقدم من ٢٠٠٠ قبل الحاضر، ولذلك تعتبر صناعة كوييلو أقدم منها.

(٩) في المطبوع زامبيي — تعليق المراجع محمد الفاسي.

الأدوات والمواد التي لم تحفظ، والتي لو كتب لها أن تدرس لقلبت بالتأكيد كل تصوراتنا لتكنولوجيا ما قبل التاريخ. إن التكنولوجيا تبدل في كل مكان يشعر فيه بالحاجة إليها، وذلك جواباً على ضغوط جديده، وعلى إمكانيات الانتقاء أو التكيف الخاصة بالجماعة. فبينغي أن يؤخذ بعين الاعتبار هذان العاملان عندما تدرس الصناعات الحجرية التي تشهد على السلوك الثقافي طيلة البليستوسين الحديث والهولوسين.

ولقد أخذ مستوى البحر ينخفض، في وقت ما بين ١٠٠٠٠ و ٨٠٠٠٠ وذلك بالنسبة للمستوى المرفوع بقدر ٥ إلى ١٢ متراً والذي تمثله تمثيلاً حسناً بقايا الشواطئ المعلقة في عدد من الجهات من الساحل الجنوبي من القارة (٩). ولقد شرع الإنسان، بعد ذلك بقليل، في الإقامة بأماكن مواتية له على الشواطئ التي برزت فيما بعد، وكانت بعض الأماكن كهوفاً، وكانت التكنولوجيا في ذلك العهد، رغم الخصائص المحلية، متشابهة عموماً بالبحر الأبيض المتوسط وإفريقيا الجنوبية.

في بداية العصر الجليدي الأخير ينصف الكرة الأرضية الشمالي، طراً بالمناطق المدارية انخفاض الحرارة (حوالي ٦ إلى ٨ درجات) والرطوبة الجوية، وإن كانت نسب التبخير قد ضمنت توفير مياه سطحية منتظمة، لعلها أكثر مما هي عليه اليوم. وفي نفس الوقت أدى المناخ نصف الجاف الذي كان يحوض الزاير بالمنطقة الاستوائية إلى تقليص الغابة المكتسحة، أو عوضها بأعشاب أو غابات خفيفة وفرت للإنسان وللصيد مسكناً مواتياً جداً. وشرع هؤلاء وأولئك في تعمير ذلك القطر الذي كان إلى ذلك العهد يكاد يكون خالياً. وكذلك كانت صحراء ناميب، أمدة البليستوسين الحديث، وهي الآن قفر، مسكونة من طرف جماعات من الصيادين الذين تركوا أدواتهم بأماكن تخييمهم.

إن المقطوعة الطبقة لكل منطقة واسعة، كانت تبرز طيلة العصر الحجري الوسيط انتظام التقدم التكنولوجي ابتداء من المنتجات الأقل تهذيباً إلى ما كان أكثر تطوراً، كما تبرز نقصان المتدرج لنسحت الأدوات. إلا أن تطور المنطقة الثقافي لا يشابه بالضرورة تطور المنطقة الأخرى وإن كنا نعتبر على ميسول وخصائص مشتركة. ويحتمل أن تكون عوامل عديدة، بيئية، وتكنولوجية، واجتماعية قد تسببت في التحولات الجوهرية الخاصة بصناعات البليستوسين الأعلى. وكانت طرق عيش مختلفة تستوجب أدوات مختلفة أو تفرض على الأدوات استعمالات مختلفة. ورغم أن تجديدات تكنولوجية قد أدت في مستوى القارة دوراً معيناً وذلك بأن عينت العهد الذي برز فيه هذا الجزء الجديد ظاهرياً، أوداك، فيبدو من المحتمل أن طبيعة الموارد والطرق التقليدية في استثمارها كانت هي العوامل الحاسمة الداعية إلى قبول ذلك التحسن وإلى تاريخ استعماله.

وفي ذلك العهد كانت التقنيات الأساسية تعتمد طريقة لوفالوا وطريقة النواة الصحية الشكل المستعملتين لصنع شظايا ولقطع صفائح بقرعها أولاً ومباشرة بالآلة وسطى تهذب لتصبح حدوداً ومكاشط، وسكاكين، ومقصات، ومثاق الخ. ويمكن في إفريقيا الجنوبية، أن تصنف الصناعات الجوهريّة حسب تقنياتها في ثلاث وحدات تعتبر في مجملها أن لم يكن كلياً، وحدات تاريخية. ولهذا

(٩) يعتقد أن آخر مستوى من المياه العالية يتناسب التعدي البحري الطارئ على عصر ما بين الجليدي الأخير (الأمي) بمحوض البحر الأبيض المتوسط، حيث يكون مستوى البحر متشابهاً على العموم أي بين ٦ و ٨ أمتار.

السبب قد يكون من الأسهل أن نعتبرها أصنافاً أو مراحل، لا أطواراً، لأن الاطوار تفترض وجود علاقات تاريخية.

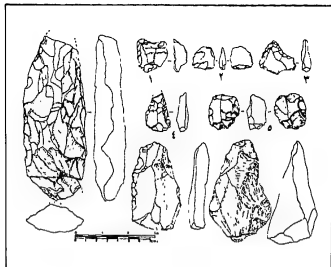
إن أول تلك الأصناف أو المراحل (الصف ١) تختص بشظايا كبيرة هيئت بحسب طريقة لوفالوا والصفائح الطويلة المقطوعة بالقرع المباشر. ونحن لا نعرف منها سوى بعض التركيبات المتفرقة (١٠). إن الظواهر المتطورة جداً، تبرز، بالنسبة لبعض المناجم التي لها مقطوعة طبقية، في الطبقات العليا، وأقدمها هي المجموعات الحجرية من الصف الأول (مثلاً، بكهف الموارد وبشلالات كالمبو). إلا أنه لا وجود كما يبدو لتوافق تاريخي بين مختلف المناطق. في كلاسيس يعتقد أن «العصر الحجري الوسيط» الأول يؤرخ بحوالي ٣٩٠٠٠ سنة إلى ٣٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، أما السلاسل الأخرى، فلم يكشف عنها في ظروف يمكن ضبط تاريخها.

توجد صناعات أخرى تنتسب إلى بداية البليستوسين الأعلى وتعود إلى أكثر من ٤٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، ولا تدخل ضمن الصف الأول ولها مجموعة من الخصائص المختلفة. وذلك شأن صناعة من الشظايا، والنوى، والمكاشط القلبية الشكل والصفائح والسندانات وأدوات التثقيب من الدوليريت، وأصلها من المستوى الأول من طبقة الحث في فلويسباد بولاية أورانج الحرة. إن تلك الأدوات ليست على العموم نموذجية ويمكن أنها لا تمثل المجموعة الكاملة من الأجهزة المصنوعة في ذلك العهد وبذلك الموقع، ولكن من الممكن أيضاً أن تلحق بها صفيحة وحيدة، طويلة ومهذبة ولقد وفّر نفس المستوى الأول ما يشبه مقبض سلاح رمي معكوف، من الخشب كما وفّر قطعة من جمجمة إنسانية. إن أفق فلويسباد ذلك يعود إلى أبعد من ٤٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وتوجد صناعة أخرى تختلف عن صناعة الصف الأول، وإن كان من المحتمل أنها معاصرة لها، وهي صناعة شافوما بروديسيا التي قيل عنها سابقاً إنها تعود إلى أبعد من ٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر. فهي تختص بشقارات وبعض ذوات الوجهين القليلة وبعناصر خفيفة هامة تشمل مما تشمل حدوداً ومكاشط وصفائح عليها علامات الإستعمال. لقد نحتت تلك الأدوات من مواد خام متنوعة كالكلسدوان، والابوالين، والمرو، والصوان الخ. وفي زامبيا تشابه صناعة توين ريفر (المؤرخة بـ ٢٢٨٠٠ ± ١٠٠٠ سنة قبل الحاضر) صناعة شافوما وإن كان التأريخ، على فرض أنه صحيح، يبرز أن طريقة تعتمد على التكنولوجيا قد فقدت اليوم كثيراً من قيمتها كعامل من عوامل الترابط بين الصناعات من مناطق مختلفة.

تنسب سلاسل عديدة أصلها من كهوف ومناجم سطحية إلى الصف الثاني من الصناعات (الصف ٢) (١١). إن التاريخ يضعها عموماً بين ٤٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر إلا أنها

(١٠) ذلك شأن بيتزبركين الأسفل من المستوى ٤ بكهف الموارد في ماكاين. و«العصر الحجري الوسيط الأول الذي يعلو مباشرة الشاطئ» بـ ٨ أمتار صوب نهر كلاسيس، وموقع في الهواة الطلق بمنطقة أورانج ريفر سكيم (الندر كلوف) وموقع آخر بترنسفال الأوسط (كودوسرند) وتختص فضلاً عن ذلك صناعة ناكاساسا في كاليفورنيا بأشكال مشابهة وإن كانت تحتوي أيضاً على بعض الأدوات ذات وجهين ثقيلة من النوع الذي يتوقع وجوده بصناعات الغابات الخفيفة في برايسيتشيا.

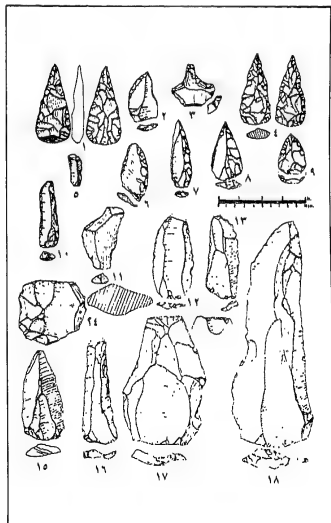
(١١) من الأمثلة عن صناعات الصف الثاني: الطبقة ٥ من كهف الموارد. طبقة ١ من كهف مغولو في ترنسفال، العصر الحجري الوسيط الثاني لنهر كلاسيس، وأدوات مومل باي وكهف سكندر كرات جنوب مقاطعة رأس الرجاء، وأخيراً الصناعة الستيلانية بكهف مومبوا وفي زامبيا.



● (١) الحضارة السانغونية في روديسيا، وهي مشابهة لحضارة الزامبيري (القسم الاعلى).
١٢ ومنشاران، ٨٣٣، فأسان نوو يتا الشكل،
نواة قرصية، ٦٥٥ - شغلانيا مشقة، ٧ -
أداة كروية (للوحدة رقم ١٢ في كتاب
«ثقافات العصر الحجري في روديسيا
الشمالية» بالانجليزية، تأليف ج. د.
كلارك، ١٩٥٠، جمعية جنوب افريقيا
للآثار، الكتاب).

● (٢) صناعات العصر الحجري الاوسط،
تو ين ر بقر (زامبيا).

١ - مكشط ذو زوايا، ٢ - شظية
مستعملة من نواة قرصية صغيرة، ٣ -
مكشط متراقد الوجه، ٤ - مكشط ذو
سن ناقص، ٥ - مكشط صغير، ٨ - أداة
ذات وجهين، وجميع هذه الأدوات مصنوعة
من الكوارتز ما عدا الاداة رقم ٣ فهي من
السيليكس الاسود والاداة رقم ٨ من
الدولوميت، ما بين عامي ٣٢٠٠٠
و ٢٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر (الشكل ٣٤ في
كتاب «ما قبل التاريخ في افريقيا» -
بالانجليزية، تأليف ج. د. كلارك،
١٩٧٠، دار نشر تيمس وهدسون، لندن).
● (٣) صناعات بيرتسبرغ، وبامباتا، مغارة
البيوت (كهف الدافن)، الترنسفال، ومغارة
بامباتا، روديسيا. أدوات نغمية مما تتميز به
بلدان الأفغال الشائكة والبوشيدل (الشكل
٣٥ في كتاب ج. د. كلارك، ١٩٧٠).



ترجع أحيانا إلى ابعد من ذلك، كما في الساحل الجنوبي مثلا، وتختص تلك الصناعات باستعمال متنوع لتقنية النواة الصحية الشكل ولتقنية لوفالوا، ولا سيما فيما يتعلق بقطع شظايا مستطيلة الشكل وبصنع صفائح عديدة. ان الصفائح والشظايا المستطيلة المنحوتة غالبا من المرو والليديانيت، كثيرة مناطق أمطار الشتاء، جنوب الانحدار الكبير الجنوبي الغربي الافريقي، ومناطق هايفيلد بولاية اورانج الحرة والشرق. ان التهدييات اللاحقة بأدوات الصنف ٢، ليست كثيرة. فهي تقتصر عموما على الحواشي، وكثيرا ما تكون مسننة. ونجد خاصة في الغابات الخفيفة المدارية التي كان استعمال المرو بها منتشرا، شظايا أكثر قصرا نحتت مكاشط وحسب أشكال مختلفة أخرى مع بعض التهدييات المحدودة. ويتكون جزء من الادوات — وهي قليلة ولكنها مفيدة — من أدوات ثقيلة يمكن أنها انتجت حسب معتقد، لاستعمال أعم للخشب ومنتجاته.

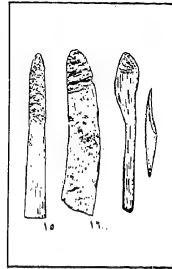
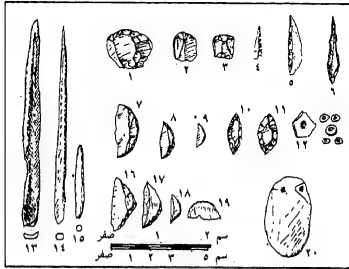
ان الصنف الثالث للصناعات (صنف ٣) (١٢) يؤرخ بما بين ٣٥٠٠٠ و ١٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وهي تختص بعدد أكبر بكثير من الادوات المهذبة تهذبا واسعا. ان تهذيب المكاشط والمحكات يكاد يكون غالبا، وليس من النادر أن نجد أشكالا مخنوقة. ويمكن أن تهذب الحدود المورقة الشكل سواء على كامل الوجه الواحد أو على الوجهين. وتنفرد المئاقب والمهاشم بخصائص. وبصفة عامة كانت الادوات أقل حجما، وتظهر عليها، بفعل التهذيب، جودة لم تكن موجودة في الأصناف السابقة.

وزيادة على الأصناف الثلاثة التي وصفناها، يوجد صنف رابع (صنف ٤) وهو يختلف عنها ببعض الفروق الواضحة. إنه يشكل المركب المعروف بـ «المغوسي» أو «الفاصل الثاني»، فهو يجمع بين الشكل المتطور والمصغر غالبا من تقنية النواة الصحية الشكل أو لوفالوا، وبين صنع حدود رقيقة ذات حواف متوازية، ومقطوعة بصفحة من عظم، وقرن، وخشب صلب. أما المواد الأولية المستعملة، فهي الصخور اللابلورية. وأما الأسنة المورقة أو المثلثة، والمكاشط والمحكات المصنوعة منها بطريقتي النواة الصحية الشكل أو طريقة لوفالوا، فقد سويت بكل عناية، وأحيانا بواسطة الضغط وفضلا عن هذه الأدوات التقليدية من العصر الحجري الوسيط، توجد أدوات أخرى مصنوعة على صفائح أو على قطع من صفائح غالبا ما تكون صغيرة، قد عكفت إحدى حواشها أو أنها استعملت أو هذبت حسب طرق متنوعة. وتوجد أنواع أخرى من المناقيش لا سيما شكل مسيب أو صفاحي. يبدو أن هذا النوع من الأدوات خاص ببعض أقسام الجزء الأسفل من القارة أي برونديسيا * وزامبيا، والشرق من ولاية أورانج الحرة وبجنوب مقاطعة رأس الرجاء وببعض أجزاء نازيمبيا مثلا. إلا أنه معدوم ظاهريا من أكبر جزء من القسم الأوسط من النجد الداخلي الذي وفرت فيه الليديانيت أهم مادة خام. فان كان لهذا التوزيع أساس يبق، علينا أن نضبط الصفات المشتركة بين المناطق التي اكتشفت بها تلك الصناعات من الصنف الرابع.

لقد اعتبر ان تلك الصناعات المتطورة تمثل مزجا بين تقنيتي «النواة المهيأة» بالعصر الحجري الوسيط وتقنية قطع الصفائح حسبما بالحجري القديم الأعلى، «فهي لا تتجاوزان ١٥٠٠٠ إلى

(١٢) ومن الأمثلة على ذلك: صناعة بيتزيركيين الأمل بكهف الموائد وكهف مفولوا وكهف بردر في ناطال، والقسم الأعلى من «الشيبياني» لكهف بيري بمقاطعة رأس الرجاء، وصناعة جباطا بكهف غامي في روديسيا.

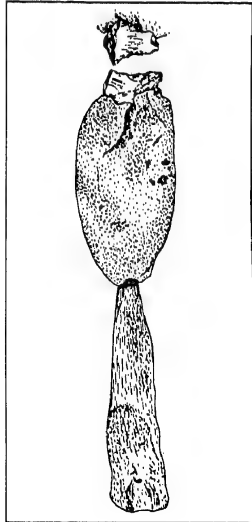
(٥) في الجزء المطبوع زيمبابوي — تعليق المراجع محمد القاسي.



١. أدوات الصناعات الويلطونية (١ إلى ١٢)، في مقاطعة الكاب في جنوب أفريقيا (حسباً ذكره م. س. بيركيت، ١٩٢٨): ١ - ٣ عيقات قصيرة، ٤ وه أدوات حجرية صغيرة ذات حواف مشطوفة، ٦ - غرارز ٧ إلى ٩ قطعاً من دائرة، ١٠ و ١١ «أهلة مزدوجة»، ١٢ - لآلء في قشور من بيض النعام. والعينات ١٣ و ١٤ من المسلجاً تحت الصخر في ويلطون، أما القطع الأخرى فمن سهل الكاب. من السيلكس والحجر الكلسي. أدوات صناعات ماثوبان (ويلطونية رويديسيا)، (١٣ إلى ٢٠) من كهف أمادوتيا، ماثوبوس هيلز، رويديسيا (وفقاً لما ذكره س. ك. كوك وك. ر. روبنسون، ١٩٥٤): ١٣ - غرارز عظمي مخطط المنقبض، ١٤ - شوكة من العظم ذات كعب مشطوف، ١٥ - عنصر اسطواني، ١٦ - ١٩: قطعاً من دائرة وأهلة سميكة من الكوارتز، ٢٠ - دلالية من الادرادار (الشكل ٥٦ في كتاب «ما قبل التاريخ في أفريقيا» بالإنجليزية، تأليف ج. د. كلارك، ١٩٧٠ دار نشر تيمس وهندسون، لندن).

٢. أدوات من الخشب، من موقع البلايستوسين في أفريقيا الجنوبية. ١٥ - منقبض أداة دفع (إلى اليسار) من المستوى ١ من طبقة الخث في فلوريسباد مينرال سبرينغ، عمرها ٤٨.١٠٠٠ سنة قبل الحاضر تقريبا. تمكن مقارنتها بقبضة أداة دفع استرالية، حيث حفرت مواضع غائرة لمنع اليد من الانزلاق، ١٦ - هراوة وأداة مزدوجة الشوكة، طبقة الاستقرار الاشولية في كالامبو فويز (مقاطعة كالامبو) (زامبيا)، عمرها ١٩٠.٠٠٠ سنة قبل الحاضر (اللوستان ١٥ و ١٦ في كتاب ج. د. كلارك، ١٩٧٠).

٣. ملق من شظية على شكل هلال، من السيلكس الاسود، مشيت بالصمغ على يد من قرن الحرتيت. عثر عليه في مغارة في بليستينغ باي، شرق مقاطعة الكاب (حسباً أورده ج. د. كلارك، ١٩٥٩).



٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وعلى هذا الأساس يمحصر عدد من التواريخ في هذه الفترة. ولقد تم الحصول حديثاً، على تواريخ سابقة لتلك بكثير (١٣) فيما يتعلق بصناعات الصنف ٤ التي سميت بالمغوسية أو «هويسنز بورت» في جنوب إفريقيا (نسبة إلى منجم عثرفيه على أدوات مميزة بالقرب من كراهنتاون). فاستثناء كهف متناكوب بمقاطعة رأس الرجاء، وصناعة التشانكولان ببروديسيا، لم تتوفر لنا مع الأسف أي معلومات دقيقة عن محتوى تلك الاكتشافات بحيث لا نعلم ان كانت تلك المجموعات موحدة أو توجد بها أكثر من صناعة واحدة.

وإذا سلمنا الآن ان تلك المجموعات موحدة، فان تلك التواريخ البعيدة ثدل على ان تكنولوجيا متطورة من البصاف قد تعايشت في إفريقيا الجنوبية مع تكنولوجيا تقليدية تعتمد الشظايا الهياة بالعصر الحجري الوسيط. والوضع لا يختلف بتاتا عما هو عليه بإفريقيا الشمالية حيث يختلف في المستوى المحلي مكيان صناعيان متعاصران وهما ثقافة دابا وثقافة العاطري. وعلى العموم، فسر تطور صناعات الحجر وتتابعها في الماضي بحركات السكان المتميزين من حيث التكوين الوراثي. الا أن فرضية الهجرة هذه لا تعتمد على حجج أخرى. ان الطريقة التي تبتى بها السكان الصيادون القاطنون الصناعات، والطريقة التي انتشرت بها بينهم تعود كثيرا إلى الإمكانات والتفوق مما توفر لهم، بالمقارنة مع الأجهزة التقليدية، ولا سيما عندما كان استعمالها ييسر استثمار موارد جديدة، ان الهجرة مسافات طويلة تبدو ضئيلة بالنسبة للصيادين القاطنين وتهم خاصة السكان الفلاحين، الا إذا كانت تفترض احتلال مناطق «فارغة» مثل العالم الجديد أو حوض الزاير أو المناطق الغابية من إفريقيا الغربية في آخر البليستوسين الوسيط. ان الاختراع المستقل من طرف سكان يعيشون في شبه عزلة ولهم موارد وطرق استثمار متشابهة، يشكل تفسيراً أكثر احتمالاً للتغيرات الطارئة على الادوات. ان التفسير كامن في وجود الحوافز أكثر مما هو كامن في هجرات واسعة للأجناس البشرية.

ولتوضيح ما نقول يجب أن ندرس دراسة سرية الشواهد الاحفورية بإفريقيا الجنوبية بعد نهاية الاشولي الذي ترتبط به جمجمة صلدنها. ولما كانت جمجمة كابوي، في بروكن هيل تنتسب نسبياً قريباً لجمجمة صلدنها، يَحتمل أنها ليستا متباعدتين زمنياً. ان العدد القليل من الادوات والاشكال الكروية الخفيفة الآتية من كابوي والتي تبدو أنها متصلة ببقايا بشريات، لا تشكل في حد ذاتها صنفاً على انفراد، بل يمكن أن توضع في كل تاريخ بين الاشولي الحديث وبداية «العصر الحجري الوسيط». ولقد اكتشفت بذلك المنجم مستويات سكنية طبقية تنسب إلى العهد، أي أنه اذا صح أن تفترض بان الجمجمة التي تكاد تكون كاملة والبقايا الأخرى تمثل أسرة بشريات تؤرخ بالسكنغون المحلي أو الاشولي النهائي، فانه يستحيل ان تأتي بدليل عليها ما دمننا لا نطبق على الاحفور نفسه تاريخاً أكثر دقة. ومع هذا فان التشابهات بين أحفورات صلدنها وكابوي (بروكن هيل) وبين

(١٣) لقد أرخت صناعات الصنف ٤ بكهف متناكوب — ٢٣٢٠٠ إلى — ٤٨٨٥٠ سنة وتطور التواريخ في كلايس، جنوب مقاطعة رأس الرجاء حول ٣٦٠٠٠ سنة قبل الحاضر ويكون التاريخ — ٥٠٠٠ سنة بكهف روزكوب بمقاطعة أورانج الحرة وهو — ٤٦٣٠٠ سنة بالنسبة للاببي — بيسريرفي بكهف بوردر. أما التشانكولان وهو صناعة من الصنف الرابع بزيمبابوي فإنه يقع بين ١٧١٠٠ ± ٧٨٠ و ٢٥٦٥٠ ± ١٨٠٠ ق. م.
* في الجزء المطبوع زيمبابوي تعليق المراجع محمد الفاسي.

القطعة الجمجمية (هـ ١٢) من باد ٤ من فج أولدواي وشبهتها في نجاراسي بالرفت من بحيرة إياسي بأفريقيا الشرقية، قد تفيد بأن تلك الأشكال «الشبيهة بالروديسية» والأشكال الأخرى المنسوبة إلى الإنسان العارف قد حلت محل الإنسان المستقيم في آخر البليستوسين الوسيط (مثل إنسان نياندرتال، باوروآسيا)، وأنها كانت في بداية البليستوسين الأعلى منتشرة كثيرين بالمناطق المدارية من أفريقيا جنوب الصحراء (١٤).

وقد يعتقد بأن التغيرات المناخية بأفريقيا قد طرأت، بالاعتماد على دراسة اللقاحات والمنتجات وغيرها، في نفس الوقت الذي وقعت فيه التغيرات المصاحبة بأوروبا وآسيا للتجمد الأخير. إن تشتت الشمل، وأنعزال السكان البشريين انعزالا يكاد يكون كاملا قد سببا تغيرات وتطورا في اتجاهات مختلفة، بينما كانت البشر يات تكيف تكيفا صحبيا في المستوى التكويني والثقافي مع البيئات المختلفة التي استطاعت أن تحتلها.

ومهما كانت الأسباب — ولندكر من بينها اكتساب الكلام، وتطور البنية الاجتماعية والتكنولوجيا المتقدمة وغير ذلك — مهما كانت تلك الأسباب التي جعلت الإنسان العصري (الإنسان العارف) يتميز تميزا واضحا عن البشريات الأخرى، فن المؤكد أنها هي الأساس في التفاعلات التكوينية التي ترتبت على إحلال جنس جديد بصورة سرية نسبيا، محل أشباه النياتراليين، وأشباه الروديسين، وغيرهم من الأجناس التي لم توفق في تكيفها. ويبدو أن الإنسان العصري (وتمثله جاجم التشكل في كيبش) بالحوض الأسفل من أومو وبحوض بحيرة فكتور في كنجرا كان موجودا بأفريقيا الشرقية منذ ما يقرب من ٢٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وفي أفريقيا الجنوبية تنتسب جمجمة فلوريسباد التي تعود إلى أكثر من ٤٨٠٠٠ سنة، إلى شكل قديم، وقوي قرىب من الإنسان العصري. إن عددا من الأحفورات الأكثر حداثة، والمؤرخة تاريخا دون ذلك دقة، والتي يعود جلاها إلى ما بين ٣٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ في وسكوب، وكهف بوردر، وتونيلاتس، وسكلدرخت (كهف بير)، وميمبو وغيرها تمثل سكانا كانوا متميزين في المستوى الجهوي وأصبحوا عصريين وكانوا نواة للاحد الأنواع الثقافية بالعصر الحجري الوسيط.

وفي أواخر البليستوسين، منذ حوالي ١٠٠٠٠ سنة، كان سكان متناسيون تكوينيا لكنهم مختلفون جهويا، وهم الأسلاف البعيدون لبعض الشعوب الحالية، قد تميزوا عن غيرهم ومن ذلك سلالات البوشيمان، كبارا وصغارا بأفريقيا الجنوبية وبأفريقيا الوسطى الشرقية، و«أشباه زوج أفريقيا» الاستوائية والغربية، والجانبية «النيلية» بأفريقيا الشرقية. إن الأحفورات التي عثر عليها مبعثرة، وهي تقتصر عامة على نموذج واحد. وقل أن توجد دلالات دقيقة عن مدى التغيرات المنتظرة ضمن نفس السكان. إلا أننا لا نشك أن «الأجناس» الأفريقية الأهلية تعود إلى تاريخ عتيق جدا بالقارة، ويمكن أن نعتبر أنها تطورت طيلة البليستوسين الأعلى وفي بداية الهولوسين على أثر حقبة طويلة من التكيف والانتقاء بأهم المناطق الحيوية الجغرافية.

(١٤) يدل تأريخ جديد بالقوائم الحفري بشرىات على فترة عنه من ١٠٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠٠ قبل الحاضر (ج. بادا: نقلا عنه شخصيا).

(٥) في المطبوع «سان» عوض «بوشيمان» تعليق المراجع محمد الفاسي.

وكما بينا سابقا فإن الصفائح المصنوعة بالقرع غير المباشر، وكذلك مختلف الأدوات الصغيرة المنحوتة على الصفائح ذات الحواشي المعكوفة المكتشفة مع أدوات الصنف ٤ (هويسز بورت) كانت تعتبر في الماضي دليلا على تحركات السكان. و يعتقد أن هذه الأدوات أدخلتها جماعات مهاجرة من «أناس عصرين». فينبغي أن نتظر نتيجة دراسة نهائية للمواقع المحفورة لنصل الى حكم حاسم في هذه القضية، إذ كتب لتلك «الفرضية الجنسية» أن تثبت فيما بعد، ولتلك الأدوات أن تعكس استعمال تقنيات جديدة شاعت بفعل الحوافز وقيلت لأنها تسمح باستثمار النجم للموارد المحلية، أو لأنها نتاج عوامل مختلفة تماما. ومهما كان السبب، فلا شك أن تسرب التكنولوجيا الصفائح تربط بطور الأدوات المتراكبة التي تتناسق فيها قطعتان أو ثلاث لتشأ منها أداة أكثر اتقاناً وأكثر نجاعة. ومن المحتمل أن يكون إثبات الحجر أو مواد أخرى بمقايض بلوغ نجاعة أكبر، قد ابتدأ منذ حقبة الصنف ٢. إن آثار الترقيق على قفا الحدود في موسل باي أو نزع الكعب بتذييات معكوسة قد تدل على تعديلات متصلة بإثبات المقبض. إن أبسط طريقة في إفر يقيا، لتركيب سكين حجري أو حد للرسمي قد تكون باستعمال أشكال مختلفة من الماسستيك (الرننج، الصمغ، وحليب النبات الخ) مع رباطات ليفية وثرية.

لقد صاحب ظهور الإنسان المعاصر في ما قبل التاريخ، سلسلة كاملة من الإختراعات في مستوى التطبيقات والخصائص الثقافية. فالترسبات المتراكمة والكهوف والملاجئ تحت الصخور وكذلك في بعض المواقع بالهواء الطلق، تبين أن المنشآت الفصيلة قد أصبحت قاعدة عامة. ويبدو أننا أمام مجموعات أكثر نظاما وإن ظلت متفتحة، ومعرضة في تشكيلها لتحويلات مطردة. إن تعدد الأدوات والسعي لتوحيد أشكالها، والاطراد المتزايد لبناء الأضرحة المقصودة، ووضع الأشياء والأطعمة قرب الميت حتى يتمكن من مواجهة الآخرة، والاستعمال الأكثر انتظاما للأصباغ للتلوين، وربما للطقوس أيضا، وحتى تذوق الموسيقى المشهود بشمال إفريقيا، كل ذلك يدل على الصفات التكوينية الواضحة التي يتميز بها الإنسان العارف. و يفسر أحد الجوانب من التخصص الأكبر في صنع الأدوات على المستوى الجهوي، بالمبول الجهوية نحو أنواع من الصيد، ونحو الاستهلاك بكثرة لبعض الأغذية النباتية التي يتطلب تحضيرها الرحي والمهراس. وتظهر أدوات المهرس لأول مرة مع الصنف ٣، لا سيما بعد ٢٥٠٠٠ بقليل. وتصبح مجموعة من الأدوات الشقيلة، أدوات أكثر خفة من الشمال والشمال الشرقي من زامبيا، وهي تعكس اطار استثمار يوفر موارد مشابهة جدا للموارد الزايري وأنجولا.

تبدو لنا بسيطة للغاية الفكرة التقليدية التي كانت لنا عن «العصر الحجري الوسيط» باعتبارها مشتتملا على اختلاطات جهوية متمايزة (ستباي، بيتوز بورغ، موسل باي، هويس بورت، الخ) وكلها متعاصرة تقريبا، وتدل عليها بعض الأحفورات الرئيسية، إن صناعات العصر الحجري الوسيط تستحق أن تعتبر نتائج تكيف منتظم مع مناطق أو جهات إحيائية جغرافية متمايزة، وقد فرضت فيها حاجات ونشاطات المجموعات الإنسانية اختيار المواد الأولية المستعملة لصنع الأدوات. ومن أجل إثبات الأهمية النسبية في عين المجموعة، لمختلف المواد (الخشب، الحجر، العظم، القرن الخ)، يستحسن أن نقارن المعطيات الإحيائية البيئية بمعطيات التحليلات من نوع «تحليل ربط

الموقع» (١٥)، ان مجموعة من الادوات الحجرية العادية لا تعني وجوبا «الرداءة» كما ان مجموعة من الادوات الحجرية «الظريفة» لا تدل على التفوق. ان الادوات الحجرية توفر لنا في حد ذاتها قسطا أدنى من المعلومات عن سلوك الذين صنعوها، ان الأهم هو إقامة علاقة ارتباط بين هذه الأشياء وبين جميع المنتجات الأخرى الناشئة من النشاط الإنساني والمحفوظة لتقوم شاهدا على مرحلة من مراحل احتلال المكان. ان بنية مواقع العصر الحجري الوسيط قد ظلت أقل تعريفا من بنية الأشوبلي والعصور السابقة. ان كهف المواقع يعطينا دليلا على وجود مواقع للنار، ويدلنا كهف مونشاكو، على توزيع الادوات حول المواقد في كل أفق. وقد عثر في موقع أورانيا ١ على أسس حجرية لحواجز ريح عديدة، وتمكننا من العثور على منطقة واسعة محمية كان يقوم فيها نشاط برايكوكات ٢٧ بمنطقة اورنج ريفر سكيم.

ووجدت عظام مكدسة بعد مرات عديدة وموقفة من الصيد وذلك في كالبينك في ترنسفال. و يبدو أخيرا أنه شرع في استخراج الهمايتيت لانتاج الأصباغ منذ ٢٨٠٠٠ سنة تقريبا وذلك حسبما يستفاد من الإكتشافات بكهف الأسود، في سوازيلاند، وجدت سندات راسخة في الأرض لقطع الحجارة في آفاق ١ كلمبوفولز. فهي تعود ٢٧٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ولقد اكتشفت بنفس الموقع دائرات حجرية يحتمل أنها حددت المواقد، بينما اكتشفت آثار مبعثرة لحجم مؤقت من صناعة مبطا، وذلك بنهر ناوا في بوتسوانا. ان بقايا الحيوانات الدالة على مخلفات غذائية تبين أن الحيوانات الكبيرة كانت تشكل العنصر الأساسي للتموين. ان البعض منها، أي الجواميس، والثور والحيازم والجرم الحوشية والخنزيريات تعتبر من الأنواع التي يكثر جلبها الى أماكن السكن، وبصفة عامة يبدو أنه يوجد بموقع العصر الحجري الوسيط تنوع أكبر في الفصائل الحيوانية مما عثر عليه بالأشوبلي. ولكن اذا كان اكتساب أسلحة صيد جيدة قد سمح بتنظيم حملات غائمة، فان حيوانات الصيد متنوعة جدا. ولم يصبح الصيد انتقائيا الا عند حلول العصر الحجري المتأخر.

وختاماً، لم يسبق من الممكن أن نعتبر صناعات العصر الحجري الوسيط دليلا على تقدم بسيط وخطي نحو تكنولوجية أكثر جودة وأكثر تطورا. انها على العكس، تكشف، اذا كانت التواريخ صحيحة، عن عدد من التقنيات المختلفة التي لها قاعدة اقتصادية أساسا. وتتأثر تلك التقنيات بعضها ببعض حسب درجات مختلفة، ويمكن لها أن تتطور تبعا للحاجات المادية. أن الانواع المختلفة المعروفة قد تعبر عن ميل جوهري تتعلق بالموارد واستخراج المواد، وان كانت جل تلك الأنواع تستلزم تعريفا أكثر تدقيقا. ان بعض المواقع الطبقية (مثل كهف المواقد) تبرز مقطوعة متقدمة تماما، بينما يدل التعاقب الطبقي في مواقع أخرى (كلاسيك ريفر على الساحل الجنوبي من جنوب إفريقيا، وكهف. زمبيسباط، بروديسيا) (٥) على التقاليد المستيرية بغربي فرنسا، ويمكن أن تتعاقب

(١٥) ان «تحليل ربط الموقع» هو طريقة دعت إليها فيثا فنزي وهيكر (١٩٧٠) لاقرار الموجة بالقوة من الموارد في منطقة استثمرت انطلاقا من موقع ما قبل التاريخ. وذلك يتطلب تعريف حدود الموطن، وإلى أي مدى يختلف السكن والمجال الحيوي عما هما عليه اليوم (انظر فيثا فنزي، وا. س هكين ١٩٧٠) في اقتصاد ما قبل التاريخ بجبل الكرمل بفلسطين. تحليل ربط الموقع، وقائع جمعية ما قبل التاريخ، ٣٦، ١ - ٣٧.

٥ في الطوبوغ زيبايري روديسيا - تعليق المراجع محمد الفاسي.

الاصناف دون تواصل ظاهر. إن تعويض صنف بآخر قد يعود إلى أسباب اقتصادية وقد يعكس تغيرات بيئية أي أنه يدل على ميول غذائية جديدة. فالشواهد النادرة المتوفرة لدينا، تؤيد هذه الفرضية. إلا أننا نفتقد التحليلات المفصلة للحيوانات والمعادن اللقاحية لكي يثبت إن كانت تلك الأنواع البديلة قد طرأت في نفس الوقت بنطاق شاسع أحيائية جغرافية، أو أنها لا تعكس إلا تطوراً مؤقتاً للمواد الغذائية الخاصة بهذا المنزل السكاني أو ذاك.

ولما كان العصر الحجري الجديد بمجنوب إفريقيا معاصراً تقريباً للعصر الحجري القديم الأعلى الأوروبي، فإن مراحل البعثات تبدو، وإن كانت غير معروفة جداً، أكثر معاصرة على العموم للموسستيري أو الجروودي (ما قبل الأوريناسي) في الشرق الأوسط.

العصر الحجري المتأخر

إن الصورة الكلاسيكية عن العصر الحجري المتأخر بإفريقيا الجنوبية، تنحصر في الصناعات المتكونة أساساً من الحجارة الصغيرة المسماة عموماً «لوطونية»، نسبة إلى الكهف الموجود بالغرب من مقاطعة رأس الرجاء الصالح حيث اكتشفت هذه الصناعات المتميزة، ووصفت لأول مرة مثلما كان شأن صناعة المكاشط المسماة سميفيلد، بالمنطقة الغنية بالليدانيت في هايفيلد. واكتشفت ببعض المواقع من جنوب القارة صناعات أطلقت عليها اسم ما قبل لوطونية، وظهرت منذ ما يزيد على ٢٠٠٠٠ سنة وتدل على تغير جذري في تكنولوجيا الأدوات الحجرية. وقام مقام النواة المهيأة من العصر الحجري الوسيط، نواة ليس لها شكل معين وتقطع منها شظايا غير منتظمة. إن الأدوات الوحيدة التي حافظت على طابع خاص تبدو أنها من أنواع مختلفة من المكاشط الكبرى، والمحكات المنحوتة على شظية أو على أدوات حادة وكذلك أشكال عديدة من المحكات هي أصغر ومعدبة. وتوجد منها نماذج في مناجم تقع في الساحل الجنوبي (١٦) من ولاية أورانج الحرة (١٧)، وفي ترنسفال (١٨)، وناميبيا (١٩) حيث هذه الآثار لها علاقة بذيع ثلاثة قبيلة.

إن الصناعة المعادلة في روديسيا (٢٠) هي صناعة البوموبكيني التي تؤرخ بين ٩٤٠٠ ± ١٢٢٠٠ سنة قبل الحاضر. ولها علاقة ارتباط بمواقف كبرى ذات رماد أبيض، وبعض الحدود الأولى من العظم المكتشفة بذلك العهد. ولعل الأمر يستوجب أن نربط بها أيضاً مستوى من كهف ليوبارد هيل في زامبيا بـ ٢١٠٠٠ إلى ٢٣٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وهناك مكتشفات أخرى لم تؤرخ

(١٦) كهف خليج نلسون، ضبط تاريخه بـ ١٨٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر، مانجس ريفر الذي يعود إلى ١٢٥٠٠/١٠٥٠٠ قبل الحاضر، ثم أو كهرست. أما في كهف خليج نلسون فتوجد صناعة المحكات الحادة وتعود إلى تاريخ يتراوح بين ١٢٠٠٠ و ٩٠٠٠ سنة قبل الحاضر. إن أغلب الأدوات مصنوعة من شظايا كبيرة. ولا توجد أشكال مصنوعة من حجارة صغيرة وتوجد صناعة قبل ولوطونية في مناجم أخرى من منطقة الجبال الجنوبية، مثلاً في مكويتوم حيث تؤرخ بـ ١٠٥٠٠ ± ٩٠٠٠ قبل الحاضر.

(١٧) «سميفيلد»، مثلاً صناعة الفترة ١، من زيكوكات ١٣.

(١٨) أوكوكوست، أرخت بـ ٧٦٨٠ قبل الحاضر.

(١٩) وندهوك (Windhoek) تعود إلى ١٠٠٠٠ ± سنة قبل الحاضر.

(٢٠) في المطبع زيمبابوي - تعليق المراجع محمد القاسي.

في بوندولاند (كهف أومكزنا) بوادي الزمبيز الوسيط، في زامبيا (لوكاندا) بمناطق أخرى و يبدو من هذا التوزيع أن تغيرا تكنولوجيا عميقا قد عم بين ٢٠٠٠٠ و ٩٠٠٠ سنة. ولقد ظلت أسبابه غير واضحة، إلا أن مؤلف هذا الفصل يفترض أنها قد تكون نتيجة تغيرات البيئة الطارئة بذلك العهد والتي قام الدليل على وقوعها في عدد من المواقع بأفريقيا الجنوبية (خليج نلسون زمبيباط الخ). وقد تكون نتيجة تطور انتشار أدوات وتقنيات أكثر نجاعة تتعلق خاصة بطرق جديدة في الصيد.

إن تلك الصناعات التي قبل «الولطونية» متصلة باستثمار ذوات الجوف الكبرى: الحيارم النوى، الظباء الزرقاء، والكوغا. و يبدو أن تلك الصناعات قد ناسبت، في خليج نلسون، تغيرا بيئيا طرأ بعد ١٢ ٠٠٠ سنة قبل الحاضر. لما عوضت حيوانات المروج أنواع من الغابة العروية. يضاف إلى ذلك أن ظهور عدد كبير من الحيوانات البحرية ضمن بقايا الحيوانات، يدل على أن ارتفاع مستوى البحر، مدة المراحل الأخيرة من البليستوسين، كان قد يسر الاستثمار المباشر للحيوانات البحرية انطلاقا من ذلك الكهف.

و يبدو اليوم أن الصناعات ذات الصفائح المحتوية على نسبة عالية من أشكال الحجارة الصغيرة ذات الحافة المعكوفة كانت قد ظهرت بجنوب إفريقيا الوسطى في فترة سابقة بكثير لما كان يعتقد. وتمثل إحدى تلك الصناعات الأكثر قدما، المرحلة القديمة من الصناعة النشيكوفية (نشيكوفو ١) في زامبيا حيث يوفر أقدم تاريخ ١٦٧١٥ ± ٩٥ سنة قبل الحاضر. وظهرت صناعة ولطونية في روديسيا (٥) في حوالي ١٢٠٠٠ قبل الحاضر (كهف تشانكولا) وبعد ذلك بقليل بجنوب إفريقيا (تقريبا ٨٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ قبل الحاضر وتوازي هذه الأمثلة من جنوب إفريقيا الوسطى صناعات حجرية صغيرة محضه لها صفائح ذات ظهور أصلها من مناجم إفريقيا الشرقية. من ذلك صناعات أوكندا (كهف منيا، وجزيرة بوما ١٤٤٨٠ ± ١٣٠ قبل الحاضر) والكينيسيا، ومن رفعت نكورو/نيفاشا (برولا ونجد درفت، ١٣٣٠٠ ± ٢٢٠ ق. ح) ومن طانزانيا الوسطى (ملجأ تحت صخرة في كيسيزي، ١٨١٩٠ ± ٣٠٠ ق. ح ويمثل التشيتولي بحوض الزاير صناعة قريية منها لكنها مختلفة جهويا (١٢٩٧٠ ± ٢٥٠ قبل الحاضر).

إن التقاليد الحجرية الصغيرة تناسب تطور أشكال من الأدوات المتعددة التركيب وتزايد نجاعتها. و يعتبر القوس والسهم أهمها، ونحن نجعل متى ظهر هذان السلاحان، بأفريقيا لأول مرة. ولعل ذلك كان قد حصل بالمرحلة الأخيرة من البليستوسين، ومن الأدوات التي لا تقل أهمية عن القلع والأشكال الأخرى من الأدوات ذات الحافة المعكوفة الحجرية المستعملة عمادا للسهم نذكر مختلف أشكال الحدود العظمية وأسلحة الرمي التي يحتتمل أنها كانت حدود سهام. إن البعض منها يعود بدون شك إلى ١٢٠٠٠ سنة.

ويمكن التعرف على مقطوعات تطويرية في تلك الصناعات الحجرية وذلك بأماكن عديدة من إفريقيا الجنوبية. إلا أنه يحتتمل أن النواة شبه الصحن قد بقيت في مناطق أخرى، مثلها هو الشأن بالشمال الغربي من زامبيا، حتى الألفية الثانية قبل الميلاد، و يبدو أن العناصر الحجرية الصغيرة

الوطنية قد انقرضت في أماكن أخرى (بولاية أورانتج الحرة مثلا) فوعضتها صناعات يغلب فيها المحك (سميفلد ب.).

ان المواقع المعروفة من العصر الحجري المتأخر تفوق عدد المواقع المعروفة من العصر الحجري الوسيط. ويحق لنا بأن نعتقد أن بداية الهولوسين كانت حقبة تزايد ديمغرافي. ومن ذلك العهد أيضا (١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر) احتلت الكهوف والملاجئ تحت الصخرية أكثر فأكثر. ولقد استثمرت الموارد المحلية استثمارا أكثر مما كان. وتبين بقايا الحيوانات المكتشفة بمواقع السكن الأهمية المتزايدة للصيد وقنص حيوانات معينة. ويحتمل أن يكون هذا النوع من الاستثمار لا يختلف عن نوع الاستثمار عند أفراد قبيلة سان الحاليين في كالا هاري والصيادين القاطنين من أهل المنطقة المدارية الجافة.

ان تنقلات إحدى الجماعات، وموطنها مرتبطة بدون شك بالموارد الفصلية من الماء والأعشاب والحيوانات. ولذا يمكن أن نتصور إذا كانت تقع اتصالات منتظمة بين مجموعات متجاورة. ان أولئك الذين كانوا يعيشون قرب عين ماء صافية أو قرب البحر كانوا يستثمرون أيضا الموارد المحلية من الأسماك والأصداف والثدييات المائية، وكان آخرون يصطادون خاصة القطعان الكبيرة من الظبي، ويصطاد آخرون الحيوانات الصغيرة، وإن أشكال الادوات الأكثر رواجاً متكونة، في المنطقة الجبلية الجنوبية بمقاطعة رأس الرجاء الصالح، من محكات صغيرة لها أنواع مختلفة، أما بقايا الغذائية فهي غالباً للتدييات الصغيرة، المصطادة بالغنم. ومن جهة أخرى، كشفت الصناعات في روديسيا (ه) وزامبيا وغيرها، وفي المروج والغابات الخفيفة عن قطع عديدة حجرية صغيرة وعن صفائح ذات حافة معكوفة لها صلة ببقايا الثدييات الكبيرة. ان تلك الادوات الحجرية الصغيرة تفيد أن الأسلحة الأساسية قد كانت القوس والسهم، وكانت الحجارة الصغيرة مثبتة بمقابض مفردة أو زوجا لتشكل حدودا عريضة قاطعة تشبه حدود مصر في عهد الأسرة المالكة، وتشابه بعض سهام قبيلة سان بالعهد التاريخي والتي وصلت إلينا. ولقد كان امتداد مواطن مجموعات الصيادين يخضع لعوامل بيئية مختلفة. ولقد تبين بالغرب من مقاطعة رأس الرجاء (دي هفن) ان مجموعات ما قبل التاريخ من السكان كانت تقضي الشتاء على الساحل، وتعيش خاصة من منتجات البحر، وتقضي الصيف بالجبل على بعد ١٤٠ كلم في الداخل حيث كانوا يأكلون نباتات مختلفة والميركس والسحفاوات وحيوانات أخرى صغيرة.

احتل الصيادون القاطنون من العصر الحجري المتأخر بالجهات المائية جدا من إفريقيا الجنوبية، بعضا من المناطق التي تعد من أغنى المناطق في العالم من حيث الموارد الغذائية الحيوانية والنباتية. ولما كانت موارد الصيد، مثلها هو الشأن هنا، غالبا لا تنفذ فقد وجد الصيادون متسعا من الوقت لتعاطي أنواع من النشاط الفكري مثلما تشهد مثلا بذلك الآثار البديعة من فن الرسم الجداري بمجال دركنز بوك وروديسيا (ه) وناميبيا. والصحيح أن عددا من تلك الأعمال الفنية لا يتجاوز بساتنا ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة وان كانت توفر شهادة لا نظير لها عن طريقة عيش أولئك الصيادين القاطنين من قبل التاريخ. وقد دامت في حالات كثيرة، حتى عند السان في كالا هاري

الوسيط ومن الواضح أن ذلك الفن يعود أيضا الى عهد بعيد جدا. أما اللوحات الأكثر قدما والمكتشفة الى الآن بأفريقيا الجنوبية فقد اكتشفت في ملجأ تحت صخرة في أبولو ٢ بالجنوب الغربي الافريقي (ناميبيا حيث تظهر على جدران صخرية وذلك في مستوى أرتج بـ ٢٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر).

ان سكان العصر الحجري المتأخر، العائشين من الصيد والقطف، مدة القرون الأولى بعد الميلاد، ما لبث أن حل محلهم في أكبر جزء من إفريقيا الجنوبية فلاحتون كانوا يعرفون صناعة المعادن. ويحتل كثيرا أن يكون أولئك السكان هم الرواد الأوائل للمهاجرين الناطقين بلغة بانتو الذين هاجروا من موطن يوجد بالشمال الغربي (تشاد وكمرون) للاقامة بالجزء الجنوبي من القارة. وعلى هذا الأساس لا توجد بأفريقيا الجنوبية، آثار الثقافة الحجرية الجديدة وذلك يعني انعدام فلاحين يصنعون الفخار. ووجود سكان يعرفون أدوات حجرية لا سيما الفؤوس المهدبة والمصقولة. إلا أنه ينبغي أن نعدل هذا الحكم، فنقول بأنه، رغم فقدان أثر الفلاحة قبل ظهور السكان من عصر الحديد فلا شك أن بعض المجموعات من العصر الحجري المتأخر بأفريقيا الجنوبية الغربية كانت تملك أغناما ثم أبقارا وذلك حوالي القرن الأول قبل الميلاد وحتى قبل ذلك ويمكن أن نشبه البعض منهم بقبائل خوي خوي التاريخيين أي برعاة رحل لا يتعاطون الفلاحة لكن كانوا يصنعون نوعا معينا من الفخار. الا أنه لم يوجد أي أثر من سكن الرعاة، بحيث يجب علينا أن نعود الى المراجع التاريخية للتعرف على تلك المجموعات عندما يتعدر علينا أن نعمل على علم الآثار. ولنا أن نتساءل أيضا من أين أتت مواشيهم؟. ان المعطيات اللغوية تبين حسب بعض المؤلفين أنها أتت من شعوب تتكلم لغات السودان الشرقي والأوسط، بينما يميل آخرون الى مهاجرين من مطلع عصر الحديد. ومهما كان المآتي، فهناك احتمال ضعيف في أن تكون بداية تلك المرحلة الرعوية سابقة بـ ٣٠٠ سنة للميلاد، علما بأنها انتهت في القرن الثامن عشر.

وهكذا فان نتائج ابحاث ما قبل التاريخ الجارية بأفريقيا الجنوبية تبين الدور الهام الذي لعبته أراضي السنجيد العالي الداخلي في تطور الإنسان صانع الادوات. ان الذكاء والنجاعة المتزايدتين اللذين اعتمدتهما سكان من البشرات المتعاقبة لسن أنماط السلوك، وتكوين رصيد ثقافي مكانهم من استثمار موارد النظم البيئية التي عاشوا بها، استثمارا كثيفا، يسمح بأن نفس الاختلافات الجنسية والشفافية التي تتميز بها الشعوب الأهلية بأفريقيا الجنوبية الحالية (سان وخوي خوي وبرغندا، أو فطجبيا، وتوا، وبانتو) مع الافادة بقدوم وتواصل صفات سلوكية بارزة، تواصل كبيراً بحيث ظلت قائمة الى عهدنا هذا.

الفصل الحادي والعشرون

ما قبل تاريخ افريقيا الوسطى

القسم الأول

بقلم: روجي دي بابل دي هومنس

يمتد حوض الزاير (الكونغو سابقا) جغرافيا من خليج غينيا غربا الى منطقة البحيرات الكبرى شرقا، تقريبا على خط التوازي العاشر جنوبا من أنجولا وشابا (كتنجا سابقا) وعلى الخط الفاصل بين مياه الأحواض الهيدروغرافية من تشاد والزاير شمالا (١).

فهو يمثل حاليا المنطقة الاستوائية أساسا ويعتبر كساؤه الشجري المتكون من الغابة الكبرى، أكثر الأكسية كثافة بأفريقيا، فمن المعلوم فعلا أن تلك المنطقة الغابية قد امتدت، في فترات رطبة جدا معينة، نحو الشمال أكثر مما هي عليه الآن ولقد تقلصت مدة الآلاف من السنين ولم تظل قائمة الا على شكل أشرطة غابية يزداد أو يقل عرضها على طول الأنهار والجداول. وإذا كنا نؤكد على هذا الكساء الشجري فلأنه كان عاملا أساسيا في غو وتطور حضارات ما قبل التاريخ بتلك المنطقة. وهذه الحضارات وخاصة ما أعقب منها الاشوي تبدو من خلال الأبحاث والمعارف المتوفرة حاليا كأنها قد تطورت بعين المكان، وتأثرت بالغابة البدائية وبدون أن يحصل الاتصال بينها وبين السكان العائشين بالمناطق ذات النباتات القليلة الكثافة. أما في الشمال فإن هجرات العصر الحجري الحديث التجهة من الشرق الى الغرب قد جانبت الغابة ولم تدخلها كأنها تمثل عقبة وعالما لا يدخله السكان المتأدون العيش بمناطق السباسب والمساحات الكبرى المكشوفة. فلا شيء في صناعات العصر الحجري القديم ولا شيء في العصر الحجري الحديث، ولا شيء في فن الرسم

(١) نعتقد بأفريقيا الوسطى البلدان الآتية: الزاير، امبراطورية وسط افريقيا، جمهورية الكونغو الشعبية، الجابون، الكامرون، وبعض الأجزاء من أنجولا، ورواندا، وبوروندي.

الجداري الذي لم يكن على أية حال معروفا بمحوض الزاير، ولا شيء من كل ذلك يسمح بأن نؤكد على حدوث اتصالات مع السكان القاطنين بالفيافي التي لم تتحول بعد الصحراء الكبرى الجافة المعروفة اليوم. وان حدث أن وقعت اتصالات، ينبغي أن نتجه نحو الشرق والجنوب من افريقيا، كما ينبغي أن نبحث بها عن ابتداء هجرة مجموعات بشرية سكنت في الغابة الاستوائية الكبرى غربا.

أما فيما يتعلق بالمناخ، فإن الدهر الرابع بتلك المنطقة قد يكون قريبا من مناخ افريقيا الشرقية مع تغيرات محلية راجعة الى علو المناطق الجبلية الشاهق، و يوجد حسب ج. مرتلمنس (١٩٥٢) أربع حقبات ممطارية ومرحلتان رطبتان (٢):

الناكوري	— الرطب الثاني
الماكالي	— الرطب الأول
الكبلي	— الممطار الرابع
الكتنجري	— الممطار الثالث
الكاماسي	— الممطار الثاني
الكاغيري	— الممطار الأول

ويتعلق عمران منطقة من المناطق الى حد ما بحسب هذا التعاقب بين حقبات جافة نسبيا وأخرى رطبة جدا وذلك عن طريق ما يطرأ من تغير على ما نسميه اليوم «البيئة».

ان التوغل العسيري في أعماق الغابة قد جعل العديد من المؤرخين لما قبل التاريخ، يقولون بأن عدد سكان تلك المنطقة كان قليلا من العصر الحجري الأسفل الى العصر الحجري الجديد. ونحن لا نوافق على هذا الرأي و ينبغي أن نقضي على الأسطورة المتعلقة بصعوبة العمران بتلك المنطقة. وإذا كان مجموع الادوات الحجرية بتلك المنطقة كلها قليلا الى حد ما، فلأن الباحثين قد ترددوا في القيام بحوث طويلة المدى في أحوال عسيرة. واعتبارا للنتائج التي حصلت عليها بعثات عديدة بأنحولا^١ و بامبراطورية وسط افريقيا و بالزاير، واعتبارا للكليات الهائلة من الحجارة المنحوتة المحصل عليها، يجب أن نعترف ان عمران ما قبل التاريخ الذي حصل في ما يسمى «الغابة الكبرى» كان هاما بقدر ما كان هاما بالمناطق الاخرى من افريقيا.

يجب أن نضيف في النهاية أن الآثار النباتية بالمنطقة الاستوائية الرطبة، لم تبق محفوظة بسبب حوضه الأرض، ولذلك انعدمت الاحفورات الانسانية، وبقايا الحيوانات والأدوات العظمية، الا بعض الاستثناءات النادرة، علما بأنها متعلقة بالحقبات الحديثة جدا، بل والتاريخية.

(٢) الناكوري: مرحلة رطبة تعرف بالترسبات الشاطئية دون ١٠٢ مترا من بحيرة نكورو بالكينيا.

الماكالي: مرحلة رطبة تعرف بالشواطىء البحرية من ١١٤ مترا و ١٠٢ مترا من بحيرة نكورو.

الكبلي: الممطار الرابع الذي يعرف بما حول بحيرات نكورو، ونيغاشا وخاصة النبت (غمبلز كيفي) في الكينيا.

الكتنجري: الممطار الثالث الذي عرفه ل. س. ب لايكي بحسب راسب أفغوري اكتشف بكينجر على خليج كفرنزو.

الكاماسي: الممطار الثاني الذي ينسب اسمه الى ترسبات المشطورات التي درسها جرجيري بكسيا بالرفرت فالي بالكنيا.

الكاغيري: الممطار الأول، سمي بهذا الاسم بسبب نظام سطح كاغيرا أو أوغندا، اكتشفه أ. ج. ويلاند عام ١٩٣٤.

لمحة تاريخية عن البحوث

لقد ظل ما قبل تاريخ المنطقة الغابية الاستوائية من حوض الكونغو مجهولا بسبب كسائه الشجري العظيم وتشكلاته اللاتيرية الكبرى التي اندمجت بها بقايا الصناعات التابعة لحضارات عديدة في ما قبل التاريخ.

إن الشروع في معرفة ما قبل تاريخ تلك المنطقة قد استوجب انتظار تقدم الأشغال العامة الكبرى (وضع خط سكة الحديد، الطرقات، الجسور وقنوات التطهير) والبحوث المنجمية حتى «يتوفر للجيولوجيين ومؤرخي ما قبل التاريخ رسوم جيولوجية تكشف عن الأدوات الحجرية». وفي الزاير يبدو أن الاكتشافات القليلة الأولى لأدوات ما قبل التاريخ كانت اكتشافات الرائد كل. زبونسكي التي وقعت أثناء بناء سكة الحديد. ولقد درسها سنة ١٨٩٩م كس. سترايزر الذي حاول أن يستخلص بعض المعلومات المؤقتة، رغم افتقاره لدراسة طبقات الأرض، ثم تطورت البحوث بين ١٩٢٧م إلى ١٩٣٨م ونشرت أعمال هامة، لا سيما أعمال ج. كولت، ف. كابو، ا. بولوينار، م. بكار، ج. مرتلمنس، والقس أنسيودي فابو، والقس ه. بروي. وهناك أعمال أخرى أحدث من تلك، قام بها ه. فان مورسل، وف. فان نوثن، ود. كاهين الذي ما تزال أبحاثه جارية.

وفيا يتعلق بالكونغو برازافيل، وهي منطقة غابية أساسا، تعتبر الأعمال المنشورة أقل عددا. وينبغي أن نذكر أبحاث ودراسات ج. بابت، ر. ل دواز ج. دور ه. كيبي، ج. لومبار وب. لوروا. وتتصل أعمالهم خاصة بالاكتشافات التي وقعت على طول سكة الحديد من بوانت نوار إلى برازافيل. إن ما قبل تاريخ الجابون معروف من خلال أعمال كي دي بوشان، وب. فرين، ب. بلنكوف وإ. بومري. وهنا أيضا تعتبر المعلومات محدودة ولم توضع رسوم طبقية أرضية بصفة دقيقة. إن أول الأعمال التي وقعت بامبراطورية وسط إفريقيا هي أعمال الاستاذ لاكروا، الذي اكتشف سنة ١٩٣٠م، أدوات لما قبل التاريخ في طمي الأنهار من مرتفع موكا. ولقد نشرت تلك الاكتشافات سنة ١٩٣٣م من طرف القس ه. بروي، وأشار في نفس السنة فليكس ايبوي في دراسة اثنوغرافية، إلى بعض الأدوات الحجرية المكتشفة إثر أعمال مختلفة. وانطلاقا من ١٩٦٦م/١٩٦٨م أجرى ر. دي بايل دى هومنس بحثا منهجية في البلاد. ولقد سمحت المنشورات التي تلت ذلك بالوقوف على فكرة واضحة عن صناعات ما قبل التاريخ وجدت بمنطقة لم يكن يعرف عنها شيء.

إن ما قبل تاريخ الكرون لم يكن معروفا حتى السنوات الأخيرة واستدعى ذلك انتظار أعمال ن. دفيد، ون. هرفيو، وأ. مارلياك، لاعطاء لمحة عامة عن منطقة إفريقية أخرى تنتظر الاستكشاف. أما فيما يخص أنجولا، فلقد اهتم بها ج. ينمرت وه. بروي، وج. د. كلارك الذين قاموا بأعمال تتعلق بالمناجم الغنية بالطمي المستكشفة في ورشات الألماس.

أسس الترتيب التاريخي

سنعتمد في هذه الفقرة على أعمال الترتيب التاريخي الخاصة بالدهر الرابع لحوض الزاير التي وضعها ج. مرتلمس (١٩٥٥م - ١٩٥٧م) والتي تعتبر بحسب المعلومات الحالية مقبولة جدا.

المطار الكاجيري

يبدو أنه أهم مطار من المطارات الاربعة التي تتابعت. فهو حقبه من الحفر الداخلي المكثف الطارئ على الأودية ومن تشكل مسطحات عتيقة جدا من الحصة التي تحوي أقدم صناعات الزاير. ان هذه الصناعات التي تكاد تكون في مجموعها من الحصة المهيأة، تصنف ضمن ما قبل الاشولي الأسفل (كفوان، ج. مرتلمس). ولقد أعقب جفاف كبير المطار الكاجيري وكسا المسطحات العتيقة وعنة (Latérite) كثيفة نعرها على ما قبل أشولي أكثر تطورا. لكنه غير مرتب ترتيبا تاريخيا صحيحا نظرا لانعدام رسم طبقة الأرضية.

المطار الكاماسي

يوجد هذا المطار بالطابق النهائي من البليستوسين الاسفل ويشمل كل البليستوسين الوسيط. وهو ينقسم في الواقع الى مرحلتين تفصلهما مرحلة أكثر جفافا. وتتصل هذه الحقبة، في حوض كنساي مسطحات من ٣٠ مترا و ٢٢ - ٢٤ مترا. وكذلك تتصل بها في شابل (كتنجا) وفي غرب امبراطورية وسط افريقيا على ما يبدو حصياء المسطحات وأعماق الأودية المسماة طالويك (Thalweg). ، والجاري الاحفورية لجداول الماء، ولقد حدث في ذلك الوقت بنطاق ذات تضرس أرضي قليل النتوء ردم كامل في بعض مجاري الانهار وحفر نهر جديد، ويوجد بتلك الطبقات العميقة من تلك المجاري الاحفورية أدوات ما قبل أشولية أكثر تطورا من الأدوات التي توجد بمسطحات الكاجيري القديمة. ولقد حدث أن برزت به بعض ذوات الوجهين، إلا أن رتبته التاريخية ليست مضبوطة كل الضبط.

ان نهاية المرحلة القصوى من الكاماسي شهدت الاشولي الاسفل يعقب الصناعات ذات الحصة المهيأة. وما زال ذلك الاشولي الاسفل يشتمل على حصة عديدة منحوتة ونلحظ فيه بروز أدوات جديدة: ذوات الوجهين، والتقدمات بصورة خاصة. فهذه الأخيرة التي كانت قليلة جدا في الأول، سرعان ما اتخذت مكانة مهمة بين أدوات تلك الحضارة.

وأعقبت الجزء الأول الاقصى من الكاماسي، مرحلة معتدلة الجفاف، ونشهد فيها تشكل وعنات (تربة حراء) جديدة، وردم منحدرات، ورواسب من غرين الانهار، ولقد حدث أشولي. متوسط في تلك الحقبة، وهو يتكون عادة من شظايا يحصل عليها عادة بالقطع الجانبي الذي يوصف «بتقنية فكتوريا الغربية ١» (٣).

(٣) اسم يطلق على تقنيتين من القطع «لوقالوا» المشهورتين خاصة في الصناعات المجموعة قرب شلالات الزماير بفكتوريا (شلالات فكتوريا).

وشهد الكاماسي الأقصى الثاني (٤)، وهو أقل بروزاً من الأول، وضع رواسب جديدة من الحصى، وتشكل مسطحات علوها ١٥ متراً في كساي، وتنتهي الحلقة ببداية فترة جافة تشهد تشكل تفتية قطع جديدة وهي فكتور يا الغربية ٧، وتطور أداة أخرى هي المنقر الذي سيحتل بالمنطقة الغابية مكانة هامة بمجموع الصناعات التابعة للأشولي.

وتعتبر حقبة ما بعد الكاماسية الجافة أهم ما عرف بتلك المنطقة، إن الفياي تمتد نحو الجنوب وتمتد صحراء كالاهاري نحو الشمال و يرى بعض المؤلفين أن الغابة الاستوائية قد انقرضت فعلاً ولم تظل قائمة إلا في مناطق صغيرة غابية. وتراكت رمال حمراء صحراوية بكثافة كبيرة أحياناً، فانقرض الأشولي، بل يبدو أنه أخذ يتحول بعين المكان إلى صناعة جديدة تدعى سنغون (Sangoen) وذلك بإفريقيا الاستوائية والمناطق الغابية خاصة.

إن الأدوات تتحول والقذومات تقل وتنقرض نهائياً، وتصبح الفؤوس اليدوية أكثر وأضخم، وتتوافر المناقر جداً وتظهر بين الأدوات أدوات جديدة: من ذلك قطع ذات وجهين ممدودة لها أحجام كبيرة. و يبدو أن تلك الأدوات ملائمة للحياة الغابية. إلا أن ذلك يتنافى مع المحيط الذي تطوره السنغون إذا قبلنا الفرضية القائلة بأن الغابة الاستوائية قد زالت بفترة جفاف ما قبل الكاماسي الذي حدث به. ويجب أن نقر أن السنغون هو الآن إحدى الصناعات الإفريقية التي لا نعرف عنها إلا القليل.

المطار الكمبي

شهد المطار الكمبي عودة تشكل الغابة الاستوائية بينما أخذت الأنهار تحفر الأودية وتضع طمي المسطحات المنخفضة، وهو طمي يتكون من الرمال الريحية المتراكمة إثر الجفاف الأخير. وقد تطور السنغون بالزايير الغربي وكساي نحو صناعة جديدة أقل ضخامة، وهي اللوبي، الذي يعتبر صناعة تنسب إلى الحضارة الغابية. وشهدت المناطق الجنوبية الشرقية الصناعات المقاربة لصناعات جنوب إفريقيا والكنيا، وهي صناعات شظايا وحدود تشبه في مظهرها الصناعات المستيرية وتعرف بعبارة «العصر الحجري الوسيط». ولم تحدد، سواء ضمن طبقتها الأرضية التي كثيراً ما تكون معدومة، أو ضمن الأنواع المعروفة.

الماكالي والنكوري، مرحلتان رطبتان بعد الكمبي

تعتبر هاتان المرحلتان أقل بروزاً من الميطارات السابقة وتندرج بينهما مرحلة قصيرة جافة. والنكوري غير معروف معرفة واضحة جداً بمحوض الزايير. وقد حفرت الأنهار في الماكالي قليلاً مجراها ثم حدث ردم جديد. وفي عين المكان تطور اللوبي وأصبحت الأدوات صغيرة أكثر فأكثر بينما أصبحت القواطع، وحدود الأسهم وافرّة جداً بالتشيتوني، وهي حضارة الصيادين. وتطورت بالزايير الشرقي، وفي شابا وفي أنجولا مظاهر عدة تضمنها العصر الحجري المتأخر، هي مجموعة تستوجب النظر

(٤) يعتبر بعض المؤلفين هذا الكاماسي الأقصى الثاني «الكنجيري» وذلك ما يشكل ٤ - ٥ ثبات رطبة عوضاً عن ثلاث، أحدها ذات مرحلتين متميزتين.

فها من جديد لأن صناعات عديدة مختلفة ومتنافرة قد أدرجت فيها حتى أصبح من العسير ضبط موضعها بدقة في الترتيب التاريخي.

ولقد اكتسحت الصناعات الحجرية الجديدة مدة الحقبة الرطبة النكورية وبعدها، والتي منها التشتيتوي، اكتسحت افريقيا الاستوائية حيث يبدو أنها دامت بها أكثر مما دامت في مناطق أخرى، ولم تدخل حضارة النحاس والحديد الا في عهد متأخر جدا بتلك المنطقة ذات المنافذ الصعبة، وذلك واقع يبين مرة أخرى تطور حضارات ما قبل التاريخ بعين المكان.

صناعات ما قبل التاريخ بحوض الزاير

صناعات ما قبل الأشولي

هناك صناعات في ما قبل التاريخ قديمة جدا ومتكونة من حصة مهشمة وهي معروفة حق المعرفة بحوض الزاير بأجمعه، فهي مخفية عادة تحت الوعناات القديمة مثلما هو الشأن بحوض كفيلا العليا بالزاير وفي امبراطورية وسط افريقيا، وذلك في شكل التكوناات الوعنية من مرتفع سالوبصنغا العليا، حيث توجد أيضا بالطلمي العميق من المجاري الاحفورية التابعة لجداول وأنهار تلك المنطقة. وهي مندمجة بأججولا في طمي عميق ذي عناصر ثقيلة في عدة جداول.

ان هذه الحضارات القديمة في ما قبل التاريخ المعروفة «بحضارة الحصة الهياة» و«ثقافة الحصة» و«بالعصر الحجري المبكر» تحمل أساء مختلفة بحسب الأماكن ومؤرخي ما قبل التاريخ الذين أشاروا اليها لأول مرة. وهي تندرج كلها في حركة تطورية بطيئة لتقنيات النحت الذي دام ما يقرب من مليوني سنة.

الكافوي

ان الموقع الذي أخذ منه اسمه يوجد بوادي كافوه في الأوكاندا. وقد اكتشفه أ. ج. ويلند سنة ١٩١٩م. ان صناعته متكونة من حصة الأنهار انتزعت منها ثلاث شظايا في ثلاثة اتجاهات رئيسية وقل أن تكون في اتجاه واحد، فيتكون منها هكذا قاطع خشن. وينقسم الكافوي حاليا الى أربعة مستويات: الكافوي البائد، والكافوي القديم، والكافوي الحديث، والكافوي المتطور. ان هذه المراحل الأربع معروفة في نسونكيزي بجنوب الأوغندا بالمسطحات على علو ٨٢ الى ٩٦ مترا. ويقترب الكافوي المتطور جدا أو يشبه أحيانا الأولدواي. ويعتبر بعض مؤرخي ما قبل التاريخ أن المستويات القديمة من الكافوي ليست أدلة على أن تلك الأدوات انسانية، بل أن الحصة المهترسة التي توجد بها ناتجة عن كسور طبيعية.

الأولدواي

ان الموقع الذي أخذ منه اسمه هو أولدواي بطنانزانيا بسهل سرجنتي، كان اكتشفه كات

وينسكل سنة ١٩١١م وأصبح مشهورا ابتداء من ١٩٢٦م إثر أعمال واكتشافات ل. س. ب. لايكبي.

ان فج أولدوواي يشق بعمق ترسبات بحيرة من البليستوسين المتوسط والأعلى، وقد وقع فيه تعريف أحد عشر مستوى «شلثو أشولي» فوق ما قبل الأشولي الذي يشكل الالودوواي. ان الأولدوواي صناعة متكونة من حصاة الانهار إلا أنها في العادة أقل انبساطا من حصاة الكافوي. ان تحتها يعتبر أكثر تطورا، وحدها منعرج يُحصَل عليه بالنزع المتعاقب الذي أدى في آخر مرحلة من هذه الصناعة، الى إبراز حد يؤذن بمحضارات ذوات الوجهين. فالأولدوواي معروف في شابا بالغرب من امبراطورية وسط افريقيا، (مناجم الطمي في صنغا العليا). و يبدو أنه موجود بالشمال الشرقي من أنجولا. الا أنه رغم اكتشاف بعض الحصى المهيأة بالكرون، والجابون، وبالكونغو برازيفيل، فلم يحدد مكانه بالضبط بتلك الأقطار الاخيرة الجافة المحاذية لخليج غينيا.

الأشولي

الأشولي حضارة ممثلة أحسن تمثيل بمحوض الزاير وتوجد منه ثروة خارقة للعادة ببعض مناجم الطمي أو بالمسطحات. ان تقسيمات الاشولي الى أربع أو خمس مراحل — وذلك حسب المؤلفين — تناسب خاصية تقنيات نحت الادوات واتمامها. فهي نوعية أكثر مما هي طبقة أرضية، وتتكون المناجم الأشولية في جلها من طمي مجاري المياه القديمة، وهذا الطمي مترسب في شكل مسطحات، وفي شكل حصباء أو رمال تلعة أو في مجار أحفورية من الانهار الصغيرة التي تحولت مجارها، ان الصناعات غير موجودة بعين المكان. فلقد نقلت، وتركزت بعامل السيلان واكتكت من جراء الزحل، وعلى هذا الأساس فان دراسة الأشولي في هذه المناجم تتركز ... على علم الأنواع لا على طبقات الأرض، مثلما هو الشأن بأولدوواي حيث تتميز الترسبات البحرية المشتمة على الصناعات، بقوة تقدر بمائة متر.

وتختص الصناعة الأشولية بأدوات متنوعة جدا وأكثر تعقيدا مما هو موجود بمحضارات ما قبل الأشولي. وما انفكت الحصاة المهيأة موجودة به الا أنها أصبحت تقل كلما تطورت الصناعة من دون أن تشققرض نهائيا. ولقد تبوأ أدوات جديدة أهمية كبيرة: أي ذو الوجهين أولا، وهو أداة كرا يدل عليه اسمها منحوتة على الوجهين من حصاة أو من شظية. ان شكلها ملوّز، وحدها متفاوت برؤوزا وقاعدتها كثيرا ما تكون مستديرة، ومقطعها كثيرا ما يكون عدسيا وأحجامها متنوعة جدا. وتوجد آلة أخرى مهمة وهي القيدوم الذي يختص بمحذ مقابل للقاعدة ومنحوت من شظية، ويضاف الى الأدوات منافر، وهي ليست وافرة في الأشولي الأسفل والوسيط ولكنها متوافرة في الأشولي الأخير. الى هذه الأدوات الأربع تضاف شظايا عديدة متنوعة هذبت لتكون مكاشط، وعمكات وأدوات أخرى أقل تذهيبا، مثل قطع الخز.

ان تفرع الاشولي المرتكز على علم الانواع وعلى تقنيات القطع ينقسم الى خمس مراحل:

الأشولي ١

(الأبفيلي أو السيلي القديم حسب بعض المؤلفين).

ان الأدوات تتكون من شظايا كبيرة، حصلت من تهشم قطع صخرية على سندان ثابتة. وتستعمل تلك الشظايا الكلاكتونية خاما وكثيرا ما تستحيل الى ذوات وجهين وإلى قدومات، وهي أدوات ثقيلة وخشنة وحروفها الجانبية متعرجة جدا. ولم ينقرض نحت الحصاة المهيأة لكنه تطور لأن بعض ذوات الوجهين ذات «القاعدة المتحفظة» يتمثل فيها التكامل وغاية ما وصل اليه نحت الحصاة في ما قبل الأشولي.

تمثل هذه المرحلة في شابا مناجم كاموا، ولونيا، اللتان اكتشفها ف. كيو، وهي مثله أيضا في أنجولا الشمالية حيث توجد منها آثار بمجوس لومي. وتنتسب أيضا بعض المناجم بغرب امبراطورية وسط افريقيا الى هذه المرحلة وكثيرا ما تكون أدوات الأشولي ١ التي عثر عليها في طمي المسطحات أو الأودية الاحفورية للانها تكون ملساء نتيجة للنقل النهري، وذلك بالخصوص شأن مناجم اللوبو والبنكي بامبراطورية وسط افريقيا.

الأشولي ٢

(الأبفيلي الحديث أو الأشولي الأسفل).

انه صناعة قريبة جدا من الصناعة السابقة التي يمكن العثور عليها أيضا في حصاء الانهار بأنجولا وشابا. الا أن أدواتها كانت أقل تكورا وان كانت أجود من حيث النحت الثانوي، من أدوات الاشولي ١، ولقد أصبحت حدود ذوات الوجهين والقدومات أكثر استقامة، على ما يبدو، إثر نحت جديد بنقارة طرية من الخشب أو العظم.

الأشولي ٣

(الأشولي الوسيط).

توجد هذه المرحلة على السطح فوق حصاء اللوينا، وكاموا حيث يكون الأشولي مندرجا بالطمسي النهري. وقد شهد ثورة حقيقية طرأت على تقنيات القطع: وهي تنحصر في تهيئة النواة للحصول على شظايا كبيرة. ان هذه التقنية المعروفة جيدا بافريقيا الجنوبية تسمى «فكتوريا الغرب ١» فهي تدل على ظهور تقنية بروتولولوية. إن تهيئة النواة تؤدي الى سطح للنقرله وجوه. وتقتطع الشظية جانبا ثم تهذب باتقان للحصول على ذي وجهين، أو قدوم أو مكشط. و يكون النحت بنقارة يدوية طرية، فتصنع أدوات منتظمة جدا ومتكافئة وتصبح الحدود الجانبية مستقيمة جدا. وتصنع القدومات حسب تهذيب متعاقب بحافتي الجانبين حتى يصبح لها شكل المعين.

الأشولي ٤

(الأشولي الأعلى):

في هذه المرحلة تحتفظ تقنيات القطع أساسا بنفس النموذج، لكنها تتحسن (تقنية فكتور يا الغرب ٢) إذ أن الامر يتعلق باقطاع نواة أكثر استدارة ولها مسطح ذو وجوه، تقطع منه شظايا كبيرة لها شكل بصلصة تقع على قاعدة ضيقة وليست واسعة كما كان الامر في تقنية فكتور يا الغرب ١. وهذه الشظايا تصلح لصنع الادوات، وذوات الوجهين والمكاشط والقذومات التي تهذب كلها تهذيبا دقيقا. ان مقطع القذومات يكون منحرفا أو عدسيا، و يوجد هذا الأشولي الأعلى في كاموا بطمي يعود الى عهد الكاماسي ٢، كما يوجد بكساي وذلك بمسطحات علوها ١٥ مترا.

الأشولي ٥

(الأشولي المتطور والنهائي):

شهد الاشولي النهائي بداية تنوع ثقافي من خلال التغيرات الجهوية المتكيفة مع المحيط المناخي والنباتي. والأشولي مرتبط باقامة الناس على مسطحات متوسطة ومنخفضة ومجففة وقد أضفيت الى التقنيات المعروفة تقنية قطع لوفالوا. أما باقي الادوات فانها لم تبدل أبدا بالنسبة لأدوات المراحل السابقة. الا فيما يخص الجودة، والاتمام وظهور ذوات الوجهين وقذومات لها أحجام كبيرة جدا، ومنها ما يتجاوز ٣٠ سنتمرا طولا. وقد تطورت ضمن الاشولي أداة وهي النقار المثلث الخشن، تطورا كبيرا ولها مقطع مثلث أو شبه منحرف. ان تكييفها لأداء عمل على الخشب باستعمال قطع كبيرة ذات وجهين ومسطولة، يؤذن مسبقا بالسنگون المعقد ونجد أيضا كرات حجرية حسنة الصنع وتشابه «البولاس». ولقد توفرت منها مجموعة هامة استخرجت من منجم نهر مانكالا بالقرب من امبراطورية وسط افريقيا. و يوجد هذا الاشولي الاخير في منطقة شابا، بكما و بنواحي كلينا بالزايين وهو موجود أيضا بأنغولا، اوربا قرب برزافيل وفي امبراطورية وسط افريقيا، حيث تمثله مناجم نرنكوري في صنغا العليا.

ان الناس الذين شيّدوا هذه الحضارة غير معروفين مع الأسف بمحوض الزايين كله، بسبب تخمض الارض الذي لا يسمح بالمحافظة على البقايا العضوية.

السنگون

ان الموقع الذي أعطى اسمه لهذه الحضارة هوسنغوباوي الواقع على الشاطئ الغربي من بحيرة فكتور يا بغانزانيا. وكان قد اكتشفه ا. ج. وايلند سنة ١٩٢٠م. ان السنگون صناعة متفرعة مباشرة عن الأساس المحلي للأشولي بدون إعتبار دخول عناصر آتية من الخارج. فهو يورث بآخّر المسمطار الكانجوري ويمتد طيلة فترة انتقالية بين هذا المسمطار والجفاف الكبير الذي تلاه. انها صناعة مجهولة نسبيا ولها مظاهر محلية عديدة يبدو أنها استمرت تتطور تطورا داخليا وتكيفت مع البيئة الغابية وعلى الأثقل مع محيط مشجر نسبيا، باعتبار حلول بداية الحقبة



- (١) أثر تاريخي من الاحجار الفخمة
في منطقة بوار في أفريقيا الوسطى
(وسط أفريقيا). (كليشيه ر دي بايل
دي هرمانس)
— الاشولي الاصل، وسط أفريقيا، نهر
نغويري، سانغا العليا.
- (٢) بلطة
- (٣) أداة مزدوجة الوجه (ذات
وجهين) (تصوير متحف التاريخ
الطبيعي).



الجافة. ولقد تميزت في هذه الحضارة خمس مراحل: ما قبل السفن، والسفن الاسفل، والسفن الأوسط، والسفن الأعلى، والسفن النهائي.

ان الادوات الحجرية السفنوية الوحيدة التي وصلت إلينا قد خضعت لتحويلات عميقة بالنسبة للاشولي النهائي الذي سبقها، فلقد كانت ذوات الوجهين في أول تطورها استمرارا للتقاليد الاشولية ثم أصبحت تدريجيا أخشن وأعرض وأقصر، وبرزت في نفس الوقت ذوات الوجهين، القريبة من النقارات ولها طرفان حادان، وعكسا لذلك اضمحلت القدومات بسرعة، وكان للقليل الباقي منها أحجام صغيرة. وكانت حافاتها الجانبية، المنحوتة حسب قطع شظايا كبيرة، متعجرة جدا. وتوجد أيضا حصاة مهيأة، دون أن تكون وافرة. وتنبأ النقارات التي ظهرت في آخر الاشولي منزلة هامة ضمن الأدوات فهي تبدو مناسبة لأداء العمل على الخشب نظرا لأحجامها الكبيرة ذات المقطع المثلث، أو المعين أو شبه المنحرف، ولترابطها مع مكاشط عديدة. ان أهم مظهر يلفت النظر يتجسم في ظهور القطع ذات الوجهين الطويلة والضيقة، المنحوتة قرعا والتي لها جودة كبرى. وتشمل تلك القطع أحيانا ما يقرب من ربع أدوات السفن. ولقد صنفت حسب أنواع مختلفة من الأدوات: النقارات، والمناجر، والمقصات، والمفراصات، والحناجر التي تترابط لتوفر غالبا أدوات متعددة: النقارات القاصة، والنقارات الناجرة، والنقارات المفرصة، والنقارات الحجرية، وتبلغ بعض تلك القطع أحجاما كبرى وتتجاوز ٢٥ سنتمترا طولا. ان هذه الادوات التي تتبدل من حيث أنواعها أخذت تصغر حجما، طيلة تطور السفن، بينما بلغ تحتها جودة راقية.

ان السفن موجود بكثرة بمحوض الزاير، وهو معروف بالزاير في سهل كينشاسا، وشابا العليا حيث يختلف عن سفن المناطق الغربية، وذلك بانعدام الخارج والحدود المتوقعة. الا أنه توجد في تلك الصناعة بولاسات (Bolas) عديدة، وهي صفائح ذات وجوه أو كرات أتقن صنعها توتيدا، وكذلك شظايا عديدة جدا ومستعملة، ولقد عثر على السفن في طمي نهر لومبي بكندا، ولوندا بالشمال الشرقي من أنغولا، حيث يوجد مخلوطا في الغالب بصناعات أقدم منه أو أحدث منه، نظرا لموقعه بمصباء منقولة عن موضعها وهو يوجد أيضا في الكونغو برازافيل على الشاطئ الآمن من ستنلي بول، وبالجابون، حيث عثر عليه أخيرا، وهو معروف في امبراطورية وسط افريقيا، في مناجم ذات ثروة خارقة للعادة بالوسط الشرقي من البلاد، حيث وفر الطمي في مشاغل الماس التابعة لنزاكو في أمبيلو وتيري، وتياغا، وكونو، وفر ذلك الطمي آلاف من الأدوات. حفوظ عليها محافظة جيدة وهي مصنفة في السفن الوسيط أو الأعلى.

ان السفن لم يتميز تميزا كبيرا في الكرون، وذلك يطرح مشكل توسعه الى غربي افريقيا. فلقد أشار بعض المؤلفين الى وجوده بالسنگال، ان الأمر يتعلق في الواقع بصناعات لها قطعات ذات وجهين، متشابهة أو قريبة جدا من السفن، الا أن موقعه غير مضبوط في ترتيب ما قبل التاريخ. وليس من المستبعد أن تكون مجموعات بشرية قد تحولت نحو الغرب ونحو منطقة الغابة الكبرى، الا أنه لا يوجد الآن ما يسمح بالثبات أثرهم.

ان السفن يتطور، مثلما فعل الاشولي، بعين المكان، دون اتصالات كبيرة مع عالم أجنبي عن محيطه الغاني. ثم أتت من بعده صناعة تسمى «اللومية» في ظروف غير واضحة الى هذا اليوم وهذه الصناعة هي التي تعرض لها الآن.

اللومبي

ان اللومبي (٥) حسب التصنيف المقترح بالمؤتمر الافريقي سنة ١٩٥٥ م — هو صناعة من «العصر الحجري الوسيط» ألا أنه ينبغي أن نختاط عند استعمال مصطلح «العصر الحجري الوسيط» إذ أدرجت به مجموعة من الأدوات المتباينة التي لم يتضح موضعها وضوحا حسنا. وقد تطور اللومبي عندما عادت الاحوال الامطارية الى مستواها العادي وذلك في بداية المطار الرابع المسمى «كمبلي». وبلغ الأوج في الجزء الثاني من تلك الحقبة الرطبة جدا. وتبلغ مدته ٢٥٠٠٠ سنة أن أخذنا بعين الاعتبار التواريخ بحسب الزمن المطلق. وكما فعل الأشولي النهائي في تطوره بعين المكان، فقد تبدل السنغون أيضا وتحسن واكتسب تقنيات جديدة في النحت التي ستبلغ أوجها في اللومبي من دون أن تكون لها صلات مع عناصر أجنبية عن الغابة الكبرى التي ظلت تلعب دور الحماية. واحتفظت الصناعة في أول اللومبي ببعض ذوات الوجهين التي انقرضت بسرعة وكانت القداميات مفقودة. أما فيما يتعلق بالقطع، فتظل تقنية لوفالوا سائدة، للحصول على الحدود والشظايا، ويعتمد التهديب فيه على القرع. وتبقى تقنية لوفالوا مستعملة للحصول على الشظايا، إلا ان تقنية أكثر تقدما منها، وهي القطع بحسب الكيأس أصبحت مستعملة للحصول على حدود حسنة الصنع ستساعد على صنع قطع طويلة، ضيقة ومهذبة تزيينا حسنا. ان الدراسات الأخيرة المتعلقة باللومبي ساعدت على تقسيمه الى خمس مراحل:

اللومبي ١

فهو محصور في الحوض الغربي كله من الزاير الذي يعتبر فيه كأنه شكل من أشكال تطوره المحلي من السنغون. لقد انقرضت العناصر الاشولية انقراضا تاما وأصبح النحت والتهديب يعتمدان على القرع. وظلت أدوات السنغون موجودة لكنها تطورت وصغرت من حيث أحجامها المطلقة ولا تتجاوز النقارات والنقارات الناجرة، والنقارات المستوية ١٥ سنتمترا، وظهرت مفارص، ومقصات وأدوات قاطعة ومنشارات نحتت من الحدود. لقد ظلت قاعدة الأدوات متكونة من شظايا خشنة ومنها صنعت هذه القطع الجميلة. وفي نهاية اللومبي ١ أخذت تظهر الحدود والخناجر وحروف السهام الحقيقية.

اللومبي ٢

لقد عرفت ج. كوليت هذه المرحلة في نوانت كليا ولكنها معروفة أيضا في ستيني بول. ان المقصات المورقة الشكل من اللومبي ١ تطورت واستحالت الى ساطور وعُرفت الأشكال المعروفة في السنغون بمقصات ذات حافة مستقيمة، وبنوع جديد من المقصات ذات القواطع المائلة. وتشتمل الأسلحة على خناجر طولها ١٥ الى ٣٥ سنتمترا وعلى حدود مورقة الشكل، منحوتة نحتا متقنا ورقيقا جدا.

(٥) لومبي: موقع يحمل اسم مكان قبا قبل التاريخ في لومبا بكساي، وهو مصطلح وضعه القس. ه. بروي.

٣ اللومبي

عرف من خلال مناجم سطحية في سنتلي بول، و ببعض المناجم بأنجولا. ولقد بلغت تقنية النحت في هذه المرحلة أوجها بفضل التهديب بحسب الضغط. ان الشظايا الحاصلة من القطع بتقنية لوفالوا المتطور، غالبا ما يكون شكلها ثلاثيا أو مستطيلا أو بيضويا. ولقد ظهرت آلات ذات ساق معلاقية، ونمت وأصبحت متوفرة ووجدت بهذه المرحلة أدوات من اللومبي القديم، لكن أحجامها كانت أصغر، ومنها النقارات، والمقصصات، وذوات الوجهين الصغيرة، وبعض المكاشط، والبرزاقات، ومقدرات ذات قواطع مستقيمة أو مائلة ونصال حافتيها معكوفة. وتبلغ الخناجر أحيانا أحجاما كبيرة، الى حد ٤٦ سنتيمترا، أما الحدود فهي مسننة فتكون منها أسلحة فتاكة جدا. ان الحدث الهام هو ظهور حدود السهام من أنواع مختلفة، موزقة الشكل، أو ذات شكل المعين أو ذات ساق معلاقية أو دونها ولها حافات مسننة أحيانا وهي على غاية من الجودة.

ولقد أرخت أنجولا مرحلة متأخرة من اللومبي بحسب طريقة الكربون ١٤، أرخت بـ ١٤٥٠٣ ± ٥٦٠ سنة، أي ١٢٥٥٠ قبل الميلاد. وبالمقارنة مع ما نعرفه بأوربا، فهذه المرحلة تقع في العصر الحجري القديم الأعلى.

٤ اللومبي

لا يعلم منه الكثير ويكون متميزا بقطعه اللوفالواسي اللاحق.

اللومبي التشيتولي

يبدو ان هذه المرحلة الأخيرة قد وجدت، باعتبار علم طبقات الارض، في الفترة الجافة التي ينتهي فيها، بإفريقيا الوسطى والشرقية، البليستوسين، وذلك ما قبل الماكالي الأول الرطب، ان المناجم المعروفة موجودة على طمي مرمول، أو بقاعدة الطبقة الرطبة التي تغطيها، وذلك غالبا بجزر الانهار.

ان تقنية القطع لم تتبدل بالنسبة الى مراحل اللومبي الأخرى فهي دائما تقنية اللوفالواسي اللاحق. أما التهديب فإنه أضاف الى القيرع والى الضغط تقنية جديدة التهديب الشديد الذي يتميز به الميزوليتي وتشمل الأدوات داسما على مقصات، ومفارص وذوات الوجهين، ولكن انقرضت المكاشط والنصال ذات الظهر، ويضاف الى المقدرات «مقَدَّ صغير» ذو تهذيب شديد بالحافات، ويمكن اعتباره في بعض الحالات سلاحا ذا قاطع مستعرض. أما حدود السهام فهي تعتبر أكثر تنوعا: ان اشكالها موزقة أو مينية أو مجتحة، وقل أن تكون مسننة أو ذات ساق معلاقية.

وفي أنجولا أرخت صناعة صنفت في اللومبي التشيتولي بـ ١١١٨٩ ± ٩٠ سنة. ان اللومبي لم يعرف بعد في امبراطورية وسط افريقيا وفي الكرون. ولكن عثر عليه في الكونغو برازافيل وبالجابون، لأنه لم يعرف معرفة دقيقة بسبب وضع المناجم في مناطق وعرة.

الحضارات ما قبل التاريخ الغير الغابية

بينما نجد اللومبي قد عم المنطقة الغابية بالغرب من حوض الزاير، تشهد مناطق شابا وشرقي.

أنجولا نمو حضارات ذات خصائص غير غابية وهي: البروطوستلبي، والستلبي والمجوسي. ولقد اتسعت تلك الحضارات اتساعا كبيرا بافريقيا الشرقية والجنوبية.

البروطوستلبي

ان الموقع الذي سمي به هوستيل باي، وهو منجم ساحلي من مقاطعة الرجا الصالح. ان البروطوستلبي هو صناعة تختص بمجود لها وجه واحد، ومخكات، وحجارة محزوزة، وحجارة قذف، وذوات وجهين قليلة صغيرة الحجم، وحدود أشكالا المورقة منتصفة وذات مقاطع كثيفة، ومهذبة تليد خشنا، كما تختص ببعض المناقشات القليلة. وتحصل هذه الادوات بهذيب شديد التحدر

الستلبي

ان الادوات بالستلبي لم تبدل الا قليلا من حيث الأساس، بالنسبة للمرحلة السابقة لكن نلاحظ فيها حنكة كبيرة في تقنيات القطع اللولواسية اللاحقة. وأهم ما يستحق التسجيل هو التهديب بالضغط، المستعمل خاصة لصنع الأسلحة والحدود الشبيهة بالمستيرية ذات الوجه الواحد أو ذات الوجهين والتي كثيرا ما تحتفظ بكعب مسطح. و يوجد ضمن الأدوات في آخر مرحلة معروفة بالكنيا، نصيلات ذات ظهور، ومناقشات وقطع من دائرة.

ان البروطوستلبي متوفر جدا في شابا، الا أن الستلبي قليل بها. وتنتسب البقايا الانسانية الأكثر قدما المكتشفة بالزايرا إلى الستلبي، وهي تتكون من ضرسين كشفوا مع بعض صوانات منحوتة وحل ذى وجهين، وكان وجدها القس أنسيودي فافو، في غرات تجمعت فيها العظام في كاكوتوي.

المجوسي

ان الموقع الذي جاء منه اسم هذه الصناعة هو مجوسي بالأوغندا، واكتشف هذا الموقع وايلند سنة ١٩٢٦م. والمجوسي ثقافة وجدت بها أهم قطع الستلبي، فهي تتكون من أدوات حجرية صغيرة، منها نصيلات ذات حافات معكوفة، وقطع من دائرة ومثلثات، ومخكات ظفريه الشكل، ومنقاشات صغيرة وحجوب نظم لها رأس النعامة تكتمل بها هذه الصناعة. و يبدو أن المجوسي قد وجد في كنتجا الا أنه لم يعثر منه على موقع معين على وجه اليقين.

صناعة الميزوليتي: التشيتولي

تسببت في آخر البليستوسين حقبتان جافتان نسبيا في تقلص الكساء الغابي، لا سيما في المرتفعات، ولقد أقام أهل التشيتولي (٦) بتلك الاراضي المعراة من النبات، الموجودة قرب عيون الماء، والتي كثيرا ما تكون بقم التلال المائدية أو المرتفعات. وتوجد مناجم هذا النوع على نجد

(٦) التشيتولي: مصطلح وضع اعتمادا على أدوات حجرية جمعت من تشيتول في كساي.

بشكي في ستانلي بول، بسهل كشاسا وبالشمال الشرقي من انجولا. ان أدواته تختلف باختلاف المناجم، وتشتمل على نسبة كبيرة جدا من الأدوات الغاية ذات الأحجام الصغيرة، فنجد فيها أدوات جديدة أو أدوات قل أن عرفت في الصناعات السابقة؛ وهي تتكون من منجرات ونصال ذات حد مهذب، وسكاكين ذات ظهور، وخاصة من عناصر حجرية صغيرة وهندسية لها شكل شبه المنحرف، والمثلثات وأرباع البرتقال، والقواطع الصغيرة، وتتميز حدود السهام بتنوع كبير في النماذج والأشكال، فهي موزقة الشكل ومعينية وبيضوية ومثلثة ومجنحة وذات ساق معلاقية، ومستننة وذات قاطع مستعرض. وتكاد تكون كلها منحوتة بحسب تهذيب ضطفي، ولذلك أتت على غاية من الجودة. ويمكن أن يعد التشيتولي من ثقافات ما قبل العصر الحجري الجديد الذي ليس له خزف ولا فؤوس مهذبة إذا أخذنا بعين الاعتبار أسلحته التي تقتصر على حد السهم. فهو يعين في عهد متأخر، عن الثقافات الغاية الأفريقية، التي وجدت قبل تطور العصر الحجري الجديد بالزايير الغربي، ويبدو أنه ذخيل.

العصر الحجري الجديد

ان حضارات ما قبل التاريخ الموجودة بمحوض الزايير كله، في مفهومه العام والتي سبق ان تحدثنا عنها في الفصول السابقة، تؤلف، ابتداء مما قبل الاشولي الى التشيتولي، المراحل المتتابعة من مركب ثقافي عظيم نما في وسط غابي وتطور بعين المكان، كما قلنا ذلك سابقا، دون أن يتأثر بمساهمات محسوسة دخيلة على تلك الغاية الكبرى.

ان مظاهر العصر الحجري الجديد — وهنا لابد من أن نبادر الى القول بأنه توجد منه عدة مظاهر مختلفة فيما بينها، وقد تطورت في المطار الاخير القصير المدى وهو الناكوري وكان المناخ في ذلك العهد يشابه تقريبا المناخ الذي نعرفه اليوم. فكان الكساء الغابي أكثر كثافة اذ لم يطرأ عليه عمل الانسان الهدام. وكانت أنواع النباتات لا تختلف مما يوجد منها اليوم.

ولقد زحف تدريجيا أناس لهم حضارة حجرية جديدة تسمى حضارة «الكونغو الغربي»، زحفوا على منطقة ذات غابة مدارية كثيفة جدا. وكانوا قادمين من الشمال، بعد أن قطعوا النهر في حوالي منحدرات الماء السريعة في إيسنكيلا. وكان أولئك القوم يحملون معهم تقنيات جديدة ما لبثت ان امتزجت نوعا ما بالتقنيات التي ظلت موجودة بعين المكان. و يتميز هذا العصر الحجري الجديد باستعمال يكاد يكون مقصورا على صخور عسيرة النحت وهي النصيد، والمر والجاديت التي توفر شظايا رديئة المنظر، فتسبب في صنع أدوات رديئة. ان تلك الادوات تتنوع بحسب المواقع فهي تتكون من نقارات خشنة الصنع، ومن مقصات، وحصاة مهيأة ذات حجم صغير جدا، وأحجار مشقوبة أشكالها وأوزانها ومواردها مختلفة جدا، ومن عدد كبير من الفؤوس على الخصوص، وهذه الفؤوس كانت تنحت أولا ثم تصقل جزئيا ثم تنقر وتصقل صقلا جيدا، و يوجد بالزايير عدد من المصاقل المعروفة التي استعملت بدون شك لصقل الفؤوس. ولم تكن حدود السهام مفقودة، الا أن صنعها كان غالبا رديئا جدا، لأنه كثيرا ما كانت تنحت من شظايا المر. وتشتمل هذه الصناعة في بعض المواقع، في إشنكو، على أدوات عظمية وبخاصة المخطافات ذات الصنف الواحد أو الصنفين من

التشوكات و يضاف الى هذه الأدوات الحجرية والعظمية خزف وافر منمق أحسن تنميق ومزيج يوجد ببعض المناجم.

وتقع مناجم العصر الحجري الجديد في كوانكو الغربي، وهي بمنزلة بنماج التشيتولي، كما تقع على ضفتي نهر الزاير بين البول، وكونكوديا فينكا، وفي أماكن عديدة بالكونغوبرازا فيل. و يوجد في منطقة أوئلي، شمالي الزاير، مظهر يشتمل على عدد كبير من الفؤوس من الهيماتيت، صقلت صقلا جيدا. ان مظاهر العصر الحجري الجديد، كما سبق ان بينا، موجود بالكرون والجابون و امبراطورية وسط افريقية. ان منجم باطايو في لوباى وفر صناعة من الجاديت امتزجت فيها فؤوس منحوتة بخزف جميل جدا. و يستفاد من التاريخ بطريقة الحرارة المضيئة انها ترجع الى ٣٨٠ ± ٢٢٠ سنة للميلاد ويمكن أن يبدو هذا التاريخ غير عادي لأول وهلة. الا أن الفحص، ومالنا من معارف حاليا، يفيدان بأن العصر الحجري الجديد قد دام بمنطقة الغابة الكبرى أكثر مما دام بالمناطق الأخرى وامتد الى حقبة تاريخية. و يبدو أن دخول المعادن الى تلك المنطقة كان متأخرا ويزوَّج بعض المؤلفين دخول الحديد بالقرن التاسع الميلادي تقريبا.

آثار النصب الحجرية

نمت الحضارات المكاليتية (النصب الحجرية) الكبرى حسب أشكال متنوعة بافريقيا كلها، ولا سيما بافريقيا الشمالية وبالصحراء. ولقد جهل حوض الزاير تلك الحضارات، باستثناء الشمال الغربي من امبراطورية وسط افريقية، ولا يوجد أي أثر ميكاليتي بأنجولا، والزاير والجابون وجمهورية الكونغو الشعبية، باستثناء بعض الحجارة المنصوبة بالكرون.

أما في امبراطورية وسط افريقية فتوجد نصب حجرية عظيمة بمنطقة بوآن وهي تحتل رقعة أرضية طولها ١٣٠ كلم وعرضها ٣٠ كلم على طول الخط الفاصل بين مياه حوضي الزاير وتشاد. و يبدو أنها غير معروفة في الكامرون، ولا في المناطق الأخرى من امبراطورية وسط افريقية. ولذلك كانت تلك الحضارة مقصورة جغرافيا على الشمال الغربي من البلاد.

تظهر تلك النصب في شكل جثوات مختلفة الاحجام، يعلوها عدد من الحجارة المنصوبة تتراوح بين وحدات الى عشرات، و يتجاوز علوها بالنسبة الى الأرض أحيانا ثلاثة أمتار. ان الحفريات التي وقعت في العديد من تلك النصب قد كشفت عن بنيتها الداخلية ولم توفر الا عناصر جيولوجية قليلة: مرو منحوت وخزف وبعض الادوات المعدنية، وذلك بالطبقات العليا. لكن الفحم الخشبي المجموع سمح بأن تضبط تواريخ على طريقة ك ١٤ (٧). ان النتائج المتوفرة تفيد تواريخ مهمة جدا. فلقد قدرت الطبقات العميقة من النصب بـ: ٧٤٤٠ ± ١٧٠٠ سنة قبل الحاضر أي ٥٤٩٠ قبل الميلاد، و ٦٧٠٠ ± ١٤٠٠ سنة، أي ٤٧٥٠ قبل الميلاد. و قدرت الطبقات الثانية بـ ١٩٢٠ ± ١٠٠ سنة قبل الحاضر، أي ٣٠ سنة بعد الميلاد، و ٢٤٠٠ ± ١١٠٠ سنة قبل الحاضر، أي ٤٥٠ بعد الميلاد ان هاتين المجموعتين من التواريخ توفران لنا بالنسبة الى أكثرهما قدما تاريخ تشييد النصب. أما التواريخ الحديثة منها فهي تفيد تاريخ إعادة استعمالها، وهو استعمال تؤكد الأدوات



● وعاء من العصر الحجري الحديث ذو قاع مسطح (وسط أفريقيا، باتانيو، لوباني)، (تصوير عثري ما قبل التاريخ، متحف التاريخ الطبيعي).

المعدنية المجموعة بالطبقات العليا. ان البحوث الحالية لا تسمح بأن تنسب نصب بوآر على سبيل اليقين الى العصر الحجري الجديد. لكن يمكن أن نقول أن الحضارة التي شيدتها كانت معاصرة له تقريبا.

الفن الجداري

ان حوض الزايزي بحكم وجوده بين منطقتي الفن الجداري الكبيرتين (الصحراء وجنوب افريقيا) يحتوي أيضا على فن جداري، الا أنه ليس له ما كنا نتوقعه من الثراء باعتبار موقعه. ولقد ترقى في التشاد وفي ايندي وبركو، فن جداري ويعتبر جزءا من المجموعات الصحراوية الكبرى. ويوجد بالكرون موقع من الرسوم على بلاطات أفقية مهذبة أكلها الأتتراف وذلك بشمال البلاد في بيدزار. وهذه الرسوم هندسية أساسا فهي دائرات وحلقات، وتظهر منزلة أو جمجمة. وتوجد رسوم بأحجولا بمنطقة كالوكا وهي تظهر على بلاطات أفقية ولها مواضع هندسية مثلما هو الشأن بالكرون. ولقد وجدت رسوم تبدو أكثر حداثة بنفس المنطقة كما توجد مواقع عديدة من فترات مختلفة بالزايزي. ويبدو أن شأبا أثرى منطقة من حيث الفن الجداري، وتدخل في نفس مجموعة روديسيا الشمالية هـ وأحجولا الشرقية، وتخص هذه المجموعة بفن تخطيطي، لا طبيعي كما هو الشأن بجنوب افريقيا. ولقد نشر القس هنري بروي سنة ١٩٥٢م الرسوم المخروزة والمخططة لكهف (كيانطابو (٨)، ونشرح. مرتلمنس دراسة تركيبية عن الرسوم الجدارية في شأبا (٩) مؤكدا على صعوبة ضبط تاريخ مختلف الأساليب نظرا لانعدام الوثائق الأثرية. ولقد اكتشفت بلاطات منقوشة بالزايزي الأسفل ودام الفن الجداري على عهد حديث جدا في تلك المنطقة. ويبدو أن مجموعات من رسوم جبل كوندو، في أويلي متصلة بطقوس الماء والنار، ويوجد الفن الجداري المعروف بامبراطورية وسط افريقيا بشمال البلاد وشرقيها: ففي الشمال توفر ملاجئ تولو وجبل ملا رسوما عولجت بالمغرة الحمراء والسوداء والبيضاء: هي تبرز أشخاصا وعلامات مختلفة، ولكن الرسوم الحيوانية فيها مفقودة. أما في الشرق، فتوفر مناجم لنكو ومبتوقرب باكوما فنا منقوشا على بلاطات أفقية من الوعنة، ويبدو أنه حديث نسبيا. وكان قد صنعه قوم عرفوا بالحديد نظرا لوجود سكاكين كثيرة للشرق وحدود نصال مرسومة بها.

ولا يوجد أي شبه بين الفن الجداري بالزايزي ونفس الفن بالصحراء. فلا بد أن تنجى الى جنوب افريقيا وافريقيا الشرقية للبحث عن محور تسريه. ان هذا الفن قريب مما هو معروف ببلاد البانتو: فهو حينئذ حديث، بل تاريخي، الا أنه مهم فيما يتعلق بدراسة الهجرات وتنقلات السكان بحجة مجهولة جدا من ما قبل التاريخ، وحتى ما تاريخ افريقيا المدارية.

(٨) القس هـ. بروي، ١٩٥٢ ص. ١ - ٣٢، ١٤ لوحة.

(٩) مرتلمنس ج. ١٩٥٢، ص ٣٥ - ٥٥، ٩ لوحات.

هـ في المطبوع زامبيا عوض روديسيا الشمالية. (تعليل المراجع محمد القاسي).

الخاتمة

نستنتج مما عرضناه عن ما قبل تاريخ حوض الزاير أن صناعات ما قبل التاريخ إلى حد الأشولي الأعلى، لم تكن متمايزة إلا قليلا بالنسبة لما هو معلوم بالمناطق الأخرى من إفريقيا جنوب خط الاستواء. فالمركب السنغوني هو نقطة الانطلاق للتنوع الواسع الجوهري بين الثقافات ذات المظاهر الغريبة والتي لها خاصية ملحوظة، وهي العزلة التي تكاد تكون تامة والتي عاش فيها أهالي تلك المنطقة إلى أن وصل قوم ينتمون إلى العصر الحجري الجديد، أتوا من الشمال فرارا على ما يبدو من المناطق الصحراوية التي أخذت تستحيل إلى أرض قاحلة.

إن الغابة الاستوائية الكبرى قد لعبت دور الحاجز الطبيعي الذي قلل من الصلات بين الشمال والجنوب من خط الاستواء. ولقد دامت الحضارات الحجرية الجديدة فيها أكثر من أي مكان آخر، في منطقة كانت فيها هذه الحضارات منعزلة ومحمية، بينما كانت مناطق أخرى قد دخلت منذ أمد طويل في التاريخ باستعمال المعادن والحديد.

ما قبل تاريخ أفريقيا الوسطى

القسم الثاني

فرنسيس فان نوتن

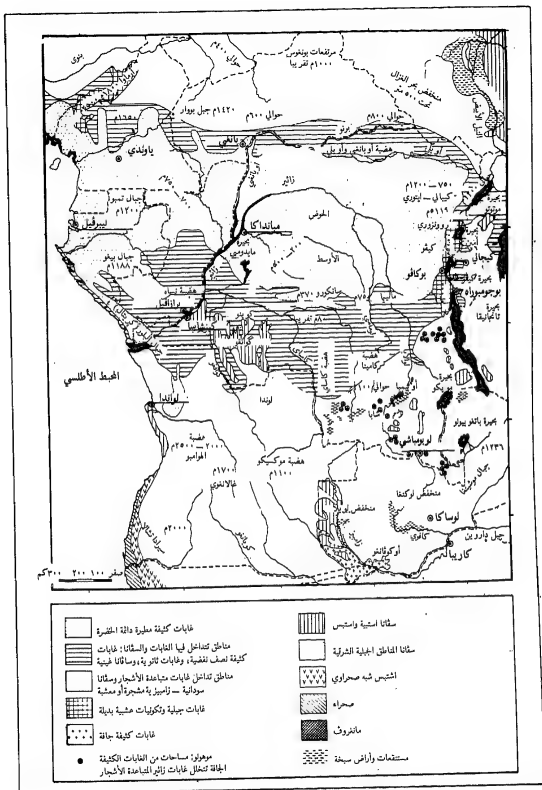
بالاشتراك مع

ب. دي ماري، ج. ميرسن، ك. ميوبا، أ. روش

إن أفريقيا الوسطى المعنية بالأمر في هذا الفصل، تشمل الزاير وبعض الأنظار المجاورة، ومنها جمهورية الكونغو، والجابون، وريوموني، وإمبراطورية وسط إفريقيا ورواندا، وبروندي وأنجولا. ولقد جذبت هذه المنطقة من القارة منذ القرن التاسع عشر الأثرين، إلا أن الأبحاث بها ظلت مبعثرة.

إن الباحثين الأولين الذين اهتموا بأفريقيا الوسطى أرادوا قبل كل شيء أن يعثروا على حقبات تشابه الحقبات الموصوفة بأوروبا. فلقد حاول ستاينيه وضع دراسة أولى بحملة سنة ١٨٩٩م، لكن الفضل يعود إلى ج. كوليت في القيام بحفريات ابتداء من ١٩٢٥م (بكات ١٩٣٨م). ومع هذا نستطيع أن نقول أن البحث العلمي لم يتوسع توسعا حقيقيا إلا بعد الحرب العالمية الثانية. ومن ذلك الحين وقعت دراسات منظمة كان قد قام بها ج. د. كلارك في زامبيا وأنجولا، و. دي بابل دي هيرمنس بإمبراطورية وسط أفريقيا، و. نكي في رواندا وبرندي، و. مرتلمنس و. ج. دي هنزلين، وه. فان مورسل بالزاير، وجمعية ما قبل التاريخ الجابونية بالجابون.

أما في الزاير فقد تقدمت الأبحاث منذ تكوين معهد المتاحف القومية سنة ١٩٧٠م ولكن معارفنا تستظل متفاوتة، وإذا كان كوليت قد قام بعمل رائد عندما أنجز أول دراسة تاريخية طبقية أرضية، فلم يقتد به أحد إلا نادرا، ولذا فلا تعتمد معارفنا في كثير من أجزاء المساحة



المعنوية الا على مجموعات سطحية. على أنه ينبغي أن ندرك أن علم الآثار يعانى صعوبات كثيرة بافر يقيا الوسطى اذ توجد بعض المناطق التي لا تخضع بيسر للحفريات نظرا الى قشرات وعنية كثيفة مثلها هو الشأن بالشمال، ونظرا الى أن التقنيات بالغاية نفسها صعبة.

ان العمل يزداد صعوبة من جراء عوامل أخرى، لأن الأحوال المناخية وحموضة الأرض بصفة عامة لم تسمح بالمحافظة على البقايا العظمية، وذلك ما يفسر انعدامها في غالب المواقع المدروسة، باستثناء اشنكو خاصة وماتوي حيث سهل الوسط الكلسي المحافظة على الأدوات.

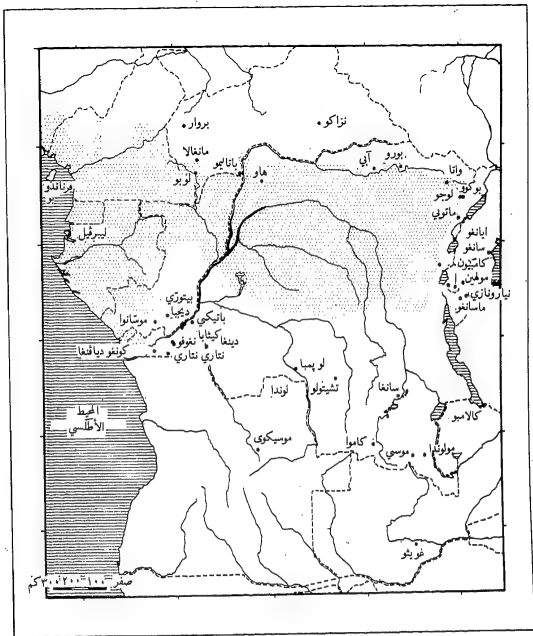
ولقد روجعت مدونة الأسماء بدون انقطاع، وكثيرا ما كانت التقسيمات الفرعية محل نزاع. ولعله يستحيل، من حيث الترتيب الزمني وحتى من حيث النماذج البشرية، تحديد العصور الحجرية المتعاقبة القديمة، والوسطى، والحديثة، وما يتخللها من حقب فاصلة، وهكذا فبعد عدة محاولات في التصنيف الدقيق، لا بد من العودة الى اعتبار تلك المقولات الكبرى نسبية جدا ومؤقتة.

ان دراسة المواقع الجديدة المحفورة والمؤرخة تاريخيا نظاميا تشهد بوجهة النظر هذه لنذكر مثلا العصر الحجري الحديث: في سنة ١٩٥٩م، كان ج لاكلارك حدد بداية العصر بحوالي ٧٥٠٠ قبل الحاضر، وفي سنة ١٩٧١م حدد تاريخ كهف منياما بالأوغندا بـ ١٥٠٠٠ قبل الحاضر (حسب فان نوتن، ١٩٧١م)، وبعد ست سنوات قدر تاريخ صناعة الحجارة الصغيرة في ماتوي بـ ٤٠٠٠ سنة قبل الحاضر تقريبا. وهكذا فان التناقضات واضحة بين التصنيف القديم والاستكشافات القريبة العهد.

ففي الحين الذي شرع فيه الأثريون في الاهتمام خاصة بطرق عيش إنسان ما قبل التاريخ، وذلك بدراسة محيطه، في محاولة فهم علاقاته بوسطه، اقتصر ما قبل التاريخ بافريقيا الوسطى طويلا على دراسة النماذج البشرية والترتيب الزمني. ولذا ظلت مكانة الانسان ضئيلة في هذه المدونة.

وعوضا عن أن نضع الفهرست الكامل للمواقع التي لا تشمل هنا الا بعض الاكتشافات بالسطح، فاننا سنعني هنا بالحفريات القليلة الشاملة التي وفرت عناصر لتحديد التواريخ وهي ايشنكو وكومب، وبيستوري، وكمو، وماتوي وكلمبو، حتى وإن استدعى ذلك دعم المعطيات المبعثرة بمعلومات اضافية وفرتها دراسة أماكن أخرى.

اننا نعتقد اعتقادا راسخا أنه يستحيل دراسة مناطق ثقافية كبيرة معينة. ف ينبغي ان نكتفي بملاحظة وجود الانسان في وقت معين، دون أن نستطيع الجواب على السؤال: هل نشأ الانسان بعين المكان وأنه أتى من مكان آخر؟ لاشك انه تكيف من أول وهلة مع أوساط معينة جدا لها مناخها، ونباتها وحيوانها الخاص بها. ولقد استغل الصياد الجاني البدائي تلك الأوساط ليبقى على قيد الحياة، وعندما اختار المادة التي صنع منها أدواته، أخذت حركاته تتحدد. ومن الواضح أن الانسان استجاب بطرق مختلفة لتبدلي أحيانا خصائص مشتركة كما تبدلي في نفس الحين تكيفا جهويا، وحتى عمليا، لا يمكن تفسيره مجرد قدرة الأحوال البيئية المتبدلة، على أنه من السابق لأوانه أن نتحدث عن مناطق ثقافية متميزة.



الشكل ٢: خريطة أفريقيا الوسطى
مبيّنة عليها أسماء المواقع الواردة في النص.

الاطار الجغرافي

ان خصائص مرفولوجية المنطقة الشاسعة المدعوة «افريقيا الوسطى» ناتجة عن سلسلة من الحركات التي ابتدأت في أول الدهر الثالث، ويحتمل أنها لما تنته بعد.

يحيط بالحوض المركزي الذي لا يزيد ارتفاعه على ٥٠٠ متر أنجاد وتضاريس ساحلية أو جبال تكونت على الطبقات الجيولوجية التي تغطي قاعدة ما قبل الكامبرية الكوستالية، التي تظهر بارزة في السطح، وهي وعرة ولا سيا في كينفو، حيث ارتفعت أحيانا الى ما فوق ٣٠٠٠ متر، وشقها الانجراف شقا بالغا، وتعلو القاعدة تضاريس أرضية عالية جدا وذلك شأن الانجاد البرلتية (٣٠٠م) من الضفة الجنوبية الشرقية من بحيرة كينفو وآداموا (٢٥٠٠م) والاحزمة البركانية بمنطقة فيرنكا (٤٥٠٠م) وسورست ووزوري (٥١١٩م) ونجد الهومبو (٢٦٠٠م) ولقد تسببت الحركات البنيوية التي طرأت على المناطق العالية في تشكل أخفضات تشمل الحدق الموجود بجنوب افريقيا الوسطى و«هاوية بنوي».

تتميز افريقيا الوسطى بنزول أمطار وافرة باستثناء المنطقة الساحلية بجنوب النجولا وبحوض كوبنكو- زمين وتنزل الأمطار باطراد، كامل السنة بالحوض وتمثل نسبة تفوق ١٧٠٠ مم سنويا. وتبلغ على سواحل الجابون وريوموني، والكرون ٤٠٠٠ مم. أما في المناطق الاخرى التي لها فصل جاف (٣ الى ٧ أشهر) فيبلغ نزول الأمطار ٨٠٠ الى ١٢٠٠ مم.

ان الغابة الكثيفة الرطبة بافريقيا الوسطى والتي تنمو في نظام مطري مرتفع، بين ٥ درجات شمالا، و ٤ درجات جنوبا، تغطي حوض الزايرين ومعظم جمهوريّة الكونغو، والجابون وريوموني، وجنوب الكامرون. وتنحدر تلك الغابة شرقا، بعد تشكلات انتقالية، الى غابات كثيفة جبلية تمتد بين درجتين شمالا و ٨ درجات جنوبا وتغطي القمم والسفوح الممطرة جدا من شرقي الزايرين ورواندا وبروندي. وتفرع عن الغابة الكثيفة في الأماكن التي تستغل فيها غابات جديدة وغابات ثانوية.

وتحرف بالغابة الاستوائية غابات كثيفة نصفها مضمحل، وكثيرا ما تكون متدهورة، وتستطيع أن تتحمل فصلا جافا يدوم شهرين الى ثلاثة أشهر. وهي تشكل في الشمال حاشية غير فسيحة من حيث خطوط العرض التي تبتدئ من الكامرون الى بحيرة فكتوريا، مروراً بجنوب امبراطورية وسط افريقيا وما بين بومو- أو يلي، وتشكل في الجنوب، مع السباسب التي صنعها عمل الانسان، تشكل زخرفا نباتيا يكسج جزءا من جمهوريّة الكونغو، والزايرين الأسفل، والمناطق السفلى من كوانكو وكساي سنكورو، ولوماي.

وتكسو الغابات الخفيفة والسباسب السودانية الزمبابية المنظمة حسب قوس مستدير يحيط بالغابات الغنية الكثيفة، مناطق يدوم فيها فصل الجفاف ما يقرب من ٧ أشهر وذلك في وسط الكامرون وامبراطورية وسط افريقيا، والسودان الجنوبي، وشرقي رواندا وبروندي وشابا بالزايرين وزامبيا والنجولا.

وتوجد منخفضات مستنقعية على طول الأنهار لاسيا على مجرى النيل الأبيض بجنوب السودان، وبحوض ومنخفض أوجيا بالزايرين، وبحوض الزمير بالنجولا وزامبيا.

تطور المحيط

لقد أصبحت إعادة محيط الإنسان في ما قبل التاريخ عنصرا هاما من الأبحاث الأثرية. وجرى بافريقيا الشرقية الدراسات الأولى في هذا الصدد. ولاحظ بحاثون مختلفون مثل أ. ج. وايلند (١٩٢٩م، ١٩٣٤م) وب. أ. كنت (١٩٤٢م) وأ. نلسون (١٩٤٠م، ١٩٤٩م) حدوث تعاقب في الدهر الرابع بين الحقب الرطبة (المطارات) والحقب الجافة (ما بين المطارات).

وكانت المطارات تعتبر معاصرة لجموديات نصف الكرة الشمالي وسميت من أقدمها إلى أحدثها: الكاغيري، والكاماسي، والكيلي. ثم عثرفيا بعد على مرحلتين رطبتين من أول الهولوسين وهما: الماكالي والتاكوري، ولقد حاول ا. س. ب. لايني (١٩٤٩م) وج. د. كلارك (١٩٦٢م، ١٩٦٣م) وغيرهما اطلاقا الاسمين توسعا على أجزاء أخرى من افريقيا. وقد اكتسبا مفهوما طبقيًا نحسوسا بافريقيا الشرقية. وردا على ذلك أبدى مؤلفون مثل ت. ب. أبرين (١٩٣٩م) وه. ب. س. كوك (١٩٥٨م) ور. ف. فلنست (١٩٥٩م)، وف. إ. زونر (١٩٥٩م) وو. و. بشوب (١٩٦٥م) تحفظات تتعلق بتعميم تلك النظرية: لأن الأبحاث التي جرت بافريقيا الوسطى بينت تأخرات هامة تتعلق بالمراحل المطرة بالمنطقتين.

وكان ج. دي بلوي (١٩٦٣م) أول من اعترف بوجود حقبة نصف جافة بافريقيا الوسطى وذلك بالبليستوسين الأعلى، وهي معاصرة على الأقل في أكبر جزء منها، للتجمد الورمي بأوروبا. ولقد وقع على آثار تلك المرحلة الجافة بشابا مؤلفون مختلفون (الكسندر، ١٩٦٥، مايرسن ١٩٧٥م). ولقد وجد ج. دي بلوي (١٩٦٣م) تغيرات أكثر رطوبة نحو ٦٠٠٠ قبل الحاضر وذلك بالزايير الأسفل، وموس في شابا (الكسندر، رسالة شخصية) وفي موسندة بالكونغو (دلبريس ١٩٧٤، ٤٧)، ان الدراسات الجارية في كاموا بينت أن ذلك التغير قد كان مسبقا بتغير رطب بين ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر و٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر، وفصلها تغير آخر في حوالي ٦٠٠٠ سنة قبل الحاضر تسبب فيه اجتراف قصير المدى مرتبط بعودة الجفاف. وقد عاصر التغير الرطب الواقع بين ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر و٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر، توسع بحيرات افريقيا الشرقية الذي أثبتته ك. ن. وبوتزر (١٩٧٢م). وتدل دراسات دي بلوي (١٩٦٣م، ١٩٦٥م/١٩٦٦م، ١٩٦٩م) بالزايير الأسفل، ودراسات ج. مايرسن (١٩٧٥م) في كاموا على أن أكثر الحقبات جفافا تميزت باشتداد العمليات المرفولوجية التكوينية. وهكذا تعرضت الهضاب في منطقة كنشاسا، مدة الألبوبوليفي عراء شديدة ونتج عنه ترسب كبير بالسهول. وقد شهدت تلك الحقبة بالكوأ، تطورا كبيرا جدا طرأ على السفوح في شكل تقلص حوافي الأدوية وكل ذلك يؤيد رأي ه. رودنورك (١٩٧٠م) في شأن التناوب بين فترات مرفودينامية توافق الحقبات الجافة والفترات القارة المتميزة بالرطوبة.

لقد تأثر تطور البيئة بافريقيا الوسطى تأثرا بالغا بالاحوال المناخية في الأفليات الخمسين الأخيرة وان الدراسات المتعلقة بالتشكلات النباتية الحالية وتوازنها مع المناخ، وكذلك التحاليل الباليولوجية الخاصة بمختلف المواقع قد مكنت من إعادة الكساء النباتي القديم والاحوال المناخية التي صنعتها.

في المناطق الجبلية بالشرق خصوصا، يمكن أن نلاحظ أحسن ملاحظة تغيرات المناخ الناشئة عن تنسقل طوابق النبات. ان رسوم لقاحات التختات (Tourbières) الواقعة على المرتفعات تبين تعاقبا بين نباتات المناطق الباردة، ونباتات المناطق الحارة والرطبة، ثم نباتات المناطق الجافة. وذلك شأن موقع كلمبوفواز الموجود على ارتفاع ١٢٠٠ متر بزامبيا. ولقد اكتشف به ج. د. كلارك وأ. م. فان زندرن باكر، (١٩٦٤م) فترة سنجابية نخيلية طويلة بين ٥٥٠٠ سنة قبل الحاضر و١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، مع وجود تغير بين رطبين في حوالي ٤٣٠٠٠ قبل الحاضر و٢٨٠٠٠ قبل الحاضر، كما وجد بداية فترة رطبة هي أكبر، حوالي ١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ولقد انخفضت الحرارة مدة الحقبات الجافة انخفاضا محسوسا وذلك بالمناطق المرتفعة المحيطة بالغرaben (Graben)، وذلك ما كان أشار اليه ج. أ. كوتزي، وأ. م. فان زندرن باكر (١٩٧٠م) بجبل كينيا حيث أثبتا «تجمد جبل كينيا» بين ٢٦٠٠٠ سنة قبل الحاضر و١٤٠٠٠ سنة قبل الحاضر.

ولقد درس ج. د. كلارك وأ. م. فان زندرن باكر (١٩٦٢م) تطور الكساء النباتي بمنطقة لوندنا حيث تحتل غابة خفيفة وجافة ذات أشجار برشتاجيا بين ٤٠٠٠ سنة قبل الحاضر و١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ثم قامت مقامها غابة أكثر انغلاقا مدة الفترة الرطبة من ١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر إلى ٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ويبدو اعتمادا على الدراسة الباليولوجية لموقع الكوا التي أجراها، أ. روش (١٩٧٥م) والكلية للدراسة الجيومورفولوجية ل.ج. ميرسن (١٩٧٥م) أن حقبة جافة حدثت ابتداء من الأشولي النهائي إلى ١٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وهكذا شاهدنا تطورا متدرجا للسبب السهبي نحو الغابة الخفيفة التي استحوطت إلى غابة أكثر كثافة مع امتداد ممرات غابية ناشئة عن ترطب المناخ ابتداء من ١٢٠٠٠ قبل الحاضر.

ويبدو، حسب م. ستريل (١٩٦٣م) أن الغابات الحقبية السنجابية النخيلية، والسباسب ذات الأكاسيا قد شهدت توسعا كبيرا بين ٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر، و ٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر، ان ذلك التوسع الذي وقع ابتداء من المنطقة الشرقية من الزمبين كان من أثره أن دفع بالغابة الكثيفة نحو الحوض. ويرى ب. دوفينسيو (١٩٥٨م) أنه يمكن اعتبار منطقة شابا ملتقى طرق تعكس فيه النباتات تأثيرات مختلفة غينية كنغولية، زمبزية وافريقية شرقية.

واعتمادا على نظرية ملسنكفيتش القائلة بتحريك خط الاستواء الحراري، يرى أ. شميثس (١٩٧١م) أن تحولا طارئا على خط الاستواء قدره ٨ درجات نحو الجنوب مدة فترة حارة ورطبة واقعة بين ١٢٠٠٠ سنة و ٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر، كان من أثره أن تطورت الغابة الكثيفة تطورا مهما واتسعت حتى الزاير كله وحتى جزء من أنجولا، كما يشهد بذلك وجود بقايا من غابة كثيفة جافة ضمن الغابات الخفيفة الحالية. ولقد كانت الغابات أكثر اتساعا نحو الشمال وكانت تغطي أغلب جزء من الكرون، وإمبراطورية وسط افريقيا.

ومدة تلك الحقبة الرطبة، ظلت غابات خفيفة وسباسب قائمة بالمناطق التي كانت موالية لها وذلك بالأعجاز والأراضي الفقيرة. ويحتمل أن تكون أعجاز الزاير الجنوبي وأنجولا لم تعرف أبدا نباتا مغلقا بآتم معنى الكلمة، ولذلك ابتدأت الغابة الحقبية من تلك المناطق وأخذت تنسج عندما جف المناخ بعد ٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر. إلا أن أ. شميثس (١٩٧١م) يعتقد أن ذلك غائذ أساسا إلى العامل البشري الذي تسبب في الألفية الأخيرة في تقلص الغابة الكثيفة.

وفي الختام، فلقد عرفت إفريقيا من ٥٠٠٠٠ قبل الحاضر الى ١٠٠٠٠ قبل الحاضر فترة طويلة سنجابية نخلية معاصرة للتجمد الورمي، بينما كانت الفترة الرطبة التي ابتدأت في حوالي ١٢٠٠ قبل الحاضر توافق التغيرات المناخية الدالة على بداية الهولوسين، في تلك الحقبة الطويلة الجافة التي تخللتها على وجه الاحتمال فترة رطبة في حوالي ٢٨٠٠٠ قبل الحاضر. كانت العمليات المورفوديناميكية هامة، وشهدت الغابة الكثيفة توسعا كبيرا. ولقد امتدت الغابة الكثيفة في الحقبة الرطبة من أول الهولوسين على أغلب جزء من إفريقيا الوسطى وكان تقلصها الحالي عائدا الى أثر الانسان بها.

الاستيطان بإفريقيا الوسطى

نظرا الى انعدام عظام بشرية، فلقد ثبت بوجه عام أن الدلائل الأولى على حضور الانسان تتكون من الحصى المهشمة المسماة «الحصى المهيأة»، وهي تشابه الحجارة الأولدووائية نسبة الى موقع أولدواي بطانزانيا. ولقد اكتشفت أشياء مماثلة في أماكن كثيرة بإفريقيا الوسطى وذلك بالزاير، بحوض كساي، وبشبابا، والكرون، والجابون والكونغو وإمبراطورية وسط إفريقيا وبالشمال الشرقي من أنجولا، حيث عثر عليها بالطمي. إلا أنه ليس من السهل أن نعرف ما اذا كان الانسان أو الطبيعة هو السبب في تهشم تلك الحصى. وإنه لمن الخطأ الشائع أن نعتبر من الأدوات كل الحصى التي فيها أمارات تحت مقصودة والحقيقية أن معظمها إنما هي نواة اقتطعت منها الشظايا. ولقد استعملت تلك الشظايا كما هي، لتكون أدوات صالحة لكل عمل، أو هذبت واستعملت مكاشط ومخكات.

ولم يترأى الى يومنا هذا على مسكن يعود تاريخه الى ذلك العصر. وتعودنا أيضا النماذج الخشبية والعظمية التي كان أكثرها من الأدوات. ويمكن أن نتصور أن الحصى المهيأة كانت من عمل القرد الجنوبي أو الانسان الماهر. الذي كان، حسب مشاهدات جرت خارج إفريقيا، يعيش عيشة آكل الجيف. إلا أن الحياة الاجتماعية أخذت تنتظم ابتداء من ذلك الوقت. وتعود أوائل تلك الحقبة من التاريخ الانساني الى ما يتجاوز ٢٠٠٠٠٠٠ سنة، ودامت حتى حوالي ٥٠٠٠٠ سنة.

إننا لم نحصل على حجة قاطعة على وجود الانسان بإفريقيا الوسطى الا عند حصولنا على الأدوات الاشولية. ولم يعرف المستوى الأكثر قدما منه، أي الاشولي الأسفل، الا في منطقة لوند (كلارك ١٩٦٨م). أما الاشولي الأعلى، الذي كثيرا ما يوجد بالأسواط الجافة، فلقد عثر عليه في أماكن عديدة تحيط بالحوض الأوسط. ولقد وصفه ج. د. كلارك بأنجولا وج. نيكان في رواندا وبروندي، كما وصفه دي بابل دي هرمنس في إمبراطورية وسط إفريقيا، ويعتبر كليمبو في زامبيا، وكما في الزاير أحسن المواقع المرجعية منه.

ويتميز الاشولي بذوات الوجهين وقدموات كانت محل محاولات تصنيف مرفولوجية عديدة (انظر كاهن، مارتين، ١٩٧٢م). ولقد رأى فيه بعض المؤلفين تحولا من مستوى عتيق الى مستوى أكثر تطورا، وأثبتوا تعاقبا اشوليا من ١ الى ٥. إلا أن هذه الفروق في النماذج البشرية ليس لها أحيانا مدلول زمني كبير، إن ذا الوجهين، كما يدل عليه اسمه، هو أداة تحت على جهتين انطلاقا من

[illegible]

● جدول بأسماء الصناعات حسبها أوردته مختلف المؤلفين، وبالتواريخ المحددة بالكربون ١٤ والمعروفة حاليا، بتطور البيئة والنباتات.

حصاة أو من شظية كبيرة فهو يتميز بمدة يزداد أو يقل تنوعاً، وله قاعدة تكاد تكون دائماً مستديرة. وبصاحب ذا الوجهين أداة متميزة جداً، وهي القدم الذي ينتهي بقاطع، ونجد مع هاتين الأدوات أدوات أقل تميزاً مثل ثلاثي السطوح، والنقارات، والسكاكين، وكرويات الأشكال، وأدوات صغيرة مختلفة. وإذا كانت الاكتشافات الاشولية متوفرة، فإن المواقع التي تعتبر فيها تلك الصناعة مستقرة بها أثرياً، أو مثله بها تمثيلاً منتظماً، قليلة جداً. فالمكان الوحيد الذي عثر فيه على الأشولي في طبقة أرضية يتبع بشاطئ نهر كموا، في شابا (كاهن، ١٩٧٥م). إن هذا الموقع الفسيح يمتد على عدة هكتارات. ولقد ترك فيه الصيادون الجانون الذين سكنوه، أدواتهم، وكذلك بقايا صنع تلك الأدوات، ويمكن لنا أن نعتبر أننا أمام نوع من المشغل — المسكن. ونظراً إلى تناسق هذه الصناعة التي لم تتطور كثيراً، يحق لنا أن نستنتج بأن الأمر يتعلق بإقامات فصلية متتابعة. والمادة مجلوبة من مكان يبعد ١٥ كيلومتر عن الموقع الذي عثر فيه على قطع ضخمة من النواة، مطروحة على الأرض. فلقد كانت الشظايا تنقل إلى الموقع الذي يجري فيه القطع والإتمام، ويشابه الاشولي المتطور أو الأخير في كموا الصناعات التي توجد بالصحراء وبجنوب إفريقيا، فضببط تاريخه بـ ٦٠٠٠ سنة قبل الحاضر يستوجب أن نعتبرها كنهاية، لأن التاريخ الحقيقي يكون حسب رأينا أقدم من ذلك.

إن الاعتماد على اكتشافات جرت بمناطق أخرى بافر يقينا يجعلنا نطمئن إلى القول بأن تلك الصناعة منسوبة إلى الإنسان المستقيم. لقد كان ذلك الإنسان يومياً في حاجة إلى الصيد والجنى لكي يعيش. ونفترض أن الحياة الاجتماعية ما انفكت تتطور وأن الإنسان قد اكتسب السيطرة على النار.

التطور التكنولوجي والتكيف

يمكن أن نؤمن بعد الأشولي، عدة مناطق تعطي صناعاتها، رغم اختلافها، شعوراً بنوع من الوحدة، فلنتصور بصفة عامة قسماً غربياً وقسماً شرقياً يمكن له في حد ذاته أن ينقسم إلى قسمين، وإن كان انعدام المعطيات بالنسبة للشمال والجنوب من المنطقة المعنية يجعل من هذه التقسيمات تقسيمات احتمالية. ففي القسم الغربي الذي يمتد من أنجولا إلى الجابون تعتبر المنطقة التي درست أجسن دراسة هي المنطقة التي تشمل الزاير الأسفل، وكينشاسا ومنطقة لوند، وكوانكو، وكساي، أي الجنوب الغربي من حوض الزاير. أما القسم الشرقي فهو يشمل منطقة ما بين البحيرات ومنطقة شابا، وبحيرة طنجانيقا.

ففي القسم الغربي، يبدو أنه عثر على سلسلة من الصناعات التي وصفت بأنها تتابع بشري تاريخي: فهناك السنغون، متبعو باللو بمبي المتبعون بالتشيتوي. إن السنغون يمثل الانتقال من الاشولي إلى اللومبي، ويقع في الحقة الأولى الفاصلة. أما اللومبي فهو يؤلف العصر الحجري الوسيط، في حين أن اللومبي — التشيتوي يؤلف الحقة الثانية الفاصلة. فيكون ماله نهائياً إلى التشيتوي الذي هو معاصر للعصر الحجري الحديث بافر يقينا الشرقية والجنوبية. ولما كانت كل هذه الصناعات امتداداً للتقنية الاشولية، فإنها تخصص بنحت الوجهين، وتكون فيها تقنية لوفالوا نادرة.

أما القسم الشرقي من إفريقيا فإنه يكشف عن خليط كبير من الصناعات. وهي تشابه

صناعات: القسم الغربي، إلا أن نحت الوجهين ليس وافرا، وخلافا لذلك فإن تقنيات القطع المعروفة بالموسستيرية، ولوفالوا متطورة بها جدا، والنصال والشظايا النصلية بها عديدة. ولقد طرأت ابتداء من حقبة الانتقال الثانية، تغيرات عميقة جدا وانقطعت التقاليد نهائيا لنحل محلها صناعات الحجارة الصغيرة التي لم يكن لها حسبا يبدو صلة بالصناعات السابقة، ان خصائص هذه الصناعات من نوع السنغون واللوبيمي المتوفرة بتلك المناطق تسمح بأن نميز فيها منطقتين مختلفتين: احدهما تغطي القسم الشمالي، أي المنطقة الموجودة بين البحيرات، وتخصص بأدوات ذات وجهين، ورقية ونصلية الشكل، وبخناجر. أما الأخرى التي تغطي الجنوب، أي منطقة شابا، وشواطئ بحيرة طنجانيقا، فهي تخصص بانعدام «الحدود»، وبوجود أدوات ذات وجهين من نوع القص أو المفرس، ولعله من المستغرب عدم وجودها في المنطقة الواقعة بين البحيرات، وهذا دليل على خطأ من رأي في هذه الآثار الباقية، صناعات خاصة بالغابة وصناعات خاصة بالسبب، إذ أنه لم يكن حسبا يبدو، منطقة أكثر تشجرا من أخرى في تلك الفترة، لأن المناخ قد كان أكثر جفافا من اليوم ولأن الغابة لم تمتد إلا في آخر تلك المدة. ويشهد موقع مسكون على خاصية صناعات تلك المنطقة التي تمثلها مجموعة من الحدود ذات الوجهين، ومعها عناصر خشنة مثل النقارات. ولقد مثل بها عنصر لوفالوا تمثيلا كبيرا (كاهن، هيسيرتس، فان نوتن ١٩٧٢م)، وقد اكتشف مقطوعة من الصناعات الحجرية تبدأ من السنغون وتنتهي «بالعصر الحجري الحديث»، إلا أنها لم تدرس دراسة مفصلة (ننكان ١٩٥٨م).

ولندرس الآن المنطقة الغربية عن كيب. ان صناعاتها تمثل مجموعة العناصر التي وجدناها بالمناطق الشرقية، وذلك ما يجعلها تكنسي تنوعا كبيرا من حيث الخايج، وهذا يتفق مع التصور العام «للسنغون» و«(اللوبيمي)»، فنجد فيها نقارات خشنة قد كانت موجودة بالآشولي ودامت حتى التشيشولي. ان هذه الأداة التي تعتبر أحفور السنغون الرئيسي، خالية في الواقع من المفهوم الزمني، إلا أننا نجد أدوات تنتسب اليه وهي مصقولة، ومنها حدود نصال جميلة ورقية الشكل وبخناجر طويلة. ثم ظهرت بعد ذلك حدود سهام تدل على أن الإنسان قد اكتشف استعمال القوس. ويبدو أن الإنسان العارف كان مسؤولا على تلك التكيفات، وان لم يعثر إلى الآن على بقاياه. ولقد اكتشف كوكيت في قبة كومي أول تعاقب من الصناعات بافريقيا الوسطى. فلقد أبرز أربع صناعات: الكاليني والدجوكوسي والندولي والليسيوبولدي، ومعها آثار من عصر الحديد. ولم يأخذ المؤتمر الافريقي الاول لما قبل التاريخ، المنعقد ببايروني سنة ١٩٤٧م بعين الاعتبار أساء الصناعات التي عرّفها ج. كوكيت، وأقر مصطلحي سنغون واللوبيمي اللذين لا يعتمدان على أي قاعدة أثرية قوية. ولقد دخلت المصطلحات الجديدة الى علم الآثار واستعملت دون روية لا بافريقيا الوسطى، فحسب بل خارج حدودها. لقد أعاد د. كاهن سنة ١٩٧٣م و١٩٧٤م (كاهن، ١٩٧٦م) حفر قبة كومي، وهو الموقع الوحيد المعروف الذي يمكن أن يستخرج منه ترتيب تاريخي، وذلك لضبط تأريخ المقطوعة التي اكتشفها ج. كوكيت. ان المقطوعة، باستثناء بعض القطعات التي تعود إلى الآشولي، تبدأ في الكاليني الذي يتميز بنقارات خشنة منحوتة على حصاة أو شظية، ومكاشط ضخمة، وأدوات مسننة خشنة ومناجر أحجامها كبيرة. ونجد أيضا ذوات الوجهين النصلية الشكل، ومكاشط متقاربة وأدوات ذات وجهين أو وجه واحد، ضيقة لها

حافات متوازية نوعاً ما، يضاف إلى هذه المجموعة أسلحة أخرى لها قواطع مستعرضة مركبة على شظايا (قواطع م ميرة) ونواة مستديرة من نوع «المستيري»، وتشمل القطع شظايا لها شكل لوفالوا وبعض النصال الرديئة، إن أغلب العناصر تذكرنا بالسنگون، وتذكرنا الأدوات الرقيقة باللومبي وحتى التشيتولي. ويتميز المستوى المولي، أي الدجوكوسي، بحدود سهام ذات ساق معلقة أو ورقية الشكل كثيراً ما صقلت بالضغط. ويشابه القطع قطع الكاليني. ويذكرنا الدجوكوسي باللومبي الحديث في سهل كنشاسا (مؤرسل ١٩٦٨ م) وباللومبي التشيتولي، وحتى بالتشيتولي القديم كما عرفهم ج. مرتلمنس (١٩٦٢ م) وج. د. كلارك (١٩٦٣ م). ولا يوجد المستوى الثالث، أي النندوي، إلا في شكل تجمعات صغيرة. ويتميز خاصة بحدود السهام الصغيرة الرقيقة الشكل. وقد كان قطع القططين يجري بين المكان، وما يشهد بذلك وجود «قطع من شظايا عظمية». ولذلك وجب تقريب هذه الصناعة من التشيتولي المتأخر (مؤرسل ١٩٦٨ م، كاهن، مرتلمنس ١٩٧٣ م). إن أحد التواريخ المعطاة للكاليني يوافق عصر السنگون (كلارك، ١٩٦٩ م، ٢٣٦) ويوافق تاريخ آخر المراحل القديمة من اللومبي (كلارك ١٩٦٣ م، ١٨ - ١٩، مؤرسل ١٩٦٨ م، ٢٢١). إن التواريخ المعطاة لعينات من المستوى الدجوكوسي لا تختلف بناتا عن التواريخ المحسوبة بالنسبة للصناعات مشابهة. فن التواريخ المرتبطة بالنندوي، يوجد تاريخ واحد يناسب تواريخ التشيتولي المتأخر المعطاة سابقاً بـ سهل كنشاسا ومنطقة لوندانا.

ويمكن أن نقول بصفة عامة إن الصناعات التي وجدت بالطبقية الأرضية بلوندا، وغومب وبسهل كنشاسا، متشابهة من حيث النماذج، ومتوافقة من حيث التاريخ، فيؤرخ السنگون - اللومبي الأسفل ما بين ٤٥٠٠ سنة قبل الحاضر، واللومبي الأعلى واللومبي التشيتولي بما بين ١٥٠٠ سنة قبل الحاضر، والتشيتولي الأسفل بما بين ١٠٠٠ سنة قبل الحاضر، والتشيتولي الأعلى بـ ٦٠٠ سنة إلى ٣٥٠ سنة قبل الحاضر (انظر اللوحة ١).

لقد وفر خندق استكشاف حفرة ب. دي ماري بكهف ديبا تعاقبا من ١٥ طبقة أثرية، وتاريخاً يتراوح بين ٢٠٠٠ إلى ٦٥٠ سنة قبل الحاضر، وذلك بالنسبة لصناعة من نوع اللومبي الأعلى واللومبي - التشيتولي. ويبدو أن تلك الصناعة أقدم من ذلك إلى حد ٢٥٠٠ سنة ق. ح. إن ذلك التاريخ من شأنه أن يسلط الضوء على أشار إليها كاهن (١٩٧٧ م) والتي توجد بالتواريخ بين ٢٧٠٠ سنة قبل الحاضر و١٥٠٠ سنة ق. ح.

إن كهف هو (Hau) لم يوفر تواريخ راديوكربونية مفيدة. وهو الموقع الوحيد الذي ربما كان يوجد بالغابة الاستوائية عندما كان محل إقامة والذي اكتشف به. ف. فان توتن صناعة لومبي تبعها «عصر حجري حديث».

وقام ج. ب. امفر سنة ١٩٦٦ م بحفريات في كهف بيتوري فلاحظ عشرين مستوى إقامة من العصر الحجري. ولقد أعطى أحد المستويات راديو كربونياً قدر بـ 3930 ± 200 سنة قبل الحاضر، وأعطى مستوى أسفل تاريخاً يقدر بـ 4030 ± 200 سنة ق. ح. وتعتبر الأدوات الحجرية التي لا تتطور من مستوى إلى آخر مكونة وحدة نوعية تذكرنا بصناعات التشيتولي الأعلى. ولقد أرخ باحث آخر مستوى تشيتولي في موسندا بما قدره 6600 ± 130 ق. م (دليبر باس ١٩٧٤ م، ٤٧).

وفي بلاد الجابون، اكتشفت الصناعات التي تدعي اللو بمبية في مناسبات عديدة (بلنكف ١٩٦٥م، حجي جورجيو، بومري، ١٩٦٥م، فرين ١٩٦٥م).

الصيدون الجانون المتخصصون

ظهرت في وقت ما، ويحتمل أن يكون ذلك بين ٥٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر و٤٠٠٠ سنة قبل الحاضر، حجارة صغيرة هندسية الشكل على شكل قطع دائرة، ومثلثات ومستطيلات، ومعينات.. ويبدو أن القطع كانت أبرزها، وإن كانت موجودة من قبل في جنوب أفريقيا في آخر العصر الحجري الوسيط حيث كانت تستعمل فيه كعذبات بقاعدة حدود النصال (١). أما في العصر الحجري الجديد، فكانت تستعمل تلك الحجارة الصغيرة وحدها لتكوين السهام، والنصال، والمحاطف، والسكاكين والمقصات.

ومثلما سبق، يمكن أن تقسم المنطقة المدروسة الى منطقتين متميزتين، فنلاحظ في القسم الغربي الذي يغطي أنغولا، وكساي، وكوانكو، والزراير الأسفل، وجمهورية الكونغو الشعبية، نلاحظ دوام التقاليد التي تعرف بالتقاليد اللو بمبية، كما لو أن اللو بمبي، في تطوره بعين المكان، قد أنشأ التشيتوي. وأصبحت الحجارة الصغيرة الهندسية الشكل عديدة إلا أنها لم تكن غالبية مثلما هو الشأن بالقسم الشرقي، حيث تمثل فيه العنصر الأساسي للادوات. ان س. ميلر (١٩٧٢م) الذي استعرض التشيتوي ولخص الاعمال السابقة، يعرف هذه الصناعة بوجود أدوات ذات وجهين من نوع المنقار - المقص، وحدود ورقية الشكل، وحدود ذات ساق معلاقية، وقواطع صغيرة، وحجارة صغيرة هندسية الشكل. ان منطقة لوندنا قد أعطت صناعة تجمع كل هذه العناصر، وإن كانت مثلة تمثيلا ناقصا بمختلف المواقع. وهكذا أمكن تمييز مظهر ثقافي لواد توفرت فيه القواطع الصغيرة مثلما هو الشأن في دينكا، ومظهر آخر لتجد عثر فيه على سلاح يتألف أساسا من حدود ذات ساق معلاقية (بكيرت ١٩٥٢م). ان الموقع الكائن بنجد باتيكبي الذي كان ج. مرتلمنس حفره سنة ١٩٥٩م بهدف انقاذ الآثار، (كاهن، مرتلمنس ١٩٧٥م) قد أعطى صناعة تدعى بالصناعة «الكاملة» مثل التي توجد بمنطقة لوندنا. ان الحث المتعدد الشكل الذي كان عمليا المعدن الوحيد المستعمل في الأدوات المكتشفة، أصله من المناجم التي يوجد أقربها على بعدة عشرة كيلومترات من الموقع. وتختص تلك الصناعة بعدد كبير من الشظايا وبقايا القطع (٩٦١٪)، وبعض النوى (١٤٥٪) وبعض الآلات (٢٤٪). ووجدت بجانب حدود سهام ورقية الشكل أو معلاقية الساق، حجارة صغيرة هندسية الشكل، وشظية كبيرة لها قاطع مصقول. ان أغلب قطع النواة من النوع المستدير أو النصالي. ونلاحظ أيضا وجود عديد كبير من النوى الصغيرة متفتتة تماما. ان التقطيع الذي يتكون من شظايا تهذيب، يشمل بعض الشظايا اللولوازية، ونصلا صغيرة. وتلك هي خصائص التشيتوي المتأخر، ويبدو ان هذا الموقع كان مخصصا للصيد، لان نجد باتيكبي، وإن كان سهبيا تماما، كانت

تقسمة ممرات غابية يتردد عليها إنسان ما قبل التاريخ الباحث عن الصيد. ولئن كانت المادة الخام المستعملة مجلوبة، فإن كثيرا من الأدوات كانت تنحت بعين المكان. ويمكن أن نتصور أن لبن النبات والكمبوال العثور عليها بالحفر بات، قد استعمالا كمادة لاصقة لثنييت الحجارة الصغيرة على مقابض النصال والسهم. وكانت المكاشط، والامقاص والسواطير تستعمل لصنع أدوات مركبة توضع فيها القواطع المستعرضة وحدود السهام المعلقة الساق.

وقد وفرت منطقة لوند التي درسها ج. د. كلارك تشيتوليا يمكن أن يؤرخ بما بين ١٣٠٠٠ سنة ٤٥٠٠ سنة قبل الحاضر (كلارك ١٩٦٣ ب، ١٨ - ١٩). إلا أن تلك الصناعة ربما استمرت حتى بداية عهدنا (كلارك ١٩٦٨ م، ١٢٥ - ١٤٩). ويكون تاريخ تشيتولي سهل كشاسا بين ٩٧٠٠ و ٥٧٠٠ سنة قبل الحاضر. (مورسل ١٩٦٨ م - ٢٢١).

ويمكن أن نسأل: إلى ماذا تشير المظاهر الثقافية الموجودة بالتشيتولي؟ فهل هي تكيفات مع أوساط مختلفة، وهي تعني مثلا أنها نوع من التخصص في تقنيات الصيد، أو أنها ليست سوى فوارق («ثقافية»؟).

نجد في القسم الشرقي، حول الغابة الاستوائية، من امبراطورية وسط أفريقيا إلى منطقة شابا، صناعات تدعى بصناعات «العصر الحجري الحديث». إن أقدمها ليست من حيث علم الأنواع البشرية متنوعة إذ لم تظهر الأدوات المتخصصة إلا متأخرة. وذلك ما لوحظ بكهف متوني حيث كشفت حملتان حفر يتان متابعتان سنة ١٩٧٣ م و ١٩٧٤ م عن آثار إقامة بشرية طويلة ابتدأت قبل ٤٠٠٠ سنة قبل الحاضر بكثير (فان نوتن، ١٩٧٧ م). ولقد عثر على الأدوات المدروسة إلى الآن في متر مربع واحد وفر ٨٠٤ أداة. وهي منحوتة على المرو حسب طريقة خاصة بصناعات الحجارة الصغيرة وحدها. وهي تقنية القطعين. وتمثل بقايا شظايا التقطيع ٩٠٪، ولا تزيد نسبة الأدوات في حد ذاتها على ٥٪. يضاف إلى ذلك القطع التي بها آثار استعمال، دون أن تكون أدوات «شكلت» وهي تمثل ٥٪. إن هذه الصناعة صناعة حجارة صغيرة محض، و يقرب فيها طول الشظايا الأقصى من ١٧٧ ملم، وقد أعدت كل هذه الأدوات الحجرية لتكون أدوات مركبة. إن الأدوات الحقيقية تستعمل، مرتبة حسب كثرتها، على غزوزات ومكاشط، ومثاقب، ومخافير، وشظايا ونصال حافظها منحنية، وشظايا مهذبة، وقطع مبتورة، وبعض الحجارة الصغيرة الهندسية الشكل (قطع دائرة وأنصاف دائرة، ومثلثات). إن الأدوات الحجرية الصغيرة المنحوتة على المرو، والحلث أو الشبيست متكونة من أرجحة، ومهاريس، وسندانات، وقوارع، ومكاشط وبعض المقصات. ولقد أرخت قطعة حجرية مشقوبة تزيينها حزات بـ ٢٠٠٠٠ (٢) سنة قبل الحاضر تقريباً. وكانت البقايا العظمية الحيوانية محفوظة بحفظ حسنا وتدل على بيئة أكثر جفافاً من بيئة اليوم. وكان سكان الكهف يصيدون حسب نظام تنازلي البقر بات (الظلي والأبقار الوحشية) والزلم والقوارض (لأسيا الشرمينجديات) والحنزيريات ونادراً القرديات والشياهم. إن هذا الكهف الموجود اليوم بالغابة

(٢) إن الحجارة المثقوبة المعروفة أيضاً باسم (كوي. (Kwé)، وهي جزء من صناعات العصر الحجري الحديث من المحتمل أنها كانت تستعمل عصياً للحفر.

الاستوائية كان يوجد في أغلب مدة سكناه بالسبب، غير بعيد عن الغابات المعمرات: كما تدل على ذلك التحاليل الباليولوجية، فلقد كانت مسكونة بدون انقطاع بما كانت الصناعة الغير المختصة من الفترة الأولى تتحول الى صناعة كلاسيكية توفر حجارة صغيرة هندسية الشكل، وأدوات عظيمة قليلة، وهيماتيتا أحر كان يستعمل للتلوين ودوائر نظم من قشرة بيضة النعامة. ونظرا الى قلة الأدوات التي تصلح آلات أو أسلحة، وخاصة بالطبقات القديمة، فاننا نعتقد أن الأدوات كانت في جلها مكونة من الخشب كما لاحظنا ذلك في كويشو (فاكان، فان نوتن، ١٩٧٢م).

وقد بينت حفريات إيشانكو التي أجراها ج. هنزليين سنة ١٩٥٠م وجود ثلاث صناعات حجرية صغيرة (هنزليين ١٩٥٧م). لكن كانت الحجارة الصغيرة مفقودة في الأولى، فهي موجودة أكثر بالشانية ومتوفرة بأصغرهما سنا. ان خصائصها النوعية خشنة بصفة عامة، وتتجمع في التقطيع كل التقنيات ويخضع لطبيعة المرو الرديئة الذي يستعمل مادة خاما. ان تلك العناصر تذكر بدون شك بالتطور المشهود في ماتوبي. وقد وفرت إيشانكو سلسلة من المخاطف قد تكون استعملت لصيد السمك وللتنصص وهي تبين تطورا ملحوظا ينتقل من نماذج لها صفوف من التشويكات بالطبقات السفلى، الى أمثلة لها صف واحد بالمستويات الأصغر سنا. ومن بين المكتشفات المدهشة عصا صغيرة من العظم تزينها خطوط وتستعمل مقبضا لشظية من المرو. ولقد أرخت صناعة إيشانكو بـ ٢١٠٠ ± ٥٠٠ سنة ق. ح، وذلك ما بدا قديما جدا عندما نشرت الدراسة المختصة للموقع. الا ان هذه النتيجة تبدو اليوم أكثر احتمالا، ان اعتبرنا التواريخ المحصلة في ماتوبي. وكان سكان إيشانكو يعيشون من صيد السمك ومن الصيد، لا سيما صيد فرس البحر والتوبي وكذلك الثدييات التي انقرض بعضها اليوم. وكانت الطيور تصطاد أيضا، ومن الاسماك المصطادة نذكر خاصة السيلوريات (Silures)، والسيكليديات (Cichlides) والبروتو بتيترات Protopteres. ولقد درس ف. تويسلمان (١٩٥٨م) البقايا الانسانية المكتشفة ضمن مخلفات المطايخ. فهي تفيد بأن الموقع كان يسكنه ناس لا ترتبط صفاتهم البيولوجية المناخية اللانوعية والخشنة بأي ارتباط مباشر مع السكان العصريين من هذا الصنف أو ذاك.

ولقد برزت حدو تلك الصناعات الحجرية المصغرة المحضة، بمنطقة ما بين البحيرات، وبشبابا وعلى ضفاف بحيرة طنجانيقا، صناعات بيئية نوعيا، فهي بين الحجرية المصغرة المحضة، وبين الصناعات الخاصة بالقسم الغربي من إفريقيا الوسطى. ويمكن لنا أن ننصو، نظرا لخصائص تلك الصناعات المتنافرة، أنها تواصل تقاليد العصر الحجري الوسيط الموصوفة أعلاه. ولقد اضطرج. نيكسان الى ابتداء اسم «(ولطن/تشيتوبي)» ليصف العصر الحجري الحديث في رواندا، وبروندي (نيكسان ١٩٦٧م) حيث لم يؤرخ لها مع الأسف الا قليل من المواقع، ويقدر بـ ١٥٠٠٠ - ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر، عمر الصناعة الانتقالية لكونها الذي يمكن تفرقه من اللومبي - التشيتوبي للقسم الغربي، وان العصر الحجري الحديث الغفري والقليل الاختصاص قد أرخ في نفس الموقع بما قدره ٦٠٠٠ الى ٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر (كاهن، ١٩٧٥م). فيبدو ان تقاليد مختلفة قد تعايشت طويلا جنبا الى جنب، ولذلك فلقد حاذت صناعات ذات طابع مختلط، وصناعات حجرية صغيرة محضة مثلها هو الشأن في موكينايرا (فان نوتن، هيرنو ١٩٦٧)، وفي بحيرات موكوتو (فان نوتن ١٩٦٨م).

لم تتوفر افر يقيا الوسطى موقعا له ثروة كبرى تسمح بان تستعاد استعادة مفصلة طرق عيش أولئك الصيادين الذي كان سلوكهم في الحياة يشابه سلوك البوشيمان * في كالا هاري. وقد أعطى موقع كويشيو في زامبيا فكرة كاملة عن طرق العيش بالعصر الحجري الحديث في الألفية الخامسة ق. ح. وفضلا عن وجود أدوات مهذبة، ساعد الحظ مساعدة استثنائية على أن نجد فيه عددا كبيرا من الأشياء الخشبية والعظمية التي تدل على أهمية خدمة الخشب حتى السباسب الخفيفة (فاغان، فان نوتن ١٩٧٢م).

انتهاء عصر الحجر

ان وفرة الادوات المهذبة في بعض المناطق قد أدت الى اعتبارها علامة على العصر الحجري الجديد، لكن رأينا أنه يمكن وجود تلك الادوات ابتداء من «العصر الحجري الحديث» وأنها كانت مازالت تصنع وتستعمل في القرن التاسع عشر بمنطقة أولي (فان نوتن ١٩٦٩م (ب)). ولذلك فان اكتشاف ادوات مهذبة، خارج كل سياق أثري، لا يعني شيئا، الا ان توزع تلك الادوات ليس خاليا من الأهمية لأن تلك الأشياء لم تلحظ الا بمحيط الحوض الأوسط. وتعتبر تلك الاكتشافات بالشرق نادرة للغاية فلا نعرف في بروندي الا فأسين مصقولين وكهفا له مصاقل (فان نوتن ١٩٦٩م، كاهن، فان نوتن ١٩٧٠م). ولقد ازداد عدد الاكتشافات نحو الجنوب الشرقي اذ وجدت بعض الفؤوس وبعض المصاقل في شابا. أما في كساي فقد عثر فيها فعلا على بعض المصاقل، الا ان الادوات المصقولة مفقودة عمليا (سيليس ١٩٧٢م). وعلى العكس، تمثل تلك العناصر أساس المكتشفات الأثرية التي وقعت بالشمال من الغابة الكبرى. لقد جمعت بمجوس أولي وحتى في ابوري أكثر من ٤٠٠ أداة منها فؤوس رائعة من الهيماتيت صقلت صقلا دقيقا، ومصاقل عديدة. ولم توضع الى الآن الا اخر يطة واحدة لتوزع تلك الادوات (فان نوتن ١٩٦٨م (ب)). ان العصر الحجري الجديد «الأولي» لا يتجاوز ولو جزئيا على ما يبدو القرن السابع عشر وينتسب اذن الى عصر الحديد كما تدل عليه الحفريات في بورو (فان نوتن (ف) وفان نوتن (ا)، ١٩٧٤م).

وقد عثر في الناحية الغربية، أي في المنطقة التي يتصل فيها الأوبنكي بالغابة، عثر على تجمع آخر من الفؤوس المصقولة. والكثير منها أقل جودة من فؤوس أولي، وعلى العموم لم تصقل منها الا بعض الأجزاء. ولم تسمح الاستكشافات بتلك المناطق بالعثور على أدوات بمثابة في اطار أثري. الا أن ر. دي بايل (١٩٧٥م) قد اكتشف في حفرة قام بها بالجهة الأخرى من النهر، في باطامو بامبراطورية وسط افر يقيا، وذلك لأول مرة، له قاطع مصقول يعود الى صناعة غير حجرية مصغرة ولصناعة الحزف. وهذه الصناعة الحزفية تتميز بقعر مستو، وهي في العادة مزينة بزخرفة كاسية أو ممزجة بخديقات، وحزات ودمغات خظت بالمشط. وقد لا يكون ذلك الحزف سابقا للقرن الرابع الميلادي عندما يؤرخ بالحجارة الضوئية، وذلك يعني أنه حديث جدا بالنسبة لتلك الصناعة، وإذا كانت بعض الفؤوس المبعثرة قد جمعت في أماكن مختلفة، بامبراطورية وسط افر يقيا، فلا يوجد حسب علمنا مصقل واحد بتلك المناطق.

وقبل ان نتعرض لمنطقة التجمع الأخيرة، يجب ان نشير الى أن فؤوسا مصقولة مرتبطة بالحزف،

* في الطوب «السان» عوض البوشيمان تعليق (المراجع محمد الفاسي).

موجودة في بحر الكرون، على جزيرة فرندوبو، وقد أرخت بالقرن السابع الميلادي (مرتدين دل ملينو ١٩٦٥م) وظلت مستعملة حتى عهد قريب.

تمتد المنطقة الأخيرة موازية للساحل الاطلسي ابتداء من الجابون الى الشمال الغربي من أنجولا. ان الادوات الحجرية الجديدة التي عثر عليها في هذه المنطقة منحوتة، ولم يصل منها الا القاطع.

وللفؤوس في الجابون حافات متعرجة تكون لسانا خاصا بها (يومري، ١٩٦٦م). ولقد اكتشف اناء اثر أعمال كبيرة وهو يحتوي على قطعة من أداة مصقولة وفحم خشبي لم يؤرخ مع الأسف (يومري، ١٩٦٥م). ولم يعثر في جمهورية الكونغو الشعبية بأنجولا (مرتدين ١٩٧٦م) الا على مكشفات سطحية. وبالعكس من ذلك، اكتشف ج. كوليت في بوانت لا كويي فأسا مصقولا يبدو أن له صلة بالحرف ذي القعر المستوي (بيكرت، ١٩٣٨م) مما جعله يسميه «الحجري الجديد الليوبولدي» وهو مصطلح صار يطلق فيما بعد على الفؤوس المصقولة التي وجدت بالزاير الاسفل. وجمع مرتلمنس (١٩٥٩م) بالسطح، في كونكوديا فانكا فؤوسا مصقولة، ومروا منحوتا غير نوعي، وخزفا خشنا له قعر مستو. ويوجد نفس الحرف بكهوف نطاادي - نطاادي ونكوفو، التي لها صلة في الموقعين الأخيرين بفؤوس مصقولة. ولقد أرخ، في أربع مرات، فحم خشبي مجاور للقرنين الأخيرين قبل الميلاد (ماري، ١٩٧٧م). الا أن الأمر لا يتعلق بالسر محدود لا يسمح بأن نستبعد نائيا نسبة تلك الآثار الى عصر الحديد، لاسما وان حفريات جديدة تبين ان الليوبولدي في بوانت لا كويي قد يندمج في عصر الحديد (كاهن، ١٩٧٦م). لكن هذا الموقع قد عرف اضطرابات ويمكن ان يتعلق الأمر بمجرد تسرب من الآفاق العليا.

في دمبا ونكوفو، وهو الموقع الوحيد الذي حفظت فيه عظام، فان تحليل الحيوانات التي عثر عليها فيه، لا يدل على وجود حيوانات أليفة. ونظرا الى فقدان معطيات اجتماعية أخرى، فقد يكون من السابق لأوانه ان نعتبرها تنتمي الى العصر الحجري الجديد الحقيقي الذي كان سكانه يستعملون أدوات مصقولة والحرف ويتعاطون تربية الماشية والفلاحة. وكذلك الشأن بالنسبة لجميع الصناعات التي لها مظهر العصر الحجري الجديد والمكتشفة الي يومنا هذا بافريقيا الوسطى. فنحن لا نعرف مستعمليها ولا العصر الذي عاشوا فيه ولا نظامهم الاقتصادي. ولقد افترض بعضهم أخيرا ان بعض الآثار الممنه قد تكون تناسب مستوى نائيا من العصر الحجري الذي قد تناسبه المراحل الاولى من انتشار السكان الناطقين بلغة البانتو في حوالي الألفية الأخيرة بعد الميلادي أي قبل أن تتفن استعمال الحديد (فليس، ١٩٧٦م، ماري، ١٩٧٧م (ب)، فان نوتن، تحت الطبع.

يجب علينا أيضا أن نذكر هنا الحجارة الضخمة المكتشفة بمنطقة بوار فهي قد تعود الى الألفية الخامسة أو الى الألفية الاولى قبل الميلاد، لكن القضية يمكن ان تتعلق باستعمال جديد (رايل دي هرمنس، ١٩٧٥م). و يبدو أن تلك النصب باعتبار أحجامها تدل على سكان قارين يمكن أن نفترض أنهم تجاوزوا مرحلة الصيد والجنى. ولذا كرنا أن تبليط أبي API بالحجارة الكبيرة ظاهرة طبيعية وليست بتاتا من عمل الانسان (فان نوتن ١٩٧٣م) كما هو الشأن بالنسبة لجميع البنيات المسماة بالنصبية المعروفة الى يومنا هذا بالزاير.

نظرة مثالية الى الآثار؟

لقد حاول ج. د. كلارك، في المؤتمر الافريقي المنعقد بداكار سنة ١٩٧٦م، ان ينظم قائمة المصطلحات الخاصة بمحوض الزاير (كلارك، ١٩٧١). وبين كاهن بوضوح، عندما أرخ مختلف المصطلحات المستعملة للتعبير عن الصناعات التابعة للأشولي بالمنطقة المعنية، أن الأمر يتعلق بخليط عجيب (كاهن، ١٩٧٧).

ان الحفريات الحديثة في كامبي قد سمحت بالعثور على المقطوعة الأثرية وتاريخها وهي التي عرفها ج. كوليت. الا ان اعادة التركيب من القطع الآتية من أعماق مختلفة بينت أن الموقع قد كان مضطربا كثيرا وان الصناعات ليست متجانسة (كاهن، ١٩٧٦). فلقد تنقلت الأشياء من مكان الى مكان، كما أكدت على ذلك التجارب المختبرية (ميرسن، ١٩٧٧). ويحتمل أن طرأت ظاهرات مشابهة بمواقع أخرى حيث وجدت البقايا الأثرية في رمال كالاهاري متبدلة، مثلما هو الشأن بالشمال الشرقي من أنجولا، وبالزاير الأسفل، وكساي، وشابا والكونغو، (كاهن، ميرسن، ١٩٧٧). ونحن لا نعلم الى أي حد أصاب الاضطراب مختلف الصناعات، ونلاحظ من جهة أخرى توافقا نوعيا وتاريخيا ملحوظا بين مختلف مواقع ما قبل التاريخ بالحوض الجنوبي من الزاير، وبصفة أقل بإفريقيا الوسطى. ولقد اقترح د. كاهن (١٩٧٧) ان تجمع تلك المجموعات في ما قبل التاريخ المتقاربة حسب مركب صناعي واحد ما بعد الأشولي بإفريقيا الوسطى، يشمل في البداية إفريقيا الوسطى كلها، ثم يقلص عبر الزمن ليقصر في النهاية على الجنوب الغربي من حوض الزاير.

ان هذا المؤلف يعتبر أيضا ان المصطلحات مثل السنغون، واللوپمي، والتشيتوني لا تعبر عن أي واقع علمي مقرر لكنه يبدو لنا، كما حاولنا تبيان ذلك بهذا الفصل، انه من الممكن ان نميز بعد الأشولي، وخلال الصناعات الحجرية، أنماطا جهوية وأن نتتبع تطورها. وقد يكون في هذا التمييز نوع من التبسيط، ومجال للأخذ والرد، الا أنه يعكس واقعا معينا، يبدو بلا شك أكثر تعقيدا الآن مما كنا نشوقه. ان تحسين مناهجنا على أساس حفريات جديدة، مكّننا من أن ندرك أجسن ادراك التنوع العجيب الذي توفره إفريقيا الوسطى طيلة العصور الحجرية. ان قائمة المصطلحات الموجودة صالحة حسب رأينا لأن يحتفظ بها كأداة عمل مؤقتة.

الخاتمة

ان ماضي إفريقيا الوسطى لم يعرف بعد معرفة كاملة لان دراسته لم تقع الا مؤخرًا بصفة شاملة. ولقد استطاع علم الآثار أن يأتي بشمراته الأولى. فلقد تضاعف خمس مرات عدد التواريخ بالكربون ١٤. وذلك في ظرف بضع سنوات. (ماري، فان نوتن، كاهن ١٩٧٧) ويمكن ان نتصور الخطوط العريضة للفرضيات الأولى (فان نوتن، وهي قيد التهييء).

ان الابحاث الجديدة كانت تربني أولا الى اجراء سلسلة من الحفريات تشمل المناطق وحقيبات مختلفة حتى نصل في أجل معقول الى وضع اطار تاريخي طبقي عام خاص بإفريقيا الوسطى. ولا بد أن نؤخر هذا المشروع الطموح الى الدرجة الثانية، لأن موقعا هاما مثل موقع كامبي قد قلب رأسا على

عقب لا المصطلحات الموجودة فحسب، بل حتى قيمة الملاحظات الطبقيّة الارضية، ووفرت مواقع أخرى مثل ماتوي صناعات جديدة تشكّك تواريجها في دمجها ضمن اطار واسع نجد فيه «صناعات» و «ثقافات» نهائيا «مكائها».

فبتقدّر ما نكتشف مواقع جديدة، يصبح من الواضح اننا نجد كل مرة شيئا طريفا وغير منتظر، وذلك ما يوافق احدى فرضياتنا العملية التي كانت تتصور تنوعا كبيرا جدا ضمن كل واحدة من «الصناعات» أو «الثقافات». لقد اضطر الانسان، أمام محيط صغير خاص أن يكيّف أدواته مع ذلك المحيط. وما علينا الا أن نتصوره في حدود موطنه وهويّ عيش عيشة أكثر استقرارا من عيشة الترحال المطلقة التي تنسب كثيرا الى الصيادين الجائدين، فعوضا عن ان يطاردوا دون هودة حيوانات الصيد، كان أولئك السكان قد طوروا ثقافة خاصة بهم، كانت تركيبا متناسقا بين المحيط وتقاليدهم الموروثة عن أسلافهم. ونحن لا نعتقد بجبرية البيئة جبرية مطلقة. فكلما استقر التوازن الميزولوجي، ظلت الادوات قارة طيلة أحقاب طويلة فلعلها تستجيب تماما لمتطلبات البيئة وأولئك السكان. وكلما دام هذا التوازن الدقيق، لم يوجد ما يخرّص الانسان على التطور بسرعة.

الفصل الثاني والعشرون

افريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ

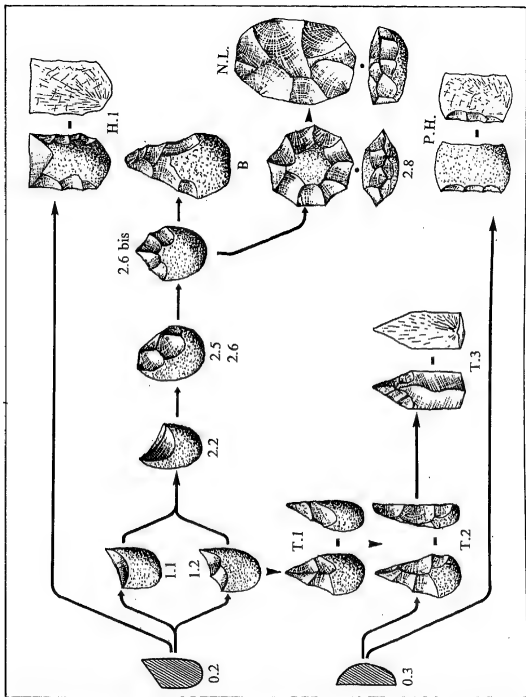
بقلم: ل. بالو.

ان بلدان المغرب نظرا لقرها من أوروبا ولواجهتها للبحر الأبيض المتوسط شمالا، قد جاب فيها منذ أكثر من قرن الباحثون الأوائل الذين كانوا يتطلعون لمعرفة الأحقاب السابقة لتاريخها. فتراكمت بذلك كميات هائلة من المراجع المتفاوتة قيمة فضلا عن الاستدراكات والايضاحات التي عدلتها ودعمتها (والتي أجريت سنوات ١٩٥٢م — ١٩٥٥م — ١٩٧٤م). ومع ذلك فلم يحافظ البحث المتعلق بما قبل التاريخ هذا الجزء من شمال افريقيا على ما كان يتمتع به منذ عهد طويل من تقدم وسبق. فالأبحاث رغم كل ذلك متأخرة في ميدانين أساسيين هما:

— طرق التنقيب والحفريات، باستثناء حالات نادرة جدا.

— الترتيب التاريخي المطلق، وهذا راجع أساسا الى امكانيات الاشعاع الكربوني.

ولقد حققت افريقيا الشرقية تقدما أحسن بكثير في هذين الميدانين. فنظرا لانعدام الأحفورات البشرية بالعهد البليستوسيني الأسفل، والتواريخ الحاصلة بطريقة البوتاسيوم أرجون، وفقدان المستوطنات منذ العهد الحجري القديم، لا يمكن لنا اليوم أن نعرف قدم استقرار البشرات في المغرب والصحراء إلا بالاعتماد على فرضيات حول علاقات الارتباط بين الحيوانات وغطت الصناعات الحجرية. ونظرا لانعدام رسوم طبقية أرضية كافية مساحة وعددا، يُقَسَّرُ إثبات تواصل الاستقرار الانساني وان كان هذا الاستقرار محتملا جدا. فالتأرجح الأساسية معزولة زمانا ومكانا، من ذلك ترزيفين (انسان الاطلس) بالجزائر مثلا. ولا تزال مشاكل الموستيري وعلاقاته بالعاطري، ومشاكل الانسان الحامل لهذه الحضارة الاخيرة، والانتقال من العاطري الى الايبروموروسي، والرسوم القابسية، والاحداث الخاصة بالعصر الحجري الجديد كل ذلك ينتظر حلا في أغلبها. ولقد



● تطور «ثقافة الحصى» نحو أشكال
الاشولي: والأرقام تشير إلى التصنيف
النطقي المستخدم لما قبل الاشولي في
أفريقيا. H = بلطة. (تصويرم. بولي).

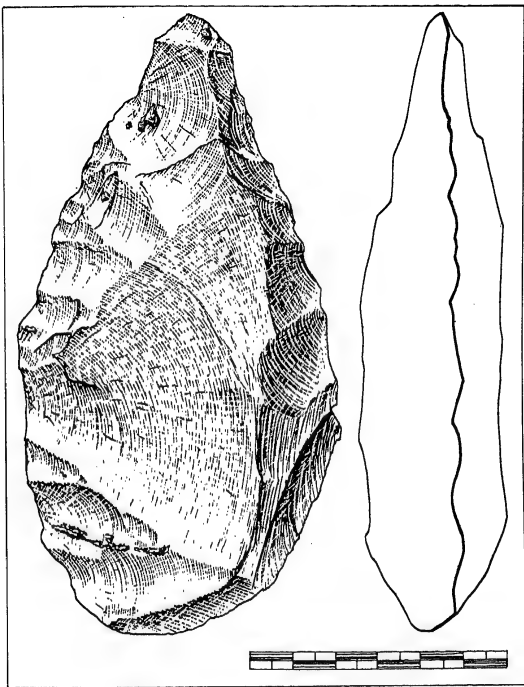
وفرت الأبحاث المتعلقة بما قبل التاريخ الكثير للتعرف على الدهر الرابع، مثل دراسة رسوم طبقية الأرض، والإحاثية، إذ أنها سمحت بإثبات وجود نوع تجاوزت أهميته حدود المغرب. لكن عليها في المستقبل أن تعتنق وجهة نظر إحيائية — اثنولوجية — أي التخلي عن دراسة «الإنسان ومحيطه» لتبني منهجية تعني أساسا بالإنسان في محيطه.

أقدم الصناعات البشرية ما قبل الأشولي

إن الشواهد وافرة إلا أن تأويلها تأويلا آخر غير نوعي، يعتبر أمرا دقيقا: فالتأويل يتركز على رسم طبقية الأرض في الدهر الرابع بساحل المغرب (بيبرسون)، وعلى الإحاثية الحيوانية في الجزائر (عين حنش بالقرب من سطيف، حسب حفريات س. ارمبورك) وبتونس (عين بريمة بالقرب من قبلي)، وتعتمد على النوعية فقط بالصحراء (رقان، وعين أفلاح، إلى غير ذلك...) وهكذا، يمكن أن ترتبط علاقات تقل أو تكثر متانة مناخ طانزانيا وكينيا وأثيوبيا. تعتبر تلك العلاقات ضعيفة لأن المناطق المغربية المتاخمة لسواحل المحيط الأطلسي هي وحدها التي سمحت بإثبات تطور نوع من «الحصاة المهيأة» على الأسس التي اعتمدها ب. بيبرسون والتي أصبحت فيما بعد محل نقاش وشك بصفة جزئية، باعتبار أن الحيوانات ليست بالضرورة متعاصرة، وباعتبار توفر وجود آثار من جهة، وبنية أثرية من جهة أخرى، ونظرا لاختلاف طرق التحليل النوعي المستعمل في إفريقيا الشمالية للفرنسية وإفريقيا الشمالية للمستعملة للانكليزية، الخ.

وليس من المحتمل في الوقت الراهن أن يكون حضور البشرات في المغرب والصحراء أقدم من وجوده في إفريقيا الشرقية والجنوبية، لأن الصناعات التي تعتمد الشظايا والتي سبقت الحصاة المهيأة لم تعرف، إذ لا وجود لأثار الشقافة العظمية السنية القربية. ولا وجود لبقايا الإنسان القرد (قرد الجنوب). وعلى كل فإن كل القرائن تجعلنا نرى أن الحصاة المهيأة الموجودة في كل من المغرب الأقصى والجزائر والصحراء، تنضوي تحت تاريخ مواز لتاريخ الأولدوواي، أي بين مليونين ومليون واحد من السنوات (وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار الحصاة المنحوتة من ذوات الوجهين الموجودة بالأومو يكون لنا مليونان ونصف من السنوات).

وهكذا انصب المجهود لإقامة علاقة ارتباط زمني طبقى/وتطور نوعي، مما أدى إلى إثبات قوائم نوعية لها انعكاسات زمنية، وهذا ما قام به ب. بيبرسون في شأن المغرب الأقصى، وهـ. هوغو ول. رمنندو في شأن الصحراء الوسطى، وهـ. آيبن وج. شافايون في شأن الصحراء الغربية. ولقد ارتكز التحليل على الخصائص التقنية التي تسمح ملاحظتها بتمييز أشكال منتظمة. أما التصنيف فيعتمد منهجا أساسه البداية من البسيط والتدرج إلى المعقد، أي الانطلاق من النحت ذي الوجه الواحد، فذوي الوجهين فتعدد الصفحات. ولا شك أن هذا التصنيف يندرج في نطاق الترتيب التاريخي الخططي. ولقد وضع ب. بيبرسون في إطار الدهر الرابع بالمغرب الأطلسي، وج. شافايون فيما يتعلق بإراضي الساوره نظما ذات قيمة جهوية على الأقل. واعتمادا على الإحاثية وضعت أشباه الكرات ذات الوجوه التي تنتسب لعين حنش في نطاق تطور حيوانات الفيلافرنشي، كما هي معروفة في المغرب (فؤارة) وفي الجزائر (عين بوشريط وعين حنش) وفي تونس (بجيرة أشكل وعين بركة).



● أداة ذات وجهين مسن الاشسولي،
وهي الأكثر تطوراً من موقع ترليفين
(الجزائر الغربية)، جفريات أرميورك
(١٩٥٤)، رسم م. دوقوا.

وعلى كل حال فإننا نعتمد على الرسوم الطبقية الأرضية للقبلا فرنشي المؤسسة في جملتها على الاحاطة الحيوانية. فتبرز في هذه المجموعة الصناعات البشرية التي يمكن اثبات تطورها نحو ذوات الوجهين والقذومات الخاصة بالعصر الحجري القديم الأسفل، على أنه لم تتوفر لدينا أية بنية أثرية وذلك يعني انعدام أي اطار إحيائي اثنولوجي، عكس ما هو موجود في طانزانيا (أولدواي) وكتينيا وأثيوبيا.

الصناعات الأشولية

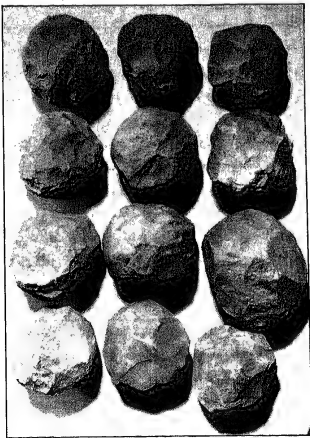
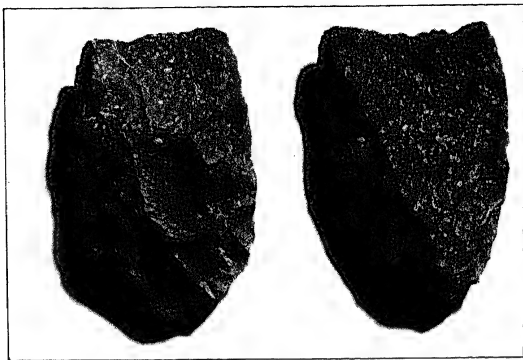
لقد أصبحت عبارة «الأشولي الافريقي» منذ ندوة بورك فارتشتاين سنة ١٩٦٥ م ومؤتمر داكار (١٩٦٧ م) المتعلقة بما قبل تاريخ افريقيا - تشمل كامل العصر الحجري القديم الأسفل الذي يوافق بأوروبا الغربية، العهد الأفييلي والعهد الأشولي وكذلك العهد الكلاكتوني والعهد اللوفالوازي اللذين يعتبران عمل نظر.

فالأشولي وافر جدا في بلدان المغرب، ويتمثل اذا ما نحن تركنا جانبا المحطات الموجودة حاليا على سطح الأرض في ثلاثة أنواع منجمية لها خصائصها:

أ) نوع من المناجم التي لها علاقة بالدهر الرابع الساحلي والبري وحتى البحري ويتمثل ذلك خاصة بالمغرب الاطلسي حيث تمكن ب. بيبرسون من تقديم مقطوعة أشولية اعتمادا على الحصة المهنية التابعة «لثقافة الحصة» في العهد السابق للأشولي، ومنتهية الى العصر الحجري الأوسط (العاطري). أما الجزائر فليس لها حظ في ذلك لأسباب ترجع الى الجغرافيا المورفولوجية الساحلية، وان كانت بعض «المناجم» موجودة على ساحل القبائل (جيجل) وقرب عنابة. وبالنسبة للسواحل التونسية فإنني لا أعرف مناجم أشولية من هذا النوع.

ب) المناجم التي أصلها من الطمسي النهرية أو البحرية، فالنوع الأول أندر وأضعف مما هو موجود في أوروبا، والعلاقات بينها من حيث طبقات الأرض، ومن حيث الحاحة غامضة جدا في أكثر الأحيان. وذلك هو شأن عدد من المناطق المغربية (وادي الملاح) والجزائرية (أوزيدان قرب تلمسان وشابلان قرب المدية) وتامدا (بوادي سباعو) والمنصورة (قسنطينة) وكلا فونتين (شمال تبسة) والبنايكية وخصوصا الماء الأبيض جنوب تبسة. وفي تونس، أشولي الرديف (قصة). أما المناجم القائمة على ضفاف البحيرات وما أكثرها في إفريقيا الشرقية، (مثل أولور كاسيلي بالكتينيا)، فهي لا تكاد تستحق الذكر. هناك مثلا بحيرة القرار (تلمسان) ذات الحفرات القديمة جدا والتي قام بها م. بول بصورة منقوصة، وكذلك مناجم أبو الحيز بمستغانم التي بقيت الى الآن غير معروفة. ولقد برز منجم واحد من هذا الغموض، ونعني بذلك منجم سيدي الزين (بالكاف في تونس) حيث يوجد فيه مستوى من القذومات بين اثنين آخرين من ذوات الوجهين ليس فيها قذومات. على أن الأشولي المرتبط بترسبات بحرية أمر مشهود بصفة منتظمة من موريطانيا الى ليبيا.

ج) المناجم التي لها علاقة بعيون جوفية قديمة. ويبدو أن تلك العيون كانت تجذب الانسان بين الاشولي الى العاطري. وذلك أولا شأن تيط مليل (بالدار البيضاء) وعين فرطيسية (بجنوب وجدة في



- (١) أشولي من منطقة تيودارين للكثبان الرملية: بلطة من الريوليت.
- (٢) شوكة موسيرية، العتار (تونس) حفریات الدكتور غرويه
- (٣) عين حانش، «كرويات متعددة الوجة» (تصوير م. بوفي).

المغرب، وبحيرة كرار بالجزائر التي سبق ذكرها، وكذلك الأمر بالنسبة لشمسة (بسكرة) التي لا نكاد نعرف عنها شيئا وخصوصا مناجم ترينفين (معسكر). و يعتبر هذا الأخير المنجم الوحيد الذي حظي أخيرا بجغرافيات منتظمة (١٩٥٤ م - ١٩٥٦ م) قام بها الاستاذ س. أرمورك بطلب من الجزائر. إلا أنه لا ينبغي أن نتوهم ما يتجاوز الواقع فما لا شك فيه أن الصناعة التي عر عليها هامة جدا، وإن بقايا الحيوانات تمثل ثروة كبرى، وإن إنسان الأطلس اكتشف هنا. ولكن التكوين الطبقي لهذا المنجم الجميل يثير مشكلا، لأنه يترك الجناح الزمني المتضمن لمجموع الوثائق مفتوحا جدا، ولعل ذلك ينطبق أيضا على طبيعة الموقع بالذات: أفلا تسمع الرمال التي حولتها بدون انقطاع الينابيع الجوفية بوضع تاريخ طبعي؟. ذلك ما لا يمكن أن نبرهن عليه ويبدو أن دراسة الأدوات تدل على أن الأمر لا يتعلق بمشاكل للنحت، بل بمكامن للصيد.

إن الأشولي المغربي والصحراوي ليس مخالفًا أساسا للأشولي الذي ضبط بفرنسا. والدراسة التحليلية (بوردي ١٩٦٦ م وبالوت ١٩٦٧ م) لا تدل على ابتكار كبير في صنع ذوات الوجهين. وكذلك الشأن بالنسبة لذوات السطوح المثلثة. ثم إن وجود بعض الشظايا، وصناعة صغيرة بترينفين مثلاً، ليسا أمراً مستغربا. ولقد ظهر استعمال القداحة اللينة في غضون أواخر العهد الأشولي القديم (النحت أو إعادة النحت): فلم توجد منها إلا قطعة واحدة ثابتة بترينفين (من ذات الوجهين). ثم أننا نلاحظ ظهور «ضربة الشفرة» في تخلص الحد الذي يفصل بين السطوح الثلاثة. على أن الابتكار الأساسي الذي أكدنا عليه منذ زمان يتمثل في المكانة التي تحتلها القدامات ذات الشظايا ولعله من الخطأ اعتبارها أداة (نوع من الفأس) خاصة بأفريقيا، فعلا فليست هذه الأداة موجودة دائما في الأشولي بأفريقيا (وهي مثلا ليست معروفة في الآثار الهامة الموجودة في الماء الأبيض، إن أردنا ذكر مشال واحد من الجزائر) ولكنها موجودة من الشرق الأدنى إلى الجزيرة الهندية. ولقد أدى وجودها بأسبانيا (ريومانزانيس، قرب مدريد)، وعبرها إلى جبال البريني أدى هذا الأمر. هـ. أيمن إلى إعادة النظر أخيرا (١٩٧٥ م) في مشكل عبور جبل طارق قبل ملاحه العهد الحجري الجديد بكثير. فقد استنتجت من ذلك وجود برزخ مرتفع وأصبح ممكن العبور خلال فترات الانحسار الرئيسي.

ويرجع الفضل إلى ج. تكسي من أجل تحليله الممتاز لأنواع القدامات المغربية. وذلك ما يستحق إبداء ملاحظتين هامتين: تتمثل أولهما في ظهور طريقة لوفالوا في قطع الحجارة منذ العهد الأشولي القديم، والتي أدت إلى التوحيد المدهش الطارئ على القدامات المسماة تايلبالت تشنق (بغربي الصحراء الجزائرية). وتتمثل ثانيتهما في تقنية «الشظايا النووية» التي سمحت بالحصول على شظايا لها وجهها انفجار متقابلان يكوّنان حافة قاطعة حادة (وهي تقنية الكومبيج بأفريقيا الجنوبية فهل أن أفريقيّا هي التي قامت فيما بعد بنقل طرق هي على غاية من الإكتمال إلى أوروبا، حيث لعبت الطريقتين الأولى على الأقل دورا هاما جدا قبل العصر الحجري القديم الوسيط؟).

ولقد كان الأشولي يعرف دائما على أساس أثري. وتغطي صناعات ذوات الوجهين جوديين (منديل - ريس) كذلك الجمودي الفاصل بينها والمراحل التي تحزّتها. وقد حاول ب. بيبرسون إيجاد التوازن بين فترات التعدي والانحسار البحري: فالاميري يوازي المنديل، والأفغوي يوازي الريس،

والتشسفي يوازي الريس. الا ان هذه العلاقات التوافقية تبقى دائما افتراضية. و يعتبر الامتداد في عهد ما بين حمودي ريس — فورم أمرا مقبولا.

ونظرا لتعذر ضبط التواريخ بدقة فاننا مضطرون الى ان نعتد على علم الإحاطة وذلك أن الحيوانات بدأت تفقد عناصرها الباقية من العهد الفيالفرنشي الأعلى لتصبح «حيوانات تشاد وزمير الكبرى» كما سماها س. ارمبورك. لكننا لا نعرف الى حد اليوم الحيوانات الصغيرة والنباتات الموجودة بترينفين.

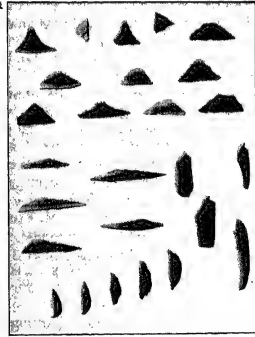
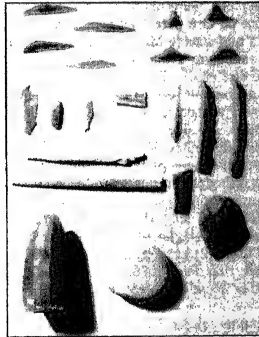
وماذا عن الانسان الأطلسي أي انسان ترينفين؟ وعن انسان المغرب (انسان الرباط) وعن انسان سيدي عبد الرحمان (الدار البيضاء) الذي ينتسب الى الانسان المستقيم؟ ان هؤلاء الناس المردة القريبين جدا من انسان الصين (بيكين) لا يمكن ضبط تواريخها الا بكثير من التجاوز أي على الأقل من ٤ الى ٥٠٠ ألف سنة وهو ما يعتبر فرضية مقبولة. و يغلب على الظن ان أولئك الناس قد عرفوا النار. وكانت لهم لغة بدائية إن المغرب لا يوفر لنا شيئا في هذا الشأن.

الموستيري — العاطري

قلت في مقال كتبت في ١٩٥٥م بأنني أشك في وجود عهد موستيري مستقل في إفريقيا الشمالية. الا ان الدكتور كوبرت قد أثبت بشدة، وكان على حق. ثم عدلت فيما بعد (١٩٦٥م) موقفي الاول، الا أن ذلك لم يحسم المشكل بل غير موضعه. فمن المؤكد أنه كانت توجد في بلدان المغرب مناجم موستيرية ولكنها كانت واقعة في ظروف جغرافية لا تكاد تصدق، ومخالفة جدا لكل المفاهيم المتعلقة بعرقية ما قبل التاريخ. ومن ذلك ستة مناجم لا نزاع فيها بتونس وهي مناجم سيدي الزين (الكاف) وعين عروثة (القيروان) وعين مثرشم (جبل الشعاني) وسيدي منصور (بقفصة) والقطار (قفصة) ووادي العكاريت (بقابس). و يوجد منجم واحد بالجزائر هو منجم الرثايمية (وادي شلف)، وثلاثة بالمغرب (تافوغالت بوجدة — كيفان ابن الغماري (تازة) جبل إغود. ولا يوجد أي منجم بالصحراء، والحقيقة ان المواقع السابقة للعهد الموستيري واللاحقة له تعد بالمشات. مع العلم أن هذه القلة لا تدل على قصور الأبحاث لأن إكتشاف العهد الموستيري كان شغلا شاغلا لدى مؤرخي ما قبل التاريخ المتكويين في فرنسا، حيث يكثر عدد المناجم مثلما هو الشأن في الجزائر الايسرية والايطالية انطلاقا من جبل طارق. وكمثال، تقصّل ٨٠٠ كلم سيدي الزين بالكاف عن الرثايمية، و٣٦٠ كلم الرثايمية عن كهف تافوغالت ثم ٧٠٠ كلم للوصول الى جبل إغيد والأمهرنا يتعلق بموستيري متميز يمكن أن يدمج في المظاهر الأروبية، لاسيا المظاهر المقطوعة بحسب تقنية لوفالوا. ونجد في المناطق الواقعة بين الطرفين، ما يشهد على وجود البشر: من ذلك النياندرتاليون بجبل إغود وأقدم أثر قوقوسي معروف أي «الكارين» أو «هرميون» في القطارة وهو الذي لم يبق منه بارزا سوى قته في التبع الذي سمي باسمه. وباستثناء ما هو موجود بوادي العكاريت فاننا لا نجد أي منجم موستيري ثابت قريب من السواحل. لكن أين كانت اذن سواحل شط. قبابس؟ ان الموستيري المغربي لم يأت الا من الشرق. ولكن ما يثير الانتباه في شأن الموستيري هو أنه سرى ما طرأ عليه تطور فريد. فلقد تحول بعين المكان الى عطاري. وعند تطبيق

لقواعد التصنيف الجيولوجي تطبيقا يعتمد على «أحدث الأحفورات» اعتبرت من العطارى كل المناجم ذات الصناعة الماستيرية التي يوجد فيها رؤوس عطارية ذات ساق (مثل الصناعات الموجودة بالقطار وعين المشرم وغيرها). واعتقد أن ذلك دليل قاطع على المعاصرة بين الماستيري والعطارى بل أرى أن الماستيري المغربي قد طرأ عليه تحول مغاير لتطور كل أنواع الماستيري الأخرى. ولقد بين ج. تكسي بصفة قطعية أن الأمر لا يتعلق بزيادة في الرؤوس أو المكاشط ذات الساق بل يتعلق بتحول مجموعة تضم ثلاثين شكلا من ماستيريا وعاطريا، وذلك بنحت ساق في القاعدة. أما في أوروبا وبالأخص في فرنسا فلقد اتبع المركب الماستيري طرقا أخرى. وكانت هذه الطريقة جديدة مما جعل البعض يميزونها عن غيرها، وذلك ما لا يعقل: ومفاد ذلك أن العطارى ليس سوى مظهر متطور من الماستيري خاص بجزء من إفريقيا. فهو يقدم مقامه، حتى من حيث الترتيب الزمني. إن تعريف ر. فوفري الذي يقول بوجود عهد عطارى في العصر الحجري القديم الأعلى، لم يعد ذا جدوى. فلقد تحدث البعض من المؤلفين القدامى عن «ماستيري فيه أدوات ذات ساق» مثلما نقول نحن اليوم بوجود «ماستيري فيه أدوات مسننة». ونظرا لكون الصناعة التي عثر عليها في المنجم الحامل لاسم العاطري، (وادي الجبابة، قرب بئر العاطر بجنوب تبسة) لم تحلل أبدا تحليلا إضافيا دقيقا من طرف واضعها، فإن لفظة «العاطري» تبقى كما قال م. أنطوان «اسما بدون معنى». ونظرا لكونه يعتبر تطورا سابقا لأوانه قد طرأ على الماستيري ودام مدة طويلة جدا وانتشر في المغرب والصحراء شمالا وجنوبا فهو في نفس الوقت النظير الزماني لجزء من العصر الحجري القديم الأوسط وعلى الأقل لبداية العصر الحجري القديم الأعلى.

إلا أن معالمتنا الزمانية ما تزال تعوزها الدقة. و يعتبر ما اقترحه ج. كامبس من مقاربات بالتواريخ التي تحصل عليها ماك بوري في برقة ضعيفا، لأن ماهية الصناعات لم تثبت بتاتا. فالعاطري محل نقاش (كامبس) والايبيرو-موروسي لا وجود له (تكسي). ولقد أمكن ضبط علاقات طبقية أرضية متصلة بالدهر الرابع القاري أو البحري، سواء بالصحراء أو في بلدان المغرب. وذلك بالاعتماد على تأريخ نسبي أوتار يخ مطلق، فلا يمكن أن نعتبر الألفية الأربعين قبل الميلاد بآية حال التاريخ الأقصى الذي يمكن اعتماده لظهور العاطري. إن انزعاجنا في هذا الشأن يرجع إلى قلة فاعلية الكربون ١٤ فالتواريخ المتحصل عليها في شان المغرب والصحراء محصورة فيما بين ٣٧ ٠٠٠ و ٣٠ ٠٠٠ سنة قبل الميلاد وهي تواريخ منسجمة تدعوا إلى الاطمئنان. ولذلك نعتبر أن العاطري هو عهد حجري قديم أوسط في أولى مراحله ثم أصبح فيما بعد معاصرا للكستلبروني الأورينيسياسي، أي للجزء الأول من العصر الحجري القديم الأعلى بفرض على الأقل. إن علاقته مع تشكيلات الدهر الرابع متطابقة. وقد يحدث أن يعمر العاطري الشواطئ والتربة الجديدة التي انكشف عنها الماء عند بداية انحسار البحر الكبير الأخير (مثلا بالخروبة قرب مستغانم مغربي الجزائر). إن نهاية هذه الفترة الفاصلة الرومية (ورم ١/٢) قد حصلت في حوالي ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وترجع التشكلات البرية التي كانت عموما محمرة وغنية من حيث العاطري والتي كانت تغطي تلك المناطق المغمورة تحت البحر الحالي، ترجع إلى الانحسار البحري الذي بلغ خمسين ومائة متر (١٥٠٠ م).



- (١) أنثري من وادي جوف الجمل (الجزائر الشرقية): شوكات ومكاشط ذات سيقان تعليق، ومكاشط أو محكات، ونويات لوفالوا (تصويرم. بوفي).
- (٢) الصناعة النبطية للكابسي (تصويرم. بوفي).
- (٣) صناعة الأسلحة في الكابسي الأعلى: مثلثات مختلفة الاضلاع، ومتوازيات اضلاع وازاميل صغيرة، ومناشير، ونصال متعددة الحزونة الزميل زاوية. من وعارن ومكاشط، ونويات عذدة، الخ. (تصويرم. بوفي).
- (٤) القابسي الاعلى: أحجار صغير هندسية الاشكال (متوازيات اسرع، ومثلثات مختلفة الاضلاع، وأهلة، وازاميل صغيرة) (تصويرم. بوفي).

ان ضبط. نهاية تاريخ العهد العاطري لدقيق جدا. ان فتح الصحراء أمر، كما أن التطور التقني الصناعي المتجه الى أشكال تؤذن بالعصر الحجري الجديد أمر آخر. ويعتبره. هو كون العاطري لم يتجاوز حد البحيرات الكبرى ذات المشطورات، والتي كانت مليئة بالماء الى الألفية السابعة قبل الميلاد. الا ان البرهان على هذا العاطري السابق للعصر الحجري الجديد لم يتم بعد، رغم ما في الفرضية من اغراء كبير. فنحن لا نعرف صناعة فاصلة. ولقد أخذت العقبة الأساسية ذات الطابع الانثروبولوجي تتلاشى لأن كل الاكتشافات الاخيرة التي وقعت بالمغرب تدعم الفرضية القائلة بأن الانسان العاطري ليس انسانا نياندرتاليا مثل موستريبي جبل إغود، بل قد أصبح انسانا عارفا.

العصر الحجري القديم الأعلى والعصر الحجري الوسيط

ومهما كانت امتدادات العاطري في الصحراء، فقد طرأت أمور أخرى ببلدان المغرب وليس من المفيد هنا ان نستعرض تاريخ تفنيد فرضيات ر. فوفري التي كانت تعد حجة مدة طويلة. اذ نرى انه يحسن بنا أن نضبط وضع المعارف الحديثة التي تنتظم حول أربع أفكار جوهرية نستعرضها فيما يلي:

— ان العهد الايبيري—موروسي الذي كنت مساهمت في فصله عن القابسي لأسباب انثروبولوجية وباليتولوجية، هو أقدم مما كنا نعتقد. فهو معاصر للمكديني الفرنسي وبذلك فهو عبارة عن حضارة تنتسب الى العصر الحجري القديم الأعلى.

— ان الخصومة التي كانت قائمة بيني وبين ر. فوفري والدكتور كوبرار والمتعلقة «بأفق كولينيون» قد انتهت، وذلك ان الصناعة ذات الصفحات التي تقترب من الايبيري—موروسي أكثر من القابسي سابقة بكثير لهذا الأخير.

— ان التمييز الذي أقامه فوفري والمتعلق بعهد قابسي «نغودجي» فوقه عهد قابسي «أعلى» أو مستطور قد تلاشى لترك المجال لفكرة تقضي بتدغل الصناعات القابسية وتعتمد على مجموعة كبيرة من التواريخ الراديومترية التي تقنع.

— ان العصر الحجري الجديد ذا التقاليد القابسية الذي ابتكره ر. فوفري على أسس ضيقة جدا والمستند الى جزء كبير من افريقيا ينبغي ان يحصر في حدوده الأصلية وأن يترك المجالات الشاسعة المأخوذة باطلا لمظاهر أخرى عديدة من افريقيا التي أخذت تدخل في العصر الحجري الجديد.

الايبيرو—موروسي

لم يبق مقبولا التعريف القديم للمؤرخ بالاري (١٩٠٩ م) الذي لا يزال يستشهد به. ذلك أنه كان أكد تكاثر التقنية المتمثلة في الحاشية المكوفة بالصفحات والتي كانت تخصص بها كل الأدوات الحجرية. وكان علينا أن نتنظر التحاليل الدقيقة الانموجية التي قام بها ج. تكسيي ليحل

مجموعة من التقنيات الدقيقة محل تقنية عامة، وذلك ما كان أدركه نوعا ما بعض مؤرخي ما قبل التاريخ لا سيما الدكتور كوبريتونس، ان استئناف الحفريات التي قام بها أ. سكسون في منجم تامرهات (كورنيسش بجاية بالجزائر) قد سمح بالحصول على تواريخ نظرية قديمة جديدة وبفهم أحسن لصيادي الأروى القاطنين بالمغاور الساحلية التي تفصلها عن البحر المستنقعات ومنطقة قارية مرتفعة عن البحر وثرية بالمحارات. ان الايبيرو-موروسي هو عبارة عن حضارة ساحلية وتلية قد عرفت مع ذلك، توغلات قارية منها منجم كلمناتا الذي لا يشك فيه (تاهرت بالجزائر) وذلك لا يمنع من ان تكون منطقة طنجة وشاطئ الساحل التونسي فارغين. فان كان الايبيرو-موروسي مفقودا كليا في تونس جنوب وادي مجردة فذلك يعني أن أحداثا قد وقعت بها وتستحق أن نتعرض لها في ما يلي:

ان الأدوات الايبيرو-موروسية فقيرة حتى ولو حللت تفصيلا. ولقد أكدت بعض المئات من المناقش الصغيرة التي عثر عليها بعد الحفريات بمدة طويلة، في المنجم الأثمدجي للمويلح (بالقرب من مغنية بالجزائر)، انها كانت مرتبطة بصناعة الحدود ذات الرؤوس المثلثة (المسماة بمجد المويلح) وليست حجارة بركانية هندسية مثلما هو الشأن في العهد القابسي. ان الصناعة العظمية فقيرة جدا ولم تتوفر الا شكلا طريفا واحدا وهي «المقعدة». فلم توفر أثاثا ولا فنا جداريا، والحال أننا في عهد أنتييرا، ولاسكوى، وأن الناس سواء أكانوا في شمال البحر المتوسط أو في جنوبه هم من جنس يشبه الكرومانيون، والمتمثل هنا في نموذج «مشتى العربي».

ولم تثبت الفرضية التي أصبحت اليوم تقليدية والقائلة بوجود أصل شرقي قد تفرع عنه تيار الكرومانيون الأوربيون المتجه نحو شمال البحر المتوسط، وتيار آخر هو تيار المشتى العربي المتجه الى الجنوب على طول السواحل الافريقية. الا أننا اذا ما أخذنا بعين الاعتبار المستوى الانثروبولوجي يمكن لنا أن نعتبرهم متحدرين من النياذرتالين بواسطة الانسان العاطري. ولكن هذه الفرضية - مهما تكن مغرية - فانها لا تفسر بحال وجود صناعة، لا أثر فيها لأي وجه شبه بالموسيري العاطري. فالقول بأن الايبيرو-موروسيين ليسوا اصحاب تلك الحضارة ليس قولاً معقولا لأن تلك الحضارة لا تعتمد على جذور محلية. الا أن ذلك لا يمثل المشكل الوحيد: أن أولئك المغاربة «الكرومانيون» يشتمون على جمبول وتجاهات تتنافى مع ما نعبده عند أهالي أوروبا، ان صناعاتهم المحلية المعاصرة للمكديني، أو على الأقل لبدائته هي «ميزوليتية» (نصف حجرية) الى درجة أن البعض كان يسميها صناعة «أزلية بربريسكية».

ان صناعاتهم العظمية ليس لها أي ارتباط بصناعة المكدينيين ولم يكن لديهم فن أثاث ولا رسم جداري رغم الزعم بوجودها في المغرب. ومع هذا، فقد تمكنوا من البقاء الى العصر الحجري الجديد واستطاعوا ان يستعمروا أرخبيل الجزر الخالدات حوالي نهاية الألفية الثالثة قبل الميلاد. وتوجد أشياء أخرى تختص بها بلدان المغرب عمليات قطع الأسنان والمقابر المحفوظة في المغاور أو في الملاجئ (أفلو بالرميل بالجزائر- تافورالت بالمغرب) والمعالج الماتمية (كلمناته).

«أفق الكولينون» والصناعات الصفيحية الأخرى السابقة للعهد القابسي

لقد ثبت اليوم بالحجة وعلى أسس طبقيّة أرضية وجيومرفولوجية ان الصناعات الصفيحية بالجهات التونسية المتاخمة للصحراء (قفصة ومناطق الجريد...) كانت سابقة لكل المراحل القابسية. ان أفق كولينون بسيدي منصور (قفصة) مقمّم ضمن الطمي النهري، وتميّز مرحلة توقف الترسيب في وسط البحيرات بتشكيلات جسيمة هامة. وبعدها استؤنفت مرحلة الترسيب عادت الى التوقف بخسوف حوض قفصة الذي تلاه الانحراف. ولذلك فالقابسي الانموزجي المتطور يحتل الدرجات الأولى من ذلك الانحراف بله الهضاب التي تقوم مقام الشواهد. فلا يمكن تحديد المعالم التاريخية تحديدا دقيقا، الا على سبيل القول بان الترسيب يعود الى المستيري. ولا يمكن ان تقارن تلك الصناعات الصفيحية بالاببيرو-موروسي الا على أساس اختلافها عن القابسي اختلافا نوعيا. وذلك لأن نموذجها مختلفة باستثناء تكاثر تقنية الحافة المعكوفة. وينبغي البحث عن الأصل بالاتجاه نحو الشرق (برقة، مصر، الشرق الأدنى). وتوجد صناعات أصيلة أخرى من العصر الحجري اللاحق وتندرج بين العهد الاببيرو-موروسي والمظاهر القابسية وتتميز «الكولنتاني» الذي تنتسب اليه المقبرة بصناعة ميكروليتية (حجارة صغيرة) خالصة وذلك في الألفية السابعة. ولقد عرفت مواقع أخرى أهمها ملجأ كدية كيفان الهدى (عين مليّة بالجزائر الشرقية) حيث تعود الصناعة السابقة للقابسي الى الألفية السابعة أيضا.

ولقد اقترحت عبارة «ايلاسوليتيك» لتعبر عن هذا المجموع الميكروليتي المتطرف المرتبط بنوع من الحياة التي عجزنا عن تعريفها. وقد لوحظت مظاهر أخرى بالجزائر الغربية أهمها «الكرمي» «والكريستيبي» اللذان يرجعان الى الألفية الثامنة وهما يوجدان على ساحل وهران. ان القائمة ما زالت مفتوحة وفي الواقع يوجد مجموعة كبيرة من الصناعات بين العهد الاببيرو-موروسي الذي يعتبر بصفة عامة من العصر الحجري القديم، وبين العهد القابسي، كما هو الشأن في الصناعات التي نعرفها في الميزوليتيك الأوربي.

المظاهر القابسية

لقد كانت «المجموعة القابسية» تمثل الحجة الرئيسية لفرضيات ر. فوفري الذي يستعمل: القابسي «الانموزجي - الأعلى» - «ذو التقاليد القابسية». فان كان ذلك الهيكل البسيط محل تهجم على أساس التواريخ الاشعاعية الكثيرة خاصة، فينبغي الاعتراف بان التعرف على المجموع يحقق التقدم المنتظر منذ عشرين سنة. ذلك أن سر الحفريات في «الحلزونيات» لم يجد وسيلة للعثور على التركيبات الطبقيّة الأرضية ولا على الهياكل الأثرية، باستثناء حالات نادرة جدا. فما دامت التقطيعات الطبقيّة العديدة لم تسمح بمشاهدة تناضح مختلف المظاهر القابسية فاننا سنعتمد في المعاصرات والمقطوعات على أساس تواريخ الكربون ١٤ وذلك ما لا يوفي بما يوفي به تكون طبقي أرضي.

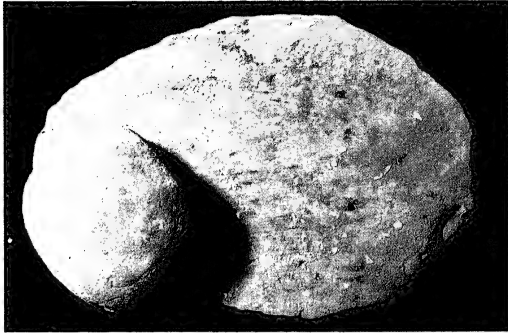
وبما أن تناقض القابسي الأعلى والقابسي النوعي في مستويات عديدة أصبح امرأ ثابتاً فإنه سيظل منطلق كل تصنيف، وتكون المناجم في هذه الحالة أو تلك عبارة عن أكداش من الركام المختلط رماداً وحجارة محرقة وقواقع الحلزون التي تمد بمئات الآلاف وعظام الحيوانات التي استهلكها الإنسان وصناعاته الحجرية والعظمية وأشياء للزينة وللأثاث وبقايا انسانية الخ. ويتضح لنا أن نتصور مساكن تحت الأكواخ تسببت في أكداش تلك البقايا وقد تكون نوعاً من الأكواخ التي بنيت بالقصب يضم بعضه إلى بعض بواسطة الطين. هذا إذا ما أخذنا بملاحظة قديمة جداً مع الأسف وقعت في منطقة خنشلة (بالجزائر الشرقية).

وتمتاز الصناعة الحجرية للقابسي التوجزي بنوعية رفيعة على العموم، وتحتل نقوش الزاوية على البلوقة مكانة ممتازة. وكذلك الأمر بالنسبة للشفرات الكبيرة ذات الحافة المعكوفة والظهر المنحضب والمسماة أحياناً «بالسكاكين». وتمثل الشفرات ذات الحافة المعكوفة نسبة تقدر بالربع إلى الثلث من الأدوات الحجرية المتحصل عليها أحياناً بتهديب بقايا النقوش (الابرة المستقيمة التي يستعملها كوبر). وهناك مناقشات صغيرة لم تأت مثلها هو الشأن في الأبيرو-موروسي من صناعة «حدود المويلح» بل من حجارة صغيرة هندسية (مربعات منحرفة — مثلثات أخمعية). أما الصناعة العظمية فهي فقيرة. والمهد القابسي الأثوذجي ليس معروفاً إلا في منطقة محدودة جداً، فهو مبعثر على الحدود الجزائرية التونسية، في الجنوب من خط العرض ٣٥، أكثر من شماله. وهو لا يغطي إلا الأنفيس السابعة إذا ما اعتمدنا على التواريخ الراديومترية، ونتيجة لذلك فقد يكون في هذه المنطقة ذاتها معاصراً للقابسي «الأعلى» وهو أمر مخالف للتكوينات الطبقيّة الأرضية المعروفة ولن أقنع بهذا إلا عندنا يتبين وجود القابسي «الأعلى» تحت القابسي الأثوذجي! فن أين انبثق في هذه الحالة هذا القابسي الذي اتفق الناس جميعاً على نعتة بالمتطور؟ ثم إن صانع حضارة القابسي «الأثوذجي» يكاد يكون مجهولاً لدينا...

وقد وفر لنا القابسي المتطور كثيراً من المظاهر التي اجتاحت الغرب الجزائري وجزءاً من الصحراء على الأقل. وإن الأمر يستوجب ملازمة الحذر، ولا نرتكب الخطأ الذي وقع فيه ر. فوفري بأن مدد «عصره الحجري ذا الثقالييد القابسية» بإضافات متواصلة إلى جزء كبير من القارة الأفريقية...

وإذا ما استثنينا ما سمّيته «المظاهر التيسية» (المثقلة بالأدوات الكبيرة التابعة للقابسي الأثوذجي) فإن القابسي المتطور يتميز بصناعة تتكون من أدوات صغيرة الحجم وغنية بالحجرات الهندسية التي عادة ما تكون رفيعة فنياً وتقنياً، خاصة فيما يتعلق بالمثلثات وبعض المثلثات المنحرفة فالتعويضات التي وقعت على أسس إحصائية ليست صالحة، لأن الأمر يتعلق بمجموعات متاحف وباختيارات وانتقاء لحفريات أجريت بصفة رديئة ومتقطعة كما يتعلق «بطبقات» مصنعة يختلف سمكها من باحث إلى آخر. ولقد عرفت مجموعة حلزونية درستها بعين ذكارة إقامة بشرية امتدت ألف سنة أي من أواسط الألفية السابع إلى منتصف الألفية السادسة قبل الميلاد. فهل يحق أن نميز صناعتها بالإلتقاء إلى طريقة إحصاء شامل؟

إن القابسي «الأعلى»، بنزوله إلى الألفية الخامسة وعلى الأقل عند توسعه الشمالي قد دام حتى طرأ العصر الحجري الجديد الذي امتد بدوره على حقبة طويلة جداً. وهكذا يمكن لنا أن نؤيد وجود



١٥) هاون وسنق به آثار من الفحم
والمغرة وشظايا من قواقع هليكس.
الحجري الحديث من التراث القابسي
في داموس الاخضر الجزائر الشرقية
(تصوير م. بوفي)
٢٥) لوحة جيرية محفورة، القابسي
الاعلى في خنفة الموحدين، الجزائر
الشرقية. (تصوير م. بوفي).



المعاصرة في مناطق مختلفة بين صناعات كل من العهد القابسي الأثوذجي والأعلى وبين العصر الحجري الجديد ذي التقاليد القابسية.

وهكذا تكون الحضارة القابسية قد دامت ما يقارب ٢٠٠٠ سنة، أي بضعة قرون أقل من العهد الفرعوني بمصر. وإذا عجزنا عن كتابة تاريخها فانه يمكن لنا أن ندرك على الأقل العناصر الأساسية لجنس بشري، فالإنسان القابسي لا ينتسب الى النوع الكرو-مانويثيد الموجود بمشقي أقالو: بل هو إنسان من حوض البحر الأبيض المتوسط، مثاله الأثوذجي المحفوظ في ظروف طبقة أرضية لا جدال فيها، هو الإنسان الموجود بعين ذكارة (بتسبة) الذي يرجع الى نصف الألفية السابعة.

إن المساكن القابسية تعد بالآلاف وكل واحد منها دام قرونا وتجاوز حتى الألفية من السنوات. إن مثل هذا الاستقرار السابق للعهد الرعيي وللعهد الفلاحي يستحق التنويه، رغم أن الأمر يتعلق بأكوخ مصنوعة من القصب والأغصان المدعمة بالطين أو المشدودة بالجلود. أما الصيد فلم يكن له دور أساسي، خاصة إذا نظرنا الى قلة بقايا الحيوانات، لا الى تنوعها. فالرخويات البرية تحل مكانة لا يستهان بها. ولقد كان جني الحُصَر يلعب دوراً ضئيلاً. فلا «المناجل» الموجودة بأكوامها ولا الكرات الحجرية المثقوبة ولا المدقات ولا «أدوات الحصاد» تصلح أن تكون حجة تثبت وجود الفلاحة.

وكان الإنسان القابسي يدفن الموتى حسب طقوس متغيرة مختلفة أهمها الوضع المصططع الجانبي المنحني. أما الاستعمال المتكرر لمغرة التخضيب فانه يظل غامضاً. ومن العجب العجائب استعمالهم العظام الانسانية ومنها «الجمجمة كمغتم» الموجودة بفنايد سوار (عين البيضاء بالجزائر) والتي يظن أنها كانت تستعمل قناعاً. ولقد حدث أن القابسيين كانوا يقلعون أسنان الأحياء لا سيما النساء الى حد ثماني ثنايا.

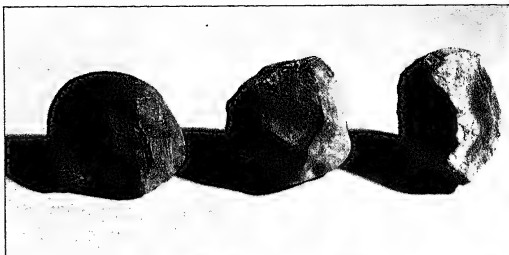
ومع هذا، يُعتَبَرُونَ الفنانيين الأوائل الذين ظهروا ببلدان المغرب. ويشهد على ذلك وجود المجوهرات ومحاولات نقش بيض التّعام منذ العهد القابسي الأثوذجي، والصفائح المنقوشة والأحجار المنحوتة التي يمكن لها أن تؤدي بنا الى الفن الجداري.

الدخول في العصر الحجري الجديد

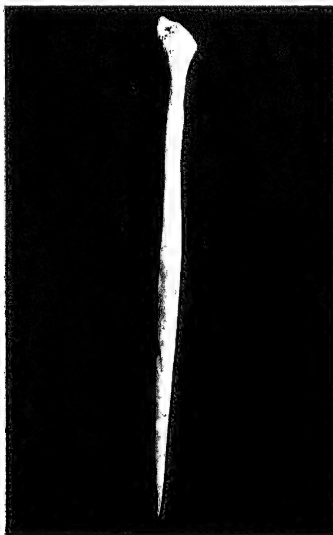
والعصر الحجري الجديد

إن الرؤية الحاصلة في أذهان الناس عن العصر الحجري الجديد بأفريقيا الشمالية قد نظمها ونسقها ووحدها ر. فوري منذ ١٩٣٣م. إن تصوره لهذا العصر ذي التقاليد القابسية والشامل لكل بلدان المغرب والصحراء وجزء من المناطق الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء، هذا التصور كان على العموم مقبولا الى درجة أن رمزه «العصر الحجري الجديد» ذو التقاليد القابسية (ج ت ق) أصبح مستعملا استعمالا رائجا. هذا رغم أنني، والدكتور كوبرا كنا عبرنا عن تحفظاتنا الشديدة إزاء الصفة المصطنعة لذلك البناء النظري المقام اعتمادا على إضافات متتابعة كان مجموعها يبدو لنا متباينا.

والحقيقة أننا لم نتمكن من إدراك الطريقة الفكرية التي كان يعتمد عليها ر. فوري. فلماذا اعتمد



● (١) عين حانش، حصوات مشكلة
على هيئة وحيدة الوجه (قاعم) أو ثنائية
الوجه (أداة قطع) (تصوير م. بولي).
● (٢) قبة ساق صغرى بشرية مشكلة
على هيئة خنجر، القابسي الاعلى،
مشق المصري (الجزائر الشرقية)
حفريات ١٩٥٠ (تصوير م. بولي).



كمراجع، أضعف منجم وهو منجم طاولة جعته (بتونس)؟ ولقد عرض سن. روفي سنة ١٩٧٦م — كيفية سير تفكيره، فالذي يهيمه ليس هو العصر الحجري الجديد لذاته، بل يريد فقط أن يبين تواصل التقاليد القابسية التي أخذت تدريجياً تتحول إلى التلاشي عندما ابتعدت عن مصادرها. وبذلك لا يكون العصر الحجري الجديد سوى ظاهرة عرضية للمشهد القابسي. ثم إن التوسع الذي وصف به «ج. ت. ق.»، سيبر اعتماداً على تطعيم العناصر الثقافية المنسوبة إلى العصر الحجري الجديد، وذلك ما أدى إلى التصور «النموذجي» لهذا العصر بدون أن ينتبه إلى ما يتجاوز الثورات التقنية ويفسرها ونعني بذلك الانقلاب في نمط الحياة. والحقيقة أن نمط الحياة لم يصل إلى مرحلة العصر الحجري الجديد، في حين أن التقاليد القابسية مزدهرة. فالسهم وحدود السهام الوفيرة بالصحراء تقوم دليلاً على امتداد نمط حياة الصيادين القناصين الذين لا يمكن لنا أن نعتبرهم متممين إلى العصر الحجري الجديد.

وفي هذه الأحوال يجب أن نعيد العصر الحجري الجديد ذا التقاليد القابسية إلى حدود منطقته الأصلية. وذلك ما قام به س. روفي عند اعتماده على حفريات مغارة كبلتي (بأوراس في الجزائر)، فيثبت إذن أن مكان علم البيئة أصبح أساسياً بجانب علم التماذج البشرية الضروري. ويعني ذلك معرفة المحيط الذي يعيش ضمنه الإنسان. وهي طريقة يمكن بها أن نعرف اقتصاد الرعي السابق للفلاحة والمعتمد على الترحال ولا يمثل نهاية عهد ما قبل التاريخ بل نقطة بداية الحضارة الجبلية المعاصرة لأهل الشاوية بأوراس الذين كانوا رعاة صغاراً للغنم والماعز.

لقد وجدت إذن ببلدان المغرب أشكال أخرى من العصر الحجري الجديد غير الشكل المعروف بالرمزج. ت. ق.، بالفهم الدقيق، بين الألفيتين الخامسة والثانية. ولقد شهدت في مرحلة أولى، المناطق التي بقيت بعيدة عن القابسي تطوراً خاصاً بها له مميزاته الأساسية التي تتمثل في مولات العهد الأيبيري — موريوسي وفي تكوين علاقات مبكرة مع أوربا البحر الأبيض المتوسط. ولقد وقع ذلك ابتداء من الألفية الخامسة. ومنذ ذلك الحين أصبحت قضية الملاحة مطروحة، فلقد وجدت مظاهر عديدة تابعة للعصر الحجري الجديد ومستقلة استقلالاً كاملاً عن كل عادة قابسية تشهد على وجود الاتصالات بأوربا، يدل عليها خزفها واستيرادها للنسيج. و يصبح هذا الكلام أيضاً في شأن الساحل الأطلسي للمغرب.

وعلى العكس من هذا فإن العصر الحجري الجديد ذا التقاليد القابسية لا يمكن أن يتسع، كما أراد ج. كامبس إلى الصحراء الشمالية، وأقل من ذلك إلى الصحراء الأكثر جنوباً حيث يوجد الفن الجداري بالهقار وبتاسيلي — ن. آجر.

ورغم كل ذلك فإن الربط بين الفن الجداري والعصر الحجري الجديد والذي اقترحه ر. فوفري يبقى صالحاً وإن ظلت نسبة التقاليد القابسية للعصر الحجري الجديد موضوع خلاف كبير، علماً بأن الأمر لا يتعلق إلا بجزء من الآثار المنقوشة على الحجر، لأن الجزء الآخر مرتبط بعصر بداية التاريخ. فلا يمكن أن ترتبط تلك الآثار الأولى ذات الأسلوب الطبيعي لا بأوربا ولا بالصحراء إذ ينبغي البحث عن أصلها في ارتباط القابسي بالعصر الحجري الجديد. ومع هذا فإن الربط بين «الصناعة والفن» سيظل في حاجة إلى برهان. وعلى هذا الأساس يعترف ما قبل تاريخ بلدان المغرب بنفاذه مهما كان ثراء الشواهد الدالة عليه. فلا يمكن له أن يقدم إلا إذا اعتمد على حفريات كبرى تجري بطريقة تتناسب مع أساليب اليوم.

الفصل الثالث والعشرون

الصحراء في ما قبل التاريخ

بقلم: ه. ج. هوغو

ان الصحراء منطقة مقفرة مشرامية الأطراف تغطي معظم شمال افريقيا. وليس من السهل تحديدها أو تعريفها. ويمثل الجفاف القاسم المشترك بين مختلف الجهات التي تتكون منها، فهي تمتد من الشرق الى الغرب على طول ٣٠٠٠ كلم من البحر الأحمر الى المحيط الأطلسي، وتمتد من الشمال الى الجنوب على طول ١٥٠٠ كلم من الأطلس الصحراوي الى الساحل السوري ولقد شملت الظروف الصحراوية ما يقرب من ٤٥ مليون كلم^٢. ورغم ذلك فان الصحراء كما نراها اليوم تختلف جدا عما كانت عليه عبر عصور ما قبل التاريخ.

وتتمثل وحدتها الحالية في افتقار هوائها الى الرطوبة، ومن أهم خصائصها، فضلا عن ندرة الماء، الفارق الكبير الذي يفصل حرارة النهار عن حرارة الليل، وكثرة الرمال التي لا تفتأ تتناقلها الرياح فتؤثر تأثيرا بالغا على أرض أكل عليها الدهر وشرب.

ان هذه المنطقة المقفرة اليوم كانت تعج بالسكان قديما وفي حقبات زمنية عديدة وتعزى هجرة آخر الاجناس البشرية التي سكنتها الى استقرار مناخ متطور الجفاف والحرارة أدى الى ضالة كميات الأمطار ونضوب عيون الماء والأنهار. ان الانقراض المزدوج للغطاء النباتي والحيوانات التي يعتمد عليها الانسان في غذائه دفع به نحو الجهات المتاخمة المناسبة أكثر لحيته. ولقد انكب الكثير من الاختصاصيين على مسألة تحول الصحراء الى أرض مقفرة، وأسباب ذلك، ونتائجه، ونخص بالذكر

منهم أ. ف غوتسي (١) وث. مونود (٢) ور. كابوت - ري (٣) وج. دوباف (٤).
ول. بالوت (٥) وك. بوتروج. أ. هزين (٦) وذلك على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.
لقد أدركنا الآن الأسباب النظرية التي من أجلها لم تعد موسمة الخليج الغني والجهة القطبية
ترسلان إلى الصحراء عنصرَي الرطوبة اللذين يتحكما في خصوبتها التي جعلتها عامرة أهلة عبر
عصور ما قبل التاريخ. لكن لا بد في هذا الصدد من حصول اتفاق حول مسألة تطور المناخ
الصحراوي فنحن لا نعلم إلى الآن إن كنا في قمة تدهور المناخ، أو إن ذلك قد مر، أو لما يأت بعده.
فإننا لا ندرى بعد الكيفية التي بها يطرأ التصحح، فهل هو منتظم الانتشار حول مركز معين؟ أو أن
أطراف الصحراء تتحرك مثل كفتي ميزان، تارة نحو الجنوب وطورا نحو الشمال؟.
أما تعاقب المراحل المناخية نفسها التي جعلت الصحراء في حالات كثيرة تسمح بعيش الإنسان
فيها، فإنه يستلزم كثيرا من المعلومات كي نستعيد تسلسل أحداثه التاريخية بدقة. لقد اجريت في
أماكن مختلفة بعض الأبحاث الهامة. لكن يجب إقرار ندرتها، ولم تقع محاولات جادة لتطورها. إلا
أن قيمتها كبيرة جدا لا في ميدان البحث العلمي فحسب بل كذلك لفهم ظاهرة تهم حياة الإنسان.
إن معرفة التغيرات المناخية الصحراوية في الدهر الرابع أصبحت ذات فائدة أساسية في دراسة
التطورات البيئية. فنظرا إلى أننا نعيش في عهد يكتسي فيه كل متر مربع قيمة معينة سيلعب هذا
«القفر الرائع» دور تكون أهميته على قدر معرفتنا الدقيقة لماضيه.

لمحة تاريخية

إن انعدام النشرات المرجعية المنتظمة الخاصة بالبحث في ما قبل التاريخ بجموع الصحراء لا
يسر وضع خريطة للأعمال التي تم إنجازها في هذا الشأن، توجد بالنسبة للعهد الإستعماري
نشرات مرجعية كالتى ذكرناها، لكنها ناقصة ومبعثرة. فالمكتشفات التي ذكرتها التقارير العسكرية
مشلا، يعبر الوصول إليها. ولا شك أن تقسيم الصحراء السياسي يفسر من جهة أخرى تشتت
الدراسات التي اهتمت بشرواتها ما قبل التاريخ. لقد ساهم الانكليز والاسبان والفرنسيون
والإيطاليون مساهمة علمية هامة في اكتشاف ماضي الصحراء. وقد التحق بهم في هذا الشأن حديثا
الألمان واليابانيون والروس الخ.
والملاحظ أن التوغل في الصحراء أمر حديث جدا.

إن أول دراسة جادة تتعلق بالصحراء قبل التاريخ قد تكون الدراسة التي نشرها القس
ريتشارد (٧) سنة ١٨٦٨م: فهي تهم الصحراء الجزائرية. ولقد بدأت الأبحاث في مصر في نفس

(١) غوتسي. أ. ف.، ١٩٢٨م.

(٢) مونود. ت.، ١٩٤٥م، ص ٢٧ - ٥٥ ندوة بونيفرتشتاين ١٩٦١م.

(٣) كابوت - ري. ر.، ١٩٥٣م.

(٤) دوباف. ج.، ١٩٥٩م.

(٥) بالوت. ل.، ١٩٥٢م.

(٦) بوتروج. ك. ف.، ١٩٥٨م حزين (ج أ) ١٩٣٦، ص ١٩ - ٢٢.

(٧) ريتشارد، القس، ١٨٦٨م ص ٧٤ - ٧٥.

الوقت تقريبا وكان منطلقها رسالة أ. أرسلان بتاريخ فيفري ١٨٦٧م (٨). ولم تبدأ الأبحاث في الغرب إلا في بداية القرن الحالي. أما الأعمال التي تهتم الصحراء الوسطى، فهي مدينة جدا للبعثات الاستكشافية التي أرسلها فورو ابتداء من سنة ١٨٧٦م (٩) والتي بلغت أوجها مع بعثه سنة ١٨٩٨م - ١٩٠٠م الهامة (١٠) وفيما بين ذلك ذكرلنز (١١) وجود أدوات ما قبل التاريخ في تديت سنة ١٨٨٦م. وبعد ذلك راجت الدراسات المتعلقة بالصحراء في ما قبل التاريخ ثم عرقلتها قليلا الحربان العالميتان.

فن المعلوم أن ثروات الصحراء في تلك الحقبة شددت إليها اهتمام العلماء. لكن يستحيل علينا أن نقدم هنا قائمة كاملة عنهم. إلا أن قراءة تلك الأعمال القديمة مدهشة لما توفره من معلومات ثرية. فأعمال س. ب. م. فلامان (١٢) وفرو بينيوس (١٣) والآنسة كانون - طومسون (١٤) مثلا تعتبر تمهيدا أساسيا لكل دراسة جادة للصحراء في ما قبل التاريخ.

إن البحث في فترة ما قبل التاريخ قد تأثر في الصحراء أكثر من أي مكان آخر بالاهتمامات العاجلة وقد التصقت به ظاهرة خاصة جدا أدت إلى سوء فهم مشاكله الحقيقية لمدة طويلة. فكثيرا ما اعتبر ما قبل تاريخ الصحراء «علما ملحقا» ضمن اهتمامات البعثات التي كانت تجوب الصحراء. وعلى هذا الأساس فلقد كان ما قبل تاريخ الصحراء يعهد به إلى هواة أو أخصائيين في مسائل أخرى، لا يولون لمحتواه الإهتمام اللازم، ويضاف إلى ذلك أن صعوبة التغلغل في ذلك الوسط الذي تتعلق فيه حياة الإنسان بكل كيلوغرام يحمله معه، كانت تجعل من الوثائق الخاصة بما قبل التاريخ بشكلها وعيها الثقيل ما يبعث على إهمالها. ويجب أن نضيف إلى ذلك أن الصحراء ليست وسطا مثاليا يسمح للمسافر بالتجوال، فضلا على القيام بحفريات جادة، وهذا ما يفسر لنا لماذا طال الحديث في شأن الصناعات في الهواء الطلق وانعدمت الدراسة الطبقيّة الأرضية انعداما تاما الخ. . . والحقيقة أن الصحراء في عصر ما قبل التاريخ تعتبر ثرية مثل غيرها.

وما أن توفر الوقت والوسائل للبعثات المختصة حتى تغيرت الأوضاع بسرعة. وقد حدث ذلك اثر الحرب العالمية الثانية، وأمكن الحصول على عدد ضئيل مع الأسف، من الدراسات المفردة تتعلق بالخصوص بالهقار والساورة وتشاد، وموريطانيا، والصحراء الليبية والجزائر الخ. . .

إن التعاون بين الصناعة والعلم أدى إلى تحقيق نتائج مدهشة ذكرت في الوثائق العلمية لبعثات برليي - تنري - تشاد (١٥).

ومع ذلك يصعب أن تضم فترة ما قبل تاريخ الصحراء رغم أهميته الكبرى وتراثه دفنا كتاب

(٨) أرسلان أ. رسالة بعث بها إلى هيئة تحرير «مواد للتاريخ البدائي للإنسان» نشرت في المجلد ٥ لسنة ١٨٦٩م.

(٩) فوروف. ١٨٨٣م.

(١٠) فوروف. ١٩٠٥م.

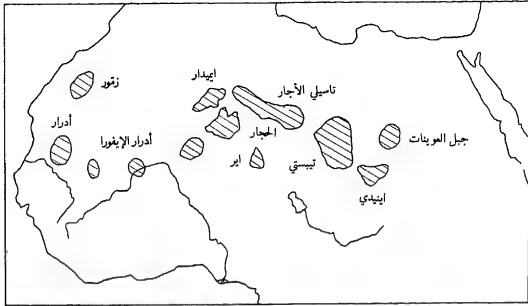
(١١) لنز. ١٨٩٤م.

(١٢) فلامان ج. ت. ف. ١٩٠٢م، ص ٥٣٥-٥٣٨، ١٩٢١م، ص ١١٤-١١٥، هـ. بييري، ١٩٣٧م قائمة المواقع المدروسة

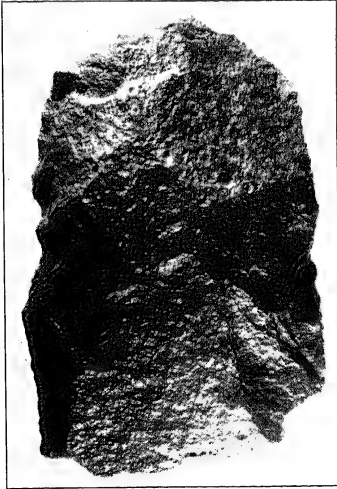
(١٣) فرو بينيوس ل. ١٩٣٧م.

(١٤) كانون - طومسون ك. و. وغردنر أ. ١٩٣٤م.

(١٥) هوفو ه. ج. ١٩٦٢م.



- (١) المواقع الرئيسية لآثار الرسم والنحت على الصخر في الصحراء الكبرى.
- (٢) فأس مستطحة ذات تجويفين، من جوشولوروم في النيجر.
- (٣) سلطنة من تي - ان - أشاكو (مالي).



تعليمي أو يحويه حتى كتاب مبسط في زمن وصل فيه الإنسان الى القمر. ويكفي أن نذكر أن ما قبل التاريخ كان موضوع عدد كبير من الدراسات التفصيلية وبعض الفصول من الكتب العامة نذكر بالأخص منها ما ألفه هـ. أيمان (١٦) وهـ. ج. هوغو (١٧) ور. فوفري (١٨).

البحث عن ترتيب تاريخي

لقد بحث ما قبل تاريخ الصحراء منذ بدايته عن سلاسل للمقارنة بأوروبا لا سيما بفرنسا لذلك جرى الحديث عن «كلاكتو-أبفيلي» وعن «شليو-أشولي» و «الموستيري» و «الصفائح الأورينياسية» و «الحدود المورقة الشكل السلوترية» الخ. إن الأخطاء الناتجة عن هذه النظرة الساذجة ما زالت آثارها قائمة، لا سيما وأن ما قبل تاريخ الصحراء، مثله مثل ما قبل تاريخ العالم كله، لا ينشأ إلا من تحليل الدراسات المفردة الشاملة المخصصة لمختلف صناعاتها. ولكن أمثال هذه الدراسات لا تزال مفعودة. وتوجد نتيجة أخرى مؤسفة لفقدان الانضباط في البحث في ما قبل تاريخ الصحراء، تكن في اسناد أنظمة اجتماعية معينة لأجناس بشرية منقرضة، دون أن تتوفر أية حجة جادة عن واقع الأحداث.

أما فيما يتعلق بالترتيب التاريخي (١٩) فإن الأمر يستوجب ملاحظتين: أولها تتمثل في أننا لا نعرف دراسة طبقية (٢٠) هامة مخصصة لأية نقطة من الصحراء تسمح لنا بنقر أقرار واضح تعاقب طبقات ما قبل التاريخ. والملاحظة الثانية تبين - باستثناء العصر الحجري الجديد أنه - لم تتوفر لنا توار يخ مضبوطة تسمح بوضع ترتيب تاريخي مطلق. ورغم هذه الصعوبات فقد توفرت لنا

(١٦) أيمان هـ، ١٩٦٠م.

(١٧) هوغو، ج، ١٩٧٠م.

(١٨) فوفري ر، ١٩٦٦م.

(١٩) ترتيب الدهر الرابع: هو تعاقب ضمن الزمن لفترات مناخية مختلفة وفي حالات كثيرة لم تتوفر لنا بالنسبة للصحراء الفقيرة من حيث الدراسات الطبقية، عناصر ترتيب تاريخي نسبي. فكان عمل ج. شفايرن أحسن ما قدم منها. (١٩٦٤). ميز هذا المؤلف انطلاقا من القاعدة إلى قة الساورة في الشمال الغربي من الصحراء ما يلي:

الدهر الرابع القديم	عائدي
الفيلافرنسي	مزري
الدهر الرابع الوسيط	تاوردي
	أوغري
الدهر الرابع الحديث	الساوري
الدهر الحالي	غويري

(٢٠) علم طبقات الأرض: وهو قراءة ثم تأويل الطبقات التي تعاقب تراكمها في مكان لتكوين التربة التي نسير عليها. ومن المعلوم أن الصحراء التي خضعت لكوارث مناخية لم تحفظ لنا بكثير من الشواهد. لكن يوجد منها نصيب، بل نعم أنه يوجد منها في أماكن، سلسلة من مسطحات ثلاث تعرف بالقدية والتموسطة والحديثة وتشهد على ثلاث مراحل مناخية. إلا أنه ينبغي ألا نبالغ في التصمم. إن مشاكل المراحل المناخية المستفراة بالطبقة معقد جدا إذا اعتبرنا المناخات الصغيرة. إن الطبقة توحي بأن الصحراء كان أمرا مقفيا حولي - ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

أعمال حسنة للغاية قام بها ج. شفايوك عن الساورة (٢١)، وهـ. فور عن تشاد (٢٢) وب. هـ. شامار (٢٣) عن موريطانيا. وقد دعمت هذه التحاليل بدراسة محيطية جادة عن الجزائر (٢٤) والمغرب (٢٥) وليبيا (٢٦) الخ..

اللوحة

الاطار
التاريخي
لما قبل تاريخ
الصحراء

معالم تسمى «ما قبل الإسلام»	آخر تكرار رطب	من ١٠٠٠ سنة قبل عهدنا إلى ١٠٠٠ سنة من عهدنا
العصر الحجري الجديد الحديث تشيت فاديلي بوركو	طمي أعماق الأخلجة نقصان عيون الماء الآبار الأولى إستمرار مناخات صغيرة جبلية	من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ سنة قبل عهدنا
العصر الحجري الجديد القديم منية عين قزام تيلمسي؟	آخر حفر للأودية بحيرات ذات هازجة الماء	من ٢٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ سنة قبل عهدنا
	كشبات قديمة من نوع ٢ أكير	من ٥٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ سنة قبل عهدنا
العاطري الساورة تديكلت موريطانيا العاير	المستوى النهائي للبحيرات الكبيرة ذات المشطورات جرى - فسيل، فرس الماء الكركدن نظام تهاطل المياه كتبان قديمة من نوع ابراكين.	من ٧٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ سنة قبل عهدنا
الأشولي ٣ إلى ٨ لبيبرسن (١٩٦١)	تحدد القنصات	
حاضرة الحصاة المهياة	انتهاء الإجتزاف تشكل مسطحات تفاساسات سيلان الأنهار الكبيرة ظهور البحيرات الكبيرة إجتزاف عنيف	

(٢١) شوايوك ج.، ١٩٦٤م.

(٢٢) فور هـ.، ١٩٦٢م.

(٢٣) شامار ف.، ١٩٦٦م - ١٩٧٠م.

(٢٤) بالوت ل.، ١٩٥٥م.

(٢٥) بيبرسن ب.، ١٩٦١م.

(٢٦) مالك بورني، ك. ب. م. وهاي ر.، ١٩٥٥.

وعلى ضوءها نستطيع تكوين فكرة واضحة نسبيا عن الخطوط الأساسية للإطار التاريخي لما قبل تاريخ الصحراء. غير أن افتقاره الى وثائق إحيائية وبصفة عامة الى مواد عضوية صالحة للاستعمال من أجل ضبط التسواريخ بالاعتماد على القياس بالاشعاعية لا يسمح بضبط ترتيب زمني مطلق يتجاوز العصر الحجري الجديد (انظر اللوحة أسفله).

إن هذا الجدول مبسط طبعاً للغاية، خاصة أنه لا يتضمن مجموعة كبرى من الشظايا التي تعتمد تقنية لوفالوازية تثبت بأشياء من ذوات الوجهين الرقيقة التي لها حجم ووزن صغيران، ويحتمل أن يعود تاريخها الى نهاية الأشوبلي. وذلك شأن تغلغمين (٢٧)، وبروكو (٢٩) الخ... ونلاحظ أنه لا يوجد اليوم ما يسمح بالحديث عن العصر الحجري القديم الأعلى (٢٩) بالصحراء. إن هذا المفهوم ليس له ما يدعمه في الوقائع. والخطأ أكبر إذا تحدثنا عن العصر الحجري الوسيط، لأن المصطلح أصبح مهجوراً.

ويمكن أن ينشأ عن الجدول السابق ترتيب تاريخي أكثر تفصيلاً. فهو يربط خطوط المناخ العامة التي نعرفها بالعرمان البشري في ما قبل التاريخ.

ولم تتوفر الصحراء الا عدداً قليلاً جداً من الهياكل العظمية مع بعض الصناعات التي تسمح بتصنيفها إلا أن ما يوجد منها يؤكد أن الإنسان قديم جداً.

العصر الحجري القديم

ظهور الإنسان بالصحراء وصناعة الحصى المهيأة

كثيراً ما نشاهد على ضفاف أنهار قديمة زالت من الوجود، مسطحات تشكلت عندما كانت مياه تلك الأنهار موجودة، وتتكون تلك المسطحات من ثلاثة مستويات مختلفة يعبر عنها، طلباً للسهولة، بالمسطحة القديمة والمسطحة الوسيطة والمسطحة الحديثة. ففي جبل إيجارن (٣٠) على بعد ١٢٠ كلم شرقي عين صالح (في صحراء الجزائر) وفرت المسطحة القديمة حصى مهيأة. ونحن نعلم أن تلك الحصى تعتبر أول الأدوات التي بها سمة مشهودة ناتجة عن صنع الإنسان. وفي أغلب الحالات لا تعدو أن تكون حصى بسيطة نهرية اقتطعت من جزء منها شظايا لصنع حد خشن أو ملتح. ولقد اعتبر بعضهم أن تلك الأشياء من خصائص صناعة الإنسان الماهر.

وتوجد أيضاً في صحراء نيجيريا، على ضفاف تفاساسات (٣١)، وهو من روافد بحيرة تشاد القديمة التي تصب في بحيرة تشاد، وتوجد كمية كبيرة من الحصى المهيأة، لكن وضعها يختلف عما

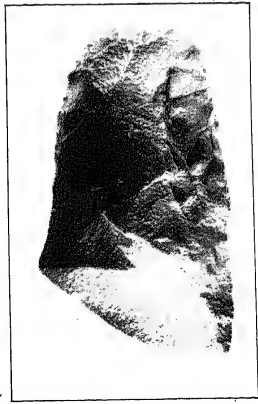
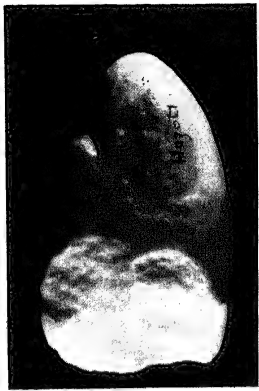
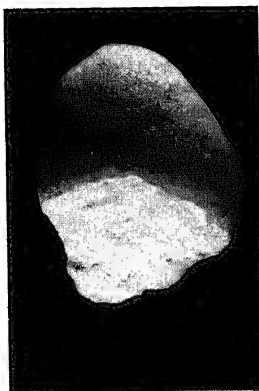
(٢٧) نفس المرجع، ١٩٦٢م، انظر الحاشية السابقة عدد ١٥.

(٢٨) نفس المرجع، ١٩٦٢م، انظر الحاشية السابقة عدد ١٥.

(٢٩) العصر الحجري القديم: إن التقسيم التاريخي الناشئ عن تمييز الإنسان الماهر بكونه السلف المحتمل لسلالة الإنسان الحالية لم يغير المشاكل المطروحة بالصحراء، إذ يبدو حالياً أنه لم يوجد لا عصر حجري قديم متوسط ولا عصر حجري لاحق. يحتمل وجود عصر حجري قديم ناهي يملأ العاطري الآتي بعد الوستيري والمنفصل عن العصر الحجري الجديد بفرق قصير.

(٣٠) بوني، ١٩٦١م ص ٥١ - ٦١.

(٣١) هوغو، ج.، ١٩٦٢م ص ١٥١ - ١٥٢.



٣

- (٢ و ١) حصانان مشكلتان (ثقافة الحصى)، أوليف (الصحراء الجزائرية).
- (٣) أداة ثنائية الوجه من الحجر القديم الأدنى، من تاشنقيط، (الصحراء الجزائرية). (٤) بلطة من الحجر القديم الأدنى، من تاشنقيط، (الصحراء الجزائرية).

هي عليه حصة إيجارن. وتوجد كذلك مجموعات أخرى مثل مجموعة (٣٢). أوليف التي اندثرت أو أتلقت أما مجموعة الساوره (٣٣) فعددها من ضالته لا يسمح أن تكون موضوع دراسة. فالذي يمكن أن نؤكد به أن حضارة الحصة قد عرفت انتشارا واسعا داخل الصحراء التي كانت رطبة خلافا لما هي عليه الآن. واننا للأسف على انعدام وصول أي أحفور حيواني وإنساني إلينا عن ذلك العهد فلا يمكن لنا إلا أن نبدي افتراضا مفاده أن تلك الأدوات الحشنة جدا التي تعتبر، باستثناء المواقع المجموعة بها، منتشرة في كل مكان بالصحراء، الأدوات التي نحتمل واستعملها أسلافنا البعيدون.

الانسان المستقيم، صانع ذوات الوجهين

ان نهاية حضارة الحصة المهيأة أبرزت تطورا تقنيا آلى أشكال قد تليق بالمستوى الذي وصل إليه الانسان في بداية العصر الحجري القديم الأسفل. ان السر الذي يحيط بالتطور الانساني الكبير والتفني المتميز بظهور ذي الوجهين مازال قاسما. فلم يكتشف في الصحراء أي هيكل عظمي لأصحاب تلك الأداة البدئية والقدم الذي اشتق منها، مما يوحي بوجود أبق غابي ربما كان مسيطرا في ذلك العهد. اننا نجهل البنية التي عاش فيها أولئك الذين اخترعوا الحصة المهيأة. ولقد نوفرت معلومات مفيدة عن بيئة اللين أتوا بعدهم. ان الصحراء التي كانت موطن بحيرات كثيرة قد توفرت فيها مياه وأمطار كافية ساعدت على غونباتات توحى بمناخ ميال الى البرودة. وبالطبع كانت الحيوانات الاثيوبية منتشرة بها في كل مكان. ولقد طرأ حدث هام مفاده أن الأمطار الاعصارية التي اختصت بها الحقبة التالية أتلقت أو قضت على كل الترسبات التي تراكمت في أعماق بحيرات ذلك العهد ولقد عجلت بسرعة اندثارها مرحلة جفاف كبيرة طرأت بين ذلك العهد والعصر الموالي.

ولقد كانت الشواهد الطبقة قليلة جدا نتيجة لتلك الاندثارات، وان كان عدد ذوات الوجهين التي تغطي الصحراء كبيرا جدا.

ونحن لا نتجرا على التأكيد ان الانسان الاحفوري التشادي (٣٤) كان صانع ذوات الوجهين، ولقد وضعه فوفري (٣٥) في موضع الصدارة من فصل كتابه المخصص للعصر الحجري القديم الأسفل والأوسط بالصحراء. لكن هذا السلف المحترم الذي نجهل تماما ان كان يحق ناحت أدوات، لا يمثل في حقيقة الأمر الا اكتشافا هام يتعلق بعصر الحجر القديم.

لقد وجدت في تيحوذين التي ذكرها أول مرة دوفيريبي سنة ١٨٦٤م (٣٦) والتي زارها، غوتي أ. ف.، ورايغاس سنة ١٩٣٢م (٣٧) صناعة مختلطة بمجونات الكركدن، والفيل، وفرس البحر،

(٣٢) هزوه. ج.، ١٩٥٥م ص ١٣١ — ١٤٩.

(٣٣) شافاوين ج.، ١٩٥٦.

(٣٤) كوبنس ي.، ١٩٦٢م ص ٤٥٥ — ٤٥٩.

(٣٥) فوفري ر.، المذكور أعلاه — (بعد وفاته) ١٩٦٩م، ٢١.

(٣٦) دوفيريبي ه.، ١٨٦٤م.

(٣٧) غوتيبي أ. ف.، ورايغاس م.، ١٩٣٤م.

والبسقرات والجاموس، والخنزير ذي القرنين وحمار الوحش، والتساح والغزال النخ. فالواضح أن صناعة تبيحذين الأشولية كانت متطورة وغالبا ما كانت تعتمد على العظام والاختشاب في نحتها. فلقد بلغت مرحلة متقدمة ولا تعتبر موالية لحضارة سابقة

و يوجد على مسافة غير بعيدة من تبيحذين منجمان أشوليان جميلان جدا يتكونان من خليط من ذوات الوجهين وأحيانا من أشكال مصغرة تكاد تكون ((سبايكينية (s'baikiennes) ومن قدومات ونعني بذلك منجم عرق أدمير (٣٨) الذي اكتشفه عسكري سنة ١٩٣٤م وكتب عنه لأول مرة هـ. لوط وهـ. كيلي سنة ١٩٣٦م (٣٩) ولم يضبط تاريخ ذلك المنجم، شأن منجم وادي تفاساسات (٤٠) الذي اكتشفته بعثة بريلي - تينيري ولم يحظ باشغال كانت تسمح بإبراز أهميته للوجود.

إن تلبالة وتشنيط معروفتان (٤١) بذوات الوجهين المصنوعة من المرو الأحمر، وعلى الأخص بمجموعاتها الكبيرة من القدومات ذات التقنية المتقدمة جدا.

وفي تلك المنطقة نفسها من إفريقيا أبرزت أعمال ج. شوفايون وهـ. أيمان وجود أشولي متطور بعين المكان، قد يكون هو السابق مباشرة لصناعة الشطايا أو يكون قد اندمج في أشولي وسيط وذلك شأن مازروبي عباس وكرزاز (٤٢).

وتوجد بشبكة منونة في الساور من الصحراء الجزائرية (٤٣) مجموعة مفيدة لكنها لسوء الحظ قليلة العدد.

و يوجد الأشولي الوسيط في عين أكر وفي منيت وأرك (٤٤) تحت الطمي الذي يحتوي على العاطري المبعثر.

ولقد عثر على الأشولي أيضا بكيات متوفرة في أ. أوليف (٤٥) وتشردا (٤٦) والبيض (٤٧) والشهانب (٤٨) والصحراء الغربية (٤٩) وخرقة في الصحراء الليبية (٥٠). وخلاصة القول إنه يغطي كل الصحراء، لكننا عاجزون عن ترتيبه زمنيا إذ أنه لا يوجد في وضع طبقي باستثناء أربع أ. خمس طبقات فهو مازال يحتاج إلى عمل أساسي يعتمد على عمل جاد في الحفريات والسبريات.

(٣٨) إن ذلك المنجم السطحي يدل أحسن دلالة على صعوبة التفريق بين الصناعة السائدة والتأثيرات المولية التي تؤثرها أدوات أخرى أكثر حداثة.

(٣٩) لوط هـ، كيلي هـ، ١٩٣٦م ص ٢١٧ - ٢٢٦.

(٤٠) هوفو هـ، ج، ١٩٦٢م.

(٤١) شيبوب،

(٤٢) أيمان هـ، ١٩٦٠م ص ٤٢١ - ٤٢٣.

(٤٣) شوفايون ج، ١٩٥٩م ص ٢٣١، وأيضا ١٩٥٨م ص ٤٣١ - ٤٤٣.

(٤٤) هوفو هـ، ١٩٦٣م.

(٤٥) بندو، ب. و «آل»، ١٩٣٨م ص ١٧ - ٢١.

(٤٦) دولفي م، ١٩٤٨م.

(٤٧) بيررسن ب، ١٩٦٥م ص ١٧٣ - ١٨٩.

(٤٨) أركل أ. ج، ١٩٥٤م ص ٣٠ - ٣٤.

(٤٩) ألفروباخ م، ١٩٤٦م.

(٥٠) كاتون - طمنسن، ١٩٥٢م.

النقطة الغامضة: صناعات الشظايا

يختص العصر الحجري القديم الأسفل الأوربي مثلها هو شأن الصحراء، بآداة أساسية وهي ذات الوجهين. فلقد ابتدأ من الأشكال الجشنة التي جمعت تحت عنوان (الشولي). ثم تطور نحو القطع الأنيقة المتوازنة التي تم نحتها واكتمل مثل قطع «الميكوك».

لقد أذن بظهور ذوات الوجهين بالصحراء، الحصاة المهيأة الأخيرة، فلو حظ تغير جذري سريع في تقنية النحت. ويبدو أن تلك المهارة الجديدة من التهيئة العسيرة للحجارة لم تكن غريبة عن خفة الأشكال واتقان صنعها. فلم يحصل التطور في أوربا أو الصحراء إلا بعد اكتشاف مزاي قارع مرن من العظم أو الخشب عوض المطرقة الحجرية التي لم تكن دقيقة، لما ينشأ عن حدة وقعها فإن كان ذو الوجهين الأداة المعتمدة، أي بعبارة أخرى الأحفور الموجه في العصر الحجري القديم الأسفل، فإن الأمر يستوجب النظر لكي يعتبر الأداة الوحيدة التي صنعها الإنسان المستقيم. وتوجد أسباب كثيرة أدت إلى الاعتقاد بأن الشظايا كان منذ خطوات التقنية الأولى، مستعملة أيضاً، كما استعمل جزء هام من الفواصل المختلفة من قطع النوى. لذلك كانت غلبة الشظايا أمراً طبيعياً في العصر الحجري القديم الوسيط (٥١)، فالشظية ليست اكتشافاً بل هي تمثل نحوياً يميز بتصغير شكل ذوات الوجهين التي أخذت تتطور نحو الهيكل السلاحي،^{٥١} أن ما يعتبر ثورياً لا يمكن في تعميم تقنية لوفالوا التي برزت مبكراً في الصحراء، والها تنسب طريقة صنع بعض ذوات الوجهين في تششيط (٥٢)، والها تنسب أيضاً صناعة بروكو وليمبرورين. وبالرغم من هذا الظهور المبكر، فليس هذا الأمر — فيما يبدو — من علاقة بمنع عيش غنجرها. ولم يكن أولئك المتقدمون طبعاً نياندرتاليين ولا كانوا قد اتخذوا طريقة عيش مغايرة تتطلب منهم استعمال أسلحة ومعدات أخف تخالف في فكرة صنعها ثقل ذي الوجهين والقدم أن الشيء الذي يثير الاهتمام ولم ينه إليه أحد، ليس هو فقدان «موسيري» حقيقي في الصحراء، أو فقدان أية صورة أخرى مشابهة له، بل لأن العاطري الذي خلفه، وهو في الحقيقة ذو طابع موسيري يثل في أساسه صناعة صيادين. فالذئب لا يذكر بالمقبض فحسب بل بالرمح. وتذكر (البولات) (Bolas) والشظايا الكبرى ذات الحدود اللوفالوازية بآلات الصيد. فهي باختصار صناعة مهاجرين، ولذا كانت خفيفة بالمقارنة مع سابقتها.

العاطري

يمثل العاطري (٥٣) في الوضع الراهن من البحث في الصحراء المكانية التي يمثلها «الموسيري»

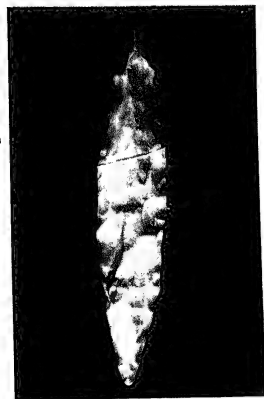
(٥١) ينبغي ألا ننسى أن التغير الحقيقي الإنساني و يمثل في ظهور إنسان نياندرتال، صاحب الصناعات الموسيري.

(٥٢) تكسي ج. ١٩٥٧.

(٥٣) العاطري: هو صناعة أصلها من شمال أفريقيا، تتكون في مجموعها من أساس موسيري تضاف إليه سلسلة كاملة من الأشياء المورقة الشكل. إن العاطري لاحق زمنياً للموسيري المختص بالتقنية اللوفالوازية. ولقد تطورت تلك الأدوات الحجرية للممتازة بالتدرج عبر الصحراء. ويبدو أن هذه الجنوبي كان يتكون من البحيرات الكبرى الجنوبية التي زالت اليوم باستثناء بحيرة تشاد، ولقد وجدت على الضفة الشمالية الشرقية من تشاد القديم، مواقع يمكن تحييد تاريخها بـ ١٠٠٠ إلى ٨٠٠ سنة قبل عهدنا. إن هذه الصناعة ينبغي أن تنسب إلى العصر الحجري القديم النهائي، لا إلى عصر حجري قديم وسيط.



- (١) شوكة كبيرة مزدوجة ثنائية الوجه
أثيرية، من تيميموم، (الصحراء
الجزائرية). (٢) أشواك أثيرية، من
أوليف (الصحراء الجزائرية).
- (٣) شوكة مزدوجة ثنائية الوجه
أثيرية، من أدرار بوس * (النيجر).



في غيرها من الأماكن. فله منه خصائص كثيرة وذلك بما فسحه من مجال لتقنية لوفالوا، إذا اعتبرنا التهدييات ونوعية الأشياء المتممة، ويختلف عنه من ناحيتين:

١ - وجود زائدة ذنبية قد تكون حدا مهذبا أو خاما، أو محكا أو ازميلا أو مثقبا.
٢ - اختلافات ظاهرة في المستوى الاحصائي بالنسبة لصناعة المستيري. فان صرفنا النظر عن ذلك تظل فكرة «الاساس المستيري» قائمة. ورشم أنه لم يتوفر لنا هيكل عظمي عاطري، فلقد تعودنا على نسبة تلك الصناعة الهامة الى انسان قريب من انسان نياندرتال.

ان العاطري كما نعلم هو صناعة من شمال افر يقيا توجهت توجهها قويا نحو الجنوب (٥٤) لتتوقف بصفة عامة على طول ضفاف البحيرات الكبرى في الصحراء الجنوبية. فيقد ما كان يتجه نحو الجنوب كان يتحول حتى أنشأ المظهر الرائع بأردار بسوس (٥٥) حيث تصاف الى المجموعة الكلاسيكية نوى وصفائح وشظايا ومحكات ومكاشط، وغرات وحدود مضاعفة ورقية الشكل تابعة من تقنية ذوات الوجهين، وكرات حجرية وكذلك نصال ذنبية تعتمد تقنية ذي الوجهين وتبلغ الواحدة منها ١٩ سم طولاً.

ان انتشار العاطري واسع جدا إذ أنشأ نحده في تونس (٥٦) والمغرب (٥٧) والجزائر (٥٨) والساورة وتديكلت حيث يستعمل استعمالا حسنا المادة الممتازة التي يوفرها أحفور (٥٩) أروكاريا وفي موريطانيا حيث يحده (٦٠) عموما أدرار كما أنه منتشر في الهقار (٦١) وعرق أدمر (٦٢) وتيسوحذين (٦٣) وأردار بسوس (٦٤). ونلاحظ أيضا وجوده في الفزان وزمري وتوجد آخر معاقله الشرقية في خرحة، بمصر (٦٥) وأما من الناحية الزمنية فان تحديد موقع العاطري أمر صعب. ولعله ظهر في حوالي - ٣٥٠٠ سنة.

و يبدو أن تقدمه قد توقف على ضفاف بحيرة تشاد عند آخر ارتفاع من مستوى المياه و يؤرخ في تلك الظروف بـ ٩٠٠٠ الى - ٧٠٠٠ سنة وإن كان كل ذلك من باب الافتراضات.

كان من المنطوق أن يأتي بعد هذه الصناعة التي تأثرت كثيرا بتأثيرات مستيرية، العصر الحجري القديم الأعلى، وذلك ما يفرض طرح سؤالين: هل يمكن لنا أن نضع العاطري المتأخر جدا ضمن العصر الحجري القديم الوسيط؟ ذلك ما لم يل إليه ل. بالوت في أطروحة الموقفة، ثم ماذا نعلم عن عصر حجري قديم لاحق في الصحراء؟ أننا لم نؤث من العلم الا قليلا. ان صناعة وادي

(٥٤) هوغو، ج.، ١٩٦٧م ص ٥٢٩ - ٥٥٦.

(٥٥) هوغو، ج.، ١٩٦٢م ص ١٥٨ - ١٦٢.

(٥٦) غرولي، م.، ١٩٥٤م.

(٥٧) انطوان، م.، ١٩٣٨م.

(٥٨) رايفاس، م.، ١٩٢٢م ص ٤٦٧ - ٤٧٢.

(٥٩) غوتي، أ. ف.، دوسان مارتان، ١٩٠٨م... رايفاس، م.، ١٩٢٣م.

(٦٠) غوريات، ر.، ١٩٧٢م ص ٢٩ - ٣٣.

(٦١) هوغو، ج.، ١٩٦٢م ص ٤٧ - ٧٠.

(٦٢) بويج، م.، ١٩٥٦م ص ٢٦٣ - ٢٦٨.

(٦٣) بالوت، ل.، أرمبورك، و.، بالوت، ل.، ١٩٥٥م ص ٢٨٧ - ٢٩٢.

(٦٤) هوغو، ج.، المذكور اعلاه، ١٩٦٢م ص ١٥٨ - ١٦٢.

(٦٥) كاتون، طامسن، ل.، ١٩٥٢م و ١٩٤٦م.

اشد التي اكتشفها ر. موني (٦٦) لم تكشف بعد عن أسرارها. ولقد ظلت المجموعات الحجرية ذات الهيئة القابسية في ضفة تادمايت (٦٧) الجنوبية محل جدال. فلا يشهد على وجود تجمع قابسي أصيل في منطقة عمرتها الصحراء اليوم الا مجموعة (مرجومة) التي تقادم عهدها (بوادي ميا، بنجد تادمايت بالصحراء الوسطى الجزائرية) ولكن هذا لا يكفي لإقناعنا. لذلك اقترح بعضهم سعيًا وراء وجود حل يوفر ترتيبًا زمنيًا، بأن يضم العاطري تحت عنوان لا لبس فيه، هو العصر الحجري القديم النهائي.

الفراغ

استعمل ج. د. كلارك حديثًا عبارة العصر الحجري الوسيط أو الميزوليثي لوصف صناعة متطورة ما بعد عاظمي نشأت في أدرا بوس (التيجر). ان الكلمة التي بدأ استعمالها يضمحل لحسن الحظ لا تفيد شيئًا على مستوى عام ولا تعبر عن شيء معروف في الصحراء ولا يمكن الا أن تؤكد الخطأ المعروف الذي وقع فيه اركل (٦٨)، وهو خطأ معقول يوم كان يشتغل على النيل. ان علماء ما قبل التاريخ الفرنسيين لم يتفقوا في هذه المرحلة من البحث على هذا المصطلح. وهذا لا يعني ان مشكل العصر الحجري الوسيط قد سُوي. فلقد سبق السيلي ٣ المصري الذي اجتاحتها الحجارة الصغيرة الهندسية الشكل (٦٩) العصر الحجري الجديد (أ) دون أن يختلط به. وهناك آثار قليلة في الواقع تسمح بان نفترض أنه تجاوز المناطق التي وقع العثور فيها عليه.

العصر الحجري الجديد

اننا نجهل المهم من أصل الأجناس المستسبة الى العصر الحجري الجديد (٧٠). ويبدو أنها تقدمت تدريجيًا عبر الصحراء منطلقًا من قواعد مختلفة. وتوجد حسب م. ك. شملا (٧١) ظاهرة قارة في تعبير الصحراء في العصر الحجري الجديد، وهو الهجاءة بقطبيها: السود من جهة، والبيض من جهة أخرى، وأصلها نصف شرقي ويجمعون تحت اسم «أهل حوض البحر المتوسط».

(٦٦) صناعة غير معروفة محفوظة يقسم ما قبل التاريخ (IFAN) بجامعة دكار

(٦٧) هوغو. ج. ١٩٥٢م ص ٦٠١-٦٠٣.

(٦٨) اركل أ. ج. ١٩٤٩م، اركل أ. ج. ١٩٤٣م.

(٦٩) اختياراً، ١٩٢٣م ص ١-٧٦.

(٧٠) العصر الحجري الجديد: يستعمل للدلالة على ظهور تقنيات جديدة لا سباً من الحرف وصقل الحجر، وبداية تأهيل الحيوانات، والفلاحة وال عمران الخ.. يضاف الى الأساس المتطور جدا من الصناعة الحجرية بالعصر الحجري القديم اللاحق. في الصحراء يبدو أن أقدم أماكن ذلك العهد تنسب الى الأنقياء ه الى ٦ قبل الميلاد. ونعلم أن العصر الحجري الجديد يمكن أن ينشأ عن معرفة كامل التقنيات المذكورة، الا أن من أهم المظاهر التي يجب الاعتناء بها المظاهر التي تتمثل في طهي الاغذية، الذي سيؤثر بتغييراته الكيميائية، بطريقة حاسمة على التطور البدني للإنسان. و يوفر العصر الحجري الجديد الصحراوي وتياراته المتعددة مثلاً لنوع من «الانفجار التقني» لا مثلاً لور يا كما زعم بعضهم.

(٧١) شملا م. ك. ١٩٦٨م.

الاعمار الأول: أهل العصر الحجري الجديد من ذوي التقاليد السودانية

لا بد من توفر عوامل كثيرة حتى يكون لسكان الصحراء أصل واحد في العصر الحجري الجديد. فإذا اعتمدنا الترتيب، نرى ان أقدم موجة كانت تلك الموجة التي تكونت على ضفاف النيل موازية لمستوى الخرطوم والشهانب، وتحركت من الشرق الى الغرب على طول البحيرات الكبرى. ولا يبدو أنها تجاوزت كثيرا الحاشية الشرقية أوكرة، أو أنها توغلت في الغابة. لكنها استكشفت الشمال على الأقل مرتين: الأولى في الهفارة شمالا، حتى الحدود الشمالية من المنطقة التي تشمل ما قبل العصر التاسيلي والآخرى حتى الساوره، انطلاقا من تلمسي. وتعرف تلك الحضارة الرائعة بسهولة اعتمادا على خصائصها وعلى غنى زخرفة الحرف، ولكنها في المستوى الصناعي عسيرة التحديد اذ أن أهل العصر الحجري الجديد من ذوي التقاليد السودانية قد استفادوا من جهات متعددة. فهؤلاء السكان الأوائل للصحراء كانوا صيادي سمك وحيوانات، وكانوا يجنون الثمار، وكانوا مغرومين بلحم فرس البحر وثمار النشم، لكنهم لا ينفرون من أكل سمك البحيرات أو سلحفاة المياه الحلوة أو قشاء الماء. ان تعاطيهم لصنع القدومات وأدوات العزق والمهرس والدرس وغيرها لا يثبت بتاتا أنهم اتقنوا عملا معينا من أعمال الفلاحة (٧٢) وعلى كل فان ملاء الجرار المستمر بثمار النشم وكثرة اكتشاف آثار اللب لفصائل القرعيات في الحفريات قد يدفعان الى الاعتقاد بوجود شبه فلاحة بدائية. ولقد حدث أن وزعت الاعمال حسب وظائف مختصة، فكان صقل الحجارة واسع الانتشار وكانت أدوات الحرب متعددة. وكان الصيد يعتمد على القوس والرمح وكانت تستعمل المخاطيف والصنارات العظمية، وكانت الفأس وآلات العزق والمهرس الحجرية المصقولة تحتل مكانة كبيرة بين معادتهم. ولما كانوا يارعين في تهيئة الدرر (الأمزيت والكلسدون والهيماتيت والكرنيلين الخ) صنع المختصون آلات ثقوب طريفة (٧٣) تجمع بين الأزميل والابر، ومثاقب كانت تستعمل مع المواد الصمغية والزمال الناعمة. وعندهم معدات للهرس كثيرة، بل جميلة جدا. فان لم تدل معدات الطحن في بعض الاحيان على الطحن، بأنهم معنى الكلمة فإنها على الأقل تدل على معرفتهم لفن المهرس. ويتكون المطحون أساسا من الطين الأحمر ويمكن أن يكون حبوبا برة وعنبيات كانت عشبية يابسة ومصبوغات نباتية ومنتجات صيدلية. ان أدوات الفخار تستحق اهتماما خاصة لثراء تزويجها وجمال أشكالها. وهنا نلاحظ ان الاشكال المخروطية ذات التناؤات والاشكال المستطيلة كالجرار مفقودة. وعلى العكس من هذا، نجد بعض المناقر المسكبة وبعض العرى والقفلت.

(٧٢) الفلاحة: زراعة متقلة للنباتات المختارة على قطع أرضية هيئت خصيصا لهذا (الغرض). ان الدليل على معرفة فلاحة ما قد تشأ

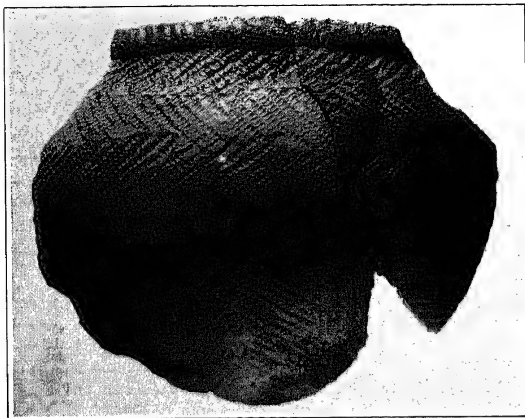
عن:

أدلة بليولوجية صالحة احصائيا.

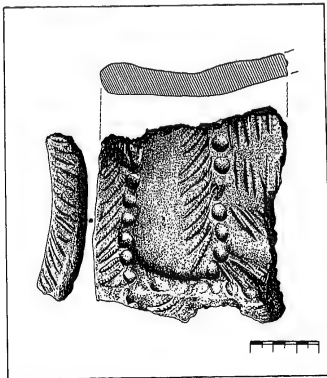
وجود آثار أراض مزروعة.

الحصول على نباتات أحفورية معروفة. ولا يمكن وجود أدوات معروفة بأنها «فلاحة» ومن الممكن أن تكون تلك الآلات قد استعملت لاستخراج الطين لصنع الحرف، والرحي لطحن مواد التلوين والحبوب البرية، والأدوية الطبية الخ... ان نسبة كلمة «فلاحي» تشأ اذن من قواعد دقيقة لا من فرضيات وأهية.

(٧٣) غيوسان م. وج. ١٩٦٥م، ص ٢٣٧.



- (١) قطعة خزف من الحجري
الحليث، من دهارة تيشيت
(موريتانيا).
- (٢) قطعة خزف من أكريجيت
(موريتانيا).



العصر الحجري الجديد الغيني

ان تلك الموجة الأولى من أهل العصر الحجري الجليل قد أصبحت معروفة بعض الشيء ولقد تلاها في اتجاه الجنوب جنس افريقي آخر سيحتل الغابة. فهو رغم أهميته التي أخفاها كثيرا الغطاء الغابي، سيسمى هذا العصر الحجري الجديد المعروف جيدا بغينيا، العصر الحجري الجديد الغيني (٧٤) وان كان يحتمل أن يكون أصله من افريقيا الوسطى.

العصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية

و يأتي بعد ذلك العصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية الناتج عن أثر العصر الحجري الجديد بعين مكان القابسي الا فريقي القديم ويبدأ يتحرك نحو الجنوب فيصل الى شمال شرقي موريتانيا والهضاب حتى منبت، حيث ينتشر على سطح مواقع العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية. ان حده الشرقي غير مدقق لفقدان دراسات مفردة لبيئة صالحة للاستعمال. فالعصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية أكثر وقعا من العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية ان خزف قليل التزيين أو منعدمه وكثيرا ما تكون الصناعة الحجرية ذات التقاليد القابسية في الغالب لها تقنية جادة وقد أشرى مظهرها الصحراوي عدد افروروا من الهياكل للحدود والسهام، في حين أن الصناعة الحجرية ذات التقاليد السودانية كثيرا ما تكون ذات طابع انتهازى. ان حجارته المصقولة كثيرا ما تكون جميلة جدا. ان الانطباع الذي تركه من الخزف أزالته قطع حجرية صلبة وتمثيل صغيرة (٧٥) ذات أشكال حيوانية رائعة. ونجد في ذلك المظهر من العصر الحجري الجديد خروا للنظم يتكون أجزاءه أحيانا من سوسن البحر وغالبا من قطع اسطوانية الشكل مصنوعة من قشرة بيض النعامة ولقد أفرغت بيضات كاملة وحولت الى أوان قد زين بعضها رسوم خطية.

اننا نعلم أن الايبيريو — موريوسيين يختلفون عن القابسيين. وبيننا نجد هؤلاء قد سكنوا خاصة الاتحادات العالية الجزائرية حيث تركوا تلك الأكداص العجيبة الصدفية المعروفة بالخزونات، فإن الايبيريو — موريوسيين استقروا على ضفاف البحر الأبيض المتوسط في تونس والمغرب. واننا لا نعلم كيف توصل «أشباه الكرومانيين هؤلاء الى الاستقرار في شمال افريقيا ولا كيف انقسم الجنس ان. كل ما نعلمه أنها قد انطبعا بطابع العصر الحجري الجديد في عين المكان.

وكان أهل العصر الحجري الجديد ذوو التقاليد الايبيريو — موريوسية يعيشون قرب البحر وقد أشر ذلك فهم، فان تمادينا نحاذي ضفة المغرب الأطلسية نحو الجنوب، سنكتشف وجود كهجكبنودنغيات (Kjokenmøddingen) متكونة من أصداف بلع البحر والمحار ومن أم الحطول التي ما زالت تستهلك بالسنغال الى يومنا هذا. ولقد عم في الصحراء المغربية والموريتانية ذلك المظهر الخاص جدا والذي درس أولم يدرس الا قليلا وهو يتميز بفخار قليل الزركشة خشن يتكون من

(٧٤) دولاكروا، ولفراي، ١٩٣٩م، ص ٢٦٥ — ٣١٢.

(٧٥) مجموعات ما قبل التاريخ بمتحف علم الاجناس لما قبل التاريخ بباردو (الجزائر) — مجلد رقم ١، ج. م. طبعة باريس

١٩٥٦م، لوحات ١٠٧ الى ١١٠.

(۸۰) هوغوه. ج.، وآل، ۱۹۷۳ م.

مجموعة خاصة من القرى البنية بالطوب حيث بلغ العمران (٨١) وفن التحصين مستوى عاليا. ولقد تحصلنا أخيرا على ما يثبت أن المجموعات المحلية كانت منذ ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد تستهلك الذرة البيضاء وذلك يعطي معنى دقيقا للأدوات العظيمة الخاصة بالطحن الموجودة بآثار تلك القرى. وتعتبر حضارة ظهر تشيت بفن الحزفي وبخصائصها الأخرى حضارة إفريقية. ولا شك أنها قد تكون آتية من الشرق وبالتحديد من مكان قرب تلمسي، غير أن هذا الرأي لا يعتبر سوى فرضية مؤقتة. فيمكن عندئذ أن يقتصر العصر الحجري الجديد على خطوط قوة مولدة لتيارات ثانوية اتصفت بترائثها الثقافي المشترك الذي يعرف بالحزف، ونادرا ما يعرف بخصائص تقنية طبقت على الصناعة الحجرية.

ونستخلص من هذا أن العصر الحجري الجديد يمتد من الألفية الخامسة قبل الميلاد إلى بداية الألفية الأولى. ولم يفتأ مستوى البحيرات ينخفض في ذلك العهد وسرعان ما نزلت الحيوانات الأثيوبية نحو الحواشي، وخاصة نحو الجنوب وانقرضت النباتات وهاجر الإنسان بدوره مع قطعانه.

الحيوانات والنباتات

أما الحيوانات فهي قد بقيت من العهد العاطري، وهو عهد قد انتهى عندما بلغت البحيرات مستواها العالي الأخير. ولقد عثر على شواطئها أو بمياهها على الحيوانات المدعوة بالأيوبية ومنها الكركدن والتمساح والتمساح النيلي، وفرس البحر، والفيل والحمار والخشي والزرافة والجاموس والخنزير ذو القرنين. ولقد كثرت أذاك في المياه بعض الحيوانات، مثل (كلارباس)، وفرخ النيل وكذلك سلحفاة الماء الحلو، أما المراعي، فكان فيها الماعز والظبي. إن هذه القائمة لا تستغرب إلا من حيث المكان الذي تطبق عليه وهو الصحراء. وعكسا لذلك فإن النباتات تدعو إلى الحيرة فلقد وجدت في بداية العصر الحجري شجر الجوز واثريزون والصفصاف والدردار. وتدل صدفة عثر عليها في منيت (صحراء الجزائر) أن معدل كمية الأمطار كان يبلغ ٥٠٠ مم. وكانت نباتات الخننج تغطي بعض الطبقات الجبلية. وبسرعة بدأت النباتات تندثر تاركة مكانها لمشهد يوحى بجفاف شديد. فانقرض الأرز، وصنوبر حلب، والعروعر، والزيتون، والمصطكا وكذلك النشم الذي احتل مكانة هامة من حيث غذاء سكان تلك المناطق.

وكانت الرخويات متوفرة في البحيرات. ولقد وقع العثور في بعض المناطق على ترسبات كبرى من صفق أونيو (Unio). وبالطبع كانت صحراء العصر الحجري الجديد قد اختصت في فجر تلك الحضارة بوجود مجموعة من البحيرات التي كانت منزلة، وعلى ضفافها نشأ أهل العصر الحجري الجديد ذوو التقاليد السودانية. ولقد كانت تلك البحيرات قد ساعدت على استقرار مجموعات إنسانية بما وفرتها لها من موارد.

(٨١) العمران: هو دراسة غلظت مجموعة سكنية يقع بها عموما سكان مستقرون منظّمون حسب غلظ دقيق باعتبار تقسيم العمل والمعتقدات الدينية لسكانه. ويعتبر مجموع ظهر تشيت الوحيد الذي ينطبق عليه هذا التعريف، وهو موجود في موريتانيا وتعود بدايته إلى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

الصحراء مهد الزراعة

عرضت هذه الفكرة في مناسبات عدة ومن دون أن يستدل الكثيرون على امكانيات استعمال هذا المصطلح وما يترتب عليه من آثار خطيرة.

لا وجود لدليل على الفلاحة عندما يستند فقط على وجود أشياء أو أدوات معروفة بأنها فلاحية. ان الفلاحة يستدل عليها عندما تبرز الاحفورات والحبوب أو اللقاحات الفرضية المطبقة على الأشياء أو على الأدوات. ان جيوب الذرة الموجودة بتشتيت (موريتانيا) تؤكد آراء مونس (٨٢) وآراء مؤنود (٨٣) في هذا الميدان.

أما فيما يتعلق بالباقي، فنحن نعلم ان سكان العصر الحجري الجديد بالصحراء كانوا قد جمعو كميات هائلة من البساتين أو النشم الذي استعملوه للتغذية وقد لوحظ أيضا، في منيت وتشتيت وجود حبوب من القرميات التي يحتمل أنها كانت بطيخا مائيا، لا من نوع الليمون القولوني الشكل. ان هذين النباتين الأخيرين يقطفان، و ينتسبان الى بداية الفلاحة لا الى الفلاحة وهي تهيئة الأرض لزراعة نباتات مختارة زرعاً منظماً.

ان القائمة تبدو اذن فقيرة (٨٤) فلا يوفر التحليل الباليولوجي للرواسب من العصر الحجري الجديد في منيت (النيوليتية) اشارة واحدة تخص شكلا معيناً من الفلاحة. ولم يوفر تحليل عام بأدرار بوس شيئا يذكر، وكذلك الشأن في تين أسكو ومواقع عديدة درست من حيث هذا الصدد. ان الآثار الوحيدة عن استهلاك معين للمنتوجات النباتية بالمواقع النيوليتية الصحراوية تتمثل في حبوب الزنفوس واللوتوس والسلتيس وفي بعض النجيليات البرية، يضاف إليها آثار البنسّم التي وجدها مونس، وكذلك حبوب الذرة المكتشفة في تشتيت، في تربيّات أحفورية.

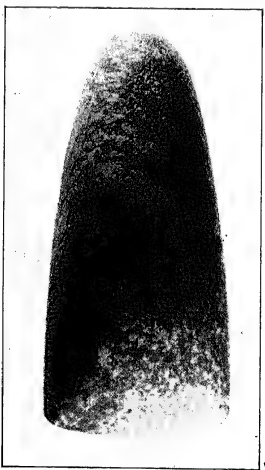
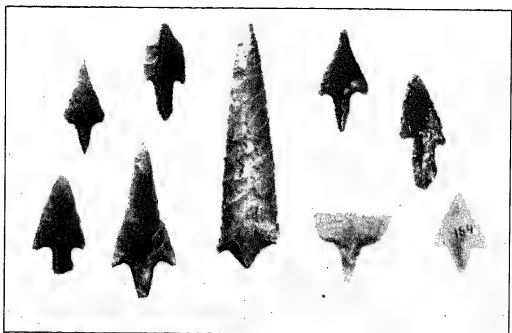
وقبل الوصول الى وضع خاتمة معينة علينا ان نحلل تحليلاً شاملاً رواسب العصر الحجري الجديد. ان الباليولوجيا رغم أهميتها لم تطبق على الصحراء الا قليلاً فلتن سمحت الصحراء بزراعة بعض النباتات فلا يبدو أن تلك المنطقة كانت أصلح من مكان آخر لنمو النباتات المستهلكة العادية في شمال إفريقيا.

ونخلصه الأمر أن الرعاة كانوا منذ أمد طويل قد خلفوا في كل مكان تقريباً الصيادين والحوادين والقطافين. ان وجود أدوات حجرية في كل مكان تتكون من مجارف ومطاحن ومهريس ومن موازين لإثقال عصي الحفر، ومن مناقير، لا يعني حتماً وجود زراعة بالمعنى المعروف للكلمة. ففي مصر حيث تطور هذا المظهر تطوراً كبيراً، نجد له آثاراً واضحة في كل مكان. ولقد وجد أيضاً في تشتيت بموريتانيا لأن قري الاستقرار كانت تبرز ذلك الوجود. ولكن الأمر ليس كذلك في أماكن أخرى. وعلى كل حال لا ننس أن تحول الصحراء الى أرض جرداء قد أصبح أمراً مقصياً في ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ولم يساعد انعدام الامطار الفلاحة، وهذا لا يعني الجهل بأي نوع من أنواع الفلاحة أو القطف الانتقائي الذي سبقها. ويضاف الى ذلك ان تجربة الغذاء ذي الأصل النباتي قاد

(٨٢) مونس ب. ج. ١٩٦٣م، ص ٦ - ١٣.

(٨٣) مؤنود ث. ١٩٦١م، ص ١٥٦.

(٨٤) فلانسان س. ب. م. ١٩٢١.



- ١ • رؤوس أسهم من الحجري الحديث، من غوزلام (التيجر)
٢ • فأس ذات عنق من الحجري الحديث، من أدرار بوس (التيجر). ٣ • فأس مصقولة من الحجري الحديث، منطقة فايا (تشارد).

أصبحها الى البحث عن أنواع معينة أي أنها أدت بهم الى شكل أولي من الإنتقاء. فلا توجد امكانية للزراعة الا في اطار من الاستقرار أو في اطار اقامة. لكن العصر الحجري الجديد المحتجب كان في أماكن كثيرة من الصحراء، يوحي بمخيمات أناس رحل أكثر مما كان يوحي بقرى منظمة وإن كانت موجودة.

أصل التأهيل والصحراء

لقد كان لصحراء العصر الحجري الجديد حياتها الخاصة. وبالرغم من أن رعاة البقر في تأسيلي ناجر كانوا معاصرين للعربات «الطائرة عدوا» والتي لم يدق تاريخها والتي يمكن أن تكون معاصرة لغزوات «شعوب البحر» الذين شتوا بعد محاولتهم غزو مصر، فإنهم قد طوروا بعين المكان طريقة لتربية الماشية كانت تدهش دائما من لا يعرفها إذ يبدو أن الحضارة البقرية قد بلغت في ذلك العهد أوجها فاكتملت فنا راقيا يتعلق بطرق تربية الماشية التي تتطلب تعلما طويلا. ولقد تعاظم المصريون تجارب متنوعة في تربية الحيوان التي عرفناها من خلال الرسوم الجدارية ولولاها ما علمنا أنهم حاولوا تأهيل السنوريات والغزالي والكلبيات وحتى الضباع. فكيف كان الامر بالصحراء؟ يبدو أن السلوقي السوداني وهو مساعد ثمين للصيادين كان من سلالة قديمة جدا. فلعلة هو الذي كان ممثلا في الرسوم البقرية وتوجد إشارات أخرى الا أنه ليس فيها ما يقوم حجة ثابتة. ونحن نعلم أن الثور والكلب، كانا موجودين في أوكر ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد، لكن الرسامين على الجدران لم يبنوا لنا بالنسبة للحقبات السابقة، ما هي الحيوانات التي حاول الإنسان تأهيلها.

الحياة في العصر الحجري الجديد (*)

إننا نعلم أن أهال العصر الحجري الجديد ذوي التقاليد السودانية، كانوا يتطفلون تطفلا لا نهاية له للاطلاع على التقنيات الجديدة فلقد ظلوا ينحتون الحجر ليستخرجوا منه مجموعة من الأسلحة الرائعة تتكون من الحدود المختلفة التهذيب، ومن مثاقب، ومكاشط لها أشكال متعددة ومن حجارة صغيرة هندسية الشكل، ومنشورات الخ... إن الجديد عندهم هو التقنية الجديدة في صنقل الحجر وقد استخدموها في صنع الفؤوس والمجارف والمناكير والمقاصات. وتضاف الى تلك المجموعة أحيانا أوعية من الحجر الصلب، ولبريات Labrets ودرر من الأمزونية والكرنلين والمرو، وكرات (لعلها كانت قذائف)، واليا يضاف أيضا العديد من الرحي القارة والمهاريس التي ليست بالضرورة دليلا على معرفة الفلاحة، و«كوا» (وهي حجارة تثقل به عصي الحفر) وكانت تستعمل سابقا في جنوب أفريقيا. وأ عند البيغمي. ويكتمل كل ذلك بسلسلة رائعة من الأواني الخزفية التي كانت أشكالها وتزيينها زخمية أفريقية. ولقد صنع العظم واستعمل، لصنع مخاطيف ومثاقب، وإبر، وأمشاط لصانعي السفار ومصاقل وأحيانا خناجر. إن أهالي العصر الحجري الجديد السودانيين استطاعوا التأقلم ببراعة مع الحتمية المعدنية بالأقطار التي أقاموا بها وذلك ما أدى الى الاعتقاد بتعدد

الأسس العرقية، وإن كانوا من جهة أخرى مستقرين أحسن استقرار وموحدين ثقافيا. و يكفي دليلا على ذلك تناسق ما توجي به ترويقات الحُرُف. نضيف الى هذا أن أولئك الناس المكونين في بوتقة الحياة الاجتماعية كانوا يعرفون الملاحه ولا يستبعد أن يكونوا قد تحوّلوا عبر البحيرات على ظهر قوارب من القصب مثلما هو الشأن بنشاد حيث تعرف باسم «كداي».

وهناك اختلاف في مسائل عديدة بين رجال العصر الحجري الجديد أصحاب التقاليد القابسية وأشباههم وسابقيهم من ذوي التقاليد السودانية. إن هؤلاء انطلقوا من السودان على موجات عديدة، من الشرق الى الغرب دون أن يبلغوا حسا يبدو الساحل الأطلسي، وكانوا زنوجا وأكثرهم أفارقة أقحاح. أما الأهالي الذين انطلقوا من المضابب الجزائرية فكانوا ينتسبون أكثر الى البحر الأبيض المتوسط وورثوا عن سابقيهم القابسين موهبة ممتازة في نحت الصوان الجميل. إن حصيلة أدواتهم مدهشة وكثيرا ما تذكر الصفائح الدقيقة المهذبة بالحلل. وتضاف الى المثاقب والحدود والمكاشط الصغيرة، حجارة صغيرة هندسية الشكل متكونة على حسب الصفائح، وهي منحرفات، ومستطيلات ومثلثات، وقطع مستديرة. وهم لا يجيئون رغم ذلك فن الصيد لأنهم كانوا يصنعون أسلحة عديدة من حدود السهام التي أصبحت اليوم مع الأسف موضوع تجارة سياحية هامة. وكانت الفؤوس المصقولة عديدة ولم تكن ذات شكل قصير، كما كانت في العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية. وبخلاف ذلك فإن التقاليد القابسية تخصص مكانة أهم للأدوات الحجرية التي لها أيضا تقنيّة متنوعة. وهنا أيضا نجد الإنسان يعرف كيف يصقل القطع الحجرية الصلبة و يصنع حسب كرات مستديرة تماثيل بدعية صغيرة مثل بقرة سلت وكبش تمنيت وغزالة إيمكاسن. إلا أن الفخار يعتبر أقل ثراء من حيث الأشكال والتزيينات وذلك لا يعني أن الصناع كانوا محدودي الخيال لأنهم يعبرون عن ذلك الخيال من خلال قدرتهم على ترويق بيض النعام الذي يصنعون منه كاملا، أوأني (مهشمة) ودررا عديدة. ولقد احتفظت قطع كثيرة من القشرة برسوم رقيقة خطية. و يوجد بالطبع بهذا الإطار رحي ثابتة ومهاريس ونعلم أن جزءا من هذا التراث قد استعمل لهرس الأصباغ، ويحتمل أن يكون ذلك لدهن الاجسام.

إن العصر الحجري الجديد غير معروف كثيرا لأن الاعمال التي تتعلق به لم تشر بعد. إلا أننا نعلم أنه توجد، ابتداء من المغرب وعلى طول الساحل الأطلسي ترسبات لا تخص من الصدف تشكل أحيانا «تلالا». مخلوطة بالرماد ويقطع خزفية، وذلك هو الشأن حتى السنغال. ولكن يبدو أنه في تلك المنطقة، حل محل ذلك الجنس جنس آخر من قبل التاريخ بقي علينا أن نبين لماذا - عند حدود موريتانيا وساحل الذهب. لماذا حل محل الحُرُف ذي القعر المستدير أو المسطح المعروف بالصحراء، خزف آخر بديع ذو قعر مغروطي. ولكن هذا المظهر الثقافي يستحق أن نكتب حوله الدراسات.

وفي اتجاه الشرق، بمنطقة العاشر، في آدرار بوس، نجد منجما يتميز تميزا واضحا عن المظاهر الأخرى المعروفة من العصر الحجري الجديد الصحراوي، مهما كانت أصولها، وهو الذي دعي بالتينيري. فلقد استخرج من يشب أخضر فاقع ونشأت منه أدوات رائعة. فهو عصر حجري جديد ثري الأشكال، يذكرنا بالعصر الحجري المصري وفيه أسطوانات منبسطة، وهياكل مزوقة بزهور اللوتس، ومكاشط غخرة تسمى «الالهة»، ومجارف لها قاطع صقله الاستعمال، ويمكن أن تكون بطبيعة الحال مجرد توافق، ولكن قد يكون من المستغرب أن تكون بنت الصدفة. ويضاف الى ذلك

أن بعض الرحى القارة المتصلة بهذا المركب الرائع، تشابه نفس الرحى التي توجد بالرسوم الناتئة المصرية. ولنا أن نعتقد أن أدرار بوس كان قد احتله أناس لهم صلات وثيقة بالنيل وإن كانوا قد استعملوا — وهذا أمر غريب — خزفا يشابه كل الشبه خزف العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية، لكن ألم يسبق لتلك التقاليد أن استمدت نماذجها من الشهاب؟.

لقد كانت الغابة بكثيفة وأكثر خضرة من يومنا هذا، وذلك بجنوب خط البحيرات، وفي عهد كان أكثر رطوبة. وذلك ما يفسريدون شك أنها تقوم حاجزا لم يتجاوزه الناس الذين أقاموا بالصحراء والحقيقة أنه لم تبدأ الأحديثا دراسة العصر الحجري الجديد الغابي الذي سمي، تونسيا للسهولة ولتقدمه زمنا «بالغني» وإن كان في الواقع آتيا من مكان بعيد ويحتمل أن يكون من الكنفور.

الخاتمة

إن دراسة ماضي الصحراء الشيق مازال في مراحله الأولى. فهي توفر للاختصاصيين ولذوي العزائم فرصة استثنائية لا بد من اغتنامها قبل أن يجرمنا استثمار المدخرات الطبيعية الى الأبد من الاطلاع على أسرار المشاكل التي تهم ماضي الإنسان. إن الإنسانية ستصنع مستقبلها إذا وعت ماضيها، لأن تجربتنا لا تقتصر على الحاضر لكنها نابعة مباشرة من ما قبل التاريخ. إن نكران ذلك يجرمها من كل ركيزة معقولة، ومن كل قيمة علمية. ولقد انتهى اعتبار ما قبل تاريخ الصحراء بحثا فرديا ليصبح مبادرة جماعية تعتمد على فريق كامل، وعلى وسائل متوفرة. ومن المؤسف أن نلاحظ بأن مثل هذه البحوث مهمة. فعلى الذين يملكون هذه الصحراء الكبيرة القاسية ان يكونوا الرجال القادرين على أن ينتزعوا منها أسرارها.

الفصل الرابع والعشرون

افريقيا الغربية في ما قبل التاريخ

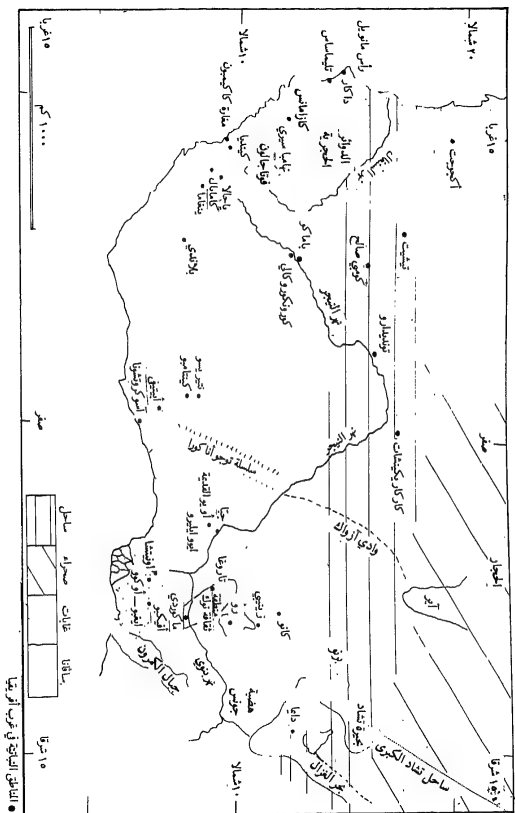
بقلم: ثورستان شوا

المناخ والبيئة

إن المناطق المناخية والنباتية الرئيسية تشق كامل إفريقيا الغربية من الشرق إلى الغرب، وتنزل الأمطار الأكثر غزارة قريبا من الساحل، وهي تنقص كلما اتجهنا نحو الشمال، في الدواخل. أما في الشمال، فالجزء الجاف لمنطقة الساحل، يحده القسم الجنوبي من الصحراء. وفي الجنوب نجد منطقة الساسب الكبرى، و يوجد بين منطقة الساسب والغابة المدارية الكثيفة للطبقة التي تمتد بحاذة الشاطئ، منطقة غابية متدهورة مستصلحة للزراعة. قد حولتها إلى الإنسان إلى منطقة ساسب.

إن الأمطار لا تنزل إلا حسب فصول معينة وهي تتكاثر في الجنوب من أبريل إلى أكتوبر (مع بلوغ حد أعلى في يوليو وأكتوبر). وتتواصل في الشمال من يونيو إلى سبتمبر وتأتي بتلك الأمطار الرياح الجنوبية الغربية التي تتشعب بالرطوبة فوق المحيط الأطلسي، وإلى جانب ذلك فإن الجهة المدارية تقسم إفريقيا الغربية من الشرق إلى الغرب، ففصل الكتلة الهوائية البحرية المدارية المتكونة فوق المحيط الأطلسي الجنوبي عن كتلة هواء الصحراء القارية والجافة. إن موقع هذه الجبهة يختلف حسب الفصول. ففي شهر يناير تستقر في أقصى الجنوب بحيث أن الرياح العاصيات الشمالية القادمة من كتلة الهواء الجاف الشمالية تنزل مباشرة على الساحل الغربي حيث تتسبب في انخفاض درجة الرطوبة انخفاضاً كبيراً.

وينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار معطيات هذا المناخ وهذه النباتات حتى نفهم عصرنا قبل التاريخ في إفريقيا الغربية وكذلك علم آثارها: إن وضعية مختلف المناطق النباتية واعتدادها.



وكذلك موقع الجهة المدارية الداخلية قد خضعت في الماضي لتنوعات أثرت في الظروف التي عاش فيها إنسان إفريقيا الغربية في مختلف العصور.

يوجد في هذه المناطق النباتية عدد من الخصوصيات الجغرافية التي تؤدي إلى تبدل الاطار العام تبدلات محلية؛ وذلك هضبة فوطاجلون ومرتفعات غينيا، وكذلك سلسلة جبال الأتاكورا في الطوغو، ومنها في الكرون هضبة باونشي ومرتفعات مندرنا، ومنها كذلك الدلتا الداخلي لنهر النيجر ومنعطفه الكبير نحو الشمال، وبحيرة تشاد، ودلتا مصب النيجر. ويوجد بين غانا ونيجيريا حزام الغابة المدارية الرطبة الذي يمثل حلا للتواصل بين جسمي «فجوة الداهومي».

انسان ما قبل التاريخ

الآثار الإحاثية

أذا فرغنا من إفريقيا الغربية لم تنتج إلى حد الآن لا آثار للأشكال الإنسانية القديمة (أو البشريات المشابهة لما تم اكتشافه في إفريقيا الشرقية والجنوبية (١)، ولا أدوات للعصر نفسه (٢). فهل يمكن القول بأن كائنات كهذه قد وجدت في إفريقيا الغربية؟ فهل النقص الحالي في المعطيات راجع إلى أن تلك البشريات لم تحش في تلك المنطقة في ذلك العهد؟ أو أننا نفتقر فقط وبصورة مؤقتة إلى الشواهد؟ انه سؤال يستحيل في الوقت الراهن أن نجيب عليه. على أننا لاشاهد في إفريقيا الغربية أي جهود في ميدان البحث يمكن أن نقارنه بالجهود التي كانت إفريقيا الشرقية اطارا لها. ويجب أن نقر أيضا ان المتاجم التي لها نفس القدم تبدو اقل بكثير. ومن المعلوم كذلك أن ظروف المحافظة في تلك المنطقة أضعف بكثير نظرا إلى ارتفاع درجة الرطوبة وحموضة التربة (٣). وذلك ما توضحه معطيات عصر هو أقرب إلينا نسبيا: إذ أن خريطة توزيع اكتشافات الآثار البشرية العظمية في إفريقيا بالعصر الحجري المتأخر تظهر فراغا تاما بالنسبة لمنطقة الكونغو وإفريقيا الغربية (٤). على أنه، منذ وضع هذه الخريطة، حصلت اكتشافات في نيجيريا وغانا وهي تبين أن هذا الفراغ يدل على وضعية معينة للبحث أكثر مما يدل على انعدام حقيقي للآثار ما قبل التاريخ (٥). ويمكن أن يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى الفترة الأكثر قديما والتي سندرسها (٦). ومن المحتمل أن يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى خريطة توزيع أحفورات مناجم الفقاريات بالبليستوسين الأسفل والوسط الذي يوجد به نفس الفراغ (٧). فيقدرنا نستطيع أن نرجع إلى الماضي القديم يبدو أن عددا من مناطق إفريقيا الغربية قد كانت لها ظروف بيئية قريبة جدا من الظروف التي سمحت بتطور

(١) ر. أ. ف. لايفي، ١٩٧٣.

(٢) م. لايفي، ١٩٧٠.

(٣) كلارك، ١٩٦٨، ص ٣٧.

(٤) غابل، ١٩٦٦، ص ١٧.

(٥) شوا، ١٩٦٥، المذكرات الإفريقية، ١٩٦٦، وقائع بروكسل وشوا، ١٩٧١، فلايت ١٩٦٨، ١٩٧٠.

(٦) كورنيس، ١٩٦٦، مجلة العهد الفرنسي لإفريقيا السوداء، ٣٧٣.

(٧) كورنيس، ١٩٦٦، مجلة العهد الفرنسي لإفريقيا السوداء، ص ٣٧٤.

الأسطروالوبيتيك بإفريقيا الشرقية، وذلك لا يعني، طبعاً أن هذه المناطق قد كانت مسكونة بالفعل ويمكن اليوم لقطاعات عديدة من الغابة المدارية أن توفر حاجات قرود الغوريلا. ولكننا لا نجد في الواقع إلا في موضعين محدودين جداً (٨) هذا، وبقطع النظر عن نوع من التشابه في الظرف، فإن منطقة سباسب إفريقيا الغربية لا تتوفر فيها حيوانات الصيد، من حيث الكثرة والتنوع، مثلما هو الشأن بإفريقيا الشرقية (٩).

لقد وفر الجزء الجبهي الوجهي لجمجمة عثر عليها على بعد ٢٠٠ كلم غربي الجنوب الغربي من لارجو، وفر عنصرًا إيجابيًا يسمح بأن نعتقد أنه يمكن العثور على عدد من البشر بات. الأول من أول البليستوسين بإفريقيا الغربية. ولقد سمي هذا النموذج الإنسان التشادي الأوكسريس (١٠)، واعتبرنا في البداية أنه من سلالة الأسطروالوبيتيك (١١) إلا أنه بعد ذلك أقرب إلى الإنسان الماهر (١٢). وفي الحقيقة يصعب أن يحكم في شأن هذا النموذج، وذلك لانعدام تأريخ مضبوط، ونظراً إلى جزئية هذا الأثر. إن دراسة هذه الجمجمة التي تمثل خصائص عتيقة ومتطورة، دراسة شاملة توحى بتطور نحو الإنسان المستقيم (١٣) الذي يمثل مرحلة أكثر تطوراً من تطور البشر بات والذي له سعة جمجمية تقدر بما بين ٨٥٠ إلى ١٢٠٠ سنتم ٣. وينبغي أن نكرر القول إن إفريقيا الغربية لا توفر مثلاً لذلك الشكل، رغم أن نماذج من النوع نفسه المسماة بالإنسان الأطلس الموريتاني قد وجدت في الجزائر (١٤).

الصناعات

بالرغم من أن أدوات إنسان ما قبل التاريخ قد نحتت سواء من العظام أو الخشب أو الحجارة فإنه من النادر أن يبقى الخشب، كما أن تركيب تربة أراضي إفريقيا الغربية غير ملائم لصيانة العظام. وتتكون الأدوات الحجرية الأكثر قدماً وبساطة — باستثناء الشظايا المستعملة والمصنوعة صنعة رديئة — تتكون من حصاة أو كتل منحوتة بالطرق لتوفر أدوات ذات حد يتراوح طوله بين ٣ و١٢ سم. ونشير إلى هذه الأدوات باسم الحصاة المهيأة أو الأدوات الأولدوائية، نسبة إلى الفج المسمى بهذا الاسم في تانزانيا. إن هذه الأدوات كثيرة الانتشار في إفريقيا، والناس الذين صنعوها قد تمكنوا من أن ينتشروا كثيراً في أغلب سباسب القارة وأدغالها. وقد عثر في أماكن عديدة من إفريقيا الغربية على أدوات مماثلة (١٥). على أنه لا يوجد حتى الآن ما يؤكد أنها تنتمي إلى نفس

(٨) دورست، وندلو، ١٩٧٠، ص ١٠٠.

(٩) دورست، وندلو، ١٩٧٠، ص ٢١٣ — ٢٢٣.

(١٠) كميل، ١٩٦٥، ص ٩، ٤.

(١١) كوبنس، ١٩٦١.

(١٢) كوبنس، ١٩٦٥، كوبنس ب، ١٩٦٥، أعمال المؤتمر الإفريقي الخامس، كوكس، ١٩٦٥.

(١٣) كوبنس، ١٩٦٦، أثربولوجيا.

(١٤) أرتينوغ وهفستاتر، ١٩٥٤، ١٩٥٥، أرتينوغ، ١٩٦٤، ١٩٦٦.

(١٥) ديفيس، ١٩٦١، ص ٤٤١؛ ديفيس، ١٩٦٤، ص ٨٣ — ٩١؛ موني، ١٩٦٣؛ سويسر، ١٩٦٥؛ ص ١٧٧؛ هوفو، ١٩٦٦، مجلة المعهد الفرنسي لأفريقيا السوداء.

العهد الذي تنتمي إليه صناعة الأولدواي التي تقع في إفريقيا الشرقية بن - مليونين و٧٠٠ سنة. إن دراسة دقيقة للحصاة المبهأة المكتشفة على طول نهر غمبيا في السنغال قد بينت أن البعض منها يمكن أن يكون منتميا إلى العصر الحجري الحديث، في حين أن بعضها الآخر ينتمي إلى العصر الحجري المتأخر. ولا يوجد أي عنصر طبقي يسمح بأن نعدّها صناعة ما قبل أشولية (١٦). فلا يمكن لنا أن نتأكد من أقدمية الحصاة المبهأة إلا إذا كان ضبط تأريخها يرجع إلى اكتشافها في بيئتها، أي في مناجم يمكن بدورها أن تؤرخ تأريخا نسبيا أو مطلقا. أن علم الاحاثية يسمح بضبط تأريخ نسبي لمناجم يايو التي وجدها الإنسان التشادي على أنه لم يعثر فيها مع الأسف، على أية أداة. ويبدو من المعلومات التي وفرتها عظام فرس البحر (إيماغونكولا) المنقرض حاليا والتي استخرجت من بئر في بورنو (١٧) (Bornoo) يبلغ عمقه ٥٨ مترا أنه من المحتمل أن رواسب حوض التشاد تحتوي على آثار احاثية وكذلك أثرية من بداية البليستوسين، إلا أن هذه الآثار تقع الآن تحت طبقة كثيفة جدا من الطمي أحدث منها.

التغيرات المناخية

حدثت في أوروبا خلال الدهر الرابع مراحل جمودية عديدة وقد سميت المراحل الأربع الرئيسية منها بأشهر ألمانيا. ونحن نعرف الآن أنه رغم وجود نسق وخصائص صالحة بصفة عامة بالنسبة إلى الظواهر الجمودية، يجب مع ذلك أن نأخذ بعين الاعتبار عددا من المتغيرات المحلية. فكان من نتيجة ذلك أن استعملت أسماء محلية بالنسبة إلى كل منطقة. ويبدو أن النتيجة هي أكثر قربا من الواقع (١٨) رغم أنها أكثر تعقيدا.

ولقد كان كذلك الشأن بالنسبة إلى إفريقيا حين قام الباحثون الأوائل، اعتمادا على آثار الشطوط البحرية المرتفعة إثر مراحل الإجماع وتجميع الحصى الكبيرة، قاموا باكتشاف الآثار الخاصة بفترات الدهر الرابع التي كان خلالها المناخ الإفريقي أكثر رطوبة من يومنا هذا. إن هذه الحقب التي تتصف بغزارة أمطارها سميت «مطارات». ولما تم قبول مفهوم المراحل الجمودية بالنسبة إلى المناطق الشمالية المعتدلة فإن الطبيعي أن توجد مرحلة مطارية تقابل، في الجوالداري الحار، المراحل الجمودية في أوروبا وأمريكا الشمالية (١٩). فمرور الزمن أصبح مفهوم ثلاث مراحل مطارية إفريقية ثم أربع مراحل سنة متباعدة (٢٠). وهناك افتراض بأنها كانت توافق جموديات العهد الجمودي الأوروبي (٢١) مع أنه اقترحت نظرية جديدة تفيد أن مرحلة مطار إفريقية واحدة تقابل تجمدين شماليين اثنين (٢٢). إن تقديم اقتراحات هي على ما هي عليه من اختلاف

(١٦) موني، ١٩٦٨، ص ٤٣٨٣. إير. باي. وديكامب، ١٩٦٩.

(١٧) تمام، ١٩٤٤، ص ٣٩.

(١٨) غلت، ١٩٧١، سيرك، وواست، ١٩٧٢.

(١٩) وايلند، ١٩٣٤، ١٩٥٢.

(٢٠) ل. س. ب. لاكي، ١٩٥٠، ل. س. ب. لاكي، ١٩٥٢، قرار ١٤ (٣) ص ٧. كلارك ١٩٥٧ ص ٣١، قرار ٢.

(٢١) نلسن، ١٩٥٢.

(٢٢) سمين، ١٩٥٧.

يدل على استحالة اقرار توافق تاريخي دقيق. ومن المؤكد أن لا نقر بالنسبة للمسافات الطويلة التوافقات الجيولوجية تبعاً للمناخات، بل حسب التشكلات الصخرية. وبالإضافة إلى ذلك فإن آثار المراحل الممطرة التي هي أقل وضوحاً بكثير من آثار التجمدات قد تسببت في كثير من اللبس (٢٣). وبتطور الزمن أعيد النظر من جديد في فرضية مراحل الممطرات الأربعة (٢٤).
إن إفريقيا الغربية لم تسلم هي أيضاً من طريقة القياس، لأن بعض العلماء أخذوا يستعملون النتائج المتحصل عليها في مناطق أخرى من القارة لإعطاء مدلول المعطيات كانت ستبقى معزولة أو صعبة التأويل (٢٥) إلا أنه طرأ حديثاً عاملان مكنان من تحسين المقاربة العلمية فيما يتعلق بإفريقيا الغربية: يتمثل أولهما في بحث أكثر عمقا في هذا الموضوع (٢٦) وثانيهما في ظهور نظرية جديدة في التنوعات المناخية في إفريقيا (٢٧).

وفيما يخص هذه التقلبات المناخية فإن إفريقيا الغربية لا توفر أية معلومات جيولوجية أو جيومورفولوجية جديرة بالثقة تنتمي إلى ما قبل المرحلة التجمدية الأخيرة في أوروبا. إن دراسة بحيرة التشاد تبرز وجود مستويات عالية ابتداء من ٤٠٠٠ سنة (٢٨). إن هذا المستوى العالي تحدده قمة باما التي يقوم عليها ميدوغوري والذي هو في هذا الموضوع يتمحور شمالياً غربياً وجنوبياً شرقياً، ثم يتسع الطرفان نحو الشمال الشرقي مطوقين لارجو وغوربوديلي بأكمله، وبحر الغزال. إن تشكل هذه القصة، التي تعتبر حاجزاً بحرياً أكثر مما تعتبر الخط الحقيقي للصفحة، يمكن أن يكون قد دام ٦٠٠٠ سنة (٢٩). إن البحيرة القديمة كانت تقع فوق مستوى سطح البحر بـ ٣٣٢ م، في حين أن الارتفاع الحالي للتشاد هو ٢٨٠ م. وكان يحدث أن يفيض في مصب البنغور وأن يصرف مياهه في البيئوي و يبدو أن ذلك أنه خلال هذه الفترة الأكثر رطوبة كانت غابة إفريقيا الغربية قد امتدت امتداداً محسوساً إلى الشمال أكثر مما هي عليه اليوم. على أنه يستحيل أن نؤكد أن كانت قد بلغت الدرجة ١١٠ من خطوط العرض الشمالية (٣٠) أو خط التقاطع بمقدار ٧٥٠ م الحالي (٣١) ما دامت البليولوجيا لم تؤكد لنا ذلك.

و يبدو أن إفريقيا الغربية كانت أكثر جفافاً مما هي عليه الآن وذلك تقريباً في النهاية الأخيرة من التجمد الأخير في أوروبا الغربية، ذلك التجمد الذي تقع بدايته في حدود ٢٠٠٠ سنة. وقد كانت أنهار تلك المنطقة في ذلك العهد تصب مياهها في محيط ينخفض بـ ١٠٠ م عن مستواه الحالي وذلك نتيجة لكمية المياه الضخمة التي كانت محصورة في القبعات الجليدية في القطبين، ذلك فإن البيئوي قد حفر مجراه في ماكوردي، في حين كان المجرى الأثري لنهر النيجر يوجد في جبة

(٢٣) كلارك، ١٩٥٧، ٣١، قرار، بوتزر، ١٩٧١، ص ٣١٢ - ٣١٥.

(٢٤) قلنت، ١٩٥٩.

(٢٥) بند، ١٩٥٦، ص ١٩٧ - ٢٠٠، ب. ا. ب. فاتح، ١٩٥٩، ٢٩١، دافيس، ١٩٦٤، ص ٩ - ١٢، بيلاس، ١٩٦٧.

(٢٦) الجمعية السنغالية للدراسة الدهر الرابع، ١٩٦٦، ١٩٦٧، ١٩٦٩، بورك، وآل، ١٩٧١، بوتزر، ١٩٧٢، ص ٣١٢ - ٣٥١.

(٢٧) زنديرن باكر أ. م. فان، ١٩٦٧.

(٢٨) سرفنت وآل، ١٩٦٩، غروف ووارن، ١٩٦٨، بورك وآل، ١٩٧١.

(٢٩) غروف، و بولون، ١٩٦٤.

(٣٠) دافيس، ١٩٦٤.

(٣١) دافيس، ١٩٦٠.

(Djbbā) تحت ٢٥م من مستوى سطح البحر وهو يزداد غوصا في أوبيتشا (٣٢) ولقد كان نهر السنغال يسيل في مجرى دون مستواه الحالي بكثير، وتوجد كثبان كبيرة من الرمل تسد مصبه، وكذا الأمر أيضا بالنسبة للمجرى المتوسط لنهر النيجر. إن نهر التشاد كان زمئذ جافا وتكونت كثبان رملية في قاع البحيرة وفي عدد من المناطق بنيجيريا الشمالية وذلك ما يشير إلى أمطار سنوية تقل عن ١٥٠مم، في حين أنها في أيامنا هذه تتجاوز ٨٥٠مم. وبالرغم من انعدام توازن قاطعة، إلا لبعض ترسبات مصعب نهر السنغال والمناطق المجاورة لبحيرة التشاد فإن كل الأدلة الأخرى تتضافر على تأكيد فترة جافة بصفة عامة وذلك في حدود ١٨٠٠ سنة. ولئن كانت كثبان الرمال قد تكونت في خط عرض كانوا، فإن السباسب والمنطقة الغابية قد انحسرت بعيدا نحو الجنوب. ويحتمل أن تكون الغابة كلها تقريبا قد اضمحلت باستثناء بقايا غابات في مناطق هي أغزر أمطارا. مثل سواحل ليبيريا وجانب من ساحل العاج ودلتا النيجر وجبال الكرون.

ويسدو أن الظروف الطبيعية قد تطورت في حوالي ١٠٠٠ سنة نحو رطوبة أقوى، فنهز النيجر عند مروره في بلاد مالي يفيض فوق عتبة الطاوسا، والتشاد الكبير كما كان يسمى (٣٣)، يغطي من جديد مساحة شاسعة. وقد تلونت بصبغة حراء الكثبان الرملية التي تكونت خلال الفترة الجافة السابقة وذلك اثر وجود فصول سنوية أكثر رطوبة. لقد وجدت آثار فحم خشبي مبشرة في أيغيو-أوكو، ويرجع تاريخها إلى ١١٠٠٠ أو ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وقد تكون دليلا على نيران ادغال، وعلى تواصل الحياة في ذلك العهد وبتلك المنطقة لمجموعة نباتية من النوع السبسي (٣٤). ويحتمل جدا أن تكون الغابة خلال ذلك العهد قد تقدمت من جديد شمالا انطلاقا من مناطق انحسارها في الساحل، حيث ظلت قائمة خلال الفترة الجافة السابقة. إن النظرية التي تسمح بالربط بين الأحداث المناخية لنهاية الدهر الرابع في إفريقيا الغربية، وبين الأحداث المناخية في أوروبا الشمالية، هي نظرية ترتكز على حجج عديدة قوامها الخاصية العامة لتغيرات درجة الحرارة في العالم كله، فلقد تسببت في انزلاق المناطق المناخية من كلا جانبي خط الاستواء، وهو انزلاق حدد صورته شكل الكتل الكبيرة البرية والمحيطية (٣٥). فكلما انخفضت درجات الحرارة العالمية نتج عن ذلك في خطوط العرض الشمالية تجدد دفع نحو الجنوب الاعصار المعاكس القطبي، أما المناطق المناخية الواقعة خارج ذلك النطاق، فيقع عليها ضغط نحو خط الاستواء، بحيث أن الجبهة المدارية الشمالية تتحول إلى جنوب موقعها الحالي. ونتيجة لذلك كانت رياح الشمال الشرقي الجافة تهب بقوة ولدة طويلة، ومن طرف إفريقيا الغربية إلى طرفها الآخر، بينما كانت الرياح المطيرة الجنوبية الغربية المسماة بالرياح الموسمية تمصف ضعيفة وعلى مسافة قصيرة، وذلك خلال الفصل الرطب، وهو ما يفسر التسطابق التقريبي بين فترة جافة في إفريقيا الغربية وبين فترة جردية شمالية، ولقد كان شمال الصحراء في الوقت نفسه أكثر رطوبة مما هو عليه اليوم لأن مسار أعاصير المحيط الأطلسي كان يؤدي إلى جنوب الأطلس، بدل أن يمر على شمال تلك السلسلة الجبلية.

(٣٢) فوت، ١٩٦٢، وفور، وإيلوار، ١٩٦٧.

(٣٣) مور، ١٩٦٣، سرفنت وآل، ١٩٦٦.

(٣٤) شوي، ١٩٧٠، ص ٥٨ - ٩١.

(٣٥) باكر، ١٩٦٧.

ولما ارتفعت درجة الحرارة في العالم انحسرت القبعات الجليدية شمالا ووقع الأمر نفسه بالنسبة للجهة المدارية واستقرت مستويات البحار في ارتفاعها الحالي وأصبحت صحراء الشمال أكثر جفافا لثرت تنقل مسار أعاصير المحيط الأطلسي نحو الشمال. إلا أن المدخزات المائية والنباتية كانت كافية لتأخير موعد جفافها النهائي إلى تاريخ أبعد من ٣٠٠٠ سنة. ولما أصبح هذا الجفاف على هذه الدرجة بحيث لم يعد في إمكان السكان أن يواصلوا الحياة في الصحراء خصلت بطبيعة الحال انعكاسات على المناطق الواقعة في الجنوب.

العصر الحجري

إن مصطلحات «عصر حجري قديم» و«عصر حجري قديم لاحق» و«عصر حجري محدث» مازالت مستعملة في إفريقيا الشمالية، وبالمقابل لذلك فإن علماء آثار إفريقيا جنوب الصحراء قد رأوا منذ مدة طويلة أنه من الأفضل استعمال اصطلاح خاص بهم ومركز على واقع القارة، لا على نظام أوربي مفروض من الخارج. إن هذا الاصطلاح صودق عليه رسميا في المؤتمر الإفريقي الثالث لما قبل التاريخ، وذلك منذ ٢٠ سنة تقريبا. لذلك فإننا سنستعمل مصطلحات «العصر الحجري المبكر» و«العصر الحجري الوسيط» و«العصر الحجري المتأخر» (٣٦). إن الحدود لتقسيمات العصر الحجري هذه تختلف قليلا من منطقة إلى أخرى. ويمكننا بصورة تقريبية جدا أن نضبط العصر الحجري المبكر من ٢٥٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ سنة، والعصر الحجري الوسيط من ٥٠٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ سنة، والعصر الحجري المتأخر من ١٥٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ سنة. إن توفر المعلومات الجديدة قد فرض على التقسيمات والتأريخات البسيطة جدا أن تتحور وأن تستدعي تقدما أكثر شمولا (٣٧). وقد أصبح استعمال مصطلح «عصر حجري حديث» عرضة للنقد وذلك عندما يطبق على واقع إفريقيا جنوب الصحراء، لأن هذا المصطلح هو في الحقيقة مصطلح غامض إذ أننا لا نعرف بالضبط إن كان يشير إلى حقبة أو إلى تكنولوجيا أو إلى نمط اقتصادي أو إلى هذه الأمور الثلاثة مجتمعة.

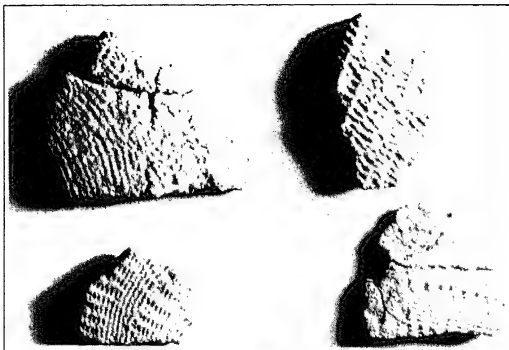
العصر الحجري المبكر في إفريقيا الغربية

الأشولي

تركزت مجموعة الصناعات الأولدواينية مكانها في إفريقيا الشرقية والجنوبية والشمالية الغربية للمركب الذي يعرف باسم الأشولي والذي يتميز بذوات الوجهين. إنها أدوات ذات شكل بيضوي أو بيضوي مذهب قد نحت حدها على كامل محيطها ومن الوجهين بكامل الدقة. والقدم نموذج آخر متميز وله حد مستقيم بالعرض. وبالرغم من أن نصف المواد الغذائية على الأقل كان متعلقا بالنساء والأطفال الذين كانوا يجمعون العنبيات والحبوب والجلود فإن الرجال كانوا يجمعون وينسقون مجهوداتهم لصيد الحيوانات الكبيرة. وقد عرفت النار في إفريقيا منذ نهاية الحقبة الأشولية.

(٣٦) كلارك، ١٩٥٧، قراقرز.

(٣٧) بيثوب وكلارك، ١٩٦٧، ٦٨٧ - ٨٩٩/أشولي، ١٩٦٧، ص ٩ - ٤٣؛ فيجل وبومان، ١٩٧٢.



- (١) خنزف (شقافات مزخرفة) من رأس مانويل في السنغال، متحف الايفان (تصويراً. دياغي).
- (٢) أداة صقل أو تنعيم من العظم عثر عليها في موقع العصر الحجري الحديث في رأس مانويل بالسنغال، متحف الايفان، (تصويراً. دياغي).



بشكل نوع الإنسان المتسبب في صنع الأدوات الأشولية حيثما وجدت هو الإنسان المستقيم الذي تقل مقدرة دماغه عن مقدرة دماغ الإنسان المعاصر بشكل محسوس، إلى أنه من زوايا أخرى، قريب من هذا الأخير من حيث التركيب البدني.

إن النماذج ذات الوجهين التي تعتبر عادة قديمة (والتي كانت تسمى «شولية») لم يبق لها أثر في الصحراء. على أنه أشير إلى وجودها في السنغال (٣٨) وفي جمهورية غينيا (٣٩) وفي موريتانيا (٤٠) وفي غانا حيث وجدت ضمن الطبقات ملفوفة في طمي المسطحة المتوسطة (٤١) بقطع النظر عن دلالة هذه الوضعية من حيث الترتيب الزمني النسبي. وقد كان مجال توزيعها موضوع (٤٢) خراطة يستفاد منها أن المنطقة عامرة ابتداء من نهر النيجر على طول سلسلة جبال الأتاكورا وروابي الطوغو. إن المراحل الأخيرة للأشولي المتميزة بأدوات ذات وجهين منحوتة بالقارح اللين (من الخشب أو العظام) ووافرة في الصحراء شمال خط العرض السادس عشر. ولعله من المناسب أن نربط هذا التوزيع بالفترة الجيودودية الأوربية قبل الأخيرة (ريس)، أو لعله يمكن ربطه أيضاً بالأول الأقصى للتجمد الأخير (وورم). ويبدو أن الأمطار كانت في ذلك العهد أكثر غزارة في شمال الصحراء حين يبدو أنه لم يكن للمنطقة الصحراوية، إذا انتقلنا إلى الجنوب، إلا جاذبية قليلة بالنسبة إلى الصيادين القاطنين، على أنه يبدو أن الأراضي المرتفعة لهضبة جوس قد شذت عن القاعدة. ويحتمل أن المناخ كان في ذلك المكان أقل جفافاً وأنه ساعد على وجود مروج شاسعة تتخللها غابات، وهو ما كان يبحث عنه الإنسان الأشولي. فكان ذلك النجد اذن بمثابة منطقة شائعة من الأراضي القابلة للسكن الممتدة إلى جنوب العاير والمنطقة الأشولية من الصحراء (شمال خط العرض ١٦). وقد أرخت بعض المواد المتصلة بالأدوات الأشولية والتي وجدت في الحصباء القاعدية التي تملأ مجاري السيول المحفورة خلال الفترة الجافة السابقة، أرخت بواسطة الفحم ١٤ باعتبارها منتمية إلى عهد سابق لـ ٣٩٠٠٠ سنة قبل الحاضر (٤٣).

وعندما سكن الإنسان الأشولي هضبة جوس يحتمل أن مرتفعات فوطا جلون كانت ملائمة هي أيضاً لإقامة الإنسان بها. وقد اكتشف عدد من الأدوات الأشولية في تلك المنطقة (٤٤) ونجد كذلك آثاراً تنتمي إلى العصر الأشولي المتوسط والأعلى، مبعثرة حوالي نهر السنغال الأعلى وفي شمال هذا النهر الذي يمكن أن يعتبر همزة وصل بين منطقة فوطا جلون والمواقع المتكاثرة في موريتانيا. إن آثاراً أشولية قد عثر عليها في جنوب شرقي غانا وعلى طول سلسلة روابي الطوغو والأتاكورا، وهي آثار توحي بامكانية تسرب (٤٥) الإنسان من شمال هذه المنطقة التي لا بد أنها كانت توفر

(٣٨) كراباي، ١٩٥١.

(٣٩) كريتش، ١٩٥١.

(٤٠) مولي، ١٩٥٥ ص ٤٦١ - ٤٧٩.

(٤١) ديفيس، ١٩٦٤ ص ٨٦ - ٩١.

(٤٢) ديفيس، ١٩٥٩.

(٤٣) برندنس وأك، ١٩٦٥.

(٤٤) كلارك، ١٩٦٧ - الأطلس.

(٤٥) ديفيس، ١٩٦٤. كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.

محيطا ملائما لسكن الإنسان. ويدوأن التسرب لم يكن قويا جدا ولم يكتشف أي أثر أشولي في طبقات أرض المنطقة، وكثيرا ما يعسر أن تصنف نهائيا وباعتبارها أشولية مجموعات ضحلة أو عينات نادرة ما دامت أشكال عديدة تتداخل أو تلتبس بأشكال الصناعة السفونية (٤٦) التي تعتبر أكثر حداثة.

السفون

إن مجموعة الصناعات السفونية صعبة التحديد (٤٧). ولقد شك حتى في وجودها في إفريقيا الغربية (٤٨) فقد ظهر إلى الوجود مركب صناعي جديد مواليا في الزمن للأشولي ومحتفظ ببعض القطع من مجموعة أدواته مثل المنقرودي الوجهين، وقد اختفى القدم وندرت أشباه الأشكال الكروية بينما عادت الأولى للمناقر ذات الهيئة الثقيلة والكثيفة. ونجد كذلك سواطير نحت غالبا من الحصى.

إن توزيع العناصر السفونية هو في إفريقيا الغربية أكثر وقوعا جهة الجنوب من توزيع العناصر الأشولية (٤٩)، وهذا يدل على أنماط جديدة من الاستقرار. إن صناعة «كالب مانبال التي عثر عليها في دكار، اعتبرت في بداية الأمر صناعة منتمة إلى العصر الحجري الجديد (٥٠)، إلا أنها تعتبر اليوم صناعة سفونية (٥١) أو لعلها إحدى مخلفاتها المتأخرة. ويمكن أن نقول مثل ذلك بالنسبة إلى عدد من العناصر التي جمعت في بامكو (٥٢). وفي نيجيريا تقع الآثار السفونية في قسم من هذا البلد يمتد جنوب هضبة جوس شمال الغابة المدارية الكثيفة، وهي توجد على طول الأودية النهرية وفي الحصص على ارتفاع يتراوح بين ١٠ و ٢٠ م، فوق المستوى الحالي للنهر (٥٣). ونجد وادي نهر النيجر قريبا من بوسا صناعة تمثل خاصة في حصاة مهيأة، لكن لا أثر فيها للمناقر، ورغم ذلك فقد اعتبرت هذه الصناعة معاصرة للسفونية وذلك لأسباب جيولوجية (٥٤) وقد اكتشفت مجموعة الأدوات السفونية مبشرة عند أسفل سلسلة جبال أناكورا — الطوغو، وفي جنوب غانا (٥٥) وتلك الصناعات نادرة في شمال غانا لكنها وافرة نسبيا في جنوبها.

وفي غير هذه الأمكنة من إفريقيا (٥٦) نسبت إلى السفونية توارينغ ترجع إلى ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ومن الملاحظ أن المركب الصناعي السفوني يمكن أن يدل على الحاجة إلى التأقلم مع منطقة أكثر اشجارا وذلك في فترة أصبحت أكثر جفافا (٥٧). إن الصناعة السفونية في إفريقيا

(٤٦) ديفيس، ١٩٦٤، ص ٨٣ — ٩٧، ١١٤ — ١٣٧ — ١٣٩.

(٤٧) كلارك، ١٩٧١.

(٤٨) واي — أوفيس، ١٩٧٣.

(٤٩) كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.

(٥٠) كريباي وآل، ١٩٤٨، ص ٤١٣.

(٥١) ديفيس، ١٩٦٤، ص ١١٥، هوغو، ١٩٦٤، ص ٥.

(٥٢) ديفيس، ١٩٦٤، ص ١١٣ — ١١٤.

(٥٣) ديفيس، ١٩٦٤، ص ١١٣ — ١١٤، سوبر، ١٩٦٥، ص ١٨٤ — ١٨٦.

(٥٤) سوبر، ١٩٦٥، ص ١٨٦ — ١٨٨.

(٥٥) ديفيس، ١٩٦٤، ص ٩٨ — ١٠٠.

(٥٦) كلارك، ١٩٧٠، ص ٢٥٠.

(٥٧) كلارك، ١٩٦٤، ص ٢٣، ١٣٧ — ١٤٢.

الغربية لم تؤرخ البتة بحسب الكربون ١٤. وإن المواد السنغونية الموجودة بنفق خط السكة الحديدية في أسوكروكونا في غانا الجنوبية هي في مجموعها، سابقة لبينتش ٤، (Beach 4) من تصنيف ديفيس الذي يعتبره هونفسه مقابلا على الأقل لما بين مراحل غوتفاخ (Gottweig) (٥٨) وهي وضعية طبقية لا تزودنا بشيء بعد ذلك التاريخ المنتظر. وإذا كانت الحصاء الواقعة على ارتفاع يشراوح بين ٢٠١٠م، من النيجر قد رسبت، قريبا من جبة عندما ناسب مجرى النهر مستوى البحر العالي لـ «أوانشيريان» (٥٩) فإن وجود أدوات سنغونية غير مدرجة يشير إلى تاريخ قريب من ٣٠٠٠ سنة، في حين أن العينات المدرجة يمكن أن تكون معاصرة لها أو هي أكثر قدما منها. وقد يدل التوزع الجنوبي للسنغون في وسط غابني وعلى طول الأنهار، على نخط من الحياة هو بمثابة رد فعل على الجفاف الذي حصل منذ ٤٠٠٠ سنة. وقد بدأت بحيرة التشاد، بعد ذلك تمتلئ وتوسع ومن المحتمل أن تكون الحيوانات التي كانت تصطاد من قبل قد أصبحت أكثر ندرة وذلك بالتجفاف إلى الجنوب، وأن يكون تمدد صنع المناقر قد استجاب لحاجة الإنسان إلى قلع الجلود والعساقل أو إلى حفر الخنادق ليصطاد الحيوانات التي أصبح صيدها عسيرا.

العصر الحجري الوسيط في إفريقيا الغربية

إن مصطلح «العصر الحجري الوسيط» يطلق للدلالة على مجموعة من المركبات الصناعية الممتدة تقريبا بين ٣٥٠٠٠ و ١٥٠٠٠ سنة.

فالصناعات المنتمية إلى العصر الحجري الوسيط في إفريقيا الغربية معروفة معرفة ناقصة عما هي عليه في بقية إفريقيا الواقعة جنوب الصحراء. ولقد اكتشف عدد من العينات النادرة من نوع اللومبي في غانا (٦٠) وفي نيجيريا (٦١)، إلا أنه لم يوفر أحد منها توضيحات طبقية مرضية عن عمرها، واكتشفت على هضبة جوس وشمالها بأعلى روابي ليروس مجموعات هامة من الآلات تتميز بـ «أعقابها ذوات الوجوه» صنفت على أنها من العصر الحجري الوسيط (٦٢). وهي موجودة في نوك ضمن الطبقات بين الحصاء القاعدية المشتملة على أدوات أشولية وبين الترسبات الأكثر حداثة التي تحوي عناصر من ثقافة نوك (٦٣) وليست لها علاقة بالمركب الصناعي اللومبي بل هي قريبة من صناعات العصر الحجري القديم الوسيط بإفريقيا الشمالية، من النوع الشبيه بالموستيري عموما، وقد تعكس فقط من العيش أكثر تأقلا مع السبابس. وهناك إشارة إلى صناعات مشابهة في غانا وفي ساحل العاج (٦٤) وفي داكار (٦٥) وفي الصحراء الوسطى (٦٦) ولقد وفرت قطعة خشب وجدت

(٥٨) ديفيس، ١٩٦٤، ص ٢٣، ١٣٧ - ١٤٢.

(٥٩) فور والوار، ١٩٦٧.

(٦٠) ديفيس، ١٩٦٤، ص ١٠٨ - ١١٣.

(٦١) لقد اكتشفها بالسلح بمنطقة أفيكوالاستاذ د. برتل وهي من مجموعات جامعة نيجيريا في نسوكا.

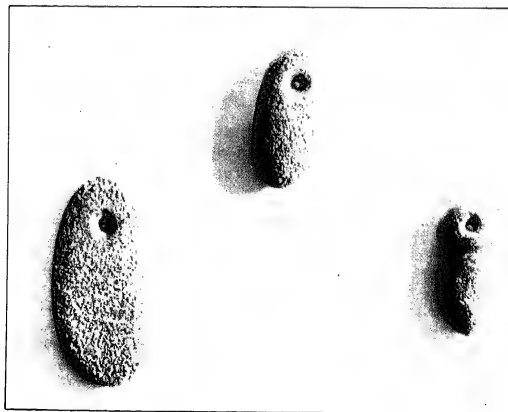
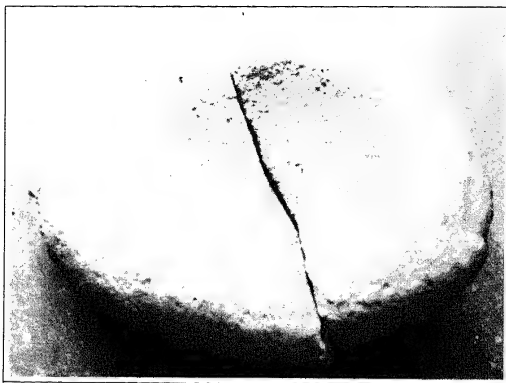
(٦٢) اسوي، ١٩٦٥، ص ١٨٨ - ١٩٠.

(٦٣) ب. أ. ب. فاغ ١٩٥٦ - الندوة العالمية الثالثة لغربي إفريقيا، ص ٢١١ - ٢١٤.

(٦٤) ديفيس، ١٩٦٤، ص ١٢٤ - ١٤٢، كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.

(٦٥) كراباي، وآل، ١٩٤٨، كراباي، ١٩٥١، ريشار، ١٩٥٥.

(٦٦) كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.



- (١) حجر رحي مكسور، من الصخر البركاني، عُثر عليه في موقع العصر الحجري الحديث في نفور. متحف الايفان، (تصوير أ. دياغني).
- (٢) دلايات تعلق في العنق من حجر البازلت، عُثر عليها في موقع الحجري الحديث في «بات دوا». متحف الايفان (تصوير أ. دياغني).

في منجم زني في شمال نيجيريا، وهو أحد المواقع الغرينية المحتوية على آثار شبه موسستيرية تاريخيا يقدر بـ 3485 ± 110 سنة قبل الميلاد. على أن الوضعية الدقيقة لقطعة الخشب تلك بالنسبة للأدوات الحجرية لم تضبط ضبطا دقيقا، ويعتبر تأريخها أكثر حداثة بقليل مما ينتظر من صناعة من هذا النوع (٦٧).

وفي تيمصاص قريبا من ساحل السنغال، أظهرت حفريات أثرية، من بين ما أظهرت حدودا ذات وجهين مدججة بأدوات من نوع أدوات «العصر الحجري القديم المتوسط والأعلى». وقد اعتبرت في البداية على أنها تشكل مزيجا من عناصر تنسب إلى العصر الحجري الحديث ومن عناصر أكثر قدما (٦٨). على أن دراسة أكثر دقة أظهرت أن تلك الحدود ذات الوجهين تشكل جزءا لا يتجزء من صناعة موجودة في الطبقات الجيولوجية لا تشتمل على عناصر أخرى من العصر الحجري الحديث ولذلك اعتبرت تلك الصناعة مثالا للصناعة شبه الموسستيرية المتميزة بعناصرها المحلية والتي تعوض في هذا المكان العاطري الذي يوجد نحو الشمال (٦٩). إن هذا المركب الصناعي ينتمي إلى نهاية العصر الحجري القديم المتوسط في الجزائر، وهو يمتد نحو الجنوب في الصحراء. وقد رأى فيه «ديس» في إفريقيا الغربية امتدادا يسميه «العاطري الغيني» (٧٠)، إلا أن حججه ليست مقنعة، وقد أصبحت موضع شك عند أغلب الباحثين (٧١).

العصر الحجري المتأخر

إن العصر الحجري المتأخر يتميز في كامل إفريقيا بظهور أدوات حجرية صغيرة جد سميت بسبب ذلك «الحجارة الصغيرة». إنها عبارة عن أشياء صغيرة نحتت بعناية لتشكل في قصبة سهام تشكل جزءها الحاد والشائك أو لتتجمع على أداة أخرى متعددة العناصر وهي تبين أن أصحابها كانوا يملكون القوس وأن الصيد به كان يلعب دورا مهما في اقتصادهم.

إننا في هذا الصدد نتحرج من استعمال «عصر حجري جديد» ومن غموض دلالاته ولذا يستحسن بالنسبة إلى إفريقيا أن نتجنب استعماله كلما أمكننا ذلك لا سيما فيما يتعلق بإفريقيا جنوب الصحراء (٧٢). إلا أنه يجب أن نأخذ بعين الاعتبار استمرار هذا الاستعمال في إفريقيا الشمالية وفي الصحراء. وفي الصحراء نجد عددا كبيرا من الصناعات سميت بمجموعة أدواتها «بالحجرية الجديدة» ويرجع تاريخها إلى المنطقة الوسطى إلى الألف السادسة قبل الميلاد. إن الظروف المناخية كانت أكثر رطوبة مما هي عليه اليوم، فكان أن ظهرت نباتات من نوع نبات البحر الأبيض المتوسط، وسكان رعاة، يقطع النظر عن أن أولئك الرعاة كانوا كذلك يتعاطون الفلاحة أو

(٦٧) برندنس، وآل، ١٩٦٥.

(٦٨) دافان، ١٩٥٦.

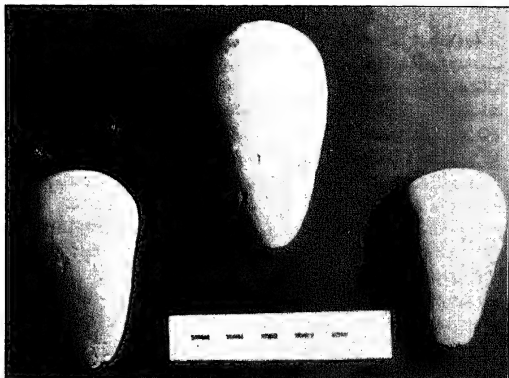
(٦٩) غيبر، ودوكان، ١٩٦٩.

(٧٠) ديس، ١٩٦٤ ص ١١٦ - ١٢٣.

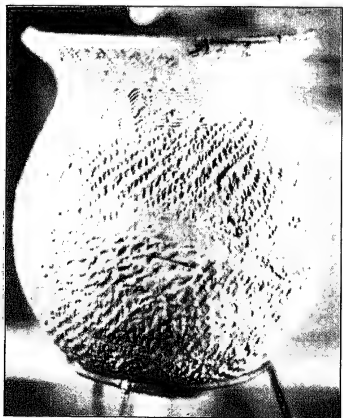
(٧١) هوفو، ١٩٦٦، أعمال المؤتمر الإفريقي الخامس.

(٧٢) بيشوب وكلايك، ١٩٦٧ ص ٨٩٨ قرار (ك)، كلايك ١٩٦٧، حلية التطوير إفريقيا. شو، ١٩٦٧ ص ٣٥ قرار ١٣،

مؤنس ١٩٦٨، ص ١١. والملاحظ أن بعض المؤلفين لا يوافقون على هذا الرأي.



١٠ قزوين مصقولة من حجر
السلولريت، من فترة «ابل اير»،
متحف الايفان، (تصوير أ. دياغني).
٢٠ وصاء فخاري من دياكيتي، من
العصر الحجري الحديث الفترة المسماة
«ابل اير». متحف ايفان (تصوير أ.
دياغني).



لم يكونوا (٧٣). ولقد ثبت وجود الفلاحين في برقة (ليبيا) في سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد (٧٤). إلا أنه قد ثبت الآن أن «العصر الحجري الجديد» ذا التقاليد القابسية الذي انتشر كثيرا في الشمال الغربي من أفريقيا والذي جاء على أثر زراعات العصر الحجري القديم اللاحق لم تكن له تقاليد فلاحية رغم أنه يمتد إلى أبعد من الألف الثانية قبل الميلاد (٧٥). لقد مضى الزمن الذي صنفت فيه اكتشافات في روفيسك بالنسغال ضمن العصر الحجري الجديد ذي التقاليد القابسية (٧٦) لكنه من الأفضل أن نعدها اليوم تمثل قسما من امتداد الحجارة الصغيرة المنتشر في أفريقيا الغربية.

إن امتداد هذه الصناعة الحجرية الصغيرة أو (الحجارة الصغيرة الغينية) منتشر أيضا خارج هذه الحفرات القريبة من دكا، في النصف الشرقي من أفريقيا الغربية (٧٧) إلا أنه في النصف الغربي لا أثر في المواقع الموجودة أكثر نحو الجنوب في منطقة لينبرنا وسييراليوني وجنوب جمهورية غينيا. لقد أنجزت الحفريات الأثرية الأولى في غينيا في عدد من الكهوف والمخاض تحت الصخور ويعود بعضها إلى سبعين سنة مضت (٧٨). ووجدت في بعض المواقع قطع ذات وجهين تذكر بأشكال أقدم من العصر الحجري المتأخر، وقد رأى فيها البعض معازق، وهو ما يعتبر شهادة غير مباشرة على وجود الفلاحة. إن هذا الاحتمال لا يجوز أن يرفض، لأن الرز كان في الماضي يعوض الانيام باعتباره زراعة رئيسية في النصف الغربي من أفريقيا الغربية. إن هذا الرز الإفريقي (أوريزا غلابريا) قد يكون تأقلم في منطقة دلتا نهر النيجر الأوسط (٧٩). إن بعض القطع العريضة من الصوان ذات المحيط المنحوت تحتنا خشنا (٨٠) تعتبر معازق ودليلا على قيام الفلاحة في غانا إلا أن الشواريخ والمقاربات مفقودة. إن أغلب المواقع في جمهورية غينيا قد وفرت حجارة صغيرة وفؤوسا من الحجار المقصولة وأرجاء وفخارا. وذلك شأن موقع في غينيا بيساو (٨١). ويوجد عدد من المواقع الغنية يشتمل على الفخار رغم أنه لا يظهر في كهف كاسمبون إلا في الطبقة العليا (٨٢). وأظهرت الحفريات التي أنجزت في المخاض الواقع تحت الصخر في بلاندي في الطرف الجنوبي الشرقي من جمهورية غينيا، أظهرت صناعة تشتمل على فؤوس حجرية وقطع فخار مختلطة بأدوات ذات وجهين كبسيرة تذكر بمشيلاتها في كهوف كنديا وفوطا جلون، لكنها لا تشتمل على العنصر الحجري الصغير (٨٣). فلا أثر للحجارة الصغيرة أيضا في كهف ينجا في سييراليوني حيث

(٧٢) هوفو، ١٩٦٣، ص ١٤٨ - ١٥١، موري، ١٩٦٥، كاميس، ١٩٦٩.

(٧٤) مالك بوري، ١٩٦٧، ص ٢٩٨.

(٧٥) روبي، ١٩٧١.

(٧٦) فوفري، ١٩٤٦، أليان، ١٩٥٧، ص ٢٢٩ - ٢٣٣، ديفيس، ١٩٦٤، ص ٢٣٦.

(٧٧) هوفو، ١٩٥٧، ١٩٦٤، ص ٤ - ٦، شوي، ١٩٧١، تاريخ أفريقيا الغربية، ص ٦٢.

(٧٨) هاسي، ١٩٠٠، غينجار، ١٩٠٦، ١٩٠٩، ديسبلان، ١٩٠٧، نشرة الجمعية الجغرافية، هيو، ١٩١٢، هوبرت، ١٩٢٢.

بروي، ١٩٣١، دلكرو وفوفري، ١٩٣٩، شو، ١٩٤٤.

(٧٩) برنز، ١٩٦٢، ص ١٩٧ - ١٩٩.

(٨٠) ديفيس، ١٩٦٤، ص ٢٠٣ - ٢٣٠.

(٨١) ماتوس، ١٨٥٢.

(٨٢) هاسي، ١٩٠٠.

(٨٣) هولاس، ١٩٥٠، ١٩٥٢، هولاس وموني، ١٩٥٣.

كشف المستوى الأكثر قدما عن صناعة صغيرة من شظايا الصوان قارنها الباحث بصناعة إيشنغو على بحيرة إدوار. (*) ففي المستوى الأوسط نجد منازق ومعايق ذات وجهين تشبه قسا من أدوات الكهوف الغينية، قد عدها الباحث مركبا صناعيا لومبيا. وأخيرا، وفر المستوى الأعلى فؤوسا من الحجر وفخارا حددت تواريخها بواسطة تأريخين بالإضاءة الحرارية في حوالي سنة ٢٠٠٠ و ١٧٥٠ قبل الميلاد (٨٤). ومنها يمكن من أمر فان عنصرا حجريا صغيرا قد ظهر في غيباين تحت صخرين آخرين استكشفا نحو أقصى شمال سييرا ليوني في ياغالا، وكامباي. إن التواريخ بالراديو كربون تشير هنا الى مرحلة من العصر الحجري المتأخر تمتد من - ٢٥٠٠ سنة إلى القرن السابع الميلادي (٨٥).

يبدو إذن أن نوعا من تقاليد العصر الحجري الوسيط (الذي يمكن أن يكون وجد في داكار وباماكو) قد تواصل من غير أن يكون تغير نسبيا في المواقع الواقعة جنوبا، وأنه لم يتبن ولم يتجرع تقنية الحجارة الصغيرة. ويحتمل جدا أن تكون أسباب ذلك أسبابا بيئية نظرا إلى أن تقنية الحجارة الصغيرة مرتبطة باقتصاد منطقة الساسب، حيث كان للصيد دور أساسي. فإذا ما سجلنا توزيع المواقع التي ليس بها حجارة صغيرة (كونا كري - بنغاما - بلاندي) ورسمنا خطا فاصلا بين تلك المواقع والمواقع التي بها ذلك النوع من الحجارة (كامباي - ياغالا - كندا - نهاميسيري) فإنا نلاحظ أن هذا الحد قريب جدا من الحد الذي يفصل بين الغابة ومنطقة الساسب. إن التقنيات الجديدة للفؤوس المصقولة وللأدوات الفخارية قد وصلت إلى هذه المنطقة فيما بعد. ويضبط تاريخ ظهورها المؤثرات بمحاي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، وهو ما يوافق الزمن الذي تم فيه جفاف الصحراء. فمن المعقول إذن أن تقرب بين الحداثين وأن نرى في ذلك أثر هجرة السكان خارج الصحراء. وبالرغم من أنه لم يتوفر لنا في هذا الصدد أي أثر عظمي، فمن المحتمل أن يكون أولئك السكان قد أخذوا معهم الماشية، ولعل منها الأصل القديم لسلالة نداما من فوطا جلون التي هي محصنة ضد داء المثقبيات.

ومن الملاحظ في كامل بقية إفريقيا الغربية تقريرا أن صناعة الحجارة الصغيرة تسبق تقنيات صنع الفخار وفؤوس الحجارة المصقولة، وهذه الأدوات يبدو أنها انضافت إلى التقاليد الحجرية الصغيرة ولم تعوضها. وفي كورونكوركال، بالقرب من باماكو، نجد طبقة سفلية ذات حجارة صغيرة وأدوات عظمية خشنة تحت طبقة أخرى ذات حجارة صغيرة أكثر اتقاناً، كما نجد فؤوسا من الحجر المصقول وفخارا (٨٦). وإن غيباين روب (٨٧) الواقعة تحت الصخور في نيجيريا على هضبة باوشي، وغابا إيويوايليري في المقاطعة الغربية قد كشفت عن مستويات حجارة صغيرة بدون فخار وبدون فؤوس مصقولة تحت طبقات من صناعات حجارة صغيرة، وفي إيويوايليري، وفر الراديو كربون تاريخا قدر بـ ٩٢٠ سنة قبل الميلاد، وذلك قريبا من قاعدة الطبقة السفلية. ويبدو أن الانتقال إلى الطبقة العليا لا يكاد يتجاوز سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد (٨٨). وفي أولدايو، في كهف

* هذا ما في المطبوع.

(٨٤) كون، ١٩٦٨.

(٨٥) أثرن، ١٩٧٢.

(٨٦) زومسكي، ١٩٥٦.

(٨٧) ب. أ. ب. فاغ، ١٩٤٤. إيويوايليري، ١٩٧٢، مجلة الآثار للغرب الإفريقي، روستفيلد، ١٩٧٢، فاغ، ١٩٧٢.

(٨٨) شو، ١٩٦٩، الأعمال الأولى للمعهد العالمي الإفريقي.

ماجيرو، عثر على صناعة الحجارة الصغيرة لا أثر فيها للفخار وكذلك للفؤوس الحجرية المصقولة، إلا أن العينة ضئيلة وليست مؤرخة (٨٩). وفي غانا أيضاً كشف كهف بوسمبرا، في آيتيني، عن مجموعة من الفخار وأدوات الحجارة الصغيرة والفؤوس المصقولة، إلا أنها ليست مؤرخة (٩٠). و يوجد في غانا، مظهر متخلف من العصر الحجري المتأخر يدعى (ثقافة كينتانبو) فهذه الثقافة التي خلفت مرحلة سابقة متميزة بصناعة الحجارة الصغيرة والفخار، قد توفرت فيها الفؤوس المصقولة والأساور الحجرية (تعرف بحسب المواقع «الحجرية الجديدة» الصحراوية)، و يوجد بها أيضاً نوع خاص من المنهاريس المنحوتة، وتعود المرحلة القديمة (بونبون (Punpun) إلى ١٤٠٠ سنة. ولقد وفرت المرحلة الحالية بقرىات مؤهلة وماعزاً قزماً يقرب جنسها من جنس الماعز القزم القصيرة القرن من إفريقيا الغربية (٩١). وقد كانت الحجارة الصغيرة موجودة حتى في موريتانيا الجنوبية في المرحلة الأكثر قدماً (أكرجيت) من مقطوعة تيشيت وذلك في نفس الوقت الذي وجد فيه الفخار والفؤوس الحجرية، ولكنها اضمحلت في جميع المراحل الموالية (٩٢).

إن الحالة تبدو غير مختلفة كثيراً في المرحلة الأكثر حداثة من العصر الحجري المتأخر، وذلك في الحواشي الجنوبية من منطقتنا من الساحل، مباشرة نحو الجنوب من التفر الصحراوي، هذا مع ملاحظة أنواع من التكيف في الثقافة المادية، بحسب ما تقتضيه البيئة المحلية. وكان السكان الرعاة في كركر يكتسحون شمال غاو، بين ٢٠٠٠ و ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد يعيشون في أماكن تعلق مستوى مجاري الماء الفصلية، وكانوا يعرفون الفخار كما كانت لهم أجهزة حجرية تشمل الفؤوس الحجرية المصقولة والحدود من السهام ذات الوجهين من النوع الصحراوي (لكن قاعدتها ليست محدوية) (٩٣) ثم بعض الحجارة الصغيرة. ويعتبر صيد الأسماك مساهمة هامة بالنسبة للاقتصاد، مثلاً يشهد بذلك كثيراً الجنوب الصحراوي «بالعصر الحجري الجديد الحديث» (٩٤) ونجد بشمال نيجيريا الشرقي في دايما وذلك بعد ألف سنة، حالة مشابهة تقريباً. ويحتمل أن يكون رعاة البقر يات قد زرعوا الذرة بالطين الحصب الذي بقي بعد انحسار بحيرة تشاد، وإن كانوا قد استعملوا الفخار والفؤوس المصقولة وصناعة كبيرة من الأشياء العظمية. وكانوا يجهلون صنع الحجارة الصغيرة (٩٥).

ويوجد مقابلة لذلك تأقلم مع محيط بيئي مخالف تماماً وذلك على طول الحاشية الجنوبية من إفريقيا الغربية على الساحل الأطلسي، هناك كان سكان العصر الحجري المتأخر يستثمرون الأهداف المتوافرة بالبحيرات الشاطئية ومصبات الأنهار سواء لتكون قطعة لصيد الأسماك أو

(٨٩) وليت، ١٩٦٢، أعمال المؤتمر الاثري في الرابع.

(٩٠) شو، ١٩٤٤.

(٩١) ديفيس، ١٩٦٢، ١٩٦٤، ٣٣٩ - ٢٤٦، ١٩٦٧ غربي إفريقيا قبل الأوربيين، ص ٢١٦ - ٢٢٢، فلايت، ١٩٦٨،

١٩٧٠، كارتروفلايت، ١٩٧٢.

(٩٢) مونسن، ١٩٦٨، ١٩٧٠.

(٩٣) موني، ١٩٥٥، كركر يكتسح، سميث، ١٩٧٤.

(٩٤) مؤيد وموني، ١٩٥٧.

(٩٥) كوبا، ١٩٦٦، ١٩٦٩، ١٩٧١.

للتغذية بها، وكانوا يتركبون أكدا سا كبيرة من الاصداف. ولقد ثبت بساحل العاج أن تلك الحلزونيات وجدت منذ ١٦٠٠ سنة قبل الميلاد إلى القرن السابع عشر الميلادي (٩٦). ولقد اكتشف باحداها بالسنگال فأُس منحوت بالعظم (٩٧). إن المواقع المشابهة التي كانت على دراسة بمنطقة كازامانس تكون موالية للعصر الحجري (٩٨).

وقد وجد في أفكوجو جنوب نيجيريا موقع فيه فخار وفؤوس حجرية مصقولة وصناعة حجرية لا حجارة صغيرة بها. أن التار يخ بالراديو كربون ضبط تلك الصناعة بين ٣٠٠٠ و ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٩٩) ولتقد ميزت أربع مراحل. في فرنندوبو في مجموعة من العصر الحجري المتأخر (١٠٠) يتشمل على الفخار والفؤوس الحجرية المصقولة ولا تشتمل على الحجارة الصغيرة. وضبط التار يخ بالراديو كربون بالقرن السادس الميلادي، بالنسبة للمرحلة الأكثر قدما، وذلك مما يجعل تلك المقطوعة متأخرة، إن لم نخطيء في ذلك. ويقترب الشكل المزم للفؤوس من شكل الفؤوس الآتية من نيجيريا الجنوبية الشرقية (١٠١) ومن الكرون وجمهورية تشاد (١٠٢). وختاما يمكن أن يقسم العصر الحجري المتأخر بإفريقيا الغربية إلى مرحلتين: المرحلة ١ التي تبدأ في ما لا يزيد على ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وهي تتميز بمظهرين: المظهر (أ)، وهو يحوي الصناعات ذات الحجارة الصغيرة المتصلة بالصيد بالسباب. والمظهر (ب) الذي ينتمي إلى المنطقة الغاية بالطرف الجنوبي الشرقي من إفريقيا الغربية، وهو لا يحوي حجارة صغيرة. أما المرحلة ٢ فهي تبدأ بعد ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد بقليل، ويمكن أن نيزها بأربعة مظاهر، وهي المظهر (أ) الذي يضيف الفخار والفؤوس الحجرية المصقولة إلى الحجارة الصغيرة في أكبر جزء من السباب. والمظهر (ب) بالساحل يشمل صيد الاسماك في اقتصاده، ولا يوجد فيه عمليا حجارة صغيرة، إلا أنه يحتوي على صناعة عظمية فيها مخاطف وصنارات الخ.. والمظهر (ج) وهو ساحلي، وقد تأقلم اقتصاده مع استثمار موارد البحيرات الشاطئية ومصبات الانهار. والمظهر (د) المتصل بالمحيط الغابي وهو يعرف الفخار، والفاس المصقول، ولا توجد به حجارة صغيرة.

وخلال الألفية الثالثة، لما هاجر رعاة الصحراء لأول مرة نحو الجنوب، حيث اتصلوا بالصيادين صناعات الحجارة الصغيرة، كانوا آنذاك قد هاجروا من منطقة وفرت لهم الصوان بكثرة إلى منطقة أخرى كان يستحيل فيها صنع هياكل وشواك السهام إلا على المرو أو على كل حجر صعب جدا لكي نتحت منه حدود ذات وجهين، ولذلك استنقصته العين العصرية من حيث الجمال. ويبدو أنهم اتخذوا تقنية الحجارة الصغيرة المحلية لتسليح «تشويك» سهامهم، معتبرين بما لها من نجاعة.

.. (٩٦) موفيو، ١٩٧٣، السن، ١٩٧٣.

(٩٧) جوار، ١٩٤٧، موفيو، ١٩٥٧، ١٩٦١، ص ١٥٦ - ١٦٢.

(٩٨) لفراس دي سبيو، ١٩٧١.

(٩٩) هرتل، ١٩٦٦، ١٩٦٨.

(١٠٠) مارتن دي ميني، ١٩٦٥.

(١٠١) كندني، ١٩٦٠.

(١٠٢) كلارك، ١٩٦٧.

ان الذين بلغوا منهم ترسوفي غانا الوسطى، وذلك في النصف الاول من الألفية الثانية، وحافظوا بها على حدود سهامهم ذات الوجهين الخاصة، كانوا يمثلون حالة استثنائية (١٠٣). ولأن كانت هذه الهجرة للسكان الصحراويين نحو الجنوب تمثل تسرب عنصر جديد الى السكان الأهليين، فانه لم يكن لها حسبا يبدو أثر مباشر على النوع البدني، لأن النوعين من السكان كانوا من لون أسود (١٠٤) فان كان المهاجرون يتكلمون، كما يبدو ذلك ممكنا، لغة ما قبل النيلي الصحراوي فلا يستبعد ان تكون الجماعات الصغيرة قد فقدت لهجاتها الخاصة واستعملت لغة النيجر- كنغو الغالبة عمليا. ولم تستطع الا مجموعات أصلية مثل أسلاف سنغاي المحافظة على لغتها الخاصة (١٠٥).

اقتصاد الانتاج

ن الانتشال من الوضع الذي كان فيه الانسان يخضع للصيد وصيد الاسماك وجني العنبات البرية الى زرع النباتات وتربية الماشية، يعتبر أهم خطوة خطاها أسلافنا في الألفيات العشر الأخيرة. ولم تحدث تلك الثورة في مكان واحد من العالم لتنتشر في كل مكان آخر، بل حدثت بعدد محدود من «المواطن» بأوروبا وآسيا الغربية وإفريقيا الشمالية الشرقية. وكان أهم موطن بالمنطقة الجبلية من الأناضول، وبايران وبشمال العراق. في تلك الأماكن نمت زراعة القمح والشعير وتأهيل الأغنام، والماعز، والبقر. ثم أدخل فيما بعد الانتاج الغذائي بالأودية النهرية الكبرى مثل دجلة والفرات، والنيل، والهندوس، وتحسن بالاعتماد على تصريف المياه والسقي (١٠٦). وأهلت في مصر بالألفية الخامسة، الغنميات والبقرات وكانت الحبوب مزروعة بها (١٠٧). ولنا الآن الحجة على أن الماشية قد أهلت من قبل بالأراضي المرتفعة الصحراوية، وتوجد قرائن - وإن كانت ضئيلة - على زراعة الحبوب (١٠٨). وكما يشهد بذلك وادي النيل، فالصعوبة الموجودة لزراعة الحبوب بإفريقيا جنوب الصحراء، ناشئة عن كون النباتات المزروعة الأكثر قدما مثل القمح والشعير، كانت مرتبطة «بأمطار الشتاء» ولا يمكن لها أن تنضج الا بصعوبة، جنوب الجهة المدارية، بمنطقة «الأمطار الصيفية». ولقد كانت الضرورة تدعو الى تأهيل النجيليات البرية المناسبة بعين المكان ولذلك زرعت الذرات الافريقية. وكان أهم تلك النجيليات الذرة ذات اللونين أو ذرة غينيا التي زرعت في النصف الاول من الألفية الثانية بالمساحة الموجودة بين الصحراء والسباسب وبين النيل وبحيرة تشاد (١٠٩).

(١٠٣) ديفيس، ١٩٦٦ أعمال المؤتمر الافريقي الخامس، ١٩٦٧ مجلة (أسيكوا) ١٩٦٧ إفريقيا الغربية قبل الأوربيين ص ١٦٣، شو ١٩٦٩، الانثروبولوجيا الحديثة ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(١٠٤) شملا، ١٩٦٨، بروثوال وشو، ١٩٧١.

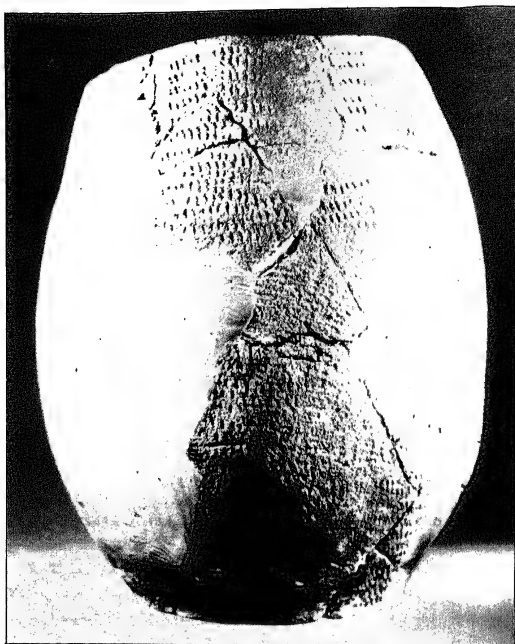
(١٠٥) غرينبيرغ، ١٩٦٣.

(١٠٦) غراهام كلارك ١٩٦٩، ص ٧٠ وما بعدها أوكو، وميدي ١٩٦٩.

(١٠٧) كاتن - تمسن وغردنر، ١٩٣٤، سدن ١٩٦٨ ص ٤٩٠، وندورف وآل ١٩٧٠ ص ١١٦٨.

(١٠٨) هوري، ١٩٦٥، كميس، ١٩٦٩.

(١٠٩) دي فانت وهرزن، ١٩٧١.



● وعاء فخاري ذو قاع مستو من عصر
الحديد. متحف الأيضاان (تصویر
أ. دیاغی).

ولقد أهلت تحييلات برية أخرى وفرت الذرة البرية والذرة المقشورة أو «الذرة الأصبعية» ولقد ذكر الرز الافريقي سابقاً (١١٠) ونجد في موريتانيا الجنوبية، في ضواحي تشيت آثار استهلاك جنوب النيجيريات المحلية، ولكن في حوالي ١١٠٠ سنة قبل الميلاد، تحولت نسبة الذرة المقشورة من ٥ الى ٦٠ في المائة (١١١) وفي المناطق الأكثرطوبة من أفريقيا الغربية يعتبر الأنعام أهم عسقلنة، وقد زرعت (١١٢) أنواع أفريقية كثيرة منها. وبالرغم من ان تلك الزراعة يمكن ان تعود الى ما يقرب من خمسة آلاف سنة، فلم تتوفر لنا الى الآن المعطيات الأثرية أو النباتية للدلالة على ذلك. ويمكن أن يساعد على تفسير كثافة سكان نيجيريا الجنوبية (١١٣) التاريخ المديد لزراعة الأنعام المرتبط بالمساهمات الغذائية الاضافية التي أتت بها عنبيات النخيل الزيتي والتي كانت عمية أو مخدومة.

وبالرغم من ان انتشار الانتاج الغذائي يعتبر مقدمة للعمرا، فانه لا يقود حتما بنفسه الى نمو المدن والأمصار. ويبدو ان عناصر أخرى لها دخل في القضية ومن ذلك الازدياد الى حد معين في الضغط السكاني والنقص في الأراضي المزروعة (١١٤). ولقد ازداد أثر الملاريا بأفريقيا جنوب الصحراء بعد ان استصلحت الارض، ووجدت جماعات قارة وافرة. فكان تضخم السكان الناتج عن اعتماد الفلاحة أكثر ببطأ مما كان منتظرا (١١٥). وكانت الأراضي الصالحة للفلاحة متوفرة بالمناطق جنوب الصحراء في ذلك العهد (١١٦). فلقد وجد في بداية الألفية الأولى من الميلاد اقتصاد زراعي كان يكفي لسد حاجات ممالك قديمة مثل ممالك غانا، ومالي، وسنغاي وبنان وأشتيتي.

عهد المعدن

بالرغم من الدعوة في أوروبا، وذلك منذ وقت طويل ولأسباب منهجية صالحة، الى ترك نظام «العصور الثلاثة» أي عصر الحجر، وعصر البرنز وعصر الحديد (١١٧)، فان سهولته ما انفكت تمدد في استعماله.

ان أفريقيا الغربية في مجموعها لم تعرف العصر البرنزي الا قليلا. ولقد تحلى مظهر من مظاهر الآتية من اسبانيا والمغرب في موريتانيا حيث اكتشف ١٣٠ إناء من النحاس وحيث كانت تستغل مناجم اكجوبت الغنية التي أرنخت بالكربون ١٤ بالقرن الخامس قبل الميلاد. ولقد وجدت أيضا

(١١٠) إيرترز ١٩٥١، ١٩٥٨، ١٩٧٢.

(١١١) أمسن، ١٩٦٨، ١٩٧٠.

(١١٢) كرساي، ١٩٦٧، ١٩٧٢.

(١١٣) شو، ١٩٧٢، ص ٢٧ - ٢٨، ريس، ١٩٦٥.

(١١٤) واب، ١٩٦٨.

(١١٥) ليفنغتون، ١٩٥٨، فيسقلد، ١٩٦٧، كورساي والكسندر، ١٩٦٨.

(١١٦) شو، ١٩٧١، مجلة تاريخ أفريقيا ص ١٥٠ - ١٥٣.

(١١٧) دنال، ١٩٤٣.



● (١) منطقة الاحجار الاثرية الفخمة
السنغابية، موقع تيبكيي بوسوا في
السنغال. في مقدمة الصورة «مدفن
الملك». متحف الايقان (تصويراً.
دياغني).

● (٢) تمثال صغير مشاكل للانسان،
من شياروبي في السنغال. متحف
الايقان (تصويراً. دياغني).



حدود سهام منبسطة من النحاس في أماكن عديدة من بلاد مالي وبالجانب الشرقي من الجزائر (١١٨).

لماذا لم تعرف إفريقيا الغربية عصر البرنز؟ ولماذا لم تتأثر أيضا بالحضارة المصرية القديمة؟ توجد الأسباب جزئيا في كون العدانة، والكتابة، والهندسة المعمارية للبناءات الحجرية واستعمال العجلة، ومركزية الحكومة المستقرة استقرارا قويا بمصر في الألفية الثالثة، كل ذلك حصل في العهد الذي جفت فيه الصحراء جفافا نهائيا. ولذلك هاجر السكان من الصحراء التي لم تعد صالحة لتكون رابطا غير مباشرين مصر وإفريقيا ولم تنعقد تلك الرابطة من جديد إلا بعد ثلاثة آلاف سنة بالاعتماد على الجمال. وتوجد أسباب أخرى تعود إلى وضع أسس اقتصاد فلاحي بإفريقيا الغربية وذلك في فترة متأخرة وبطريقة بطيئة. وذلك ما تطرقنا إليه أعلاه. ولقد أراد بعض المؤرخين إبراز متأخر إفريقيا الغربية، ومجدها فراحوا يؤكدون على علاقتها بمصر القديمة لكي ينعكس مجد مصر عليها (١١٩)، ولكن هذا العمل غير ضروري (١٢٠).

بداية عصر الحديد

(حوالي ٤٠٠ سنة قبل الميلاد، إلى ٧٠٠ سنة ميلادية)

يسبذان قطاعات عديدة بإفريقيا الغربية ظلت، طيلة بداية عصر الحديد، معزولة عن الخارج، وكانت الاتصالات في أغلب الأحوال مع العالم العتيق المعروف تجري بصفة غير مباشرة، منقطعة، لا يكاد يُعتقد بها (١٢١). ولقد ثارت زويدة كلامية حول رحلة هانوك المزعومة، ويحتمل أن يكون ما حكى عنها غشقا (١٢٢). أن ما كتبه هردوت عن «التجارة الصامتة» التي كان يقوم بها القرطاجنيون، كانت بدون شك تعتمد على وقائع (١٢٣) ولا شك أن بعض الأسباب دعت للاتصال بالعالم الخارجي، لأن معرفة الحديد قد بلغت إفريقيا في ذلك العهد. فلا يتعلق الأمر باستيراد بعض الأشياء الحديدية فحسب، بل بمعرفة تحويل المعدن، وأن كان هذا لا يعتبر اختراعا، نظرا إلى أنه لم توجد من قبل مبادئ عدانة (١٢٤). فلقد درس بنيجيريا الوسطى، في تاروغا، عدد من المواقع المعنية لصهر الحديد. وقد بين الكربون ١٤ توازن يتراوح بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد (١٢٥) وتشهد حفريات جرت بمجالات سكنية من وادي النيجر، بوجود الحديد بالقرن الثاني قبل الميلاد (١٢٦) و يبدو حسب معارفنا الحالية أن تعلم إفريقيا الغربية لعدانة الحديد عائد

(١١٨) موني، ١٩٥١، موني وهلمنس، ١٩٥٧، لمان، ١٩٧٠، ١٩٧١.

(١١٩) لوكاس، ١٩٤٨، ديوب، ١٩٦٠، ١٩٦٢.

(١٢٠) شو، ١٩٦٤ علم الآثار ونيجيريا ص ٢٤.

(١٢١) ليو، ١٩٦٦ فرغن، ١٩٦٩، موني، ١٩٧٠ العصور الحائلة ص ٧٨-١٣٧.

(١٢٢) بكيان، ١٩٧١، موني، ١٩٧٠، علم الآثار، ١٩٧١ ص ٧٥-٧٧.

(١٢٣) هيردوت، ١٩٦٤، الكتاب ٤، ص ٣٦٣.

(١٢٤) ديفس، ١٩٦٦، الأثريولوجيا الحديثة، شو، ١٩٦٩ الأثريولوجيا الحديثة ص ٢٢٧-٢٢٨.

(١٢٥) ب. ب. فاغ، ١٩٦٨، ١٩٦٩.

(١٢٦) بريدي، ١٩٧٠، هزل، ١٩٧٠، يامازاكي، وآل، ١٩٧٣، ٢٣١-٢٣٢.

لا إلى مملكة المغرب كما ارتأى البعض (١٢٧)، بل إلى منطقة الشمال الإفريقي الخاضعة آنذاك لتأثير قرطاجنة. فلهل الكارامنت المستعملين للعبات، قاموا بدور الوساطة. إن الطريق من فزان إلى منعطف النيجر الأوسط (١٢٨)، ملء بالرسم الجدارية المثلة للعبات. وتدل رسوم جدارية عثر عليها في الناحية الغربية، على طريق آخر للعبات، يربط المغرب بجنوب موريتانيا. فهل يمكن أن يكون ذلك ناشئاً عن ضغط أناس رحل كانوا يحسنون استعمال الحديد (إن النصل ذا الحد المعدني أصبح السلاح المشترك وحل محل القوس في الرسوم المنقوشة على الصخر) مما دعا أناس العصر الحجري الساكنين في تشيت (مرحلة أكتيجير) إلى تحصين قراهم ابتداء من القرن الخامس والرابع قبل الميلاد (١٢٩). وخلال الحفريات التي أجريت في تاروغا، كان من جلة ما اكتشف فيها، تماثيل صغيرة من الطين المحمي من ذوات الأسلوب الخاص الذي أخذ منه اسم القرية النيجيرية (نوك) حيث وجدت لأول مرة، مثلاً هو الشأن بالنسبة لأغلبيتها، وذلك إثر استغلال مناجم القصدير (١٣٠) ونظراً إلى كون الرؤوس أصلها من طمسي يحوي القصدير، فإنها الوحيدة التي تظل مصونة لأنها أصلب وأقوى من جميع أجزاء الجسم. ولقد كان من العسير في البداية أن نعلم أن كانت الأشياء الأخرى المكتشفة في الحصبة معاصرة للتماثيل الصغيرة أو أنها كانت تمثل خليطاً من أشياء من عهد واحد وأخرى أقدم منها، لأنه عثر، فضلاً عن الأشياء الحديدية والآلات الصالحة لاستخراج المواد من المسبك، عثر على فؤوس حجرية مصقولة وأدوات أصغر من نوع العصر الحجري المتأخر (١٣١). ويبدو اليوم أن أدوات العصر الحجري المتأخر أقدم وأن أصلها من الطمسي (١٣٢). والمحقق أنه لا يوجد في تاروغا أثر واحد ينسب إلى العصر الحجري، وإن كان عثر على فأس حجري بأحد المواقع النادرة الصالحة للإقامة بالمنطقة (١٣٣). إن تاريخ الحصبة قد حدد عصر التماثيل الصغيرة بـ ٥٠٠ سنة قبل الميلاد و ٢٠٠ سنة ميلادية، وهذا التاريخ ثابت ومدقق فيما بعد بالاعتماد على تواريخ بالراديو كربون أجريت في تاروغا وموقع إقامة سبق أن ذكر (القرن الثالث قبل الميلاد). وبالاعتماد على تاريخ بالاضاءة الحرارية (٦٢٠ ± ٢٣٠ سنة قبل الميلاد) (١٣٤). فالبرغم من أن أسلوب الطين المحمي ليس قاراً، فإنه يمثل تحفة فنية، ورأى الاختصاصيون في هذا الفن أنه من أسلاف أشكال معينة من فن يوربا الذي ظهر بعد ألف سنة وعلى بعد ٦٠٠ كلم نحو الجنوب الغربي (١٣٥) ولقد جرت اكتشافات حضارة نوك بمنطقة تمتد على ٥٠٠ كلم طولاً، من الجنوب إلى غربي نيجر جوس.

(١٢٧) كلاك، ١٩٦٩ ص ٢٠١.

(١٢٨) مولي، ١٩٥٢، لوت ١٩٦٦، شو ١٩٦٩، الأثرولوجيا الحديثة ص ٢٢٩، دنيال ١٩٧٠ ص ٤٣ — ٤٤، هورت ١٩٦٦.

(١٢٩) مولي، ١٩٤٧، ١٩٧١ ص ٧٠. منسن ١٩٦٨، ص ١٠.

(١٣٠) سان فاغ، ١٩٤٥، ١٩٥٦، مجلة إفريقيا الغربية، ١٩٥٩.

(١٣١) ب. أ. ب. فاغ، ١٩٥٦، مجلة إفريقيا الغربية.

(١٣٢) شو، ١٩٦٣، ص ٤٥٥.

(١٣٣) أ. فاغ، نوك، ١٩٧٢.

(١٣٤) فاغ، ولفمنغ، ١٩٧٠.

(١٣٥) فاغ، ووليت، ١٩٦٠، وليت ١٩٦٠، ٢٤٥، ١٩٦٧ ص ١١٩ — ١٢٠، ١٨٤، ص ٢٣، روبين ١٩٧٠.

وتوجد قرب جدول غمي، بالسنگال، وفي غامبيا، توجد مقاطعة تقوم فيها أسطوانات حجرية عمودية معزولة في وضع دائرات. وكانت الحجارة الكبيرة المتقنة الصنع مضاعفة، وتميل إلى تمثيل شكل كنانة. ولقد تأتى، بفضل الحفريات الجارية لتحديد ثلاثة توارىخ بالكربون، وتدل على القرنين السابع والثامن، فضلا عن تأريخين من القرن الأول حاصلين من الطبقة السفلى تحت الحجارة الكبيرة والتي هي لها مستودع قبل تنصيبها، ويبدو أن الأمر يتعلق بمعال صرغية (١٣٦) وقد اكتشف في تونديدارو، بمنعطف النيجر الأوسط مجموع رائع من المعالم القضيبيية الحجرية وقد أساء إليه جهل الباحثين والاداريين من القرن العشرين وحاسهم الساذج. ولذلك ليس لنا عنه إلا معرفة واقعية محدودة جدا. فلعله ينتسب إلى العهد الذي تنتسب إليه المعالم السنگالية الغمبية (١٣٧).

وفي أواخر حقبة الاتصالات الأولى تقريرا، وذلك بالحدود الشمالية من إفريقيا الغربية، اتصل سكان سود بالبربر الرحل الصحراويين. وكانت لهم جمال فكانوا ينقلون نحو الشمال ذهب إفريقيا الغربية، عبر الصحراء. إن شهرة «غانا» أرض الذهب بلغت في آخر القرن الثامن مدينة بغداد (١٣٨) وقد توفرت لشك المناطق الشمالية من إفريقيا الغربية، مبادئ الفلاحة وتقنية الحديد، وبلغت نضجا أهلها لا تباع طريق التقدم السياسي، وتكوين الدول لمجابهة ضغط الرحل القادمين من الشمال، حتى يتمكنوا من مراقبة تجارة الذهب لما فيها من منافع. ولم يظهر استعمال الحديد في الجنوب، بشمال سيرا ليوني قبل القرن الثامن، وكان بطيئا (١٣٩).

(١٣٦) أوزان، ١٩٦٦، سيسي وثلاثين، ١٩٦٨، فغان، ١٩٦٩، ص ١٥٠، دي كميس، ١٩٧١.
(١٣٧) دبلانية، ١٩٠٧، النجد الأوسط النيجيري، ص ٤٠ — ٤١، ماس ١٩٢٤، مولي ١٩٦١، ص ١٢٩ — ١٣٤، ١٩٧٠، ص ١٣٣ — ١٣٦.

(١٣٨) لعتريون، ١٩٧١، ص ١٢٠.

(١٣٩) لفرن، ١٩٧٢، ١٩٧٣.

الفصل الخامس والعشرون

وادي النيل قبل التاريخ

بقلم: فرنان دي بونو

السودان والنوبة ومصر ثلاث مناطق مختلفة من عدة جوانب، قد وحد بينها نهرا واحد فألفت واديا فريدا. ولكن، من الصعب ان نتصور اليوم ان هذا الامتداد الصحراوي الذي شمل النهر من جانبيه قد نشأت فيه، فيما خلا من الأيام، وفقا لتقلب المناخ وتغير البيئة، محطات ومسالك وحواجز منيعة مع بقية القارة الافريقية.

ان هذه العوامل الطبيعية نفسها تكيف نمط حياة السكان الأوائل لهذا الوادي في كفاحهم الدائم ليتكيفوا مع أوساط معادية أو مناسبة لنموهم. وفي هذا السياق، نرسم باختصار تاريخ تطوّرهم الطويل منذ فجر ظهور الانسان الى أوج ازدهار العهد الفرعوني. ان عددا من الثقافات معروفة بالفعل معرفة جيدة في بعض الفترات الزمنية. الا ان سمة البحوث التي ما زالت ناقصة من ناحية، وروح النظام المطبقة غالبا على النتائج، تقودان في عدة حالات أخرى، الى تجزئة قد تبدو في المستقبل مثكفة، وحتى سيئة الاستعمال أحيانا.

كما ان مضاعفة «النماذج»، على بعد عدة كيلومترات، لها نسبة قليلة من الصحة في بعض الحالات. لذلك يعمل المؤرخون الذين شغل فكرهم هذا التشتت على جمع النماذج المعروفة في مقولات تاريخية كبرى. وحتى هذه الأخيرة يمكن من الآن ان تكون أحيانا ناقصة وغير كافية.

الأولدواي^(١)

تميزت هذه الشقافة في كل مكان بحصاة مهيأة، فقد مكنت اكتشافات حديثة متعلقة بأصل الإنسان من التأكيد على وجود آثار أولى لم يتركها هذا الإنسان في مناطق إفريقيا الأخرى فحسب بل في وادي النيل أيضا.

فالشواهد القديمة جدا على تلك الكائنات التي أصبحت بشرية هي شواهد متكونة من حصاة مهيأة نحتت منها أدوات لا شكل لها، وقد وقع اكتشافها في السودان منذ سنة ١٩٤٩ في «نورى» و«واو». ولكن لا يمكن ان تكون هذه المكتشفات المتفرقة حجة نهائية فلم نصل الى اليقين الا منذ سنة ١٩٧١ فقط بعد بحوث انتظامية جرت في مصر.

ان الترسبات الغرينية العائدة الى الدهر الرابع القديم، وعددها ٢٥، قد وفرت محصولا ثريا من تلك الادوات الغليظة. ولقد زودنا سنة ١٩٧٤ اكتشاف ثلاثة مناجم طبقية تشتمل على حصاة مهيأة بمعلومات مهمة تقضي على ما تبقى من التردد. وكانت مستويات الحصاة المهيأة تقع تحت الاشوي القديم (العصر الحجري القديم) المتميز بسطوحه الثلاثية في مستوياته الضاربة في القدم. ولقد عثر منذ عهد قريب جدا على سن لكائن بشري وذلك بالجرين القديم الموجود بجبل طيبة، وهذا السن كان موجودا مع السواطير.

ولنذكر انه لوحظ أيضا تعاقب مشابه سنة ١٩٢٥، وذلك بجرين العباسية قرب القاهرة. ولقد صنفنا الحصاة المهيأة لتلك الطبقة في ذلك الوقت في باب الأدوات الصوانية. ان دراسة ذلك العهد قد أثريت أخيرا بمساهمة اضافية في أديما بصعيد مصر، أثر الاكتشافات التي قامت بها بعثة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية (٢). ويتعلق الامر بترسب جديد مازال تحت الدرس ويبدو مشابها للترسبات السابقة.

العصر الحجري القديم^(٣)

توجد تلك الصناعة الحجرية المتميزة بذوات الوجهين ذات الطرف المتقلص بكل مكان من إفريقيا، ولعل جذورها موجودة في هذه القارة، انطلاقا من الحصاة المهيأة بالعهد السابق ثم انتقلت الى عدة مناطق أخرى من العالم. وقد ظهرت في وادي النيل شواهد عن تلك الحضارة دون انقطاع ملحوظ من السودان الى مصر.

وقد تعرفنا على تلك الثقافة في شمال السودان أحسن مما تعرفنا عليها في المناطق الجنوبية اعتمادا

(١) سمي هذا العهد بهذا الاسم اعتمادا على المكتشفات التي تمت بأولدواي (انظر الفصل ٢٨). وقد سبق ان سمي با شوي الاشوي أو العصر الحجري القديم العتيق.

(٢) I.F.A.O.: Institut français d'archéologie orientale

(٣) يطابق على العموم العصر الحجري القديم الاسفل وغالبا ما يسمى أيضا بالاشوي، أي حوالي ٦٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠ سنة تقريبا.

على الاشغال التي جرت حديثا. فالأشولي الاسفل الذي تدل عليه ذوات الوجهين مما لها قواطع متعرجة غليظة أحيانا، تصاحبه حصة مهيأة في «عطرية» و«أوا» و«نوري». وفي «نوري» حصل له تطور في مركب انتقالي. أما الأشولي الاوسط والاعلى. المدرسان خاصة في الشمال، فهما يتميزان باتقان الصنع وبظهور صناعات شبيهة بصناعة لوفالوا. ان تلك الصناعات التي سيتولد عنها فيما بعد التقطيع اللوفالوي تبدو أيضا بارزة في خور أبو عنقا. ولئن كان الأشولي موجودا في قارات أخرى، فان النوع السنغوني، وهو نهاية الاشولي الذي دام كثيرا، هونوع افر يقي بحث. فبعد ان اكتشف في السابق بافر يقيا الجنوبية والوسطى على الخصوص، أخذ اليوم يظهر في خور أبو عنقا وفي ساي. و يبدو أنه أخذ يفقد عددا من عناصره، ابتداء من وادي حلفا. ويوجد عدد قليل من القدومات من ذوات الوجهين المنحوتة الطرف في السودان.

ويجد الاشولي على مسطحات النهر وفي نوبة مصر حيث يمكن ان نلاحظ تطورا قائما على اتقان النحت. الا أننا لا نعرف معرفة كافية خصائصه النوعية.

وبخلاف ذلك فاننا نجد بمصر ان الرواسب الطبقية في العباسية (قرب القاهرة) والرواسب التي درسناها أخيرا بطيبة (١٩٧٤) او بمسطحات النيل القديمة تبرز صناعات أشولية بالطوائف المتتالية و يتبع المستوى الاول ذواتي المميز بالحصة المهيأة الاشولي الذي يشمل أشكالا ثلاثية السطوح وذوات وجهين أكثر تطورا وقطعا لوفلوازية. يوفر منجم «خرجة» طبقات متراكمة من أشولي أكثر حداثة قد يبلغ العصر الحجري الوسيط. ولئن وفرت ذوات الوجهين أشكالا كلاسيكية موجودة في أماكن أخرى فاننا نلاحظ في مصر أيضا تحولها أحيانا الى قدومات وذلك بأطرافها المتبادعة بعدا متساويا. وذلك هو النموذج الوحيد المعروف حاليا من القدوم في مصر. ولقد اختصت مصر أيضا بذوات الوجهين المحدومة حسب تقنية تشابه التقنية المسماة «فكتوريا واس» التي تسبق هي أيضا التقطيع اللوفالوازي الكلاسيكي (٤) ونلاحظ وجود ذوات وجهين أخرى من النموذج السنغوني قرب القاهرة، و يبدو انه أكثر حداثة.

العصر الحجري الوسيط (٥)

تسببت أوضاع الحياة الجديدة في ذلك العهد في تعمع استعمال الشظية التي حلت محل ذي الوجهين الذي أصبح نادرا، ثم زال. ان تلك الشظايا ذات الكعب العديد المظاهر والمحدومة اعتمادا على التقنية اللوفلوازية السابقة مستمدة من نواة خاصة تنتج شظايا ذاك شكل معين مسبقا. دامت تلك الطريقة بافر يقيا ببعض المناطق حتى العصر الحجري الجديد نظرا الى أنه يعتمد على تفكير تكنولوجي متقدم جدا.

ان الصناعة المستيرية ذات التقطيع اللوفلوازي والتي لم تدرس الا قليلا بالسودان توجد في

(٤) تنتزع شظية كبيرة بالقرع، وغالبا ما يكون هذا القرع على أحد الوجهين الجانبيين وقل أن يقرع أحد الطرفين. وهذه الشظية تستعمل بدورها كأداة.

(٥) تطلق هذه التسمية اجمالا على العصر الحجري القديم الاوسط منذ حوالي ٢٠٠٠٠٠ سنة.

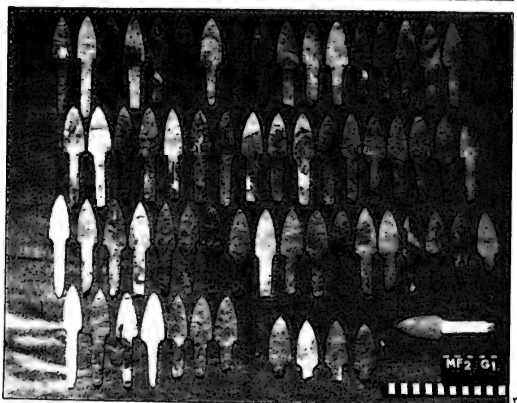
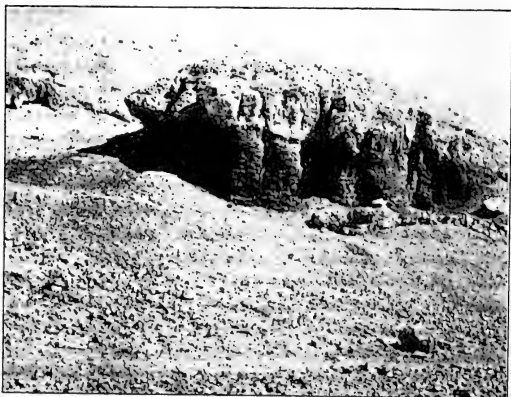
تفاسسي، وفي شكل أكثر تطوراً في أبوطبري في نوري. وعلى العكس من هذا، فإن البحوث الجديدة التي أجريت بالشمال أثبتت وجود ثلاث مجموعات متميزة: أوها المستيري النوبي؛ وهو قريب من المستيري الأوربي دون أن يكون مماثلاً له. ونلاحظ فيه نسبة ضعيفة من الشظايا اللؤلؤزية وأدوات من النوع المستيري هذبت تهذيباً ضعيفاً. وتتصل بأنواع من العصر الحجري القديم الأعلى وذوي الوجهين الأشولي في بعض الحالات. (وذلك حوالي ٥٠٠٠ إلى ٣٣٠٠ سنة). وثانيها المستيري المسنن؛ وهو يظهر من خلال شظايا لؤلؤزية قليلة العدد نادرة الصفائح وإن كانت القطع المسننة تعدد فيه من ناحية أخرى. وثالثها السنغوني اللومبي ويكثر فيه التقطيع اللؤلؤزي الذي تضاف إليه ذوات الوجهين ومخكات جانبية وقطع ممزجة أو مسننة وشظايا مبتورة وذوات وجهين حادة بها تهذيبيات ورقية الشكل. أما الحرمسي فيمتد من «جماي» إلى دنغولا، ويشمل قسماً مهماً من الشظايا اللؤلؤزية المهذبة والشظايا المسننة والمناقش التي تندر. ولقد أرخ بالاعتماد على أعمال حديثة مجاولي ٢٥٠٠ سنة إلى ١٦٠٠ سنة، وهو تقدير قد ابعده في المدة الأخيرة حتى ١٤٩٠ سنة ٣٣٨٠٠ سنة.

إن المعلومات المجموعة في نوبة مصر غير كافية إن قارناها بشمال السودان. وقد أثبتت أعمال سندفور وأركيل القديمة تفوق تقنية التقطيع اللؤلؤزي ذات التقاليد الأشولية أحياناً. وتشير إليه بحوث حديثة سنة ١٩٦٢ في آفية وخور داود. ولقد اكتشفناه نحن في أمدأ سنة ١٩٦٢ - ١٩٦٣ في وضع التقطيع اللؤلؤزي الصرف. ودرسنا في سبعة صناعات تنتسب بلا شك إلى المرحلة النهائية من تلك الفترة وتتصل بشظايا غير لؤلؤزية تحتوي على مناقش عديدة.

أما العاطري؛ وهو صناعة يختص بها المغرب والصحراء الجنوبية فهو يظهر من خلال شظايا تنتهي قاعدتها بذبذب بارز، وباستعمال التحت الورقي الشكل، فلقد ابتدأ من دون شك مع المستيري ودام في بعض المناطق من حين إلى آخر حتى العصر الحجري الجديد. ووقع التعرف عليه في نوبة مصر بالصحراء الليبية وذلك بالشمال الغربي من أبوسنبل (٦). وكان متصلاً بمجوانات برية منها الكركدن الأبيض والبقريات الكبيرة، والحمار الوحشي ونوعان من الغزلان والظبي والشعلب، وابن آوى والحنزير ذو القرنين، والنعام ونوع منقرض من الجمال والسلفاة، فالعاطري في النوبة يبدو كأنه قد اختلط بالأمدى، وهو صناعة ذات تقاليد مستيرية لؤلؤزية. أما في مصر فهو يوجد على حالته الخام بالوحدات الشرقية وفي سيوا والدخلة وخرجة، كما نجده بالصحراء الشرقية في وادي حمامات. وتنفرد تلك الصناعة في الوادي نفسه على شكل قسيمات، في طيبة ودارا. ولقد تسكن من التأثير في الصناعة الحوارية في العهد الموالي في أسنا وطيبة وقد اتخذ مظهر أحجار ذات أبعاد صغيرة، في تلك الصناعة نفسها بالعباسية وجبل الأحمر قرب القاهرة (من ٤٤٠٠ إلى ٧٠٠٠ على الأقل).

وبالرغم من الآثار الكثيرة الدالة على العصر الحجري الجديد بمصر فإنه لم يدرس دراسة نوعية شاملة تستوعب أدواته. فالأشغال الأولى التي أجريت بالمسطحات القديمة للوادي والقيوم سمحت باعطاء رؤية عامة عن الحضارة التي كانت قائمة آنذاك. وتوفر حفرياتنا الشاملة التي أجريناها

(٦) وقعت تلك المكتشفات سنة ١٩٧٦ ولقد حدثت في بئر طراوي وبئر الصحراء.



١ • وادي الملكات، منطقة الاقصر، مصر. (تصوير ج. ديفيس).
٢ • رؤوس رماح من السيلكس (الحصون)، موقع مرقبة في السودان. حفريات ج. فركوتيه (تصوير بمئة الاثار الفرنسية بالسودان).

يجل طبية منذ ١٩٧١ برعاية اليونسكو، عناصر جديدة في الموضوع. ان وضع العلامات في الترسبات الجيولوجية وفي نحو مائة من المواقع لذلك العهد والموضوعة حسب طبقات متتابعة مرتبة ترتيبا زمنيا يمكن من رسم خطوط عامة لتطور تلك الصناعة التي تدل على تغلب الطابع اللوفلوازي. وتتفق كل تلك البحوث على الدلالة على وجود عهد قديم «أشولي لوفلوازي» يتبعه عهد آخر ذو نوى ضخمة، يتحسن تدريجيا، بتقليص أحجامه. وظهرت في مرحلة أكثر حداثة على الشظايا الصفائحية تهذيبات ثانوية أكثر عددا ذات مظهر شبه موسستيري (٧) كما ظهرت أدوات مختلفة. وإذا كانت هذه الصناعات قد أعطت عناصر متشابهة مع عناصر أخرى في إفريقيا، فينبغي ان نشير كذلك الى وجود صناعة أخرى خاصة بمصر لم يشر اليها بناتا بمكان آخر. و يتعلق الامر بالصناعة السماة بصناعة جبل سوهان والتي تميزت باستعمال النوى حسب التقطيع اللوفلوازي ذي المضارب الثنائية الاقطاب التي نحتت من جديد باستعمال مكشط مقعر على أحد أطرافها. أما فيما يتعلق بالانسان من ذلك العهد، فيجب تسجيل ما اكتشفناه سنة ١٩٦٢ في (سلسلة) ان عثرنا على قطعتين من غلاف جمجمة يحتمل ان تعود الى ذلك العهد (٨). فلقد سبق ان أظهرت دراستها التي لم تكتمل خصائص عتيقة تتصل بخصائص أخرى أكثر حداثة. ويمكن ان توفر بنية الأعمال في شأن هذه النقطة نظرة جديدة عن أصل الانسان الافريقي المتنازع في شأنه بالعصر الحجري الوسيط والذي بقي غير معروف تمام المعرفة ان اعتمدنا المكتشفات المعزولة التي وقعت ببرقة والمغرب وزمبيا.

العصر الحجري الجديد

من الملاحظ عموما ان الانتقال من العهد السابق الى هذا العهد في أوروبا ومناطق أخرى من إفريقيا قد حدث حسب قطيعة سريرة وشديدة في المستوى التكنولوجي وحتى أحيانا في المستوى الانساني. ولكن هذا لم يكن كذلك في وادي النيل. ان صعوبة اكتشاف فواصل واضحة تفصل بين فترة وأخرى تجعل من العسير تمييز المقطوعات الزمنية. ان التطور يخلق في نفس المكان، ابتداء من الفترة السابقة، مظاهر اقليمية جديدة ومتوازنة أحيانا تنتسب الى بيئات محلية. و يبدو في نفس الوقت ان التغيرات البيئية تبدل العلاقات بين سكان الوادي وجيرانهم، وتقطع الروابط القديمة وتغير عن تقارب جديد. ان احصاء النماذج الثقافية المعروفة حاليا وحديثا يترك احساسا بتشتت كبير جدا اذ الامر يتعلق بوضعية مؤقتة، وربما تساعدنا التحاليل العميقة جدا على استخراج الخطوط التاليفية. ان هذه الملاحظات تنطبق أيضا على العهد الموالي وهو العصر الحجري القديم اللاحق ولقد انتهت أخيرا دراسة تلك الفترة في السودان، وهي تبرز في القسم الشمالي منه صناعتين مختلفتين.

(٧) لقد وجدت تقنيتان لتقطيع الشظايا: التقنية اللوفلوازية الكلاسيكية وتقنية نزج الصفائح المطولة. و يوجد بين هاتين التقنيتين اشكال انتقالية عديدة.

(٨) قدم هذه المعلومات السيد ب. فندرميرش (مختبر علم الاحياء الانسانية — كلية العلوم جامعة باريس ٦) واليه أسندت دراسة هذه الوثائق.

الصناعة الجمائية: في ضواحي حلفا، وهي تحتوي على شظايا تشتمل على نسبة لوفلوازية ضئيلة وحدود هذبت تهذيبا بسيطا. وتختص بمحكات جانبية متباينة ومناقش وأدوات مسننة (تؤرخ بنحو ١٥٠٠٠-١٣٠٠٠).

الصناعة السبيلية: وجدت في الماضي في كوم أمبو (مصر)، وتظهر الآن في السودان في حلفا بالمرحلة الأولى. إن شظاياها ذات البلورات المعدلة آتية من نوى شبه اسطوانية لوفلوازية (حوالي ١٣٠٠٠-٩٠٠٠ سنة).

أما في النوبة المصرية فلقد عرفت صناعتان هما:

الصناعة الامدية: اكتشفناها بأمد (بعثات المعهد الألماني سنة ١٩٦٣) وتشتمل على أدوات متنوعة يغلب عليها الطابع اللوفلوازي، ولها صلة بمحكات منظمة ومثاقب وقطع من تقنية خرجية وسوف يأتي الحديث عنها. إن استعمالها المؤقت للتهديات الورقية الشكل تذكرونا بالصناعة العاطرية.

الصناعة السبيلية: التي تعرفنا عليها بسبوعة (بعثة المعهد الفرنسي لافريقيا الغربية) في عدة أماكن وهي تنتسب ايضا إلى المرحلة الأولى — فهي ممزوجة بشظايا لوفلوازية وبمحكات قليلة ومناقش كثيرة ويحتمل أن تكون موجودة كذلك في خور داود.

أما الصناعة الجيزية فقد اكتشفت قرب القاهرة منذ ١٩٣٨ وتشمل حجارة قطعت تقطعا لوفلوازيا، وقد تقترب شظاياها من بعض الاشكال الهندسية التابعة للصناعة الخرسية.

الصناعة الحوارية: (المسماة سابقا: اللوفلوازية اللاحقة) (٩) وهي صناعة الحجارة الصغيرة، وقد شملت منطقة تمتد من أسنة (صعيد مصر) إلى أقصى الدلتا وإلى المناطق المجاورة (وادي تيميلات)، وهي شبيهة بالصناعة السبيلية من حيث التقطيع اللوفلوازي، ولكن ليس لها أشكال هندسية. وتشتمل على مراحل وعلى مظاهر لا تزال قيد الدرس. وتتميز بنوى ذات قطبين ربما اشتقت من النوى المسماة «جبل سوهان» السابق الذكر، والتي ترجع إلى العصر الحجري الوسيط. إن بعض النوى التي يحتمل أنها أكثر حداثة قد انتجت في آن واحد شظايا وصفائح لها أعقاب ذات وجهات. وهي تدل على تحول بالنسبة للصفائح ذات الاعقاب المساء التي كانت غالبية في العصر الحجري المتأخر وفي العصر الحجري القديم اللاحق. ويظهر التأثير العاطري في الحوارية، وذلك في أسنة وطيبة، يدل عليه وجود منحوتات جديدة ورقية الشكل، كما تدل عليه قطع هجينة. وعلى العكس من هذا، تلاحظ شظايا معلاقية الساق متكونة من الحجارة الصغيرة والعاطرية نوعا، وذلك في الحوارية بالعباسية وجبل الأحمر قرب القاهرة. فهل كانت تلك التأثيرات ناجمة عن تسرب شعوب الصحراء إلى وادي النيل؟.

أما الخرجية وهو معاصر للحوارية بوجه من الوجوه، ولم يعترف به بعض مؤرخي ما قبل التاريخ، فهو موجود بواحة خرجة مع لوفلوازي سابق للخرجية الصرف، وكذلك توجد هذه الصناعة

(٩) اعتبرت الصناعة السبيلية كأنها الميزة الرئيسية لهذا العهد في كل مكان. قد بينت البحوث أنها لا تتميز في الواقع إلا منطقة كوم أمبو. وقد تم تمييز نموذج مختلف معاصر، إن مواصلة النقاش بين الاختصاصين قادت كاتب هذا المقال إلى دحض فكرة تصف ثقافة ما بالاعتماد على تفتيتها فحسب. اننا نرى أنه يستحسن وصفها باسم المكان الذي اكتشفت فيه أولا ولذلك أصبح اللوفلوازي اللاحق يوصف بالحوارية.

ذات الشظايا اللوفلوازية ذات التهذيبات الهاوية التي تبدو في الظاهر لا أشكال لها، وفي واحة كركور وفي قرى وطية بمصر. وهو ذو صلة بصناعات أخرى في أسنة (صعيد مصر) وأمدا (في النوبة المصرية).

العصر الحجري القديم اللاحق

تتميز هذه الفترة عموما عن الفترة السابقة بوادي النيل بتعويض تقنيات التقطيع ذي الشظايا بتقنيات الصفائح والصفائح من الحجارة الصغيرة التي لها أعقاب ذات وجيات. ولا يستثنى من ذلك الاحالات الدوام والظهور مرة أخرى والتداخل.

ان البحوث التي أجريت في شمال السودان وجنوب النوبة المصرية قد أبرزت مركبا من الصناعات يمثل أحيانا وبلا شك مظاهر لثقافة واحدة. فالخلي، نسبة لخلفا (خور كوسة) يعرف أيضا في شمال كوم أمبو (مصر) فهو يمثل انتقالا مبكرا وقع بين التقطيع اللوفلوازي للعهد السابق، وعهد الحجارة الصغيرة التي تستعمل الشظية أو الصفيحة. و يعتبر استعمال التهذيب المعروف بتهذيب (وشتاة) طريقة ثلاثية تظهر بعد ذلك بكثرة مع الايبيرو-موروسي المغربي ونلاحظ في شأن الصناعة الحلفية أنها تستعمل استعمالا متتابعيا الشظايا والصفائح الظهريه والمحكات والمناقش والمنسنتات والقطع المشورة (وذلك حوالي ١٨٠٠٠ الى ١٥٠٠٠).

أما البلاني فهو أكثر حداثة في حلفا وبلانة. وهو يشتمل على حجارة صغيرة مبتورة وأخرى لها ظهور هذبت تهذيبا خفيفا وشظايا مقطوعة ومحكات، ومناقش وحدود ونوى بسيطة أو ذوات مستويات مقروعة قرعا متقابلا (في حوالي ١٤٠٠٠ الى ١٢٠٠٠).

أما الشادي فأصله من أبكا وتوشكا في النوبة، فهو يحتوي على أدوات تشمل شظايا من حجارة صغيرة أولا وتشمل أيضا صفائح، وله محكات وظهور مستديرة ومناقش وأدوات مبتورة وحدود. اقترضت فيما بعد. ان القبور البيضاء الشكل الموجودة داخل المنازل وخارجها مغطاة بالبلاطات. وقد كشفت عن جنس بشري قريب جدا من جنس الكرومانيون بالمغرب (حوالي ١٢٠٠٠ الى ٥٠٠٠).

الأركيني اكتشف بمصر في موقع واحد قرب حلفا. فهو يمثل صناعة ذات شظايا خاصة و يتركب من محكات متساوية البعد و صفائح ظهريه، لها تهذيبات (وشتاة)، ومن أنصاف دوائر وقطع مقشورة ومدقات (حوالي ٧٤٠٠).

ولقد اكتشف القاي قرب القاب في ثلاث طبقات سكنية متتابعة توفر احداها ما يشبه مضربا مستطيلا متكونا من عظم مصقول (حوالي ٧٥٠٠).

ويحتوي الشمكي في منطقة حلفا على نوى متعددة الاتجاهات ويكشف عن أدوات هندسية الاشكال في مرحلته الاخيرة التي لها صلة بقطع أخشن منها. وقد يكون هذا الشمكي تطورا جانبيا للقاسي المغربي (حوالي ٥٠٠٠ الى ٣٢٧٠).

لقد درسنا في مصر (السلسلي) ودرسه آخرون بعدنا وذلك بمنطقة سلسلة قرب كوم أمبو فهو يحتوي على ثلاثة طوابق: السلسلي الأول الذي يوفر صفائح هذبت تهذيبا خفيفا، ومكونة أحيانا

من حرير، ومثلثات غير منتظمة تكون أحيانا من حرير ومنقشات، وعددا قليلا جدا من المناقش، والمحركات وصناعة عظمية. أما البقايا البشرية فهي تشير الى جنس شبيه بالكرومانيون (حوالي ١٣٠٠٠).

أما السلسلي الثاني (١٠) فهو يشتمل على صفائح وصفائح طويلة لها تهذيبات متقطعة تكون أحيانا حريرية ومناقش ومحركات وصناعة أساسها العظم (حوالي ١٢٠٠٠). والسلسلي الثالث مازال تحت الدرس. وهو يشمل صفائح كثيرة لم تهذب الا قليلا وأحجارا للتسخين وكوخا مستديرا وهو أقدم كوخ عرف الى حد اليوم بمصر. ان الفكوري المدروس في منطقة أسنة، يبدو منتسبا قليلا الى الالبيريو-موروسي ولعله يوجد أيضا في أماكن أخرى بمصر (حوالي ١٣٠٠٠) تتميز هذه الصناعة بالصفائح الرقيقة المهذبة، وبالمناقش والسهام الصغيرة.

السبيل لقد تميزت تلك الصناعة التي حافظت على التقطيع اللولوازي بشظاياها ذات القاعدة المعدلة والأشكال الهندسية. وهي صناعة جنوبية في مصر، تظهر خاصة في مقاطعة كوم أمبو وسلسلة ودارا، ولا سيما في المرحلة الثانية. ولقد شهدت في النوبة، وهي نادرة جدا في الشمال، ولا تصنف في أي نوع أحيانا. وقد وفرت أشغالنا بسلسلة أيضا أدوات عظمية ومهارس، ومدقات وبقايا انسانية أصلها من حفر ياتنا التي مازالت تحت الدرس (حوالي ١١٠٠٠). ان المثال السبيلي يستحق المناقشة. وتوفر التوار يخ الفيز يوكيمياوية ترتيبا زمنيا يناقض في البداية المعلومات التكنولوجية التي توفرها هذه الثقافة. ان هذا الامر جدير بالملاحظة، خاصة ان السبيلي ليس بعيدا زمنيا ومكانيا عن الفكوري.

المنشي (ضواحي سلسلة) يتركب من أدوات حجرية لها الى حدا ما، ارتباط (بالاور يغانسي) المشرقي، كما يتركب من صناعة عظمية ومدقات وصفائح لماعة الاطراف ومن أدوات وبقايا انسانية. وتستنتج معاصره للسبيلي الثاني اعتمادا على تشابه بعض الادوات الجديدة ذات النوع المختصم.

اللاكيتي يمثل ثقافة تعرفنا بالصحراء الشرقية وهو ينفرد بمناشر قوية التسنن تصاحبها سهيمات معلقية الساق.

الخلواني عرفناه بضواحي حلوان (جنوب القاهرة)، وهو يتألف من أربع مراحل مختلفة: فالمرحلة الاولى تحتوي على صفائح وافرة وصفائح هذبت أحيانا تهذبا خفيفا (وشقات). وتتميز الثانية بمجارة صغيرة مركبة من مثلثات مختلفة الاضلاع ومثلثات متساوية الضلعين ومن قطع دوائر عادية، ومنقشات. وتتألف المرحلة الثالثة من قطع دوائر. أما المرحلة الاخيرة، فتتألف من قطع دوائر ذات قاعدة مستقيمة تنتسب الى نموذج جديد.

(١٠) تسمية وضما ب. سميت (١٩٦٦) تحليدا للإله سبك الشخص في صورة تمساح، وهو من آله ذلك المكان. وقد نحن أيضا بمصر يات في ذلك الموقع. ونفترض اسم السلسلي الثاني اعتمادا على جبل سلسلة الموجود في تلك المنطقة وذلك انسب للقواعد المتبعة في التسمية المعتمدة على أسماء الأماكن.

التنوفي صناعة من فلسطين قد تكون تسربت بصورة متتابعة الى التراب المصري. فقد عرفت مرحلة من تلك الصناعة في حلوان، وتميزت بقطع لها ظهور صنعت اعتمادا على تهذيبات متقاطعة وعلى العكس من ذلك، فإن حدود السهام التي لها قاعدة مجهزة بجزات متناسقة، والتي نسبت أول الامر الى التنوفي، قد اكتشفت منذ ١٨٧٦ بحلوان حيث عثرنا عليها مرة أخرى سنة ١٩٣٦. ومنذ عهد قريب أيضا أي في سنة ١٩٥٣، اكتشفناها في القسم الشمالي من الصحراء الشرقية (حوالي ٨٠٠٠ الى ٧٠٠٠). وقد عرفت تلك الحدود منذ ذلك الوقت في الخيام وأريحا (فلسطين) وسماها الاختصاصيون «حدود الخيام». ان الفرضية التي تفيد بتسرب التنوفي ما زالت تحتاج الى تحقيق دقيق.

العصر الحجري الجديد وعهد ما قبل الملوك

ان هذه الفترة الطويلة التي تغطي في الجملة ألي سنة تقريبا (من ٥٠٠٠ الى ٣٠٠٠) قد حلت هنا تحليلا مفصلا. فالظاهر المادية لكل ثقافة من الثقافات او ما يسمى «بالآفاق الثقافية» التي تمثل تلك الفترة قد وصفت بدقة، مؤلفة بذلك مرجعا ضروريا لكل من يريد أن يتفهم التطور البطيء في سياقه الطبيعي، وهو تطور يقود مجموعات بشرية من الرجل أو أنصاف الرجل الى أن تؤسس تدريجيا مجتمعات إما متمركزة تركزا كثيفا كما هو الشأن بمصر، أو منظمة حسب امارات مستقلة مثلما هو الشأن بالسودان النيلي. ولقد درس التطور التاريخي لتلك المجتمعات الحجرية الجديدة ولما قبل الملوك في الفصل ٢٨ من هذا المجلد. فالعرضان اذن متكاملان، وكل واحد منهما يتصور المشاكل من زوايا مختلفة ونجد بين معقفي الاحالات الضرورية التي تساعد القارئ على ادراج ثقافة محددة قد وصفت في هذا الفصل حسب الخطوط الكبرى للتطور التاريخي الخاص بمجموع «الآفاق الثقافية» المذكورة في الفصل ٢٨.

ان تلك المرحلة الجديدة تشكل خطوة حاسمة من تاريخ الانسانية. فانسان وادي النيل المنتقل من حياة الترحال الى نصف حياة الترحال ثم الى حياة الاستقرار قد أنشأ العناصر الرئيسية لمرحلتنا الحضارية الحالية. ان المسكن الثابت يحدد استعمال صناعة الفخار وتأهيل الحيوانات وتربية الماشية والفلاحة وتعدد أدوات تصالح لسد الحاجات المتزايدة.

وفي السودان (١١)، بيدوان الخرطوم (١٢) هو أقدم ثقافة بتلك الفترة في ذلك البلد. فلقد عثر عليه في أكثر من اثني عشر موضعا في مساحات شاسعة وذلك في الشرق ابتداء من كسالة، وفي الغرب على مسافة ٤٠٠ كلم في قلب الصحراء، وفي الشمال حتى دنقلة، وفي الجنوب في اتجاه أبي هقار على النيل الأبيض، ان المعلومات المستخلصة من حفريات الخرطوم التي شاركنا فيها توفر الحجج المؤكدة على وجود مسكن ثابت. ويشهد على ذلك أكوخ من قضبان خشبية، واعتماد

(١١) انه الخرطوم القديم المذكور في الفصل ٢٨. نفصل الاحتفاظ باسم الخرطومى توفا لاكتشافات مقبلة قد تكشف عن مراحل أقدم من تلك المرحلة.

(١٢) انظر الفصل ٢٨.

صناعة فخارية متطورة منتشرة على مساحة كبيرة، واستعمال الرحي. وتتميز تلك الصناعة الفخارية المكونة من أقداح، بزخرفة خطوطها المتموجة المقطوعة وبنقط موشاة. فالادوات الحجرية الصوانية الكثيرة هي أدوات من حجارة صغيرة وهندسية محضة تتألف من نماذج متنوعة. ففيها أنصاف دوائر وقطع دوائر ومثلثات مختلفة الأضلاع ومستطيلات ومنحرفات وشظايا مقشورة ومثاقب. فأنصاف الدوائر وقطع الدوائر التي هذبت من حيث حافتها أيضا تشهد بالتشابه مع الولطوني، والحجري الجديد في هيراكس هيل، بروديسيا، أما الادوات المنحوتة في الريوليت، وهي صخر صلب، فهي أدوات أكبر. نجما من الادوات الصوانية، ولها شظايا وصفائح بسيطة بعضها ذو أعقاب جدد نحتها (محكات)، وأنصاف دوائر ضخمة ومكاشط قليلة وتتميز الخرطومى أيضا بالمخاطف العظمية الشائكة ذات الوجه الواحد. تضاف الى ذلك مرقاة حجرية ذات أقع وسطية ومهارس، ومقارع واسطوانات مثقوبة الوسط، ورحى قليلة ومثاقيل شبك لعلها من نفس النوع الموجود في الفيوم والعمرى (مصر) وبالصحراء النيجيرية. وتتكون أدوات الزينة من درر تشبه الاسطوانة التي في شكل بيضة النعامة، ومن أقراط نادرة. ولقد استعمل الطين الاحمر أو الاصفر للوشم على الجسد. ان الاموات المدفونة في مساكنها، والممدودة على أحد الجانبين كانت تنسب الى جنس أسود وهو أقدم جنس في افريقيا. وكانت تخضع عندما كانت حية لقلع أضراس طقوسي كان رائجا في الماضي عند القبايسين والايبيرو-موروسيين بالمغرب وعند سكان الحجري الجديد بكينيا. وقد دامت تلك التقاليد مدة طويلة في السودان وخارجه بالقارة الافريقية. وتتألف الحيوانات المعروفة من الجاموس والظبي وفرس الماء والقط البري والدلدل والفأر والتمساح وكمية كبيرة من الاسماك (حوالي ١٩٤٠٠٠).

السهلاني: ظهر في مواقع عديدة مبعثرة في جنوب الشلالة السادسة. ولقد وفرت الحفريات بالسهلاني عناصر ثقافة متفرعة بدون شك عن الخرطومى، وتتركز خصائصها المميزة على استعمال صناعة فخارية خاصة، وعلى الازميل والفأس العظمى المصقول. وتتألف الصناعة الفخارية من أوان مزينة أحيانا بخطوط منمقة مثل الخرطومى، الا انها تنفرد بصقل سطوحها وحواشيها السوداء وبزخرفة المثلثات المحززة. وتضاف الى هذه الأدوات الحجرية نماذج من الحجارة الصغيرة وفؤوس مصقولة ومراقش «ملساء مستوية» وحدود دبابيس مستوية أو محدبة.

أما الحراب العظمية، فتظل موجودة حتى ظهور الصناعة اللؤلئية والجواهر المصنوعة من الامزونيت أو العقيق، واللبريات المستعملة حتى يومنا هذا. وكانت حيوانات الصيد هي الجاميس والظباء والزرافات والخنزير. ويرى الماعز القزم ولم يبق أثر للمساكن الخفيفة بل بقيت مواطن عميقة وللشلهاني (١٣) جوانب مشتركة مع الفيومى المصرى، في مرحلة من مراحل ذلك باستعمال السطح المستوية والمراقش والحراب ورؤوس الدابوس والامزونيت والمواقد المحفورة. وهو مرتبط بعهد ما قبل الملوك القديم لمصر، باستعمال الصناعة الفخارية الملساء ذات الحواشي السوداء بصعيد مصر. وتوجي الامزونيت والمراقش والفخار المقطوع بنقط تشابه مع الغرب (تبستى)، كما يوحي

الماعز القزم ينسقط تشابه مع الشمال الغربي. وقد وفر موقع «كاديرو» الذي مازال تحت الدرس حالياً، والذي هو أكثر حداثة، وفر أضرحة (تؤرخ بحوالي ٣٥٠٠ إلى حوالي ٣٠٠٠). وقد وفرت حفريات جرت خلال (١٩٧٦ - ١٩٧٧) في كدادا (منطقة شندي) نوعاً ثالثاً لعله أكثر حداثة من الشهاني، ويتألف من أضرحة لها صلة بالسكن، ومن فؤوس حجرية مصقولة ذات حجم كبير، ولوحات تزويق شبه معينة الشكل تقريباً، واسطوانات مثقوبة لا يعرف استعمالها، وأوعية كأسية الشكل، وأضرحة أطفال موضوعة في جرار. وهذه هي العلامات المميزة له. وقد يكون الأبيكي (١٤) بشمال السودان وجنوبه، إلى حد ساي على الأقل، معاصراً بصورة متتابعة للخرطومى والشهاني، ولعله قد تواصل إلى ما بعد ذلك العهد، مروراً بأربع مراحل. فالمرحلة الأولى الفقيرة من حيث الفخار قد تكون متفرعة عن الكادي. والثانية عبارة عن تشكيلة من الأواني الفخارية لها فتحات مقطوعة وسطح مزخرف بخطوط منقوشة نقشاً متعرجاً أو بتنقيط مستطيل أو مستدير. والثالثة تتميز بأدوات حجرية لها مثاقب على شطأيا متعددة أحياناً ولها صفائح بسيطة أو ذات حواش مهذبة والرابعة تتألف من صناعة فخارية لها حواش سوداء وسطوح حمراء مصقولة أو منضدة تشابه الشهاني والمجموعة (أ) بالنوبة ومصر في عهد ما قبل الملوك (حوالي ٣٣٨٠ إلى ٢٩٨٥).

و يتميز ما بعد الشمكي الذي لم يعثر عليه إلا في موقعين، من حدود صغيرة وصفائح حمزة وشطأيا جانبية وسطوح مستوية توجي بوجود صلات بالفيوم واحة خرجة (حوالي ٣٦٥٠ إلى ٣٢٧٠).

ان انعدام الثقافات المذكورة آنفاً في النوبة المصرية، وكذلك الثقافات المطابقة لها زمنياً، يفسر بظروف بيئية خاصة وبندرة المواقع أو ربما باستكشاف ناقص ليس إلا. وعلى العكس من هذا لوحظ بالنوبة المصرية - باستثناء بعض الحالات المحلية - لوحظ تشابه واضح مع حضارات عهد ما قبل الملوك المصري، وحتى مع البديري حسباً يبدو. أما النجادي الأول (١٥) فهو موجود في عنبية وسبوعة وشلالة وخور أبو داود (النوبة) وهو حالياً الموقع السكني الوحيد المحتوي على مخازن تموين.

و يوجد النجناد الثاني (١٦) قرب أبي سنبل وخور داود وسبوعة وبهان وأحجمت. وأخذت الاتصالات تضعف ابتداءً من عهد الأسرة المالكة الأولى بين النوبة ومصر. وأخذت تطور في عين المكان الصناعات محتفظة بخصائصها من قبل التاريخ إلى عهد الإمبراطورية الجديدة، حاملية الأساء المتتابعة لمجموعة (أ) (١٧) ومجموعة (ب) ومجموعة (ج) النوبية. وقد عملت أوضاع جغرافية وطبيعية مختلفة في مصر على تطوير مجموعتين ثقافيتين مختلفتين بصورة متوازية في التراب المصري، في الجنوب والشمال. وقد حافظتا على ذلك الاستقلال الثقافي إلى عهد توحيد البلدين في عهد الأسرة

(١٤) يقارن بالأبيكي المذكور في الفصل ٢٨.

(١٥) عهد ما قبل الملوك القديم في الفصل ٢٨.

(١٦) عهد ما قبل الملوك القديم في الفصل ٢٨.

(١٧) انظر الفصل ٢٨.

المالكة الاولى. ولعب النحاس دورا ثانويا لانه ظهر في الجنوب قبل الشمال لمجاورته لعدد من المناجم الصغيرة التي تكتي لاستعمالات محدودة.

المجموعة الثقافية الجنوبية (الصعيد)

برزت منذ البداية مجموعة الجنوب في مظهر حضارة متقدمة. وهي معروفة اعتمادا على دراسة أضرحتها المتعددة وبقايا تجمعات سكنية قليلة الاهمية.

ان التازي لم يحلل الا تحليلا عاما، بل هو محل نزاع بين المختصين فيا قبل التاريخ. وهو يوجد في مصر الوسطى في تازا، وبدرى ومستجدة ومطمر. وهو يتميز بعلامات طريفة غير معروفة في أماكن أخرى، وعدد قليل من الأضرحة والآثار القروية. فالصناعة الفخارية التي كثيرا ما تتكون من أوان داكنة، ونادرا ما تكون حمراء ذات حواش سوداء ولها أحيانا سطح متجدد، تتميز بزواياها البارزة الموجودة بين القسم الاعلى المستقيم أو المنحرف والقاعدة المتقلصة. وتشمل الاوعية الكأسية بزخرفتها المحززة المنقطعة نمودجا آخر طريفا له طابع افريقى. فتحتوي الادوات الحجرية خاصة على فؤوس مصقولة لها أحجام كبيرة كلسية سيليسية، وعلى مكاشط وسكاكين ومثاقب وغيرها. وتضاف اليها لوحات الزينة، لا سيما من رخام، مستطيل الشكل، ونخاتم وأساور عاجية وأصداف بحرية مثقوبة، وبها تكتمل أدوات الزينة. ولندكر أيضا الملاعق والصنارات العظمية. أما التقاليد الثمينة، فقد كشفت عن قبور بيضوية الشكل أو مستطيلة لها لحد جانبي يحمل جسما ممدودا على الجنب، أطرافه مطوية ورأسه موجه الى الجنوب ووجهه موجه الى الغرب. وكانت تلك القبور تزود بعدد من أدوات الزينة والأوعية والادوات المختلفة.

ويمثل البديري (١٨) حضارة مزدهرة خاصة في مصر الوسطى. وهو يوجد في بدرى ومستجدة ومطمر وحمامية. وتدل صناعة فخارية جميلة جدا على هيأته الطريفة من خلال أوعية متنوعة حمراء أو بنية أو رمادية أو حمراء، لها حواش سوداء غالبا ما تغطي بأخاديد مقطعة تقطعا دقيقا بشكل انحرافي فهي تتكون خاصة من صحاف ضيقة أو مفلطحة أو تشبه قعر السفينة.

ونلاحظ وجود أوان وأقداح من البزلت وأوعية عاجية. وتزين الداخل أحيانا مواضيع نباتية منحوتة. وتحتوي الادوات الحجرية على أسلحة من ذوات الوجهين، لها قواطع مسننة محدبة وعلى حدود سهام لها قاعدة مجوفة أو لها شكل ورقة الرند، وعلى أدوات لها تقنية صفائح. وتمتاز بواطن الملاعق بصنع فني رفيع، وكذلك الامشاط وأساور اليد والصنارات والتماثيل العظمية والعاجية. أما التماثيل النسائية، وتماثيل فرس البحر فلها وظيفة طقوسية. وتحتوي أدوات الزينة على لآلئ صوانية مغلفة في محلول النحاس، وعلى أصداف ولوحات تزويق منضدة مستطيلة الشكل لها في أغلب الاحيان طرف مقعر. وقد كان يزرع القمح والشعير والكتان، ويرى الثور والشاة ويصطاد ويؤكل الغزال والنعامة والسحفاة، وقد اندثرت المساكن المتكونة من أكواخ بسيطة خفيفة.

أما الموتى الذين كانوا يوضعون في وضعية انثناء، فقد كانوا ممددين على جنب، ورؤوسهم موجهة الى الجنوب ووجوههم نحو الغرب، وذلك في حفر بيضوية أو مستديرة الشكل، قل ان تكون مستطيلة

وكانوا يحملون معهم الى الآخرة العناصر المتنوعة المذكورة سابقا. ومن الممكن ان نعر على فروع متباينة من تلك الثقافة بالصحراء الشرقية (أ. حمامات) وأرمنت (الصعيد) وفي منطقة عديمة (صعيد مصر) وربما بالنوبة.

واكتشف النجادي الاول (١٩) في حمامية ومستجدة في وضعية طبقية، تحت البدرى ابتداء من مصر الوسطى والنوبة وحتى بالصحراء الشرقية (أ. حمامات). فالصناعة الفخارية ذات السطح الاملس أو المصقول، وذات اللون الاحمر أو الرمادي أو الأسود، متميزة عن الصناعة البدرية. ويختص النجادي الاول بالتزيين — فلم تبق مواضعه منحوتة نحتا ولكنها تمتاز بتزيين أبيض على أوعية حراء رسم عليها أشخاص بخطوط هندسية ونباتات وأشكال، بأسلوب طبيعي. وفي أغلب الاحيان تنتهي الأوعية الحجرية الانبوبية الشكل، والتي غالبا ما تكون من البزلت وذات عرى مشقوبة، تنتهي برجل هرمية. وتحتوي الادوات الحجرية ذات الوجهين على سهام قاعدتها مقعرة، وعلى سكاكين لها شكل المين أو الفاصلة. وتوجد أدوات أخرى لها طرف مفروق على شكل حرف وعلى فؤوس مصقولة وأدوات صفائحية ودبابيس اسطوانية أو هرمية. ان لوحات الزينة، وخاصة منها المصنوعة من الشيست، والتي كانت في الاول معينية الشكل، تصبح ذات شكل تير يومورفي. وتزدان الادوات العظمية والعاجية المستمدة من الهام جديد مثل الامشاط والدبابيس، تزدان بصور حيوانية أو بشرية. إنها، وان كانت تستعمل لاغراض سحرية، الا أنها قد تستعمل حرايا. والمسكن عبارة عن ملجأ خفيف ذي سياج، مثل المساكن التي اكتشفت في محسة.

ونلاحظ استعمال النحاس بصورة تدريجية. وكانت المؤونة تحفظ في مخازن مخفوفة في الارض ولكنها كانت تحفظ أيضا في أوعية، بمستجدة ودير المدينة. وتكشف مراسم الدفن عن قبور مستطيلة تحتوي على أموات في وضعية على الجنب، رؤوسهم موجهة الى الجنوب وجوههم نحو الغرب ولقد سجلنا حالات دفن متعددة أو أجساد، مقطوعة الاطراف (حوالي ٤٠٠٠ الى ٣٥٠٠).

ويعمل النجادي الاول طبقيا النجادي الثاني (٢٠) في حمامية ومستجدة وأرمنت. ويعثر عليه ابتداء من مدخل الفيوم، في جزيرة، الى النوبة المصرية الجنوبية. وفيه تطورت صناعة فخار النجادي الاول التقليدية بتضييق فتحاتها وإبراز حواشها. ولقد حلت محل الصناعة الفخارية ذات الزينة البسيضاء صناعة أخرى وريدة، لها زينة بنية ومواضيع مقننة رمز كالمالاب والمراكب والنباتات والأشخاص المرفوعي الايدي. ويتميز النجادي الثاني أيضا بالأوعية الكبيرة البطن ذات العرى المتموجة التي تصبح بعد ذلك أنبوبية الشكل، وتفقد عراها في بداية التاريخ. وعلى العموم، فان الأوعية الحجرية المتنوعة التي كثيرا ما تكون متطورة الأشكال، يلاحظ عليها تقليد أشكال الفخار الوردي. وتشتمل الأدوات الحجرية التي كثيرا ما تكون متطورة جدا، على سكاكين مفلوقة الشطرين ذات طرف شكله شكل «٧» ومن أدوات أخرى لها حدود متعكسة مقعرة مخدبة، ولها تهذيبات متناسقة جدا على وجه قد صقل سلفا وتغطي المقابض أحيانا بورقة ذهبية أو عاجية. وتكون حدود الدبابيس اجاصية الشكل. وتنتج صناعة النحاس المتطورة حدودا ومساكات وفؤوسا. ان اللوحات المرسومة تدريجيا تصبح في النهاية مستديرة أو مستطيلة. وتبسّط أشكال التماثيل الصغيرة

(١٩) ما قبل عهد الملك القديم، المذكور في الفصل ٢٨.

(٢٠) ما قبل عهد الملك الاوسط، أو الفرزي، المذكور في الفصل ٢٨.

العظمية والعاجية هي أيضا بصورة مفرطة. وتحسن تقاليد الدفن. فتغطي جوانب الحفر البيضوية الشكل أو المستطيلة، باللوح أو الغرين أو الحجر. ولقد مكنت الحفريات الحديثة التي قننا بها بأدعة (بعثة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٧٤) من اكتشاف حفر من نمط جديد على شكل أحواض يرجع تاريخها إلى نهاية تلك الحضارة. ويخضع تقديم القرابين لقوانين قارة. فهي توضع أحيانا في فروع جانبية. ولقد لاحظنا أحيانا وجود أجساد مقطوعة الاطراف الا ان القبور المتعددة قد زالت، ولم يبق توجيه الموتى قمارا. وأصبح السكن يتكون من أكواخ مستديرة أو نصف مستديرة من الطين، ومن مأوى خفيفة وهياكل لشربية الحيوانات مستطيلة الشكل (الامراح) (في حوالي ٣٥٠٠-٣١٠٠).

المجموعة الثقافية الشمالية (مصر السفلى)

تختلف المجموعات الثقافية الشمالية عن المجموعة الجنوبية اختلافا كبيرا، لا سيما في اتساع التجمعات السكنية وفي الصناعة الفخارية ذات اللون الواحد وفي الدفن المؤقت بالمسكن نفسه. ان الفيومي (ب) (٢١) الذي ليس معروفا معرفة جيدة قد درس في شمال بحيرة منطقة الفيوم تلك. ولعله يعود الى العصر الحجري النهائي أو العصر الحجري الجديد ما قبل الحزني. وهو يتركب من صفيحات بسيطة ومن حجارة صغيرة منحوتة الظهر ومن حراب عظمية ومدقات. ولقد أبرزت أحدث البحوث مرحلة وسطى بين الفيومي (ب) وهو أكثر قدما، والفيوم (أ)، وهو أقرب مئا، ونقترح تسميتها بالفيومي (ج)، وتتألف تلك المرحلة من مراقش وحدود سهام من ذوات الوجهين معلاقية الساق يمكن تشبيهها بمحدود سهام الصحراء الغربية (سيوة بليبيا) وعلى هذا الأساس تربط الصلة بالصحراء ويمكن تاريخها (بجوالي - ٦٥٠٠ إلى - ٥١٩٠).

أما الفيومي (أ) (٢٢) الذي درس أكثر عمقا بالأماكن السكنية، فهو يحتوي على خزف ذي هيئة خشنة وحيد اللون أملس أو مصقول أحمر أو بني أو أسود. وهو يتألف من أوان وأقداح وأكواب وعلب مستطيلة وأوعية ذات رجل أو مزدانة بدوائر في شكل حلقات على الحواشي كما هو الشأن بالبديري. تتميز الصناعة الحجرية بتقنية متقدمة وهي من ذوات الوجهين وتحتوي على سهام لها قاعدة مقعرة أو مثلثة وحدود وقطع من المناجل أثبتت بمقايض خشبية مستقيمة، وفؤوس مصقولة وحدود ذات قاعدة أسطوانية. ومن الأدوات العظمية نجد مثاقب وحدودا قواعدها محدبة. أما لوحات الخضاب الخشنة فهي كلسية ونادرا ما تكون من الديوريت. وكانت الاصداف البحرية وقطع البيض أو المكرولين (الامزنييت) تستعمل حيات للنظم. ولا أثر للملاحي في بالامكان السكنية، لأنها كانت بدون شك خفيفة جدا. لكن يوجد عدد كبير من المواقع المحفورة في الارض مثلما هو الشأن بالشهانب بالسودان.

وكانت المطامر المتكونة من جدار غائرة في الارض مجموعة بجوار المسكن. فكانت تحفظ القمع والشعير والكتان وأشياء أخرى. وكان الحنزير والماعز والثور وفرس الماء والسلاحفة من الحيوانات

(٢١) انظر العصر الحجري الجديد، فيوم، (ب) المذكور في الفصل ٢٨.

(٢٢) عهد ما قبل الملك البدائي المذكور في الفصل ٢٨.

التي تؤكل لدى تلك الشعوب، ولم نعث إلى الآن على مقابر، ولعلها كانت بعيدة عن عين المكان. ويمكن أن تكون تلك الثقافة معاصرة للبذري (نحو - ٤٤٤١ إلى - ٣٨٦٠).

يشمل المرمدي (٢٣) تجمعاً سكنياً كبيراً يتجاوز مساحته هكتارين غربي الدلتا. إلا أن الحفريات مازالت لم تنته ولم تشر نتائجها إلا بتقارير مختصرة أولية. فهي تبرز ثلاث طبقات متتابعة من أطلال أثرية وتكشف عن تطور ثقافة واحدة خلال العصور وهي ثقافة أصيلة لكنها خاصة بالشمال. إن صناعة الفخار ذات اللون الواحد المساء المصقولة أو الخشنة تحوي نماذج متنوعة، منها على الخصوص أوعية وأقداح وأطباق وأباريق. لكن لا توجد بها نماذج من عرى ضيقة ذات حواشٍ. وتتكون الأشكال المتميزة من مغارف مثلها هو الشأن في البذري كما تتكون الأواني من نتوءات مستديرة مثلها هو الشأن في البذري والفيومي، ومن الأوعية ذات الأرجل مثلها هو الشأن في الفيومي. وتزدان تلك الأوعية أحياناً بمطاط محفورة على الحاشية أو بخطوط محفورة عمودية أو بمواضع ناتئة أو حتى برسوم شكلها شكل سعف النخيل. وتندر الأواني المكونة من البزلت أو من الحجر الأخضر الصلب والمنتية برجل من نوع النجادي الأول. وتذكرنا الأدوات الحجرية الثنائية الوجه بنفس النماذج الملحوظة في الفيومي. وشاهدنا رأس هراوة اجاصي أو كروي الشكل. أما المشاقب والأبر والمسارد والخراب والمساوط والصنارات فلقد نحتت من العظم أو العاج. وتكون أدوات الزينة من دبابيس الشعر وأساور وخواتم وأصداف مثقوبة ولآليء متنوعة المواد. ولنلاحظ وجود لوحتي خضاب الأولى ترسية الشكل شستية، والآخرى غرائتية. وهما مادتان مستوردتان من الجنوب. وقد تكونت المساكن في البداية من أكواخ متباعدة خفيفة، بيضوية الشكل مشدودة بأوتاد، وتليها أكواخ أخرى أكثر متانة وأقل تباعداً. وتوجد في النهاية منازل بيضوية الشكل لها جدران مدرية طينية متجمعة على شكل شوارع مصفوفة. تضاف إلى تلك الأكواخ مطاير الفيومي، عوضت فيما بعد بجدران غرست بالأرض. وكانت الأموات، — بعضها، لا كلها، — تقبر في حفر بيضوية الشكل بين المساكن دون أن يكون معها أثاث. ويبدو أنها كانت موجهة نحو منزلها. وكان الإنسان يربي الكلب والماعز والشاء والخنزير. وكان يصطاد خصوصاً فرس الماء والتمساح والسلحفاة إلى جانب تعاطي الصيد البحري. ولقد تطورت تلك الثقافة بين - ٤١٨٠ إلى - ٣٥٨٠. ويمكن أن تكون معاصرة للفيومي، ثم تواصلت إلى بداية النجادي الأول.

يشمل العمري (أ) (٢٤) ثقافة أخرى من مجموعة الشمال اكتشفت قرب حلوان بين بقايا تجمع سكني كبير يتجاوز طوله الكيلومتر بمدخل وادي خوف. ويوجد فرع من تلك القرية الماقبل تاريخية فوق نجد يشرف على جرف شديد الانحدار وهو فريد من نوعه بمصر. إن الحفريات التي قُنا بها والتي لم تنته بعد، قد وفرت عناصر حضارة جديدة مختلفة عن حضارة الجنوب مثلها هو الشأن في مرمدة والفيوم. فالخزف يشمل أنواعاً مختلفة جداً وهو من نوع رفيع يمتاز بأسلوب متطور أكثر من أسلوب الخزف الموجود بالموقعين وإن كان وحيد اللون. نجد في الأشكال السبعة عشر التي تتكون منها الأواني المساء أو المصقولة، الحمراء أو البنية أو السوداء، أوعية لها فوهة ضيقة وأخرى بيضوية الشكل

(٢٣) انظر الفصل ٢٨.

(٢٤) انظر الفصل ٢٨.

وأقداحا وأخرى اسطوانية وأوعية خزفية واسعة أو مقعرة وأخرى هرمية وجراراً. ولا تشابه أوعية مرمدة والفيوم إلا الأوعية ذات الحلمات. وكانت تستعمل أوعية نادرة من الكلسيت أو البزلت، إن الصناعة الصوانية ذات الوجهين لا تختلف عموماً عن صناعات المواقع السابقة. لكن الصناعة الصفاشحية قد وفرت أنماطاً متميزة جديدة بمصر: فهي تشمل سكاكين مقوسة الظهر معكوفة نحو الحد، وبقاعدها مقبض صغير متكون من فريشتين يحتمل أنها بقايا «النتوفيين» الذين أقاموا في العهد السابق بنفس المنطقة. ويمكن أن نذكر أيضاً أثقال الشباك من نوع عثر عليه بالخرطوم والفيوم والصحراوي النيجري، حيث توجد أيضاً صناعة ذات شظايا وافر. وتمثل الصناعة العظمية من النوع الرفيع النماذج الكلاسيكية. إلا أن الصنارة كانت مصنوعة من القرن. وتشمل أدوات الزينة الكثيرة العدد أصدافاً بطنية الأرجل من البحر الأحمر ولآلء منحوتة من بيض النعام والعظم والحجارة وفقرات الأسماك. وكانت النوميوليات (Nummulites) الأحفورية المثقوبة تستعمل أقراطاً. وكان الكلين والصمغ يستوردان. أما اللوحات المستعملة لهرس المغرة (التراب الحديدي) فهي من النوع الحشن ومصنوعة من الكلس والصوان. وكانت الحيوانات تتكون من البقر يات والماعز والظباء والخنزير وفرس الماء، والكلب، والنعام والحزون والسلحفاة وعدد كبير من الأسماك وكان يزرع بالمكان القمح والشعير والكتان، وكانت النباتات تتكون من الحماط والنخيل والأشئلة والخلفاء وكانت المساكن على نموذجين، منها ما كان ذا سقف مسنودة بأوتاد وكانت بيضوية الشكل، ومنها ما كان محفوراً جزئياً في الأرض وسطوحها مدورة. وهي تمتاز بمساحتها الكبيرة على مطامير الحبوب المنتشرة في كل مكان تقريباً. إن الموق القبورين في القرية نفسها قبرا أكثر كثافة مما هو موجود بمرمدة، كانوا مصنفين عموماً حسب توجيه قار، وكانوا كلهم موضوعين في أوعية تربية، رؤوسهم إلى الجنوب وجوههم نحو الغرب. وكان أحد الموق — ولعله كبير منهم — يحمل صولجاناً خشبياً (الصولجان «أميس») له شكل كان معروفاً في شمال البلاد في العهد الفرعوني (حوالي ٩٣٣٠).

وقد ظهر العمري (ب) (٢٥) ثم تطور في بداية النجادي الأول. فلقد تعرفنا عليه بشرقي الموقع السابق، وهو يختلف عنه اختلافات عدة فيما يتعلق بهراسم الدفن والصناعة. فلقد كانت المقبرة تتميز عن التجمع السكني تحتوي على أضرحة مغطاة بحجارة من الحجر. ولا توجد قاعدة قارة يعتمد عليها في توجيه الجثث. أما فيما يتعلق بالتجمع السكني الذي هو أقل اتساعاً من تجمع العمري (أ) فإننا لم ننته بعد من البحث فيه. وإذا كانت للخزف سمات مشتركة، فإن الأدوات الحجرية كانت متخلفة تماماً. إن العمري الذي يعتمد تقنيته صفاشحية يتكون من سكاكين صغيرة ومكاشط صغيرة الحجم، مستوية ومدورة، ومن قطع صغيرة. وفي انتظار مواصلة أعمالنا، يصعب علينا الآن، أن نحدد تاريخ الموقع بالنسبة إلى العمري (أ).
اكتشف المعادي (٢٦) بعد إجراء حفريات لم تكتمل، وذلك بتجمع سكني مجاور لمقبرتين

(٢٥) يمكن ترتيبه في عهد ما قبل الملوك الحديث، المسمى أيضاً بالجزري الحديث، وهو مذكور في الفصل ٢٨. إلا أن تحديد تاريخه مازال غير ثابت.

(٢٦) لعله ينتسب في قسم منه إلى الأقل إلى عهد ما قبل الملوك أو الجزري الحديث (انظر الفصول ٢٨) ولكن يمكن أن يكون معاصراً لعهد ما قبل الملوك الأوسط أو الجزري (انظر الفصل ٢٨).

بالمعادي، قرب القاهرة كما اكتشف بعد حفرة قننا بها مقبرة ثلاثة عثر عليها بعين شمس (ضواحي القاهرة). إن ثقافة ذلك التجمع على غاية من الطرافة وهي لا تتبع زمنا بصورة مباشرة ثقافة العمري بل تمثل مجموعا ثقافيا ثانيا من مجموعة الشمال. إن خزف هذا اللون الواحد يبدو أقل رقة من خزف العمري. فهو خصوصا أملس ولونه أسود أوبي، وتدران يكون أحمر أو مغلفا بعجين أبيض. أما الفخار المتوافرة فهي متكونة من أوعية بيضوية الشكل، طويلة العنق، لها حاشية بارزة. وقد لاحظنا وجود أوعية صغيرة كروية لها أطواق غالبا ما تكون مزدانة بنقطة منقوشة. وتوجد أوعية أكثر تميزا لها قاعدة متكونة من حلقات ناتئة مدورة تذكرونا بأوعية البزلت من ذلك النموذج، وهي موجودة أيضا بالمكان. أما الأوعية التي لها زخرفة بنية من النجادي الثاني، فهي نادرة وربما تكون مستوردة من الجنوب، ويوجد فيها أيضا أوعية كبيرة البطن لها عرى متموجة موجودة في النجادي الثاني وفي فلسطين. إن تلك الأوعية تدل على تواصل العلاقات الثقافية المستمرة بين النيل وفلسطين. وتشابه أوعية البزلت الأنبوية كذلك أوعية صعيد مصر في عهد النجادي الأول. وهناك صناعة حجرية صفائح عديدة رفيعة، وقد نحتت من جديد في شكل أدوات اختصت بها تلك الثقافة المعادية، أما السكاكين المفروقة التي لها شكل حرف (U) فهي أقل عددا، ولعلها هي أيضا مستوردة من النجادي الأول. وقد لاحظنا قلة في أدوات الزينة إلا أن بعض اللوحات الششية المعينية الشكل قد جاءت هي أيضا من النجادي الأول. أما اللوحات الأخرى فهي إما صوانية أو مجرد قلامة صوانية بسيطة مسطحة.

إن أهم ما تميز به الثقافة المعادية هو أنها توفر لنا لأول مرة ضمن ثقافات عهد ما قبل الملوك، دليلا على استعمال النحاس على نطاق واسع. وبينما نجد أن الفيومي والمرمدي والمعري لم تعرف النحاس أبدا، فقد كان مستعملا في صعيد مصر منذ عهود قديمة جدا. وكان سكان الوادي منذ البشري وابتداء من النجادي خاصة يستغلون المناجم الصغيرة المجاورة لهم في المنطقة الجنوبية من الصحراء الشرقية. ولقد تم فعلا العثور على مقصات ودبابيس ومثاقب وصنارات وفؤوس من النحاس. ويبدو أن أنواعا من الموارد المعدنية قد وجدت في نفس الوقت في ذلك المكان. وأصبح ذلك المعدن مشهورا بالمعادي. ونحن ننسب ذلك الوضع من الأشياء إلى اتصال المعادين بالمناجم المعدنية في ذلك الوقت بسيناء. وتؤكد العلاقات بوجود سماء مشتركة عديدة مع الشرق. فضلا عما ذكرناه آنفا من وجود صناعة الفخار في فلسطين يمكن أن نذكر كذلك بعض الأدوات الصوانية والمنغنيزية. وتشكون الحيوانات من بقر يات وماعر وشياه وخنازير وأفراس ماء وسلاحف وأسماك، وكان النبات يتكون من القمح والشعير والخرز والحلفاء.

أما فيما يتعلق بالتجمع السكاني فقد وجدنا عددا كبيرا من الأوتاد المغروسة في التراب مكنتنا من إثبات وجود أكواخ بيضوية الشكل وآثار ملاحية بسيطة. وقد اكتشفنا أيضا أكواخا أكثر تطورا، مستطيلة الشكل، مبنية بالآجر مثلها هو الشأن في عسنة، كما اكتشفنا أكواخا أخرى تحت الأرض يدخل إليها بالادراج. وكانت الجرار الفائرة في الأرض تستعمل مطاير للحبوب. وكانت الحفر المستديرة مخازن مؤونة وتخفي غالبا أوعية مثلها هو الشأن في النجادي. وكانت المقابر المنفصلة عن القرية تحتوي على قبور مستديرة أو بيضوية الشكل، وليست مستطيلة أبدا. فهي تحوي جثثا منشنية على الجنب، رؤوسها موجهة غالبا نحو الجنوب وجوهها نحو الشرق وتصاحبها نائليا أوعية.

وكانت تدفن أيضا في تلك المقبرة الغزلان التي كانت تعتبر بدون شك حيوانات مقدسة وغالبا ما تكون مصحوبة بأوعية كثيرة، ولقد اكتشفنا بطرف مقبرة عين شمس صفا من الكلاب الموجهة الى كل ناحية، وغير مصحوبة بأدوات جنازية، فلعلها كانت تقوم بدور الحراسة مثلما كانت تفعل لما كانت حية، ولم تبق الا آثار قليلة إلى الآن نظرا لصغر الموقع.

ان هذه الثقافة لم تحل في الحين محل العمري، بل ظهرت عند نهاية التجادي الأول، واستمرت في تطورها الى غاية انتهاء التجادي الثاني في صعيد مصر.

استمرار العصر الحجري في العهد الفرعوني

بعد ان تحدثنا عن التيارات التي عرفت مصر قبيل عهد الملوك، يجدر بنا الآن ان نلخص خصائصها، وان نحاول شرح أسباب تباعدها ثم أخيرا تقاربها في العهد الفرعوني.

اننا نجد، في تاريخ الفراغة الطويل، اشارات الى مصر الشمال ومصر الجنوب، وكيف وبينها مينيس الشهي، مؤسس السلالة الملكية الأولى. والحقيقة ان هذه الاشارات تتركز على وقائع ملحوظة ترجع الى غياهب الماضي، بل الى ما قبل التاريخ.

وقد رأينا كيف أثبتت الحفريات الحديثة صحة هذه السنة المتبعة، وكيف ان هذه الفوارق الجيوية بين شمال البلاد وجنوبها، كانت موجودة منذ المرحلة المسماة «العصر الحجري الجديد»، ولم تكن هذه الفوارق جغرافية فحسب، بل كانت تشمل عدة ميادين من حياة الانسان، الى درجة أنه تولدت عنها مجموعتان ثقافيتان كبيرتان مستقلتان عن بعضهما، تستمدان طاقتهما من ظروف طوبوغرافية وبشرية مختلفة. وقد اثبتت مجموعة الجنوب على طول مجرى النيل الضيق، محصورة بين جرفين قاحلين، أما مجموعة الشمال، فقد نشأت في دلتا النيل الخصب الواسع ذي الآفاق المترامية الأطراف.

ولقد تفرعت عن مجموعة الشمال عدة ثقافات هي متشابهة من حيث الخطوط العامة ولكنها متميزة من حيث التفاصيل، وهي الى حد ما متعاقبة زمنيا، ورغم وجود الأصل المشترك، فان مجموعة الجنوب لها خصائص تتميز بها وتميزا واضحا عن ثقافات الشمال. وهذه الفوارق ملحوظة في خصائص كل من المجموعتين اللتين تشكلت من اتحادهما فيما بعد مصر الكبرى.

وهكذا، منذ البداية، لوحظ في شمال البلاد تطور مدني معتبر. ففي الفيوم نشأت قرى صغيرة متقاربة بعضها من بعض. وفي مريدة قامت مدينة بأتم معنى الكلمة وامتدت على ما يقرب من مئتي هكتار، اصطففت فيها المنازل، وامتد العمري على طول قدره كيلومترين والمعادي على كيلومتر ونصف، أما في الجنوب، فنظرا الى ضيق المواقع، لم يبق من آثار المدن الا القليل.

وفما يتعلق بالانشطة الاخرى التي لها صلة بحياة الانسان وأعماله بمصر في ذلك العهد، فان الصناعة الفخارية الشمالية سواء كانت بنية أم سوداء أو حمراء، قد بقيت رغم تطور الأشكال وحفاظة على اللون الواحد المستقر، وتميزت بانعدام الزخرفة انعداما كاملا. وخلافا لذلك فان تعدد الأشكال وتقدم الزخرفة تقدما كبيرا في الجنوب قد ظلا علامتين مميزتين مع الأوعية الشهيرة ذات الحواشي السوداء..

ولئن ظهر في خرف الشمال بعض النقص فإن العكس يظهر في الصناعة الصوانية التي تدل على دقة رائعة في صياغتها. ولقد بلغ اتقان نحت بعض القطع في الجنوب مستوى رفيعا. إن الشمال فقيرا فقرا تماما في ميدان الفن المحض، وبذلك يقف على طرفي نقيض مع ما بلغه الجنوب من ازدهار كبير. ولقد ظهر ذلك الازدهار في الجنوب منذ البدري ونجلى في تماثيل رائعة من العظم والعاج أو الطين المحروق، وفي أدوات الاستعمال اليومي كالامشاط والمعالق وجواهر الاقراط واللوحات الجميلة جدا، التي يسحق بها الخضاب، والحروز المنحوتة من الشيسيت الأخضر. لذلك ندرك الاختلافات الكبيرة في ميادين متنوعة بين الشمال والجنوب بمصر. فنلاحظ ان الشمال بلغ تقدما عاليا من الناحية العمرانية والاقتصادية وأن الجنوب بلغ مرحلة فنية متقدمة جدا معلنة عن عهد الفراعنة. وسيكون توحيد هاتين الثقافتين المتكاملتين هو السبب الرئيسي لعظمة مصر في عهد الفراعنة.

الا ان حلول العهد التاريخي الذي واكبته الكتابة وتوحيد مصر تحت سلطة واحدة، وتقدم استعمال المعدن، لم يغير كما كان منتظرا بعض مظاهر عيش السكان بالوادي. وينطبق هذا على التمادي في استعمال الصوان خاصة وهو مادة ناجعة جدا كانت متوفرة في البلاد طيلة العهد الفرعوني.

ومما يستحق الذكر ان الاتقان العظيم في نحت الصوان قد بلغ أوج ازدهاره في عهد الأسر المالكية الأولى، وتدل على ذلك السكاكين الرثة التي تسمى سكاكين «القربان» وأضرحة أبيدوس الملكية في بصعيد مصر وسقارة أو حلوان قرب القاهرة، حيث ان اتقان صناعتها وحجمها الرائع يثيران الإعجاب. وقد عثر أيضا في أطلال مساكن ذلك العهد على أدوات منزلية من الصوان وبعض أدوات نادرة جدا من النحاس في هيركمبوليس والقاب، بصعيد مصر ووادي حمامات بالصحراء الشرقية.

واكتشفنا في آثار الامبراطورية الوسطى بطيبة القديمة أي بالكرنك عددا وافرا جدا من الادوات الصوانية وهي تختلف من حيث تقنية صنعها وتنوع أدواتها عن الأدوات المستعملة طيلة العصر الحجري القديم الاعلى والعصر الحجري القديم اللاحق. وقد لاحظنا كذلك عددا وافرا من المناقش والادوات المتكونة من الحجارة الصغيرة.

ان الاستكشافات النظامية التي قننا بها منذ ١٩٧١ من جهة أخرى يجبل طيبة والأقصر بينت ان أكثر من نصف الـ ٢٠٠ معمل لنحت الصوان لا يعود الى ما قبل التاريخ بل الى الامبراطورية الوسطى وكانت هذه المعامل تزود العاصمة بأدوات مصنوعة حسب تقنية تعتبر أخشن من تقنية الامبراطورية الوسطى. وتشكون من صفائح وسكاكين وقطع مناجل ظلت موجودة طيلة العهد الأسفل.

لم يقتصر استعمال الصوان في عهد الفراعنة على الأدوات المنزلية فحسب، فلقد استخدمت أهلة من الصوان لحفر الأساور الشستية بوادي حمامات وهي أدوات للزينة استعملت من أول التاريخ الى نهاية العهد العتيق واستعملت في نهاية الأسرة المالكة الثالثة لقطع الكتل الحجرية الكبيرة في وقت ما لبناء الهرم من عهد فرعون زوزر الى عهد فرعون سقارة. وقد حفرت الأواني المصنوعة من

حجر رخو بشلك الآلات نفسها الى عهد الامبراطورية القديمة في معامل الفيوم بجوار مناجم الكليسيه.

ولقد كانت سهام المحاربين المصريين منذ الاسرة المالكه الاولى الى عهد الامبراطورية الجديدة مسلحة بحدود قاطعة من الصوان. ولنلاحظ ان سهام فرعون توت أنخ آمون (الأسرة المالكه الثامنة عشرة) كانت من عجين البلور وهي مادة نفيسة فعالة مثل الصوان.

وقد استعملت مصر الفرعونية أيضا صخورا أقل رخاوة من الصوان لصنع أدوات تؤدي وظائف معينة، ان المعاول والمطارق الخاصة بالاشغال المنجمية أو المحاجر والتي لها أعناق تمسك بها، قد كانت من الحجر الصلب طيلة الامبراطورية الوسطى والامبراطورية الجديدة. فلقد حفرت وهبشت بواسطة تلك الآلات الحجرية الخشنه، الدياميس المقبرية التابعة للامبراطورية القديمة بالجيزة (قرب القاهرة) ودياميس الامبراطورية الوسطى بمصر الوسطى، ودياميس الامبراطورية الجديدة في جبل طيبة.

أما فيما يتعلق بالنوبة المصرية وقسم من النوبة السودانية اللتين غطتها المياه في الوقت الحاضر، فان الابحاث الاثرية لم تجر حسب ما يرام اثر عمليات الانقاذ، وذلك ما حرمانا مع الأسف من معلومات كثيرة ثمينة تتعلق بماضي تلك المناطق لا سيما بدوام استعمال الحجر في العهود التاريخية.

الا ان المواد الاثرية الموجودة من قرية تنتسب الى مجموعة (ج) النوبية (الامبراطورية الوسطى) (في سبوعة) مكنتنا من التعرف على عدد من الصفائح والصفائح وقطع من المناجل من الصوان. ولا شك ان هذه الاخيرة التي استوردت من مصر تشابه تماما ما يرجع تاريخها الى نفس العهد والتي اكتشفت أخيرا بالكرنك وقد سبق ان ذكرناها.

ونجد من ناحية أخرى في أماداء، وهي قرية أخرى من مجموعة (ج) موجودة أيضا في النوبة المصرية جرت بها حفريات أشرفنا عليها، نجد أدلة أخرى على استمرار العصر الحجري في العصر المعدني. فلقد كانت الصفائح وقطع المناجل مثلها هو الشأن بسبوعة تأتي من مصر.

وقد اكتشفنا فضلا عن ذلك بموقع أماداء حدود سهام صغيرة من حجريان أو عقيق تضاف الى تلك الصناعة الحجرية المستوردة. ووجدنا فؤوسا مصقولة من الحجر الصلب المحلي.

أما فيما يتعلق بالنوبة السودانية فان الحفريات التي جرت في الحصن المصري بمرغسة قد وفرت — كما كان متوقعا — أسلحة. فوجدت ضمن تلك الاسلحة التي تعود الى الأسرة المالكه الثامنة عشرة سهام من نوع كلاسيكي، أي لها حدود قاطعة من الحجر المذكور سابقا. وتكن الظاهرة الجديدة في أن رؤوس الرماح لم تكن من المعدن مثلها هو الشأن في مصر الفرعونية في ذلك العهد، ولكنها كانت من الصوان قد صيغت حسب نحت ذوات الوجهين المثقن، وتشبه النحت المستعمل في العصر الحجري الجديد. وقد كانت غاية احياء تلك الطريقة اعادة صنع حدود الرماح المعدنية بأدق طريقة ممكنة. وبما أنه كان من الصعب الحصول على المعدن وعلى الرماح المصنوعة في تلك الفترة بتلك المنطقة البعيدة، فان هذا الامر قد ساعد في الرجوع الى تقنية صناعية تركت منذ آلاف السنين.

الخاتمة

ينبغي، بعد أن استعرضنا استعراضا إجماليا تاريخ البشر الأول الذين أقاموا بوادي النيل، أن نضع التقوم، وأن نذكر المكاسب وأن نشير إلى النقص الهامة العديدة.

إن الاكتشافات الحديثة جدا المتعلقة بالعهود العتيقة تاريخيا تسمح لنا بالتأكيد على وجود أول إنسان بدائي معروف وهو الإنسان الألدواي، ليس بإفريقيا الجنوبية والشرقية فحسب بل كذلك في القسم الشمالي من وادي النيل أيضا. أننا نعرفه اعتمادا على أدوات حجرية كثيرة. ولكن يستحسن متابعة البحوث لتستكمل الوثائق العظمية المتمثلة إلى حد الآن في سن بشرية وحيدة. فيجب أن تجري استكشافات مماثلة تتعلق بذلك العهد في القسم السوداني الذي يمثل نقطة اتصال مع إثيوبيا حيث حدثت اكتشافات رائعة تخص ذلك العهد.

أما الأدوات الحجرية الراجعة إلى العصر الحجري القديم فلقد حللت تحليلا وافيا من حيث خصائصها في منطقة وادي حلفا فحسب وذلك على سبيل التقریب. ولقد وفرت أدوات طيبة معطيات تخص أقدم مرحلة. لكن ما زالت قضايا كثيرة تحتاج إلى التوضيح، منها ما يتعلق بالأجناس البشرية طيلة ذلك العهد.

أما فيما يتعلق بالعصر الحجري الوسيط، فالشواهد الحجرية كثيرة على طول وادي النيل. فلقد تحقق دائما تقدم كبير في منطقة وادي حلفا مما سمح لنا بأن ندرك أحسن إدراك مرفولوجية أدوات ذلك القسم فحسب. إن الحصىلة المثمرة التي توفرت ببجل طيبة مازالت تحت الدرس وستسمح بمقارنات مفيدة بمصيلة الجنوب. وتعتبر قطع من العظم القذالي هي البقايا البشرية الوحيدة التي استخرجت إلى حد الآن. ولقد عثر بالصحراء الليبية في الشمال الغربي لوادي حلفا على أدوات حجرية لأول مرة لها صلة بمجوانات. ومازالت مناطق سودانية شاسعة لها صلة بتلك الفترة تحتاج إلى أن تستكشف.

لقد لوحظ أيضا وجود العطارى، الذي يكاد يكون معاصرا بالقفر الموجود بالشمال الغربي من أبي سنبل، أن تلك الصناعة المتصلة بمجوانات، والتي أصلها من الشمال الغربي الإفريقي قد دامت إلى عهد متأخر بتلك المناطق. وقد يكون من المهم أن نقدر إلى أي حد يوجد تقارب في السن مع مكتشفات أخرى بمصر، وهل أثرت في صناعات مصرية محضة.

أما فيما يخص العصر الحجري الجديد والعصر الحجري القديم اللاحق، فإن الاكتشافات التي حصلت في بقاع معينة قد وفرت أمورا عديدة كانت مجهولة إلى حد الآن. وربما بالغنا في وضع تسميات جديدة مركزة على دراسات احصائية وتحاليل فيزيوكيمياوية تنقصها الدقة أحيانا. ولعل السبب في ذلك هو انعدام رسوم طبقية أرضية.

ولقد وقع تحقيق تقدم لا ينكر فيما يخص العصر الحجري الجديد (وتلك تسمية لا تؤدي مفهوما دقيقا بمصر) وعهد ما قبل الملوك على طول وادي النيل.

واعتبارا لذلك فإن مواقع المجموعة الثقافية الجنوبية في مصر قد وفرت وثائق كثيرة استخرجت من المدافن خاصة. ويستحسن أن تجري أبحاث على صعيد أوسع في التجمعات السكنية التي ستوفر لنا سجلا أكمل عن السكن والفخار المستعمل والأدوات الحجرية المستعملة.

ولما كانت المواقع المصرية لم تحفر حفرا شاملا بسبب المساحات الكبيرة التي تشملها، فهي لم تعرف الا بالاعتماد على تقارير ناقصة. ولقد وفرت رغم ذلك معطيات أكثر اكتمالا من المواقع الجنوبية المعاصرة، وقدمت تواريخ ثقافات مختلفة وفرتها بحوث حصلت بالمدافن مثلما حصلت في الأماكن السكنية أيضا. فينيغي اذن مواصلة الاكتشافات المتوقفة منذ عدة سنين بتلك المنطقة الشمالية المصرية لأسباب مختلفة، حتى تكتمل وثائقنا.

أما فيما يتعلق بالنوبة السودانية، فإن حضارات عديدة متميزة تنتسب الى تلك العهود قد درست دراسة دقيقة، تذكر منها الخرطومى والشهباني الذين كانا يبدوان أكثر الحضارات تمثيلا لذلك العهد الى حد الآن. ونحن ننتظر القيام بعمل واسع لأن عشرات المنشآت التي عثر عليها تعود الى تلك الثقافات أو الى مراحل زمنية مختلفة، وهي تنتظر متى يعنى بها الباحثون. ان هدفنا من هذا التحقيق يرمي الى المساهمة في ضبط حلقات التاريخ الافريقي قبل العهد الفرعوني.

الفصل السادس والعشرون

الفن الإفريقي في ما قبل التاريخ

بقلم: ج. كي زيربو

لا يكاد يظهر الإنسان، حتى تظهر معه الأدوات، و يظهر معه الانتاج الفني (الانسان الصانع، الانسان المبتكر). وهذا الامر يصدق أيضا على ما قبل التاريخ الافريقي. فنذ آلاف السنين، أتلّف الانسان والعناصر الطبيعية ذخائر ما قبل التاريخ في افريقيا بل تعتمد الانسان ابتداء مما قبل التاريخ نفسه، الاتلاف، وذلك لاسباب تعبدية سحرية. ان المستعمرين من المدنيين والعسكريين، وكذلك السواح والنفطيين والأهالي، ما انفكوا يقومون بالتخريب و«التهب المشين» الذي تحدث عنها ل. بالوت في تمهيد للنشرية المخصصة للتعريف بالعرض حول «الصحراء قل ان تصبح فقرا». ان فن ما قبل التاريخ يزين عموما الهضاب والجبال من افريقيا وتعتبر الجبال العالية والمنخفضات وأحواض الانهار والغابات بالمنطقة الاستوائية من افريقيا أقل ثراء في هذا الميدان ان قارناها بما سبق من المراكز المحظوظة.

قد حددت تلك المواقع في مستوى المنحدرات الصخرية التي تتكون منها حروف الأراضي العالية ولا سيما ان كانت تشرف على تلغ الانهار الحالية أو الاحفورية. وتشكل افريقيا الصحرواية وافر افريقيا الجنوبية الموطنين الاساسيين. ولقد عثر بين الاطلس والغابة المدارية من جهة وبين البحر

(١) تحدث ه. لوط عن عسكريين فرنسيين بالجزائر طمسوا في ١٩٥٤ بالألوان الدهنية اللوحة الرائعة التي تمثل فيلة حجرة عيصرات ليحسبوا تصويرها. ونزح آخرون برصاص رشاشاتهم الجدار القريب من نقش العزب الكبير في قرعة الطالب، وفي بني ونيف هدمت القمم المزينة بالنقوش لتستعمل في بناء المساكن الخ... انظر في هذا الشأن ه. لوط ١٩٧٦. ولا يمكن أيضا أن يسلم بعض الاختصاصيين أنفسهم من اللوم، فهذا اميل هلوب قد فكك قطعاً عديدة ونقلها إلى فيينا في نهاية القرن التاسع عشر.

الأحمر والمحيط الأطلسي من جهة أخرى، على المئات من المواقع التي تحتوي على عشرات بل على مئات الآلاف من النقوش والرسوم. ولقد أصبح البعض من تلك المواقع مشهورا عالميا، بفضل أعمال علماء ما قبل التاريخ من الفرنسيين والإيطاليين والانقلوسكون، والافارقة الذين يتزايد عددهم، وذلك بالجزائر، جنوب وهران وبتاسيلي — أن — أجر (جبارن — سفر — تيسوكاي — جنات — الخ...) وبجنوب المغرب وفزان (ليبيا)، وكذلك في العاير وتينيري (النيجر)، وتيبستي بتشاد، وبالنوبة، وبجبل الحبشة، وبظهر تشيت (موريتانيا)، وبمسامدس بأنغولا. ويوجد المركز المهم الثاني في المحروط الجنوبي من أفريقيا بين المحيط الهندي والمحيط الأطلسي، في لوسوطو وبوتشوانا، وملاي ونغوان، ونميبيا وجنوب أفريقيا، وخاصة في ولاية أورانج الحرة، ومنطقة الغال والترنسفال الخ. فهناك توجد الرسوم في ملاحيء حجرية، وتوجد النقوش مكشوفة وتعتبر المغارات مثل مغارة كانغوشيا استثنائيا وقل أن تجد بين الاقطار الافريقية بلدا لم يكتشف به آثار فنية أو آثار من عهد ما قبل التاريخ. والحقيقة ان الاستكشاف لا يزال في خطواته الأولى.

كيف نفسر هذا الازدهار في الاراضي القاحلة والسباسب؟ أولا لأن الأراضي لم تكن قاحلة في ذلك العهد، ثم ان تطور تلك المناطق الى حالتها الراهنة جعل منها متاحف طبيعية نظرا لجفاف الهواء نفسه، والدليل على ذلك أنه اكتشف في الصحراء مثلا أشياء ثابتة على حالتها في مواقعها الاصلية منذ آلاف السنين. فلماذا حدث ذلك على حواشي الاودية التي تحترق الهضاب؟ حدث ذلك لاسباب سكانية ودفاعية وإمكانية توفير الماء وقرب مواقع الصيد. ومثال ذلك في التاسيلي الصلصالي المقلوب حول النواة البلورية لجبال الهقار، والمشرق على الجنوب من ارتفاع ٥٠٠م، حيث تضاعف تناوب الحرارة والبرد، وسيلان المياه في حفر افرزات وشبايا هائلة تحت الصخور تشرف على تلغ الانهار. وأبلغ مثال على ذلك هو الخبأ الكائن تحت الصخور في تين تازا ريفت. ولقد حفرت الرياح من جهة أخرى في الهضاب الصلصالية أروقة طبيعية سرعان ما استغلها الانسان. ذلك هو الاطار الطبيعي الذي مثلته بكل أمانة ودقة، روائع الرسوم الجدارية الافريقية.

الترتيب التاريخي والتطور

المناهج ومشاكل ضبط التواريخ

كثيرا ما تظهر في هذا المجال، طريقة دراسة الطبقات المتصلة بالصخور الثابتة ذات فائدة محدودة، ذلك ان المناخ الرطب المتواصل خلال عصور طويلة في ما قبل التاريخ تسبب في تلوين عميق للطبقات التي تغطي ارضية الخايء. لكننا نجد في بعض الاحيان بجانب افريقيا نقوشا تحت الرسوم. وقد يعطي حظام المواد العضوية المتساقط من الجدران على طبقة غير منسوبة، قد تعطي بعض العلامات. الا ان تعرية تلك الطبقات وتغطيتها، عمدا في بعض الأحيان، تشوش ضبط التواريخ التي يأمل الباحث أن يستخلصها، حتى ولو كانت نسبية.

لذلك يستعان في بعض الحالات بزنجار الرسوم وقواعدها الصخرية مع دراسة مقارنة لتحولاتها اللونية، وتعتبر هذه الطريقة ملائمة لأنها مرتبطة بالموضوع نفسه، الا أنها تفترض أن الزنجار الأكثر وضوحا والاكثر اختلافا مع لون الصخرة الأم هو الاحدث لان ظهور الزنجار يطرأ ببطء على كل

الصخور حتى على الصلصال الابيض. وتلك عملية شبيهة بتشكيل اللاتيريت اذ ان الأكسيدات والكاربونات التي تسربت في شكل سوائل من جراء المطر أو الرطوبة تتصاعد الى السطح جذبا وتشكل بعد التبخير قشرة صلبة وداكنة نسبيا حسب قدمها. وهكذا تتكون لنا المرجع الى الصخور الشابتة قاعدة نظرية لضبط التاريخ النسبي. لكن العوائق كثيرة اذ ان الامر كله مرهون بطبيعة الصخور وبوجودها بالشمس أو في الظل أو في الهواء الطلق أو معرضة للرياح الخ... ان ضبط التاريخ بهذه الكيفية لا يمكن ان يكون الا نسبيا (٢).

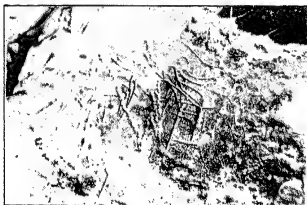
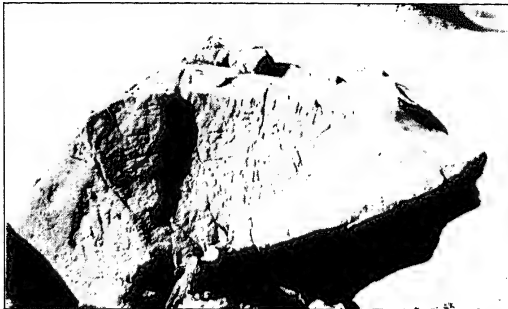
و يستند في بعض الحالات الى الحيوانات المثلة في الرسوم للحكم على قدم اللوحات، نظرا الى ان كل الانواع لا تعيش في نفس الحقب الزمنية الكبرى. فالحريم مثلا هونوع قديم جدا قد اندثر ولا يعرف الا بالاعتماد على أحفوراته العظمية. ولكن، ألا يمكن أن تكون تلك الحيوانات قد رسمت للتذكير بعصر سالف؟ ان الأساليب لا تشكل أيضا — مثلما سنرى — دليلا مضبوطا، اذ ان ذلك لا يكفي ويبدو أول وهلة ان الملاحظة هي الغالبة مما يؤدي وجود أثر شبه طبيعي يميز الا ان النقوش الحيرمية بالصحراء الكبرى تعتبر من جهة أخرى سابقة غالبا للرسوم ولذلك فان الاشياء الموجودة تحتها والتي تتميز بنفس النوع من التسميات الموجودة بالرسوم هي مبدئيا معاصرة لها. لكن لا يمكن ان نعتد هنا أي قاعدة عامة. و يستعان كذلك أحيانا بطريقة أخرى وهي ضبط التاريخ النسبي انطلاقا من الاضافات، باعتبار ان السمات الطامسة لسمات أخرى، هي أحدث منها، لكن الزبادات لا توجد في كل مكان. يضاف الى ذلك ان تلف الصخور وتحول الألوان غالبا ما يجعل التأويل غير ثابت ومتضارب (٣).

على أنه تبقى، بطبيعة الحال، طريقة الكربون ١٤ وهي طريقة مثالية، لكن تطبيقها نادر جدا للأسباب التي وقع التعرض لها سابقا، كما يستوجب استعمالها الكثير من الحذر. ألم يكن حطام الرسوم متصلا بمواد عضوية حديثة العهد؟ أو لم تنشأ قطعة الكربون من حريق أحدثته صاعقة؟ ومع ذلك تتكاثر التواريخ من هذا النوع شيئا فشيئا. ففي منيت مثلا، بالصحراء الوسطى، وفر كربون من طبقة عميقة تاريخا قدر بـ ٥٤١٠ + ٣١٠ قبل الحاضر.

ويمكن للسياسة أن تتدخل أيضا في ضبط التأريخ، ومن ذلك ان المراقبين البورز (Boers) لا يعترفون الا على مضض بعراقة الحضارة الفنية للافارقة الاصليين، لذلك فانهم يحاولون اختزال التطور بطريقة التدخل أو بالتطبيق الآلي لطرق التقدير التي يستعملها علماء ما قبل التاريخ الاوربيون. في هذه الظروف يرجعون لوحات الدراكنسبرغ الى ما بعد القرن السابع عشر أي بعد قدوم البنتو بمدة طويلة. ولكن، هل من المعقول ان تكون قبائل (سان) قد انتظرت نزاعاتها مع البانتو حتى يكونوا فنا يستلزم ابتكاره حدا أدنى من الاستقرار؟ وذلك بغض النظر عن ان

(٢) ان غير شكل الحظ يتحول في النقوش تحت تأثير تفاعلات فيزيائية كيميائية من شكل «V» الى شكل واسع وبسطح لا يدل الا بصفة تقريبية جدا على عمر اللوحة.

(٣) طبقا لاجواحد الطرق التقنية الموثوقة على لوحات ايناهاونغات (تاسيلي). فالأشخاص الجمر الذين نراهم كأنهم مرسومون فوق رسم امرأة ملثمة لوها أخضر ضارب الى السمره ليسوا كذلك تماما. وذلك لأن الزينة البيضاء للمرأة قد أضفيت في مرحلة لاحقة فوق الأشخاص الجمر. ان ممارسة اعادة تلوين الرسوم الجدارية الاسترالية (وند جيتا) كي تزداد وضوحا تعتبر شائعة وبقرنا السكان الاصليين بمكايات أسطورة للاستسقاء. وقد لاحظ ذلك أيضا ل. فرو بنويس عند الشبان السينيغاليين.



- (١) نقش صخري لخرتيت، من
بلاكا في النيجر. (تصوير هـ. ج.
هوفو).
- (٢) غزلان بلاكا، النيجر (تصوير
هـ. ج. هوفو).
- (٣) فسيل عين ايسكر، الصحراء
الجزائرية (تصوير هـ. ب. س.
هام).



بعض مغارات الفن بمجنوب افريقيا تصور حيوانات يرجع تاريخها بتلك المناطق الى ما قبل ذلك التاريخ بكثير. ولهذا وجب علينا ان ننظر الى مشكلة الحقب.

الحقب

اذا أردنا تصنيف اكتشافات فن ما قبل التاريخ حسب مقطوعات زمنية معقولة، يجب ان يكون المنظار الاول جيولوجيا وبيئيا نظرا الى أن البيئة أيضا هي التي كانت تحدد الاطار العام للعيش وتفرضه، اذ كانت البيئة أكثر سيطرة من وقتنا الراهن على الشعوب المفتقرة الى التقنية وقتئذ. ولقد كانت الظروف الطبيعية بصفة خاصة، تتحكم في حياة الانواع المصورة ومنها الانسان نفسه بتقنياته وأساليبه، اذ انه من المتأكد، حسب تعبير ج. روني «ان الانسان كان في الاصل حيوانا مداريا» افريقيا، ولقد سمحت الظروف المعتدلة في الجزء الشمالي من الكرة الارضية بعد التجمدات الكبرى، باستقرار الانسان في أوربا، وبلغ أوجه الازدهار في فن المغارات منذ ٤٠ قرنا. أما الفن الجداري الافريقي فهو أحدث من ذلك بكثير، فهو يرجع لا محالة حسب ما يعتقد بعض المؤرخين مثل أ. هولم الى حوالي العصر الحجري القديم اللاحق لكنه ميز، أساسا، العصر الحجري الجديد (٤).

ولقد تمودنا على تسمية المراحل الكبرى للفن الجداري باسم حيوان هو بمثابة قرينة نوعية له، ومن ثم ميزت أربع وحدات زمنية كبرى بالحجر والثور والحصان والجمال. وكان الحيرم (Bubale) عبارة عن جاموس ضخم يرجع حسب الاحاثين الى بداية الدهر الرابع. فليست مثل وصور منذ مطلع الفن الجداري (حوالي ٩٠٠٠ سنة قبل الحاضر) حتى حوالي ٦٠٠٠. إن الحيوانات التي تميز أيضا تلك الفترة هي الفيل والكركدن. أما الثور فهو اما الثور الاسباني أي «البراكسيسيروس» ذو القرنين القصيرين والغليظين، أو الثور الافريقي ذو القرنين الجليدين اللذين لها شكل الكنارة. ولقد ظهر هذا الأخير في حوالي سنة ٦٠٠٠ قبل الحاضر. ويأتي الحصان الذي يجر أحيانا عربة في حوالي سنة ٣٥٠٠ قبل الحاضر (٥). ان تصوير

(٤) يبدو ان العصر الحجري الحديث الصحراوي، حسب الاكتشافات الحديثة موغل أكثر فأكثر في القدم. فلقد أرخ منجم فخاري من العصر الحجري الحديث بالمغار اعتمادا على الكربون ١٤ بحوالي ٨٤٥٠ سنة قبل الحاضر. ولذا فهو موافق للعصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى. ولذلك وجب الرجوع الى التواريخ التي قدمها د. اولديريغ في الفصل الحادي عشر لبلانة ونيشك في التوبة السفل وهي تقدر بـ ١٢٥٠٠ و ١٢٥٥٠ سنة قبل الحاضر. وفي عين ايتيان وقع العثور على فضلات لمام يتنجس من غبار صخري ذي رسوم بشرية. اما أقدم موثق، فلقد حدد تاريخه اعتمادا على الكربون ١٤ بحوالي ٤٨٦٠ ± ٢٥٠ سنة قبل الحاضر. وقد عثر، موري في هضاب الأكاكوس (ليبيا) بين طينتين ذاتي بقايا مولد، على جزء من جدار سقط مع قسم من اللوحة يرجع تاريخه الى عصر الشيران. ولما أمكن تحديد تاريخ الطينتين اتضح ان الجزء الذي سقط من الجدار يرجع الى سنة ٤٧٣٠ قبل الحاضر (انظر هـ. ج. هوت في ١٩٧٦، ص ١٠٢ و ١٠٩) كما يذكر أيضا تاريخ ٧٤٥٠ سنة قبل الحاضر لعصر الثيران الاوسط بالأكاكوس (انظر هـ. ج. هوت، ص ٢٣٤) كما أن ج. د. كلاكلا يشير في سلوبي يزي (تونس) الى تاريخ ٦٣١٠ ± ٢٥٠ سنة قبل الحاضر. وعلى العكس من هذا، فان التاريخ الذي نجده في اطروسة ج. ث لورن غدا مانتس بمناطقة الكاب ١١٢٥٠ ± ٤١١ سنة قبل الحاضر، يعتبر غير موثق، ويعتبر مثال تين هكنن خارقا للعادة لأننا نستطيع أن نقيم علاقة ارتباط بين رسوم جدارية وسلسلة كاملة من مستويات اعطاري في طبقة بشرية الجديد ومن مستويات بداية العصر التاريخي الاولى محتوية على هياكل عظمية. ويوجد به أيضا مستوى اعطاري في طبقة بشرية سهل ضبط تاريخها. (انظر اكتشاف نادر في تاسيلي، مجلة أركيولوجيا عدد ٩٤، ماي ١٩٧٦، ص ٢٨ و ٥٩).

(٥) كثيرا ما يتألف في الربيع بين دخول الحصان لافريقيا ودخول الهكسوس (Hyksos) لمصر (انظر في هذا الموضوع ج. كي. ز بربو ١٩٧٣، ص ٩٩).

الركض الطائر، دون ان يكون واقعيًا، يبدو طبيعيًا عندما يجري على المسلك الغربي من المغرب الى السودان، ثم يصبح ارتساميًا عندما يجري بالطريق الشرقي من الفزان (٦). ونكون بهذا قد انتقلنا منذ مدة طويلة الى العصر التاريخي الذي زال فيه تمثيل فرس البحر من الفن الجداري، وذلك يعني بدون شك نهاية المياه الدائمة. و ينهي الجمل مسيرة هذه القافلة التاريخية. فلقد دخل مصر في حوالي ٥٠٠ سنة، منذ الغزو الفارسي وتكاثر في حوالي اوائل التاريخ الميلادي (٧). لكن، نظر الى أن الأمر يتعلق بما قبل التاريخ، فإننا سنهتم خاصة بالفترتين الأوليين وببداية الفترة الحيلية. ان تلك الفترات تميز الحياة النشيطة في تلك الأرض الشاسعة التي لم تتحول بعد الى صحراء قاحلة. و يتجادل الاختصاصيون من ناحية أخرى جدالاً حاد في نطاق كل فترة كبيرة حول شأن التقسيم الزمني وتحزيمه الى حقبات تاريخية ثانوية، لكن الاكتشافات متواصلة ويجب الانتباه، والا يجوز أن تتسرع بطريقة تعسفية في الزعم بأن هذا الحيوان أو ذاك يميز فترة كاملة من تاريخ لا نعرف منه الا الشيء القليل. ان الامر يتعلق قبل كل شيء، ان صح التعبير، بفصائل حيوانية غامضة، في نطاق علم الصور، اذ يوجد بينها كثير من التداخل والاختلاط. فالكبش مثلاً يصنف بأنه لاحق زمنياً للحريم والفيل الا أنه يظهر أحياناً معاصراً لها، فنراه على نفس الجدران وبنفس التقنيات وله نفس الزنجار. ولعل الانسان قد أخذ يعمل على تأهيل هذا الحيوان أو حسبه لغاية دينية. وكذلك شأن الثيران الكبرى المنقوشة في ديدر (تاسيلي) ومنها ثور يتجاوز ٥ أمتار، ميرزا قرين كبيرين في شكل كتارة تحيط برمز. فهذه الثيران تبدو كأنها معاصرة للحريم. و يصنف بعض الاختصاصيين ثور وادي جرات ذا القرط ضمن حقبة الحريم. و يتزايد ظهور حيوانات جديدة في اللوحة مثل بومات تان ريت التي يبلغ عددها حوالي الأربعين والتي تمتزج بصور الثيران. أما الفترات الكبرى في المناطق الاخرى خارج الصحراء فإنها غالباً ما تكون أكثر حداثة كما أنها تتميز بصفات أخرى تختلف حسب المؤرخين، خاصة وان هؤلاء يعتمدون أحياناً في التقسيم الزمني على التقنيات والأنواع والأساليب (٨).

التقنيات والأنواع والأساليب

التقنيات

النقوش

ان النقوش السابقة للرسم عموماً، وذلك عندما تكون تلك الرسوم موجودة أيضاً، وتظهر فنياتها الأكثر ابداعاً في أعلى الحقبات، وكانت تنقش على صخور صلبة أقل صلابة وكذلك على حجر الصوان والمرور أيضاً باستعمال حجارة حادة مصنوعة بقارح من العصر الحجري الحديث وجدت منه

(٦) انظر: ر. موني «طرق العربات»، ١٩٦١.

(٧) ان الجمل فياً يبدو، معروف منذ العصر الفرعوني (انظر: دوجو ١٩٦٠ ص ٢٠٩ — ٢٤٧).

(٨) ينطلق بعض المؤرخين بافر يقياً الجنوبية من شكل الخط، ومن فن مباشرة الحجارة (الخز والداق متفاوت الصقل الخ...) ومن طبيعة الكائنات المثلثة حقبين كبيرتين تضم الاولى منها مرحلتين والثانية أربع مراحل.

بعض النماذج قرب اللوحات. وقد أمكن للفن أن يصل الى درجة كبيرة من الاتقان باستعمال تلك الأدوات البسيطة فلقد نقش فيل برداي بخط خفيف بسيط فهو يكاد يكون تخطيطا، الا أنه يدل على الجوهر وبعكس ذلك فان فيل عين غالين (ماندوس) وفيل عين هبتر الثاني، محفوران حفرا عميقا حسب خط بارزو واضح. كما نجد نفس الاسلوب في كركدن غنوا (تستتي) فنرى الخط الذي يقارب عمقه ستمرا تقريبا في شكل «V» أو «U»، أما الحز فقد أنجز باستعمال فأس صخرية أو باستعمال خشب، صلب، يضاف الى ذلك استعمال رمل مبلل للحك. يظهر أحيانا ان عدة تقنيات استعملت في نفس الوقت مثل التطريق الخفيف والحز حسب شكل «V»، وقد ترك التخطيط المسبق هنا وهناك آثار تضرس داخل الخط. والوصل النهائي مصحوب بعملية برغلة (Bouchardage). وقد تطلب انجاز تلك النقوش أحيانا مواهب رياضية لا شك فيها كما نرى ذلك في وادي جرات مثلا حيث نجد فيلا يز يد ارتفاعه عن أربعة أمتار ونصف ومخططا لكركدن طوله ٨ أمتار.

قد تكون النقوش المحاطة بحفر واسع بافر يقيا الوسطى والجنوبية مرتبطة باعتبارات دينية بينما تعبر النقوش ذات الخطوط الخفيفة عن هدف من أهداف التنشئة أو التربية. وتصلح بعض المساحات الداخلية المجوفة والمصقولة ببراعة، لآظهار ألوان شعر الحيوانات والأشياء التي تحملها، ومن هنا يأتي التنفن. وفي ذلك ارهاص بالنقوش الجدارية بمصر الفرعونية فننظر الى الصورة أحيانا وكأنها قوالب لنقوش بارزة في الصخر التي أفرغت لهذا الشأن (كامي) وتستعمل الصخرة الام بكثير من الحذق ومن ذلك ان زرافة قد صورت على كتلة مستطيلة من الديباز التي تفاعلت معه تفاعلا مكتملا (بالترنسفال الغربي) وكذلك الشأن بمنطقة لوفنتين حيث صُوّر كركدن على سطح صخرة خشنة حدودها مقرنة تعبر بدقة عن درع الحيوان المنقوش عليها. وعلى روبة في منطقة أخرى من مرت جيسفونتين بالترنسفال الغربي أنجز تصوير حمار وحشي باستعمال النقش والتنقيط على قطعة من الديباز ويحد فكه الأسفل تقبب خفيف للحجارة بين شكل الجسم. ومثل عرف ظبي بديع موجود بمتحف الترنسفال بأشرطة منقوشة حفرا. ونقشت خصلته الامامية بخطوط محفورة بخفة. وتستعمل ألوان الصخرة الداخلية منها (الأزرق) والخارجية (أمر) (Ocre) أحمر) ببالغ المهارة لآظهار الشباينات. وتعتبر زرافات بلاكا بفروها المختلف بقوامها في أوضاعها الطبيعية وحتى ارتفاعا أُنما بها آية من آيات الفتنة لمدرسة نقوش ما قبل التاريخ الافريقي. الا أن التقية ستنحو عموما نحو التدهور. لقد أصبحت النقوش رديئة عموما حتى في ما يسمى مرحلة الثيران، و يظهر ذلك مثلا في زرافات القرير بات المرسومة بنقش عريض ونخن.

الرسوم

لا يمكن فصلها تماما عن النقوش. وتمكننا التخطيطات المنقوشة على الجدران في تيسوكاي من التفكير في أن الفنانين كانوا ينقشون قبل الرسم: ولقد كان الفن يتطلب في عين المكان أيضا براعات رياضية. وفي وادي جرات رسم سقف من مرحلة الخيول وذو منحدر وعبر على تسعة أمتار. وفي بعض المحطات في تاسيلي في تيسوكاي مثلا تظهر الرسوم على ارتفاع ٤ أمتار وكأنه يراد بها ان تبعد عن الأماكن السفلى التي يمكن ان يبللها الانسان، وذلك لما استوجب استعمال سلام بدائية

وحث إقامة منصات. ان الرسوم متكونة من لون واحد أو متعددة الألوان حسب الحالات (٩) فنجد الصلصالي البنفسجي في المرتوتك المنخفض، والصلصالي الدموي في غباً جنوب الأثرى بلاك. ونجد في مكان آخر لوحة متألثة تلمع بفعل مزج الألوان مزجا موفقا الى درجة أنها تكاد تخلق من جديد ظروف الواقع وتوازنه وهذا العمل يتطلب تكنولوجيا خاصة ومعقدة نسبيا وقد عثر على بقاياها في شكل مشاغل (Ateliers) فلقد استخرجت في عين ايتين رحي صغيرة مسطحة مصحوبة بمهاريس صغيرة تستعمل لفت الحجارة كما وقع العثور على أوعية صغيرة للألوان. ولقد تبين بالاعتماد على لمعان الألوان المدهش الذي نشاهده اليوم ان تلك الألوان كانت على غاية كبيرة من الصلابة. و يتركز سلم الألوان على بعض الألوان الرئيسية مثل الاحمر والاسمر، وأصلهما من الأمفر المستخرج من أكسيدات الحديد. و يتوفر الابيض من الصلصال الأبيض أو من بعر الحيوان وأيضاً من عصارة النباتات أو من أكسيد الزنك. اما الاسود فانه يستخرج من الفحم الخشبي أو من عظام محروقة ومطحونة وكذلك من الدخان أو من الشحم المحروق ويدخل الاصفر والاخضر والبنفسجي الخ... في هذه المجموعة.. ويتأتى هذا اللمعان الحي الذي استطاع اختراق آلاف السنين من أن المواد اللوتينية المسحوقة جيدا بالمدق كانت تعجن وتخلط مع سائل، يمكن ان يكون حليباً لأنه يحتوي على الكازين (مادة بروتينية في الحليب) الذي يساعد على الخلط، ويمكن ان يكون شحماً ذائباً أو غرقداً (بياض) البيض، أو عسلاً أو نخاع العظام المحروقة. وكانت الألوان تلتصق بالأصابع أو بريش العصفافير أو باستعمال ملعقة من القش أو من الأخشاب المضغوطة، وكذلك بوبر حيوانات مربوطة بعضا بواسطة أوتار، وأحيانا باستعمال الفم لرش السائل. وقد أعطتنا هذه الطريقة الأخيرة الرسوم النسبية للأيدي التي مازلنا نراها على جدران الصخور والتي تمثل نوعاً من الامضاء الأصلي لأصحاب الرسوم. وتطراً أحيانا بعض الاصلاحات بدون طمس الرسوم الاولية فنرى ثيراناً بأربعة قرون، أو رجالاً بأربعة سواعد الخ... وفي هذا المجال استعملت خصائص الصخرة استعمالاً مفيداً أحيانا، كما في تيهلاه، حيث استعملت فجوة طبيعية في الصخرة، فأصبحت مورداً يتقاطر اليه القطيع (١٠).

الحلي

تتطلب صناعة الحلي مهارة لا تقل تطوراً عن غيرها. وتتكون بعض المجوهرات من العقيق الاحمر المستخرج من صخرة خارجها صلب جداً. وتمكننا البقايا التي تركها صانعو المجوهرات في مختلف مراحل عملهم من إعادة تركيب تلك المراحل. فتصنع أولاً أقراص صغيرة قرعاً، ثم لدكا. وتفصل بعد ذلك ابرة كبيرة ذات أربع زوايا من حجر الصوان لتستعمل منقاشاً. ويغرز حدها القاطع في وسط القرص من جهة ثم من الجهة الاخرى على التوالي، للحصول على كوين صغيرين متواجهين يمثل التقاؤهما أدق مرحلة في العملية، ثم يتحول خنجر الصوان هذا الى مثقاب دواري يبرد الثقب

(٩) تحتوي افر يتيبا الجنوبية والتراتسفال وناميبيا خاصة على رسوم ذات لون واحد، وكثيرا ما نجد رسوم بوتشوانا، وفر يكا لند، وناتال متعددة الألوان.

(١٠) لاجوكس — المصدر المذكور سابقاً ص ١٥٩.



- (١) رسم على صخر من ناميبيا
(تصوير أ. أ. أ. ميرز، رقم ٣٦٧٢).
- (٢) نقش على الصخر من تيبستي
(تصوير هاوكي، رقم ١١٠٠٣).



الوسطى حتى يفتحه تماما باستعمال رمل دقيق مغلف بطلاء نباتي. وكانت تصنع أحجار أخرى لا تقل صعوبة (الأمازونية والماتيت والكالسيدون) وكذلك العظام والعاج لكي تستخرج منها قلائد وأساور وخلاخيل وكان حجر الكندان (Ponce) مستعملا لصقلها. ولقد عثر في تين هنا كاتن على بعض المشاقب من الميكروديوريت وسط حبات من قشرة بيض النعام تصلح لنظم القلائد.

صناعة الفخار

أما عجبن الخزف فقد كان يعد بمادة لزجة تتكون من غائط حيوانات مجترية. ثم يهوى باستعمال فصيد (Boudin) مطوي من العجين مخدوم بالأصابع والمصقال. وكانت لفوهات تلك الأواني أشكال مختلفة. منحنية كالقصيد، عريضة أو مائلة. إن الفروق الدقيقة بين الألوان المتزاوجة من الوردى إلى الأسود الداكن توضح لنا أن الاكتواء كان على غاية من الجودة. وكان دهان الفخار معروفا وكذلك البرنيق (Vernis) النباتي الذي مازال مستعملا في إفريقيا إلى يومنا هذا في صناعة الخزف وللك (Laquer) وتجميل أرضيات المنازل وسقفها وجدرانها. وكانت الزخرفة الرائعة ترسم باستعمال أمشاط عظمية أو بحسك السمك وكذلك بشوك السنايل والحبال أو الحبوب، وهي تدل على فيض من الخيال من خلال تكاثر المواضيع والأشكال. وتشهد أفران الخزافين بوادي أشد في شمال بلاد مالي، والمجموعة في مكان مخصص على أهمية عمل أولئك الصناع الذين لا يقلون عبقريّة عن معاصريهم بالشهانب بالسودان الخرطومى (١١).

النحت

إن النحت أيضا ليس منعما ففهم خاصة المنمنمات إذ نجد في وادي أزار (تاسيلي) حيوانا مجتريا ممتددا، وثورا راقدًا في ترزروك بالهقار، وفي أديفوا نرى أرنبًا بريًا صغيرًا ذا أذنين طويلتين مسترختين على الجسم، ورأس كيش فتان في تمتنت بالتوات، وصخرة منحوتة ذات شكل إنساني في عوان سيدي بالعرق الشرقي، وتمائيل صغيرة رائعة لرأس بومة بتابليلت. أما في تين هنكن فنجد تماثيل صغيرة من الطين تمثل أشكال عصفير، ونساء، وبقرات على رأس أحداها إلى حد الآن غصنان صغيران يقومان مقام القرنين.

لأنواع والأساليب

يمكننا أن نيز في الصحراء بصفة اجمالية ثلاثة أنواع وثلاثة أساليب كبيرة تتناسب تقرىيا والفترات التي ذكرناها آنفا. النوع الأول هو الصنع القديم ذو الحجم الكبير، ونصف الطبيعي. أو الرمزي فيظهر أن الإنسان مازال تحت وقع الاحساس الأولي أمام قوة الحيوانات التي تستوجب

اخضاعها بالسحر عند الاقتضاء. ويمكننا ان نميز طابقتين من هذا النوع ينسب الأول الى الاسلوب الحيرمي المتمركز في جنوب منطقة وهران وبتاسيلي وفي الفزان، ويتميز بنقوش تدل على قوة في الملاحظة، وكثيرا ما تكون المواضيع المتكونة غالبا من الحيوانات الكبيرة منعزلة. ويكفي الصنع نصف الطبيعي المتجرد والبسيط بالخطوط الرئيسية المرسومة بمهارة وذلك شأن الكركدن والبيع بوادي جرات (في تاسيلي) وفيل بردي بالتشاد، وفيل عين غالجين في وادي مائندوس. ويتميز الطابق الثاني بالطباء وبأوريات مرسومة خصوصا. ان رسوم الانسان، برأس كروي، كثيرة في هذا الطابق، مما يشير الى نزعة نصف طبيعية وأحيانا رمزية. أما الاشكال فانها تبدو أكثر حركة وانتعاشا وحتى مؤثرة عوض أن تكون بسيطة. والطقوس ليست غائبة، بل نحس بها عندما نرى الحيوانات الطوطمية والبشر المقتنعين والرقصات الدينية الخ... فليس من المعتاد ان تبرز الأشياء هنا منعزلة. وتوجد بعض اللوحات الصغيرة كما توجد أفاريز ولوحات كبيرة مركبة، وهي أكثر اللوحات في العالم. يستقر هذا الاسلوب المتجمع في تاسيلي من مشاهد تظهر فيها أرويات قرونها قوية، ورقاصون مقتنعون مثلها هو الشأن بسفار (اسم موقع أثري حسب ج. لاجو) وكاهنة وانريت المسماة (السيدة البيضاء).

ان النوع الكبير الثاني يتمثل في الرسم والنقش الطبيعي ذى المواضيع الصغيرة الشكل تبدو منفردة أو مجتمعة. ان هذا الاسلوب وصفي بحت، وتشعر بان الانسان نشيط وبأنه أصبح يسيطر على البقر والكلاب والضأن والماعز وبقودها. وقد تكاثرت الالوان، والمشهد تمثل صحراء القرى والحيمات ويمكن ان يكون الموقع الأثري الممثل لهذا النوع هو جبرين.

أما النوع الاسلوبي الثالث فانه ارتسامي، رمزي أو تجريدي. ولقد احتفظ بالتقنية السابقة لكنها غالبا ما بجدها متدهورة. على ان ذلك لا يدعو الى ان نتصور تقهقرا شاملا. وأصبح النقش هجينا عندما اتخذ الاسلوب الغامض والمنقط التقريري. لكن أسلوب الخط الخفيف في الرسم ولوأنه أقل قيمة من الخط البسيط والقوي القديم من عدة أوجه، الا أنه مكن من احراز التقدم للتعبير عن الحركة بنسبة ثلاثة أرباعها أحيانا. وهو يخضع أحسن للتنميق وللنماذج الجديدة. وتذكرنا أناقة الخطوط عند انسان غنوا (في الصحراء التشادية) برسم الريشة حيث تظهر بدقة شبه فوتوغرافية، العين والحدقات والشعر والفم والأنف. ويمكن طريقة التصوير المائي أيضا من اظهار الاختلافات الدقيقة وذلك شأن الظبي الصغير في إهرن (تاسيلي) ذي القوائم المرتجفة، الذي يقبل للرضاع تحت خطم أمه الذي يكاد ينحني عطفًا عليه. ان ذلك الفن ملامح تماما لتصوير الخيل والعربات ثم الجمل وكذلك الانسان الذي أصبح ذا مثلثين كما نرى ذلك في أسدجان وان ملان، أو الذي يبرز رقبة طويلة مكان الرأس. نجد اذن في نفس الوقت انجباها نحو تكلف الخط الدقيق ونحو التبسيط الهندسي المتسرع الذي يتداخل في آخر العصر مع الحروف المجاذبية الليبية البربرية أو التيفيناغ. ان الكثير من التفاصيل كالسروج العربية ذات القربوس الحلقى التي ترجع الى ما بعد القرن السابع، تمكننا ان نصف تلك المشاهد خارج عصورها قبل التاريخ.

ان بعض الملاحظات تفرض نفسها في ما يخص تلك الأساليب التي تتطور بدون تقسيم زمني دقيق، اذ ان الطابق الثاني هو من أسلوب عتيق مخلوط. فليس للثور ذي الهلجنة في سفار شيء من الرؤوس القنعة ذات المواضيع الرمزية. كما أن بعض القوالب من جهة أخرى مستمدة من عدة

أنواع وأساليب. ومثال ذلك فن الرسم الذي يقوم بتمثيل البقريات بقرون أمامية، وتمثيل الرأس في منظر جانبي كما نرى ذلك في وإن رندر. ويلحق بالقوالب أيضا رسوم الرعاة في حركات أو مواقف نشاهد فيها يدهم ممدودة واليد الأخرى معطوفة على الخصر. كما برزت بصفة جليلة بعض المواضيع الجهورية، من ذلك: الكيش بجنب منطقة وهران، والولب في تاسيلي، مع أنه لا يظهر في الفزان وفي جنوب منطقة وهران، أما المواضيع الجنسية فانها تميز خاصة الفزان وتاسيلي.

أما فيما يخص أسلوب الزينة، فاننا نشاهد في القابسي الأعلى نقوشا على بيض النعام مواضيعها هندسية. ولقد وفر لنا خاصة العصر الحجري الجديد ذو التقاليد السودانية الادوات والأسلحة الفنية، والصفائح البديعة الصوانية المُنشبة. والمطلية بالأخضر والأحمر الداكن، وأواني الفخار التي تزينا خطوط متموجة ورؤوس سهام تيشيت بأسنانها المصقولة صقلا جيدا وبشكلها المثلث الممتاز.

ان النوعية مازالت تنتظر التحديد في المناطق الأفرقية الأخرى. ولقد ذكر مثلا مؤرخ في ناميبيا ٢٠ طبقة وأسلوبا من ألوان مختلفة تتوزع على أربع مراحل كبيرة: (١) مرحلة الصنع القديم التي تمثل حيوانات كبيرة بدون رسوم انسانية. (٢) مرحلة اللوحات الصغيرة وبها صور انسانية. (٣) مرحلة اللون الواحد وبها مناظر الصيد والرقصات الدينية التي تطفح بالحياة. (٤) مرحلة استعمال الألوان المختلفة التي تبلغ القمة الجمالية في غنبا فيليب كاف (دامارالاند)، مثلا وفي رسوم برنبرغ التي يرجع تاريخها الى سنة ١٥٠٠. ميزل. فروبنويس من جهته أسلوبين أساسيين في الفن الجداري بافريقيقا الجنوبية. في أقصى جنوب القارة، من الترانسفال الى الكاب، ومن دراكنسبرغ الشرقي الى الشواطئ الصخرية الناميبية، نلاحظ «فنا طبعيا» تغلب فيه الحيوانات المرسومة في أكثر الأحيان مفردة بمهارة كبيرة، فتظهر طبقات الجلد وخطوط جلد الحمار الوحشي، الا أن ذلك الفن يبدو جامدا أو فاترا وإن كانت الرسوم ملونة بألوان مختلفة ومركبة. ولقد وضعت الألوان بمهارة كبيرة باستعمال ذلك. ان الأمر يتعلق هنا بمناظر منظمة تعبر عن الصيد والرقص والمواكب والمجالس وبالعكس من ذلك، فإن الفن من الترانسفال الأوسط الى اليمين (زيمبا، زمبابوي وملاوي) يختص بلون واحد أساسا، فهو يركز على الأحمر أو أمغر أكسيدات الحديد، ويميل أحيانا الى البنفسجي. وتتكون الصخرة القاعدية من الغرانيت عوضا عن الصلصال الذي نجده في الموضوع السابق. ويرتكز الفن على الرسم الذي يبين كيف يكون أيضا قريبا من الواقع، مثل التصوير المائي بالجنوب. الا أن ذلك لا يعني تصويرا آليا للواقع الذي يؤول أحيانا الى مشاهد مركبة يصب فيها الخيال الى درجة الروعة (١٢).

يظهر الانسان وله كفافان عريضان وخصر ضيق. وبكل إيجاز له شكل مسماري. وعندما ننظر اليه من الأمام نشاهد أعضائه في منظر جانبي مثل ما هو الشأن في النقوش الجدارية المصرية. ويبدو أن أشخاص الجنوب أقرب الى الطبيعة ولم أعضاء أكثر احكاما وذلك في مشاهد الصيد أو الصراع المتداخلين في بعض الأحيان. ويتعلق الأمر في الشمال، بمشاهد مأثمية ذات أبهة، لعلها تمثل جنائز ملكية يعبر فيها أشخاص عن ولائهم وعطفهم. أما الحيوانات، فانها تتوالى، كما هو

(١٢) ان تمثيل حيوانات القنص والحيوانات عموما أمر طبيعي، وذلك لأسباب سحرية في بعض الحالات لأن الرسم يجب ان يمثل بأكبر دقة موضوع العناثر الطفوسية. أما الصور الانسانية فانها بالعكس مسطرة عمدا بغية إبعادها عن مفعول السحر.

الشأن في مغارة اينورو الكبيرة، لا كسفينية نوح المرسومة بعناية، بل كأنها أساطير حيوانات خارقة، فيها طيور ضخمة لها مناقير تشبه أفواه التماسيح، وقبيلة عظيمة ذات ظهور مسننة، وحيوانات من ذوات الرأسين، كما نجد أحيانا أساطير مهذبة مثل أسطورة المطر. يتكون اطار هذه اللوحات الخيالية من مناظر حقيقية تكون فيه الصخور والاشجار معروفة الأنواع. أما البحيرات ذات السمك، فانها مرتبة ترتيبا ذكيا. فهذا الفن هو فن زمبابوي ويبدو أقل حركية من الجنوب لكنه ملء بالأحاسيس الفياضة والمؤثرة، ان الاسلوب المسماي لا يمكن ان يكون حسب ل. فرو بنويس الا مرتبطا بمحضارة عظيمة، ونحن نعلم ان منطقة زمبابوي لا يتقصها ذلك. فهو يرى أيضا ان ذلك الاسلوب الملىء بالزوايا والبسيط قد ترك المجال لأسلوب أكثر تكورا ومرونة وأكثر تكلفا وأثوة عند اضمحلال المجتمعات التي أوجت به (١٣).

يبدو أسلوب النقوش الجدارية في شمال فولتا العليا (أريندا)، نصف طبيعي أو ارتسامي، في حين تختص نقوش الجنوب بأشكال هندسية. وتوجد أيضا رسوم في مغارات الشاطئ الصخري في بنفورا.

وقد مكنت الحفريات في امباطورية وسط افريقيا من إكتشاف مواقع تشهد بالوجود الإنساني منذ عصر ما قبل الأثوبي، وتواصل حتى عصر المعادن. فلقد حددت خمس مواقع للفن الجداري: غباً تولومبمنطقة ندبي المسكون منذ ما قبل التاريخ الى يومنا هذا، والذي يحتوي على أشخاص من غابر الأزمان، مصورين بالأحمر، وعلى مواضيع أخرى لونها أبيض وتبدو الأيدي في شكل «عروة وعاء». ويوجد أيضا غباً كومبالا، ومواقع النقوش بمنايع مباتو، ومواقع لنغو (مبومو). إن هذا الفن قليل النسب بفرن الصحراء بل له صلة بلوحات إفريقيا الشرقية والجنوبية (١٤).

الحوافر والتأويلات

وصفت الرسوم الجدارية بأنها بטרولوجيفية. ان هذا الفن يعتبر علامة هنا أكثر من أي مكان آخر، أي أنه يمثل جسرا بين الواقع والفكرة، انه رمز خطي تستوجب قراءته مقياسا. ان الجهل بالظروف الاجتماعية التي أنتجت هذا الفن هو في الواقع أكبر عقبة دون تأويله وتأويل صحيحا. لذلك ينبغي ألا نسرع كثيرا نحو التأويل، وأن لا نتجاوز مرحلة وصف الرمز في حد ذاته، بمعنى مرحلة التحليل الشكلي، اذ انه يحدث ان يحصل الوصف نفسه حسب مصطلحات تأويلية. ان الطريقة الاحصائية قادرة على ان تمكننا عند الضرورة من جدولة المعطيات الكمية والكيفية بالنسبة لأكثر عدد ممكن من اللوحات بصورة تسمح لنا بالتحليل المقارن (١٥). فنستطيع ان نرى مثلا هل أن أنظمة الرموز الملحوظة في عدد معين من اللوحات تخضع لدينامية معينة في الزمان والمكان. وتكون مرحلة التطور التي أعيد انشاؤها أكثر احتمالا كلما اكتملت الوثائق. فلا يمكن تأكيد

(١٣) انظر: أ. هيرلاند، ليفرو بنويس.

(١٤) انظر: ر. دي بابل دي هرنس في «أركيولوجيا» عدد ٩٢، مارس ١٩٧٦.

(١٥) يمكن ان تخضع هذه الدراسة الكمية للمعالجة بواسطة العقل الالكتروني، مع ضرورة التزام الحذر.

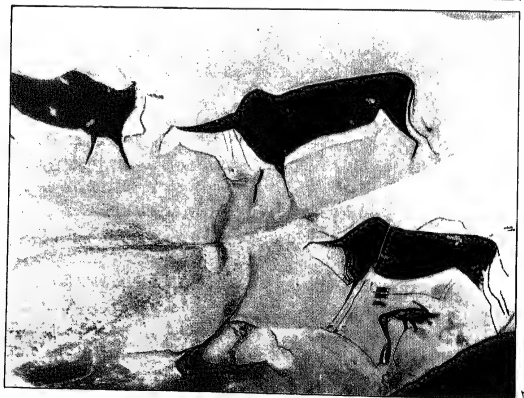
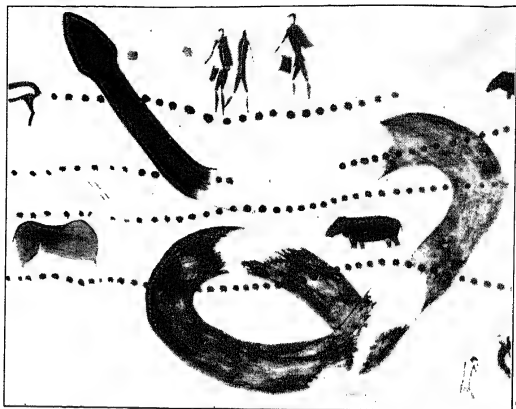
انظر: في هذا الشأن أ. ستر ديتز، معهد فروبنويس بفرنكفورت الذي يديره الاستاذ هيرلاند.

الافتراضات الناتجة عن الدراسة الشكلية إلا إذا وافقت مجموعة المعطيات التي تشكل النظام العام لذلك المجتمع، لأن لوحة من عصر ما قبل التاريخ ليست في الواقع إلا جزءاً ضئيلاً من نظام كبير من المعلومات، أي من ثقافة تحتوي على أشياء أخرى. اننا ندرك في هذا المستوى من التحليل ما عسانا نبلغ من التعقيد في العلامات للوصول إلى فهم المعنى الصحيح للتمثيل الجمالي. مع العلم أنه، زيادة على معنى التمثيل الواضح، يمكن لنفس التمثيل أن يعبر عن معنى خفي، لأن الرمز ليس علامة فحسب عن شيء ما ولكنه علامة عن شخص ما (رمزية)، فوجب إذن أن نرتقي من الشكل إلى التركيب الاجتماعي فنستطيع أن نتجاوز التعليق البسيط على لوحة طبيعية محضة، ومن معنى بديهي إلى مرحلة فك المعنى المدلول للوحة مجردة. فهنا ينبغي الرجوع إلى الثقافة المحيطة، لأن المدلول يمثل بطرق مختلفة بسبب الثقافات وكلها بعد الرمز عن الموضوع المحدد كان الرمز خاصاً بثقافة معينة وكان أكثر دلالة مثله مثل المشكلة الصوتية الموجودة في لغات عديدة والتي لا يمكن أن تميز واحدة منها، نظراً لأن هذا الصوت مشاكل لنفس الطبيعة المشتركة. وعلى العكس من هذا، فإن الأمور تختلف بالنسبة لكلمة نموذجية من لغة معينة فيمكن لنا عندئذ أن نعتبر الأروقة الفنية الكبرى بمثابة عظمات لبث الآثار الفنية. لكن من هم الملتقطون لها؟ ألا تبث تلك الأجهزة للمنتجين أنفسهم قبل كل شيء، وكذلك لمجتمعهم الذي لم يترك لنا إلا آثاراً نادرة تيسر لنا قراءة وفهم تلك الآثار؟ وبايجاز يجب أن نتنبه إشكالية واستراتيجية الاستكشاف الفني بتعريف أنواع الثقافة التي تقوم عليها هذه المظاهر الجزئية. ويمكن لنا بالاعتماد على تحديد المجالات الثقافية التي ترعرعت فيها، أن نستعيد بناء العلاقات التاريخية في نطاق النسيج الذي تدرج فيه.

لذلك فقد نفقد الفن دلالة إذ أطلقنا على الرسوم الجدارية الأفريقية عبارات وعناوين مثل (القضاة، السيدة البيضاء، قالع الاسنان، جوزفين التي باعها أخواتها، أو سكان المريخ) لأننا نحول ونغير كياناتاً ثقافية عندما نؤوله باعتماد فهم ملاحظ واحد، أو من خلال حضارة أخرى (١٦)، فيمكننا أن نتمتع مبدئاً عاماً يتلخص في أن فن ما قبل التاريخ الأفريقي يستوجب أن يؤول أولاً، انطلاقاً من مستندات أفريقية أصيلة، فلا يمكن لنا أن نبحث عن أسباب خارجة عنها إلا إذا لم نتحصل على جواب لمشكل من المشاكل في المحيط الزمني والمكاني والثقافي المحلي، الجهوي أو القاري.

وانطلاقاً من ذلك، تعتمد حالياً معالجتان لتفسير فن ما قبل التاريخ، أي المعالجة المثالية والمعالجة المادية. يمثل هذا الفن، حسب المعالجة المثالية، قبل كل شيء تعبيراً عن مختلف النظرات إلى العالم التي كانت سائدة عند تلك الشعوب آنذاك، إن تلك النظرات وحدها تفسر لا المحتوى فحسب، بل الشكل أيضاً. فيجب إذن التخلص من العقل العقلاني: فلقد قال أريك هولم «إن الفن بأفريقيا الجنوبية يظهر في صورته الحقيقية إذا اعتبرناه تعبيراً عن الشعور الديني وعن الحاجة لتجاوز الأشياء. فلقد كانت تلك الماورائية ميزة الانسانية البدائية وليست الصور الحيوانية الاقناعاً

(١٦) انظر: في هذا الشأن ملاحظات ج. د. لاجو القيمة، ١٩٧٧، ص ١١٥ وما بعدها. بدون أن ننكر الأب بروي في المزل أو. تنسكرك ثقافته الواسعة أو الخدمات الجلييلة التي قدمها لدراسة ما قبل التاريخ عموماً وما قبل التاريخ الأفريقي بصفة خاصة فيجب أن نفر بأنه غالباً ما خضع لهذا الانحياز الغربي.



- (١) درب الافعى. (تصويراً. أ. أ.، مودري) رقم ٣٥ ج.
- (٢) الرسم الصخري المسقى «السيدة البيضاء». (تصويراً. أ. أ.، دوفرجيه)، رقم ٤٨٥٧.

ينبغي الطبيعة الحقيقية لطموحات الانسان. فلنكتف اذن بالاشارات التي تزودنا بها الأسطورة عوضا عن أن ننساق الى الجدال الكلامي، لأن تلك الصور واضحة بما فيه الكفاية (١٧).

في هذه الظروف، تمثل الرمزية الخرافية والمتعلقة بنشأة الكون أهم مفتاح لاستكشاف عالم الفن الجداري. ولقد توسع فروبيستوس في شرح نفس الآراء وإن كان قد أخذ بالاعتبارات الاجتماعية أيضا.

و يقال بأن الأسد نقش في لوفنتين على الوجه الجانبي من الصخرة لتضيقه الشمس بأشعتها الاولى، لأنه يمثل كوكب النهار، في حين ان وجه الكركدن موجه نحو الغرب لأنه يمثل روح الليل والظلام. ان الكركدن الذي يرمز قرناه الى الهلال الناشيء يعتبر حسب التقاليد أنه قد اغتال القمر الخ... ويتحدث أ. هول أيضا عن «الوظيفة القدسية» للمغارات الواقعة في المرتفعات النائية. فلقد دعت أسطورة نشأة الكون العالم اللغوي الألماني وليام بليك التي استقها في القرن التاسع عشر من قبيلة السان الى اعتبار أولئك السان بأنهم «لا يميزون بين المادة والروح». ان تمثيل ظبي الكاب بقوامه الضامرة يرمز الى القمر الطالع. وهذا الظبي اذ يواجه رسوما انسانية مثل التي توجد في مغارة هرنغين (دراكسنبرغ) يفيد أن أولئك البشر كانوا يعبدونه: و يرمز الشواه (تيس الجبال) الفاقع اللون المخطط بالأحمر الى الزوبعة، وترمز الراهبة الى البرق، والفيل الى السحاب الممطر، مثلما هو الشأن في جبل القديس بولس (دراكسنبرغ) وقد توجد تلك الأسطورة لا في جهات أخرى من افريقيا فحسب (مغارة فيليب بناميبيا، وجبل بوسيم، وعين غجة بالجزائر) بل توجد أيضا على عاج منقوش، في المادلان بفرنسا.

ويختص ظبي الكاب البديع الموجود بمتحف الترانسفال بوبرلونه عسلي، وهو يفيد بكل بساطة بأن الظبي مخلوق الراهبة التي تمثل الشمس وأن الراهبة قد دهنته بعسل صاف حتى يلمع وبره. ولئن كان الحمار الوحشي قد رسم أحيانا بدون خطوط كما هو الشأن في مغارة نسواتوغي في جبال متسوبوزمبابوي، فذلك لأن هذا الحيوان لم يكن في الأصل مخططا ولم يتميز وبره الا بعد ان وقعت الشمس على صلبه تاركة حروقها به الخ... من هذا المنظار، يكفي ان تتوفر لنا كل تفاصيل «تحول العقائد الشارحة للألغاز الافريقية لكي نتحصل على المفتاح الذي يمكننا من فهم كل ألغاز الفن الجداري الافريقي المعرنة بأنه «لا يخضع للزمن مثل الأسطورة». لكن يجب ان نعرف بأن الأمر ليس يمثل هذه البساطة.

أما أصحاب المعالجة المادية، فانهم يرون أن فن ما قبل التاريخ مثله مثل أي فن آخر ليس الا انعكاسا للوجود الملموس للانسان في مجتمع معين فهو «لحظة ايديولوجية» وأداة من البنيات الفوقية تعبر عن توازن بيئي واجتماعي معين تمكن الانسان من المحافظة عليه أو من تحسينه لمصلحته. في هذا الاطار، نرى أنه يلزم القيام بالتأليف بين هاتين المعالجتين، لانها ناقصتان اذا نفت احدهما الاخرى. فما من شك أن فن ما قبل التاريخ قام بنقل رسالة بيداغوجية واجتماعية. ان السان الذين يشكلون اليوم أقرب شعب الى واقع التمثيل الجداري، يؤكدون ان آباءهم فسروا لهم العالم من خلال مجموعة الرسوم الضخمة التي تمثلها الأروقة. وتركزت تربية الشعوب التي لا كتابة

(١٧) ١. هولم، في «الفن في العالم، العصر الحجري» ص ١٨٣ وما بعدها ص ١٧٠ وما بعدها الخ.



- (١) تفصيل من نقش صخري من
فولتا العليا (تصوير ج. ديفيس).
- (٢) رسم صخري من ناميبيا (تصوير
أ. أ. ميرز)، رقم ٣٨٠٨.



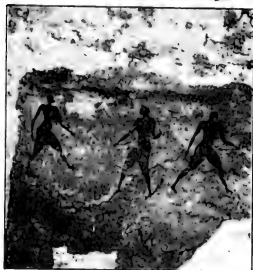
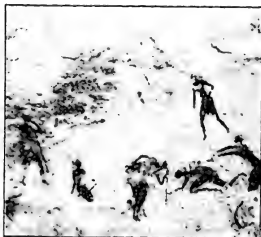
لها على الصورة والصوت، قل كل شيء، أي على الطريقة السمعية البصرية كما نرى ذلك إلى اليوم في تنشئة الشباب في جنوب الصحراء الأفريقية. إن النقش الفني على الحجر يخضع لهذا النظام. ومن البديهي أن الأسطورة لا تفسر كل شيء لأنه يجب، قبل إنتاج الأسطورة، بناءً ثم إعادة بناء المجتمع نفسه. وهذه الصورة يمكن أن تصبح الأسطورة أداة ممتازة لتحسين (أو لا تلاف) الطاقات الانتاجية وعلاقات الانتاج وهذا ما يعتقد أ. هولم نفسه عندما ذكر شأن شاب السان المتأكد من أن سنن السهم المنقوشة في المرو اللامع هي جزء من النجم، فيخطبه مبتها إليه: «أنت، يا من لا يخطيء المرمى، أيها المعصوم من الخطأ، مكني من أن أدرك غيبتني». إن هذه الجملة وحدها تعبر عن مغزى منفعي قبل كل شيء عكسا للاستنتاج المثالي الذي يخلصه منها الكاتب، إن الإنسان يحتاج ليعزل على قيد الحياة إلى أن يستنفر الكون وأن يجنده. وتلك هي وظيفة الأسطورة وإن كنت لا أظن أنها وظيفته (١٨) الوحيدة، ولذلك يجب ألا تمنعنا غابة الرموز من رؤية أشجار الواقع الملموس.

يمكن أن توجد الوظيفة الروحية وجودا مستقلا، فتصلح حينئذ من الناحية الذاتية لا كوسيلة، بل كنهاية في حد ذاتها. أليست الأسطورة في النهاية طريقة يستعملها الإنسان لإدراك الكون وذلك بتنظيمه أي بجعله مفهوما عقليا نوعا ما، إذ أن الخطاب الأسطوري يعتمد على منطق ذاتي خاص به فالهدف الروحي موجود إذن، ولأنه مربوط في أغلب الأحيان بأمور دنيوية. إن تمثيل كائن خفيف يعني قبل كل شيء التخليص من سيطرته، ومراقبته بالنظر تعني السيطرة عليه. فهل يعبر سكوت المعادن الذي يكاد يلمس والذي يملأ الأروقة الصخرية السرية المسدودة في عين اتينان، وتسوكاي، هل يعبر عن خشوع المعابد وأماكن التنشئة، أو عن إساءة حيوانات محشورة فيها أو مسروقة؟ قد يفيد هذا وذلك. إن الأشخاص الواضحين على رؤوسهم قناع الحيوانات و يوجدون غالبا في نفس المكان مع الحيوانات ذات الصفات الدماغية (أقراص، قضبان الخ..). (١٩) وذلك بجنوب منطقة وهران في وادي جرات، توحى بأشخاص في موقف تعبد أمام الحيوانات. وكذلك يمكن أن يعبر الصيادون الثلاثة المقتنون في جرات، عن حالة من الافتتان، وكأنهم يطاردون جاموسا يحمل قرصا.

وبما أن الأهالي اللافارقة ما انفكوا يستعملون الأثقة فلماذا لا نركز تأويل مثل تلك المشاهد على هذه الاشكالية الثقافية عوض أن نركن إلى الحرافات البسيطة؟ والملاحظ أن التفسير ليس دينيا دائما. ويلبس صيادو المنطقة الساحلية حتى يومنا هذا رأس أبو قرين (طائر) فيحركونه من الأعلى إلى الأسفل مقلدين ذلك الطائر ليقتربوا على أربعة قوائم من الظبي قبل رميه بالسهم. إن التباين بين الوسائل والنتيجة تبلغ حدا كبيرا أحيانا إلى درجة تجعلنا نشم السحر بقوة كأن نرى مثلا رجلا مقنعا يجذب بدون جهد كركدنا مقتولا وأرجله الأربعة مقلوبة في الفضاء وذلك بعين هبات

(١٨) تحري الأساطير من حيث النظرة التاريخية البحتة، كثيرا من المعلومات، فإن الشمس - في اعتقاد قبيلة السان - انزعجت من حمل الحمار الوحشي لها على ظهره، فهجرتة لتستقر بين قرني الثور. وذلك ما يجلبنا إلى الطرف الآخر من القارة أي إلى الرسوم التمثيلية بشمال إفريقيا (جنوب وهران، والصحراء ومصر) حيث نرى بقر يات تحمل أقراصا شمسية، فهل نستنتج من هذا أن الآفة - البقرة (هاتون) نشأت من أسطورة إفريقية؟.

(١٩) أنظر: الأمثلة المشهورة عن ثور مباديب (ليبيا) وكيش بوعلام (الاطلس الصحراوي).



● (١) رسوم الصخر من هضبة تاسيلي
الناجر (الجزائر). (تصوير أ. أ. أ. ١،
و ٤: سود، رقم ١٢٥٩٩ و ١٢٣٧٩
و ٣: سود بين، رقم ٣١ و ٤٣).

(ليبيا). وتظهر بعض طقوس الخصوبة جليا في تصرفات الممثلين الموجودين بالمشهد والذين يظهرون وكأنهم متفرغون لمجموعات شعائرية في المجامعة الواقعة بين امرأة ورجل مقنع في تين للان أو في منظر أولئك الذين يرقصون رقصات متحمسة، مع تصرفات جماعية بارزة. وكانت الخصوبة هي القضية الكبرى في الواقع، خاصة في أواخر عصر ما قبل التاريخ في الصحراء الكبرى أو في صحراء ناميبيا، وذلك اثر تفهقر كل أثر للحياة وأمام التقدم الحتمي نحو الجفاف. أما (هيباتي با) فقد أقرب بأن حلية العقيق الاحمر المسدسة الأضلاع الموجودة في المنجم الحجري الحديث في تن فلكي تمثل تيمية لا تزال تستعمل للخصوبة حتى يومنا هذا عند نساء الفلانيين (٢٠) وقد لا يستبعد الدافع الجمالي أيضا في هذه القضية بالذات. وفي الواقع، بما أننا نعد رجال ونساء العصر الحجري الافريقي الحديث من نوع الانسان العارف مثلنا، فاننا لا نستطيع أن نحرهم من الشعور الخاص الذي يعترينا، وهو الرغبة في خلق الاشكال بغية التمتع بتأملها لا غير. ان الاعجاب الذي نشعر به اليوم أمام هذا الخلق كان أشد عندما كانت اللوحات حديثة وعندما كانت نماذجها متوافرة بالبيئة المحيطة بها. وتشهد بروعة الذوق الجمالي لأفارقة ذلك العهد، مساحيق مواد التجميل ولآلئ الأمازيت والكالسيدوين أو المصنوعة من قشرة بيض النعام (في تينيري) وكذلك شكل الفؤوس ذات الأعناق المشوقة.

ان التصاميم المهمة لأنها غير مرضية نسبيا. ومن جهة أخرى فان اللوحات المعرضة للهواء الطلق، أو الموجودة في متناول كل عابر سبيل، تدعو الى الاعتقاد بأنها مغيرة عن أصلها ولعلها مظهر من مظاهر الفن الشعبي. وهو شعبي أيضا لأن القصد التاريخي ليس معدوما منه. ان السورور بالذكور، والرغبة في تخليد الاحداث الفردية أو الجماعية يعتبران من «معالم» جنسنا البشري فلقد ولد الانسان مؤرخا. و يعتبر فننا ما قبل التاريخ هم المؤرخون الأفارقة الأوائل، لأنهم مثلوا لنا بأبلغ عبارة، الحالات المتفاوتة التي تعترى انسان ما قبل التاريخ في علاقته مع الوسط الطبيعي والاجتماعي.

العبء التاريخي أو الفن كوثيقة

لماذا نعتبر فن ما قبل التاريخ الافريقي هي الصفحات المصورة الأولى لأول كتاب لتاريخ إفريقيا؟

البيئة الأيكولوجية

أولا - نجد فيه شريطا وثائقيا عن البنية التحتية للمجتمعات الاولى التي عاشت في قارتنا وعن الظروف البيئية. ويمكن ان يشاهد مجال الحياة هذا مباشرة، كما هو الشأن بالنسبة للأشياء التي وجدت في أمكنتها الاصلية. ولكن محتوى اللوحات كذلك يمكن ان يدلنا عليه. لقد دعونا الى الحذر عندما ذكرنا بأن تمثيلا جماليا لا يشكل بالضرورة صورة صادقة عن الواقع المحيط المعاصر، اذ يمكن ان يكون الفنان قد صور ذكرى يات قديمة أو شخص سرايا أو أحلاما. الا أن الشواهد الكثيرة المستفقة في هذا الشأن مع نتائج التحليل الجيومورفولوجي الذي مكن من معرفة مدى امداد البحيرات

(٢٠) يحتمل ان يكون صليب أغامس أو إيفروا ناشئا عن علامة طائيت وهي الرمز الجنسي النسائي.

الميتة وشبكات المياه القديمة لا تترك مجالا للشك. ومن ناحية أخرى وجدت عظام كركدن عثر عليها أ. لوط في منجم بالأردن بوس يقدر تاريخه بـ ٥١٤٠ ق. ح. اعتمادا على الكربون ١٤، وهذا ما يؤكد مثالا الاصلة التاريخية لمجموعة الكراكدنة المرسومة في أسدجان وأن ملين و يعتبر ذلك الحيوان علامة بيثوية حقيقية لأنه يستوجب مياه دافئة. وذلك شأن الفيل أيضا الذي يستهلك يوميا كميات هائلة من النباتات، فكانت صحراء اللوحات اذن في ما قبل التاريخ حديقة كبيرة من نباتات البحر المتوسط التي بقيت منها بعض البقايا الى اليوم. الا ان تلك البيئة أخذت تنقلص شيئا فشيئا أمام مجال للحياة «سوداني وساحلي» (٢١). ونجد في عصر الحصان والعربات بعض رسوم الأشجار مثل النخيل الذي يشير بدون شك الى وجود الواحات.

ان الاسلوب الشمالي (المعروف بالروديسي) في افريقيا الجنوبية ملء برسوم الأشجار فمنها ما هو معروف. ونستطيع اليوم ان نتصور الحيوانات الكثيرة المختلفة التي سكنت خيايا المناطق التي أصبحت اليوم قفرا وكأنها اليوم سفينة نوح جديدة، وحديقة حيوانات جامدة فيها أسماك منقوشة، وحيوانات وحشية كثة الوبر وقوية مثل الحيرم القديم وقرونه الكثيرة التي يبلغ قطرها ثلاثة أمتار، وسنوريات مثل الفهد والضبع والقرد الطويل الذيل والقرد القردوحي (في تين تازر بيت) ونعامات وبوم الخ.. ففي كل مكان نرى مشاهد الصيد التي تذكرنا بالصراع الكبير بين الانسان والحيوان منذ الخليقة. ان تلك المشاهد المملوءة بالحياة وأحيانا بالعنف والتي ينجلي فيها انتصار العقل على القوة الوحشية، تذكرنا بالصيادين الذين أشار اليهم يويوت بواي النيل في ما قبل الملوك، بجيوشهم الذكرية بين أفخاذهم وأسلحتهم المقوسة وأذيالهم المستعارة وهي تتكون في الواقع، كما هو الشأن اليوم في افريقيا الوسطى، من جلد حيوان يلبس قفلاذة. ونشاهد في اهرن أسدا يصطاد وقد كانت تطارده وتحاصره دائرة من الرماح المهددة، ونرى في تسوكاي حيوانا وحشيا مقتولا على وشك ان يقطع. ونجد على ضفاف النيل وفي ليبيا وفي الصحراء الكبرى كلها رسوما كثيرة لأفخاخ تشهد بمهارة انسان ذلك العهد المتعدد الاشكال، وكان ذلك الانسان يكيف تقنياته مع البيئة وطبائع الحيوانات (٢٢).

وتبين لنا كثرة تلك اللوحات المتعلقة بالصيد، من النيل الى المحيط الأطلسي وجود حضارة صيادين حقيقية، فكانت حيوانات هائلة مثل الفيل لا تستطيع الفرار كما يدل على ذلك مشهد الصيد الكبير برتوتك الاعلى. وتكاد ترتبط الافخاخ في كل الأماكن برموز الصيادين تحت مجموعة ثقافية أصيلة، امتدت تقريبا على القارة الافريقية كلها وذلك على عشرات الألفيات من السنين وتواصلت مدة طويلة في العصر التاريخي كما تشهد على ذلك خرافة سندجاتا.

وتوحى تلك التمثيلات أيضا بالتحول التدريجي من مراقبة أو «حبس» الحيوانات، الى السيطرة عليها ثم تطويعها: فنرى رجلا يبدد قوس يشد حيوانا من زمامه. ونرى مشهدا عن صيد الأروية في

(٢١) انظر: ي، ومغيا ١٩٧٤.

(٢٢) لقد أحصيت حياك وأشباه، وأفخاخ منصوبة، وخنادق تقوم مقام الأفخاخ، وأفخاخ تصنع، وأفخاخ تشد، منها ما يربط ومنها ما يلوى مثلها هو الشأن في داومتني، على النجوم النجيرية الشاذية حيث عرقلت حركة زرافة باستعمال جهاز مقعد ويثني عنقها نينا أفنيا. انظر: ب. هوارد، وج. لوغلان، ١٩٧٣ ص ١٣٦ وما بعدها في شأن التفاصيل المتعلقة بهذا الموضوع.

تيسوكاي وقد استعين فيه بالكلاب. و يبين المشهد الحي عن الكلب السلوقي وذيله المطوي في سفار، ان ذلك الحيوان كان دائما رفيق انسان الصحراء. و يظهر مشهد في جبارين صيادا يحمل سلاحا مقوسا وهويترصد حيوانا وحشيا يتبعه حيوان آخر ينتظر الفريسة الا أنه يبدو أنه قد تأهل. ولقد لوحظت البقرريات أيضا منها الثور الاسباني ذو القرنين القصيرين والغليظين بالجانب، والثور الافريقي في تناغب و جبارين الخ، وقرناه الكبيران اللذان لها شكل كنارة. وتحمل تلك الحيوانات أحيانا قلادات برقابها (واد جرات).

ثم نرى في عين اتينان مثلا بقرريات قد أحكم تصوير قرونها، وزخرفت ثم عوجت اصطناعيا أشكلها على نمط اللولب. ان نوع الحمار المصطاد في تيسوكاي هو من نفس النوع الذي أهل منذ العصر الحجري الحديث، حيث نراه وقد ركب الانسان. وهناك أغنام وماعز أيضا الخ... وحتى الأجهزة المستعملة في الماء فقد بدأت تظهر كما نرى ذلك في تين تازار يفت بشكل يذكرنا بمراكب البردي بالبحيرات والأنهار في السودان التشادي وفي النوبة.

الإطار الانساني

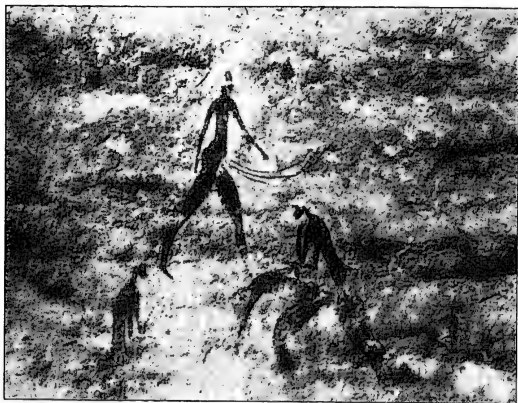
وتذكر رسوم عين أتيتان التي تظهر أناسا منحنيين على الأرض يستعملون أدوات مكعوبة بمشاهد الحصاد التي تستعمل فيها المناجل، والموجودة في النقوش الجدارية الفرعونية.

وكذلك فان رسوم النساء المنحنيات انحناء الذاريات للحبوب، أو الجامعات للسنايل تجعلنا نفكر في وجود زراعة حبوب العصر الحجري الجديد بالصحراء، وما يؤكد كثرة الرعي، ومهارس الحبوب (٢٣) الا ان دراسات البليولوجيا، اعتمادا على عينات صحراوية، تدعونا الى الحذر. فلعل الأمر يتعلق بجمع الحبوب، وان كان الفاصل بين مرحلة الجمع والمرحلة الممهدة للفلاحة ومرحلة الفلاحة بأنم معنى الكلمة صعب التحديد. في باطل كاف تغذويات من السان الى الجمع وهن يحملن عصي الحفر على أكتافهن. ومهما يكن من أمر فان كثرة القطع الفنية الجدارية والأثاثية المكتشفة في مناطق واسعة من افريقيا، لا سيما في المناطق التي أصبحت اليوم صحراوية، تعطي فكرة هامة عن الكثافة السكانية في تلك المناطق. ان أحجام تلك القطع الضخمة توجي بانتاج «نصف صناعي» كما هو الشأن في الشمال الشرقي من باشراو في عرق الروى، أو حتى في المجدوبة (الصحراء الغربية) كما تؤكد ذلك ملاحظات ث. منود.

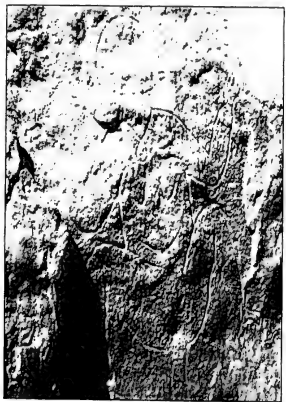
ان الفن الافريقي في ما قبل التاريخ يعطي أيضا فكرة واضحة عن لباس الانسان حينذاك. فهو يفيدنا أن الرجال — وذلك ما يجري كثيرا في البداية — كانوا يتحلون أكثر من النساء حتى عصر البقرريات حيث انعكست الآية.

أننا نرى الرجال لابسين جلود الحيوانات، متبرجين بأشرطة جيبية مزخرفة أو بمعاطف من الريش، وكانوا يحملون شعارات مختلفة غامضة أحيانا تتكون من قلائد وساعات وأساور الخ.. وغالبا ما تظهر النسوة في عدة بسيطة للغاية، ولبسن في بعض الأحيان شريطا من القطن بين الفخذين مشدود بحزام، وهو لباس متعارف عند الفتيات في المنطقة السودانية، وتوجد أيضا الوزرة

(٢٣) وتعتبر الرسوم التي عادت بها بعثة برليبي تري من أجل الرسوم.



● (۱) مشهد شهواني من تاسيل.
(تصوير ب. كولوميل)، رقم ۷۵۳۲۱.
● (۲) مشهد شهواني من تاسيل.
(تصوير ب. كولوميل)، رقم
۷۳۱۰۷۵.



بأهدابها التحتية المختلفة الأوضاع والفساتين اللصوقة، وأنواع من ساترات النهود أو من رافعاتها، وترسجات شعر مختلفة منها تسريحة الخوذة مثلما هو الشأن في جبارين.

أما المسكن، فهو كثيرا ما رسم رسما مبسطا في شكل نصف كروي يمثل أكواخا نرى الأثاث بداخلها ومشاهد عائلية. وتبين من ناحية أخرى اكتشافات منحدر تشيت (موريتانيا) حيث عثر على ١٢٧ قرية، أن أفارقة العصر الحجري الجديد كانوا أيضا بناء. إن تلك التجمعات السكنية المكونة من الحجر الجاف والمستقرة على نتوءات جنوبية تحوي كل واحدة منها ٣٠٠٠ نسمة وتقوم غالبا على ركيزة من الصخور العملاقة التي تذكرنا بزمبابوي إفريقيا الوسطى والجنوبية وتميز الأعمدة الحجرية المصقولة هذا الفن المعماري الرائع بالنسبة لذلك العهد (٢٤).

اننا نلمح من خلال لوحات الفن الجداري الإفريقي مجتمعا كاملا ينشط حتى أنه يكاد يبلغ البعد الثالث أي بعد الحياة. ففي تكداماتين مثلا نرى النساء أجسامهن مكتنزة لحما، يشعر من يراهنّ بأنهن قد شعبن من الحليب. وكن جالسات أمام أكواخ مع أطفالهن، ولقد ربطت عجول ربطا محكما إلى حبل، وكان الرجال مهتمين بحلب الأبقار، والمشهد مشهد مسائي قد اتسم بالطمأنينة الرعوية. فهل يوحي عدد النساء بتعدد الزوجات؟ في أورنج سيرنغس، وفي نكوسيزانا سترم (التال) تبين مشاهد من الرقص الحي أناسا أغلبهم نساء مجتمعين وهم يصفقون، حول راقصين مقنعين. وفي جبارين تحذب امرأة ابنها الصغير الحرون. وفي سفان يظهرون رجل وهو يجذب حبل العجل الذي يعتبره بعض صيادي قبائل الفلانيين اليوم شيئا مقدسا (دنفول) وفي غنبا إهرن، نرى على اللوحة الضخمة التي تمثل إحدى روائع رسم ما قبل التاريخ استعراضا لثيران مسرجة بمهارة تحمل على جوانبها قرب الماء وتركبها نساء كثيرات الحلي. ونرى حيوانات تنحني إلى الموردة، بينما كان قطيع كبير يتقدم بكل وقار، كما نرى نساء مزينات جالسات مسترخيات أمام بيوتين بينما توقف الرجال، وبشعرهم ريش، لتحيتين. ونجد في الأكواخ أثاثا منزليا متنوعا.

في عين اتينان يبرهن الأعيان المتحلون بلباس الأبهة، والمحاربون الذين يلبسون البدلة، على أن المجتمع أخذ ينضغ لمبدأ الرتب. ويبدو الرماة المرتدون معاطف مرتبين حسب زمر تقوم بدورية يفوقها قائد. فهي تبدو كأنها «قوة من قوى حفظ النظام».

إن مشاهد الحرب في إفريقيا الجنوبية كثيرة وهي تروي الصراعات المتعددة بين قبيلتي السان والبانسو.

الآن ذلك لا يقتضي على الحب إذ نرى مشاهد كثيرة تبرهن على أن فنانا ما قبل التاريخ الأفارقة لا يشعرون بأي خجل زائف أمام هذا المظهر من حياة مجتمعه. فلقد مثلت حيوانات عند تهيجها الجنسي، كما هو الشأن في التنوع الصخري الجنوبي ببلانكا حيث نرى كركدين يشم أحدهما عضو الجنس الآخر. ونجد في مكان آخر تيسا يركب عنزة. وتبين مشاهد الجامعة الانسانية بتنوع أوضاعها. إن الإنسان لم يبتكر شيئا مهما في هذا الميدان منذ الزمن القديم. وتمثل صخرة أهانا في وادي جرات (تاسيلي) مهرجان رجال مقنعين لهم ذكور هائلة منتصب على حافة فروج نساء قابعات

قبسوع توليد. وجميع التفاصيل موفرة. ولقد خصصت اللوحة الكبيرة في تين للان بالأمكاكوس (ليبيا) لذلك الموضوع الاباحى (هوغو- برغمان، عدد ١٦٤). وفي (أنا هوانترات) نرى مشهد مجامعة أكثر ابتداء، ونرى في تيمنزوز ين (تاسيلي) زوجين يستجمعان وبقربها وقف ثلاثة رجال وثلاثة نساء وقد عبر الراسم تعبيراً دقيقاً عن مقاومة النساء المصطنعة.

عندما ندخل ميدان السحر والدين، نكون مضطرين الى الاعتراف بأن عددا كبيرا من اللوحات مازالت غامضة تماما، لأنها مغلقة في خفايا الأساطير. فإذا تمثل الثيران ذوات الرأسين، أو التي نراها في وادي جرات ولها جسم مزدوج مخنث يحمل، أسا واحدا؟ وماذا تعني اللوالب المنقوشة نقشا بدعيا والتي لها صلة بحيوانات كثيرة كالتي نراها على الحيرم في وادي جرات؟ ان ذلك الرسم الذي نجده على الفخار الغرزي يبدو متصلا بشعائر الصيد (الأفتتان)، وكذلك الشأن بالنسبة للولب الشعبان (ميون) المعروف في الحقبة الثانية (الأسرتان الفرعونيتان الأولى والثانية) (٢٥). ويرى بعضهم أن اللولب يعني تواصل الحياة. أما الحبل السري الذي يربط بين شخصين ابتداء مثلا من تلافى فخذي امرأة لينتهي الى سرة تبال وهو بصطاد، فكأنه يعبر عن تيار روحاني يندفع من الأم التي تصلي ويدها مرفوعتان، في اتجاه ابنها الواقع في خطر. ونرى كذلك في افريقيا الجنوبية (بوتسوانا) حيوانا يبشر بالمطر قد سبق عبر البلاد بحبل اعتصم به موكب من الأشخاص ذوي الحزم. وتنتسب المواضيع الشمسية الى نفس التراث الديني، إلا أن الرجوع الى المحيط الثقافي الخاص بآفر بيقيا هو الوحيد الجدير بتوفير حل لغز اللوحات التي ما تزال مهمة. ذلك ما حصل عندما اكتشف أ. هيبات با في مشهد بتين تزاريفت عرف حتى ذلك العهد بالثيران الارتسامية (لأن قوامها تبدو مصغرة مثل الجدوع فظن أنها مرفضة) اكتشف حيوانات تقاد الى المورد في حفلة اللوتوري بغية الاحتفال بأصل البقرات المائي. وعرف هيبات با في الشكل المتصنع الغامض الممثل للأصبع الذي يجاوز المشهد السابق، عرف فيه أسطورة يد الراعي الأولى المسمى كيكالا، وهي يد تذكر بعشائر الفلاتيين، وبألوان جلد الثيران والعناصر الطبيعية الأربعة (٢٦). ويدل التطور بصفة عامة على تحول السحر المرتبط أحيانا برقصات الدروشة، الى الدين الذي يدل عليه مقطع من الشريط المصور الكبير في عين اتينان الذي يعبر عن قربان كبش.

علاقات وهجرات

يجب أن نترك الانحياز الى تفسير كل الملامح الثقافية الافريقية بالتأثيرات الخارجية ولكن هذا لا يعني نكران العلاقات بل يجب تعريفها بكل حذر. ان الفن الجداري الفرنسي الكاتينري الذي يعود الى ٤٠٠٠ سنة تقريبا ينتسب الى العصر الحجري القديم. ولذلك فهو سابق لفن ما قبل التاريخ الافريقي، ويكون العصر الحجري الجديد الافريقي، عكسا لذلك سابقا لنفس

(٢٥) انظر أيضا دور الجلي في التشكيبات الافريقية.

(٢٦) يجب ان نحتز من التشريحات التي تعتمد على الحكايات الاسطورية الحالية لتفسر كل الرموز الناشئة ما قبل التاريخ.

انظر: د. لاجي المذكور سابقا.

العصر في أوروبا (٢٧). ولقد كان هناك ميل كبير إلى القول بأن فنانى القارة الافريقية كانوا يستمدون الإلهام من الشمال، حتى قال بعضهم بنى أوربي أفريقي قد يكون نبع من أوروبا وذلك ما يوحي بنوع من النظرية الحامية في ميدان الفن الافريقي في ما قبل التاريخ.

حضارة أصيلة

على أن الأمر ليس كذلك، فبقطع النظر عن كون ١٥٠٠٠ سنة على الأقل تفصل بين الحركتين الجماليتين، فمن البديهي أن الشرق الاسباني الذي كان من المحتمل أنه صلة الوصل في الثائين، لا يحسوي على أي شيء يمت بصلة إلى الفن الأصلي بجنوب منطقة وهران، وبالتالي أو بفزان وقد أكد ل. بلوط بقوة على انعدام العلاقة بين ما قبل التاريخ بأفريقيا الشمالية، ومثله بإسبانيا في العصر الحجري القديم الأعلى. ومن جهة أخرى فلقد رفض كل المؤرخين تقريرا الأصل القابسي لنقوش منطقة جنوب وهران ونقوش الصحراء الكبرى. أن فن ما قبل التاريخ قد ازدهر انطلاقا من الأطلس وتعتبر وقائمه ومراكة أفريقية بحتة.

وهناك تساؤل أيضا عن امكانية إشعاع هذا الفن انطلاقا من الشرق، أو من ضفاف النيل تجاه داخل القارة، لكن الفن في الوادي المصري من النهر لاحق بدوشك لإزدهار الفن الصحراوي والسوداني. فإن رسوم البقر ذات الأقراس بين قرونها، أقدم بكثير في الصحراء من رسوم البقرة الإله هاتور... ويرجع تاريخ الصقر المنقوش نقشا دقيقا على صفيحة الصلصال بمحادة قير إلى ما قبل الرسوم المماثلة له، ولو أنها أصغر حجما، والتي تظهر على قبور مصر في عهد ما قبل الملوك، وتمهد لتمثيل هوروس. أن كبش بوعلام الديدع ذا الكرويات يسبق بكثير كبش أمون الذي لم يظهر في مصر إلا في عهد الأسرة المالكة الثامنة عشرة. وقد حكم ملرو على الرؤوس ذوات الأشكال الحيوانية التي شاهدها في وادي جرات بأنها كانت تمهد لتمثيل عبادة الحيوانات المصرية. وينطبق نفس الشيء على الإلهات ذوات الرؤوس العصفورية بجباران. فالأشكال الشبه الطبيعية لم يظهر في مصر إلا في العصر الغرزي، وهو ينتسب إلى نقوش العصر البقري الصحراوي، وذلك أيضا شأن لوحات وادي حمامات ذات الصنع الرديء وتنسب المراكب الرائعة «المصرية النوع» التي نراها في الصحراء (تبن تزار يفت) بكل بساطة وبدون أدنى شك إلى النوع الصحراوي. ويبدو لي أنه يجب أن نعيد النظر، ومن وجهة مختلفة تعتمد المنظور التاريخي، في إشباع راردس (تيسوكاي) التي تذكرنا «بالهيكسوس» و«فرعون» و«أثينيا» وغطاء رأسه الذي يذكر «بابشتن الفرعوني». من الأكيد أن مصر قد اشعت ساطعا لكنه كان بلا شك محدودا في اتجاه وسط إفريقيا. أن الشيء الذي يبدو أكثر وضوحا يتمثل في أسبقية حضارة ما قبل التاريخ الصحراوية، ويرجع ذلك أيضا إلى انعدام أي حاجز - باستثناء المسافات - يمكن أن يفصل شعوب الهقار والتاسيلي وفزان عن ضفاف النيل التي ظلت مدة طويلة إلى أن أصبحت الصحراء قاحلة منطقة منفرة كثيرة المستنقعات. ولم تبلغ أوج ازدهارها إلا ابتداء من العصر التاريخي، وهي التي تجعلنا إلى اليوم ننسب كل شيء إلى

(٢٧) يعود العصر الحجري الجديد الصحراوي على الأقل إلى الألفية الثامنة قبل الميلاد، وكان يعتقد منذ عهد ليس بالبعيد، بأنه متأخر بالنسبة لأفريقيا الشمالية ومصر والشرق الأوسط. ه. لومت ١٩٧٦ ص ٢٢٧.

مصر حسب المبدأ القائل «لا تعطى القروض الا للأغنياء». لكن المراكز في ميدان الفن والتقنية كانت موجودة في البداية بالصحراء الكبرى والسودان الخرطومى وبافريقيا الشرقية والشرق الأدنى. ان صحراء ما قبل التاريخ مدينة أكثر الى مراكز الجنوب الشرقي منها الى الشرق الأدنى. أما العلاقات بين افريقيا الجنوبية والمنطقة الصحراوية فانا لا نراها تركز على براهين ملموسة وان كان فروبنوس قد أشار الى تشابهات عديدة (٢٨). وتكلم بعضهم عن «حضارة ماغوزية» يحتمل حسب هـ. هولم أنها شملت كل افريقيا وذلك ما لا يؤكد برهان. ومهما كان الأمر فإن الانتاج الفني لما قبل التاريخ بجنوب افريقيا غالبا ما يبدو لاحقا لانتاج افريقيا الواقعة شمال خط الاستواء، وان كان استقرار الانسان بالجزء الجنوبي من القارة يرجع الى تاريخ قديم جدا (٢٩). وينسب بعض الكتاب عن خطأ كامل كما رأينا في البداية، عصر التمثيلات الكبير يرتفع الدراكسيورغ الى القرن السابع عشر أي بعد قدوم البنتو. ويبدو، اذا نظرنا الى الأسلوب، ان الرسم الجنوبي لا يمت بصلة الى العصر المسمى «عصر الرؤوس المكورة» في الصحراء، وليس له من صلة الا بعصر الشيران. ويمتاز أيضا بمواضيع خاصة كالنباتات الكثيرة والمناظر الطبيعية ذات الصخور الممنمة والمواضيع المأتمية الخ.. ومهما يكن من أمر، يجب دفع الدراسة المقارنة الى الامام ويجب خاصة تجويد الاطار العام لتاريخ الانسان العارف الافريقي في ما قبل التاريخ قبل القول بوجود اتجاهات جالية معينة.

بسط النظريات العرقية

وتنطبق هذه الملاحظة أكثر ما تنطبق، على «الأجناس» المسؤولة عن خلق ذلك الانتاج الفني لكن، الا يوجد هنا تحسف لغوي عندما نستعمل مفهوم «الجنس»؟ (٣٠) وهل يمكننا بعض الهيكل العظمية وحطام العظام التي عثر عليها، من اختلاق سناريوات العرمان من طرف «أجناس» ما قبل التاريخ لكن بعض الكتاب بسطوا التطور الديموغرافي المعقد على النحو التالي: وذلك أن نيندرتالين في الشرق الأدنى كانوا قد هاجروا الى افريقيا بعد تعمير افريقيا أصيل، وكان منهم قرعان: فرع وصل في تقدمه الى المغرب، والآخر اتجه الى الهضاب العليا في الشرق الافريقي، ثمورا بالقرن الافريقي، وهذا الفرع يتكون من العاطرين من العصر الحجري القديم المتوسط، ويحتمل ان تكون وصلت بعد ذلك حتى شمال افريقيا موجة أخرى من الكروماتيون في مرحلة لاحقة للعصر الحجري القديم الذي ينتسب احتمالا الى العصر السيليبي بمصر. فيحتمل أن يكونا قد احتويا على نواة ايبيرية - موروسية وعلى نواة قابسية. ويمكن ان تكون المجموعتان قد دخلتا العصر الحجري الجديد بعين المكان - لينشأ منها بالخصوص العصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية

(٢٨) انظر أ. هارلاند، ليفروبنوس، ١٩٧٣، ص ٧٤.

(٢٩) انظر الفصل العشرين من هذا المجلد، بقلم ج. د. كلارك. ويرى بعض المؤلفين ان انتشار الفن الجداري وقع من زيمبابوي، نحو ناميبيا والكتاب، ثم نحو الترانسفال ومقاطعة أورانج. اما بالنسبة للرسم المتعدد الألوان المتطورة، فقد انتشرت مرة

أخرى من زيمبابوي نحو ناميبيا. انظر أ. ر. و يلكوكس.

(٣٠) يجب أن نقبل عملية التخصيص التي تحدث عنها ج. روني خاصة بعد التازجات التي يسرتها البيئة المتكاملة بالاكومين الصحراوي. انظر الفصل ١١، الخاص بالأجناس والتاريخ بافريقيا.

الذي يوجد في مناطق عديدة منها شمال الصحراء الكبرى. وقد وفرت مراكز أخرى تنوعا ملحوظا في مستوى الصناعات والفنون، ويجب أن نشير خاصة إلى الإشعاع الكبير الناشيء بالصخور الحجرية الجديدة ذات التقاليد السودانية والغينية، وإلى ما صاحبه من المراكز الثانوية بتبيري وبساحل المحيط الأطلسي، بشمال موريتانيا (٣١). إن بعض الكتاب يرون أن العصر الحجري للجنوب الأفريقي من صنع أهل حوض البحر المتوسط غير المتعرفين تعرفا كاملا، والذين يعتبرهم البعض بيضا ويعتبرهم البعض الآخر خليطا هجينًا. وقد ينسب العصر المعروف «بالرؤوس المكورة» إلى «زنج» يرى البعض أنهم تهجنوا فأصبحوا سمرا إثر اختلاطهم بشعوب الشرق الأدنى وأصبحوا من أهل العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية. وقد يكون عصر البقر يات من عمل أسلاف قبائل الفلانيين، وفي النهاية يمكن أن نتحسس أثر التقاليد المعروفة بالغينية الموجودة أكثر جنوبا في المباني القائمة على منحدر تشيت بوريتانيا. ولكن، نظل كل هذه الافتراضات هزلية، والحق يقال، وهي طبعا لصالح الرأي القائل بالمساهمات الخارجية فيها. ولقد حدث أن تكلم بعضهم عن تأثير إفريقي واضح في لوحة جدارية بالصحراء... إلا أن هذه الافتراضات ترمي خاصة إلى إقامة معادلات بين مفاهيم تختلف عن بعضها مثل مفهوم الجنس والسلالة ونمط الحياة والحضارة. ويتحدث بعضهم عن السود والبيض والفلانيين والافارقة والقاسبين والسودانيين بدون أن يحددوا بالطبع محتوى تلك العبارات. فهذا، مثلا، لوط يني تأثير القاسبين (٣٢) على نقوش العصر الحجري، وإن كان يصرح بأن في نقوش وادي جرات لا يوجد شكل زنجي واحد محض فكل الأشكال الواضحة هي بدون منازع أوروبية. ويجب أن نفترض إذن بأن المسألة تتعلق هنا بالبيض، ونتوصل إلى نفس النتيجة بعد درس أشكال مجنوب منطقة «وهران وبفران». ولقد قال لي زميل من جنوب إفريقيا ذات يوم: «يا للأسف لكونها عاجزة عن الكلام» (٣٣).

ولقد استند بعضهم أيضا إلى نفس العلامات الهزيلة من الأشكال الانسانية لينسب عصر «الرؤوس المكورة» إلى السود، وعصر البقر يات إلى قبائل الفلانيين، لكن تعريف الجنس هو في الغالب قائم أيضا على أنماط العيش وعلى الثقافات، وذلك عين الضلال، و يعرف أهالي العصر الحجري الجديد ذوو التقاليد السودانية بأنهم من «عرق الصيادين الراعاة القادمين من الشرق». وتكني «الملاحم الرقيقة والتقنيات الرعوية وتسريحات النساء على شكل خوذة، والضفائر عند الرجال»، لينسب كل الفن الجداري الممثل لكل تلك الوقائع إلى قبائل الفلانيين، وإن كان هؤلاء لا يعبرون في الوقت الحاضر عن أي ذوق جمالي من هذا النوع كما أنهم لم يحافظوا على ما يذكر به، مثل ما هو الشأن عند السان مثلا، وإن كانت كل الطبقات وكل الأساليب وكل الأشكال الأثثرو بولوجية تتداخل إلى حد بعيد في اللوحات الجدارية ويمكننا إلى اليوم في جل مناطق إفريقيا المدارية إعادة بناء سلسلة كل الأشكال الممكنة مشاهدتها في رسوم الصحراء (٣٤). وذلك بقطع النظر عن أن رساما فلانيا قد يكون صور راقصين مقنعين، أو أن فنانا «زنجيا» قد يكون مثل مشاهد

(٣١) انظر هـ. ج. هوثو، ١٩٧٤ ص ٦٢ وما بعدها.

(٣٢) انظر: هـ. لوط المذكور سابقا ص ١١٠.

(٣٣) هـ. لوط، المذكور سابقا ص ٤١.

(٣٤) ب. ف. طباس، يشير إلى أن كل المائدات وكل أشكال الجماعه توجد أيضا عند الهوتو بمقاطعة الكاب.

من الحياة الرعوية أو حوّل ملامح أبطاله و بطلاته مثلما يفعل ذلك بعض الرسامين السينغاليين اليوم. أفلم يصوّر رجال السان القصار في الغالب أنفسهم طوال القامة ونحفاء وذوي بنية صلبة ؟ إن كل فن يعتبر اصطلاحا ولم يشاهد أي كان أبدا شعبا من السود ليس له الا «رؤوس كروية»، ومن جهة أخرى فهل كان تخصصهم «كفلاحين رعاة» على نفس الدرجة من البروز التي نراها اليوم ؟ (٣٥).

فلقد قال هـ. ج هوغو في خصوص العصر الحجري الجديد الموريتاني ما يلي : ((عندما وصل سود تيشيت كانت ثيرانهم معهم)) وكتب في مكان آخر «شهدت المرحلة الرعوية المتوسطة قدوم عناصر زنجية وذلك هو العصر البقري الكبير المتميز بقطعان الثيران المصورة بكثرة» (٣٦) ولذلك فإن الرعوية ليست حجة كافية، وكذلك القياسات الدماغية أو الانطباعات الذاتية المتعلقة بالملامح. فليست الأجناس هي التي تصنع التاريخ. والعلم الحديث لا يحصر الجنس في خصائص جسمية سطحية (٣٧). إن كل «السيدات البيضاء» في الرسوم الجدارية الافريقية التي لم تبيض منها الا وجوهها، كما في جنوب افريقيا، تذكر القس بروي بأفاريكنوسوس التي رأى فيها «عبر قوافل من الرواد القادمين من الخليج الفارسي»، لا تمثل في الحقيقة إلا أشخاصا متعبدين، وصيادين أو فتيات افريقيات خارجات من حفلات التنشئة كما يمكن أن نراها اليوم أيضا مرسومة بالصلصال الأبيض، لأن ذلك اللون هو لون يفيد موت شخصية سابقة، والارتقاء الى مرتبة جديدة (٣٨). أما فيما يخص رسامي لوحات الفن الجداري بافريقيا الجنوبية، فإنهم ما انفكوا على جدال. إلا ان القاعدة التاريخية أصبحت معروفة أكثر. فالأمر هنا يتعلق بعلاقات بين اخوي — خوي والسان أولا، ثم بين اخوي — سان والبستو. ويعبر عدد كبير من اللوحات عن تلك الديناميكية التاريخية. فالمقارنة الاحصائية بين الايدي المخطوطة والمرسومة على الحجارة تناسب قامة السان، كذلك الامر بالنسبة لتراكم الدهن وانتصاب الذكر الجزئي الخ.

أما نقوش عصر الخيول والعربات الحربية فهي ترجع الى العصر التاريخي. ولقد أمكن للبعض ان يتساءل، مقابل ذلك، عما اذا كانت الرسوم والنقوش من انتاج شعوب مختلفة، علما بأن الاولى قد أنجزت في الحثايء، والثانية فوق الهضاب. ولكن، يبدو أن هذا غير صحيح، إذ يتعدى على الرسامين في غالب الأحيان العمل في الهواء الطلق، فلو فعلوا ذلك لأضحت تصاويرهم وزالت. اما النقوش فلقد كانت، مقابل ذلك مسيرة الانجاز على الدويلريت والدليبار

(٣٥) «الملاحظ اننا لا نعرف معيارا واحدا صحيحا للتمييز بين أهل عصر الجرم وأهل العصر الأول الرعوي (البقري) ١). ان وجود البقريات التي كانت اهلت نهائيا منذ عصر الرسوم الطبيعية الجميلة يعيد الى أحقاب بعيدة ظهور المواشي»، ت. موند. يناير

١٩٥١.

(٣٦) هـ. ج هوغو، المذكور سابقا ص ٢٢٥ — ٢٧٤.

(٣٧) انظر: «الاجناس والتاريخ بافريقيا» حاشية الفصل ١١.

(٣٨) يعتبر كثير من المؤلفين، أن «السيدة البيضاء» في برنبارغ التي تمجد نفسها عن اللوحة الأصلية تمثل في الواقع شابا يدل عليه قوسه، وردفاه وذكره الظاهر ملطبا هو الشأن غالبا عند قبيلة السان الذين يكون ذكرهم نصف قائم. أما فيما يتعلق بلونها، يجب أن نلاحظ ان وجهها ليس مدهونا بل عرته بلون صخرة من عين المكان. ان لونها وردي من الرجلين الى الخصر ثم يصبح أسود في الأعلى. والحقيقة ان اللون لا يفيد شيئا إذ نجد قبلة وقردة، وسان لونهم أحر ورجالا لونهم أبيض. انظر: أ. ر. و بلكونس ١٩٦٣، ص ٤٣ — ٤٥ .

والكوبنج، حيث تعطى مقابلة جميلة بين الزنجاز الأمغر، والباطن الرمادي أو الأزرق الصخري. وهذا ما لم يكن ليحصل في جص الخثاء بل اننا لنجد أحيانا رسوما ونقوشا في مكان واحد كما نجد نقوشا كانت قد طليت في بادية الأمر مثلها هو الشأن في مقاطعة تركستاد. وفي بعض الأحيان نجد زيادة على ذلك نفس الاصطلاح الجمالي في كلا الصنفين من اللوحات.

الميدان الجمالي

ان فن ما قبل التاريخ الافريقي يعتبر في الميدان الجمالي البحث، مصدر الفن الافريقي الحالي، الذي لم تستكشف جذوره بعد، الا قليلا، وما استكشف منه يعتبر بداية رائعة. نجد في فن ما قبل التاريخ الافريقي ثراء في الأساليب يمكن ان نتبع تطورها أحيانا تتبعها شبه متصل حتى ندرك الإبداعات الفنية لأفريقيا الحالية والتي اقتبست كثيرا من الفن العربي والأوروبي. ولكن يوجد الى جانب ذلك تراث قديم يكن طبعه في الخثاء تحت الصخور، وفي أنفاق ما قبل التاريخ. ان الرسم يعتمد على بعض الألوان البسيطة مثل المغر الأحمر والأبيض والأسود والأصفر وعلى لونين ثانويين الأزرق والأخضر. وانسا لا نزال الى يومنا هذا نجد هذه الألوان في تشكيلة ألوان الافة وفي زينة الراقصين.

ان هذا الفن هو فن ملاحظة وإتباء شبه هيامي و يصبح أحيانا تعبديا أمام الواقع. فالنقش والرسم يعبران جيدا عن هذا المظهر لكن ليس بنفس الطريقة، فتور اوغسبورغ (تسوانا) الذي لم يبق منه سوى النصف الأعلى، يبرزه خط جيد الاتقان يكشف عن التفاصيل العضوية الدقيقة لكل من الخطم والعينين والشعر الخ.. وتعتبر زرافة الاينيري نحتا واقعا تام الشروط وقه ظهر تنقيط جلدها باستعمال ضربات المطرقة الحافرة حفرا رقيقا وذلك لابرار الخطم المحيط بالرأس والحروف الوجنية والقرنين والعينين المكونتين والخيشومين والحافرين بظلفيه وقرنه اللامع. ان الجانب الطبيعي ملحوظ في تقطيع الملامح بأحكام، وفي النقش بالمطرقة التي تتجود التفاصيل الداخلية، وكذلك في وجود زرافة صغيرة تستند الى أمها في حركة تلقائية مؤثرة.

ان تلك المهارة في الملاحظة توجد أيضا في جدارية إهارن حيث تتلاصق دون أن تختلط البتة لأن دقة الخط كانت على غاية من الاتقان، ست عشرة زرافة تجتمع تجمعاً رائعاً وأسرار من النساء المتزنيات المسافرات وهن يركبن ثيرانهن الناقلة، وغزلان وظباء (دوركا، داما، أوريكس، وحيارم) تعرف بالتوالي اعتمادا على قرنها الدقيقين وجلدها الأبيض وقرنها الطويلين المتجهين الى الخلف ورأسها المستطيل، وفي نفس اللوحة نرى زرافة وليدة مربوطة بمشيمتها تبحث عن أترانها وهي متحمية، كما نرى أسدا قابضا على خروف بين مغالبه وهو يراقب رجلا مسلحاً يطاردونه بينما كانت خرفان أخرى تفر مروعة ويقترب ثور من غدير ليشرب، مما أفقر بعض الضفادع. كل ذلك يعبر عن ارتعاش الطبيعة الحي والمؤثر وقد تسرب الى الانسان صاحب الملك.

لكن الأسلوب الطبيعي الميال للتفصيل لا يفي البتة التعبير عن الاساس، واستعمال في التركيب المشهدي الذي يرجع الى نوع من المعالجة النحتية للرسم. ولذلك صورت الشخصية الأساسية حسب حجم كبير مما جعلها تسيطر على بقية الشخصيات التي صغرت نسبيا مثل أولئك

الصيادين الكبار المقتنعين الذين تطفئ قاماتهم على السباع، ومثل الفرعون الذي يطرح أعداءه أرضا وكذلك الأوبا في بلاد بنين، الذي ظهر عظميا بالنسبة لرعاياه.

ولقد تولدت عن المعنى الاساسي الاشكال الرمزية التي تخالف تماما فن الهرجة وهي الاشكال الرمزية إذا ضمنت الى الصنع التحتي، يتولد عنها الايقاع الخاص الذي يحرك الحيرم المرسوم بخط مجرد وبسيط، مثلما يحرك قطع الثيران بجيارن التي يخيّل للانسان أنه يسمع وقع حوافرها الصاخب وتنفسها الساخن وخواراتها. (انظر لاجو) (الصورة).

حاليّة فن ما قبل التاريخ الافريقي

تغلب على ذلك الفن الشعبي واليومي روح الفكاهة، وهي السخرية الباسمة أو المرة كما هو الشأن في الحياة. وهو يغموضه يرتعش ارتعاش المتعب الصوفي بحمله محراف الفنان أو يرشقه، فيوفر عددا من أروع آيات الفن العالمي. وذلك شأن الكباش ذي القرص الشمسي (كبش بوعلام) الذي تعبر هيئته الكهنوتية عن الأسرار وتدعو الى الخشوع (٣٩) وتدل تلك المعالجة المزدوجة على وضعية الانسان الافريقي المعاصر المزدوجة والمستثملة في عفويته التي تكاد تكون فظة كما هي في الحياة اليومية، أو في وقاره وتصوفه الشديدين عندما يستولي عليه ايقاع رقصة دينية.

وفي الجملة فان فن ما قبل التاريخ الافريقي لم يندثر بل هو حي معاصر، حتى ولو لم يكن الا من حيث أساء الأماكن التي ظلت باقية، ويوجد واد رافد لودي جرات يدعى تين تهد، أي مكان الأثان، وتوجد به صورة منقوشة جميلة لحمار. ولقد اشتهر يسوكاي، ان أقلا بالأرواح التي تسكنه (الجنون). وقد يعود ذلك الى انه يوجه به كائن له شكل حيوان مربع، يجمع بين سمات الثعلب واليوم، بقطع النظر عن ذكره الضخم، أما ركام من الاحجار المكون من حجارات بركانية ملفوفة. ويستحق ذلك الفن ان يدعم من جديد اعتمادا على البرامج المدرسية في حياة الأفرقة الذين فصلوا عنه مسافات لا يسلكها سوى إخصائي الاقطار الغنية وخبرائها.

وينبغي ان يصان ذلك الفن بغيره من التدهورات المتنوعة التي تهدده يوميا لأنه يمثل تراثا لا يقدّر ثمثه (٤٠) وينبغي ان يجمع في مدونة عامة حتى يتيسر تحليله تحليلًا مقارنا.

فالفن في الحقيقة هو الانسان ذاته. وما دام فن ما قبل التاريخ شاهدا أمينًا على الانسان الافريقي الاول، من محيطه البيئي الى احساساته السامية، وما دامت الصورة تفصح أحيانا مثلما تفصح الكتابة، يمكن لنا ان نحزم بأن الفن الجداري الافريقي هو أول كتاب تاريخ لهذه القارة الا أن الأمر يتعلق بشاهد غامض وصعب المنال يستوجب ان يدعم بمصادر اعلامية أخرى مثل علم الاحاث وعلم المناخ والهندسة المعمارية والرواية الشفاهية الخ.

(٣٩) من الملاحظ ان المؤلفين يشيرون ببلاد امبراطور مالي، في القرن الرابع عشر الى كيشن مهمتها حراسة الملك من العين. و يشار أيضا الى الكباش في بلاطات افريقية أخرى مروى، بلاد اكن (غانا) كبة (الزايير)، كتم (تشاد).

(٤٠) (لقد صدر سنة ١٩٧٤ مرسوم حكومي جزائري يعتبر مجموع منطقة الرسوم والنقوش بتاسيلي متحفا قوميا.

ان فن ما قبل التاريخ لا يكشف في حد ذاته الا عن الجانب الملحوظ من الجليد العائم على سطح البحر. فهو يرسم على اللوحة المعدنية المجددة في المحابيء الحجرية، وتلك الصورة المرتسمة تمثل مشاهد حية أصبحت الى الأبد في غياهب التاريخ. فالفن انعكاس ومحرك. فالانسان الافريقي قد أعلن في فن ما قبل التاريخ ولكل العصور عن كفاحه المستميت من أجل السيطرة على الطبيعة وكذلك عن تحرره الواعي من تلك الطبيعة للوصول الى فرح لا حد له، فرح الخلق ونشوة الانسان المبدع.

الفصل السابع والعشرون

بداية التقنيات الفلاحية وتطورها وانتشارها

بقلم: رولان بورتيير وجاك بارو

إن الأفكار الراسخة حول أصول الفلاحة بقيت مدة طويلة متلونة بالتركز العرقي أشد التلون. ذلك أن الناس كانوا، ولا يزالون، ينظرون أحيانا إلى الشرق الأدنى — المهد الزراعي والرعوي الذي قال عنه غوردن تشايلد (١) بأنه مركز العصر الحجري الحديث — ينظرون إليه لا باعتباره مكان نشأة فلاحية الحبوب الهامة (قمح، شعير..) وتربية المواشي (ماعز، غنم، ثم بقر..)، وهما يمثلان القاعدة المادية للحضارة البيضاء، فحسب، بل باعتباره أيضا نواة الحضارة وموطنها الأول، لاسميا فيما يتعلق «بالعالم القديم». إن الأبحاث الأثرية التي أجريت منذ الحرب العالمية الأخيرة — وخاصة في غضون العشرين سنة الأخيرة — قد ساهمت بدون شك في تعديل هذه النظرة الضيقة المغرورة بتعديدا جزئيا، فلقد بينت فعلا أهمية «الهلال الخصيب» في تاريخ الفلاحة العالمية (٢) وأبرزت أيضا دور أجزاء أخرى من المعمورة في هذا التغير الهام في تاريخ البشرية، وهو تغير قد نشأ عن إنتاج المواد الغذائية التي لم تستملك إلى حد ذلك الوقت إلا في الوسط الطبيعي، فظهر بوضوح وجلاء مدلول الاختراعات الزراعية ومعنى تأهيل النباتات بأمريكا (٣) كما ظهرت السابقة النسبية للمهد الفلاحي بجنوب شرقي آسيا البدارية (٤) كما ظهرت أخيرا المساهمة التي قدمتها إفريقيا لتاريخ هذه الفلاحة العالمية.

(١) ماذا وقع في التاريخ ط ١٩٤٢ (ثم أعيد منقحا ١٩٥٤) مطبعة باليكان، بنغوين بوكس.

(٢) انظر: مثلا ر. ج. برايدود ١٩٦٠.

(٣) انظر: مثلا في هذا الموضوع ر. س. ماك تايش، ١٩٦٤.

(٤) انظر: بارو ١٩٧٥.

الا أنه منذ ما يقرب من نصف قرن، كان ن. أ. فافيلوف (٥) العالم الفلاحي والتكويني الروسي المشهور، قد اعترف بوجود مراكز لأصل النباتات المزروعة بأفريقيا، ثم بيّن بعد ذلك أحد مساعديه وهو أ. كوتسون (٦) أنه كانت توجد بأفريقيا أمهاد فلاحية أولى. وبعد سنوات قليلة ضبط أحد الدارسين مبركنا موقع تلك الأمهاد وعددها ودورها (٧).

الا أن نوعاً من الأفكار المسبقة المتولدة عن الاستعمار وكذلك الجهل بأصول العديد من المكونات الزراعية الأفريقية، وبصفة أعم بما قبل تاريخ هذه القارة، جعل الناس، ولمدة طويلة ينتقصون وحتى يجهلون الدور الذي قامت به أفريقيا في تطوير الفلاحة وتقنياتها ومواردها.

والملاحظ أن هذه الوضعية قد تبدلت فعلاً إذ بدأ يظهر منذ سنوات اهتمام حقيقي بدراسة أصول الفلاحة الأفريقية كما تشهد على ذلك مثلاً المحاولات المنشورة سنة ١٩٦٨ بالانثروبولوجيا المعاصرة (٨) والعديد من التعليقات التي أثّرت حولها، كما يجب ذكر الدراسات التي جمعها في هذا النطاق كل من ج. د. فاج. ور. أ. أوليفر (٩)، وأيضاً المساهمة التي قدّمها أخيراً و. ج. ل. رندلس لتاريخ حضارة البانتو (١٠). ولكننا قبل أن نحاول تقديم خلاصة موجزة للمعلومات المتعلقة بما قبل تاريخ الفلاحة الأفريقية وبتاريخها، يجدر بنا أولاً أن نعطي بسطة إجمالية نصف فيها الإطار البيئي الذي ظهرت فيه.

الأساط الطبيعية للفلاحة الأفريقية وأصولها

انه لمن البديهي أن أصول التقنيات الفلاحية وتنوعها وتطورها كانت متصلة اتصالاً وثيقاً بحالات الاوساط الطبيعية التي توجد فيها (الطقس — المياه — التضاريس — الأرض — النبات — أنواع النباتات المستعملة أصلاً — نوع المواد الغذائية المتوفرة...) وإذا كانت هذه العوامل التي أوجدتها الاوساط الطبيعية قد قامت بدور هام بل أساسي في تكوين الزراعة والرعي، فإنها لم تكن مع ذلك هي الوحيدة، ذلك ان هذه التطورات تفرض أيضاً وجود مظاهر ثقافية وحضارية عديدة. وفعلاً، فحتى في العصور السابقة للعهد الفلاحي وأصول الفلاحة فإن الانسان — أثناء هجرته وتنقلاته — قد حمل معه أدواته وتقنياته وطرق إدراكه وفهمه للبيئة، والأساليب التي بها يستعمل المكان ومبنيته... كما حل معه أيضاً جملة من المواقف والتصرفات التي تولدت عن علاقاته بالطبيعة في الأماكن التي نزل بها من قبل. ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تكاد تخرج من العهد الحجري القديم، كانت الفلاحة النباتية وتربية الحيوانات قد تركزت في الشرق الأدنى، حيث ظهرت المدن

(٥) ١٩٥١ — ن. أ. فافيلوف.

(٦) ١٩٥٥ — س. د. درلنغتون ١٩٦٣.

(٧) انظر: ر. بورتر ١٩٦٢.

(٨) أ. داليفيس: أصول الفلاحة بغرب إفريقيا، ه. ج. هوفو: أصول الفلاحة: الصحراء د. سدون: أصول الفلاحة وتطورها بشرق إفريقيا وجنوبها.

(٩) ج. د. فاج ور. أ. أوليفر ١٩٧٠.

(١٠) و. ج. ل. رندلس، ١٩٤٤.

الأولى. ومن هذا الشرق الأدنى وصلت الى أوروبا - التي كانت آنذاك متأخرة نسبياً - الاختراعات التقنية والأفكار المصاحبة لها التي تسببت في ثورة العصر الحجري الجديد المرتكزة على الفلاحة وتربية الحيوانات.

ان هذه الظواهر المتشابهة من حيث الانتشار والتبادل، قد حدثت في أماكن أخرى من العالم وبأفترق. يقدّر أظن، بسبب الرحلات والهجرات البشرية المتوافدة إليها أو التي خرجت منها والتي حدثت داخلها.

على أنه يجدر بنا أولاً أن ننظر جلياً فيا تضمنته الاختراعات الزراعية والرعية وكذلك تأهيل النباتات والحيوانات. فهذا الانتقال من التملك (قطف الثمار وصيد الحيوانات) الى الانتاج (الزراعة وتربية الحيوانات) قد جعل الانسان يتحرر تدريجياً وجزئياً من الصعوبات التي فرضتها النظم البيئية التي ينتمي إليها أو التي كان يعيش فيها قبل ظهور الفلاحة وتربية الحيوان، عيشة تقترب من عيشة «الوحدة الحيوية»، مثله مثل الأجسام الأخرى وذلك حسب المجرى العادي الخاص بالأمشياء الطبيعية.

ان هذا التغير الاساسي المتمثل في ظهور الفلاحة وتربية الحيوان قد تحل بتكيف الانسان وتأقلمه مع المحيط الطبيعي المتنوع الذي يسمح لمركبات بيولوجية أن تنتج أكثر، وأن تنتج أمشياء أخرى غير التي تنتجها طبيعياً. وباعتبار أن الانسان أصبح فلاحاً أو مربياً للمواشي، فقد طرأت تحولات متفاوتة على الأوساط الطبيعية كما طرأ توجيه كمي أو نوعي على انتاجها.

الا ان الانسان مهما كانت سيطرته على عناصر هذه الأوساط الطبيعية، فإنه لا يستطيع بصفة فجائية وشاملة أن يتحرر من كل العراقيل. ولذلك يجب ان ننظر أولاً الى الصعوبات الناشئة عن خصائص تلك الأوساط الطبيعية، والتي قامت بدور أساسي في حجب ما قبل تاريخ الفلاحة وأثناء تاريخها. وفيما يتعلق بالقارة الافريقية يجب علينا ان نقدم نبذة عامة يكون لنا بواسطتها إلمام عام بالمحيط وذلك أن افريقيا تبدو مقسمة الى شرائط واسعة على خطوط العرض، مختلفة من حيث البيئة، ومتناظرة بالنسبة لجهتي خط الاستواء.

ان بعض هذه الشرائط كما لاحظ راندلس (مصدر مذكور) كانت تقوم بدور الحواجز بالنسبة لسيارات الانتشار للقادمة من الشمال الى الجنوب، وذلك شأن للصحراء والغابات الاستوائية الكبيرة و «السباسب» التانزانية و صحراء كالاهاري. وبالعكس من ذلك فإن الشرائط الأخرى قد فتحت مجالات لتلك التيارات الانتشارية التي كانت تجد فيها أوكارا مناسبة لها. وهذا ما وقع في السباسب الكائنة بالشمال والجنوب، على ان «راندلس» لاحظ أنه لا يوجد من تلك الحواجز حاجز واحد يتعذر عبوره اطلاقاً باعتبار ان الصحراء والغابات الكبيرة مثلاً قد سمحت ببعض التنقلات البشرية.

ان خطوط العرض بأفريقيا ليست هي العامل الوحيد الذي يمكن من تحديد المناطق البيئية الكبرى تحديداً عاماً، بل هناك التضاريس والمرتفعات التي تتدخل معها في تقسيمها. فخط قم المرتفعات الرابطة بين الزاير والنيل يفصل الاراضي المرتفعة بشرق افريقيا عن شبه سهل الغرب الافريقي، مع العلم ان هذا الأخير يقسمه محور صغير قائم، يمتد من جزيرة برنيسب الى التشاد. في هذا التقسيم البيئي على أساس خطوط العرض للقارة الافريقية توجد بعض الحالات

الاستثنائية التي قد تكون أهمها المرتفعات الممتدة موازية للريفت (Rift) من شمال بحيرة فكتوريا إلى جبال موشغا والتي، حسب ما ذكره راندلس، تمثل مراً ضيقاً ظاهراً يسمح بعبور حاجز خط الاستواء (الخريطة رقم ١). وبالإضافة إلى ذلك فهناك «المعقل» الأثيوبي الذي سنبين فيما بعد دوره في الأصول الأفريقية للنباتات المزروعة.

وإذا رتبنا الآن هذه المعطيات المختلفة، رغم كونها لم تتجاوز بعد مرحلة العموميات، فإن إفريقيا تبدو لنا وكأنها تحتوي شمالاً وشرقاً وجنوباً وحول محور الغابات الاستوائية، على منطقة تكاد تكون دائرية من السباسب والسهوب، ثم شمالاً وجنوباً على منطقتين قاحلتين هما الصحراء، وصحراء كالاهاري، وأخيراً في أقصى الشمال وأقصى الجنوب على منطقتين تكادان تصلحان مناخياً للإنسان، بل يمكن، عند تبسيط الأمور تبسيطاً كبيراً، يمكن القول بأنها بحر وسطية المعنى المناخي للكلمة، مع الإشارة إلى بعض الخصائص البيئية في أقصى جنوب إفريقيا. (خريطة رقم ٢). وانطلاقاً من «قلب» الغابة الاستوائية وبقطع النظر عن المناطق الساحلية يحصل لنا بصورة عامة، مالم ينتقل من الرطب جداً نحو الجاف جداً ومن «النظم البيئية المعقدة» من نوع «الغابة المدارية الرطبة» إلى «النظم البيئية الأكثر اختصاصاً» من أنماط السباسب والسهوب والنباتات الصحراوية (١١).

وفيما يتعلق بالفياضي، وبعبارة أدق فيما يتعلق بالصحراء، علينا أن نذكر هنا — وإن كان الأمر قد أصبح معروفاً جداً — بأن هذه الصحراء لم تكن منذ أن وجدت صحراء قاحلة كما هي عليه الآن، إذ الفلاحة وتربية المواشي قد وقعتا فيها سابقاً، بل إن العديد من المؤلفين (١٢) قالوا بأنها كانت مهداً للحياة الرعوية والزراعية.

فلنعد الآن للصورة البيئية التي رسمناها منذ حين للقارة الأفريقية، فيمكن — حسب رأينا أن نستصور أنه، في الأزمنة القديمة السابقة لفترات الفلاحة أي في النظام البيئي المعقد للغابات الاستوائية الكبيرة، كانت تستعمل أولاً أشكال من القطف والقص يمكن تشبيهها من حيث بعض جزئياتها التقنية بالطرق التي يستعملها في أيامنا هذه البيغمي. ونلاحظ أن الموارد الغذائية والنباتية والحيوانية لهذه النظم البيئية لا تقل تنوعاً ووفرة عما هي عليه مركبات وحداتها الحيوية.

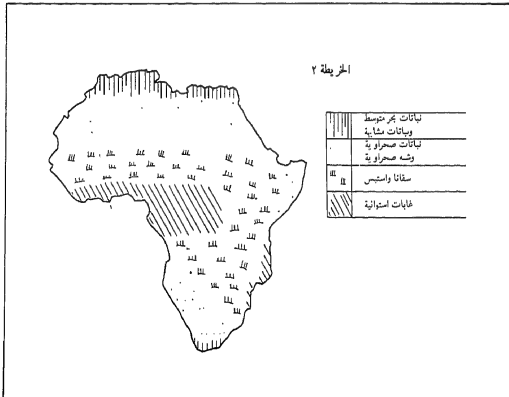
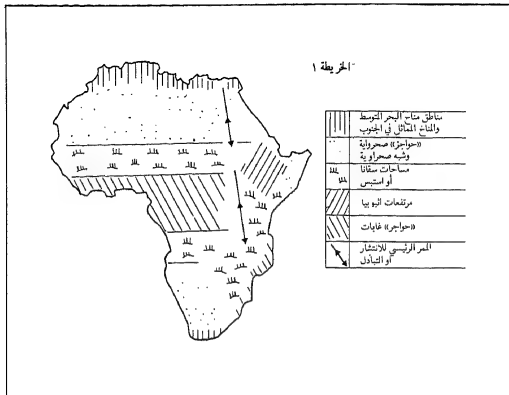
إن الملاحظات التي استطننا تسجيلها في شأن الاقتصاد المعاشي لمجموعات البيغمي قد بينت لنا أن هذه الموارد — نظراً لكثافة هذه المجموعات الغابية — كانت قادرة على تأمين معاشها بدون أن يكلفهم ذلك جهداً كبيراً.

إن نفس الملاحظة تنطبق من جهة أخرى على حال الجائنين الصيادين بالنظم البيئية الأكثر اختصاصاً في المناطق القاحلة أو الجرداء مثل مناطق قبائل سان، وكونغو، بصرهارة كالاهاري الذين درسهم ر. ب. في (١٣) إلا أن الموارد بالنسبة إليهم كانت أقل تنوعاً وإن التزود بالماء كان عاملاً

(١١) أنظر: فيما يتعلق بعبارات «النظام البيئي المخصص» و «النظام البيئي المعقد»، د. هاريس ١٩٦٦.

(١٢) أنظر مثلاً: أ. شوقالي ١٩٣٨، هـ. ج. هونغو المذكور أعلاه - وج. ج. هستر ١٩٦٨.

(١٣) ١٩٦٦.



- الخريطة ١: توزيع المناطق الايكولوجية حسب خطوط العرض
- الخريطة ٢: النظم الايكولوجية المختلفة

حجة من تلك الموارد، لأن تغير كمياته الفصلية قلل من استثمار الموارد التي لا يستفاد منها إلا بحسب قرب مواقع الماء.

ولكنني نرجع الى ماضي افريقيا في حقبة ما قبل العهد الفلاحي، فلنذكر أنه — بعد نهاية العهد البلسيتوسيني — حدثت فترة رطبة تسمى «الماكالي» (من ٥٥٠٠ الى ٢٥٠٠ قبل الميلاد) قد يَسُرَّ الاتصال بين سواحل البحر الأبيض المتوسط ومناطق جنوب الصحراء، وفي نفس الوقت، يَسُرَّ حالة مجاري المياه والبحيرات — حتى في قلب القارة — كما يسرَّ تطور صيد الأسماك، أي استقرار نسبياً للسكان الذين يمارسونه، فكانت ظروفا ملائمة لتنقل متدرج نحو الانتاج الفلاحي (١٤). وكان آنذاك قد حصلت، انطلاقاً من مهد الفلاحة بالشرق الأدنى. والبحر الأبيض المتوسط — انتشارات ساهمت بدون شك في تقدم تلك العملية بسرعة (١٥).

وبداية من العهد البلسيتوسيني، أي حوالي ٩٠٠٠ سنة ق. م وفي مطلع الماكالي وجدت — كما يبدو — في القارة الافريقية مواطن متميزة لجني الثمار المكثف نسبياً والذي سمح بدون شك بتكون تجمعات بشرية محدودة، فكان ذلك شأن المناطق المتقابلة من الغابة والسباسب، بمحاذاة قلب الغابة الاستوائية والأنجاد العشبية بشرق إفريقيا، وفي المناطق القريبة من البحيرات والمجاري المائية الرئيسية مثل نهر النيل، وكذلك بالمناطق الساحلية في شمال وجنوب القارة الافريقية (١٦).

وقد كانت مناطق العبور هذه وخصوصاً المناطق التي تتقابل فيها السباسب والغابات كانت فيما بعد أوكارا ممتازة للتطورات الثقافية، وبالتالي لبعض من الحضارات الافريقية، اذ لاحظ رندلس (انظر أعلاه) في هذا الصدد بأنه «في حدود السبسين (الساحل وتخوم الغابة) توجد حضارات البانتو الشهيرة».

يجب علينا الآن ان ننظر الى امكانية تأهيل الأعشاب التي وفرتها تلك القارة الافريقية، فالمنطق البيئي يتطلب منا ان نعتبر في البداية العناصر المنتجة الأولية أي النباتات.

الأصل الافريقي لبعض النباتات المزروعة

ان علوم الطبابعة لم تول أصل النباتات المزروعة ما تستحق من أهمية الا حديثاً، ذلك أننا اذا ما استثنينا المؤلف المهم الذي وضعه العالم أ. دي كندول والمنشور سنة ١٨٨٣، فإن الطريقة التأليفية لم تتطور على المستوى العالمي الا بعد أعمال العالم النباتي الروسي ن. أ. فافيلوف و فريقه، بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧، وذلك لطرق هذه المسألة ذات الأهمية البالغة في تاريخ الانسانية ولتهيئة الأوساط الطبيعية والتصرف في مواردها (١٧). فلقد تمكن فافيلوف ومساعدوه من التعرف على وجود ثمانية مراكز لأصل النباتات المزروعة (وفيها — حسب فافيلوف — ثلاثة مراكز ثانوية، أي أنها كانت مرتبطة بمراكز جهوية هامة). وتوصل الى هذه النتيجة بالجمع بين استقراء شامل للمعطيات

(١٤) في موضوع استقرار صيادي الأسماك، وما له من علاقة بأصول الفلاحة، انظر س. أ. سوار ١٩٥٢.

(١٥) انظر: ج. دسموند كلارك ١٩٧٠.

(١٦) انظر: ج. دسموند كلارك ١٩٧٠.

(١٧) انظر: المصدر المذكور، حول آثار فافيلوف الواسعة، ١٩٥١.

الزهرية والجغرافية النباتية، مع استقصاءات فلاحية نباتية ودراسات تكوينية. و يوجد في افريقيا مركز واحد من تلك المراكز ويسمى بالمركز الحبشي (الأثيوبي) في حين ان مركزاً آخر — يسمى بمركز البحر المتوسط — يوجد على سواحل البحر الأبيض المتوسط وهم افريقيا بصفة جزئية (شمال افريقيا ومصر) وله مع ذلك ارتباطات بالمركز الواسع المدام الموجود بالشرق الأدنى، الذي ظهرت فيه من النباتات المزروعة — كما سبق أن قلنا — الحبوب الأساسية (قمح، شعير، شيلم...) .

وفيما يتعلق بـ افريقيا، فإن هذا يعتبر تقدماً محسوساً بالمقارنة مع ما توصل اليه كاندول (المذكور أعلاه) الذي لم يحدد للفلاحة والنباتات الالهية الا ثلاثة مراكز أساسية وأصلية، وهي الصين وجنوب غربي آسيا (مع الامتداد الى مصر) وأمريكا. وهذا ما يجعل مساهمة فافيلوف لمعرفة أصل النباتات المزروعة ذات أهمية بالغة في المستوى النظري، ذلك أنها أوضحت أنه في نطاق البحث عن أصل نبتة مزروعة، يجب ان نفرق بين موطن أو مركز التغير الاول المتميز بتنوع كبير في أشكال النبتة مع ظهور بارز جلي للصفات الغالبة، وبين مناطق التغير الثانوي الذي يمتاز بكثرة الصفات المتقلصة الضامرة في مواطن التغير الأول.

ان ضبط النطاق الجغرافي لمواطن التغير وتوزيعه يسمح بتحديد مناطق المهدي الفلاحي وذلك انه، اذا كانت مساحات تلك المواطن تتطابق وتتداخل كلياً أو جزئياً، يحق لنا أن نرى أن عدة حضارات كانت مدة طويلة من الزمان، تمارس في منطقة التلاقي تلك، نشاطاً تأهلياً ونحويلياً سلطته على تلك النباتات التي نتحدث في شأنها.

ولنوضح الآن نقطة أخرى ذات أهمية: ان المركز الاصلي النباتي لنوع من أنواع النباتات المزروعة لا يتطابق حتماً مع مساحات التغير هذه، والمرتبطة بتدخلات الانسان في المادة النباتية. وبعبارة أخرى فإن المنطقة التي توجد فيها الاسلاف المحتملة للخلف النباتي كثيراً ما تختلف اختلافًا واضحاً عن المنطقة أو المناطق التي ظهر فيها عن طريق تدخل الانسان ذلك الخلف النباتي، هو نبتة ناشئة عن التأهيل والانتقاء والتنوع.

وهذا له على الأقل سبب واحد ينحصر، في العهود القديمة، في تنقل الاسلاف البرية تنقلاً متكرراً خارج مواطنها عندما تستعمل في الجني البسيط (١٨).

فلقد استطاع أحدنا بالنسبة للقارة الافريقية ان يكل الجدول الذي قدمه فافيلوف (١٩) وبذلك نكون قد بينا وجود موطن في غرب افريقيا وآخر في شرقها، فضلاً عن الموطن الحبشي والجزء الافريقي من الموطن البحرىوسطى. على أنه يمكن اعتبار موطن شرقي افريقيا امتداداً للموطن الحبشي في المرتفعات الاستوائية (٢٠).

فاذا ما نحن جمعنا ولخصنا المعطيات المتعلقة بهذه المواطن أو المراكز المختلفة التي هم أصل النباتات المزروعة وتنوعها فإننا نحصل على الجدول التالي:

(١٨) انظر: ج. بارو ١٩٦٢.

(١٩) انظر: ر. برير، ١٩٥٠، ٩، ١٠، ١٩٥١، ٢٣٩ — ٢٤٠.

(٢٠) انظر: في هذا الموضوع ر. شنابل ١٩٥٧.

مركز البحر المتوسط

تربط هذا المركز مجموعة كاملة من النباتات المزروعة التي تمتاز بها مناطق البحر الأبيض المتوسط، من ذلك الحبوب (قمح وشعير خاصة) والخضر ذات الحبوب الصالحة للاستهلاك (الحمص والعدس، والجلبلان والبيقية). وهذه النباتات تدل على وجود قرابة بين هذا المركز ومركز الشرق الأدنى. كما نجد فيه زمرة النباتات المولدة البحر وسطية التي منها الزيتون (الزيتون الأوروبي ل) والخروب. إلا أن البعض من هذه النباتات تختص بها إفريقيا مثل شجر اللوز البربري (أوغانيا سدروكسيلون روم) وهو شجر مغربي يوفر الزيت وصمغ البريد. ويشمل هذا المركز مصر التي لها علاقات واضحة بمركز الشرق الأدنى والتي كان لها تأثير هام في تاريخ الفلاحة وتربية الحيوان بالشمال الأفريقي. فصر تتقاسم مع الشرق الأدنى السوري أصل نبات له أهمية اقتصادية أكيدة وهو البرسيم أو تفل الاسكندرية. وإذا كان هذا الجزء الأفريقي الكائن في وسط سواحل البحر المتوسط لم يقم بدور مباشر في التاريخ الفلاحي لإفريقيا الاستوائية فإنه قد أثر تأثيرا عميقا في الصحراء عندما طرأت عليها فترة مناخية مواتية للتنمية الزراعية والرعي (٢١).

المركز الحبشي

ونجد فيه قرابة نباتية توليدية مع مركز الشرق الأدنى (قمح، شعير، خضر من نوع الحمص والعدس، والجلبلان، والبيقية، إلى غير ذلك)، ومع المراكز الأفريقية (الذرة البيضاء) التي ستكون موضوع حديثنا بعد حين. ويبدو من الواضح أيضا أن النباتات الآتية من آسيا المدارية قد مرت من هذا المركز عند تغلغلها في إفريقيا. على أن هذا المركز كانت له نباتات سولدة يختص بها ومنها شجرة البن العربي وشجرة الموز الحبشي والتف الحبشي والفيزوتيا الحبشي، أو النيجر ذو الحبات الزيتية.

مركز شرق إفريقيا

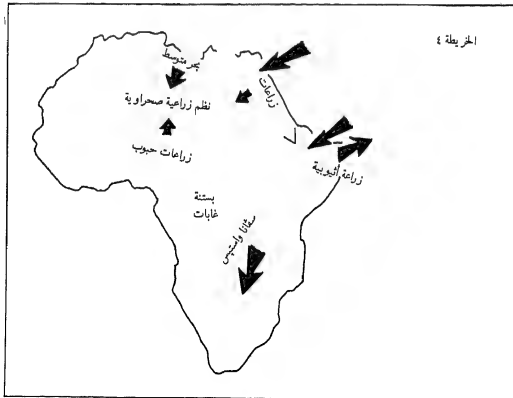
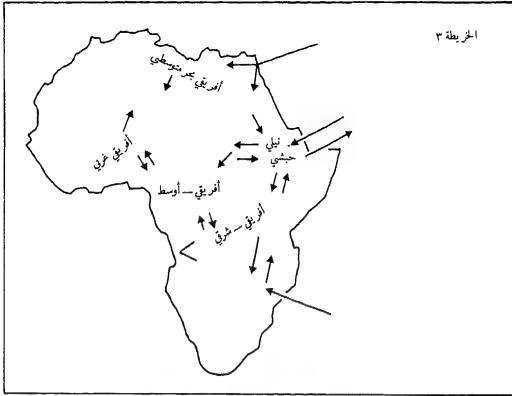
يمتاز بأنواع من الذرة المختلفة ابتداء بالذرة والذرة ذات الشك القلبي والدخن الذي منه الإيليزين كركناغارتن والسسم.

مركز غرب إفريقيا

نجد فيه أصل مختلف أنواع الذرة المشتقة من الذرة المشابهة للقصبة والذرة ذات الشكل القلبي مثل أنواع الذرة الريشية وألحوب (Hubb) أو أيضا الذرة الريشية الغمبية وألحوب وكذلك أنواع من الذرة ذات الشكل القمعي التي منها الإيبورو، والإيبورو القمعية والفونيو والأكسيليس القمعي وكذلك مختلف أنواع الرز التي تستعد إلى التحدث عنها فيما بعد (٢٢). ويمكن لنا أن نميز في نطاق هذا المركز بين قطاعين كبيرين: مداري أولا، ثم ما أسفل المدارين والقطاع المداري ينقسم بدوره إلى فروع عديدة (الفرع السنغالي الغمبي — الفرع النيجيري المركزي — الفرع التشادي النيلي)،

(٢١) انظر: هذا الموضوع، ج. دسموند كلارك، وهو ج. هوغو المذكورين أعلاه.

(٢٢) انظر: د. برينر ١٩٦٢، المذكورين أعلاه.



- الخريطة ٣: المواطن الأول لأنواع الزراعة الأفريقية
- الخريطة ٤: التوزيع الجغرافي العام لأنواع الزراعة في أفريقيا

وكل فرع يتميز بنباتات مزروعة خاصة به، مثل الحبوب، وكذلك نباتات عسقلية مثل الكولويس دازوشيف ونباتات زبينة مثل البوتيرسبروم باركي، والكتشي المعروفة عند علماء النباتات باسم (الفيتلار يا بارادوكسا غارتر).

وترتبط بهذا القطاع المتفرع عن مركز إفريقيا الموجود أسفل خط الاستواء، ترتبط به نباتات الانيام (Ignames) مثل (ديوسكوري كايينانيس لأمك، د. د. وميتوروم باكس، د. روتوندا تاور) وكذلك نباتات ذات بذور زبينة (Elais guineensis Jacq., Telfairia occidentalis Hook) ونباتات منبهة مثل الكولانسيديا (Cola nitida A. Chev.) والحقيقة أن هذا المركز يمتد بآفريقيا الوسطى مثلما تمتد مساحات يتوزع فيها البعض من أنواع النباتات المذكورة أعلاه (الكولا Cola) والكولويس (Coleus) والألياس (Elais) وهناك يوجد أصل (الحبوب الأرضية) مثل الفاندر يا (Vpandzeia subterranea Thon) أما النباتات البقلية الإفريقية الآخر (Kerstingiella geocarpa Harms) فإنه ينتمي إلى مركز غرب إفريقيا.

ويبدو لنا أنه في شرقي المنطقة الغابية الاستوائية أو في جنوبها وقع في البداية تجمع نباتي مولد شبيه بما وصفناه منذ حين بالنسبة لمركز غرب إفريقيا وهو يمتد على رقعة أرضية تشمل هذه المنطقة الغابية وتحاذي في امتدادها مركز شرقي إفريقيا وتحتل تقريباً المنطقة المحيطة بغابات الجني المكثف الذي يبناه سابقاً (٢٣).

المهاد الفلاحية

إن ما تقدم ذكره قد أدى بنا (٢٤) إلى افتراض وجود عدد من المهاد الفلاحية بالقارة الإفريقية وهي مهاد يمكن لنا اليوم أن نعيد النظر في ترتيب قائمتها وهي كما يأتي من الشمال إلى الجنوب (الخريطة رقم ٣).

— المهد الإفريقي البحر وسطي: يمتد من مصر إلى المغرب وهو الذي أثر في المناطق الرعوية والزراعية للصحراء، وكان له عن طريق مصر، تأثير متبادل مع مهد الشرق الأدنى.

— في الغرب: المهد الإفريقي الغربي، بأقسامه المدارية وما تحت خط المدارين.

— في الشرق: المهد النيل الحشبي، بتسميه النيل والحشبي.

— مهد إفريقيا الوسطى: في شرق هذا المهد يوجد المهد الإفريقي الشرقي الذي يمتد غرباً، إلى أنغولا. وفي أقصى الجنوب يبدو أن التكتلات قاوموا طويلاً التأثير الرعوي والزراعي من المهاد التي وصفناها منذ حين وخاصة من مهد شرقي إفريقيا (٢٥) وذلك لأنهم اكتفوا بما لديهم من موارد واحتماوا بخفاف صحراء كالاهاري.

(٢٣) انظر: د. سدوت ١٩٦٨، المذكور أعلاه.

(٢٤) انظر: ر. برتر ١٩٦٢، المذكور أعلاه.

(٢٥) انظر: د. سدوت ١٩٦٨، المذكور أعلاه.



- (١) احراق العشب لاختصاص الأرض — بعد الحريق، منظر من فوتا جالون: بيتاء تيمبي — مدينة (تصوير، بورتي).
- (٢) فلاحه الأرض بالكاديبيند وبواسطة مزارعي الديولا دوسويي (كازامانس)، استعدادا لإعادة غرس الشتلات في أحواض الأرز. (تصوير، بورتي).

الموطن البستاني والموطن الفلاحي

وفي الواقع، فإن مفهوم المهدد يمكن أن يكون غير ناعم إذ أنه لا يخلو، في مستوى ما قبل التاريخ والتاريخ الزراعيين، من شيء من التفتيق. والحقيقة أننا نستطيع على ضوء ما سبق أن نستخرج مجموعة أكثر انسجاماً:

(أ) فالغابة الوسطى (حيث يوجد النظام البيئي المعمم) تصلح كمركز نباتي زراعي ولكننا ونحن هنا قد استعملنا التعبير السيء الذي وضعه كل من ر. ج. برايد وود، وك. أ. ريد (٢٦) ولكننا نفضل أن نطلق اسم (موطن بستي) حيث سمحت إنتاجية القطف في وسط غابي لذلك القطف أن يدوم ونلاحظ هنا أن الكمية النباتية التي أمكن تأهيلها في ذلك الموطن كانت أقل من الكميات الموجودة في الغابات المدارية الرطبة في آسيا أو في أمريكا.

(ب) إن ما يحيط بهذا المركز الغابي من سياسب، أي النظام البيئي الأكثر اختصاصاً، يصلح كموطن فلاحي، منتج للحبوب، ويمتد من غرب إفريقيا إلى شرقها متواصلاً نحو أنغولا.

وفي شمال القارة، أي في الجزء البحر وسطي منها، ظهر بوضوح، عبوراً بمصر، تأثير فلاحية الحبوب التي كانت في مناطق ما بين النهرين بالشرق الأدنى. فلقد تأثرت الصحراء أيضاً في العهد الذي كانت صالحة للفلاحة بهذا الأمر، وهذا ما يفسر انتشار البعض من النباتات بمجنوب الصحراء الحالية وأيضاً انتشار آخر معاكس أي من الجنوب إلى الشمال انطلاقاً من المناطق الأفريقية الموجودة جنوب الصحراء.

ولقد كان تأثير منطقة ما بين النهرين محسوساً في العقل الأثيوبي الذي له بدون شك قرابة بالمركز الفلاحي للسياسب والسهوب، والذي له مميزاته النباتية المولدة الخاصة به.

إن الفرق بين المركز الفلاحي والمركز البستاني هو من جهة سيطرة النباتات ذات العساقل المتعددة في المركز البستاني، ومن جهة أخرى الممارسات الزراعية المتعلقة بالبستنة؛ وذلك أن حقل السياسب والسهوب يقابله بستان الغابة وحواشها.

أما بالنسبة للأدوات الزراعية، فهي متميزة في مجموع القارة الأفريقية باستعمال المجازف والأوتاد للحفر وأنواعها الأخرى. إلا أن المحراث كان مستعملاً في جزء من الموطن الفلاحي المنتج للحبوب، بعد ما استعملته مصر وأثيوبيا.

أنواع البذرة والرز

إن هذا الموطن الفلاحي الأفريقي في النظام البيئي المتخصص نسبياً في السياسب والسهوب، مابين للمركز البستاني في الغابة المدارية، وهو يتميز بما يلي:

- الاستعمال الغالب لإنتاج النباتات المزروعة بواسطة طريقة التلقيح (الحبوب المزروعة).
- أهمية الحبوب في المركب الغذائي النباتي.



• أدوات «السونغ» أو الجاروف لدى قبيلة سيرير غنوبكا، وهم صائدو أسماك وزارعو أرز في جزر «الساحل الصغير» بالسفغال. وتستخدم أداة السونغ في عزق وترصيف التربة الثقيلة في حقول أرز مستنقعات النغروف، وهي تناظر أداة الكاديينه والتي تستخدمها قبائل ديولا بابوت في كازامانس، وأداة الكوني أو الكوب لدى البانغا في ساحل غينيا. (تصوير ر. بوتير).

ان الزراعات التي تطورت في هذا الوطن تستعمل طريقة جميلة مخالفة للطريقة الفردية المعمول بها في الزراعات البستانية بالوطن الغابي. وما لا شك فيه ان حضارات الوطن الفلاحي قد وسعت حقوقها على حساب الغابات عندما اعترضتها في توسعها الترابي. ولقد تمكن هذا التوسع الفلاحي من القيام بدور في تطور عمليات تحويل المناطق الى مساسب، وبتعبير بيثوي، فان تلك العمليات تناسب تخصصاً طرأ على نظم بيئية معقدة، كما لو ان كل شيء قد جعل تلك الحضارات الفلاحية تشكيف مع المحيط الطبيعي بحسب تقنياتها أو بالأحرى بحسب طرق ادراكها لها. وربما حصل مع تغلغل الزراعات في هذا الوسط الغابي، نوع من سوء التكيف كثير أو قليل، من ذلك أنه ربما حدث أن أهملت الحبوب لتعويضها الزراعات الغذائية التي تتميز بها المناطق الغابية، بل ربما حدث أيضاً — وهو افتراض لا يمكن استبعاده — اعتماد نباتات القطف لتكون أساساً لما يقتات به فلاحو السباسب الذين كانوا قديماً ملزمين أثناء نزوحهم على العيش في محيط غابي.

ان الحبوب ظلت رغم ذلك تميز الفلاحة في السباسب والسهوب، ومن تلك الحبوب، رغيا عن أصالة الحبوب الموجودة في مختلف هذه المناطق الفلاحية، نذكر منها حبوب الذرة البيضاء، أو الذرة الكبيرة، التي تعتبر كأنها السمة الخاصة بالنباتات التوليدية المشتركة لمجموع هذا الوطن.

ان أصل هذه الذرة أو بالأحرى أنواعها قد كان، ولمدة طويلة، محل نظريات مختلفة وآراء متناقضة (٢٧) ولكن يبدو ان هذه الأنواع هي حقا واردة أصلاً من إفريقيا. وكانت لها فعلاً — في اطار هذا الوطن الفلاحي الافريقي — جذور مستقلة نذكر منها هنا:

— ان النوع البري أو الذرة المشابهة للقص الذي تغطي مساحته المناطق المدارية الرطبة الممتدة من الرأس الأخضر الى المحيط الهندي، تقابله أنواع الذرة المزروعة في غربي إفريقيا، منها الذرة الشديدة السواد، والذرة اللامعة والذرة الدرمندية والذرة الدرية والذرة الغينية والغمية والذرة الناتئة الى غير ذلك...

— وان النوع البري أو الذرة المذبذبة الموجود بشرق إفريقيا من أريتريا الى جنوب شرقي إفريقيا تقابله مجموعتان من الأنواع المزروعة:

احدهما بالجنوب الشرقي لإفريقيا وهي أنواع الذرة: «كافير» التي منها: الذرة ككفرم والذرة القاسية والذرة الحلوة، وثانيتهما بمناطق النيل والشاد من نيجيريا الى أريتريا، وبها الذرة الزنجية والذرة الذنبية.

— ان الجنس البري أو الذرة الأثيوبية الموجود بأريتريا والحيشة تقابله الذرة الصلبة الموجودة في مناطق النيل الأزرق والذرة المزروعة بنشاد وبالهند وفي كل البقاع الواقعة جنوب الصحراء، والذرة المنحنية الموجودة في مناطق النيل، والذرة الزنجية الموجودة في الدلتا الأوسط لنهر النيجر.

ولنذكر أنه يوجد في مادون الدائرة الكائنة بنيجيريا الوسطى أي في الدائرة المدارية لمهد غربي إفريقيا (انظر أعلاه) نوع خاص من الذرة البيضاء المزروعة أو الذرة العسلية، وهو نوع يستعمل لاعداد مشروبات كحولية (٢٨)، بسبب غناه بالسكّر، فضلاً عن وجود أنواع أخرى من الذرة التي،

(٢٧) انظر: ر. برتر ١٩٦٢ المذكور أعلاه.

(٢٨) انظر: شتايل ١٩٥٧، مصدر مذكور.



- (١) أحواض أرز في تربة هيدرومورفية تتعرض للاغراق الموقت أثناء فصل الأمطار (زراعة الأرز على المطر) إحدى قرى البايوي في نياسا كازامانس (تصوير بوتيير).
- (٢) جزر صناعية لزراعية الأرز في الحقول البالغة الانخفاض الى درجة تحول دون صرف المياه العذبة غينيا - بيساو (تصوير بوتيير).

تستعمل لاعداد (جعة الذرة البيضاء).

وتوجد علاقات واضحة بين مختلف أنواع هذه الذرة المزروعة كما يشهد وجود الذرة (*S. conspicuum*) (من طنجينيقا الى روديسيا الى أنغولا)، وكذلك ذرة (*S. roxburghii*) أوغندا، كينيا، روديسيا، جنوب افريقيا. وهي أنواع متولدة من التلاصق بين أنواع الذرة التي ينتمي البعض منها الى فصيلة الذرة المسماة (*S. arundinaceum*) والبعض الآخر الى الذرة المسماة (*S. vesticilliflorum*) ومن بين هذه الأنواع المذكورة فان ذرة (*S. durra*) تستحق اهتماما خاصا بسبب انتشارها الواسع، من السودان الشرقي الى آسيا والى الهند، ومن منطقة ما بين النهرين الى إيران والى مناطق غوجيرات.

ان ما سبق بيانه لدليل واضح على أهمية هذه الحبوب في الحياة الاقتصادية النباتية للمركز الأفريقي في السباسب والسهوب الافريقية. ويتجاوز مدلول هذه الأهمية إطار القارة الافريقية لأن البعض من أنواع هذه الذرة المزروعة قد بلغت منذ مدة طويلة، مناطق أخرى في العالم. ومن هنا تبدو لنا افريقيا مجموعة من المهاد الفلاحية الأصلية ونوعا من الفسيفساء المكونة من المراكز الأصلية للنباتات المزروعة التي كان للبعض منها أهمية اقتصادية على الصعيد العالمي. بان لطرافة الزراعة الافريقية جوانب أخرى أحدها، وهو من أهمها، يتمثل في زراعة الرز القائمة أساسا على أصناف الرز الافريقية والتي تستحق ان نوليها عنايتنا، وذلك ان هذه الأنواع من الرز هي تابعة للمهد الغربي لافريقيا السابق الذكر، وبصفة أدق هي تابعة للقطاع الفرعي النيجيري الأوسط (الموطن الأولي) وللقطاع الفرعي السنغالي الغامبي (الموطن الثانوي).

ولقد تحدث سترابون منذ العهود القديمة عن الفلاحة الافريقية للرز. وفي القرن الرابع عشر لاحظ الرحالة ابن بطوطة ان النيجر ينتج الرز (٢٩). الا ان هذه الشهادات بقيت مدة طويلة منسية في الوقت الذي كان الناس يعتقدون أن زراعة الرز بأفريقيا كان أصلها الرز الآسيوي (*Oryza sativa* L.) ، ولم تستغنى الفكرة الا حوالي سنة ١٩١٤ فأصبحنا منذ ذلك الوقت نعلم بوجود رز خاص بافريقيا، ويسمى غلابرما شتودل (*O. glaberrima* Steudel) و يتميز بسنبلته الصلبة والمستقيمة وبثمرته الخمر أو السمراء والذي يستغل بالقطف، أو بعد زرعته وتعده بالخدمة. ويبدو أنه من فصيلة الرز المسمى (*O. breviligulata*). التي نجد لها في أجزاء واسعة من افريقيا المدارية (أ. سيف، وأ. روير).

واذا رجعنا الى ما قلناه سابقا حول أعمال فايلوف فاننا نجد فيها توضيحا يباين لصور الرز الافريقي كما اقترحها هذا المهندس الزراعي والعالم للتكوين فيما يتعلق بأصل النباتات المزروعة. فهناك مساحات واسعة للفصائل البرية، وأنواع كثيرة من الرز الافريقي، مع تغلب الخصائص المهيمنة في دلتا النيجر الأوسط (المركز الأولي)، وتنوع كثير، مع ظهور خصائص دنيئة في غمبيا العليا وكزمنس (مركز ثانوي).

وهكذا نلاحظ ابتداء من دلتا النيجر الأوسط، انتشار أنواع الرز الافريقي في كامل الغرب

الافريقي الى حد سواحل غينيا. ومن المؤكد استعمال الرزم من نوع غلابريا، بواسطة الجنبي منذ القديم، ولا شك ان هذا النوع من الحبوب البرية كان لها مكان معتبر في هذه المراكز المتميزة التي كانت تختص بقطف شبه مكثف (انظر أعلاه)، وفيها ابتدأت المراحل التأهيلية. وهذا ما يجعلنا نرى أن تأهيل هذا الرز لا يقل قدما عن الأنواع الأخرى من حبوب افريقيا.

ثم بعد ذلك بكثير أدخلت الأنواع الأخرى من الرز المزروعة بأسيا الى افريقيا (ابتداء من القرن الثامن على السواحل الشرقية، بواسطة العرب؟ وابتداء من القرن السادس عشر على السواحل الغربية عن طريق الأوربيين؟).

ولنستعبر رغم ذلك بأن الآثار النباتية التوليدية التي عدناها الى الآن (اذ لا يسمح لنا هذا المجال الا بتقديم لمحة عامة) تظهر بوضوح امكانية وجود حضارات زراعية نشأت بافريقيا اعتمادا على الموارد النباتية المتوفرة بالبيئة المحلية وبدون أن نتصور بالضرورة وجود تأثيرات خارجية عن افريقيا.

بن افريقيا وآسيا

ان لمن الأكيد (وهذا ما بيناه سابقا) ان موجات انطلقت من المهد الزراعي والرعي للشرق الأدنى قد لعبت دورا هاما في التاريخ القديم للفلاحة الافريقية. وبذلك وجدت من الحشمة الى افريقيا الشمالية مروراً بمصر عن طريق النيل — منطقة يمكن اعتبارها ضمن المنطقة البحر — وسطية القديمة التي عرفها كل من هودر وكورت وهيدن (سنة ١٩٤٣ المذكورين أعلاه). ولكن نجد حتى في هذه المنطقة، مركبات نباتية توليدية افريقية خصصا في أثيوبيا وأيضا في مصر وفي شمال افريقيا.

ان تاريخ العلاقات القديمة بين افريقيا وآسيا هي على غاية من الأهمية وإن كانت مجهولة بعض الشيء. فافريقيا قد أعطت لآسيا نباتات أهلية. وتدل على ذلك أنواع الذرة التي تحدثنا عنها سابقا. الا أن افريقيا لم تقتصر على أن تستمد من آسيا نباتات توليدية واردة من الشرق الأدنى (قمح — شعير)، بل أخذت أيضا نباتات واردة من جنوب شرقي آسيا المدارية، ويبدو من المؤكد فعلا أنه وصل قديما الى أفريقيا — سواء عن طريق سبأ، بجنوب الجزيرة العربية أو عن طريق شمال افريقيا أو بواسطة ملاحين قدامى بلغوا الساحل الجنوبي — أشجار الموز وأشجار النيام الكبيرة (Dioscorea alata) وشجر القلقاس (Colocasia esculenta (L.) Schott) وحتى قصب السكر (Saccarum officinarum L.) ان البعض من هذه النباتات المزروعة الآسيوية الأصل سمحت بغزو زراعي سريع لميدان الغابات المدارية الافريقية.

ولكن لنرجع الى مسألة أنواع الذرة التي توفر لنا أحسن مثال للتبادل بين افريقيا وآسيا (٣٠) ذلك أنه يوجد فعلا بأسيا أنواع من الذرة المزروعة الواردة من افريقيا زيادة على الأنواع التي ذكرناها. فذلك شأن الذرة ذات اللونين الذي يبدو أنه ناشئ عن عملية تلاقح بين نباتات توليدية ناشئة عن الذرة الأثيوبية من جهة ومن أخرى من النوع البري خاصة (الذرة السودانية). وبالنوع

الأول أي الذرة ذات اللونين يمكن أن نلحق خاصة ذرة دخنة (Dochna) الموجودة بالهند. والجزيرة العربية وبورما، والذي أدخل من جديد إلى أفريقيا أخيراً. وكذلك الأمر بالنسبة للذرة التي شكلها شكل الدخن (Mil) الموجود بالهند، ومنها دخلت حديثاً إلى كينيا. وهذا يصدق أيضاً على أنواع الذرة الموجودة بأفريقيا الشرقية. وهناك نوع آخر مزروع وهو الذرة ذات الألياف الكثيرة الذي يبدو أنه ينتمي لفصيلة الذرة الأثيوبية وهما نوعان يبدو أنه ألحقت بهما أنواع موجودة في بورما وفي الصين.

وبدون أن ندخل في الجزئيات المعقدة لهذا الخليط التكويني، فإننا نلاحظ أنه توجد علامات على اتصالات قديمة حصلت بين أنواع الذرة الأفريقية والأنواع الآسيوية. فكل شيء يحمل على الاعتقاد أن علاقات قديمة جداً وتبادلات نباتية قد حصلت بين أفريقيا الشرقية وآسيا وهو ما يؤكد وجود بعض القرابة النباتية التوليدية السابقة للعهد الاستعماري والقادمة من الجنوب الشرقي لآسيا المدارية.

على أننا لا يمكن أن نستبعد إمكانية وجود غزوز زراعي لغاية أفريقيا بفضل وصول نباتات توليدية (أشجار الموز والقلقاس) القادمة من النظام البيئي للمعم وهو الغابة المدارية الرطبة جنوب شرقي آسيا ومن العالم الجزري الهندي، فمن هذا الأخير قدم عن طريق البحر المهاجرون الذين وصلوا — وهم يحملون البعض من نباتاتهم — إلى مدغشقر والسواحل الشرقية لأفريقيا.

وإذا كانت أفريقيا قد أمدت في العصور القديمة العالم الخارجي الشرقي بالنباتات المزروعة، واستمدت منه نباتات أخرى، فيبدو جلياً أنها كانت مدينة له فيما يخص حيواناتها الأهلية فالبعض من خنازير أفريقيا الشرقية يبدو أنه من فصيلة الخنازير التي وقع تأهيلها بآسيا. فمن المؤكد كما يلاحظ لك. رايلي (C. Wrigley) (٣١) أن تربية الحيوان لم تتطور مستقلة في أفريقيا جنوب الصحراء التي لم يكن فيها للحيوانات أي سلف ممكن «للبقر والماعز والغنم المؤهلة»، فهذه الحيوانات قدمت إذن إلى هذا الجزء من أفريقيا وخاصة من مصر عن طريق سهول النيل. ورغم ذلك فإننا نسجل الامكانية الكبيرة في أن البعض من هذه الحيوانات وقع تأهيلها في الجزء الأفريقي من المنطقة البليو بحر وسطية وخصوصاً الأبقار بمصر حيث كان الرجال، فيما يبدو، يصطادون في عهود ما قبل العصر الحجري الجديد أنواعاً عديدة من الأبقار المسماة:

إن هذه النظرة الاجالية التي أعطيناها مكنتنا من أن نتبين أن أفريقيا لم تكن أبداً تلك القارة التي اعتبرناها مدة طويلة تأخذ من الخارج كل ما هو أساسي لتطورها الزراعي والرعي، فمن الأكيد أن أفريقيا لم تكن في العهود السابقة منزلة مغلقة عما يقدمه الخارج، شأنها في ذلك شأن أوروبا وآسيا. ومن الأكيد أيضاً أنها يجزئها الساحلي تتقاسم مع أوروبا وآسيا انتماؤها إلى ميدان بحر وسطي كان له سابقاً تواصل بيئي أكثر مما هو عليه في أيامنا هذه. وعلى كل فإن القارة الأفريقية قد عرفت تطورات في الفلاحة والبستنة مرتكزة على تأهيل النباتات التي كانت تخصص بها والتي استفاد منها العالم سبباً، وخاصة فيما يتعلق بالبعض من النباتات التوليدية وبالأخص أنواع الذرة. وإذا كان الجني والصيد قد بقيا مدة طويلة أساسيين للمعيشة في بعض أجزاء أفريقيا فذلك ليس

راجعا للتأخر، بل هو نتيجة لكثرة وتنوع الموارد الطبيعية التي سمحت للناس بعيش رغيد في نظامهم البيئي بدون أن يضطروا الى تحويله وتأهيله.

الخاتمة

نجد أيضا بجانب القطف في افر يتقيا هذا الشكل من الفلاحة الناشئة التي تتمثل في مساعدة النبات وفصح المجال له بدون تدخل مباشر في انتاجه وتوافره. وهذا الأمر ينطبق حاليا على أنواع من النباتات الغذائية الشبيهة بالأشجار مثل شجر الكولا تبي (Colotier) والكاريتي (Karité) أو النخيل الزيتي. على أننا نجد أيضا في القارة كل درجات التطور البستاني والزراعي، وبإيجاز نجد تنوعا كبيرا في التقنيات الفلاحية التقليدية التي تدخل ضمنها استعمالات ذكية للأرض قصد اعدادها لزراعة الرز الافريقي، وأشكال مختلفة لحفر الأرض واستئصال الأعشاب، وكذلك أساليب زراعية، غابية ورعوية.

إن افر يتقيا تنتمي، من حيث بداية الفلاحة فيها، وتطورها، الى ثلاثة مراكز أو مواطن هامة (خرطة ٤).

المركز الأول: هم شمال القارة من مصر الى المغرب وهو يدخل ضمن المنطقة البحر وسطية. وقد خضع لتأثير واضح أتاه من المهد الزراعي والرعي الموجد بالشرق الأدنى، بالإضافة الى أنه عرف تطورات خاصة به ونابعة منه.

المركز الثاني: هم مجموع المناطق المحيطة بالسباسب والسهوب الكائنة في قلب افر يتقيا الغابي. وهو يتميز بتطور زراعة الحبوب (الذرة البيضاء، والذخن).

وأخيرا المركز الثالث: الذي يشمل الغابة وما حوها والمختص ببستنة لها صلة بالقطف. وهو قطف معتمد على بعض النباتات المزروعة بالغابة.

ولا توجد بين هذه المراكز حواجز منيعة، إذ كثيرا ما تتجاوز في الواحات، الحبوب وأنواع الذرة البيضاء، والذخن، أما في حقول السهوب، فنجد نباتات غذائية قادمة من بساتين المناطق المتاخمة للغابات، وقد أخذت الفلاحة البستانية بدورها النباتات الصالحة للقطف المتوفرة في الغابة المدارية. وهناك مثال آخر يتمثل في أنبوبا التي لها في نطاق رصيدها النباتي الاقتصادي العتيق، نباتات خاصة بها وأخرى قادمة من المنطقة البحر وسطية وأخرى قادمة من المركز الفلاحي للسهوب والسباسب الافريقية وأخرى أخيرا من المناطق الشرقية الخارجة عن افر يتقيا...

فن هذه المواطن يبدو أن أكثرها أهمية ودلالة في تاريخ الفلاحة الافريقية هو موطن السهوب والسباسب، لا سيما في أجزائها المجاورة للغابة، أو للانهار أو المساحات المائية الهامة.

أما فيما يتعلق بضبط الزمان ضبطا دقيقا لما قبل تاريخ الفلاحة الافريقية وتاريخها فالأمر ليس سهلا سيرا. على أننا نعتقد أن الحقبة الخامسة في بداية عمليات التأهيل الافريقية المحضة قد طرأت في السيليسستوسين الأخير (أي بين ٩٠٠٠ و ٥٠٠٠ سنة). ففي ذلك العهد، حصل في محيط الموطن الغابي الأوسط، قطف مكثف، بل حصل نوع من التخصص في القطف، كما تحسن صيد الأسماك في المياه الداخلية، وصاحبه استقرار الأهالي استقرارا نسبيا. وبإيجاز ظهرت ظروف ملائمة للتأهيل.

إنشاء، وإن كنا ننتظر أن يؤيد علم الآثار رأينا أو يفنده، فمع ذلك نعتقد أن كل هذا وقع في الوقت الذي كانت تتكون في الهلال الخصيب بالشرق الأدنى القواعد الرعوية والفلاحية التي أصبحت فيما بعد من بين قواعد الحضارات البيضاء في العالم الأوربي.

• في ٢٠ مارس ١٩٧٣ توفي رولان بورتيير الاستاذ بالمتحف القومي للتاريخ الطبيعي بباريس. وقد كانت اللجنة العلمية الدولية لوضع تاريخ إفريقيا العام قد عهدت إليه بكتابة هذا الفصل المتعلق بأصول التقنيات الفلاحية وتطورها، فقام بوضع مشروع أولي للعمل. إلا أن الموت حال بينه وبين إنجازها كاملاً، فكان مشروعه آخر عمل قام به، وبقي العمل ناقصاً غير تام، وقد اعتمدت على ما نشره رولان بورتيير من مؤلفات عديدة في هذا الميدان وعلى ملاحظاته وأيضاً على عائداتنا العديدة في الموضوع، فتمثلت بكل جهدي على مواصلة عمله وإنجازه، محاولاً أن أبقي وفيًا مخلصاً للاهتمام الكبير الذي كان رولان بورتيير يولييه لطبيعة إفريقيا الجذابة وبلدانها شعوباً وحضارات. ومنها تكون هذه المساهمة ناقصة فانياً تريد أن تكون إهداءً أتقدم به للأستاذ والصديق الذي عمل كثيراً لكي تكون معرفتنا لفلاحة القارة الإفريقية ومزروعاتها، أحسن وأفضل. جاك بارو.

الفصل الثامن والعشرون

اختراع المعادن وانتشارها وتطور النظم الاجتماعية الى القرن الخامس قبل الميلاد

بقلم: ج. فركوتر

لقد لعب وادي النيل دوراً محتملاً في تاريخ أفريقيا العام. فرغم المصاعب التي تسببت فيها الشلالات، وهي مصاعب لا تخلو أحياناً من مبالغة (١)، فإن النيل الذي يبلغ ٦٥٠٠ كلم يشكل وسيلة من وسائل الاتصال والتبادل بين الاقطار من الجنوب الى الشمال، وهي وسيلة لا يمكن أن نهبأون بها. إن وادي النيل إذا أتيت من الشمال، من وراء خط الموازة السادس عشر، وقفار بيوضة غرباً، وبوتانا شرقاً، يدخل مناطق ذات أمطار سنوية، و يفضي بك الى الطريق الافريقي العريض المتجه من الغرب الى الشرق والذي يقود من المحيط الأطلسي الى البحر الأحمر عبوراً بأودية ومنخفضات النيجر وتشاد وأنجاد درفور، وكردفان ثم سهول العظيرة والبركة. وهكذا، بالإضافة الى مزايا محور اتصال متجه من الجنوب الى الشمال، انطلاقاً من البحيرات الاستوائية الى البحر الأبيض المتوسط، توجد مزايا المحور المتجه من الغرب الى الشرق، إذ أن حوض النيل يفتح الطريق الى حوض الكونغو والنيجر والسنغال.

تحتل تلك المنطقة الواسعة الواقعة في الزاوية الشمالية الشرقية من القارة، مكانة أساسية في تاريخ أفريقيا الغابر، وهي لم تستكشف مع الأسف الا قليلاً من حيث آثارها وتاريخها. فإن كان الوادي الاسفل للنيل، ابتداء من الشلال الثاني الى البحر، معروفاً معرفة حسنة، اعتماداً على جهود الاثريين الذين استكشفوا ذلك القسم من الوادي، ابتداء من أوائل القرن التاسع عشر الى يومنا هذا فإن الامر ليس كذلك فيما يتعلق بالوادي الأوسط من النهرين الشلالين الثاني والسادس من

(١) ان كتاب أ. شلو، ١٨٩١ ص ٣٠-٧٣ يعتبر أكثر المؤلفات، تفصيلاً عن الشلالات ومصاعبها الحقيقية وألومية وهو يصف كل شلال ويوفر رسم القنوت التي تصلح فيها للملاحة.

جهة، ولا فيما يتعلق بالوادي الأعلى من جهة أخرى، من الخزطوم الى البحيرات الكبرى، ولا فيما يتعلق على الأخص بالمناطق الصحراوية للنيل وروافده التي لم تستكشف أثرها سواء بالشرق أو بالغرب، والتي لا يعتمد تاريخها الى الآن الا على فرضيات كثيرة ما كانت مرتكزة على مشاهدات غير كافية أو منقوضة كما وكيفا.

وستنتج في عرضنا هذا الترتيب الزمني والترتيب الجغرافي. اننا نميز حقبتين: أولاها من العصر الحجري الجديد الى أوائل الألفية الثالثة التي برزت فيها الوثائق المكتوبة، وبالتالي برز فيها التاريخ بوادي النيل الاسفل. وتلك حقبة سنتعرض فيها، انطلاقا مما هو معروف معرفة حسنة نسبيا الى ما هو مجهول، أي ابتداء من الشمال الى الجنوب، سنتعرض للحضارات التي كانت قائمة على ضفتي النهر. وتشمل الحقبة الثانية أوائل الألفية الثالثة الى حدود القرن الخامس قبل الميلاد، متبعين بالمطل المناطق الجغرافية انطلاقا من الوادي الاسفل الى الوادي الاعلى من النيل.

من العصر الحجري الجديد الى الألفية الثالثة قبل الميلاد

ان تلك الحقبة التي تشمل عموما ألفيتين، من ٥٠٠٠ سنة تقريبا الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، قد شهدت بروز المعدن وانتشاره بوادي النيل، كذلك ظهورالنظم الاجتماعية لأول مرة. فهي حقبة ذات أهمية كبرى، ان لم تكن أهم حقبة من الناحية التاريخية. واذا كنا نعود للحديث عن ثقافات العصر الحجري الجديد بوادي النيل بعد ان درسناها في هذا الكتاب (انظر الفصل الثاني)، ولشرحها بسرعة، دون التوقف عند مظهرها المادي، فلأنه من الصعب أن نتكلم عن القرون المجهولة المتعلقة بابتداء التاريخ النيلي بالألفية الرابعة قبل الميلاد (من ٣٨٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة) دون أن نذكر في نفس الوقت الثقافات التي سبقتها. ولقد أيدت ذلك فعلا كل البحوث الحديثة بالنوبة ومصر تأييدا قويا، ومعنى ذلك ان ظهور المعدن لم يسبب أي انقطاع في التطور العام للحضارات بأفريقيا الشمالية الشرقية، إذ ان ثقافات عصر النحاس هي النتائج الشرعي المباشر لثقافات العصر الحجري الجديد، ويستحيل غالبا ان نميز في عين المكان بين موقع من نهاية العصر الحجري الجديد وموقع من عصر النحاس. ويعتبر الملك الأول من الأسرة المالكة الثبتية من الذرية الشرعية لرؤساء الاجناس الاخيرة من العصر الحجري الجديد، كما ان الفراعنة الكبار من العهد الطيبي هم ذرية ملوك الامبراطورية المفية.

وادي النيل الاسفل، من ٤٥٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٢)

ان التنظيم الاجتماعي الذي نراه بل الذي نتصوره قائما بواد النيل الأسفل من مصر منذ ٣٠٠٠ سنة

(٢) فيما يتعلق بمصر بالذات، قبل المهددين من العصر الحجري الجديد وعصر النحاس اللذين تطورت فيها النظم الاجتماعية الاولى، انظر الكتاب المتأثر ل. د. ك. هابس، ١٩٦٥. فهنا الكتاب الذي نشر بعد موت صاحبه والذي طبعه ك. سيل، يشمل فصلا كاملا عن تكون مصر ح. ١٠٠٠ مع مراجع تحليلية كثيرة في ص ٢٩-٤١.

قبل الميلاد، هوبقيتنا نتيجة تقنيات فرضها الري من أجل استصلاح وادي النيل زراعياً. إن استمالك الإنسان للوادي قد ابتدأ من العصر الحجري الجديد، واستمر تطوره حتى ظهور نظام ملكي.

ولقد قال هيرودوت، وردد بعده كثيرون ما يلي: «إن مصر هبة من هبات النيل». فنذ بداية العهد التاريخي، عندما كانت عملية التجفيف بأفريقيا الصحراوية، من المحيط الاطلسي الى البحر الاحمر، قد أخذت تكتمل، ما كانت مصريومئذ لتعيش لولا الفيضان السنوي الذي يطرأ على النهر، فبدونه تصبح قفراً مثل الصحراء نفسها أو مثل النقب. إلا أن تلك الهبة التي وفرها لها النهر وأمدّها بالحياة، يمكن أن تكون هبة مسمومة. ففي السنة الثالثة من أزركون (Osorkon). الثالث (٧٥٤) سنة قبل الميلاد) كان الفيضان على غاية من الشدة حتى أتى على كل سد، و«أصبحت معابد طيبة كلها تشبه المستنقع». وتضرع كاهن آمون الى الله كي يمنع المياه من الارتفاع. وتجددت نفس الكارثة في السنة السادسة من تحرق (Taharqa) (٦٤٣ سنة قبل الميلاد) عندما «استحال الوادي الى محيط»، وإن كان الملك قد أول تلك الظاهرة، حرصاً منه على شعبيته، على أساس أنها بركة من بركات السماء.

إن ارتفاع المياه يكون إما غير منتظم أو شديداً جداً أو ضعيفاً جداً ولا يبلغ إلا نادراً ما هو مستحب (٣). فلقد لوحظت، من ١٨٧١ الى ١٩٠٠ ثلاثة ارتفاعات سيئة، وثلاثة رديئة، وعشرة طيبة، وأحدى عشر وافرّة فوق اللزوم، وثلاثة خطيرة. وهكذا، فن أصل ٣٠ فيضانا، كانت عشرة منها مفيدة. (٤).

إن تاريخ الحضارة بأفريقيا النيلية هي حضارة «تطويع» الإنسان للنهر، اذ صبح التعبير، ولقد اعتمد في ذلك التطويع على وضع سدود أو رفع حواجز ترابية، منها ما هو مواز لمجري النهر، ومنها ما هو عمودي له. إن تلك التدابير سمحت بتكوين أحواض تتجمع به المياه وتقلل من أخطار الفيضان، وتتحكم فيه وتصرفه الى أراض قد لا يلفها إن ترك لحاله.

إن هذا النظام المعتمد على خبرة طويلة، لم يستقر إلا تدريجياً، (٥) لأن أحواض التجميع تستوجب لتكون مجدية، إن تبنّا منهاجياً في البلاد كلها، وعلى الأقلّ بمناطق شاسعة فهي تفترض إذن اتفاقاً مسبقاً بين عدد كبير من الناس للقيام بعمل جماعي. وذلك كان شأن أصل النظم الاجتماعية الأولى بوادي النيل، اذ تجمعت أجناس حول مركز فلاحي قروي أولاً، ثم تجمعت مراكز قروية عديدة كونت في نهاية الأمر مجموعتين سياسيتين أكبر منها، أحدهما بالجنوب والأخرى بالشمال (٦).

(٣) انظر في شأن أخطار الفيضان: ج. بيزنسون، ص ٧٨-٨١.

(٤) نفس المرجع، ص ٨٢-٨٣، المراجع ص ٣٨٧-٣٨٨.

(٥) إن المؤلفات العامة المتعلقة بالري يصعب ما أشراف، المشاكل التي طرستها ظهور الري بمصر وتطوره المتدرج وفي كتاب بيزنسون السابق الذكر (ص ١٧٨-١٧٩) وصف لهذا النظام وكذلك في كتاب ف. هارتمان، ١٩٢٣ (ص ١١٣-١١٨)، وكتاب كز زيانكا، ١٩٧٧ وهو يبين حقبة ري طبيعية (ص ٥٢-١٢٣) وحقبة ري مراقبة (نفس المرجع ص ١٢٧-١٢٨) ولقد ابتدأت الحقبة الأخيرة في الجزري (النكادي ٢) انظر نفس المرجع ص ١٣٧ أي حوالي ٣٠٧٠ ± ٢٩٠، انظر في شأن ذلك التاريخ ن. أ. وردتسم، ١٩٧٢، ١٩٧٢ ص ٥.

(٦) ١٩٦٧، ص ٢٥٤-٢٥٧.

إن الوثائق المتوفرة لدينا عن تلك الحقبة من ٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد لا تسمح بتحديد طبيعة النظام الاجتماعي الذي يعتبر أساس احتلال السكان للأرض واستصلاح وادي النيل الأسفل. ونعتبر لفظ «جنس» الذي سبق أن استعملناه «خاطئا» إذ ليس هناك ما يؤيد وجود مجموعات من الاجناس في ذلك العهد متنوعة في وادي النيل، في حين أنه ثبت وجود مجموعات سياسية أو سياسية دينية. فالدليل الوحيد المتوفر لدينا يعتمد على تمثيل معالم نذرية لها أحجام صغيرة، ومن ذلك لوحات الحضاب وهراوات طقوسية من أصل سحري ديني. إن تلك الوثائق لا تعكس اجمالا إلا الحالة السائدة في أواخر هذا العهد، عند الاجيال الاخيرة من نهاية الألفية الرابعة (٧) على أن النظام الاجتماعي الذي نتلمحه من خلال تلك الوثائق لم يتطور بتاتا طيلة الألفيتين من تلك الحقبة.

إن بداية التاريخ المكتوب توافق اجمالا اندماج المجموعتين من الجنوب والشمال ضمن نظام واحد تحت سلطة ملك واحد. وبذلك تتكون لدينا صورة اجمالية عن تاريخ وادي النيل الأسفل، من ٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وهوتاريخ يتميز كما نرى لا بظهور المعدن فحسب — وهو في الواقع ظاهرة ثانوية — بل يتميز على الأخص باستيلاء الانسان على مجموع الوادي. إن ذلك الاستيلاء قد استوجب، بقطع النظر عن تهيئة السدود والحواجز لتجميع المياه، استرجع بسط الأرض حتى لا يركد بها الماء في قعرها وحتى ينتشر من جهة أخرى لكي تتوسع مساحة الأراضي الصالحة للزراعة من الوادي، وذلك ما يمثل انتصار الفلاح على الطبيعة القاسية، رغم كل ما قيل في شأنها.

العصر الحجري الجديد

يوجد في الفصل ٢٥ من هذا المجلد، وصف مفصل عن الجانب المادي لمختلف «الثقافات» أو «الآفاق الثقافية» التي تشكل شبكة التطور الاجتماعي لتلك الثقافات المجموعة تحت مصطلحين عامين هما «العصر الحجري الجديد» و«ما قبل عهد الملوك» وذلك بوادي النيل، في السودان وفي مصر. ولقد اقتصرنا في الصفحات الموالية على استخراج الجوانب الاجتماعية والتطور التاريخي لتلك الثقافات، لأن العصر الحجري الجديد وعهد ما قبل الملوك يشكلان بوادي النيل «تواصلًا» ثقافيا. و يكفينا مثالا على ذلك أن «البدري» الذي سجل بالتفصيل في الفصل ٢٥ السابق، ليس إلا مرحلة ضمن تطور ثقافة هي جزء من «التاسي» (انظر نفس المرجع ص ١٢ — ١٣) وينتهي إلى «النكادي ٢» (انظر نفس المرجع ص ١٤ — ١٥) وإلى المجتمعات «ما قبل الثينية».

وبعبارة أخرى فإننا نقدم هنا وبصفة تحليلية في الفصل ٢٥ السابق و يعتبر الوجهان من القضايا المطروحة متكاملين. وقد وضعنا بين معقوفين المراجع الضرورية التي تسمح للقارئ بأن يعثر بسرعة على الوصف المفصل «للتقافات» التي لا تذكر بهذا الفصل إلا ذكرًا عاما جدا.

لا تعرف الحقبة الحجرية الجديدة بمصر إلا بالاعتماد على عدد قليل من المواقع التي لم تكن أحيانا متعاصرة. ويحتمل أقدمها ضفاف منخفض الفيوم (= الفيومي ب - الفصل ٢٥) بغري الوادي بمصر الوسطى (٨). وتعرف مواقع مرمدة - بني سلامة (٩) (المرمدي، الفصل ٢٥) بالدلتا الغربية على حافة الصحراء وعلى بعد ٥٠ كلم تقريبا من الشمال الغربي للقاهرة وموقع العمري (١٠) (= العمري (أ) و (ب) الفصل ٢٥) قرب القاهرة على مقربة من حلوان وبمصر الوسطى وصعيد مصر نجد مواقع دير تاسة، بالجنوب الشرقي من أسيوط، ومواقع أقل أهمية بتبخ وأرمان سبلان، بمنطقة طيبة (١١). ان المقارنات الممكنة بين تلك المواقع سبعا الى ضبط طبيعة وانتشار مختلف مظاهر العصر الحجري التي تمثلها منه، تصبح عسيرة أكثر نظرا الى أنها ليست متعاصرة. ان التحليلات بالكربون ١٤ تفيد ان أقدمها وهو موقع الفيوم (أ) يعود الى 4400 ± 1800 سنة قبل الميلاد، ثم تليه مواقع مرمدة - بني سلامة 4100 ± 1800 وموقع العمري 3300 ± 2200 وأخيرا موقع تاسة الذي يعود الى نهاية العصر الحجري الجديد (١٢).

ان المواقع المحفورة تفيدنا بعبارة أخرى بملومات عن بدايات العصر الحجري الجديد بالفيوم والدلتا من جهة. وعن انتهاء تلك الحقبة من جهة أخرى وذلك بالطرف الجنوبي من الدلتا وبمصر الوسطى، الا اننا لا نعرف من 4000 الى 3300 سنة قبل الميلاد، أي طيلة ٧ قرون، الا قليلا عن التطور العام للعصر الحجري الجديد في مجموعه. وذلك شأن المنطقة الممتدة في الجنوب من مصر الوسطى. ان المكتشفات السطحية في ضواحي الوادي وبالصحراء عديدة. وتدل في الواقع على ما يسمى «الفاصل الرطب» أو «العصر الحجري الجديد دون المطر» (١٣) الطارئ في نهاية الألفية السادسة وهو يدل على توقف طرأ على عملية التجفيف المناخي بافر يقيا الشمالية الشرقية. لكن تلك المكتشفات لا تجربنا كثيرا لانعدام حفريات شاملة تشمل الثقافات الحجرية التي تعتبر من آثارها الباقية. ان الدراسات الثمرة الوحيدة هي الدراسات التي تعتمد المواقع المحفورة حفرا جيدا والتي ذكرناها. والملاحظ ان ان استكشاف تلك المواقع قد ترك مناطق شاسعة تمتد زمانا ومكانا اعدادا كبيرا، فبقيت مجهولة، وهذا ما يؤسف له، خاصة أنه يعتقد بأن «الثورة» الحجرية الجديدة قد أتت مصر من الشرق الأوسط السوري الفلسطيني أي من الهلال الخصيب حيث كانت موجودة منذ القدم، ولذلك كان ابتداء العصر الحجري الجديد في أرمجة قد أرخ بـ 6800 سنة قبل الميلاد، أي قبل العصر الحجري الجديد بالفيوم بكثير ومن أجل إقامة الدليل على ان العصر الحجري الجديد بوادي

(٨) انظر فيا يتعلق بالعصر الحجري الجديد، و. ك. هابس ١٩٦٥ ص ٩٣-٩٩، و ص ١٣٩-١٤٠ ونضيف اليه ملاحظات. ض. وندور. و. سعيد، وشيلد، ص ١١٦١ - ١١٧١.

(٩) انظر في شأن مرمدة - بني سلامة، و. ك. هابس، ص ١٠٣ - ١١٦ و ١٤١-١٤٣، يضاف اليه قبا يخص الحرف، ل. جلمر ١٩٦٢، ص ٣ وما بعدها.

(١٠) انظر و. ك. هابس ١٩٦٥ ص ١١٧ - ١٢٢ و ١٤٣ - ١٤٤.

(١١) لم تتوفر لنا مع الأسف قبا يخص صعيد مصر ملاحظات ومراجع و. ك. هابس التقدمة أي مصر المتينة جدا لأن هذا الكتاب لم يكتمل بعد موت مؤلفه (انظر ١ س ص ١٤٨ رقم ١) ويمكن أن نعود الى ملاحظات ج. فانديني ١٩٥٢ ص ١٦٦ - ١٨٠.

(١٢) انظر ج. برنت في شأن العصر الحجري «التاسي»، ١٩٣٧ ص ٥-٣٣، انظر: في شأن التاريخ وف. لبي، ١٩٥٥ ص ٧٧ - ٧٨.

(١٣) يوتز، ١٩٦٤، ص ٤٤٩ - ٤٥٣ و ج. كيب، ١٩٧٤، ص ٢٢٢.

النيل ولاسيما بالدلتا والفيوم أتى من آسيا وجب أن نعرف المواقع الموجودة بالتخوم البحرية و بالقسم الشرقي من الدلتا، إلى منفيس، وتلك بالضبط مناطق مجهولة بالنسبة إلينا. فينتج عن ذلك أن الرأي الذي يقول بالأصل الآسيوي للعصر الحجري الجديد المصري سيطل من باب الفرضيات (١٤).
ان تلك الفرضية تستوجب إقامة الدليل، خاصة اذا عرفنا ان البحوث التي جرت بالصحراء في العقد الأخير من السنين، قد بينت بأن العصر الحجري الجديد قد استقر بها أيضا منذ عهد بعيد، لا سيما في الهفناحيث ان موقع أمكني يكاد يكون معاصرا للأريحي الطاريء في بداية التاريخ (١٥). ونلاحظ من جهة أخرى ان توار يخ ذلك العصر الحجري الجديد الصحراوي السوداني كانت سابقة لتوار يخ العصر الحجري الجديد المصري، على الأقل فيما يتعلق بالمناجم المؤرخة حاليا في الفيوم ومرددة بني سلامة (١٦) وكذلك سابقة لمناجم العصر الحجري الجديد النوبي (١٧). وربما ظهر الفخار مبكرا بالنوبة قبل مصر (١٨) اذا أخذنا دائما بالاعتبار المعلومات المتوفرة لدينا الآن.

لا نستبعد إذن، نظرا الى أقدمية العصر الحجري الجديد الصحراوي السوداني ان يكون العصر الحجري الجديد بوادي النيل، في مصر وكذلك بالنوبة، منحدرا من ذلك العصر الحجري الجديد الافريقي. وبالطبع ينبغي أن نكون حذرين نظرا الى قلة، بل ندرة المواقع الحجرية الجديدة في وادي النيل الاسفل بمصر من جهة، ونظر الى أن شواطئ النهر بالنوبة كانت الأماكن الوحيدة التي استكشفت استكشافا حسنا. ولم يحصل ذلك الا بين الشلال الاول وجنوب الشلال الثاني. ان الجاشية التي تمتد بين وادي النهر والصحراء الشرقية مازالت مجهولة من الوجهة الأثرية وذلك يعني أن التأثيرات التي طرأت في القابسي والايبيرو—موروسي انطلاقا من افريقيا الشمالية نحو النوبة، وفي السبيلي والعصر الحجري القديم الوسيط بافريقيا الوسطى دائما نحو النوبة (١٩)، قد دامت الى بداية العصر الحجري الجديد. ونظرا الى أن الدلتا المصرية كانت تعتبر ملتقى طرق عديدة، لذلك فقد يكون من البديهي ان تستقطب تأثيرات أتتها من الغرب ومن الجنوب وكذلك من الشرق والشمال الشرقي.

ونلاحظ تميزا ثقافيا بين مجموعة الشمال ومجموعة الجنوب، ههنا ظهور العصر الحجري بوادي النيل الاسفل. ان المجموعتين من السكان كانتا تتألفان من الفلاحين ومربي الماشية الذين كانوا يتعاطون صيد الأسماك والقتص، الا ان الأدوات التي تركوها كانت مختلفة قليلا من مجموعة الى أخرى في طبيعتها وكمها وكيفها (انظر فصل ٢٥) وكذلك الشأن بالنسبة لبعض العوائل.

(١٤) ان السيدة أ. بومغرت لما درست مشكلة أصل الاستيطان المصري في ما قبل عهد الملك دحضت سنة ١٩٥٥ إمكانية الأصل الغربي والشمالي والشرقي (انظر: أ. بومغرت ١٩٥٥ ص ١٩)، ان الأعمال الحديثة التي قام بها أثر يون بالصحراء (انظر: أدناه) بينت ان هذا الموقف يحتاج الى تعديل فيما يتعلق بالغرب وان كان صالحا فيما يتعلق بالشرق.

(١٥) ج. كسب، ١٩٧٤ ص ٢٢٤ ونفس المرجع، ١٩٦٨، توث أمكني بـ ٦٧٠٠ سنة قبل عهدنا، وبداية العصر الحجري الجديد بـ ٦٨٠٠ سنة قبل عهدنا.

(١٦) هـ. ندرسمر، س ج أ ١٩٧٢ ص ٥.

(١٧) نفس المرجع ص ٨ — ١٦ — ١٧ و ٢٥١.

(١٨) فوندورف ١٩٦٨ ١٠٥٣ تظهر الفخار بالنوبة في الشرقي سنة ٥٧٥٠ قبل الميلاد ولم يظهر بالفيوم الا سنة ٦٣٩١ قبل الحاضر أي ٤٤٠٠ سنة قبل عهدنا.

(١٩) المرجع نفسه ص ١٠٥٥ شكل ٨.

وفي الشمال، تدل المنازل المجمعّة تجمعاً حسناً على بنية اجتماعية بلغت حد التنبسط. وكان الموقى يدفعون في القرى بطريقة تنفيذ بأنهم مازالوا ينتسبون الى مجموعة منظمة (٢٠). أما في الجنوب، فقد كانت الأضرحة تحفر على حافة الصحراء، ويبدو أنه كان يحافظ على نظام الأسرة أكثر مما في الشمال، كما تدل على ذلك مجموعات السكنية المبعثرة. ويظهر الاختلاف أيضاً بين التقنيات المستعملة في المكنائين. فالشمال يعتمد تحت الحجارة تحتاً رقيقاً، وابتداءً صناعاً يصنعون أواني حجرية، مولدين بذلك تقنية ستكون من أخص خصائص مصر الفرعونية العتيقة. أما فيما يتعلق بالفخار فلئن عرف الشمال تنوعاً كبيراً في الأشكال، فإن الجنوب قد تميز بتقنية حسنة في الصنع. وهنا يظهر فعلاً بجانب الحزف الأسود ذي التزيين الأبيض، فخار رائع آخر ذو حاشية سوداء سيورث مصر ما قبل عهد الملوك ومصر العتيقة، صناعة يخص بها وادي النيل، والسودان ومصر. وهكذا توضح منذ العصر الحجري الجديد الفارقة بين مجموعتين ثقافيتين، وربما أيضاً، بين نظامين اجتماعيين: فمن حيث المكان توجد احدهما حول منطقة منفيس — الفيوم والطرف الشمالي الغربي من الدلتا. والاخرى موجودة بمصر الوسطى وصعيد مصر، بين أسبوط وطيبة (٢١). وسيوضح ذلك الاختلاف الثقافي الذي لا يمنع في الحقيقة وجود التقارب بين المجموعتين، وذلك طيلة القرون الأخيرة من الألفية الرابعة قبل ان ينصهرا في حضارة لها خصائص مشتركة قبيل ظهور الملكية الموحدة بوادي النيل المصري، نحو ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٢٢).

عهد ما قبل الملوك

كثيراً ما وصف عهد ما قبل الملوك المصري بعصر النحاس، كأن ظهور المعدن يدل على حدث أساسي، وعلى انقلاب حقيقي في تطور الوادي. ولكن الواقع يقر — وذلك ما يستوجب التأكيد — بأنه لا يوجد انقطاع بين العصر الحجري الجديد وعصر النحاس بوادي النيل الأسفل بل العكس هو الصحيح: فإن تواصل التطور كان واضحاً. ولذلك نفضل الاحتفاظ بمصطلح عهد ما قبل الملوك لوصف تلك القرون المجهولة التي لها أهمية أساسية في تاريخ أفريقيا.

لقد كان ظهور المعدن بأفريقيا بطيئاً ولا يبدو أنه من عمل الغزاة. وخلافاً لما جرى بمحضارات أخرى، فإن النحاس ظهر قبل الذهب (٢٣) وإن كان من السهل العثور على الذهب الخام بتناجم قرب الوادي. وظهرت الأدوات النحاسية ذات الاحجام الصغيرة بالمجموعة الجنوبية بموقع بدري الذي اليه ينسب البدري (٢٤)، وظهرت بالمجموعة الشمالية في دومة وقصر مارون وخمسمة الذهب

(٢٠) هـ. جنكر، ١٩٣٠ ص ٣٦-٤٧، انظر فيما يتعلق بالمراجع الكاملة، الفصل ٢٥ أعلاه.

(٢١) نلاحظ ان المجموعة الشمالية لا تحاذي البحر، فهي أيضاً «برية» مثل مجموعة الجنوب (انظر: ج. ل. سنغال، ١٩٧٣، خريطة أ، ص ٥٠).

(٢٢) ج. فركونر، ١٩٦٧، ص ٢٥٠ — ٢٥٣.

(٢٣) انظر أ. لوكا، ١٩٦٢، ص ١٩٩ — ٢٠٠.

(٢٤) انظر الفصل ٢٥. وكثيراً ما درست الحضارة البدرية (انظر المراجع أسفله) ويعتبر كتاب ج. برتن الكتاب الاساسي لدراستها وكذلك ج. كمن، لندن ١٩٢٨، الذي يعتبر مكملاً لكتاب ج. برتن ١٩٤٨، الفصل ٦.

بالفيوم، وتسمى تلك المجموعة من المواقع بالفيومي تمييزاً من فيوم العصر الحجري الجديد أو فيوم (ب).

إن أصل عدانة النحاس بمصر ما زال على نظر (٢٥). ويمكن أن تكون قد أتت من الخارج أي من الشرق الأوسط. فإن كان الأمر كذلك، فإنه قد حدث بصفة محدودة جداً. فلا يمكن لنا أن نترك الفرضية القائلة بالتوافق، أي أن بعض سكان وادي النيل اكتشفوا بأنفسهم المعدن تقريباً في نفس الوقت الذي اكتشف فيه «بالهلال الخصيب». وفعلاً فقد كان السكان البدريون قد اكتشفوا في نفس العهد ولعل ذلك على سبيل المصادفة، الميناء الأزرق، وذلك بتسخين الأرحية أو اللوحات التي قد هرس فيها خضاب العيون، وهو خضاب يعتمد الدهن (مالاشيت) وهو معدن من النحاس (٢٦)، وهكذا نستطيع أن نقول بأن سكان الوادي اكتشفوا في نفس الوقت النحاس الذي كانوا يستخدمونه، وهو بارد، وهو ما نسميه «الخرف المصري» أي الميناء الأزرق، فأخذوا يستعملونه لصنع اللؤلؤ.

ومهما كان أصل المعدن الآسيوي أو الأهملي فإن استعماله كان محدوداً جداً وظلت الأدوات الحجرية أكثر رواجاً سواء بالمجموعة الجنوبية أو بالمجموعة الشمالية. ومن المؤكد أن اكتشاف المعدن وانتشاره لم يبدل شيئاً يذكر من التنظيم الاجتماعي الذي يمكن أن نتصوره اعتماداً على تنظيم الأضرحة.

ينقسم عهد ما قبل الملوك، من ٤٠٠٠ تقريباً إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، إلى أربع مراحل تساعد على رسم تطور الوادي طيلة ذلك العهد الذي مازال مجهولاً جداً مع الأسف. فنميز العهد التالي: ما قبل الملوك البدائي، والقديم، والوسيط، والمتأخر.

في عهد ما قبل الملوك (= البدري، الفصل ٢٥) ظلت المجموعتان الجنوبية والشمالية تتطوران كل واحدة من جهتها. ولقد عرفت تلك المرحلة بالجنوب اعتماداً على موقع بدري الذي يوجد قرب دير تاسة. ورغم ظهور المعدن، كان البدري (٢٧) مازال قريباً من العصر الحجري الجديد حتى تساعلنا أحياناً أن كانت تلك الثقافة مظهرها محلياً بسيطاً متغيراً من الناسي الحجري الجديد. إن دراسة الهياكل تبين من الناحية الجسمية أن البدرين من عهد ما قبل الملوك البدائي كانوا قريين من المصريين القاطنين حالياً بنفس المنطقة. ولقد ظل السكان يقيمون بأكوخ بيضوية الشكل، وقد توفرت لهم مرافق الراحة أكثر مما كان الحال في العهد السابق، فكانوا يستعملون حصيرات منسوجة، ووسادات من الجلد وحتى أسرة من خشب. وكانت طقوس الموت قد تطورت: فكانت الجثة معزولة بفاصلة خشبية في القبر البيضوي الشكل الذي توضع فيه. ولقد كان البدريون مثل أهل العصر الحجري الجديد الناسي، يزرعون الكتان وينسجونه، مع استعمال الجلد الحاصل من الصيد ومن تربية الماشية. وكانوا يعتمدون اقتصاداً مزدوجاً: فلقد أصبحوا فلاحين

(٢٥) انظر أ. لوکا، ص ٢٠١-٢٠٦. وحول أصل عدانة النحاس في الشرق الأوسط القديم، انظر ج. فوربس، ١٩٦٤، ص ١٦.

٢٣. أما الاسم المبروغلتي للنحاس، فلم يجدد إلا حديثاً. انظر ج. ر. هاريس، ١٩٦١، ص ٥٠-٦٢.

(٢٦) أ. لوکا، ١٩٦١، ص ٢٠١.

(٢٧) المؤلفات الأساسية المخصصة لتلك الحضارة لا تزال هي مؤلفات ج. برنتن، ١٩٢٨، ص ١-٤٢، ١٩٣٧، ص ٣٣-٦٦، ١٩٤٨، ص ٤-١١.

ومر بين الماشية الا أنهم كانوا يقومون أيضا برحلات للصيد وصيد الأسماك. وظلوا يصنعون الأواني الحمراء والخزف الجميل الأحمر والجيد الصقل. ولقد مكن اكتشاف الميئاء الصنعة من صناعة اللآلي ذات اللون الأزرق الفاقع وكان خضاب العيون يهرس على لوحات من الشيست كان بعضها يزوق مثلها كان شأن الأمشاط العاجية وعلى هذا الأساس ابتدأ الفن ينشأ شيئاً فشيئاً.

ان عهد ما قبل الملوك البدائي (= الفيومي أ، الفصل ٢٥، يمكن أن تنتسب أحدث طبقة بمرمدة بن سلامة اليه)، يعرف بمجموعة الشمال اعتماداً على مواقع الفيوم (أ) (٢٨). فاستعمال الصوان فيه مُطَرِّدٌ أكثر من استعمال المعدن لصنع الأدوات مثلها هو الشأن بالبديري. وكان صُتَاع فخار الفيوم (ب) ينتجون أنواعاً من أشكال الأواني أكثر من صُتَاع البديري، الا أن تقنيتهما كانت أقل جودة. والملاحظ أن الصانع من الشمال يتفوق من جديد على الصانع من الجنوب، وذلك بنحت أوعية وأوان حجرية رائعة، من الشيست الأسود خاصة. وتعتبر المجموعتان متقاربتين فيما تبقى، ولا يمثل كل واحد منها الا تطوراً عادياً قد طرأ على الثقافة الحجرية الجديدة التي سبقتها بعين المكان. فلا يوجد ما يدل على أنه حصلت باحدى المجموعتين، اختلافات محسوسة بين أعضائهما، ولا يبدو خاصة أنه وجد ضمن المجموعة أشخاص أغنى من غيرهم، فكل شيء يجري كما لو أن المساواة في مستوى القانون الاجتماعي قائمة بين مختلف أعضاء الجماعة، مهما كانت أعمارهم وأجناسهم. ويصدق هذا بالطبع بعدما ثبت أن المقابر المعروفة والمحفورة هي مقابر المجموعة الانسانية المعنية بالأمر بأكملها. وذلك يعني بعبارة أخرى أن بعض أعضاء تلك المجموعة لم يدفنوا خارج تلك المقابر على أساس التمييز بحسب الجنس أو الدين أو المنزلة الاجتماعية.

ان عهد ما قبل الملوك القديم (= النجادي ١، الفصل ٢٥) ليس معروفاً مع الأسف الا بالاعتماد على مواقع الجنوب، وهو يسمى أيضاً بالأمريسي، نسبة الى المكان، وهو الأمر (٢٩) قرب أبيدوس، في ناحية الجنوب، وهو أبعد من بديري. ان الأمريسي يوافق ما يعرف أحياناً بثقافة نجادة ١، حسب تسمية فنلدرس بترى المعتمدة على الخصوص في التاريخ بالكربون ١٤.

ان الشقافة الأمريسية منحذرة زمنياً من الثقافة البديرية، دون أن يكون انقطاع بينها أيضاً، ويكون مستوى الأمريسي متصلاً اتصالاً مباشراً بمستوى البديري وذلك في بعض المواقع. ولقد كانت تلك الشقافة تنتج دائماً الفخار الأحمر الجميل ذا الحاشية السوداء، الذي أنتجته الثقافة السابقة لها. لكنها تنتج الفخار المزرق برسوم هندسية وطبيعية، مدهونة بالأبيض الكامد، على خلفية حمراء، وبنية حمراء. ويكون التزويق محتوياً على حزرات يملأها بياض على خلفية سوداء. ولقد كان صانع الفخار الأمريسي يبدع أكثر من سابقه البديري. فاخترع أشكالاً جديدة تمثل خاصة الحيوانات ولعب الصيد دوراً مهماً في مواضيع التزويق الطبيعية، لا سيما صيد فرس البحر. ويبدو أن الانتقال في عهد ما قبل الملوك القديم من نظام اجتماعي مكون من قناصين وصيادي أسماك رحل، الى نظام قرى أو مجموعات من الفلاحين المربين للماشية المستقرين لم يكن مكتملاً بعد.

(٢٨) لك. كتن تمسن، ١٩٣٤.

(٢٩) انظر: ج. فنديني، ١٩٥٢، ص ٢٣١-٢٣٢. ولقد اكتشف الموقع سنة ١٩٠٠. ونشر عنه رندل ماسيفر، وأ. ك. ماسي،

١٩٠٢، ص ٣-٥٣.

ويجب أن نلاحظ أن السلاح الذي يختص به الأمريسي هو الهراوة التي كثيرا ما تكون منحوتة من الحجر الصلب، ولها شكل جذع غروط (٣٠) وذلك أمر مهم لأن ذلك السلاح سيفضل تماما بعد الأمريسي. وكان رمزا من رموز النظام الهيرغليني، وقد أعطى لها في العهد التاريخي صوة صوتية (٣١). وذلك يعني أن نظام الكتابة الهيرغلينية ابتداء يتكون بالعهدة الأمريسي، أي بعهد ما قبل الملوك القديم، في حوالي ٣٨٠٠ سنة (وهو تاريخ وفرة الكربون ١٤).

وظل الفن يتطور فظهرت عندئذ التماثيل الصغيرة لرجال ذوي لحى، وهم يحملون علبه قضيبية، أو لنساء راقصات، أو حيوانات متنوعة، وظهر في نفس الوقت عدد أكبر من لوحات الخضاب المزوقة والأشواط المزينة بصور حيوانية (٣٢).

إن مواقع الأمريسي المتجمعة بين أسبوط شمالا وطيبة جنوبا، تشمل خاصة مواقع نجادة، وبلاس، وهو، وأبيدوس. ونحن نأسف لأننا لا نعلم بالنسبة للمجموعة الشمالية وجود موقع معاصر للأمريسي، خاصة أنه توجد في هذا الأخير آثار واضحة عن اتصالات بين الجنوب والشمال لا سيما بظهور أوان حجري بالأثاث المائمي الأمريسي لها أشكال يختص بها عهد ما قبل الملوك الشمالي. ولا يوجد شيء بالعبادات المائمية يدل على حدوث تغير في النظام الاجتماعي بين عهد ما قبل الملوك البدائي وعهد ما قبل الملوك القديم الأمريسي. فنحن دائما أمام مجموعات انسانية مكونة من أشخاص متساوين وإن كانوا يخضعون لسلطة رئيس واحد أو لسلطة مجموعة من الأشخاص.

ثم أخذت الثقافة الأمريسية بعد قرن من الوجود، أو أقل من ذلك، تتصهر بتدرج ثقافة جديدة معقدة تخلق عناصر من الأمريسي بعناصر أخرى من أصل شمالي واضح. إن تلك الثقافة المختلطة، أي عهد ما قبل الملوك المتوسط (= النجادي ٢، الفصل ٢٥، وربما العمري نفس المرجع)، أو الجرزي (النجادي ٢، في تسمية بترتي) تستمد اسمها من موقع يسمى جزيرة (٣٣) بمصر السفلى، قرب الفيوم، حيث ظهرت بوضوح، ولها مظهران أحدهما جرزي محض بالشمال والآخر خليط بين الأمريسي والجرزي بالجنوب (٣٤).

وقد تركزت تلك الثقافة شمالا بمنطقة منف - فيوم، والطرف الجنوبي من الدلتا. ويتميز الجرزي الشمالي في ميدان الفخار على الخصوص من خلال أوان لوها فاتح وشموهي، وتتركب من مادة تختلف كثيرا عن مادة الفخار الجنوبي. إن تزيينها تزيين طبيعي بالطين الأحمر الموضوع على خلفية فاتحة، وله مواضيع جديدة تشمل جبلا، وإياكسا ونخاما والوة وخاصة مراكب. إن صناع الجرزي مثلهم مثل صناع الفيوم (أ) الذين خلفهم كانوا يصنعون أواني من حجر و يضيفون للشبيست حجارة أكثر صلابة مكونة من ثلم، وبزلت وذيريت، وسر بنتين. إن السلاح الذي تختص به تلك الثقافة هو الهراوة الكثيرة الشكل (٣٥) التي ستصبح السلاح الممتاز في أوائل

(٣٠) انظر: في شأن تلك الهراوة، م. بترتي، ١٩٢٠، لوحة ٢٥، ص ٢٢-٢٤.

(٣١) أ. هسغردن، ١٩٥٧، ص ٥١٠ - جلد ١.

(٣٢) ج. ل. سنفال، ١٩٧٣، ص ٦-٢١.

(٣٣) أن قرية جزيرة تقع في مستوى الفيوم، وبالتالي في أقصى جنوب القاهرة الحالية. وقد أخرجت الحفريات في موقع عهد ما قبل الملوك عام ١٩١١. انظر: م. بترتي، أ. مكبي، وج. بنترت، ١٩١٢.

(٣٤) ج. فركتوي، ١٩٦٧، ص ٢٤٥-٢٤٧، وج. فنليني، ١٩٥٢، ص ٢٥٢-٢٥٣، ٤٣٦-٤٩٦.

(٣٥) م. بترتي، ١٩٢٠، لوحة رقم ٢٦، ص ٢٢-٢٤.

التاريخ وسنظل مثل الهراوة الأمرسية احدى رموز الكتابة الهيروغليفية (٣٦). ونلاحظ أيضا تطورا اجتماعيا ودينيا. فالأموات أصبحوا يدفنون في قبور مستطيلة الشكل رؤوسهم الى الشمال، ووجوههم نحو الشرق لا نحو الغرب. أما المراكب التي كانت ترسم على أواني الفخار الجرزية، فانها تحوي في جوفها «علامات» يعبر ألا نرى فيها أسلاف شعارات «النوم» أو الولايات المصرية الفرعونية.

وهكذا يبدو أن المجموعات الانسانية قد تجاوزت مرحلة الأسرة والقرية وتجمعت نهائيا ضمن زمر أكبر حجما. ان القوة الناتجة عن ذلك التنظيم الاجتماعي قد سمحت بلا شك باستغلال أحسن للوادي اعتمادا على الري. وستوفر نتيجة لذلك ثورة أكبر ستظهر في انتاج الأشياء المهدومة، كالأواني الحجرية الوافرة الحميلة والأدوات والاسلحة النحاسية الوافرة، ومنها الأمقاص والخناجر، وحدود المخاطيف والفؤوس. وليس من باب المصادفة بدون شك ان تعتمد الحلي المأتمية في ذلك الوقت على الذهب وعلى الحجارة نصف النفيسة مثل اللازورد والكلسدون، والفيروز والكرنيلين، والعقيق. وقد أخذ النحت يتطور ويظهر من المواضيع المثلثة، كالباز ورأس البقرة خاصة، ان الديانة الفرعونية كانت هي نفسها في غاخض، اذ كان هروس الباز، وهاتور البقرة يعبدان.

وفي الجنوب كانت الشقافات التي تلت الأمرسي من عهد ما قبل الملوك القديم قد خضعت لتأثيرات جرزية عميقة. ولذلك يوجد الفخار الجرزي الكلاسيكي، الشموهي (Chamois)، ذو التزيين الطبيعي الاحمر، جنبا الى جنب مع الفخار الجنوبي التقليدي، الأحمر ذي الحاشية السوداء وذي التزيين الأبيض الكامل.

وفي الحقيقة كان التأثير متبادلا بين المجموعتين وكانت المشابهات بين المجموعتين عديدة في ذلك العهد، لا سيما فيما يتعلق بالأدوات الحجرية. ولقد بلغت تقنية نحت سكاكين الصوان أوج جودتها وكان ألواح الخضاب الشيسيتية متشابهة. وكان كل شيء ينمو نحو انصهار المجموعتين الثقافتين انصهارا كاملا.

ان الانصهار بين الجنوب والشمال سيتحقق في عهد ما قبل الملوك الحديث أو الجرزي الحديث (يُدعى أحيانا السمانى (= العمري (ب) والمعادي، الفصل ٢٥ ص (٣٧). وهذا الحدث يُقضي بنا الى عتبة التاريخ لأن مدة تلك الفترة كانت قصيرة جدا. فاذا احتفظنا بتاريخ ٣٠٠٠ سنة كبدائية التاريخ — وذلك ما فعلناه حتى نظل أوفياء لتواريخ ما زالت مقبولة تقليديا — فقد تكون تلك المرحلة لم تدم أكثر من جيلين أو ثلاثة على أقصى تقدير. ويغد تاريخ حصل بالكربون ١٤ ومطبق على عهد ما قبل الملوك المتوسط، بأن ذلك العهد كان لا يزال مستمرا في سنة ٣٠٦٦ قبل الميلاد، وبذلك تبقى ثلاثة أرباع قرن فقط للانتقال من نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط الى بداية التاريخ. وفي الواقع يجب ان ننقص قرنين تقريبا من تلك البداية. ولكن، حتى لو ضبطناها بحوالي ٢٨٠٠ سنة قبل الميلاد (٣٨) فلم يبق الا قرنان أو أكثر بقليل لكي تنتهي مرحلة شهدت اكتمال استصلاح وادي النيل الأسفل واقامة نظام اجتماعي يحكمه نظام ملكي ذو سلطة إلهية.

(٣٦) ا.هـ. غرندر، ١٩٥٧، ص ٥١٠ ملج ٣.

(٣٧) العبارة وضعتها فلندرنس بيري. وسمانه هي قرية من صعيد مصر قرب قنا، انظر أنشاج. فركوتيتي، ١٩٦٧، ص ٢٤٧ - ٢٥٠.

(٣٨) ا. شارف، ١٩٥٠، ص ١١١.

ان تلك المرحلة على غاية من القرب من المرحلة التي تشهد ظهور النصوص المكتوبة حتى أن بعضهم سعى الى تعميم المعلومات التي وفرتها تلك النصوص على ما يجزئنا به علم الآثار (٣٩). ان النصوص تجعلنا نعتقد حسبا يبدو، أن أقوى مدينة بالجنوب كانت في نهاية عهد ما قبل الملوك الحديث، ان لم تكن في نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط، هي مدينة أمبوس (تسمى النوبة في مصر اليوم). وهي تقع قرب نجادة، أي في قلب الثقافة الأمرسية. كان إله المدينة هوسث، وهو إله حيوان ما زالت طبيعته على نقاش. فلقد اعتبر أنه آكل فل، ونوع من أنواع الخنزير وزرافة.. وحيوان أسطوري قد اندثر قديما من الحيوانات المصرية. ان النصوص تفيد أن ذلك الإله الجنوبي دخل في صراع مع إله — بازهوهوروس المعبود بمدينة بهدت التي كانت موجودة بالدلتا، أي في نطاق الثقافة الجرزية. ولذلك كانت مصر في نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط مقسمة الى بيتين اجتماعيين، أحدهما بالشمال، يشرف عليها هوروس، في بهدت، والأخرى بالجنوب تخضع لسث، بأمبوس.

ان المراجع المتوفرة لا تسمح هنا مع الأسف بضبط طبيعة البنتين الاجتماعيتين، ولا نستطيع سوى أن تصور أهمية دور رئيس المجموعة، وهي أهمية تعتمد على سلطة سحرية ودينية، ما لبثت في العهد التاريخي ان اصطبغت بالصبغة الإلهية التي كان يتمتع بها شخص الملك (٤٠). ويمكن لنا ان نقول بأن رئيس المجموعة كان يتمتع بسلطة لا حد لها عمليا، يطبقها على أعضاء المجموعة التي كانت بدورها تستطيع قتل الرئيس اذ انقصت سلطته السحرية (انظر موري، اعدام الإله بمصر). ان تأويل النصوص، يجعلنا نقول بأن الصراع بين المجموعتين انتهى في المرحلة الأولى، بانتصار الشمال على الجنوب، ونشأت على اثر ذلك مملكة موحدة، كان مركزها عين شمس (هليوبوليس) (٤١) قرب القاهرة، أي على بعد ٦٠ كلم شمالا من موقع جرزة. ان انتصار الشمال على الجنوب اذا ترجم بلغة علم الآثار، يوافق تغلغل الثقافة الجرزية في الميدان الأمرسي. ولتستمر في تأويل النصوص لنقول بأنه حدث تطور سياسي واجتماعي في المجموعتين سواء بالشمال والجنوب طيلة عهد ما قبل الملوك الحديث. ان الوحدة السياسية الناتجة عن انتصار الشمال على الجنوب في نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط، أو في بداية عهد ما قبل الملوك الحديث لم تدم كثيرا وعادت كل مجموعة الى حياتها المستقلة. ونلاحظ على إثر ذلك التطور أن المركز السياسي بالشمال انتقل من بهدت، التي نجعل موقعها بالضبط، الى بوتوبالدلتا الغربي، على بعد ٤٠ كلم من البحر، وتلك منطقة عس فيها بلغ مستويات أثرية معاصرة لعهد ما قبل الملوك. ولقد انتقلت في نفس الوقت عاصمة الجنوب من أمبوس الى الكاب (وكانت تسمى النكب بالمصرية القديمة) على بعد ١٠٠ كلم نحو الجنوب (٤٢)، وبذلك اقتربت مجموعة الجنوب أكثر من خط الاستواء ومجموعة الشمال أكثر من الشمال...

(٣٩) يعتبر عمل ك. سائه، ١٩٣٠ المأثور، هو الكتاب المعتمد.

(٤٠) انظر: ج. بوزنر، ١٩٦٠.

(٤١) ك. سائه، نفس المرجع - نظرية رفضها ه. كيس، ١٩٦١، ص ٤٣.

(٤٢) ج. بركوتني، ١٩٦٧، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

وكان يعبد في بتوإلاهة في صورة حية (كوبرا)، اسمها واجيت، وفي الكاب كان يعبد صقر أنثى. وسيظل الالهان في العهد التاريخي يحميان الفراغة ويمثلان بانتظام في «المراسم» المنتظمة من أجل الملك (٤٣) وذلك بمناسبة احتفالات التنوير. وكانت بعض الوثائق، الموالية بما يقرب من ألف سنة قد حافظت على أسماء ملوك تلك المجموعات السياسية في نهاية عهد ما قبل الملوك الحديث، ولكن لم يصلنا من تلك الوثائق إلا القليل. ويبدو أن الوحدة الثقافية بين الجنوب والشمال قد تمت منذ ذلك العهد. ولذلك كان الإله هوروس الذي أصله من الشمال، معبودا أيضا بالجنوب، وكان الرؤساء السياسيون بالجنوب وبالشمال، يعتبرون أنفسهم من خدمه أو من أنصاره و يطلق عليهم لقب شمسو هوروس (٤٤).

ولا يوجد، من الناحية المادية، إلا اختلاف ضئيل بين حضارة عهد ما قبل الملوك المتوسط وحضارة عهد ما قبل الملوك الحديث، ولكن نلاحظ تقدما ثابتا في مستوى الفن والتقنية. فلقد أصبح الوجه الإنساني موضوعا كثيرا ما تناوله الفنانون. وظهر الرسم الجداري في هيراكنبوليس (تسمى «نكن») بالمصرية القديمة، وهو مركز هام على الضفة الغربية من النهر يكاد يكون مواجهها للكاب (٤٥). ولقد أصبحت هيراكنبوليس مهد الملكية الجنوبية التي شرعت في حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد في محاربة الشمال.

فكم دام ذلك الصراع؟ من المستحيل معرفة ذلك. فقد استغرق كل السنوات الأخيرة من عهد ما قبل الملوك الحديث وانتهى بانتصار الجنوب على الشمال وبإنشاء دولة موحدة تجمع كل الوادي من الكاب إلى الأبيض المتوسط. وقد حكم الدولة ملوك من الجنوب، أصلهم من مدينة ثيس (٤٦) الواقعة قرب أبيدوس، ومنهم نشأت الأسرتان الأوليان المعروفتان بالثينيتية. ولذلك كانت الحقبة القصيرة من عهد ما قبل الملوك الحديث كثيرا ما توصف بالعهد ما قبل الثينيتي.

إن المعالم الأثرية الماقبل الشينيتية التي بقيت إلى هذا العهد وجدت كلها في هيراكنبوليس (٤٧). فهي تتكون أساسا من لوحات خضاب نذرية (٤٨)، مؤرخة، من الشيبست، ومن رؤوس هراوات كلسية، منقوشة. إن المشاهد المرسومة على النوعين من الآثار تثيرنا قليلا عن النظام السياسي والاجتماعي الذي كان سائد بوادي النيل الأسفل. وكانت البلاد مقسمة إلى مقاطعات، أو مجموعات إنسانية نرى شعاراتها تصاحب الملك في المناسبات الكبرى.

إن مقارنة الشعارات المرسومة على المراكب الجرزية وعلى اللوحات أو الهراوات ما قبل ثينيتية برموز «النوم Nomes» أو المقاطعات، المرسومة على المعالم الأثرية الباقية من العهد التاريخي تبين أن تطور النظام الاجتماعي منذ الجرزى بوادي النيل الأسفل، شمالا وجنوبا، أخذ يتقدم في

(٤٣) انظر: أ. ه. غردنر، الفراعنة، الطبعة الثالثة، لندن ١٩٥٧، ص ٧١ - ٧٦.

(٤٤) انظر: في شأن شمسو هوروس، ج. ففليبي، ١٩٦٢، ص ١٢٩ - ١٣٠ و ٦٣٦ - ٦٣٧.

(٤٥) وفرت هيراكنبوليس معالم عديدة من عهد ما قبل الملوك. انظر: برتر-موس، ١٩٣٧، ص ١٩١ - ١٩٩.

(٤٦) لم يكتشف موقع العاصمة. إن وجود مقبرة ملكية من ذلك العهد (انظر: و. م. ف. بيري، ١٩٠١) على الضفة الغربية من

النيل، بأبيدوس يدل على أن المدينة كانت على مقربة من القفرة.

(٤٧) استكشف الموقع سنة ١٨٩٨ - انظر: ج. أ. كيل، هيراكنبوليس، لندن ١٩٠٠ - ١٩٠٢.

(٤٨) قام بجمع أجملها م. ف. بيري، ١٩٥٣.

إطار جغرافي واقتصادي وليس في إطار عرقي. فكانت المجموعة الانسانية تنظم حول موقع « وحول آلهة وكان ذلك ناتجا عن المستلزمات الزراعية التي فرضها نظام النيل على الوادي بالشمال أو بالجنوب. فالجموعة لا تستطيع أن تعيش ولا أن تتطور إلا إذا كانت واحة ومنظمة تنظيما كافيا لتنجز الأعمال التي تحمي أرضها من الفيضانات، وتوسع في الأملح، ولتوفر مدخرات ضرورية حتى تحابه التقلبات الناتجة عن فيضان النهر. ويعتبر التنظيم الحدث الهام والقار الغالب في النظام الاجتماعي بوادي النيل الأسفل.

ومن الممكن أن يكون هذا النظام القائم في نهاية الأمر على توزيع جغرافي قد حل محل نظام منه يتركز على قاعدة عرقية أو اجتماعية. وذلك ما نستشفه من ثلاث كلمات مصرية موجو فجور التاريخ والتي ستندرج إلى آخر الحضارة المصرية. وتلك الكلمات هي بات، و. وهنمت (٤٩). التي يبدو أنها مرتبطة بثلاث مجموعات بشرية كبرى: مجموعة البات، وهم الصعيد الذين يعبدون هوروس، ومجموعة الرخيت، وهم سكان الوادي الأسفل المغلوقين في عهد ما قبل الملوك الحديث ومجموعة الهنمت أو «شعب الشمس» وهم سكان المنطقة الموجودة بين البحر الأحمر والنيل. إن تلك المنطقة التي كانت مسكونة في العصر الحجري الجدد عهد ما قبل الملوك منطقة مهمة بالنسبة لاقتصاد الوادي. لأنها وفرت المعادن والنحاس والذ وقد يكون هذا النظام الاجتماعي العرقي العظيم هو الذي انقسم إلى وحدات جغرافية وز صغيرة. وسيكون دور الملكية سياسيا بحتا، إذ قامت في أول الأمر بجمع تلك المقاطعات كنفدراليتين كبيرتين، أحدهما في الشمال والأخرى في الجنوب، ثم وجدت في مرحلة ثانية الكنفدراليتين ضمن مملكة واحدة، وبذلك وفرت استصلاحا أحسن لمجموع البلاد الم ستحوط تلك المهمة الثانية من أعمال الفراعنة الثينيتين الأولين وعندئذ ندخل في التاريخ.

وادي النيل الأعلى (من ٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد)

إن مختلف الشقافات بالوادي الأسفل من النيل التي سبق إن رأيناها لا تتجاوز منطقة جنوبا. وتتسبب منطقة أسوان والشلال الأول إلى ميدان ثقافي آخر. ويبدو أن سكان وادي الأعلى يقتربون عرقيا من سكان مجموعة الجنوب من الوادي الأسفل: وهم البديون والأمر ويمكن بدون شك أن توسع تلك المقاربة إلى أجناس مجاورة من الصحراء الشرقية كلما أمك الاعتماد على دراسات بشرية، وإن كانت هذه الدراسات مازالت قليلة العدد (٥٠).

إن العصر الحجري الجديد وعهد ما قبل الملوك غير معروفين كما ينبغي في مصر كما رأينا، للعدد الضعيف من المواقع التي استكشفت استكشافا علميا. والحالة أسوء من ذلك بالوادي إذ أن القسم الشمالي، بين الشلال الأول والشلال الثاني، يعتبر الوحيد الذي استكشف نسبيا: كان ينبغي أن نلاحظ أن نتائج الحفريات الجارية من سنة ١٩٦٥ إلى ١٩٦٦ لم تنه جزئيا (٥١).

(٤٩) ا. هـ. غردنر، ١٩٤٧، ص ٩٨ + ١١٢.

(٥٠) انظر: في النهاية: و. ف. نيلسن، ١٩٧٠، ص ٢٢، المراجع ص ١٣٦ - ١٣٩.

(٥١) انظر: فيما يخص العهد التي تمنا المؤلفات التالية: ف. وندورف، ١٩٦٨ وه. نردسترم، ١٩٧٢.

اما فيما يخص الشلال الثاني الى السحيرات الاستوائية الكبرى فان العناصر النادرة المعروفة مستمدة من تقارير استكشاف بالنطخ، لأنه لم يحفر الا عدد ضئيل من المواقع، ولذلك فإن معارفنا محدودة جدا زمنيا ومكانيا فيما يخص الوادي الأعلى والوادي المصري.

العصر الحجري الجديد (± ٥٠٠٠ - ٣٨٠٠ قبل الميلاد)

لقد حفر لأول مرة موقع ثبت أنه من العصر الحجري الجديد وذلك بمنطقة الخرطوم. إن الثقافة التي كشف عنها، والمعروفة أحيانا باسم العصر الحجري الجديد الخرطومي، تسمى عادة ثقافة الشهاب (= الشهابي، الفصل ٢٥) نسبة الى اسم الموقع الذي عرف بها (٥٢). ان الشهاب موقع سكني لم يعثر على أثره، الا أن الأدوات الوافرة المستعملة في الحياة اليومية والتي وفرها تدل على أن السوادنيين من الشهاب القناصين وصيادي الأسماك خاصة، كانوا أيضا يربون الماشية. ان دراسة فخارهم، المزين باستعمال مدقة للطعم، تبين أنهم ربما كانوا ينحدرون من ثقافة عصر حجري جديد أكثر قدما قد عثر على آثارها بموقع بالخرطوم نفسها. ان ذلك الموقع، وهو الخرطوم المبكر (٥٣) (= الخرطومي، الفصل ٢٥). وقد وفر هو أيضا قبورا كلف قد دفن بها زنوج. فان كان الشهاب منحدرًا من الخرطوم المبكر، كما يبدو، وجب ان نقرأ أننا هنا أيضا أمام سكان سود، يتألفون من قناصين وصيادي أسماك كانوا يصارعون أيضا الأسود، والجواميس، وأفراس البحر والظباء، والغزلان، والأرانب، والبرية، وقد وجدت عظامهم بمواقدهم. وكان سلاحهم يتكون من فؤوس مصقولة وهراوات نصف كروية الشكل اعتبرت أحيانا سابقا للهراوات الخرطومية الجذع الأخرسية، وكانوا يخدمون الخشب ويحسون النسيج، الا أنهم يفضلون الجلد حسبما يبدو في لباسهم. وتسمى حضارتهم أحيانا «ثقافة المنقر» نظرا للعدد الكبير من تلك الأدوات المكتشفة بالموقع. وبالاكتفاء على فخارهم المتميز كان من الممكن إقامة البرهان على أن ثقافة الشهاب قد امتدت نحو الغرب (ثري والتبستي) ونحو الشرق على ضفاف النيل الأبيض والنيل الأزرق، جنوب الخرطوم. ولا يوجد ما يسمح بأن نضبط ما كان عليه تنظيمهم الاجتماعي.

وقد يكون من المفيد ان نعرف كيف كانت العلاقات بين العصر الحجري الجديد بالشهاب ونفس العصر بالوادي الأسفل، وبالقيوم خاصة، ولكننا لا نعرف مع الأسف موقعا واحدا بشمال الخرطوم، بين الشلالين السادس والثاني يسمح بأن نقد مقارنات مفيدة. أن الأعمال الحديثة بالنوبة السفلى، جنوب الشلال الثاني، تفيد أن العصر الحجري الجديد بتلك المنطقة قريب جدا من نفس العصر بالشهاب، الا أنه يختلف عنه بعض الشيء، الى حد جعل الأثرين الأنكلوسكسون الذين درسوه يصفونه «بالخرطوم المتنوع» (٥٤).

ان الانتقال من العصر الحجري الجديد الى عهد ما قبل الملوك، أي عصر النحاس بالوادي الأعلى ما زال مجهولا جدا. وقد تدل الأضرحة الموجودة بملتقى النيل الأبيض والنيل الأزرق على وجود

(٥٢) — انظر: ا.ج. آركل ١٩٥٣.

(٥٣) — انظر: نفس المرجع ١٩٤٩.

(٥٤) ف. وندورف، ١٩٦٨ ص ٧٦٨ - ٧٩٠ وه. نردسترم، ١٩٧٢، ص ٩ - ١٠.

ثقافة متأثرة في ذلك المكان بعهد ما قبل الملوك النوبي، المعروف بالمجموعة أ (انظر أعلاه). إلا أن تلك الثقافة لا يمكن أن تؤرخ تاريخاً مضبوطاً.

وعلى العكس من هذا اكتشفت حديثاً صناعة، بالشلال الثاني تدعى الأبكي (أبكن) (٥٥) (= الأبكي، الفصل ٢٥)، نسبة إلى موقع «أبكة»، حيث هي ممثلة تمثيلاً جيداً. ولا نعرف عنها إلا صناعتها الحجرية وفخارها. ولم ينشر شيء عن المواقع التي عثر فيها عليها، ويبدو مما نعرف أن تلك الثقافة تنتسب إلى سكان يتعاطون صيد الحيوانات والسماك، مثلها مثل ثقافة الشهبان. إلا أن صيد الحيوانات بها أقل إنتاجاً، ولعل ذلك يعود إلى حلول مرحلة التجفف التي جاءت بعد «المرحلة الرطبة». ويبدو أن رجال أبكة يستعملون في صيد الأسماك، فخاخاً كبيرة قارة، وضعت بهارة في قنوات الشلال عندما تنخفض فيها المياه، فكانت الأسماك تظل أسيرة بها عندما يغيب الماء. إن جني الثمار والنباتات الوحشية يكل تلك الموارد. وصنع الفخاخ المتركة من جدران حجرية مساحتها واسعة، يستلزم وجود نظام اجتماعي معين. ولا توجد علاقة نسب بين هذه الثقافة وثقافة الشهبان التي اتخذت في نفس المكان شكل «الخرطوم المتنوع» وتميزت عنها كثيراً. رغم أنها معاصرة لها. وعلى هذا، فهي شكل خاص من العصر الحجري الجديد الذي لا يدين بشيء. لا للجنوب ولا للشمال. على أنه يبدو أن عهد ما قبل الملوك النوبي قد نشأ عن العصر الحجري الجديد الأبكي.

عهد ما قبل الملوك (٣٨٠٠ - ٢٨٠٠ قبل الميلاد)

عندما قررت الحكومة المصرية سنة ١٩٠٧ أن يرفع إلى سبعة أمتار علوسد أسوان الأول، وهو قرار يترتب عليه فيضان المياه على النوبة السفلى، من الشلال إلى كرسكو، جرى استكشاف أثري شامل بالمنطقة التي ستفيض عليها المياه. إن الأثرين الذين لاحظوا اختلافات الثقافات بين مصر المعروفة لديهم معرفة حسنة، والنوبة، وضعوا نظاماً مؤقتاً للتصنيف يعتمد على الحروف للدلالة على الثقافات التي كان يحتمل أن يعثروا عليها، ويميزوا اعتماداً على تاريخ نسبي بين المجموعة (أ) والمجموعة (ب) والمجموعة (ج) الخ (٥٦). ومن ذلك الحين بذلت محاولات لوضع نظام يقلد نظام الوادي الأسفل، بحيث يكون النوبي القديم والنوبي الوسيط يوافق الأمبراطوري القديم والأمبراطوري الوسيط (٥٧) ولقد عدل عن ذلك نظراً إلى الصعوبات القائمة في وجه توسيع نطاق ذلك النظام، من النوبة إلى الشمال من الشلال الثاني، وإلى شلال الجنوب. وسنظل إذن نستعمل اسم المجموعة (أ) التي تشمل عهد ما قبل الملوك.

تتمتد المجموعة (أ) (٥٨) زمنياً من نهاية العصر الحجري الجديد، أي حوالي ٣٨٠٠ سنة إلى نهاية الأمبراطورية المصرية القديمة، إلى حوالي ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ويمكن أن تميز بها ثلاث مراحل:

(٥٥) وصفت تلك الصناعة ب. ف. وندورف، ١٩٦٨ ص ٦١١-٦٢٩ وانظر أيضاً ه. نردسترم، ١٩٧٢ ص ١٢-١٦.

(٥٦) ج. أ. رايسن، ١٩١٠ ص ٣١٣-٣٣٢.

(٥٧) ب. ج. تريغر، ١٩٦٥ ص ٦٧ وما بعدها، وشكل ١ ص ٤٦.

(٥٨) لم تنشر إلى الآن كل التقارير عن الحفريات التي جرت بالنوبة إثر تداء اليونسكو سواء بمصر أو بالسودان. انظر فيما يتعلق

بالمجموعة (أ) ما أنف، وهو مؤلف ه. أ. نردسترم ١٩٧٢ ص ٣٢، ١٧.

المجموعة (أ) القديمة، من ٣٨٠٠ الى ٣٢٠٠ سنة تقريبا، والمجموعة (أ) الكلاسيكية، من ٣٢٠٠ الى ٢٨٠٠ سنة تقريبا، والمجموعة (أ) المتأخرة (المجموع ب القديمة)، من ٢٨٠٠ الى ٢٢٠٠ سنة تقريبا. ولن نهم هنا الا بالمرحلتين الأوليين.

تعتبر المجموعة (أ) غير معروفة كثيرا (٥٩) فلقد لوحظ إثر الحفريات الحديثة بالنوبة السودانية بين ١٩٦٠ و ١٩٦٦ أن الحضارة «النحاسية» للمجموعة (أ) تلي مباشرة حضارة الأبيكي من العصر الحجري الجديد. فيجب انتظار نشر التقارير الكاملة للحفريات حتى تتكون لنا فكرة أكثر دقة عما تشمله تلك المجموعة. ويبدو أن موقع خوربهان، بالنوبة السفلى، جنوب شلال، ينسب الى تلك المرحلة القديمة وأنه معاصر للجرزي، وبالتالي لعهد الملوك الوسيط المصري. لقد كانت الزراعة وتربية الماشية، المفقودتان في العهد الأبيكي، تمارسان بالنوبة السفلى، إذ أن مجموعات الفلاحين الذين كانوا يستعملون تقنية خاصة بالوادي الأعلى، كانوا يقيمون أثناء انخفاض المياه، سدودا من الحجارة عموديا بالنسبة لمجرى النهر، وهي سدود كانت تبطئ حركة التيار وتيسر وفقا لذلك ترسب الطمي بالحقول على شواطئ النيل، كما توسع في مساحة الحقول. يضاف الى ذلك أن العثور على عظام بقر وماعز والقبور وأصلها بدون شك من تضحيات مأتمية — يدعو الى الاعتقاد بأن تلك المجموعات البشرية كانت من أشباه الرُّحل. فنظرا الى كون الحقول لم تكن كافية لتغذية عدد كبير من الحيوانات يمكن أن نتصور أن القطعان كانت ترحل في جزء من السنة الى الهضاب المجاورة التي كانت سهبا مثلها يدل على ذلك وجود الطياء والأسود.

إن اكتشاف أدوات نحاسية بمواقع المجموعة (أ) القديمة يثير قضية انتشار ذلك المعدن بالوادي الأعلى. إن أفرقة المجموعة (أ) مثلهم مثل أهالي البديري، كانوا يستعملون الدهنج (Malachite) خضابا للعيون وكانوا يرسونه على لوحات من المرو وكانوا يعرفون صنع العجين للطلاء الخزفي (الخزف المصري). وما أنه توجد مناجم معدن النحاس بالنوبة، وكانت تستغل منذ عهد قديم جدا، فإنه من المحتمل جدا أن تكون الأشياء النحاسية الموجودة بمواقع المجموعة (أ) القديم (لا سيما الإبر) من صنع محلي بحث (٦٠).

ويبدو أن المستودات من الشمال تقتصر على أوان حجرية من الألباتر، والشيست، والرخام الصناعي، وعلى مواد خام، وعلى الصوان الذي لا يوجد أسنانا في الحث (Gres) النوبي، في حين أنه متوفر بكثرة بمصر. ويتكون الفخار من النوع الأحمر ذي الحاشية السوداء، والنوع المصنوع محليا يعتمد على تقنية ممتازة. إن أهالي المجموعة (أ) كانوا في صنع الأدوات والأسلحة يستعملون الحجر والعظم أكثر من المعدن. إن السكاكين والحرارات التي لها أشكال شبيهاتها بالأمريسي، مصنوعة من الصوان أو من الديوريت أو البزلت، وكانت الأبر والمشابك والمثاقب تتكون غالبا من العظم أو العاج. ولقد ظهر الذهب في الحلي، وكان لوحات الخضاب الشيستية مستوحاة بدولتشك من اللوحات المصرية. لكننا نجد لوحات من المرو الأبيض التي تعتبر من خصائص ثقافة المجموعة (أ) (٦١).

(٥٩) هـ. نورد ستروم، ١٩٧٢، ص ١٧ — ٢٨ وما بعدها.

(٦٠) نلاحظ أن معدن النحاس بالامبراطورية القديمة كان يعالج بعين المكان في بيفن على الخصوص. انظر: و. ب. أمري،

١٩٦٥، ص ١١١، ١١٤.

(٦١) ف. هنري، ١٩٦٧، ص ٤٤.

ويلى المجموعة (أ) القديمة التي لا نعرف عنها الكثير، المجموعة (أ) الكلاسيكية، وهي — إذا نظرنا الى الأضرحة والمقابر التي تركتها — قد شهدت ما يمكن أن نسميه انفجارا سكانيا. (٦٢) ان المجموعة (أ) الكلاسيكية القريبة جدا ماديا من سابقتها، تتميز عنها بأهمية عدد كبير من الأشياء المجلوبة من الوادي الأسفل. ولقد اعتبرت تلك الظاهرة دليلا على نشاط التجارة بين الوادي الأسفل والوادي الأعلى من النيل، وكان الفخار يتميز بقيمة وجودة رفيعة، الا أنه كان يشمل عددا كبيرا من الأواني المستوردة من النوع الجزري ذي اللون الفاتح، وهي أوان للاستعمال يحتمل أنها كانت تحتوي على مواد معرضة للزوال، (الاسيا الزيت)، وكانت تستورد بالمقايضة مع العاج أو الأبونس المجلوبين من الجنوب.

ظلت ثقافة المجموعة (أ) الكلاسيكية تزدهر حتى حدود ٢٨٠٠ سنة تقريبا، ثم فجأة كادت تنقرض تماما، وتركت مكانها لثقافة ضحلة جدا من المجموعة (أ) المتأخرة (مجموعة ب القديمة) (٦٣) ولقد اعتبر ذلك الانقراض نتيجة هجومات مصرية قادها فراعنة من الأسرة المالكة الثينيتية. وتوجد نقوش مصرية من ذلك العهد، اكتشفت قريبا من شمال الشلال الثاني، وهي تجعل هذا التأويل محتملا. لكن ذلك يخرجنا على كل حال من عهد ما قبل التاريخ.

وإذا أردنا أن نلخص، فيما يتعلق بوادي النيل، تلك الحقبة المجهولة، ولكنها على غاية من الأهمية، والتي تمتد من العصر الحجري الجديد الى نهاية عهد ما قبل الملوك، يمكن أن نقول إنها تميزت في الوادي الأسفل بالانتقال من نظام اجتماعي قائم على الأسر أو المجموعات الضيقة من الصيادين للحيوانات والأسماك، والمتعاطين قليلا لتربية الحيوان، وشيء من الزراعة على ضفاف النهر، وبحوار الفيوم، الى نظام معقد خاص بالأهالي المستقرين المنظمين حسب قرى أو مجموعات من القرى، والممارسين للرعي والزراعة المتخصصة. وكان تلك القرى موحدة في حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد تحت سلطة رئيس واحد، وهو فروعون الذي كان يحكم الوادي الأسفل، من الشلال الأول الى الأبيض المتوسط.

نلاحظ في الوادي الأعلى، انتقال مجموعات بشرية من صيادي الأسماك والحيوانات والمتعاطين قليلا لتربية الحيوان، الى نظام يجمع مربي الماشية والفلاحين، فهؤلاء وإن كانوا من أشباه الرُحُل، إلا أن لهم روابط جغرافية على طول النهر حيث كانوا يصنعون سدودا لتتوسع ثقافتهم. وكان بناء تلك السدود يستدعي تنظيما جماعيا هاما، الا أنه كان أقل أهمية لما هو عليه بالوادي الأسفل. ونشهد طيلة ذلك العهد وإبتداء من ٣٣٠٠، النحاس ينتشر بوادي النيل كله. وبالرغم من أن أصل عدانة النحاس مازال غير معروف ومازال محل نقاش، فلا يستبعد أن تكون هذه العدانة قد نشأت أو استحدثت من جديد بوادي النيل.

(٦٢) ب. ج. ترينر، ١٩٦٥، ص ٧٤ — ٧٥.

(٦٣) هـ. س. سميث، ١٩٦٦، ص ١١٨ — ١٢٤.

العهد التاريخي، من ٣٠٠٠ سنة الى القرن الخامس ق. م.

لما ظهرت النصوص المصرية الأولى، في حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، كانت النظم الاجتماعية قد استقرت على ما يبدو في مجموع وادي النيل ولم تتطور أبداً فيما بعد. ففي الجنوب يوجد نظام ملكي قائم على الحق الإلهي، وبحكم مجموعة من الأشخاص المتساوين في الحقوق — على الأقل نظرياً — أمام الملك. وفي الجنوب، يبدو النظام أقل تصلباً، فهو باعتبار الترحال أو شبه الترحال، نظام قائم في معظم الأحيان على الأسرة، وظل قائماً طيلة العهد الذي يمتد من ٣٠٠٠ سنة الى القرن الخامس قبل الميلاد. إن وادي النيل لم يخضع لنظام اجتماعي يشابه تقريباً نظام الوادي المصري إلا في نهاية ذلك العهد، بين الشلال الأول وملقى النيلين الأبيض والأزرق.

ونظراً الى الصفة القارة التي تخص بها النظم الاجتماعية طيلة ذلك العهد، سنعرض بسرعة لتطورها. وسنؤكد كثيراً على الحدتين الثقافييتين اللذين أثرا في ذلك العهد: وهما اختراع البرنز وانتشاره من جهة، ثم اختراع وانتشار الحديد، بعد ذلك بكثير.

تطور النظم الاجتماعية

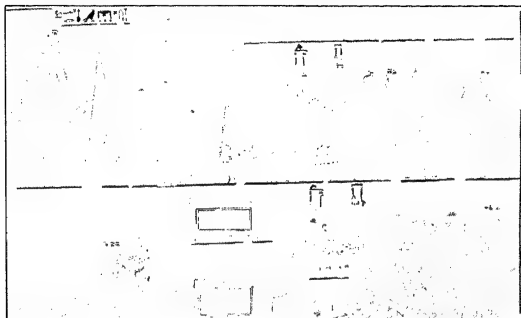
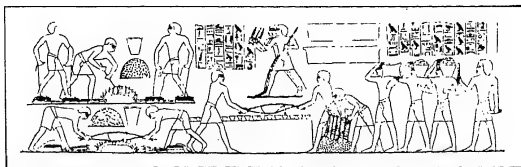
نظراً الى افتقارنا للوثائق القانونية الكافية، فلانعرف التنظيم الاجتماعي بالوادي الأسفل إلا معرفة ناقصة. وإذا اعتمدنا على المؤلفين الكلاسيكيين من أمثال هيرودوت، وسترابون، فالجتماع المصري يبدو مقسماً الى طبقات متصلة. وذلك خطأ يقينا باستثناء الجنود، في النهاية القصوى من التاريخ الفرعوني. فلم توجد بتاتا «طبقة الكهان» مثلاً زعم سترابون، وليس من المحقق أن تكون وجدت طبقة العبيد، بالمفهوم الذي نقصده اليوم بهذه الكلمة (٦٤). والحقيقة أن النظام الاجتماعي المصري، كان يتميز في العهد التاريخي بمرونة كبرى. فهو يعتمد أكثر على استثمار الأرض، واستصلاح البلاد، لا على قانون متصلب. ولما كانت مصر لم تعرف قط النقود، كان الشخص مهما كانت رتبته في المجتمع مربوطاً وجوباً بهيئة توفر له غذاءه ولباسه ومسكنه.

وتعتبر المزرعة العائلية أبسط تلك الهيئات. ولئن كانت الأرض مبدئياً ملكاً لفرعون مصر، فإن حق فلحها يُعطى أحياناً لأحد الخواص الذي يستطيع أن يورثها لأبنائه (٦٥). ولقد وجدت في كل العصور مزارع عائلية من هذا النوع، كثيراً ما كانت ضيقة، و يوزع رب العائلة بنفسه محصولاتها كما يشاء، وتكون الأسرة بمعناها الواسع مرتبطة به تمام الارتباط. إن الواجب الوحيد الذي يقوم به رب العائلة هو القيام بما عليه من واجبات نحو الدولة مثل الضرائب والخدمات المجانية، ومظاهر الولاء. وتوجد الى جانب المزارع العائلية، مزارع أخرى أهم منها، هي المزارع الدينية والملككية، وكانت المزارع الدينية — وخاصة ابتداء من الأسرة المالكة الثامنة عشرة (بعد ١٥٨٠ قبل الميلاد) — غنية جداً. ومن ذلك أن مزارع الإله آمون كانت تضم ٨١٣٢٢ رجلاً، و٤٢١٣٦٢ رأس بقر، و٤٣ بستاناً، و٢٣٩٣ كسب^٢ من الحقول، و٨٣ مركباً، و٥٦ قرية (٦٦). وكانت تلك الممتلكات

(٦٤) انظر الملاحظات القيمة لـ ج. بوسن^١ الموجودة في ج. بوسن^٢ س. سومرن، وج. بيوت، ١٩٥٩ بخصوص موضوع الرق، ص ١٠٧.

(٦٥) ج. بيران، ١٩٣٢ ص ٢٠٦ — ٢١١، وج. بوسن^١، ١٩٥٩ ص ٧٦ — ١٠٧.

(٦٦) ج. هـ. بريستد، ١٩٠٦، ص ٩٧.



- (١) قبر «ريخ مسي - رخ» في
طيبة. متحف المتروبوليتان للفن،
البعثة المصرية، المجلد العاشر.
- (٢) قبر حوى: الجدار الشرقي (الواجهة
الجنوبية).
- (٣) شفرة حلاقة (مرفيسة،
السودان). تصوير البعثة الأثرية
الفرنسية في السودان.



موجودة بصعيد مصر، وبمصر السفلى وبسوريا وفلسطين والنوبة. وكانت الممتلكات الملكية متكونة على نفس النسق وموزعة في البلاد، وتقع حول القصر أو الهيكل المأتمن للملك. ويرتبط كل شخص وجوبا بإحدى هذه الممتلكات التي توفر له حاجاته بطريقة تقوم على نظام المراتب. وتختلف الأجور العينية كثيرا حسب الوظيفة. ومن ذلك أن «المستكتب» يتقاضى «أقساطا» تفوق أقساط المزارع أو الصانع، وذلك ما مكن مخطوطي هذا النظام من أن يكتسبوا بدورهم الخدم والممتلكات العائلية، لا عن طريق بيع وظيفتهم، بل عن طريق بيع جزء من العائدات المرتبطة بتلك الوظيفة.

إن الشخص الذي يريد أن يتخلص من الضغط الذي يفرضه عليه النظام الاجتماعي المصري ليس له إلا أن يهرب. وهرب «الفارون» نحو الغرب، إلى حاشية الصحراء، حيث يعيشون من الغزو السلطوي على مزارعات الوادي، أو أنهم يقصدون الخارج، لا سيما سوريا وفلسطين (٦٧).

إن استقرار النظام الاجتماعي مرتبط إلى حد بعيد بتنفيذ السلطة المركزية وحزمها، سواء كانت متمثلة في الملك أو الإدارة. أما إذا كانا ضعيفين، فطرا فوضى كبيرة في سير النظام، وأحيانا ثورات، وذلك ما وقع خاصة بين ٢٢٠٠ و ٢١٠٠ سنة تقريبا عندما لمهقرعش فرعون واغتصبته أملاك المخطوطين (٦٨). ولقد وقعت أيضا اضطرابات محلية، منها إضراب صناع الممتلك الملكي بدير المدينة سنة ١١٦٥ لأنهم لم يتقاضوا أقساطهم الشهرية ولا لباسهم.

إن وضع الشخص الاجتماعي لا يستقر نهائيا، إذ يمكن في أي وقت أن يتغير، سواء بزيادة الملك أو على إثر أخطاء ترتكب عند ممارسة الوظيفة. ولقد ذكرت النصوص المصرية في مناسبات متعددة كيف كان الموظف يعزل ثم يرسل للخدمة الأرض (٦٩).

ابتداء من ١٥٨٠ أخذ العسكريون يحتلون منزلة خاصة في النظام الاجتماعي المصري. وقد أنشأ الفرعنة جيشا محترفا بأتم معنى الكلمة (٧٠) وذلك لطرد الهيكسوس من مصر ولتحقيق سياسة غزواتهم العدوانية نحو النوبة ونحو آسيا الصغرى. وكان العسكريون يكافؤون ببهات من قطع أرضية، ومن ضيعات زراعية، يمكن لهم أن يورثوها ورثتهم شريطة أن يثابر هؤلاء على إحتراف العسكرية. ولقد تطور ذلك النظام على مر القرون ونشأ عنه في نهاية تاريخ مصر، تكوين «طبقة» عسكرية.

إن التنظيم الاجتماعي لا يزال غير معروف بالوادي الأعلى من النيل. لقد رأينا في نهاية عهد ما قبل الملوك بأن نظاما اجتماعيا قد استقر على الأقل بالنوبة السفلى، وكان يتألف من أهل مستقرين ورحل أو أشباه رحل، ولكننا لا نعلم إذا كانوا يعيشون عيشة مشتركة أو أنهم متجاورون فقط. إن الوثائق القليلة التي تشير إلى التنظيم السياسي الخاص بسكان جنوب الشلال الأول، تفيدنا بتوزيع جماعات كثافتها ضعيفة، على طول الوادي، وخضوعها لرؤساء محليين لهم سلطة وراثية (٧١).

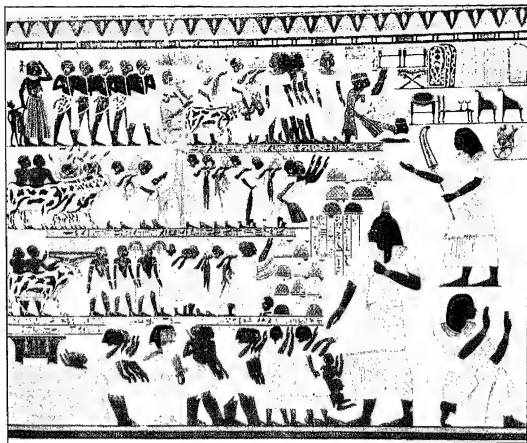
(٦٧) إن أحسن مثال على ذلك هو مثال سينيوي الذي فر إلى فلسطين خشية أن يتهم بالمشاركة في مؤامرة بابلية. وكان عليه أن يطلب من فرعون مصر العفو حتى يتمكن من العودة إلى مصر. انظر: ج. لافور ١٩٤٩ حكاية سينيوي ص ١ - ٥٥. ونجد بصفحة ٤٤ مراجع الترجمات المختلفة - نضيف إلى ذلك. و. ل. سمن طبعة ١٩٧٢، ص ٥٧ - ٧٤.

(٦٨) ج. فلدبي، ص ١٩٦٢ ص ٢١٣ - ٢٢٠ و ٢٣٥ - ٢٣٧.

(٦٩) وخاصة في مرسوم ثوري حيث يعتبر ذلك عقوبة معتادة. انظر: ف. غريفيث، ١٩٢٧ ص ٢٠٠ - ٢٠٨.

(٧٠) ر. أ. فولكنز ١٩٥٣ ص ٤١ - ٤٧.

(٧١) ج. بيوتن، ١٩٤٠ ص ٣٥ - ٤٨، ٦٢.



• نبر حوى (تصو ير جمعيه التينب المصريه).

ان علم الآثار لا يأخذنا عزيز من المعلومات. فلقد ظلت تربية الماشية العامل الاقتصادي الهام بالوادي الأعلى، ولعلها كانت تيسر المحافظة على البنيات العائلية. والملاحظ أن التدخل المصري كان، ابتداء من -١٥٨٠، قد حوّر بدون شك النظام القائم، بل قضى عليه. فلقد أقفرت مقاطعات جنوب أسوان بسرعة (٧٢) عندما احتلتها مصر. وقد أخذت مصر، بمقتضى سياستها الأسبوية تستغل إلى أبعد الحدود الوادي الأعلى الذي كان سكانه يضمحلون، فيفرون على الأرجح نحو الجنوب أو الغرب، إلى مناطق يجهلها حالياً علم الآثار.

ولم تتكون مملكة حقيقية منظمة، مستوحاة من النموذج المصري الا حوالي ٧٥٠ قبل الميلاد، وذلك نتيجة لعمل ملوك سودانيين، أصلهم من منطقة دنغولا، فكانت على ما يبدو تمتد من متلقى النيلين بالجنوب، إلى الشلال الثاني في بداية الأمر، ثم إلى الأبيض المتوسط، مُستوعبة النوبة السفلى من ٧٥٠ إلى ٦٥٠ قبل الميلاد (٧٣). ولقد كان النظام القائم على سلطة الأم يلبغ في تلك المملكة — أو على الأقل بالنسبة للأسرة الحاكمة — كان يلبغ دوراً مهماً، إلا أن الوثائق قليلة وليس فيها ما ينير سبيلنا في شأن النظام الاجتماعي الذي تسير عليه الجماعات المؤلفة له.

انتشار المعادن

كانت المعادن النفيسة، كالذهب والفضة وكذلك النحاس، معروفة في أوائل العهد التاريخي، وكانت منتشرة جداً في جميع أنحاء وادي النيل. وكانت عدانة تلك المعادن تتطور بعد الألفية الثالثة. وظهر في الألفية الثانية البرونز، وهو مزيج من النحاس والقصدير، ثم ظهر الحديد هنا وهناك ابتداء من -١٥٨٠.

وتوجد بين الشلالين الأول والثالث أغلب مناجم الذهب التي كان يستغلها المصريون والنوبيون (٧٤). إن التنقيب عن مناجم المعادن النفيسة مكن المصريين من الإمبراطورية الوسطى من بلوغ الشلال الثاني ثم تجاوزه. ولقد لعب الذهب في الإمبراطورية الجديدة دوراً أساسياً في السياسة. الأسبوية المصرية للحصول على الأحلاف. محلياً. وكان للذهب المستخرج من مناجم مصر والنوبة يحوي دائماً نسبة كبيرة من الفضة (٧٥) وكان يميز بين الذهب الأبيض أو الكهر بائي (الحاجبي بالمصرية) الذي يحوي ٢٠٪ من الفضة، والذهب الأصفر (نوب بالمصرية). والجدير بالملاحظة أن كلمة (نوب) هذه ليس من المؤكد أن تكون أصلاً لكلمة النوبة. وكان الذهب مصر يستعمل لأغراض كثيرة، من ذلك الأثاث المائتي، والحلي، وحتى الهندسة المعمارية، حيث كان يُغطي أطراف المسلات، والأبواب الكبيرة وبعض قاعات المعابد.

وكان الذهب يستعمل بكثرة في الوادي الأعلى من النيل، وإن كان نهب المقابر لم يترك لنا إلا نسبة ضئيلة من الأشياء الذهبية، مثل: الحروز، واللآلئ وحلي التزين، والمساور، والخواتم والأقراط. الأذنبة. وكان الأثاث الخشبي يغطي أحياناً بصفحات ذهبية وذلك في القرن الثامن عشر قبل

(٧٢). و. ي. آدمس، ١٩٦٤ ص ١٠٤ - ١٠٩.

(٧٣). ه. ف. زاسل، ١٩٥٥ ص ١٢ - ١٦.

(٧٤). ج. فركوتز، ١٩٥٩، ص ١٢٨ - ١٣٣، والخريطة ص ١٢٩.

(٧٥). انظر: أ. لوكا، ١٩٦٢ ص ٢٢٤ - ٢٣٤.



• تمثال من النحاس للملك بيبي الأول (الدولة القديمة) — متحف القاهرة.

الميلاد. وكان الأثاث المائسي في القرن الثامن يتميز هو أيضا بشاء ذهبي أو فضي كبير، مثلما هو الشأن في نوري، عند مهبط الشلال الرابع، حيث عُثر على أشياء عديدة رغم النهب القديم (٧٦). لا يمكن التمييز بين النحاس والبرونز (٧٧) الا باعتماد على التحليل المخبري. ولم يظهر البرونز بوادي النليل الا ابتداء من سنة ٢٠٠٠ تقريبا، بل لا بد من انتظار سنة ١٥٠٠ لكي ينتشر انتشارا أوسع، دون أن يحل محل النحاس. إن البرونز - وهو مزيج من النحاس والقصدير - يتميز صلي النحاس بأنه أكثر صلابة منه، إذا كانت نسبة القصدير غير قوية، وبأنه يصهر في درجة هي أدنى، وأنه أسهل منه في السبك.

ورغم وجود بعض المناجم من القصدير بمصر، فإن البرونز لم يكتشف بوادي النليل. ويحتمل أن يكون مجلوا من سوريا (٧٨) حيث كان معروفا منذ بداية الألفية الثانية. إن نسبة القصدير تتراوح بين ٢ و ١٦ في المائة في الممزوجات المصرية. والبرونز يكون أصلب من النحاس حتى نسبة ٤ في المائة من القصدير، وإذا تجاوز ذلك فهو يتكسر ويفقد كثيرا من مميزاته. لذلك لم يعوض أبدا النحاس الذي يتصلب كثيرا بمجرد الطرق.

لم تتوفر لنا تحليلات تخص أشياء نحاسية أو برونزية وجدت بالوادي الأعلى، لا سيما في كرمه التي كان من الممكن أن نضيفها إذا كان البرونز قد استعمل بالوادي الأعلى، باعتبار أن تاريخها يرجع الى الألفية الثانية. وعلى كل حال فالأشياء النحاسية أو البرونزية كثيرة بها، وهي أكثر مما هو موجود بمصر نفسها. لقد وجد بكمية ١٣٠ خنجر نحاسي بالنسبة لما عثر عليه بين ١٨٥٠-١٧٥٠ تقريبا أي أكثر مما وفرته مصر كلها، لقد كان النحاس في ذلك العهد يستعمل لصنع أدوات الزينة، وعلى الأخص المرايا، وكذلك الأسلحة والآلات، والأواني، والمجوهرات، والمنقوشات الأثائية. وكان النحاس يصنع بالطرق، وقل أن يصنع بالقوالب.

إن الأشياء التي عُثر عليها بكمية (٧٩) تبين من حيث الكم والكيف أن الوادي الأعلى لعب دورا هاما في نشر عدانة النحاس بافريقيا، منذ الألفية الثانية قبل الميلاد. إن وجود مناجم نحاسية «بالمركب الأساسي» الجيولوجي النيلي قد ساهم كثيرا في ذلك الانتشار الواسع.

لقد ظل وادي النليل طويلا لا يعرف سوى الحديد النيزكي (٨٠)، ولم ينتشر الحديد الا في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد بالوادي الأسفل. ولم يفض الا قرن حتى أخذ يستعمل مثلما يستعمل البرونز والنحاس. وكان في ذلك العهد يذاب ويستخدم بمصر بالمراكز الخاضعة للتأثير اليوناني.

(٧٦) دوس دنهام، ١٩٥٥، في صفحات متعددة.

(٧٧) لوكاء، ص ١٩٩ - ٢١٧ و ٢١٧ - ٢٢٣.

(٧٨) نفس المرجع ص ٢١٧ - ٢١٨ و ٢٥٥ - ٢٥٧.

(٧٩) انظر: ج. أ. رايسر ١٩٢٣، الفصل ٢٦، ص ١٧٦ - ٢٠٥.

(٨٠) ب. ل. شيني، ١٩٧١، ص ٩٢ - ٩٤.

يحتل وادي النيل منزلة كبرى في انتشار الحديد بـإفريقيا (٨١). ومن المحتمل أن تكون صناعته بالوادي الأعلى من النيل أقدم من صناعته بالوادي الأسفل، وذلك ما يفسر استعماله بكثرة في الأسرة المالكة الخامسة والعشرين التي أهلها من دنغولا (في حوالي ٨٠٠ سنة قبل الميلاد). وبالرغم من توفر معدن الحديد بالوادي الأعلى، والفحم الحشبي الضروري لمعدنة الحديد، فإن الحديد لم ينتشر انتشاراً واسعاً إلا ابتداءً من القرن الأول قبل الميلاد، على أثر ازدهار الحضارة المرويتية، بين الشلالين الثالث والسادس (٨٢). إن الثقافة النيلية في نبتا قد لعبت بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد، دوراً هاماً في انتشار الحديد بإفريقيا، عندما مهّدت السبيل لحضارة ميروي. (Méroé)

(٨١) انظر: أ. لوکا، ١٩٦٢ ص ٢٣٥ — ٢٤٣.

(٨٢) أن دور ميروي في نشر الحديد بإفريقيا ليس أمراً مسلماً به، كما كان يعتقد. انظر: ب. ل. شيني ١٩٧١، ص ٩٤ — ٩٥ الذي استشهد أيضاً ب. ل. ك. ترغر، مرو ١٩٦٩، ص ٢٣ — ٥٠. يضاف إلى ذلك أن ميروي لم تكن الامكانية الوحيدة لانتشار الحديد، إذ من المحتمل أن يكون قد انتشر انطلاقاً من إفريقيا الشمالية، عبر مسالك الصحراء. انظر: ب. ل. شيني ١٩٦٧، ص ١٦٨، مع الإحالة إلى س. هوار، ١٩٦٠ ص ١٣٤ — ١٧٨ وكذلك نفس المرجع، ١٩٦٤ ص ٥٩ — ٥٠.

الخاتمة

من الطبيعة الخام الى انسانية متحررة

بقلم: ج. كي. زيربو

تبين الفصول السابقة بكل وضوح الدور الأساسي الذي لعبته افريقيا في فجر الأرملة الإنسانية. ان آسيا وافريقيا اللتين توجدان خارج نطاق العالم المتطور تقنيا كانتا تحتلان مكان الصدارة على مسرح التقدم طيلة الـ ١٥٠٠٠ قرنا الاول من تاريخ العالم انطلاقا من القرد الجنوبي الى القرد الانسان. ولقد كانت افريقيا، اعتمادا على معارفنا الحالية، المسرح الأساسي الذي برز فيه الانسان كنوع له الملك في هذه المعمورة، كما كانت منبع المجتمع السياسي. الا أن هذا الدور الممتاز في فترة ما قبل التاريخ حل محله طيلة الحقبة التاريخية من الألفيتين الأخيرتين، «قانون» التطور الذي تميز بالاستغلال والتدهور في دور الادوات.

افريقيا موطن الانسان؟

بالرغم من أننا لم نصل الى يقين مطلق في هذا الشأن لأن التاريخ الانساني الخفي منذ أصول البشرية، ونعني به التاريخ الخفياً في الاعماق، لم يستخرج تماما، ولأن الحفريات ما زالت في بدايتها في افريقيا، ولأن حوضه الأراضي تأتي على بقايا الأحفورات، بالرغم من ذلك، ترتب المكتشفات الجارية الى الآن تلك القارة في مرتبة أحد المواطن الكبرى ان لم تكن الموطن الاساسي لظاهرة البشرية. ان الامر صحيح في مستوى قرد كينيا (قرد فكري بكينيا — ١٢ مليون سنة) الذي يعتبره بعضهم بداية السلالة الانسانية. ولم يكن قرد راما بأفريقيا الفرع منه، قصد الهند انطلاقا من افريقيا. ويستدل على ذلك خاصة بمثال قرد الجنوب أو الانسان القرد (الانسان القرد الافريقي، أو برونيتوس)، الذي يعتبر بدون منازع البشري الاول، وهو من ذوي الرجلين، استكشف سياسب

أفريقيا الشرقية والوسطى. وقد أوحى القوالب القحفية تطوراً طرأ على الفصين بالحاجين ومجدراذ المخ، مما يشهد بالمستوى العالي الذي بلغته ملكاته الفكرية. وبلي ذلك الزننثروبيون، والنوع الذي أطلقت عليه تسمية متميزة وهو «الإنسان الماهر»، وفي ذلك خطوة كبرى إلى الأمام في الصعود إلى منزلة الإنسان.

وبلي ذلك الأرخبينثروبيون، أي (القردة الناس وناس الأطلس) الباليونثروبيون أ النيدارتاليون، وفي النهاية نوع الإنسان العارف (إنسان المنتيتا، بكينيا، وكديش بأثيوبيا) وقد لاحظ مؤلفون كثيرون، منذ العهد الأورغنسي البعيد، أن سماته كانت زنجية، فبقطع النظر عن انتفاء العلماء إلى النظرية العديدة المراكز أو المفردة المركز، فإنهم يعترفون جميعاً بوجود كل حلقات السلسلة بأفريقيا، والتي تربطنا بأقدم البشرات أو ما قبل الإنسانين، بما في ذلك الأنواع التي ظلت في مستوى بداية تكون الإنسان، ولم تستطع أن تترك رقباً تاريخياً يسمح لها ببلوغ الاستقامة ومنزلة آدم، ففي أفريقيا فقط ما زلنا نجد «الأسلاف» بل بني العمومة المحتملين للإنسان. إن فرد أفريقيا الكبرى لا سيما الغوريلا والشمبزي هما أقرب إلى الإنسان أكثر مما يقرب كل واحد منهما الثلاثة من أورانغ أوتنغ باندنوسيا (١). لأن آسيا باعتبار خطوط العرض السفلى، وأفريقيا خاصة باعتبار غوصها المشهود في نصف الكرة الأرضية الجنوبي، قد تخلصت من الأحوال المناخية الصعبة الموجودة بالمناطق الشمالية. ولذلك لم يوجد أثر واحد لأدوات حجرية طيلة المائتي ألف سنة من الكفري لأن أوروبا كانت مغطاة بقبعة جليدية، وكانت أفريقيا في ذلك الوقت تشتمل على ثلاث أنواع متعاقبة من الحجارة المنحوتة حسب تقنيات متطورة. والحقيقة أن خطوط العرض الاستوائية كانت تتميز في ذلك الوقت بمناخ «معتدل» صالح للحياة الحيوانية ولاكتماها. فإن أردنا العثور على أسباب ظهور الإنسان، لا يسعنا حينئذ إلا أن نعتمد الوسط الجغرافي والمناخي. ويمكن بعد ذلك الاعتماد على التكنولوجيا ثم على الوسط الاجتماعي.

التكيف مع الوسط

إن التكيف مع الوسط من أقوى العوامل التي كونت الإنسان منذ أصوله الأولى. لقد تكونت السمات المرفولوجية البدنية لسكان أفريقيا إلى اليوم في ذلك العهد الحيوي من ما قبل التاريخ. لقد كان للأحوال المناخية المدارية أثر على مرونة الجلد. ولونه الأسمر النحاسي أو الأسود، وغناه من حيث الغدد العرقية، والمناخ والشفاه المفتحة التي يختص بها عدد كبير من الأفارقة، والشه المتجعد، والمعقود أو الأحرش. إن اللون القاتم، والشعر الأجدد يحفظان مثلاً من الحرارة، ويضاف إلى ذلك أن الاستقامة التي كانت حاسمة في عملية التكوين البشري (Hominisation) والتي استوجبت أو استدعت إعادة تنظيم عظام الحزام، كانت مرتبطة حسب بعض مؤرخي ما قبل التاريخ بتكيف فرضه الوسط الجغرافي للسباسب ذات الأعشاب العالية بالانحداد الأفريقي الشرقية: فكان الأمر يستوجب دائماً الاستقامة لينظر من أعلاها لمراقبة الفريسة أو للهروب من الحيوانات المفترسة.

ولقد فضل علماء آخرون (من أمثال الستر هولز)^٥ الوسط المائي لا لكونه سبب وجود الحياة فحسب بل لأنه كان سببا لظهور البشر أيضا، وعلى هذا الأساس ترى السيدة البن مرغن أن هذه العملية قد حدثت بافر يفتيا على شواطئ البحيرات الكبرى أو على شواطئ المحيط، فهي تفسر الاستقامة بضرورة ترك الرأس فوق الماء الذي غيى فيه سعياء وراء الهروب من الوحوش الغالبة التي تنفر من الماء، وهي تفسر بواسطة الوسط المائي، بعض الخصائص الانسانية، مثل وجود طبقة دهنية تحت الجلد، والوضع المتقلص للأعضاء الجنسية عند المرأة، والامتداد المقابل الذي يختص به العضو الجنسي عند الرجل، وكذلك تفردنا بالبكاء بالنسبة لجميع المخلوقات ذات الرجلين (٢). لقد تبنت الوراثة تدريجيا هذه التكييفات البيولوجية وجعلتها خصائص قارة. وكذلك فرض التكيف مع الوسط أسلوب الادوات الانسانية الأولى، ولذلك يقول س. غابل بأصل أهلي للأدوات من النوع «القبايسي»، لأن أسلوب الصفائح، والمناقش والمكاشط يتكيف مع المادة الخام الممتازة وهي السيج.

الوسط التكنولوجي

ان الوسط التكنولوجي الذي أنشأوه كان العامل الثاني الذي سمح للبشر من أن يتغلبوا على الطبيعة وأن يتميزوا عليها.

لقد أصبح الإنسان عارفا لأنه كان صانعا. ان تحرر يدي الإنسان قد خلص العضلات وعظام الفكين والجمجمة من أعمال كثيرة فنشأ عن ذلك تحرر وتزايد القحف الجمجمي حيث تطورت المراكز الحساسة المحركة بالشرة الجمجمية. يضاف الى ذلك ان اليد جعلت الإنسان يجابه العالم الطبيعي. فهي وسيلة يتلقى بها عددا لا نهاية له من البلاغات التي تنظم المخ وتجعله قادرا على الحكم، لا سيما لبلوغ أهداف معينة بوسائل معينة (وذلك مبدأ الهوية والسببية).

فبعد أن هشم ناس ما قبل التاريخ الحجارة تهشبا خشنا وذلك بنحتها نحتا غير منتظم (ثقافة حصة انسان الأولدواني)، انتقلوا الى مرحلة أكثروعيا بالعمل الخلاق. ان وجود أدوات حجرية لها مستويات صنع مختلفة وذلك بمصانع شاسعة مثل المصانع الموجودة قرب كنشاسا يسمح بأن نستخلص أن الأداة المكتملة قد تصورها الانسان منذ المرحلة الأولى وكانت نجسم في شظايا متتالية. وفي ميدان آخر، من التقدم في هذا الميدان من النحت بقرع حصة بأخرى الى النحت باعتماد قارع أقل حدة وعروط الشكل (مثل مطرقة خشبية أو عظمية الخ) ثم اعتماد القرع غير المباشر (بمقص) وفي النهاية باعتماد الضغط كلما تعلق الأمر بالتهديات المتممة للأداة لا سيما فيما يتعلق بالحجارة الصغيرة.

ويشهد التقدم المستمر على سيطرة الانسان في ما قبل التاريخ على الأدوات. فتدرك لأول مرة من خلال تغير المادة الخام، واتقان صنع الادوات والاسلحة، التعلق بالنجاعة التي تزداد دقة، وبالتكيف لبلوغ غايات تزداد تعقدا، وذلك عنوان الذكاء بعينه، الذكاء الذي يحرك الانسان من السلوك النطفي الغريزي. ولذلك مر الانسان من ذي الوجهين الى الصناعات ذات الشظايا (بصر

^٥ في المطبوع ورد «Hardy».

(٢) الستر هولز، اختصاصية في علم الأحياء البحري، ذكرت البن مرغن: ١٩٧٣ ص ٣٣ الى ٥٥.

وليبيا والصحراء) وإلى الوجوه الأكثر اختصاصا في العهد العطاري (٣) والفورسميثي (٤) والسغوبائي (٥) والسيليائي (٦). ثم إلى أشكال أكثر جودة بالعصر الحجري الجديد (القابسي، والبولوطوني، والمغوسي، والألنتيني). ولا يمكن أن نرسم بمكان آخر غير إفريقيا خطا زمنيا واضحا يمكننا من أن نضبط بأرقام مدققة التنقل من مرحلة إلى أخرى إذ يبدو أن تختلف مراحل ما قبل التاريخ المختلفة قد تداخلت وتمازجت وتعايشت مدة عهود طويلة، لأننا نجد في نفس المستوى الطبقي الأرضي ذخائر من العصر الحجري البدائي وأدوات أكثر تطورا (الحجارة المصقولة) وأحيانا أشياء حديدية. ودليل ذلك أن السغوبائي الذي يبتدئ ببداية العهد الأول للحجارة يمتد إلى نهاية العصر الحجري الجديد. إن مجموع تلك التطورات التي تعتمد المبادلات والاستعارات المتعددة، يبرز في شكل موجات من الاختراعات ذات المدى التاريخي الطويل والتي تمازج أحيانا وتتدرج ضمن رسوم متصاعدة عامة تبلغ العهد التاريخي للعصور القديمة، وذلك بعد السيطرة على التقنيات الفلاحية الرعوية واختراع صناعة الفخار. ولقد انتشرت زراعة القمح والشعير والنباتات الكتانية مثل كتان الفيوم، كما انتشرت تربية الحيوانات الأهلية. ولا شك أن منطقتين أساسيتين تعتمدان الانتقاء والاستثمار الزراعيين قد اشتعا إشعاعا واضحا منذ الألفيتين السادسة أو الخامسة، وهما وادي النيل ووادي منعطف النيجر. فلقد اخترعت الذرة البيضاء والدخن الصغرى وبعض أنواع الأرز، والسمسم، والفول، وفي الجنوب الإنيام والدا المتميز بوقه وأليافه، والنخيل الزيتي، والكتولتي، ومن المحتمل نوع من القطن. ولقد استفاد وادي النيل فضلا عن ذلك من مكتشفات بلاد الرافدين مثل الأسم (القمح) والشعير والبصل، والعدس، والجلبان، والبطيخ، والتين، وجاء من آسيا القصب السكري، وأنواع أخرى من الأرز والموز الذي كان يأتي بدون شك من أثيوبيا. ولقد طورت أثيوبيا، زراعة القهوة تأثرا بالطرق الزراعية التي اخترعها فلاحو وادي النيل، وتدل مواقع ككورو ونهر نجورو بكينيا بدورها على أن زراعة الحبوب كانت متطورة.

ولقد ظلت نباتات عديدة تأهلت في ما قبل التاريخ قائمة وذلك في أشكال محسنة وهي ما انفكت تغذي إلى الآن الأفريقيين، ونتج عنها نزولهم بمكان معين واستقرارهم به والا لما نشأت حضارة متقدمة. إن العصر الحجري الجديد الذي لا يبدأ بأوروبا إلا بين ٣٠٠٠ سنة. و ٢٠٠٠ سنة، كان قد ابتداء ثلاثة آلاف سنة قبل ذلك بمصر. ولذلك فإن فخار المنتيتا (بكينيا) الذي يعود بدون شك إلى الألفية الخامسة، هو عنصر من العناصر التي تسمح بأن نحزم بأن معرفة الحزف قد بلغت الصحراء ومصر انطلاقا من الأراضي العالية من إفريقيا الشرقية. إن الفخار، وهو تجسيد ثوري، يصاحب تراكم البدايات لرأس المال المتمثل في أنواع الأمتعة التي انتزعها الصناعة الإنسانية من الطبيعة. وتبتدئ مع الطبخ المظاهر الأكثر جودة من الثقافة التي تسمح لنا بأن نضبط الوشبة (من حيث الكيف) التي قام بها الإنسان الماهر وكذلك نظامه الغذائي المتكون من الورق، والعروق واللحم المذبح، وهي تكون بالإيجاز «اقتصاد الفريسة».

(٣) برّالعامر بالجزائر.

(٤) من فرومسميث بجنوب إفريقيا.

(٥) من سغوباي بالضفة الغربية من بحيرة فكتوريا.

(٦) من سيليائي بقاطعة رأس الرجاء.

الدناميكية الاجتماعية

الا أن هذه التغيرات من حيث الكيف، والتي تؤكد وتعزز القابليات الأساسية للانسان، لم تتوفر الا بالاعتماد على التبادلات مع أبناء جنسه وعلى دينامية اجتماعية نقشت صورة الكائن الانساني بقدر ما فعلت النبضات النابعة من أعماق حيويته، ومن تعرجات فصوصه المخيمة أو من مشاعره العميقة. ولقد لعب العامل الاجتماعي دورا أساسيا في مستوى العدوان وذلك بالقضاء قضاء عنيقا على الضعفاء. ولذلك قضى الانسان العارف على النياندرتالين بعد نوع من حرب عالمية دامت عشرات الألفيات العديدة، ولكن البعد الاجتماعي لعب مع ذلك دورا إيجابيا «فالدراستات المقارنة لقوالب قشر الجمجمات لانسان العصر الحجري القديم وللانسان العارف، تبين فعلا أن الأجزاء القشرية الجمجمية المربوطة بوظائف العمل والكلام، وتنظيم سلوك الشخص ضمن المجموعة، بلغت تطورا هاما لدى الانسان العارف». (٧).

لقد لعبت العلاقات الاجتماعية دورا أساسيا في اكتساب الكلام ابتداء من الاشارات الصوتية الموروثة عن القدماء الحيوانيين الى الاصوات المنطوقة المركبة بطرق مختلفة حسب مقاطع. ان مرحلة الشثغة التي تعتمد المقاطع الاحادية كانت ترمي الى التنسب، حسب رد فعل مشروط، في حركة أو في فعل، أو في سلوك، أو في الاشارة الى حدث معين قد حدث أو على وشك الحدوث. وبإيجاز كان الكلام في الأول يعتمد العلاقة. فبقدر ما كان امتداد الفك يدفع الى الوراء بأعضاء الحلق و ينحدر بنقطة ربط اللسان، كان «مد الهواء المدفوع لا يتجه مباشرة نحو الشفاه كما هو الشأن عند القرد، بل كان يتجاوز سلسلة من الحواجز التي تراقبها المراكز الموجودة بالغلاف الجمجمي» (٨). وخلاصة الأمر هي أن الكلام عملية جدلية بين علم الاحياء والتقنيات والفكر، ولكن هذا يحصل بواسطة المجموعة. فان لم يكن للانسان شرك يجيبه كالصدي، وان لم يكن له مخاطب، لظل صامتا. ان الكلام يعتبر مكسبا ثمينا جدا حتى اعترف له بالنفوذ على الاشياء في التصورات الراجعة للسحر وتكون الاجناس الاخرية. ان الكلام خلاق، والكلام يعتبر أيضا سلاح التقدم. فهو ينقل المعارف، والتقاليد «والتراث المسموع». وهو الرصيد المعرفي الذي يعلو بالانسان نهائيا فوق الميكانيكية المغلقة الابدية للغريزة (٩). لقد دل الكلام على بداية السلطة الاجتماعية ونعني بذلك نشأة الزعامة والسلطة.

بروز المجتمعات السياسية

لئن كان الانسان العارف حيوانا سياسيا، فلقد كان كذلك طيلة عهد ما قبل التاريخ ولعله من الصعب أن نضبط أسباب ومراحل تلك العملية حسب العهود التاريخية. ولقد لعبت في هذا المجال تقنيات الانتاج والعلاقات الاجتماعية دورا هاما.

(٧) فينولود. ب. ياكيموف، ١٩٧٢، ص ٢.

(٨) انظر: فكتير بوناك، ١٩٧٢، ص ٦٩.

(٩) ألا تعتبر اللغة التي سمحت للانسان أن يتصور الاشياء المجردة، وأن يدخر المعلومات المكتسبة في تجربة الحياة اليومية وأن يبلغها الى الغير ألا تعتبر أبعد ما تختلف إمقدة العلمية في المجتمعات الغزاة العالمة؟ ب. فرهاغن، ١٩٧٤، ص ١٥٤.

التقنيات أولا

إن ما قبل البشر، والبشر المستنسين إلى ما قبل التاريخ الأفريقي كانوا منظمين حسب قطعان، وزمر وأفواج، وقرى باعتبار المهام التقنية المحسوسة التي لا يمكن القيام بها إلا ضمن المجموعة من أجل البقاء على قيد الحياة أو لبلوغ حياة أفضل.

لقد كان المسكن اطارا جماعيا ظهر منذ الفجر الأول للذكاء الانساني، فهناك دائما مكان للتلاقي، حتى ولو كان مؤقتا، ونقطة خصصة للاستراحة، وللدفاع وللموئين وكانت النار من حين لآخر تجمع أعضاء الفوج لتقويم من الحيوانات، والخوف والظلمات المحيطة بهم. ففي وادي أومو (بأثيوبيا) ما زالت بعض الآثار الحجرية المتواضعة، المترابكة عن قصد، ما زالت تصور على الأرض التصميم الخاص «بأكوخ» البشرات الأولى. ثم أخذت هذه المنشآت تتحسن حتى أصبحت قرى نيوليتيكية، تشرف على مواقع ممتازة محفوفة من الفياضانات والهجومات، وتكون على مقربة من عين ماء، مثللا على الجبل المنحدر في تيشيت — وألاطا (موريتانيا). ولقد كان صيد السمك وصيد الحيوانات بشكل خاص سببين من أسباب توحيد الأهداف، لأن أسلافنا في ما قبل التاريخ لم يكونوا قادرين على قتل الحيوانات التي تفوقهم قوة إلا باعتماد تنظيم تتعزز به قوتهم، فكانوا يجتمعون لمطاردة حيوانات كانوا يدفعون بها إلى الجبال المنحدرة وإلى الهوايا التي كان يترصد بها رفاق لهم للقضاء عليها. وكانوا ينصبون قرب عيون الماء التي يكثر بها للصيد في الفصل الجاف، فخابا عملاقة كانت تقع فيها الحيوانات. ولكن لا بد بعد ذلك من الاجهاز على الحيوان، وتقطيعه، ونقل أجزائه، وكل ذلك يستلزم نوعا من تقسيم العمل الذي سيتخذ معنى خاصا في العصر الحجري الجديد نظرا للتنوع المتزايد في النشاط. وفعلا لم يكن للشاب من العصر الحجري الأسفل خيار، لأن توجيه المهني كان أكليا إذ أنه لا يهتم إلا بجني الثمار، وبالصيد أو صيد السمك. ولقد أصبح الاختبار متنوعا في العصر الحجري الجديد، وذلك ما كان يستوجب توزيعا محكما للإشغال التي أصبحت شيئا فشيئا خاضعة للتخصص بالنسبة للنساء والرجال والفلاحين والرعاة، والاسكافيين وصناع الحجر والحشب والعظم، ثم الحدادين.

العلاقات الاجتماعية

إن هذا التنظيم الجديد والحاجة المتزايدة للادوات أدى إلى وجود فائض عن الحاجة وأتاح للبعض أن يخلص من مهمة المنتجين للثروات ليهتموا بالخدمات. وتنوعت العلاقات الاجتماعية بقدر ما تداخلت الجماعات وتساوت في المرتبة أو أخذ بعضها يتفوق على البعض الآخر في المنزل. وفي ذلك الوقت تكونت الاجناس واحتلت مكانتها. فكان أقدمها أشباه البوشيمين (خوأي — سان) والبيغمي — (الأقزام) ثم ظهر بعد ذلك الزنجي الطويل القامة (السوداني أو البتو) ومن ذلك انسان أسلار (وادي تلمسي في بلاد مالي)، فالزنجي الذي انتشر في قارات كثيرة (١٠) أخذ يتميز و يتطور حسب ما يبدو، منتصرا بافر يقيا، مسقط رأسه، انطلاقا من الصحراء، لكنه رد على أعقابها مثلما هو

(١٠) انظر: «الجنس الأسود كان يغني العالم منذ ٣٠.٠٠٠ سنة مضت». في «العلوم والمستقبل»، أكتوبر ١٩٥٤ عدد ٩٢ انظر أيضا موري: تاريخ الشرق ص ١٩.

الشأن بآسيا بالمضيق الدرافيدي في دكان، أو حلت محله أجناس تكيفت أحسن منه مع الاحوال المناخية غير المواتية كما في أوروبا. وذلك ما حدث أيضا بمناطق افرقيا الشمالية لصالح «أجناس» البحر المتوسط. ويرى فون أن التماثل الصغيرة الباقية من الأورنياسي تمثل نموذجاً حنسياً شبه زنجي، لأن هذا المؤلف يعتبر أن «الأورنياسيين شبه الزنجيين تواصلوا في حضارة تدعى بالحضارة القبابية» (١١) أما دي مولان دي لبلانت فانه كتب وعندئذ وقعت هجرة أشباه الزنوج من نوع الهونتوفاكتسحت شمال افرقيا انطلاقاً من افرقيا الجنوبية والوسطى... وفرضت بالقوة حضارة جديدة على أوروبا البحر المتوسط: وتلك هي الحضارة الأورنياسية (١٢) ولذلك يجب أن نستنتج من ذلك أن أجناساً هجينة كانت قديماً موجودة بتخوم العالم الأسود، وهذا ما يفسر وجود الأهالي ذوي السمات شبه الزنجية غير البارزة، والذين دعوا على عجل «بالجنس الأسمر» ومنهم قبائل الفلانيون. والاثيوبيون، والصوماليون، والنيليون الخ. ولقد حدث أيضاً ان استعمل تعسفاً مصطلح الجنس «الحامي».

وهناك ميدان آخر تبرز فيه بصفة ساطعة مظاهر الحياة الاجتماعية، وهو الفن في ما قبل التاريخ الافريقي المرسوم على جدران والفن التشكيلي. وما أن افرقيا كانت هي القارة الأكثر أهمية بالنسبة للتطور في ما قبل التاريخ، وكان فيه الأهالي من البشرات والانسانيات الأكثر قدماً، والأكثر عدداً والأكثر ابداعاً، فلا يستغرب أن يكون الفن في ما قبل التاريخ الافريقي أغنى فن بالعالم وأن يكون قد فرض سيطرة تعادل أهمية الموسيقى الزنجية الافريقية بعالمنا الحاضر. ان تلك الآثار يوجد معظمها بجنوب افرقيا وافرقيا الشرقية والصحراء ومصر والمصاطب العليا من الاطلس. وبالمطبع كان ذلك الفن يعكس التعجب الشخصي أمام الحياة الحيوانية الزاخرة الموجودة حول الملجأ. ان الأمر يتعلق في غالب الأحيان بفن اجتماعي يركز على مهام يومية أي «أشغال وأيام» المجموعة، ومجاهداتها للوحوش والعصابات المعادية لها، وما تعانيه من تأثر وفزع وما عرفت من أوقات ترويحوية وألعاب، وبإيجاز كل ما يتعلق باللمحظات الحاسمة في حياتها الجماعية. فلقد كانت سراديب ولوحات جدارية مكتظة وزاخرة بالرسوم تعكس على مرآة الصخور الحياة المتأججة أو الحياة الرفيعة للعشائر الانسانية الأولى. وكثيراً ما يعكس ذلك الفن الذي يعتمد تقنية صافية، اهتمامات المجموعة وقلقها الروحي. فهو يمثل رقصات افتتاح، وزمراً من الصيادين القنعين، وسحرة في عمل جاد، وسيدات وجوههن مدهونة بلون أبيض (مثلاً هو الشأن اليوم بافرقيا السوداء بمناسبة طقوس التنشئة، وهم يتسارعون كأنهم دعوا الى موعد غريب. ونشعر مع مرور الزمن بالانتقال تدريجياً من السحر الى الدين، وذلك ما يؤيد تطور الانسان نحو المجتمع السياسي في ما قبل التاريخ الافريقي اذ يقوم في البداية عدد من الزعماء بدور الرؤساء والكنهة في نفس الوقت.

ان نمو القوى المنتجة في العصر الحجري الجديد قد يكون فعلاً تسبب في زيادة ديمغرافية نشأ عنها بدورها هجرات مختلفة. والشاهد على ذلك هو الانتشار المشهود الذي طرأ على بعض ((المشاغل)) في ما قبل التاريخ التي تحتوي أدواتها الحجرية على قطع متقاربة الأسلوب. ان مدى الغارات والرحيل النهائي كان يتزايد بقدر ما كانت نجاعة الادوات والأسلحة تتطور لا سيما اذا خف وزنها. فافر قيا

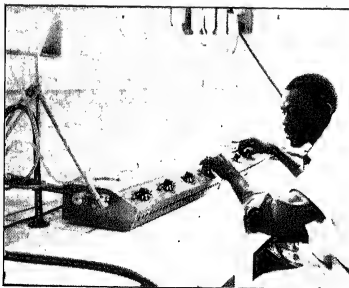
(١١) فون، ١٩٤٣ ص ١٤ - ١٥.

(١٢) ديولان دي لبلانت، باريس ١٩٤٧ ص ١٣.



● من الطبيعة الكيرالي انسانية
متحررة.

(١) انسان الغابات البدائي الجنوبي
مواقع الأومو. مجموعة متحف الانسان.
(تصوير أوستن)، رقم ٤٩٤ ١٤٩٥ ٧٧.
(٢) مختبر للبحوث الخاصة بتطوير دلتا نهر
السنغال، يقدم في روتشوبشبي
بالسنغال. (تصوير ب. نانتيه).



قارة كان بنو الانسان قد جابوها طولاً وعرضاً كما لو أن الآفاق العظيمة لتلك الأرض الكبرى تستوهم. فالحظ الذي تسجله هذه التداخلات المعبرة عن خريطة الأحاسيس الافريقية والذي يشكل لغزاً يحار أممته العقل الالكتروني لوعرض عليه، هو نتيجة تلك الحركة الدائبة للشعوب التي لها أصل يعود الى ألسنيات عديدة من السنين. و يبدو أن الهجرات الأولى انطلقت من عند قبائل «البانتو» بالشرق والشمال الشرقي لتنتشر نحو الغرب والشمال. و يبدو ابتداء من العصر الحجري الجديد، ان الاتجاه العام كان يعتمد النزول نحو الجنوب كأنه يكره الصحراء العملاقة التي كونت شريطاً بيئياً قد امتد نهايتها وسط القارة وتسلط على تلك المنطقة. ان ذلك المد نحو الجنوب والشرق (السودانيون، والبانتو والتيليون الخ) سيستمر طيلة العهد التاريخي الى القرن التاسع عشر الذي كانت فيه الموجات الاخيرة تأتي لتحتضر على سواحل البحر الجنوبي.

ان زعيم الثقافة المدجج بالحروز والأسلحة، والقائد للشيرة نحو التقدم أو الى المغامرة هو الجيد الذي سميت باسمه والذي كان يقود خطوات شعبه في مسيرة التاريخ، وهو الذي سيخترق اسمه القرون وتحيط به هالة من التقدير الذي يكاد يصبح من الطقوس. ذلك ان الهجرات كانت ظواهر جماعية وكانت تمثل مواقف لها عناصر ذات معنى اجتماعي عميق.

ان تلك الهجرات الناتجة عن الانتصار أو الخيبة في الوسط الأهلي، ستنهي الى نتائج غامضة. فهي تنشئ التقدم من جهة لأن موجاتها المتعاقبة والمتلاحقة ستضمن شيئاً فشيئاً الاستيلاء ان لم تكن السيطرة على القارة، وستشجع، اعتماداً على المبادلات التي تنسب فيها، ستشجع التجديد كتنجيد للأثر المتراكم إلا ان الهجرات في تخفيفها للكثافة السكانية بقضاء لا حدود له، ستعيق المجموعات الانسانية من بلوغ عتبة التجمع التي تفرض على الآلاف المؤلفة من البشر أن تنافس في ميدان الاختراعات سعياً وراء البقاء على قيد الحياة. ان الذوبان في الوسط الجغرافي يضاعف سيطرة ذلك الوسط ويميل الى ارجاع العنصر الافريقي الأول الى أصول غامضة كان الانسان يولد فيها ولادة مؤلمة من خلال القشرة المظلمة للعالم الغامض.

الحركة التاريخية

ان لحمة التطور الانساني التي وضعنا باختصار مفرط، معالمها ومراحلها، تبين لنا إنسان ما قبل التاريخ الافريقي وهو يتخلص ببناء من الطبيعة لينغمس شيئاً فشيئاً في المجتمع الانساني، وذلك في شكل فرق وجماعات أصلية، تتجمع وتتفرق لتتركب في أشكال أخرى، وبعتماد تقنيات ترتكز أكثر فأكثر على أدوات أو أسلحة من حديد، وفي زواجات أو مجاهبات تصدح بأول أغاني الحب ومقارعة الأسلحة الأولى في التاريخ. ولذلك فإن ما يسترعي الانتباه في هذا التصاعد، هو دوافع المجموعات الأصلية المتولدة من ما قبل التاريخ، المنطلقة في المسيرة التاريخية الى أن انتهى بها المطاف في قلب القرن العشرين. فلو جعلنا التاريخ يبتدئ من استعمال الأدوات الحديدية، لأمكن لنا أن نقول ان ما قبل التاريخ قد دام في مناطق عديدة افريقية حتى الى حدود سنة ١٠٠٠، بل يوجد في القرن العشرين عدد من الجماعات الافريقية التي لم تكن «زنجية عتيقة» فحسب، بل كانت لها هياكل انتاجية وعلاقات اجتماعية اقتصادية لا تختلف كثيراً عن الهياكل والعلاقات الموجودة في ما قبل التاريخ، باستثناء استعمال الأدوات الحديدية ان تقنيات الاتزام في الصيد قد أعادت، في

قلب القرن العشرين، ومن خلال ألفيات من السنين، نفس تقنيات الأفارقة في ما قبل التاريخ. ويقطع النظر عن المنزلة الباهرة التي بلغت الحضارة المصرية، والاعمال البارزة أو المجيدة التي حققها ممالك وامبراطوريات افريقية، فان ذلك الواقع الضخم يجاهدته ونسيجه على خط تطور المجتمعات الافريقية ويستدعي منا أن نقف عنده لنضع خاتمتنا. ما من شك أن «اتجاه التاريخ» ما كان أبداً اتجاه واحد خضعت له عقول بني الانسان خضوعاً اجماعياً. والآراء في هذا الشأن متعددة.

فلقد كان لماركس وتيلاردي شردان آراؤهما. ولقد أُنحيت افريقيا مفكرين كان لبعضهم تصورات عميقة تتعلق بدبنامية واتجاه الحركة التاريخية، فلقد خطا القديس أغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) خطوة عملاقة بالرؤية التاريخية وذلك بقطع الصلة مع نظرية الدور والتسلسل التي كانت سائدة في ذلك العهد.

وكان يقول بأنه يوجد، من الخطيئة الأولى الى يوم الحساب، يوجد مسار لا رجعة فيه وضعته قدرة الاله، ويمكن للانسان ان يبلغ فيه النجاة أو الخسران، بحسب ما قدمت يداه من أعمال. ونحن اذ ندرس تاريخ العالم الديني، فلنكتسب فيه العلامات المبشرة بالعالم العلوي. اما ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦)، وان كان يعترف ان لله سلطاناً كبيراً على مصير العباد، فهو واضح التاريخ كعلم يعتمد بحاله على براهين يقرأها العقل. «يجب الاعتماد على ميزان حكما، لأن كل حقيقة يمكن أن يتصورها العقل». يضاف الى ذلك أن موضوع ذلك العلم بالنسبة اليه ليس الزبد السطحي فحسب من الاحداث، اذ يقول «ما المنفعة من رواية أسماء زوجات ملك قديم، والكتابة المسحونة على خاتمه؟» فهو يدرس خاصة طرق الانتاج وفناذج العيش. والعلاقات الانسانية، وبايجاز الحضارة (أو العمران البشري). وفي النهاية فهو، سعياً وراء تفسير عملية التطور التاريخي، يضع نظرية جدلية فيقابل بين دور الروح التضامنية الداعية الى المساواة (أو العصبية) وبين استبداد الملك في كل من المناطق البدوية أو الرعوية (العمران البدوي) وفي المدن (العمران الحضري).

وهكذا، فهناك انتقال دائم ومتبادل من سيطرة شكل من أشكال الحضارة الى سيطرة الشكل الآخر، من دون أن يخضع ذلك لتواتر دوري. اذ ينشأ كل مرة في مستوى أعلى يتولد عنه نوع من التطور الولوي. فابن خلدون عندما قال مؤكداً «بأن الاختلافات في العوائد والحكم تختلف الشعوب راجعة للطرق التي يستعملها كل منها للاستزاق» فهو قد عبر بكل وضوح، وبذلك سبق غيره بعدة قرون، عبر عن أحد المبادئ الأساسية التي تقوم عليها المادية التاريخية لكارل ماركس. فهذا الأخير، بعد أن حلل بما هو معهود عنه من دقة ومقدرة على التركيب قانون تطوع العالم الغربي، تعرض لأنماط الانتاج الدخيلة، فانتفى في ١٨٥٩م الى شرح تصوره «لطريقة الانتاج الآسيوي»، وذلك في كتاب «فورمان». ان هذه الطريقة هي إحدى الأشكال الثلاثة من المجموعات الفلاحية «الطبيعية» المعتمدة على ملكية الأرض الجماعية. وتختص طريقة الانتاج الآسيوي بوجود مجموعات قروية في القاعدة، وهذه المجموعات خاضعة لهيئة تابعة للدولة تقوم بتحصيل الفائض من انتاج الفلاحين الذين يخضعون لا لعبودية فردية بل لعبودية عامة تستبد بهم كمجموعة. ولذلك كان لأهل الحل والعقد، فضلاً عن سلطان الوظيفة العمومية، سلطان آخر يمكن تلك المجموعة العليا من استغلال

المجموعة السفلى، فستبذل الأولى بملكية الأرض (١٣)، وتقوم بتسويق الفائض من الانتاج وتنضج بالمشاريع الكبرى، ولا سيما مشاريع الري للنهوض بالانتاج، وتقرض بإيجار على الجماهير سلطة توصف «بالاستبداد الشرقي». إلا أن المعلومات الاثرية والانثروبولوجية المتوفرة منذ ماركس قد بينت أن تطور بعض المجتمعات لا يخضع للمراحل الخمسة التي حددها ماركس في «رأس المال» والتي جعل منها ستالين سنة لا تبديل فيها، ولا يخضع للنوع السائد في ما قبل من «طريقة الانتاج الآسيوية» التي اعتبرها نوعاً من أنواع الانتقال الى الدولة، وذلك بالنسبة للمجتمعات الغير الأوروبية. ان التحليل الموضوعي للبنىات الافريقية لا يسمح بأن نستخلص جميع الخصائص التي عبر عنها ماركس للثروة على تعاقب مختلف طرق الانتاج.

ففي مرحلة المجموعة البدائية، لا يدل الواقع الافريقي على النزوع الى الملكية، خلافاً للأشكال الأوروبية (القديمة والجديدة) التي تتميز بكون الملكية الخاصة تتطور ضمن الملكية الجماعية (١٤) باستثناء هذه الخاصة البارزة، فالمجموعات الأصلية الافريقية تحتضن بنفس الخصائص الموجودة في ما تبقى من العالم. وتبدو كذلك بوضوح الاختلافات التي تميز البنىات الافريقية عن طريقة الانتاج الآسيوية، فالسلطة العليا، أي الدولة، لا تعتبر هي مالكة الأرض، في المجموعات القروية الافريقية مثلاً لا يعتبر الخواص ملاكاً. فالدولة لا تقوم عامة بمشاريع كبرى. أما بنية السلطة نفسها، من حيث كونها بنية قوية، فهي لا تندرج ضمن التحديد الخاص بطريقة الانتاج، وإن كانت تقوم دليلاً على تشكل الطبقات، لكن تلك البنية لا تدل في افريقيا على خصائص «الاستبداد الشرقي» الذي وصفه ماركس (١٥). ونحن لا ننكر وجود حالات من الاستبداد القائم على سفح الدماء، ولكن على العموم كانت سلطة الدولة تكتسي دائماً بأفريقيا شكل نظام ملكي معتدل تحيط به هياكل رسمية وتقاليد تعتبر دستورياً بمعنى الكلمة، وإن كانت غير مكتوبة، وتحيط به أيضاً سلطات موروثية في الغالب عن التنظيم أو الطبقية الاجتماعية السابقين. ويصدق ذلك حتى على امبراطوريات مجيد وناجحة مثل امبراطورية مالي، تلك الامبراطوريات التي أعجب بها ابن بطوطة عندما وصفها في القرن الرابع عشر، وكانت تمتد على أقطار شاسعة. فالحكم اللامركزي فيها — وهو اختيار مقصود — قد فسح المجال للمجموعات كتي تتمتع على مستوى القاعدة باستقلال ذاتي حقيقي. وعلى كل حال لما كانت الكتابة قليلة الاستعمال على العموم، ولما كانت تقنيات ووسائل النقل قليلة التطور، فإن سلطة الامبراطورية المركزية كانت دائماً منقوصة نظراً للمسافات التي كانت تتسبب دائماً في التهديد الدائم بخروج الرعايا عن طاعة الحكم الاستبدادي.

يضاف الى ذلك أن فائض المجموعات القاعدية بأفريقيا كان ضئيلاً، الا حينما يوجد احتكار الدولة لمواد نفيسة مثل الذهب في غانا أو أشتنتي، ومثل العاج والملح الخ... وحتى في هذه الحال يجب ألا ننسى الخدمات التي توفرها الرئاسة ومن ذلك المحافظة على الأمن، والعدالة، وتنظيم

(١٣) ان المقصود بالوحدة العليا هو «مالك الأهل» أو «مالك الموجد». لأن ملكية «يؤكد أحياناً على كون الدولة هي نفسها المالك الحقيقي للأرض، ويلاحظ أحياناً أخرى أهمية حقوق الملكية بالنسبة للمجموعات القروية فلا يوجد بدون شك تعارض بين هاتين الوجهتين». ج. شستون ١٩٦٩، ٢٩.

(١٤) «لا توجد ملكية خاصة للأرض حسب مفهوم القانون الروماني أو القانون المدني» ج. سوري كنال ١٩٦٤ ص ٨.

(١٥) «ان كنا نعتني بالاستبداد سلطة مطلقة واعتباطية، فلا يمكن لنا إلا أن نفي وجود معنى الاستبداد الافريقي». ج. سوري كنال، ص ١٢٥، وهو يقول «ونحن نعتقد أنه لا داعي الى البحث في تنظيم الدول الافريقية عن طريقة مستعارة من آسيا، فلا يمكن أن نجد إلا بعض الشبه السطحي». المرجع المذكور ص ١٢٢.

الاسواق الخ، ولا ان نستنقص كون جزء كبير من الرسوم والضرائب كان يوزع في الاحتفالات التقليدية طبقا لقانون الشرف السائد بالنسبة للذين يجب أن يعيشوا عيشة الاشراف (١٦) وذلك ما يفسر الكرم الحائمي الذي عبر عنه كنكو موسى البهي، امبراطور مالي، اثر حجة الفاخر سنة ١٣٣٤. أما طريقة الانتاج المعتمدة على استخدام العبيد فهل كانت موجودة بافريقيا؟ وهنا نكون ميالين الى الاجابة بالسلب. فالرق، لم يلعب في جميع المجتمعات جنوب الصحراء الا دورا هامشيا. فالعبيد أو بالأحرى الأسرى كلهم أسرى حرب، فالأسر لا يُخضع الانسان ليصبح ملكا محضا حسب المفهوم الذي حدده كاتون... فالعبد الافريقي كان يتمتع غالبا بنوع من حق الملكية فهو لا يستغل استغلال الآلة أو الحيوان. فأسير الحرب، ان لم يضحى به تضحية طفوسية، مثلما يقع أحيانا، فهو يدمج بسرعة ضمن الأسرة التي يكون ملكا من أملاكها الجماعية. فهو عنصر انساني اضافي يتمتع بعنق شرعي أو واقعي في ظرف قصير. فان استعمل الأسرى مشاة في الجيش، فانهم كثيرا ما يجدون امتيازات هامة في تلك المهنة و يكونون أحيانا ممثلين، مثلما هو الشأن في ناحية كابور داخل الحكومة من خلال شخص القائد. وفي الآشنتي كان يمنع منعا باتا ان يذكر الأصل العبيدي للشخص وذلك للمحافظة على الوحدة «القومية». فيمكن لأسير قديم أن يصبح رئيس قرية «فحال الأسر» وان كانت موجودة بكثرة في افريقيا، الا أنها لا تستوجب الدور المعين لها في الانتاج الذي تختص به طبقة اجتماعية» (١٧).

أما في المناطق التي يأخذ فيها الرق أبعادا واسعة وطابعا آخر من حيث الكيف كما هو الشأن في الداهومي، والآشنتي، وزنزيبار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، يصبح الأمر يتعلق ببنيات لها صلة بطريقة انتاج غالبية. فاهو شأن طريقة الانتاج الاقطاعية؟ لقد أدى التشبيه المتسرع بعض المؤلفين الى وصف رئيس القبيلة «بالاقطاعية» (١٨). وهنا أيضا لا يوجد امتلاك، ولا منحة خاصة للارض، وبالتالي فلا يوجد اقطاع. ان الارض متاع جماعي لا يقتصب الى حد أن الفريق الغازي الذي يستولي على السلطة السياسية، كثيرا ما يترك مسؤولية الارض الجماعية الى المتصرف الأهلي، وهو «رئيس الأرض» أي (التنغ سوبا موسى) مثلاً، لأن سلطة الاستقرارية كانت «تمارس على الشروات والناس، دون أن تنطبق على ملكية الأرض التي تعتبر من صلاحيات الأهالي» (١٩). «فالشرف في افريقيا لم يتحول إلى قيمة تجارية، لأنه ظل دائما صفة وراثية لا يمكن لأحد أن يسلب منها صاحبها».

(١٦) أن ج. ماكبي، بعد أن لاحظ أن ج. بالانديبي يرى أن افن الذي يجب على أصحاب السلطة السياسية دفعه لا يدفعه كل في نهاية الامر «يتعمد فيها يخصصه بأن الخدمات العامة التي يقدمها الرؤساء لا تستوجب سلطة زجرية مثلما هو الشأن بالمجتمعات الكبرى، الغير المنسقة والخبرة. ففي غير ذلك يكفي الاعتماد على شكية الانساب وعقوباتها التي لا تفرض بالقوة». وهو يعمق بقوله قياسا شتاء اعادة التوزيع، يستولي الحاكم على فائض الجميع التقليدي من دون مقابل اقتصادي ج. ماكبي. ١٩٧٠، ص ٩٩-١٠١.

(١٧) ج. سوري كتال المذكور أعلاه ص ١١٩. انظر أيضا دينغ أ. أ. مرم. C.E.R.M. بار ص عدد ١١٤ - ١٩٧٤. وهو نقد عميق ومؤثر للنظريات الماركسية «المطاطية» التي يقول بها عيموت ديوب. (١٨) فحتى اذا اعتقدنا مثل ما يعتقد ج. ماكبي، مستهدا بكلام بلوغ وغنشوف، بأن «المهم في الامر هو العلاقة بين السيد والسود لا الاقطاع» يتضح انه لا يمكن أن نفصل الوجد عن الآخر ان العلاقات «الاقطاعية» التي يصفها المؤلف تبدو من خصائص المجتمعات العائشة بين البحيرات وهي تربط غالبا بين أعضاء الطبقة العليا كما هو الشأن في أنكوبلي أو في بوجا، فهل هذه الحالة مشابهة للحالة السائدة في أوروبا مثلا؟ - انظر ف. كابور، ١٩٦٢، ص ٦٠٩ - ٦٣٣.

(١٩) انظر ف. كابوري، ١٩٦٢، ص ٦٠٩ - ٦٣٣.

وأخيرا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار البنيات الاجتماعية الاقتصادية مثل النظام العائلي المعتمد على الأم الذي تختص به المجتمعات الافريقية، على الأقل في أول الأمر، وذلك قبل أن تطرأ عليه تأثيرات جاءت من الاسلام ومن الحضارة الاوربية الخ... وفرضت النظام الذي يعتمد الأب. ان تلك البنية الاجتماعية الهامة المعبرة عن دور المرأة الكبير في المجموعة، كانت لها نتائج اقتصادية وسياسية وروحية لأنها كانت تلعب دورا ملحوظا سواء في انتقال الثروات المادية أو في انتقال حق وراثته العرش الملكي، مثلما هو الشأن في مملكة غانا القديمة. فيبدو أن صلة الأمومية آتية من أعماق ما قبل التاريخ الافريقي عندما أبرز الاستقرار الحاصل في العصر الحجري الجديد أهمية دور المرأة في المنزل الى حد أن جعل منها العنصر المركز في النظام الاجتماعي، فنتج عن ذلك عادات متعددة مثل «القرباة على سبيل الفكاهة»، والزواج بالأخت، ودفع المهر لأهل الزوجة المنتظرة الخ.

في هذه الأحوال كيف يمكن أن نصف خط التطور الخاص بالمجتمعات الافريقية التي كيفها ما قبل التاريخ؟ يجب أولا أن نلاحظ ان افريقيا قد لعبت في العلاقات بين القارات دور القطب والقلب المركزي لاختراع التقنيات وانتشارها. الا ان تلك النتائج قد تحولت بسرعة الى حالة من التبعية والهامشية نظرا لعوامل متنافرة داخلية ذكرت سابقا، ونظرا أيضا الى امتصاص ثروات وخدمات افريقيا دون مقابل كاف لصالح تلك القارة، وذلك مثلا في شكل نقل مكافئ من رؤوس الأموال والتقنيات. ان استغلال افريقيا مدة ألفيات عديدة من السنين قد مر بثلاث فترات حاسمة: أولاها حدثت في العهد القديم، بعد انحطاط مصر، إذ ان وادي النيل والمقاطعات الرومانية الباقية من افريقيا الشمالية قد أصبحت نهبا وغزنا يوفر الحبوب لروما. ان الامبراطورية قد استجلبت فضلا عن المواد الغذائية، عددا كبيرا من الحيوانات الوحشة من افريقيا، ومبارزين، وعبيدا للعمل في الجيش والقصور والمزارع الكبرى وألعاب السيرك الفتاكة. وفي القرن السادس عشر بدأ العهد المظلم لتجارة الرقيق السود، اما القرن التاسع عشر فقد تميز بتركيز التبعية وذلك باحتلال الارض واستعمارها. ان تراكم رأس المال بأوروبا ونهضة الثورة الصناعية، وهما ظاهرتان متناظرتان ومتكاملتان، ما كانا لينجحا لولا هذه المساهمة المفروضة على آسيا، والامر يتكثف وخاصة افريقيا.

وموازة لذلك وطيلة قرون من التطور الداخلي الذي لم يتعرض لكثير من الاطماع الخارجية (بين العهد القديم والقرن السادس عشر) فقد شكلت التناقضات الداخلية الهديدة في النظام الافريقي نفسه عراقيل بنوية داخلية دون أن ينشأ عنها عن طريق الضغط الداخلي الانتقال الى بنى أكثر تطورا. وذلك ما عبر عنه بغمق ج، سوري كنال في حديثه عن طريقة الانتاج الآشورية (وهذه الملاحظة صالحة بالاحرى للحالة الافريقية بما في ذلك الفترة الاستعمارية). إن هذا النظام يؤدي الاستغلال الطبقي الى تعزيز البنى القائمة على الملكية الجماعية للارض عوض أن يقضي عليها: فهي تشكل الاطار الذي يؤخذ منه فائض الانتاج، وذلك هو الاستغلال بعينه. وفعلا فلقد كانت المجموعات الشاعدية هي التي توفر دفع الفائض الانتاجي. ان افريقيا بنظامها العشائري وقرها الباقية دائما، لم تكن تميل الى الملكية الخاصة للارض (وهي ثروة مشاعة وقيمة جدا، لكنها مجانية مثل الهواء)، فظلت مدة طويلة لا تشهد هذا الصراع الكبير بين الطبقات الاجتماعية. الا أن ذلك لم

يكن السبب الوحيد للوضعية البائدة التي آلت إليها الاشكال الاجتماعية بافر يقيا. فلمستوى الضعيف للتفتيات والقوى المنتجة كان — على متوال دائرة مفرغة — السبب والنتيجة لتشتت شمل السكان في فضاء لا يمكن التحكم فيه لأنه فسيح جدا.

ونظرا الى الحواجز الطبيعية، لم تتخضم حركة التجارة البعيدة المدى الا قليلا، وكانت تشمل بعض المواد الفاخرة المقصور تداولها على الأسواق الخاصة بالقصور. ونحن لا نأخذ هنا بفكرة بليخانوف الخاصة «بالوسط الجغرافي»، لأن هذا الوسط ان هو الا وجه من وجوه الوسط التاريخي ومع ذلك يجب أن نأخذ بعين الاعتبار العراقيل المناخية المذكورة في مدخل هذا المجلد: وبما يؤيد هذا القول، أنه كلما رفعت تلك الحواجز الطبيعية كليا أو جزئيا، مثلما هو الشأن بوادي النيل، وعلى مستوى أقل بوادي النيجر، تحررت الدينامية الاجتماعية بفضل النهضة المصاحبة لكثافة السكان وللملكية الخاصة.

وهكذا فلم تشهد افر يقيا (السوداء) مرحلة رق ولا مرحلة اقطاعية مثلما هو الشأن بأوروبا (٢٠). بل لا يمكن أن نقول ان النظم الافريقية هي وليدة تلك النظم الاقتصادية الاجتماعية، لأنه كثيرا ما تعوزها العناصر المكونة الأساسية. فهل هذا يعني وجوب عزل افر يقيا عن قوانين التطور العامة للانسانية جمعا؟ طبعاً لا. ولكن، حتى وإن كانت تلك القوانين مشتركة بين الناس، وإن كنا نفر أن الاساسي من المقولات المنهجية العامة للمادية التاريخية صالحة بأن تطبق في كل مكان فلا بد أن نعود الى أمر أساسي وهو التوافقات (الغير الآلية) التي نلاحظها قائمة بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج، وكذلك الانتقال (الغير الآلي) من أشكال المجتمعات دون طبقات، الى أشكال اجتماعية فيها صراع الطبقات. في هذه الحال ينبغي دراسة الواقع الافريقي لا في اطار الرجوع الى كارل ماركس، بل في اطار الاستشهاد بأقواله. فإن كان العقل واحدا، فإن العلم يفرض أن نكيف تناول العقلي بحسب كل موضوع ندرسه.

وبإيجاز نلاحظ في افر يقيا الدوام المشهود لطريقة انتاج ذاتي ينتمي الى الأنواع الاخرى من المجموعات «البدائية» لكنه يتميز بفروق أساسية، لا سيما النفور من الملكية الخاصة أو ملكية الدولة (٢١).

ثم وقع الانتقال بالتدرج الى أشكال دولية قد برزت بنفسها منذ مدة طويلة بشبكة العلاقات قبل تكون الدول القاعدية، ثم تخلصت تدريجيا بفعل قوة داخلية وضغط خارجي، من عقبة العهد الجماعي البدائي الذي ليس له بنية، لتتنظم على أساس الملكية الخاصة وعلى جهاز الدولة، اعتمادا على طريقة انتاج رأسمالية، غالبية أولا، ثم احتكارية.

وبالفعل قامت الدولة الاستعمارية كمنصرف في الأسواق التي فتحتها هنا وهناك، الى أن حلت محلها الدولة الرأسمالية المستقلة في نصف القرن العشري، وفرضت طريقة أخرى هي الانتقال من الحالة الغالبة الجماعية الأصلية الى الحالة الغالبة الرأسمالية ثم الى النهج الاشتراكي في التنمية.

(٢٠) يقول ج. شسنو، ١٩٦٩ في ص ٣٦: «والذي يبدو ثابتا، هو الاستحالة المطلقة في اعتبار المجتمعات الافريقية ما قبل الاستعمار باستثناء البعض القليل منها، مجتمعات رقى أو اقطاعية حسب المعنى المتعارف.

(٢١) النفور ليس مربوطا بقانون وراثي خاص، ولا «بطبيعة» مختلفة لكنه مربوط بوسط تاريخي أصيل.

ومهما كانت الحال، يوجد واقع يفرض نفسه في افريقيا وهو أنه، لأسباب بنوية لم تبدل في جوهرها منذ خمسمائة سنة على الأقل، ونظرا الى تزايد السكان، يسود افريقيا اليوم ركود القوى الانتاجية، وهو مصحوب أحيانا ببعض النمو المبعثر والمحلي، ولكن بدون تطور. وهذا الركود مصحوب أيضا بفتح في خناق للعادة، وبتعزيز العلاقات بين الأشخاص، كما لو أن الافارقة قد وظفوا فيها كل طاقاتهم الخلاقة (٢٢). وبالاجمال فان الحضارة المادية المنطلقة من المناطق المدارية الافريقية الآسيوية طويلة ما قبل التاريخ، قد صعدت نحو المناطق الشمالية حتى البرزخ الأوربي حيث استقرت وتلاأثت ساطعة لأنها اعتمدت على عملية تراكمية جمعت بين التقنيات، وامتلاك رؤوس الأموال. فهل يأتي تحول هذا النظام الكوني من قلبه الغربي أو من البلدان المحيطة به، فيعيد التاريخ نفسه، ممتثلا في دور البرابرة مع الامبراطورية الرومانية؟ ذلك ما سيجيب عنه التاريخ، ويمكن لنا من الآن ان نؤكد ان ما قبل تاريخ افريقيا هو تاريخ انتقال مقدّم بشري متميز ثم هو تاريخ انسانية الطبيعة بفضل ذلك العنصر المسؤول عن كل تقدم. وهي مسيرة طويلة، أخذ فيها التوازن يختل تدريجيا بين الطبيعة والانسان، لصالح العقل. فبقيت المحافظة على التوازن أو عدم التوازن بين المجموعات الانسانية نفسها ضمن القارة ونجاه الخارج. فيقدر ما تتزايد قوى الانتاج، تشتد الصراعات وتتقوى روح المصلحة وحب السلطة. ان الصراعات التحررية السائدة اليوم في بعض الأقطار الافريقية، تقف صامدة أمام ذلك السعي الى إخضاع القارة ضمن نظام يمكن أن نسميه طريقة الانتاج الافريقية المتخلفة. ولكن القارة الافريقية، منذ أن أخذ الانسان الماهر يخطو خطواته الأولى المستعشرة، انطلق فيها منذ ذلك العهد الكفاح من أجل التحرر، وتوفرت فيها نفس العزمة المتعنتة والمندفعة نحو بلوغ مستقبل أفضل، وذلك بالتخلص من الخضوع للطبيعة ثم للانسان. وباختصار فان الخلق، والخلق الذاتي للانسان الذي ابتدا بافريقيا منذ آلاف الآلاف من

السنين، ما انفك الى يومنا هذا موضوع الساعة. وبعبارة أخرى، فهذا يعني الى حد ما، أن ما قبل تاريخ افريقيا لم ينته بعد.

(٢٢) ولهذا فان تحليل «طريقة الانتاج الافريقية المحتملة»، تستدعي عناية خاصة «بالنظم الاجتماعية، والسياسية، والايدولوجية» المرجع الى تحاليل غرمسكي ون. بولنتاس.

أعضاء اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ أفريقيا العام *

- الأستاذ ج. ف. أ. أجايي (نيجيريا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
المشرف على المجلد السادس
الأستاذ ف. أ. ألبوكورك موروا (البرازيل) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
الأستاذ أ. أدو بواهن (غانا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
المشرف على المجلد السابع
سعادة السيد بوبو هاما (النيجر) — ١٩٧١ — ١٩٧٨
سعادة السيدة موتومبا بول (زامبيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
الأستاذ د. تشانيوا (زيمبابوي) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
الأستاذ ف. كورتن (الولايات المتحدة الأمريكية) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
الأستاذ ج. ديفيس (فرنسا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
الأستاذ منويل ديفويلا (أنجولا) — ١٩٧٨ — ١٩٧٩
الأستاذ ه. جعيط (تونس) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
الأستاذ الشيخ أنتا ديوب (السنغال) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
الأستاذ ج. د. فاج (المملكة المتحدة) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
سعادة السيد محمد الفاسي (المغرب) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
المشرف على المجلد الثالث
الأستاذ ج. ل. فرانكو (كوبا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
السيد موسى ح. أ. جلال (الصومال) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
الأستاذ ألكسندر ف. ل. جروتانيلي (إيطاليا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
الأستاذ آيكي هابلاند (جمهورية ألمانيا الاتحادية) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
الدكتور أكليلو هابتي (إثيوبيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
سعادة السيد م. أحمد هامباتي (مالي) — ١٩٧١ — ١٩٧٨

- الدكتور ادر يس س. الحراير (ليبيا) — ١٩٧٨ — ١٩٧٩
- الدكتور ايفان هريك (تشيكوسلوفاكيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الدكتورة أبيودو جونز (ليبيريا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- القس الكسيس كاجامي (رواندا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الأستاذ أ. م. كيمايو (تنزانيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الأستاذ ج. كى زيربو (فولتا العليا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- المشرف على المجلد الأول
- السيد ديودي لايا (النيجر) — ١٩٧٩
- الدكتور أ. لتنيف (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الدكتور جمال مختار (مصر) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- المشرف على المجلد الثاني
- الأستاذ ف. موتيوا (أوغندا) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
- الأستاذ د. ت. نيان (السنغال) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- المشرف على المجلد الرابع
- الأستاذ ل. د. نجكونجو (بوتسوانا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الأستاذ ت. اوبنجا (جمهورية الكونغو الشعبية) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
- الأستاذ ب. أ. أوجوت (كينيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- المشرف على المجلد الخامس
- الأستاذ س. رافوجنا هاري (مدغشقر) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- السيد ولترودني (غيانا) — ١٩٧٩
- الأستاذ مكى شبيكة (السودان) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الأستاذ ي. أ. طالب (سنغافورة) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
- الأستاذ أفيلينو تكسيرا دا موتا (البرتغال) — ١٩٧٨ — ١٩٧٩
- سيادة المطران ت. تشييانجو (زائير) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الأستاذ جان فانسينا (بلجيكا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- صاحب الاحترام الدكتور ايريك و يليامز (إثريينداد وتوباجو) — ١٩٧٦ — ١٩٧٨
- الأستاذ ع. مزروى (كينيا)
- المشرف على المجلد الثامن (ليس عضوا باللجنة)
- أمانة اللجنة العلمية الدولية لتحري تاريخ أفريقيا العام:
- السيد موريس جليلي، قسم دراسة الثقافات، اليونسكو،
- ١ شارع ميوليس، ٧٥٠١٥ باريس

بيانات عن مؤلفي المجلد الأول

مقدمة

ج. كي — زيربو (فولتا العليا). أخصائي منهجية تاريخ أفريقيا؛ وضع عدة مؤلفات عن أفريقيا السوداء وتاريخها، أستاذ التاريخ بمركز التعليم العالي في واجادوجو، الأمين العام للمجلس الأفريقي للمخاشي للتعليم العالي.

الفصل الأول

ج. د فاج (المملكة المتحدة). أخصائي تاريخ أفريقيا الغربية؛ وضع واشترك في وضع مؤلفات عن تاريخ أفريقيا. نائب رئيس جامعة برمنجهام والمدير السابق لمركز الدراسات الأفريقية بجامعة برمنجهام.

الفصل الثاني

سعادة بوبو هاما (النيجر). أخصائي التراث المنقول؛ وضع عدة مؤلفات عن تاريخ النيجر والمنطقة السودانية؛ المدير السابق للمركز الإقليمي للبحوث والتوثيق في مجال التراث المنقول ولتنمية اللغات الأفريقية.

الفصل الثالث

ف. د. كورتن (الولايات المتحدة الأمريكية). أخصائي في تاريخ تجارة الرقيق، وضع عدة مؤلفات عن تاريخ تجارة الرقيق، أستاذ التاريخ بجامعة جون هوبكنز.

الفصل الرابع

ت. أوبنجا (جمهورية الكونغو الشعبية). أخصائي اللغات الأفريقية؛ كتب عدة مقالات عن تاريخ أفريقيا ووضع عدة مؤلفات عن أفريقيا في العصور القديمة؛ أستاذ في كلية الآداب بجامعة ماريان النجواني.

الفصل الخامس

هـ. جميعط (تونس). أخصائي تاريخ العصور الوسطى في المغرب؛ كتب عدة مقالات ووضع عدة مؤلفات عن تاريخ تونس؛ أستاذ بجامعة تونس.

الفصل السادس

أ. هربك (تشيكوسلوفاكيا). أخصائي تاريخ أفريقيا والعرب؛ وضع عدة مؤلفات عن تاريخ أفريقيا؛ أستاذ جامعي؛ رئيس قسم البلدان العربية والأفريقية بالمعهد الشرقي في براغ.

الفصل السابع

ج. فانسينا (بلجيكا). أخصائي في تاريخ أفريقيا؛ وضع عدة مؤلفات عن تاريخ أفريقيا الاستوائية؛ أستاذ التاريخ بجامعة ويسكونسين (الولايات المتحدة الأمريكية).

الفصل الثامن

سعادة أ. هامباتي با (مالي). أخصائي التراث المنقول؛ وضع عدة مؤلفات عن الامبراطوريات الأفريقية القديمة والحضارة الأفريقية.

الفصل التاسع

ز. أسكندر (مصر). أخصائي تاريخ مصر؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن مصر القديمة؛ المدير العام للشؤون الفنية بمصلحة الآثار.

الفصل العاشر

ب. ديباني (السنغال). أخصائي في علم اللغات؛ دكتور في العلوم السياسية والاقتصادية؛ وضع مؤلفا عن السلطة السياسية في أفريقيا ومؤلفا في النحو في لغة الولوف؛ مدرس بجامعة داكار.

الفصل الحادي عشر

د. أولدرودج (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية). أخصائي العلوم الاجتماعية الأفريقية؛ وضع عدة مؤلفات عن أفريقيا؛ عضواً أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي.

الفصل الثاني عشر

ج. هـ. جرينبرغ. (الولايات المتحدة الأمريكية). أخصائي في علم اللغات؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن الأنثروبولوجيا وعلم اللغات؛ أستاذ الأنثروبولوجيا في جامعة ستانفورد.

الفصل الثالث عشر

س. دابارا (مالي). أخصائي جغرافيا المناطق المدارية؛ أستاذ الجغرافيا بجامعة أبيدجان.

الفصل الرابع عشر

أ. مايونجي (نيجيريا). وضع عدة مؤلفات عن اليوروبا؛ أستاذ الجغرافيا بجامعة إيبادان.

الفصل الخامس عشر

ج. كي - زيربو (فولتا العليا).

الفصل السادس عشر

س. رشدي (مصر). فيزيائي؛ رئيس الهيئة المصرية للمساحة الجيولوجية والتعدين.
هـ. فور (فرنسا). دكتور في العلوم؛ جيولوجي متخصص في فرنسا ما وراء البحار؛ وضع مؤلفات عن جيولوجيا أفريقيا الغربية؛ عمل مدرسا في جامعة داكار ثم في جامعة باريس.

٦؛ رئيس اللجنة الفنية لجيولوجيا العصر الرابع بالمركز القومي للبحث العلمي.

الفصل السابع عشر

ل. بالوت (فرنسا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا؛ وضع عدة مؤلفات عن السلام وكتب عدة مقالات عن شمال أفريقيا، مدير سابق للمتحف القومي للتاريخ الطبيعي في باريس.

ى. كوبنز (فرنسا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ وضع عدة مؤلفات عن أصل الجنس البشري، مساعد مدير المتحف القومي للتاريخ الطبيعي في باريس.

الفصل الثامن عشر

ر. ليكي (المملكة المتحدة) أخصائي عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا؛ وضع مؤلفات عن الحفائر الخاصة بأصل الإنسان في أفريقيا الشرقية؛ رئيس معهد لويس ليكي التذكاري الدولي لعصر ما قبل التاريخ في أفريقيا.

الفصل التاسع عشر

ج. أ. ج. ساتون (المملكة المتحدة). أخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا؛ رئيس سابق لقسم الآثار بجامعة أكسفورد.

الفصل العشرون

ج. د. كلارك (الولايات المتحدة الأمريكية). أخصائي عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا. وضع عدة مؤلفات عن عصر ما قبل التاريخ والحضارات الأفريقية القديمة؛ أستاذ في التاريخ والآثار.

الفصل الحادي والعشرون

ر. دي بايل دي هيرمنس (فرنسا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات لا سيما عن عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا؛ قائم بأعمال البحث بالمركز القومي للبحث العلمي في باريس.

ف. فان نوتين (بلجيكا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ والآثار؛ وضع عدة مؤلفات عن عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا الوسطى؛ أمين المتحف الملكي لعصر ما قبل التاريخ والآثار.

الفصل الثاني والعشرون

ل. بالوت (فرنسا).

الفصل الثالث والعشرون

هـ. ج. هوجوت (فرنسا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ مدرس جامعي؛ وضع عدة مؤلفات عن التاريخ الطبيعي لعصر ما قبل التاريخ والعصر الرابع؛ مساعد مدير المتحف القومي للتاريخ الطبيعي.

الفصل الرابع والعشرون

ث. شو (المملكة المتحدة). أستاذ التاريخ القديم؛ وضع عدة مؤلفات عن عصر ما قبل

التاريخ في أفريقيا الغربية؛ نائب رئيس مؤتمر عموم أفريقيا لعصر ما قبل التاريخ.

الفصل الخامس والعشرون

ف. ديبونو (المملكة المتحدة). أخصائي عصر ما قبل التاريخ في مصر؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن عصر ما قبل التاريخ في مصر؛ باحث.

الفصل السادس والعشرون

ج. كي زيربو (فولتا العليا).

الفصل السابع والعشرون

ر. بورتيير (فرنسا). كرس جزءا كبيرا من حياته للبحوث النباتية في أفريقيا؛ أستاذ سابق في

المتحف القومي للتاريخ الطبيعي؛ توفي.

ج. بارو (فرنسا). وضع عدة مؤلفات كثيرة عن نباتات المناطق المدارية، نائب مدير مخته اثنولوجيا النبات واثنولوجيا الحيوان.

الفصل الثامن والعشرون

ج. فينركوتر (فرنسا). أخصائي التاريخ القديم؛ وضع عدة مؤلفات عن مصر القديمة؛ أستاذ التاريخ ومدير المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.

خاتمة

ج. كي زيربو (فولتا العليا).

قائمة عامة بالمراجع

فحصت البيانات الخاصة بجميع المراجع بأكبر دقة ممكنة، ولكن، نظرا لتعدد المصنف وطابعه الدولي، رَجَّيَا بقيت هناك بعض الأخطاء. (ملاحظة للمحرر).

- ADAMS (W.Y.). — 1964. « Post-Pharaonic Nubia in the light of archaeology », *J.E.A.* 50 (٢٨).
- AGUESSY (M.). — 1972. « Traditions orales et structures de pensée : essai de méthodologie », *C.H.M.* XIV, 2 (١٠) (٧) (٤) (القدمة العامة)
- AITKEN (M.J.). — 1961. *Physics and archaeology*, London, Intersc. Pub. Ltd., X + 181 p. (١)
- 1963. « Magnetic location », *Science in archaeology*, Londres, Thames and Hudson (١)
- 1970. « Dating by archaeomagnetic and thermoluminescent methods », *P.T.R.S.*, A 269, n° 1193 (١)
- AKINJOGBIN (I.A.). — 1967. *Dahomey and its neighbours — 1708-1818*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (القدمة العامة)
- ALAGOA (E.J.). — 1968. « The use of oral literacy data for history », *J.A.F.* 81 (٧).
- 1968. « Songs as historical data, Exemples from the Niger delta », *Research review*, V, 1 (٧)
- 1970. « Long distance trade and states in the Niger delta », *J.A.H.* XI, 3 : 319-29 (القدمة العامة)
- 1971. « The Niger delta states and their neighbours, 1600-1800 », in J.F.A. AJAYI and Michael CROWDER (éd.), *History of West Africa*, vol. I, London, Longmans (٢).
- 1973. « Oral tradition and archaeology. The case of Onyoma », *O.M.* 1, 1 (٤) (القدمة العامة)

الأرقام العربية الموضوعة بين قوسين في نهاية كل عنوان تدل على الفصل الوارد فيه ذكر المرجع.

- المعلوي (عبدروس بن الشريف علي العبدروس الناصري العلوي) — ١٩٥٤/١٣٧٤ — بغية الأمل في تاريخ الصومال، موقاديشو (القدمة العامة) (٥) (٦).
- ALBERTI (L.). — 1811. *Description physique et historique des Caffres sur la côte méridionale de l'Afrique*, Amsterdam (٦).
- ALEXANDER (Sir J.). — 1967. *Expedition of discovery into the interior of Africa...*, 2^e éd., Cape Town (٦).
- ALEXANDRE (J.) et ALEXANDRE (S.). — 1968. « Contribution à l'élaboration d'une stratigraphie du Quaternaire, basée sur les variations de climat dans une région du monde intertropical », *VII^e Congrès INQUA*, 7 (٢١).
- ALEXANDRE (P.). — 1970. « Afrique centre-équatoriale et centre-occidentale », *Histoire générale de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F. (١١).
- ALEKSEIEV (K.). — 1973. « Sur la classification anthropologique de la population indigène de l'Afrique », *les Problèmes fondamentaux des études africaines*, Moscou (١١).
- ALIMEN (H.). — 1955. *Préhistoire de l'Afrique*, Paris, Boubée (٢٢).
- 1957. *The prehistory of Africa*, Londres, Hutchinson (٢١).
- 1960. « Découverte d'un atelier de l'Acheuléen supérieur, en place, à la limite du 2^e pluvial et du 3^e pluvial dans les monts d'Ougarta (Sahara occidental) », *B.S.P.F.* 57 : 421-3 (٢٢).
- 1962. « Les origines de l'homme », *Bilan de la science*, Paris, Fayard (الخاتمة).
- 1963. « Considérations sur la chronologie du Quaternaire saharien », *B.S.G.F.* 5 : 627-34 (١٣).
- 1966. *Préhistoire de l'Afrique*, réédition, Paris, Boubée, 340 p. (القدمة العامة) (٢٨) (٢٤) (٢٣) (٢٢) (٢١) (١٣).
- 1975. « Les isthmes hispano-marocain et sicilo-tunisien aux temps acheuléens », *Anthropologie*, 79, 3 : 399-430 (٢٢).
- 1975. « Limite Pliocène-Quaternaire et définition du Quaternaire », *Prace o Plejstocie, Livre jubilaire du Professeur ROXYCKI*, Varsovie (١٦).
- 1976. Variations climatiques dans les zones désertiques de l'Afrique nord-équatoriale durant les quarante derniers millénaires, Actes VII^e P.P.E.Q., pp. 337-347, Addis Abeba (١٦).
- ALIMEN (H.) et CHAVAILLON (J.). — 1956. « Industrie acheuléenne in situ de l'Oued Fares, dans les monts d'Ougarta (Sahara occidental) », *B.S.P.F.* 53-202-14 (٢٣).
- ALIMEN (H.), CHAVAILLON (J.) et MARGAT (J.). — 1965. « Contribution à la chronologie préhistorique africaine. Essai de corrélation entre les dépôts quaternaires du bassin Guir-Saoura (Sahara) et du bassin du Tafilat (Maroc) », *Congr. Préhist. de France*, Monaco, 1959, pp. 161-267, 2 fig. et 1 tableau (١٦).
- ALLEN (J.W.T.). — 1959. « The collection of swahili literature and its relation to oral tradition and history », *T.N.R.* 53 (٦).
- ALMAGRO-BASCH (M.). — 1946. « Prehistoria del Norte Africa y del Sahara español », Barcelona, *Instit. Estud. afr.*, 302 p. (٢٣).

- ALMAGRO-BASCH (M.) et GORBEA (M.A.). — 1968. « Estudios de arte rupestre nubio », *Memorias de la Misión arqueologica en Egipto* 10, Madrid (٢٣).
- AMER (M.). — 1933. « The excavations of the egyptian University at Maadi », *B.F.A.* I : 322-4 (٢٠).
- 1935. « The excavations in the prehistoric site at Maadi », *B.F.A.* II : 176-8 (٢٠).
- 1953. « Rizkana, I. Excavations in the Wadi Digla », *B.F.A.* XV : 97-100, 201-205 (٢٠).
- ANCAUX DE FAVAUZ (A.). — 1955. « Les gisements préhistoriques de Kansenia », *Actes II^e Congr. P.P.E.Q.* : 333-4 (٢١).
- 1957. « Une industrie sur galets spéciale aux plateaux des Biano (Katanga-Congo belge) », *Actes III^e P.C.P.Q.S.* : 210-3 (٢١).
- 1962. « Evolution parallèle de deux ou plusieurs techniques au Paléolithique ancien et moyen sur les hauts plateaux katangais. Fouilles 1960-1961 », *Actes VI^e Congr. I.S.P.P.*, III : 230-5. (٢١).
- ANDERSON (B.). — 1870. *Narrative of a journey to Mussardu, the capital of the western mandigoes*, New York (١).
- ANTOINE (M.). — 1938. « Notes de préhistoire marocaine. XIV : un cône de résurgence du Paléolithique moyen à Tit-Mekil, près Casablanca », *B.S.P.M.*, 12 (٢٢).
- APTER (D.). — 1955. *The Gold Coast in transition*, Princeton, Princeton Univ. Press, X + 355 p. (٢).
- ARAB-FAQIH. — 1897-1910. *Histoire de la conquête de l'Abyssinie*, Paris, R. Basset, 2 vol. (١).
- ARAMBOURG (C.). — 1949. « Sur la présence dans le Villafranchien d'Algérie de vestiges éventuels d'industrie humaine », *C.R.A.S.* 229 : 66-7 (٢٢).
- 1954. « L'hominien fossile de Ternifine (Algérie) », *C.R.A.S.* 239 : 293-5 (٢٤).
- 1962. « Etat actuel des recherches sur le Quaternaire en Afrique du Nord », *Actes IV P.P.E.Q.* 40 : 255-77 (١٦).
- 1966. « Aperçu sur les résultats des fouilles du gisement de Ternifine », *Actes V Congr. P.P.E.C.* I : 129-36 (٢٤) (١٦).
- ARAMBOURG (C.) et COPPENS (Y.). — 1967. « Sur la découverte dans le Pléistocène inférieur de la vallée de l'Omo (Ethiopie) d'une mandibule d'Australopithécien », *C.R.A.S.* 265 : 589-90 (١٧).
- 1968. « Découverte d'un Australopithécien nouveau dans les gisements de l'Omo (Ethiopie) », *S.A.J.S.*, 64, 2 : 58-9 (١٧).
- ARAMBOURG (C.) et HOFSTETTER (R.). — 1954. « Découverte en Afrique du Nord de restes humains du Paléolithique inférieur », *C.R.A.S.* 239 : 72-4 (٢٤).
- 1955. « Le gisement de Ternifine. Résultats des fouilles de 1955 et découvertes de nouveaux restes d'*Anianthropus* », *C.R.A.S.* 241 : 431-3 (٢٤).
- 1963. « Le gisement de Ternifine », *I.P.H. Archives* : XXXII, Paris, Masson, 191 p. (٢٢).

- ARKELL (A.J.). — 1949. *The Old Stone Age in the Anglo-Egyptian Sudan*, Cambridge (٢٥).
- 1949. *Early Khartoum. An account of the excavation of an early occupation site carried out by the Sudan Government antiquities service, 1944-1945*, London, Oxford Univ. Press (٢٨) (٢٥) (٢٢).
- 1950. « Gold Coast copies of fifth to seventh century bronze lamps », *Antiquity*, 24 : 38-40 (٢٤).
- 1953. *Shaheinab. An account of the excavation of a Neolithic occupation site carried out for the Sudan antiquities service in 1949*, London, Oxford Univ. Press (٢٨) (٢٥) (٢٢).
- 1954. « The late Acheulean of Esh Shaheinab », *Kush*, I : 30-4 (٢٣).
- 1961. *History of the Sudan*, 2^e éd., London, Athlone (٢٨).
- 1964. *Wanyanga and an archaeological reconnaissance of the South-West libyan desert. The british Ennedi expedition, 1957*, London, Oxford Univ. Press (٢٢).
- 1975. « Prehistory of the Nile Valley », *Handbuch des Orientalistik*, VII, Abteilung, Band 2, Abschnitt A. Lief 1, Leiden-Köln (٢٨).
- ARKELL (W.J.) et SANDFORD (K.S.). — 1933. *Palaeolithic man and the Nile Valley in Nubia and Upper Egypt*, Chicago (٢٢).
- ARMSTRONG (R.). — 1964. « The use of linguistics in ethnogeography », in J. VANSINA and al., *The historian in tropical Africa*, Oxford, Oxford Univ. Press (١٠).
- 1971. « The collection of oral traditions in Africa », *A.U.A.* 579-83 (٧).
- A.S.E.Q.U.A. — 1964 et années suivantes. *Bulletin* n° 1 et suivants (١٧).
- 1966. « Etat des recherches sur le Quaternaire de l'Ouest africain », 1^{re} série, *B.I.F.A.N.*, 28 : 371-429 (٢٤).
- 1967. « Etat des recherches sur le Quaternaire de l'Ouest africain », 2^e série, *B.I.F.A.N.*, A, 29 : 821-65 (٢٤).
- 1969. « Etat des recherches sur le Quaternaire de l'Ouest africain », 3^e série, *B.I.F.A.N.*, A, 31 : 210-83 (٢٤).
- ATHERTON (J.H.). — 1972. « Excavations at Kamabai and Yagala Rock Shelters, Sierra Leone », *W.A.J.A.* 2 : 39-74 (٢٤).
- 1973. « The Stone Age/Iron Age transition in Northeast Sierra Leone », *Underground West Africa*, 7 (٢٤).
- AUBREVILLE (H.). — 1949. « Climats, forêts, désertification de l'Afrique tropicale », Paris, Larose, 351 p. (١٢).
- 1962. « Savanisation tropicale et glaciations quaternaires », *Andanson*, 2, 1 : 1684 (١٢).
- AYACHE (G.). — 1961. « Les archives marocaines », *H.T.* 2 (٦).
- BA (A.H.). — 1972. *Aspects de la civilisation africaine*, Paris, Présence africaine (٨).
- BA (A.H.) et CARDAIRE (M.). — 1957. *Tierno Bokar, le sage de Bandiagara*, Paris, Présence africaine (٨).
- BA (A.H.) et DAGET (J.). — 1962. *L'Empire peul du Macina*. Paris, Mouton (٨).

- BA (A.H.) et DIETERLEN (G.). — 1961. *Koumen, texte initiatique des pasteurs peul*. (المقدمة العامة).
- BA (O.). — 1972. *Glossaire des mots étrangers passés en Pulaar du Fouta Toro*, Dakar, C.L.A.D. (١٠).
- BABET (V.). — 1936. « Note préliminaire sur un atelier de pierres taillées à Brazzaville (Afrique équatoriale française) », *B.S.P.F.* 33 : 153-5 (٢١).
- BAILLOUD (A.). — 1966. « L'évolution des styles céramiques en Ennedi », *Actes I^{re} coll. intern. Archéol. Afr.* (المقدمة العامة).
- البيكري — ١٩٦٨. (طرق إفريقيا البيضاء والسوداء بالشمال الغربي) (قرطبة ١٠٦٨) انظر موننتايل، ترجمة المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء، ٣٠، ٣٩ — ١١٦ (٢٤).
- BALANDIER (G.). — 1971. *Sociologie actuelle de l'Afrique Noire*, 3^e éd. — Paris, P.U.F. (المقدمة العامة).
- BALANDIER (G.) et MAQUET (J.). — 1968. *Dictionnaire des civilisations africaines*, Paris, Hazan (٤) (المقدمة العامة).
- BALBI (A.). — 1826. *Atlas ethnographique du globe ou Classification des peuples anciens et modernes d'après leurs langues*, Paris (١٢).
- BALL (J.). — 1939. *Contributions to the geography of Egypt*, Survey and Mines Dept., 308 p. (١٦).
- BALOUT (L.). — 1952. « Du nouveau à l'Aïn Hanech », *B.S.H.N.A.N.* 43 : 152-9 (٢٢).
- 1952. « Pluviaux, interglaciaires et préhistoire saharienne », *Trav. I.R.S.* 8 : 9-21 (٢٣) (١٦).
- 1955. in ARAMBOURG et BALOUT, « L'ancien lac de Tihodaine et ses gisements préhistoriques », *Actes II^e Congr. P.P.E.Q.* : 287-92 (٢٣).
- 1954. « Les hommes préhistoriques du Maghreb et du Sahara. Inventaire descriptif et critique », *Libyca*, II (٢٢).
- 1955. *Préhistoire de l'Afrique du Nord*, Paris, A.M.G. (٢٣) (٢٢) (١٢).
- 1958. *Algérie préhistorique*, Paris, A.M.G. (٢٣).
- 1965. « Le Moustérien du Maghreb », *Quaternaria*, 7 : 43-58 (٢٢).
- 1967. « Procédés d'analyse et questions de terminologie dans l'étude des ensembles industriels du Paléolithique inférieur en Afrique du Nord », *Background to evolution in Africa*, Chicago, London, the Univ. of Chicago Press : 701-35 (٢٢).
- 1967. « L'homme préhistorique et la Méditerranée occidentale », *R.O.M.M.* III : 9-29 (٢٢).
- 1968. « L'art rupestre nord-africain et saharien. Etat de quelques problèmes », *Simposio internacional de arte rupestre*, Barcelona : 257-64 (٢٢).
- 1976. *Orientations nouvelles de la préhistoire maghrébine. In memoriam Pedro Bosch Gimpera, 1891-1974*, Mexico, pp. 99-113 (٢٢).
- BALOUT (L.) et al. — « Fiches typologiques africaines », 9 cahiers publiés depuis 1967 sous l'égide des *Congr. P.P.E.Q.* (٢٢).
- BALOUT (L.), BIBERSON (P.) et TIXIER (J.). — 1967. « L'Acheuléen de Ternifine, gisement de l'Atlantrophe », *Anthropologie*, 71 : 217-37 (٢٢).

- BALOUT (L.) et ROUBET (C.). — 1970. « Datation radiométrique de l'Homme de l'Ain Dokkara et de son gisement, l'Escargotière du Chacal, région de Tébessa, Algérie », *Libyca*, 18 : 21-35 (٢٢).
- BARBER (E.J.W.). — 1974. *Archaeological decipherment. A handbook*, Princeton, Princeton Univ. Press (١).
- BARBEY (C.) et DESCAMPS (C.). — 1969. « A propos des Pebble-tools de la Moyenne-Gambie », *B.I.F.A.N.*, A, 31 : 276-82 (٢٤).
- BARBOT (J.). — 1732. *A description of the coasts of North and South Guinea*, Churchill's voyages, Londres, A. et J. Churchill (١).
- BARENDSON (G.W.), DEEVEY (E.S.) et GRALENSKI (L.J.). — 1965. « Yale natural radiocarbon measurements III », *Science* 126 : 916-7 (٢٤).
- BARRAU (J.). — 1962. « Les plantes alimentaires de l'Océanie, origines, distribution et usages », *Annales du Musée colonial de Marseille* 7, III-IX, 275 p. (٢٧).
- 1975. « L'Asie du Sud-Est, berceau culturel ? », *Etudes rurales* : 53-6 (٢٧).
- BARROW (J.). — 1801-1803. *Travels into the interior of the Southern Africa*, London, 2 vol. (٦).
- BARRY (B.). — 1974. « La chronologie dans la tradition orale du Waalo. Essai d'interprétation », *Afrika Zamani*, 3 : 31-49 (٤).
- BASSET (R.). — 1894. *Etudes sur les dialectes berbères*, Paris (١١).
- 1909-1913. *Mission au Sénégal*, Paris, Leroux, 3 vol. (١١)(١٢).
- BATTISTINI (R.). — 1967. *L'Afrique australe et Madagascar*, Paris, P.U.F. 230 p. (١٣).
- BAULIN (J.). — 1962. *The Arab role in Africa*, London, Penguin books (٥).
- BAUMANN (H.). — 1936. *Geschichte und Urzeit des Menschen in Mythos der Afrikanischen Völker*, Berlin (٧).
- BAUMAN (H.) et WESTERMANN (D.). — 1962. *Les Peuples et les Civilisations de l'Afrique*, Paris, Payot (١٠)(٦) (القدمة العامة)
- BAUMGARTEL (E.J.). — 1955. *The culture of prehistoric Egypt*, Oxford (٢٨).
- BAYLE DES HERMENS (R. DE). — 1967. « Premier aperçu du Paléolithique inférieur en République centrafricaine », *Anthropologie*, 71 : 135-66 (٢١).
- 1969. « Les collections préhistoriques de la République centrafricaine au Musée royal de l'Afrique centrale, C.M. VII : 27-40 (٢١).
- 1971. « Quelques aspects de la préhistoire en République centrafricaine », *J.A.H.* XII : 579-97 (٢١).
- 1975. « Recherches préhistoriques en République centrafricaine », *Laboratoire d'ethnologie et de sociologie comparative, série Recherches oubanguiennes* n° 3, Paris, Université de Paris X, 345 p. (٢١).
- 1976. « A la découverte de la préhistoire en République centrafricaine », *Archeologia* n° 92 (٢٦).
- BAYLE DES HERMENS (R. DE) et VIDAL (P.). — 1971. « Deux datations sur la méthode du Carbone 14 des monuments mégalithiques de Bouar, R.C.A. », *C.M.* IX : 81-2 (٢١).
- BAYNON (J.). — 1970. « The Contribution of linguistics to history in the field of Berber studies », *Language and history of Africa* (١٥)(١٠) (٦)

- BEALE (F.C.). — 1966. *The anglo-gambian stone circles expedition 1964/65*, Bathurst, Government Printer (٢٤).
- BEATTIE (J.). — 1968. « Aspects of Niore symbolism », *Africa* 38, 4 : 413-42 (٧).
- BEAUCHENE (G. DE). — 1963. « La Préhistoire du Gabon », *Objets et Mondes*, T. III (٢١).
- BEBEY (F.). — 1969. *Musique de l'Afrique*, Expressions, Horizons de France, Paris.
- BECKER (C.H.). — 1968. « Materialien zur Kenntnis des Islam in Deutsch Ost-Afrika », *I.N.R. LXVII* (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- BECKINGHAM (C.F.) et HUNTINGFORD (G.W.B.). — 1954. *Some records of Ethiopia 1593-1646*, London (٧).
- BEHRENSMEYER (A.K.). — 1975. « The taphonomy and paleoecology of Plio-Pleistocene vertebrate assemblages east of Lake Rudolf, Kenya », *Bull. Mus. Comp. Zool* (١٧).
- BEIDELMAN (Th.). — 1970. « Myth, legend and oral history : A Kaguru traditional text », *Anthropos* 65 : 74-97 (٧).
- BEQUAERT (M.). — 1938. « Les fouilles de Jean Colette à Kalina », *A.M.R.C.B.* I, 2 : 29-88 (٢١).
- 1952. « Fouilles à Dinga (Congo Belge) », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 317-53 (٢١).
- 1953. « La préhistoire du Congo Belge et ses relations avec la préhistoire africaine sud-saharienne à l'Holocène », *B.S.R.B.A.P.* LXIV : 37-49 (٢١).
- BEQUAERT (M.) et MORTELMANS (G.). — 1955. « Le Tshitoliien dans le bassin du Congo », *A.A.R.S.C.* II, 5, 40 p. (٢١).
- BERG (F.). — 1968. « The Swahili Community of Mombasa 1500-1900 », *J.A.H.* IX : 35-56 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- BERGER (R.). — 1970. « Ancient Egyptian Chronology », *P.T.R.S.* 269, 1193 : 23-36 (٧).
- BERGGREN (W.A.). — 1973. « Correlation and calibration of late Pliocene and Pleistocene marine and continental biostratigraphies », *Acts IX congr. I.N.Q.U.A.* (١٧).
- BERQUE (J.). — 1957. *Histoire sociale d'un village égyptien au XX^e siècle*, Paris (١٥).
- BERTIER (H.). — 1933. « Le cahier de l'écriture de Radama I », *M.A.M.* 36 (٧).
- BESANCON (J.). — 1957. *L'Homme et le Nil*, Paris, Gallimard (٢٨).
- BIBERSON (P.). — 1961. « Le cadre paléogéographique de la préhistoire du Maroc atlantique », Rabat, *Pub. Serv. Antiq. Maroc*, T. 17, 544 p. (٢٢).
- 1961. « Le Paléolithique inférieur du Maroc atlantique », Rabat, *Pub. Serv. Antiq. Maroc*, T. 17 (٢٣).
- 1965. « Recherches sur le Paléolithique inférieur de l'Adrar de Mauritanie », *Actes V^e Congr. P.P.E.Q.* : 173-89 (٢٢).
- BIEBUYCK (D.) et MATEEME (K.C.). — 1969. *The Mwindo Epic from the Banyanga (Congo Republic)*, Berkeley, Los Angeles (٧).

- BIRDSELL (J.B.). — 1972. *Human evolution. An introduction to the new physical anthropology*, Rand McNally and Co, 299 p. (٤).
- BIROT (P.). — 1970. *L'Afrique, les régions naturelles du globe*, Paris, Masson (١٣).
- BISHOP (W.W.). — 1965. « Quaternary geology and geomorphology in the Albertine rift valley, Uganda », *G.S.A.M.* 84 : 293-321 (٢١).
- BISHOP (W.W.) et CLARK (J.D.) (éd.). — 1967. *Background to evolution in Africa*, Chicago Univ. Press., 935 p. (الطبعة) (٢٤) (٢٣) (٢٢) (١٩) (١٦).
- BISHOP (W.W.) et MILLER (J.A.) (éd.). — 1972. « Calibration of hominoid evolution », *Univ. of Toronto Press* (٢٠) (١٦).
- BITTNER (M.). — 1897. *Die topographischen Capital des indischen Seespiegels Mohit*, Vienne (٦).
- BIVARD (A.D.H.) et HISKETT (M.). — 1962. « The arabic literature of Nigeria to 1804 : a provisional account », *B.S.A.O.S.* XXV, 1 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- BLANKOFF (B.). — 1965. « Quelques découvertes récentes au Gabon », *B.S.P.P.G. L*, 3 : 52-60 (٢١).
- 1966. « L'état des recherches préhistoriques au Gabon », *Actes I^{re} coll. intern. archéol. afr.* : 62-80 (٢١).
- BLEEK (D.F.). — 1929. *Comparative vocabularies of the Bushman languages*, University Press, Cambridge (١٠).
- BLEEK (W.H.I.). — 1851. *De nominum generibus, linguarum Africae australis, copticae, semitarum, aliarumque sexualium*, Bonn, A. Marcus, IV + 60 p. (١٢).
- 1862-1869. *Comparative grammar of South African languages*, Capetown, Juta, 2 vol. (١٢) (١٠).
- BLOCH (M.). — 1939. *La Société féodale. La Formation des liens de dépendance*, vol. 1, 34 et 34 bis de *L'Evolution de l'humanité*, dirigée par H. BERR, Paris (١).
- 1949. *Apologie pour l'Histoire ou le métier d'historien*, Paris, A. Colin (٧).
- BLUNDEL (H.W.). — 1923. *The royal chronicles of Abyssinia, 1769-1840*, Londres (٦).
- BLUNDEL (H.W.), BOAZ (N.) et HOWELL (F.C.). — 1977. « A gracile hominid cranium from upper member G of the Shungura Formation, Ethiopia », *A.J.P.A.* 46, 1 : 93-108 (١٧).
- BOAHEN (A.A.) et WEBSTER (J.B.). — 1970. *The growth of african civilization. West Africa since 1800*, London, Longmans (٨) (المقدمة العامة).
- BOBO (J.). — 1956. « Un ensemble de stations moustéro-atériennes aux environs de Djanet (Tassili des Ajjer) », *Libyca*, 4 : 263-8 (٢٣).
- BONATTI (E.). — 1966. « North mediterranean climate during the last Würm glaciation », *Nature*, 209, 5027 : 985-7 (١٦).
- BOND (G.). — 1956. « A preliminary account of the Pleistocene geology of the plateau Tia Fields region of Northern Nigeria », *Proc. III Intern. W.A.C.* : 187-202.

- BONIFAY (E.). — 1975. « Stratigraphie du Quaternaire et âge des gisements préhistoriques de la zone littorale des Alpes-Maritimes », *B.S.P.F.* 72, 7 : 197-206 (١٦).
- BONNEFILLE (R.). — 1972. *Associations polliniques actuelles et quaternaires en Ethiopie (vallées de l'Awash et de l'Omo)*, thèse, Paris, 2 tomes (١٦).
- 1974. « Etude palynologique de dépôts plio-pléistocènes d'Ethiopie », *A.S.E.Q.U.A. B.*, 42-3 : 21-2 (١٦).
- 1976. « Végétation et climats des temps oldowayens et acheuléens à Melka Kunturé (Ethiopie) », *L'Ethiopie avant l'Histoire*, Cahier 1 : 55-71 (١٧).
- BONNEL DE MEZIERES (A.). — 1920. « Recherches sur l'emplacement de Ghana et de Tekrou », *M.A.I.*, 13, 1 : 227-77 (٢٤).
- BONNET (A.). — 1961. « La "pebble culture" in situ de l'Idjerane et les terrasses de piémont du Sahara central », *B.S.P.F.* 58 : 51-61 (٢٣).
- BOSMAN (W.). — 1967. *A new and accurate description of the coast of Guinea*, London, Frank Cass & Co (١).
- BOSTON (J.S.). — 1964. « The Hunter in Igala legends of origin », *Africa* 34 : 118-20 (٧).
- BOULLE (M.), VALLOIS (H.V.) et VERNEAU (R.). — 1934. *Les Grottes paléolithiques des Bani Ségoual (Algérie)*, Paris, Masson (٢٢).
- BOUNAK (V.). — 1972. « Du cri au langage », *Le Courrier*, août-sept. (الخاتمة).
- BOUYSSONIE (J.), BREUIL (H.) et al., — 1956. *Musée du Bardo, coll. préhist., planches*. Album n° 1, Paris, A.M.G. (٢٢).
- BOVIER-LAPIERRE (P.). — 1925. « Le Paléolithique stratifié des environs du Caire », *Anthropologie*, XXXV : 37-46 (٢٠).
- BOXER (C.R.). — 1959. (Dir.) *The tragic history of the sea, 1589-1622*, University Press, Cambridge (٦).
- BOYLE (A.H.) et JEFFREYS (W.). — 1947. « Speculative origins of the fulany language », *The language of Africa*. vol. 17 (١١).
- BRADBURY (R.E.). — 1959. « Chronological problems in the study of Benin history », *J.H.S.N.* 1 : 263-87 (٢٤).
- BRAHIMI (C.). — 1970. *L'Ibéro-maurusien littoral de la région d'Alger*, Paris, A.M.G. (٢٢).
- 1972. *Initiation à la préhistoire de l'Algérie*, Alger (٢٢).
- BRAIDWOOD (R.J.). — 1960. « The agricultural revolution », *Scientific America*, september (٢٧).
- BRAIDWOOD (R.J.) et REED (C.A.). — 1957. « The achievement and early consequence of food production ; a consideration of the archaeological and natural historical evidence », *Cold spring harbour symposium on quantitative biology* (٢٧).
- BRAIN (C.K.). — 1958. « The Transvaal Ape-Man. Bearing cave deposits, Transvaal museum », *Mémoire* n° 11, Prétoria (٢٠).
- BRASIO (A.). — 1952. *Monumenta missionaria africana*, Lisbonne, 9 vol. (٢٧).
- BRAUDEL (F.). — 1969. *Ecrits sur l'histoire*, Paris, Flammarion (المقدمة العامة).

- BREASTED (J.H.). — 1906. *Ancient Records of Egypt*, vol. IV, Chicago, University Chicago Press (٢٨).
- BREUIL (Abbé H.). — 1931. *L'Afrique*, Cahiers d'art, Paris (٢٤).
- 1944. « Le Paléolithique au Congo Belge d'après les recherches du docteur Cabu ; VI Plateau de Bena Tshitolo » *T.R.S.A.* XXX : 143-60 (٢١).
- 1952. « Les figures incisées et ponctuées de la grotte de Kiantapo (Katanga) », *A.M.R.C.B.* : 1-32 (٢١).
- BREZILLON (M.). — 1970. *Dictionnaire de la Préhistoire*, Paris, Larousse (الخاتمة).
- BROTHWELL (D.) et SHAW (Th.). — 1971. « A late Upper Pleistocene proto-West African negro from Nigeria », *Man*, 6, 2 : 221-7 (٢٤).
- BROUTANOH (A.). — 1867. « La tradition orale chez les Agni Ahali de Moronou », *B.I.E.G.T.* (٧).
- BROWN (G.). — 1941. *The Economic History of Liberia*, Washington, Associated Publishers, IX + 366 p. (٢).
- BROWNE (W.G.). — 1806. *Travels in Africa, Egypt and Syria*, London (١).
- BRUCE (J.). — 1790. *Travels to discover the source of the Nile*. Edimbourg, 5 vol. (١).
- BRUNTON (G.). — 1928. *G. Brunton and G. Caton-Thompson, The Badarian civilization*, London, Quaritch (٢٨) (٢٥).
- 1937. *Nostagedda, British Museum expedition to Middle Egypt 1928-1929*, London, Quaritch (٢٨) (٢٥).
- 1948. *Matma, British Museum expedition to Middle Egypt 1929-1931*, London, Quaritch (٢٨) (٢٥).
- BRYANT (A.T.). — 1929. *Olden times in Zululand and Natal*, London (١).
- BUCHA (V.). — 1970. « Evidence for changes in the Earth's magnetic field intensity », *P.T.R.S.* 269, 1193 : 47-56 (١).
- 1971. « Archaeomagnetic dating », H.N. MICHAEL and E.K. RALPH (éd.) *Dating techniques for the archaeologist*, Cambridge, Mass. (١).
- BUDA (J.L.), SCHROEDER (R.A.), PROTSCH (R.) et BERGER (R.). — 1974. « Concordance of collagen based radiocarbon and aspartic acid raumization ages », *AATA*, 11, 2 (١).
- BUEDEL (J.). — 1958. « Die Flaeschenbildung in den feuchten Tropen und die Rolles fossier solcher Flaeschen in anderen Klimazonen *A.D.G.*, 89-121 (١٧).
- BULCK (G.V.). — 1948. « Les recherches linguistiques au Congo belge », *M.I.R.C.B.* (١١).
- BURKE (K.), DUROYE (A.B.) et WHITEMAN (A.J.). — 1971. « A dey Phase south of Sahara, 20 000 years ago », *W.A.J.A.* I (٢٤).
- BUTLER (J.). — 1966. *Boston University Papers on Africa. Prehistoric Populations in Africa*, Boston (الخاتمة).
- BUTZER (K.W.). — 1957. « The last « pluvial » phase of the eurafrican subtropics », *les Changements de climats, recherches sur la zone aride*, Paris, Unesco, 20 : 211-6 (١٣).

- 1958. « Studies zum vor-und-frühgeschichtlichen Landschaftswandel der Sahara », *Akademie des Wissenschaften und der Litteratur*, n° 1, 49 p. (٢٣).
- 1972. *Environment and Archaeology*, 2^e éd., Chicago ; (1^{re} éd., 1964, Londres), XXVIII + 703 p. (٢٨) (٢٤) (١٦)
- BUTZER (K.W.) et HANSEN (C.L.). — 1968. *Desert river in Nubia*, Madison, Univ. of Wisconsin Press (١١)
- BUTZER (K.W.) et ISAAC (G.L.). — 1975. *After the australopithecines, Stratigraphy, ecology and culture change in the middle pleistocene*, La Haye (١١).
- BUTZER (K.W.), RICHARDSON (J.L.) et WASHBOURKNKAMAU (C.). — 1972. « Radio-carbon dating of East African Lake levels », *Science*, 175 : 1069-76 (٢١) (١٧)
- BUTZER (K.W.) et THURBER (D.L.). — 1969. « Some late cenozoic sedimentary formations of the Lower Omo Basin », *Nature*, 222, 5199 : 1132-7.
- BYNON (J.). — 1970. « The contribution of linguistics to history in the field of berber studies », D. DALBY (éd.) *Language and history in Africa* (١٥) (١٠) (١).
- CABU (F.). — 1935. « Considérations sur la stratigraphie de gisements pléistocènes à outillage paléolithique de la région de Léopoldville », *B.S.R.B.A.P.* 50 : 269-84 (٢١).
- 1935. « Les industries préhistoriques de la cuvette centrale congolaise et leurs rapports avec la préhistoire générale », *B.S.R.B.A.P.* 50 : 399-411 (٢١).
- CADENAT (P.). — 1957. « Fouilles à Columnata. Campagne 1956-57. La nécropole », *Libyca*, V : 49-81 (٢٢).
- 1962. « Sur l'extension de la civilisation capsienne vers l'ouest », *B.S.P.F.*, 59 : 27-32 (٢٢).
- 1970. « Le Columnatien, industrie épipaléolithique de l'Algérie », *B.S.E.R.P.* 20 : 40-50 (٢٢).
- CAHEN (D.). — 1975. « Le site archéologique de la Kamoa (région du Shaba, République du Zaïre). De l'Age de la pierre ancien à l'Age du fer », *A.M.R.A.C.* 84 (٢١).
- 1976. « Nouvelles fouilles à la pointe de la Gombe (ex-pointe de Kalina), Kinshasa, Zaïre », *Anthropologie*, 80, 4 : 573-602 (٢١).
- 1977. « Vers une révision de la nomenclature des industries préhistoriques de l'Afrique centrale », *Anthropologie*, 81 (٢١).
- CAHEN (D.), HAESAERTS (P.) et NOTEN (F. VAN). — 1972. « Un habitat lupembien à Massango (Burundi). Rapport préliminaire », *Africa-Tervuren*, XVIII : 78-80 (٢١).
- CAHAN et NOTEN (F. VAN). — 1970. « Des polissoirs dans la grotte de Mpinga (Burundi) », *Africa-Tervuren*, XVI, I : 13-7 (٢١).
- CALEY (E.R.). — 1949. « Validity of the specific gravity method for the determination of the fineness of gold objects », *O.J.S.*, XLIX : 76-92 (١).

- 1948. « On the application of Chemistry of Archaeology », *O.J.S.* XLVIII : 1-8 (١).
- CAMPBELL (B.G.). — 1965. « The Nomenclature of the Hominidae », *Royal anthropological Institute, Occasional paper n° 22* (٢٤).
- CAMPBELL (R.). — 1861. *A pilgrimage to my motherland... among Egba and Yoruba in 1859-60*, Philadelphia (١).
- CAMP-FABRER (H.). — 1966. *Matière et art mobilier dans la préhistoire nord-africaine et saharienne*, Paris, A.M.G. (٢٣) (٢٢).
- CAMP-FABRER (H.), BOUCHUD (J.), CHABEUF (M.), CHAMLA (M.C.), COUVERT (M.), DUGHU (R.) et SIRUGUE (F.). — 1975. *Un gisement capsien de faciès sétifien Madjez II, el-Eulma (Algérie)*, Paris, C.N.R.S., 448 p. (٢٢).
- CAMPS (G.). — 1969. *Amekni, Néolithique ancien du Hoggar*, Paris, A.M.G. (٢٨) (٢٤) (٢٣) (٢٢).
- 1974. *Les Civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara*, Paris, Doin, 366 p. (٢٨) (٢٢).
- CANDOLLE (A.). — 1883. *L'Origine des plantes cultivées*, Paris, F. Alcan (٢٧).
- CAPORIAMCO (L. DI) et GRAZIUSI (P.). — 1934. *Le pitture rupestri di Ain Doua (Auenat)*, Florence, Centro di studi coloniali (٢٢).
- CAPOT-REY (R.). — 1953. *Le Sahara français*, Paris, P.U.F. 487 p. (٢٢).
- CAPRILLE (Y.P.). — 1972. *Carte des langues du Tchad*, Paris, I.G.N. (١٠).
- CARRE (J.M.). — 1932. *Les Voyageurs français en Egypte, 1517-1840*, Paris (١).
- CARSON (P.). — 1962. *Materials for West African history in the archives of Belgium and Holland*, London (٢٤) (١).
- 1968. *Materials for West African history in french archives*, London, the Athlone Press (٢٤) (١).
- CARTER (G.F.). — 1964. « Archaeological Maize in West Africa : a discussion of Stanton and Willet », *Man*, 64 p. 95 (٢٤).
- CARTER (P.L.) et FLIGHT (C.). — 1972. « Report on the fauna from the sites of Ntereso and Kintampo Rock Shelter six in Ghana : with evidence for the practice of animal husbandry during the second millennium B.C. », *Man*, 7, 2 : 227-32 (٢٤).
- CASTANHOSO (M.). — 1548. *Historia das cousas que o muy esforcado Dom Christouao da Gama fez nos Reynos de Preste Joao*, Lisboa (١).
- CATON-THOMPSON (G.). — 1928. *The Badarian civilization*, London (٢٨).
- 1946. « The atherian industry : its place and significance in the Palaeolithic world », *J.R.A.I.*, 44 p. (٢٢).
- 1952. *Kharga oasis in Prehistory*, London, the Athlone Press (٢٥) (٢٢).
- CATON-THOMPSON (G.) et GARDNER (E.W.). — 1934. *The desert Fayum*, London, Royal anthropological Institute, 114 p. (٢٨) (٢٥) (٢٤) (٢٢).
- CAVAZZI de MONTECUDOLO (G.A.). — 1687. *Istorica descrizione dei tre regni Congo*, Bologne (١).

- CELIS (M.). — 1972. *Gepolijst archeologisch stenen materiaal uit de Demokratische Republiek van Zaïre*, thèse, Gand, Université de Gand (٢١).
- CENIVAL (J.-L. DE). — 1973. *L'Egypte avant les Pyramides, IV^e millénaire, Grand Palais, 29 mai-3 septembre 1973*, Paris, éd. des Musées nationaux (٢٨).
- CERULLI (E.). — 1926. « Iscrizioni e documente arabi per la Storia della Somalia », *Rivista degli studi orientali* : 1-24 (٦) (٥) (القدمة العامة).
- 1957. *Somalia, scritti vari editi e inediti, I*, Roma (٦) (٥) (القدمة العامة).
- CHAMARD (Ph.). — 1969-70. *Le Bassin versant de la Sebkhâ de Chemchane (Adrar de Mauritanie)*, Dakar, Fac. Lettres-Sc. hum., 205 p. (٢٣).
- CHAMLA (M.C.). — 1968. « Les populations anciennes du Sahara et des régions limitrophes : étude des restes humains néolithiques et protohistoriques », *M.C.R.A.P.E.* 9 (٢١) (٢٢).
- 1970. *Les hommes épipaléolithiques de Columnata (Algérie occidentale)*, Paris, A.M.G. (٢٢).
- 1973. « Etude anthropologique de l'Homme capsien de l'Aïn Dokkara (Algérie orientale) », *Libyca*, XXI : 9-53.
- CHAMOT (E.M.) et MASON (C.W.). — 1938. *Handbook of chemical microscopy*, vol. I, 2^e éd., New York, Wiley (١).
- CHAMPAULT (B.). — 1953. « L'industrie de Tachenghit »; 70^e Congr. A.F.S.S., 126 p. (٢٣).
- CHASSELOUP-LAUBAT (F. DE). — 1938. *L'Art rupestre au Hoggar (Haut Mérioutek)*, Paris, Plon, 63 p. (٢٣).
- CHAVAILLON (J.). — 1936. « Quatenaire de la vallée du Guir (Sahara nord-occidental) », *C.R. Som. Séances Soc. Géolog. Fr.* (٢٣).
- 1958. « Industrie archaïque du Paléolithique ancien en place, dans les alluvions de l'oued Guir (Sahara nord-occidental) », *B.S.P.F.* 55 : 431-43 (٢٣).
- 1964. *Les Formations quaternaires du Sahara nord-occidental*, Paris, C.N.R.S., 393 p., 32 pl. (٢٣).
- 1973. « Chronologie des niveaux paléolithiques de Melka Konturé (Ethiopie) », *C.R.A.S.* 276 : 1533-6 (١٧).
- CHAVAILLON (J.), BRAHIMI (C.) et COPPENS (Y.). — 1974. « Première découverte d'Hominidé dans l'un des sites acheuléens de Melka Konturé (Ethiopie) », *C.R.A.S.* 278 : 3299-3202 (١٧).
- CHAVAILLON (J.), CHAVAILLON (N.), COPPENS (Y.) et SENUT (B.). — Sous presse. — « Présence d'Hominidé dans le site oldowayen de Gomboré I à Melka Konturé, Ethiopie », *C.R.A.S.*, tome 285, pp. 961-963 (١٧).
- CHELU (A.). — 1891. *Le Nil, le Soudan, l'Egypte*, Paris, Chaix (٢٨).
- CHESNEAUX (J.). — 1969. *Le Mode de production asiatique*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).
- CHEVALIER (A.). — 1938. « Le Sahara, centre d'origine des plantes cultivées », *Société de Biogéographie*, VI : « La vie dans la région désertique nord-tropicale de l'Ancien Monde », Paris : 309-22 (٢٧).

- CHILDE (G.). — 1954. *What happened in history ?*, Harmondsworth, Penguin Books Ltd. (٢٧).
- CHURCH (R.J.H.). — 1969. *Africa and the Islands*, London, Longmans, 494 p. (١٣).
- CISSE (K.) et THILMANS (G.). — 1968. « A propos de la datation des mégalithes sénégaubiens », *N.A.* 117 : 13-7 (٢٤).
- CISSOKO (S.M.). — 1967. *Histoire de l'Afrique occidentale*, Paris, Présence africaine (المقدمة العامة).
- CLARK (G.). — 1969. *World Prehistory*, 2^e éd., Cambridge, Cambridge Univ. Press, XVI + 331 p. (٢٤) (١٩).
- CLARK (J.D.). — 1950. *The Stone Age cultures of Northern Rhodesia*, South African Archaeological Society, Le Cap (٢٠).
- 1957. Third Panafrican Congress on Prehistory, Londres, Chatto and Windus (٢٤).
- 1960. *The Prehistory of southern Africa*. Harmondsworth, Penguin Books Ltd. (٢٤) (٢١) (١٩).
- 1962. « Vegetation patterns, climate and sands in North East Angola », *Actes IV^e congr. P.P.E.Q.*, 151-66 (٢١).
- 1963. « Ecology and culture in the African Pleistocene », *S.A.J.S.* 59, 7 : 353-66 (٢١).
- 1963. « Prehistoric cultures of northeast Angola and their significance in tropical Africa », *C.D.A.P.C.* 62 (٢١).
- 1964. « The Sangoan culture of Equatoria : the implications of its stone equipment », Instituto de prehistoria y arqueologia, Monographies, Barcelona, 9 : 309-25 (٢٠).
- 1966. « The distribution of prehistoric culture in Angola », *C.D.A.P.C.* 73 (٢١).
- 1967. « The problem of Neolithic culture in sub-Saharan Africa », W.W. BISHOP and J.D. CLARK (éd.) *Background to evolution in Africa*, Chicago, Chicago Univ. Press, 601-28 (٢٤).
- 1967. *Atlas of African prehistory*, Chicago, Chicago Univ. Press (١٩) (٢٤).
- 1968. « Review of Oliver Davies's — The Quaternary in the Coastlands of Guinea », *W.A.A.N.* 13, 9 : 37-40 (٢٤).
- 1968. « Further palaeo-anthropological studies in Northern Lunda », *C.D.A.P.C.* 78 (٢١).
- 1969-74. *Kalambo Falls prehistoric site*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 3 vol. (٢١) (٢٠) (١٩).
- 1970. « The prehistoric origins of african cultures », in J.D. FAGE and R.A. OLIVER, *Papers in african prehistory*, Cambridge (٢١).
- 1970. « The spread of food production in sub-saharan Africa », in J.D. FAGE and R.A. OLIVER, *Papers in african prehistory*, Cambridge (٢٧).
- 1970. *The Prehistory of Africa*, Londres, Thames & Hudson (٢٠) (١٩) (١٤) (٢٤).
- 1971. « Human behavioural differences in Southern Africa during the later Pleistocene », *American Anthropologist*, vol. 73, pp. 1211-1236 (٢٠).

- 1971. « Problems of archaeological nomenclature and definition in the Congo Basin », *S.A.A.B.* XXVI : 67-78 (٢٤).
- CLARK (J.D.) et HAYNES (C.V.). — 1969. « An elephant butchery site at Mwanganda's village, Karonga, Malawi and its relevance for Palaeolithic archaeology », *W.A.* 1, 3 : 390-411 (٢٠).
- CLARK (J.D.), MAWBY (J.E.) et GAUTIER (A.). — 1970. « Interim report on palaeoanthropological investigations in the Lake Malawi Rift », *Quaternaria*, XIII : 305-54 (٢٠).
- CLARK (J.D.) et Le GROS (W.E.). — 1967. « Man-Apes or Ape-Men ? The story of discoveries in Africa », New-York (٢٠).
- CLARK (J.D.) et ZINDEREN BAKKER (E. M. VAN). — 1962. « Pleistocene climates and cultures in North-Eastern-Angola », *Nature*, 196, 4855 : 639-42 (٢١).
- 1964. « Prehistoric cultures and Pleistocene vegetation at the Kalambo Falls, Northern Rhodesia », *Nature*, 201, 4923 : 971-5 (٢١).
- CLARKE (J.). — 1848. *Specimens of dialects : Short vocabulary of languages and notes of countries and customs in Africa*, Berwick-on-Tweed, D. Cameron, 104 p. (١٢).
- CLARK-HOWELL (P.), KLEINDIENST (M.R.) et KELLER (C.M.). — « Isimila, Preliminary report », *Proc. 4th P.C.P.Q.S.* (١١).
- CLIMAP. — 1974. *Mapping the atmospheric and oceanic circulations and other climatic parameters at the time of the last glacial maximum about 17 000 years ago*. Climatic research Unit, School of environmental sciences, University of East Anglia, Norwich, 123 p. (١١).
- C.N.R.S. (éd.). — 1974. « Les méthodes quantitatives d'étude des variations du climat au cours du Pléistocène », *Colloque international du C.N.R.S.* n° 219, 317 p. (١١).
- COCKERELL (T.A.D.). — 1907. « A fossil tse-tse fly in Colorado », *Nature*, 76-414 (١٤).
- 1909. « An other fossil tse-tse fly », *Nature*, 80, 128 (١٤).
- 1919. « New species of North American fossil beetles, Cockroaches and tse-tse flies », *Proc. NS. St. Nat. Mus.* 54 : 301-11 (١٤).
- COETZE (J.A.) et ZINDEREN-BAKKER (E. M. VAN). — 1970. « Palaeoecological problems of the Quaternary of Africa », *S.A.J.S.* 66 : 78-84 (٢١).
- COHEN (D.W.). — 1972. *The historical tradition of Busoga. Mukama and Kintu*, Oxford, the Clarendon Press. X + 218 p. (٢).
- COHEN (M.). — 1958. *La Grande Invention de l'écriture et son évolution*, Paris (١٠).
- 1947. *Essai comparatif sur le vocabulaire et la phonétique du Chamitosémitique*, Paris, H. Champion XI + 248 p. (١٢) (١٠).
- COLE (D.T.). — 1971. « The history of African linguistics to 1945 », in *Linguistics in Subsaharan Africa*, vol. VII de *Current trend in linguistics*, dir. T.A. SEBEOK, Paris — La Haye, Mouton (١٢).
- COLE (G.H.). — 1967. « Nsongezi. Summary account », W.W. BISHOP and J.D. CLARK, *Background to evolution in Africa*, 481-528 (١١).

- COLE (S.). — 1964. *The prehistory of East Africa*, New York-London (١٩).
- COLEMAN (J.S.). — 1958. *Nigeria. Background to Nationalism*, Berkeley, California Univ. Press., XIV + 510 p. (٢).
- COLES (J.M.) et HIGGS (E.S.). — 1969. *The archaeology of early man*, London (١٩).
- COLETTE (J.R.F.). — 1931. « Industries paléolithiques du Congo belge », *Actes XV Congr. I.A.A.P.*, 285-92 (٢١).
- 1935. « Complexe et convergences en préhistoire », *B.S.R.B.A.P.* 50 : 49-192 (٢١).
- COMMONWEALTH ARTS FESTIVAL. — 1965. *Treasures from the Commonwealth*, Commemorative Catalogue, Londres (٢٤).
- CONNAH (G.). — 1967. « Progress report on archaeological work in Bornu. Northern history research scheme, second interim report », *Zaria* (٢٤).
- 1969. « Settlement mounds of the Firki — The reconstruction of a lost society », *Ibadan*, 26 : 48-62 (٢٤).
- 1971. « Recent contributions to Bornu chronology », *W.A.J.A.* I : 55-60 (٢٤).
- 1972. « Archaeology in Benin », *J.A.H.* 13, 1 : 25-38 (٢٤).
- COOK (R.M.). — 1963. « Archaeomagnetism », D. BROTHWELL and E. HIGGS (éd.), *Science in archaeology*, London, Thames and Hudson (٩).
- COOKE (C.K.). — 1969. « A re-examination of the "Middle Stone Age" industries of Rhodesia », *Arnoldia*, 17 (٤).
- 1971. « Excavation in Zombepata Cave, Sipolilo District, Mashonaland, Rhodesia », *S.A.A.B.* XXVI : 104-27 (٢٠).
- COOKE (H.B.S.). — 1958. « Observations relating to Quaternary environments in east and southern Africa », *T.G.S.S.A.*, Annexe au vol. 61 (١٦).
- 1963. « Pleistocene mammal faunas of Africa with particular reference to southern Africa », in F.C. HOWELL and F. BOURLIERE (éd.), *African Ecology and Human evolution*, 65-116 (٢٠).
- 1965. « Tentative correlation of Major Pleistocene deposits in Africa, *The origin of Man, Wenner-Green symposium*, Chicago (٢٤).
- 1972. « Pleistocene chronology : long or short », *Maritimes sediments*, 8, 1 : 1-12 (١٦).
- COONS (C.S.). — 1968. *Yengema cave report*, Philadelphia, Univ. of Pennsylvania, p. V + 77 + 35 pl. (٢٤).
- COPANS (J.) et GODELIER (M.). — 1971. *L'Anthropologie, science des sociétés primitives ?*, Paris, Denoël (المقدمة العامة).
- COPPENS (Y.). — 1960. « Les cultures protohistoriques et historiques du Djourab », *Actes 1^{re} coll. intern. archéol. afr.* (القدمة العامة).
- 1961. « Découverte d'un Australopithécine dans le Villafranchien du Tchad », *C.R.A.S.* 252 : 3851-2. (٢٤) (٢٣).
- 1962. « Découverte d'un Australopithécine dans le Villafranchien du Tchad », *Colloques internationaux du C.N.R.S.* 104 : 455-9 (٢٣).
- 1965. « L'Hominien du Tchad », *C.R.A.S.* 260 : 2869-71 (٢٤).

- 1965. « L'Hominien du Tchad », *Actes V Congr. P.P.E.C.*, I : 329-30 (٢٢).
- 1966. « Le Tchadanthropus », *Antropologia*, 70 : 5-16.
- 1966. « Le gisement des vertébrés quaternaires de l'Ouest africain », *B.I.F.A.N. A.*, 27 : 373-81 (٢٤).
- 1970. « Localisation dans le temps et dans l'espace des restes d'Hominidés des formations plio-pléistocènes de l'Omo (Ethiopie) », *C.R.A.S.* 271 : 1968-71 (١٧).
- 1970. « Les restes d'Hominidés des séries inférieures et moyennes des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.*, 271 : 2286-9 (١٧).
- 1971. « Les restes d'Hominidés des séries supérieures des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.* 272 : 36-9 (١٧).
- 1972. « Tentative de zonation du Pliocène et du Pléistocène d'Afrique par les grands Mammifères », *C.R.A.S.* 274 : 181-4 (١٧).
- 1973. « Les restes d'Hominidés des séries inférieures et moyennes des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie (récoltes 1970, 1971 et 1972) », *C.R.A.S.* 276 : 1823-6 (١٧).
- 1973. « Les restes d'Hominidés des séries supérieures des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie (récoltes 1970, 1971 et 1972) », *C.R.A.S.* 276 : 1981-4 (١٧).
- 1975. « Evolution des Mammifères, de leurs fréquences et de leurs associations au cours du Plio-Pléistocène dans la basse vallée de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.* 281 : 1571-4 (١٧).
- 1975. « Evolution des Hominidés et de leur environnement au cours du Plio-Pléistocène dans la basse vallée de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.* 281 : 1693-6 (١٧).
- COPPENS (Y.), HOWELL (F.C.), ISAAC (G. LI.) et LEAKEY (R.E.F.). — 1976. *Earliest man and environments in the Lake Rudolf basin*, Univ. of Chicago Press, 615 + XXII p. (١٧) (١٨) (١٧).
- CORBEIL (R.). — 1951. « Les récentes découvertes au Cap-Vert concernant le Paléolithique », *B.I.F.A.N. B.* 13 : 384-437 (٢٤).
- 1951. « Mise en évidence d'industries lithiques anciennes dans l'extrême ouest sénégalais », *C.R. Conf. Intern. Africanistes Ouest* 1, 2 : 387-90 (٢٤).
- CORBEIL (R.), MAUNY (R.) et CHARBONNIER (J.). — 1948. « Préhistoire et protohistoire de la presqu'île du Cap Vert et de l'extrême ouest sénégalais », *B.I.F.A.N. B.* 10 : 378-460 (٢٤).
- CORNÉVIN (R.). — 1962. *Histoire de l'Afrique*, Paris (٥).
- COUPEZ (A.) et KAMAZI (T.). — 1970. *Littérature de cour au Rwanda*, Oxford (٧).
- COURSEY (D.G.). — 1967. *Yams*, London, Longmans-Green, XIV + 230 p. (٢٤).
- 1972. « The origins and domestication of yams in Africa », *Proc. Burg. Wart. Symp.* 56 (٢٤).

- COURSEY (D.G.) et ALEXANDER (J.). — 1968. « African agricultural patterns and the Sickle Cell », *Science*, 160 : 1474-5 (٢٤).
- COURTOIS (Ch.). — 1955. *Les Vandales et l'Afrique*, Paris (°).
- CREACH (P.). — 1951. « Sur quelques nouveaux sites et quelques nouvelles industries préhistoriques d'Afrique occidentale française », *C.R. Conf. Intern. Africanistes Ouest I*, 2 : 397-430 (٢٤).
- CREACH (D.A.). — 1970. « A tale type index for Africa » *Research in Africa, Literatures*, Austin, I, 1 : 50-3 (٧).
- CREACH (S.A.). — 1852. *A vocabulary of the Yoruba Language*, London, Seeleys, V + 38, 219 p. (١٢).
- 1855. « Journal of an expedition up the Niger and Tshadda rivers », London (٧).
- CUGOANO (O.). — 1787. *Thoughts and sentiments on the wicked traffic of the slavery*, Londres (٧).
- CUNY (A.). — 1946. *Invitation à l'étude comparative des langues indo-européennes et des langues chamito-sémitiques*, Bordeaux (١١).
- CUOQ (J.). — 1975. *Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIII^e au XVI^e siècle (Bilād al-Sūdān)*, Paris, C.N.R.S. 493 p. (°).
- CURRY (R.R.). — 1969. *Chronologie glaciaire absolue de la Sierra Nevada, Californie, pour les derniers 2 700 000 ans*, Paris (١١).
- CURTIN (Ph. D.). — 1960. « The archives in tropical Africa : a reconnaissance », *J.A.H.* I, 1, pp. 129-147.
- 1968. « Field Techniques for collecting and processing oral data », *J.A.H.* IX, 3 : 367-85 (٧).
- CURTIN (Ph. D.) et VANSINA (J.). — 1964. « Sources of the 19th century Atlantic slave trade », *J.A.H.* 5 (٧).
- CUVELIER (J.) et JADIN (L.). — 1954. *L'Ancien Royaume du Congo d'après les archives romaines 1518-1640*, Bruxelles (٧).
- DAHL (O. Ch.). — 1951. *Malgache et Maanjan : une comparaison linguistique*, Oslo, Egede Institut, 406 p. (١٢).
- DAIN (A.). — 1961. « Témoignage écrit et philologie », *l'Histoire et ses méthodes*, encyclopédie de la Pléiade, Paris (°).
- DALBY (D.). — 1965. « The Mel Languages : a reclassification of southern "West Atlantic" », *A.L.S.* 6 (١٢) (١١).
- 1966. « Levels of relationship in the classification of African languages », *A.L.S.* (١١).
- 1967. « Survey of the indigenous scripts of Liberia and Sierra Leone », *A.L.S.* 8 (٧).
- 1970. *Language and History in Africa*, Franck Cassad and C^o, Londres, 160 p. (١١).
- 1970. « Reflections on the classification of African languages, with special reference to the work of Sigismund Wilhem Koelle and Malcolm Guthrie », *African language studies*, XI (١٢).
- DALLONI (M.). — 1935. *Mission au Tibesti (1930-1931)*, Paris, Gauthier - Villard, 2 vol. (٢٢).

- 1948. *Matériaux pour l'étude du Sahara oriental, région entre la Libye, le Tibesti et le Kaouar (Niger)*, Alger, I.R.S., 120 p. (٢٣).
- 1952. « La station moustérienne de Retaimia près d'Inkerma.n (Algérie) », *Actes IF Congr. P.P.E.Q.* : 419-27 (٢٢).
- DALLONI (M.) et MONOD (Th.). — 1948. « Géologie et préhistoire (Fezzan méridional, Kaouar et Tibesti) », *Mission scientifique du Fezzan (1944-45)*, *Trav. I.R.S.* 6 (٢٢).
- DALLONI (M.), DALRYMPLE (G.), BRENT, LANPHERE et MARVIN (A.) — 1969. *Potassium-Argon Dating. Principles, techniques and applications to geochronology*, San Francisco, W. H. Freeman and Co (١).
- DALTON (G.). — 1968. *Primitive, archaic and modern economies, essays of Karl Polanyi*, New York (١٢).
- DAMAS (I.) (éd.). — 1966. « Ecological essays : proceedings of the conference of cultural ecology », *Museum of Canada Bull.* 230 (٢٧).
- DANIEL (G.). — *The Tree Ages*, Cambridge, Cambridge University Press (٢٤).
- DANIELS (Ch.). — 1970. *The Garamantes of Southern Libya*, Stoughton, Oleander Press (٢٤).
- DAPPER (O.). — 1668. *Naukeurige Beschrijuinghe des Afrikaenshe Gewesten*, Amsterdam.
- DARLINGTON (C.D.). — 1963. *Chromosomes botany and the origins of cultivated plants*, London, G. Allen Unwin Ltd. (٢٧).
- DAVIDSON (B.). — 1959. *The last cities of Africa*, Boston, Atlantic monthly Press (القدمة العامة).
- 1964. *The African past*, London, Longmans (القدمة العامة).
- 1965. *Old Africa rediscovered*, Paris, P.U.F. (القدمة العامة).
- 1965. *Mère Afrique*, Paris, P.U.F. (القدمة العامة).
- 1966. *The growth of African civilisation : West Africa 1000-1800*, London, Longmans (القدمة العامة).
- DAVIES (O.). — 1959. « The distribution of Old Stone Age material in Guinea », *B.I.F.A.N.* B, 21 : 1-2. (٢٤).
- 1960. « The neolithic révolution in tropical Africa », *T.H.S.G.* 4 (٢٤).
- 1961. *Archaeology in Ghana*, Edinburg, Nelson, IV + 45 p. (٢٤).
- 1962. « The Neolithic culture of Ghana », *Actes IV Congr. P.P.E.Q.* 3 : 291-301 (٢٤).
- 1964. *The Quaternary in the Coastlands of Guinea*, Glasgow, Jackson, XVI + 276 p. (٢٤).
- 1966. « The invasion of Ghana from the Sahara in the Early Iron Age ». *Actas V Congr. P.P.E.C.* 2 : 27-42 (٢٤).
- 1966. « Comment on : "J. Arkell, B. Fagan and R. Summers. The Iron Age in Sub-Saharan Africa" » *C.A.* 7 : 470-1 (٢٤).
- 1967. « New radiocarbon dates from Ghana », *B.A.S.E.Q.U.A.* 14-15 : 28 (٢٤).
- 1967. *West Africa before the Europeans*, Londres. Methuen, XX + 364 p. (٢٤).

- DAVIES (O.), HUGOT (H.) et SEDDON (D.). — 1968. « The origins of African agriculture », *C.A.* 9, 5 : 479-504.
- DAVISON (C.C.). — 1973. « Glass beads in African archaeology », *A.A.T.A.*, 10, 2 (١).
- DAVISON (C.C.), GIAUQUE (R.D.) et CLARK (J.D.). — 1971. « Two chemical groups of dichroic glass beads from West Africa », *Man* 6, 4 : 645-9 (١).
- DAY (M.H.) et LEAKEY (R.E.F.). — 1973. « New evidence for the genus *Homo* from East Rudolf, Kenya, I », *A.J.P.A.* 39 : 341-54 (١٧).
- 1974. « New evidence for the genus *Homo* from East Rudolf, Kenya, III », *A.J.P.A.* 41 : 367-80 (١٧).
- DAY (M.H.), LEAKEY (R.E.F.), WALKER (A.C.) et WOOD (B.A.). — 1975. « New hominids from East Rudolf, Kenya, I », *A.J.P.A.* 42 : 461-76 (١٧).
- 1976. « New hominids from East Turkana, Kenya », *A.J.P.A.* 45, 3 : 369-436 (١٧).
- DAYRELL (E.). — 1911. « Further notes on nsibidi signs with their meanings from the Ikom district, Southern Nigeria », *J.R.A.I.*, vol. 41, pl. LXV-LXVII (١).
- DEACON (H.J.). — 1970. « The Acheulian occupation of Amanzi Springs, Uitenhage district, Cape province », *A.C.P.M.* 8, 11 (٢٠).
- 1972. « Wilton : an assessment after fifty years », *S.A.A.B.* XXVII, 1-2 : 10-48 (٢٠).
- 1972. « A review of the post-Pleistocene in South Africa », *S.A.A.B.*, Goodwin series I : 26-45 (٢٠).
- DEBONO (F.). — 1948. « Le Paléolithique final et le Mésolithique à Héliouan », *A.S.A.E.* XLVIII : 629-37 (٢٥).
- 1948. « El-Omari », *A.S.A.E.* XLVIII : 562-8 (٢٥).
- 1951. « Expédition archéologique royale au Désert oriental », *A.S.A.E.* LI : 59-91 (٢٥).
- 1954. « La nécropole prédynastique d'Héliopolis », *A.S.A.E.* LII : 625-52 (٢٥).
- 1956. « La civilisation prédynastique d'el-Omari (nord d'Héliouan) », *B.I.E.* XXXVII : 331-9 (٢٥).
- 1969. « Le sentiment religieux à l'époque préhistorique en Egypte », *C.H.E.* XI : 1-13 (٢٥).
- 1970. « Recherches préhistoriques dans la région d'Esna », *B.I.F.A.O.* LXIX : 245-51 (٢٥).
- 1971. « Etude des dépôts de silex », *Graffiti de la Montagne thébaine*, Le Caire (٢٥).
- 1971. « Prospection préhistorique (campagne 1972-1973) », *Graffiti de la Montagne thébaine*, t. I, 4, Le Caire (٢٥).
- 1975. « Thèbes préhistorique, ses survivances à l'époque pharaonique », *Actes du XXIX Congr. Inter. Orient.* (٢٥).
- 1976. « L'homme oldowaien en Egypte », *B.I.E.* (٢٥).
- 1976. « Survivances préhistoriques de l'usage du silex à l'époque pharaonique », *B.I.E.* (٢٥).

- DEGAN (Th.). — 1956. « Le site préhistorique de Tiémassas (Sénégal) », *B.I.F.A.N.* B, 8 : 432-61 (٢١).
- DELAFOSSÉ (M.). — 1901. *Essai de manuel pratique de la langue mandé ou Mandingue*, Paris, Leroux, 304 p. (١٢).
- 1912. Haut-Sénégal Niger, Paris, Larose (١٠).
- 1914. « Mots soudanais du Moyen Age », *Mém. Soc. Ling.* Paris, 18 (١٢) (١٠).
- 1924. « Groupe sénégal-guinéen », A. Meillet et M. Cohen (dir.), *Langues du monde*, Paris, H. Champion, XVI + 811 p. (١٢) (١٠).
- DELANY (M.R.). — 1861. « Official report on the Niger Valley exploring party », Leeds (٦).
- DELCROIX (R.) et VAUFREY (R.). — 1939. « Le Toumbien de Guinée française », *Anthropologie*, 49 : 265-312 (٢١) (٢٢).
- DELIBRIAS (G.), GUILLIER (M.T.) et LABEYRIE (J.). — 1974. « Gif natural radiocarbon measurements VII », *Radiocarbon*, 16, 1 : 15-94 (٢١).
- DELIVRE (A.). — 1974. *L'Histoire des rois d'Imerina : Interprétation d'une tradition orale*, Paris (٨).
- DEMOUGEOT. — 1960. « Le chameau et l'Afrique du Nord romaine », *Annales*, 209-47 (٢٦).
- DENIS (J.), VENNETIER (P.) et WILMET (J.). — 1971. *L'Afrique centrale et orientale*, Paris, P.U.F., 294 p. (١٣).
- DENNINGER (E.). — 1971. « Use of paper chromatography to determine the age of albuminous binders and its application to rock paintings », *S.A.A.A.S.* 2 : 80-4 (٩).
- DENY (J.). — 1930. *Sommaire des archives turques du Caire*, Le Caire (٦).
- DESCAMPS (C.). — 1971. *Sénégal, préservation et mise en valeur du patrimoine archéologique*, « D. Les mégolithiques du Sine-Saloum », Paris, Unesco (٢١).
- DESCHAMPS (H.). — 1962. « Pour une histoire de l'Afrique », in « Regards sur l'Afrique », *Diogenes* 37, pp. 113-120 (المقدمة العامة).
- 1964. *L'Afrique tropicale aux XVII^e-XVIII^e siècles*, Paris, C.D.U. (المقدمة العامة).
- 1969. *L'Afrique noire précoloniale*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة).
- DESCHAMPS (H.) et al.. — 1970. *Histoire générale de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F., 2 t. (٥) (المقدمة العامة).
- DESPLAGNES (L.). — 1907. « L'Archéologie préhistorique en Guinée française », *B.S.G.C.* (٢١).
- 1907. *Le Plateau central nigérien*, Paris (٢١).
- DESPOIS (J.) et RAYNAL (R.). — 1967. *Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest*, Paris, Payot, 571 p. (١٢).
- DESTANIQ (Ed.). — 1911. « Notes sur des manuscrits arabes de l'Afrique occidentale », *Revue africaine* (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- DEVA (I.). — 1974. « La tradition orale et l'étude des sociétés agricoles », *Diogenes*, 85 : 123-42 (١).
- DIAGNE (P.). — 1972. *Anthropologie de la littérature wolof*, Dakar, I.F.A.N. (١٠).

- 1976. *Enquête linguistique*, Unesco, Tchad (١٠).
- DIALLO (Th.). — 1968. *Les Institutions politiques du Fouta-Djallon au XIX^e siècle*, Dakar (ronéo.) (٧).
- DIEHL (Ch.). — 1969. *L'Afrique byzantine*, 2^e éd., New York, 2 vol. (٥).
- DIENG (A.A.). — 1974. *Classes sociales et mode de production esclavagiste en Afrique de l'Ouest*, Paris, C.E.R.M. n° 114 (الطائفة).
- DIENG (A.A.). — 1978. Hegel, Marx, Engels et les problèmes de l'Afrique noir, Paris, Fonkoré.
- DIMBLEBY (G.W.). — 1963. « Pollen analysis », *Science in archaeology*, BROTHWELL (D.) et HIGGS (E.), dir., Londres, Thames and Hudson, pp. 139-149 (١).
- DIOP (C.A.). — 1955. *Nations nègres et culture*, Paris, Prés. afr. (٢٤) (١٠).
- 1959. *L'Unité culturelle de l'Afrique noire*, Paris, Prés. afr.
- 1960. *L'Afrique noire précoloniale*, Paris, Prés. afr. (٢٤).
- 1962. « Réponse à quelques critiques », *B.I.F.A.N.* B. 24 : 542-74 (٢٤).
- 1962. « Histoire primitive de l'humanité : évolution du monde noir », *B.I.F.A.N.* B. 24 : 449-541 (٢٤).
- 1973. *Introduction à l'étude des migrations en Afrique occidentale et centrale*, Dakar, I.F.A.N. (١٠) (٧).
- 1974. *Physique nucléaire et chronologie absolue*, Dakar-Abidjan, N.E.A. (١).
- 1977. Parenté génétique de l'égyptien pharaonique et des langues africaines : processus de sémitisation ; la pigmentation des anciens Egyptiens, test par la mélanine, *BIFAN*.
- DIOP (M.). — 1971-72. *Histoire des classes sociales dans l'Afrique de l'Ouest*, Paris, F. Maspero (الطائفة).
- DOBLHOFFER (E.). — 1959. *Le Déchiffrement des écritures* (trad. de l'allemand), Paris, Arthaud (١).
- DOIZE (R.L.). — 1938. « Les boules de pierre et les pierres perforées des collections de préhistoire du musée du Congo », *A.M.R.A.C.* I : 89-140 (٢١).
- DOKE (C.M.) et COLE (D.T.). — 1961. *Contribution to the history of african linguistics*, Johannesburg, Witwatersrand University Press, 129 p. (١٧).
- DORRESSE (J.). — 1971. *Histoire sommaire de la Corne orientale de l'Afrique*, Paris (٥).
- DORIZE (L.). — 1974. « L'oscillation pluviométrique récente sur le bassin du lac Tchad et la circulation atmosphérique générale », *Revue de géographie physique et de géologie dynamique*, 16, 4 : 393-420 (١١).
- DORSON (R.M.). — 1972. « African Folklore. Garden City (récits, genres oraux, folklore, littérature et histoire) » (٨).
- 1976. « Oral literature, oral history and the folklorist », *Folklore and Faklore*, Cambridge : 127-44 (٨).
- DORST (J.P.) et DANDELLOT (F.). — 1970. *A field guide to the larger mammale of Africa*, Londres, Collins (٢٤).

- DRAR (M.). — 1963. « Flore du continent africain : région au nord du Sahara », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco : 257-70 (١٣).
- DRIOTON (E.) et VANDIER (J.). — 1962. *L'Egypte*, 4^e éd. augmentée, Paris, P.U.F., 2 vol. (٢٨) (*).
- DROUX (G.) et KELLEY (H.). — 1939. « Recherches préhistoriques dans la région de Boko-Sogho et à Pointe-Noire (Moyen-Congo) », *J.S.A.* 9 : 71-84 (٢١).
- DUBIEF (J.). — 1959. « Le climat du Sahara », *Mém. I.R.S.*, 2 vol. (٢٢).
- DUBOIS (W.E.B.). — 1903. *The souls of black folk*, Mac Clurg (القدمة العامة).
- 1944. *Black folk then and now*, New York, H. Holt (القدمة العامة).
- DUMOULIN DE LAPLANTE (P.). — 1947. *Histoire générale synchrone*, Paris (الخاتمة).
- DUNBAR (J.H.). — 1941. *Some nubian rock pictures of lower Nubia*, Le Caire (٢٣).
- DUNHAM (D.). — 1955. *Nuri, the royal cemeteries of Kush*, Boston, University of Fine Arts (٢٨).
- DUNHILL (A.). — 1969. *The Pipe Book* (éd. révisée), Londres, Barker (٢٤).
- DUVEYRIER (H.). — 1864. *Les Touaregs du Nord*, Paris, Challamel, 502 p (٢٣).
- DUVIGNEAUD (P.). — 1958. « La végétation du Katanga et de ses sols métallifères », *Bulletin de la société royale de botanique de Belgique*, 90, 2 : 126-278 (٢١).
- DUYVENDAK (J. J.L.). — 1949. *China's discovery of Africa*, London (*).
- 1973. « Eastern african coast », *J.R.A.S.* : 98-122 (٦)(٥) (القدمة العامة).
- EBOUE (F.). — 1933. « Les peuples de l'Oubangui-Chari. Essai d'ethnographie, de linguistique et d'économie sociale », *Ethnographie* 27 : 3-79 (٢١).
- EDWARDS (I.E.S.). — 1970. « Absolute dating from Egyptian records and comparison with carbon-14 dating », *P.T.R.S.* 269, 1193 : 11-9 (٩).
- EGHAREVBA (J.). — 1960. *A short history of Benin*, Ibadan, Ibadan Univ. Press (٢٤).
- EHRET (Ch.). — 1963. « Sheep and central sudanic peoples », *J.A.H.* IX, 2 (القدمة العامة).
- الكثاني (م) ١٩٦١. « التاريخ وطريقته » باريس، موسوعة لالمبياد (القدمة العامة).
- ١٩٦٨. « خطوط الغرب الأفريقي بنزاعات المغرب » هيريس تامودا ١٤٩ : ٥٧ — ٦٣ (القدمة العامة).
- ١٩٦٨. « أقسام المئات والخطوط للخرائط المغربية »، هيريس تامودا، الرباط. ٣٢٩ : ٤٥٩ — ٦٨ (القدمة العامة).
- التونسي (أ) ١٨٤٥. « رحلة إلى دارفور »، ترجمة الدكتور بيرون، باريس (٦).
- EMERY (W.B.). — 1961. *Archaic Egypt*, Harmondsworth, Penguin Book (٢٨).
- 1965. *Egypt in Nubia*, London, Hutchinson (٢٨).

- EMILIANI (C.). — 1975. « Paleoclimatological Analysis of Late Quaternary Cores from the Northeastern Gulf of Mexico », *Science*, 189, 4208 : 1083-7 (١٦).
- EMPHOUX (J.P.). — 1970. « La grotte de Bitorri au Congo-Brazzaville », *Cah. O.R.S.T.O.M.* II : 3-20 (٢١).
- ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM, 2^e éd., Leyde (٥) (المقدمة العامة).
- ENGELMAYER (R.). — 1965. *Die Felsgravierungen in Distrikt Sayala Nubien*, Vienna, H. Böhlau Nachf., 90 p. (٢٣).
- ENNOUCHI (E.). — 1962. « Un néandertalien : l'homme du Djebel Irhoud », *Anthropologie*, 66 (٢٢).
- ERMAN (A.) et RANKE (H.). — 1952. *Aegypten und aegyptischen Leben im Altertum*, Tübingen. Traduction française : *La Civilisation égyptienne*, Paris, Payot (٢٨).
- EYO (E.). — 1969. « Excavation at Ile-Ife », *Afr. Arts* : 44-7 (٢٤).
- 1972. « Rop Rock Shelter excavations 1964 », *W.A.J.A.* 2 : 13-6 (٢٤).
- 1972. « New treasures from Nigeria », *Expedition*, 14, 2 : 1-11 (٢٤).
- 1974. « Excavations at Odo-Ogbe Street and Lafogido, Ife, Nigeria », *W.A.J.A.* 4 (٢٤).
- EVANS-PRITCHARD (E.E.). — 1939. « Nuer Time Reckoning », *Africa* 12 : 189-216 (٧).
- EWING (G.W.). — 1954. *Instrumental methods of chemical analysis*, Londres, McGraw Hill Book Company Inc. (٩).
- EYRE (S.R.). — 1963. *Vegetations and Soils*, Londres (١٤).
- FAEGRI (K.) et IVERSEN (J.). — 1950. *Introduction to pollen analysis*, Copenhagen (٩).
- FAGAN (B.M.). — 1969. « Radiocarbon dates for sub-saharan Africa, VI », *J.A.H.* 10 : 149-69 (٢٤).
- FAGAN (B.M.) et NOTEN (F. VAN). — 1971. « The Hunter-Gatherers of Gwisho », *A.M.R.A.C.* 74, XXII + 228 p. (٢١).
- FAGE (J.D.). — 1962. *An introduction to the history of West Africa*, 3^e éd., Cambridge (المقدمة العامة).
- 1965. *An atlas of African history*, London, Ewd. Arnold.
- 1970. *Africa discovers her past*, Oxford, Oxford Univ. Press (١٥).
- FAGE (J.D.) et OLIVER (R.A.). — 1970. *Papers in African prehistory*, Cambridge Univ. Press (الخاتمة).
- FAGG (A.). — 1972. « Pottery from the Rock Shelter excavations of 1944 and 1964 », *W.A.J.A.* 2 : 29-38 (٢٤).
- 1972. « Excavation of an occupation site in the Nok Valley, Nigeria », *W.A.J.A.* 2 : 75-9 (٢٤).
- FAGG (B.E.B.). — 1944. « Preliminary report on a microlithic industry at Rop Rock Shelter, Northern Nigeria », Cambridge, *Proceedings of the prehistoric society*, 10 : 68-9 (٢٤).
- 1945. « A preliminary note on a new series of pottery figures from Northern Nigeria », *Africa*, 15 : 21-2 (٢٤).
- 1956. « An outline of the Stone Age of the Plateau Minesfield », *Proc. III Internat. W.A.C.* 203-22 (٢٤).

- 1956. « The Nok culture », *W.A.R.* 27 : 1083-7 (٢٤).
- 1959. « The Nok culture in prehistory », *J.H.S.N.* 1, 4 : 288-93 (٢٤).
- 1962. « The Nok terracottas in west african art history », *Actes IV Congr. P.P.E.Q.* III : 445-50 (٢٤).
- 1968. « The Nok culture : excavations at Taruga », *W.A.A.N.* 10 : 27-30 (٢٤).
- 1969. « Récent work in West Africa ; new light on the Nok culture », *W.A.* I : 41-50 (٢٤).
- 1972. « Rop Rock Shelter excavations 1944 », *W.A.J.A.* 2 : 1-12 (٢٤).
- FAGG (B.E.B.) et FLEMING (S.J.). — 1970. « Thermoluminescent dating of a terracotta of the Nok culture, Nigeria », *Archaeometry*, 12 : 53-5 (٢٤).
- FAGG (W.). — 1963. *Nigerian images*, London, Lund Humphries, 124 p. (٢٤).
- FAGG (W.) et WILLET (F.). — 1960. « Ancient Ife : an ethnographical summary », *ODU*, 8 : 21-35 (٢٤).
- FARAG (N.) et ISKANDER (A.). — 1971. *The Discovery of Neferwptah*, Le Caire (١).
- FARINE (B.). — 1963. *Sites préhistoriques gabonais*, ministère de l'Information, Libreville (٢١).
- 1965. « Recherches préhistoriques au Gabon », *B.S.P.P.G.*, vol. I, 3, pp. 68-84 (٢١).
- 1967. « Quelques outils principaux des divers faciès préhistoriques des districts de Ndjole et de Booué », *B.S.P.P.G.* : 22-36 (٢١).
- FAULKNER (R.O.). — 1953. « Egyptian military organisation », *J.E.A.* 39 : 32-47 (٢٨).
- FAURE (H.). — 1962. *Reconnaissance géologique des formations sédimentaires postpaléozoïques du Niger oriental*, thèse, Paris (٢٣).
- 1967. « Evolution des grands lacs sahariens à l'Holocène », *Quaternaria* 15 : 167-75 (١١).
- 1969. « Lacs quaternaires du Sahara », *Internationale Vereinigung für theoretische und Angewandte Limnologie*, 17 : 131-48 (١١).
- FAURE (H.) et ELOUARD (P.). — 1967. « Schéma des variations du niveau de l'océan Atlantique sur la côte de l'ouest de l'Afrique depuis 40 000 ans », *C.R.A.S.* 265 : 784-7 (٢٤).
- FEREMBACH (D.). — 1970. *Les Cro-Magnoïdes de l'Afrique du Nord. L'Homme de Cro-Magnon*, Paris, A.M.G. (٢٢).
- FEREMBACH (D.), DASTUGUE (J.) et POITRAT-TARGOWLA (M.-J.). — 1962. *La Nécropole épi-paléolithique de Taforal (Maroc oriental)*, Casablanca (٢٢).
- FERGUSON (J.). — 1969. « Classical contacts with West Africa », L.A. THOMPSON and J. FERGUSON (éd.), *Africa in classical antiquity*, Ibadan, Ibadan Univ. Press. IX + 221 p. (٢٤).
- FIELDS (P.R.), MILSTED (J.), HENRICKSEN (E.) et RAMETTE (R.W.). — 1971. « Trace impurities copper ores and artefacts », *Science and archaeology* (٤).

- FILESI (T.). — 1962. *La Relazione della Cina con l'Africa nel medioevo*, Milano (٥).
- FILIPOWIARK (M.). — 1969. « L'expédition archéologique polono-guinéenne à Niani en 1968 », *Africana* II : 107-17 (٢٤).
- 1969. « Discovering Niani », *Polish Rev.*, 4, 92 : 14-6 (٢٤).
- FINNEGAM (R.). — 1970. *Oral literature in Africa*, Oxford (٨).
- FISHER (H.J.). — 1972. « He swalloweth the ground with fierceness and rage : the horse in the central Sudan », *J.A.H.*, 13-3 : 367-88 (٢٤).
- FLAMAND (G.B.M.). — 1902. « Les pierres écrites (Hadjrat Mektoubat), du nord de l'Afrique et spécialement de la région d'In Salah », *Anthropologie*, 12 : 535-8 (٢٣).
- 1921. *Les pierres écrites (Hadjrat Mektoubat). Gravures et inscriptions rupestres du Nord africain*, Paris, Masson (٢٣).
- FLEMING (H.C.). — 1969. « The classification of west cushitic within Hamito-Semitic », D.F. McCALL, N.R. BENNETT and J. BUTTER (dir.), *Eastern african history*, New York, Washington, London and Praeger (١٢).
- FLIGHT (C.). — 1970. « Kintampo 1968 », *W.A.A.N.* 12 : 71-3 (٢٤).
- FLINT (R.F.). — 1947. *Glacial geology and the Pleistocene epoch*, London, New York, 589 p. (١١).
- 1959. « Pleistocene climates in Eastern and Southern Africa », *B.G.S.A.* 70 : 343-74 (٢١)(١٦).
- 1959. « On the basis of Pleistocene correlation in East Africa », *Geology magazine* V, 96 : 265-84 (٢٤)(٢١).
- 1971. « Glacial and Quaternary Geology », New York, Wiley, p. XIV + 892 (٢٤)(١٦).
- FLUTRE (L.F.). — 1957. *Pour une étude de la toponymie de l'A.O.F.*, Dakar, publication de l'Université (المقدمة العامة).
- FODOR (I.). — 1966. *The Problems in the classification of the african languages*, Budapest, Center for afro-asian research of the Hungarian Acad. Sc. (٤).
- FOERSTER (R.) éd. — 1893. *Scriptores physiognomici* (١١).
- FORBES (R.J.). — 1964. *Studies in ancient technology*, Leyde, Brill. 1. (٢٨).
- FORD (J.). — 1971. *The historical role of tsé-tsé*, The Clarendon Press, Oxford (المقدمة العامة).
- FORDE (D.). — 1954. *African worlds*, Londres, O.U.P. (المقدمة العامة).
- 1956. *Efik trades of old Calabar*, Londres (١).
- FORTES (M.) et EVANS-PRITCHARD (E.E.). — 1962. *African political systems*, London, O.U.P. (المقدمة العامة).
- FOSBROOKE (H.A.). — 1950. « Rock-paintings of north-central Tanzania », *T.N.R.* 29 (١٩).
- FOUREAU (F.). — 1883. « Excursion dans le Sahara algérien », *l'Explorateur* 16 (٢٣).
- 1905. *Documents scientifiques de la mission saharienne*, mission Foureau-Lamy, d'Alger au Congo par le Tchad, Paris, Masson, 3 vol. (٢٣).

- FOURNIER (F.). — 1963. « Les sols du continent africain », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, 227-255 (١٣).
- FREEMAN (Th.). — 1844. *Journal of various visits to the kingdom of Ashanti, Dahomey and Abeokuta*, Londres (٦).
- FREEMAN-GRENVILLE (G.S.P.). — 1958. « Swahili literature and the history and archaeology of the East African Coast », *J.E.A.S.C.* : 28, 2.
(٦) (٥) (المقدمة العامة).
- 1959. « Medieval evidences for Swahili », *J.E.A.S.C.* 29, 1 (٥) (المقدمة العامة) (٦).
- 1960. « East African coin finds and their historical significance », *J.A.H.*, 1 : 31-43 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- 1962. *The East African coast, select documents from the first to the early nineteenth century*, Oxford (٦).
- FROBENIUS (L.). — 1913. *The voice of Africa*, Londres, B. Bleen (المقدمة العامة).
- 1937. *Ekade Ektab. Die Felsbilder Fezzan*. Veröffentlichung des Forschungsinstitut für Kulturmorphologie, Leipzig, Harrasowits (٢٢).
- 1949. *Mythologie de l'Atlantide*, Paris, Payot (المقدمة العامة).
- 1952. *Histoire de la civilisation africaine*, Paris, Gallimard (المقدمة العامة).
- FROBENIUS (L.) et OBERMAIER (H.). — 1923. *Hadschra Mektuba*, Munich, K. Wolff (٢٢).
- FROGER (J.). — 1965. « La machine électronique au service des sciences humaines », *Diogenes* 52 : 110-44 (٤).
- FROUDE (J.A.). — 1888. *The English in the West Indies*, Oxford (١).
- FURON (R.). — 1943. *Manuel d'archéologie préhistorique*, Paris, Payot (الخاتمة).
- 1958. *Manuel de préhistoire générale*, Paris, Payot (الخاتمة).
- 1960. *Géologie de l'Afrique*, Paris, Payot, 351 p. (١٣).
- FYNN (N.F.). — 1950. *The diary of... 1803-61*, Pietermaritzburg (٦).
- GABEL (C.). — 1966. « Prehistoric populations of Africa », *B.U.P.A.* : 1-37 (١٥).
- GABEL (C.) et BENNET (N.R.). — 1967. *Reconstructing african culture history*, Boston, Boston Univ. Press (١٥).
- GALTON (F.). — 1853. *Narrative of an explorer in tropical Africa*, Londres (٦).
- GARDINER (A.H.). — 1947. *Ancient egyptian onomastica*, Londres, Oxford Univ. Press (٢٨).
- 1957. *Egyptian Grammar*, 3rd edit., Londres, Oxford Univ. Press (٢٨).
- GARDNER (J.V.) et HAYS (J.D.). — 1975. « Eastern equatorial Atlantic : sub-surface temperature and circulation responses to global climatic charge during the past 200,000 years », *G.S.A.M.* 145 (١٦).
- GARLAKE (P.). — 1974. « Excavations at Obalara's Land, Ife, Nigeria », *W.A.J.A.* 4 (٤٤).
- GASSE (F.). — 1975. *L'Evolution des lacs de l'Afar Central (Ethiopie et T.F.A.I.) du Plio-Pléistocène à l'Actuel*, thèse, Paris, Université de Paris VI, 3 vol. (١٦).

- GAUSSEN (M. et J.). — 1965. « Un atelier de burins à Lagreich-Néo. 1, Oued Tilemsi (Mali) », *Anthropologie*, 69 (٢٢).
- GAUTHIER (E.F.). — 1914. « Minette de St-Martin, note sur une collection préhistorique saharienne », *Revue africaine* (٢٢).
- 1933. « Deux centres d'influence méditerranéenne qui rendent intelligible l'Afrique occidentale », *B.S.G.F.* : 71-2 (المقدمة العامة).
- 1946. *Le Sahara algérien*, Paris (٢٣).
- 1950. *Le Sahara*, 3^e éd., Paris, Payot, 231 p. (٢٣).
- GAUTHIER (E.F.) et REYGASSE (M.). — 1923. « Découverte d'un outillage moustérien à outils pédonculés atériens dans le Tidike't, oueld Asriouel, région d'Aoulef Chorra », *Actes 46^e congr. A.F.A.S.* (٢٢).
- 1934. « Les monuments de Tin Hinan », *A.A.S.C.* 7, 12 p. (٢٣).
- GENTNER (W.) et LIPPOLT (H.J.). — 1963. « The potassium-argon dating of Upper Tertiary and Pleistocene deposits », *Science in Archaeology*, BROTHWELL D. et HIGGS E. (dir.), Londres, Thames and Hudson : 72-84 (١٨).
- GERMAIN (G.). — 1957. *Qu'est-ce que le périple d'Hannon ?*, Rabat (١).
- GEUS (F.). — 1976. *Rapport annuel d'activité 1975-76*, Khartoum, Service des Antiquités du Soudan (٢٨).
- GIEGENGACK (R.F.). — 1968. *Late Pleistocene history of the Nile Valley in Egyptian Nubia*, Ph. D. Dissertation, Yale University (١١).
- GILBERT (E.W.). — 1932. « What is historical geography ? » *The Scottish geographical magazine*, 48, 3 (١٤).
- GLELE (M. Ahanhanzo). — 1974. *Le Danxome, du pouvoir Aja à la nation Fon*, Paris, Nubia (١١).
- GOBERT (E.G.). — 1951-52. « El-Mekta, station princeps du capsien », *Karthago*, 2, 72 p. (٢٢).
- 1963. « Bibliographie critique de la préhistoire tunisienne », *Cah. de Tunisie*, 41-42 : 37-77 (٢٢).
- GODEE-MOLSBERGEN (E.C.). — 1916-1932. *Reüsen in Zuid Africa in the Hollandse Tijd*, La Haye, 4 vol. (٦).
- GOODWIN (A.J.H.) et RIET LOWE (C. VAN). — 1929. « The Stone Age Cultures of South Africa », *A.S.A.M.* 27 (٢٠).
- GOODY (J.). — éd. 1968. *Literacy in traditional societies*, Cambridge (٧).
- GOROG-KARADY (V.). — 1966-1972. « Littérature orale africaine : bibliographie analytique (périodiques) », *C.E.A.* 21, VIII : 243-501 ; 36, IX : 631-66 ; 40, X : 583-631 ; 45, XII : 174-92 (٧).
- GOUROU (P.). — 1970. *L'Afrique*, Paris, Hachette, 488 p. (١٣).
- GRANDIDIER (A. et G.). — 1903-1920. *Collections des ouvrages concernant Madagascar*, Paris, Comité de Madagascar, 9 vol. (١٢).
- GRAY (R.). — 1965. « Eclipse maps », *J.A.H.*, VI-3 pp. 251-262 (٧).
- 1968. « Annular eclipse maps », *J.A.H.* IX, 1 pp. 147-157 (٧).
- GRAY (R.) et CHAMBERS (D.S.). — 1965. *Materials for West African history in italian archives*, Londres (٢٤) (٧).
- GRAZIOSI (P.). — 1924. *L'arte rupestre della Libia*, Naples, Ediz. della mostra d'oltremare (٢٣).

- GREENBERG (J.H.). — 1948. « The classification of African languages », A.A. (١٠).
- 1954. « Etude sur la classification des langues africaines », B.I.F.A.N. B, XVI (١٠) (١) (القائمة العامة)
- 1957. *Essays in linguistics*, Chicago (١٠).
- 1957. « Nilotic hamitic and hamito-semitic », *Africa*, 27 (١٢) (١٠)
- 1963. *Langues et Histoire en Afrique*, Présence africaine n° 45, pp. 35-45 (١٥) (١٠).
- 1963. « The language of Africa », *I.J.A.L.* 29, 1 (٢٤) (١٢) (١٠) (١)
- 1963. « History and present status of the Kwa problem », *Actes II coll. Intern. L.N.A.*
- 1966. *The languages of Africa*, Indiana Univ. (القائمة العامة)
- 1966. *The languages of Africa*, The Hague, Mouton, 2^e éd., 180 p. (١٢).
- 1971. *Language culture and economy*, Stanford Univ. Press (١٠).
- 1972. « Linguistic evidence regarding Bantu origins », *J.A.H.* 13, 2 : 189-216 (١٢).
- GREGersen (E.A.). — 1967. « Linguistic seriation as a dating device for loanwords with special reference to West Africa », *A.L.R.* (١٠).
- 1977. *Languages in Africa : An introductory survey*, New York-Paris-Londres, Gordon and Breach (١٢).
- GRIAULE (M.). — 1947. « Mythe de l'organisation du monde chez les Dogon du Soudan », *Psyché*, 6 : 443-53 (٨).
- 1949. « L'image du monde au Soudan », *J.S.A.* 19 : 81-7 (٨).
- 1952. « Etendue de l'instruction traditionnelle au Soudan », *Zaire* 6 : 563-8 (٨).
- GRIAULE (M.) et DIETERLEN (G.). — 1951. « Signes graphiques soudanais », *L'homme*, 86 p. (١٠).
- 1965. *Le Renard pâle*, « I : le mythe cosmogonique », Paris, 544 p. (٨).
- GRIFFITH (F.L.). — 1927. « The Abydos Decree of Seti I at Mauri », *J.E.A.* 13 : 193-208 (٢٨).
- GROVE (A.T.) et PULLAN (R.A.). — 1964. « Some aspects of the palaeogeography of the Chad Basin », F. Clark-Howell and Bourlière (éd.), *African ecology and human evolution*, London, 230-45 (٢٤) (١٦).
- GROVE (A.T.), STREET (F.A.) et GOUDIE (A.S.). — 1975. « Former lake levels and climatic change in the rift valley of southern Ethiopia », *G.J.* 141, 2 : 177-202 (١٦).
- GROVE et WARREN (A.). — 1968. « Quaternary landforms and climate on the South Side of the Sahara », *G.J.* 134 : 194-208 (٢٤).
- GRUET (M.). — 1954. « Le gisement moustérien d'El-Guettar », *Karthago*, 5, 79 p. (٢٢) (٢٢).
- GSELL (S.). — 1913-28. *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, Paris, 8 vol. (٥).
- GUEBHARD (P.). — 1907. « Trois abris sous roche fouillés dans le Fouta-Djallon », *B.G.H.D.* 3 : 408-20 (٢٤).
- GUERNIER (F.). — 1952. *L'Apport de l'Afrique à la pensée humaine*, Paris, Payot (القائمة العامة)

- GUILLLOT (R.) et DESCAMPS (C.). — 1969. « Nouvelles découvertes préhistoriques à Tiémassas (Sénégal) », *B.I.F.A.N. B*, 31 : 602-37 (٢٤).
- GUMA (S.M.). — 1967. *The form, content and technique of traditional literature in Southern Sotho*, Pretoria (٧).
- GUITAT (R.). — 1972. « Présentation de pièces pédonculées d'El Azrag (Mauritanie) », *N.A.* 135 : 29-33 (٢٣).
- GUTHRIE (M.). — 1948. *The classification of the Bantu languages*, Londres-New York, Oxford Univ. Press, 91 p. (١٢).
- 1962. « Some developments in the prehistory of the Bantu languages », *J.A.H.*, 3, 2 : 273-82 (١٢).
- 1967. *Comparative Bantu*, Londres, Faber and Faber (١٠).
- 1969. *Linguistics and history*, Londres, d'Alby (١٠).
- HABERLAND (E.). — 1973. *L. Frobenius*, Wiesbaden, Franz Steiner Verlag (٢٠).
- HABLE SELASSIE (S.). — 1967. *Source material for ancient and medieval history of Ethiopia*, communication au Congrès international des Africanistes, Dakar (٥).
- HADJIGEORGIOU (C.) et POMMERET (Y.). — « Présence du lupembien dans la région de l'estuaire », *B.S.P.P.G.* 1,3 : 111-31 (٢١).
- HAIR (P.E.H.). — 1965. « The enslavement of Koelle's informants », *J.A.H.* 6 (٦).
- HALKIN (L.E.). — 1963. *Initiation à la critique historique*, Paris, A. Colin (١٥) (القدمة العامة) (٥).
- HALL (E.T.). — 1965. « Recent research at the Research Laboratory for archaeology and the history of art », *Proc. Sem. A.S.E.W.A.*, Boston (9).
- 1970. « Analytical techniques used in archaeometry », *P.T.R.S.* 269, 1195 (٩).
- HALPERN (J.W.), HARRIS (J.E.) et BARNES (C.). — 1971. « Studying skulls in Egypt », *Research News, Ann Arleor*, The University of Michigan, vol. XXII, n° 1 (٩).
- HAMILTON (E.I.). — 1965. *Applied Geochronology*, Londres, Academic Press, p. 47-79 (١٧) (٩).
- HAMY (E.T.). — 1900. « La grotte de Kakimbon à Rotoma près de Konakry », *C.R. 12 Congr. Intern. A.A.P.* (٢٤).
- HANOTAUX (G.) et MARTINEAU (A.) dir. — 1931. *Histoire des colonies françaises*, Paris, 8 vol. (١).
- HARLAN (J.R.). — 1975. *Crops and man*, American society of agronomy, Madison, Wisconsin (٢٧).
- HARLAN (J.R.), WET (J.M. DE) et STEMLER (A.B.L.) dir. — 1976. *Origins of African plant domestication*, Paris-La Haye, Mouton (٢٧).
- HARLEY (G.V.). — 1950. *Compte rendu de « Masks as agents of social control in Northeast Liberia »*, Peabody Museum, Harvard Univ., vol. XXXII (١٥).
- HARRIES (L.). — 1962. *Swahili poetry*, Oxford (٦).
- 1964. « The Arabs and Swahili culture », *Africa XXXIV* : 224-9 (٦) (٥) (القدمة العامة) (٥).

- HARRIS (D.). — 1969. « Agricultural systems, ecosystems and the origin of agriculture », P.J. UCKO and G.W. DIMBLEBY (éd.), *The domestication and exploitation of plants and animals*, Londres, Duckworth (٢٧).
- HARRIS (J.R.). — 1961. *Lexicographical studies in ancient Egyptian minerals*, Berlin (٢٨).
- HARTLE (D.D.). — 1966. « Archaeology in Eastern Nigeria », *W.A.A.N.* 5 : 13-7 (٢٤).
- 1968. « Radiocarbon Dates », *W.A.A.N.* 9 : 73 (٢٤).
- 1970. « Preliminary Report of the University of Ibadan's Hainji Rescue Archaeology Project », 1968, *W.A.A.N.* 12 : 7-19 (٢٤).
- HARTMANN (F.). — 1923. *L'Agriculture dans l'ancienne Egypte*, Paris (٢٨).
- HASSAN (F.A.) et WENDORF (F.). — 1974. « A sibilian assemblage from El-Elh », *Chronique d'Egypte*, 49 : 211-22 (٢٥).
- HAU (E.). — 1959. « Evidence of the use of pre-portuguese written characters by the Bini », *B.I.F.A.N.* XXI (١٠).
- HAY (R.L.). — 1976. *Geology of the Olduvai Gorge*, Los Angeles-Berkeley-Londres, 203 p. (١٧).
- HAYES (W.C.). — 1964. *Most Ancient Egypt*, Chicago-Londres, K.C. Seele (٢٨).
- HAYS, (J.D.), SAITO (T.), OPDYKE (N.D.) et BURCKLE (L.H.). — 1969. « Pliocene-Pleistocene sediments of the Equatorial Pacific : their paleomagnetic, biostratigraphic and climatic record », *G.S.A.B.* 80 : 1481-1513 (١١).
- HEINTZE (B.). — 1976. « Oral traditions. Primary sources only for the collector », *History in Africa : A journal of method*, 3.
- HEINZELIN de BRAUCOURT (J. DE). — 1957. *Les fouilles d'Ishango*, Bruxelles (٢١).
- 1963. « Paleocological conditions of the Lake Albert - Lake Edward Rift », *Viking Fund Publ. Anthropol.* 36 (١٦).
- HEINZELIN de BRAUCOURT (J. DE, BROWN (F.E.) et HOWELL (F.C.). — 1971. « Plio-Pleistocene formations in the lower Omo basin (Southern Ethiopia) », *Quaternaria* (١١).
- HENIGE (D.P.). — 1971. « Oral Tradition and Chronology », *J.A.H.*, XII, 3 (٧).
- 1974. *The chronology of oral tradition. Quest for 2 Chimera*, Oxford, Studies in African affairs (٧).
- HERBERT (E.W.). — 1973. « Aspects of the use of copper in pre-colonial West Africa », *J.A.H.* 14, 2 : 179-94 (٢٤).
- HERODOTE. — éd. 1964. *Histoires*, trad. George Hawlinson, Londres, Dent, vol. 1, p. XXI + 366 (٢٤).
- HERVIEU (J.). — 1969. « Les industries à galets aménagés du haut bassin de la Benoué (Cameroun) », *B.A.S.E.Q.U.A.* 22 : 24-34 (٢١).
- HERZOG (R.). — 1938. *Punt*, Glückstadt (١١).
- HESTER (J.J.). — 1968. In « Comments », *C.A.* 9 (٢٧) (٥).
- HEUSCH (L. DE). — 1972. *Le Roi ivre ou l'Origine de l'Etat*, Paris (٧).
- HIBEN (F.C.). — 1967. « Lukuliro », *Archaeology* XX : 247-53 (١١).

- HIERNAUX (J.). — 1970. « La diversité biologique des groupes ethniques », *Histoire générale de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة) (١١).
- 1974. *Rapport sur le concept de race*, Paris, Unesco (١١).
- HILL (P.). — 1963. *Migrant Cocoa-farmers in southern Ghana*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, XVI + 265 p. (٢).
- HINTZE (F.). — 1951. « Revue de l'essai comparatif sur le vocabulaire et la phonétique du chamito-sémitique de M. COHEN », *Z. Phon* 5, 65, 87 (١٠).
- 1955. « Die sprachliche Stellung des Meroitischen », *Deutsche Akademie der Wissenschaften Veröff.* 26 : 355-72 (١٢).
- HINTZE (F. et U.). — 1967. *Alte Kulturen im Sudan*, Munich, G.D.W. Callwey, 148 p. (٢٨).
- HIRTH (F.). — 1909-10. « Chinese notices of East African territories », *J.A.O.S.* 30 (٥).
- HISKETT (M.). — 1957. « Material relating to the state of learning among the Fulani before their jihad », *B.S.A.O.S.* 19 (٦).
- HJALMAR (L.). — 1962. « Die Merimdekeramik im Mittelmeermuseum », *Orientalia Suecana*, XI (٢٨).
- HOCKETT (Ch. F.) et ASCHER (R.). — 1964. « The Human Revolution », *C.A.* 5, 3 (٤).
- HODGE (C.T.). — 1968. « Afro-asiatic 67 » in *Language sciences*, Indiana (١٠).
- HODGKIN (Th.). — 1956. *Nationalism in colonial Africa*, Londres (٢٧).
- HODGKIN (Th.). — 1966. « The Islamic literary tradition in Ghana », I.M. LEWIS (dir.), *Islam in Tropical Africa*, Oxford (٦).
- HOFFMANN (I.). — 1967. *Die Kulturen des Nilstal von Aswan bis Sennar*, Hamburg (٢٨).
- HOHENBERGER (J.). — 1956. « Comparative Masai word list », *Africa*, 26 : 281-7 (٢٦) (١٢).
- HOLAS (B.). — 1950. « Notes préliminaires sur les fouilles de la grotte de Blandé », *B.I.F.A.N.* 12 : 999-1006 (٢٤).
- 1952. « Note complémentaire sur l'abri sous roche de Blandé (Guinée) », *B.I.F.A.N.* 14 : 1341-52 (٢٤).
- HOLAS (B.) et MAUNY (R.). — 1953. « Nouvelles fouilles à l'abri sous roche de Blandé (Guinée) », *B.I.F.A.N.* 15 : 1605-17 (٢٤).
- HOMBURGER (L.). — 1930. « Les dialectes copte et mandé », *B.S.L.* 3, 1 (المقدمة العامة)
- 1930. « Le bantou et le mandé », *B.S.L.* 135, 43 (المقدمة العامة)
- 1936. « Le verbe en peul et en massai », *Anthropologie* 46 (المقدمة العامة)
- 1941. *Les Langues négro-africaines et les peuples qui les parlent*, Paris, Payot, 350 p. (١٢) (المقدمة العامة)
- 1948-50. « Eléments dravidiens en peul », *J.S.A.* 18, 2 (المقدمة العامة)
- 1958. « La linguistique et l'histoire de l'Afrique », *B.I.F.A.N.* XX, 3, 4 : 554-61 (١٠).
- L'HONORE-NABER (S.L.). — 1931. *Reisebeschreibungen von deutschen Beamten und Krieglslenten im Dienst der Niederländischen West und Ost indischen Kompanien 1602-1797*, La Haye, 13 vol. (٦).

- HOORE (J. D'). — 1964. *Carte des sols d'Afrique au 1:5 000 000 et mémoire explicatif*, Lagos, CCTA (١٣).
- HORTON (J.A.B.). — 1868. *West african countries and peoples... and a vindication of african race*, Londres (٦).
- HOUDAS (O.). *Documents arabes relatifs à l'histoire du Soudan*, Paris, Leroux (القدمة العامة)
- HOUIS (M.). — 1955. « Problèmes linguistiques de l'Ouest africain », *Guide bleu de l'Afrique occidentale française*, Paris, Hachette (١١).
- 1958. « Quelques données de toponymie ouest-africaine », *B.I.F.A.N.*
- 1961. « Mouvements historiques et communautés linguistiques dans l'Ouest africain », *L'homme*, I, 3 : 72-92 (١١).
- 1971. *Anthropologie linguistique de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F. (١١) (القدمة العامة) (١٠).
- HOWELL (F.C.). — 1965. (The editors of Life) *Early man*, New York, Time Inc. 200 p. (١٩).
- 1969. « Remains of Hominid from Pliocene-Pleistocene Formations in the lower Omo Basin, Ethiopia », *Nature*, 223, 20 : 1234-9 (١٧).
- 1969. « Hominid teeth from White Sands and Brown Sands localities, lower Omo Basin, Ethiopia », *Quaternaria*, XI : 47-64 (١٧).
- HOWELL (F.C.), CÔPPENS (Y.) et HEINZELIN (J. DE). — 1974. « Inventory of Remains of Hominidae from Pliocene-Pleistocene. Formations of the lower Omo Basin, Ethiopia (1967-1972) », *A.J.P.A.* 40, 1 : 1-16 (١٧).
- HOWELLS (W.W.). — 1972. « 20 millions d'années pour faire un homme, les origines de l'homme », *le Courrier* 8-9 : 4-13 (الخاتمة).
- HRBEK (I.). — 1965. *Actes du XII^e Congrès international des Sciences historiques*, t.V, Vienne, Horn Austria : Berger (٥).
- 1966. *Defjiny Afriky*, Prague, 2 vol. (القدمة العامة)
- HUARD (P.). — 1960. « Contribution à l'étude anthropologique des Teda du Tibesti », *B.I.F.A.N.* B, XXII, 1-2 : 179-201 (٢٨).
- 1963. « Gravures rupestres de l'Ennedi et des Erdis », *B.I.R.S.C.*, 2 : 3-39 (٢٧).
- 1964. « Un établissement islamique tchadien ouogayi », *B.I.F.A.N.*, B, XXII, 1-2 (٢٨).
- 1966. « Introduction et diffusion du fer au Tchad », *J.A.H.* 7, 3 : 377-407 (٢٤).
- 1969. « Aires ou origines de quelques traits culturels des populations pré-islamiques du Bas Chari, Logone », *Actes 1^{re} coll. Intern. Archéol. Afr.* : 179-224 (القدمة العامة)
- HUARD (P.) et BECK (P.). — 1969. *Tibesti, carrefour de la préhistoire saharienne*, Paris (٢٧).
- HUARD (P.) et LECLANT (J.). — 1973. « Figurations de chasseurs anciens du Nil et du Sahara », *R.E.* 25 (٢٧).
- HUBERT (R.). — 1922. « Objets anciens de l'Afrique occidentale », *B.C.E.H.S.* 5 : 382-99 (٢١).
- HUE (E.). — 1912. « L'Age de la pierre au Fouta Djallon », *B.S.P.F.* 2 (٢٤).

- HUGOT (H.J.). — 1955. « Du Capsien au Tidikelt », *Actes II^e Congr. P.P.E.Q.* : 601-3 (٢٣).
- 1955. « Un gisement de pebble-tools à Aoulef », *Trav. I.R.S.* 13 : 131-49 (٢٣).
- 1957. « Essai sur les armatures de pointes de flèches du Sahara », *Libyca*, 5 : 89-236 (٢٤).
- 1962. *Documents scientifiques des missions Berliet-Ténéré-Tchad*, Paris, A.M.G. (٢٣).
- 1963. « Recherches préhistoriques dans l'Aahaggar nord-occidental 1950-1957 », *Mém. C.R.A.P.E.* (٢٤)(٢٣).
- 1964. « Etat des recherches préhistoriques dans l'Afrique de l'Ouest, 1964-1965 », *W.A.A.N.* 1 : 4-7 (٢٤).
- 1966. « Limites méridionales dans l'Atérien », *Actas V Congr. P.P.E.C.* (22) (٢٤).
- 1966. « Présence d'un faciès archaïque du Paléolithique inférieur à Dakar », *B.I.F.A.N.*, A, 28 : 415-6 (٢٤).
- 1970. *L'Afrique préhistorique*, Paris, Hatier, 128 p. (٢٣) (٢١).
- 1974. *Le Sahara avant le désert*, Paris, Les Hespérides (٢٦) (٢٥).
- HUGOT (H.J.) et al.. — 1973. *Tichitt I*, rapport scientifique (ronéo) (٢٣).
- HUGOT (H.J.) et BRÜGGMANN (M.). — 1976. *Les gens du matin. Sahara, dix mille ans d'art et d'histoire*, Paris-Lausanne (٢٣).
- HUNTINGFORD (G.W.B.). — 1956. « The "Nilo-Hamitic" languages », *S.W.J.A.* 12 : 200-22 (١٢).
- HUNWICK (J.O.). — 1962. « Arabic manuscript material bearing on the history of the Western Sudan », *Supplement, B.N.H.S.N.* VII, 2 : 1-9 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- 1973. « The mid-fourteenth century capital of Mali », *J.A.H.* 14, 2 (٢٤) (المقدمة العامة).
- HUZAYYIN (S.A.). — 1936. « Glacial and pluvial episodes of the diluvium of the old world », *Man*, 36 : 19-22 (٢٢).
- 1941. *The place of Egypt in prehistory*, Le Caire (٢٥).
- IAKIMOV (V.P.). — 1972. « Deux grandes théories sur l'apparition des races », *Le Courrier* (août-sept.), (الخاتمة).
- ILIFFE (J.). — 1969. *Tanganyika under german rule 1905-1912*, Cambridge, Camb. Univ. Press, XIII, 235 p. (٢).
- INSKEEP (R.R.). — 1969. « Some problems in relation to the Early Stone Age in South Africa », *S.A.R.B.* XXIV, 3-4 : 174-81 (٢٠).
- ISAAC (G.L.). — 1966. « The geological history of the Olorgesailie area... », *Proc. 5th P.C.P.Q.S.* 2 : 125-44 (١٩).
- 1971. « The diet of early man : Aspects of archaeological evidence from Lower and Middle Pleistocene sites in Africa », *W.A.* 2 : 278-98 (٢٠).
- (sous presse) « East Rudolf... », *Proc. 7th P.C.P.Q.S.*, 1977 (١٩).
- ISAAC (G.L.), LEAKEY (R.E.F.) et BEHRENSMEYER (A.K.). — 1971. « Archaeological traces of early hominid activities, east of Lake Rudolf, Kenya », *Science* 173 : 1129-34 (١٧).

- ISAAC (G.L.) et McCOWN (E.R.). — 1976. *Human origins : Louis Leakey and the East African evidence*, Los Angeles-Berkeley (١١).
- ISAAC (N.). — 1836. *Travels and adventures in Eastern Africa*, London, 2 vol. (٦).
- ISKANDER (Z.). — 1960. « The scientific study and conservation of the objects and materials found in the discovery of the wooden Boat at Giza », *The Cheops Boats*, I^{re} partie, Le Caire, Antiquities Department of Egypt (١).
- 1961. « Chemical identification of the samples found at the Monastery of Phoebanmon », C. Bachatly (éd.), *Le monastère de Phoebanmon dans la Thébaïde*, Le Caire, Société d'archéologie copte (١).
- ISKANDER (Z.) et SHAHEEN (A.E.). — 1964. « Temporary stuffing materials used in the process of mummification in Ancient Egypt », *A.S.A.E. LVIII* (١).
- ISNARD (H.). — 1964. *Géographie de l'Afrique tropicale*, Paris, P.U.F. (13).
- 1966. *Le Maghreb*, Paris, P.U.F., 272 p. (١٣).
- JABVU (D.T.). — 1920. *The black problem : papers and address on various native, problems*, Lovedale (١).
- JACQUARD (A.). — 1974. « Distances généalogiques et distances génétiques », *C.A.E.H.* : 11 (١٠).
- JANMART (J.). — 1953. « The Kalahari sands of the Lunda (N-E. Angola), their earlier redistribution and the Sangoen culture », *C.D.A.P.C.* 20 (٢١).
- JASON (H.). — 1959. « A multidimensional approach to oral literature », *C.A. X*, 5 : 413-26 (٧).
- JEFFREYS (M.D.W.). — 1963. « How ancient is West African maize ? » *Africa*, 33 : 115-31 (٢٤).
- JOHANSON (D.C.) et COPPENS (Y.). — 1976. « A preliminary anatomical diagnosis of the first Plio-Pleistocene hominid discoveries in the Central Afar, Ethiopia », *A.J.P.A.* 45, 2 : 217-34 (١٧).
- JOHANSON (D.C.) et TAIEB (M.). — 1976. « Pliocene hominid remains from Hadar, Central Afar, Ethiopia », *Actes IX Congr. U.I.S.P.P.* 120-37 (١٧).
- 1976. « Plio-Pleistocene hominid discoveries in Hadar, Ethiopia », *Nature*, 260, 5549 : 293-7 (١٧).
- JOHNSON (S.). — 1921. *The history of the Yoruba. From the earliest times to the beginning of the British protectorate*, Lagos C.M.S. (Nigeria) Bookshops, IX, 684 p. (١٠)(٢).
- JOHNSTON (H.H.). — 1919-22. *A comparative study of the Bantu and semi-bantu languages*, Oxford, Clarendon Press, 2 vol. (١٢).
- JOIRE (J.). — 1947. « Amas de coquillages du littoral sénégalais dans la banlieue de Saint-Louis », *B.I.F.A.N.* 9 : 170-340 (٢٤).
- JONES (D.H.). — 1949. *The prehistory of Southern Rhodesia*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (الطبعة).
- 1958. « Report on the second conference of London on History and Archaeology in Africa », *Africa*, 28, 1 (الطبعة).
- 1970. « Problems of african Chronology », *J.A.H.* XI, 2 : 161-76 (٧).
- JOUBERT (G.) et VAUFREY (R.). — 1941-46. « Le Néolithique du Ténéré », *L'Anthropologie*, 50, 3-4 : 325-30 (٢٢).

- JULIEN (Ch.-A.). — 1931. *Histoire de l'Afrique du Nord*, Paris, Payot, 2 vol. (٥) (المقدمة العامة)
- 1944. *Histoire de l'Afrique*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة)
- 1952. *L'Afrique du Nord en marche*, Paris, R. Julliard, 439 p. (٢)
- 1978. *Histoire de l'Afrique du Nord*, Paris, Payot, 372 p., 2 vol.
- JUNKER (H.). — 1929-40. « Vorläufiger Bericht über die Grabung der Akademie des Wissenschaften in Wien auf des neolithischen Siedlung von Merimde, Benisalamme (Westdelta) », *Anzeiger des philo-hist. Klasse des Akademie des Wissenschaften in Wien*, XCI-XVIII : 156-248 ; V-XII : 21-82 ; I-IV : 82-6 ; XVI-XVIII : 53-97 ; X : 118-32 ; I-IV : 3-25 (٢٥) (٢٨).
- KABORE (V.). — 1962. Le caractère féodal du système politique mossi, *C.E.A.* : 609-23 (الخاتمة).
- KAGAME (A.). — 1970. *Introduction aux grands genres lyriques de l'ancien Rwanda*, Butare (٧).
- 1972. *Un abrégé de l'ethno-histoire du Rwanda*, Butare (٧).
- KAISER (W.). — 1977. « Zur inneren Chronologie des Nagadakultur », *A.G.* 6 (٢٨).
- KALK (P.). — 1972. « Pour une localisation du Royaume de Gaoga », *J.A.H.* XIII, 4 (المقدمة العامة)
- KAMARA (Ch.-M.). — 1970. « La vie d'El-Hadji Omar », *B.I.F.A.N.* B, 32 : 370-411 (٢).
- KARDINER (A.) et PREBLE (E.). — 1964. *Introduction à l'ethnologie*, Paris, Gallimard.
- KEES (H.). — 1961. *Ancient Egypt, a cultural topography*, Londres, Faber and Faber (٢٨).
- KELLER (C.M.). — 1970. « Montagu Cave : a preliminary report », *Quaternaria* XIII : 187-204 (٢٠).
- KENNEDY (R.A.). — 1960. « Necked and lugged axes in Nigeria », *Antiquity*, 34 : 54-8 (٢٤).
- KENSDALE (W.E.N.). *A catalogue of the arabic manuscripts preserved in the university library*, Ibadan (Nigeria) (٦) (٥) (المقدمة العامة)
- KENT (P.E.). — 1942. « Pleistocene climates in Kenya and Abissinia », *Nature*, 149 : 736-7 (٢١).
- KENT (R.K.). — 1970. *Early Kingdoms in Madagascar, 1500-1700*, New York, Holt Rinehart and Winston, XVI + 336 p. (٢).
- KESTELOOT (L.). — 1978. *Da Monzon de Ségou. Epopée Bambara*, Paris, F. Nathan, 2 vol. (الخاتمة)
- KHALIL (F.). — 1963. « La faune du continent africain : taxonomie, écologie et zoogéographie », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, pp. 285-325 (١٣).
- KILHAM (H.). — 1828. *Specimens of African languages spoken in the colony of Sierra Leone*, Londres, XI + 69 p. (١٢).
- KIWANUKA (M.S.H.). — 1967. « Some reflections on the role of oral Tradition in the Writing of the pre-colonial history of Africa », *Acta Africana*, VI, 1 : 63-74 (٤).

- KI-ZERBO (J.). — 1964. *Le Monde africain noir*, Paris, Hatier (المقدمة العامة).
- 1957. Histoire et conscience nègre, *Présence africaine*, n° 16, pp. 53-69 (II) (المقدمة العامة).
- 1969. « La tradition orale en tant que source pour l'histoire africaine », *Diogenes*, 67 : 127-42 (المقدمة العامة).
- 1978. *Histoire de l'Afrique Noire*, 2^e éd., Paris, Hatier (١٠) (المقدمة العامة) (٢٦).
- KLEIN (R.G.). — 1970. « Problems in the study of the Middle Stone Age of South Africa », *S.A.A.B.* XXV : 127-35 (٢٠).
- 1972. « Preliminary report of the july through september, 1970, Excavations at Nelson Bay Cave, Plettenberg Bay (Cape province, South Africa) », *Palaeoecology of Africa* 6 : 117-208 (٢٠).
- 1972. « The late Quaternary mammalian fauna of Nelson Bay Cave (Cape province South Africa) : its implication for Negafaunal extinctions and environmental and cultural changes », *Quaternary research*, 2, 2 : 135-42 (٢٠).
- KOECHLIN (J.). — 1963. « La flore du continent africain ; région du sud du Sahara », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, 271-284 (١٣).
- KOELLE (S.W.). — 1963. *Polyglotta Africana, or a comparative vocabulary of nearly 300 words and phrases in more than 100 distinct African languages*, 2^e éd., Graz (١٢) (١٠) (٩).
- KOELLE (S.W.) et GUTHRIE (M.). — 1970. *African language studies* XI (12).
- KOHLER (O.). — 1955. *Geschichte der Erforschung des nilotischen Sprachen*, Berlin (١٠).
- KOLB (P.). — 1719. *Vollständige Beschreibung des afrikanischen Vorgebirges der Guten Hoffnung*, Nüremberg (٩).
- KOLTHOFF (I.M.), SANDELL (E.B.), MEEHAN (E.J.) et BRUCKENSTEIN (S.). — 1969. *Quantitative chemical analysis*, 4^e éd., New York, Mac Millan, XII + 1200 p. (٩).
- KOUYATE (N.). — 1969-1970. *Recherches sur la tradition orale au Mali (Pays Manding)*, mémoire de recherche, non édité, Alger, Université d'Alger (٨).
- KRZYZANIAK (L.). — 1972. « Preliminary report on the first season of excavations at Kadero, Sudan », *Trav. C.A.M.A.P.* (avril) (٢٥).
- 1977. « Early Farming Cultures on the Lower Nile », *Trav. C.A.M.A.P.* 21 (٢٨).
- KUBBEL (L.E.) et MATVEIEV (V.V.). — 1960 et 1965. *Sources arabes pour l'ethnographie et l'histoire des peuples d'Afrique au sud du Sahara* (VII^e au XII^e siècle), Moscou, 2 vol. (٥) (٣) (المقدمة العامة).
- KUKLA (G.J.) et MATTHEWS (R.K.). — 1972. « When will the present interglacial end ? », *Science*, 178 : 190-191 (١٦).
- KUPTSOV (A.). — 1955. « Geographical distribution of cultivated flora and its historical development », *B.A.U.G.S.* 87 (٢٧).
- LAJOUX (J.D.). — 1977. *Tassili N'Ajjer*, Paris, Chêne (٢٦).

- LALL (B.B.). — 1967. *Indian archaeological expedition to Nubia*, 1962, Cairo, Antiq. Egypt. Serv. (٢٥).
- LAMB (H.H.). — 1974. « Remarks on the current climatic trend and its perspective », *W.M.O.*, 421 : 473-7 (١٦).
- LAMBERT (N.). — 1970. « Medinet Sbat et la Protohistoire de Mauritanie occidentale », *A.A.* 4 : 15-62 (٢٤).
- 1971. « Les industries sur cuivre dans l'Ouest africain », *W.A.J.A.* 1 : 9-21 (٢٤).
- LANFRANCHI (R.). — 1976. *Rapport des missions d'études et de recherches préhistoriques pour l'année scolaire 1975-76*, Brazzaville, Laboratoire d'anthropologie de l'Université de Brazzaville, 28 p. (٢١).
- LAROUÏ (Abd.). — 1970. *L'Histoire du Maghreb*, Paris, Maspero (٥).
- LASSORT (A.). « L'écriture guerzée », *C.R. 1^{re} Conf. afr. Ouest*, Dakar, I.F.A.N. (المقدمة العامة)
- LAUDE (J.). — 1966. *Les Arts de l'Afrique noire*, Paris, Le Livre de poche (المقدمة العامة).
- LAUER (J.P.) et DEBONO (F.). — 1950. « Technique du façonnage des croissants de silex utilisés dans l'enceinte de Zozer à Saqqarah », *A.S.A.E.*, vol. L pp. 2 et sq. (٢٥).
- LAW (R.C.C.). — 1967. « Contacts between the Mediterranean civilizations and West Africa in pre-islamic times », *L.N.R.* 1, 1 : 52-62 (٢٤).
- 1971. « The constitutional troubles of Oyo », *J.A.H.* XII, 1 (المقدمة العامة).
- LAWSON (A.C.). — 1927. *The Valley of the Nile*, Univ. Calif. Chron., 29, 235-259 (١٦).
- LAYA (D.). — 1972. *La tradition orale : problématique et méthodologie des sources de l'histoire africaine*, Centre régional de documentation pour la tradition orale, Niamey (١٥) (٧).
- LEAKEY (L.S.B.). — 1936. *Stone Age Africa*, Oxford (١٩).
- 1949. « Tentative study of the Pleistocene climatic changes and Stone-Age culture sequence in North-Eastern Angola », *C.D.A.P.C.* 4, 82 p. (٢١).
- 1950. « The lower limits of the Pleistocene in Africa », *Report on the XVIIIth international geology Congress* (Londres, 1948), 9 : 62-5 (٢٤).
- 1952. *Proceedings of the Panafrican Congress on Prehistory*, Oxford, Blackwell, VIII + 239 p. (٢٤).
- 1965. *Olduvai Gorge — 1951-1961 — Fauna and Background*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 118 p. (١٧).
- 1971. *Stone Age Cultures of Kenya Colony*; Cass, Londres (١٩).
- LEAKEY (L.S.B.), LEAKEY (M.D.) et al. — 1965-71. *Olduvai Gorge*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, Vol. I-III (٢٠) (١٩) (١٨).
- LEAKEY (M.D.). — 1970. « Early artefacts from the Koobi Fora area », *Nature*, 226 : 228-30 (٢٤) (١٧).
- 1971. *Olduvai Gorge, excavations in beds I and II — 1960-1963*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 306 p. (١٧).
- LEAKEY (M.D.), HAY (R.L.), CURTIS (G.H.), DRAKE (R.E.), JACKES (M.K.) et WHITE (T.D.). — 1976. « Fossil Hominids from the Laetoli beds », *Nature*, 262 : 460-6 (١٧).

- LEAKEY (R.E.F.). — 1970. « New hominid remains and early artefacts from northern Kenya », *Nature* 226 : 223-4 (١٧) .
- 1971. « Further evidence of lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya », *Nature* 231 : 241-5 (١٧) .
- 1972. « Further evidence of lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya 1971 », *Nature* 237 : 264-9 (١٧) .
- 1973. « Evidence for an advanced Plio-Pleistocene hominid from East Rudolf, Kenya », *Nature* 242 : 447-50 (٢٤) (١٧) .
- 1973. « Further evidence of lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya, 1972 », *Nature* 242 : 170-3 (١٨) (١٧) .
- 1973. « Skull 1470 », *Natural Geographic*, 143 : 818-29 (١٨) (١٧) .
- 1974. « Further evidence of Lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya, 1973 », *Nature* 248 : 653-6 (١٨) (١٧) .
- LEAKEY (R.E.F.), BUTZER (K.W.) et DAY (M.H.). — 1969. « Early Homo Sapiens remains from the Omo River Region of South-West Ethiopia », *Nature*, 222, 5199 : 1137-43 (١٧) .
- LEAKEY (R.E.F.) et ISAAC (G.L.). — 1972. « Hominid fossils from the area east of Lake Rudolf, Kenya : photographs and a commentary on context », S.L. WASCHBURG and P. DOLHINOW (éd.) *Perspectives on human evolution*, San Francisco, Holt Rinehart and Winston, 129-40 (١٨) (١٧) .
- LEAKEY (R.E.F.), MUNGAI (J.M.) et WALKER (A.C.). — 1971. « New australopithecines from East Rudolf, Kenya », *A.J.P.A.* 35 : 175-86 (١٧) .
- 1972. « New australopithecines from East Rudolf, Kenya, II », *A.J.P.A.* 36 : 235-51 (١٧) .
- LEAKEY (R.E.F.) et WALKER (A.C.). — 1973. « New australopithecines from East Rudolf, Kenya, III », *A.J.P.A.* 39 : 205-22 (١٧) .
- LEAKEY (R.E.F.) et WOOD (B.A.). — 1973. « New evidence for the genus Homo from East Rudolf, Kenya, II », *A.J.P.A.* 39 : 355-68 (١٧) .
- 1974. « A hominid mandible from East Rudolf, Kenya », *A.J.P.A.* 41 : 245-50 (١٧) .
- 1974. « New evidence for the genus Homo from East Rudolf, Kenya, IV », *A.J.P.A.* 41 : 237-44 (١٧) .
- LEBEUF (J.P.). — 1956. « La civilisation du Tchad », *Proc III Internat. W.A.C.* : 293-6 (٢٤) .
- 1962. *Archéologie tchadienne*, Paris, Hermann (٢٤) .
- 1962. « Caractères particuliers de la recherche historique en Afrique », *Revue de psychologie des peuples* (١٥) .
- 1969. « Essai de chronologie sao », *Actes I^{re} coll. intern. Archéol. afr.* : 234-41 (٢٤) .
- 1969. *Carte archéologique des abords du lac Tchad*, Paris, C.N.R.S., p. 171 + cartes (٢٤) .
- LECLANT (J.). — 1956. « Le Fer dans l'Egypte ancienne, le Soudan et l'Afrique », *Actes Coll. Intern. Fer* : 83-91 (٢٨) .
- LEE (D.N.) et WOODHOUSE (H.C.). — 1970. *Art on the rocks drawing by Marion Didcott Purnell*, Cape Town - Londres (٢٦) .

- LEE (R.B.). — 1966. « The kung bushman subsistence : an input/output analysis », D. DAMAS, éd., « Ecological essays », *Proc. Conf. Cult. Ecol.* 230 (٢٧).
- LEE (R.B.) et DEVORE (I.) éd. — 1968. *Man the Hunter*, Chicago (١١).
- LEFEBVRE (G.). — 1949. *Romans et contes égyptiens de l'époque pharaonique*, Paris (٢٨).
- LEFEVRE (H.). — 1974. *La Production de l'espace*, Paris, Anthropos (١٥).
- LE GROS-CLARK (W.E.). — 1972. *The fossil evidence for human evolution*, 2^e éd., Chicago, University of Chicago Press, 201 p. (١٨).
- LEIRIS (M.) et DELANGE (J.). — 1967. *Afrique noire, la création plastique*, Paris, Gallimard (القدمة العامة) (١٢).
- LENZ (O.). — 1884. *Timbuktou*, Leipzig, 2 vol. (٢٣).
- LEPSIUS (C.R.). — 1863. *Standard alphabet*, Londres, Williams and Norgate, XVIII + 315 p. (١٢).
- 1888. *Nubische Grammatik*, Berlin, 506 p. (١٢)(١٠).
- LEROI-GOURHAN (A.). — 1943. *Evolution et techniques*, vol. I : « L'homme et la matière », Paris, Albin-Michel (الخاتمة).
- 1945. *Evolution et techniques*, vol. II : « Milieu et techniques », Paris, Albin-Michel (الخاتمة).
- 1969. *Sur le « mode de production asiatique »*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).
- 1974. « Analyses polliniques, préhistoire et variations climatiques quaternaires », in « Les méthodes quantitatives d'étude des variations du climat au cours du Pléistocène », *Colloques internationaux du C.N.R.S.*, 219 : 61-6.
- LEROY (P.). — 1953. « La préhistoire à Brazzaville et dans le Moyen Congo », *Liaison*, 31 : 39-43 (٢١).
- LESIAU (W.). — 1949. « Revue d'essai comparatif sur le vocabulaire et la phonétique du chamito-sémitique », *L.G.* 25 (١٠).
- 1963. *Etymological dictionary of Harari*, Los Angeles, Berkeley, Univ. California Press (١١).
- LE TOURNEAU (R.). — 1954. « Les archives musulmanes en Afrique du Nord », *Archivum*, 4.
- LEVAILLANT (G.). — 1970. *Travels from the Cape of Good Hope into the interior parts of Africa*, Londres (٦).
- LEVI-PROVENCAL (E.). — 1922. *Les Historiens des Chorfa, essai sur la littérature historique et biographique du Maroc du XVI^e au XX^e siècle*, Paris (٦).
- LEVIZION (N.). — 1968. « Ibn-Hawqal, the Cheque and Awdaghost », *J.A.H.*, 9, 2 : 223-33 (٢١).
- 1971. « The early states of the Western Sudan to 1500 », J.F.A. AJAYI et M. CROWDER (éd.), *History of West Africa*, London, Longman, I : 120-37 (٢١).
- LEWICKI (T.). — 1961. « Les historiens biographes et traditionalistes des Ibadites », *Folia orientalia*, 3, Cracovie (٦).
- 1971. « The Ibadites in Arabia and Africa », *C.H.M.* XII, 1 : 51-130 (٥).

- LEWIN (S.Z.). — 1968. « The conservation of limestone objects and structures », *Study of Weathering of Stones*, ICOMOS, vol. I, pp. 41-50, Paris (١).
- LHOTE (H.). — 1958. *A la découverte des fresques du Tassili*, Paris, Arthaud (٢٢).
- 1966. « La route des chars de guerre libyens, Tripoli-Gao », *Archeologia*, 9 : 28-35 (٢٤).
- 1970. « Les gravures rupestres du Sud oranais », *M.C.R.A.P.E.* XVI, 208 p. (٢٢).
- 1976. *Vers d'autres Tassili*, Paris, Arthaud (٢١).
- LHOTE (H.) et KELLEY (H.). — 1936. « Gisement acheuléen de l'Erg d'Admer (Tassili des Ajers) », *J.S.A.*, 6 : 217-26 (٢٣).
- LIBBY (W.F.). — 1955. *Radiocarbon dating*, 2^e éd., Chicago, Chicago Univ. Press (٢٨).
- 1970. « Radiocarbon dating », *P.T.R.S.*, Londres, vol. A. 269, n° 1193 (١).
- LIBRA. — 1963. « I Cinesi e l'Africa orientale », *Africa*, 18 (٥).
- LICHTENSTEIN (H.). — 1811-12. *Reisen in südlichen Afrika in den Jahren 1803, 1804, 1805, und 1806*, Berlin, C. Sulfeld, 2 vol. (١٢) (١).
- LINARES de SAPIR (O.). — 1971. « Shell Middens of lower Casamance and problems of Diola Protohistory », *W.A.J.A.* 1 : 23-54 (٢٤).
- LININGTON (R.E.). — 1970. « Techniques used in archaeological field surveys », *P.T.R.S.*, Londres, vol. A. 269, n° 1193 (١).
- LIVINGSTONE (D.). — 1937. *Missionary travels and researches in South Africa*, Londres (١).
- 1967. « Postglacial vegetation of the Ruwenzori mountain in Equatorial Africa », *Ecol. Monogr.* (١١).
- LIVINGSTONE (F.B.). — 1958. « Anthropological implications of sickle cell gene distribution in West Africa », *A.A.* 60, 3 : 533-62 (٢٤).
- LO (A.). — 1934. « Bindoum Cholofol ti arab toubab », Saint-Louis (١١).
- LOMBARD (J.). — 1935. « Quelques remarques sur le Quaternaire de l'Afrique tropicale équatoriale », *J.S.A.* V : 175-80 (٢١).
- LOVEJOY (P.E.). — 1979. *Indigenous African Slavery*, Slave studies conference, Univ. of Waterloo, Ontario.
- LUCAS (A.). — 1962. *Ancient Egyptian materials and industries*, 4^e éd., revised & enlarged by J.R. HARRIS, Londres, E. Arnold (٢٨) (١).
- LUCAS (C.P. Sir). — 1887-1923. *Historical geography of the British colonies*, 15 vol. (١).
- LUCAS (J.O.). — 1938. « Der hamitische Gehalt der Tschadchamistischen Sprachen », *Z.E.S.* 28 : 286-99 (١٢).
- 1948. *The Religion of the Yoruba in relation to the religion of Ancient Egypt*, Lagos, C.M.S. Bookshop, XII + 420 (٢٤).
- LUCAS (S.A.). — 1967. *L'Etat traditionnel luba*, deuxième partie, « Mythe et structure politique luba — Problèmes sociaux congolais », 79, pp. 93-116, Kinshasa (٧).
- LUDOLF (H.). — 1681. *Historia Aethiopica*, Francfort (١).

- LUKAS (J.). — 1936. « The linguistic situation in the lake Chad area of Central Africa », *Africa*, 9 : 332-49 (١٠).
- LYNCH (H.R.). — 1967. *Edward Wilmot Blyden, pan-negro patriot, 1832-1912*, London (٦).
- MACAULAY (Th. B.). — 1971. « Minute on Indian Education of February 2, 1835 », Ph. D. CURTIN (éd.) *Imperialism*, New York, Walker, 13 p. (٧).
- MAC BURNEY (C.D.M.). — 1967. *The Haua Fteah (Cyrenaica) and the stone age of south east Mediterranean*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (٢٤).
- MAC BURNEY (C.D.M.) et HEY (R.W.). — 1955. *Prehistory and Pleistocene geology in Cyrenaican Libya*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (٢٢).
- MAC CALL (F.D.). — 1969. *Africa in time's perspective*, New York, Oxford Univ. Press (١٥) (القدمة العامة).
- MAC GAFFEY (W.). — 1974. « Oral Tradition in Central Africa », *I.J.A.H.S.* VII : 417-26 (٨).
- MACGREGOR (J.K.). — 1909. « Some notes on Nsibidi », *J.R.A.I.*, vol. 39, pp. 215, 217, 219 (١٠).
- MACIVER (D.R.) et MACE (A.C.). — 1902. *El-Amrah and Abydos, 1899-1901*, Londres (٢٨).
- MAC NEISH (R.S.). — 1964. « Ancient mesoamerican civilisation », *Science*, 143 (٢٧).
- MAES (E.). — 1924. « Notes sur les pierres taillées de Tundidarou », *B.C.E.H.S.* 31-8.
- MAHABAVA (J.). — 1922. *The color bar in South Africa*, Lovedale (٦).
- MAITRE (J.-P.). — 1971. « Contribution à la préhistoire de l'Ahaggar, I, Tefedest central », *M.C.R.A.P.E.* XVII, 225 p. (٢٣).
- MALCOM X. — 1967. *On Afro American history*, New York, Merit. Publishers (القدمة العامة).
- MALEY (J.). — 1973. « Mécanisme des changements climatiques aux basses latitudes », *P.P.P.* 14 : 193-227 (١٦).
- MALOWIST (M.). — 1969. *L'Europe et l'Afrique au commencement de l'Exposition coloniale*, Varsovie (القدمة العامة).
- MANESSY (G.). — 1971. « Les langues Gurma », *B.I.F.A.N.* (١٠).
- MANSO (P.). — 1877. *Historia da Congo*, Documentos, Lisbonne (٦).
- MANTRAN (R.). — 1965. *Inventaire des documents turcs en Tunisie*, Paris (٦).
- MAQUET (J.-J.). — 1961. « Une hypothèse pour l'étude des féodalités africaines », *C.E.A.* 6, 11 : 292-314 (١٥).
- 1970. *Pouvoir et société en Afrique*, Paris, Hachette (الخاتمة).
- MARET (P. DE). — A paraître. « Premières datations pour des haches polies associées à la céramique au Bas-Zaïre », *Actes IX^e Congr. U.I.S.P.P.*
- A paraître. « Bribes, débris et bricolage », *Coll. C.N.R.S. l'Expansion bantou, Actes*, 1977 (٢١).
- MARET (P. DE), NOTEN (F. VAN) et CAHEN (D.). — 1977; « Radiocarbon dates from Central Africa : a synthesis », *J.A.H.*, XXVIII, 4 (٢١).

- MARIN (Ph.). — 1972. « Classification formelle automatique et industries lithiques. Interprétation des hachereaux de la Kamoia », *A.M.R.A.C.* 76 (٢١).
- MARIN (Ph.) et MOEYERSONS (J.). — 1977. « Subsurface movements of stone artefacts and their implications for the prehistory of Central Africa », *Nature*, 266, 5605 : 812-5 (٢١).
- MARIN (Ph.) et MORTELMANS (G.). — 1973. « Un site tshitoliien sur le plateau des Bateke (République du Zaïre) », *A.M.R.A.C.* 81, 46 p. (٢١).
- MARLIAC (A.). — 1973. « Prospection archéologique au Cameroun », *C.O.R.S.T.O.M.* X : 47-114 (٢١).
- MARROU. — 1954. *De la connaissance historique*, Paris, Seuil (٥) (المقدمة العامة) (١).
- MARTIN (B.G.). — 1969. « Mai Idris of Bornu and the Ottoman Turks, 1576-78 », S.M. STERN (éd.), *Documents from islamic chanceries II*, Oxford (١) (المقدمة العامة) (٥).
- MARTIN (D.) et YANNOPOULOS (T.). — 1973. *Guide de recherches. L'Afrique noire*, Paris, A. Colin, 195 p. (١٥).
- MARTIN DEL MOLINO (A.). — 1963. « Secuencia cultural en el Neolítico de Fernando Poo », *Trabajos de prehistoria, Seminario de historia primitiva del hombre de la universidad de Madrid*, vol. XVII (٢٤) (٢١).
- MARTINS (R.). — 1976. « A estação arqueológica da antiga Banza Quibaxe », *Contribuições para o estudo da anthropologia portuguesa*, Coimbra, IX, 4 : 242-306 (٢١).
- MARTY (P.). — 1927. *Les Chroniques de Oualata et de Nema*, Paris, Geuthner (١).
- MARX (K.). — éd. 1972. *Contribution à la critique de l'économie politique*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).
- MARX (K.) et ENGELS (F.). — éd. 1952. *Formen*, Berlin, Dietz Verlag (الخاتمة).
- éd. 1968. *L'Ideologie allemande*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).
- MASON (R.J.). — 1962. *The Prehistory of the Transvaal*, Witwatersrand University Press, Johannesburg (٢٠).
- MASSAQUOI (M.). — 1911. « The Vaa people and their syllabic writing », *J.A.S.* : 10-40 (المقدمة العامة) (١).
- MASSOULARD (E.). — 1949. « Préhistoire et Protohistoire d'Egypte », *T.M.I.E.* III (٢٨).
- MATHEUS (A. DE). — 1952. « Nota preliminar Acerca da Estação Prehistórica de Nhampasséré », *C.R.C.I.A.O.* IV : 375-86.
- MAUNY (R.). — 1947. « Une route préhistorique à travers le Sahara », *B.I.F.A.N.* 9 : 341-57 (٢٤).
- 1951. « Un âge de cuivre au Sahara Occidental ? », *B.I.F.A.N.* 13, 1 : 168-80 (٢٤).
- 1952. « Essai sur l'histoire des métaux en Afrique occidentale », *B.I.F.A.N.* 14 : 545-95 (٢٤).
- 1952. *Glossaire des expressions et termes locaux employés dans l'Ouest africain*, Dakar, I.F.A.N. (١٠).

- 1955. « Contribution à l'étude du Paléolithique de Mauritanie », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 461-79 (٢٤).
- 1955. « Les gisements néolithiques de Karkarichinkat », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 616-9 (٢٤).
- 1957. « Buttes artificielles de coquillages de Joal-Fadioute », *N.A.* 7, 75 : 73-8 (٢٤).
- 1960. « Reviews of Cheikh Anta Diop's "Nations nègres et culture" and "l'Afrique Noire précoloniale" », *B.I.F.A.N. B.* 22 : 544-5 (24).
- 1961. *Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Age, d'après les sources écrites, la tradition orale et l'archéologie*, Dakar, I.F.A.N. 587 p. (٢٦) (٢٥) (٢٤) (٥).
- 1963. « Contribution à la préhistoire et la protohistoire de la région de Kédougou (Sénégal oriental) », *B.S.A.* 5, 11 : 113-22 (٢٤).
- 1968. « Commentaires sur "West Africa before the Europeans" par Olivier Davies », *B.I.F.A.N. B.* 30 : 1283-4 (٢٤).
- 1970. « Le périple d'Hannon, un faux célèbre concernant les navigations antiques », *Archéologia*, 37 : 78-80 (٢٤).
- 1970. *Les Siècles obscurs de l'Afrique noire*, Paris, Fayard (٢٤) (٥).
- 1973. « Datation au carbone 14 d'amas de coquillages des lagunes de Basse Côte-d'Ivoire », *W.A.J.A.* 3 : 207-14 (٢٤).
- MAUNY (R.) et HALLEMANS (J.). — 1957. « Préhistoire et Protohistoire de la région d'Akjoujt (Mauritanie) », *Proc. III P.C.P.Q.S.* 248-61 (٢٤).
- MAZRUI (A.A.). — 1969. European exploration and Africa's self discovery, *J.M.A.S.* 7, 4 (٦).
- MAZRUI (S.A.). — 1944. *Tarikh al-Mazari*, Arabic MS in photostat in the possession of G.S.P. Freeman-Grenville (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- MBITI (J.). — 1967. « Afrikaanse begrippen van tijd, geschiedenis en de dood », *Africa*, 21, 3 : 78-75 (٧).
- MEEK (Ch.). — 1931. *Tribal studies in Northern Nigeria*, Londres, 2 vol. (١٠).
- MEILLASSOUX (C.). — 1972. « L'itinéraire d'Ibn Battuta de Walata à Mali », *J.A.H.* 13, 3 : 389-95 (٢٤).
- éd. 1975. *L'Esclavage en Afrique précoloniale*, Paris, Maspero, 17 études (المقدمة العامة).
- 1975. *Femmes, greniers et capitaux*, Paris, Maspero.
- 1977. *Terrains et théories*, Paris, Anthropos.
- MEINHOF (C.). — 1904. *Linguistische Studien in Ost Africa*, M.S.O.S. (١٠).
- 1906. *Grundzüge einer vergleichenden Grammatik der Bantu-sprachen*, Berlin (١٠).
- 1912. *Die Sprachen der Hamiten*, Hamburg, XV + 256 p. (١٩) (١٢) (١٠).
- 1919-20. « Afrikanische Wörter in Orientalischer Litteratur », *Z.E.S.* 10 : 147-52 (١٢).
- 1932. *An Introduction to the phonology of the Bantu languages*, Berlin (المقدمة العامة) (١٠).

المكتنسي (أ) — ١٩٥٣. « أصول وببليوغرافيات التاريخ المغربي من القرن السادس عشر إلى النصف الأول من القرن العشرين. رابط (٦).

- MENGHIN (O.) et AMER (M.). — 1932 et 1936. *The excavations of the egyptian university in the neolithic site at Maadi, first and second preliminary reports*, Le Caire (٢٥).
- MERCIER (P.). — 1966. *Histoire de l'anthropologie*, Paris (القدمة العامة).
- MERIVALE (H.). — 1861. *Lectures on colonization and colonies*, Oxford (١).
- METCALFE (G.E.J.). — 1964. « Great Britain and Ghana », *Documents on Ghana history, 1867-1957*, University of Ghana, Londres, Th. Nelson and Sons (١).
- MICHAEL (H.N.) et RALPH (E.K.). — 1970. « Correction factors applied to egyptian radiocarbon dates from the era before Christ », *Nobell Symposium 12* : 109-20 (١).
- MIGEOD (F.W.). — 1911. *The Languages of West Africa*, Londres (١٠).
- MILLER (J.). — 1976. *Kings and Kinsmen : Early Mbundu States in Angola*, Oxford (٨).
- MILLER (S.). — 1972. « A new look at the Tshitolian », *Africa-Tervuren*, XVIII, 3-4 : 86-9 (٢١).
- MINETTE DE SAINT-MARTIN. — 1914. « Note sur une collection préhistorique saharienne », *Revue africaine* (٢٢).
- MIQUEL (A.). — 1977. *La Géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XI^e siècle*, Paris-La Haye, 2 vol. (٥).
- MISCHLISH (A.) et LIPPERT (J.). — 1903. *Beiträge zur Geschichte der Haussastaaten*, Berlin (١) (٥) (القدمة العامة).
- MOEYERSONS (J.). — 1975. « Evolution paléogéographique du site de la Kamon », *A.M.R.A.C.* 84 : 18-46 (٢١).
- 1977. « The behaviour of stones and stone implements buried in consolidating and creeping Kalahari Sands », *Earth Surface Processes*, Leeds.
- MOFFAT (R.). — 1842. *Missionary labours and scenes in Southern Africa*, Londres (١).
- 1945. *Matabeleland 1829-1860*, Londres (١).
- MOHAMMADOU (A. et E.). — 1971. « Un nouveau manuscrit arabe sur l'histoire du Mandara », *Revue camerounaise d'histoire*, 1 (القدمة العامة).
- غشار (ج) وهيسودني (أ) — ١٩٦٥ — ١٩٦٦. « جدول مؤتت للمخطوطات المربانية العربية المحفوظة بمربانيا » نواكشوط — مستوكهولم (القدمة العامة) (٥) (١).
- MOLENA (S.M.). — 1920. *The Bantu, past and present*, Edimbourg (١).
- MONIOT (H.). — 1962. *Pour une histoire de l'Afrique noire*, *Annales*, 1 (١٥).
- 1965. « Les sources orales dans le problème des sources de l'histoire de l'Afrique noire jusqu'à la colonisation européenne », *Rap. 12^e C.I.S.H.* II : 198-208 (١٥).
- MONOD (Th.). — 1932. « L'Adrar Ahnet. Contribution à l'étude d'un district saharien », *T.M.I.E.* 19, 200 p. (٢٢).
- 1939. *Contribution à l'étude du Sahara occidental*, Paris, Larose (الخاتمة).
- 1945. « La structure du Sahara atlantique », *Trav. I.R.S.*, 3 : 27-55 (٢٢).
- 1957. « Découverte de nouveaux instruments en os dans l'Ouest africain », *Proc. III P.C.P.Q.S.* : 242-7 (٢٢).

- 1958. *Majabat al-Koubra. Contribution à l'étude de « l'empty quarter » ouest saharien*, Mém. I.F.A.N., 52 ; 406 p. (الخاتمة) (٢٢).
- 1963. « The Late Tertiary and Pleistocene in the Saharan and adjacent southerly regions », F.C. HOWELL et F. BOURLIERE (éd.), *African ecology and human evolution*, New York, Viking Fund Publications in Anthropology, 36 (٢٢) (١٦).
- 1969. « Le "Macden Ijafen" » : une épave caravanière ancienne dans la Majabat al-Koubra », *Actes I^{re} Coll. Intern. Archéol. Afr.* : 286-320 (٢٤).
- MONOD (Th.) et MAUNY (R.). — 1957. « Découverte de nouveaux instruments en os dans l'Ouest africain », *Proc. III P.C.P.Q.S.* (٢٤).
- MONTEIL (V.). — 1965. « Les manuscrits historiques arabo-africains », *B.I.F.A.N.*, B. XXXVII (٦) (القدمة العامة).
- MONTFRANS (H.M. VAN). — 1971. *Palaeomagnetic dating in the North Sea Basin*, Rotterdam, Prince N.V. (١٦).
- MOODIE (D.). — 1960. *The record or a series of official papers relative to the conditions and treatment of the native tribes of South Africa*, Amsterdam (٦).
- MOORSEL (H. VAN). — 1959. *Esquisse préhistorique de Léopoldville*, Léopoldville, musée de la Vie indigène (الخاتمة).
- 1968. *Atlas de préhistoire de la plaine de Kinshasa*, Kinshasa, Pub. Univ. Lovanium, 288 p. (٢١).
- MORE (B.). — 1969. « Contribution du Liberia à la science de la communication par écrit », *Symposium du Festival Panafricain d'Alger* (القدمة العامة).
- MOREAU (R.E.). — 1963. « Vicissitudes of the African Biomas in the late Pleistocene », *Proceedings of the zoological Society of London*, 141 : 395-421.
- MOREL (J.). — 1953. « Le capsien du Kahnguet el Mouhaâd », *Libyca*, I : 103-19 (٢٢).
- MORENO (M.). — 1940. *Manuale di Sidamo*, Roma (١٠).
- MORET (A.). — 1931. *Histoire de l'Orient*, Paris, Coll. Glotz (الخاتمة).
- MORGAN (E.). — 1973. *La Fin du surmâle*, Paris, Calman-Lévy (الخاتمة).
- MORGAN (W.B.) et PUGH (J.C.). — 1969. *West Africa*, Londres, 188 p. (١٤).
- MORI (F.). — 1965. *Tadrart Acacus. Arte rupestre e culture del Sahara preistorico*, Turin, Einaudi, 260 p. (٢٤) (٢٣).
- MORITZ (B.). — 1892. *Sammlung arabischer Schriftstücke aus Zanzibar und Oman mit einem Glossar*, Stuttgart-Berlin (٦) (٥) (القدمة العامة).
- MORNER (N.A.). — 1973. « Climatic changes during the last 35.000 years as indicated by land, sea, and air data », *Boreas*, 2 : 33-53 (١٦).
- 1975. « Eustatic amplitude variations and world glacial changes », *Geology*, 3 : 109-10 (١٦).
- MORRISON (R.B.) et WRIGHT (H.E.J.). — éd. 1968. « Means of correlation of Quaternary successions », *Proc. VII Congr. I.N.Q.U.A.*, 8 (١٦).
- MORTELMANS (G.). — 1952. « Les dessins rupestres gravés, ponctués et peints du Katanga. Essai de synthèse », *A.M.R.C.B.* : 33-55 (٢١).

- 1952. *Contribution à l'étude des cultures pré-abbeyliennes à galets taillés du Katanga : le site Mulundwa*, 1, Bruxelles, Publications de la Soc. Roy. Belge d'anthrop. et de préhist. (٢١).
- 1952. « Les industries à galets taillés (Pebble Culture) du Katanga », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 295-8 (٢١).
- 1953. « La Pebble Culture africaine, source des civilisations de la pierre », *B.S.R.B.A.P.* LXV (٢١).
- 1953. « Vue d'ensemble sur le quaternaire du bassin du Congo », *Actes III Congr. U.I.S.P.P.* : 114-26 (٢١).
- 1957. « Le Cénozoïque du Congo belge », *Proc. III P.C.P.Q.S.* : 23-50 (٢١).
- 1957. « La préhistoire du Congo belge », Bruxelles, *Revue de l'Université de Bruxelles*, 54 p. (٢١).
- 1957. « The Early Pebble Culture of Katanga », *Proc. III P.C.P.Q.S.* : 214-6 (٢١).
- 1959. « Préhistoire et protohistoire du Bas-Congo belge, une esquisse », *Volume de Homenagem ao Prof. Doutor Mendes Corrêa*, Porto, Soc. Port. Anthropol. Ethno : 329-44 (٢١).
- 1962. « Vue d'ensemble sur la Préhistoire du Congo occidental », *Actes IV^e Congr. P.P.E.Q.* : 129-64 (٢١).
- MORTELMANS (G.) et MONTEYNE (R.). — 1962. « Le Quaternaire du Congo occidental et sa chronologie », *Actes III Congr. P.P.E.Q.* : 97-132 (٢١).
- MOSCATI (S.). — 1964. *An introduction to the comparative grammar of the semitic languages*, Wiesbaden (١٠).
- MUKAROVSKY (H.G.). — 1966. « ÜBER die Stellung der Mandesprachen », *Anthropos*, 61 : 679-88 (١٢).
- MULLER (D.K.). — 1923. *Geschichte der ersten Hottentotenmission 1737-1744*, Herrnhut (١).
- MULLER (F.). — 1863. *Die Musiksprache in Zentral Africa*, Wien (١٠).
- 1867. *Reise der österreichischen Fregate « Novara » um die Erde in den Jahren 1857, 1858, 1859. Linguistischer Teil*, Wien, Staatsdruckerei (١٢).
- 1876-1884. *Grundrisse der Sprachwissenschaft*. Wien. A. Holder, 4 vol. (١٢).
- MUNSON (P.). — 1968. « Recent archaeological research in the Dhar Tichitt region of South-Central Mauretania », *W.A.A.N.*, 10 : 6-13 (٢٤) (٢٣).
- 1970. « Corrections and additional comments concerning the "Tichitt Tradition" », *W.A.A.N.*, 12 : 47-8 (٢٤).
- MURDOCK (G.P.). — 1959. *Africa. Its peoples and their culture history*, New York, McGraw-Hill Book Company, XIII + 456 p. (١٠) (٣) (المقدمة العامة) (١٢).
- MURRAY (G.W.). — 1920. « The Nilotic languages, a comparative essay », *J.R.A.I.* (١٠).
- المحدثي (حيد بن الحسن بن حيد باعجن) — ١٩٣٧ تاريخ واليس اللامو (المقدمة العامة) (٥) (٦).
- MUZUE (A.) et NOSEK (E.). — 1974. « Metal examination of iron objects from Niani », *A.A.T.A.*, 11, 1 (١).

- YINT (H.). — 1964. *The economics of the developing countries*, Londres, Hutchinson, 192 p. (٢).
- NATIONAL ACADEMY OF SCIENCES. — 1975. *Understanding climatic change. A program for action*, United Committee for the global atmospheric research program, 239 p. (١٦).
- EL MASATOSHI et ROY COUDHURY (A.R.). — 1974. « Genetic variation within and between the three major races of man », *A.J.H.G.* 26 (١١) (١٠).
- ENQUIN (J.). — 1957-58. « Opgravingen te Sanga » (Fouilles à Sanga), *Gentse Bijdragen tot de Kunstgeschiedenis en de Oudheidkunde*, XVIII : 289-311 (٢١).
1967. « Contribution to the Study of the Prehistoric Cultures of Rwanda and Burundi », *A.M.R.A.C.* 59 (٢١) (١٩).
- Inventaria archeologica africana*, Tervuren (الختامة)
- EWBURY (C.W.). — 1965. *British policy towards west Africa. Select documents, 1786-1894*, Oxford (٦).
- EWMAN (P.) et MA (R.). — 1964. « Comparative chadic : phonology and lexicon », *J.A.L.*, 5, 3 : 218-51 (١٢) (١٠).
- ANE (D.T.). — 1960. « Recherches sur l'Empire du Mali », *Etudes africaines*, Conakry (٧).
1960. *Soundjata ou l'Epopée mandingue*, Paris, Prés. afr. (٧) (٢).
1970. « Notes sur les fouilles de Niani, ancienne capitale du Mali », *W.A.A.N.* 12 : 43-6 (٢١).
- ELSEN (O.J.). — 1970. « Human Remains », *Scandinavian joint expedition to Sudanese Nubia*, Copenhagen-Oslo-Stockholm (٢٨).
- ELSSON (E.). — 1931. « Quaternary glaciations and pluvial lakes, in british East Africa », *G.A.*, 13 : 249-349 (١٦).
1940. « Ancient changes of climate in british East Africa and Abissinia : a study of ancient lakes and glaciers », *G.A.* XXII, 1-2 : 1-79 (٢١) (١٦).
1949. « The pluvials of East Africa : an attempt to correlate pleistocene changes of climate », *G.A.* XXXI, 1-4 : 204-11 (٢١).
1952. « Pleistocene climatic changes in East Africa », *Proc. II P.C.P.Q.S.* : 45-55 (٢٤).
- ETIA (H.J.). *History and organisation of music in West Africa*, Legon, Institute of African Studies of Ghana (القدمة العامة)
- ERDSTRÖM (H.A.). — 1972. « Neolithic and A-Group Sites », *Scandinavian joint Expedition to Sudanese Nubia*, Copenhagen-Oslo-Stockholm, Scandinavian Univ. Books (٢٨) (٢٤).
- ERRIS (E.). — 1841. *Outlines of a vocabulary of few of the principal languages of Western and Central Africa*, Londres, J.W. Parker, VII + 213 p. (١٢).
- ERRIS (Th.). — 1968. *Shingiti folk literature and songs*, Oxford (٦).
- ETEN (F. van). — 1968. « Note sur l'âge de la pierre récent dans la région des lacs Mokoto (Kivu, Congo) », *B.S.R.B.A.P.*, 79 : 91-101 (٢١).
1968. « The Uelian. A Culture with a Neolithic Aspect, Uele-Basin (N.E. Congo Republic) », *A.M.R.A.C.* 64, XIV + 154 p. (٢١).
1969. « A ground axe from Burundi », *Azania* IV : 166 (٢١).

- 1971. « Excavation at Munyama Cave », *Antiquity*, XLV, 177 : 56-8 (٢١).
- 1973. « Mystification en Archeologie in Noord-Zaire » (Mystification et Archéologie au Nord-Zaire), *Africa-Tervuren*, XIX, 4 : 97-102 (٢١).
- 1977. « Excavations at Matupi Cave », *Antiquity*, LI, 201 : 35-40 (٢١).
- 1978. « The Early Iron Age in the Interlacustrine Region », *J.A.H.* XIX, 1 (٢١).
- NOTEN (F. et E. VAN). — 1974. « Het Ijzersmelten bij de Madi » (La fonte du fer chez les Madi), *Africa-Tervuren*, XX, 3-4 : 57-66 (٢١).
- NOTEN (F. VAN), CAHEN (D.), MARET (J. DE), MOEYERSONS (J.) et ROCHE (E.). En préparation. *The Archaeology of Central Africa*, Graz, Akademische Druck - u. Verlagsanstalt (٢١).
- NOTEN (F. VAN) et HIERNAX (J.). — 1967. « The Late Stone Age Industry of Mukinanira, Rwanda », *S.A.A.B.* 22, IV : 151-4 (٢١).
- OAKLEY (K.P.). — 1961. « Man the Tool-maker », British Museum, *Natural History*, 5^e éd. (١٩).
- OBENGA (Th.). — 1970. « Méthodologie en histoire africaine : sources locales », *Africa*, XXV (المقدمة العامة).
- 1973. *L'Afrique dans l'Antiquité*, Paris, Prés. africaine (١٠).
- O'BRIEN (T.P.). — 1939. *The prehistory of Uganda Protectorate*, Londres, Cambridge Univ. Press, 319 p. (٢١).
- OLABIYAL (J.). — 1968. *Remarques sur l'état actuel des recherches linguistiques au Dahomey*, Paris, Prés. afr. (١٠).
- OLDEROGGE (D.). — 1966. « Ecritures méconnues de l'Afrique noire », *Le Courrier de l'Unesco* (١٠).
- OLDEROGGE (D.) et POTEKINE (I.). — 1954. *Les Peuples de l'Afrique*, Moscou (المقدمة العامة).
- OLIVER (R.). — 1966. « The problem of the Bantu expansion », *J.A.H.* 7, 3 (١٢).
- 1973. « African studies in London, 1963-1973 », *Proc. III Intern. W.A.C.* (non publié) (٢).
- OLSSON (I.U.). — 1973. « The radiocarbon dating of Ivory Coast shell mounds », *W.A.J.A.* 3 : 215-20 (٢٤).
- ONDE (H.). — 1963. « La géographie régionale et le monde africain », *Genève-Afrique*, II, 2 : 149-62 (١).
- ORGAN (R.M.). — 1968. *Design for scientific conservation of antiquities*, Londres, Butterworths, XI + 497 p. (١).
- ORHONLU (C.). — 1972. « Turkish archival sources about Ethiopia », *Proc. 4th I.C.E.S.* (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- ORLOVA (A.S.). — 1967. *Histoire de l'Afrique au XIX^e siècle et au début du XX^e siècle*, Moscou, Institut d'Afr. de l'URSS (المقدمة العامة).
- OUSSEDIK (O.). — 1972. « Les bifaces acheuliens de l'Erg Tihodaine : analyse typométrique », *Libyca*, 20 (٢٢).
- OZANNE (P.). — 1964. « Notes on the later prehistory of Accra », *J.H.S.N.* 3, 1 : 3-23 (٢٤).

- 1966. « The anglo-gambian stone circles expedition », *W.A.A.N.* 4 : 8-18 (٢٤).
- 1969. « The diffusion of smoking in West Africa », *Odu*, N.S. 2 : 29-42 (٢٤).
- 1969. « A new archaeological survey of Ife », *Odu*, 3, 1 : 28-45 (٢٤).
- 1971. « Ghana », P.L. SHINNIE, *African Iron age*, Oxford, Clarendon Press, 35-65 (٢٤).
- PADMORE (G.). — 1962. *Panafricanisme ou Communisme*, Paris, Prés. afr. 14 (المقدمة العامة).
- PAGER (H.). — 1971. *Ndedema*, Graz, Akademische Druck.
- 1975. *Stone age myth. and magic*, Akademische Druck.
- PALMER (H.). — 1928. *Sudanese memoirs being mainly translations of a number of arabic manuscripts relating to the central and western Sudan*, Lagos (١) (٥).
- PANKHURST (R.). — 1966. *The royal Ethiopian chronicles*, Oxford (١).
- PARENKO (P. et R. P.) et HEBERT (J.). — 1962. « Une famille ethnique ; les Gan, les Padoro, les Dorobe, les Komono », *B.I.F.A.N.* B, I, XXIV, 3, 4 et 6.
- PARKINGTON (J.) et POGGENPOEL (C.). — 1970. « Excavations at De Hagen, 1968 », *S.A.A.B.* XXVI : 3-36 (٢٠).
- PATTERSON (J.R.). — 1926. *Kanuri songs*, Lagos (١).
- PAULME (D.). — 1956. « Les sculptures de l'Afrique noire », Paris, PUF (المقدمة العامة).
- 1956. *Parures africaines*, Paris, Hachette (المقدمة العامة).
- 1960. *Les Civilisations africaines*, Paris, PUF (المقدمة العامة).
- PAYDDOKE (E.). — 1963. *The scientist and archaeology*, Londres, Phoenix House, XIII + 208 p. (١).
- PEDELABORDE (P.). — 1970. *Les Moussons*, Paris, Colin-U2 (١٦).
- PELLETIER (A.) et GOBLOT (J.-J.). — 1973. *Matérialisme historique et Histoire des civilisations*, Paris, Editions sociales (الختامة).
- PENDER CUTLIP (P.). — 1972. « Oral traditions and anthropological analysis : Some contemporary myths », *Azania* VII : 3-24 (٨).
- 1973. « Encyclopedic informants and early interlacustrine history », *I.J.A.H.S.*, VI : 468-79 (٨).
- PERLMAN (I.) et ISARO (F.). — 1969. « Pottery analysis by neutron activation », *Archaeometry*, 11 : 21 : 52 (٨).
- PERRET (R.). — 1937. « Une carte des gravures rupestres et des peintures à l'ocre de l'Afrique du Nord », *J.S.A.* VII, 71 : 107-123 (٨).
- PERROT (C.). — 1974. « Ano Aseman : mythe et histoire », *J.A.H.* XV : 199-212 (٨).
- PERSON (Y.). — 1962. « Tradition orale et chronologie », *C.E.A.*, 7, II, 3 (٧).
- 1963. « Classe d'âges et chronologie », *Latitudes*, n° spécial (١٥).
- 1968. *Samori. Une révolution dyula*, Dakar, I.F.A.N. 3 vol (٣).
- PETRIE (W.M.F.). — 1901. *The royal tombs of the first dynasty*, Londres (٢٨).
- 1920. « Prehistoric Egypt », *B.S.A.E.* (٢٨) (٢٢).
- 1921. « Corpus of prehistoric pottery and palettes », Londres (٢٣).

- 1939. *The Making of Egypt*, Londres (٢٨) (٢٥).
- 1953. « Ceremonial slate palettes », *B.S.A.E.* LXVI (٢٨) (٢٥).
- PETRIE (W.M.F.), MACKAY (E.) et WAINWRIGHT. — 1912. *The labyrinth, Gerzeh and Mazghunah*, Londres (٢٨).
- PEYROUTON. — 1966. *Histoire générale du Maghreb*, Paris, A. Michel (المقدمة العامة).
- PHILIPS (J.). — 1828. *Researches in South Africa*, Londres, 2 vol. (٦).
- PHILIPSON (D.W.). — 1976. « The Early Iron Age in Eastern and Southern Africa : A critical re-appraisal », *Azania*, XI : 1-23 (٢١).
- PIAS (J.). — 1967. « Chronologie du dépôt des sédiments tertiaires et quaternaires dans la cuvette tchadienne », *C.R.A.S.* 264 : 2432-5 (٢٤).
- PICARD (G. Ch.). — 1971. « Le Périple d'Hannon n'est pas un faux », *Archéologia*, 40 : 54-9 (٢٤).
- PIGAFETTA (F.) et LOPEZ (D.). — éd. 1965. *Description du royaume de Congo et des contrées environnantes*, trad. et annoté par Willy Bal (2^e éd. révisée), Louvain (١) (١).
- PIVETEAU (J.). — 1973. *Origine et destinée de l'homme*, Paris, Masson, 167 p. (١٨).
- PIOTROVSKY (B.). — 1967. « The early dynasty settlement of Khor-Daoud », *Campagne internationale de l'Unesco pour la sauvegarde des monuments de la Nubie*, Le Caire, Service des antiquités de l'Égypte (٢٥).
- PIRENNE (J.). — 1932. *Histoire des institutions et du droit privé de l'Ancienne Égypte*, Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Elisabeth (٢٨).
- PLAATJE (S.T.). — 1916. *Native life in South Africa before and since the European war and the boer rebellion*, Londres (٦).
- 1930. *Mhundi : an epic of South Africa native life a hundred years ago*, Lovedale (٦).
- PLENDERLEITH (H.J.). — 1962. *The Conservation of antiquities and works of art*, Londres, Oxford Univ. Press, XV + 376 p. (٦).
- PLOEY (J. DE). — 1963. « Quelques indices sur l'évolution morphologique et paléoclimatique des environs du Stanley-Pool (Congo) », *Studia universitatis Lovanium*, 17, 16 p. (٢١).
- 1965. « Position géomorphologique, genèse et chronologie de certains dépôts superficiels au Congo Occidental », *Quaternaria* VII : 131-54 (٢١).
- 1968. « Quaternary phenomena in the Western Congo », *Proc. VII Congr. INQUA*, 8 : 500-18 (٢١).
- 1969. « Report on the Quaternary of the Western Congo », *Palaeoecology of Africa, the surrounding islands and Antarctica* IV : 65-8 (٢١).
- POIRIER (J.). — 1969. *Histoire de l'ethnologie*, Paris, PUF (المقدمة العامة).
- POLOTSKY (H.). — 1964. « Egyptian at the dawn of civilisation », *The world history of the Jewish people*, ser. I. (١٠).
- POMMERET (Y.). — 1965. « Notes préliminaires à propos du gisement lupembien et néolithique de Nodjobé », *Mém. S.P.P.G.* II, 45 p. (٢١).
- 1966. « Principaux types d'outils de tradition forestière (Sangoen-lupembien-tchitolien) découverts à Libreville », *B.S.P.P.G.* II, 4 : 29-47 (٢١).

- 1966. « Les outils polis au Gabon », *B.S.P.P.G.* II, 6 : 163-79 (٢١).
- POND (W.P.) et al. — 1938. Prehistoric habitation sites in the Sahara and North Africa, The Logan Museum, Beloit College, Wisconsin (٢٣).
- PORTER (B.) et MOSS (R.L.B.). — *Topographical bibliography of ancient egyptian hieroglyphic texts, reliefs and paintings*, Oxford, The Clarendon Press (٢٨).
- PORTERES (R.). — 1950. « Vieilles agricultures de l'Afrique intertropicale », *A.T.* : 9-10 (٢٧).
- 1951. « Géographie alimentaire, berceaux agricoles et migrations des plantes cultivées en Afrique intertropicale », *C.R.S.B.* : 239-40 (٢٧).
- 1951. « Eleusine coracana Gaertner, céréale des humanités pauvres des pays tropicaux », *B.I.F.A.N.* 23 : 1-78 (٢٤).
- 1958. « Les appellations des céréales en Afrique », *J.A.T.B.A.*, 5 (٢٤).
- 1960. « La monnaie de fer dans l'Ouest africain au XIX^e siècle », *Recherche africaine*, 4 (١٥).
- 1962. « Berceaux agricoles primaires sur le continent africain », *J.A.H.*, 3, 2 : 195-210 (٢٧)(٢٤)(١٤).
- 1972. « Le millet coracan ou Finger Millet », *Burg. Wart. Symp.* 56 (٢٤).
- POSENER (G.). — 1940. *Princes et Pays d'Asie et de Nubie*, Bruxelles, Fond. égyptol. Reine Elisabeth (٢٨).
- 1960. « De la divinité de Pharaon », *C.S.A.* 15 (٢٨).
- POSENER (G.), SAUNERON (S.) et YOYOTTE (J.). — 1959. Dictionnaire de la civilisation égyptienne, Paris, Hazan (٢٨).
- POSNANSKY (M.). — 1969. « The prehistory of East Africa », in B.A. OGOT et J.A. KIERAN, *Zamani, A survey of East african history*, Nairobi-Londres, Longmans & Co Ltd : 49-68 (١٧).
- 1971. « Ghana and the origins of West african trade », *Africa quarterly* II : 110-25 (٢٤).
- PRESENCE AFRICAINE. — 1971. *Perspectives nouvelles sur l'Histoire africaine*, Paris (٥).
- PRICHARD (J.C.). — 1855. *The natural history of Man*, 4^e éd., Londres, H. Ballière, 2 vol. (١٢).
- PRIDY (A.J.). — 1970. « An Iron Age Site near Yeiwa, Sokoto Province : preliminary report », *W.A.A.N.*, 12 : 20-32 (٢٤).
- PRINS (A.H.J.). — 1953. *East African age class systems*, Groningen (١٥).
- 1958. « On Swahili Historiography », *J.E.A.S.C.* LXXVIII, 2 (القدمة العامة) (١٥)(٥).
- QUEZEL (P.) et PONS (A.). — 1957. *Première étude palynologique de quelques paléo-sols sahariens*, Alger, I.R.S. (٤).
- RABIE (H.). — 1972. *The financial system of Egypt*, Londres (٥).
- RADCLIFFE-BROWN (A.R.) et FORDE (D.). — *Systèmes familiaux et matrimoniaux en Afrique*, Paris, PUF (القدمة العامة).
- RALPH (E.K.), MICHAEL (H.M.) et HAN (M.G.). — 1973. « Radiocarbon dates and reality », *M.N.* 9, 1 : 1-20 (١).
- RAMENDO (L.). — 1963. « Les galets aménagés de Reggan (Sahara) », *Libyca*, II : 43-74 (٢٢).

- RANDLES (O.). — 1974. « La civilisation bantu, son essor et son déclin », *Annales* 29, 2 (٢٧).
- RANDLES (W.G.L.). — 1958. *South-East Africa and the empire of Monomotapa as shown on selected printed maps of the 16th century*, Lisbonne (٦).
- RANGER (Y.O.). — 1962. « Emerging themes of african history », *International Congress of african historians*, Dar-es-Salam (١٥) (القدمة العامة).
- 1967. *Revolt in Southern Rhodesia. A Study in african resistance*, Londres, Heinemann, xii + 403 p. (٢٢).
- RATTRAY (R.S.). — 1923. *Ashanti*, Oxford, Clarendon Press (٢٤).
- REED (C.A.). — 1964. « Natural history study of Karkur Oasis, Libyan desert », *Postilla-Peabody Museum*, 84 (٢٥).
- 1965. « A human frontal bone from the late pleistocene of the Kom-Ombo Plain », *Man*, 95 : 101-4 (٢٥).
- 1967. *Preliminary report on the archaeological research of the Yale University, Prehistoric expedition to Nubia, 1962-1963*, Le Caire, Antq. Depart. Egypt. (٢٥).
- REES (A.R.). — 1965. « Evidence for the African origin of the oil palm », *Principes*, 9 : 30-6 (٢٤).
- REINDORF (C. Ch.). — 1889. *The History of the Gold Coast and Asante*, Bâle n. d. l C. 183 (٢٢).
- REINISEH (L.). — 1881. *Die Kunama-Sprache in Nord-Ost Afrika*, Vienne (١٠).
- REISNER (G.A.). — 1910. *Archaeological survey of Nubia, report for 1907-1908*, vol. I, Le Caire, National Printing Dept. (٢٨).
- 1923. *Excavations at Kerma*, Cambridge, Harvard African Studies (٢٨).
- RENAN (E.). — 1855. *Histoire générale et Système comparé des langues sémitiques*, Paris, Impr. Roy., VIII + 499 p. (١).
- REVUE de géographie physique et de géologie dynamique. — 1976. N° spécial, « Oscillations climatiques au Sahara depuis 40 000 ans », Paris, Masson (١٦).
- REYGASSE (M.). — 1922. « Note au sujet de deux civilisations préhistoriques pour lesquelles deux termes nouveaux me paraissent devoir être employés », *Actes 46^e Congr. A.F.A.S.* : 467-72 (٢٢).
- 1923. « Découverte d'outillage moustérien à outils pédonculés atériens dans le Tidikelt, Oued Asriouel, région d'Aoulef Chorfa », *Actes 46^e Congr. A.F.A.S.* : 471-2 (٢٢).
- RHODENBURG (H.). — 1970. « Morphodynamische Aktivitäts- und Stabilitätszeiten statt Pluvial- und Interpluvialzeiten », *Eiszeitalter und Gegenwart*, 21 : 81-96 (٢١).
- RHODENBURG (H.) et SABELBERG (U.). — 1969. « Zur landschafts-ökologisch-bodengeographischen und klimagenetisch-geomorphologischen Stellung des westlichen Mediterrangebiets », *Göttinger Bodenkundliche Berichte*, 7 : 27-47 (١٦).
- RHOTERT (H.). — 1952. *Libysche Felsbilder*, Darmstadt, L.C. Wittich (٢٢).

- RICHARD (Abbé). — 1869. « Sur la découverte de silex taillés dans le sud de l'Algérie », *Matériaux pour l'histoire primitive de l'Homme*, 4 : 74-5 (٢٣).
- RICHARD (C. DE). — 1955. « Contribution à l'étude de la stratigraphie du quaternaire de la presqu'île du Cap Vert (Sénégal) », *B.S.P.F.* 52 : 80-8 (٢٤).
- RICHARDSON (J.L.) et RICHARDSON (A.E.). — 1972. « History of an African rift Lake and its climatic implication », *Ecol. Monogr.* 42 : 499-534 (١٦).
- RIGHTMIRE (G.P.). — 1974. *Comments on race and population history in Africa*, New York (١١).
- ROBERT (D.). — 1970. « Les fouilles de Tegdaoust », *J.A.H.* 11, 4 : 471-93 (٢٤).
- 1970. « Report on the excavations at Tegdaoust », *W.A.A.N.*, 12 : 64-8 (٢٤).
- ROBERT (D. et S.) et DEVISSE (J.). — 1970. *Tegdaoust I, Recherches sur Aoudaghost*, Paris, A.M.G. (٢٤).
- ROBERTS (A.D.). — 1967. « Oral traditions of the peoples of Tanzania », *E.A.J.* 12 : 23-5 (٧).
- 1968. *Recording East Africa's past : a brief guide for the amateur historian*, Dar-es-Salam (٧).
- 1968. « Oral tradition through the Sieve : Notes and Comments on the Second Conference on Tanzania's oral history », *E.A.J.* : 35-8 (٧).
- 1968. *Tanzania before 1900*, Nairobi, East African Publishing House, XX + 162 p. (٣).
- ROCHE (E.). — 1975. « Analyse palynologique du site archéologique de la Kamoa », D. Cahen, *le Site archéologique de la Kamoa (région du Shaba, République du Zaïre). De l'Age de la pierre ancienne à l'Age du fer*, A.M.R.A.C. 84 : 331-7 (٢١).
- 1963. *L'Épipaléolithique marocain*, Lisbonne (٢٢).
- RODIER (J.). — 1963. « Hydrologie du continent africain », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, pp. 185-226 (١٣).
- ROGNON (P.). — 1974. « Modifications naturelles du cycle hydrométéorologique depuis 10 000 ans. Leur utilisation pour la prévision climatique à long terme », in *Influence* (١٧).
- ROSENFELD (A.). — 1965. *The inorganic raw minerals of Antiquity*, Londres (١٤).
- 1972. « The microlithic industries of Rop Rock Shelter », *W.A.J.A.* vol. II : 17-28 (٢٤).
- ROTHBERG (R.J.), dir. — 1971. *Africa and its explorers : motives, methods, and impact*, Cambridge, Mass. (٧).
- ROTHBERG (R.J.) et ROUBET (F.E.). — 1966. « Présentation comparative d'un gisement côtier, des environs de Berard, à l'ouest d'Alger », *Congr. Préhist. Français*, Ajaccio : 109-28 (٢٢).

- ROTHBERG (H.) et ROUBET (C.). — 1968. « Nouvelles observations sur l'Épipaléolithique de l'Algérie orientale. Le gisement de Koudiat Kifène Lahda », *Libyca*, 16 : 55-101 (٢٢).
- 1972. « The microlithic industries of Rof Rock Shelter », *W.A.J.A.* 2, 17-28 (٢٤).
- (à paraître) : *Une économie pastorale pré-agricole en Algérie orientale. Le néolithique de tradition capsienne. L'exemple de l'Aurès* (٢٢).
- ROTHBERG (R.J.) et MAZRUI (A.A.), éd. — 1970. *Protest and Power in Black Africa*, New York, Oxford University Press, XXX + 1274 p. (٢).
- ROUBET (C.). — 1968. *Le Gisement du Damous el Ahmar*, Paris, A.M.G. (٢٢) (٢١).
- 1971. « Sur la définition et la chronologie néolithique de tradition capsienne », *Anthropologie*, 75 : 553-74 (٢٤) (٢٢).
- RUBIN (A.). — 1970. Review of Philip Allison's « African Stone Sculpture » and Franck Willett's « Ife in the History of West African Sculpture », *Art bulletin* 72, 3 : 348-54 (٢٤).
- RUFFIE (J.). — 1977. *De la biologie à la culture*, Paris, Flammarion 598 p. (القدمة العامة) (١٠).
- 1977. « Génétique et Anthropologie », *Science et vie* n° 120 Hors série (١١).
- RYDER (A.F.C.). — 1965. *Materials for West African History in Portuguese Archives*, Londres (٢٤) (٦).
- 1965. « A reconsideration of the Ife-Benin relationship », *J.A.H.* 6, 1 : 25-37 (٢٤).
- SABERWAL (S.). — 1967. « The oral tradition, periodization and political system », *C.J.A.S.* 1 : 157-62 (٧).
- SAID (R.). — *The geological evolution of the River Nile* (١٦).
- SALEH (S.A.), GEORGE (A.W.) et HELMI (F.M.). — 1972. « Study on glass and glass-making processes at Wadi-El-Natrum, 1^{re} partie. Fritting crucibles, their technical features and temperature employed », *Studies in Conservation*, Londres, 17 : 143-70 (١).
- SAMB (A.). — 1971. « Langues négro-africaines et leurs emprunts à l'arabe », *N.A.* (١١).
- SAMPSON (C.G.). — 1972. « The Stone Age industries of the Orange River Scheme and South Africa », *Memoirs of the National Museum Bloemfontain*, 6 (٢٠).
- 1974. *The Stone Age archaeology of Southern Africa*, Academic Press, New York (٢٠).
- SANCHO (I.). — 1781. *Letters of the late I. Sancho, an african... to which are prefixed memoirs of his life*, Londres, 2 vol. (٦).
- SANDER (E.R.). « The hamitic hypothesis, its origin and function in time perspective », *J.A.H.* X, 4 : 521-32 (القدمة العامة) (١٢).
- SANDFORT (K.S.) et ARKELL (A.J.). — 1929. *Palaeolithic man and the Nile*, Fayum divide. Oriental Institute Publication, 10, (٢٣).

- SAPIR (D.). — 1973-1974. « Linguistics in Sub-saharan Africa », in *Current trend in linguistics*, T.A. SEBEOK (dir.), Paris - La Haye, Mouton (١٢) (١٠).
- SAUER (C.O.). — 1952. « Agricultural origins and dispersion », *B.M.L.* 2 (٢٧).
- SAUNDERS (A.M.C.). — 1964. *World population : past growth and present trends*, Londres (١٤).
- SAUVAGET (J.). — 1946. *Historiens arabes*, Paris, A. Maisonneuve (المقدمة العامة).
- 1961. *Introduction à l'histoire de l'Orient musulman*, Paris (5).
- SAVAGE (G.). — 1967. *The art and antique restorers' handbook*, Londres, Barris et Rockliff, 142 p. (١).
- SAVARY (P.). — 1966. « Monuments en pierres sèches du Fasnoun », *M.C.R.A.P.E.* 6, 78 p. (٢٢).
- SAYCE (R.U.). — 1933. *Primitive arts and crafts*, Cambridge, Cambridge University Press, XIII + 291 p. (٢٤).
- SAYRE (E.V.) et MEYERS (P.). — 1971. « Nuclear activation applied to materials of art and archaeology », *A.A.T.A.*, 8, 4 : 115-50 (١).
- SCHARFF (A.) et MOORGAT (A.). — 1950. *Ägypten und Vorderasien im Altertum*, München, F. Bruckmann (٢٨).
- SCHEUB (H.). 1975. *The Ntsomi : a Xhosa performing art*, Oxford (٧).
- SCHLÖZER (A.L. VON). — 1781. In EICHHORN J.G., *Repertorium für biblische und morgenländische Literatur*, Leipzig, Wiedmanns Erben und Reich, 1777-1786, 18 parties, partie VIII (١٢).
- SCHMITZ (A.). — 1962. « Les Muhulu du Haut-Katanga méridional », *B.J.B.E.* XXXII, 3 (٢١).
- 1971. « La végétation de la plaine de Lubumbashi (Rép. Dém. Congo) » *Publ. INEAC* 113 : 11-388 (٢١).
- SCHNELL (R.). — 1967. *Plantes alimentaires et agricoles de l'Afrique noire*, Paris, Larose (٢٧) (المقدمة العامة).
- SCHOLLAR (I.). — 1970. « Magnetic methods of archaeological prospecting advances in instrumentation and evaluation techniques », *P.T.R.S.* 269, 1193 : 103-19 (١).
- SEBEOK (T.A.). — 1963-1974. *Current trend in linguistics*, Paris - La Haye, Mouton (١٢) (١٠).
- SECK (A.) et MONDJANNAGNI (A.). — 1967. *L'Afrique occidentale*, Paris, PUF, 290 p. (١٣).
- SEDDON (D.). 1968. « The origins and development of agriculture in East and Southern Africa », *C.A.* 9, 5 : 489-94 (٢٧) (٢٤).
- SELIGMAN (G.). — 1930. *Races of Africa*, Londres (١٠).
- SERVANT (M. et S.) et DELIBRIAS (G.). — 1969. « Chronologie du Quaternaire récent des basses régions du Tchad », *C.R.A.S.* 269 : 1603-6 (٢٤).
- 1973. « Séquences continentales et variations climatiques : évolution du bassin du Tchad au Cénozoïque supérieur », *M.O.R.S.T.O.M.*, 348 p. (١٦).

- 1974. « Les variations climatiques des régions intertropicales du continent africain depuis la fin du Pléistocène », *13^e journée de l'hydraulique, Soc. Hydrotech. Fr.* (١٧).
- SETHE (K.). — 1930. *Urgeschichte und älteste Religion der Ägypter*, Leipzig, F.A. Brickhaus (٢٨).
- SEYDOU (Ch.) éd. — 1977. *La Geste de Ham-Bodéio ou Hama le Rouge*, Paris, A. Colin, Classiques africains, 18 (٢).
- SCHAPERA (I.). — 1933. *The early Hottentots*, Cape Town (٧).
- SHAPERS (I.). — 1668. *The Early Cape Hottentots, described in the writings of Dapper* (٧).
- SHAW (Th.). — 1944. « Report on excavations carried out in the cave known as Bosumpra at Abetifi, Kwahu, Gold coast Colony », *Proceedings of the prehistoric society*, Cambridge, 10 : 1-67 (٢٤).
- 1960. « Early Smoking Pipes : in Africa, Europe and America », *J.R.A.I.* (٢٤).
- 1961. *Excavation at Dawu*, Edinburgh, Nelson, VIII + 124 p. (٢٤).
- 1962. « Chronology of excavation at Dawu », *Man*, 72 : 217 (٢٤).
- 1963. « Field research in nigerian archaeology », *J.H.S.N.*, 2, 4 : 449-64 (٢٤).
- 1964. *Archaeology in Nigeria*, Ibadan, Ibadan University Press (٢٤).
- 1964. « Smoking in Africa », *S.A.A.B.* 19, 75 : 75-6 (٢٤).
- 1965. « Spectrographic analyses of the Igbo and other Nigerian bronzes », *Archaeometry*, 8 : 86-95 (٢٤).
- 1965. « 'Akure excavations : Stone Age Skeleton 9000 BC », *A.N.* 3 : 5-6 (٢٤).
- 1967. « Terminology », *W.A.A.N.* 7 : 86-95 (٢٤).
- 1969. « Further spectrographic analyses of nigerian bronzes », *Archaeometry*, 11 : 85-98 (٢٤).
- 1969. « The later Stone Age in the nigerian forest », *Actes 1^{re} Coll. internat. Archaeol. Afr.* : 364-74 (٢٤).
- 1969. « On radiocarbon chronology of the Iron Age in Sub-Saharan Africa », *C.A.* 10 : 226-31 (٢٤).
- 1970. « The analysis of West African bronzes : a summary of the evidence », *Ibadan*, 20 : 80-9 (٢٤).
- 1971. « The Prehistory of West Africa », in J.F.A. AJAYI and M. CROWDER, *History of West Africa*, London, Longmans (٢٤).
- 1971. « Africa in Prehistory : leader or laggard ? », *J.A.H.*, 12, 1 : 143-53 (٢٤).
- 1971. *Igbo-Ukwu : an account of archaeological discoveries in eastern Nigeria*, Londres, Faber and Faber, 2 vol. (٢٤).
- 1972. « Early crops in Africa : a review of the evidence », *Burg. Wart. Symp.* 56 (٢٤).
- 1973. « Trade and the Tsoede bronzes », *W.A.J.A.* 3 : 233-8 (٢٤).
- SHELTON (A.K.). — 1968. « Causality in african thought ; Igbo and other », *P.A.* 15, 4 : 157-69 (٧).

- SHEPPERSON (G.) et PRICE (Th.). — 1958. *Independent Africa. John Chiblembwe and the Origins. Setting and Significance of the Nyassaland native rising of 1915*, Edinburgh, Edinburgh University Press, X 564 p. (٢١).
- SHINNIE (P.L.). — 1967. *Meroe, a civilization of the Sudan*, New York, Washington (٢٨).
- 1971. *The African Iron Age*, Oxford, Claredon Press (٢٨) (٢٤).
- SIBRAVA (V.) dir. — 1975. *Quaternary glaciations in the Northern hemisphere*, rapport n° 2, Projet 73/1/24, Prague, Unesco, 151 p. (١٦).
- SILVA REGO (A. da). — 1949-1958. *Documentos para historia do missoes de Padreoda portuguesa de oriente*, 12, Lisbonne (٦).
- SIMPSON (G.C.). — 1957. « Further studies in world climate », *J.R.M.S.* 83 : 459-85 (٢٤).
- SIMPSON (W.K.) éd. — 1972. *The literature of ancient Egypt*, New Haven-London (٢٨).
- SINGER (R.). — 1958. « The Rhodesian, Florisbad and Saldanha Skulls. G.H.R. von KOENIGSWALD », *Neandertal Centenary*, Utrecht : 52-62 (٢٠).
- SINGER (R.) et WYMER (J.). — 1968. « Archaeological Investigations at the Saldanha skull site in South Africa », *S.A.A.B.* XXV : 63-74 (٢٠).
- SINGH (G.). — 1973. « Late Quaternary changes in vegetation and climates in the arid tropics of India », *Acts IX I.N.Q.U.A. Congr.* (١٦).
- SMITH (A.). — 1974. « Preliminary report of excavations at Karkarichinkat, Mali, 1972 », *W.A.J.A.* 4 (٢٤).
- SMITH (H.F.C.). — 1958. « Source material for the history of the Western Sudan », *J.H.S.N.* 1, 3 : 238-48 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- 1961. « Arabic manuscript material bearing on the History of Western Sudan : a seventeenth century writer of Katsina », *B.N.H.S.N.* VI, 1 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- SMITH (H.S.). — 1966. « The Nubian B-Group », *Kush*, XIV : 69-124 (٢٨).
- SMITH (P.E.). — 1966. « The late Paleolithic of Northern Africa in the light of recent researches », *A.A.* 68 : 326-55 (٢٥).
- 1966. « New prehistoric investigation at Kom-Ombo », *Zephyrus* XVII (٢٥).
- 1967. « New investigations in the late Pleistocene archaeology of the Kom-Ombo Plain », *Quaternaria*, IX (٢٥).
- SOGA (T.B.). — 1929. *Intlalo ka Zossa*, Lovedale (٦).
- SOMMER (F.). — 1953. *Man and beast in Africa*, Londres, 206 p. (١٤).
- SOPER (R.C.). — 1965. « The Stone Age in Northern Nigeria », *J.H.S.N.* 3, 2 : 175-94 (٢٤).
- SOUVILLE (G.). — 1958-59. « La pêche et la vie maritime au Néolithique en Afrique du Nord », *B.A.M.* 3 : 315-44 (٢٢).
- 1973. *Atlas de préhistoire du Maroc*, « Maroc atlantique », Paris. C.N.R.S., Etudes d'antiquités africaines (٢٢).
- SOW (A.I.). — 1968. *Chroniques et récits du Fouta-Djalon*. Paris. Klincksieck, 262 p. (٦).

- SOUMUNI (M.A.). — 1973. « A preliminary palynological study in the Rivers Stat », *Oduma*, I, 1 : 13-4 (١).
- SPARKS (B.W.) et WEST (R.G.). — 1972. *The Ice Age in Britain*, Londres, Methuen, XVIII + 302 p. (٢١).
- SPARRMAN (A.). — 1789. *A voyage to the Cape of Good Hope, towards the Antarctic polar circle, and round the world, but chiefly into the country of the Hottentots and Caffres, from the year 1772 to 1776*, Perth (٦).
- STAINER (X.). — 1898. « L'âge de la pierre au Congo », *A.M.R.A.C.* III, 24 p. (٢١).
- STANTON (W.R.) et WILLETT (F.). — 1963. « Archaeological evidence for changes in Maize type in West Africa : an experiment in technique », *Man*, 63 (٢١).
- STREEL (M.). — 1963. *La Végétation tropophile des plaines alluviales de la Lufira moyenne*, Liège, F.U.L.R.E.A.C. (٢١).
- STROSS (F.H.) et O'DONNALL. — 1972. *Laboratory analysis of organic materials*, USA, Addison-Wesley modular publications, module 22 (١).
- STROUHAL (E.). — 1976. *Problems of study of human races*, Prague (١١).
- STRUEVER (S.) éd. — 1971. *Prehistoric agriculture*, New York, American museum sourcebook in anthropology (١).
- STUVIER (M.) et SUESS (H.E.). — 1966. « On the relationship between radiocarbon dates and true sample ages », *Radiocarbon*, 8 : 534-40 (١).
- SURET-CANALE (J.). — 1964. « Les sociétés traditionnelles en Afrique tropicale et le concept de mode de production asiatique », *Pensée*, 117 : 21-42 (المقدمة).
- 1968. *Afrique noire occidentale et centrale*, Paris, Editions sociales, « I. Géographie, civilisations, histoire », 339 p. (المقدمة العامة).
- SWADESH (E.). — 1966. « A Preliminary glottochronology of Gur », *J.W.A.L.* (١٠).
- 1966. « Glottochronology », *J.W.A.L.*, III (١٠).
- SZUMOWSKI (G.). — 1956. « Fouilles de l'abri sous roche de Kourounokale », *B.I.F.A.N.*, B, 18 : 462-508 (٢١).
- TAIEB (M.). — 1974. *Evolution quaternaire du bassin de l'Awash (Rift éthiopien et Afar)*, Thèse, Paris, 2 tomes (١٧).
- TAIEB (M.), COPPENS (Y.), JOHANSON (D.C.) et KALB (J.). — 1972. « Dépôts sédimentaires et faunes du Plio-Pleistocène de la basse vallée de l'Awash (Afar central, Ethiopie) », *C.R.A.S.* 275 : 819-22 (١٧).
- TAIEB (M.), JOHANSON (D.C.) et COPPENS (Y.). — 1975. « Expédition internationale de l'Afar, Ethiopie (3^e campagne, 1974) découverte d'Hominidés plio-pleistocène à Hadar », *C.R.A.S.* 281 : 1297-1300 (١٨) (١٧).
- TAIEB (M.), JOHANSON (D.C.), COPPENS (Y.) et ARONSON (J.L.). — 1976. « Geological and paleontological background of Hadar hominid site, Afar, Ethiopie », *Nature*, 260, 5549 : 289-93 (١٧) (١٦).
- TAIEB (M.), JOHANSON (D.C.), COPPENS (Y.), BONNEFILLE (R.) et KALB (J.). — 1974. « Découverte d'Hominidés dans les séries plio-pleistocènes d'Hadar (bassin de l'Awash, Afar, Ethiopie) », *C.R.A.S.* 279 : 735-8 (١٧).

- TALBOT (P.A.). — 1923. *Life in Southern Nigeria : the magic, beliefs and customs of the Ibido Tribe*, Londres, Macmillan, pp. 448-464 (١٠).
- TARDITS (C.). — 1962. « Religion, épopée, histoire ; notes sur les fonctions latentes des cultes dans les civilisations du Benin », *Diogenes*, n° 37 (١٥).
- TATTAM (C.M.). — 1944. *A Review of nigerian stratigraphy*, Annual report of the geological survey of Nigeria, 1943, Lagos, Government printer (٢٤).
- TAUXIER (L.). — 1882. « Les deux rédactions du périple d'Hannon », *R.A.* 15-37 (٥).
- TEILHARD DE CHARDIN (P.). — 1954. « Les recherches pour la découverte des origines humaines en Afrique au sud du Sahara », *Anthropologie* (الخاتمة).
- 1955. « L'Afrique et les origines humaines », *Revue des questions scientifiques* (الخاتمة).
- 1956. *Le Groupe zoologique humain*, Paris (١٥).
- THEAL (G.M.). — 1896-1903. *Records of South-Eastern Africa*, Londres, 8 vol. (٦).
- 1897-1905. *Records of the Cape colony*, Londres, 36 vol. (٦).
- THOMASSEY (P.) et MAUNY (R.). — 1951. « Campagne de fouilles à Koumbi Saleh », *B.I.F.A.N.* 13, 1 : 438-62 (٢٤).
- 1956. « Campagne de fouilles à Koumbi Saleh », *B.I.F.A.N.* B, 18 : 117-40 (٢٤).
- THOMPSON (L.). — 1969. *African societies in Southern Africa*, Londres, Heinemann (٢٤) (القدمة العامة).
- TIME-LIFE BOOKS. — 1972. « The Missing Link. Emergence of Man », sér. 3 (١١).
- TIXIER (J.). — 1957. « Le hachereau dans l'Acheuléen nord africain. Notes typologiques », *C.R. XV Congr. Préhist. Fr.* : 914-23 (٢٢) (٢٢).
- 1958-59. « Les pièces pédonculées de l'Atérien », *Libyca*, 6, 7 : 127-57 (٢٢).
- 1963. *Typologie de l'Epipaléolithique du Maghreb*, Paris, A.M.G. (٢٢).
- « Les industries lithiques de l'Aïn Fritissa », *B.A.M.* 3 : 107-247 (٢٢).
- TOBIAS (P.V.). — 1967. *Olduwan George. The cranium of Australopithecus (Zinjanthropus) boisei*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 264 p. (١٧).
- 1967. « Cultural hominization among the earliest African Pleistocene hominid », *Proc. Prehist. Soc.* 33 : 367-76 (٢٠).
- 1968. « Middle and early Upper Pleistocene members of the genus Homo in Africa », *Sonderdruck aus Evolution und Hominization*, Stuttgart, G. Kurth, 176-94 (٢٠).
- 1968. *Man's past and future*, Fifth Raymond Dart lecture, Johannesburg, Witwatersrand Univ. Press (٢٠).
- TOBIAS (P.V.) et COPPENS (Y.). — 1976. « Les plus anciens hominidés » *Actes IX Congr. U.I.S.P.P.* (١٧).
- TRICART (J.). — 1956. « Tentative de corrélation des périodes pluviales africaines et des périodes glaciaires », *C.R.S.G.F.* : 164-7 (١١).

- TRIGGER (B.G.). — 1965. *History and Settlement in Lower Nubia*, New Haven, Yale University pub. in anthropology, 69 (٢٨).
- « Meroitic and Eastern Sudanic : a linguistic relationship ? », *Kush*, vol. 12 (١٢).
- TRIGGER (B.G.). — 1969. « Meroe and the African iron age », *A.H.S. II* (٢٨).
- TSHUDI (J.). — 1955. *Nordafrikanische Feldsmalereien*, Florence, Sansoni, 106 p. (٢٣).
- TUCKER (A.N.). — 1940. *The Eastern Sudanic languages*, Londres (١٠).
- 1948. *Distribution of the Nilotic-Hamitic Languages of Africa*, Londres (١٠).
- TUCKER (A.N.) et BRYAN (M.A.). — 1966. *Linguistic Analyses : The non-Bantu languages of North-Eastern Africa*, Londres-New York-Le Cap, Oxford Univ. Press, XV + 228 p. (١٢)(١٠).
- TUREKIAN (K.K.). éd. — *Late Cenozoic Glacial Age*, New Haven, Yale Univ. Press (١١).
- TURNER (L.D.). — 1955. « The odyssey of a Zulu warrior », *J.N.H.* 40, 4 (٦).
- TWIESSELMANN (F.). — 1958. *Les Ossements humains du gîte mésolithique d'Ishango*, Mission J. de Heinzelin de Braucourt en 1950, Bruxelles, Institut des Parcs nationaux du Congo belge, 125 p. (٢١).
- UCKO (P.J.) et DIMBLEBY (G.W.) dir. — 1969. *The domestication and exploitation of plants and animals*, Londres, Duckworth, XXVI + 581 p. (٢٤).
- 1970. « The history of Africa », *C.H.M.* XII, 4 : 527-605 (١٥).
- 1972. « Les origines de l'homme », *Le Courier*, août-sept., n° spécial (الخاتمة).
- اليونسكو — ١٩٦٥ « فن الكتابة »
١٩٧٣ — « منتخبات نصوص بالعربية مأخوذة من الوثائق المغربية » بقلم الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني، باريس (القدمة العامة).
- 1974. *Colloque scientifique international sur le peuplement de l'Egypte ancienne et le déchiffrement de la langue méroïtique*, Le Caire, 28 jan.-3 fév. (القدمة العامة).
- U.S. NATIONAL REPORT. — 1971-1974-1975. « American géophysical union, 15th general ass. International union of geology and geophysics, Grenoble », *Rev. geophys. Space phys.*, vol. 13, n° 3, 1110 p. (١٦).
- VAJDA (G.). — 1950. « Contribution à la connaissance de la littérature arabe en Afrique occidentale », *J.S.A.* XX : 229-37 (٦) (٥) (القدمة العامة).
- VANDIER (J.). — 1952. *Manuel d'archéologie égyptienne*, Tome I, 1, « La Préhistoire », Paris, Picard (٢٨).
- VANDIER (J.) et DRIOTON (E.). — 1962. « Les peuples de l'Orient méditerranéen », II — *L'Egypte*, Cléo, PUF (٢٨).
- VANSINA (J.). — 1961. *De la tradition orale : essai de méthode*, Tervuren, Mémoire n° 36 du Musée royal d'Afrique Centrale (٧) (القدمة العامة).
- 1971. « Once upon a time : Oral traditions as history in Africa », *Daedalus*, 100, 2 : 442-68 (٧).

- 1973. *The Tyo Kingdom of the Middle Congo. 1880-1892*, Oxford, Clarendon Press, XIX + 590 p. (٣).
- 1974. « Comment : traditions of Genesis », *J.A.H.* XV : 317-322 (٨).
- VANSINA (J.), MAUNY (R.) et THOMAS (L.V.). — 1964. *The historian in tropical Africa*, Oxford, Oxford Univ. Press (١٥) (المقدمة العامة)
- VAUFREY (R.). — 1939. *L'Art rupestre nord-africain*, Paris, Institut de paléontologie humaine, Mém. 20, 127 p. (٢٣).
- 1946. « Le Néolithique de tradition capsienne au Sénégal », *Rivista di Scienza preistorica*, Rome (٢٤).
- 1949. « Le Néolithique paratombien, une civilisation agricole primitive du Soudan », *J.E.A.* 35 (الخاتمة).
- 1953. « L'Age de la pierre en Afrique, exposé synoptique », *J.S.A.* XXIII : 103-38 (الخاتمة).
- 1955 et 1970. *Préhistoire de l'Afrique*, I. « le Maghreb », II. « Au nord et à l'est de la Grande Forêt », Paris, Masson (٢٣) (٢٢).
- VAVILOV (N.I.). — 1935. *Bases théoriques de la sélection des plantes*, tome I, « Sélection générale », Moscou-Léninegrad, 1045 p. (٢٧) (١٤).
- 1951. « The origin, variation, immunity and breeding of cultivated plants », Selected writings translated by K. STAAR, *Chronica Botanica*, 13 : 1-6 (٢٧).
- VERCOUTTER (J.). — 1959. « The Gold of Kush », *Kush*, VII : 120-53 (٢٨).
- VERCOUTTER (J.), BOTTERO (J.) et CASSIN (E.). — 1967. *The New East, the early civilizations*, New York, Delacorte (٢٨).
- VERHAEGEN (B.). — 1974. *Introduction à l'histoire immédiate*, Paris, Duculot (١٥) (المقدمة العامة)
- VERMEERSCH (S.). — 1976. « L'Epipaléolithique dans la vallée du Nil », *Actes IX Congr. U.I.S.P.P.* (٢٥).
- VIA (Y. et M.). — 1974. *Sahara, milieu vivant*, Paris, Hatier (٢٩).
- VIDAL (O.E.). — 1852. in CROWTHER (S.A.), *A vocabulary of the Yoruba languages*, Londres, Seeleys (١٢).
- VIDAL (P.). — 1969. *La Civilisation mégalithique de Bouar. Prospections et fouilles, 1962-1966*, Paris, F. Didot, 132 p. (٢٩).
- VIGNARD (E.). — 1923. « Une nouvelle industrie lithique : le Sébilien », *B.I.F.A.O.* 22 : 1-76 (٢٣).
- VOEGELIN (C.F. et F.M.). — 1973. *Index of the World's languages*, Washington (١٧).
- VOGEL (J.C.) et BEAUMONT (P.B.). — 1972. « Revised radiocarbon chronology for the Stone Age in South Africa », *Nature*, 237 : 50-1 (٢٤) (٢٠).
- VOUTE (C.). — 1962. « Geological and morphological evolution of the Niger and Benue Valleys », *Proc. IV. P.C.P.Q.S.* 1 : 189-207 (٢٤).
- WAINWRIGHT (G.A.). — 1949. « Pharaonic survivals between Lake Chad and the West Coast », *J.E.A.* 35 : 170-5 (٢٤).
- WAI-OGUSU (B.). — 1973. « Was there a Sangoan industry in West Africa ? », *W.A.J.A.* 3 : 191-6 (٢٤).
- 1974. « Pleistocene man in Africa with special reference to West Africa », *J.H.S.N.* 7, 2 : 357-68 (٢٤).

- WATTS (A.D.). — 1926. *The early hunters and explorers in South West Africa*, thesis, Cape Town, Univ. of Cape Town (١).
- WAYLAND (E.J.). — 1929. « Rift valleys and Lake Victoria », *C.R. XV^e C.I.G.* II : 323-53 (٢٤)(٢١).
- 1934. « Rifts, rivers and rains and early man in Uganda », *J.R.A.I.* 64 : 332-52 (٢٤)(٢١).
- 1952. « The study of past climates in Tropical Africa », *P.C.P.*, 1947, Oxford, Blackwell : 66 (٢٤).
- WEBB (M.C.). — 1968. « Carneiro's hypothesis of limited land resources and the origins of the state : a Latin Americanist's approach to an old problem », *South Eastern Latin Americanist*, 12, 3 : 168 (٢٤).
- WELMERS (W.). — 1973. *African language structures*, Los Angeles, Univ. of California Press (١٢).
- WENDORF (F.). — 1965. *Contributions to the Prehistory of Nubia*, Dallas, Fort Burgwin Research Center and Southern Methodist Univ. Press, 164 p. (٢٢).
- 1968. *The Prehistory of Nubia*, Dallas, Fort Burgwin Research Center and Southern Methodist Univ. Press (٢٨)(١٦).
- WENDORF (F.), SAID (R.) et SCHILD (R.). — 1970. « Egyptian prehistory : some new concepts », *Science*, 169 : 1161-71 (٢٨)(٢٤).
- WENDORF (F.), LAURY (R.L.), ALBRITON (C.C.), SCHILD (R.), HAYNES (C.V.), DAMON (P.E.), SHAFIQUILLAH (H.) et SCARBOROUGH (R.). — 1974. « Dates for the Middle Stone Age of East Africa », *Science*, 187 : 740-2 (١٦).
- WENDT (W.E.) et REED (C.H.). — 1966. « Two prehistorical archaeological sites in Egyptian Nubia », *Postilla*, 102 : 1-46 (٢٥).
- WERBER (A.). — 1925. *The language families of Africa*, Londres, Society for promoting christian knowledge, VII + 149 p. (١٢)(١٠).
- 1930. *Structure and Relationship of African languages*, Londres-New York, Longmans Green and Co, VII + 61 p. (١٢)(١٠).
- WERNER (A.E.A.). — 1970. « Analysis of ancient metals », *P.T.R.S.* 269, 1193 (١).
- WESTCOTT (R.W.). — 1957. « Did the Yoruba come from Egypt ? », *Odu*, 4 (٢٤).
- WESTERMANN (D.). — 1911. *Die Sudansprachen, eine sprachvergleichende Studie*, Hambourg, L. Friederichsen, VIII + 222 p. (١٢).
- 1927. *Die westlichen Sudansprachen und ihre Beziehungen zum Bantu*, Mitteilungen des Seminars für orientalische Sprachen, Den Haag, de Gruyter (١٢).
- WESTPHAL (E.O.J.). — 1962. « On classifying Bushman and Hottentot languages », *A.L.S.* III : 30-48 (١١).
- 1966. « The non-Bantu languages of Southern Africa », A.N. Tucker and M.A. Bryan, *Linguistic analyses*, London-New York-Cape Town (١٢).
- WET (J.M.J. DE) et HARLAN (J.R.). — 1971. « The origin and domestication of Sorghum-bicolor », *Econ. Bot.* 25 : 128-35 (٢٤).

- WHEATLEY (P.). — 1964. *The land of Zanj : exegetical notes on chinese knowledge of East Africa prior to A.D. 1500*, Londres, Liverpool essays (٥).
- WICKENS (G.E.). — 1975. Changes in the climate and vegetation of the Sudan since 20 000 B.P., *C.-R. VIII Reunion A.B.I.F.A.T.* : 43-65 (١٦).
- WIERCINSKY. — 1965. « The analysis of racial structure of early dynastic populations in Egypt », *Materialow practical anthropologicanich*, 72 (١١).
- WIESENFIELD (S.L.). — 1967. « Sick cell trait in human biological and cultural evolution », *Science*, 157 : 1134-40 (٢٤).
- WILKS (I.). — 1956. « Tribal history and myth », *Universitas*, 2-3 (القدمة العامة)
- 1961. « Begho and the Mande », *J.A.H.*, 2 : 25-34 (٢٤).
- 1963. « The growth of Islamic learning in Ghana », *J.H.S.*, 2, 4 (٦).
- 1975. « Do Africans have a sense of time ? *I.J.A.H.S.* VIII, 2 (٢).
- WILLCOX (A.). — 1963. *The rock art of South Africa*, Johannesburg, Nelson (الخانمة) (٢٦).
- WILLETT (F.). — 1960. « Ife and its archaeology », *J.A.H.*, 2 : 231-48 (15).
- 1962. « The Introduction of maize into West Africa : an assessment of recent evidence », *Africa*, 32 : 1-13 (٢٤).
- 1962. « The Microlithic Industry from Old Oyo, Western Nigeria », *Actes IV Congr. P.P.E.Q.* 2 : 261-72 (٢٤).
- 1964. « Spectrographic analysis of Nigeria bronzes », *Archaeometry*, 7 : 81-93 (٢٤) (١).
- 1966. « On the funeral effigies of Owo and Benin, and the interpretation of the life-size bronze heads from Ife », *Man*, 1 : 34-45 (٢٤).
- 1967. *Ife in the History of West African sculpture*, London, Thames & Hudson (١٥).
- 1968. « New light on the Ife-Benin relationship », *African Forum*, 3, 4, 4, 1 (٢٤).
- 1969. « New radiocarbon dates from Ife », *W.A.A.N.* 11 : 23-5 (٢٤).
- WILLIAMS (M.A.J.). — 1966. « Age of alluvial clays in the western Gezira, Republic of the Sudan », *Nature*, 211 : 270-1 (١٦).
- 1975. « Late Pleistocene tropical aridity synchronous in both hemispheres ? », *Nature* 253, 5493 : 617-8 (١٦).
- WILLIAMS, CLARK (J.D.), ADAMSON (D.A.) et GILLESPIE (R.). — 1975. « Recent Quaternary research in Central Sudan », *B.A.S.E.Q.U.A.*, 46 (١٦).
- WILLIS (R.G.). — 1964. « Tradition history and social structure in Ufipa », *Africa*, 34, 4 : 340-51 (٧).
- WILSON (A.C.) et SARICH (V.M.). — 1969. « A molecular timescale for human evolution », *P.N.A.S.* 63, 4 : 1088-93 (٢٠).
- WILSON (M.) et THOMPSON (L.). — 1969-71. *The Oxford history of South Africa*, Oxford, Clarendon Press, 2 vol. (٢).
- WILSON (W.). — 1966. *Temme and the West Atlantic group*, S.L.I.R., Indiana, 226. 9. (١٠).

- WINKLER (H.A.). — 1937. *Völkerbewegungen im vorgeschichtlichen Oberägypten im Lichte neuer Pelsbilderfunde*, Stuttgart (٢٣).
- 1939. *Rock drawings of Southern Upper Egypt*, Londres, Egypt exploration society, 2 vol. (٢٣).
- WOLLIN (G.), ERICSON (D.B.) et WOLLIN (J.). — 1974. « Geomagnetic variations and climatic changes 2 000 000 BC-1970 AD », *Coll. C.N.R.S.* 219 : 273-88 (١٦).
- WORLD METEOROLOGICAL ORGANISATION. — 1975. WMO/IAMAP. « Symposium on long-Term climatic fluctuations », *Proc. Norwich*, WMO n° 421, 503 p. (١٦).
- WRIGLEY (C.). — 1970. « Speculations on the Economic Prehistory of Africa, in J.D. FAGE et R.A. OLIVER, p. 69 (٢٧).
- WYMER (J.J.) et SINGER (R.). — 1972. « Middle Stone Age occupational settlements on the Tzitzikama coast, eastern Cape province, South Africa », P.J. UCKO, R. TRINGHAM and G.W. DIMBLEBY (éd.), *Man, settlement and urbanism*, Londres, 207-10 (٢٠).
- YAMASAKI (F.), HAMADA (C.) et HAMADA (T.). — 1973. « Riken natural radiocarbon. Measurements VII », *Radiocarbon*, 14, 1 : 223-38 (٢٤).
- YILBUUDO (J.T.). — 1970-71. *Tradition orale*, Mémoire : séminaire de Koumi, Haute-Volta.
- YORK (R.N.). — 1973. « Excavations at New Buipe », *W.A.J.A.* 3 : 1-189 (٢٤).
- YOUNG (W.J.). — 1958. « Examination of works of art embracing the various fields of science », *Proceedings of the Seminar on application of Sciences in examination of works of art*, Boston (١).
- YOYOTTE (J.). — 1959. *Dictionnaire de la civilisation égyptienne*, Paris (٢٨).
- ZAHAN (D.). — 1963. La dialectique du verbe chez les Bambara. Paris (٨).
- ZAKI (A.) et ISKANDER (Z.). — 1942. « Ancient Egypt Cheese », *A.S.A.E.* XLI : 295-313 (١).
- ZEISSL (H.V.). — 1955. « Äthiopien und Assyrien in Ägypten, *Ägyptologische Forschungen*, Heft 14, Glückstadt-Hamburg-New York, J.J. Augustin (٢٨).
- ZEUNER (F.F.). — 1950. *Dating the Past*, Londres, Methuen (١١).
- 1959. *The pleistocene period, its climate, chronology and faunal successions*, Londres, Hutchinson Scientific and technical, 447 p. (٢١) (١٦).
- ZIEGERT (H.). — 1967. *Dor el Gussa und Gehelben Ghaama*, Wiesbaden, F. Steiner, 94 p. (٢٢).
- ZINDEREN-BAKKER (E.M. VAN). — 1967. « Upper Pleistocene and Holocene Stratigraphy and Ecology on the basis of vegetation changes in sub-saharan Africa », in *Background to evolution in Africa*, ed. W.W. BISHOP and J.D. CLARK, Chicago University Press (٢٤).
- 1975. *Paleoecology of Africa*, vol. 1-9 (١٦).

كشاف أسماء الأعلام

أرم (س) - ٢٦٥	اسكندر (ب) (انظر	٩
استفاكتور تمبوك - ١٣٩	الببيليوغرافيا).	أحمد سيكو - ١٤٩
أثرتون (ج. ه) - ٦٤٠, ٦٣١	العالى (١ - س) - ١١٧	أحمد بابا - ١٤٣, ٢٧, ٢٤
أفاتيك باكدانزاويان - ١٣٩	اليمان (هـ) - ٥٧٥, ٤١٢, ٢٨٢	أحمد كران - ١٣٤
أوبريقيل (هـ) (انظر	٥٧٩, ٥٩٥, ٦٠٠	أماو فدية - ٢٠٧
الببيليوغرافيا).	ألن (ج و ت) - ١٤٥	أمينة - ٦٥
أوقيانو (الودويا) - ١٤٦	الماغرو - باش (م) - ٦٠٠	أنوكي - ٦٤
الحاج عمر - ١٤٩, ١٤٦, ٢٠٦	الميدا (م) - ٤٥	أردو ديمو - ١٨٣
٢٠٨	العمرى - ١٢٢, ٤٢, ١٢٤	أرو - ١٣١
الحاج عسكية محمد - ١٤٨, ٦٧	امبو (١. م) - ٨٢	العبدري - ١٣٤
ابن امينك - ٢٥٧	أموري - طالبيوت (ب) - ٩٥	ابراهيم (د. ب) - ٢٧
ادريس نكادا - ٢٠٤	امداسيون - ٤٤	أبو الفداء - ٤٢
إزيسي - ٢٨٩	أمير (م) (انظر الببيليوغرافيا).	أبو مخرمة - ١٣٨
إيوا - ١٨٤, ٢٠١	امي - ١١٨	أبو زكريا - ٢٤
أوزي بونسو - ٦٨	أمو (و. ١) - ١٤٦	أكتون لورد - ٤٩
أوزي توتو - ٦٤	أنسيودي فافو (١) - ٥٣٦, ٥٤٧	آدمس (و. ي) - ٧٣٩
أوزوركون - ٧١٩	أندرسون (ب) - ١٤٧	أغاثياس - ١١٥
أوبري - ٣٨	أنكرمان - ٢٨٢	أغيسي (هـ) - ٢٦
أوباريل سلمبا دوندو - ٣١٠	أنتر - دوك - ١٤٦	إنكن (ج. م) - ٢٢٦, ٢٢٨, ٢٢٩
إسوي (ف) - ٥٣٦	أنطوان (م) - ٥٨٠, ٦٠٣	٢٢١, ٢٢٢, ٢٢٣, ٢٢٤, ٢٢٥
ادوارد (أ. س) - ٢٢٨, ٢٢٩	أبيان - ١١١	أجاي (ج. ف. ١) - ٨٦, ٧٧
إنمايقيا (ج. ١) - ٥٥	أيتير (د) - ٧٦	أكنجوكين (١ - ١) - ٣٦
إهريرت (س) - ٢٩	أرامبورغ (س) - ٩٠, ٢٨٤, ٢٨٣	الأغوا (١. ١) - ٧٧, ٢٣
أهرشير (س) - ٨١	٤٢١, ٤٤٢, ٤٤٤, ٥٧٥, ٥٧٩	العلوي (انظر الببيليوغرافيا) -
أكسدت - ٢٧٢	٥٨٠, ٦٠٣, ٦١٨	البيتي (ل) - ١٣٦
أيلوار (ب) - ٦٢١ - ٦٢٦	أرسيلان (١) - ٥٩٣	الكيسيف - ٢٧٣, ٢٩١
اميري (و. ب) - ٧٢٣	أركل (ج. ١) - ٦٠٠, ٦٠٤, ٧٣٧	اسكندر (السلطان ج) - ١٣٦
اميلاني - ٤٥٥	أرسطو ديموس - ١١٠	اسكندر (ج و س) - ٥٥٨
أوفغوكس (ج. ب) - ٥٦٤	أرسطو - ١١١	
أونجلماير (ر) (انظر	أرنت (ج. ١) - ١٤٥	

- الببليوغرافيا)
 اينوشي (١) (انظر الببليوغرافيا)
 ايبولار (١) ١٣٨
 اريكسون (د. ب) - ٤٠٠
 إرمان (١) (انظر الببليوغرافيا)
 أوتروپ - ١١١
 ايفرندن - ٢٣٠
 اويينك - ٢١٧
 اويو (١) - ٦٣١
 اوير (س. د) - ٣٥١
 القاسي محمد - ٣٠٧
 إياكيموف (ق. ب) - ٧٤٧
 ابن عبد الحكم - ١١٨
 ابن أبي زهر - ١٢٢
 ابن ادوار - ١٤٣
 ابن الاثير - ١٢٢
 ابن بطوطة - ٢٢، ٤٢، ٦٥، ٩٤، ١٢٤، ٣٦٥، ٣٧٠، ٧١٢، ٧٥٣.
 ابن الفقيه - ١٢٠
 ابن فرتوة - ١٤٤
 ابن فاطمة - ١٢٤
 ابن صوقل - ١٢٠
 ابن الاظهاري - ١١٨، ١٢٢
 ابن إلياس - ١٣٢
 الحمياري - ١٢٤
 ابن جبير - ١٢٤
 ابن خرطندبه - ١١٩
 ابن ماجد احمد - ١٣٨، ١٣٩
 ابن مفرح - ١٢٤
 ابن عثمان - ١٣١
 ابن الصغير - ١٢٠
 ابن سعيد الغرناطة - ١٢٢
 ابن شداد - ١٢٢
 إليف (ج) - ٧٦
 اسحاق (ج. ل) - ٤٢١
 اسحاق (ن) - ١٣٧
- اسارو (ف) - ٢٢١
 اسكندر (زا) - ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٢
 الجبرتي - ١٣٢
 الخيمي الكوكباني - ١٣٥
 الخوارزمي - ١١٩
 المقرئزي - ١٢٢
 المرشدي (انظر الببليوغرافيا)
 الناصري السلاوي - ١٣١
 النويري - ١٢٢
 البكاي - ١٤٩
 البلاذري - ١١٧
 الكارم بنو - ٢٤
 البكري - ٤٢، ١٢٢، ١٢٤، ٣٦٣
 المسعودي - ٤٢، ١٠٩، ١١٩، ١٢٠
 الادريسي - ٤٢، ١٢٢
 البيروني - ١١٩
 اليرطايي محمد - ١٤٤
 الدريسي احمد - ١٣١
 الذهبي - ١٢٢
 الدمشقي - ١٢٤
 الدينوري - ١١٧
 القاسي الفاضل - ١٢٤
 الوراق - ١٢٢
 الوسماني - ١٢٠، ١٢٤
 الزهري - ١٢٤
 ابن خلدون - ٢٣، ٤٣، ١٠٩، ١٢٢، ١٣٠، ٧٥٢
 البغدادي - ١٢٤
 الجاحظ - ١٠٩
 الكتاني (م. ا) - ٢٤
 الدشراوي محمد - ١١٨
 الشنقيطي - ١٢٣
 العروبي (ع) - ١٠٥، ١١٦، ١٢١
 اوبنكا (ت) - ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠
 اوبريان (ت. ب) - ٥٥٨
- أودونال - ٢١٨
 اولديروج (د. ا) - ٨٢، ١٤٠، ١٥٤، ٢٦٠، ٣٠٧، ٣١٥، ٦٦٩
 اوليفر (ر) - ٨٢، ٥٦، ٨٦، ٦٩٨
 اورغان (م. د) - ٢٣٦
 اوزان (ب) - ٦٤٠
 الرقيق - ١١٨
 السعدي - ١٤٣
 الشماضي - ١٢٤، ١٣١
 السبيازي - ١٣٢
 الطبري - ١١٧
 التكمروتي - ١٢١
 التلمساني محمد - ١٣١
 التونسي - ١٣٣
 العفواني - ١٣١
 أم جملي - ١٠٨
 أسواني - ١٢٠
 الزرقاشي - ١٣١
 الزاي - ١٣١
 اليوري ندباي - ٣٦٨
 افلاطون - ٢٦٩
- ب**
 برودل (ف) - ٢٣
 بولس - ٢٨، ٢٧
 بلمر (هـ. ر) - ٣٢، ٥٢، ٥٥، ١٤٤
 برينشارد (ا) - ٣٢
 بشنيكو (بريرا) - ٢٣
 بكري (ديان) - ٢٧، ٣٥
 بوفو (مانسو) - ٣٦
 برك (جاك) - ٣٦، ٣٧١
 بطليموس (كلود) - ٤٢

برویل (ا. ب. هـ) - ۴۳۹، ۴۳۶، ۴۴۱، ۴۴۴، ۴۴۷، ۴۴۸، ۵۳۶، ۵۴۵، ۶۹۳، ۶۷۸، ۶۳۰، ۵۵۱، ۵۴۵	باسیط (ر) - ۱۳۳	بابیز (یدرو) - ۴۵
بروم (ر) - ۴۴۴، ۴۲۹، ۴۲۰	بومان (هـ) - ۲۴۹، ۱۶۰، ۵۳، ۲۵۵، ۲۵۳	بیگافیتا (ف) - ۹۳، ۴۶
بروس (ج) - ۱۳۳، ۴۸، ۴۷	بایل دی هرمش - ۵۳۶، ۳۶۸	بنزیت - ۱۱۶
بروکستاین (س) - ۲۱۸، ۲۱۷	۵۴۹، ۵۵۳، ۵۶۰، ۵۶۸، ۵۶۹، ۶۷۷	بلیوس - ۲۰۱، ۱۸۴
۲۱۹	۱۳۴، ۴۵ - (ف. ک)	بلیم - ۲۱۰
بروغان (م) - ۶۸۹	بیلان (ت) - ۱۶۸	بلیدن - (ا. و) - ۱۴۷، ۵۴
برانشنیک (هـ) - ۸۲	بیلو محمد - ۱۴۵، ۶۷	بوکار (ایلو) - ۲۰۲
برانتون (ج) - ۷۲۲، ۷۲۱	بیگابیرت (م) - ۵۶۵، ۵۵۳، ۵۳۶	بوک - ۲۷
بروسیو (ا. ف. هـ) - ۱۵۴	۵۶۹	بوزورک این شاریان - ۱۲۰
بزیان (ا) - ۲۹۷، ۲۵۱، ۲۵۰	برچی (ر) - ۲۳۰، ۲۲۸	با (ا. هـ) - ۱۷۷، ۱۵۶، ۳۴، ۱۹۱، ۱۹۳، ۲۵۸، ۶۸۵
۳۱۵	بزانسون (ج) - ۷۱۹	۶۸۹
بریانت (ت. ا) - ۱۳۷	بیبرسون (ب) - ۴۴۸، ۴۴۲	بابیت (ج) - ۵۳۶
بوشا - ۲۳۱، ۲۲۹	۵۷۵، ۵۷۷، ۵۹۶، ۶۰۰	بکاری - ۱۳۵
بوایل (ج) - ۲۸۰	بیید (ج) - ۱۳۷	بشمطی - ۲۱۸
بورک (ک) - ۶۲۰	بییشوپ (ر. و) - ۴۰۸، ۴۰۹	بادا (ج. ل) - ۵۲۶، ۵۱۲، ۲۳۰
بورطون (ز) - ۱۴۱، ۵۰، ۴۸	۶۲۸، ۶۲۲، ۵۵۸	بادجر (ج. ب) - ۱۳۹
۳۷۸، ۳۷۷، (و) - ۳۸۲، ۳۹۸، ۴۱۲، ۵۵۸	۵۶۵، ۵۳۶ - (ب)	بحری - ۱۳۴
۵۹۲، ۶۲۰، ۷۲۱	بلیک (و. هـ. ا) - ۲۴۸، ۲۴۶	بیلود (ا) - ۳۴
۷۲۹ - (ب)	۲۹۶، ۳۰۴، ۳۰۵، ۳۱۵، ۶۸۰	بیلندی (ج) - ۷۵۴
۶۳۶، ۶۳۰، ۳۵۰ - (ز)	۷۵۴، ۴۳ - (م)	بیلی (ا) - ۳۰۳
۶۹۸، ۷۰۳، ۷۰۴، ۷۰۶، ۷۱۰	بلاندل (هـ. و) - ۱۳۴	بولان (ر. ا) - ۳۷۸، ۶۲۰
۷۱۳	بلیدن (ا. و) - ۱۴۷، ۵۴	بوتون - ۳۵۲
بوزنیر (س) - ۷۳۵، ۷۲۸، ۱۱۰	بوسمان (و) - ۴۵	بال (ج) - ۳۷۸
۷۲۷	بوغ (ج. س) - ۳۵۱	بسلوط (ا) - ۵۹۲، ۵۷۹، ۳۸۷
بوزدونیوس - ۱۱۶	بواج (ن) - ۲۱۰	۵۹۶، ۶۰۳، ۶۶۵
بریدی (ا. ج) - ۶۳۸	بویوهاما - ۱۵۶	باندي - ۴۰۸
بروکوب - ۱۱۵، ۱۰۹	بوناک (ف) - ۷۴۷	باربر (ا. ج. و) (انظر
۲۳۰ - (ر)	بوفیل (ا. و) - ۵۵	الیبیلوگرافیا)
۱۲۱ - (ا)	بودیش (ت. ا) - ۴۷	باربی (س) - ۶۱۹
بیفا مانسو - ۱۵۰	بویین - ۴۰۹	بریبوط (ج) - ۴۵
۵۸۳ - بلاری	بوییر - ۲۹۴، ۲۹۹، ۴۰۳	بارندسون (ج. و) - ۶۲۸، ۶۲۴
۳۶۶ - (ب)	برین (س. ک) - ۵۰۹، ۴۲۹	بارنس (س) - ۲۱۷
۱۱۵ - (ج)	بریدویید (ج. ر) - ۷۰۸، ۷۹۷	بارو (ج) - ۷۰۳، ۶۹۷
	بریسند (ج. هـ) - ۷۳۵، ۲۸۴	بارث (هـ) - ۱۴۲، ۴۷

جرمان (ج) - ۱۱۶
جرني - ۴۲۰
جبيو (ر) - ۲۲۷
جبيغنيك (ر) - ۴۱۲، ۳۸۳
جبيغليو (ك) - ۱۵۲، ۱۳۵
جينييو (م) - ۴۴۷
جلبير (و) - ۳۴۵
جيرار (ب) - ۱۱۴
جيبلي (م) - ۲۷۰، ۲۵۸، ۱۰۰
جزو - ۲۵۹
جوبا - ۱۱۶، ۱۱۱
جاباور (ت) - ۱۳۷
جايغو (د) - ۱۳۸
جاكسون (ج) - ۱۳۹
جاكوار (ا) - ۲۷۷
جادان (ل) - ۱۵۲
جانمان (ج) - ۵۳۶
جيفري (م) - ۲۵۴
جوهنسون (د) - ۴۲۰، ۴۰۹
۵۰۶
جونسون (س) - ۱۴۷، ۸۱، ۵۴
۱۷۱
جونستون (س) - ۵۵، ۵۲
۲۰۷، ۲۹۷، ۲۵۷، ۲۴۸
جونس (و) - ۲۰۳
جوبير (ج) - ۶۰۸
جوليان (س) - ۷۶
جانكير (ه) - ۷۲۲
جوستان - ۱۱۱
جوستيان - ۱۱۰ - ۱۱۵

ح

حمادي ديجيفود - ۲۱۱
حفون - ۱۱۶، ۱۱۱، ۱۱۶

تايار دو شاردان (ب) - ۳۶۸،
۴۳۵، ۴۳۹، ۴۴۱، ۴۴۴
تيتري - ۴۳۸
تيجاني - ۲۰۸، ۱۲۴
تينوبوكار سالييف - ۲۰۷، ۱۷۷،
۲۱۲
تيت - ليف - ۱۱۱
تيكسيير (ج) - ۵۸۲، ۵۸۱، ۵۷۹
۶۰۱
تيوسوغا - ۱۳۷
تريغور هوپر (ه) - ۴۷
تريكار (ج) - ۳۸۷
تريچير (ب) - ۷۲۲، ۳۱۶
۷۴۲، ۷۳۴
توپيانا (م) - ۱۴۵
توكر (ا) - ۲۵۱، ۲۵۰، ۲۴۸
۲۲۲، ۳۱۶، ۲۹۷
تورنر (د) - ۱۳۷
تويسلمان (ف) - ۵۶۷
تتسكا - ۳۶۸
توت عنخ امون - ۲۲۱ - ۲۶۱

ث

ثيال (ج) - ۱۳۵، ۱۳۶
ثيلمانس (ج) - ۶۴۰

ج

جويس (م) - ۲۸
جلزر - ۱۱۵
جنتير (و) - ۲۲۹، ۲۳۰
جورج (ا) - ۲۲۴
جورج القبرصي - ۱۱۵

بارتسون (ج) - ۱۴۴
بيدوك (ا) - ۲۳۶
بيت (دكتور) - ۴۴۴
بيزر (ف) - ۱۳۵
بيهام (م) - ۵۲
برلمان (ا) - ۲۲۱
بريت (ر) - ۵۹۳
برون - ۱۳۹
بروتسون (ج) - ۴۴
برسون (ا) - ۸۵، ۸۲، ۷۶
بري (و) - ۷۲۵، ۲۲۳
۷۲۹، ۷۲۶
بياس (ج) - ۶۲۰
بيكار (ج) - ۶۳۸
بيدار - ۴۰۸
بلييم (د) - ۴۱۷
بيون (ج) - ۷۲۵
بلين القديم - ۴۲، ۴۳، ۱۰۹
۱۱۰، ۱۱۱، ۱۱۶
بلونارك - ۱۱۱
بولوتسكي (ه) - ۲۵۱
بوليبي - ۱۱۶، ۱۱۴، ۱۱۰، ۱۰۹
بوميرت (ا) - ۵۶۹، ۵۶۵، ۵۳۶
بون (ب) - ۶۰۰
بولاندزاس (ن) - ۷۵۷
بريس (ت) - ۷۶
بريس - مارس (دكتور) - ۸۲
بريشار (ج) - ۳۰۴، ۲۰۳
بتوليبي (كلود) - ۴۲، ۱۰۹
۱۱۶، ۱۱۱

ت

تايلور (ر) - ۲۸۲
تايلور (و) - ۲۵۴
تشرينوف - ۴۰۸

دویوتون - ۱۰۸، ۱۰۹، ۱۱۰
 دومولان دولیلانت - ۷۴۹
 دانهام (د) - ۷۴۱
 دویوی (ج) - ۴۷

ر

رادلیف براون - ۵۲، ۳۱
 رولی (ج) - ۲۷۱، ۲۷۳، ۲۷۴، ۲۷۵، ۲۷۷، ۲۶۹، ۲۶۶
 روشرخ (م) - ۱۴۱، ۷۶
 روبرت - ۹۸، ۷۷
 رینرووف - ۱۴۷، ۸۱، ۵۴
 رانجر - ۷۶
 رودان (ف) - ۹۲
 روجی (م) - ۱۱۴
 روش (ج) - ۱۱۹، ۴۳۳، ۵۵۹
 روسو (ا) - ۱۳۱
 رودان (هـ، ر) - ۸۳
 رولینوس - ۱۱۱
 ریام (م) - ۱۴۵
 ریدر (ا، ف، س) - ۱۵۰
 روسی - ۱۳۱
 رویتسون - ۱۳۵، ۴۲۰، ۴۲۹
 ۴۴۴
 رویتسون (م) - ۱۴۵
 رابی - ۱۲۲
 رائدلس (و، ج، ل) - ۱۰۳، ۶۹۸، ۷۰۰
 رینان - ۳۰۳
 ریفتیر (ج، پ) - ۲۷۹
 رالف (ک) - ۲۲۸
 رماندو - ۵۷۵، ۴۴۲
 رامیت (ز، و) - ۲۲۱
 راتری (ر، س) (انظر)
 البیولیوگرافیا

دانییل - ۶۳۶
 دانیلز (ش) - ۶۳۹
 داوود - ۱۳۱
 دارجینی - ۱۲۴
 دارلجنتن - ۶۹۸
 داریت (ر) - ۵۰، ۴۲۰، ۴۳۸، ۴۴۱
 دافید (ن) - ۵۳۶
 داقیس - ۶۱۸، ۶۲۰، ۶۲۴، ۶۲۵، ۶۲۶، ۶۲۸، ۶۳۰، ۶۳۲، ۶۳۴
 ۶۹۸، ۶۳۸
 داییل - ۱۴۹

دو یونو (ف) (انظر)
 البیولیوگرافیا
 دوغان (ن) - ۶۲۸
 دولانی - ۱۴۷
 دولبروت - ۹۸
 دولا کیرا (ر) - ۶۰۷، ۶۳۰
 دلیپریناس - ۵۵۸، ۵۶۴
 دموجو - ۶۷۰
 دنی (ج) - ۱۳۰
 دسکامپ - ۶۱۹، ۶۲۸، ۶۴۰
 دوشان (هـ) - ۸۵، ۸۲
 دوکیس (ج) - ۹۸
 دیالو (ت) - ۱۴۴
 دیشتران (ج) - ۳۴، ۲۵۸، ۲۶۹، ۳۶۳
 دیک (ا، ک) - ۵۶، ۸۱
 دیودور - ۱۱۰، ۱۱۱، ۱۱۶
 دیوب - ۲۴۹، ۲۶۰، ۳۰۷، ۶۳۸
 دیکسون - ۲۷۲
 دواز (ر، ل) - ۵۳۶
 دوریس (ج) - ۱۱۰
 دوریز (ا) - ۲۹۲
 دریمائیس - ۳۹۴
 درکسل (ا) - ۲۰۷، ۲۴۹

خ

خیر الدین باربروسا - ۱۳۱
 خلانیک (ج) - ۱۴۰
 خلیفه بن خیاط - ۱۱۷
 خلیل (ف) (انظر البیولیوگرافیا)
 خنیووف (م) - ۱۳۹

د

دامونزو - ۲۷، ۶۵
 داروین - ۲۷۱، ۲۸۴، ۴۵۱، ۵۰۱
 دولا فوس - ۲۲، ۴۴، ۵۲، ۵۵، ۱۲۰، ۱۴۴، ۲۴۳، ۲۴۸، ۲۵۰، ۲۵۳، ۲۵۴، ۲۰۲
 ۳۱۱، ۳۰۷
 دو پروس - ۴۷
 دوسلان - ۴۳
 دایر - ۴۵، ۴۶
 دزلز - ۴۶، ۴۷، ۱۴۲
 دان فودیو - ۲۷، ۱۴۵، ۲۰۷
 دانفوسینی - ۱۸۴، ۱۸۸، ۲۰۸
 دوپرا (ب، پ) - ۸۳
 داجی (ج) - ۲۰۸
 دان (ا) - ۱۰۳
 دلیبی (د) - ۱۴۹، ۲۵۲، ۳۱۲، ۳۲۲، ۳۲۴، ۳۲۵
 دلونی (م) - ۶۰۰
 دلتون (ج) - ۸۰
 دمیر - ۲۵۸
 داندولو (ف) - ۶۱۸
 دکودنو - ۲۵۹
 دنکان - ۱۳۷
 دینا - ۱۳۹
 دنک - ۲۸۹

سیدون (د) - ۷۰۶، ۶۹۸، ۶۳۴
سپیل (ک) - ۷۱۸
سپیل (ج) - ۴۹
سینوبوس - ۲۶۷
سیلاسی (نابری) - ۱۳۴
ستوتی (م) - ۲۲۸
سویس (ه) - ۲۲۸
سلیفمان - ۲۸۲، ۲۵۳، ۵۲، ۵۱
سرفانت (م) - ۳۹۹، ۳۹۸، ۳۹۴
ستوتی (م) - ۶۲۰، ۴۱۲، ۴۰۳
سیت (ک) - ۷۲۸
سایدو (انظر البیبلوگرافیا)
سیدی علی - ۱۳۹
سلفا کوراین - ۴۶
سلفاریف - ۱۵۰
سیمونس - ۴۱۷
سامیسون - ۷۳۷، ۶۱۹
سنجر (انظر البیبلوگرافیا)
سمغ (ج) - ۳۹۹
سیری عباس سوح - ۱۴۴
سرحان ابن سرحان - ۱۳۹
سلان (م) - ۱۲۲، ۴۳
سمیر نولفا - ۱۳۹
سمیت - ۷۳۴، ۶۴۹، ۶۳۲
سوغا - ۱۳۸
سومیر (ف) - ۳۵۲
سویز - ۶۲۵، ۶۱۸، ۶۲۶
سبارکس (پ) - ۶۱۹
سبارمان (ا) - ۱۳۶
سپانوس - ۲۸۲
ستینر - ۵۵۳، ۵۳۶
ستاتلی - ۱۴۱
ستاتینک (ج) - ۳۶۹
ستیفان (ج) - ۴۹
ستوارت (م) - ۲۲۴
سئو - ۲۸۲

س

۶۲۱، ۶۲۰، ۵۵۹
زهارلز - ۳۱۶
سندجاتا فاسا - ۲۷، ۲۵، ۲۲
ساران - ۶۸۵، ۱۷۴، ۱۵۸، ۶۵، ۶۴، ۲۳
سلامکا - ۲۷
ساران - ۲۸
ستراپون - ۱۱۱، ۱۱۰، ۴۲
۷۳۵، ۷۱۲، ۱۱۶
ستیفاند (س) - ۵۵
سابازی - ۲۵۷
ساموری - ۱۴۹
سبیون - ۱۱۴
سبیون امیلیان - ۱۱۴
سینوی - ۷۳۷
سونی علی - ۶۴، ۶۳
سونی الکیر - ۶۳
سعید (ر) - ۴۱۲، ۳۸۳، ۳۷۸، ۷۲۱
سانت اوغسطین - ۷۵۲، ۱۱۵
سانت فولجونس - ۱۱۵
سیرفانتیمس - ۱۳۲
سلیل ابن رازیا - ۱۳۹
سامیسون (انظر البیبلوگرافیا)
سانس (ا) - ۱۴۶
سوریت کثال (ج) - ۷۵۴، ۷۵۳
۷۵۵
ساندفور (انظر البیبلوگرافیا)
سند ستروم (ل) - ۵۳
سریاح - ۵۴
سافاج (ج) - ۲۳۶
ساکسون (ا) - ۶۰۹
سیوک (ت) - ۳۱۲، ۳۱۱، ۳۰۲

وید - ۷۰۸

دیس (ا) (ر) (انظر البیبلوگرافیا)
ریژنرال (ل) (انظر البیبلوگرافیا)
رایج - ۱۴۹
ریفاس (م) - ۶۰۳، ۵۹۹
ریشارد - ۶۲۶، ۵۹۲
ریشارد دسئون (ج) - ۳۹۴، ۳۹۸
ریت لو - ۴۳۸، ۴۴۲
رودی (ج) (انظر البیبلوگرافیا)
رویر - ۷۱۲
رونیون (ب) (انظر البیبلوگرافیا)
روزنفلد (ا) - ۳۴۷، ۶۳۱
روزنبرگ - ۴۰۸
روستینول - ۴۰۸
روبی (س) - ۵۹۰
روبان (ا) - ۶۳۹
رادما - ۱۴۶
رما میرکا - ۱۴۶
راومیان - ۱۴۶
روبینی (د) - ۱۳۲
رودنبرگ (ه) - ۵۵۸، ۳۹۹

ز

زریا - ۶۵
زمان (د) (انظر البیبلوگرافیا)
زین العابدین شرفانی - ۱۳۹
زاکي (ا) - ۲۲۱
زوبینسکی (س) - ۵۳۶
زیسل (ه) - ۷۳۹
زونی (ف) - ۳۷۶، ۵۵۸
زیجرت (ه) - (انظر البیبلوگرافیا)
زاندن باکر - ۴۰۳، ۳۹۹، ۳۹۴

عربوس (ت) - ١٣٦
عياش (ج) (انظر البيليوغرافيا)
عياش - ١٢٤.

غ

غوتري (م) - ٢٥٧، ٢٥٥، ٢٩٩ - ٢٩٦
٢١٤، ٢١٢، ٢٩٩، ٢٩٧
غرينبرغ (ج.هـ) - ٥٢، ٥١، ٢٩ - ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٩٥، ٣٠٤، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٤٩٩، ٦٢٤.
غريفرسن (ل) - ٢٩٦
غريفورك - ١٣٥
غريول (م) - ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٩، ٣٦٢، ٣٦٣.
غريفيت (ق.ف) - ٧٣٧
غروهمان - ١١٧
غروف (ت.١) - ٢٧٨، ٢٢٠
غروي (م) - ٦٠٣
غزيلي (س) - ١١٥
غوييهارد (ب) - ٦٣٠
غيست (ر) - ١١٨
غيان (م) - ٤٧
غاليون (م) - ١٢١
دوغيل - ١٥٤
غاولو حمادو - ٢٠٦، ٢٠٥
غاول مولوم - ٢٠٦، ٢٠٥
غاولو وهاب - ٢٠٥
غيزو - ٢٥٩
غلبي - ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٧٠
غريغوار الكبير - ١١٥
غابل - ٦١٧، ٧٤٥

ص

صاسير (هـ) - ١٥٤
صغدي - ١٢٤
صالح - ٢٢٤
صائب (انظر البيليوغرافيا)
صانندل (ز.ب) - ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩
صاندر (انظر البيليوغرافيا)

ط

طاسيت - ١١١
طبيب محمد - ٤٠٩، ٤٢١
طيت (د) - ٣٧١
طالبي محمد - ١١٨
طال (ل) - ٢٤٨
ططام - ٦١٩
طوكسجر - ١١٦، ٥٥
طوماسي (ب) (انظر البيليوغرافيا)
طوميسون (ل) - ٣٣
طوبيساس - ٤٢٠، ٤٢٩، ٤٤٤، ٦٩٢
طوزيائي (س) - ٩٢
طوري - ١١٨
طراون - ٢٥٧

ع

عبدالله سعادو محمد - ٢٠٧
علي عيسى - ١٨٣
عسكية محمد (انظر الحاج عسكية محمد)
عمر - ١١٨
عرب فقيه - ١٣٤

ستريل (م) - ٥٥٩
ستروس (ف.هـ) - ٢١٨
سترومال - ٢٧٩
سترولمان (ف) - ٢٨٢، ٢٨٣

ش

شليكر (ل) - ٣٠
شليشر (ل) - ٣٠
شماكا - ٦٤، ٦٥
شيباني عبد السلام - ١٣٩
شمزاش (ج) - ١٣٧
شليبي - ١٣٥، ١٣٩
شويوس - ٢٢٢
شفرين - ٢٣٦
شيخ صلاح - ٢٠٧
شيكو امانو - ٢٠٨
شايو - ١٢٤
شامار (ب.هـ) - ٥٩٦
شامبرس (د) - ١٥٠
شاملا (م.س) - ٦٢٤، ٦٠٤
شامو - ٢١٧
شافيون (ج) - ٣٨٢، ٤٢١، ٤٣٢، ٤٤٣، ٤٨٣، ٥٧٥، ٥٩٥، ٥٩٦
٥٩٩، ٦٠٠
شلو (ل) - ٧١٧
شسنو (ج) - ٧٥٦
شوفاني (ل) - ٧١٢، ٧٠٠
شيلد (ج) - ٦٩٧، ٧٢١
شلون (ل) - ٣٠٣
شميدز (ل) - ٥٥٩
شنيل (ر) - ٧٠٣، ٧١٠، ٧١٢
شولار (ل) - ٢٣٥
شورز (هـ) - ٢٨٢
شويدزكي - ٢٧٢

- غادن - (هـ) - ۱۴۴
 غالتون (ف) - ۱۳۶
 غالشوف - ۷۵۴
 غاردينر (هـ. ا) - ۱۰۸، ۷۲۷، ۷۲۹
 غاردينر - (ا. ا) - ۵۹۲، ۶۳۴، ۷۲۵
 غاردينر (ج. ف) - ۳۹۷
 غارلاك (ب) (انظر البيليوغرافيا)
 غارستان - ۳۷۸
 غاس (ف) - ۳۹۸، ۳۹۹، ۴۰۳، ۴۰۴
 غوتيرز (هـ) (انظر البيليوغرافيا)
 غاتو - ۱۱۸
 غوسن (ج. م) - ۶۰۵
 غوتي - ۵۹۲، ۵۹۹، ۶۰۳
 غليزو - ۱۱۵
 غينتز (و) - ۲۲۹، ۲۳۰
 غوبلو (انظر البيليوغرافيا)
 غولدي - ۵۲
 غودوين (انظر البيليوغرافيا)
 غودي (ج) - ۱۶۳، ۱۶۴
 غرامشي (ا) - ۷۵۷
 غري - ۱۵۰، ۵۵
 غرازيني - ۴۰۸
 غيلن (ن) - ۸۲
 غيو (ر) - ۶۲۸
- ف
- فورينبوس - ۲۲، ۵۳، ۵۴، ۱۱۹، ۲۵۵، ۲۸۲، ۵۹۳، ۶۶۷، ۶۷۶، ۶۹۱، ۶۸۰، ۶۷۷
 فوزيلدس - ۱۳۵
 فلاكوس - ۱۱۶
 فضل حسن يوسف - ۱۳۳
- فيغري (ك) - ۲۳۴
 فغان (ب. م) - ۵۶۷، ۵۶۸، ۶۴۰
 فاج (ج. د) - ۸۱، ۸۶، ۳۷۱، ۶۹۸
 فاغ (ا) - ۶۳۱، ۶۳۹
 فاغ (ب. ا. ب) - ۶۲۰، ۶۳۱، ۶۳۸
 فاغ (و) - ۶۳۹
 فاج (ن) - ۲۱۸، ۲۲۲
 فرين (ب) - ۵۳۶، ۵۶۵
 فراند - ۴۰۸
 فولكنر (ا) - ۷۳۷
 فور (هـ) - ۳۹۴، ۵۹۶، ۶۲۱، ۶۲۶
 فرومياش (د) (انظر البيليوغرافيا)
 فرغوسن (ج) - ۶۲۸
 فليدس (ب) - ۲۲۱
 فيلزي (ت) - ۱۰۸
 فينغام - (ر) (انظر البيليوغرافيا)
 فينزي - ۵۲۸
 فيشر (ر) - ۵۵
 فللمان - ۵۹۳، ۶۱۰
 فليمنغ (هـ. س) - ۳۰۹، ۶۳۹
 فلايت (س) - ۶۱۷، ۶۳۲
 فسلانت (ز. ف. ا) - ۳۷۶، ۳۷۹
 ۳۹۴، ۵۵۸، ۶۲۰
 فلوتر (ز. ف) (انظر البيليوغرافيا)
 فودو (ا) - ۳۰۹
 فوريستر (ر) - ۲۸۷
 فوريس (ج. د) (انظر البيليوغرافيا)
 فوردي (ج) - ۲۲
 فوردي (د) - ۱۴۶
 فورتنس (م) (انظر البيليوغرافيا)
- فورور (ف) - ۵۹۳
 فوا (ا) - ۳۱۹
 فريمان (ت. ب) - ۱۴۷
 فريمان - غرينفيل - ۱۴۵، ۴۴
 فريسك (هـ) - ۱۱۱
 فروجر (ج) (انظر البيليوغرافيا)
 فرود (ج. ا) - ۴۸، ۴۹
 فوهلروت - ۴۴۸
 فوكيو - ۱۵۶
 فولار (ف) - ۵۵
 فوريون (ز) - ۷۴۹
 فوين (ن. ف) - ۱۲۷
 فيليب (ج) - ۱۳۶
 فيليبسون (ز. و) - ۵۹۹
 فيلو كوروس - ۱۱۰
- ق
- قمبيز - ۹۴
 قيصر - ۱۱۱، ۱۱۴
 قنق موسى - ۶۰، ۷۵۴
 قابو (ف) - ۵۳۶، ۵۴۱
 قادمستو - ۴۵
 قاد - ۲۲۹
 قاق (ب) - ۱۴۶
 قازيل (ب) (انظر البيليوغرافيا)
 قاييل - ۷۲۹
 قابسي - ۱۱۷
- ك
- كاتون - ۷۵۴
 كنوايو - ۱۲۷
 كوغيانو اوپوباج - ۱۴۶
 كاتي - ۱۴۳
 كوكوبرما - ۲۵۷

كول - ۲۰۸
 كوئنا - ۲۰۷
 كلارك - ۴۶
 كلارك - ۵۶۲، ۵۶۰، ۵۳۶، ۱۴۵
 كلارك - ۵۶۹، ۵۶۷، ۵۶۵، ۵۶۴، ۵۶۳، ۵۷۰
 كلارك (ج) - ۳۰۳
 كلارك (ز) - ۴۹۹
 كلارك - ۴۲۹
 كلارك - ۴۲۹
 كلارك (د. ت. د) - ۵۳۴
 كلارك - ۵۵۹
 كلارك (د. و) - ۷۷
 كلارك (م) - ۲۵۹، ۲۵۰، ۲۴۸
 كلارك - ۲۹۵
 كلارك (د. ت) - ۳۰۲
 كلارك (س) (انظر البيليوغرافيا)
 كلارك - ۷۶
 كلارك (ج) - ۵۶۳، ۵۵۳، ۵۶۳، ۵۷۰
 كلارك (ج) - ۶۳۲
 كلارك (د. و) - ۴۳۰، ۲۲۴، ۲۲۵، ۲۲۶، ۲۲۸، ۲۰۴، ۷۰۲، ۷۰۳، ۷۰۶، ۷۰۷، ۷۰۸، ۷۰۹، ۷۱۰، ۷۱۱، ۷۱۲، ۷۱۳، ۷۱۴، ۷۱۵، ۷۱۶، ۷۱۷، ۷۱۸، ۷۱۹، ۷۲۰، ۷۲۱، ۷۲۲، ۷۲۳، ۷۲۴، ۷۲۵، ۷۲۶، ۷۲۷، ۷۲۸، ۷۲۹، ۷۳۰، ۷۳۱، ۷۳۲، ۷۳۳، ۷۳۴، ۷۳۵، ۷۳۶، ۷۳۷، ۷۳۸، ۷۳۹، ۷۴۰، ۷۴۱، ۷۴۲، ۷۴۳، ۷۴۴، ۷۴۵، ۷۴۶، ۷۴۷، ۷۴۸، ۷۴۹، ۷۵۰، ۷۵۱، ۷۵۲، ۷۵۳، ۷۵۴، ۷۵۵، ۷۵۶، ۷۵۷، ۷۵۸، ۷۵۹، ۷۶۰، ۷۶۱، ۷۶۲، ۷۶۳، ۷۶۴، ۷۶۵، ۷۶۶، ۷۶۷، ۷۶۸، ۷۶۹، ۷۷۰، ۷۷۱، ۷۷۲، ۷۷۳، ۷۷۴، ۷۷۵، ۷۷۶، ۷۷۷، ۷۷۸، ۷۷۹، ۷۸۰، ۷۸۱، ۷۸۲، ۷۸۳، ۷۸۴، ۷۸۵، ۷۸۶، ۷۸۷، ۷۸۸، ۷۸۹، ۷۹۰، ۷۹۱، ۷۹۲، ۷۹۳، ۷۹۴، ۷۹۵، ۷۹۶، ۷۹۷، ۷۹۸، ۷۹۹، ۸۰۰، ۸۰۱، ۸۰۲، ۸۰۳، ۸۰۴، ۸۰۵، ۸۰۶، ۸۰۷، ۸۰۸، ۸۰۹، ۸۱۰، ۸۱۱، ۸۱۲، ۸۱۳، ۸۱۴، ۸۱۵، ۸۱۶، ۸۱۷، ۸۱۸، ۸۱۹، ۸۲۰، ۸۲۱، ۸۲۲، ۸۲۳، ۸۲۴، ۸۲۵، ۸۲۶، ۸۲۷، ۸۲۸، ۸۲۹، ۸۳۰، ۸۳۱، ۸۳۲، ۸۳۳، ۸۳۴، ۸۳۵، ۸۳۶، ۸۳۷، ۸۳۸، ۸۳۹، ۸۴۰، ۸۴۱، ۸۴۲، ۸۴۳، ۸۴۴، ۸۴۵، ۸۴۶، ۸۴۷، ۸۴۸، ۸۴۹، ۸۵۰، ۸۵۱، ۸۵۲، ۸۵۳، ۸۵۴، ۸۵۵، ۸۵۶، ۸۵۷، ۸۵۸، ۸۵۹، ۸۶۰، ۸۶۱، ۸۶۲، ۸۶۳، ۸۶۴، ۸۶۵، ۸۶۶، ۸۶۷، ۸۶۸، ۸۶۹، ۸۷۰، ۸۷۱، ۸۷۲، ۸۷۳، ۸۷۴، ۸۷۵، ۸۷۶، ۸۷۷، ۸۷۸، ۸۷۹، ۸۸۰، ۸۸۱، ۸۸۲، ۸۸۳، ۸۸۴، ۸۸۵، ۸۸۶، ۸۸۷، ۸۸۸، ۸۸۹، ۸۹۰، ۸۹۱، ۸۹۲، ۸۹۳، ۸۹۴، ۸۹۵، ۸۹۶، ۸۹۷، ۸۹۸، ۸۹۹، ۹۰۰، ۹۰۱، ۹۰۲، ۹۰۳، ۹۰۴، ۹۰۵، ۹۰۶، ۹۰۷، ۹۰۸، ۹۰۹، ۹۱۰، ۹۱۱، ۹۱۲، ۹۱۳، ۹۱۴، ۹۱۵، ۹۱۶، ۹۱۷، ۹۱۸، ۹۱۹، ۹۲۰، ۹۲۱، ۹۲۲، ۹۲۳، ۹۲۴، ۹۲۵، ۹۲۶، ۹۲۷، ۹۲۸، ۹۲۹، ۹۳۰، ۹۳۱، ۹۳۲، ۹۳۳، ۹۳۴، ۹۳۵، ۹۳۶، ۹۳۷، ۹۳۸، ۹۳۹، ۹۴۰، ۹۴۱، ۹۴۲، ۹۴۳، ۹۴۴، ۹۴۵، ۹۴۶، ۹۴۷، ۹۴۸، ۹۴۹، ۹۵۰، ۹۵۱، ۹۵۲، ۹۵۳، ۹۵۴، ۹۵۵، ۹۵۶، ۹۵۷، ۹۵۸، ۹۵۹، ۹۶۰، ۹۶۱، ۹۶۲، ۹۶۳، ۹۶۴، ۹۶۵، ۹۶۶، ۹۶۷، ۹۶۸، ۹۶۹، ۹۷۰، ۹۷۱، ۹۷۲، ۹۷۳، ۹۷۴، ۹۷۵، ۹۷۶، ۹۷۷، ۹۷۸، ۹۷۹، ۹۸۰، ۹۸۱، ۹۸۲، ۹۸۳، ۹۸۴، ۹۸۵، ۹۸۶، ۹۸۷، ۹۸۸، ۹۸۹، ۹۹۰، ۹۹۱، ۹۹۲، ۹۹۳، ۹۹۴، ۹۹۵، ۹۹۶، ۹۹۷، ۹۹۸، ۹۹۹، ۱۰۰۰، ۱۰۰۱، ۱۰۰۲، ۱۰۰۳، ۱۰۰۴، ۱۰۰۵، ۱۰۰۶، ۱۰۰۷، ۱۰۰۸، ۱۰۰۹، ۱۰۱۰، ۱۰۱۱، ۱۰۱۲، ۱۰۱۳، ۱۰۱۴، ۱۰۱۵، ۱۰۱۶، ۱۰۱۷، ۱۰۱۸، ۱۰۱۹، ۱۰۲۰، ۱۰۲۱، ۱۰۲۲، ۱۰۲۳، ۱۰۲۴، ۱۰۲۵، ۱۰۲۶، ۱۰۲۷، ۱۰۲۸، ۱۰۲۹، ۱۰۳۰، ۱۰۳۱، ۱۰۳۲، ۱۰۳۳، ۱۰۳۴، ۱۰۳۵، ۱۰۳۶، ۱۰۳۷، ۱۰۳۸، ۱۰۳۹، ۱۰۴۰، ۱۰۴۱، ۱۰۴۲، ۱۰۴۳، ۱۰۴۴، ۱۰۴۵، ۱۰۴۶، ۱۰۴۷، ۱۰۴۸، ۱۰۴۹، ۱۰۵۰، ۱۰۵۱، ۱۰۵۲، ۱۰۵۳، ۱۰۵۴، ۱۰۵۵، ۱۰۵۶، ۱۰۵۷، ۱۰۵۸، ۱۰۵۹، ۱۰۶۰، ۱۰۶۱، ۱۰۶۲، ۱۰۶۳، ۱۰۶۴، ۱۰۶۵، ۱۰۶۶، ۱۰۶۷، ۱۰۶۸، ۱۰۶۹، ۱۰۷۰، ۱۰۷۱، ۱۰۷۲، ۱۰۷۳، ۱۰۷۴، ۱۰۷۵، ۱۰۷۶، ۱۰۷۷، ۱۰۷۸، ۱۰۷۹، ۱۰۸۰، ۱۰۸۱، ۱۰۸۲، ۱۰۸۳، ۱۰۸۴، ۱۰۸۵، ۱۰۸۶، ۱۰۸۷، ۱۰۸۸، ۱۰۸۹، ۱۰۹۰، ۱۰۹۱، ۱۰۹۲، ۱۰۹۳، ۱۰۹۴، ۱۰۹۵، ۱۰۹۶، ۱۰۹۷، ۱۰۹۸، ۱۰۹۹، ۱۱۰۰، ۱۱۰۱، ۱۱۰۲، ۱۱۰۳، ۱۱۰۴، ۱۱۰۵، ۱۱۰۶، ۱۱۰۷، ۱۱۰۸، ۱۱۰۹، ۱۱۱۰، ۱۱۱۱، ۱۱۱۲، ۱۱۱۳، ۱۱۱۴، ۱۱۱۵، ۱۱۱۶، ۱۱۱۷، ۱۱۱۸، ۱۱۱۹، ۱۱۲۰، ۱۱۲۱، ۱۱۲۲، ۱۱۲۳، ۱۱۲۴، ۱۱۲۵، ۱۱۲

١١٦ - مترويس	لوتورنو (ز) - ١٣٠	١٣٨، ١١٦، ٤٣
مازيبيا كايوكي - ٦٠	لوفايان (ج) - ١٣٦	ليفى سترويس (ك) - ٧٩، ٣٢
منيليك - ١٣٤	ليفى بروفانسال (ا) - ١٣١، ١١٨	لوبين (د) - ٩٣، ٤٦
منيس - ٦٥٩	لويكي (ت) - ١١٩، ١٢٠، ١٢٢	لات - ديور - ١٤٩
محمد علي - ١٣٢	١٣٢	لتيف - ٢٠٨، ١٨٤
موريس - ١٤٨	لوين (س. ز) - ٢٣٨، ٢٢٩	لينا دنجل - ١٣٤
موشيش - ١٣٧، ١٣٦	لويس (ز) - ٣١٩	لوفيوولا - ١٣٧
مراد الثالث - ٢٤	لوط (هـ) - ١٣٨، ٦٠٠، ٦٣٩	لويديجي - ٦٤
مويندو - ١٥٨	٦٩٢، ٦٩٠، ٦٨٥، ٦٦٩	ليوري (هـ) - ٥٥
مزيليكزي - ١٣٧	ليبرا - ١٠٨	لاكروا (ف) - ٥٣٦، ٢٥٨
ما (ز) - ٣١١، ٢٥١	ليشتستايين (هـ) - ٣٠٤، ١٣٦	لاجو (ج. د) - ٦٧٢، ٦٦٧، ٦٧٥
ماكولي (لورد. ب) - ٧٣	لننجن (ر. ا) - ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥	٦٨٩، ٦٧٨
ماكورتني (ك. م. د.) - ٥٩٦، ٥٨١	لينى (ك) - ٢٧٦، ٢٧٧، ٤٤٤	لال (ب. ب) (انظر البيليوغرافيا)
٦٣٠	٤٥٦	لامبيرت (ن) - ٦٣٨
ماك كالي (و) - ١٦٥	ليبولت (هـ. ج) - ٢٣٠، ٢٢٩	لاندمان - ٢٧٣
ماك غريفور - ١٤٩	ليفنغستون - ١٣٦، ٢٧٥، ٣٩٤	لاو (ز. ك) - ٣٧٦، ٥٥، ٦٢٨
ماكي - ٧٢٦	٤٠٣، ٣٩٨	لاوسون (ك. ا) - ٣٧٨
مكزي (ج) - ٣٦	لومبارديني - ٣٧٨	ليكي - ٣٧٦، ٤٠٩، ٤٢١، ٤٤٤
ماك ميلان (م. و) - ٤٩	لوكلش (ا) - ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٧	٤٩٩
مكي (م. ا) - ١٢١	٧٢٣، ٧٢٤، ٧٣٩، ٧٤١	ليكي - (ل. س. ب) - ٤١٧، ٥٠
مالي (ج) - ٣٩٣، ٣٩٧	لودولف (هسيوب) - ٤٥، ١٣٤	٤٢١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٧، ٤٥٦
ميرويتز - ٥٤	٣٠٢	٤٥٨، ٤٧٣، ٤٩٥، ٤٩٧، ٥٣٥
مالينوفسكي (ب) - ٣١، ٥٢، ٧٨	لوفار (لورد) - ٥٢	٥٤٠، ٥٥٨، ٦١٩
مالرو (ا) - ٣٦٩، ٦٩٠	لوسكان - ٢٨٣	ليكي (م. و) - ٤٢١، ٤٤١، ٤٨٣
منيسيني (ج) - ٢٩٦	ليل (ك) - ٤٤٥	٦١٧
منوتي - ١١٨	لينش (هـ. ز) - ١٤٧	ليكي (ز. ا. ف) - ٤٢١، ٦١٧
مانسو (ب) - (انظر البيليوغرافيا)		لويوف (ج. ب) - ١٤٥
منصور شقيق - ١٣٢	مايا - ١٤٩	لوكلان (ج) - ٦٨٥
منطران (ز) - ١٣٠	ماغون - ١١١	لوي (ز. ب) - ٧٠٠
ماكيت (ج) - ٣٧٠، ٥٥٤	محمدولم - ١٤٩	لوفيفر (ج) - ٧٣٧
ماري (ب) - ٥٦٤، ٥٦٩، ٥٧٠	ماي ادريس علاوة - ٢٤، ١٤٤	لوهريسي - ٢٥٩
مارغا (ج) - ٣٨٢	مكورو - ١٨٨	ليسيوس (ك. ز) - ٢٤٨، ٣٠٤
مارران دوتير - ١١٦	مانسا اوبلي - ٢٣	٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٥
مارلياك (ا) - ٥٣٦	منيطون - ٤٢	لورا - غورهان (ا) - ٣٦٧
مارو (انظر البيليوغرافيا)	منيفان - ١٨٨	لورا (ب) - ٥٣٦
		لسلو (و) - ٢٨٩، ٢٥٠

مارتان (ب. ج) - ٣٦٥، ٢٤	مونيوٲ (هـ) - ١٦١	الببيليوغرافيا
مارتان دل مولينو - ٦٣٣، ٥٦٩	مونو (ت) - ٣٨٢، ٣٧٧، ١٣٨	موس (ل. ل. ب) - ٧٢٩
مارتي (ب) - ١٣٣	٣٩٤، ٥٩٢، ٦١٠، ٦٣٢، ٦٨٦	موفيويس (هـ) - ٤٤٢
ماركس (ك) - ٧٥٣، ٧٥٢، ١٠١	٦٩٣	موفوتا - ٢٥٨
٧٥٦	مونتاقو - ٢٧٥	مهلبلي - ١٢٠
ماس ليري - ١٢١	مونال (ك) - ٥٥	موكرافسكي (هـ) - ٣٠
ماتيس (ل) - ٦٣٠	مونال فنسان - ١٤٢، ١٣٣، ٤٢	مختار ولد حميدون - ١٣٢
ماتيفيف - ١٢٢، ١٢٠، ١١٩، ٨٢	مونليت - ٢٠٩	موار (د. ك) - ١٣٦
موني (ز) - ١٠٨، ١٠٥، ٨٢، ٥٦	مونترانس (هـ. م) - ٣٩١	مولار (ف) - ٢٥٤، ٢٥٣، ٢٠٤
١١٦، ١١٨، ١٢٠، ١٣٨، ٦٠٤	مونسون (ب) - ٦٢٨، ٦١٠	٢٠٦
٦١٩، ٦٢٤، ٦٣٠، ٦٣٢، ٦٣٣	٦٣٩، ٦٣٢	مؤنس (هـ) - ١٢١
٦٣٨، ٦٣٩، ٦٧٠	موريلوك (ج. ب) - ٣٩٩، ٧٧، ٥٣	
ميهان - ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩	٢٢٤	
مينهوف (ك) - ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٣	موزو (ل) - ٢١٨	
٢٥٤، ٢٨٣، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٥	مفنيك - ٨٢	
٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٢، ٣١٨، ٣١٦	مودي (د) - ١٣٥	
مكتاسي (ل) - ١٣٠	موريسيل (هـ) - ٥٣٦، ٥٥٣	
ميناندر - ١١٠	٥٦٤، ٥٦٦	
مريغال (هـ) - ٤٩، ٤٨	مورو - ٦٢١	
متكلف - ١٥٢	موريل (ج) - (انظر	
ميريس (ب) - ٢٢٠	الببيليوغرافيا)	
ميكايل (هـ) - (ن) - ٢٢٨	مورينو (م) - (انظر	
ميشل السوري - ١٢٤	الببيليوغرافيا)	
ميجود (ف. و) - ٢٦٩، ٢٤٩	موريت (ل) - ٧٢٨	
١١١ - ميني	موريفان - ٣٥١، ٤٤٦، ٧٤٥	
ميلانكوفيتش - ٥٥٩	موري (ف) - ٦٣٤، ٦٣٠، ٦٦٩	
ميلر (ج. ا) - ٤٠٨، ٤٠٩، ٥٦٥	موريانو (ل) - ٣٠٢	
ميلل (ل) - ١١٩، ١٢٢	موريتز (ب) (انظر الببيليوغرافيا)	
موير صونس (ج) - ٥٥٩، ٥٥٨	موروز (ن. ل) - ٤٠٠، ٣٩٤	
٥٧٠	موريسون (ر. ب) (انظر	
موفات (ز) - ١٣٦	الببيليوغرافيا)	
موفولو (ت) - ٣٦٩	موريلمانس (ج) - ٤٤٢، ٥٣٥	
مختار السوسي - ١٣١	٥٣٦، ٥٣٧، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٦٤	
موليما (س. م) - ١٢٨	٥٦٥، ٥٦٩	
مومسن - ١١٥	موسكاتي (س) (انظر	
مومولو مسكرا - ٢٦٩		

ن

نابوليون بونايرت - ٤١، ١٣٢	ناشينغال (ج) - ٤٨	نيون (ب. ا) - ٤٨، ٤٩، ٥٠
نسوريس (هـ. ت) - ٤٦، ١٣٢	٢٠٣، ٢٠٤	نيان (د. ت) - ٧٧، ٢٥٨
٢٠٣	نكرومة (ك) - ٨٦	نيوبوري (ك. و) - ١٥٢
	نيومان (ب) - ٢٥١، ٢١١	نكوكي - ١٣٧
	نابير - ٤٤٤	نابيتي (ج) (انظر الببيليوغرافيا)
	ني مازاتوشي - ٢٧٧	نوتان (ج) - ٥٥٣، ٥٦٠، ٥٦٣
	٥٦٧	٥٦٧
	نييلسن - ٧٣	نيلسون - ٣٧٦، ٣٧٩، ٥٥٨
	نكتيا (هـ. ج) (انظر	الببيليوغرافيا)
	نوريسقروم (هـ. ل) - ٧٢٠، ٧٢٣، ٧٢٢	
	٢٥٨ - نوريس (ل) - ٢٥٨	

هوداس - ١٣١، ١٤٥
 هويل - ٤٠٩
 هويلس (ز) - ٧٤٤
 هربك - ١٠٦، ١١٩
 هوشو (هـ) - ٤٤٣، ٥٧٥،
 ٥٨٣، ٥٩٥، ٥٩٧، ٥٩٩، ٦٠٠،
 ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٨، ٦٢٨، ٦٣٠،
 ٦٦٩، ٦٧٤، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٢،
 ٦٩٣، ٧٠٠، ٧٠٤
 منتفغورد (ج.و.ب) - ٤٥، ١٣٤،
 ٣١٥
 هورنر (ج) - ٤٢٠
 هكسلي (ا) - ٥٠١

و

ويلكس (ا) - ٤٤، ٦٨، ١٤٠، ١٤٤
 ويستمان (د) - ٥٣، ٢٤٣، ٢٤٩،
 ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٩٥،
 ٢٩٦، ٣٠٦، ٣١٢، ٣٢٤
 وارد (و.ا.ف) - ٥٦
 ولسون (ك) - ٨٢
 ولسون (م) - ٨٤
 وريغلي (ك) - ٨١، ١١٤
 ويست (ج) - ١١٩
 وينغ (ج.ث.ن) - ١٥٤
 واك ضيف الله - ١٢٣
 وي اغوزو (ب) - ٦٣٥
 ورغة - ١٤٠
 وارن (ا) - ٦٢٠
 ورط - ١٦٣، ١٦٤
 واطس (ا.و) - ١٢٦
 ويلند، ٢٤٢ - ٤٤٦، ٤٤٧، ٥٤٢،
 ٥٥٨، ٦١٩
 ويتلي (ب) - ١٠٨، ٢٥٨
 ويب (م.ك) - (انظر

هلبرن (ج.و) - ٢١٧
 مميت (ا) - ١٣٣
 مملتن - ٢٣٩
 مان (ج.م) - ٢٢٨
 موقو (ج) - ٤٩
 منسبري (ل) - ٨٣
 منسن (ك.ل) - ٢٨٣، ٤١٢
 هاردي (ا) - ٧٤٥
 هرغيفس (ج.د) - ٨١
 هيل (ب) - ٧٧
 هرلان (ر.ج) - ٦٢٤
 هرلي (ج.و) - ٣٦٤
 هريس - ١٤٦، ٢١٧، ٧٠٠، ٧٢٤
 هرقل (و.و) - ٦٣٨، ٦٣٣
 هرتمان (ف) - ٧١٩
 هو (ا) - ٢٦٩، ٢٣٠
 هودريكور - ٧١٣
 هيس (و.ك) - ٦١٨، ٧٢١
 هيث (ب.ل) - ١٤٥
 هيرت - ٣٦٦، ٦٣٠
 هدان - ٧١٣
 منتز (ب) - (انظر الليبليوغرافيا)
 هسنزلان - ٣٨٠، ٣٨٣، ٤١٢،
 ٥٥٣، ٥٦٧
 هرمان - ٤٠٨
 هرغيف (ج) - ٥٣٦
 هسستر (ج) - ٧٠٠
 منتز (ف) - ٢٤٩، ٣١٦، ٧٣٣
 هوقمان (ا) - (انظر
 الليبليوغرافيا)
 هوهنبرجر (ج) - ٣١٥
 هولاس (ب) - ٦٣٠
 هولم (ا) - ٦٦٩، ٦٨٠، ٦٨٢،
 ٦٩١
 هوبوچر (ل) - ٢٤٧، ٢٤٨، ٣٠٧
 هومير - ١٠٩

نوزك (ا) - ٢١٨
 نوتن (ف) - ٥٣٦، ٥٥٥، ٥٦٣،
 ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠
 نوتن (ا) - ٥٦٨
 نوريدان - ١٣١
 نارمر - ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٧٠
 ندامل غوزاس - ٢٥٧
 نفركاربي - ٩٦
 نجويا - ١٤٩
 نانفيربي - ١٨٨

هـ

هنيبال - ١١١
 هرخوف - ٩٦، ٢٨٩
 هطر - ٢٧٦
 هور - ٢٢١
 هورتون (ج.ا.ب) - ٤٨، ٥٤،
 ١٤٧
 هيچل - ٤٧، ٢٨٢
 هيرودوت - ٤٢، ١٠٩، ١١٠،
 ١١٦، ٦٣٨، ٧١٩، ٧٣٥
 هيرشو (ج) - ٢٧٦، ٢٧٨،
 ٢٧٩، ٢٨٩، ٥٦٧
 هويس (م) - ٢٩، ٣٦٢، ٣٦٤
 هوارب (ب) - ٢٥، ٦٣٩، ٦٨٥،
 ٧٤٢
 هنوك (ج.ا) - ٢٣، ١٤٤
 هولم (ك) - ١١٥
 هيرلند (ا) - ٦٦٧، ٦٩١
 هير (ب.ا.هـ) - ١٥٤
 هلكان (ل.ا) - (انظر
 الليبليوغرافيا)
 هال (ا.ت) - ٢١٣، ٢١٤، ٢١٨،
 ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٣
 هلمانس (ج) - ٦٣٨

ي
يقويا باوتشي - ٦٧
ياقوت - ١٢٤، ٤٢
يمازكي (ف) - ٢٨٠
ينويولوس (ت) - ٣٦٥
يلبودو (ج. ت) - انظر
الببيلوغرافيا)
يورك (ن. ن) (انظر الببيلوغرافيا)
يونغ (ج) - ٢٤٥
بيويت (ج) - ٧٣٥، ٦٨٥، ١٠٩

ويليت (ف) - ٦٢٩، ٦٢٢، ٢١٨
ويليامس (م. ا. ج) - ٣٩٤، ٣٧٨
٣٩٩
ويليامسون - ٣٢٤
ويليس - ١٤٥
ولسون (و) - ٢٥٢
وينكلر (هـ. ا) - (انظر
الببيلوغرافيا)
ولبرغ (د. ل) - ٤٣٩
ولان - ٢٨٩، ٤٠٠
ويمر (ج) (انظر الببيلوغرافيا)

الببيلوغرافيا)
وليمرس (و. ا) - ٣١١
ونسورف (ف) - ٤١٢، ٣٨٣
٧٣١، ٧٣٠، ٧٢٢، ٦٢٤
ورنر (ا) - ٣٠٦، ٢٤٨، ٢١٩
وست (ج) - ٦١٩
وستفال - ٣١٦، ٢٩٥، ٢٩١
ويت - ٦٣٤
وينكلر (ا. ج) - ٣٩٩، ٣٩٤
روسنسكي - ٢٧٣
ويلكوسكي (ا. ن) - ٣٧٨، ٦٩١، ٦٩٣

أسماء الأماكن

شمال شرق أفريقيا - ٤٩٥، ٧٢١
شمال غرب أفريقيا - ٦٢٢
افريقيا الغربية - ٤٢، ٨١، ١٠٩
١١٥، ١٢٢، ١٤٧، ١٥٢، ١٦٧
٢٢٦، ٢٢٧، ٢٨٧، ٣٠٣، ٣٠٧
٣٢٢، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٦
٣٤٠، ٣٤٦، ٣٥٠، ٣٥٤، ٣٥٧
٤٥٥، ٤٩٨، ٥٢٥، ٦١٥، ٦١٩
٦٢١، ٦٢٥، ٦٣٠، ٦٣٣، ٦٣٨
٦٤٠، ٧٠٨
افريقيا الشرقية - ٢٩، ٥٠، ١٣٩
١٤٦، ١٤٩، ١٧١، ١٧٤، ٢٩٣
٢٩٧، ٣١٦، ٣٢٢، ٣٢٩، ٣٣٢
٣٤٧، ٣٥٤، ٣٥٧، ٤٠٨، ٤١٧، ٤٣٦، ٤٥٤
٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٦، ٤٦٩، ٤٧٣
٤٧٦، ٤٧٩، ٤٨٥، ٤٩١، ٤٩٧
٥٠١، ٥٠٦، ٥٠٩، ٥٢٦، ٥٣٥
٥٤٦، ٥٥٨، ٥٧٥، ٦١٧، ٦٢٢
٦٦٢، ٦٩١، ٧٠٨، ٧١٤، ٧٤٩
افريقيا فوق الاستوائية - ٣٧٥،

٣٣٦، ٥٠٢، ٥٠٤، ٥٠٦، ٥٠٩
٥١٥، ٥٢٨، ٥٣٠، ٥٣١
٥٣٢، ٥٦٥، ٦٧٦، ٦٨٥، ٦٨٨
٦٩١، ٦٩٣، ٧٤٩
افريقيا الوسطى - ٢٩، ٤١، ٩٨
١٠٧، ١٠٩، ١٧٤، ٢٩٣، ٣٥٣
٣٥٤، ٣٥٧، ٤٨٥، ٤٩٧، ٥١٢
٥٢٩، ٥٣٣، ٥٤٦، ٥٥٣، ٥٥٧
٥٦٠، ٥٦٢، ٥٧٠، ٦٠٧، ٦٤٣
٦٧١، ٦٨٨، ٧٠٦، ٧٤٩
افريقيا الاستوائية - ١٠٦، ١٧٤
٢٩١، ٣٥٣، ٥٣٩، ٥٥٢، ٦٨٥
٦٩٢
شمال أفريقيا - ٢٨، ٤١، ٧٥، ٨١
١١٤، ١٣٩، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٣
٣٠٩، ٣١٠، ٣١٦، ٣٣٢، ٣٣٣
٣٤٣، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٨١، ٤٦١
٤٨٠، ٥١١، ٥٢٦، ٥٤٩، ٥٧٩
٥٨٨، ٦٢٣، ٦٢٦، ٦٢٨، ٦٣٨
٦٩٠، ٦٩١، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧١٣
٧٢٢، ٧٥٥

أبيدجان - ٨٢، ٨٤
أبوي - ٢٩، ١٠١، ٢٥٨
الريف - ٣٣١
أبو هرغر - ٦٥٠
أبو قير - ٥٧٥
أبو سمبل - ٦٤٤، ٦٥٢، ٦٦٢
أبو طبري - ٥٧٥
أبيدوس - ٦٦٠، ٧٢٥، ٧٢٦
٧٢٩
أديس أبابا - ١٣٥، ٤١٧، ٤٢١، ٤٣٣
الرباط - ٥٨٠
أدجفو - ٦٧٤
أدرار بوس - ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٨
٦١٣، ٦١٤، ٦٨٥
آخر - ١٩، ٣٩٤، ٣٩٩، ٤٠٣
٤٠٩، ٤٢١، ٤٣٦، ٥٠٦
افريقيا الجنوبية - ٢٩، ٢٨٢
٢٨٤، ٢٩٧، ٣٢١، ٣٣٥، ٣٣٥

أستراليا - ٣٩٩, ٣٢٧, ٢٧٤	٤٠٤, ٣٥٤, ٢٩٥	٥٥١
٤٠٣	أمريكا الجنوبية - ٢٩٥	جنوب صحراء افريقيا - ٥٠, ٢٢
النمسا - ٢٨٣	الامراج - ٧٢٥, ٦٥٥	٨٤, ٣٥٥, ٤٧٧, ٥٨٨, ٦٢٢
أواش (نهر) - ٤٠٥, ٣٧٧	أناتولي - ٦٣٤	٦٨٢
أكسوم - ٤٩٦, ٥٠	أنفا - ٤٤٤	جنوب افريقيا - ١٠٦, ٨٤, ٥٦
إشر (واد) - ٦٧٤, ٦٠٣	ادوارد (بحيرة) - ٣٥٣, ٣٣١	١٣٥, ١٦٤, ٢٢٧, ٢٥٤, ٢٧٥
البرازيل - ٨٢	٦٣٠, ٤٩٧, ٤٩٥, ٣٨٠	٢٧٨, ٢٩٣, ٣٠٤, ٣٠٨, ٣١٥
الخرطوم - ١٣٥, ١٣٣, ٥٦	أنجلترا - ٢٨٣, ٢٨٢, ٢٨١	٢٣٢, ٣٤٧, ٣٤٧, ٤٢٠, ٤٢٦
٣١٦, ٣٣٨, ٣٧٨, ٤٩٥, ٤٩٧	أنغولا - ٤٦, ٤٥, ١٦١, ١٤٠	٤٣٩, ٤٤٦, ٤٥٤, ٤٥٩, ٤٧٦
٧٣١, ٧١٨, ٦٥١, ٦٠٥	١٧٤, ٢٩١, ٢٩٣, ٢٩٥, ٣٠٢	٤٨٠, ٤٨٥, ٤٩٤, ٥٠٢, ٥٠٤
أرتيريا - ١٠٧, ١١١, ٤٩٦, ٧١٠	٣٢٩, ٣٤٦, ٥١٧, ٥١٩, ٥٢٧	٥٠٦, ٥٠٩, ٥١٢, ٥١٤, ٥١٧
الكامبيون - ١٠٢, ٨٢, ٣٨, ٢٠	٥٣٣, ٥٣٥, ٥٣٦, ٥٣٨, ٥٤١	٥١٩, ٥٢٦, ٥٢٩, ٥٣٠, ٥٤٧
١٣٠, ١٤٩, ١٥٩, ٢٠٥, ٢٤٧	٥٤٢, ٥٤٤, ٥٤٦, ٥٤٨, ٥٤٩	٥٥١, ٥٦٥, ٦١٢, ٦٢٢, ٦٦٦
٢٥٤, ٢٥٨, ٢٦٦, ٢٨٩, ٢٠٤	٥٤٩, ٥٥١, ٥٥٣, ٥٥٧, ٥٥٩	٧١٢
٥٤٠, ٥٤٤, ٥٤٩, ٥٥١, ٥٥٧	٥٦٠, ٥٦٢, ٥٦٥, ٥٦٩, ٥٧٠	جنوب شرق افريقيا - ١٥٣, ٥١٩
٥٦٠, ٥٦٩, ٦١٧, ٦١١, ٦٢٣	٦٦٦, ٧٠٦, ٧١٢	اغردات - ٤٩٦
اسبانيا - ٦٣٦, ٥٧٩	أوكر - ٦١٢, ٦٠٥	اعادس - ٢٧٧
الولايات المتحدة - ٢٨٥, ٨٦	أولف - ٦٠٠, ٥٩٩	أحمر (جبل) - ٦٤٤, ٦٤٧
٣٩٩	أشنطي - ٢٢, ٤٧, ١٦٣, ٦٦٦	أفريت (واد) - ٥٧٩
أثيوبيا - ٤٢, ٤٤, ٤٥, ٧٥, ٩٣	٧٥٤, ٧٥٣	أقجوجت - ٦٣٦
١٠٧, ١١١, ١١٩, ١٢٢, ١٢٩	آسيا - ٨٤, ٨٥, ٨٧, ٢٨٢, ٢٨٣	أفريجييت - ٦٣٢
١٣٤, ١٣٥, ١٣٩, ١٥٢, ١٦١	٢٨٩, ٣٢٧, ٣٣٣, ٣٥٣, ٣٧٦	الجزائر - ٢٤, ٤١, ١٣٠, ١٣١
٢٢١, ٢٧٨, ٢٨٣, ٢٨٤, ٢٩٣	٣٩٩, ٤٦١, ٤٦٤, ٤٦٩, ٤٧٧	٢٨٤, ٣٤٦, ٣٥٢, ٤٣٦, ٤٤٢
٢٣٧, ٢٣٩, ٣١٠, ٣٠٩, ٣٤٨	٤٨٨, ٤٨٩, ٥١١, ٦٣٤, ٧١٢	٤٤٤, ٥٧٣, ٥٧٥, ٥٧٩, ٥٨١
٢٧٩, ٢٧٩, ٣٨٠, ٣٨٤, ٤٠٩	٧١٤, ٧٢٢, ٧٤٩	٥٨٥, ٥٩٦, ٦٠٣, ٦١٨, ٦٣٨
٤٢١, ٤٢٦, ٤٢٩, ٤٣٩, ٤٥٩	اسمبلار - ٧٤٩	٦٦٦, ٦٦٦, ٦٦٦
٤٦٤, ٤٧٧, ٤٨٨, ٤٩٤, ٥١١	أسميوط - ٧٢١, ٧٢٣, ٧٢٦	المالتا - ٢٨١, ٢٨٢, ٢٨٢
٥٧٥, ٦٦٢, ٧٠٨, ٧١٣, ٧١٥	اسموان - ٨٣, ٣١٦, ٣٨٢, ٣٨٣	اعدا - ٦٤٤, ٦٤٧, ٦٦١
٧٤٨	٧٣٠, ٧٣٢, ٧٣٩	أمزي - ٥١٤
الراس - ١٣٥, ٢٢٩, ٢٣٥, ٤٤٥	المحيط الاطلسي - ٢٣٣, ٢٣٣	أمزاز (واد) - ٦٧٤
٤٨٠, ٥١٤, ٥١١, ٥١٤, ٥١٥	٣٣٩, ٣٧٩, ٣٨٠, ٣٩٤, ٣٩٧	أميافريت - ٣٨٠
٥٢٣, ٥٢٩, ٦٦٦, ٦٦٩, ٦٧٦	٤٠٠, ٤٠٨, ٤٩٧, ٥٩١, ٦٢٢	أمييلو - ٥٤٤
٦٨٠, ٦٩١, ٧٤٦	٦٦٦, ٦٨٥, ٧١٧, ٧١٩	أميرون - ٤٤١
٦٣٤	الاطلس - ٢٢, ٢٨٤, ٣٢٩, ٣٣١	أمريكا - ٢٢٧, ٣٣٠
أوروبا - ٢٢, ٢٤, ٨١, ٢٨٢	٣٧٩, ٣٨١, ٣٨٢, ٥١٢, ٥٩١	أمريكا اللاتينية - ٨٤
٢٨٢, ٢٨٤, ٣٣٠, ٣٧٦, ٤٠٣	٦٢٢, ٦٦٥, ٦٨٢, ٦٩٠, ٧٤٩	أمريكا الشمالية - ٨٧, ٢٨٥

بفر - ١٨٤، ١٩٥، ١٩٩، ٢٠٠،
 ٢٠٦، ٢٠٣
 بحر الغزال - ٢٢، ٢٣١، ٣٣٨،
 ٣٣٩، ٣٧٥، ٣٧٦، ٦٢٠
 باما - ٦٢٠
 باماكو - ١٨٣، ٢٠٨، ٦٢١، ٦٢٥
 بندياغرا - ١٧٧، ١٨٥، ٢٠٨
 ٢٠٩، ٢١٢، ٢٥٨
 بنفورا - ٦٧٧
 باونتي - ٦١٧، ٦٢١
 بركة - ٧١٧
 باريدس - ٣٩١
 بارشلوة - ١٢١
 برنغو (بحيرة) - ٤٢١، ٤٢٥،
 ٤٢٦، ٥٠٦
 بتاليمو - ٥٤٩، ٥٦٨
 بنكي - ٥٤٨، ٥٦٥
 بببوسة - ٧١٧
 ببشارد - ٦٨٦
 بلديروغو - ١٨٣، ٢٠٤
 بني عباس - ٦٠٠
 بنين - ٢٩، ١٠٠، ١٢٩، ١٣٠،
 ٢٤٢، ٢٥٣، ٢٦٠، ٣٢٩، ٣٦٤
 ٦٣٦
 بنين (خليج) - ١٦٦
 بني أونيف - ٦٦٥
 بيتربسبورغ - ٥٢٨
 بربطانيا العظمى - ٨٤، ٨٧، ١٤٧،
 ١٥٢
 ببولونيا - ٨٥
 بيدزار - ٥٥١
 بلاد السودان - ٤٢
 بير الاثير - ٤٤٦، ٥٨٠، ٧٤٦
 بير الصحراء - ٦٤٢
 بير الطرقياري - ٦٤٤
 بيرماتيا - ٤١٦، ٧١٤

٧٣٠
 ايطاليا - ١٢٢
 اتوري - ٢٨٩، ٥٦٨
 الصين - ٤١٧، ٤٢٠، ٤٥٩
 الغرب - ٧٥٦، ٧٢
 المغرب - ١١٤، ١٢٣، ١٤٨،
 ٢٤٤، ٤٤٢، ٥٧٩، ٥٩٦، ٦٣٦
 ٦٧٠، ٦٩١، ٧١٥
 اكونغو - ٣٢٨
 اولدوي - ٩٠، ٢٣٠، ٣٧٦،
 ٣٧٧، ٤٠٩، ٤٢١، ٤٢٥، ٤٢٩،
 ٤٣٩، ٤٥٨، ٤٦٤، ٤٨٥، ٤٨٩،
 ٥٠٦، ٥٠٨، ٥٣٦، ٥٣٩، ٥٤٠
 ٥٦٠، ٥٧٥، ٦١٨، ٦٤٢
 الدار البيضاء - ٥٧٥
 امبوس - ٧٢٨، ٧٢٩
 امو - ٩٢، ٤٢١، ٤٣٥، ٤٢٦،
 ٤٣٢، ٤٣٩، ٤٤١، ٥٠٨، ٥١١،
 ٥٣٦، ٥٧٥، ٧٤٨
 اورانج (نهر) - ١٣٦، ٣٣٨،
 ٣٤٧، ٥١٧
 اورانج (منطقة) - ٥١٤، ٥١٧،
 ٥٢٣، ٥٢٩، ٥٣١، ٦٦٦، ٦٩١
 اونيفي - ٢٢، ٥٦٨
 اوغندا - ١١، ١٧١، ٣٧٩
 ٤١٦، ٤١٧، ٢٤٢، ٤٤٧، ٤٨٨،
 ٥٢٩، ٥٤٨، ٥٥٥، ٧١٢
 اكسفورد (جامعة) - ٢٣٥
 اوشتاتا - ٦٤٨، ٦٤٩

ب

باب المندب - ٢٨٢، ٢٨٣
 بدري - ٦٥٣، ٧٢٢

٤٦١، ٤٦٤، ٤٧٧، ٤٨٨، ٤٨٩،
 ٥١١، ٥٥٣، ٥٧٧، ٥٩٠، ٦٣٤،
 ٦٦٩، ٦٩٠، ٦٩٨، ٧١٤، ٧٤٦،
 ٧٤٩
 الشرق الاقصى - ٤٥٩
 الشرق الاثني - ٤٢، ٩٣، ٢٨٤،
 ٢٩٥، ٣٤٢، ٥٧٩، ٥٨٥، ٦٩١،
 ٦٩٢، ٦٩٩، ٧٠٤، ٧١٣، ٧١٦،
 ٧٢١
 الفعيم - ١١٧، ٢٢٢، ٤١٦، ٦٥١،
 ٦٥٤، ٦٥٧، ٦٥٩، ٦٦٠، ٧٢١،
 ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦،
 ٧٣١، ٧٣٤
 افروان - ٦٨٤
 الهند - ١٢٨، ١٢٧، ٤٢٠، ٤٨٨،
 ٧١٠، ٧١٢، ٧١٤، ٧٤٣
 المحيط الهندي - ٤٢، ١٣٨، ١٣٩،
 ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦، ٦٦٦، ٧١٠
 المحيط - ٢٩٧
 الخيام - ٦٥٠
 انثورو (كهف) - ٦٧٧
 ايران - ٦٦٤، ٧١٢
 العراق - ١١٧، ٦٣٤
 ارصود (جبل) - ٥٧٩، ٥٨١
 ازنغلا - ٥٤٨
 اشكول (بحيرة) - ٥٧٥
 الخليج الفارسي - ١٠٦، ٦٩٣
 اشنغو - ٤٩٨، ٥٥٥، ٥٦٧، ٦٣٠
 اسرائيل - ٤٠٥
 القاهرة - ٢١٧، ٤١٦، ٦٤٢،
 ٦٤٣، ٦٤٧، ٧٤٩، ٦٥٧، ٦٦٠،
 ٦٦١، ٧٢١، ٧٢٦، ٧٢٨
 استانبول - ٢٤
 البحر الاحمر - ٤٢، ٧٥، ٩٤، ٩٦،
 ١٠٥، ٢٨٢، ٣٣٢، ٣٨٠، ٣٨٢،
 ٣٨٤، ٤٠٠، ٥٩١، ٦٦٥، ٧١٩

٣٣٩، ١٥٢، ١٤٣
توات - ٦٧٤
تودنيت - ٥٩٣
تولير - ٦٧٧، ٥٥١
ترنسفال - ٤٣٨، ٤٢٠، ٣٤٦
٥٢٩، ٥٢٣، ٥١٥، ٥١٣، ٥٠٤
٦٧٧، ٦٧٢، ٦٧١، ٦٦٦، ٥٢٩
٦٩١، ٦٨٠، ٦٧٦
٥٣٠، ٥٢٥
تنسانقولان - ٤٤٦، ٣٨١، ٣٤٦، ١٣٠
٦٠٣، ٥٨٤، ٥٨٠، ٥٧٩، ٥٧٥
٤١٧، ١٣٩
توركينا (بحيرة) - ٤٢٦، ٤٢١، ٤٢٩، ٤٨٥، ٤٧٧، ٤٦١، ٤٣٢
٥١١، ٥٠٨، ٥٠٦، ٤٩٧، ٤٨٨

ج

جامعي - ٦٤٤
جبل طارق - ٥٧٩، ٣٣٤
جبارين - ٦٨٦، ٦٧٥، ٦٦٦، ٣٤
٦٩٠، ٦٨٨
جفا - ٤٦١، ٤٤٧، ٤٣٦
جيرييشو - ٧٢٢، ٧٢١، ٦٥٠
جوفنسبورغ - ٤٢١
جويس (نجد) - ٦٣٩، ٦٢٥، ٣٢٢
جوبي (راس) - ١١٦
جوف - ٣٨٢

ح

حرار - ٢٩٣
حلوان - ٦٦٠، ٦٥٦، ٦٤٩
حوض البحر الابيض المتوسط -

٣٠٩، ٢٩٥، ٢٩٣، ٢٨٤، ٢٥٤
٤٢١، ٤٠٩، ٣٤٦، ٣١٥، ٣١٠
٤٤٢، ٤٣٨، ٤٢٩، ٤٢٦، ٤٢٥
٤٧٦، ٤٧٣، ٤٦٤، ٤٥٨، ٤٤٧
٥٠٦، ٤٩٩، ٤٩٦، ٤٩١، ٤٨٣
٥٤٢، ٥٣٩، ٥٣٠، ٥١٢، ٥٠٨
٦١٨، ٥٧٧، ٥٧٥، ٥٦٠
٦٢١ - تاويسا
٧٢١، ٦٥٣ - تازة
٦٦٦، ٦١٢، ٢٨٤، ٣٧٧ - تسيلي
٦٧٤، ٦٧١، ٦٧٠، ٦٦٩، ٦٦٧
٦٩١، ٦٩٠، ٦٨٨، ٦٧٦، ٦٧٥
٢٥١، ٢٠٥، ١٠٢، ٣٤
٤١٢، ٤٠٩، ٤٠٣، ٣٩٤، ٣٣٤
٥٩٦، ٥٩٣، ٥٣٣، ٥٣٢، ٤٤٤
٦٩٩، ٦٧٥، ٦٦٦، ٦٢٣، ٥٩٩
٢٥٠، ٩١، ٢٥ - تشاد (حوض)
٣٧٨، ٣٧٧، ٣٣٨، ٣٢٩، ٢٨٧
٧١٧، ٥٥١، ٥٤٩
١٠٧، ٩٣، ٩١ - تشاد (بحيرة)
٥٠٤، ٣٩٩، ٣٧٧، ٣٥٣، ١٣٩
٦٢١، ٦٢٠، ٦١٧، ٦٠٢، ٥٩٩
٦٣٤، ٦٣٢

٨٥ - تشيكوسلوفاكيا
١٦٦، ١٣٩ - تكورر
٣٣١ - تيل
٦٩٢، ٦٨٤، ٦٦٦، ٦٠٨، ٦٠٣ - تييري
٧٣١
٤٥٥ - تنسيفت
٦٦٦، ٦٥١، ٣٨١ - تيبستي
٧٣١
٦٣٩، ٦٣٦، ٦١٠ - تيشيت
٦٩٢، ٦٨٨، ٦٧٦
٧٤٨، ٦٠٥ - تلمسي (واد)
٥٧٧ - تلمسان
١٣٩، ٥٤، ٤٤، ٢٤، ١٣٩ - تمبوكتو

٢٣٠ - بيزيت
بودلي (بحيرة) - ٦٢٠، ٣٧٧
بنفور - ٦٢٠
بورنيو - ٣١٦
بورنو - ٦١٩، ١٤٤، ١٤٩
بوتسوانا - ٥٢٨، ٥١٤، ٣٦
٦٩٤، ٦٨٩، ٦٧٢، ٦٦٦
٥٦٢، ٥٥١، ٥٤٩ - بوات
٢٠٨، ١٨٦ - بونغوني
٦٢٥ - بوسا
٧١٧ - بوئنا
٥٤٢، ٥٣٦ - برازفيل
بروكين هيل - ٥١٤، ٤٥٥، ٣٢٠
٥٣٦، ٥٢٥، ٥١٥
بوراندي - ٣٣٩، ١٦٤، ٣٥
٥٦٨، ٥٦٠، ٥٥٧، ٥٣٣، ٣٥٤
١٠٥ - بيزانس
٤١٧ - باكستان
١٣٠ - بالماس (راس)
٥٢٦، ٥٢٥ - بير (كهف)
٥١٣ - بريتوريا

ت

٦٠١، ٦٠٠، ٥٧٩ - تشنغيط
تدارت اكاكوس - ٢٨٤
تقورالت - ٥٨٠
تغيط - ٦٨١
تعدا - ٥٧٧
تمنثيت - ٦٧٤
تمغروت - ١٣١
تنجانيقا - ٣٤٩، ٣٣١، ١٥٩، ١٠٩
٧١٢
تنجانيقا (بحيرة) - ٥٦٧، ٥٦٣
تنزانيا - ١٦٧، ١٦١، ٩٠، ٢٨

۴۵۵، ۵۱۱، ۵۱۲، ۵۱۷، ۵۱۹،
۵۲۳، ۵۲۴، ۵۲۷، ۵۲۹، ۵۳۰،
۵۵۳، ۵۵۷، ۵۵۹، ۵۶۰، ۶۴۶،
۶۶۹، ۱۲۹ - زنج
۱۰۶، ۱۴۵، ۱۴۹، ۷۵۴
زنبی - ۶۲۸
زمبابوي - ۸۴، ۳۶۶، ۳۴۲،
۲۴۶، ۳۶۴، ۵۱۲، ۵۱۷،
۵۱۹، ۵۲۴، ۵۲۵، ۵۲۸، ۵۳۰،
۵۳۱، ۵۵۱، ۶۷۶، ۶۷۷، ۷۱۲،
زواي - ۳۷۷

س

سبته - ۱۰۵
سبيلان - ۴۴۲
سنغويائي - ۴۴۶، ۵۴۲، ۷۴۶
سساوړه - ۲۸۳، ۴۰۹، ۴۴۵،
۵۷۵، ۵۹۳، ۵۹۶، ۵۹۹، ۶۰۰،
۶۰۳، ۶۰۵، ۷۴۵
سيكو - ۲۴
سيدي عبد الرحمن - ۵۸۰
سيدي منصور - ۵۷۹، ۵۸۵
سيدي زين - ۵۷۷، ۵۷۹
سيراليون - ۵۶، ۸۲، ۹۵، ۱۴۷،
۱۴۹، ۲۵۲، ۳۱۶، ۳۲۲، ۳۴۶،
۳۷۰، ۶۳۰، ۶۳۱، ۶۴۰
سجلماسه - ۱۳۱
سيناء - ۶۵۸
سپيا - ۶۴۴، ۶۵۰
ستاتني پول - ۵۴۴، ۵۴۵،
۵۴۸، ۵۴۹
ستيل باي - ۴۴۵، ۵۲۸، ۵۴۷،
۷۴۶

دراکسنبرغ - ۲۲۷، ۵۳۱، ۶۶۷،
۶۶۹، ۶۸۰، ۶۷۶

ر

ريغان - ۵۷۵
روديسيا - (انظر زامبابوي).
رودولف (بحيرة) - ۳۲۱، ۳۵۳،
۳۷۷، ۳۹۸، ۴۲۹، ۴۹۵،
روما - ۱۰۴، ۱۱۱، ۷۵۵
روپ - ۶۳۱
رواندا - ۲۶، ۸۲، ۱۶۸، ۲۸۹،
۳۵۴، ۴۳۸، ۴۹۰، ۴۹۵، ۵۳۳،
۵۵۳، ۵۵۷، ۵۶۰

ز

زاير - ۲۲، ۳۲، ۴۵، ۶۱،
۹۸، ۱۵۹، ۱۶۳، ۱۶۴، ۱۶۵،
۱۶۷، ۲۵۴، ۲۸۹، ۲۹۷، ۳۴۶،
۳۷۹، ۴۴۸، ۵۲۷، ۵۳۳، ۵۳۵،
۵۳۶، ۵۳۸، ۵۳۹، ۵۴۲، ۵۴۴،
۵۵۱، ۵۵۷، ۵۵۹، ۵۶۰، ۵۶۲،
۵۶۵، ۵۶۹
زاير - (حوض) - ۳۴، ۱۰۶،
۳۲۸، ۳۵۷، ۴۹۱، ۴۹۵، ۵۲۰،
۵۲۳، ۵۳۰، ۵۳۳، ۵۳۹، ۵۴۳،
۵۴۴، ۵۴۸، ۵۴۹، ۵۵۱، ۵۵۲،
زاير (نهر) - ۵۴۸
زاير (وادي) - ۲۸۹
زامبيز - ۴۵، ۱۰۶، ۱۲۹، ۱۴۰،
۲۶۰، ۳۳۸، ۳۴۰، ۵۱۴، ۵۳۰،
۵۵۸، ۶۷۶
زامبيا - ۳۴، ۱۱۱، ۲۳۰، ۳۴۹،

۲۳۰، ۲۳۷، ۳۲۸، ۳۲۹، ۴۰۵،
۴۰۸، ۴۸۵، ۷۱۷، ۷۲۹، ۷۳۹

خ

خمي - ۵۲۵
خرجا - ۶۰۰، ۶۰۳، ۶۴۳، ۶۴۴،
۶۴۷
خمسيت الديب - ۷۲۳
خنشلا - ۵۸۶
خود ابو انفا - ۶۴۳
خوريهان - ۷۲۳
خورد داود - ۶۴۴، ۶۴۷، ۶۵۲
خوركوسا - ۶۴۸

د

دبا - ۵۲۵
دغومبا - ۲۸
دهومي - ۴۶، ۶۵، ۱۰۱، ۳۵۸،
۳۶۹، ۳۸۰، ۴۴۰، ۴۶۱، ۷۵۴
ديما - ۶۳۲
دکار - ۵۶، ۸۲، ۸۴، ۱۴۴، ۳۳۴،
۶۲۵، ۶۳۰، ۶۳۱
دخلي - ۶۴۴
درفور - ۲۰، ۹۱، ۱۳۹، ۱۵۲،
۷۱۷
ديدر - ۶۷۰
دمبا (کلف) - ۵۶۴، ۵۶۹
دجانيت - ۶۶۶، ۶۸۲
دجيبا - ۶۲۰، ۶۲۶
دجيرات (واد) - ۶۷۰، ۶۷۱،
۶۷۵، ۶۸۲، ۶۸۶، ۶۸۹، ۶۹۰،
۶۹۲، ۶۹۵
دغولا - ۶۴۴، ۶۵۰، ۷۳۹، ۷۴۲

کنام - ٤٥٨
کنجرا - ٤٤٧، ٥٣٦، ٥٣٥
کرنک - ٢٢٣، ٦٦٠، ٦٦١
کساي - ٤٤٨، ٥٣٧، ٥٣٨،
٥٤٢، ٥٤٨، ٥٥٧، ٥٦٠، ٥٦٥،
٥٧٠
کننگا (انظر شابا).
کينيدوغو - ١٨٣
کينيا - ٩٥، ٩٢، ٩٠، ١٦٨، ١٦١،
١٧١، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٩١، ٣٤٦،
٣٤٧، ٤٠٩، ٤١٦، ٤١٧، ٤٢٠،
٤٢١، ٤٢٦، ٤٢٩، ٤٤٠، ٤٤٧،
٤٥٨، ٤٦٤، ٤٧٦، ٤٨٣، ٤٨٨،
٤٩٢، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩،
٥٣٨، ٥٣٥، ٥٧٦، ٦٥١، ٧١٢،
٧٤٤، ٧٤٦، ٧٤٧
کينيا (جبل) - ٣٣١، ٣٧٩، ٥٥٩
کينشاسا - ٢٤٧، ٣٣٩، ٥٤٤،
٥٤٨، ٥٥٨، ٥٦٢، ٥٦٤، ٥٦٥،
٥٦٦، ٧٤٥
کومبالا - ٥٥١، ٦٧٧
کوماسي - ٤٧، ١٤٩
کوانفو - ٥٤٩، ٥٥٧، ٥٦٢، ٥٦٤

ل

لاغوس - ٣٤
لاهاي - ١٣٥
لسکو - ٤٣٨، ٥٨٤
لحکوت - ٥٨٨
لنغو - ٥٥١، ٦٧٧
ليسوتو - ١٣٦، ٦٦٦
لوفالوا - ٤٤٨
ليبيريا - ١٢٠، ١٥، ٢٦٩،
٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩

٣٥٨، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٧، ٦١٧،
٦٢٥، ٦٢٦، ٦٣٠، ٦٣٢،
٦٣٤، ٦٣٦، ٧٥٥

ف

فوتا - ٣٣، ١٤٤، ٢٠٨
٦١٧، ٦٢٤، ٦٣٠، ٦٣١
فرناندوبو - ٢٩٧، ٦٣٣
فوارات - ٥٧٥
فرنسا - ١٤٤، ٢٨١، ٢٨٢، ٦٨٠
فلسطين - ٢٨٤، ٦٥٠، ٦٥٨،
٦٣٧

ق

قارة - ٦٤٨
قطارة - ١٥٧، ٣٨١
قبایل - ٢٨٥
قصر مرون - ٧٢٢

ک

کلهری - ٢٢، ٢٩١، ٣٣٤، ٣٣٥،
٣٣٧، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٥٦، ٤٧٥،
٥٣١، ٥٦٨، ٥٧٠، ٦٩٩، ٧٠٠،
٧٠٦
کلمب فالس - ٣٤٩، ٥١٢، ٥١٣،
٥١٥، ٥١٧، ٥٢٣، ٥٢٨، ٥٥٥،
٥٥٩، ٥٦٠
کمو - ٥٤١، ٥٤٢، ٥٥٥، ٥٥٨،
٥٥٩، ٥٦٢، ٥٦٧
کمبالا - ٥٦

سوازيلان - ٥٢٨
سوريا - ٧٢٧

ش

شامي - (جبل) ٥٧٩
شاميلان - ٥٧٥
شمري - ٩٢، ٩١، ٣٧٨
شلال (جبل) - ٢٨٠
شوکتیان - ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١،
٤٤٤
شابا - ٣١٣، ٣٥، ٣٤٨، ٤٤٢،
٥٣٣، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٤٠، ٥٤٢،
٥٤٦، ٥٥١، ٥٥٨، ٥٥٧، ٥٥٩،
٥٦٠، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٦، ٥٦٧،
٥٦٨
شامي - ٢٧٨
شيللا (بحيرة) - ٣٧٧
شندي - ٦٥١
شردا - ٦٠٠
شنغورا - ٤٢١، ٥٠٨

ع

عين البيضاء - ٥٨٨
عين بوشريط - ٥٧٥
عين بريما - ٥٧٥
عين دکارا - ٥٨٨
عين فريتيسا - ٥٧٧
عين حنش - ٥٧٥
عنابة - ٥٧٥

غ

غانا - ٣٢، ٣٨، ٤٤، ٥٢، ٨١،
٩٨، ١١٩، ١٥٢، ١٦٦، ٣٤٦

هـ
 هدار - ٤٠٩، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٥٨، ٤٦١
 هو (كهف) - ٥٦٥
 هليوبوليس - ٧٢٨، ٦٥٨، ٦٥٧
 هوغار - ٥٩٣، ٢٨٢، ٢٨١، ٢٨٤
 ٦٠٣، ٦٠٥، ٦٦٦، ٦٦٩، ٦٧٤
 ٧٢٢، ٦٩٠
 هتغاريا - ٤١٧
 هو - ٧٢٦
 هوامبو - ٥٥٧
 هراكس ميل - ٦٥٠

و

وداي - ٣١ - ١٣٩ - ١٤٥
 ونزوبا - ٦٤
 وكسا - ٦٤٢
 ويشال - ١٣٥
 ويليهام (جبل) - ٤٠٣
 ويلتون - ٤٤٩
 ويندهوك - ١٣٧، ٥٣٠
 ويندرسوتين - ٥١٧
 ويندرسويورت - ٥١٤

ي

يكالا - ٦٣١
 يام - ٣١
 يطانفا - ٦٠ - ١٥٩
 يايو - ٦١٩
 يمن - ٥٧، ٣٠
 ينجيما - ٦٣١، ٦٣٠
 يولا - ٦٢٠

٤٠٥، ٥٧٥، ٥٩٣، ٥٩٦، ٦٠٣، ٦٠٧، ٦١٠، ٦١٢، ٦٢٤
 ٦٢١، ٦٢٤، ٦٣٦، ٦٦٦، ٦٨٨
 ٧٤٨، ٦٩١
 ممفيس - ٧٢٢، ٧٢٣
 ميوتو (بحيرة) - ٣٧٩، ٣٣١
 ٣٩٨
 منروفيا - ٩٥، ٥٦
 منتاغو - ٥١٥، ٥٢٥، ٥٢٨
 مستغانم - ٥٧٥
 مويلج - ٥٨٦، ٥٨٣
 مونزينبيق - ٧٤، ٢٦٠، ٣٠٢
 ٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٦
 ٥١٩، ٥٢٠

ن

نيروبي - ٣٧٦
 نيفاشا - ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٩٨
 ٤٤٦، ٤٩٦، ٥٣٠، ٥٣٥
 نميبيا - ١٣٠، ١٣٦، ٢٩١، ٣٤٦
 ٥١٩، ٥٢٥، ٥٢٩، ٥٣١، ٦٦٦
 ٦٧٢، ٦٧٦، ٦٨٠، ٦٩٠
 ننتال - ١٣٦، ٥١٩، ٥٢٥، ٦٧٢
 ٦٨٨
 نقرن - (بحيرة) - ٤٢١، ٤٢٦
 نجامينا - ٢٩
 نغورو - ٥٧٠
 نيجيريا - ٣٠، ٥٦، ٩٥، ١٠٢
 ١٤٤، ١٤٥، ١٥٩، ١٦٥
 ١٧١، ٢٠٧، ٢١١، ٢٨٧، ٣١٣
 ٦١٧، ٦٢٥، ٦٣١، ٦٣٦، ٦٣٨
 نوري - ٦٤٢، ٦٤٣
 نزاكو - ٥٤٤

ليبيريال - ٣٣٥

ليبيا - ١١٦، ٢٨٧، ٢٨٨
 ٥٧٥، ٥٩٦، ٦٥٥، ٦٦٦، ٦٨٤
 ٦٨٥، ٦٨٩
 ليفنغستون - ٥١١
 لندن - ١٣٥، ٢٢٦
 لويسبور - ٢٢٢، ٢٢٣، ٥٦٠
 لومباشي - ٨٦
 لوكينو - ٤٢٥
 لوندا - ٥٤٤، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٢
 ٥٦٤، ٥٦٥

م

مسينا - ٢٣، ١٣٩، ١٤٩، ٢٠٦
 ٢٠٨، ٢٣٨
 مدغشقر - ٣٨، ١٢٩، ١٤٦
 ٢٢٢، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٠، ٣٤٢
 ٧١٤
 ملاوي (بحيرة) - ١٤٠، ٣٤٩
 ٥٠٨، ٥٢٠، ٦٦٦، ٦٧٦
 مالي - ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٢٨، ٣٣
 ٣٨، ٤٤، ٦٠، ١٦٤، ١٦٧، ١٧١
 ١٧٧، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣
 ١٩٠، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٦، ٢٥٦
 ٣٦٤، ٣٧٠، ٦٢١، ٦٣٦، ٦٧٢
 ٧٤٩، ٧٥٤
 ملندي - ١٣٨
 مندارا - ٩٣، ١٤٥، ٦١٧
 مندي - ٦٤، ٩٨، ١٧٩، ١٨٣
 ١٩٦، ٢٠٦
 متوبي - ٥٥٥، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧
 موريطانيا - ١١٦، ١٣٢، ١٣٣
 ١٧١، ٢٩٥، ٣٠٩، ٣٢٩، ٣٣٤

أسماء السلالات الحاكمة

الغرجيون (أو الخوارج) - ١٢٠، ١٢٤	السلالة الرابعة: ٢٣٥	العباسيون - ١٠٥
الماليك - ١٠٨، ١٢٠، ١٢٢	السلالة الخامسة: ٢٨٩	المجسدون - ١٠٨، ١٢٠، ١٢٢
الأمويون - ١٠٥	السلالة السادسة - ٢٨٩	١٢٢، ١٢١
العثمانيون - ١٣١، ١٣٠	السلالة الثامنة عشرة: ٦٩٠، ٦٦١	المرابطون - ١٠٦، ١٢٠، ١٢١
بطلميوس - ١١١	السلالة التاسعة عشرة: ١٠٨	الأيوبيون - ١٠٥، ١٠٨، ١٢١
الرستميون - ١٢٠	السلالة العشرون: ١٠٨	الدينا - ١٣٩
السعديون - ١٣٠	السلالة الخامسة والعشرون:	مصر:
الساسانيون - ١١٧	٧٤٢	السلالة الأولى: ٢٢١، ٦٣٩
السنينيون - ١٢٤	الفاطميون: ١٠٥	٦٨٩، ٧٢٩
بنونيري - ١٠٥	الحفصيون: ١٠٨	السلالة الثانية: ٦٨٩، ٧٢٩، ٧٣٤
	الاباطنيون: ١٢٠	السلالة الثالثة: ٦٦١

الاسماء العرفية

٢٨٥، ٢٩٥، ٣٦٣، ٦١٠، ٧٤٩، ٧٥٢	٦٦٨، ٦٩١، ٦٩٣، ٧٤٩	الركييات - ٢٧٧
تمهو - ٢٨٧	بريبا - ١٠٢	عجمي - ٢٤
تدا - ٣١	بزا - ١٤٩ - ٢٧٠	اناقى - ٢٩٣
توما - ٢٧٠، ٢٧٠، ٢٧٠	بميا - ١٢٩ - ٢٩٩	اشنطي - ٣٦٣، ٦٧، ٦٤، ٣٧، ٣٢
توارك - ٢٦٩، ٢٧٨، ٢٨٩، ٣٥٤	بول - ٢٨، ٢٩، ٣٣، ٣٤، ٢٩	امبو - ١٦١، ١٦٨
توير - ٢٧٨	١٥٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٦	اكان - ٢٥٤، ٢٦٧، ٢٨٠
تسوانا - ٣٧-١٥٩	٢٠٦، ٢٥٤، ٢٧٨، ٢٩٨	البرابرة - ٩٤، ٢٥٤، ٢٥٥
تركانا - ٩٢	٣٥٤، ٦٨٢، ٦٩١، ٦٩٢، ٧٤٩	بمبارا - ٢٩، ٣٣، ٣٥، ٦٤، ٦٦
تونسي - ٣٥٤	بني هلال - ٣٩	٩٥، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٦، ١٩٠
توا - ٢٩١، ٣٣٢	بويو - ٣٦٤	١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٨
توي - ٢٤٧	بوم - ٩٢	١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢٥٨، ٢٥٩
جودا - ١٠١	بومي - ٩٢	بمون - ٢٤، ٩٥، ١٢٨، ١٢٩
حيشاش - ٢٨٣	بورى - ٣٧٠	١٤٩
حدزا - ٤٧٥	بوروز - ٩٥، ١٩٦	بنتو - ٣٥، ٣٩، ٥١، ٩٧، ٩٨
حدزبي - ٢٩٦، ٢٩٥	بلوم - ٢٩٧	٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥٦، ٣٠٤
	بيجمي - ٢٧٤، ٢٧٧، ٢٨٣	٢٣٨، ٢٣٣، ٥٣١، ٥٥١، ٦٦٩

۲۵۸, ۲۵۹, ۲۵۵	سورکو - ۶۲	حراتين - ۲۷۸
مسيڤانک - ۲۰۸	سوتو - ۱۵۹, ۲۳	خوي خوي - ۲۹۱, ۲۸۳, ۱۳۵
ماهي - ۱۰۱	سوزو - ۲۵۴, ۲۴۲	۲۹۶, ۲۹۵, ۳۰۷, ۳۰۶, ۳۰۴
ماندي - ۳۶۵, ۲۷۰	سوازي - ۲۹۱	۶۹۳, ۵۳۲
مانکيتو - ۳۶۸	شونه - ۲۸	خويزان - ۷۴۹, ۲۹۱
مارکا - ۲۷۷, ۲۰۸, ۲۰۶	فنگ - ۱۵۹, ۲۹	دشوبا - ۳۶۶
موريس - ۳۹	فنگي - ۱۴۵, ۶۸	دنکسومنو - ۱۰۱
ميريشي - ۹۸	فون - ۲۴۴, ۱۰۱	دنکا - ۲۸۹
ميون - ۱۶۴	فولاني - ۵۱	ديولا - ۲۴۸, ۱۷۱, ۱۴۳, ۱۲۹
منکوبيس - ۴۳۸	فولبي - ۲۴۷, ۲۴۱, ۹۲	۳۷۰
مريئا - ۲۱۶, ۳۰۲, ۱۴۷	کنوري - ۱۴۴, ۳۱, ۳۰	دغون - ۱۶۴, ۱۶۳, ۱۵۶, ۹۵
موري - ۳۶۵, ۶۶	کنميو - ۱۲۹	۱۷۱, ۱۸۵, ۱۹۸, ۲۰۸, ۲۵۷
موسي - ۲۴۸, ۱۶۴, ۱۵۹	کهورو - ۱۶۷	۲۵۸, ۲۵۸
نکوندي - ۳۳	کابي - ۲۶۳	دوکو - ۲۸۹
نکوني - ۲۲	کيشوار - ۳۱۶	دويو - ۴۷۶
نياکوزا - ۳۳	کيکويو - ۹۵	دوالا - ۲۴۷
نما - ۱۳۶	کردي - ۳۶۳	زاند - ۳۱۴
نيانکتوم - ۹۲	کروا - ۹۲	زريما - ۶۳
نوميدي - ۱۱۶	کيسي - ۳۷۰	زغالوا - ۱۱۹
نسبيدي - ۲۶۹, ۲۶۰	کيسواحي - ۲۴۴, ۱۲۹	زولو - ۲۹۴, ۲۹۱, ۱۳۶, ۶۴, ۳۳
نون - ۲۴۸	کومو - ۳۶	سامو - ۳۷۰, ۶۶
نارون - ۲۹۶	کنيانکي - ۳۷۰	سان - ۲۸۲, ۲۸۲, ۲۷۴, ۱۳۶
هريس - ۱۲۹, ۵۱, ۴۴, ۲۹	کوکويا - ۱۶۷	۲۸۵, ۲۹۱, ۲۹۲, ۲۹۳, ۳۰۴
۲۴۴, ۱۷۱, ۱۶۰, ۱۴۴	کولنفو - ۳۶۵	۳۰۵, ۳۱۵, ۳۱۶, ۴۷۶, ۴۷۶
۲۰۳, ۲۷۸, ۲۵۷, ۲۴۷	کوکاس - ۳۶۶	۴۹۴, ۴۹۵, ۵۲۶, ۵۲۱, ۵۳۲
هيا - ۳۸	کوا - ۹۸	۵۶۸, ۶۸۰, ۶۸۱, ۶۸۰
فوريو - ۱۳۶	کواډي - ۲۹۶, ۲۹۵	۶۹۲, ۶۹۳, ۷۰۰
هوتو - ۳۵۴	ليبو - ۲۴۸, ۲۴۴	سنفوفو - ۳۷۰, ۶۷, ۳۹
هکسوس - ۷۳۷, ۷۸۳	ليپوولوف - ۲۵۶	سار - ۱۰۲, ۲۵
وارسنگالي - ۲۸	لنغالا - ۲۴۷	سراکولي - ۲۸۸, ۲۰۸
ويي - ۳۶۵	لوپي - ۳۷۰, ۳۶۵	سالي - ۱۰۱
وولوف - ۲۴۷, ۲۴۴, ۲۴۱, ۲۹	لويما - ۳۷۰	سبيرير - ۲۵۵, ۲۴۵, ۲۴۷, ۲۴۸, ۲۵۴
۲۷۰, ۲۵۷, ۲۵۶, ۲۵۵, ۲۴۸	لويما - ۲۹۷, ۱۶۰, ۱۵۹	۲۵۶, ۲۷۰
يوروبا - ۲۴۷, ۱۶۳, ۱۴۶, ۵۵	لوندا - ۶۴, ۲۳	سيفوفو - ۳۷۰, ۶۷, ۳۸
۲۳۹, ۲۶۰, ۲۵۷	مالينک - ۲۷۰, ۶۳, ۲۳	سنفافي - ۱۳۹, ۶۶, ۶۴, ۶۳
	ماندنک - ۲۴۸, ۲۴۴, ۳۵, ۳۲	۲۴۴, ۲۷۹, ۲۵۴, ۲۴۷, ۲۰۸

الموضوعات، والمفاهيم والنظريات الهامة

- علم الآثار - ٢١٣، ٤٩، ٢٤، ٢٣٩، ٢٨٤، ٢٦٤، ٤٣٢، ٤٢٥، ٦٣٠، ٧١٧، ٦٦١
٧٢٠
- علم الإنسان - ٤٨، ٣٠، ٥٢، ٥٠، ٧٨، ٢٨٥، ٣٠١، ٣٤٨، ٣٦٨، ٤٧٥
- الوثنية التجسيمية - ٦٦، ٦٧، ١٠٦، ٣٧٠
- المصادر المكتوبة (أو الإحيائية) - ٢٣، ٤١، ٩٠، ٩٥، ٩٦، ١٠٣، ١٠٨، ١٢٥، ١٢٧، ١٥٣، ١٧٧، ٢٥٨، ٣٦١، ٢٥٣، ٧٢، ٤٧، ٦٩٧، ٦٩٧
- الاسلام - ٤١، ٤٤، ٦٧، ٦٨، ١٠٣، ١٠٥، ١١٦، ١٢٠، ١٢٤، ٢٠٦
- الزراعة - ٩٢، ٢٨٤، ٣٤٠، ٣٤٨، ٣٥٧، ٤٩٥، ٤٩٨، ٦١٠، ٦٣٢، ٦٣٤، ٦٨٥، ٦٨٧، ٧٤٦، ٧١٩
- القياسات الأثرية - ٢١٤، ٢٢٠، ٢٢٦
- الأنثولوجي - ٤٤٤، ٤٧٨، ٤٨٥، ٥٠٩، ٥١٦، ٥٣٣، ٥٣٧، ٥٤٠
- العصر الحجري - ٥٧٧، ٥٩٩، ٦٢٢، ٦٤٢، ٥٥٥، ٥٦٨، ٦٢٢، ٤٨١، ٤٦٨
- عصر الحديد - ٤٦٩، ٥٣١، ٦٢٨
- دراسة الاعلام - ٢٥٦
- الانثروبولوجيا الدلالية - ٢٥٦
- الفن - ٣٦٤، ٣٧٠، ٣٧١، ٤٦٩، ٤٧٢، ٤٩٤، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٥١
- الانسان الجنوبي القديم - ٢٨٤، ٤٦٤، ٤٢١، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٤٤، ٤٥٦، ٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٢
- ٧٤٩، ٦٦٥، ٦٦٠
- المعاطري - ٦٠١، ٦٤٤، ٦٦٢
- الدولة - ٧٥، ١٢٢، ١٦٢، ١٦٩، ٣٥١، ٣٦٩، ٧٥٣، ٧٥٧
- الكتابة - ١٠٣، ١٢٩، ١٧٧، ٢٥٨
- الاقتصاد - ٨٠
- اقتصاديات العيش - ٨٠
- اللغات - ٢٩، ٥١، ١٠٨، ١٥٥، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٧٠، ٢٨١، ٢٩٦، ٣٠١
- الاسنات (علم اللغات) - ٢٩، ٥٠، ٩٦، ١٥٥، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٧٠، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٥، ٢٩٥
- ٣٠١، ٣١٩، ٣٦٥
- السحر - ١٨١، ٦٨٨، ٨٥١
- المنهجية - ٢٠، ٥٥، ٨٩، ٩٢، ١٠٢، ٣٦١، ٣٦٨، ٤٦٧، ٤٧٢
- الموسيقى - ٢٩، ١٩٨، ٢٠٣
- ٣٦٤
- الحركة التاريخية - ٣٧٠، ٣٥١
- الأوهام - ٦٠، ٦٣، ١٦٧، ١٧٩، ١٩١، ٦٨١، ٦٨٨
- العصر الحجري الحديث - ٢٨٥
- ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٦٩، ٤٨٣، ٥٤٩، ٥٤٨، ٥٨٣، ٥٨٨، ٦٥٠، ٦٦٧، ٧١٨، ٧٣١، ٧٤٥، ٧٤٨
- أولدواي - ٤٣٢، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٧٨، ٤٨٣، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥٢٠، ٦٠٨، ٦٤٢
- الديانة - ٧٩، ١٢٠، ١٢٤، ١٦٢، ١٦٤، ١٧٩، ٢٥٨، ٦٨٩، ٧٥١
- الزبان - ٣٥، ٥٩، ٦١، ٦٥، ٦٨، ٩٨، ١٦٧
- النقل الشفوي - ٢٥، ٤٤، ٦٤، ٧٧، ٨٩، ٩٠، ٩٨، ١٣٦، ١٥٥
- ١٧٧، ٢٤٢، ٢٥٨
- العنصرية - ٤٧، ٥٢، ٧٤، ١٤١، ٢٥٣، ٢٧١
- ما قبل التاريخ الافريقي - ٩٠، ٢٤٥، ٤١٣، ٤٣٥، ٤٦٧، ٤٨١، ٥٠١، ٥٣٣، ٥٧٣، ٥٩١، ٦١٥، ٦٤١
- العصر الحجري القديم - ٤٦٥، ٤٨١، ٤٨٣، ٥٣٩، ٦٢٢، ٦٤٢
- العصر الحجري الوسيط - ٤٦٥، ٤٧٧، ٤٨١، ٤٨٩، ٥١٩، ٦٢٦
- العصر الحجري المتأخر - ٤٦٥، ٤٧٧، ٤٨١، ٤٩١، ٥٢٩، ٥٦٥، ٦١٧، ٦١٩، ٦٢٨، ٦٢٩
- تداخل العلوم (الاختصاصات) - ٢٣، ٢٦١، ٣٦٨، ٥٥٤

٤٧٧، ٥٠١، ٥١٩، ٥٣٧، ٥٥٣، ٥٨٣، ٥٩٥، ٦١٩، ٦٦٦، ٧٤٦ التدوين التاريخي الافريقي - ٤١، ٥٦، ٧١، ٧٦، ٨١، ٨٩، ١٢٩، ١٣٣، ١٣٨، ١٤٨ القايسي - ٤٤٦، ٤٩٤، ٤٩٨، ٥٧٣، ٥٨٣، ٥٨٥، ٥٨٨، ٦٠٧، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٥٧، ٥٣٠، ٥٣٦، ٥٥٥، ٦٠٥، ٦٥٠، ٦٨٥ المعهد البلستونسي - ٣٥٣، ٣٥٧، ٣٩٤، ٤٢٠، ٤٤٥، ٤٥١، ٤٥٨، ٤٨١، ٥٠٣، ٥١٢، ٥٥٨، ٦١٧، ٧٠٢	٤٥١ النساء - ٦٤، ١٦٤، ٥٨٨، ٦٢٤، ٦٨٦، ٧٥٥ علم الوراثة - ٢٧١، ٢٧٨، ٣٠١، الجغرافيا - ١٢٢، ١١٨، ١٢٢، ١٥٣، ١٦٦، ٣٢٢، ٣٢٨، ٣٤٥، ٥٣٣، ٥٥٧، ٥٩١، ٦١٧، ٦٨٩، الجيولوجيا - ٣٢٩، ٣٤٥، ٣٥٧، ٣٨٠، ٧٤٥ الشاعر القصاصي - ٩٨، ١٥٥، ١٦٤، ١٧٩، ١٨٣، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٥٨ تاريخ الاحداث - ٣٤، ١٤١، ١٦٨، ٣٦٢، ٣٧٣، ٣٨٧، ٤٠٣،	الذاكرة الافريقية - ٢٠١، ٢٠٦، انماط الانتاج - ٧٥٣ الاستعمارية - ٤١، ٤٧، ٤٩، ٥٢، ١٨٤، ٧٦، ٥٥ الاستعمار - ٥٥، ٥٥، ٧٥٥ الوحي الافريقي - ١٤٦ الوحي التاريخي - ٦٠ العصر الحجري المبكر - ٤٦٥، ٤٧٧، ٤٨١، ٤٨٣، ٥٣٩، ٦٢٢، ٦٤٣ تحديد التواريخ (او تحديد العمر) - ٩٠، ٢٢٦، ٢٤٥، ٤٢٥، ٤٤٢، ٤٧٧، ٥٠٢، ٥٢٥، ٦٦٦ التطور (التطورية) - ٢٧١، ٢٨٣،
---	--	--

المختصرات المستخدمة في قائمة المراجع

الانثبات العرقية - ١٠٥، ٢٤٧، ٢٨١، ٢٨٧، ٢٠٢، ٥٨٦ الفوريمني - ٤٤٦، ٤٧٨، ٤٩٠، ٥١٨ علم الانساب (السلالة) - ١٦١، ٢٠٠، ٢٥٥ التجلد - ٣٧٣، ٣٧٩، ٣٨٨ التأريخ المبني على تطور المفردات والصنغ - ٢٤٦ السكن - ٤٣٣، ٤٤٣، ٤٥٣، ٤٦٤، ٤٧١، ٤٩٢، ٤٩٦، ٥٠٧، ٥١٢، ٥١٤، ٥٢٨، ٥٣١، ٥٨٦، ٦٥٨، ٦٧٧، ٧٤٨ الهولوسين - ٣٧٣، ٣٩٤، ٤٤٨،	فئات الاعمار - ١٦٢، ١٦٨، ٦٧، طبقات الكائنات - ١٩١، ١٩٢ علم المناخ - ٣٧٣، ٣٩١ المناخات - ٣٢٣، ٣٧٣، ٣٨٧، ٤٠٣، ٥٠٢، ٥٢٠، ٥٣٥، ٥٨، ٥٩٢، ٦١٥، ٦١٩، ٦٩٩ التصحر - ٥٩١ الاقتصاد - ٧٩ النظام الايكولوجي - ٧٠٠، ٧١٤ علم الاثرثيات المصرية - ٩٤، ١١٧، ١٣١، ٢٨٤ بروز الانسان - ٧٤٣ الضفالة (الزواج اللحمي) - ١٩٦	زراعة النبات - ٧٠٢ الفن البومندي - ٦١٢، ٦٧٠، ٦٩٢ الفن البويالي - ٦٧٠، ٦٧٥، ٦٩٢ المهاد الزراعية - ٦٩٧، ٧٠٣، ٧٠٦ الجغرافيا الاحيائية - ٣٤١ الخزافة (الفخار) - ٤٩٥، ٤٩٨، ٥٦٩، ٦١٢، ٦٣١، ٦٣٩، ٦٥٩، ٦٧٤، ٧٤٧ رؤساء المقاطعات الرئيسية - ٦٤، ١٠٠، ١٣٧، ١٩٦، ١٩٩، ٤٤٢، ٧٥١، ٧٥٤
--	---	---

٦٧٧ - بتروليف	٧٣٩, ٧١٧, ٦٣٦	٥٥٨, ٥٣١, ٤٨١
بليوسيني - ٢٧٤, ٤٢٠, ٤٤٥, ٥٠١	المجارة الصغيرة - ٦٢٨, ٥٦٥	فصيلة البشرات - ٤١٧, ٤١٣
المطرقة - ٣٨٢, ٣٧٥, ٥٣٥	٦٨٤, ٦٣١	٤٢٥, ٤٤٥, ٤٦٢, ٥٠١, ٥٧٥
٦١٩, ٥٥٨, ٥٣٧	٢ - الهجرات - ٢٥٦, ٣٥١, ٢٨١	٧٤٤, ٦١٧
مجتمعات ما قبل الملوك - ٦٥٠	٦٨٩, ٦٣٣, ٦١٢, ٥٢٣, ٤٩٤	الانسان الهمجين - ٩٠
٧٣١, ٧٢٣, ٧٢٠	٧٤٩, ٧١٣, ٦٩٩	ظهور الانسان - ٤١٣, ٤٣٥
المقدمات البشرية - ٤١٦, ٤١٣	المويسيني - ٥٠٢, ٤٥٥, ٤٨٨	٧٤٤, ٤٢٨
٤٧٦	الموسيتري - ٦٤٣, ٥٧٨, ٤٤٨	الجنس الانساني - ٤١٤, ٤٣٣
العروق (النظريات المتعلقة	الاسمية - ١٥٦	٤٤٤, ٤٥٤, ٤٥٦, ٥٠٦
بالعروق) - ٣٦٧, ٢٨٥, ٢٧١	علم الاعلام - ٢٥٥	الانسان المستقيم - ٤٢٩, ٤٣٣
٧٤٩, ٦٩١, ٤٩٨	الصناعات العظمية السنية -	٤٥٩, ٤٨٨, ٥١١, ٥٦١, ٥٩٩
٥٠٢ - قردراما	٥٠٧, ٤٩٢, ٤٤٦, ٤٣٩, ٤٢٢	٦٢٤, ٦١٨
سنفوين - ٤٩١, ٤٧٨, ٤٤٦	الاصل الافريقي للبشرية -	الانسان الماهر - ٤٢٩, ٤٢٢
٦٤٤, ٦٢٥, ٥٦٣, ٥٤٢, ٥١٩	٤٩٨, ٤٧٧, ٤٥١, ٤٣٦, ٤٢٣	٤٤٤, ٤٦١, ٤٨٨, ٥٠٦, ٥٩٧
٧٤٦	٧٤٣	٧٤٤, ٦١٨
الجنسية - ٦٨٨	الادوات - ٣٧٦, ٣٤٩, ٣٤٧	الانسان العارف - ٩١, ٤٣٤
سيجي - ١٦٤	٤٥٥, ٤٣٨, ٤٣٦, ٤٣٥, ٤٣٢	٤٣٥, ٤٤٤, ٤٥٥, ٤٨٩, ٥٠٧
ستيلباين - ٥٤٧, ٤٧٩	٥١٦, ٥٠٧, ٤٧١, ٤٦٧, ٤٦٤	٥١١, ٥٦٤, ٧٤٧
طوبولوجيا - ٢٥٥	٥٤٩, ٥٣٦, ٥٣١, ٥٢٧, ٥١٨	الانسان العارف العارف - ٤٥٥
التقليديون - ٢٠٣, ١٨٣	٦١٢, ٥٩٧, ٥٨٤, ٥٧٥, ٥٦٥	٧٤٤, ٥٢٦
تراث باطني سري - ١٧٣	٧٤٥, ٦٦٠, ٦٤٢, ٦١٨	الثروات المائية - ٣٥٦, ٣٤٨
التراث اللحي - ١٦٢, ٢٦	المناخات القديمة - ٣٦٧, ٣٣٠	ايرومروسي - ٥٨٣, ٦٠٧
٢٥٨ - التراث المكتوب	٣٧٦	٥٣٩ - كافوني
٤٨, ٤٧, ٢٣ - تجارة العبيد	العصر الحجري الاول - ٤٨٣	٧٣١, ٦٥٠ - خرطومي
٧٥٥, ٣٥٨, ١٤١	٦٢٨, ٥٩٧, ٥٨٣, ٥٧٧, ٥٣٥	كينيايبينك - ٤١٧, ٤٥٨, ٧٤٢
٥٤٦, ٥٣٩, ٤٤٥ - التشتيتولي	الانتولوجية القديمة - ٩٠, ٤١٣	لويامي - ٤٤٨, ٤٩١, ٥٣٨
٥٦٦, ٥٦٣, ٥٤٧	٦٧٠, ٦١٧, ٥٧٤, ٥٠١, ٤٥١	٦٢٦, ٥٦٣, ٥٤٥
٥٣٠, ٤٩٤, ٤٧٩ - الولوتني	القرابات العرقية الثقافية - ٢٤٧	٣٦٤ - اقعة
٣٣٥ - المناطق المناخية	٢٧١	العصبات المرتبطة بالام - ١٠٠, ٧٥٥
٣٥٢ - علم الحيوان	منشأ الكلمة - ١٧٩, ١٨١, ٣٧٥	التصب الحجاجية - ٥٤٨, ٥٦٩
	الرعي - ٣٥٣, ٤٩٥	٦٣٩
	ثقافة الحصاد - ٤٣٣, ٤٣٩	المعادن - (انتشارها) -
	٥٩٧, ٥٧٤, ٥٢٩, ٤٤٨, ٤٤٥	

تمت طباعته في
الربع الأخير من عام ١٩٨٣
على مطابع كانالي
في تورينو (إيطاليا)

Achevé d'imprimer en Italie
par Tipolitografia G. Canale & C. S.p.A. - Turin

الابديع القانوني: الربع الأخير من ١٩٨٣
دار النشر: جون أفريك — ٣ شارع روكيبي — ٧٥٠٠٨ باريس
رقم الناشر: ١/١٣٦٤

لقد ظلت الأساطير والآراء المسبقة بمختلف صورها تخفي عن العالم لزمن طويل التاريخ الحقيقي لأفريقيا. فقد اعتبرت المجتمعات الأفريقية مجتمعات لا يمكن أن يكون لها تاريخ. وعلى الرغم من البحوث الهامة التي اضطلع بها منذ العقود الأولى من هذا القرن رواد مثل ليفروينوس، وموريس ديلافوس، وأرتور لابرولا، فإن عددا كبيرا من الأخصائيين غير الأفريقيين المنشئين بمسلمات معينة قد ظلوا ينحازون إلى القول بأن هذه المجتمعات لا يمكن أن تكون موضوعا للدراسة العلمية، مستندين في قوهم هذا بصفة خاصة إلى نقص المصادر الوثائق المكتوبة. وقد كان ذلك في الواقع رفضا للاعتراف بأن الأفريقي مبدع لثقافات أصيلة ازدهرت واستمرت تسلك عبر القرون مسالك خاصة بها، لا يستطيع المؤرخ أن يدركها إلا إذا تخلى عن بعض آرائه المسبقة، وألا إذا جدد منهجه.

وقد تطوّر الوضع كثيرا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد أن أخذت البلاد الأفريقية، وقد نالت استقلالها، تشارك مشاركة فعالة في حياة المجتمع الدولي وفي العلاقات المتبادلة التي هي أساس حياة هذا المجتمع، فتزايد حرص المؤرخين على دراسة أفريقيا بجزء من الدقة والموضوعية والفتح الذهني، وأخذوا يستعينون بالمصادر الأفريقية ذاتها.

ومن هنا كانت أهمية «التاريخ العام لأفريقيا»، الذي تبدأ اليونسكو إصداره في ثمانية مجلدات.

ولقد راعى الأخصائيون الذين جاءوا من بلاد عديدة وساهموا في المؤلف أن يرسوا أولا أسسه النظرية والمنهجية. ومن ثم حرصوا على أن يعيدوا النظر في التبسيطات المخلّة التي نتجت عن تصور خطي ضيق للتاريخ العالمي، وعلى أن يبرزوا من جديد حقيقة الأحداث التي وقعت كلما كان ذلك ضروريا وممكنا. وجدّوا في استخلاص المعطيات التاريخية التي تيسر تقصي تطور مختلف الشعوب الأفريقية بما لها من خصوصية اجتماعية ثقافية.

إن هذا التاريخ العام يلقى الضوء في نفس الوقت على وحدة تاريخ أفريقيا وعلى علاقاتها بالقارات الأخرى - وخاصة الأمر يكتن ومنطقة الكاريبي. فلقد دأب بعض المؤرخين لفترة طويلة على عزل مظاهر التعبير الإبداعي لدى أحفاد الأفريقيين في الأمر يكتن وتصنيفها تحت عبارة جامعة غريبة باسم الخصائص الأفريقية. أو «الأفريقيات». وغنى عن الذكر أن مؤلّي الكتاب الذي نحن بصدده لا يعتنقون هذه النظرة. فلقد رأوا الرأي الصائب في مقاومة الرقيب الذين رحلوا إلى أمريكا، وفي ظاهرة «النهجين» السياسي والثقافي، وفي اشتراك أحفاد الأفريقيين دوماً وعلى نطاق ضخم في كفاح حركة الاستقلال الأمر يكتن الأولى وفي حركات التحرر الوطنية، وأدركوا هذه الأمور على حقيقتها باعتبارها محاولات قوية لتأكيد الذاتية أسهمت في صياغة المفهوم الشامل للإنسانية.

كما يبرز هذا المؤلف على نحو واضح ما لأفريقيا من علاقات بمنحنيات آسيا عبر المحيط الهندي، وما قدمته من مساهمات أفريقية لغيرها من الحضارات عن طريق العلاقات المتبادلة.

إن لهذا الكتاب مزية كبرى، هي أنه يطلعنا على آخر تطورات معارفنا عن أفريقيا ويعرض الثقافات الأفريقية من وجهات نظر شتى، ويقدم رؤيا جديدة للتاريخ، فيبرز لنا بذلك مناطق النور والظل دون أن يخفي اختلاف الآراء بين العلماء.